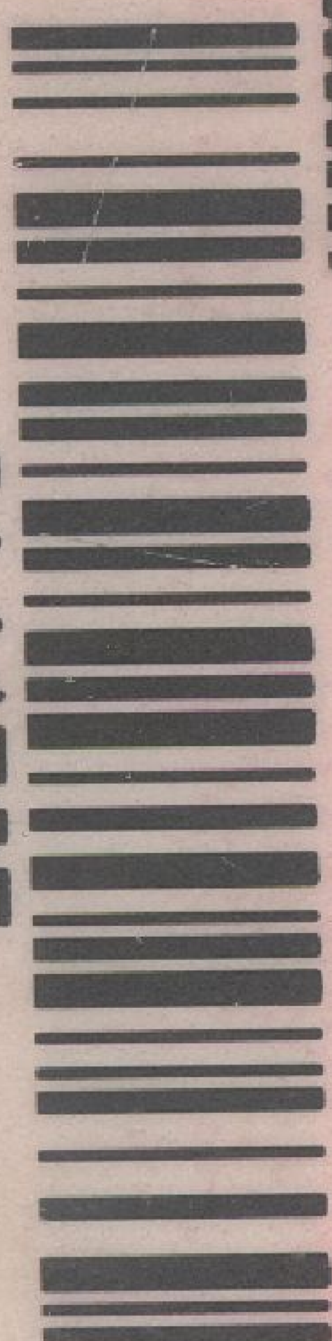





قرشا



حلمي مراد

حسناء من اندونيسيا

للفنان الاندونيسي "بازوكي عبدالله"

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمي مراد

الكتاب الواحد والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها واحد وتسعون كتابا، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر.

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اربعة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

محتويات الكتاب

القصة التى حكم ببراءتها ..

بعد مصادرة استمرت ٣٣ عاما !

«لو كانت لى ابنة فى سن الزواج ، لما تركتها تعقد خطبتها ـ ما استطعت ـ حتى تقرأ هذا الكتاب .. ان قصة « ليدى تشاترلى » ينبغى أن توضع فوق أرفف كل مدرسة للبنات المراهقات .. ويجب أن تجبر الفتيات على قراءتها ، والا حرمن من الحصول على ترخيص بالزواج ! »

« برنارد شو »

عزيزى القارىء ..

قد يدهشك أن تقرأ هذا الرأى ، للكاتب الايرلندى الذى كان « **لورنس** » يمقته ويهاجمه فى كل مناسبة .. ومع ذلك لم يمنعه هذا العداء الشخصى من أن ينصف الرواية التى رآها جديرة بالانصاف !

بل قد يدهشك ان يصدر هذا الرأى من « **برنارد شو** » ، وهو الذى بلغ من تزمته فى شأن ما يمس الاخلاق انه أحرق نسخة كان قد اهداه اياها الكاتب « **فرانك هاريس** » من كتابه المشهور « حياتى ، وغرامياتى » ، خشية أن تقع فى يد خادمة بيته !

واذا أردت مزيدا من المفارقات التى تظهر مدى تغير احكام المجتمع والرأى العام على الاعمال الأدبية والفنية بين جيل وجيل ، وبلد وبلد .. فاليك طائفة من الامثلة التى قد تبدو لك اليوم بعيدة عن التصديق ، وان كانت جميعا « حقائق » تاريخية ثابتة :

فرواية **شكسبير** الخالدة « هاملت » ، كانت فى عصر « كروموبل » تصدم مشاعر طائفة « البيوريتان » المتزمتة المعروفة !

وكان **تولستوى** فى فترة من حياته يصرح بأنه لو ملك السلطان ، لأحرق أو صادر أكثر مسرحيات شكسبير !

وتولستوى نفسه ، كانت بعض كتبه ـ وفى مقدمتها تحفته الخالدة « انا كارنينا » ـ موضع الاضطهاد والمطاردة فى وقت من الاوقات !

و ((**فلوبير**)) ، ألم يقدم الى المحاكمة فى فرنسا بسبب قصته التى يمجدها العالم اليوم : « مدام بوفارى » ؟

.. بل **وبلزاك** ! .. ألم يقف السناتور الامريكى « ربد سموت » فى مجلس شيوخ بلده (الكونجرس) فى مارس عام ١٩٣٠ ليندد باباحية « بلزاك » ويطالب بفرض الرقابة على مؤلفاته ؟

ومسرحيات اديب الاغريق الفذ ((**اريستوفان**)) ـ (مؤلف: الضفادع ، والطيور ، والحشرات ، والسحب ، والسلام ، والفرسان ، وليسستراتا .. الخ) ـ الا تصدم مشاعربعض ذوى الأفق المحدود ، حتى يومنا هذا ؟

وقصة (جين اير) ـ التى تدرس اليوم للمراهقين والمراهقات فى المدارس ـ ألم يقل فيها « د. هـ. لورنس » نفسه فى مقاله المشهور الذى جعل عنوانه « الادب المكشوف وأدب الفحش والبذاءة » .. ما يلى بالحرف الواحد : « وان كنت أعترف بأن ((**شارلوت برونتى**)) لم تتعمد اثارة المشاعر الجنسية فى القارىء ، فانى أجد قصتها (جين اير) تنحو منحى الأدب المكشوف ، أكثر مما ينحو ((**بوكاشيو**)) فى أقاصيصه .. فقد كانت شارلوت برونتى فى حالة انهارت فيها أقوى الغرائز ، فبات الجنس عندها شيئا بذيئا ، محتقرا .. ولا تغدو العاطفة الجنسية عند بطل القصة

« مستر روشستر » عاطفة « محترمة » الا بعد ان يحترق الرجل ، ويصاب بالعمى ، والتشويه ، ويصبح عاجزا ، بلا حول ولا طول . عندئذ فقط ، بعد كل هذه المهانة والمذلة ، تصبح عاطفته الجنسية شيئا معترفا به ! »

و ((**ابسن**)) ـ خالق المسرح الحديث غير منازع ـ لم يسلم بدوره من تهمة الفحش والابتذال ، فتعرض انتاجه الخالد لحملات غير قليلة من هذا النوع ..

و ((**زولا**)) ، زعيم مدرسة الأدب « الطبيعى » ـ التى سبقت مدرسة الادب « النفسى » الحديث ـ ألم تعتبره انجلترا رمزا للادب المكشوف ، وتحكم على ناشر كتبه بالسجن والغرامة ؟

وملحمة ((**جيمس جويس**)) المعاصرة المشهورة ((أوليسيس)) ـ أو ((عولس)) ، نسبة الى بطل « أوديسة » هوميروس ـ .. ألم يلاحقها الاضطهاد اعواما ، بل ويصفها « د . ه . لورنس » نفسه بأنها « كتاب غير نظيف » ، من فرط ماتتمرغ بطلته « موللى بلوم » وسنانة فى فراشها ، وهى تجهد وعيها بحثا عن أطول عبارات الابتذال التى عرفتها اللغة الانجليزية .. الى أن ادركتها رحمة القضاء الانجليزى على يد القاضى « وولسى » فى عام ١٩٣٣ ، فأفرج عنها وبرأ ساحتها ، استنادا الى أنها « عمل فنى ، يعكس الحياة .. ولما كانت الحياة تتصف بالخسة أحيانا ، فمن الطبيعى ان يكون العمل الفنى الذى يمثلها ، على صورتها . »

هل كان للسياسة دخل فى اضطهاد لورنس ؟

.. **ويطول** بنا المقام لو مضينا فى تعداد أمثلة هذه المفارقات ، التى كان آخرها افراج القضاء الانجليزى منذ أسابيع عن النص الأصلى « غير المهذب » لقصة (عشيق الليدى تشاترلى) ، بعد أن شهد لصالحها أكبر رجال الأدب والدين ،

وبعد ان ظلت ممنوعة من التداول بنصها الاصلى نحو ثلث قرن .. وبذلك دخلت هذه القصة ومؤلفها ـ من الباب الضيق ـ الى رواق الخلود والخالدين !

ولست أريد هنا ان أحدثك عن قصة هذه « المحاكمة » الاخيرة للقصة ـ التى انتهت بتبرئتها والافراج عنها ـ فهذه قصة أفاضت الصحف والبرقيات فى سرد تفصيلاتها يوما بعد يوم ، واحسبها ماتزال ماثلة فى ذاكرتك من طول الاعادة والترديد ..

.. وانما أود اليوم أن أزيح لك الستار عن الفصول الاولى ـ التى دخلت التاريخ ـ من هذا الصراع الطويل المرير الذى نشب بين الاديب التعس « د. ه. لورنس » وبين أعداء أدبه ومضطهديه من الرقباء .. **وهو الصراع الذى عجل بموته** فى الوقت الذى كان فيه أحوج ما يكون الى راحة النفس والبال كى يقاوم عدوه الداخلى ـ السل ـ الذى انشب أظافره فى رئتيه .. وقد أشار لورنس الى مأساته هذه فى حديث له مع « ايرل بروستر » فى لقائهما بجنوب فرنسا قبيل وفاة الاديب بأسابيع ، حين نقر على صدره **« ان الكراهية التى أثارتها كتبى صدى ترتد الى ، وتنشب مخالبها هنا ! »**

.. وسترى ان اضطهاد الرقباء للورنس لم يكن لوجه الأدب والاخلاق وحدهما ، وانما شابته شائبة من النزعات السياسية الاستعمارية ، **فقد كان لتنديده ـ فى احدى رواياته التى حوربت ـ بالروح الاستعمارية البريطانية فى حرب (البوير)** ، التى اشتعلت فى جنوب افريقيا بين أهل القارة وبين مستعمريهم الانجليز فى مطلع هذا القرن .. **دور ايجابى مستتر** اعترف به المعلق الانجليزى « هارى مور » فى كتاب حديث له ، كما سيجىء !

على ان ذلك لاينفى ان مفتاح اية دراسة لأدب «لورنس» ،

هو الاعتــراف بادىء ذى بــدء بأنه كان على الدوام رائدا « جريئا » لموضوع « الجنس » ، داعية الى معــالجته فى الأدب والقصــة بصراحة علمية ونفسية لم تــكن مألوفة فى عصره ، قبل شيوع نظريات « فرويد » ..

ذكريات صباه ، تلقى ضوءا على شخصيته

وقد ظهرتبوادر هذه الجرأة والصراحة عند لورنس قبل ان يكتب بواكير انتــاجه الأدبى ، **اذ تروى رفيقــة صــباه ويفاعته « جيسى تشيمبرز »** ــ وهى التى رسم على صورتها شخصية « ميريام » فى قصته المعروفة (أبناء وعشاق) ــ انهما عندما كانا يقرآن معا مسرحيــات « ابسن » بصــوت مسموع ، كانت تخجل من ان تنطق بعبــارة « يتخــذ له خليلات » الواردة فى المسرحية ، فكان لورنس يعنفها ويلومها من أجل هذا « الفرار من الواقع » !

كما روت « أشسا برويستر » ــ صديقته فى مرحلة تالية من حياته ــ فى مذكراتها عنه ، أن احد معلميه فى المدرســة وبخه ذات مرة لاستعمــاله لفظ « الحصــان الطلوقة » فى موضوع دراسى كتبه فى الفصل . وحين روى لورنس هذه الحكاية لمستر برويستر وزوجته ــ والدى صديقته ــ بعد حدوثها بسنوات ، نكس راسه كأنما خجلا من أجل الجمهور « الذى لا يستطيع مواجهة الحياة ! »

وقد كان لورنس فى شبابه خاضــعا لسلطان أمه ، التى كانت معلمة تنتمى الى طائفة (البيوريتان) المتزمتين ، ولم يكن تزمتها مقصورا على رفضها تعلم اللهجة العامية لاقليم (ميدلاندز) التى يتحدث بها زوجها وأصدقاء أطفالها ــ وقد كان زوجها من بيئة عمال مناجم الفحم ! ــ وانما جاوز ذلك الى منعها أولادها من التحدث بتلك اللهجة السوقية فى البيت!

وكان من الطبيعى ان تتطلب مثل هــذه الأم فى القصص

التي يؤلفها ابنها ان تكون ذات نزعة « طهرية » .. وفي هذا الصدد تروى « جيسي تشيمبرز » في مذكراتها ان لورنس حين جعل بطل روايته الاولى **« الطاووس الابيض »** يغرر بالبطلة ويعتدى عليها ، واطلعت أمه على المسودة الاولى للقصة ، شكت الى « جيسي » معربة عن ألمها لتصرف ابنها ، بقولها : **«تصورى ان « ابني » انا يكتب مثل هذه الرواية ! »** .. ثم مرضت الأم واشتد عليها المرض فلم تقرأ «البروفة» الاخيرة للقصة ، وماتت قبيل صدور الكتاب في يناير عام ١٩١١ بنحو شهر واحد !

ومما يذكر في صدد نشر هذا الكتاب ، ان لورنس حين فرغ منه ، دفع به الى الناشر المعروف « وليم هاينمان » الذى كان قد « اجترأ » قبل ذلك على نشر كتب « تولستوى » و « ابسن » — وكانا يعتبران يومئذ من المؤلفين الذين تصدم كتبهما مشاعر الجمهور الانجليزى ! — فلما أوشكت مرحلة طبع (الطاووس الابيض) أن تتم ، أعاد الناشر الى لورنس صفحة ٢٣٠ من المخطوط ، طالبا اليه أن يحذف منها فقرة « قد تصادف اعتراضا من البعض » ، ويكتب بدلا منها عددا مماثلا من « الكلمات التى لا تحتمل اعتراضا من أحد » !

وكانت تلك اولى المصادمات بين نزعة لورنس المتحررة وبين تقاليد مجتمعه المتزمتة . وقد استجاب في تلك المرة لرغبة الناشرين ، لكنه ازداد تشددا معهم في المستقبل ، وقل استعداده للمساومة ، كما سنرى !

على ان مؤلفات لورنس الاولى — سواء في ذلك قصصه أو دواوينه الشعرية — استقبلت بوجه عام بالمديح والثناء من جانب كبريات الصحف البريطانية والامريكية .. أما النقاد فكان موقفهم مغايرا ، اذ توالت تعليقاتهم التى وردت فيها هذه العبارات والنعوت للورنس : « صريح أكثر من المناسب »

.. « ينحــو منحى زولا » .. « منحل » .. « ينزع الى الادب الجنسى » .. الخ .

الناشرون يتحكمون فى انتاجه !

وكانت نتيجة هذه الحملات ان خشى الناشرون من نشر انتاج لورنس كما هو ، بدون تعديل ، فكانوا اذا رفض اجراء التعديلات التى يطلبونها ، يعمدون هم أحيانا الى تعديل أو حذف العبارات التى لا تروق لهم . بل لقد تجــاوز الأمر هذا النطاق حين قدم لورنس روايتــه المعروفة **(ابنـــاء وعشاق)** الى ناشره « وليم هاينمان » ، فقد رفضها بأكملها .. بحجة انها « كتاب غير نظيف » !

لكن ناشرا آخر ، هو « دكورث » ، نشر (ابناء وعشاق) فى عام ١٩١٣ . وامتدحها أكثر النقاد ، ولو ان بعضهم انضم الى النــاقد المجهول لصحيفة (نيشـن) اللنــدنية ، الذى أعرب عن نفوره من بطل القصة !

وكانت قصة لورنس التــالية ــ **(قوس قزح)** ــ أتعس من هذه حظا ، فقد رفضــها الناشر « دكورث » **لأنهـــا لم** تعجب محــررا فى داره يدعى « ادوارد جارنيت » ! وكان جارنيت صديقا للورنس ، وقد اقترح عليه ان يعيد كتابتها بطريقة معينة ، لكن لورنس أبى ذلك .. وأخيرا قبلت دار ثالثة للنشر ، أكبر من تلك ــ هى دار « ميثيوين » ــ أن تنشر الرواية الحائرة !

وكانت (قوس قزح) ، كما وصــفها النــاقد المنصف ريتشارد الدينجتون : « ثمرة صبر طويل ، وكتابة ــ واعادة كتابة مركزتين .. وما من كاتب يبغى مجرد كتابة قصة « مكشوفة » يقبل بذل كل هذا الوقت والمجهود ! »

على ان القصة لم تكد تصدر ــ فى ٣٠ سبتمبر عام ١٩١٥ ــ حتى انطلق النقاد يتصايحون : « انها أسوأ من قصص زولا ! »

.. « أنها بذيئة » .. « فاجرة » .. « القذارة فيها تطغى على الفن » .. الخ

وانتهت هذه الحملة بأمر صدر فى ٣ نوفمبر الى المفتش « البرت دريبر » من (سكتلنديارد) **بمصادرة الكتاب** لدى الناشرين ، فصادر نحو الف نسخة وجدها لديهم ! .. لكن هؤلاء رحموا أعصاب لورنس فلم يخطروه بالملابسات والمتاعب التى تعرضوا لها . وفى ١٣ نوفمبر عرض النزاع على محكمة (باو ستريت) ، وكان دفاع الناشرين انهم اعادوا المخطوط الى المؤلف مرتين لمراجعته وتعديله ، فقام بالمهمة ، ثم « رفض أن يفعل شيئا آخر ! »

وبعد ان أعرب الناشرون عن أسفهم وقدموا الاعتذار الكافى ، أصدر القاضى حكمه باعدام النسخ المضبوطة فى غضون سبعة أيام ، والزامهم بالمصاريف وقدرها عشرة جنيهات . وهكذا ألفى لورنس نفسه ((**كاتبا فقيرا سوف يظل الناشرون زمنا طويلا يتجنبون التعامل معه وينفرون منه !**)) . . فضلا عن المتاعب التى لحقته بسبب زواجه من « امرأة دخيلة ، من الاعداء » ، اذ كانت زوجته من أصل ألمانى ، فى وقت كانت فيه انجلترا مشتبكة فى حرب مع ألمانيا !

على ان مصادرة ذلك الكتاب كان وراءها سبب مستتر ، أهم بكثير من تهمة « الادب المكشوف » ، فقد ردد الاديب « ماى سينكلر » فى مجالسه ـ وكان أحد القلائل الذين دافعوا عن كتاب (قوس قزح) فى ذلك الحين ـ ان سبب المصادرة كان « سياسيا » ! .. كما يقرر الباحث « هارى مور » نقلا عن « ريتشارد الدينجتون » ان **الدافع الحقيقى لمصادرة القصة هو انها تنطوى على نقد لاذع لوجهة النظر الاستعمارية فى حرب (البوير) ، الأمر الذى أدى الى اعاقة حركة تجنيد المواطنين للقتال فى تلك البلاد، فتراخت بصورة ملحوظة !**

.. وقد تسربت تلك الهمسات والاقاويل المكتومة الى الرأى العام العالمى . حين نشرت احدى صحف نيويورك فى عام ١٩٢٠ مقالا بقلم « جلبرت كانان » صرح فيه بأن « هستيريا الحرب » هى المسئولة عن مصادرة (قوس قزح) !

على ان الضجة التى أثارها الكتاب لم تنته بمصادرته ، فقد وعدت « جمعية المؤلفين » بأن تتبنى قضية (قوس قزح) وتكافح لكسبها .. فى الوقت الذى اقترح فيه بعض أصدقاء لورنس عليه أن يرفع الأمر للقضاء العالى . لكنه كان مجردا من السطوة والنفوذ ، فلم يأخذ بالنصيحة .. على ان صديقا له ـ هو « فيليب موريل » ، عضو البرلمان البريطانى ، وعضو حزب الاحرار ـ **تقدم الى مجلس العموم فى جلسة ١٨ نوفمبر بسؤال فى صدد مصادرة الكتاب .** ختمه بالتساؤل عما اذا كانت قد اتيحت للمؤلف فرصة ممارسة حقه الشرعى فى دفع التهمة عن نفسه ؟ !

وبعد مناقشات « بيزنطية » استمرت طوال تلك الجلسة وامتدت الى جلسة أول ديسمبر ، اقفل باب المناقشة فى الموضوع ، دون الوصول الى نتيجة ايجابية !.. وبعد يومين ، صرح لورنس لليدى موريل ـ زوجة صديقه عضو البرلمان ـ بأن محاميا كبيرا نصحه برفع دعوى جنحة مباشرة ضد اثنين من النقاد الذين هاجموه ، لكنه عقب على هذه النصيحة بقوله : « ان روحى المعنوية لن تصمد للصراع ، فلقد ضقت ذرعا بهم ، ولن ابذل المزيد من نفسى : حتى من أجل الانتصار عليهم ! »

سنوات الفقر .. والمذلة

وكان يأمل ان يفر من هذه المحنة الى أمريكا ، لكن المطاف انتهى به الى الاقامة فى اقليم (كورنوال) ، حيث عاش سنتين فى فقر مدقع ، ومذلة ، فضلا عن استهدافه للتجسس

عليه ، ولكافة صنوف الآلام التي تكاثرت عليه .. وفي تلك الاثناء صدرت في أمريكا طبعة مهذبة من (قوس قزح) ، عام ١٩١٦ .. ولكن فيما عدا ذلك لم يقدم ناشر على اصدار اية قصة للورنس حتى عام ١٩٢٠ ، وان أصدر أحدهم له كتابا « بريتا » في الرحلات ، وديوانا من الشعر ، بعد ان حذف منه ما رأى حذفه ! .. وفيما عدا مجلة « انجليش ريفيو » ، فقد تجاهلته اكثر المجلات وأعرضت عنه !

وزادت من حدة الحملة عليه معارضته لفكرة الحرب ، واعتباره اياها مجهودا عقيما وتضحية لا جدوى منها ، في الوقت الذي كانت فيه انجلترا مشتبكة في الحرب العالمية الطاحنة .. ولم يشفع له ان ابن عم زوجته المدعو « مانفريد فون ريشتوفن » كان أعظم أبطال المعارك الجوية في تلك الايام ، في الجانب الألماني بالطبع .. بل لعل ذلك ضاعف موجة الكراهية له ، وأثار شكوك المسئولين في وطنيته !

وأخيرا ، في أكتوبر ١٩١٧ ، أمرت السلطات بنقل لورنس وزوجته من منطقة الساحل ، وألزمتهم بأن يتقدموا الى ادارة الشرطة في لندن بانتظام كل فترة معينة .. **كما تزايدت حركة التجسس عليه ومضايقته** .. الى ان وجد مخرجا من هذا العذاب بالانتقال الى مسقط رأسه في اقليم (ميدلاندز) ، حيث قضى المدة الباقية حتى انتهاء الحرب ، فقيرا ، محروما من كل فرصة لنشر انتاجه الادبي .

.. فلما استطاع مغادرة انجلترا ، بعد توقيع الهدنة العالمية بنحو عام ، فعل ذلك غير آسف ، **وكان ذلك آخر** عهده بالاقامة المستقرة في وطنه .. ولو انه ادخر **المزيد من** المساجلات وجولات الصراع مع الرقباء الانجليز للأعوام التالية !

على ان جولته التالية كانت مع السلطات الامريكية لا الانجليزية .. فقد ابتاع منه ناشر جديد يدعى « توماس

سلتزر » قصته الجديدة ((نساء عاشقات)) ، كى ينشرها فى طبعة محدودة للمشتركين فيها فحسب ، فى نوفمبر ١٩٢٠ ، بعد ان ظلت القصة حائرة تبحث عن ناشر طيلةاربع سنوات !..ثم أصدر الناشر طبعةعادية منها فىعام ١٩٢٢ .

القارئة التى جلبت عليه الكوارث !

لكن المتاعب بدأت ذات مساء حين عاد « جون فورد » قاضى المحكمة العليا بنيويورك الى داره فوجد ابنته تقرأ (نساء عاشقات) . واذ ذاك ثارت ثائرته فحرض جماعة « الكتب النظيفة » وجماعة « مكافحة الرذيلة » على محاربة الكتاب . لكن حملتهم فشلت ، فربح الناشر المعركة ، بل وطالب بتعويض قدره عشرة آلاف جنيه استرلينى ! .. وكان عدد من أطباء نيويورك قد أدلوا بشهادتهم لصالح الكتاب ، فأصدر القاضى حكمه الذى ورد فيه « ان لورنس يحاول جادا اكتشاف القوة الدافعة للحياة . »

وبمضى الايام وتباعد ذكرى الحرب واجراءاتها الاستثنائية، خفت القيود وازداد التسامح والحرية ، فكلفت جامعة اكسفورد «لورنس» ــ فى مارس عام ١٩٢١ ــ بأن يؤلف لها كتابا دراسيا عن **((اتجاهات التاريخ الاوربى))** ، وان حرصت على اغفال اسم لورنس كمؤلف للكتاب، وابداله باسم مستعار !

ثم رحب الناشر الانجليزى «سيكر » بنشر قصة لورنس الخامسة **((الفتاة المفقودة))** ، بعد حذف بضع فقرات منها ، فكان ان فازت بجائزة جامعة (ادنبرة) لأحسن قصة فى العام ! .. واذ ذاك تشجع الناشر فأصدر (نساء عاشقات) فى لندن ، فى مايو ١٩٢١ .

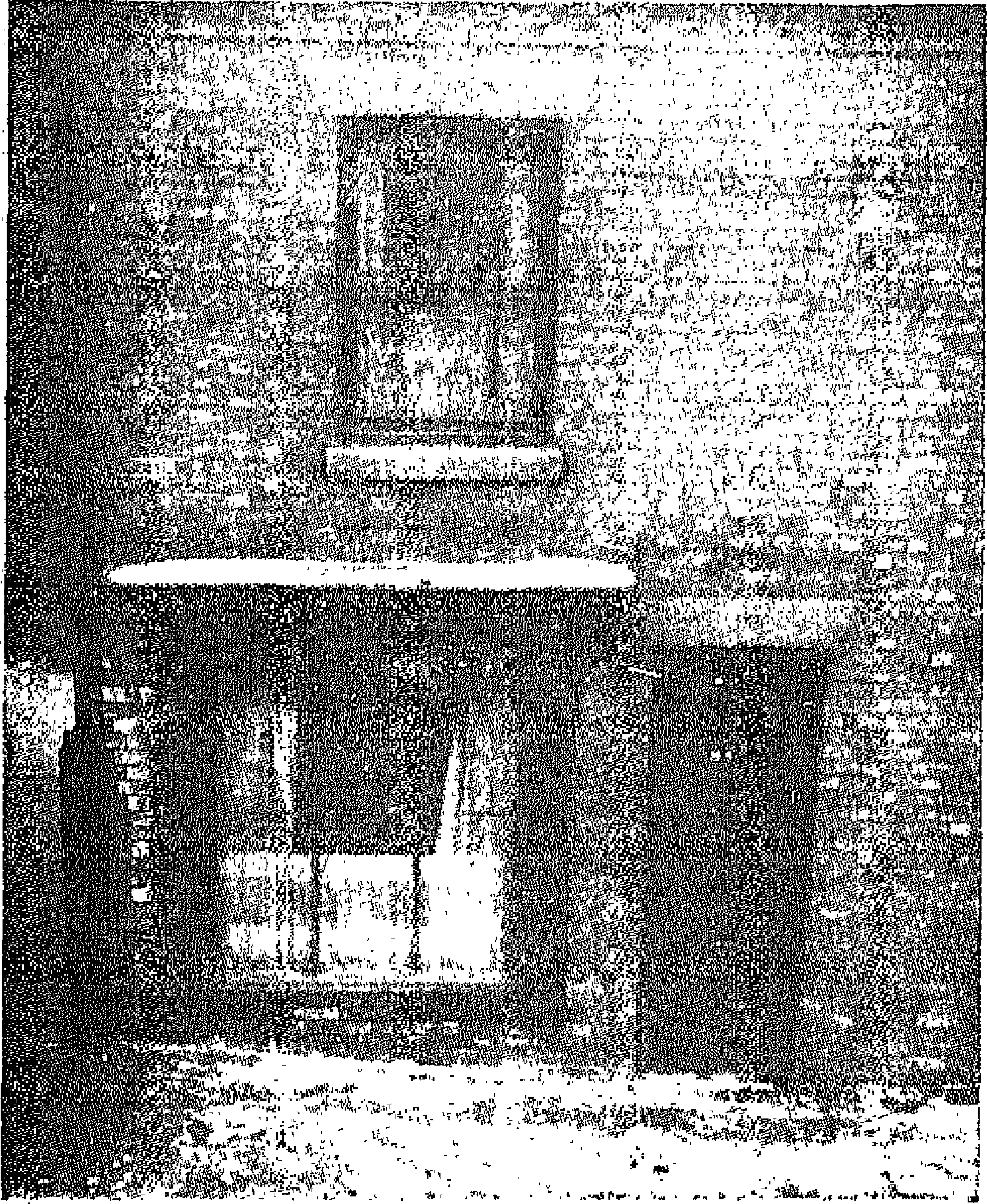
وعندئذ قامت قيامة الصحف الانجليزية ! .. وكانت أعلى الصيحات تلك التى اطلقتها صحيفة (جون بول) الواسعة الانتشار ، اذ صدرت وفى رأس صفحتها الاولى

هذا العنوان : ((**كتاب يجب ان تصادره السلطات .. دراسة بغيضة للانحلال الجنسى ، تقود الشباب الى هاوية ليس لها قرار !))**

ولكن لم تمض أسابيع ، حتى تورط صاحب الصحيفة فى شر أعماله ، اذ قدم للمحاكمة بتهمة القذف والتغرير بالرأى العام ، ولم يفلح فى تحريضه على مصادرة الكتاب .. ورغم ان صحفا أخرى ، أكثر وقارا ، واصلت الحملة ضد (نساء عاشقات) ، فان أحدا لم يصادر القصة .. ولو أن متاعب أخرى لم تلبث أن تشعبت عنها ، حين هدد احد البارزين فى المجتمع الانجليزى يومئذ برفع دعوى ضد الناشر ، بسبب احتواء القصة على شخصية فيها تعريض ((كاريكاتورى)) بشخصه ، فاضطر ((لورنس)) الى تغيير ملامح تلك الشخصية فى الطبعة التالية للقصة !

وفى تلك الاثناء كان القضاء قد بدأ يخفف قبضته على الكتب التى يرفع أمرها اليه بغية مصادرتها .. وهكذا ربحت المعركة كتب مختلفة ، بعضها تافه رخيص مثل ((جورجين)) و ((بئر الوحدة)) ــ والأخير قصة وصفت فيها مؤلفتها ((رادكليف هول)) عشق امرأة لامرأة ! ــ ثم توجت هذه النزعة الى حماية حرية الرأى باطلاق سراح قصة ((جيمس جويس)) المشهورة (أوليسيس) فى عام ١٩٣٣ كما أسلفنا .

لكن لورنس ظل رغم الضجة التى كانت تثيرها كتبه ، أديبا من أدباء الخاصة أو الاقلية ، لا يتمتع بشعبية بين القراء ولا يظفر بمديح يذكر من جانب النقاد والمعلقين .. وكان ايراده من انتاجه الادبى قد ارتفع الى نحو الف جنيه انجليزى فى العام ، وهو مبلغ كان لا بأس به فى تلك الايام ، سيما بالنسبة لرجل معتدل ومقتصد فى نفقاته . **ولكن لورنس كان مثقلا بأعباء تنقلاته المستمرة ورحلاته فى انحاء**



واجهة البيت الذى ولد فيه «لورنس» (فى شارع فيكتوريا بمدينة ايستوود ، باقليم نوتنجهامشاير) يوم ١١ سبتمبر ١٨٨٥ ، حيث كان أبوه يعمل فى منجم للفحم الحجرى . وحين بلغ العاشرة انتقلت الاسرة الى منطقة (الشرخ) التى أشار اليها فى قصته (أبناء وعشاق) ، وقد وصفتها شقيقته «ادا» بقولها : « كان بيتنا فى نهاية صف من بيوت يملكها أصحاب المنجم .. وكانت تحيط به ، من ثلاث جهات ، حديقة عامرة بشجيرات الزبيب البناتى والورد الابيض .. »



حديقة قصر (جارسنجتون) الذى وضعته «الليدى موريل» تحت تصرف «لورنس» كى يقضى فيه بضعة أسابيع .. وقد كتب اليهـا رسالة شكر ، جاء فيها : « انه مثل قصر أبطال «بوكاشيو» الذى رويت فيه قصص (ديكاميرون) .. ذلك المرج العجيب المليء بالاشجار ، تتوسطه الدار القديمة ذات الواجهة العريقة الجميلة . انها من القدم بحيث تبدو بمثابة عالم صغير مستقل بذاته تماما ، يستطيع المرء فيه أن يفر من الاشياء الدنيوية التافهة ، كى يهتم بالامور الهامة .. »

الفارة ، بحثا عن الصحة وسكينة النفس .. وخلال تلك الرحلات اتيحت له الفرص لملاحظة السلوك البشرى فى شتى مظاهره الجوهرية ، فلم يعجبه الكثيرمما رأى وسمع ، ولو أن قدرا كبيرا من انتقاداته للحياة فى عصره انما كان ثمرة تجاربه ومشاهداته الباكرة ، فى المراحل الاولى من حياته . كان قد رأى فىطفولته كيف تجنى على بعض الافراد روح التجنيد الجماعى التى تلازم التصنيع .. وبحكم نشأته بين بقايا غابة (شروود) ، رأى دخان مناجم الفحم الحجرى يلطخ جمال الطبيعة التى كانت من قبل فاتنة .. كما لمس كيف تغزو آلية الحياة عواطف البشر ، وتقتلها ، ولا سيما عاطفة الحب ..

على أن لورنس لم يقنع بالملاحظة السلبية ، وانما بحث عن العلاج لمشكلات المدنية ، فدرس الفلسفات الاجتماعية المتنافسة ــ كالفاشية والشيوعية ــ وانتهى بعد نقدها نقدا عميقا ، الى نبذها

.. على ان لورنس لم يلبث ان سئم محاولات قيادة الرأى العام فى المجال السياسى ، ووضع النظريات لاقامة دولة مثالية فاضلة (يوتوبيا)..واكتشف فى النهاية حاجةالبشرية الى التعاون والمحبة ، أو على حد تعبيره فى عنوان بحثكتبه فى تلك الآونة : ((**اننا فى حاجة الى بعضنا البعض)) . نعم ، كان الحب هو جواب الحيرة والتساؤل اللذين عانى منهماطويلا** .. « الحب العاطفى المنطلق ، لا الحب الذى تسيطر عليه الارادة ويلجمه العقل ــ والذى هو ثمرة حضارة كسيحة ــ وانما حب يحرق الخجل وجميع العوائق الاخرى التى تعترضه .. »

وكانت مقالات لورنس و « فلسفته » تجىء دائما فىمرحلة لاحقة للتعبير عن آرائه بالقصص والاشعار « .. ذلك ان الروايات والقصائد تنساب فى أول الأمر من قلم الكاتب غير

ملحوظة . . ثم يبدأ بعدها احساسه بالحاجة الى اتخاذ مسلك عقلى معين نحو نفسه ونحو الأشياء عموما ؛ ومن ثم يحاول أن يستخلص بضعة نتائج محددة من خبرته وتجاربه ككاتب وكانسان . »

وهكذا انسابت قصته (عشيق الليدى تشاترلى) من قلمه • غير ملحوظة . . أو على حد تعبيره فى مقال له عنها : « عندما خلقت شخصيتى بطلى القصة ـ « كليفورد » ، و « كونى » ـ لم تكن فى ذهنى فكرة محددة عنهما وعن أسباب وجودهما ، وانما انساق بهما قلمى دون تكلف أو صناعة » . . أما الشخصية الثالثة فى القصة ـ وهى شخصية العشيق ـ فقد غير فيها لورنس وبدل : خلال الطبعات الثلاث القصة ، التى كتبها من أواخر عام ١٩٢٦ حتى أوائل عام ١٩٢٨ . . **بل ان التغيير تناول اسم العشيق ذاته ، فبعد ان أطلق عليه فى الطبعة الأولى اسم « باركين » ، غير الاسم بعد ذلك فجعله « ميلورز » !** . . وبعد أن كان « باركين » فى القصة الاولى أقرب الى الشخصية « الاجتماعية » ، صار الحافز الاجتماعى عند « ميلورز » فى القصة الثالثة ضمنيا اكثر منه صريحا مباشرا ، وبالتالى ازداد عنصر الحب رسوخا فى شخصيته .

ايطاليا ملاذ الأدباء المضطهدين !

وقد أدرك «لورنس» منذ البداية ان هذا الكتاب سيجلب عليه المتاعب من جانب سلطات الرقابة . . بل ان ناشريه أنفسهم رفضوا مجرد التفاوض معه فى امر نشر الكتاب ، فلم يجد مفرا آخر الأمر من ان يتولى مهمة النشر بنفسه ، بمعاونة « كتبى » ايطالى فى (فلورنسا) يدعى « جيزيبى أوريولى » ـ (كما وجد « باسترناك » فى الاعوام الاخيرة لدى الناشر الايطالى « فيلترينيللى » العون الوحيد على

نشر قصته الكبرى ؛ دكتور جيفاجو) ، قبل أن تذيع صيتها ضجة فوزه بجائزة نوبل !)

وقد طبع « اوريولى » الكتاب فى مطبعة صغيرة ، وكان عامل جمع الحروف الذى تولى صف حروفها يجهل الانجليزية ، فوقع فى أخطاء مطبعية كثيرة مضحكة . وكان لورنس قد حذر الناشر من موضوع القصة وصارحه بمضمونها ، لكن هذا هز كتفيه فى غير مبالاة وقال : « أوه ، اننا نفعل هذا الذى ترويه القصة كل يوم ! » .. وتقول « فريدا » زوجة « لورنس » — فى صدد ظروف نشر القصة — **ان لورنس كان يتوقع ((المحنة)) التى تنتظره ، وانه كان ((خائفا)) .. لكنه ملك الشجاعة التى مكنته من المضى قدما فى طريقه !**

.. وقد عادت عليه المجازفة بالربح فى أول الأمر ، فان « المشتركين » لم يلبثوا أن استنفدوا الألف نسخة التى طبعت من الطبعة الأولى ، وقد بيعت النسخة منها بجنيهين .. ثم توالت الطبعات فحققت كلها رواجا طيبا ، ولو أن « قراصنة » النشر لم يلبثوا ان قطعوا على لورنس طريق الربح ، ولا سيما فى الولايات المتحدة ، فان منع نشر الكتاب فى انجلترا وأمريكا بصفة رسمية بواسطة كبار الناشرين المعتمدين قد فتح أمام القراصنة طريق استغلال المؤلف فى السوق السوداء !

طوفان من المتاعب ..

ولكن ، اذا كان الكتاب قد جاء عونا للورنس من الناحية المادية ، فانه كان السبب فى تدمير صحته . ذلك ان الارهاق العصبى الذى أصابه من جراء الهموم المترتبة على اشكالات نشر الكتاب ، والتحامه بسببه كل حين مع سلطات الرقابة ، قد عجل بموته .. فقد استمرت تلك الاشكالات طوال عامى ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، فى الوقت الذى كان فيه لورنس مريضا

بداء الصدر . يتنقل بين جبال الألب السويسرية ، وشاطىء الريفيرا الفرنسية . وكان يتلقى كل يوم خطابات بهذا السن من شتى المصادر والطبقات .. من أصحاب المكتبات، والنقاد ، وعامة القراء ، فكان لورنس يخط على هوامشها تعليقات عاجلة ويحولها الى الناشر الايطالى « أوريولى » كى يتولى الرد عليها .. **وانه لمن سخرية القدر أن يشغل كاتب من حصب مؤلفى العصر الخلاقين ــ وكاتب مريض ! ــ بكتابة رسائل ادارية محضة** ، على نحو لم ينغمس فيه من انداده سوى « كافكا » ــ الذى كان من « الكتبة » باحدى شركات التامين ــ و « اليوت » ، الذى كانت أعباء عمله كناشر ستنفد أكثر وقته !

وخلال عملية توزيع (عشيق الليدى تشاترلى) ، استمر لورنس فى كتابة أشعاره ، ومقالاته، وقصصه .. كما واصل مراسلاته العديدة مع اصدقائه فى انجلترا ، الذين أخفوا نسخا مهربة من الكتاب فى مساكنهم بلندن أو بيوتهم الريفية فى الضواحى .. ومن هناك كانوا يرسلونها بالبريد الى المشتركين الذين أرسلوا فى طلبها من فلورنسا .

أما فى أمريكا فكان حظ الكتاب اتعس ، لا بسبب قراصنة النشر وحدهم ، **وانما بسبب موظفى جمارك نيويورك ، الذين كانوا يصادرون النسخ المرسلة بالبريد ، ثم يبيعونها خلسة فى السوق السوداء بضعف ثمنها !** .. فاضطر لورنس آخر الأمر الى توصية ناشره الايطالى بأن يغلف النسخ قبل ارسالها بغلافات مزيفة لكتب أخرى لا غبار عليها !

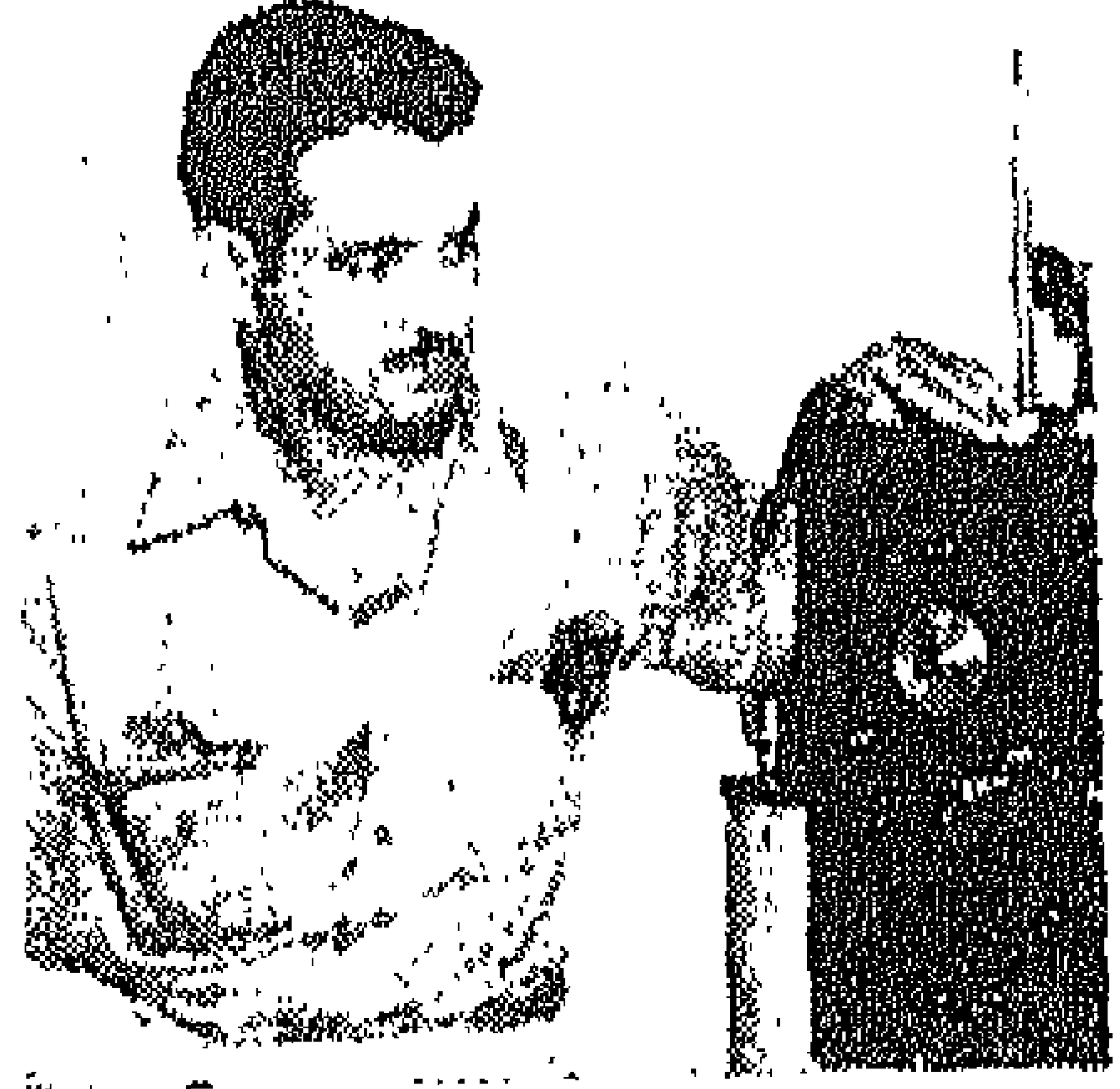
.. فى الوقت الذى واصل فيه أعداء لورنس حملاتهم ضده وضد الكتاب فى مختلف الصحف، وفى مقدمتها صحيفة (جون بول) .. كما ضيق أعداؤه من رجال السلطات والمسئولين الخناق على المنافذ التى تتسرب منها كتبه ومطبوعاته الى البلاد ، فأقاموا حصارا محكما اشركوا فيه مفتشى

(سكوتلنديارد) ، وموظفي البريد والجمارك .. وفى يوم ٧ يناير عام ١٩٢٩ ارسل لورنس من جنوب فرنسا ، بالبريد المسجل ، مخطوط ديوانه الشعرى الجديد الى وكيله فى لندن، وكتب على المظروف ما يوحى بانه يحوى أوراقا ومستندات خاصة ببعض الاعمال .. لكن المخطوط وقع لسوء حظه فى أيدى مفتشى البوليس ، فصادره وزير الداخلية ولم يسلمه الى الناشر الا بعد ان أشر بحذف ١٤ قصيدة منه !..وصدر الديوان بالفعل على تلك الصورة الناقصة المشوهة ، لكن صديقا المؤلف لم يلبث ان أصدر طبعة محدودة (من خمسمائة نسخة) من الديوان بأكمله ، فى صورته الاصلية الكاملة ، فكان ربح لورنس منها خمسمائة جنيــه ، اذ كان اجراء وزير الداخلية بحذف بعض القصائد خير دعاية أعانت على ترويج الديوان !

١٢ ألف زائر ، لمعرض لوحاته !

وفى ذلك العام – ١٩٢٩ – تعرض لورنس لمحنة أخرى مع سلطات الرقابة ، بسبب المعرض الذى أقيم لرسومه ولوحاته فى قاعة (وارين جاليرى) بحى (ماى فير) . وقد سافرت زوجة لورنس « فريدا » الى لنــدن لحضــور المعرض ، أما لورنس نفسه فانه اتجه الى ايطاليا لزيارة صديقه « ألدوس هكسلى » وزوجته . وقد افتتح المعرض فى ١٤ يونية ، فى الوقت الذى ظهرت فيه طبعــة ملونة من لوحاته فى كتاب . **وخلال الاسـابيع الثـلاثة التى ظل فيهـا المعرض مفتوحا للجماهير – قبل أن تغلقه سـلطات البوليس فى ٥ يوليو – زاره اثنا عشر ألف شخص**، وفى هذه المرة جاء دور نقاد الفن كى يهاجموا لورنس ، من الناحيتين الفنية والاخلاقية . وفى الخامس من يوليو أقبل رجال الشرطة فنزعوا ١٣ لوحة، كما أخذوا أربع نسخ من الكتاب الذى يضم طبعة ملونة من لوحات

رجال "أرامكو"



تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التى تؤخذ من المناطق التى تحتوى على الزيت داخل الارض هامة جدا . وتظهر هذه المعلومات الحالات التى بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت فى باطن الارض .

والسيد عبد الرحمن سليمان العجاجى هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الالات ومعرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر فى الصورة .

وقد التحق السيد عبد الرحمن فى شركة ارامكو فى عام ١٩٤٨ ، فعمل فى فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم فى مراكز فرز الغاز من الزيت حتى اصبح مشغلا أعلى خارج الورشة . وفى اوائل هذا العام عاد الى العمل فاصبح مشرفا بقياسات الحرارة والضغط .

وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين فى بلدة ظرما فى نجد . وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها فى مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن أخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على أعمال تسجيل الحرارة والضغط فى حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة فى هذا الباب .

الروائى الشاعر الرسام « د. هـ. لورنس » .
وعرضت الدعوى الخاصة بتلك الرسوم فى ٨ أغسطس أمام القضاء . وكان القاضى فى الثانية والثمانين من عمره ، فرفض الاستماع الى شهود الدفاع من خبراء الفن .. فى الوقت الذى طالب فيه الاتهام باحراق اللوحات المصادرة !
.. واخيرا صدر الحكم بتسليمها الى أصحاب المعرض ، ولكن بشرط الامتناع عن عرضها !

((ألدوس هكسلى)) يخف الى نصرته ..

ومن ايطاليا ، حيث كان لورنس يستشفى من دائه ، ارتفع صوت الفنان المضطهد يلعن قومه — الذين لم يقدر له أن يلتقى بهم ثانية فى موطنهم — ففى ديوانه التالى ، سخر لورنس من نقاد الفن، والرقباء، وجماهير الشعب البريطانى !
.. ثم انضم اليه « ألدوس هكسلى » فى مقال نشره فى نوفمبر ١٩٢٩ بصحيفة (فانيتى فير) الامريكية ، كما دافعت عنه الأديبة « ربيكا وست » فى صحيفة أمريكية أخرى تدعى (بوكمان) ، ووصفت منع عرض اللوحات بأنه « عمل ينطوى على عدم التبصر الى درجة مفزعة ، **فى حق فنان لعله أعظم عبقرى فى عصرنا .. وهو من الحساسية بحيث يكفى هـذا الحادث كى يشل انتاجه الأدبى والفنى . »**
على أن لورنس خرج من محنة منع عرض لوحاته ، محطم الاعصاب ، ممرور النفس ، متفاقم العلة .. وكانت تلك هى الفترة التى شكا فيها الى صديقه « ايرل بروستر » بقوله ، وهو يتحسس صدره بأصابعه : « أن الكراهية التى أثارتها كتبى ترتد الى وتنشب مخالبها هنا ! »
ولم تمض أسابيع، حتى قضى عليه داء الرئة — فى ٢ مارس ١٩٣٠ — فى ضاحية (فينس) ، من ضواحى (نيس) بفرنسا ، قبل أن يكمل عامه الخامس والاربعين .. ورغم قصر

عمره ، وضعف صحته الهشة ، فقد عاش حياته مشتعل النشاط والحمية ، عملاقا في طاقته الانتاجية الجبارة ، **فترك وراءه نحو خمسين كتابا ، في شتى فروع الأدب والكتابة : في القصة الطويلة ، والقصيرة ، والمسرحية ، والشعر ، والمقالة، وادب الرحلات** .. وقد اعانه على الابداع في هذا اللون الاخير من الكتابة انه قضى أكثر حياته متنقلا بين القارات الخمس ، سعيا وراء انتجاع الصحة التي كان محروما منها .. فزار الكثير من بلاد اوربا، كما **زار استراليا ، والهند ، والولايات المتحدة الامريكية ، والمكسيك** .. الخ

على ان قصة لورنس مع سلطات الرقابة لم تنته بانتهاء حياته .. فبعد وفاته بأقل من أسبوعين ، شن عليه الشيخ الامريكي السناتور « ريد سموت » حملة في مجلس الكونجرس، خص فيها بهجومه قصة (عشيق الليدي تشاترلي) بوجه خاص ، فتصدى له السناتور « برونسون كاتنج » بالقول ان من يبغي تصيد المثالب والاخطاء ، لا يصعب عليه أن يجد في (التوراة) نفسه فقرات تخدش الحياء ! .. وفي احدى الحملات التي أثيرت حول أدب لورنس ، تصدى للدفاع عنه الناقد الكبير المعاصر ((**ت. س. اليوت**)) ــ الفائز بجائزة نوبل ، والذي كان مذهبه في النقد محل معركة بين نقادنا العرب في القاهرة منذ أسابيع ــ فقال عنه : ((**ان تأثير لورنس على عصره يفوق تأثير اى أديب من معاصريه !**))

((لورنس العرب)) يؤيد ((لورنس)) الأديب ..

وثمة دفاع آخر عن لورنس ، خطه قلم سميه « ت . ا . لورنس » ــ المعروف باسم ((**لورنس العرب**)) ، ومؤلف الكتاب المشهور (أعمدة الحكمة السبعة) ــ وقد كتبه في رسالة له غداة وفاة لورنس الأديب مباشرة ، (أو على وجه التحديد يوم ٣ مارس ١٩٣٠) ، وجاء فيه : « ان مغزى قصة

(عشيق الليدى تشاترلى) هو ان اعتبار « الجنس » امرا مخجلا محتقرا . انما يفقد الرجال ما ينبغى أن يكون موضع فخرهم وقوتهم الحيوية ، واعتزازهم بالحياة .. »

وفى بحث علمى صرف ، موضوعه « علم فلسفة اللغة » نشره البروفيسور « ألين ووكر ريد » فى مجلة (اميريكان سبيتش) ـ عدد ديسمبر ١٩٣٤ ـ قال الباحث الكبير :
« وهناك محاولة جريئة لتجاهل اعتبار الجنس من المحرمات، قام بها « د . هـ . لورنس » فى قصته الطويلة المعروفة (عشيق الليدى تشاترلى) .. فنحن نرى فى هذه القصة الفارق الصارخ بين استعماله هو للألفاظ الشائكة فى بساطة مخلصة ، وبين استعمال نفس الألفاظ من جانب أولئك الذين يتجرون بالجنس باعتباره سرا قذرا ! .. واذا استطاع الناس فهم مغزى استعمال لورنس لتلك الكلمات ، فان كتبه سوف تقرأ يومئذ كما ينبغى أن تقرأ ، وكما بدأ كثير من الناس فى قراءتها بالفعل . »

ومنذ أعوام قليلة ، أشار صديق لورنس القديم **((ألدوس هكسلى))** فى كتابه (شياطين لودون) الذى نشر عام١٩٥٢ ، الى الفارق بين « الجنس فى جنة عدن ، والجنس فى أعماق المجارى القذرة » .. فقال : « ان فى أمور الجنس عنصرا بريئا ، وعنصرا آخر قذرا وضيعا .. وبينما أبرز مؤلف مثل « جان جينيه » العنصر الأخير ، بقوة مخيفة وتفصيل وافر غزير ، **نرى ((د . هـ . لورنس)) قد كتب عن العنصر الأول ـ الجنس الذى يمت الى جنة عدن ـ كتابة هى آية فى الجمال والروعة !))**

وقد كتب لورنس نفسه بحثا فى هذا الصدد تحت عنوان « الأدب المكشوف ، والبذاءة » أثناء اقامته فى اقليم (بافاريا) الالمانى ، فى ضيافة الطبيب والكاتب المسرحى «ماكس موهر» ـ فى الفترة بينأواخر أغسطس ومنتصف سبتمبر ١٩٢٩ ـ

قال فيه : «ان ما يعتبر بذاءة من كاتب، قد يسمو الى مرتبة « العبقرية » اذا صوره كاتب آخر ، بطريقة أخرى .. واذا رجعنا الى أصل مصطلح « الأدب المكشوف » فى لغتنا الانجليزية ، نجده مشتقا من لفظ « عاهرة » .. ولكن من هى « العاهرة » فى أيامنا هذه ؟ .. اذا كانت هى المرأة التى تتقاضى المال من رجل فى نظير أن تصحبه الى الفراش ، **فما أكثر الزوجات اللواتى «بعن» أنفسهن بالمال ، فى الماضى ، وما أكثر الومسات اللواتى « منحن » أنفسهن لرجال ، بدافع عاطفى ، دون أدنى مقابل ! »**

وفى بحث آخر عنوانه «بصدد (عشيق الليدى تشاترلى) » — وقد كتب لورنس جزءا منه كمقدمة لطبعة ١٩٢٩ من القصة ، التى صدرت يومئذ فى باريس ، ثم توسع فيه ونشره كنبذة مستقلة فى لندن فى يونية ١٩٣٠ — قال لورنس عن « سير كليفورد » (زوج الليدى تشاترلى فى القصة) :

الشلل العاطفى ، أنكى من الشلل الجسمانى !

« **لقد** سئلت عدة مرات عما اذا كنت تعمدت ان أجعل الزوج فى القصة يصاب بالشلل ، وهل كان قصدى من ذلك رمزيا ؟ .. وقال نقاد وادباء آخرون انه كان الأفضل أن اترك الزوج سليما قويا ، وأجعل المرأة تهجره مع ذلك .. وردى على ذلك اننى لست أدرى اذا كنت تعمدت تلك الرمزية ام لا .. وان يكن المؤكد أننى لم أتعمدها فى البداية ، حين خلقت شخصية سير كليفورد . فعندما خلقت «كليفورد» و «كونى» لم تكن عندى أدنى فكرة عن حقيقة شخصيتهما ، او سبب وجودهما .. وانما جاءا هكذا عفوا ، كما وصفتهما . وقد أعدت كتابة القصة من بدايتها الى نهايتها ثلاث مرات ، وحين قرأتها بعد المرة الاولى ، أدركت **أن عرج كليفورد كان**

رمزا للشلل .. للشلل العاطفى أو النفسانى ــ الأعمق من شلل الجسم ــ الذى يصيب اليوم أكثر الرجال الذين من طبقته وعلى شاكلته ! .. وأدركت أننى قد أظلم « كونى » وأسىء اليها لو أصبته بالشلل الجسمانى ، فان ذلك يجعلها أكثر ابتذالا لو هجرته .. غير أن القصة سارت فى مجراها هكذا من تلقاء نفسها ، فتركتها كما هى .. وسواء سمينا ذلك « رمزية » أم لا ، فانها كانت السياق الذى لا مفر منه للقصة ..

« وأنا أكتب هذه السطور بعد نحو عامين من انتهائى من القصة ، لا بغرض الايضاح أو التبرير ، وانما لاظهار « المعتقدات » العاطفية التى أملت على مواقف القصة ، والتى قد تكون ضرورية كاطار خلفى لها .. فأنا لم أكتبها لرغبة سخيفة فى اثارة حيرة القارىء العادى وبلبلته ، ولم استخدم فيها بعض الألفاظ «المحرمة» لغير ما سبب وجيه ، وانما كان يحدونى الاعتقاد الجازم **بأننا لن نحرر الحقيقة العارية من الصبغة الزائفة التى تغطيها ، الا اذا وصفناها بأوصافها العارية وألفاظها « البذيئة » !** .. وان أكبر كفر بالحقيقة العارية لهو ذلك «التسامى بها الى مستوى أعلى» .. فاذا تزوجت الليدى تشاترلى من البستانى مثلا ــ وهى لم تفعل ذلك بعد ــ فلن يكون ذلك منها « بغية الكيد والتحدى » لفوارق الطبقات ، وانما ستفعله مضطرة ، « بالرغم من » هذه الفوارق ! »

ثم يمضى لورنس فى الدفاع عن القصة ، فيقول : « بالرغم من كل الحملات التى وجهت الى ، فانى اقدم هذه القصة باعتبارها كتابا مخلصا ، موفور الصحة ، بل ضروريا لنا فى هذه الأيام . فان الفاظها التى تصدم لأول وهلة ، لا تعود تصدم على الاطلاق بعد فترة وجيزة .. **وما ذلك الا لأن**

هذه الألفاظ انما تصدم « العين » فحسب ، لكنها لا تصدم « العقل » بتاتا . قد يصدم بها القراء المجردون من العقل . لكن هؤلاء لا وزن لهم . أما ذوو العقول فانهم يدركون أن ألفاظ القصة لا تصدمهم ، ولم تصدمهم حتى عند قراءتهم اياها لأول مرة .. بل انهم يحسون ازاءها بشعور من الارتياح . وهذه هى الحقيقة الجوهرية فى الموضوع : فنحن اليوم قد جاوزنا فى ثقافتنا وتطورنا حدود المحرمات التى كانت سائدة فى عصر الحروب الصليبية مثلا ، يوم كانت للألفاظ في ذاتها قوة وقدرة على الاثارة . **وهذه القدرة على الاثارة كانت لها خطورتها على ذوى العقول المعتمة والطبائع الحادة العنيفة ، من أهل العصور الوسطى** . أما نحن : فان ثقافتنا لا تدع للألفاظ المجردة سوى رد الفعل العقلى فحسب ، وتحمينا من رد الفعل الجسمانى العنيف المتهور الذى قد يهدد حدود اللياقة الاجتماعية !

« ففى الماضى كان الناس من ضعف العقل أو فجاجته بحيث لا يفرقون بين الفكر والفعل ، بين الكلمة والتصرف . أما نحن ، فقد علمتنا الثقافة والمدنية أن «الفكرة» لاتستتبع حتما « الفعل » ، وانما هما شكلان منفصلان من أشكال الوعى .. حياتان منفصلتان نحياهما . فنحن أثناء تفكيرنا ، لا نقدم على فعل ، وحين نقدم على فعل ، لا نفكر ! .. والهدف الاصلى لهذه القصة هو اننى أريد من الرجال والنساء على السواء أن يكونوا قادرين على التفكير الجنسى الصحيح ، السليم ، المخلص ، النظيف . »

٣ طبعات أصيلة .. وعشرات الطبعات « المزيفة » !

والآن ، تعال نقرأ هذا التلخيص « المهذب » للقصة التى أحدثت كل تلك الضجة فى الدوائر الأدبية العالمية ، وكل ذلك الأذى والمتاعب لصاحبها ! .. والتلخيص التالى مأخوذ من الطبعات الثلاث ـ او « القوالب » الثلاثة المتباينة ـ

للقصة ، فهو يجمع أهم المواقف والوقائع التى تضمنتها تلك الطبعات ، والتى كان لورنس — فى حيرته بينها ، وعدم استقراره على قالب واحد نهائى منها — يحذف بعضا منها فى طبعة ، ليوردها ويحذف سواها فى طبعة أخرى.. وهكذا ! .. بل انه عدل وبدل فى إسم بطل القصة نفسه كما أسلفنا ، فجعله « باركن » فى طبعة ، و « ميلورز » فى طبعة أخرى !

والواقع أن هذه القوالب الثلاثة هى التى كتبها لورنس نفسه ، وذلك بخلاف القوالب والطبعات العديدة الأخرى التى زيفها عليه « القراصنة » — كما أسماهم — سواء من الانجليز أو الأمريكيين ، وهم الناشرون غير الشرفاء الذين راحوا يعيثون فى القصة تعديلا وتحويرا وافسادا ، **وفق هوى قرائهم وهوى نزعاتهم التجارية وهوى سلطات الرقابة فى بلادهم ، ثم طبعوها دون اذن من مؤلفها — ودون أن يدفعوا له أى مقابل — وباعوها فى « السوق السوداء » بأسعار خيالية ، بلغت فى بعض الأحيان خمسين دولارا للنسخة الواحدة (أى نحو ١٧ جنيها مصريا) !**

وقد عرض بعض الناشرين الانجليز على لورنس فى عام ١٩٢٩ ان يعد لهم طبعة خاصة ، وفق شروط ومواصفات معينة رسموها له ، مقابل مبلغ سخى من المال. وبدأ لورنس بالفعل فى اعداد الطبعة المطلوبة ، ثم لم يستطع الاستمرار فى المحاولة ، وقال «الجلاديه» : **« مستحيل !.. انه لأهون على أن أجدع أنفى بالمقص.. فقد أحسست بالقصة تكاد تنزف دما ! »**

ومن الطبعات التى وقعت فى يدى لهذه القصة ، طبعة أمريكية عثرت عليها فى أحد أكشاك فناء محطة (فرانكفورت) بألمانيا ، فى ديسمبر ١٩٥٨ ، وقد ذيلت بفصل ممتع بقلم زوجة لورنس الألمانية « فريدا » ، التى تركت زوجها الاول وأطفالها الثلاثة لتتزوج من الأديب الانجليزى الذى كان يومئذ « نكرة ، فقيرا » .. **واليك فقرات من مقالها :**



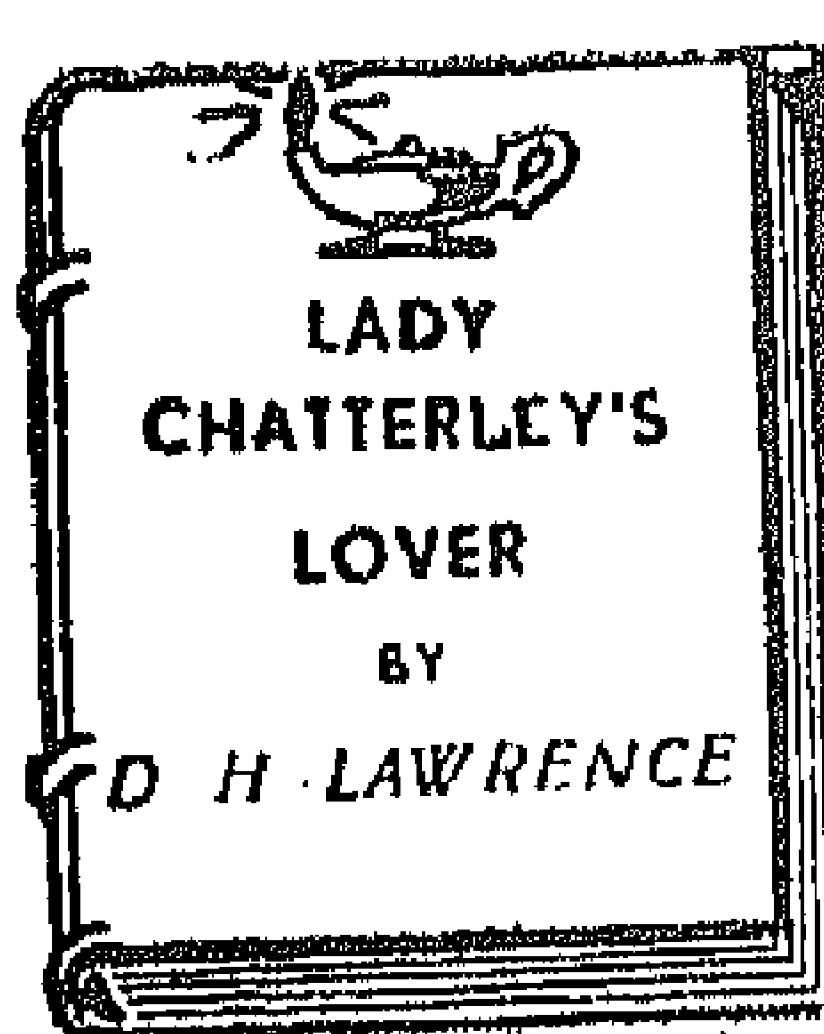
كان «لورنس» رساما ، الى جانب كونه روائيا ، وشاعرا . وهذه احدى لوحاته الست والعشرين التى عرضها عام ١٩٢٩، وسماها « البعث » . وقد كتب عنها الى صديقه «ايرل برويستر» فى ٢٨ مايو ١٩٢٧ يقول « لقد فرغت من لوحتى «البعث» ، وهى تعجبنى . انها تصور المسيح ينهض من القبر ، أغبر الوجه ، تعاونه أمه من الخلف ، وتسنده مريم المجدلية الى صدرها من الامام . » .. وكان لورنس قد بدأ محاولاته الاولى الجادة فى الرسم ، فى خريف ١٩٢٦ ، فى ايطاليا .. حين أعطته «ماريا هكسلى» ــ زوجة صديقه الروائى المعاصر « الدوس هكسلى » ــ بعض قماش لرسم اللوحات عثرت عليه فى الفيللا التى استأجراها فى ذلك العام .. فبدأ لورنس يرسمها فى نفس الوقت الذى بدأ فيه يكتب قصته «عشيق الليدى تشاترلى » .

« منذ عرفت لورنس - وهو يحلم بأن يكتب قصة (عشيق الليدى تشاترلى) - ولقد كتبها فوق تلال (توسكانيا) ، فى غابة من غابات أشجار الصنوبر الوارفة ، حيث كان له فراش حجرى داخل كهف صغير ، ومنضدة حجرية أصغر ، ونبع ماء قريب . كان المكان ساحرا ، ولا سيما فى الربيع ، وكان يمضى اليه كل صباح ليكتب ، فيسير بمحاذاة أشجار الزيتون حتى يبلغ شجرة الصنوبر الظليلة .. وهناك يجلس ، على بساط من زهر البنفسج ، وأزهار ((الجلاديوليس)) البرية ، وحوله الثيران البيضـاء الوادعة تحرث الأرض .. يجلس بلا حراك ، سوى حركة انسياب ريشته السيالة . ويبلغ من سكونه ان السحالى لا تحس بوجوده ، فتروح تجرى وتمرح بين ساقيه ، والطيور والعصافير الصغيرة تحجل على مقربة منه . وبين حين وآخر يجفل صياد عابر حين يفاجأ برؤية هذا المخلوق الصامت ! .. وكان الفلاحون الفلائل حولنا فى تلك البقعة المنعزلة يميلون اليه ، رغم نفوره الفريزى ، ويبدون استعدادهم لخدمته . وكل يوم ، بعد الغداء ، كنت أقرأ ما كتبه فى الصباح .. فكانت تدهشـنى مقدرته الفائقة على خلق شخصيتى القصة المتنافرتين : سير كليفورد ، وحارس الغابة . الشخصيتين اللتين عاش فى صحبتهما ثلاث سنوات ـ من ١٩٢٥ الى ١٩٢٨ ـ وهى السنوات التى استغرقتها كتابة الطبعات الثلاث ..

« وحين وافاه أجله ، مات لورنس ، دون أن ينهزم ! .. فانه لم يفقد يوما ايمانه بالحياة ، ولم يفعل شيئا لا يرغب فى فعله ـ وما كان بوسع أحد ، أو قوة ما ، أن تجبره عليه ! ـ ولا كتب يوما كلمة لم يكن يعنيها ساعة كتبها .. أو دخل فى مساومة مع القوى الحقيرة التى ناوأته .. والخلاصة ، انه لو كان قد عاش يوما على ظهر الأرض رجل حر ، أبى ، فقد كان زوجى « لورنس » ذلك الرجل ! »

وفى هذا القدر الكفاية ..

حلمى مراد



د . هـ . لورنس

عشيق الليدي تشاترلي

القصة الخالدة التي أثارت أكبر ضجة عالمية في عام ١٩٦٠
.. ثم فازت بحكم البراءة !

تلخيص : رمسيس شكري تنقيح : حلمي مراد

- ١ -

ان عصرنا ، بطبيعته ، عصر حزن وشـقاء ، لذلك يجب علينـا ـ وقـد ولدنا بين خرائبه وانقـاضه ـ أن نرفض الاستسلام للهزيمة ، وان نبذل كل ما بوسعنا من جهـد ، حتى نتغلب على العقبات التي تواجهنا ، وأن نحيى فى انفسنا الأمل فى حياة باسمة ومستقبل افضل !

كان هذا هو حال « كونستانس تشاترلى » ، **فقد قوضت الحرب آمالها وقضت على أمانيها ، فأدركت انه لم يبق لها غير ان تجابه الواقع بشـجاعة !** .. كانت قد تزوجت من « سير كليفورد تشاترلى » ، حين عاد الى بلدته من ميـدان القتـال ليقضى عطلة لمدة شـهر ، رحل بعـدها الى اقليم « الفلاندر » حيث كان القتال يدور .. ثم عاد من الميـدان بعد ستة أشهر وقد مزقت الحرب جسمه !.. وكانت زوجته فى الثالثة والعشرين . بينما كان كليفورد لم يتجاوز التاسعة والعشرين !

على ان تشبثه بالحياة كان عجيبا ، فاندملت جروحه ، وعادت اشلاء جسده الممزق الى الالتئام من جديد ، فعاش تحت رعاية الأطباء لمدة عامين ، **حتى خرج أخيرا من التجربة كسيحا يجلس على مقعد متحرك .. فقد شل نصفه الاسفل .. وفقد رجولته !**

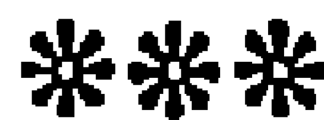
وكانت حيـاته عزيزة وغالية عليه ، فقـد نجا من الموت بأعجوبة ، وكان واضحا فى عينيه البراقتين اليقظتين ، مقدار شعوره بالزهو لبقائه حيا .. غير ان عواطفه ومشاعره كانت قد ماتت واندثرت ، وحل مكانها فراغ قاتم كئيب !

أما زوجته « كونسـتانس » ـ أو « كونى » كما كانوا يطلقون عليها ـ فقـد كانت فتاة جميلة ، تبدو على وجهها

مسحة من الارهاق ، ذات جسد فائر ، وعينين واسعتين تفيضان عذوبة وجاذبية ، وصوت ناعم لين النبرات . وكان والدها « سير مالكولم ريد » ضابطا كبيرا بالجيش ، قبل أن يحال الى الاستيداع .

وقد عاشت كونى واختهـا « هيـلدا » ــ منـذ نعومة اظفارهما ــ فى جو مشبع بالفن والافكار الاشتراكية ، **فقـد ارسـلهما والدهما الى (باريس) .. و (فلورنسـا) .. و (روما) ، ليستنشقا الفن فى عقر داره .. كما اتجها الى (لاهاى) و (برلين) حيث كانت الدعوة الاشتراكية قـد بدأت تنتشر** ، وحيث كان يحق لكل انسان ــ أيا كانت لغته وجنسيته ــ أن يروج لأى مذهب أو مبدأ ، دون ان يعترض عليه أحد !

وقد كانت الشقيقتان فى نحو الخامسة عشرة من عمرهما عندما ذهبتا الى (درسـدن) لتتعلما الموسـيقى والرسم ، وغيرهما من الفنون .. وهناك عاشتا فى انطلاق وحـرية ، واختلطتا بغيرهما من الطلبة ، وتناقشتا فى الأمور الفلسفية، والاجتماعية ، والفنية .. والجنسية ! .. وذاقتا طعم الحب فى سن الثـامنة عشرة ، تحت ظلال الاشـجار الوارفة فى المتنزهات العامة ، بين أحضـان شـابين المانيين ، رأيا ان استسلام الأختين لهما ، بمثابة دليل منهمـا على اتسـاع مداركهما وتفكيرهما !



وحين نشبت الحرب ، اضطرت كونى وهيلدا الى العودة الى وطنهما .. وهناك تقدم كليفورد بطلب الزواج من كونى، التى أعجبت به ، لوسامة وجهه وطول قامته واتساع كتفيه .. فتم زفافهما عام ١٩١٧ ، وقضيا شهر العسـل وقد

رفرفت عليهما السعادة .. رغم ان كليفورد كان ـ بطبعه ـ لا يعير المسألة الجنسية اى اهتمام . وظل لم يقرب امرأة الى أن تزوج .. وفيما عدا ذلك كان الزوجان متقاربين ، متفاهمين ، يربط بينهما رباط من العاطفة العميقة !

- ٢ -

.. **فلما** وقعت الكارثة ، وأصيب كليفورد بالشلل ، اقترح على كونى أن يعيشا فى ضيعته (رجبى هول) ، حيث كان يملك قصرا قديما ، شيد فى منتصف القرن الثامن عشر ، فوق ربوة عالية ، وسط متنزه كبير ، يحيط به سور كثيف من أشجار السنديان .

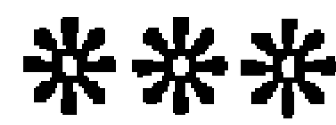
ولم تجد كونى فى مقرها الجديد الهدوء الذى كانت تنشده .. وشكت مرارا لكليفورد من الضوضاء التى كانت تصدر من المناجم والمصانع التى فى القرية المجاورة ، ومن الغازات والروائح الكريهة المنبعثة من مداخنها ، والتى كانت الريح تدفعها نحو القصر ، فتنتشر فى حجراته .. **كما احست كونى ان محاولاتها لاكتساب ثقة وصداقة زوجات المعدنين من أهل القرية قد قوبلت ـ رغم مظاهر الود ـ بستار من الزيف ، والشك ، وعدم الاطمئنان !**

أما كليفورد ، فقد كان ينظر الى الأمر من وجهة نظر مغايرة ، اذ كان يؤمن ايمانا راسخا بأن تلك الفئة من العمال لا تستحق من أمثاله سوى الاحتقار والاهمال !

وصار كليفورد يعتمد على زوجته اعتمادا كليا ، فرغم ضخامة جسمه وقوة بنيته ، فانه كان يحس وهو بعيد عنها بالعجز والضياع .. ويشعر بالحاجة الى وجودها بجانبه ، كى يشعر بأنه ما زال حيا !.. كانت لا تفتح عينها فى الصباح الباكر ، حتى يناديها لتخرج به للنزهة فى الحقول ، فتستجيب

له فى فتور وعدم اكتراث ، وتدفع مقعده المتحرك مسافات طويلة فى العراء ، ثم يعودان الى القصر ليتناولا طعام العشاء .

وكان كليفورد – رغم نكبته – طموحا ، فأخذ يؤلف ويكتب قصصا ومسرحيات واقعية ، تدور حوادثها حول شخصيات من معارفه وأصدقائه ، **وكانت قصصه قوية الحبكة ، جيدة البناء ، غير انها كانت مفعمة بالحقد** . وقد تسابقت معظم المجلات العصرية الى نشرها . على أن كليفورد كان شديد الحساسية نحو النقد الذى كانت تتعرض له قصصه أحيانا من بعض النقاد ، وكان يطلب من الجميع أن يقرظوها ويثنوا عليها !



وفى احدى الأمسيات حضر والد الزوجة – «سير مالكولم ريد » – الى القصر لتمضية عطلة الاسبوع ، فهاله شحوب وجه ابنته ونحول جسمها ، وادرك – وهو الرجل المجرب الخبير – حقيقة علتها .. فربت على كتفها بحنان ، قائلا فى مرارة : « لست ادرى يا كونى الى متى سوف تظلين فى هذا الموقف المذل ! ؟ » .. فنظرت اليه كونى متسائلة : « ماذا تعنى يا أبى ؟ » ، فأجابها بصراحته المعهودة : « من الخطر أن تعيش المرأة هكذا ، نصف عذراء ! » .. فاندفع الدم الى وجهها ، وغمغمت : « نصف عذراء ؟ .. وماذا فى ذلك ؟ » .. فأردف ببطء : « اذا كنت تجدين الراحة فى هذا .. »

لكنه لم يجد مفرا من مصارحة كليفورد بمخاوفه ، فقال له وهو يعبث بشاربه الكث : « **أخشى يا ولدى أن أقول لك ان حالة كونى المسكينة باتت تقلقنى ، فهى تتعذب فى أعماقها .. ولست اعتقد أن هذه الحالة تلائم من كانت فى مثل**

سنها . انني آسف ياكليفورد ، ولكنها امرأة من لحم ودم ! »
.. فأطرق الفتى برأسه الى الأرض ، ولم ينبس بكلمة !

***

وحدست « كونى » ان اباها قد تحدث الى كليفورد بصدد موضوع « نصف العذراء » ! .. غير انها كانت واثقة من أن زوجها ما كان ليعير الأمر أدنى اهتمام ـ سواء عاشت « نصف عذراء » أو « غانية لعوب » ـ ما دامت تحرص على ان يتم الأمر فى سرية وتكتم ، بعيداً عن سمعه وبصره .. فقد كان يردد دائما أن الاشياء التى لا تبصرها عيناه ولا يدركها عقله ، ليس لها وجود بالنسبة له !

- ٣ -

وفى غضون ذلك الشتاء ، قدم الى القصر صديق لكليفورد يدعى « ميكاليس » ليقضى معه بضعة أيام . وكان « ميكاليس » هذا شابا ايرلنديا فى الثلاثين من عمره ، بدأ حياته العملية عازفا موسيقيا فى أمريكا ، فكون ثروة طائلة ، ثم استهواه مجتمع لندن الراقى ، فكتب عنه عدة مسرحيات اجتماعية ، غير أن المجتمع اللندنى اكتشف أن مسرحيات ذلك الكاتب الحقير ـ عدو الانجليز ـ تظهره بمظهر مشين يحط من كرامته ، فثار المجتمع على « ميكاليس » ونبذه نبذ النواة !

وقد جاءته دعوة كليفورد لزيارة (رجبى هول) فى الوقت الذى قاطعه فيه جميع أفراد المجتمع الراقى ، فلم يتردد فى القبول ، وجاء فى سيارة فخمة يقودها سائق أنيق ويرافقه خادمه الخاص !

وقضى الضيف مع مضيفه ساعات طويلة يتناقشان فى

مختلف الشئون الأدبية والفنية ، بينما انزوت « كونى » فى زاوية من الحجرة تستمع فى أناة الى مناقشاتهما .. وكانت تنظر الى ميكاليس فى اعجاب ، فقد كان يحمل طابعا خاصا يميزه عن باقى الرجال الذين التقت بهم من قبل ! .. ولم يكن مغرورا ولا دعيا ، وكان فى حديثه مع كليفورد عاقلا ، متزنا ، رقيق العاطفة .. وكان هو ، من جانبه ، يختلس النظر اليها بين الفينة والاخرى . ليرى مدى تأثير آرائه وافكاره عليها !

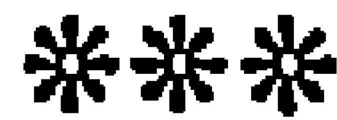
وفى المساء ، استدعته كونى الى غرفة استقبالها الخاصة، التى كانت تقع فى الطابق الثانى ، والتى كانت جدرانها تزدان بلوحات رائعة من أعمال أشهر الفنانين ، أمثال « رنوار » و « سيزان » . وجلس الاثنان بجوار المدفأة ؛ ودار بينهما حديث طويل عن عائلته ، ومختلف شئونه وأحواله .. وكان « ميكاليس » يتحدث اليها ببساطة وصراحة ، مجردة عن العاطفة ، كاشفا عن المرارة التى كانت تعتمل فى أغوار وجدانه !

وكانت كونى تستمع اليه مأخوذة .. وسألته أخيرا : « ولكن .. لماذا تعيش وحيدا ، كالطير الذى فقد أليفه ؟ » .. فتنهد وأجاب: « ان من الطيور ما يستعذب الوحدة ! »، ثم أردف ، فى سخرية : « وماذا بصددك أنت ؟ .. ألا تعانين بدورك من برودة الوحدة ؟ » ، فأجفلت ، وفكرت قليلا .. ثم قالت : « نعم .. الى حد ما .. ولكن ، ليس مثلك ، تماما !» .. فانتفض فى مقعده ، وهمس ببطء ذاهل : « صدقت .. أننى شقى تعس ! » ، واستدار برأسه بعيدا وقد خفض بصره فى ذلة ، فشعرت كونى نحوه بجاذبية غريبة ، كادت تفقدها رشدها !

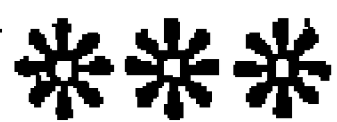
ورفع ميكاليس بصره نحوها وقد بان فى عينيه نداء

مؤثر ، نداء طفل يلتمس من أمه الحنان والدفء ! .. ثم ركع فجأة بجوارها ، وامسك بساقيها ، ودفن رأسه فى حجرها .. وظل هكذا ساكنا لفترة طويلة ، بينما اخذت كونى تحدق فى عنقه ذاهلة .. ولم تملك نفسها من أن تمد يدها الى رأسه ، فتداعب خصلات شعره الناعم الفزير بأناملها .. فارتجف جسمه ورفع رأسه ، ثم انتصب واقفا ، وقد التمعت عيناه ببريق الرغبة والشهوة !

وأحست كونى بحنين طاغ يدفعها نحوه ، وأدركت انها ما عاد بوسعها ان تقاوم ذلك النداء ، وان عليها أن تستسلم له .. أن تمنحه أى شيء .. وكل شيء !



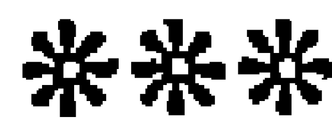
ولما نهض « ميكاليس » ، قبل كلتا راحتيها .. ثم انتقل بشفتيه الى قدميها الصغيرتين ، المدثرتين فى خفين سويديين ، ثم انسحب بهدوء الى نهاية الفرفة ، وران عليهما صمت طويل .. وأخيرا التفت نحوها وقال : « والآن .. لعلك تكرهيننى ! » .. فأجابت مستنكرة : « بل لعلها أسعد لحظة فى حياتى ! » .. وأدهشها أن بدت على سيماه دلائل الألم والتعاسة ، وأخذ يذرع الفرفة جيئة وذهابا ، ثم استدار اليها ، وقال متلعثما : « وسير كليفورد .. الن .. ألن يكون .. ؟ » ، فترددت لحظة ثم أجابت قائلة : « ربما .. غير اننى أرجو أن تظل علاقتنا سرا مكتوما بيننا ، فلست أريد لكليفورد أن يعرف عنها شيئا .. ان ذلك خليق بان يؤلمه ويحطم قلبه !



ولأول مرة منذ وطأت كونى قصر (رجبى هول) ، استطاعت ان تنام نوما هادئا لا تتخلله الأحلام المزعجة ! ..

لقد فارقهـا القلق الجنسي المدمر الذى عانت منه كثيرا ، فكانت أشبه بالجائع حين يخلد للنعاس بعد وجبة دسمة ! .. وسرت البهجة الى نفسها وفؤادها ، واستغلت بهجتها فى الهام كليفورد بأروع ماكتب ، فصار سعيدا ــ فى غفلته ــ وقد جنى ؛ دون أن يدرى ، ثمار ارتواء مشاعر زوجته من علاقتها بميكاليس ..

غير أن كونى ما لبثت ، حين عاد ميكاليس الى لندن بعد ثلاثة أيام ، أن عاودها انقباضها وقنوطها من جديد .. فعاود كليفورد الحنين الى سالف أيام سرورها وابتهاجها !



.. **وذات** صباح خرج الزوجان للنزهة فى المزارع المحيطة بالقصر ، وسارت كونى الى جوار المقعد المتحرك وهى لا تنبس بكلمة ، وانما ترنو ببصرها بين لحظة وأخرى نحو كليفورد ، الذى كان يركن أيضا الى الصمت ، وقد علت قسمات وجهه سحابة من الهم .. وكأنما خشيت كونى مغبة هذا الصمت الطويل ، فسألته : « فيم تفكر ؟ » .. فدار ببصره حوله : وقال بقنوط : « **انه لمن المحزن الا يكون لنا ولد ! .. لقد اعتدنا أن نتوارث هذه الضياع أبا عن جد ، وكانت عائلتنا تشبه سلسلة متصلة الحلقات .. أما الآن ، فقد انفرط عقدها ! »**

فتجهم وجهها ، وقالت بحزن : «انني آسفة لعدم قدرتنا على انجاب أطفال ! » .. واذ ذاك رفع وجهه الشاحب المعذب ، وغمغم : « لماذا تتحدثين بصيغة الجمع ؟ .. لا ريب أن فى مقدورك انجاب طفل من رجل آخر .. ولعمرى أن هذا لن يحزننى بقدر ما سوف يبعث السرور فى قلبى !! »

فبدت عليها الدهشة ، وقالت: «ماذا تعنى ياكليفورد ؟ »

فقال فى هدوء ، وقد غامت عيناه : « اذا حـدث وانجبت طفلا من رجل آخر ، فسـوف اتخـذه ابنا لى ، كى يرث القصر وكل ممتلكاتى .. الا ترين انها فكرة جديرة بالاعتبار يا كونى ؟ ! » .. فتطلعت فى وجهه دون أن تفارقها الدهشة ، وتمتمت : « وماذا عن الرجل الآخر ؟ » .. فأجاب : «ليس هذا بالأمر الحيوى ، فاننى أثق فى ذوقك وحسن اختيارك ، ولا أعتقد انك تسمحين لأى مخلوق كان أن يقربك .. المهم فى الأمر الا يكون ذلك سببا للتفرقة بيننا ، فلست اقوى على العيش بدونك ! .. ان مثل هـذه الخطيئة لا تعد ذنبا كبيرا فى حقى ، وهى لن تؤلمنى بقدر ما يؤلمنى عجزى ، ولن تقتلنى بقـدر ما يقتلنى مرضى .. كلا يا كونى ، **ان الحب يفنى ويزول ، أما الصـداقة فتبقى وتطول . انها العيش معا الى أبد الدهر ، وليست الامتزاج الجسـدى بين حين وآخر** .. لقد اعتـدنا أن يرى أحـدنا الآخر ، والألفة ــ فى رأيى واعتقادى ــ أمر حيوى بالنسبة للرجل والمرأة ، وهى التى تجمع بيننـا الآن .. بل هى السر الحقيقى للزواج ، وليس الاتصال الجنسى .. قد أكون مغاليـا بعض الشىء ، ولكننى أتحـدث بشعورى ، واضـعا نصب عينى الظروف المؤسفة التى ابتلتنى بها الأقدار ! »

وفكرت كونى قليلا .. لقـد نطق صـدقا ، فليس من العدل أن تستمر حياتها على هـذا النحو .. صـحيح أن واجبها يحتم عليها أن تبقى الى جواره ، وان تكبت عواطفها ومشاعرها ، ولكن ، هل تقوى على ذلك الى النهاية ؟ .. وأخيرا قالت : « اعتقد انك على صواب يا كليفورد .. ولكن الأمور موقوتة بظروفها » !

وكانا قد وصلا فى تلك اللحظة الى الغابة ، فوقفت كونى تتأمل مظاهر الطبيعة التى بدت أمامها ، وقد استغرقتها

التفكير فى الحديث الذى دار بينهما . وفجأة مرق بجوارها كلب ضخم من كلاب الصيد ، فأجفلت كونى وفزعت ، ثم ظهر خلفه رجل فى نحو الخامسة والثلاثين ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، رشيق القوام ، أحمر الوجه ، يرتدى سترة من سترات الصيد ، وقد تدلت بندقيته خلف ظهره .

وناداه كليفورد : « ميلورز » ، فاستدار الرجل نحوهما ، ولما اقترب منهمــا قال كليفورد : « **هــذا هو « ميلورز »** **يا كونى ، حارس الغــابة الجديد** .. ألم يســبق لك رؤية الليدى من قبل يا ميلورز ؟ » .. فأجاب الحارس ببطء : « كلا يا سيدى .. لم أحظ بهذا الشرف من قبل » ، ورفع قبعته محييا ، فظهر شعره الأشقر ، ثم حملق فى عينى كونى بنظرة جريئة غير هيابة . كما لو كان يرغب فى أن يختبر معدنها ، فأحست بالدماء تصعد الى وجهها ، ونكست رأسها خجلا ! .. وحين تمالكت نفسها ، سألته :

ــ لقد التحقت بالعمل هنا أخيرا .. أليس كذلك ؟

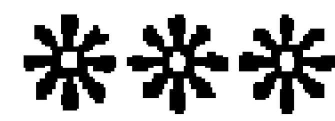
ــ منذ ثمانية اشهر يا سيدتى .. الليدى !

ــ وهل يعجبك العمل هنا ؟

.. وضاقت عيناه قليلا ، وكانت نظرته وقحة ، تحمل معنى السخرية والاستهزاء .. وأخيرا أجاب : « بلا ريب .. اشكرك يا سيدتى الليدى .. » ، وانحنى لها ثم أعاد قبعته الى رأسه ، ودار على عقبيه وانصرف !

ووقفت كونى تراقبه وهو يبتعد ، وقد غلت الدماء فى عروقها .. رباه ! ماذا دهاها ؟ .. ما بالها تفقد سـيطرتها على أعصابها بمثل هذه السرعة ؟

وفى تلك الليلة لم يكف لها دمع ، فقد أحست بنوع من المذلة ! .. سحقا للحياة ! .. انه لجنون مطبق هذا الذى يسيطر عليها ، ويدفعها الى التفكير فى كل رجل يقع عليه بصرها !



وكرر ميكاليس زيارته لـ (رجبى هول) ، فحضر فى المرة التالية مرتديا حلة قاتمة اللون وقفازين سويديين ، وعلى محياه سيماء الفوز والظفر ، فقد فازت مسرحيته الأخيرة باعجاب النقاد وثنائهم ، ولاقت نجاحا هائلا ، واكسبه النجاح الذى واتاه آخر الامر بهاء . فنظرت اليه كونى نظرة اعجاب ، وبدا فى عينيها رائعا !

غير ان الأمور لم تسر وفق هوى ميكاليس ، **فقد كان يحسب أن كونى لن تتردد فى القاء نفسها بين ذراعيه .. غير أن الليلة انقضت ، ولم تزره كونى فى غرفته !** .. فسرى القلق والاضطراب اليه ، واخذ يسائل نفسه : أتراها تتدلل .. فى ساعة مجده وانتصاره ؟

فلما استيقظ من النوم مضى الى حجرة استقبالها ، وقد بدت عليه سيماء السهد والأرق ، فلم تبد على كونى معالم الدهشة لرؤيته ، وكأنها كانت تتوقع قدومه . ولبثا بعض الوقت يتحدثان عن مسرحيته الجديدة ، غير انه لم يتمالك ان استدار فجأة نحوها وهتف : « أصغى الى يا كونى .. لماذا لا نتزوج ؟ » .. فأجابته كونى ذاهلة : « ولكننى متزوجة ! »

ــ أوه .. أو تعتبرين حياتك الحاضرة ، مع رجل عاجز ، زواجا ؟ .. **ان الزواج أخذ وعطاء ، فماذا قدم لك كليفورد مقابل رضائك بالحياة معه ؟**

ــ انك تعلم جيدا أن ليس بوسعى أن أهجره !

ــ ولكن ، لماذا ؟ .. ما الذى يحول دون زواجنا ؟ .. ان كليفورد لن يتردد فى طلاقك اذا طلبت منه ذلك ! .. انه لا يحس بوجود أحد سوى نفسه ، وهو ليس فى حاجة اليك !

ـ كلا .. ليس هذا صحيحا .. انه عاجز !
ـ وهل أصبح « العجز » وسيلة لابتزاز عواطفك ؟
اذن ، نفى وسعى ن اتحدث اليك عن مقدار شعورى بالوحشة بغير رفيق أو انيس ..

***

وفى ذلك المساء ، قال ميكاليس لكونى : « سوف تحضرين الليلة الى غرفتى .. أليس كذلك ؟.. اننى لا أعلم أين تقع غرفتك !
ـ حسنا ، سوف أحضر ..

ـ ٤ ـ

جلست كونى تتجاذب أطراف الحديث مع « تومى ديوكس » ، أحد أصدقاء كليفورد ، وكانت كونى تعتبره بمثابة كاهن تعترف له بأشجانها وهمومها . ودار بينهما حديث طويل ، استهلته كونى قائلة :
ـ لست أدرى لماذا لم تعد العلاقة بين الرجل والمرأة ، قوية ، ثابتة الجذور ، كسالف عهدها ! ؟
ـ أعتقد أن العلاقة بينهما لم يعتورها أى تغيير . فأنا ـ مثلا ـ أجد متعة فى الحديث مع النساء ، تفوق المتعة التى اجدها مع الرجال . **فالمرأة أكثر شجاعة من الرجل ، وفى وسع المرء أن ينطلق فى الحديث معها بصراحة تامة !**
ـ ولكننى أعلم انك لا تحب النساء ، ولم تكن لك علاقة باحداهن فى يوم من الايام !
ـ اذن : فلماذا اتحدث اليك الآن ، لو كنت لا أحب النساء ؟ !
ـ نعم ، انك تتحدث .. ولكن المرأة ترغب فى .. !

ـ انها تتطلب من الرجل أن يعجب بها ويتحدث اليها .. وفى الوقت نفسه ، أن يهواها ويشتهيها .. وشتان بين الحالتين !

ـ لا أرى فى الأمر وجها للتناقض .. غير اننى أحس ان المرأة فى هذه الايام قد فقدت بريقها وجاذبيتها للرجل !

ـ وعين الشيء يمكن ان يقال بالنسبة للرجل !

ـ أصبت .. أصبت !

***

وفى ذلك اليوم أراد كليفورد أن يبعث ببعض تعليماته الى حارس الغابة . وكانت السماء قد امطرت ، وطرقات المزرعة موحلة ، فتعذر عليه أن يخرج بمقعده المتحرك . وصادف أن أصيب جميع الخدم بالانفلونزا ، فتطوعت كونى بأن تقوم بنفسها بالمهمة !

وسارت على قدميها شطر الكوخ وقد استغرقها التفكير فى الحديث الذى دار بينها وبين « تومى ديوكس » .. حقا ، لقد صدق حين قال انه لم يعد للرجال بريق يجذب النساء ! .. **ان « ميكاليس » ـ الذى كانت كونى تنظر اليه كفارس أحلامها ـ قد غدا بالنسبة لها نسيا منسيا !**

وأخذت تقلب الأمور على كافة وجوهها : نعم ، لقد كانت تتحرق شوقا الى أن تنجب طفلا .. ولكن ، مهلا .. مهلا .. ليس ثمة ما يدعوها الى أن تتعجل الأمور ، اذ عليها أولا أن تجد للطفل أبا ! .. ان من السهل عليها أن تجد لها عشيقا ، ولكن المتعذر حقا ، هو ان تجد الشخص المناسب الذى يليق لهذه المهمة .. وليس ضروريا ان تكون مدلهة فى غرامه . فسواء لديها ان كانت تعشقه أم تكرهه !!

وسارت كونى حتى وصلت الى الكوخ . وفجأة توقفت

قدماها عن المسير ، وشعرت بالخوف والرهبة يقبضان قلبها .. وبأنها ليست فى حالة تسمح لها بأن تصدر التعليمات الى « ميلورز » . غير انها ما لبثت أن استجمعت شجاعتها وطرقت الباب ، فلم يجبها أحد . وخيل اليها أن ثمة صوت قد صدر من خلف الكوخ ، فدارت حوله ، واذ بها تفاجأ بمنظر ، أثار فى نفسها مشاعر متضاربة .. رأت الحارس واقفا فى الفناء ، وظهره اليها ، وقد خلع قميصه فبدا جذعه عاريا ! .. وكان منحنيا فوق وعاء كبير من الماء الملىء بفقاعات الصابون . **وبعد أن دلى رأسه فى الوعاء ، رفعه الى أعلى، وهزه هزا عنيفا ، فى حركة حيوانية سريعة ، ثم دفع ببنصريه داخل أذنيه ، فبان العضل الذى اكتنزت به ذراعاه القويتان !**

وتراجعت كونى الى ناصية الكوخ ، ثم استدارت وحثت الخطى نحو الغابة .. ماذا دهاها ؟ .. لماذا احست كأن صاعقة قد انقضت عليها وأصابتها فى صميمها ؟ .. ما وجه الغرابة فى رؤية رجل يغتسل فى الفناء ؟ .. انه منظر عادى ، مبتذل ! .. بل لربما كان يستخدم صابونا أصفر اللون ، كريه الرائحة ! .. غير انها ما لبثت أن أدركت أن اضطرابها وارتباكها يرجعان — فى الحقيقة — الى رؤيتها لذلك الجسد ، القوى ، الناصع البياض ، والذى كان يفيض رجولة وفحولة ! .. فلقد كان جسد .. رجل !

وأخذت كونى تسير لفترة طويلة على غير هدى ، غير انها ما لبثت أن تذكرت المهمة التى حضرت من اجلها ، فعادت ادراجها مرة أخرى الى الكوخ !

وطرقت الباب ، وقد أخذ قلبها ينبض بقوة وسرعة . وكان « ميلورز » قد ارتدى ملابسه ، وما أن شاهدها حتى

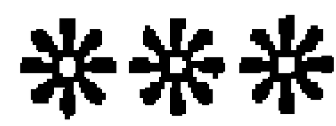
أشرق وجهه بابتسامة مهذبة . ودعاها فى أدب الى الدخول .. فقالت فى صوت هامس ناعم : « لقـد جئت أحمل لك رسالة من سير كليفورد » . وبينما كانت كونى تفضى اليـه بتعليمات زوجها ، التقت عيناها بعينيه ، فرأت فيهما نظرة عطف دافئة !

ــ حسنا يا سيدتى الليدى .. سأقوم بالمهمة حالا !

***

وعندما صعدت كونى الى غرفة نومها ، فعلت ما لم تفعله منذ زمن طويل : أخـذت تخلع ملابسها قطعـة قطعـة ، ثم وقفت أمام المرآة تتأمل جسدها العارى .. وشعرت برغبة حادة فى أن تحطم شيئا !..رباه ، لقد كان الجميع يحسدونها ذات يوم على رشاقة قوامها واستدارة ثدييها الممتلئين .. فأين ذهبت تلك الرشاقة والفتنة التى كانت تبعث الرغبـة عارمة فى الرجال ؟ .. لقد تهدل ثدياها ، وجف عودها ، وانطفأ ذلك البريق الذى كان ينبعث من بدنها ، والذى طالما أطاش عقل عشيقها الالمانى ، قبل أن تتزوج .. لقد فقدت أنوثتها ، وأصبحت أشبه ما تكون بغلام قد اقترب من دور المراهقة !

وانسلت كونى فى رداء نومها الشـفاف ، وارتمت فوق سريرها ، واخذت تنتحب بحرقة ، يحدوها احساس داخلى بالظلم .. مسكين كليفورد .. ان الذنب ليس ذنبه ، وليس لاحد ان يلومه .. فهو ــ بدوره ــ ضحية من ضحايا المأساة التى حلت بهما .. ولكن ، لماذا تضحى بحياتها وشبابها من أجله ؟ .. ان شبابها يذوى وينصهر ، كالشمعة ، ومفاتنها تكاد ان تفنى وتضيع .. من جراء حرمانها !



ووصلت شقيقتها « هيلدا » بعد أيام ، فما كاد بصرها يقع على كونى حتى أخذتها بين ذراعيها وتطلعت الى وجهها الشاحب ، فلم تملك أن هتفت : « أوه يا كونى .. ماذا حدث لك بحق السماء ؟ .. لقد نحل جسدك بدرجة فظيعة ! » . فابتسمت كونى بمرارة وهمست : « اننى فى خير حال » ، ثم أطرقت برأسها وتركت العنان لدموعها !

ولم تترك هيلدا الأمر يمر بسهولة ، فقد انتهزت فرصة انفرادها بكليفورد وفاتحته فى الموضوع ، فقال انه لاحظ ان صحة « كونى » ليست على ما يرام ، ولكنه يرجو أن تتحسن حالها فى القريب العاجل .. فقالت « هيلدا » باصرار : « سوف أصحبها معى الى لندن لاستشارة أحد الأطباء ، فاننى أخشى أن تزداد حالتها سوءا »

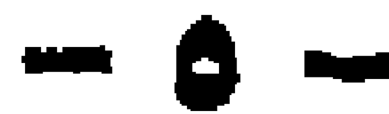
فشعت عيناه ببريق الغضب ، وفتح فاه ليعترض ، ولكنه لم يلبث أن أطبق شفتيه . غير أن هيلدا لم ترحمه ، بل اخذت تكيل له اللوم ، وتنحى عليه بالتأنيب..وخلصت من ذلك الى القول بوجوب احضار ممرضة لتعنى بأمره وتسهر على راحته .. واذ ذاك خرج عن صمته ، فقال : « أتعتقدين أن ذلك ضرورى ؟ » . فأجابت بجفاء : «بلا ريب ..والا فسوف أجد نفسى مضطرة لأن أحدث أبى فى الأمر.. وعندئذ ؛ لن يسمح لها بالبقاء فى هذا المكان يوما واحدا ! »

واضطر كليفورد ـ تحت ضغط هذا التهديد ـ للرضوخ ، بعد ان لم يعد هنالك مفر من الاذعان ، فان فكرة اختفاء كونى من افق حياته كانت تذله وتشقيه ، وتطرد النوم من عينيه !

ورحلت الشقيقتان الى لندن فى صباح اليوم التالى ،

حيث قامتا بزيارة طويلة لأحد الأطباء .. لكن الطبيب لم يتبين لدى كونى مرضا يذكر ، غير أنه استطاع أن يفهم علتها ، وان يحدس سبب نحول جسمها وشحوب وجهها ؛ فنصح لها بأن تقوم برحلة طويلة تسترد خلالها ما فقدته من حيوية ، اذ ان أعصابها كانت منهارة تماما ، وفى حاجة الى تجديد نظام معيشتها .. ثم ختم الطبيب كلامه قائلا : « عليك بالضحك والمرح ما وجدت اليهما سبيلا ، ولن تلبثى أن تستردى صحتك وقواك ! »

وعادت الشقيقتان الى القصر فى صباح اليوم التالى ؛ وبدا جليا أن كليفورد قد عانى الأمرين خلال الاربعة والعشرين ساعة الماضية : فقد نحل جسمه بشكل واضح ، وبدت فى عينيه علامات القلق والسهاد ، اذ أحاطت بهما هالتان من السواد . وانصت الى ثرثرة هيلدا وهى تهول فى أقوال الطبيب بشأن مرض شقيقتها وتكرر القول بوجوب احضار ممرضة لتعنى بأمره فورا ، والا فانها سوف تضطر الى العودة بكونى الى لندن .



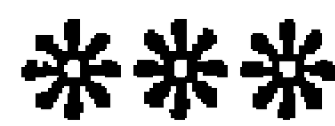
واضطر كليفورد الى الاذعان ، فاستدعى الى القصر ممرضة من أهل البلدة تدعى « مسز بولتن » ، كانت قد أظهرت مهارة فى علاجه عندما أصيب فى صغره بالجدرى ، وكانت تناهز الآن الاربعين من عمرها ، وتبدو على وجهها آثار جمال ذابل ، وكان زوجها « تد بولتن » قد توفى أثناء انفجار حدث فى احد المناجم حيث كان يعمل .

وتسلمت «مسز بولتن» مهام وظيفتها ، وأظهرت نشاطا وافرا وهمة ملحوظة للترفيه عن سير كليفورد .. فكانت تلبى طلباته ، وتعد له طعامه ، وتخرج به الى الخلاء ؛

وعلى الرغم من ذلك كان كليفورد لا يكف عن التذمر واظهار روح الضيق والسخط ، فقد اعتبر تخلي كوني — لامرأة غريبة — عن أبسط واجباتها كزوجة ، بمثابة اتجاه منها بكل احساساتها وعواطفها نحو نفسها ، ومثل هذا العمل خليق بأن يقتل ما بقي بينهما من صلة روحية وصداقة متبادلة .

وفطنت مسز بولتن الى ما كان ينتاب كوني من أزمات نفسية ، نتيجة لثورة « الحيوان » الراقد في أعماقها ؛ فأخذت تزجي لها النصح ، محاولة التسرية عنها والترفيه عن أعصابها ، قائلة : « أواه يا سيدتي الليدى ! .. لماذا تلازمين حجرتك باستمرار .. **انك في حاجة الى الشمس والهواء النقي ، ان هذه البقعة من أجمل بقاع الأرض قاطبة .. ولعمري أن نزهة قصيرة على الاقدام حتى كوخ الحارس « ميلورز » قد تفيدك كثيرا »**

فنظرت كوني اليها بدهشة واستغراب ، وقد ذكرت لتوها ذلك الحارس ، وجسده القوي الناصع البياض ، وساءلت نفسها : هل هناك معنى خفي وراء عبارتها الأخيرة ؟ وماذا تقصد على وجه التحديد ؟ .. ولكنها استطاعت أن تقنع نفسها في النهاية بأن مسز بولتن — مهما كانت الغاية او الهدف الذى تقصده — على حق ، وأن مثل هذه النزهة قد تبث في نفسها الراحة والطمأنينة !



وخرجت للنزهة في ممرات الغابة ، وسط الأشجار الكثيفة ، حتى وجدت نفسها في ساحة منعزلة ، لم تكن قد رأتها من قبل . **وهناك أبصرت بالحارس راكعا على الارض أمام حظيرة للدواجن لم يكتمل بناؤها بعد ، وقد حمل مطرقة وأخذ يدق بعض الأخشاب .**

ولما وصل الى سمعه وقع خطواتها المتسللة ، رفع رأسا فجأة واصاخ السمع ، وهو ينظر حوله فى حذر وتشكك !..
لقد كانت وظيفته الأساسية أن يمنع الدخلاء من التسلل داخل أراضى سير كليفورد !

وما أن شاهدها حتى توقف عن العمل ، ورفع قبعته محييا فى أدب .. فاقتربت كونى منه وقالت :

ــ لقد سمعت صوت المطرقة : فجئت أتبين مصدره .

ــ اننى أشيد حظيرة للدواجن ، يا سيدتى الليدى .

ودخلت كونى الى الحظيرة ، وأخذت تتأمل أدواته الملقاة على الارض فى اهمال ، بجوار وعاء من القار وبعض ألواح من الورق المقوى .. بينما عاد الحارس الى عمله ، دون أن يكترث لوجودها !.. فلم تلبث كونى أن خرجت الى الساحة وجلست على مقعد صغير ، **تتأمل ساعديه المفتولين وهما يرتفعان وينخفضان فى حركات منتظمة** .. وبدا جليا على وجهه أن وجودها يضايقه ويحد من حريته ، غير أن كونى لم تشعر برغبة فى الانصراف ، **بل انها وجدت فى مراقبتها له متعة لم تدرك لها سببا !** .. وظلت تراقبه وهو يعمل حتى غربت الشمس ، دون أن ينبس أى منهما بكلمة ..

وأخيرا ، وقفت كونى على قدميها وتقدمت نحوه ، وقد بدا وجهه المتعب جامدا ، خاليا من أى تعبير ..

ــ انه مكان جميل ومريح يا ميلورز .. ألديك مفتاح آخر للحظيرة ؟

ــ مفتاح آخر ؟ .. لماذا ؟

واذ ذاك صعد الدم الى وجهها ، فقد ضايقها انه تحدث اليها بهذه اللهجة ، كما لو كان هو المالك الشرعى للحظيرة !

.. فأجابته بنبرات آمرة توحى بالاصرار :

ــ نعم .. مفتاح آخر .

– بوسعك القاء هذا السؤال على سير كليفورد يا سيدتى الليدى ، اذ قد يكون لديه مفتاح آخر !

– حسنا .. سوف أرى ما يمكن عمله فى هذا الصدد ..

والتقت عيناها بعينيه ، فخفق قلبها بشدة ، اذ قرأت فيهما مقدار حقده عليها ، وضيقه بوجودها ! .. ثم هز كتفيه فى استخفاف وهو يلقى اليها بتحية المساء ، ودار على عقبيه وانصرف ..

***

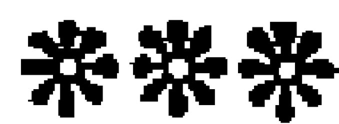
وكان كليفورد ينتظرها فى غرفة الطعام على أحر من الجمر ، فقالت بلهجة تنم عن الاعتذار : « هل تأخرت يا كليفورد ؟ .. لقد قمت بجولة فى المزرعة بالقرب من كوخ ميلورز ، وامضيت بعض الوقت فى حظيرة الدواجن التى يشيدها .. هل تملك مفتاحا آخر لها ؟ » ، فأجاب : « نعم ، لماذا ؟ » ، فقالت وهى تطرق برأسها : « لقد سرت الراحة الى نفسى هناك .. لذلك قررت أن أكرر الزيارة كلما سمحت لى الظروف » .. فسألها وهو يحدجها بنظرة ثاقبة : « أكان ميلورز هناك ؟ » ، فأجابت : « نعم .. وقد بدا جليا أنه يضيق بوجودى .. وبالاختصار ، **لقد عاملنى بوقاحة وسوء أدب !** » . فضحك كليفورد وقال : « **انها طبيعته .. فهو يكره النساء ولا يأمن جانبهن .. فقد فرت زوجته مع رجل آخر !** »

***

وفى صباح اليوم التالى جلست كونى الى مائدة الطعام بجوار كليفورد ، يتناولان أفطارهما فى صمت واكتئاب .. وفجأة سألته ، بغير مقدمات : « كليفورد .. هل يسرك حقا أن أنجب طفلا ؟ » .. ففكر قليلا ثم قال : « حسنا .. ان

الأمر لا يهمني ما دام وجوده لن يضعف من حبنا .. كل ما اخشاه ان يفتر حبك لي وافقدك الى الأبد ! » .. فتطلعت اليه وقالت ببطء : « انني واثقة ان وجود الطفل لن يبدل من شعوري نحوك يا كليفورد ! » . فأطرق برأسه ، وقال في وهن : « هذا كل ما يهمني من الأمر .. فلا شك أن وجود طفل ـ اى طفل ـ كفيل بأن يبعث الحياة فى هذا القصر الساكن العتيق .. كما انني سوف أجد عزاء فى انه طفلك انت ! »

وكان يبدو جليا أن الكلمات تخرج من صميم قلبه ووجدانه ، عن اقتناع .. وانه يعنى تماما ما يقول .



وكثر ترددها على حظيرة الدواجن ، حيث كانت تقضى وقتا طويلا ، بمفردها ، فى تأمل الدجاج والافراخ الصغيرة . وكان الربيع قد بدأ ينشر ظلاله على الغابة ، فنمت الأزهار البرية ، وانتشر اريجها فى الجو .. وذات يوم ، وجدت ميلورز يغلق باب الحظيرة ، استعدادا للانصراف الى كوخه ، فاستوقفته قائلة :

ـ لقد حضرت لأرى الافراخ الصغيرة ..

ثم جلست على الأرض ومدت يدها داخل القضبان ، لتلتقط احد الكتاكيت ، فاذا الدجاجة الأم تنقض على يدها فتنقرها بشدة .. فسحبت كونى يدها مجفلة وقالت : « انها لا تريدنى أن أمسك بصغارها .. انها تكرهنى ! » .. فضحك ميلورز لسذاجتها وجلس الى جوارها ، ثم زحف بجسده نحو الحظيرة ، ومد يده فالتقط كتكوتا صغيرا ووضعه فوق كف كونى . فأحست بحرارة المخلوق الرقيق

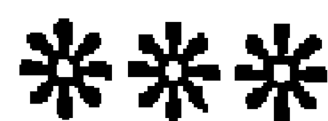
تسرى فى جسـدها ، وبدا التأثر عليها ، فأخذت الدموع تنهمر من عينيها وتسيل على وجهها ..

وسقطت قطرة منها على ذراع ميلورز ! .. فذاب قلبه وانصهر ، كالحمم السائلة ، ثم مد يده فأراح أصابعه فوق ركبتها ، وقال : ((**لا تبكى بالله .. لا تبكى بحق السماء !))** .. فأخفت وجهها بساعديها وقد أحست بأن قلبها قد تحطم ، وانه لم يعد ثمة ما تبالى به بعد ذلك ..

ووضع يده على كتفها ، ثم انحدر بها ، فى نعومة ورقة ، تجوس خلال ظهرها ، بحركة غريزية عمياء .. وهمس لها بصوت خافت أجش : « هلا ذهبنا الى الكوخ ؟ ! » .. ثم أغلق يده برقة على أعلى ذراعهـا ، وجذبها متجها بها نحو الكوخ ، فى خطوات بطيئة متعثرة ، دون أن يفلتها الا بعد أن صارا فى الداخل .. وهناك ازاح المنضدة والمقعد جانبا ، وتناول « بطانية » ففرشها فى تؤدة .. **بينما وقفت ((كونى)) ساكنة بلا حراك ، تتفرس فى وجهه الذى علاه الشحوب ، وبدا خلوا من التعبير ، شأن رجل قد استسلم للأقدار !**

وأشار لها الى الفراش ، ثم اغلق الباب ، فساد الظلام .. ظلام دامس !

وفى طاعة عجيبة ، استلقت على الفراش .. واذ ذاك أحست بيده العاشقة تتلمس جسدها ، وتربت على وجهها .. ثم أدركها أخيرا ملمس قبلة ناعمة على خدها .



وحين افاقت ، لم تملك نفسها من التساؤل : لماذا كان ذلك ضروريا ؟ .. لماذا تحس كأنه قد ازاح غمامة ثقيلة كانت جاثمة على روحها ، ومنحها سكينة النفس ؟ .. أو كان

الأمر حقيقيا ؟ .. أم انها تحلم ؟ .. ان ذهنها الأنثوى المعذب لا يزال قلقا ، تستعصى عليه الراحة .. أو كان الأمر حقيقيا ؟

وكان الرجل راقدا بلا حراك .. **بماذا كان يشعر ؟ .. فيم كان يفكر ؟ .. انها تجهل أفكاره وأحاسيسه . انه بالنسبة لها رجل غريب . انها لا تعرفه ! .. كل ما تملكه هو أن تنتظر .. فانها لا تجرؤ على قطع حبل هذا الصمت الغامض الذى يشمله .. لكم هو قريب منها .. ولكم هو مجهول منها تماما ! .. لكنه كان ساكن النفس . صمته ذاته كان سكينة !**

ولقد أدركت ذلك ، حين نهض اخيرا .. وابتعد عنها .. وكأنه يهجرها ! .. لقد توقف لحظات ، ثم فتح الباب بهدوء .. وخرج !

ومن فرجة الباب لمحت هى قمرا مشرقا فوق أشجار البلوط .. فنهضت مسرعة ، وأصلحت من شأنها .. ثم اتجهت نحو الباب .

- ٦ -

دخلت كونى فى الصباح التالى حجرة المكتب ، فوجدت كليفورد هناك . وما ان وقع بصره عليها حتى بدأ ثرثرته المعتادة ، لكنها لم تع منها شيئا . اذ كان ذهنها شاردا ، يحوم حول ذلك الكوخ . وميلورز .. ترى أين هو الآن ؟ .. وماذا يفعل ؟

واستيقظت من تأملاتها على صوت كليفورد يسألها : « هل تودين أن أقرأ لك قليلا؟ » ، فالتفتت نحوه ، وتفرست فى وجهه بامعان .. ماذا يقول هذا المجنون ؟ .. الا يعقل الأمور ؟ .. ماذا يريد منها الآن ؟ .. ألا يدرك انها لا تطيق

الاستماع الى قراءاته المملة ؟ .. واعتذرت له بأنها تشعر بصداع شديد . وصعدت الى غرفتها .. حيث ظلت تتقلب فى فراشها ، حتى أرخى الليل سدوله ، فانسلت من القصر ، وأوسعت خطاها نحو الكوخ ..

وجلست على عتبة بابه ، تنتظر عودة ميلورز الى مأواه ، وقد ساورها القلق لتأخره .. ماذا حدث ؟ .. أيكون قد ندم وقرر هجرانها ؟ .. وأخيرا وصل الى سمعها وقع خطواته ، فاهتز جسدها كريشة فى مهب الريح .. فلما رآها ، قال بلهجة عطف : « آه .. ها أنت ذى قد عدت ثانية » .. فرمقته بنظرة حب ووله، وغمغمت : « نعم .. لماذا تأخرت ؟ » ، فربت على كتفها وهما يدخلان ، وقال : « ألا تخشين أن تلوك الافواه علاقتنا ؟ » ، فنظرت اليه طويلا وقالت : « ماذا تعنى ؟ » .. فأجاب : « أعنى .. أن حضورك هكذا فى جوف الليل » ، فقالت غاضبة : « لكن أحدا لم يلحظ حضورى »

ــ اليوم ، نعم .. ولكن ، ماذا عن الغد ، وبعد الغد ؟ .. أتعتقدين أن علاقتنا ستظل الى الأبد سرا مكتوما ؟

فهزت كتفيها باستخفاف ، وقالت : « لست أبالى ! »

ــ هل أفهم من هذا أنك مصرة على الحضور، رغم كل شىء !

ــ نعم ، رغم كل شىء !

ــ ولكن ماذا يحدث لو شاع الأمر ؟ .. فكرى قليلا .. اننى شخص متواضع الاصل .. اما أنت .. ان هذا لخليق بأن يضعك فى مركز حرج .. شديد الحرج .. ماذا يحدث لو عرف سير كليفورد وسواه بالأمر ؟ .. لسوف تصبح سمعتك مضغة فى الافواه ، مما قد يدفعك الى احتقار نفسك !

فهزت كتفيها بلا اكتراث ، وقالت :

ــ فى وسعى عندئذ الرحيل !

ــ الرحيل ؟ .. الى أين ؟

ــ الى حيث أشاء .. اننى أملك عشرة آلاف جنيه ، وبوسعى أن أرحل الى أى مكان ، حيث لا أعرف أحدا ولا يعرفنى أحد !

ــ انك تنسين أنك « الليدى تشاترلى » .. أو تضحين بمركزك هذا من اجل خادم من خدمك ؟

ــ الليدى تشاترلى ؟ .. اننى لا أهتم بذلك .. فكل هذه الألقاب زيف ونفاق .. ولطالما احسست برنة التهكم فى كل صوت كان يدعونى بهذا اللقب المقيت .. حتى انت يا ميلورز ، يا من تدعو نفسك خادما من خدمى ؛ الا تذكر كم كنت تسخر منى ، خلف قناع الأدب والاحترام ؟

ــ على رسلك اذن ! .. لقد أنذرتك .. فلن اكون انا الخاسر على أى حال ..

ــ أو تعتقد اننى الخاسرة ؟

واقترب منها خطوتين ، واحاط كتفيها بساعديه القويين ، فرفعت يدها وأخذت تداعب خده بأناملها المرتعشة ، وهى تبتسم ..

ــ ٧ ــ

وفى اليوم التالى ، عاودها الشعور بالمذلة والعار ، واحتقار ذاتها . **كيف سمحت لهذا الرجل بأن يلوثها ويهبط بها الى هذا الدرك ؟ !**

.. وصح عزمها على قطيعته ، فبذلت خلال الأيام التالية جهدا كبيرا فى مغالبة عواطفها .. ولازمت غرفتها ، حيث ذرفت دموعا غزيرة ؛ فقد ادركت مقدار ما انحدرت اليه

من الهوان والضعة .. لقد قاست كثيرا ، وكاد صراعها مع نفسها أن يدفعها الى الجنون !

وفى اليوم العاشر شعرت بقلق مرير ، فخرجت من القصر وسارت على غير هدى فى الهواء الطلق ، **وتعمدت أن تسير فى الاتجاه المضاد للكوخ ، اذ كانت قد قررت ان لا ترى ميلورز ثانية ! .. لو انه كان من طبقتها لاختلف الأمر .. أما وهو خادم أجير حقير .. !**

وحثت خطواتها وهى لا تنى عن التفكير ، حتى وصلت أخيرا الى الغابة ، فجلست فى ظل شجرة وارفة ، وانهمرت من عينيها الدموع .. رباه ، لافائدة .. لافائدة !!.. وفجأة رفعت راسها ؛ فقد وصل الى سمعها صوت تهشم أعشاب جافة تحت وطء أقدام ثقيلة ، فالتفتت الى الخلف بحركة غريزية، فأبصرت ميلورز قادما نحوها ، بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين ، وعيناه تقدحان شررا ، وهتفت مأخوذة : «ميلورز!» ، فتوقف على مقربة منها ، وحدجها بنظرة ثاقبة .. ثم قال : « ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ .. هل ذهبت الى الكوخ ؟ » ، فأجابت بصوت خافت : « كلا .. ولم أكن أزمع الذهاب الى هناك ! » .. فقال بقسوة : **« أحقا ؟ .. ألم تدركى بعد انه لم يعد فى وسعك الهرب من حياتى هكذا ؟ . انك ملك لى ، وستظلين كذلك الى أن يطويك القبر .. »**

وتهالك الى جوارها فوق العشب ، وأحاط جسدها بساعديه وضمها الى صدره بعنف ، فبذلت جهد المستميت كى تدفعه عن نفسها ، غير أن مقاومتها لم تلبث أن ضعفت ، فتلاشت ارادتها .. وتبدد احترامها لذاتها !

وسار الى جوارها فى الظلام حتى بوابة القصر ، حيث ودعها وعاد ادراجه ، فصعدت الدرج وقد سرى الخدر

الى اعصابها .. لقد عاد اليها شبابها ، وعادت عروقها تنبض بدماء الحياة .. وفجأة ، طرأ على ذهنها سؤال هام ، جدير بالتدبر : ماذا لو انجبت منـ .. منه .. طفلا !

***

واعتذرت الى كليفورد عن تأخيرها بأنها كانت فى نزهة قصيرة ، فلم تبد عليه أية بادرة من الشك فى صدقها ، **غير ان مسز بولتن رمقتها بنظرة تحمل كل معانى الهزؤ والاستخفاف ، اذ كانت واثقة ـ فى اعماقها ـ من أن سيدتها كانت على موعد مع عشيق .. لكن ترى من هو ؟ .. ومن اين لها أن تجده ؟ !**

وقال لها كليفورد : « ماذا تودين أن أقرأ لك الليلة ؟ » ، فأجابت بلا اكتراث : « اننى أفضل الاستماع الى بعض أشعار راسين » ! .. وكان راسين شاعره المفضل ، وكان يجد متعة فى قراءة أشعاره بصوت عال ، فأرادت ارضاءه .. وبدا كأنه ادرك مرادها ، فتناول الكتاب واخذ يتلو الشعر بمذلة ومرارة ، وكانت كونى ترمقه بين الفينة والأخرى بنظرات تفيض باليأس والقنوط .. ما ذنبه يا ربى ! ؟

وعند ما انتهى من القراءة استيقظت من تأملاتها وقالت : « اشكرك يا عزيزى .. لقد كانت تلاوتك لشعر راسين رائعة » ، فقال بأسف بالغ : « أنا الذى يجب أن يشكرك يا كونى ، لانك تنازلت بالاستماع الى » .. فأجابت : « ان أشعار راسين توحى بالتأملات والأحلام .. انها تدفع النعاس الى أجفانى .. طابت ليلتك يا كليفورد » .

وأخذ يراقبها وهى تبتعد ، بنظرات زائغة .. ولما اختفت عن ناظريه ، سقطت على خده دمعة ، وشعر فى أعماقه

ان الرباط الذي بينهما قد وهن ! .. ولأول مرة تجسمت مام ناظريه فكرة هجرها له ، كأنها الموت ، مرعبة ، مخيفة !

***

وأما « كونى » ، فما أن أراحت رأسها فوق الوسادة ، حتى راحت فى سبات عميق ، فلقد فارقها الأرق والقلق ، اللذان انتقلا الى الحارس ميلورز .. فحين ودعها عند بوابة القصر فى تلك الليلة ، عاد الى كوخه مهموما ، فجلس بجوار المدفأة ومد قدميه فوق مقعد أمامه ، وغرق فى لجة من التفكير .

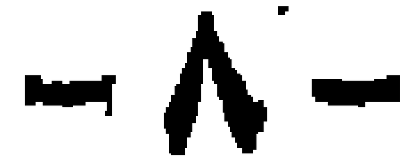
لقد عاد الى ذاكرته طيف طفولته وأيام شبابه ، وذكرى زوجته التى هجرته لتعيش مع أحد عمال المناجم ، تاركة طفلتها فى كنف أمه .. تبا لها من عاهرة !

وتذكر حياته التى قضاها فى سلك الجيش ، وما لاقاه من أهوال القتال فى الهند ومصر . وعندما التحق بخدمة سير كليفورد تشاترلى ظن أنه سيجد الراحة والسلام فى هذه الضيعة المنعزلة ، ولكن ، فجأة تظهر فى أفق حياته امرأة ، تسعى خلفه وتطارده ، فتعكر عليه صفو وحدته ! .. ماذا ينبغى عليه أن يفعل ؟ .. أيستمر فى علاقته بها ، أم يقصيها عن حياته الى الأبد ؟ .. **ان ضميره يبكته على خيانة سيده المقعد ! .. وتململ فى مقعده حانقا ، وشعر بأنفاسه تضيق .. يجب أن يضع حدا لهذه العلاقة الآثمة ، التى لن يجنى من ورائها سوى الشقاء والأحزان !**

وأخيرا نهض من مقعده بتثاقل وارتدى سترته وغادر الكوخ . كان الليل هادئا ، والدنيا غارقة فى ظلام دامس ، وسرت برودة الجو الى جسده ، فتمنى لو كانت كونى بجواره فى تلك اللحظة ، ليضمها بين ذراعيه ويستمد الدفء من حرارة

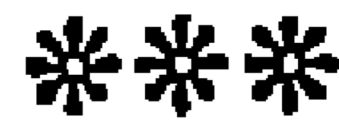
جسمها .. ولكن ، أين تراه يجدها الآن ؟ .. لا ريب انها تنعم فى تلك اللحظة بالنوم وقد طوت جسدها بالأغطية الوثيرة !

وعندما وصل الى أسوار القصر رأى الضوء يشع من غرفة سير كليفورد ، وحاول ان يهتدى الى غرفتها .. ولما باءت محاولته بالفشل استدار على عقبيه عائدا نحو كوخه . وفى تلك اللحظة اقتربت مسز بولتن من النافذة وازاحت الستائر جانبا ، فلمحت شبحا يتسلل عند باب الحديقة .. وحاولت أن تتبين ملامح وجهه فى الظلام .. وفجأة ،انبلجت الحقيقة أمامها : انه ميلورز ! .. وقد حضر لموافاة سيدتها .. اذن ، فميلورز .. هو عشيق الليدى تشاترلى !



وانقضت أيام ، أحست كونى بعدها بثمرة علاقتها بميلورز ، تتحرك فى أحشائها !..ولم تدر هل أثار هذا الحدث سرورها أم حزنها ؟ .. وأخذت تقلب الأمر على وجوهه .. ماذا يحدث لو علم كليفورد بالحقيقة ؟ .. ولكن ، ترى أينبغى أن يعرف الحقيقة بحذافيرها ؟ .. كلا .. بل عليها أن تخفى شخصية والد الطفل ، **فهذه الصدمة قد تفقده عقله ! .. آه لو علم أن الشخص الذى قام بوظيفته هو ميلورز .. الخادم .. الحقير .. رباه ، ماذا ينبغى أن تفعل ؟**

وأخيرا استقر ذهنها على خطة ماهرة : لماذا لا تلبى ـ مع أبيها وشقيقتها ـ دعوة أحد أصدقاء الأسرة لهم لقضاء أسابيع فى « الفيللا » التى استأجرها فى (فينيسيا) .. حتى اذا ما حان وقت الوضع ظن كليفورد أن عشيقها كان ايطاليا لايعرفه ، ويبعد عنه مئات الأميال، فتوفر عليه مذلة الغيرة ، وتهون من شأن فعلتها !



ورحلت كونى الى لندن ، حيث مكثت أسبوعا ، غير انها ما لبثت أن ضاقت بالحياة هناك وتولاها حنين الى (رجبى هول) ، والضيعة .. والكوخ !

واستقبلها كليفورد بعطف وشوق زائدين ، وظل يتحدث اليها وقتا طويلا ، ويسألها كيف قضت وقتها فى لندن .. فكانت تجيبه باقتضاب ، اذ كان ذهنها شاردا نحو الكوخ ، وميلورز ! .. ترى اما زال هناك ؟ .. وماذا يفعل الآن ؟ .. أتراه يحقد عليها لسفرها دون أن تخطره ؟

وعندما أوى كليفورد الى فراشه فى تلك الليلة . جلست كونى مع مسز بولتن تجاذبها أطراف الحديث ، وفجأة سألتها : « هل فقدت زوجك منذ وقت طويل يا مسز بولتن ؟ »

ــ منذ عشرين عاما ..

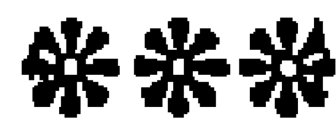
ــ يا الهى .. انه لعمر طويل !

ــ نعم ، عمر طويل .. طويل جدا !

ــ وهل كان يحب الأطفال ؟

ــ نعم ، قبل ان اضع طفلى الوحيد .. لا زلت اذكر تلك الليلة الرهيبة ، ليلة أن جاءنى المخاض .. كنت أعانى آلام الوضع ، فقبع الى جوار فراشى يراقبنى فى جمود ، وخيل الى أن صرخاتى تنفذ الى قلبه ، وان ألمه يفوق ألمى ، فلما انتهت الأزمة قلت له : « تشجع يا « تد » .. ان كل شىء على ما يرام »، فابتسم ابتسامة شاحبة وقال : « **سحقا لهذا الطفل ! .. لقد جلب لك المتاعب والآلام .. انه لظلم فظيع يحيق بالمرأة مقابل الاستمتاع بلحظة عابرة من الحب ! » . ومنذ تلك اللحظة هجر فراشى كيلا يحملنى**

مثل هذا الألم مرة أخرى .. مسكين تد .. لطالما أفهمتـ
أن هذا الألم هو دنيا المرأة ، وان جحيمه هو نعيمها !
ـ وهل كنت مغرمة به ؟
ـ مغرمة به ؟ .. لقد كنت أعشقه لدرجة الهوس
والجنون . فهنالك نوع من الرجال يسرى حبهم فى عروق
المرأة ، مسرى الدم !
فبدا الاهتمام على وجه كونى وسألتها ، وقد ذكرها هذ
القول بميلورز ! : « أو يصعب ــ فى هذه الحالة ــ على المرأ
الخلاص من ذلك الحب ؟ »
ـ أوه يا سيدتى الليدى .. ان المرأة تحمل وتلد وتقض
العمر فى تربية طفلها وتنشئته ، وعندما يشب ويصبح رجلا
تنتزعه امرأة غريبة من بين أحضانها ، فلا تحزن ولا تندم ..
بينما تموت كمدا لو اختطفت امرأة أخرى زوجها ! ـ واقصد
بالزوج : الزوج الرجل .. السيد ! !



وذات ليلة .. انسلت كونى من فراشها ، واتجهت صوب
الكوخ . كان ميلورز يتناول عشاءه فى صمت واكتئاب . وما
كاد بصره يقع عليها عند عتبة الباب حتى كف عن الأكل وظل
فى مقعده ينظر اليها دون أن يفوه بكلمة ، فهمست بصوت
خافت : « هل تسمح لى بالدخول ؟ » ، فقال بهدوء : « بلا
ريب » ، فأردفت : « هل اعتدت تناول العشاء هكذا
متأخرا ؟ » ، فقال وهو يطرق برأسه : « نعم » ، وأكب على
طعامه من جديد !
فلما انتهى من تناول عشائه رتب المائدة فى صمت ،
خلع سترته ، ووقف أمامها متسائلا : « هل نبدأ ؟ »

فذهلت ، وقالت مأخوذة : « نبدأ ؟ .. نبدأ ماذا ؟ » ، فلم يكف عن طريقة حديثه الهجومية المذلة ، وأجاب : « نبدأ الحياة ! » .. ثم أردف ، بسخرية مرة : « هل أغلق الباب ؟ » .. فلم تجب بحرف !

ولما عاد الى مكانه نظرت اليه فى ذلة وسألته : « لماذا تتحدث الى بمثل هذه المرارة ؟ » ، فأجاب متمهلا : « هكذا انا دائما ؛ اذا ما عكر على احد صفو وحدتى » ، فأطرقت برأسها وقالت :

ــ لن أعكر عليك صفو وحدتك طويلا .. فسوف أرحل مع أبى وشقيقتى الى ايطاليا قريبا !

ــ وهل سيرحل سير كليفورد معك ؟

ــ كلا .. لقد آثر البقاء هنا .

ــ وهل سيطول غيابك ؟

ــ ربما ..

وساد بينهما صمت طويل ، قطعته كونى أخيرا قائلة :

ــ لقد صارحت كليفورد باننى اتوق الى انجاب طفل !

ــ أحقا ؟ .. وماذا كان جوابه ؟

ــ لم يعترض .. فهو يعتقد ان ذلك بالنسبة الى يعد شعورا طبيعيا .

ــ ياله من بائس .. وهل تحدثت اليه بشأنى ؟

ــ كلا ..

ــ هذا طبيعى .. ولكن، ماذا سيكون تفسيرك للموقف ؟

ــ سوف أوحى اليه بأن لى عشيقا فى ايطاليا !

ــ وهل .. هل انت حبلى ؟

فهزت رأسها بالايجاب .. واذ ذاك نظر اليها ، ثم قال بمرارة :

ــ لقد فهمت .. اذن ، فهذا هو مادفعك الى الارتماء فى

أحضاني .. لكي تحصلي على طفل !

ـ كلا .. كلا .. ليست هذه هي الحقيقة !

ـ اذن ، ماهي الحقيقة ؟ .. على كل حال لن أضار بشيء اذا انجبت طفلا ، مادام سير كليفورد سوف يتكفل به ! .. وليست هذه هي المرة الاولى التي احقق فيها فائدة للغير ، دون أن تعود على فائدة ما .. **حسنا ، الواقع انني قد تقاضيت أجرى ! .. ألست أعمل أجيرا عنده ؟ .. لقد نقدني مالا ، فوهبت زوجته سرورا ومتعة .. وطفلا صغيرا !**

فدمعت عيناها ، وهتفت :

ـ أقسم لك ان ذلك لم يدر بخلدى !

ـ على كل حال .. انني في خدمتك دائما يا سيدتي الليدى !

ـ كلا .. لاتتفوه بمثل هذا الكلام .. لقد أحببتك دائما .

ـ لست انكر انني أحببتك أيضا .. غير ان ..

ـ كلا .. هذا غير صحيح .. فلو احببتني حقا لما عاملتني بمثل هذه القسوة !

ولم يجبها ، وانما اقترب منها ، وأحاطها بذراعيه .. ثم دفعها نحو الفراش ..

***

وهمست كوني بصوت خافت : « ميلورز .. صارحني .. هل تحبني ؟ .. وهل ستظل على حبك لى على الدوام ؟ »

فلم يجب ، وانما نظر اليها وقال :

ـ هيا .. آن موعد عودتك الى القصر !

ـ ليس في وسعي أن اتركك يا ميلورز !

ـ لقد تأخرت يا كوني ..

ـ لست أبالى .. لم أعد ابالى بشىء يا ميلورز !
فانحنى نحوها وقبلها ، وعاد يضمها الى صدره ..

- ٩ -

فتحت كونى عينيها فى الصباح ، فوجدت نفسها راقدة فى فراشه .. فذعرت وارتجف جسدها بشدة ! .. كيف جرؤت على المبيت خارج القصر ؟ .. وكيف تفسر موقفها أمام كليفورد ؟ .. ولكن ، ليحدث ما يحدث ، فما عادت تبالى بشىء ! .. وقفزت من الفراش ثم ارتدت ثيابها فى عجلة ، ودخلت الى الفرفة المجاورة لتصلح من شأنها وتصفف شعرها .. وعندما عادت وجدت ميلورز جالسا فى الفراش ، فسألته : « صورة من هذه المعلقة فى الداخل ، ياميلورز ؟ » فأجاب ببطء : « صورة زوجتى » .. فاقتربت منه وجلست الى جواره ، ثم قالت : **((ألا زلت تحبها ؟))** .. فأجاب : « أحبها ؟ .. أوه .. كلا » ، فسألته : **((لماذا اذن تحتفظ بصورتها ؟ .. لماذا لم تحرقها ؟))** ، فأجاب : « لست أدرى .. الواقع ان هذه الفكرة لم تخطر على ذهنى .. »

وران الصمت عليهما بعض الوقت ، ثم سألته :

ـ أخبرنى يا ميلورز .. ما الذى دفعك الى الزواج منها مادمت لاتحبها ؟

ـ انه القدر .. فقد كانت أول تجربة لى ، وكنت اذ ذاك غرا يافعا فى العشرين ، وكانت تكبرنى بخمسة أعوام ، وتفوقنى خبرة وتجربة ، فاستطاعت أن تنصب شباكها حولى .. غير اننى لم اوفق الى ارضاء عواطفها الثائرة التى لاتخمد .. فانتهى زواجنا بالفشل ، وهربت هى مع عشيق

لها استطاع ان يستحوذ عليها بمعاقرة الخمر وادمان المخدرات !

وتبينت كونى المرارة فى صوته ، فأحاطته بساعديها وهمست ، محاولة تغيير مجرى الحديث : « هل تحبنى يا ميلورز ؟ » ، فلم يجب .. فضمته بشدة وغمغمت : **«إذا لا تجيب ؟ .. قل انك تحبنى .. لا تدعنى أغادر هذا المكان ، ولنعش معا حبيبين الى الأبد ! »** .. لكنه ظل معتصما بالصمت ! .. فقالت وقد انفعل صوتها بالغضب : « أتعلم ان ميعاد سفرى الى ايطاليا قد اقترب ؟ » .. فلم تختلج فى وجهه عضلة واحدة ، وقال بهدوء : « احقا ؟ .. أتمنى لك رحلة طيبة » .. فأثارها هدوؤه وعدم اكتراثه ، غير انها اخفت مايعتمل فى صدرها وقالت :

ـ ان الضرورة تحتم على الاسراع بالرحيل .. وعندما أعود سوف أبتكر قصة أبرر بها حملى ، ثم أصارح كليفورد بأنتى سوف أهجره ، واعلنه بالقطيعة .. وعندئذ يتسنى لنا أن نرحل سويا الى بلد آخر ، لنعيش حياة جديدة .. بوسعنا الرحيل الى استراليا .. أو .. شرق افريقيا !

ـ هل سبق لك ان زرت المستعمرات ؟

ـ كلا .. ولكننى على استعداد لأن أذهب الى أقصى الأرض معك .. ألست ترغب فى الهرب معى ؟

ـ بلى ، ولكن كل شيء مرهون بوقته وظروفه !

ـ كيف ؟ .. أراك لا تبدو عليك اللهفة على الابتعاد عن هذا المكان .. الا يسعدك أن أعيش بجوارك دائما ؟ .. ان لدى ريعا يقدر بستمائة جنيه فى العام ، وهو كفيل بأن يوفر لنا أسباب العيش .. الا تعتقد ذلك ؟

ـ بلا ريب .. فمثل هذا المبلغ يعتبر ثروة بالنسبة لى .
ـ انني واثقة بأننا سوف نكون سعداء ، لاسيما عندما ننجب الطفل !
ـ الطفل ؟ .. لست أدرى لماذا أشعر بالمرارة كلما جالت هذه الفكرة بذهنى ! .. يخيل الى انه من الظلم ان ندفع طفلا بريئا الى غمار هذه الدنيا ، المليئة بالشرور !
فهتفت كونى فى حنق : « ميلورز .. أرجوك .. لا تتفوه بمثل هذا الكلام .. انه طفلنا .. وثمرة حبنا .. انك بذلك تحطم قلبى وتفجعنى فى أحلامى ! .. قل أنك سعيد ! »
فربت على كتفها بعطف ، وقال :
ـ انني سعيد .. اذا كنت سعيدة ياكونى .
ـ أوه .. لكم أشعر بالسعادة عندما أتصور أحلامنا وأمانينا فى طريقها الى التحقق .. بمجرد عودتى !
ـ ولكن ، ما فائدة عودتك الى زوجك اذا كنت عازمة على معاودة الهرب ؟
ـ لقد وعدت كليفورد بأن أعود ، وسأبر بوعدى .. الى جانب انني سوف أعود من أجلك .
فقال بصوت تشوبه رنة التهكم والاستهزاء :
ـ نعم ، من أجل عشيقك .. الحارس ميلورز !
وران عليهما الصمت مرة أخرى ، وأخيرا قالت :
ـ أخبرنى يا ميلورز ، بصراحة.. الا تعتقد انه من الحكمة ان أسافر الى ايطاليا ؟
ـ بلا ريب .. اذ يتسنى لى خلال هذه الفترة ان أقيم دعوى الطلاق على زوجتى ، كما يمكنك انت الاخرى التفكير فيما انت مقدمة عليه ..
فأطرقت برأسها ، وقالت : « سوف أحضر لزيارتك ليلة رحيلى .. فهل تنتظرنى يا ميلورز ؟ »

ـ بلا ريب .. **ولـكن ، ألا ترين انه من الخطورة بمـكان حضورك أثناء وجود شقيقتك بالقصر ؟**
ـ انها تعلم ان لى عشيقا !
وسارت صوب النافذة ، وأخذت تتأمل الريح التى كانت تزمجر فى الخارج ، والمطر الذى كان ينهمر بغزارة !

ـ ١٠ ـ

كاد كليفورد ان يفقد عقله حين اكتشف ان كونى ليست فى القصر ! .. وأخذ يسأل عنها الخدم فردا فردا ، ولـكن احدا لم يقرر انه رآها تخرج .. فجلس الى جوار النافذة يراقب الريح وهى تعصف بأوراق الشجر ، وقد كادت الدموع أن تطفر من عينيه ! .. ولاحظت مسز بولتن مايعانيه من قلق ، فأرادت أن تبعث الطمأنينة الى قلبه .. فأكدت له انها شاهدت الليدى تشاترلى تغادر القصر عند الفجر ، قبل هبوب العاصفة .
ولكن كليفورد لم يقتنع بقولها ، بل صاح فى غضب :
ـ لقد بدأت العاصفة عند الفجر .. فكيف جرؤت على الخروج .. انه لجنون .. جنون مطبق !
وسكت قليلا ، ثم أردف : « متى غادرت القصر ؟ » ، فأجابت مسز بولتن فى هدوء : « حوالى السادسة صباحا يا سيدى » .. فأطرق برأسه وتمتم : « الله وحده يعلم أين هى الآن ؟ »

***

.. **وانقطع** المطر عند الظهر ، والليدى تشاترلى لم تعد ! .. فعاد القلق يساوره ، وأخذ يتململ فى جلسته وقد علا وجهه شحوب أقرب الى شحوب الموت .. ثم قال وهو يضغط بأسنانه على شفته حتى كاد يدميها :

ـ لافائدة يا مسز بولتن .. لقـد وقع لها حادث ! .. فابعثي بمن يبحث عن جثتها فى الغابة !

ـ اوه .. لاتقل هذا القول ياسيدى .. انني واثقة انها فى خير حال .. وسأذهب حالا للبحث عنها .

.. وكانت تعرف أين ستجدها ! .. فاتجهت رأسـا شطر كوخ ميلورز ، لكنها قبل ان تبلغه التقت بهما فى منتصف الطريق ، فاندفعت نحو كونى بصوت مرتجف :

ـ أوه يا سيدتى الليدى .. ان سيدى اللورد كليفورد فى أسوأ حال ، وقد كاد يفقد عقله خوفا وقلقا عليك !.

فقال ميلورز بلطف : « ان سيدتك الليدى لم تصب بسوء يامسز بولتن .. طابت أمسيتكما » ؛ وأدار لهمـا ظهـره وابتعد ! .. وما كاد يختفى عن أبصارهما حتى قالت مسز بولتن :

ـ أرجو الا تغضبى ياسيدتى الليدى .. لقد كاد سـير كليفورد ان يبعث بالخدم للبحث عنك .. لولا انني تدخلت فى الوقت المناسب وأكدت له اننى شاهدتك تغادرين القصر عند الفجر !

ـ لقد غادرت القصر فعلا عند الفجر .. ماذا فى ذلك .. الا يحق لى الخروج وقتما أشاء ؟

واشتعلت عيناها بنيران الغضب وأردفت :

ـ كيف سمحت لنفسك بأن تتدخلى فى شـئونى ؟ .. ما شأنك بى ؟

وحين وصلت الى القصر، اندفعت نحو كليفورد وصاحت ثائرة :

ـ لماذا لم ترسل خدمك للبحث عنى ؟

وما ان بلغ صوتها اذنيه حتى اختفت من وجهه علامات القلق ، وابتدرها هاتفا :

ـ يا الهى .. أين كنت أيتها المرأة ؟ .. أين كنت فى هذه العاصفة الهوجاء ؟

ـ وماذا لو رفضت الاجابة على هذا السؤال ؟

فتحول لون وجهه من الاحمرار الى الاصفرار ، ودارت عيناه فى محجريهما، وارتجفت يداه بشكل ظاهر ، وفتح فمه ليتكلم .. ولكن الكلمات ماتت على شفتيه ، **فشعرت كونى بالندم يغزو قلبها ، فاقتربت منـه وربتت على كتفه بعطف ومودة ، وقالت :**

ـ اننى آسفة يا كليفورد .. كان يجب أن تعلم اننى لابد قد التجأت الى مكان ما من الغابة حتى تهدأ العاصفة ..

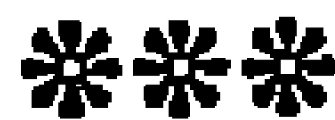
ـ هيا وأبدلى ثيابك المبتلة ، اذ أخشى أن يصيبك البرد بمكروه ..

ـ كلا .. لن أصاب بشىء ، سيما واننى شـديدة الرغبة فى القيام برحلتى الى ايطاليا

فتجهم وجهه وقال : « الا زلت مصرة على الرحيل ؟ »

ـ نعم ، وسوف تحضر هيلدا مساء الخمس لتصحبنى الى لندن ، ومن هناك سوف نستقل البـاخرة .. **لـكننى أكرر وعدى بأننى سـوف أعود ثانية ، ولن أتغيب أكثر من أسبوعين أو ثلاثة على أكثر تقدير .**

فأطرق برأسه ولم ينبس ببنت شفة !



ووصلت هيلدا الى « رجبى هول » صـباح الخميس ، تبدو على قسمات وجهها أمارات التعب والارهاق . وكانت كونى قد أعدت مستلزمات الرحيل ، فاقبلت على كليفورد تودعه بحرارة ، ثم التفتت نحو مسز بولتن قائلة : « أرجو

ان تعنى به يامسز بولتن ، وتوفرى له أسباب الراحة حتى أعود .. أتعدينني بذلك ؟ »

ــ بلا ريب يا سيدتى الليدى .. بلا ريب .

ولما عادت الى حجرتها ، سألتها هيلدا : « هل أعددت نفسك للسفر ؟ » ، فبدت على وجهها المباغتة وقالت : « أوه يا هيلدا .. لن أرحل معك الليلة ، اذ اننى مضطرة الى البقاء على مقربة من هنا .. طوال الليل ! » .. فانفرجت شفتا هيلدا عن ابتسامة باهتة وقالت : « على مقربة من هنا ؟ .. أين ؟ » .

ــ لعلك تعلمين أن لى عشيقا .. وقد وعدته أن أقضى الليلة الأخيرة معه قبل الرحيل ! »

وساد بينهما صمت طويل ، قطعته هيلدا أخيرا بقولها : « لماذا لا تصرحين لى بشخصيته ؟ » .. فترددت كونى قليلا ثم قالت : « انه حارس الضيعة » .. فشحب وجه هيلدا وصاحت مذعورة : « كونى .. هل جننت ؟ .. لسوف تندمين على هذه الحماقة أشد الندم ! » .. فانهمرت الدموع فجأة من عينى كونى ، بينما وقفت هيلدا تراقبها وهى تبكى ، فترة طويلة ، وأخيرا قالت كونى : « كلا .. كلا .. بل كنت لأندم لولم ألتق به ! »

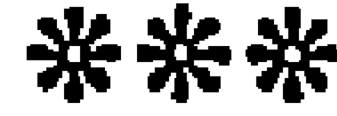
فقالت هيلدا باصرار : « سنرى ياكونى .. سوف يأتى اليوم الذى لن تجرؤين فيه على أن ترفعى رأسك ، من فرط الخجل والعار ! » .. فمسحت كونى دموعها وقالت :

ــ لست أبالى .. يكفى اننى أشعر بالسعادة تغمر قلبى .. اننى أنتظر مولودا .. منه .. واننى لفخورة به !

ــ وهل انت مصممة على الذهاب اليه هذا المساء ؟

ــ نعم .. لقد وعدته بذلك !

فأطرقت هيلدا برأسها وقد أدركت ان من العبث الجدل مع شقيقتها فى هذا الشأن !



وكان وداع كليفورد لكونى مؤثرا للغاية ، فقد ترقرقت الدموع فى عينيه ، وهو يتوسل اليها أن تذكره وأن تكتب اليه باستمرار ، لأن رسائلها سوف تكون عزاءه الوحيد فى وحدته .. فربتت على كتفه فى حنو واخلاص وقد انهمرت من مآقيها بدورها الدموع الغزار ..

وما ان استقلت السيارة حتى استردت هدوء نفسها ، فمسحت دموعها بأناملها وقالت : « ياله من بائس .. اننى أتعذب يا هيلدا ، ولست أدرى ماذا أفعل .. لقد عزمت عزما أكيدا على هجره ، غير ان ضميرى سوف يعذبنى على الدوام ! »

وأدارت محرك السيارة التى اتجهت بهما صوب الكوخ ، وخلال الطريق لم تستطع كونى أن تكتم سؤالا كان يلح على خاطرها ، فقالت : « لماذا تعتبرين الحب حماقة يا هيلدا ؟ »

ـ ليس هذا ما ارمى اليه .. وانما كان يجدر بك ، اذا لم يكن من الأمر بد ، أن تختارى رجلا من مستواك وطبقتك !؟ .. أو تتخلين بمثل هذه البساطة عن لقب «الليدى تشاترلى»؟

ـ انه لقب جامد لاحياة فيه .. والسعادة قد تقطن الأكواخ أكثر مما تقطن القصور الشامخة !

ـ انك حمقاء ياكونى .. والذى حدث لك لا يخرج عن نزوة طارئة ، ولدها الكبت والحرمان !

وفى تلك اللحظة وصلت بهما السيارة أمام الكوخ ، ثم توقفت ، فهمست كونى : «هذا كوخ ميلورز » ، فقلبت هيلدا شفتها السفلى باحتقار وقالت : « حسنا .. أتمنى لك

ليلة هانئة » .. ثم فتح باب الكوخ وظهر ميلورز على عتبته ، فأسرعت كونى نحوه قائلة : « ميلورز .. هذه شقيقتي هيلدا »

فتنحى عن الباب ودعاهما الى الدخول ، ثم أغلق الباب خلفهما . وأخذت هيلدا تفحصه بنظراتها ، فبدا ـ بصورته الجميلة ، وصمته ، وتجهم وجهه الحزين القسمات ـ كأنه أعجبها .. وقال أخيرا بهـدوء : « هل أعد لكما قدحين من الشـاى ؟ .. أم أحضر لـكما زجاجة من « البيرة » ؟ » ، فقالت هيلدا فى استهزاء : اننى واثقة ان البيرة تناسب كونى الليلة ! » . فأدرك رنة التهكم فى صوتها ، وأراد أن يرد لها صفعتها ، فقال : «اننى أعلم أن معظم سيدات الطبقة الراقية يتناولن البيرة » ، فرفعت هيلدا الكوب الذى قدمه اليهـا وجرعته دفعة واحدة ، ثم قالت : « أو تعتقد ذلك ؟ »

ـ وانت ؟.. ماهو رأيك الصريح فى الموضوع ؟

ـ حسنا .. اذا شئت الصراحة ..

ـ أعتقد ان الصراحة أجدى فى مثل هذه الظروف .

ـ حسنا .. اننى لا أنظر بعين الرضا الى العـلاقة التى بينك وبين كونى !

فتفرس فى وجههـا بوقاحة ، وقال : « ولمـاذا .. هـل تشعرين بالغيرة منها ؟ » .. فقفزت من مقعدها وصاحت : « كيف .. كيف تجرؤ .. ؟ »

ـ دعينا من هذه الألفاظ الجوفاء .. وأخبرينى .. ماهو وجه اعتراضك على الأمر ؟

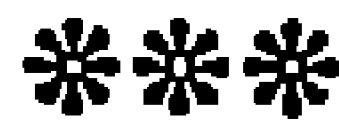
فهتفت كونى فى يأس وقنوط : « ميلورز .. أرجوك .. لا تحتـد هكذا » .. فأطلق قهقهة عالية ، وأردف : « ان شقيقتك ، سليلة المجد والشرف، تحاول أن تلقى على درسا فى الشرف » . فقالت هيلدا ، وصدرها يعلو ويهبط : «وهل

تعتقد انك تملك ذرة من الشرف ؟ » ، فلم يغضب لهـذه الاهانة ، بل استطرد :

ـ لماذا تلومين شقيقتك لأنها وجدت فى شخصى الضعيف ، المنقذ لها من شقائها العائلى وحرمانها الطويل ؟ .. أليست امرأة من لحم ودم ؟ .. ألا يحق لها ـ كسواها ـ أن تتمتع بالحب والحياة ؟

فلم تجب هيلدا بشىء ، ولعلها أدركت عدم جدوى مجادلة هذا الرجل أو مناقشته ، فسارت نحو الباب. وأسرع ميلورز خلفها ليرشدها الى الطريق ، غير انها أشارت فى كبرياء وترفع : « الزم مكانك .. اننى أعرف طريقى ! » . فقال بتهكم : « أؤكد لك انك لا تعرفين شيئا ! » .. فأجابت : « وانا أؤكد لك انك أوقح من رأيت من الرجال ! » . ثم اندفعت نحو الخارج وهى تتعثر فى خطواتها ، فأغلق ميلورز الباب خلفها ، وقال وهو يطلق ضحكة عالية تجلجل فى الكوخ : « كان ينبغى أن أثيرها ، حتى يخلو لنا الجو .. فى ليلة الوداع ! »

وانحنى على كونى .. فقبلها .



ـ انهضى ياكونى .. لقد جاوزت الساعة السابعة .

ففتحت كونى عينيها ، ثم أغمضتهما بسرعة وقالت بدلال :

ـ اسدل الستائر .. من فضلك !

ولعلها تذكرت شيئا كان قد غاب عن ذاكرتها فقالت :

ـ لشد ما يشق على فراقك يا حبيبى .. لكم أتمنى أن أبقى بجوارك دائما !

فقال يذكرها : « ورجبى هول ؟ »

ـ نعم .. هـذا صحيح .. يجب أن نبتعـد عنها آلاف

الأميال .. سوف نرحل قريبا عن هذا المكان البغيض ، فلن يهنأ لنا عيش بالقرب منه .. اليس كذلك ؟

وهز رأسه مؤمنا على قولها .. فأردفت :

ــ اتعدنى بالبقاء على حبى ؟..عدنى بذلك ياميلورز، حتى أستمد من هذا الوعد القوة على مواجهة العقبات التىسوف تصادفنى .. عدنى بأنه لن تقوى قوة على التفريق بيننا !.. عدنى بذلك ، حتى امضى سعيدة هانئة !

ــ اننى أكره الاغراق فى الخيال..كل ما اعرفه انه يتحتم عليك الرحيل بعد دقائق !

فهتفت بحرقة : « أو يتحتم على ذلك ؟ .. رباه ، ما اشد شقائى ! ». وسمع طرق على الباب فى تلك اللحظة ، فأسرع ميلورز اليه ، ثم عاد قائلا : « انه ساعى البريد ، وقد جاءنى برسالة من صديق هاجر الى كندا ! » .. فالتمعت عيناها وهتفت :

ــ كندا ؟ .. حقا ، لم لانهاجر اليها ؟

ــ .. انها بالفعل بلدجميل ، ويصلح لاقامة عاشقين جمع بينهما الهوى !

فاندفعت نحوه وطوقته بذراعيها ، ثم هتفت فى جذل : « اذن ، فأنت تحبنى .. انك تحبنى يا ميلورز »

- ١١ -

ووصلت كونى وهيلدا الى لندن ، وهناك التقتا بوالدهما « سير مالكولم ريد » ، ثم ارتحلوا جميعا الى (فينيسيا) ــ عن طريق سويسرا وفرنسا ــ وكانت كونى تسائل نفسها طوال الرحلة : لماذا لم تعد تلك المناظر الطبيعية الخلابة ، التى بهر جمالها انفاسها من قبل ، تستهويها وتشعرها بجو الخيال والشعر ؟.. ترى هل أصبحتمثل القديس «برنار»

الذى عبر بحيرة (لوزان) دون ان يلاحظ ان مياهها خضراء اللون أو ان الجبال تحيط بها من كل جانب ؟ .. وانتابها شعور بالوحشة والحنين الى (رجبى هول) . بل والى كليفورد أيضا ، كليفورد المشلول المسكين ! .. **وكان عقلها الباطن دائب التفكير فى الرجل الآخر .. ميلورز !.. أجل.. يجب عليها ان تحتفظ بذكراه ماثلة فى خيالها ، والا أدركها الضياع ، الضياع التام ، وسط ذلك العالم المحتشد بآلاف الرجال الأثرياء ، الذين لا ينفكون يبحثون عن المتعة واللذة ، بلا كلال !**

ووصل ركبهم الى فينيسيا فى ليلة مقمرة من ليالى الصيف الدافئة ، واستقلوا « جندولا » يقوده شاب ايطالى يرتدى قميصا أزرق اللون يدعى « جيوفانى » ، وطلبوا منه أن يقلهم الى فيلا «أزميرالدا» التى استأجرها مضيفهم ، وهو رجل اسكتلندى ، ضخم الجثة ، خشن المظهر ، كان قد جمع ثروة طائلة فى ايطاليا أثناء الحرب .

وكانت « الفيللا » مزدحمة بغيرهم من الضيوف ، فقدكان هناك زوجان اسكتلنديان ، وكونتة ايطالية شابة ، وأرملة ، وأمير من (جورجيا) ، وقس انجليزى شاب !

وقضى ثلاثتهم فى فينيسيا وقتا ممتعا ، فكان سير مالكولم يصطحبهما لزيارة المعارض الفنية التى كانت تعرض آلاف اللوحات من روائع الفن العالمى ، والمسارح التى كانت تعرض مسرحيات « جولدونى » ، كما ارتادوا مختلف الملاهى والمتنزهات ومعالم المدينة ..

وكانوا يقضون فترة الصباح فى تعريض أجسادهم لأشعة الشمس ، وفى المساء كانوا يراقبون جموع الراقصين والراقصات ، الذين جنوا بموسيقى « الجاز » ، واختلطت هيلدا بالنساء اللاتى كن يقضين أوقاتهن فى تتبع حركات

غيرهن من الحسان، والثرثرة عن مغامراتهن وغرامياتهن !. . أما الرجال فقد كانوا — فى سراويلهم البيضاء — أشبه مايكونون بالكلاب حين تقبع فى انتظار يد حانية تربت على ظهورها !

وشعرت كونى بالتعاسة ! . . انها لا تشعر بالرغبة فى الرقص ، فقد كانت فكرة التصاق جسدها بجسد واحد من تلك ((المخلوقات)) ، تبعث فى نفسها التقزز والاشمئزاز !
. . وكانت أسعد أوقاتها هى تلك اللحظات التى تستقل فيها « الجندول » مع شقيقتها ، فتعبران بحيرة (لاجون) الى الشط الآخر ، حيث تخلع كل منهما ملابسها ، وتسبحان فى الماء بمفردهما !

وكرس « جيوفانى » ، نوتى الجندول ، كل وقته لخدمة السيدتين الجميلتين، كما فعل من قبل بالنسبة «لشحنات» قاربه من النساء ، وكان يتمنى أن تعجب به احداهما، فتخلع عليه هداياها الثمينة ، ومن ثم يصبح فى وسعه أن يتزوج !

وكانت كونى تعود — فى كل مرة — وقد استولى عليها الذهول ، واستسلم عقلها للنعاس ، من جراء انعكاس أشعة الشمس فوق سطح البحيرة ، لتجد فى انتظارها خطابا من كليفورد — فقد كان يكتب اليها بانتظام — وذات يوم كتب اليها يقول :

« لقد استمتعنا أخيرا بفكاهة رائعة : اذ يبدو ان زوجة حارس الضيعة « ميلورز » قد عادت فجأة الى الكوخ ، غير ان زوجها طردها شر طردة وأغلق دونها الباب . وتقول « التقارير » التى استقيتها من مسز بولتن ان ميلورز عندما عاد من الغابة ، وجدها ترقد فى فراشه « عارية » كما ولدتها امها — بعد ان كسرت احدى النوافذ واقتحمت الكوخ ! — ولما لم يجد طريقة لاجلائها ، انسحب الى منزل أمه ! . .

وهكذا احتلت « فينوس » الكوخ الذى تدعى شرعية حقها فى احتلاله ، بينما انسحب « أبوللو » الى قواعده ، سالما !! »

وكان وقع خطاب كليفورد كالصاعقة على أعصاب كونى ، واجتاحها الغضب والغيظ !.. لماذا توانى الغبى عن التخلص من زوجته منــذ زمن طويل ؟ .. وبعد ان قلبت الامر على وجوهه، كتبت كونى الى مسز بولتن ، تستفسر عن تفاصيل الموضوع !

وفى تلك الاثناء ، وصل الى فيلا «ازميرالدا» ، فنان شاب، رقيق العاطفة ، من أصدقاء كونى القدامى ، فألف مع كونى وهيلدا ثالوثا لايفترق فى نزهات الجندول ، وصار يلازمهما أكثر الوقت ..

وذات يوم، تسلمت كونى خطابا من مسز بولتن تقول فيه:

« لاشك انك سوف تشعرين بالسرور والغبطة ، ياسيدتى الليدى ، عندما يقع بصرك على سير كليفورد ، فقد تقدمت صحته بشكل ظاهر ، وبدأ يقبل على الحياة بأمل وحبور .

« لست أعلم الى اى حد من التفصيل ذهب سير كليفورد فيما كتبه اليك بصدد موضوع الحــارس ميلورز . والذى أعلمه ان زوجته « برتا كوتس » قد عادت اليه ذات مساء ، قائلة انها أتت لتعيش فى كنف « زوجها » ــ اذ يبــدو أن ميلورز لم يكن قد أتم اجراءات الطلاق منها ــ غير انه رفض أن يسمح لها بدخول الكوخ ، وعاد الى الغابة دون ان يفتح لها الباب !

« ولما عاد فى اليوم التالى ، دخل الكوخ فوجدها ترقد فى فراشــه ، عارية حتى من ورقة التوت ! .. فعرض عليها نقودا ، لكنها تمسكت بأنها زوجته الشرعية ، وان لها عليه حق الايواء . فأجابها ميلورز بقوله انه يؤثر أن يدفن ويهال عليه التراب ، على أن يعود اليها !

« وفى اليوم التالى ، ذهبت الزوجة الى الكاهن ، وهى تسب وتصخب وترمى ميلورز بكل النقائص والاتهامات ، وادعت انه كان يصحب نساء الى الكوخ ، وانها عثرت هناك على زجاجة عطر وبعض أعقاب السجائر ملوثة بأحمر الشفاه ، ووصفت للجميع فى وقاحة بالغة ما كان يقترفه معها من أفعال شاذة أثناء حياتهما معا ، حتى أصبح الناس يتحاشون لقياه ، كما لو كان « المركيز دى صاد » عينه ! »

وعاد الغضب يجتاح كونى من جديد .. ما الذى دعاه الى أن يتزوج من تلك المرأة المبتذلة ؟ .. ربما كان لديه استعداد طبيعى للأمور المبتذلة والمنحطة ! .. وعادت الى ذاكرتها الاوقات السعيدة التى قضتها معه ، فسرت الرعدة فى جسدها .. لابد انه قد وجد متعة أخرى فى أحضان امرأة على شاكلة « برتا كوتس » .. **وأحست بغثيان ، وانتابها الخوف والقلق ، وتاقت الى أن تسمو بنفسها عن الدرك الذى تردت اليه ! .. رباه ، ماذا يكون من أمرها لو أن كليفورد عرف شخصية عشيقها ؟ .. انه لأمر بالغ الاذلال لها !**

ولم تتمالك ان كتبت خطابا الى « مسز بولتن » ، أرفقت به مذكرة وجهتها الى ميلورز ، قالت فيها :

« لقد أحزننى اشد الحزن ، ما بلغنى عن المتاعب التى صادفتك من زوجتك ، لكنى أرجو الا تعيرها اهتماما .. انها امرأة مخبولة ، افقدها الكبر صوابها ! .. سوف أعود بعد عشرة أيام ، وأرجو ان يكون كل شىء ـ حينئذ ـ على ما يرام »

***

وكتب اليها كليفورد يقول :

« لقد طغى على السرور عندما تسلمت خطابك الذى

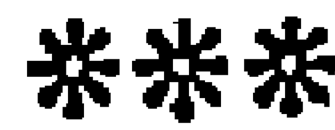
حددت فيه موعد عودتك ، فلكم اشتقت الى رؤياك .. ولكن ، اذا كنت تقضين وقتا هنيئا ، فلا داع لأن تعجلى بالعودة ، فمن الضرورى أن تستمتعى بكفايتك من أشعة الشمس ، وارتداء البيجامات !

« أن مسز بولتن تبذل أقصى جهدها لتكفل لى الراحة ، مما يجعلنى أعجب لذلك النوع من البشر ، الذى يبذل نفسه فى خدمة الآخرين ، دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا ! .. انها توافينى بأنباء فضيحة الحارس أولا بأول ، وهى تذكرنى بالسمكة التى ـ رغم كونها خرساء ـ تستنشق الشائعات من خلال خياشيمها ! .. ويؤسفنى أن أقول اننا على وشك أن نخسر حارس غابتنا ، بعد ان انتشرت الفضيحة وذاعت

على كل لسان ، فقد اتهمته زوجته بأشنع التهم ، بل لقد فازت بتعضيد كافة نساء عمال المناجم بالبلدة ! .. وقد بلغنى انها ضربت حوله حصارا محكما فى منزل أمه ، وفى احدى المرات اقتنصت ابنتها الطفلة عند عودتها من المدرسة .. غير ان الصغيرة ، بدلا من ان تقبل يد أمها ، عضتها عضة

موجعة ، فانفجر مرجل غضب الأم ، وانطلقت فى البلدة تردد أدق تفاصيل حياتها الخاصة مع زوجها ! .. فاضطررت الى أن أستدعى ميلورز فأسأله عما اذا كان بوسعه أن يقوم بواجباته فى الغابة : فأجاب بأنه لم يهمل القيام بها ، واذ ذاك سألته ان كان بوسعه ان يجد له عملا آخر ، فأجاب قائلا : « اذا كنت تقصد انك تريد أن تتخلص منى ، فأننى على استعداد لأن أقدم لك استقالتى فورا ! »

« وعرضت عليه مرتب شهر اضافى ، غير انه نظر الى بأنفة وكبرياء ، وقال انه لا يقبل سوى حقه ! »



وكان لخطاب كليفورد تأثير سيء على كونى ، فقد أظهر بجلاء مدى أنانية كليفورد وعدم اهتمامه بمشاعر الغير ، سيما من كانوا أقل منه مركزا ومقاما . وعزز هذا الظن أن وصل خطاب من ميلورز يقول فيه :

« لقد انطلقت النمرة من قفصها ، تنشب مخالبها وتفترس كل من يجرؤ على ان يعترض سبيلها ! .. فقد انتهى الأمر بزوجتى الى أن تلوك سيرتك ، حتى وصلت الأقاويل الى مسامع سير كليفورد ، فاستدعانى وفاجأنى بأن زوجتى قد أخبرته انها عثرت فى كوخى على كتاب ممهور باسمك ، وطلب منى أن أفسر له هذا الامر ، فقلت له اننى أحتفظ أيضا بصورة للملكة فيكتوريا ، ممهورة بامضائها ، ولم يسألنى أحد ان أقدم عنها ايضاحا ! .. غير انه أخذ ينحى على باللوم والتأنيب ، قائلا ان احتفاظى بالكتاب فى الكوخ قد أمد زوجتى السليطة اللسان بالسلاح الذى طعنت به سمعة زوجته ، وانه مضطر الى الاستغناء عن خدماتى .. ثم عرض على مرتب شهر ، تعويضا عن الضرر الذى حاق بى .. فأجزلت له الشكر .. غير اننى رفضت منحته ، وغادرت الكوخ الى غير رجعة ! »

وأحست كونى بالامتعاض .. فان ميلورز لم يشر اليها فى رسالته بحرف ، واكتفى بذكر ما حدث دون تعليق ، تاركا لها مطلق الحرية للعودة ــ اذا شاءت ــ الى كليفورد ! .. لماذا يتصرف بمثل هذه الشهامة ؟ .. وودت لو انه واجه كليفورد صراحة فقال له : « ان زوجتك عشيقتى .. واننى لفخور بذلك ! » .. غير انها كانت واثقة من أن شجاعته لم تكن لتدفعه الى هذا الحد !

***

وظلت كونى فى (فينيسيا) تمارس هوايتها المفضـلة ، وهى التجديف مع « دنكان فوربس » الذى كان مغرما بها منذ عشر سنوات ، والذى استيقظ غرامه بها بمجرد رؤيته اياها ! .. غير انها صارحته من فورها بأنها لم تعد تطمع فى مغامرة عاطفية مع أى رجل ! .. فاكتفى منها بمتعة وجوده الى جانبها ، ومجاذبتها الحديث !

- ١٢ -

وقررت كونى أن تغادر (فينيسيا) فى نفس اليوم الذى يرحل فيه ميلورز عن (رجبى هول) ، فيصلان الى لندن فى نفس الوقت بعد ستة أيام .. فلما عرف دنكان بقرارها هذا عرض عليها أن يرافقها !

وفى القطار ، جلست كونى بجوار أبيها ، مطرقة برأسها ، وقد شرد فكرها بعيدا .. ولاحظ والدها وجومها وصمتها، فأخذ يتأمل وجهها الذى لفحته حرارة الشمس وأكسبته فتنة تخلب الألباب ، وأخيرا قطع الصمت الذى كان يرين عليهما بقوله : « أراك لست متحمسة للعودة الى (رجبى) يا كونى ؟ .. أليس كذلك ؟ » .. فرفعت بصرها نحوه ، بنظرة ساحرة من عينيها الزرقاوين ، وأجابت :

ــ لن أعود الى (رجبى) !

ــ هل تعنين انك سوف تقضين بعض الوقت فى باريس ؟

ــ كلا .. أعنى أننى لن أعود الى (رجبى) بتاتا !

ــ لماذا ؟ .. هل حدث بينك وبين كليفورد شىء يدعوك الى هجره ؟

ــ كلا .. كل ما فى الامر اننى انتظر مولودا !

وما أن أغلق الباب خلفها حتى ألقت كونى بذراعيها حوله ، ضمته اليها بعنف ، وهتفت فى حرقة : « قبلنى يا حبيبى . قبلنى وقل انك لن تهجرنى ، واننا سوف نعيش سويا . الى الأبد ! »

***

وأفضت كونى الى أبيها بشخصية عشيقها ، فلما علم انه كان يعمل فى خدمة زوجها أظهر امتعاضا ، غير انه سرعان ما .ا على محياه الرضا والسرور .. بل لقد كان يغبطها فى سره ، فقد طالما أشفق عليها من اضطرارها الى أن تعيش مع زوج عاجز مشلول ! .. وفى نهاية حديثهما ، طلب والدها منها ان تعرفه بعشيقها !

واستجاب ميلورز لطلبه وحضر لزيارته . فأخذ الأب يناقشه فى شئون حياته ويستفسر منه عن ماضيه ، فأجاب ميلورز على أسئلته بصراحة تامة ، وبلا لف ولا دوران ، مما بعث الغبطة فى نفس الأب .. فلما انصرف ميلورز التفت سير مالكولم الى ابنته وقال وهو يفرك يديه ارتياحا :

ـ **يبدو انك قد عثرت أخيرا على الرجل المناسب !**

***

وفى اليوم التالى ، تناول ميلورز غداءه بصحبة كونى هيلدا ، فى مطعم منعزل .. ولما انتهوا من تناول الطعام التفتت هيلدا الى ميلورز وقالت : « اعتقد ان الحكمة توجب ن لا يظهر اسمك عند السير فى اجراءات طلاق كونى من زوجها ! .. ومن الأفضل أن نبحث عن شخص يقبل تحمل مسئولية الجنين الذى تحمله كونى ! » .. فنظر ميلورز اليها مذهولا ولم ينبس بكلمة ، غير أن هيلدا استرسلت

ــ هل ما زلت واثقة من انك تنتظرين مولودا ؟
ــ نعم .. لقد أكد لى الأطباء النبأ السعيد .. ألا يغمر هذا النبأ بالغبطة والسعادة ؟
ــ نعم ، ولا .. اذ اننى أخشى المستقبل !
وحز الألم فى قلب كونى ، فأطرقت برأسها وهمست :
ــ هل ترغب فى ان أعود الى كليفورد ؟
ــ وهل ترغبين فى ذلك ؟
ــ كلا .. اننى أريد أن أعيش الى جوارك الى الأبد !
ــ ولكننى انسان متواضع ، ولا أملك من متاع الدنيا شيئا .. أتعتقدين أن كرامتى واحترامى لنفسى يسمحان لى بأن أعيش معك .. لمجرد اشباع رغباتك ؟
ــ أرجوك يا حبيبى .. لا تغمط نفسك حقها .. **انك تملك قوة قد لا تتوافر فى أعظم الرجال .. قوة الحنان والرقة !**
ــ وهل تعتقدين انها تكفى ؟ .. أجل ، اننا نحب احدنا الآخر ، ولكن ، يجب على الرجل أن يوفر لزوجته « معنى لحياتها معه !
ــ أراك تحاول أن تنتحل الأعذار .. كأنما تخشانى !
ــ اننى لا أخشاك انت .. وانما أخشى العالم الذى يتمثل فى حياتك الحاضرة..عالم الثروة والمركز الاجتماعى !
ــ أرجوك يا حبيبى..لا تقل هذا .. **اننى على استعداد لأن أعيش معك .. جارية !!**
ونظر اليها ميلورز فى حنان ، فأدركت كونى انه قد يستسلم لسحرها ، وظهرت على وجهه امارات العاطفة الدافقة ، فأمسك بذراعها وقادها خارجا ، ثم سارا فى سرعة ولهفة حتى وصلا الى غرفته ، الحقيرة الأثاث ، والتى كانت تقع فى أعلى احدى العمارات !

وما ان أغلق الباب خلفها حتى ألقت كونى بذراعيها حوله ، ضمته اليها بعنف ، وهتفت فى حرقة : « قبلنى يا حبيبى . قبلنى وقل انك لن تهجرنى ، واننا سوف نعيش سويا . الى الأبد ! »

***

وأفضت كونى الى أبيها بشخصية عشيقها ، فلما علم انه كان يعمل فى خدمة زوجها أظهر امتعاضا ، غير انه سرعان ما .ا على محياه الرضا والسرور .. بل لقد كان يغبطها فى سره ، فقد طالما أشفق عليها من اضطرارها الى أن تعيش مع زوج عاجز مشلول ! .. وفى نهاية حديثهما ، طلب والدها منها ان تعرفه بعشيقها !

واستجاب ميلورز لطلبه وحضر لزيارته . فأخذ الأب يناقشه فى شئون حياته ويستفسر منه عن ماضيه ، فأجاب ميلورز على أسئلته بصراحة تامة ، وبلا لف ولا دوران ، مما بعث الغبطة فى نفس الأب .. فلما انصرف ميلورز التفت سير مالكولم الى ابنته وقال وهو يفرك يديه ارتياحا :

ـ يبدو انك قد عثرت أخيرا على الرجل المناسب !

***

وفى اليوم التالى ، تناول ميلورز غداءه بصحبة كونى هيلدا ، فى مطعم منعزل .. ولما انتهوا من تناول الطعام التفتت هيلدا الى ميلورز وقالت : « اعتقد ان الحكمة توجب لا يظهر اسمك عند السير فى اجراءات طلاق كونى من زوجها ! .. ومن الأفضل أن نبحث عن شخص يقبل تحمل مسئولية الجنين الذى تحمله كونى ! » .. فنظر ميلورز اليها مذهولا ولم ينبس بكلمة ، غير أن هيلدا استرسلت

قائلة : « وأعتقد أننى أعرف الشخص الذى قد يقبل القيا بهذا الدور .. » ، فقاطعهـا ميلورز : **« ولكن ، ما الذى يدعو هذا الرجل الى تحمل تبعة عمل لم يقم به ، وما الفائد التى تعود عليه من ذلك ؟ »** ، ثم التفت الى كونى وقد بد الغضب فى عينيه ، وقال : « أتراه .. ؟ » .. فتداركت هيلدا الموقف قائلة : « كلا ، فليس له فيها أى مأرب .. وا هو من ذلك النوع من الرجال الذين تعتمل الشهامة في صدورهم ، دون اعتبار لما قد ينالونه من المرأة .. انه من اصدقائنا القدامى ، منذ كنا أطفالا فى اسكتلندا !

ــ وما اسم هذا الشخص ؟

ــ انه يدعى « دنكان فوربس »

ــ لا أدرى لماذا لا ارتاح الى هذا الاقتراح !

ــ انه الحل الوحيد .. فلو عرف الناس علاقتك بكونى لأصبح طلاقك من زوجتك فى حكم المستحيل !

وأطرق ميلورز برأسه ، وقد ادرك وجاهة منطقها ، ورار عليهم صمت طويل ، قطعته هيلدا قائلة :

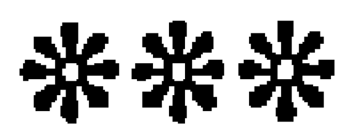
ــ إذا كنتما ترغبان فى العيش سويا فى ظل القانون والعرف ينبغى عليكما أن ترتبطا برباط الزواج .. ومن الضرورى في هذه الحالة ــ أن يحصل كل منكما على الطلاق من زوجه .. أليس كذلك ؟ »

***

وكتبت كونى الى كليفورد تطلب منه أن يطلقها ، وشرحت له انها قد عشقت « دنكان فوربس » ــ وكانت قد تحدثت مع كليفورد عنه كثيرا ــ وأنها تنتظر منه مولودا ، لذلك تشعر ان من حق طفلها عليها أن يترعرع فى كنف أبيه الحقيقى !

وطرقت مسز بولتن باب غرفة سير كليفورد. فلما لم تسمع جوابا فتحت الباب ودخلت ، فوجدته راقدا فى فراشه وقد تحجرت عيناه ، ذاهلا عمـا حوله ! .. وكان خطـاب كونى ملقى فوق الأرض بجوار الفراش .. فنظرت اليه بحنان ، واقتربت منه فى هدوء ، قائلة : ((**سـير كليفورد .. سير كليفورد !**)) .. لكنه بدا كالغـائب عن وعيه ، فسرى القلق والخوف الى نفسها وهتفت : ((سير كليفورد .. ما خطبك ؟ .. هل أنت مريض ؟))

واذ ذاك استعاد كليفورد وعيه ، وادراكه للكارثة التى انقضت عليه كالصاعقة ، فانفجر يبكى وينتحب كطفل صغير ، وهو ينشج من خلال دموعه : ((**لقد هجرتنى .. هجرتنى .. الى رجل آخر !**)) .. فاقتربت مسـز بولتن منه وجلست على الفراش بجواره ، ثم احاطت منكبيه العريضين بذراعيها الحانيتين ، وضمته الى صدرها ، وأخـذت تهـدهده وتمر بيديها فى خصلات شعره ، وتبثه كلمات العزاء ، محاولة أن تسرى عنه ، قائلة : ((لا بأس يا سـيدى .. لا تحزن .. لا بأس)) .. فتشبث كليفورد بهـا ، وأراح رأسـه فوق صدرها ، فبللت دموعه المنهمرة مرولتها ، وصاح : ((**لقـد وعدتنى أن تعود .. وعدتنى أن تعود !**))



وكتب كليفورد الى كونى فى منزل أبيها بلندن ، يقول :

((لست أرى داعيا لأن أصف لك مقدار ما أصابنى من الم وحزن ، حين تسلمت خطابك الأخير . وليس لدى من رد عليه سوى : يجب أن تحضرى الى هنا بنفسك ، حتى نناقش الأمر فيما بيننا ، قبل أن أبت برأى بصدد الطلاق .. وأود ان الفت نظرك الى انه ـ فى حالة عـدم اسـتجابتك لطلبى

المتواضع ـ سوف انتظر حضورك يوما ما .. حتى لو كان هذا اليوم بعد خمسين عاما ! »

وأدركت كونى فورا أنه كان يحاول أن ينتقم منها !.. انه يهددها ـ تحت ستار من الأدب ـ بأن يتركها هكذا «معلقة» ، لا بالمتزوجة ولا بالمطلقة ، ومن ثم يحرمها من العيش مع رجل غيره ! .. فقضت ليلتها مسهدة ، تتقلب فى فراشها ، وهى تحاول ان تجد لمشكلتها حلا ! .. وأخيرا هداها تفكيرها الى أن تستجيب لطلبه ، وتذهب الى (رجبى هول) ، بصحبة هيلدا !

ولم يكن كليفورد فى القصر ليرحب بها ، بل كان فى جولته المعتادة فى الخارج ، فراحت تجوب انحاء القصر وقد عصر القلق قلبها ! .. وفى موعد العشاء حضر كليفورد ، فقابلها بترحيب تشوبه مظاهر الأدب « الرسمية » .. وأخيرا نفد صبرها ، فلم تتمالك أن هتفت :

ـ حسنا .. ماذا قررت ؟

ـ هل لى أن أعرف السبب الذى دعاك الى أن تهجرى بيتك ومسئولياتك ؟

ـ انه الحب !

ـ الحب لدنكان فوربس ؟ .. لكنك لم تريه جديرا بحبك حين التقيت به ، فى الماضى ، بل فضلتنى عليه .. فهل تعنين انك تحبينه الآن أكثر من أى شىء آخر فى الحياة ؟

ـ ان شعور الانسان يتغير !

ـ قد يكون هذا صحيحا .. قد تكون لك نزواتك . ولكن عليك مع ذلك أن تقنعينى بأهمية هذا التغير . اننى ببساطة ، لا أصدق قصة حبك هذا لدنكان فوربس !

ـ وما لزوم تصديقك؟ كل ما ينبغى عليك هو أن تطلقنى ؛ لا أن تصدق مشاعرى أو لا تصدقها !

ـ ولماذا أطلقك ؟

ـ لانني لا أريد أن أعيش هنا بعد الآن . وأنت نفسك تريدني !

ـ بل انني لم أتغير . واني لأفضل ـ من جانبي ـ أن تظلي تحت سقفي ، موفورة الكرامة ، تاركة جانبا مشاعرك الخاصة . . فان الموت أهون على من تحطيم حياتنا اليومية التى ألفناها هنا فى (رجبى) ، لمجرد اشباع نزوة من نزواتك !

فلاذت كوني بالصمت لحظات ، ثم أجابته :

ـ لا أستطيع . . لا مفر لى من الذهاب . . سيما وانني انتظر مولودا . .

ـ أو من أجل الطفل تذهبين ؟

ـ نعم . .

ـ حقا ؟ لكنني أريد الاحتفاظ بزوجتي ، ولست أرى سببا للتفريط فيها . . فاذا أرادت أن تنجب طفلا ، تحت سقفي ، فمرحبا بها ، وبالطفل . . بشرط المحافظة على مظاهر اللياقة ، ونظام الحياة المألوفة . . او تعنين أن دنكان فوربس له عليك قبضة وتأثير أقوى مما لى ؟ . . لا أصدق . .

ـ ألا تفهم ؟ . . انني يجب أن أذهب . . أريد أن أعيش مع الرجل الذى أحبه !

ـ انك أذكى من أن تقنعي نفسك بقصة حبك لهذا الرجل ! . . وصدقيني ، انك تبالين بى ـ حتى هذه اللحظة ـ أكثر مما تبالين به . . فلماذا أسلم سلاحي وأقبل الهزيمة أمام هذا الهراء ؟ !

وأحست انه على حق . . وانها لن تملك كتمان الحقيقة أكثر مما كتمنها . . فرفعت وجهها نحوه وهتفت ، فى انطلاقة يأس :

ـ لأنه ليس « دنكان » من أحبه ! . . لقد ذكرت لك

أنه دنكان لمجرد تجنيبك الألم وعدم خدش مشاعرك !

ـ عدم خدش مشاعرى ؟

ـ نعم ! .. لأن الرجل الذى أحبه حقيقة ـ (وهو الا الذى سوف تمقتنى من أجله) ـ ليس سوى مستر « ميلورز » ، الذى كان يعمل حارسا عندنا !

.. ولو استطاع أن يقفز من مقعده ، لفعل .. فقد اصفر وجهه ، وجحظت عيناه وهو يحدق فيها بنظرة م انهار تحت وطأة كارثة قارعة ! .. ثم تراخى فى مقعده وه يلهث ، ورفع عينيه نحو سقف الحجرة ..

.. وأخيرا اعتدل في جلسته ، وسألها وقد كست وج مسحة من البشاعة : « أواثقة أنت من انك قد تفوه بالحقيقة ؟ »

ـ نعم ! .. أنت تعلم ذلك .

ـ ومتى بدأت علاقتك معه ؟

ـ فى الربيع ..

وكوحش أعتقل فى قفص ، حدق فيها وهو ينكىء عل ذراعى المقعد .. ثم صرخ : « يا الهى ! .. انك ينبغى ا تمحين من على ظهر الأرض ! »

فتساءلت بصوت خائر : « لماذا ؟ »

لكنه استطرد ، وكأنه لم يسمعها : « ذلك الجلف الحقير ، القذر ! .. الخائن ! .. أو كنت على علاقة معه وهو واح من خدمى ؟ ! .. يا الهى ، أما من حدود لدناءة النسا البهيمية ، وانحطاطهن ؟ !.. ومعنى ذلك انك تزمعين انجا طفل من جلف كهذا ؟ »

ـ نعم ..

ـ ومنذ متى عرفت ذلك ؟

ـ منذ شهر يونيه ..

وعجز عن الكلام ، وقد ارتسمت فى عينيه نظرة جوفاء ، بلهاء ! .. **نظرة بغض عارم ، لا يمكن السيطرة عليه ، أو حتى وصفه .. شأن شخص لا يملك حتى أن يقبل مجرد « وجود » ميلورز فى محيط حياته !**

ـ وهل تنوين الزواج منه .. وحمل اسمه القذر ؟

ـ نعم .. هذا ما ابغيه !

ـ ذلك يثبت صدق رأيى فيك الذى اعتنقته على الدوام : انك لست طبيعيـــة .. انك فاقدة القوى العقلية ! .. من أولئك النساء المنحلات ، نصف المخبولات ، اللواتى يستمتعن بالتمرغ فى الوحل !

وبعد أن تركته ينفث غضـبه حتى يهدأ ، سـألته : « ألا ترى من الافضل أن تطلقنى وتنفض يدك من الأمر ؟ »

ـ كلا ! فى وسعك ان تذهبى الى حيث تشائين .. لكنى لن أطلقك !

ـ ولم ؟..أو تترك الطفل ينتسب اليك، ويرث ممتلكاتك؟

ـ لست أبالى بشىء يتصل بالطفل !

ـ لكنه اذا جاء ذكراً ســوف يـكون ابنك شرعا ، ويرث لقبك : ثم تؤول اليه ضيعة (رجبى هول) !

ـ لا يهمنى ذلك !

ـ لكنه يجب أن يهمك ! .. **ســوف امنع الطفل من أن ينسب اليك ، ما استطعت .. بل انى أفضل ان يكون « غير شرعى » وينسب الى .. اذا لم يمكن ان ينسب الى ميلورز !**

ـ افعلى مايروق لك !

ـ ان فى وسعك ان تطلقنى ، متخذا « دنكان » حجتك ، دون أى داع لاظهار الاسم الحقيقى . ان دنكان لايمانع فى ذلك .

ـ لن اطلقك ! .. مهما طال الأمد !

ــ ولكن لماذا ؟ .. الأنى أريد الطلاق ؟
ــ لانى أتبع ميلى الشخصى . ولست أجد فى نفسى ميلا لذلك !

لم تكن ثمة جدوى ! .. فصعدت كونى الى حيث كانت « هيلدا » تنتظرها ، واطلعتها على الموقف .. فقالت اختها : « يحسن بك ان ترحلى غدا ، وتتركيه حتى يعود الى صوابه . »

***

قضت كونى نصف ليلتها تجمع حاجياتها الخاصة وأمتعتها الشخصية .. وفى الصباح ارسلت حقائبها الى المحطة ، دون ان تخطر كليفورد . كانت تنوى ان تراه لتودعه فقط ، قبيل الغداء . ثم تحدثت الى مسز بولتن مودعة ، واطلعتها على شخصية عشيقها ، موصية اياها بأن تتكتم الأمر ، وان تخطرها اذا لمست من مستر كليفورد استعدادا لتطليقها .. « فاننى أحب ان يربطنى الزواج الشرعى بالرجل الذى أحبه . »
ــ انا موقنة من ذلك ياسيدتى الليدى . اواه ! فى وسعك أن تثقى بى . **لسوف أكون مخلصة لسير كليفورد ، ومخلصة لك فى الوقت نفسه ، فانى أدرك أن كليكما على حق !**

فشكرتها « كونى » ، وأهدتها تذكارا اختارته لها .. ثم غادرت مع شقيقتها (رجبى هول) ــ للمرة الاخيرة ــ الى اسكتلندا ..

***

وكان ميلورز قد استقر فى اقليم (اولدهينور) حيث وجد عملا فى مزرعة (جرانج) ، وفى عزمه أن يحصل على الطلاق من زوجته ، سواء حصلت كونى على طلاقها أم لا .. وكان قد أعد خطته على اساس ان يعمل بلا توان لمدة ستة أشهر ،

يبتاع بعدها بالاشتراك مع كونى مزرعة صغيرة خاصة بهما ، ويكرسان لها جهودهما ونشاطهما الكامل .. ومن ثم كان عليهما أن ينتظرا حلول الربيع ، ومولد الطفل ..

وفى آخر سبتمبر، تلقت كونى من ميلورز الرسالة التالية :

« لقد حصلت على عملى فى المزرعة بوساطة مهندس عرفته فى الجيش ، أيام الحرب .. وانا اتقاضى عن هذا العمل ٣٠ شلنا فى الاسبوع ، لكني استغل وقت فراغى فى اعطاء دروس خاصة لابنة الأسرة التى أقطن معها . وهم قوم محترمون ، يعطفون على . أما بشأن طلاقى فآمل ان اظفر به اذا تذرعت بالصبر والمسالمة حتى شهر مارس .. أما أنت فأنصحك الا تبالى بموقف سير كليفورد ، فانه لن يلبث أن يسأم العناد ويسعى الى الخلاص منك . وحتى لو تركك وشأنك فى سلام ، فهذا وحده كسب كبير .

« ان المجتمع الكادح الذى أعيش فيه يئن من الأحوال الاقتصادية التى تزداد تعقيدا ، ولا هم للناس غير التفكير فى المال والسعى اليه .. ولو استمرت الحال على هذا المنوال فلن يحمل المستقبل لطبقاتنا غير الموت والدمار . وها أنت تحملين طفلا منى ، ولكن ، لا بأس ، دعك من التفكير فى هذه الاعباء ، **فان كل الظروف السيئة التى مرت بالبشر لم تستطع أن تطفىء جذوة الحب** .. ومن ثم فهى لن تملك أن تطفىء لهيب رغبتى فيك ، ولا هذا الوهج الصغير الذى يربط بيننا . لسوف يجتمع شملنا فى العام المقبل ، انى مؤمن بذلك ، **والانسان فى حاجة للايمان بما وراء متناوله . بالقوة الخارجة عن ارادته .. هذا هو السبيل الوحيد لتأمين المستقبل** . لذلك أومن أنا بالشعلة التى تربط بيننا . انها كل ما أملك فى هذه الدنيا ، اذ ليس لى أصدقاء . ليس لى سواك .. لهذا

أريدك أن تكونى بجانبى ، لكنى لو بدأت أفكر على هذا النحو فسوف أفسد كل شىء . **واذن فليس لنا سوى أن نتذرع بالصبر .. الصبر بغير ملل** .. انى اجتاز عامى الاربعين ، وانت فى اسكتلندا ، وأنا فى اقليم (ميدلاند) ، لكنى وان عجزت عن أن أطوقك بذراعى ، فانى أملك بعضا منك فى أعماق روحى . **لقد صرت أحب العفة الآن ، لأنها السكينة التى تتخلف عن الحب** . أحبها كما تحب قطرات البرد المتساقطة صفحة الجليد . انها أشبه بنهر من الماء البارد يخترق روحى . أحب العفة التى يجرى فيضانها بيننا . لكأنها المياه العذبة ، أو الامطار .. انى لأعجب الآن للرجال الذين لا يملون معابثة النساء ، وأرثى للذين يسلكون مسلك «دون جوان» ، ويعجزون عن الاستمتاع بسلام الروح وسكينتها !

« يبدو اننى أفرط فى الثرثرة لأننى لا أملك ان المسك .. فلو استطعت أن أطوقك بذراعى لجف قلمى ، وبقى الحبر فى المحبرة ! .. ان الكثير منك يؤنسنى الآن فى وحدتى ، ولكم تتملكنى الحسرة على أنك لست بأكملك معى !

« الا دعك من سير كليفورد ، حتى لو لم تصلك منه أنباء قط . انه لا يملك ايذاءك بشىء .. فانتظرى حتى يرغب فى الخلاص منك فى النهاية . وحتى لو لم يفعل، فسوف نتدبر الأمر. لكنه سيفعل، سيتوق الى أن يلفظك تماما من محيطه .

« انى لأعجز الآن عن أن اتوقف وأكف يدى عن الكتابة اليك .. **لكن قدرا كبيرا منا يتعانق الآن ، ولسنا نملك غير أن نحافظ عليه ، ونكمله .. نمضى فى طريقنا ، حتى نلتقى .. فى القريب ! »**

تمت



نساء ومآسٍ في ساحة العدالة

أضلّه الهوى!

للكاتب والمؤرخ الفرنسي : "روجيه ريجي"

جريمة كادت أن تكون كاملة

• **الجريمة** التى نسوقها اليك فى الصفحات التالية ــ وهى احدى حلقات سلسلة « نساء ومآس فى ساحة العدالة » التى قدمنا لك حلقات منها فى اعداد سابقة ــ كادت أن تكون جريمة كاملة بمعنى الكلمة .. أى أن دقة التدبير ، وبراعة التنفيذ ، ودهاء المجرم ، كادت أن تحكم ستر الغموض حولها ، فتعمى عينى العدالة عن مرتكبها الآثم ، لولا ..

ولكننا لن نفسد عليك متعة اكتشاف الامر بنفسك ، ولذلك نخلى بينك وبين قراءة تفصيلاتها التى جمعها لك الكاتب والمؤرخ المحقق الفرنسى « روجيه ريجى » ، من وثائق وملفات يرجع عهدها الى القرن الثامن عشر

حدث غريب فى مدينة فرنسية

• **لم يكن** لأهل (اكس أن بروفانس) ــ بفرنسا ــ حديث فى سنة ١٧٨٤ ، سوى ذلك الاختراع العجيب الذى خرج به على الناس رجل يدعى « مونجولفييه » .. فقد زعم هذا الرجل أن باستطاعته أن يصعد الى طبقات الفضاء، مستعينا بكرة من الورق مليئة بالهواء . وكان من الطبيعى أن يجد مثل هذا الزعم لدى الناس انكارا يصل الى درجة التكذيب .. وافضى التكذيب ــ من ناحيته ــ الى التحدى العلنى ، والى مطالبة « مونجولفييه » بتجربة اختراعه عمليا ..

وانبرى أحد ربابنة السفن التجارية لتأييد «مرنجولفييه»، واعلن عن استعداده لأن يقوم بالتجربة بنفسه ، فى (اكس ان بروفانس) ، وحدد لذلك اليوم الاول من شهر يونيو من ذلك العام .. وقد أثار هذا النبأ ضجة مدوية ، فان التحليق فى الجو ، على كرة من ورق ، حدث خارق . لذلك تقاطر الناس على (اكس ان بروفانس) من كل حدب وصوب ، حتى ضاقت المدينة على سعتها ، وشاع فى جوها الصخب !

مركيزة مذبوحة فى فراشها !

• **وفجأة** ، سرى فى المدينة نبأ صرف الناس عن الحدث النادر الذى شغل تفكيرهم أياما طويلة، والذى كانوا يرتقبونه فى شغف وفضول مشبوب . فقد شاع أن جريمة ارتكبت فى قصر (دى كور) ، مقر المركيز « دانتر كاستو » وزوجته .

ففى صباح ذلك اليوم بالذات ، ولجت وصيفة المركيزة مخدع مولاتها ، فاذا بها تجدها مسجاة فى فراشها ، ذبيحة !

.. ولما كان زوجها ــ « جان باتيبست دى برونى » ، مركيز دانتر كاستو ــ من أعرق سادة الاقليم ، ومن أرفعهم مقاما ، سيما وانه كان رئيسا للبرلمان الاقليمى ، فان السيد « لوبلان » ــ النائب العام ــ خف الى القصر ، بمجرد أن نمى النبأ الى علمه ..

وكانت المركيزة الشابة فى فراشها ، وقد قطع حلقها ، وأغرقت الدماء أغطية الفراش. وقرر الطبيب ــ الذى استدعى فى الحال ــ انها لفظت آخر أنفاسها قبل أن يكتشف مصرعها بأربع ساعات أو خمس .. وبدا زوجها مرتاعا ، شاحب

الوجه ، محزونا .. وراح يردد فى حيرة بالغة : « كيف تسنى أن يحدث هذا ؟ » . ثم لم يقو على رؤية المنظر المروع ، فتهالك وأوشك أن يغمى عليه لولا ان نقل الى مخدعه ..

كل شىء هادىء فى القصر ..

● **وألفى** النائب العام نفسه أمام جريمة غامضة ؛ لم يكد يلوح له خلال غموضها قبس من ضوء يرشد الى الجانى .. واقبل يسأل الخدم واحدا واحدا : فسأل « مارى بال » وصيفة المركيزة ، و « أوجيست رينو » وصيف المركيز ، و « كلود بارنوان » الخادم الخاص للمركيزة ، و « فيجييه » الطاهى ، و « بوكيون » حارس الباب .. ولكن أحدا لم يستطع أن يدلى بشىء ذى قيمة .. **لقد أجمعت أقوالهم على ان أحدا لم يفطن الى حدوث شىء غير عادى ، فى الليلة السابقة ..** فان كلا من المركيزة والمركيز قد تناول عشاءه خارج القصر فى تلك الليلة — كل لدى اصدقاء غير الذين كان زوجه فى ضيافتهم ! — وقد كانت المركيزة هى الاولى فى العودة ، ثم لحق بها المركيز — فى الحال تقريبا — فقضيا بضع دقائق فى الحديث عما شاهداه وسمعاه فى ليلتهما ، ثم انصرف كل منهما الى مخدعه .. فقد كانا ينامان فى مخدعين مستقلين ، تفصل بينهما قاعة للجلوس . **ولم يسمع أحد — خلال الليل — أى صوت فى داخل القصر أو فى الحديقة .**

وعنى النائب بتبين ما اذا كانت ثمة سرقة قد حدثت ، فوجد ان مخدع المركيزة وحده هو الذى كان فى حال غير عادية .. كانت قطع الاثاث فى غير أماكنها ، وكانت **الادراج**

مفتوحة عنوة ؛ وقد تناثرت محتوياتها فى كل مكان .. وبينها نقود ذهبية ، وحلى ومجوهرات ثمينة !

المرء لايقتل نفسه ثلاث مرات !

• **وادلهمت** دياجير الحيرة التى اكتنفت النائب العام .. وازاء انعدام حافز السرقة ، وتأكيد الجميع ان احدا لم يسمع صوتا أو جلبة ، خطر له ان المركيزة ولا بد قد انتحرت ، وأن الفوضى التى سادت الحجرة كانت من صنعها ؛ فى غمرة حيرتها ، أو فى حرصها على اعدام بعض اشياء خاصة بها ، قبل أن تفارق العالم . ولكن أهل القصر استهجنوا هذا الخاطر ، **فقد عهدوا فى مولاتهم رزانة وتقوى تصدانها عن مثل هذا التصرف .. وان فكرة الخلاص من الحياة — على هذه الصورة — لم تساورها فى أشد الملمات المحزنة .**

ورؤى استشارة الطبيب مرة أخرى ، فذكر ان الوفاة حدثت نتيجة ثلاث ضربات بسلاح حاد ، وان كل ضربة من الثلاث كانت قاضية .. ولا يعقل أن يقتل المرء نفسه ثلاث مرات بيده .. واذا كانت الضربة الاولى كافية للقضاء عليه، فكيف تجرى يده بالسلاح مرتين أخريين ؟

وازاء هذا عدل النائب العام عن الافتراض القائل ان المركيزة قد انتحرت .. ورجح انها ماتت قتيلة .. ولكن ، **منذا الذى قتلها ؟**

هذا هو السؤال الذى لم يكن ثمة بد من البحث عن جواب له ، مهما يكبد ذلك من جهد !

القاتل .. من أهل القصر !

• **وعاد** النائب العام الى سؤال الخدم ، وقد استعان بالضابط الجنائى لمدينة (اكس) : السيد لانج دىسوفران .

وكان الزوج ــ فى تلك الاثناء ــ قد تمالك نفسه شيئا فشيئا ، فلما سئل أكد انه لم يسمع أية حركة تريبه فى تلك الليلة ، وأعلن انه لن يهدأ ولن يستكين ، حتى يعثر على الجانى الأثيم .. **وقد ذهب فى ذلك الى حد أنه راح يقول : « اننى أنزل عن نصف ثروتى فى سبيل الكشف عن القاتل ! »**

وما لبث حزنه أن طغى عليه حتى أنه لم يعد يقوى على البقاء تحت سقف القصر الذى شهد الجريمة الشنيعة ، فآثر أن يهجره ، وأن يقيم لدى عمة له تدعى « مدام دى بلونديل » ، كان قصرها المحوط بحديقة شاسعة ، يقع فى ضاحية فى أقصى أطراف المدينة ..

وكان النائب العام والضابط الجنائى قد أعادا سؤال الخدم ، فلم يدل هؤلاء بشىء جديد . ولقد فحصا كل شبر فى الدار ، فلم يصلا الى أثر واحد يشى بالجانى . ومن ثم فانهما ناقشا الامر مع المركيز ، قبل مبارحة القصر ، عسى أن يتذكر أى عدو يحتمل أن يكون المجرم المنشود ، ولكنه قال انه ازاء الظروف والملابسات المحيطة بالجريمة يرى أن القاتل ولا بد من المقيمين فى القصر ، ولعله أحد الخدم !

« الموسى » الغائبة من خزانة المركيز !

• **وصادف** هذا الرأى هوى من نفس الضابط الجنائى السيد « لانج » ، فقرر أن يعمل على هداه . وكان خدم

القصر قد احتجزوا فى داخله ـ منذ البداية ـ تحت رقابة لم تمكن أحدا منهم من أن يغادر القصر أو يتصل بأحد خارجه . فاستدعاهم السيد « لانج » واحدا بعد واحد ، واخذ يلاحق كلا منهم بأسئلة دقيقة ، ويضيق عليه الخناق، مستخدما أبرع أساليبه وحيله .. ولكن كلا منهم كان يكرر عين ما قاله فى التحقيقين السابقين .

على أن خادما منهم أبدى اضطرابا وهو يعتصر ذاكرته ، عندما سئل للمرة الثالثة. .ذلك كن « اوجيست » وصيف المركيز . واستغل المحقق هذا الاضطراب ، فأخذ ينهال عليه بالاسئلة ، حتى قال أخيرا : « الواقع اننى فطنت الى غياب موسى من خزانة أدوات الزينة الخاصة بمولاى » .

وسأله المحقق وقد أرهف النبأ حواسه : « وبماذا تعلل ذلك ؟ » .. فأجاب الوصيف حائرا : « لست أدرى ، ولكنى متأكد من غياب الموسى ، فقد أزلت بنفسى شعر لحية سيدى المركيز بالأمس ، ثم نظفت الموسى ورددتها الى مكانها .. وفى هذا الصباح ، فتحت الخزانة لأعد العدة لمباشرة زينة مولاى ـ ولم يكن الحادث المشئوم قد عرف بعد ـ فلاحظت اختفاء تلك الموسى بالذات ! »

.. وقميص غائب ، كذلك !

• **وتفقد** السيد « لانج » بنفسه خزانة أدوات الزينة ـ فى جناح المركيز ـ والمكان الذى كانت تشغله الموسى منها ، ثم راح يلح بالاسئلة على الوصيف ، وقد داخله الشك فى انه هو الذى اخذ الموسى ، ولكن « اوجيست » اقسم بأغلظ

الاقسام ، مبرئا نفسه .. وما كانت الايمان يوما بالوسيلة الى اقناع المحققين . لذلك فتش الضابط حجرة الوصيف ، فلم يهتد الى أثر للموسى. وعاد يفتش جميع غرف القصر..

وفى خزانة ثياب المركيز ، كانت ثمة مفاجأة أخرى للمحقق .. فقد تبين ((أوجيست)) ان واحدا من أقمصة المركيز ـ التى كان يعرفها بحكم عمله ـ قد اختفى من الخزانة .. ولم يسفر البحث عن العثور عليه ، أو على أثر باق منه !

وأدى غياب الموسى والقميص الى اشتداد الغموض ، والى تحير السيد « لانج » ، حتى أنه اضطر الى تأجيل التحقيق الى اليوم التالى ، اذ أن التفكير فى ذلك شتت عقله ، فلم يستطع المضى فى سؤال بقية الخدم !

على ان السيد «لانج» لم يكد يبرح القصر ، حتى انتحت « مارى بال » ـ وصيفة المركيزة ـ بأوجيست جانبا ، وسألته عن سر ماكان عليه من اضطراب ، فعاد يقسم بأقدس الايمان على براءته . ثم أردف قائلا ان ماأثار ارتباكه هو شعور راوده ـ حين كشف أمر اختفاء الموسى ـ بأنه انما كان يتهم بذلك مولاه الذى لم يعهد فيه سوى كل طيبة ، وتقوى ، ونبل اخلاق .. ومن ثم فقد كان يخشى أن يسىء بذلك الى المركيز .

ولم تناقشه « مارى بال » فى ذلك ، ولكنها راحت تقول ان من واجب المرء أن يدلى للعدالة بكل ما يكون لديه ، مهما يكن تافها أو غير ذى بال فى نظره ، مادام مطمئنا الى براءته، والى صدق مقصده . **وأردفت انها لن تكتم عن المحقق ـ**

اذا ماسالها فى اليوم التالى ـ شيئا مما لاحظته أو لمحتــه ، عسى أن تستطيع بذلك أن تساعد العدالة على الوصول الى المجرم الذى قضى على مولاتها بتلك الوحشية الضارية !

وهج فى نافذة المركيز ..

• **واستأنف** السيد « لانج » التحقيق فى الصباح التالى، فبدأ أول مابدأ بالتحرى عن المسالك التى كان من المحتمل أن يتسرب خلالها أى أجنبى الى مخدع المركيزة . **ولكنه لم يعثر على أى أثر لمتسلل ، ولم يكتشف ما ينم عن أن احدا ولج القصر من غير أبوابه العامة !**

وتقدمت اليه ــ فى تلك الاثناء ــ احدى المقيمات على مقربة من القصر ، وتطوعت بالشــهادة بأنهــا استيقظت فى الفجر الذى أعقب ليلة الاغتيــال ، لتتــأهب للذهاب مبــكرة الى الساحة التى كان مقررا اجراء تجربة الطيران فيها . **وفيما كانت تستعد ، لمحت وهجا شديدا فى نافذة حجرة ظهر أنها كانت مخدع المركيز ..** ولو ان الوقت كان شــتاء ، لما بدا ثمة داع للعجب أو الدهشة . ولكن اشعال النار بين جدران مخدع ، فى شهر يونيو ، كان خليقا بأن يثير الشبهات .. وبالفحص ، تبين « لانج » أن ثمة آثار أوراق واقمشــة قد احرقت فى مدفأة مخدع المركيز !

واشــتدت حيرة الضابط الجنائى .. ترى ما الذى دعا المركيز الى احراق تلك الاوراق والاقمشة ؟.. وما كنهها ؟ .. وهل كان من قبيل المصادفة أن تحرق فى عين الليلة التي شهد فيها المخدع المجاور جريمة الاغتيال ؟

همسات .. وظواهر مريبة !

• **وقبل** أن يمضى السيد « لانج » قدما فى **تحرياته** ، طلبت الوصيفة « مارى بال » أن يسمح لها بالافضاء **ببعض** أقوال لديها . فلما اجاب رجاءها ، انطلقت تتكلم **دون** توقف .. فذكرت انها فاجأت مولاتها – فى عدة ليال – **وهى** تبكى لتكرر تغيب المركيز عن القصر .. **وكانت تبادره – عند عودته – باللوم ، فيرد اودها فى غضب ، مما كان يثير بينهما الشقاق والمشاحنات .**

.. وخفت صوتها وهى تردد الأقاويل التى شاعت بين خدم القصر ، عن حادث وقع للمركيزة .. فقد قدر لها أن تحمل – بعد طول ارتقاب – ولكن الحمل لم يكتمل ، اذ حدث أن زلت قدمها يوما ، فوقعت على سلم القصر .. **وكان الخدم يتهامسون – فيما بينهم – بأن هذا الحادث لم يأت عفوا ، وانما كان مدبرا !**

كذلك ذكرت « مارى » ان المركيز قدم – ذات مساء – الى زوجته كوبا من شراب الليمون ، أعده بنفسه ، ولكن المركيزة لم تكد تتذوقه حتى ارتجفت شفتاها ، وتقلصت عضلات وجهها ، وأبت أن تتناوله !

واختتمت ((مارى)) أقوالها بما يسرى من همسات عن علاقة بين المركيز وحسناء تدعى ((مدام دى سمان سيمون)) ..

ولم يضيع المحقق وقتا ، بل انصرف لتوه الى النائب العام ، وقد تجلى له ان الأمر أخطر من أن يستهان به .

وكان المركيز دانتر كاستو يقيم – فى تلك الاثناء – فى

قصر « مدام دى بلونديل » ، وهو نهب لمشاعر وانفعالات عنيفه . لم تكن تدع له سبيلا للراحه . فكان يروح ويغدو فى ارجاء القصر مضطربا . ويكثر من الاختلاء بنفسه ، ويرفض ان يلتقى بالناس .. حتى لقد ابى أن يستقبل من اقبلن لتعزيته من اعضاء البرلمان الاقليمى .

وفى صباح اليوم الثالث ، كان يجلس الى المائدة مع عمته وصديق حميم لهما يدعى « المركيز دى شاتونيف » ، واذا وصيفه « اوجيست » يلتمس مقابلته .. وبادر المركيز باستدعائه ، ثم سمح له بالكلام امام عمته وصديقه ، فروى له الوصيف ما افضى به للمحقق عن اختفاء الموسى ، وما تكشف من اختفاء احد أقمصته .. **وراح المركيز يصغى فى صمت ، وهو مقطب الجبين ، حتى اذا انتهى الوصيف ، غمغم فى غيظ وسخط : ((يالك من أحمق !))**

وذكر له الوصيف ما أفضت به « مارى بال » للمحقق ، فشحب وجه المركيز ، وهتف مرة أخرى : « يا للفتاة الغبية الثرثارة ! » . ثم لاذ بالصمت .

الدائرة تزداد ضيقا !

• **وما ان** انصرف الوصيف ، حتى ساد قاعة المائدة صمت واجم ممض . ثم قال المركيز دى شاتونيف : « لا مراء فى أن السيد لانج دى سوفران من اذكى المحققين .. وهو لا يألو جهدا فى السعى وراء أى مجرم يتولى قضيته .. **وأرى انه لم يلجأ الى النائب العام ، الا لأن شكوكه تتجه الى شخص يعظيمة المقام ، فرأى أن يستمد التأييد من رؤسائه فيما هو مقدم عليه !))** .. ولم ينبس « دانتركاستو » ببنت شفة ، فقالت

عمته : « أحسبك قد أدركت أن الشكوك تتجه اليك ، وانى لآمل أن تكون شكوكا غير صحيحة . ولكنك أجدر بأن لاتضيع وقتا ، وعليك أن تعمل على هدى ما يوحى به ضميرك . فاذا كنت موقنا من براءتك ، فعليكان تسلم نفسك للنائب العام ، الى أن تنجلى الحقيقة . أما اذا .. »

وترددت لحظة ، ثم استجمعت جرأتها وقالت : **« اما اذا كنت ــ لسوء الحظ ــ مدانا ، فمن واجبك أن تبادر بمبارحة فرنسا بأسرها ، حرصا على شرف الأسرة وكرامتها ! »**

واشتد شحوب وجه « دانتركاستو » ، ولكنه ظل صامتا . فعادت عمته تسأله : « علام استقر رايك ؟ » ، وكان جوابه : « دعينى افكر ! »

المركيز يؤثر مغادرة فرنسا !

• **وفكر** طويلا ، ولكنه لم يلبث أن قال لعمته فى النهاية : « اذا أمكنك أن تزودينى ببعض المال ، فانى أوثر أن ارحل ! »

.. وكان هذا الجواب اعترافا واضحا منه بالجريمة !

وسرعان ما أعدت « مدام دى بلونديل » لابن أخيها عربة خفيفة ، استقرت أمام الباب الخلفى لقصرها . ثم زودته بقدر من العملة الذهبية .. وبعد نصف ساعة، صعد المركيز الى العربة ، بغير متاع ، فتهالك على مقعدها مهموما !

وانطلقت العربة بأقصى ما كان لدى جواديها من سرعة ، ميممة شطر (مارسيليا) .

وفى تلك الاثناء ، كان السيد « لانج » قد حصل على سلطة واسعة ، فراح يتجه فى التحقيق اتجاهات جديدة .. وسرعان ما تجلت له الحقيقة واضحة ..

سعادة و ثقة .. بين الزوجين

• **كانت** « مدام دنتر كاستو » قـد تزوجت من المركيز وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، بينما كان هو يصغرها بعام واحد . وكان من الواضح انها زيجة دبرت كما لو كانت صفقة تجارية ، على غرار ما كان متبعا فى تلك الايام ، فى أسرات الطبقة العليا . **بيد أن هذا لم يحل دون أن ترفرف السعادة على الزوجين ، وأن تطمئن المركيزة الى زوجها فتعهد بثروتها اليه** ، فضمها الى ثروته ، وتولى رعايتهما معا وهو مطلق اليد فيهما .

ومع أن المركيزة ــ وكان اسمها الأصلى « أنجيليك » ــ لم تكن جميلة الوجه ، الا انها كانت بديعة القوام ، ذات أخلاق دمثة ، وطباع رقيقة ، وعينين جذابتين تفيضان رقة وطيبة واخلاصا .. كما كانت ذات ذكاء لماح ، وشخصية قوية . فسرعان ما أمسكت بمقاليد القصر بيد حكيمة ، فأعجب زوجها بتدبيرها ، ولم يتردد ــ ازاء كثرة أعبائه ، كرئيس لبرلمان الاقليم ــ فى أن يكل اليها شئون ثروتهما وممتلكاتهما المشتركة ، فأدارتها ببراعة اغتبط لها المركيز ..

صائدة بارعة تلقى شباكها !

• **وعاش** الزوجان محلقين فى أجواء السعادة زهاء ست سنوات ، الى أن قدر لامرأة غريبة أن تتسلل الى حياتهما .. أو الى حياة المركيز على الاصح .

وكانت تلك المرأة تدعى ((سيلفى دى سان سيمون)) .. كانت ابنة أحد أعضاء البرلمان ، وقد ترملت قبل سنوات ،

وانصرفت الى الحياة الاجتماعية ، فلمع نجمها فى الاوساط الراقيه ، سيما وانها كانت ذات جمال باهر ، وجرأه عجيبه تسول لها ان تسعى الى اغراضها دون أن تعبأ بالناس !

وتشبثت « سيلفى » بالمركيز الشاب ، فلم تتورع عن طرح شباكها حوله ، واستخدمت كل ما أوتيت من فتنه واغراء فى سبيل اجتذابه .. ولقد حاول المركيز أن يقاوم محاولاتها ، واستطاع ان يصمد زمنا ، ولكنه لم يلبث أن وقع صريع الفتنة، فلم يعد يرى سوى « سيلفى » الحسناء ، ولم يعد يعيش الا على حبها !

.. وحل الشقاق محل الوئام

• وحاول العاشقان ان يتكتما هواهما ما استطاعا . ولكن محاولاتهما لم تدم طويلا ، اذ لم يلبث الامر أن شاع فى المجتمع الراقى فى (اكس) . ولم يكن غريبا ــ بعد ذلك ــ أن تتناهى الشائعات الى أذنى المركيزة دانتركاستو ، فتلقى اضواء على بعض تصرفات كانت قد لاحظتها على زوجها فى الفترة الاخيرة .. اذ كان المركيز قد بدأ ينصرف عنها ، ويهمل بعض واجباته كزوج ورب اسرة . فضلا عن انه كان يكثر من طلب المال وانفاقه فى اسراف .. ثم لم يلبث أن بدأ يرى فى ادارة زوجته لثروة الاسرة ذلة ومهانة له ، وهو الرجل ، رب الاسرة ، فأخذ يسعى لاسترداد سلطته .

ودب الشقاق بين الزوجين اللذين كانا مثلا للسعادة الزوجية .. وشعرت « انجيليك » بأن تردى زوجها فى هوى تلك الارملة الحسناء ، طعنة قاسية أصابت قلبها وثقتها

وكرامتها . **لذلك شعرت بازدراء شديد له ، فلم تحاول أن تناضل من أجل استرداده** ، ولم تشأ أن تطالبه بأكثر من أن يتحفظ فى علاقاته بعشيقته ، وبأن يصون المظاهر التى كانت تتطلبها مكانتهما الاجتماعية كزوجين ؛ حفظا لكرامة الاسرة !

أضواء تكشف الجريمة

• **وكان** خليقا بالزوج أن يحمد لها هذا المسلك ، وأن يقنع بما أبدته ازاء هواه . ولكن المفتون لم ينفك يسعى لاسترداد سيطرته على ثروة الاسرة ، فرأت زوجته فى هذا التكالب منه سبيلا الى الانتقام لكرامتها ، وتشبثت بما كان قد وكله اليها طواعية من حق الاشراف على تلك الثروة ..

واثار هذا الامر بينهما مشاجرات عديدة ، ولكن شيئا لم يقو على أن يزحزح المركيزة عن رأيها العنيد . ومن ثم بدأ المركيز يدبر الخطط للتخلص منها .. وكان هو الذى تسبب فى انزلاقها ووقوعها ــ وهى حامل ــ أملا منه فى أن تموت أثناء الاجهاض ! .. كما كان هو الذى عمد ــ فى مرة أخرى ــ الى دس السم فى كوب الليمون الذى أبت المركيزة أن تشربه !

ثم كانت تلك الجريمة التى أقامت (اكس) وأقعدتها .. فقد كان هو الذى ذبح زوجته بالموسى ، اذ تسلل الى مخدعها ــ أثناء نومها ــ فى تلك الليلة المشئومة . ثم اغتصب أدراجها ، وأخذ منها كل الوثائق التى كانت كفيلة بأن توجه الشبهات اليه ، فأحرقها مع القميص الذى كان يرتديه وقت الجريمة ، والذى لطخته الدماء .. وظن انه بذلك قد نجا من سطوة العدالة . ولكن الاحداث خيبت ظنه !

قبر .. في دير اسباني

• **كل** هذه الحقائق اكتشفها السيد « لانج » ، وجمع الأدلة والقرائن التي كانت تدعمها . وجريا على التقاليد التي كانت متبعة اذ ذاك ـ نظرا لامتيازات النبلاء وأمراء الاقطاع ـ عرضت القضية على لجنة برلمانية خاصة ، **لم تلبث أن أصدرت حكمها باعدام المركيز ـ بقطع رأسه ـ ولكن .. في تستر بعيد عن العلانية ، نظرا لمكانته ! ..** أما « مدام دي سان سيمون » ؛ فلم يثبت أن لها أي دور في الجريمة ، فبرئت ساحتها ..

على أن يد الجلاد لم تستطع أن تمتد الى المركيز ، اذ أنه هرب الى ايطاليا ، عن طريق جبال الالب ، ووصل الى (نابولي) تحت اسم مستعار . وهناك نمي اليه أن الحكومة الفرنسية قد اهتدت الى مكانه ، وطلبت الى السلطات الايطالية أن تسلمه اليها ، **فلم يتوان عن الفرار الى اسبانيا، حيث لجأ الى أحد الاديرة ـ تحت اسم مستعار ـ وانخرط في سلك رهبانه !**

والى هنا ، تعتبر حياته قد انتهت .. فقد فقد اسمه ؛ وفقد صلته بوطنه ، وفقد صلته بالحياة الاجتماعية .. على أن النهاية الحقيقية لحياته لم تحن الا بعد عام كامل من وفاة ضحيته ـ أو بالاحرى ، في ١٦ يونيو سنة ١٧٨٥ ـ **اذ مات** بداء الصدر ، في صومعة في الدير .. ودفن في قبر منزو ، تحت اسمه **المستعار !**





وراء كل عظيم .. امرأة !

الحبّ .. أبدى !

قصة المرأة التى دفعت "ابراهام لنكولن" إلى كرسى الرئاسة !

بقلم الكاتب المؤرخ : ارفنج ستون

عزيزي القارىء ..

ما من كاتب مسرحي استطاع أن يخلق قصة ، اجتمع فيها من عناصر المأساة ماأجتمع في حياة « ابراهام لنكولن » !

فكما كان يحدث للأبطال في تراجيديات الاغريق القديمة ؛ كان الفشل حليفا للنكولن في كل عمل تولاه ، أو خطة سار فيها .. **فلما عرف النجاح في النهاية ، وجد مذاقه أشد مرارة من الفشل !**

وفي زهرة شبابه، فجع بفقد المرأة الوحيدة التي أحبها .. فلما تزوج من أخرى ـ بعد أعوام ـ **كانت زوجته أشد حرصا على أن تراه مشهورا ، منها على ان تراه سعيدا !..** وشتان بين الهدفين !

واستمر الفشل يلاحقه ..

.. فلقد دخل ميدان الاعمال الحرة ، ففشل !

.. ومارس المحاماة زمنا ، فكان مهضوم الحقوق دائما !

.. ورشح نفسه لعضوية مجلس الشيوخ الامريكي ، فهزم !

.. وسعى الى أن يعين في أحد مناصب الادارة المحلية ، فرفض طلبه !

.. ورشح نفسه لمنصب نائب الرئيس ، فخسر المعركة !

.. وحين فاز أخيرا برئاسة الجمهورية ، **دخل (البيت الابيض) في ظروف يظللها الأسى أكثر مما يكللها النصر !**

.. فرغم تكريسه نفسه للسلام ، فانه وجد نفسه « مرغما » على الاشتباك في حرب !

.. وفى الوقت الذى كان هو ــ بطبعه ، وقلبه ــ « أرق » الآباء ، واكثرهم حنانا ، نكبته الاقدار فى بنيه ، **فأحنى رأسه فى حداد على قبرى اثنين من أطفاله ، ماتا فى زهرة الصبا !**

.. وبقدر لطفه ودماثته نحو كل كائن حى ، كتب عليه ان يضطر ــ المرة تلو المرة ــ الى ان يوقع أحكام الموت على الجنود الذين فروا من الميدان خوفا من الموت !

.. ورغم ما طبعت عليه روحه من استقامة وحب للخدمة العامه فى وضح النهار ، فقد أجبر على أن يعيش سنوات رياسته للجمورية فى الظلام .. ظلام الحرب والقتال والدمار !

.. وأخيرا ، حين لاح فجر الانتصار ، بعد ليل اليأس الطويل ، لم يعش لنكولن ليشهد انبلاج الصبح .. اغتاله متهوس مخبول بعد انتهاء الحرب الاهلية بأقل من اسبوع !

.. وكان المؤلف المسرحى الأعظم فى السماء ، أراد ان يجعل من حياة لنكولن درسا يتعلم منه كتاب المسرح الصغار على الارض ، كيف يكتبون « تراجيديا » مثالية !

حياة لنكولن .. فى سطور

١٨٠٩ : ولد فى ولاية (كنتوكى) الامريكية
١٨٣١ : اشتغل فى وظيفة كتابية بسيطة بأحد متاجر مدينة (نيوسالم) بولاية (الينوى) .
١٨٣٤ : انتخب عضوأ بالمجلس التشريعى لولاية (الينوى)
١٨٣٥ : ماتت خطيبته « آن روتلدج »
١٨٣٧ : بدأ يمارس المحاماة، بعد حصوله على الليسانس .
١٨٤٢ : تزوج من « مارى تود »
١٨٤٧ ــ ١٨٤٩ : خدم مواطنيه فى المجلس النيابى .
١٨٥٤ : القى فى (بيوريا) خطابه المشهور ضد انتشار الرق .

١٨٥٦ : انضم الى الحزب الجمهورى الذى تأسس حديثا.
١٨٥٨ : اشتبك فى مناظرة حامية حول موضوع الرق، مع خصمه السياسى « ستيفن دوجلاس » .
١٨٦٠ : القى خطابا هاما فى « اتحاد كوبر » ، حول الموضوع ذاته .
١٨٦٠ : انتخب رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة الامريكية .. (الرئيس السادس عشر)
١٨٦١ : أخذ على كاهله مسئولية اشعال الحرب الاهلية بين ولايات الشمال والجنوب ، من أجل تحرير العبيد
١٨٦٣ : أصدر اعلان الغاء الرق .
١٨٦٣ : القى خطاب (جتيسبرج) التاريخى المشهور .
١٨٦٤ : اعيد انتخابه رئيسا للجمهورية .
١٨٦٥ : اغتاله متهوس فى مقصورة بمسرح « فورد » .

الحب .. أبدى !

تلخيص : الآنسة كليمانس م. عبد الملك

وقفت أمام المرآة لتكمل زينتها ، استعدادا لاستقبال المدعوين الى الوليمة التى دعا اليها والدها فى ذلك المساء .

وأخذت تدور أمام المرآة ، متلفتة ذات اليمين وذات اليسار ، لكى تطمئن على اناقتها ، بينما ثوبها الحريرى ينسدل على جسمها ، كاشفا عن صدرها المرمرى .

ولم يمض على انشغالها بنفسها وقت طويل ، اذ لحقت بها شقيقتها « آن » ــ وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها ــ فوقفت تنظر اليها وتطرى اناقتها .. ومضت فترة صمت

قصيرة ، تبادلت الشقيقتان خلالها الابتسامات ، الى أن قطعت « آن » الصمت بقولها :

ـ اياك ان تضيعي على نفسك فرصة هذه الليلة ياماري .. ان والدتي تعتقد انها آخر ..

ثم أمسكت عن الكلام مشفقة ، لكنها مالبثت ان استطردت قائلة : ((**مالم تفكرى فى ((ساندى)) .. وتجعليه يتقدم لطلب يدك !))**

ويبدو ان كلمات شقيقتها قد مست وترا حساسا فى قلب ماري ، اذ أنها صمتت ، وسارت بخطوات متثاقلة ناحية النافذة المطلة على مروج (بلوجراس) الشاسعة ، حيث وقفت تتأمل قرص الشمس وهو ينسحب رويدا رويدا الى أقصى الغروب .

.. وانسحبت ذاكرتها بدورها الى الوراء ثمانى سنوات .. أيام أن كانت فى ربيعها الثانى عشر .. وكانت لها أحلام وردية تراودها ، وتنقلها ، وهى فى اليقظة ، من مكان الى مكان ، تاركة لها فرصة الاختيار .. لكنها كانت تتشبث بمكان واحد دون سواه .. ألم تقل لأحد أصدقاء والدها من السياسيين : ((**لكم تروق لى السكنى فى واشنطن .. فى البيت الأبيض بالذات ! ؟**)) .. نعم كان الطموح يوجه أحلامها .

على أنها سرعان ما ارتدت الى الواقع ، تاركة الماضى فى مستودع الذكريات .. وهبطت الى الحديقة ، حيث جلس أبوها « روبرت تود » ، الذى ضحى بنبوغه فى العلم وتبحره فى التاريخ والمنطق واللغة اللاتينية ، وآثر أن يكون صاحب

شركة للبقالة ، الى جانب منصبه كرئيس لمجلس ادارة بنك (لاسنجتون) ، مما دن يحز فى نفسها كثيرا ، اد نرى على هذه الحال ، بينما مكانه الحقيقى هو السياسه وشئون الدوله ! .. لكنها كانت تعزى نفسها بما عقدته من امل على الرجل الجالس بجوار ابيها الان .. او ليس « هنرى ىلاى » عازما على ترشيح نفسه للرئاسه ؟ او ليس صديقا حميما لأبيها ؟ اذن لابد انه سيسند الى ابيها منصبا حكوميا رفيعا ، اذا ما صعد الى كرسى الرئاسه ذات يوم ..

كان الاشتغال بالسياسة وشئون الدولة ركيزة هامة فى منطقة طموح « مارى » .. وكانت أضواء المناصب الرسمية تسحرها ، وتوجه اهتماماتها الاخرى .. اما « البيت الابيض » فقد كان بمثابة الكعبة التى تحج اليها أحلامها بين حين وآخر !

المال والشباب ليسا كل شىء فى الرجل !

بدا البيت ، فى تلك الليلة ، كشعلة من الأنوار .. كل شىء فيه كان متلألأ براقا .. بينما مارى تتنقل بين المدعوين والفرحة تكسو وجهها ، وهم يبادلونها التهنئة والتمنيات . فقد كان الحفل من أجلها .. بمناسبة عيد ميلادها ..

وما أن اكتمل عقد المدعوين ، حتى نهضت « مارى » فافتتحت الحفل بمراقصة « ساندى مكدونالد » . ثم التف القوم حول الموائد ، وراحوا يتحدثون ويثرثرون .. وتذكرت « مارى » ساعتئذ أن زوجة أبيها « بيتى همفرى تود » لم تحضر الحفل ؛ فشعرت بالاكتئاب لحظات ، ثم عدت الى سرورها بعد أن تذكرت أن زوجة أبيها لم يمض على ولودها

السادس وقت طويل ، وربما أعجزها الضعف عن الحضور .. وقد تكون فكرت أيضا فی أن تتيح للفتاة فرصة القيام بدور المضيفة وربة البيت معا فی هذه الحفلة بالذات .

على ان ماری لم تلبث أن ضاقت بجو المائدة ، فتسللت مع ساندی الى الحديقة .. وهناك جلسا .. وشرع الشاب يذكرها بالزواج وضرورة اعلان الخطبة فی اليوم التالی ، أثناء حفل التخرج الذی ستقيمه جامعة ترنسلفانيا ، حتى تزدان (لكسنجتون) بأنوار حفلتين فی وقت واحد !

لكنها لا تدری كيف واجهت طلبه بدموع طفرت الى عينيها وتسللت الى خديها فبللتهما ، بينما الشاب واجم لا يدری ماذا يقول .. وأحست ماری بذلك فقالت متأثرة :

ـ انها دموع الشكر ، فأنت أول شخص يطلب يدی .. ولا ادری لماذا .. لعلنی لم أغرم بأحد قط !

كان ساندی يحبها حقيقة ، بالاضافة الى ماورثه عن أبيه ـ مؤخرا ـ من أراض ومزارع شاسعة . وكان يتمنى أن تقبل طلبه . كذلك لم يكن أحد يتوقع أن ترفض ماری طلبا لشاب يعتبره الجميع صفقة رابحة بالنسبة لبناتهم ! .. لكن ماری كانت من نوع آخر .. لم يكن يهمها الثراء أو الفتوة بقدر ماكان يهمها أن تحصل على رجل من نوع آخر .. كانت تهوى الرجال ذوی العقول الجبارة .. ذوی الطموح والجلد والاحساس بالمسئولية تجاه مايدور فی العالم من محن ومشكلات .. لهذا كان من المستحيل أن تقترن بساندي ذي الذراعين المفتولين والجاه العريض .. أضف

الى ذلك مشروعها الذى فكرت فيه طويلا ، واستقر رأيها على تنفيذه . فهى لم تنس السنوات القليلة الماضية التى صرفتها فى مد العون لفريق من البشر كانت كل جريرتهم أنهم ولدوا سود البشرة . ولكم أحست بالتعاطف مع قضيتهم ، ولكم حاربت الرق الذى واجههم به أبناء جلدتها من البيض .

المرأة الصادقة لاتحب الا مرة واحدة !

وفى الصباح التالى ، استيقظت « مارى » على صوت زوجة أبيها « بيتسى » وهى تلومها على رفضها الزواج من «ساندى» ! .. وكاد النقاش بينهما أن يتطور ويحتد ، لولا أن تداركت « مارى » الأمر ، اذ تذكرت عناية « بيتسى » بها منذ أن ماتت أمها .. وتذكرت أخوتها الخمسة الاشقاء ، واخوتها الستة غير الاشقاء الذين انجبتهم زوجة أبيها ذات الشخصية القوية ..

وحل موعد حفل التخرج ، فأسرعت مارى الى الجامعة التى درست بعض مناهجها ، عقب انتهائها من دراستها فى مدرسة البنات ومدرسة « مدام مينتل » الداخلية ، حيث اتقنت فيهما اللغات ، والعزف على البيانو ، والتمثيل والغناء ..

وفيما هى عائدة الى دارها ، مرت بسوق الرقيق ، فواجهتها المشكلة مرة أخرى عندما شاهدت فتاة صغيرة تعرض للبيع والناس يساومون فى تقدير ثمنها كالحيوان !..

فتنهدت ، ثم تمتمت لنفسها بعبارة حفظتها عن أبيها :
« ان رجلا واحدا لايستطيع أن يضع حدا للرق ! »

ومضت الايام بها ، وهی غارقة فی المشكلات من حولها ، الی أن دعتها جدتها ذات يوم لزيارتها .. وهنك تفرع بهما الحديث ، لكنهما التقيتا عند نقطة بعينها .. كانت مشكلة الزواج هی المرفأ الذی استراحت عنده الجدة العجوز التی ترملت اكثر من تسعة وثلاثين سنة ، ايمانا منها بمبدأ حافظت عليه ، يقول : **« ان المرأة الصادقة لاتحب الا مرة واحدة ! »** .. وراحت الجدة تلقی اللوم علی « روبرت تود » لزواجه من امرأة أخری بعد زوجته الأولی .. وراحت ماری بدورها تبدی رأيها فی الزواج ، وفی فارس احلامها الذی قصرت شروطها بالنسبة له ، علی الشجاعة والخلق المهذب والحكمة ..

وعندما انتهت الزيارة ، عادت « ماری » الی المنزل فوجدت فی انتظارها رسالة من شقيقتها « اليزابيث » تصف فيها حفل زواج شقيقتهما « فرانسس » التی اقترنت بشاب فجاة دون أن تخبر والدها ! .. وشفعت «اليزابيث» وصفها بدعوة « ماری » لزيارتها ، حتی تشغل الفراغ الذی خلفه رحيل فرانسس ..

ومضت أيام أخری ، ودعت ماری بعدها أفراد الأسرة وغادرت البيت الی دار شقيقتها فی (سبرنجفيلد) .

شخصية جديدة فی الميدان !

ولقيت «ماری» حفاوة بالغة بها فی سبرنجفيلد ، وقضت ايامها الأولی فی استقبال الزائرين الذين وفدوا علی دار

شقيقتها للترحيب بمقدمها . وكان من بين هؤلاء شــاب فى الرابعة والعشرين من عمــره يدعى « ستيفن دوجلاس » ، كانت مارى معجبة بذهنه الوقاد وذلاقة لسانه ..

غير أن الســياسة نجحت فى اجتــذاب « مارى » مرة أخرى ، اذ وجدت من حولها اهتماما بها أوسع مما وجدته فى محيط أبيها . وقد صــادف ان دعيت فى اليوم التــالى الى مؤتمر سياسي ، سرعان مارحبت به ، وانطلقت بصحبة شقيقتها وزوجها لحضوره . وهناك حدثت ضجة أثنــاء مناقشة الخطبة التى ألقــاها أحد المتحــدثين .. اذ صرخ الشاب المتحمس « دوجلاس » مطالبا بانزال الخطيب من فوق المنبر ، وكان ذلك ايذانا بالهرج والمرج اللذين أعقبــا ذلك .. وتطلعت « مارى » تتأمل المــكان ، واذا بها تلمح ، وسط هذا الجو الصاخب ، **ساقين طويلتين نحيلتين تخطوان بسرعة الى حيث كان الخطيب .. كانتا تحمــلان رجلا يبلغ طوله ستة أقدام ، طويل الذراعين ، نحيل العنق ، ذا شعر أسود وبشرة داكنة ووجه لطيف بشوش** .. وتقدم الرجل ناحية المتحــدث ثم واجه الجمهور ، حاملا على الموجودين لضيقهم بحرية الرأى التى كفلها دستور البلاد ..

واحســت « مارى » انها أمام شخصية غريبة ، فســألت شقيقتها عن الرجل الغريب ، واجابتهــا اليزابيث بقولها : « انه ابراهام لنكولن المحامى ، وشريك ابن عمك «ستيوارت» .. انه شاب لطيف ، لكنه لايهم اسرة تود »

شجاعته فى التحدث عن فتره !

ثم التقت مارى بالمحامى الشاب النحيل مرة اخرى ، اثناء حضورها مناظرة سياسية .. لكنه كان فى هذه المرة أكثر حماسة وعنفا ، اذ تصدى لخطيب يدعى « تايلور » ، كان يعنف الارستوقراطيين على بذخهم ، ويحاول أن يظهر الديموقراطيين الذين ينتمى اليهم بمظهر العاملين لمصلحة الشعب ، الزاهدين فى متاع الدنيا .. لكن « ابراهام » هب فجأة ، واندفع تجاه الخطيب ، وأمسك بصديريته وفك ازرارها ، فبدا داخلها قميص حريرى ثمين ، وسلسلة وساعة ذهبيتان ، بالاضافة الى ماحولهما من حلى اخرى ثمينة .. وعندئذ أغرق الجميع فى الضحك .. لكن المحامى النحيل رفع يده فانقطع الضحك ، وصمت الحاضرون ، وشرع هو يقول :

« أيها الأصدقاء .. انا ابراهام لنكولن الوضيع . حين كان « تايلور » يوجه هذه التهم ضد حزب الأحرار — الذى انتمى اليه — فى طول البلاد وعرضها ، وهو يركب العربات الفاخرة ، ويرتدى القمصان الحريرية ، ويمسك بعصا ذات راس ذهبية ، كنت انا غلاما فقيرا ، أعمل على قارب بأجر لايزيد على ثمانية دولارات فى الشهر ، ولم أكن أملك سوى بنطلونا واحدا من جلد التيس .. وليس يخفى عليكم أن من طبيعة هذا الجلد انه ينكمش عند البلل ، ولذلك أخذ البنطلون فى الانكماش حتى كشف من جزء كبير من ساقى . **كنت انمو ، بينما كان البنطلون يزداد قصرا ، حتى صارت**

المسافة بين نهاية جورجى وذيل البنطلون عدة بوصات . كما ضاق فى الوقت نفسه فخلف على ساقى علامة دكناء ، لاتزال باقية الى اليوم. فان كنتم تسمون هذا أرستوقراطية، فاننى أقر بأننى مذنب أمام هذه التهم الموجهة ضد حزبنا ! »

وصفق الجميع له ، ثم سار كل الى حال سبيله .. والتفتت مارى الى شقيقتها « فرانسس » مستفسرة عن أخبار هذا الرجل ، سائلة شقيقتها أن تتيح لها فرصة للتعرف به .

واتيحت الفرصة فعلا ، اذ جمعهما حفل شاى فى بيت شقيقتها .. لكنها لاحظت على لنكولن فى تلك المرة الصمت والانطواء طوال الحفل ، مما أثار فضولها . وانضم الحظ الى صفها حين أعلنت شقيقتها بعد قليل أنها مدعوة مع زوجها للعشاء خارج البيت .. وبذا أتيح لمارى أن تنفرد بلنكولن وتعرف خباياه عن قرب . وسرعان ماتكشفت شخصيته لها شيئا فشيئا ، فبدا بسيطا خجولا ، ميالا الى الفكاهة وسرد القصص والطرائف .

وعجبت « مارى » من طريقته فى الاجابة على أسئلتها ، اذ كان يستعين بالقصص فى الرد عليها . وعندئذ دار بينهما الحوار التالى :

ــ انك أغرب شخص قابلته فى حياتى . ولست أملك الا الاعجاب بك .. فالاعجاب هو بدء الصداقة !

ــ قليل من النساء أبدين اعجابهن بى .

ــ وهل أعجبت أنت بكثير منهن ؟

ـ اذكر اثنتين أو ثلاثا على الأكثر . ولعله كان حبا مبدئيا .. ولكن متى احببت انت يامس تود ؟

وحملقت فيه « مارى » صامتة ، وفكرت برهة ثم قالت :

ـ لم تكن هذه بداية لحبى .. از هو ، على الأقل ، لم يبدأ بعد !

عندما يكون الرجل .. « كالماسة الخام » !

وأخذت علاقة « مارى » بابراهام تتوثق على مر الأيام.. ولم تكن مارى تتوقع أن تجد فى (سبرنجفيلد) هذا الفيض من السعادة .. وقد لاحظت شقيقتها هذه السعادة التى غمرتها ، فأسرت اليها ذات يوم بقولها : « لقد ازددت فتنة وسحرا بدرجة لم أعهدها فيك من قبل ! .. ترى من الذى استهواك من الشبان ؟ .. طبيعى ان الفارس ليس تلك الماسة التى لم تصقل بعد ! » . فاجابت مارى : « **ان صقل ماسة حقيقية يستغرق الحياة باكملها ! وعلى اية حال ، فالأمر يتوقف على نوعها .. وصفائها من الداخل !** »

غير أن صفاء الماسة وصقلها كان يحتاج الى وقت طويل، فقد علقت بها شوائب من هنا وهناك ، سيما تلك الحملة المقذعة التى تعرض لها لنكولن من الصحافة المعارضة ، بسبب طريقته فى الخطابة ، وفى فض المشاكل عن طريق الفكاهة والأمثال الشعبية .. مما أدى بمارى الى القلق على مصير الرجل ومستقبله .. بعد أن علقت عليه آمالا كبار !

وذات يوم وصلها خطاب من والدها ، بمناسبة عيد الميلاد ، وبداخله مبلغ محترم من المال ، مشفوع بنبأ سار

مؤداه ان والدتها قد تركت لها فى وصيتها أرضا زراعية خصبة فى (انديانا) ، مساحتها خمسون فدانا ، على أن تحصل عليها فور زواجها .. وكان ذلك فألا طيبا بالنسبة لها ، مما شجعها على طرح الهواجس والقلق جانبا .

وفى الحفل الذى اقامته شقيقتها بمناسبة العيد ، كانت مارى تقوم بدور المضيفة ، نظرا لتخلف شقيقتها التى كانت على وشك الوضع..وفى تلك الليلة سنحت لمارى فرصةبعد انصراف المدعوين ، اذ لحق بها ابراهام ، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء ، وطلب منها أن تأذن له بدقائق من وقتها ، فرحبت به، وجلسا مستغرقين فى حديث ودى.وكم كانت دهشتها عندما اكتشفا انهما ــ مارى وابراهام ــ قد ولدا فى مقاطعة (كنتوكى) ، كما فقد كل منهما والدته فى سن واحدة .. ثم تحدثا فى تلك الليلة كثيرا ، وطرقا شتى الموضوعات .. وعندما سألته مارى أن يقص عليها تاريخ حياته ، اجاب بقوله :

ــ ان تاريخ حياتى لايعدو أن يكون تاريخ حياة الفقراء ، وهو تاريخ ساذج قصير !

ــ لكنك كنت بليغا فى خطابك ، فمن أين لك هذه البلاغة ؟

ــ لم يكن فى بيتنا سوى الكتاب المقدس . لكننى كنت أستعير بعض الكتب المعدودة التى كانت ملكا للجيران .. كنت أقرأ ليلا على ضوء الشمعة حتى تفنى .. وكنتأحفظ هذه الكتب عن ظهر قلب ، لقلة عددها .. وهكذا استطعت ان اقرأ كتبا مثل (روبنسون كروزو)و(حياة هنرى كلاى)

و (خرافات ايسوب) ، وما شابه ذلك . وقد عاونتني زوجة ابي على اكمال تعليمي ، ضد ارادة ابي الذي لم ينل اي قسط من العلم ، ومع هذا كان يسخط على من يطلبه

لا يترافع الا عن المتهم الذي يؤمن ببراءته !

وكانت ماري تسمع أشياء كثيرة تدور من حولها على السنة الناس ، وكلها منصرف الى ابراهام العصامي المكافح .. قصص كثيرة كانت تروي عن طيبة قلبه وحبه للناس.. وقد ارادت « ماري » ذات يوم أن تتحقق من هذا ، وأن تراه بنفسها . وصادف أن ذهبت الى دار القضاء لتستمع الى مرافعته في احدى القضايا . وكم كانت دهشتها عندما وجدته يعلن تخليه عن الدفاع .. لكنها مالبثت أن اكتشفت الحقيقة ، اذ تبينت أن لنكولن قد علم عن موكله ما يثبت خيانته ، فما كان منه الا أن سار نحو الباب .. وعندما سأله القاضي : **الى أين ؟** أجاب : **((الى حيث أغسل يدي من هذه القضية !))**

كذلك رفض المرافعة في احدى القضايا لأن موكله كان يتجر في الرقيق ، وامتنع عن دخول المحكمة في صفه قائلا : « لن ارفع صوتي لصالح الاتجار بالرقيق الذي أومن بأنه مبني على الظلم والسياسة العقيمة . فالبيض يستطيعون تحرير أنفسهم ، أما السود فهذا ليس في وسعهم . وهنا تكمن المأساة . **ولست أرى من واجبي ، كمحام ، أن أدافع عن شخص يحاول تلويث أرض حرة بتجارة الرقيق !))**



ماری تود فی شبابها (١٨١٨ ــ ١٨٨٢) . وقد التقت بلنكولن فی مرقص عام ١٨٣٩ ، وتزوجا فی ٤ نوفمبر ١٨٤٢، بعد حب تخلله الشجار، والقطيعة . والوصال .. الخ



ماري لنكولن مرتدية ثوبا للسهرة قبيل خروجها مع زوجها الى حفلة راقصة . وكانت تكره الظهور فى صور مع زوجها بسبب الفارق الكبير بين طول قامتيهما !

ولم يكن هذا هو كل ما اكتشفته « ماری » في ابراهام ، اذ هالها ذات مرة أن تكتشف تلك القوة الهائلة التي تكمن فی عضلاته . فقد تباری القوم يوما على حمل فأس ضخمة .. لكن أحدا لم يقو على ذلك ، باستثناء « دوجلاس » الذی حركها قليلا . وقبل لنكولن دعوة ماری لحمل الفأس ، بعد الحاح منها ، فما كان منه الا أن خلع ياقته البيضاء ، وتقدم نحو الفأس ، ثم رفعها مرة واحدة الى مستوى قامته .. ثم طلب فأسا أخرى ، وقام بدفن راسی الفأسين في الارض، وترك بينهما مسافة قدم واحد ، وما أن انتهى من ذلك حتى أمسك كلا منهما بيد ، ورفعهما معا . **وكانت النتيجة ان شعرت ماری بدوار ، غادرت المكان بسببه فورا ، بينما لنكولن يمسح بمنديله العرق المتصبب على جبينه !**

القبلة الأولى !

ونجح كيوبيد تماما فی مهمته ، اذ وفق بين قلبی ماری وابراهام ، وربط بينهما برباط وثيق .. فلكم شعرت ماری بارتياح عندما كانت تسير بجوار لنكولن ، ولكم شعر هو أيضا بالمسئولية ازاء حبهما ، فضاعف من حرصه على راحة رفيقته .. بل انه لم يعترف باسمها الحقيقی ، وانما اختار لها اسما من عنده هو « مولی » .. وهو اسم خاله مريحا ، لايبعث الأشجان مثلما يبعثها الاسم الأصلی . (ذلك لأنه كان قد وقع في غرام فتاة من قبل ، كانت تحمل اسم « ماری » أيضا ، لكنها خيبت آماله ، وخلفت له اللوعة والحسرة !)

واصبح المشى هواية للمتحابين . وذات مرة ، فيما هما سائران ، أعلنته « مارى » بأنها ستزور عمها القاضى فى (ميسورى) ، لقضاء بعض الوقت هناك .. وأخذا يتناقشان فى مسألة السفر ، وهما يتقاربان أكثر فأكثر ، **حتى اصبحت المسافة بينهما لاتذكر .. وعندئذ انحنى لنكولن نحو مارى، فاولته هى الأخرى خدها دون أن تشعر** .. ولم تدر الا وقد احتضن كل منهما الآخر ، وقد أطبقت شفتاه على شفتيها .. وفى تلك اللحظة انهارت جميع السدود التى تفصل بينهما ، وأصبحا يشعران كأنهما الكائنان الوحيدان على ظهر الارض !

وبعد لحظة ، رفع ابراهام فمه من شفتيها ، وكذلك ذراعيه القويتين اللتين التفتا حول خصرها .. ثم تحول سائرا فى طريقه دون أن ينبس ببنت شفة !

صراع .. بين القلب والجسد

فكرت « مارى » كثيراً فى ابراهام .. بل انهـا صرحت بحبها له الى ابنة عمها «آن» فور وصولها الى (ميسورى) ، ودافعت عنه ، وتنبأت له برئاسة الجمهورية ! .. لكن التفكير فيه شغلها ذات ليلة ، وهى فى فراشها تتقلب ، وتستدعى النوم بلا جدوى ، اذ أخذت تتساءل :

« **ترى لماذا أحب لنكولن أكثر من سواه** ؟ ان كان ذلك لأمانته ، فجميع معارفى تقريبا يتحلون بالأمانة !.. وان كان للبساطة ، فانها سجية لاقيمة لها ! .. وان كان للقوة

البـدنية ، فالحيـوانات تتمتع بهـا ! .. وان كان لروحه الفكاهية المرحة ، فهـذا لا يدل على ثقـافة ذهنية ! » .. وهكذا راحت تقلب الأمر على كافة الوجوه ؛ دون أن تخرج بنتيجة ، اللهم الا تقدير الناس له ، واعتقادهم بكفاءه وقوة شخصيته .. لكن ، هل يبادلها لنكولن نفس الحب ؟

كان هو قد جرب هذه العاطفة من قبل ، ولدغته التجربة، فجعلته يصف الحب بقوله : « انه هلاك ! » . أما هى فقـد اصرت على حبها وراحت تغذيه وتطعمه من قلبها ووجدانها .. ورفضت بكبرياء عرض شقيقتها اليزابيث بشأن الزواج من « ستيفن دوجلاس » ، الشـاب الثرى الذى يهواها ، وأبلغتها بعزمها على الزواج من لنكولن ، رغم مهاجمة اسرتها له واتهامه بالجهل والخشونة .. بل وقبح المنظر أيضا !

وما أن عادت الى (سبرنجفيلد) عقب انتهـاء زيارتهـا لعمها ؛ حتى سـألت عن ابراهام ، وعرفت من شقيقتها انه عاد هو الآخر من سفره أمس .. وما أن انقضت الليلة حتى فاجأها ، فى الصباح التالى ، بزيارته فى ساعة مبـكرة .. حيث تبادلا الأشواق من جديد .. ثم انصرف بعد أن وعدها بالزيارة فى الصباح الذى يليه ..

وأقبل ابراهام فى موعده .. وكم كانت دهشتها عنـدما قدم لهـا زجاجة من العطر قائلا : « لست ممن يستطيعون التعبير يامولى .. لأن قدرتى على التعبير تقل كلمـا التهبت مشاعرى .. لكننى أريد أن تعرفى عنى شيئا واحدا .. هو انك المرأة الوحيدة التى أحببتها ! »

.. وكان لهذه الهدية المتواضعة وقع كبير على نفسها ، اذ اجتذبها الحديث ، وأخذت تتنقل به من موضوع لآخر ، الى أن استقرت عند موضوع الزواج .. فحدثت لنكولن عن الصداق (الدوطة) الذى تركته لها والدتها .. كما حدثته عن اعتزامها شراء منزل فخم للسكنى ، وعندئذ قال لها : « **لم يحدث اننى ملكت الفراش الذى أنام عليه يامولى ! .. لذا أناشدك طرح هذه المسائل جانبا .. اذ ليس من اليسير على أن أقفز من نصف فراش ، الى قصر منيف !.. ولماذا تبغين أن تبدئى الحياة من قمتها ؟ .. انك لن تجدى عندئذ مجالا للصعود !))**

.. ومضى حبهما هادئا ، حافلا بالبهجة والسعادة .. الى أن اعتزم لنكولن مغادرة سبرنجفيلد ليقود حملة الانتخابات للمرة الأخيرة .. فودع مارى على ان يعود بعد أسبوعين ، بعد أن اتفقا على أن يتم الزواج بعد عودته .. لكن الاتفاق لم ينجح هذه المرة ، فاضطرا الى تحديد موعد آخر لاعلان الخطبة ، وانتهزا فرصة عيد رأس السنة ، فاتفقا على أن تتم فيه الخطبة وعقد الزواج معا ، أثناء حفلة الشمبانيا التى تقرر اقامتها لهذه المناسبة .

وسرعان ما حل الموعد المضروب . وافتتحت حفلة الشمبانيا ، **وظلت مارى تتطلع الى الباب مترقبة قدوم ابراهام ، ولكن بلا جدوى ! .. واضطرت ، قرب نهاية الحفلة ، الى الاعتذار للمدعوين .. ثم صعدت الى غرفتها ، ورأسها مثقلة بالهموم والأشجان :** ترى ماذا حدث ؟ هل

تسرعت فى طلبها ؟ هل ذهب حبها مع الريح .. و .. و .. اسئلة عديدة دارت برأسها ، وجعلتها تقضى ليلتها مسهدة ، لا يغمض لها جفن ..

وأخيرا علمت أن لنكولن قد أصيب بداء السويداء (الملانخوليا) ، وانه يضيق بالحياة ، وأن حالته العامة ليست على ما يرام ، اذ نقل لها ابن عمها ، الذى يقيم فى واشنطن ، فقرة من خطاب وصله من لنكولن يقول فيها :

« انني أشقى مخلوق على وجه الارض ، وأشعر أنه لو وزع شقائى على البشر جميعا بالتساوى لما كان هناك ثغر باسم على هذه الارض ! .. لقد ضقت ذرعا بالحياة ، حتى أصبحت لا أقوى على احتمالها .. والآن : اما التقدم .. واما الموت ! »

ومع أن مارى تجلدت أمام هذا الموقف ، وأظهرت من الشجاعة ما أخفى جزعها وقلقها ، الا أنها كانت كمن أصيب بالحمى ، اذ استسلمت للأمر فى هدوء ، وهى تغلى من الداخل ، وكلما أفاقت من أشجانها تذكرت كلماته لها : « ان الحب أبدى ! »

وأخيرا .. تم الزواج !

وولي صيف ذلك العام ، وحل الشتاء بثلوجه وزوابعه ، لكنه مضى أيضا دون أن تطمئن على الحبيب الغائب !

وذات يوم ، فى بداية شهر اغسطس ، وصلتها بطاقة لتناول العشاء لدى صديقة لها .. ولبت الدعوة .. ولم تكن تدرى ما يخبئه القدر لها . فما أن بلغت بيت صديقتها ،

حتى حدثت المفاجأة .. كان لنكولن هناك ! .. وكان عتاب أعقبه الصلح على الفور ، اذ تفاهما ، وصفيا الخصام ، وتصافحا .. لكنها لم تطلب منه شيئا ، اذ حدث أن واجهها هو بطلبه .. على أن يتم تنفيذه عقب عودته من جولة أزمع القيام بها ..

وصدق فی وعده هذه المرة ، اذ عاد فی أول شهر نوفمبر بعد أن نجح فی جولته القضائية .. وكسب عدة قضايا .. لكنه عاد بمظهر جديد كلية : ففی جيبه عقد شراء أرض مساحتها اربعون فدانا اشتراها لوالديه ، وعليه ثياب أنيقة جعلته يبدو ثريا ..

وتقدم الى ماری قائلا :

ـ تری ، أتقبلينني زوجا يا مس تود .. غدا .. أم بعد غد ؟

ـ وهل اطمئن الى قبول العرض ؟.. (واستطردت بلهجة قاسية) **أمتأكد من أنك لن تختفی مع الريح عامين آخرين ؟**

ـ بل عليك أنت أن تحددی المكان .. وسأكون عند وعدی هناك !

.. واخيرا تم الزواج ، وتلته حفلة راقصة حتى ساعة متأخرة من الليل .. لكن العروسين تسللا فی هدوء عند منتصف الليل ، الى حيث أقلتهما عربة مضت بهما الى فندق « جلوب » .. وهناك احتلا نفس الغرفة التی سبق ان احتلتها شقيقتاها عند زواجهما !

الكلاب تنبح .. والقافلة تسير !

جعلت ماري من غرفتها عشا زوجيا أنيقا .. وسرعان ما اعتراهما تحول كبير جنح بهما الى السعادة ، ورسم على محياهما دلائل الصحة والنضارة ..

وكان هو شغوفا بالكتابة ، واظهار مواهبه الأدبية على الورق .. أما هى فقد كانت تحنو عليه ، وتحاول أن تشعره بالراحة والهناء ..

وذات يوم حضرت لزيارتهما شقيقتها « آن » ، ولم تكن قد رأت لنكولن بعد .. لكنها عند ما قابلته ، أحست بخيبة أمل ، ظهرت آثارها على وجهها فى الحال .. مما سبب ضيقا كبيرا لمارى .. سيما وان حساسية لنكولن جعلته يتنبه لذلك .. فما كان منه الا ان بادر مارى بقوله :

« أخشى أن اكون قد خيبت أمل شقيقتك يا مارى ، فأنا مضطر لأن أعيد على مسمعها ما سبق أن ذكره المدعى العام حين قال : **ان قبح منظر الرجل يقف عقبة فى سبيل نجاحه .. وان تقتير الطبيعة بالنسبة له ، يضطره الى بذل مجهود جبار لكى يعوض هذا النقص بسلوكه وتصرفاته .. أما من أسبغت عليه الطبيعة من حسنها فهو ، على النقيض ، يطمئن الى وجهه فلا يعنى بنقص عقله أو قلبه ! »**

.. لكن مارى طيبت خاطره ، وطمأنته ، وأزاحت الأوهام التى شغلته ..

.. وقد أثمر زواجهما سريعا ، اذ وضعت مارى مولودها الأول فى أول أغسطس التالى .. وأطلقا عليه اسم « روبرت » ،

تكريما لأبيها . وكان من حظ الطفل أن زارهما « روبرت » الجد . فاهدى مارى مظروفا به عقد ملكية ثمانين فدانا بالقرب من سبرنجفيلد !

لكن الطفل لم يلبث أن ظهر فى احدى عينيه« حول » أزعج مارى كثيرا ؛ وخاصة عندما قرر لها الطبيب انه حول وراثى ؛ لا علاج له ، وقد ورثه عن أبيه الذى كان يبدو أحول العين عند الاجهاد ..

وشاء لنكولن أن يدخل على قلب زوجته السرور ، ففاجأها ذات يوم بقوله : ((**لقد اشتريت لك منزل القس ((درير)) الذى استهواك .. فقد حرمت نفسى منذ زواجنا من اقامة الحفلات ، بل ومن ممارسة لعب الكرة التى أعشقها ، وذلك لكى أدخر لك ثمن البيت !**)) .. وعندئذ فاضت الدموع من عينيها .. وغمرها فيض من السعادة ، أنساها متاعبها ..

انتخابه مرشحا لرياسة الجمهورية

وجعلت مارى من المسكن الجديد جنة وارفة الظلال .. وشاء القدر أن تسفر حركة النشاط السياسى عن انتخاب ابراهام مرشحا لرئاسة الجمهورية .. فكان ذلك ايذانا ببدء مرحلة جديدة فى تاريخ زواجهما .. مرحلة لم تقف فى سبيلها الخلافات الزوجية التى كانت تحل بهما من حين لآخر .. على الرغم من ندرتها .

.. وكانت مارى فى ذلك الحين تتمنى أن ترزق ببنت ..

لكنها وضعت طفلا ذكرا ، لم يكن ذا عاهة كأخيه . ويبدو أن قافلة المجد كانت ماضية بهما ، اذ ما لبث لنكولن أن رشح لعضوية (الكونجرس) . وكان منافسه هو القس « كارترايت » ، الذى أخذ يدعو لانتخابه على نطاق واسع ، مهاجما فى الوقت نفسه ابراهام. وفى أحد هذه الاجتماعات ، وقف القس يخطب ، وعندئذ قال ابراهام هامسا : « لست أدرى لماذا يبحث هذا الرجل عن الخطاة ، وجميع من حوله هم أصدقاؤه الديموقراطيون ؟ ! » .

وفهم « كارترايت » ما عناه لنكولن ، فصوب نظره نحوه لحظة ، ثم رفع ذراعيه قائلا : « من يبغى أن يحيا حياة جديدة ويسلم قلبه لله ، فليقف ! » .. ووقف عدد قليل من الحاضرين . لكنه أضاف قائلا : « ومن يبغى ان لا يكون الجحيم مثواه ، فليقف ! » .. فوقف الجميع ، ماعدا مارى وزوجها .. وعندئذ قال كارترايت : « **لقد لاحظت أن البعض قد وقف من أجل تسليم قلوبه لله ، كما وقف الجميع ، باستثناء واحد ، لأنهم لا يبغون الذهاب الى الجحيم . فهل تسمح لى أن أسألك يا مستر لنكولن : الى أين تبغى الذهاب ؟** » .. فأجابه لنكولن على الفور : « الى الكونجرس ! » . وعندئذ ضج الجميع بالضحك . لكن هذا أزعج القس ، وجعله يذيع تقريرا بادانة لنكولن وعدم اهليته لتمثيل المسيحيين فى الكونجرس .

.. غير أن لنكولن استطاع أن يكتسب عطف ٥٦٪ من مجموع الرأى العام ، فى صراعه مع القس المرشح .

أما حياته فى البيت فى تلك الفترة ، فكانت حديث الناس ، اذ كان عطوفا على طفليه وزوجته .. ولم يكن يسمح لمارى بالقسوة عليهما ، وكان يقول لها : ((**ان العالم حافل بصنوف الشقاء ، فلينعما على الأقل بطفولة سعيدة !))**

الحياة فى واشنطن

كان على الأسرة الصغيرة أن تنتقل الى واشنطن بعد نجاح عائلها .. لكنها لم توفق الى استئجار منزل مناسب ، اذ احتلت غرفة متواضعة بأحد البنسيونات .. وكان هذا يسبب حرجا لمارى ، اذ وجدت أنها تتردد كثيرا على البيت الأبيض بحكم مركز زوجها ، مما جعلها تتذمر من هذا الوضع .. وتشكو لابراهام ، وترجوه التفكير فى هذه المشكلة .. لكنه لم يكن يأبه بها ، بدعوى أن أهل المدينة الكبيرة لا يهتمون بمثل هذه الامور ، سيما وأن زوجات بعض الأعضاء يقمن فى نفس المكان دون تذمر ..

وفكرت مارى فى الأمر ، ورضخت فى النهاية لرأيه ، حتى لا تجرح احساسه ، وحتى لا تضاعف من متاعبه التى أخذت تتزايد بفعل المضايقات التى كان يلقاها من جراء معارضته لحرب المكسيك ، وايمانه بالحلول السلمية ..

وقد حدث أن عرض عليه منصب محافظ ولاية (أوريجون) ، بمرتب سنوى قدره ثلاثة آلاف دولار ، لكن مارى وقفت فى وجه هذا العرض ، رغم احتياجهم للمال .. وراحا ينفقان من مال كانت هى قد ادخرته ..

المصائب لا تأتي فرادى .. !

غير أن القدر لم يمهل سعادتهما أكثر من هذا .. اذ شغلت ماري بعملية جراحية أجريت لعين « روبرت » الصغير .. ثم نكبت بوفاة والدها « روبرت » الكبير .. وآلمها أن تباع محتويات منزله بالمزاد العلني ..

ثم مرض طفلها الاصغر ((ادوارد)) بالدفتيريا ، لكنه لم يمكث طويلا ، اذ فاضت روحه الى بارئها .. وعبثا بحثت في قلب « روبرت » عن عوض لفقد أخيه .. ومع هذا تحملت ماري ما حل بها من مصائب، وضغطت على أعصابها لكي تبدو هادئة ..

وأقبل عام ١٨٥٠ يحمل ربيعا صافيا ، أحال (سبرنجفيلد) الى جنة خضراء ، لكن هذا الصفاء لم ينتقل الى الجو السياسي الذي كان ملبدا بالغيوم .. كانت هناك بوادر تفرقة وتشاحن بين الولايات الشمالية والجنوبية بسبب تجارة الرقيق ، جعلت ابراهام يتوه في دوامة من القلق والأسى .. دوامة شاركته فيها ماري التي كانت تحمل في أحشائها جنينا مضت عليه شهور قليلة ..

ولم يخفف من عذاب الزوجين سوى موت الرئيس « تيلر » ، وفوز نائبه « ستيفن دوجلاس » بالرئاسة .

.. ورزقا بطفلهما الثالث الذي سمياه « وليم ولاس لنكولن» اعترافابجميل زوج شقيقتها الطبيب الذي عني بها .

وكان ابراهام في تلك الفترة مشغولا بالمحاماة والانتخابات، وكثيرا ما كان يتغيب عن بيته .. وذات يوم كانا عائدين من

الكنيسة ، وكان هو يجر عربة « وليم » ، وماری من خلفه تسير فی هدوء وثبات .. لكنها ما لبثت أن خرجت عن هدوئها واندفعت صارخة نحو وليدها الذی هوی فی تلك اللحظة علی الارض بعد أن سقط من العربة ، بينما أبوه ماض فی جرها ، غير منتبه الی ما حدث .. وعقدت المفاجأة لسانه عندما استدار واكتشف اهماله ، فوقف صامتا ، زائغ البصر .. ولم تتمالك ماری أعصابها ، فراحت تؤنبه بحدة . واستمع هو اليها حتی فرغت، ثم قال : **« ان العالم شاق يا ماری ، والناس فيه تظل تسقط من أعلی العربات .. فجدير بوليم أن يتعود ذلك منذ طفولته ! »**

.. وازداد « لنكولن » قلقا ، وأصبح عصبيا ، حاد المزاج .. لم يكن يغادر مكتبه الا لماما ، ولم يكن يتناول طعامه بانتظام .. واعتلی وجهه وجوم وهزال كئيبان ، جعلا ماری أشد حساسية وخوفا عليه مما سبق .. بل ان هذا الجو المقبض انتقل الی ماری فی النهاية ، فصارت تتشاجر مع الباعة ، وتقسو علی خادمتها ، وتثور لأتفه الأسباب !

وبلغ السيل الزبی عندما بلغتها شائعات عن تودد ابراهام الی احدی الممثلات .. وعندئذ ثارت ثائرتها واندفعت اليه تريد أن تثأر لنفسها .. لكنه نظر اليها فی هدوء ثم قال : **« ان أعظم ثناء تكيلينه يا ماری لرجل حرمته الطبيعة من نعمة الجمال ، هو أن تغاری عليه ! .. فلا خوف علی من النساء قط ، لأن المرأة تؤكد لی اننی أقبح رجل فی الوجود ! »**

لكن الشائعات مضت تتواتر ، بينما ماری منتبهة متحفزة

للقضاء على كل منها فى مهدها .. ثم انتهزت فرصت حلول اليوم الرابع عشر من نوفمبر عام ١٨٥٢ ، فاحتفلت بالذكرى العاشرة لزواجهما .. وكان هذا ردا بليغا أخرس الألسنة من حولها . وراح ابراهام ، من جانبه ، يكشف لها عن الحقيقة ، ويشكو لها متاعبه وآلامه ، معترفا بفضلها عليه ، معتذرا عما بدا عليه من وجوم وقلق .

امنياته .. لابنه الرابع

ووضعت مارى طفلها الرابع ـ وجاء ولدا هذه المرة أيضا ! ـ فآلمها أن تخلو ذريتهما من البنات ، لكنها ما لبثت أن استراحت ورضيت بما قدر لها .. وكان الطفل أشقر ، ضخم الرأس ، مما دعا ابوه الى تشبيهه بفرخ الضفدع قائلا : « يبدو أنك ستغدو ذا عقلية جبارة يا فرخ الضفدع ، **وأعتقد أننا سنخرج منك شاعرا أو فيلسوفا .. ولن يصل بك الجهل حتى تصير محاميا ريفيا كأبيك !** » .. وسمى الطفل : « تاد » أو « تدى » ، لكنه كان ، كأخيه الشقى ، ذا عاهة فى حلقه ..

غير ان الزوجين سعدا بعد ذلك بنبأ أثلج صدريهما .. اذ قرر مجلس شيوخ ولاية (الينوى) جعل مدينة (لنكولن) ـ التى سمى باسمها ابراهام ـ عاصمة لمقاطعة (لوجات) .. وكان ذلك يوم ١٢ فبراير ، أى فى عيد ميلاده .

عند ما تتحول السياسة الى طعام وشراب !

.. **كان** ابراهام يؤمن بأن السياسة كالماء والهواء .. بل انها تحولت الى طعام وشراب بالنسبة له ! .. وكانت

مشكلة الرق على رأس المشكلات التى عانى منها كثيرا ..

وتذكر مارى انها استيقظت ذات يوم فى ساعة مبكرة ، فوجدته جالسا على حافة سريره وهو يديم النظر اليها .. وعندئذ عرفت أنه عاد الى قلقه وتوتره . وقال لها بعد لحظة من انتباهها اليه : **« يا مارى، هل يمكن أن تدوم هذه الامة ، بينما نصفها مستعبد والنصف الآخر متحرر ؟ ! »**

لقد طغت المشكلة عليه ، واستحوذت على تفكيره ، فجعلته ينصرف اليها . فلم يكن يذهب للمكتبة للتسلية ، وانما للدراسة والبحث فى حلول للمشكلة .. حتى بدأ الناس ينفضون من حوله ساخطين ، مستنكرين تقديره للحرية .. أما مارى فقد تحولت الى مستودع سره وساعده الأيمن !

وعند ما أقر الرئيس دوجلاس تعديل الدستور فى ٤ مارس ١٨٥٤ بما يضمن اقرار تجارة الرقيق ، ثارت الصحف ، وجميع طوائف الشعب .. حتى رجال الدين ..

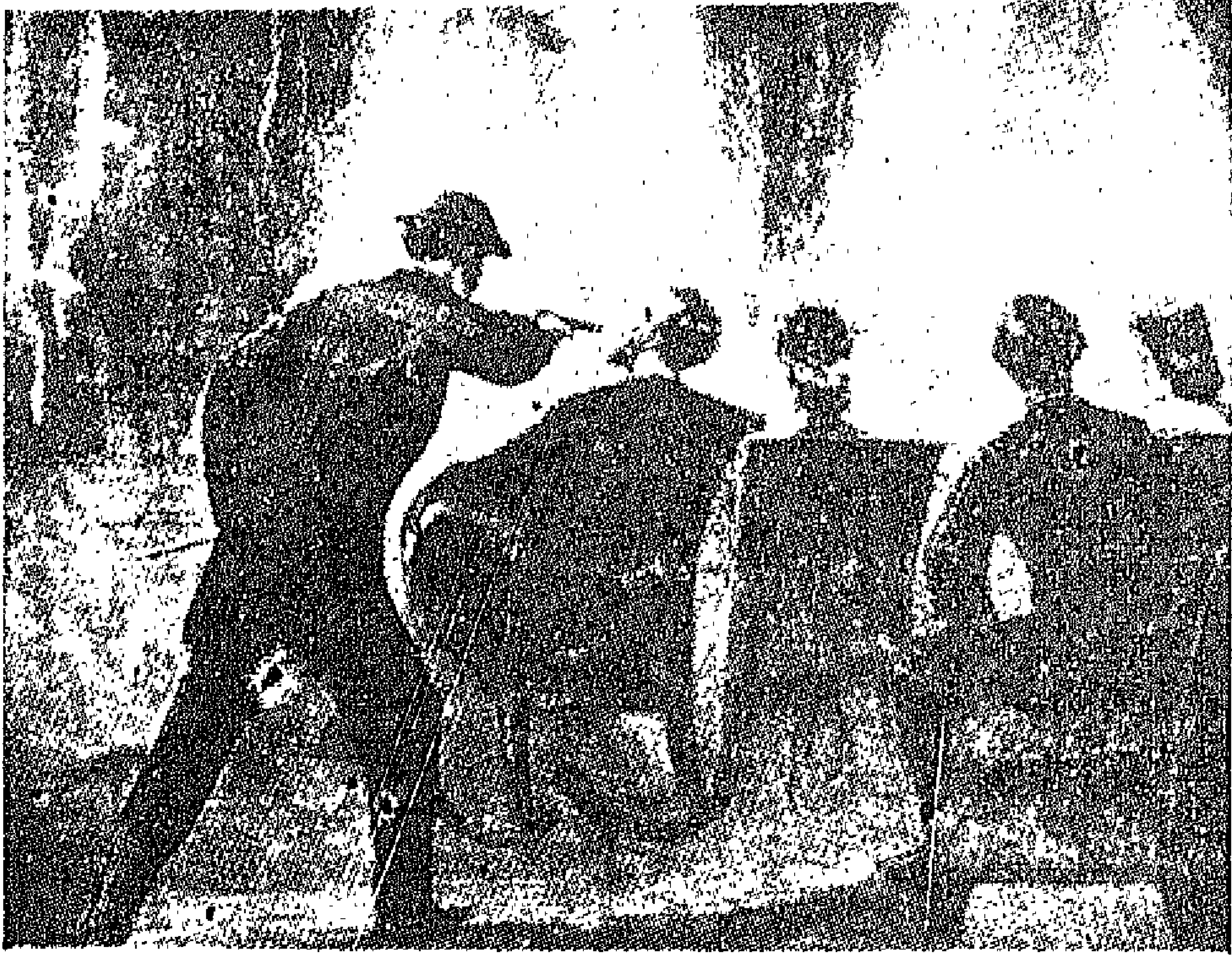
وفى ذلك اليوم عاد ابراهام الى بيته والغضب يؤجج نفسه .. وأخذ يعلن لمارى احتقاره لذلك الرجل الذى فرض الرق على الناس ، وتصميمه على الجهاد من أجلهم . ولكن ، ما وسيلة ذلك ؟ .. لاشك أن عضوية الكونجرس تضمن له نصيبا ايجابيا فى المعركة ، هكذا قالت مارى وهى تحثه على ترشيح نفسه ، مستطردة : **« اننا لم نعد نستحق الرثاء ، أو نسترق النظر حولنا لنبحث لأنفسنا عن قبور وضيعة نتوارى خلفها .. وانما نحن نمضى قدما على الطريق ! »**

.. لكنه فشل فى أول تجربة .. اذ فاز بالعضوية رجل

آخر من حزب الأحرار الذى ينتمى اليه . ومع هذا لم يفت اليأس فى عضده ، بل انه مضى الى الفائز على الفور وهنأه قائلا : ((**ان فشلى يعادل تشوقى لتهنئتك يا صديقى العزيز !**))



صوره تاريخيه للرئيس لنكولن ، وهو يراجع دروس ابنه ((تاد)) . وقد التقطت الصورة يوم ٦ فبراير سنة ١٨٦٤ ، قبل مصرع لنكولن بعام واحد





(فى أعلى) : الممثل الفاشل « جون ويلكس بوث » يطلق النار على لنكولن اثناء عرض كوميديا « ابن عمنا الامريكى »
(الى اليسار) : صورة نادرة للقاتل (٢٦ سنة) ، وقد قتله رجال الشرطة فى جرن قمح بعد ١٢ يوما من قتله لنكولن ، ووجدوا فى جيبه صور خمس نساء !

سيدة ضئيلة الجسم ، فى الشارع الثامن !

وأحست مارى أن عليها أن تمهد له طريق المجد الذى ينتظره ، فانتهزت فرصة رحيله ، وقامت بترميم البيت الذى يقيمان فيه ، حتى بدا جديدا منيعا ، وأضافت اليه طابقا آخر ، لدرجة أن ابراهام تردد فى دخوله عند عودته ، وهو لا يصدق نظره !

ومرة ثانية أخطأه الحظ فى الانتخابات ، لكنه لم ييأس .. بل ظل يشعل النيران تحت القدر السياسى لكى يزيد من اضطرامه وغليانه ، فراح يدعو زعماء الحزب الجمهورى فى كافة الولايات الى نبذ تجارة الرقيق وتحطيم الاصوات المؤيدة لها ، حتى لا تستفحل الانقسامات وتؤدى الى حرب أهلية بين ولايات الجنوب وولايات الشمال . كما استعان بموهبته الخطابية لالقاء الضوء على المشكلة .. وفى كل هذا كان مرحا على غير عادته ..

وأسفرت المعركة السياسية الناشبة فى ذلك الحين عن عقد مؤتمر كبير اصطبغ بالصبغة الرسمية ، وافتتح فى شيكاغو فى ١٦ مايو ١٨٦٠ ..

ثم كانت المفاجأة !

ففى الصباح التالى خرج ابراهام الى مكتبه ، لكنه ما لبث أن عاد الى بيته .. وفوجئت به مارى وقد شحب وجهه .. لكنها لمحت السرور طاغيا على عينيه وحركاته .. واذ ذلك حانت منها التفاتة الى يده : كانت ممسكة ببرقية .. ولمعت عينا مارى بسرعة ، ووجدت نفسها بين ذراعي

ابراهام وهو يقول لها : **«لقد تم ترشيحنا لرئاسة الجمهورية يا مارى .. وقد وصلتنى هذه البرقية فقلت لنفسى ان فى الشارع الثامن سيدة ضئيلة الجسم تهمها هذه الرسالة .. لذا أقبلت على التو من أجلك ! »**

ولم تستطع مارى أن تسمع أصوات اطلاق المدافع والأجراس والتهليل ، بسبب دقات قلبها القوية .. واحتضنها ابراهام بقوة وضمها الى صدره ، ثم أطبق شفتاه على شفتيها .. وعندئذ استعادت تاريخ أول قبلة منذ عشرين عاما .. عندما وقعت فى شرك الرجل الذى كانت النساء يعتبرنه فى ذيل قائمة الرجال !

سيدة البيت الأبيض !

وتوافد المهنئون على دار لنكولن بعد ظهر ذلك اليوم .. وأحضر له البعض سلة غاصة بزجاجات الشمبانيا .. وقال له قاضى بنسلفانيا ـ وكان معروفا بطول قامته : **« يسرنى اننا رشحنا لرئاسة الجمهورية رجلا علينا أن نرفع رؤوسنا عند النظر اليه ! »**

وظهرت نتيجة الانتخابات .. وفاز لنكولن .. وبقى يوم ٤ مارس وهو يوم البيعة .. وعند ذلك تسللت الشائعات ، وارجف المرجفون ، ظانين أن لنكولن لن تتم مبايعته ، بل سيقتل قبل أن يغادر (سبرنجفيلد) الى (واشنطن) !

وبلغت الشائعات مارى فلم تأبه بها . ووقفت بشجاعة تجلو زيفها .. لكنها اضطرت ـ تحت ضغط الحاح الاصدقاء ـ الى التخلف فى سبرنجفيلد حتى ينجح زوجها ،

وحتى لا يلحق بها خطر ..

وقبل أن يتحرك القطار مقلا الرئيس المرتقب ، وقف هو ، ورفع قبعته ، وخطب فى الجموع المحتشدة لتوديعه فى سبرنجفيلد : « لا يمكن لأى شخص فى غير موقفى أن يقدر الألم الذى أشعر به لفراقكم : اننى مدين لهذه البقعة بكل شيء ، مدين للعطف الذى أسبغتموه على .. **لقد عشت هنا ربع قرن مارا بمرحلة الشباب الى مرحلة الكهولة .. هنا ولد أطفالى الذين واريت الثرى احدهم ، وها أنا أرحل — ولست أدرى ان كنت ساعود أم لا — وأنا أحمل على كاهلى مسئولية أعظم من تلك التى حملها « جورج واشنطن » .** لكننى اثق بالكائن الأزلى الذى يستطيع أن يعضدنى ويقف فى صفى على الدوام . فلنثق — حيثما كنا — بأن كل الأشياء تعمل معا للخير .. ها أنا أستودعكم عناية الله .. وأخيرا أودعكم وداع المحبة »

وتحرك القطار ، والهتافات تتصاعد ، والمناديل تخفق .. بينما الدموع قد أغرورقت بها العيون .

.. وفى (واشنطن) تمت البيعة ، ووقف ابراهام يردد القسم ، وهو يضع يسراه على الكتاب المقدس ، بينما يمناه ممتدة نحو السماء . وراح قاضى القضاة ينطق بالقسم ولنكولن يردد :

« أقسم أنا ابراهام لنكولن بأن أنفذ قوانين الولايات المتحدة بكل أمانة ، وأن أعمل كل مافى وسعى لصيانة دستور البلاد وحمايته .. »

وأصبحت مارى « سيدة البيت الأبيض » .. بجدارة .

نشوب الحرب الاهلية ..

لكن الرياح كثيرا ما تأتى بما لا تشتهى السفن .. اذ لاحت فى الأفق بوادر عواصف وأزمات .. فقد اشتد النزاع بين الولايات الجنوبية ، وعددها ست، وبين الولايات الشمالية وعددها اثنتا عشرة . واضطر ابراهام الى اخلاء قلعة « سومتر » ارضاء للجنوبيين وابقاء على الاتحاد . لكن الثوار الجنوبيين هاجموا القلعة التى رفض قائدها التسليم ، وعندئذ اشتعلت الحرب . وانتاب الجزع ماری ، لكن لنكولن اجابها قائلا : « **سأتولى أمر هذا النزاع بنفسى الى أن أنجح ، أو أموت ، أو أهزم ، أو تنتهى مدة رئاستى ، أوتنبذنى أمتى والكونجرس ! »**

.. وتحرجت الحالة عندما حاصرت قوات الجنوب مدينة واشنطن ، لكن الحصار ما لبث أن انفك بوصول نجدات من الشمال ..

وتحمل الرئيس الجديد النقد الذى وجه اليه ، وشاركته مارى فيما وجه اليها ، أيضا ، من نقد لتصرفاتها .. لكنها تمسكت بالشجاعة واستطاعت أن تكتسب عطف الكثيرين وثناءهم، بمن فى ذلك الضيوف الاجانب كالامير لويس نابليون الذى زار أمريكا فى ذلك الوقت ، ولقى حفاوة بالغة من سيدة البيت الأبيض .

وحاول ابراهام ، من جانبه ، أن يجنب الشعب ويلات الحرب وسفك الدماء ، بل انه ضحى بابطال تجارة الرقيق فى سبيل المحافظة على وحدة الصفوف واتحاد الولايات التى

انقسمت فيما بينها ازاء هذه المشكلة .. وكم كان ابراهام يود لو أن النـاس سعوا الى الصـفاء والسـلام ، وعالجوا الامور بتساهل وحب ، كما كان يفعل أطفاله حين يختلفون فيما بينهم ..

وما أمر المحنـة التى اجتازتها مارى فى تلك الظروف ، حين انهال عليها النقد والتقريع من الصحافة .. وما أشد أسفها حين عرضت الصحافة بنشأتها فى الجنوب وتعصبها لأهلـه .. **حتى لقد طالبوا بشـنقها أو طردها من البيت الأبيض !**

بل ان الاقدار قامت أيضـا بدور عدائى ازاء الزوجين ، اذ اختطف الموت ولدهما « وليم » اثر اصابته ببرد شديد لم يقو على احتماله .. ولئن كان ابراهام قد اسـتطاع أن يتغلب على أحزانه ، الا أن مارى لم تستطع التغلب على مصيبتها الأخيرة ، التى خلفت الحزن فى قلبها والمرض فى جسـدها .. الى أن كان يوم فقدت فيه أخاها شهيدا فى القتال الذى اشتد عقب وفاة ابنها .. وعبثا حاولت أن تعيد الطمأنينة الى قلبها . فقد حاولت أن تستعين بتحضـير الأرواح فى الاتصال بوليم ، دون جدوى . ووقف زوجها فى وجه هذه الخرافات ، ونهاها عن تصديقها ، قائلا لها : « **أترين مصحة الأمراض العقلية الرابضة على قمـة التل ؟ .. ان العـدد الأكبر من ضحـاياها هم أولئك الذين لم يتمكنوا من ضبط مشـاعرهم !** » .. وحاول أن يصطحبهـا الى مستشـفى الجيش ، وهناك شاهدت ضحايا القتـال ، وقد شـوهت

الشظايا أجسادهم، فتأثرت غاية التأثر ، وغادرت المستشفى والدموع تنهمر من عينيها ..

وقالت له ، وهما يستقلان العربة : **« ما أشد خجلى من تلك الدموع التى ذرفتها على خسارتى الشخصية .. كان يجب أن أذرفها على هؤلاء الشبان الذين يحتضرون ، وعلى أمهاتهم اللواتى لا يستطعن البقاء الى جوارهم ليخففن عنهم ويهتممن بهم ! »**

وكانت من نتيجة عمله هذا ، أن وجدت مارى نفسها مشدودة الى هؤلاء المساكين ، فراحت تزورهم وتشجعهم وتغمرهم بهداياها ومعوناتها المالية التى ادخرتها من مالها الخاص .. ووجدت فيهم عوضا عن فقدها لأولادها واخيها .

أعظم قرار أصدره لنكولن الانسان !

ما أن اصبح الخطر يهدد العاصمة بعد تقدم جيش الجنوب ، حتى قطع ابراهام عهدا باصدار قرار ينص على تحرير جميع العبيد ، فيما لو تراجع جيش الجنوب عن بنسلفانيا .. وشاءت الأقدار أن يتم هذا ، ولكن بعد قتال عنيف راح ضحيته ألفان من جنود الطرفين المتخاصمين ..

وتناولت الصحف قرار ابراهام بالتأييد والتزكية ، وعلقت عليه بقولها : **« لقد صدق الرئيس على أعظم قرار أصدره انسان على هذه الأرض ! »**

كما بعث النبأ فى أهل الشمال حماسا شديدا .. وطفت الفرحة به على اسى مارى الذى تجدد هذه المرة عندما

جاءتها الأنباء تحمل مصرع أخيها « دافيد » فى القتال ..

.. غير أن القتال بلغ أشده عندما التحم الجيشان فى المعركة الفاصلة ، التى تحولت الى مجزرة قتل فيها مايربو على اثنى عشر ألفا من الفريقين ، مما اضطر الحكومة الى تحويل الكنائس الى مستشفيات لاستقبال الجرحى والضحايا ..

ولم يكن ابراهام فى ذلك الوقت فى حالة طيبة ، اذ سيطر عليه الجزع والقلق ، وخلفا به حالة عصبية أشبه بالهستيريا .. وكادت حالة الهستيريا هذه أن تعصف بماري أيضا ، **وخاصة عندما أتاها نبأ مقتل أخيها ((اسكندر)) فى الحرب ، كانت قد حملته على ذراعيها ، وهو بعد طفل** ، قبل أن تغادر لكسنجتون الى سبرنجفيلد ..

ونجح ابراهام فى اقناعها ، وسط هذا الجو الملبد بالغيوم ، بأن تمضى بعض الوقت فى رحلة خلوية بعيدة عن واشنطن ..

لكنه انقطع عن امدادها بالأخبار فترة ، الى أن جاء يوم وصلتها منه برقية تقول أن القتال الأخير لم يكن فى صالحهم ، **وأن زوج شقيقتها الصغيرة قد قتل .. وعندئذ لم تتمالك نفسها فصرخت فى أسى : ((ترى كم سأفقد من أفراد أسرتى ؟ !))** .. وكانت العربة فى انتظارها فى تلك اللحظة ، لتقلها الى الزوج الحائر الشجاع ..

وفى واشنطن ، مرة أخرى ، طلب من ابراهام — عند تدشين مقبرة جديدة للقتلى — أن يخطب فى الحاضرين عن سبب نشوب الحرب .. فقال فى خطبته : « لقد جاء

أسلافنا الى هذه القارة منذ سبعة وثمانين عاما . وكونوا أمة جديدة تتمتع بالحرية ، مكرسين أنفسهم للمبدأ الذى ينص على أن « جميع البشر قد خلقوا متساوين » .. وها نحن نخوض غمار حرب أهلية لكى نختبر مدى سير هذه الأمة بموجب المبدأ الذى كرست نفسها من اجله ! »

وكان عليه أن يخوض المعركة الانتخابية مرة أخرى ، لانتهاء مدة رئاسته .. لكن الظروف خدمته ، هذه المرة أيضا ، ففاز بالرئاسة فى الوقت الذى بدأت فيه كفة الشمال فى الرجحان .. واطلقت المدافع فى واشنطن ، بعد أسابيع ، احتفالا بصدور قرار الغاء تجارة الرقيق فى ماريلاند وأركنساس ولويزيانا ، بصفة نهائية .. ومر جمع كبير أمام البيت الأبيض لشكر الرئيس الذى وقف بجوار مارى فى الشرفة ، وهو يلوح واياها للشعب .. ثم التفت اليها قائلا : ((**لقد تمخضت مدة رئاستى عن أعظم حدث فى تاريخ القرن التاسع عشر !**))

وتمت البيعة الثانية بنفس النجاح والتوفيق الذى تمت بهما البيعة الأولى .. وخطب لنكولن فى ذلك اليوم وهو يمد ذراعيه كما لو كان يود أن يحتضن الجمع الغفير الذى مثل أمامه .. قال : « علينا أن نناضل من أجل انجاز ذلك العمل العظيم الذى شرعنا فى تنفيذه ، وقد خلت قلوبنا من الحقد، وامتلأت بالعطف على الجميع .. نناضل ونحن ثابتون فى الحق . ولنضمد جراح الأمة ونعتنى بأولئك الذين خاضوا غمار القتال .. كما أن علينا أن نعتنى بأراملهم وايتامهم ..

ولنعمل على دعم العدل والسلام الدائمين فيما بيننا .. وكذلك فيما بيننا وبين الدول الأخرى ! »

ووضعت الحرب الأهلية أوزارها فى النهاية .. وصفا الجو ، وعادت اليه نضارته .

.. وأخيرا توقف القلب الكبير !

وخصص ابراهام يوم ١٤ ابريل عام ١٨٦٥ ليكون عيدا للشكر ، فعم الفرح انحاء الشمال .. أما فى واشنطن فقد تحولت المدينة بأسرها الى مهرجان كبير تصدح فيه الموسيقى وتتلألأ فيه الأضواء ..

وفى مساء ذلك اليوم اتفق ابراهام ومارى على أن يذهبا الى مسرح « فورد » ..

وفيما كانت متكئة على ذراعه ، وهو ينظر اليها وعلى وجهه ابتسامة الحب والاخلاص ، اذ بها تسمع ، فجأة ، صرخة تنبعث من الخلف .. فقفزت من مكانها .. واذا بالدخان يملأ مقصورتهما . والتفتت الى ابراهام ، فهالها ماكان عليه .. وتجمدت الدماء فى عروقها وهى تتأمل مظهره : كان مغمض العينين ، ورأسه مائل الى الوراء ، وابتسامته ميتة على شفتيه !

وعندئذ انطلقت منها صرخة مليئة بالهلع والخوف !

.. وكان الجانى شخصا غريبا لم تتبين مارى ملامحه .. وجىء بالطبيب ، فقرر أن الرئيس مصاب بجلطة دموية على الكتف بسبب جرح عميق .. لكنه استدرك فقال :

« يؤسفنى أن أقول ان الرئيس قد أصابته أيضا رصاصة خلف رأسه »

وحملوا ابراهام الى منزلٍ مجاور حيث أرقدوه على سرير .. وهو واقع تحت تأثير غيبوبة جعلت شفتيه تصدران أنات خافتة ، والدماء تسيلُ على وسادته ..

ورغم أن الأطباء نجحوا فى اخراج الرصاصة من جسمه ، فان حالته ساءت بعد ذلك ، فتورمت عينه اليسرى ، وبدأ تنفسه فى الاضطراب .. مما أفزع مارى ، وشل حركتها ، حتى تلاشى العالم من ذاكرتها ، ولم تعد تميز أو تعى شيئا .

وأقبل الصباح ، وكان أغبر قاتما ، واذا بولدها روبرت يمسك بيدها ويقودها الى حيث والده .. وما أن خطت داخل الغرفة ، حتى أدار الرجال وجوههم ، وتسللوا الى الخارج ..

لقد مات ابراهام ! وتوقف القلب الكبير عن النبض ! .. وعندئذ ألقت بنفسها على صدره ، وانهالت على فمه تقبله وهى تقول صارخة : « يا الهى .. لقد فرطت فى زوجى ، ودفعته بيدى الى هذا الطريق ، ليلقى مصرعه ! »

ونقل الجثمان الى البيت الأبيض .. حيث انزوت مارى فى غرفة صغيرة للضيوف .. وبجوارها ولدها « تدى » .. وتساءلت فى الصباح التالى بصوت عال : **« كيف تشرق الشمس وقد مات ابراهام ؟ ! »**

وعندئذ إجابها تدى قائلا : « ان هذا لدليل على ان ابى

سعيد فى السماء يا اماه .. **انه لم يسعد قط منذ أن حل هنا .. ولم يكن هذا المكان يصلح له ! »**

.. ثم جثا تدى على ركبتيه بجوار جثة والده وقد ارتسم الالم والأسى على وجهه ..

الحب أبدى .. لا يموت !

ودفن الرئيس الراحل .. وكان موكب الجنازة مهيبا ، بينما كانت أجراس الكنائس تدق ، والموسيقى تعزف اللحن الجنائزى ؛ والجيش يسير بخطوات بطيئة خلف النعش الذى لفه العلم واشتركت فى جر عربته ستة خيول .

.. وأخيرا تلقت مارى رسالة بانتهاء مدة ضيافتها فى البيت الأبيض .. فأخذت تحزم متاعها ، تاركة وراءها ذكريات ، بعضها حلو والآخر مر .. واستقلت القطار الى شيكاغو بعد أن ألقت نظرة أخيرة على غرفة نوم ابراهام ومكتبه .. كانت مارى فى حالة يرثى لها ! .. كل ما كانت تذكره ، وهى تستقل القطار ، أنها كانت زوجة وأما ، أقامت مع ابراهام طوال هذا التاريخ ، بدافع من كلماته لها : **« ان الحب أبدى لا يموت ! »**

نعم .. كان حبها أبديا ، رغم كل ما واجهه من صعاب !



من الأدب الهندى

المنبوذ!

قصة من روائع أديب الهند الأكبر

رابندرانات تاغور

تلخيص : المحرر





تلخيص : حلمى مراد

بلغت العاصـــفة ذروتها فى المساء ، وبدت سـيول المطر المنهمر ، مع هزيم الرعد ، ووميض البرق، وكأنهـا معـركة رهيبة قامت فى أعالى السماء ! .. وكانت السحب السوداء تزحف على صفحة الفضاء ، كأنها أعلام الفناء ، واشـجار الحدائق التى تحف بضفتى النهر تتمـاوج وتتمايل ، من جانب الى جانب ، وهى تئن وتتأوه .. وفى غرفة مقفلة بأحد البيوت المشرفة على النهر فى بلدة (شاندر ناجور) ، جلس رجل وزوجته على حشية وضعت على الارض، والى جوارهما مصباح من الخزف يرسل ضوءه الهزيل . وأخذا يتناقشان فى اهتمام . قال الزوج « شارات » : « بودى لو تبقين هنا اياما أخرى ، اذن لاستردت صحتك وعدت الى بيتنا قوية كما كنت » .. فقالت زوجته « كيران » : « انى بخير ، ولن يضرنى البتة ان أعود الى بلدتنا الآن » . **وكل رجل متزوج يستطيع أن يدرك أن المناقشة لم تكن قصيرة الى هذا الحد !** .. وهذا ما حدث بالفعل ، فرغم أن المشكلة لم تكن معقدة ، فقد كثر الاخذ والرد بين الزوجين ، دون أن يقتربا بها من الحل المنشود ..وظلت المناقشة تدور وتدور حول نفسها ، كقارب بلا دفة تتنازعه الامواج والرياح ، حتى أوشـكت أن تغرقهما فى فيضان من الدموع !

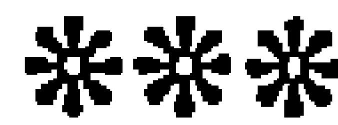
كان شارات يقول : « ان الطبيب يرى أن صحتك تقتضى بقاءك هنـا أياما أخرى » .. فتجيبـه كيران : « ان طبيبك

يدعى العلم بكل شيء ! » .. فيعاود الزوج الالحاح : «ولكنك تعلمين ـ بغض النظر عن قوله ـ أن شتى صنوف الامراض والاوبئة تنتشر هناك الآن ، فمن الخير أن تطيلى بقاءك هنا شهرا أو شهرين..»..فتجيبه الزوجة متسائلة فى اصرار : « وهل لا توجد هنا الآن أمراض وأوبئة ؟ »

وكانت « كيران » محبوبة عند أهلها وجيرانها الى حد كبير ، وقد أقلقهم جميعا مرضها الخطير ، على أن أغبياء القرية الكثيرين رأوا أن من العار على زوجها أن يقيم الدنيا ويقعدها لاجل ذلك ، وأن يفكر فى نقل زوجته من القرية طلبا لتغيير الهواء ، **وراحوا يتساءلون فيما بينهم : « أتراه يحسب أن امرأة غيرها لم تمرض من قبل ؟** أم تراه **يحسب أن سكان البلدة التى يزمع الانتقال اليها من الخالدين الذين لا يموتون ! ؟»** .. ومهما يكن من شيء ، فان شارات وأمه أعارا هذه الاقاويل آذانا صماء ، ورأيا أن حياة عزيزتهما المريضة أهم من الاقاويل . وهكذا سافر شارات و كيران الى (شاندر ناجور) ، وهناك شفيت الزوجة من مرضها ، وان ظلت ضعيفة خائرة القوى ، شاحبة الوجه الى درجة تستثير الاشفاق . وكانت « كيران » شغوفة بالمجتمعات وما فيها من ضروب التسلية ، فضاق صدرها بالوحدة التى تعيش فيها فى منزلها المشرف على النهر ، حيث لا شيء يشغلها ، ولا جيران ممن ألفتهم..لاشيء سوى مواعيد الدواء وألوان الطعام !.. ومن هنا كان نقاشها مع زوجها فى غرفتهما المقفلة فى تلك الليلة العاصفة . وكانت

كفتاهما تتعادلان فى النقاش حين تمضى كيران فى الجدل .. اما حين كانت تحجم عن الرد ، وتدير رأسها فى اكتئاب الى الناحية الاخرى ، فان المسكين كان يوشك أن يسلم سلاحه، بلا قيد ولا شرط ! .. وقد كان هذا شأنه ، حين طرق الباب خادم ، يحمل رسالة !

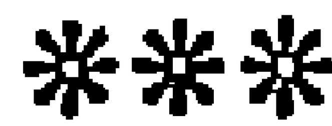
نهض شارات، وفتح الباب ، فاذا الخادم ينبئه بأن قاربا قد انقلب بركابه فى النهر أثناء العاصفة ، وأن فتى براهميا منهم أفلح فى الوصول الى الشاطىء ، واللجوء الى حديقتهم .. وما كادت كيران تسمع بالنبأ ، حتى تحاملت على نفسها ونهضت لتحضر للفلام اللاجىء ثيابا جافة .. ثم أعدت له قدح لبن ساخن ، ودعته الى غرفتها ..



كان الفلام ذا شعر طويل مجعد ، وعينين كبيرتين معبرتين ، فسقته كيران قدح اللبن ، ثم شرعت تسأله عن شأنه ، فذكر لها أن اسمه «نيلكانتا» ، وانه من افراد فرقة مسرحية جائلة كانت قادمة للتمثيل فى مكان قريب ، فانكفأ القارب بأفرادها فجأة ، متأثرا بشدة العاصفة ، واستغل هو براعته فى السباحة فنجا بنفسه ، أما بقية زملائه فلا يدرى عن مصيرهم شيئا ! ..

وأثارت نجاة الفلام من موت محقق رهيب عطف كيران عليه ، فرحبت ببقائه عدة ايام ، ورحب زوجها بالفلام الذى ظهر فى الوقت المناسب كى يؤنس وحدة كيران ويشغلها عن فكرة العودة الى القرية ، كما شملته حماتها برعايتها

وعطفها . أما « نيلكانتا » نفسه فقد فرح بالخلاص المزدوج ــ من سطوة رئيسه في الفرقة المسرحية ، ومن العالم الآخر ! ــ كما فرح بهذا المأوى المريح الذى وجده فى كنف الاسرة الفنية .



ولم تمض فترة قصيرة حتى تبدل شعور شارات وأمه نحو الفلام ، وتاقا الى الخلاص منه ! .. فقد كان نيلكانتا يجد لذة خفية فى تدخين « جوزة » شارات ، وأخذ يتسلل الى الخارج فى هدوء برغم المطر المنهمر ، كى يقوم بجولة فى القرية ، محتميا بمظلة مضيفه الحريرية الثمينة ! .. ثم اصطفى لنفسه كلبا ضخما من كلاب القرية ودلله الى حد جعله يقتحم حجرات المنزل بأرجله المحملة بالوحل ، ويترك طابع زيارته على الفراش الناصع النظيف !

وأخيرا جمع نيلكانتا حوله عصبة من صبية الحى وراحوا يعيثون فى الحديقة فسادا ، فكانت النتيجة أن ثمرة واحدة من ثمار المانجو لم تنضج على شجرتها فى تلك السنة !

ولم يكن شك فى أن كيران كانت لها يد فى تدليل الغلام وافساده .. وقد حذرها شارات مرارا من ذلك ، لكنها لم تصغ لتحذيره ، فصارت تلبس نيلكانتا ثياب زوجها القديمة ، بل كانت تصنع له أحيانا ثيابا جديدة أنيقة !. وكانت تلبى ميلها الى الفلام وفضولها الى معرفة كل ما خفى من أطواره بأن تدعوه الى غرفتها كل حين ، بعد أن تستحم وتتناول غداءها ، فتجلس على الفراش وتسلم شعرها الى الخادمة تجففه

وتصفقه، بينما يقف نيلكانتا أمامها يتلو مقطوعات من أدواره التمثيليـــة المحفوظة . مصـــحوبة بالحركات والاغانى التى تلائمها ، فتهتز خصـــلات شعره وتتمـــاوج مع حركاته .. وهـــكذا كانت ســـاعات الامســـية الطويلة تنقضى فى مرح وحبور ..

وكانت كيران تحاول احيـــانا اقناع زوجها بمشـــاركتها الاســـتماع الى تمثيليات الفلام وأغانيه ، ولكن كراهيتـــه للفلام كانت تغريه بالرفض فى أكثر الاحيان . والواقع أن حضـــوره كان يفقد نيلكانتا غيرقليل من جرأته ، فلم يكن يجيد أداء أدواره نصـــف اجادته لها فى غيبتـــه ! .. أما أم شارات فكانت تلبى الدعوة أحيانا ، راجية أن تسمع بعض الاسماء المقدســـة فى مقطوعات الفلام ، لكن شـــغفها بنوم القيلولة كان لا يلبث أن يستأثر بها ، فتغيب فى أحلامها .. !

وكم من مرة جذب فيها « شارات » أذنى الفلام بشدة ، تأديبا له أو تأنيبا ، لكن ذلك لم يكن شـــيئا بالقيـــاس الى ما اعتاده نيلكانتا من مدير الفرقة الجائلة ، ومن هنا لم يفلح هذا العقاب فى زجره ! .. وكانت تجاربه المحدودة قد دلته على أن حياة المرء مثل الكرة الارضية التى تنقسم الى قليل من اليابسة وكثير من الماء ، وكان الطعام عنده يعنى اليابسة فى حياته ، بينما كان الضرب أو التأنيب يعنى الماء !

وكان من الصعب تحديد سن نيلكانتا . لو قلت انه فى الرابعة عشرة لكان وجهه ينبىء بأكثر من سنه ، ولو قلت انه فى السابعة عشرة لـكان الامر على العكس . فهو أما رجل

نضج قبل الاوان ، أو صبى تأخر نضجه عن الاوان.. جسمه وذقنه الملساء يوحيان بصغر سنه ، بينما لفته وادمانه التدخين وتغضن شفتيه توحى بكبر سنه ! .. البراءة والشباب يسطعان من عينيه الكبيرتين ، ويفيضان من قلبه البكر ، **لكن العمل من أجل الرزق فى سن الصبا قد أنضج مظهره قبل موعده !**

على أن الطبيعة لم تلبث أن وجدت فى مأوى « شارات » الهادىء وحديقته الفسيحة جوا مناسبا لاتمام عملها دون عائق ، فانتقل الغلام فى صمت وهدوء من مرحلة الصبا الى مرحلة الرجولة ، فوضحت أعوامه السبعة عشر أو الثمانية عشر . **وبدا ذلك أول ما بدا فى أنه صار يخجل حين تعامله كيران معاملة الصبيان** . وحين اقترحت عليه ذات يوم وهى تضحك أن يمثل دور امرأة ، ساءه ذلك وآلمه ، ولكنه لم يجاهر بسبب استيائه وألمه ، واكتفى بالاختفاء من وجه كيران كلما همت بدعوته الى القاء مقطوعاته القديمة ، فلم تكن تعثر له على أثر !

***

واستقر عزم الفتى اخيرا ــ بعد أن طال به المقام ــ على أن يتلقى قسطا من التعليم على وكيل أعمال « شارات » ، لكن الوكيل لم يكد يعلم أن الفتى هو مدلل زوجة مخدومه ، حتى نفض يده من المسألة ، وآثر أن ينجو بنفسه من الحرج! .. كما أن الفتى ذاته عجز عن تركيز ذهنه فى الدرس والتحصيل . كانت الحروف الابجدية تتراقص أمام عينيه

كالضباب ، فكان يجلس ساعات والكتاب مفتوح فوق فخذيه، مستندا بظهره الى جذع شجرة فى الحديقة الساكنة ؛ والامواج تتنهد تحت قدميه ، والقوارب تتهادى على صفحة النهر أمامه ، والعصافير والطيور تزقزق فوق رأسه بلا انقطاع ..

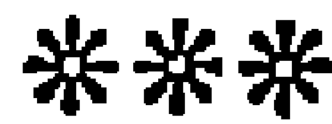
ترى أية أفكار كانت تطوف براسه وهو يرمى ببصره الى الكتاب فى تلك الساعات ؟ .. انه وحده الذى يعلم ذلك ـ ان كان يعلم شيئا ـ فالواقع انه لم يكن ينتقل من كلمة الى أخرى ، **ولكن شعوره بأنه يقرأ كتابا ، كان يملأ أعطافه بالبهجة والجذل** . وكان كلما مر قارب رفع كتابه الى مستوى بصره وراح يتظاهر بأنه يقرأ جادا ، بأعلى صوته ، حتى يبتعد « النظارة » ، فتنطفىء حماسته بالتدريج !

لقد كان فيما مضى يغنى مقطوعاته التمثيلية بطريقة آلية، اما الآن فان أنغامها ترن فى وعيه ، فيحس ـ كلما فهم معانيها ـ كأنه ينتقل الى عالم آخر ، وقوم آخرين ! .. وهذه الارض التى ألفها ، والحياة المتواضعة التى يحياها ، صارت تستحيل حينذاك الى موسيقى وأنغام .. بل انه هو نفسه صار يستحيل الى انسان آخر ، تتراءى فى مرآة ذهنه القصص الخرافية القديمة فى صورة جدية ، حافلة بألوان الجمال الخارق الفتان .

كان يستعيد فى خياله ـ كالحلم ـ قصة الطفل الفقير القذر الجائع ، الذى أوى مع المساء الى بيته الحقير ، بعد أن سمع بما يروي عن الامير والاميرة والذهب الاصفر الرنان،

فينطلق عقله من قيود الواقع المرير ، من قيود الفقر والبؤس والحجرة الحقيرة التى تضيئها شمعة ضئيلة .. ويروح يحلق فى آفاق تلك الارض السحرية الجميلة التى يعيش فيها الامير والاميرة !

.. لكن عبث «نيلكانتا» وأقرانه بحديقة المانجو المجاورة فى أوقات لهوهم ، لم ينقطع ، ولما شكا صاحبها ذلك الى « شارات » ، عاد هذا ثائرا وجذب أذنى نيلكانتا بشدة ، وزجره زجرا عنيفا .. ورغم ذلك ، توالى العبث ، وتوالت الاعتداءات !



وذات يوم ، حل بالبيت « ساتيش » ، الشقيق الاصغر لشارات . وقد جاء ليقضى عطلته الجامعية السنوية ، فابتهجت كيران لقدوم هذا الرفيق الجديد ، ليؤنس وحشتها .. وكانا فى سن متقاربة ، فصارا يقضيان أيامهما فى اللهو ، واللعب ، والمشاحنة ، والصياح ، والضحك .. وفى الدموع أحيانا !

.. كانت تفاجئه من الخلف ، فتطوق عينيه براحتيها الملطختين بالفحم ، وتكتب على ظهره كلمة « قرد » ! .. أو تغلق الباب عليه من الخارج لتمنعه من مبارحة البيت ، فيشفى غليله بالضحك ! .. ولم يكن ساتيش بدوره يغفل فرصة رد الصاع لها صاعين ، فكان يدس لها الفلفل فى الحلوى .. أو يخفى مفاتيحها وحليها .. أو يقيدها الى الفراش ، حين تكون غافلة !

والله وحده يعلم ما أصاب نيلكانتا المسكين خلال تلك

الايام ، فقد تملكه فجأة شعور بالمرارة الموجعة جعله يتوق الى أن يصب غضبه وانتقامه على انسان ما ، أو شيء ما ؛ فصار يوبخ اتباعه المخلصين من أفراد «العصابة» دون ذنب جنوه ، وكثيرا ما ردهم الى بيوتهم باكين ! وصار يركل كلبه المدلل حتى يملأ أنينه وصياحه الفضاء !

وحينما يخرج للتريض كان يضرب بعصاه الاغصان ، فترسم أوراقها المتساقطة طريقه من الجانبين ! .. وأكثر من هذا أنه كان — قبل حضور « ساتيش » — أكولا ، قادرا على هضم كل ما يقدم له ، لا يكاد يرفض طعاما جيدا مهما يكن مقداره ضخما .. فكان يلذ لكيران أن تدعوه لتنعم بمشاهدته وهو يلتهم طعامه فى حضرتها ، فى نهم ملحوظ .. فلما جاء ساتيش ، لم يبق لها وقت فراغ تضيعه فى ممارسة هوايتها هذه ، الا فيما ندر !

وكان غيابها فيما مضى لا يؤثر فى شهيته للطعام.أما الآن، فقد صار لا يكاد يشتهى الطعام ، وكثيرا ما نهض عنه دون أن يقربه ، قائلا للخادمة فى صوت كسير : « لست جوعان ! »

وقد كان يأمل أن تصل أنباء عزوفه عن الطعام الى سمع كيران ، **فترسل فى طلبه ، وتلح عليه فى أن يأكل ! .. لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فلم تعرف كيران بأمر ما طرأ عليه .. ولم ترسل فى طلبه !** .. بل صارت الخادمة تتولى الاجهاز على الطعام الذى يتركه ! .. فأمسى — حين تخذله أعصابه — يأوى الى غرفته ، فيطفىء المصباح ، ثم ينكفىء على فراشه فى الظلام ويدفن وجهه فى الوسادة .. ليبللها

بدمعه ! . . وأخيرا ، حين لا يقتحم عليه خلوته غير النعاس ، كان القلب الجريح للفتى اليتيم يستسلم لاجنحة النوم الناعمة الرحيمة !

وانتهى نيلكانتا الى الاقتناع الجازم بأن سانيش لا بد قد سمم أفكار كيران ضده . فكان اذا شرد ذهنها ولم تقابله بابتسامتها المعهودة ، يفسر ذلك بأن ساتيش قد دس له عندها ! . . وعلى هذا . جعل يصلى للآله ، بكل حرارة حقده المشتعل ، كي يجعل روحه تتقمص – فى الولادة القادمة – جسم ساتيش ، ويجعل روح ساتيش تتقمص جسمه هو ، وتقاسي عذابه . وكان موقنا من أن صلاته لن تذهب هباء .

لكنه كلما حاول أن يحرق ساتيش بنار دعواته ، كان هو نفسه الذى يحترق ، ولا سيما حين يسمع صدى ضحكات ساتيش ومزاحه مع زوجة شقيقه ، صادرا من الطابق العلوى !

غير أن نيلكانتا لم يجرؤ على المجاهرة بعدائه لساتيش ، وان عمد الى مائة حيلة وحيلة لمضايقته !. . كان ساتيش اذا ذهب ليسبح فى النهر ، وترك قطعة الصابون على الشاطى ، يعود فيجدها قد اختفت ! . . ومرة رأى سترته المفضلة تسبح بعيدا فى الماء ، فحسب أن الهواء هو الذى ألقاها فى النهر!

وذات يوم ، أرادت كيران أن تسلى ساتيش ، فأرسلت تدعو نيلكانتا كى يمثل أمامه بعض مقطوعاته . لكن هذا وقف جامدا لا ينطق ، وقد بدا عليه الاكتئاب . فلما سألته كيران فى دهشة عما به ، أبى أن يخرج عن صمته !

.. حتى اذا ما ألحت عليـه فى أن يلقى مقطوعة معينة كانت تفضـلها ، أجـاب فى صرامة : « لست أذكرها » .. وخرج من المكان !



وجاء أوان عودةأسرة شاراتالىقريتها، فانهمكالجميعفى اعداد معدات السفر ، وحزم الامتعـة . وبدا أن ساتيش يعتزم السفر معها .

اما نيلكانتا فلم يحدثه أحد فى الامر بكلمة ! بل لم يبد أن أحدا فكر البتة فى مصيره !

لكن الواقع أنهم فكروا فى أمره فيمـا بينهم ، فعرضت كيران أن يأخذوه معهم . لكن زوجها وأمه وأخاه عارضوا فى ذلك بشدة ، فاضطرت كيران الى نبذ فكرتها .

وقبيل موعد رحيلهم بأيام ، أرسلت فى طلبه ، ونصحت له فى كلمات رقيقة بأن يعود الى بيت اهله ! .. **وكأن لهـذه اللفتة الكريمة ، بعد الاهمال الطويل ، أثرها فى نفس الفتى ، فانخرط فى البكـاء ، ولمعت الدموع فى عينى كيران ، فقـد أدركها الندم** . لكن ساتيش تبرم ببكاء الفتى ونشيجه فقال لها : « لماذا يقف هذا الاحمق مولولا ، بدل أن يتكلم؟» فأنبته كيران على غلظته ، واتهمته بأنه مخلوق مجرد من الشعور . فكان جوابه أن قال : « انت لا تفهمين الامر على حقيقتـه، وقـد كنت طيبـة وسـخية بثقتك أكثر ممـا ينبغى ، اذ عاملت هـذا الافـاق الذى لا يعلم الا الله من أين جـاء ، كما يعـامل الملوك .. وطبيعى أن النمر لا يريد أن يعود

فأرا . وهو لهـذا يحـاول تحريك قلبك و الانته بهـذه الدموع ! » . . ولم يستطع نيلكانتا أن يحتمل هذا التقريع ، فترك الغرفة لا يلوى على شيء . **وكم تمنى فى هذه اللحظـة لو كان سكينا ، تقطع أحشاء ساتيش وتمزقه . . أو ابرة تخز قلبه وتدميه ، أو نارا تحرقه وتحيله رمادا !**

. . لكن ساتيش لم يصب بخـدش ، وانما قلب نيلكانتا المسكين هو الذى ظل ينزف بلا انقطاع !

وكان ساتيش قد أحضر معه من (كلكتا) محبرة فاخرة على شكل قارب مرصـع ، تجره أوزة من الفضـة . وكان شديد الاعتزاز بها ، ينظفها بنفسه كل يوم بعناية ، بمنديل حريرى ، فتضحك كيران وتضرب منقار الاوزة بأصبعها وهى تغنى . ثم تنشب بينهما المعركة الكلامية المألوفة !

فلما كان اليوم السـابق ليوم رحيلهم ، اختفت المحبرة الثمينة فجأة ، وفشلت جميع الجهود التى بذلت فى العثور عليها . فابتسمت كيران وقالت لساتيش : « لابد أن أوزتك قد طارت ! » . . لكن ساتيش كان حانقا مغيظا ، موقنا من أن نيلكانتا قد سرق المحبرة المفقودة ، **سيما بعد أن شهدأكثر من شخص بأنهم رأوه يحوم حول الغرفة فى الليلة السابقة !**

ومن ثم أمر ساتيش باحضار « المتهم » أمامه ، وكانت كيران حاضرة ، ثم صرخ فى وجهـه قائلا : « لقـد سرقت محبرتى أيها اللص ، فأعدها الى فورا ! »

ورغم أن نيلكانتا طالما تلقى العقاب من « شـارات » فى ارتياح تام ، حتى حين كان يعتقد أنه لا يستحق العقاب ،

فانه وجد نفسه لا يستطيع صبرا على اتهام ساتيش اياه فى حضرة كيران . وسرعان ما اتقدت عيناه بغضب وحشى ، وغص حلقه ، وتلاحقت انفاسه . ولو أن ساتيش أضاف كلمة أخرى الى ذلك لوثب وانقض عليه كالقطة المتوحشة !

واستاءت كيران من هذا المشهد ، واكتأب قلبها ، فأخذت الفتى الى غرفة أخرى ، حيث قالت له بلهجتها الناعمة الرقيقة : «نيلو ، اذا كنت قد أخذت المحبرة ، فاعطنى اياها فى هدوء ، وأنا أعدك بأن أحدا لن يمسك بكلمة أخرى فى شأنها ! »

وغص الفتى فى حلقه ، وتدحرجت على خديه دمعتان غزيرتان .. وعبثا حاول مغالبة دموعه ، فاضطر الى اخفاء وجهه بيديه .. وانخرط فى البكاء !

وعادت كيران الى زوجها وشقيقه وأمهما ، قائلة : « أنا واثقة من أن نيلكانتا لم يأخذ المحبرة» .. لكن الرجلين أصرا على اتهامه . ثم اقترح شارات أن يستجوب الفتى ، لكن زوجته أبت بشدة . وعند هذا اقترح ساتيش بدوره تفتيش غرفة نيلكانتا وصندوق متاعه . فقالت كيران : « اذا جرؤت على أن تفعل ذلك فلن أغفر لك قط . انك لن تتجسس على الغلام البرىء الفقير ! » .. وكانت تتكلم والدموع تملأ عينيها الجميلتين ، فلم يسع شارات وساتيش الا السكوت !

ثم رات أن تطيب خاطر الفتى المتهم « البرىء » ، فأعدت قميصين جديدين ، وزوجين من الاحذية ، ومضت بها فى هدوء الى غرفة نيلكانتا ، وفى يدها ورقة مالية كبيرة أيضا ، معتزمة

ان تضع كل هذه الهدايا فى صندوقه .. وكان الصندوق نفسه هدية من هداياها .

واختارت من حلقة مفاتيحها مفتاحا يصلح لفتح الصندوق ، ثم فتحته بغير ضجيج . كان مملوءا بالمتاع الى درجة لم يتسع معها للهدايا الجديدة ، فآثرت أن تفرغ محتويات الصندوق وتعيد ترتيبها من جديد . **وحين أوشكت أن تصل الى القاع ، اصطدمت يدها بشيء صلب .. واذا هى ترى أمامها .. المحبرة المفقودة !**

***

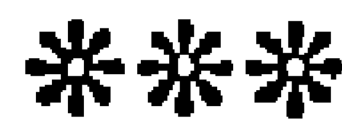
صعد الدم الى وجه كيران ، وجلست مذهولة ، والمحبرة فى يدها ، حائرة لا تدرى ماذا تصنع .. وظلت الافكار تختلط فى ذهنها المضطرب .

وفى تلك اللحظة ، كان نيلكانتا قد عاد من الخارج وصعد الى غرفته ، فما كاد يدخلها حتى رأى كيران منكبة على صندوقه . وقد أخرجت منه المحبرة ! .. وتبادر الى ذهنه انها انما جاءت خلسة لتفتش الصندوق وتضبطه متلبسا بالجريمة .. وأدرك أن أمره قد افتضح ، ولم يدر كيف يقنعها بأنه ليس لصا ، وأنه لم يأخذ المحبرة الا رغبة فى الانتقام من صاحبها !.. وهتف به قلبه : « **أنا لست لصا . لست لصا** » . لكن ماذا يكون اذن ؟ .. وماذا يقول تبريرا لموقفه ؟ .. لقد سرق ، ومع ذلك فهو ليس لصا !

لكنه لم يستطع أبدا أن يوضح الامر لكيران ، ويقنعها بأنها أخطأت جد الخطأ حين حسبته لصا ! .. وفى هدوء ،

تسـلل الفتى عائدا من حيث جاء ، دون أن تشـعر كيران بحضوره أو انصرافه .

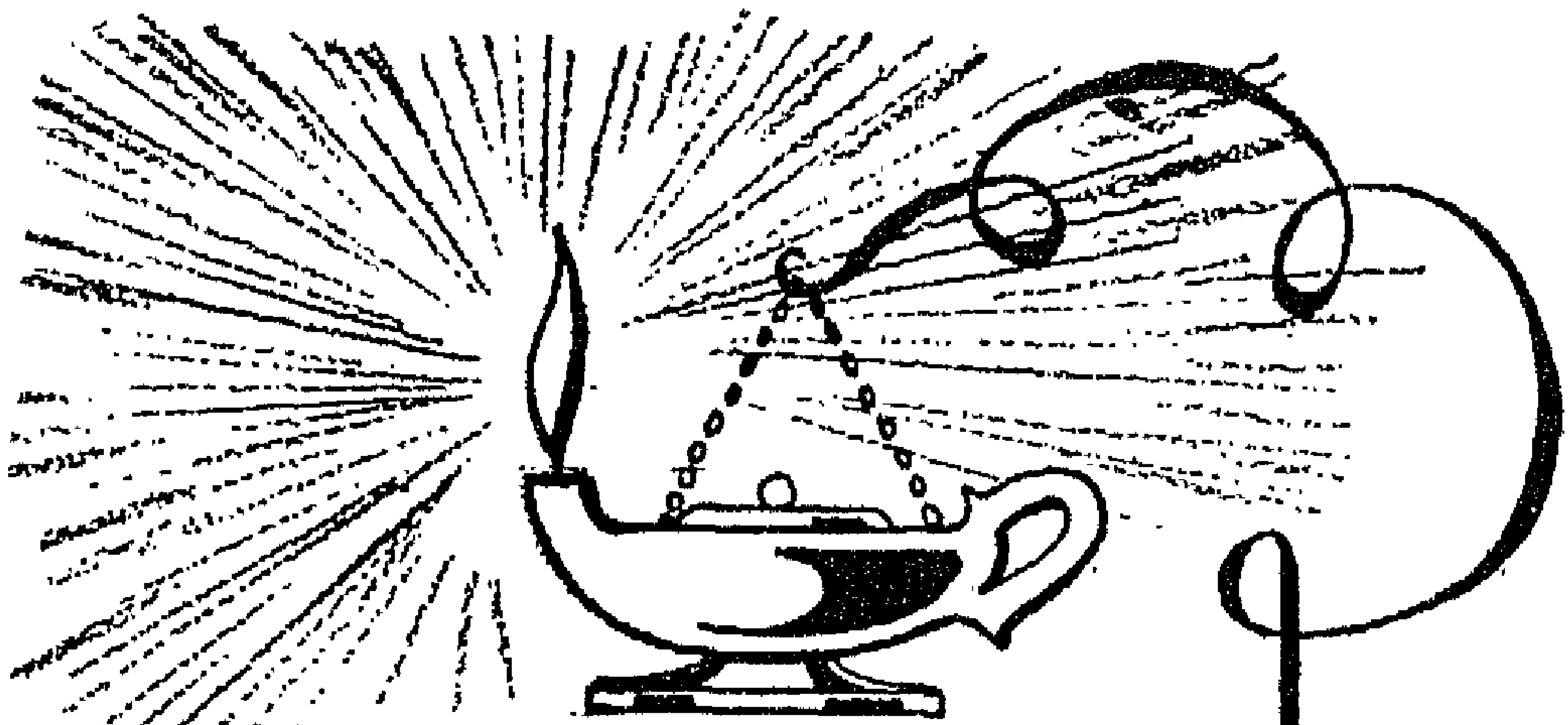
وأخيرا تنهدت كيران تنهدة عميقة وهى فى جلسـتها أمام الصندوق ، ثم أعادت المحبرة الى مكانها .. وكما لو كانت هى السارقة، غطتها بالثياب التى كانت تغطيها ، ثم وضعت فوقها الهدايا التى أحضرتها للفتى..وورقة النقود الكبيرة !



وفى اليوم التالى لم يعثر للغلام على أثر . وقرر أهل القرية انهم لم يروه . وعجز رجال الشرطة عن الاهتداء الى مقره !

.. واذ ذاك اقترح شارات أن يفتشوا صندوقه ؛ ليروا أهو مذنب أم برىء . لكن كيران رفضت الموافقة على ذلك ، فى اصرار وعناد ، ثم حملت الصندوق الى غرفتها ، حيث أخرجت منه المحبرة خلسة ، والقت بها فى النهر .. دون أن يشعر بذلك انسان !

وعادت الاسرة كلها الى مقرها ، فأقفرت الحديقة المهجورة ، ولم يبق من آثار ((نيلكانتا)) غير كلبه الأمين الجائع ، يذرع شاطىء النهر ، فى عواء محزن كئيب !



كتب جديدة

من الغرب والشرق

عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية فى العالم



الكتب الافرنجية

رسالة باريس   يقدمها : الدكتور أنور لوقا

زولا ، أسطورة وحقيقة   ZOLA, LEGENDE ET VERITE

تأليف : هنرى جيمان   (Par Henri Guillemin)

نبدأ جولتنا فى مكتبات باريس هذا الشهر بهـذا الكتاب الهـام ؛ ومؤلفه باحث مدقق ، وناقد مجـدد ، ومحـاضر جذاب ، يعـرفه أهل القـاهرة لا من خلال كتبـه الطريفة فحسب، بل منذ كان أستاذا بجامعتها لمادةالأدب الفرنسى . وقد اشتهر « هنرى جيمـان » بهجمـاته التى توالت فى السنوات الاخيرة على أصـحاب الاسـماء الكبيرة فى تاريخ الأدب ، وتخصص فى تحطيم الأصـنام ، بدراسـات علمية شـائقة تعتمد على مراجع مطوية لا يلتفت اليها فى العـادة جمهرة الباحثين ، وعلى المخطوطات الاصلية ووثائق دور المحفوظات . وهكذا نبش ماضى بعض العمالقة ، من أمثال ((**فيـكتور هوجو**)) و ((**ألفريد دى فينيى**)) ؛ وفضح كثيرا من نواحى الضـعف والهوان لدى أولئكالمنادين بالمثل العليا !

وهو اليوم يستخدممنهجه فىهدم أسطورة **((اميل زولا))** ، ورسم صورة جديدة لهذا الأديب الذى أسرف فى الواقعية، وأرهق أواخر القرن التاسع عشر بقصص المجتمع الفاسد ، والحياة الذميمة (راجع قصته « الوحل » فى « كتـابى » عدد ٤٦) . و « جيمان » يعارض الرأى الشائع عن «زولا»، ونفور النقاد منه جيلاً بعد جيل، ويدافع عنه دفاعا مجيدا . انه يعود الى آثاره الأدبية من ناحيـة ، ويراجع فى الوقت نفسـه تطور حاله النفسية كما تسجلها الرسائل التى كتبها لأهله وأصدقائه أثناء انشاء تلك الآثار . ومن هذه المقارنات

المتصلة بين أحاديث « زولا » الشخصية والمعانى التى يعالجها فى قصصه داخل اطار فنى ، اتضحت للاستاذ الباحث وقائع وحقائق هى التى يعرضها علينا فى سياق ممتع .

ويتوقف « جيمان » مليا عند قصة مغمورة كتبها «زولا» فى شبابه عنوانها « اعتراف كلود » ، فيبين كيف كان هذا الأديب ــ الذى مرغ النقد صيته فى الوحل ــ فتى كريما عفيفا رفيع الآمال ، تدفعه شهامته وهو فى العشرين من عمره الى أن يحاول انتشال امرأة ساقطة ، فيصطدم ــ رغم تضحياته ــ برفضها حياة الشرف وتشبثها بوهدة الرذيلة ، وهنا يعبر بطل قصته « كلود » هذه العبارة الرهيبة : « لقد قامت أمامى كل القذارة البشرية » . ولا يخبو نور الأمل فى صدر « زولا » بعد هذه التجربة المريرة ، ولكنه يحس ــ مع الحاح الفضيلة عليه ــ بالحاجة الى استكشاف أغوار « الواقع » ، ويقرر قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين « أن يعرف كل شىء : ليشفى كل شىء » !

وفى الكتاب فصل آخر عميق عن تطور مشاعر « زولا » وانكاره ازاء الدين والايمان بالقيم الروحية . ومن المعروف أن « اميل زولا » قد هاجم فى كثير من مؤلفاته أوضاع الكنيسة الكاثوليكية التى نشأ فى رحابها ، فما أشد عجبنا عندما نتتبع ــ بفضل تدقيق « جيمان » ــ فقرات مؤثرة كتبها « زولا » فى حماس هذه المعارك ، وتشهد ألفاظها وحججها بأنها صادرة عن تلك المبادىء نفسها وقد تغلغلت فى روحه ، وعن تلك القيم الأبدية التى بات يفتقدها ايمان تخبط فى ظلمات الواقع .

انه كتاب خطير ، يصحح أخطاء خطيرة ، ولا غنى عنه لمن يعرض منذ اليوم لأدب هذا القصاص الشهير .

« للبيانو المنفرد » **POUR PIANO SEUL**

تأليف : اندريه موروا **(Par André Maurois)**

« اندريه موروا » علم من أعلام الادب الفرنسى منذ نصف قرن ، اجتذب برقة فنه ، ورشاقة أسلوبه ، واتساع آفاقه، الملايين من قراء مختلف اللغات . برع فى القصة الطويلة ؛ وأصدر سلسلة من سير مشاهير الأدب والتاريخ تجلت فيها غزارة ثقافتيه الفرنسية والانجليزية — وان كان يميل الى اصطناع التشويق الروائى فى الترجمة لأبطاله . (وقد قدم « كتابى » عدة أمثلة من أدب « موروا » ، راجع الأعداد من ٧ — ١٤

وكتاب « موروا » الجديد ليس رواية ، ولا هو ترجمة حياة فنان ، بل مجموعة من الأقاصيص الصغيرة ، حافلة بألوان المتعة والنقد الاجتماعى الخفيف . انها معرض صور منوعة . ولا يحتاج الى الاطناب هذا الأديب المرهف الذى اعتاد تحليل النفوس وفطن الى الكثير من خباياها ، وانما تكفيه بضع صفحات ليلج فى صميم مأساة انسانية ، أو ليكشف خطيئة أو وضعا من أوضاع النفاق ، دون أن تفارقه ابتسامة المتحدث اللبق الذكى .

ولنضرب مثلا واحدا : هاتان «تيريز» و «نادين» تتنازعان أوراق الرجل الذى توفى أخيرا ، وكان زوجا لهذه ثم تلك ، فقد طارت شهرته ، واهتم الجيل بنشر مؤلفاته ومذهبه الاصلاحى . . ثم يتلاشى خصامهما فجأة ، بل وتسكنان معا لتتعاونا فى تلفيق سيرته وزخرفتها ، عندما تلوح «هوليوود» بآلاف الدولارات لاخراج فيلم عن حياة الرجل العظيم !

وفى الكتاب خمسون قطعة فنية من هذا القبيل ، سريعة العرض ، رقيقة اللذع ، كل منها درس فى اتقان القصة القصيرة يحسن بأدبائنا الناشئين أن يتأملوه وأن ينتفعوا به .

الأرستقراطيون الجدد LES NOUVEAUX ARISTOCRATES

تأليف : ميشيل دى سان بيير (Par Michel de Saint Pierre)

وهذه قصة طويلة ، مؤلفها اسم لامع فى عالم الرواية ، وموضوعها ثورة الشباب المعاصر وحيرته . وما أكثر ماتحدث الكتاب عن انحراف الشباب ، وما أكثر ماتحدث الشباب عن انحرافهم ــ والعهد غير بعيد بقصص « فرانسواز ساجان » الاولى ــ غير أن « ميشيل دى سان بيير » لا يتخذ من هذه المادة القاتمة وسيلة لتلهية القراء ، ولا يتناولها تلبية لحب استطلاع خبيث ، بل يواجه مشكلة الجيل الناشىء واصطدامه بفساد الاوضاع التى خلفها له الجيل الذى سبقه .

وفى القصة بطلان : تلميذ فى السابعة عشرة من عمره يوشك أن يتم دراسته الثانوية ، ينحدر من عائلة غنية أدت الثروة فيها الى انحلال أخلاق الآباء واكتفائهم من الفضيلة بمظاهر كاذبة ، وتدفعه النقمة الى العبث مع رفاقه فى كهوف الحرام ، ولكن هذا العبث لا يشفيه ولا يعيد اليه التوازن الذى يلتمسه ، وانما هو اضطراب صبيانى لا يجد نحوه بعد أن تمادى فيه الا نفورا يعادل نفوره من نفاق أبيه . وأما البطل الثانى فهو أستاذ الفلسفة فى المدرسة ، رجل ناضج الفكر ، مرهف الضمير ، قوى العزيمة ، يريد أن يقود تلميذه هذا العنيد الى جادة الحياة . وفصول القصة هى فصول الصراع العنيف بينهما . وكلاهما نفس أبية ، ممتازة ، لا ترضيها الحلول السهلة ، ولا تتهرب من الحقائق . ومن هنا كان معنى « الارستقراطية » فى العنوان .

والمؤلف لا ينحاز لهذا البطل أو ذاك ، بل يعرض تلك الملحمة عرضا موضوعيا ، وان كان لايكتم رأيه ، وهو أن الشباب تعوزه تربية عامة جامعة ، تنبع من القيم الروحية

الحية، وتنمى صفاته الأخلاقية ، بدلا من هذا التعليم المفتت فى جزيئات مواد جافة متباينة ، تباين الجغرافيا والنحو والكيمياء والهندسة .. !

ولا شك فى أن جميع من احتكوا بشبابنا ومشكلاته فى مختلف مراحل التعليم يقدرون هذا الرأى حق قدره .



المؤلف : هنرى ترويا

دستويفسكى DOSTOIEVSKY

تأليف : هنرى ترويا

(Par Henri Troyat)

ضمت الأكاديمية الفرنسية « هنرى ترويا » فى العام الماضى الى أعضائها « الخالدين » . ولهذا الاديب الذى لم يتجاوز الخمسين من عمره آثار شامخة فى القصة الطويلة ، وما زالت أجزاء قصته الفخمة « البذار والحصاد » تطلع على القراء منذ سنة ١٩٥٣ . ولعله ورث طول النفس من عمالقة القصة الروسيين .

ذلك أنه روسى المنبت ، ولد فى موسكو ، وفارقها صبيا فى الثامنة من عمره عقب نشوب الثورة . وفى باريس ، أشرب الثقافة الفرنسية ، ونبغ فى الكتابة ، وأصبح خير من يتحدث عن الأدب الروسى . لقد نشر سنة ١٩٥٩ كتابا عن « الحياة اليومية فى روسيا فى عهد القياصرة الأخيرين » ، وله قبل ذلك كتاب عن « بوشكين » وآخر عن « دستويفسكى » .

وكتابه هذا عن « دستويفسكي » ـ الذى ظهر الآن فى طبعة جديدة مزيدة ـ لا يقتصر على سرد أحداث حياة هذا الأديب العظيم الذى تأثر به أكثر أدباء عالمنا الحديث ، بل يمزج بفصول حياته فصولا من قصصه ، وينتقل من شخصيته الى شخصيات ابطاله ، ويبين الصلة الوثيقة بين الفنان وعمله . وهكذا يتسع سطح الصورة المرسومة ، فتشمل ـ الى جانب ملامح فرد نميزه هو «دستويفسكى» ـ معالم بيئة عريضة ، وعصر بأكمله . انه مرجع خصب لمادة خصبة .

الأرض وجوع الناس

تأليف : ادوار بونفو

LA TERRE ET LA FAIM DES HOMMES

(Par Edouard Bonnefous)

جوع الناس فى الارض مشكلة رهيبة : تهدد مصير العالم ، وتنذر المتشائمين بالحرب . لقد بات « الجوع » يشغل أذهان المفكرين بصورة ملحة . وما أعجب الصيحات التى دوت فى جنيف ـ وهى من عواصم الرخاء ـ حول مؤتمر ثقافى دولى ينعقد فى جامعتها فى أوائل سبتمبر من كل عام ، وكان موضوعه الاخير : « الجوع » .. وقد تكلم فى تلك الندوات الهامة علماء الطب والاجتماع والاقتصاد الذين أقبلوا من الشرق والغرب ، ورددت



المؤلف : ادوار بونفو

الصحافة السويسرية دعواتهم ، واهتز لها الرأى العام . وكانت خلاصة المناقشات انه ينبغى تنظيم حملة واسعة النطاق لمكافحة الجوع فى جميع اطراف الارض ، لا عن طريق المساعدات المرتجله — وان صدرت عن قلوب رحيمة — بل تنفيذا لخطة علمية دقيقة الدراسة لا تثمر بدونها الجهود .

واليوم ينشر الباحث الفرنسى « ادوار بونفو » كتابه هذا ، وفيه تتجاوب أصداء ما سمعناه فى جنيف . وهو يعالج فى اطار واحد شامل ، العلاقة بين سرعة تكاثر السكان وبطء نمو الموارد الغذائية ، ذلك الموضوع الذى درسه باحثون مختلفون قبله دراسات جزئية فى بلاد متفرقة . وهذه المشكلة قائمة لا فى مناطق افريقيا وآسيا المكتظة فحسب ، بل فى أمريكا وروسيا أيضا ، وفى أوروبا التى تعانى بعض أقاليمها اختلالا بين الانتاج والاستهلاك ، رغم ما يبدو لنا من تقدم الوسائل فيها .

والمؤلف متفائل ، يؤمن بالنماء المقبل ، والرخاء الذى سوف يعم الارض اذا عولجت هذه المشكلة علاجا حكيما ، يرسم لنا بعض اتجاهاته ، فليست الحرب هى خير سبيل للقضاء على الجوع بالقضاء على الجائمين . . والكتاب مزود بالخرائط والبيانات والاحصائيات التى اعتمد فيها الباحث على منشورات المنظمات الدولية .

النشاط المسرحى . . على ضفاف السين

حول « كردينال اسبانيا »

• **على أثر** النجاح الكبير الذى حازته مأساة «مونترلان» الجديدة ، « كردينال اسبانيا » ، (التى قدمناها لقراء العربية فى العدد الماضى من « كتابى ») — وهو النجاح الذى

تنبأ به كثير من الأدباء والنقاد ــ انعقدت فى مسرح «الكوميدى فرانسيز» ندوة طريفة ناقش خلالها نخبة من أهل الفكر والفن هذا العمل الممتاز ، وشهدها جمهور حاشد .

وافتتح الندوة « اندريه مورا » ، فتحدث عن مكان «الكردينال سيسنروس» ــ بطل المأساة ــ فى تاريخ اسبانيا . وختم حديثه الطلى ببضعة أسئلة لا تخلو من لذع ، أجاب عنها ــ بلباقة ــ « الأب جوبيت » مدير معهد الدراسات الاسبانية ، فأقر أن « سيسنروس » كان من أعظم رجال عصره ، وأجلهم أعمالا ، وأنه تاق مخلصا الى اعتزال الدنيا ، وبين أن « مونترلان » وهو يقدم صورته قد بالغ فى تظليلها وفى تضخيم بعض ملامحها ، الا أنه لم يتنكر لحقيقتها وجهد فى نقلها بأمانة .

ثم شرح « هنرى جوهييه » أستاذ الفلسفة بالسوربون فضل « مونترلان » على المسرح الحديث الذى تجتاز فيه « التراجيديا » ــ بمعناها الروحى القديم ــ أزمة تكاد تحطم أركانها . وما أجمل أن يسمع الانسان المعاصر دعاء ينبعث من أعماق النفس ! واستأنف الفيلسوف الفنان « جبريل مارسيل » علاج الفكرة ذاتها ، بنظرات واعية فى تطور المسرح ، فنعى على المدرسة « الرومانتيكية » فصلها بين الدراما والمأساة ذات الصبغة التاريخية ، وأكد أن « كردينال اسبانيا » تحفة مسرحية رائعة .

وبعد أن ألقى « بيير ديكاف » كلمة أظهر فيها اعجابه بأدب « مونترلان » ، وكيف أدخل مسرحياته الى برامج « الكوميدى فرانسيز » ، أدى ثلاثة من ممثلى الفرقة بعض مشاهد المأساة التى تصور ما أثير من الآراء .

• **ونشر** « مونترلان » نفسه مقالا بديعا يحلل فيه مسرحيته ، هذه خلاصته :

أوجه الصراع فى « كردينال اسبانيا » أربعة : صراع بين « سيسنروس » والملكة « جان المجنونة » ؛ وصراع بين الكردينال وحفيد أخته الذى يستخدمه قائدا لحرسه ، وصراع يدور فى قلب الكردينال بينه وبين نفسه ، وصراع مثله يتقاسم وجدان قائد الحرس .

وأهمها الصراع الدائر فى قلب الكردينال بين العكوف على شئون الدنيا والزهد فيها ، قد أذكت جذوته الملكة جان بانصرافها عن الحياة الى تأمل الموت . ولكن زهد الملكة



على مسرح الكوميدى فرانسيز : «لويز كونت» فى دور الملكة المجنونة ، و «هنرى رولان» فى دور كردينال أسبانيا

زهد سلبي ، وأما زهد رجل الدين ـ أيا كان دينه ـ فعزوف عن الارض ونزوع ايجابي الى حياة أخرى ، خير وأبقى .

ويفضي الينا المؤلف بأنه كان يتمثل هذا الصراع محتدما على أشده منذ بدأ في كتابة المسرحية سنة ١٩٥٥ حتى انجزها أخيرا وسلمها الى المطبعة . وبابتعاده عنها الآن . أصبح يرى هذا الصراع وقد صغر وتضاءل ، كما ينظر الواقف على جبل مرتفع الى جيشين يتحاربان في الوادي فيبدو له أنهما جيش واحد تضامت صفوفه . وهكذا يخيل لمونترلان اليوم أن الذي يدور في نفس الكردينال ليس صراعا طاحنا ، وانما هو أسف يخامره اذ يلمس أنه وقف على العالم معظم نشاطه وجهده ولم يفسح لتأملاته الروحية مجالا أوسع . ومن ردود « سيسنروس » على الملكة أنه بقدرة الله يوفق بين ما تتطلبه منه سياسة العباد وما يجب عليه لرب العباد . ويورد « مونترلان » من مذكراته هذه العبارة : «ان المسألة التي تعنينا هي الجمع بين العمل والاضراب عن العمل في حياة متكاملة » ، وما كتبه سنة ١٩٣٥ : « ينبغي الاحتفاظ بكل شيء مع تنسيق الاشياء وتقدير النسب التي يتركب منها المجموع » .

ويختتم الأديب الكبير مقاله بسطور حكيمة ، فلعله قد أخطأ الرأي ، ولعله سيرى غير ذلك بعد انقضاء بضعة أسابيع . « وليس للاشياء من واقع الا ما نخلعه نحن عليها بتسليط أضواء مختلفة متوالية » .

« هتلر» في المسرح القومي الشعبي !

• **عاد** الفنان الكبير « جان فيلار » ، وهو على رأس «المسرح القومي الشعبي» الذي يحتل قاعة « قصر شايو » الضخمة، الى آثار الكاتب الالماني المعاصر«برتولت بريشت» .

والمعروف ان « بريشت » قد وقف حياته على المسرح ، وجدد مادته وأغراضه ، واتخذه أداة فنية لتبصير الانسان بقوى الشر التى تريد أن تطغى عليه وتستعبده . و «بريشت»



زوجة «بريشت» ، الممثلة «هيلين فيجيل» ، فى دور «الام» الذى تتقنه



«أرتورو وى» ـ شبيه هتلر ـ في مشهد من اخراج «بريشت» ومن تمثيل فرقته «المجموعة البرلينية»

متفائل - يؤمن بمستقبل للانسانية سعيد ، ولكن بعد
انتصارها على أكاذيب المضللين ، وتفوق العدالة الخليقة
تصلح أمور المجتمع . ولذلك عادى النازية وتفنن في نقدها
واضطر الى الفرار من ألمانيا سنة ١٩٣٣ . وبعد أن جا
شمال أوروبا ، استقر في كاليفورنيا ، حيث واصل كت
مسرحيات لم يحفل بتمثيلها الا بعض الهواة وعدد من طلا
الجامعات. واستطاع أن يعود الى وطنه عام ١٩٤٨ . وهنا
أسس ، مع زوجته الممثلة الممتازة « هيلين فيجيل » ، فر
سماها « المجموعة البرلينية » ، وتولى بنفسه اخر
مسرحياته . ولقد أصبحت « المجموعة البرلينية »
بتخصصها واتقانها ـ أقوى مسارح أوروبا اليوم !

ومسرحية « بريشت » التى قدمها « فيلار » لجمهو
الباريسى منذ أسابيع قليلة ، تروى قصة هتلر ، وصعو
من الحضيض الى القمة ، وفصول سيطرته الرهيبة ال
كادت تغير معالم الانسانية . وبطل المسرحية لا يد
« هتلر » ـ وان كان يستعير فى كثير من الدقة شك
وحركاته ـ بل يدعى « أرتورو وى » (Arturo Ui) ، و
ليس زعيما سياسيا بل رئيس عصابة من لصوص شيكا
يستفحل شرها شيئا فشيئا . وفى ختام الاحداث يهيب
ممثل بالجمهور ، داعيا القوم الى اليقظة والحذر ، حتى
يتاح لمثل هذا الطاغية أن يسيطر عليهم ويتجبر . وتل
عبارات تثير الحماسة فى أفواج النظارة ، وقد جددت
مشاهد المسرحية نقمتهم على ما ينكرون من ذكريات .. و
أن هذه المسرحية قد أغضبت ـ بمضمونها الكريه، وباسلو
المثير ـ فريقا من النقاد يأبون على فن المسرح أن ينزل إ
مستوى الدعاية المباشرة والهجاء السافر ..

فاعلة خير .. من الصين

• **ويقـدم** « مسرح ريكاميه » ـ وهو مسرح صـغير وضعته الدولة منذ العام الماضى تحت اشراف «جان فيلار» أيضـا ، ليكون حقلا للتجارب الفنيـة الجديدة ـ مسرحية أخرى من أدب « بريشت » ، لا شك فى أنها أرقى واعمق من « أرتورو وى » .

وهى مسرحيـة طويلة ، زاخرة بالمعـانى والعبر ، حافلة بعديد من الشخصيات والمشاهد . وقـد استوحى فيهـا المؤلف أسطورة صينية طريفة ، تروى كيف مضى ثلاثة آلهة للبحث فى العالم عن انسان طيب ، يحقق مبادئهم ، ويبرر ـ بالتزام جانب الخير والمعروف ـ وجود هذا العـالم .. فهل سيجدون ضالتهم ؟ ومن يكوّن ذلك الانسان الصالح ؟

تبدأ المسرحية بلقاء الآلهة الثلاثة ، وهم فى طريقهم ، برجل سـقاء هو « وانج » ، سرعان ما يفطن الى شخصيتهم ، فيقودهم الى كل من يتصف بالصـلاح من أهل البـلدة ، ويلتمس لهم ـ دون أن يكشف عن حقيقتهم ـ محسنا يرضى ان يؤويهم فى بيتـه دون أجر . ويرفض جميع المحسنين ، فيواصل السقاء بحثه حتى ينتهى به المطاف لدى مومس تدعى « شنتى » ، هى التى تقبل الرجاء وتضيف المغتربين الثلاثة . انها اذن صاحبة النفس الطيبة الوحيدة فى مدينة (سى تشوان) !

ويترك لها أحد الآلهة ـ قبل رجوعهم الى السماء ـ مبلغا من المال عرفانا بجميلها ، وتشجيعـا لها على متـابعة فعل الخير . وتستثمر « شنتى » هذا المال فى التجارة ، لـكى تعين بأرباحها المساكين الذين تعطف عليهم . على أنهـا قد اضطرت الى الـكذب يوم طالبتها مالكة الحـانوت الذى

استأجرته بضامن ، فزعمت ان ابن عمها « شويتا » يضمنها، وهو رجل لا وجود له . ولم يكن بد من تنكرها فى صورة ذلك الرجل الذى يتولى أمرها . وما أصعب تمثيل هذا الدور المزدوج على الممثلة التى تظهر تارة بمظهر المراة الطيبة ، وتتقمص تارة أخرى رجولة « شويتا » الصارم الذى يحميها من طيبتها ، ويتدخل بشدته اللازمة لحسم المواقف كلما تأزمت . وما أكثر ما تتأزم المواقف حول «شنتى» ، فان أولئك البائسين الذين تمد اليهم يد المساعدة هم أول من يستغلونها ويختلسون مواردها لسد أعوازهم !

وتتعقد الأمور عندما تحب « شنتى » فتى متعطلا يريد أن يصبح طيارا ، وتتزوجه رغم تحذير « شويتا » الذى خبر هذا الطيار فوجده وصوليا لا ضمير له ، ثم تضيق به وتفارقه . ولكنها تنتظر طفلا . وعليها أن تكفل طفلها وأن تشق له طريقا بين قوم لا يرحمون . وهنا تتشبث بشخصية الرجل العاتى « شويتا » ، وتوليه ادارة مصنع أنشأته ، فتنهال عليها الأرباح ، وتصم آذانها عن شكاة من تظلمهم . ويثور القوم على هذا الرجل البغيض الذى بات يحتل مكان ابنة عمه الطيبة، ويتهمونه بأنه قتلها ، ويقدمونه الى المحكمة !

وفى المحكمة يطلب « شويتا » أن يختلى بقضاته . وما أولئك القضاة سوى الآلهة الثلاثة . ويعترف « شويتا » المستبد بأنه « شنتى » المحسنة ، وأن ظروف العيش هى التى أخفت تلك النفس الكريمة وراء هذا القناع المنكر .

أفيعنى ذلك أن عالمنا فاسد الجوهر ، يقتل الخير بالشر ، ولا سبيل الى اصلاحه ؟ ان الآلهة القضاة ينطلقون الى السماء ، ولا يلقون الى « شنتى » الحائرة من جواب الا نصيحتهم القديمة بأن تفعل الخير ! وقبل اسدال الستارة ، يظهر ممثل فيوجه السؤال الى الجمهور ، لأن القصة على هذا

النحو مازال ينقصها الحل : أينبغى تغيير الطبيعة البشرية ، أم تغيير نظم المجتمع ؟

ولعل فى هذا التساؤل مايدلنا على شك يساور المؤلف فى قيمة المذهب الماركسى الذى اعتنقه . ومهما يكن موقف « بريشت » ، فان روايته هذه من أجمل آثار المسرح العالمى المعاصر .

« طرطوف » بين موليير وأنوى .. وعثمان جلال

• يقال ان الأديب الفحل « جان أنوى » ، الذى يعرف قراء هذه المجلة بعض أعماله (راجع عددى ٣٨ و ٨٩ من « كتابى ») ، قد هم بكتابة مسرحية فكاهية عصرية تعالج موضوع « المنافق » على غرار مسرحية موليير الشهيرة « طرطوف » (التى قدمها « كتابى » فى العدد ٣٠) . ولكنه ازاء روعة النموذج الذى وضعه نصب عينيه ، أحجم عن تقليده ، واكتفى بأن يخرجه اخراجا جديدا وأن يعلق عليه . وهذا ما يشاهده الباريسيون الآن فى دار (كوميدى الشانزليزيه) .

ولقد برع « أنوى » فى نقل مسرحية موليير من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر ، فصور جوا من تلك الأجواء العائلية القائمة التى يتقن تصويرها . وليس « طرطوف » هنا رجلا من رجال الدين ، بل هو فتى غريب الأطوار تلتهمه العقد النفسية . ويؤدى هذا الدور الممثل الشهير « فرانسوا بيرييه » أداء ينتزع الاعجاب .

وتعقب فصول موليير الخمسة قطعة تمثيلية من انشاء « انوى » ، تعرض علينا ناقدا مسرحيا يعود الى بيته بعد تلك السهرة ساخطا على هذا الاسلوب فى اخراج تحفة الأدب الكلاسيكى المأثورة ، منذرا بمهاجمة هذا الحدث بشدة فى

مقاله القادم . ويتطرق من نقد « أنوى » الى « نقد » موليير نفســـه ، فهل يعبر موليير عن مشـــاكل عصرنا ؟ وما الذى سيبقى من أدبه يوم يطأ أول رائد روسى سطح القمر ؟ بل ويتساءل : هل كان موليير معبرا عن عصره ، وعن حقيقــة مشاكلهالسياسية والاقتصادية ؟ وما قيمة موليير اذا قورن بأديب مثل « بريشت » الملتزم ؟ وأى نفع لمسرح بلا هدف ؟ .. وهكذا يفرغ الناقد الناقم شحنة غضبه . ومن خـــلال حديثه الذى تتضارب فيه الحجج والمعانى ، تتسلسل ردود « أنوى » ــ بطريقة غير مباشرة ــ على من يتهمونه بالوقوف بعيدا عن المعارك التى يخوضـــها جيلنا فى ميـــادين الفــكر والسياسة، وبعدم ارتباطه بمذهب من المذاهب التىتتصارع اليوم لتصنع تاريخ الانسان الحديث . انه يسخر اذن من دعاوى بعض غلاة « الطليعة » . ولا يلبث الناقد حتى يرى ــ فى حلم ــ شخصيات مسرحية « طرطوف » الأصليين ، وقد ارتدوا ملابس القرن السابع عشر ، وهم يتولونالدفاع أمامه عن أسلوب الاخراج الجديد . وفى هذا كله متعة كبيرة للباريسيين الذينيتذوقون لذع التلميح ، ورشاقة التناول، وتفنن «أنوى» فىتأويلنص منتراثهم يعرفونأدقتفاصيله .

• **ويقال** ان فرقة المسرح القومى لدينا تنتوى الاشتراك فى مهرجان مسارح الامم الذى ســيقام بباريس فى الصيف القادم، بروايتين احداهما « الشيخمتلوف » اى «طرطوف» موليير كما اقتبسها عثمان جلال رحمه الله منذ ثمانين سنة لجمهور ساذج قريب العهد يومئذ بفن المسرح ..

ولقد أصبحت مسرحية موليير بنصها الفرنسى ــ الذى لا بنى عن دراسته وتحليله الأساتذة والطلاب فى المــدارس والجامعات كل عام ، والذى يضـــع أعلام الفن الفرنسى من كل جيل مواهبهم فى خدمته ، للظهور به فى أروع الصــــور ــ

مادة من مواد الترف العقلي لدى أهل باريس وزواد مسارحها من فرنسيين وأجانب .. فهناك ممثلون تخصصوا فى دور « طرطوف » وبلغوا فى اتقانه درجات عليا ؛ ولا أسمى هنا سوى « فرنان لدو » الذى كانت عودته الى أحضان « الكوميدى فرانسيز » منذ بضعة أعوام ، للنهوض بتمثيل

« طرطوف » ، عيدا من أعياد تلك الفرقة العريقة . ترى ماذا سيكون وقع « الشيخ متلوف » فى نفوس الذواقين الذين اضاف «أنوى» الى ثروتهم الثقافية حول «طرطوف» ذخرا جديدا فى هذا الموسم ؟ .. اننى أخشى مقارناتهم بين شيخنا المتلوف وبين أصوله العديدة لديهم . وأخشى ان يغرينا النجاح الذى قد تناله فى القاهرة أزجال عثمان جلال .. فينسينا ان المصانع العالمية لا تصدر كل منتجاتها ؛ بل تحتفظ بصنوف معينة منها للاستهلاك « المحلى » .

رسالة لندن

يقدمها : على شلش

ان كانت الكتب تخلق رجلا كاملا ، كما يقول الفيلسوف الانجليزى « فرانسيس باكون » ، فان لندن تخلق ، بدورها ، مكتبات بأكملها كل يوم . ذلك ان هذه المدينة الضخمة ، التى تعد من أهم مراكز العالم الثقافية ، تدفع الى السوق ــ يوميا ــ عشرات ، بل ومئات من الكتب الجديدة !

وقد صدرت فى الشهر الحالى طائفة متنوعة من المؤلفات ، حملت على أغلفتها عناوين متفرقة لموضوعات عديدة ، منها

ماهو طريف وجديد معا ، ومنها أيضا مايتطلب من القارى قدرا معينا من التخصص والوعى ؛ كما يرتبط الكثير منه بأحداث الساعة ..



المؤلف المخرج « جان آنوى » يلقى بتعليماته الى « اديث سكوب » عن دورها فى « حلم ناقد »



((فرانسوا بيرييه)) مع ((نيكول لانسون)) فى مشهد من مسرحيـــة ((طرطوف)) لموليير كما أخرجها ((أنوي))

أثمن هدية على وجه الأرض !

عندما طاف الكاتب الأمريكي « جون جنتر » بالقارة الافريقية ، خرج من رحلته هذه بكتابه المعروف « داخل أفريقيا » ، الذى سجل فيه وضع الافريقيين المضطهدين كما لمسه بنفسه ، وقد اعترف فيه بأن أفريقيا هى « أثمن هدية على وجه الارض ! » .

وقد ظفرت هذه الهدية الثمينة التى شرع أصحابها الحقيقيون فى التشبث باستقلالها ، بأوفر قسط فى حصيلة المؤلفات التى صدرت فى العاصمة الانجليزية هذا الشهر . وقد برزت قضية الكونغو الى الصف الأول ، واستأثرت بجهود كثير من المؤلفين والمعلقين . ومن بين المؤلفات التى تعرضت لمأساة **الكونغو** هذا الكتاب الذى أصدرته دار « بنجوين » فى ١٧٤ صفحة بعنوان : **((كارثة الكونغو))** لمؤلفه : « كولين ليجم » .

وقد عرض المؤلف لتاريخ الكونغو بايجاز منذ رحلات « ستانلى » الاستكشافية حتى اليوم . وأشار الى موقف همرشولد والأمم المتحدة ، **وأوضح ثلاثة أخطاء رئيسية ارتكبتها الأمم المتحدة** . أولها : فشلها فى معالجة مشكلة كاتنجا ، وثانيها : فشلها فى معالجة الموقف العام فى البلاد ، وأخيرا فشلها فى التمييز بين حكومة لومومبا الشرعية ومنافساتها الأخريات الأقل شرعية . لكنه انتهى الى انه كان من الواجب أن تقف الأمم المتحدة موقفا أشد حزما وأكثر عزما على فض النزاع بطريقة سلمية تضمن للبلاد الإستقرار والسلام .

كذلك صدر عن دار « جولانسز » كتاب بعنوان **((مأساة الكونغو))** فى ١٦٠ صفحة، عالج فيه مؤلفه « ريتشى كالدر »

القضية ذاتها ، وصور فيه مايحدث فى الكونغو بعد زيارته للاقاليم الستة . باعتبـاره ضمن موظفى منظمة الصحـة العالمية .

واذ نترك قضية الكونغو نجد عددا آخر من المؤلفات التى تعالج مشاكل القارة الافريقية ابتداء من الجزائر فى الشمال الى اتحـاد ولايات الجنـوب ، ومن اثيوبيا فى الشرق الى ليبريا فى الغرب . ومن هذه المؤلفات :

• **الثورة الأفريقيـة** (١٩٩ صفحـة) بقـلم : جيمس كاميرون ـ دار تيمس وهدسون

• **الجزائر : العصيان والثورة** (٢٠٨ صفحة) تأليف : جوان جيسبى ـ دار أرنست بن .

• **جنوب أفريقيا والرأى العالمى** (٦٨ صفحة) تأليف : بيتر كالفوكورسى ـ مطبوعات جامعة أكسفورد

« ايخمان » ذو الأنف المقوس !

كذلك شغلت قضية الموظف النازى « أدولف ايخمان » مطابع العاصمة الانجليزية ، فقد صدرت أخيرا أربعة كتب تعرضت لحياة الرجل .. وتمضى عناوينها كالآتى :

• **ايخمان : حيـاته وجرائمه** (٢٨٨ صفحـة) تأليف « شارلز وايتون » .

• **القبض على أدولف ايخمـان** (١٨٢ صفحـة) تأليف « موشى بيرلمان » .

• **وزير الموت** (٢٤٦ صفحة) تأليف «كوينتين رينولدز» وآخرين .

• **الصياد** (٢٩٩ صفحة) تأليف « توفيا فريدمان » .

وهكذا شغلت القضية أكثر من الف صفحة ، والملاحظ فى معظم هـذه الكتب ان مؤلفيهـا من اليهود ، وقـد عالجوا

الموضوع من وجهات نظر متعـددة ، تجمع فى النهـاية على ضرورة الانتقام من ايخمان !

والغريب فى امر ايخمان أنه لم يحظ فى حياته من قبـل بمكانة مرموقة بين زعماء النازية المعروفين ؛ فقد كان موظفا صغيرا لا يعرفه أحد ، حتى ضحاياه أيضا لم يكونوا يدرون شيئـا عن حقيقـة أمره والدور الملقى على عاتقه ؛ والذى ينحصر فى افناء يهود أوربا ــ وقد كان يعتقد أن القضاء على اليهود يعادل فى الاهمية انتصار ألمانيا على الحلفاء . ومن الطريف فى أمره أنه يتميز بأنف مقوس لا يختلف عن أنف اليهودى ، مما جعل اليهود ينخدعون فى أمره فيحسـبونه واحدا منهم .. وهكذا وجد ايخمان مهمته يسيرة هينة !

أخبار أدبية قصيرة

• **صدر** عن دار « تامز وهدسون » كتاب بعنوان **« يقظة العرب »** من تأليف « فرانشسكو جابرييلى » . وهو حلقة جديدة من سلسلة كتب الثورات الكبرى التى تصدرها الدار . وقد تتبع المؤلف ، الذى يعد حجة فى الشئون العـربية ، تاريخ الحضارة العربية وانهيارها ثم يقظتهـا من جديد ، ملتفتا بصفة خاصة الى أحداث السنوات الستين الماضية .

• **ومن** مطبوعات جامعة اكسفورد الجديدة كتاب بعنوان : **« دافيـد دافيز : مدير دعاية لنـكولن »** (٣٨٣ صفحـة) الفه « ويلارد. ل. كنج . » وفيه قصة حياة الرجل الذى يدين له ابراهام لنكولن بالكثير ؛ فهو الذى وقف بجانبه فى معاركه السياسية حتى وصل الى كرسى رئاسة الجمهورية . وقد حافظ دافيز على صلته الوثيقة بأسرة لنكولن ، وظل نصيرا لافرادها بعد مصرع لنكولن ، اذ كان له فضل كبير فى شفاء « ماري تود » من الصدمة العصبية التي انتابتها على

اثر وفاة زوجها ، كما ناصر « روبرت » ابن لنكولن ، وجاهد الى جواره حتى تم تعيينه وزيرا للحرب في وزارة الرئيس « جارفيلد » .

وقد تعرض المؤلف فى هذا الكتاب الضخم الى جوانب كثيرة من حياة الرئيس الامريكي لنكولن ، كذلك قضى على بعض الشائعات التى تواترت عقب مصرعه ، مما يجعل الكتاب فريدا فى بابه .

• **صدر** عن دار « الن وانوين » كتاب جديد بعنوان : **« المسيح وفرويد »** من تأليف « آرثر جويردهام » .

• **ظهرت** فى السوق الانجليزية ترجمات كثيرة لكتاب فرنسيين وايطاليين والمان . وقامت دار بنجوين بطبع مؤلفاتهم بأغلفة برتقالية اللون . ومن بينهم : سارتر ، مالرو ، برخت ، ايزاك بابل ، كامى ، مورافيا .

• **أثارت** الكاتبة «وينفرد جيرين» اهتمام المثقفين الانجليز ومعلقى الصحف الأدبية بكتابها الجديد الذى ترجمت فيه لحياة « برانويل برونتى » شقيق الشقيقات « برونتى » الثلاث المعروفات فى عالم الأدب . وقد سبق لجيرين أن أصدرت ترجمة لحياة « آن برونتى » .

• **دارت** معارك أدبية حامية حول مسرحية جديدة أعدها « جون وايتنج » عن قصة لألدوس هكسلى ، وعنوانها : « الاشرار » . وسبب الخلاف ينحصر فى اعتقاد بعض المشتغلين بالمسرح بضرورة تحويل الآثار القصصية الممتازة الى مسرحيات ، بينما يعتقد البعض الآخر ان من الأجدى صرف الجهود الى التأليف المسرحى المحض .

والآن ، تعال نغادر (لندن) كي نتابع الحركة الثقافية فى .. نيويورك .

رسالة نيويورك يقدمها : على شلش

ولئن كانت باريس ولندن تتصدران مراكز العالم الثقافية، فان نيويورك لاتقل عنهما ، بل انها تبزهما فى بعض المجالات . ويكفى أن نذكر أن دور النشر الامريكية لها من النفوذ والامكانيات ما للهيئات الرسمية من نفوذ وامكانيات . بل ان نظام التفرغ الذى أخذت به وزارة الثقافة العربية ، وطبقته فى بلادنا ، تطبق مثيله دور النشر الأمريكية ، بعيدا عن الاجراءات الحكومية . ذلك أنها تقوم أحيانا بتكليف عدد من الكتاب والمفكرين ، كل حسب اختصاصه ، باعداد مؤلفات فى نواح تقترحها اللجان الثقافية بها . وتوفر لهم ، مقابل ذلك ، كل مايحتاجونه من مال فى حياتهم اليومية ، حتى يتفرغون لأداء مهمتهم .

وقد انتقينا لك عددا من الكتب التى صدرت فى نيويورك هذا الشهر ، نقدمها لك بايجاز فيما يأتى :

الموهبة المجهولة ..

• **برانويل برونتى وعالمه الحافل بالعذاب** (٣٣٦ صفحة) ـ تأليف : دافنى دى مورييه . عن دار (دبلداى) .

ما من أحد يجهل الشقيقات « برونتى » ، لكن القليلين هم الذين يعرفون عن هذه الأسرة الموهوبة أنها ضمت ، الى جوار عبقرياتها النسوية ، عبقرية أخرى تمثلت فى شخص شقيقهن « براتويل » .

ومن محاسن الصدف ، أو لعلها من دلائل المنافسة بين لندن ونيويورك ، أن يصدر فى شهر واحد كتابان يتناولان حياة هذه الشخصية التى خفيت عن الناس زمنا طويلا .

وقد أشرنا فى رسالة لندن الى الكتاب الاول . أما هذا الكتاب الذى صدر فى نيويورك فهو يعالج حياة هذا الفتى أيضا ، ويلقى عليها أضواء جديدة ، بل وتمتاز بأن كاتبته هى الروائية المشهورة « دافنى دى مورييه » مؤلفة القصة العالمية (ربيكا) ، وعشرات من القصص الاخرى المعروفة .

والواقع ان « برانويل برونتى » لم يكن أقل من شقيقاته حماسة للكتابة والخلق الفنى ، فقد عرف بغزارة الانتاج فى سن مبكرة ، حتى انه فاقهن جميعا عندما بلغ الحادية والعشرين من عمره ، اذ كان قد سطر بقلمه مخطوطات عديدة متنوعة فى المسرح والقصة والشعر . لكن هذا الانتاج الغزير لم ير النور للأسف ، فقد ظل طى الكتمان ، يعلوه التراب ، الى ان تنبه له الدارسون ونقاد الأدب .

وشخصية « برانويل » تمثل ، فى الواقع ، شخصيةالفتى



صورة نادرة رسمها « برانويل برونتى » بريشته ، تمثل شقيقاته الثلاث وقد جلسن من حوله ، وتظهر فيها ((آن برونتى)) الى اليمين ،

المراهق ، المضطرب ، القلق ، المعذب النفس . ذلك أنه وجد نفسه ضائعا منذ نعومه أظفاره ، فجرفته رفقة السوء الى اللهو والعبث ، واستسلم فى النهاية للخمر والمخدرات ، حتى ضعف جسمه ، وأخذ يتحلل شيئا فشيئا ، الى ان توفى فى سن الحادى والثلاثين ، تاركا وراءه ثروة فنية ، لاتتمثل فى انتاجه فحسب ، وانما تتمثل أيضا فى انتاج شقيقاته اللواتى نهلن من عبقريته ، وشخصيته الملهمة الجذابة .

وتذكر مؤرخته عبارة قصيرة خلفها بعد وفاته . وهى رغم تركيزها وقصرها تلقى ضوءا على حياته ، بل انها تلخص هذه الحياة . يقول برانويل : « ان مامضى من حياتى فارغ وسخيف ، فأنا لم أفعل شيئا ، عظيما كان أم طيبا »

ومن الجوانب الهامة فى حياة هذا الفتى التعس انه هوى الرسم أيضا فى صباه ، لكنه فشل فى الالتحاق بكلية الفنون الملكية ، كما فشل فى الوظائف الصغيرة التى التحق بها . والحق أن برانويل قد عاش حياته قلقا ، مهيض الجناح ، ولعله أيضا قد مثل الطراز الذى عاشه فتيان وربما بعد سبعين عاما فى فترة مابين الحربين ، مع اختلاف الظروف وتباين المشكلات . ولهذا يجد قارىء أعماله وتاريخه سمات حديثة كثيرا مايجدها فى أبطال الكتاب الوجوديين من أمثال سارتر وكامى ، وربما كيركجارد أيضا .

الكاتب الأمريكى الذى يعشقه الروس !

• **لقاء فى الظهيرة** • (٣٦٠ صفحة) ــ تأليف : ميتشل ويلسون ــ عن دار (دبلداى) .

رغم ان كاتب هذه الرواية غير معروف فى بلاده ، الا انه **يقرأ على نطاق واسع فى الاتحاد السوفييتى ، وهم يضعونه**

هناك على قدم المساواة مع الروائى المعروف «همنجواى» !

وقد احترف ويلسون (٤٧ سنة) الكتابة قبيل الحرب الثانية ، أثناء اعداده لرسالة الدكتوراه فى الطبيعيات من جامعة كولومبيا . وربح من كتبه التى ترجمت الى الروسية نحو ٢٠ ألف دولار ، بالاضافة الى ربحه من روايته الأخيرة الذى قدر بنحو ١٥ الف دولار . ومما يذكر انه قضى فى الاتحاد السوفييتى ستة شهور على نفقته الخاصة قبل أن يكتب روايته هذه ، وكان قد تعلم اللغة الروسية قبل مغادرته لبلاده .

وبطل رواية ويلسون عالم أمريكى لامع من علماء الطبيعة والذرة ، سافر الى موسكو لحضور مؤتمر علمى . وهناك تعرف الى عالم روسى يعادله علما ومكانة ، لكنه لم يصل الى ما وصل اليه هو من انتصارات علمية . وارتحل رينيت (وهذا اسمه) الى القوقاز . ثم أحس بالحب يجرفه نحو فتاة روسية كانت تعمل سكرتيرة له . .

وبالقصة بعد هذا الحاح على أن العلم ملك للأمم جميعا ، بغض النظر عن اختلاف نظمها وعقائدها ، وانه ، أى العلم ، قد خلق لنفع الناس ، والعمل على اتاحة فرص السلام والطمأنينة أمامهم .

لكن لماذا يعشق الروس الكاتب الأمريكى ويلسون ؟ ولماذا احتفوا به ، وترجموا أعماله ، وقدموه فى برامج التلفزيون والاذاعة ؟ . . تجيب على هذه الأسئلة فتاة روسية تعمل فى السياحة بقولها : « انه يحيطنا علما بكثير مما لم نكن نعرفه عن امريكا . وهو يجعل العلماء انسانيين فى طبائعهم ومعاملاتهم . فهم يغازلون ، ويقعون فى الغرام ، كما يهجرون ، ويقاسون عندما تقابل عواطفهم بالصد والهجر ، كما يهتزون طربا عندما يلاقون قبولا . . انهم مثلنا . »

أخبار أدبية قصيرة

• **على رأس** قائمة الكتب التى تجد رواجا كبيرا هذا الشهر قصة للكاتب شوارز بارت عنوانها : « آخر العادلين »

• **من بين** الكتب التى تقرأ الآن فى أمريكا هذه العناوين :

« منتصف القرن » : رواية من تأليف الروائى المعروف « جون دوس باسوس » . وتعد أعظم رواية كتبها بعد ثلاثيته الأخيرة : « الولايات المتحدة الامريكية » .

• **« المقاومة والعصيان والموت »** : كتاب للاديب الفرنسى الذى لقى مصرعه فى العام الماضى : « البير كامى » ، وقد عالج فيه مشكلة الجزائر ، وموضوعات أخرى .

• **صدرت** عن دار (هاربر) رواية جديدة ممتعة بعنوان « قضية جوفيه » فى ٤٣٢ صفحة ، للكاتب الالمانى المغمور « يواكيم ماس » (٦٠ عاما) . ومما يجدر بالذكر ان كتابة هذه الرواية قد استغرقت منه ثلاثةعشر عاما . وقد أخذها مؤلفها عن جريمة وقعت بباريس عام ١٨٨٩ ، قتل فيها باريسى يدعى « جوفيه » ، وكانت قد أوقعت به غانية حسناء تدعى « جابريل بومبار » ، بمساعدة شريك لها ، فحكم باعدام الشريك ، أما هى فأخلى سبيلها ! .. واذ ذاك هاجرت الى أمريكا : حيث تعقبها زوج شقيقة القتيل ، كى يقتص منها .. لكنه لم يلبث ان وقع فى هواها ، وفى النهاية خدعته مع فتى رقيع من فتيان المزرعة ! .. وهنا يحاول أن يعزى نفسه بقوله : « ان الذئبة « ديمقراطية » ، لايهمها السن ، ولا المركز ، ولا الثراء .. مادامت تستطيع ان تلحق الاذى بالرجال ! »

من الكتب العربية

سيكولوجية المقابلة

تأليف : والتر فاندايك بنجهام وبروس فيكتور مور
ترجمة : فاروق عبد القادر وعزت اسماعيل
ومراجعة : الدكتور مختار حمزة
الناشر دار النهضة العربية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ١٩٦١
عدد الصفحات ٣٢٨

تقديم : الدكتور محمد توفيق رمزى

دعاني زميل فى احدى الوزارات لمعاونته فى مقابلة الناجحين فى الاختبار التحريرى لشغل الوظائف الخالية باحدى ادارات تلك الوزارة . وأذكر أن عدد الناجحين فى الامتحان التحريرى العسير الذى عقد لهذا الغرض كان حوالى الاربعين من بين أكثر من مائتى مرشح مستوف للشروط ، وكانت الوظائف الخالية لاتزيد على سبع وظائف .

وكان علينا أن نفكر فى القواعد التى سنبنى عليها مقابلتنا لكل فرد من المرشحين الاربعين ، بحيث يكون وزننا للجميع فى اطار عام واحد من المعايير والمقومات ، توخيا للعدالة وخدمة للصالح العام باختيار أكثرهم استحقاقا ومواءمة للوظائف المطلوبة . وأذكر اننا قررنا أن نعطى درجة لكل سمة من السمات التى اتفقنا على ادخالها فى تقدير الشخصية ، وان نضيف درجة الاختبار الشخصى الناتج عن المقابلة الى الدرجة التحريرية ، بشرط ألا نطلع على الدرجة التحريرية الا بعد نهاية المقابلة مع الطالب واعطائه تقديرا بعيدا عن التأثر بما أثبت من جدارة فى اجاباته التحريرية . وأن نرتب

المرشحين فى النهاية بالتدرج من أعلى الى أسفل حسب المجموع العام لكلا الامتحانين .

يظهر من هذا المثل الواقعى ان المقابلة أو بعض المقابلات على أقل تقدير يمكن أن تعنى فى حياتنا الفرق بين النجاح والفشل فى تحقيق أهدافنا فى الحياة ، وبالتالى لها هذا التأثير الفعال فى حاضرنا ومستقبلنا .. بل لايستبعد أن حاضرنا هذا قد تأثر الى درجة ما بما واجهنا من مقابلات سابقة لتحقيق ما كنا نرمى اليه من أهداف ، سواء أكان ذلك للحصول على وظيفة ، أو لاقناع الآخرين بوجهة نظرنا ، أو لادلائنا بشهادة تمس الغير أو تمسنا .. الى آخره من المناسبات العديدة المتباينة التى تواجهنا الحياة بها .

ويعد الناس أنفسهم للمقابلة بوسائل عديدة : البعض منها يقوم على أساس من علم وفن ، والبعض منها يقوم على خرافات أبعد ما تكون عن وسائل العلم وان كان الدافع اليها لايخلو من ذكاء ، وقد نرمى بالجهالة الرجل الذى يحمل حجابا أو طلسما لكى يكون فى وجهه قبول عند مقابلاته ، ولكن علينا أن نعترف بأن ذكاءه الفطرى قد دفعه الى تقدير أهمية ما يترتب على هذا القبول من نتائج ، حتى وان كانت الوسيلة التى لجأ اليها لاتمت الى العلم بصلة أكيدة .

وللمقابلة مدلول يكاد يكون له شبه الاجماع عند النفسيين والتربويين والاجتماعيين ورجال الاعمال ، فليست كل محادثة مقصودة أو عابرة بين اثنين بمقابلة ، انما المقابلة هى « المحادثة الجادة الموجهة نحو هدف محدد ، غير مجرد الرغبة فى المحادثة لذاتها » . والمقابة لاتنحصر فى مجرد الكلام بين الموجه للمقابلة والعميل ، وانما تدخل فيها وسائل أخرى تقوم على الاتصال المباشر ، منها : خصائص الصوت ، وطريقة

الالقــاء ، وتعبيرات الوجه والعينين ، والهيئة ، والايمــاء ، والسلوك العام ، والتصرف خلال المقابلة ، كل هذه عوامل مؤثرة فى الحكم ، الى جانب الموضوع الذى من أجله أعدت المقابلة .

ونظرا لما وضح من أن المقابلة تقوم بدور يزداد أهمية فى حياتنا الحديثة التى تتطلب كثيرا من الاتصالات الشخصية وتتأثر بها ، لذلك كله فقد قام الباحثون العلميون والنفسيون بالذات بتكريس الجهد لدراسات علمية منطقية فى موضوع المقابلة .

والكتاب الذى نقدمه هنا هو احسن ما قرانا فى الموضوع، اذ ان مؤلفيه « بنجهام ومور » كرسا جهدا كبيرا امتاز بعمق التفكير وأصالته فى معالجة الموضوع من جميع نواحيه ، كما وضعا خلال الاعوام الثلاثين التى انقضت منذ تأليفهما الكتاب ، نتائج بحوثهما موضع التجربة فأثبتا نجاحا يشجع على اتساع نطاق التطبيق ومساندة ما جاء بهذا الكتاب من نظريات وارشادات تفيذ كل من يلجأ الى المقابلة كوسيلة لتحقيق أهدافه .

وبديهى أن البعض من هؤلاء قد وضــع لنفسه خطة ــ شعورية كانت أو لاشعورية ــ للنجاح فيما يرمى اليه من وراء مقابلاته ، وأن تجاربه العديدة قد دلته على الطــرق الفعالة المؤدية الى نجاحه فيما يرمى اليــه ، بل أن معيــار النجاح هو النجاح نفسه، وان تباينت المهن وأوجه النشاط . ومنها على سبيل المثال : الباحث الاجتماعى ، وصــاحب العمــل ، وطالب الوظيفة ، ورجل الصــناعة والاعمــال ، والتاجر ، والبائع ، والطبيب ، والنفسانى ، والسياسى ، والدبلوماسى ، والمحامى ، والمستشار القانونى ، والمستشار الفنى ، وضابط البوليس ، والمحقق ، والمدرس ، والصحفى .

كل هؤلاء تؤثر فى مقاديرهم أساليب المقابلة الناجحة ، وربما كان صحيحا اذا قلنا ان أى انسان راشد مهما تواضع عمله أو وظيفته يؤثر ويتأثر ببعض المقابلات حتى وان لم تكن جزءا من نظام عمله ، أو وسلية من وسائل زيادة فعاليته .

ولقد تناول الكتاب معظم الأغراض التى من أجلها تقوم المقابلة . كما أوضح الكثير من المزالق التى ينبغى تلافيها ، وذكر العوامل المعقدة المتعددة التى تؤثر فى كل المقابلات سواء أكانت واضحة أم غامضة ، وشرح بجلاء ومقدرة الدوافع لتعبيرات الارتياح والوجوم والاتجاهات والسلوك الانفعالى خلال المقابلة ، وأوضح كيف يمكن التغلب على المواقف الصعبة خلال المقابلة .

وللمقابلة الشخصية وظيفة من ثلاث وظائف رئيسية :

فهى تستخدم للتأكد من المعلومات ، وللارشاد ، والتأثير او الدفع والحفز . **ويرتبط بالوظيفة الاخيرة ارتباطا وثيقا بالاستخدام العلاجى للمقابلة فى مساعدة شخص على ان** يخفف عن نفسه ويتغلب على الانفعالات النفسية التى تراكمت وتعقدت حتى أخذت دورا مرضيا يهدد ببعده عن الاتزان والصحة العقلية .

وأوضح الكتاب أن الفكرة الشائعة عن أن القائم بالمقابلة يجب أن يتصف بالدهاء والحيلة وأن يضع نفسه موضع المحقق أو المدرس أو الواعظ أنما هى فكرة خاطئة ، وأن أنجع السبل لتحقيق النجاح هى صفات الكياسة وعمق التفكير مع جلائه والاستمساك دائما بمبدأ الصراحة والوضوح ، فتلك هى الأسس المؤدية الى التفاهم المتبادل والى تفتح عقل العميل ونفسه واظهاره لمكنونات نفسه .. وأوضح أيضا بنفس الجلاء **خطأ الانطباع الذى شاع فى أذهان الناس امدا**

طويلا بأن التنبؤ بسلوك الناس ومقدرتهم أمر ميسر بمجرد ملاحظة شكلهم الجسماني وملامحهم ، كافتراض ان الفك العريض يعني الاصرار وقوة الارادة ، وعكسه يعنى الضعف والتردد ، الى غير ذلك من النظم التى شاعت عن الفراسة فى تحليل الشخصية والتى قامت على وجود عوامل ارتباط بين السمات العقلية والخصائص الجسمانية وشكل الجمجمة واللون وتفاصيل الملامح . وهذه وان كانت وسائل لايعتمد عليها العلم الحديث الا أنها كانت محاولات شبه علمية لجأ اليها المفكرون فى محاولتهم للوصول الى الحقيقة بالوسائل التى كانت ميسرة لهم فى وقتهم ، لذلك لا يجوز لنا أن نهمل هذه المحاولات الدراسية شبه العلمية وأن نقول انه لاتوجد على الاطلاق خصائص خارجية للجسم أو للوجه أو للرأس يمكن بها الحكم بمقياس دقيق على القدرة العقلية أو السمات الاجتماعية للشخص ، ولكن يبدو أن من الأسلم أن نقول انه لاتوجد خصائص تشريحية محددة للجسم أو لأى عضو به يمكن بها تقدير خصائص أو سمات الشخصية بتلك الدرجة من الدقة التى يتطلبها العلم الحديث ، ومن الخير أن يركز الباحث العلمى على دراسة السلوك الحقيقى كأحسن قائمة للشخصية ، واستخدام المقابلة كوسيلة للملاحظة والتحقق من سمات السلوك التى يود أن يتكشفها ، ولتحقيق ذلك كله نصح المؤلفان أن يستمسك القائم بالمقابلة بأهداب الاتزان النفسى والحياد والبعد عن الافكار المتأصلة أو المترسبة فى عقل القائم بهذه العملية الهامة .

وقد عالج الكتاب فى صفحاته التى تزيد على الثلاثمائة **الاغراض** التى يثبت فيها ويتيسر لها استخدام المقابلة .. **والحاجات** فى البحث عن الحقائق التى يمكن أن تفيد فيها المقابلة أحسن من غيرها من المناهج الأخرى المتاحة ..

والمساعدات الخاصة التى قام بها كل ميدان من ميادين المقابلة لفهم وضبط المقابلة فى عمومها .. **ومبادىء المقابلة** التى يمكن صياغتها .. **والقواعد الخاصة** التى يمكن وضعها مثل تلك التى تحكم أسلوب الاسئلة حتى لا تكون غامضة أو مضللة .. **والاخطاء الشائعة** أو « مطبات » المقابلة ، والاحتياطات التى يجب اتخاذها لتجنب ذلك. **وأخيرا** كيف يمكن للقائمين بالمقابلة أن يدربوا أحسن تدريب أو يدربوا أنفسهم لكى يحققوا بنجاح الاعمال التى سيقومون بها .

وان المترجمين ، وكلاهما من خريجى قسم الدراسات النفسية، قد بذلا جهداً موفقا مشكورا فى نقل أفكار المؤلفين بصدق وجلاء وسلاسة فى التعبير مما يكفل أن يفيد هذا الكتاب قارىء العربية كما أفاد الأصل بالانجليزية أبناء ثقافتها .

استقاء الانباء فن

(صحافة الخبر)

تاليف : ستانلى جونسون ، جوليان هاريس ـ ترجمة : وديع فلسطين ـ تقديم : محمد زكى عبد القادر ـ الناشر : دار المعارف ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

مما لا شك فيه أن الصحافة ظاهرة حضارية فى القرن العشرين، يجب تنبيه الاهتمام اليها.. وهذه المهنة لايجب نمارسهابالاحساس بل يجب آن نحصلها بالمعرفة والدراسة..

والكتاب دراسة هامة فى هذا المجال تشرح بالتفصيل كيفية استقاء الخبر وعرضه وتقديمه للجمهور بأحسن صورة .. وهو لا يقف عند الحدود النظرية بل يهتم بكل المشاكل العملية التى تعترض الصحفى .

ومؤلفا الكتاب : الأول كان أستاذا للصحافة بجامعة تنيسى ، والثانى كان أستاذا بنفس الجامعة وهو يعمل الآن مديرا لادارة العلاقات العامة ..

وقد زاد هذا الكتاب قيمة فى ترجمته العربية ، أن تفرغ له الأستاذ وديع فلسطين الأديب والصحفى المعروف ، فقد جاءت ترجمته دقيقة تتابع النص الأجنبى متابعة امينة .

وقد قدم الكتاب الصحفي القدير محمد زكى عبد القادر ، ويكفى هذا الاسم حتى نتبين ما للكتاب من اهمية .. ويقع الكتاب فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وثمنه ٧٠ قرشا



نشوء الفكرة القومية

في أوربا عامة .. وفي ألمانيا ... والبلقان .. وتركيا .. والبلاد العربية

للفيلسوف العربي المعاصر " ساطع الحصري "

تلخيص : زكي شنودة المحامي

كتاب على مستوى عالمى !

هذا الكتاب القيم يضم مجموعة محاضرات القا
الفيلسوف العربى « ساطع الحصرى » فى قا
الجمعية الجغرافية بالقاهرة بدعوة من كلية الآدا
خلال عام ١٩٤٨ . وقد تناول فيها « نشوء الفكر
القومية » منذ أوائل القرن التاسع عشر فى أوروبا
فى البلاد العربية ، ودلل فيها على أن « الفكر
القومية» هى الأساس الطبيعى الذى تقوم عليه الدول
فالدولة التى لا تقوم على هذا الأساس لاتلبث أن
تنهار ، بينما الأمم التى تجمع بينها الفكرة القومية
لاتلبث ــ مهما باعدت بينها الاحداث والمطامع ــ أن
تتقارب ثم تندمج فى دولة واحدة .

وكأنما كان ذلك الفيلسوف يتنبأ بظهور نجم بطل
القومية العربية جمال عبدالناصر ، حين بشر بهذا المبدأ
ودعا البلاد العربية الى اعتناقه ، فقد نادى فى ختام
محاضراته البليغة بأن « الغلبة ستكون فى آخر الأمر
لفكرة القومية العربية » .. وكأنه كان يعلم أن القدرة
الالهية تدخر للعروبة زعيما يظهر بعد أربع سنوات من
تلك النبوءة ، ويقود العرب تحت راية واحدة
ليجعل منهم أمة واحدة ، تجمع بين ابنائها ــ من الخليج
العربى الى المحيط الأطلسى ــ « فكرة القومية العربية

نشوء الفكرة القومية

قيام الدول على أساس الفكرة القومية

منذ عقد مؤتمر (فيينا) المشهور ، عام ١٨١٥ ، طرأ على
أوضاع أوروبا السياسية من التطورات مالم يسجل

التاريخ مثيلا من قبل : ففى مكان **السلطنة العثمانية** التى كانت تشغل القسم الجنوبى الشرقى من أوروبا ، نجد **ست دول** مختلفة . وفى مكان **عشرات الدول** التى كانت تشغل القسم الغربى الأوسط من أوروبا نجد **دولة واحدة هى المانيا** .. وفى أثناء ذلك **انقرضت امبراطورية النمسا ، وتكونت دولة ايطاليا** من عدة دويلات صغيرة .. كما تولدت دول عديدة على أساس الانفصال عن بعض الدول القديمة : فانفصلت **بلجيكا** عن هولندا ، **والمجر** عن النمسا، **والنرويج** عن السويد ، و **فنلندا** عن روسيا ، و **ايرلندا** عن انجلترا . كما استقلت **اليونان وبلغاريا ورومانيا والبانيا** عن الدولة العثمانية . وتكونت ثلاث دول على أساس الانفصال من جهة والاتحاد مع جهة أخرى : فقد تكونت **يوغوسلافيا** من أراض كانت منقسمة بين الدولة العثمانية والامبراطورية النمساوية .. كما تكونت **تشيكوسلوفاكيا** من أراض كانت موزعة بين المانيا وروسيا والنمسا . وعادت **بولونيا** الى الحياة عن طريق استقلال واتحاد أجزائها الثلاثة ، التى كانت تحت سيطرة الدول الثلاث المذكورة .

وقد تمت جميع هذه التحويلات والانقلابات الدولية العظيمة خلال قرن واحد ، **وكان العامل الأساسى فى وقوعها هو نشوء ((الفكرة القومية)) ، وتغلغلها فى نفوس الشعوب . وأساس هذه الفكرة هو قيام الدول على اساس القوميات .**

وقد كان مفهوم الدولة قبل ذلك يرتبط بمفهوم ((الملك)) تمام الارتباط ، ومنفصلا عن مفهوم ((الأمة)) كل الانفصال . فكانت الدولة ملكا للملك ، تخضع لمشيئته خضوعا مطلقا لا يقيده أى قيد . ومن ثم كان لويس الرابع عشر ملك فرنسا يقول ((**الدولة أنا**)) ، وكان هذا لسان حال ملوك أوروبا جميعا . وكانت الشعوب من العناصر المهملة التى

لا شأن لها على الاطلاق فى أى أمر من الأمور . وقد استقر فى الاذهان « ان الملوك يحكمون البلاد بتفويض وتخويل من الله » فمن يخالف أمر الملك انما يعصى الله !

الشعب مصدر السلطات ..

غير ان المفكرين ما فتئوا ان توصلوا الى نظرية « الحق الطبيعى » المنبثق من الطبيعة البشرية والحياة الاجتماعية ، ومن ثم قالوا ((**ان مصدر جميع السلطات هو الشعب**)) . وكان هذا المبدأ يحتوى بذور مبدأ خطير آخر ، هو مبدأ « حقوق القوميات » ، لأنه بعد التسليم بأن الشعب هو مصدر جميع السلطات ، كان من الطبيعى أن تتبادر الى الاذهان سلسلة أسئلةهامة : فما هو الشعب ؟ وممن يتألف ؟ وكيف يظهر مشيئته ؟ وبأية طريقة يستعمل سلطانه ؟ وقد انتهوا من ذلك الى القول بأن من حق كل أمة من الأمم ان لا تخضع لحكم أمة أخرى وأن تؤلف دولة خاصة بها تكون فيها مصدر السلطات بأجمعها ، فلا تصبح ضحية تحكم جماعة غريبة عنها . ولذلك أخذت الأمم تشعر بكيانها الخاص وتنزع الى تقوية هذا الكيان ، فصارت لا تعبأ كثيرا بالحدود السياسية التى تفصل الدول القائمة بعضها عن بعض ، **بل أخذت تسعى تارة الى الانفصال عن الدولة التى تحكمها ، لتأليف دولة مستقلة عنها ، وتعمل طورا للاتحاد مع فروعها المنتسبة الى دول أخرى لتكوين دولة موحدة تجمع شمل الأمة بأجمعها** ، وهذا ما أوجب الانقلابات السياسية الخطيرة التى ذكرناها . **ومن ثم سارت فكرة** « حقوق القوميات » سيرها الطبيعى ، ووصلت الى نتائجها المحتومة ، وأعادت بناء الدول الاوروبية على أسس جديدة تختلف عن أسسها القديمة اختلافا كليا .

ولكن ما هى العناصر التى تتكون منها القومية وتتـألف منها الأمة ؟

وحدة اللغة .. والتاريخ

يظن البعض ان كل أمة من الامم تنحدر من أصل واحد . الا انه ظن غير صحيح : لأن جميع الابحاث العلمية لا تترك مجالا للشك فى أنه لاتوجد على وجه البسيطة أمة تنحدر من اصل واحد حقيقة . ومع ذلك فثمة عوامل كثيرة توحى بهذا الظن : **وأهمها وحدة اللغة ، والاشتراك فى التاريخ .**

فاللغة هى أهم الروابط المعنوية التى تربط الفرد بغيره من الناس ، لانها توجد نوعا من الوحدة فى الشعور والتفكير، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية ، فيؤلفون بذلك أمة متميزة عن غيرها من الأمم . وعلى ذلك فاذا أضاعت أمة لغتها ، وصـارت تتكلم بلغـة أخرى ، تكون قد فقـدت الحيـاة واندمجت فى الأمة التى اقتبست عنها لغتها الجديدة . فاللغة هى روح الأمة وحياتها، وهى بمثابة محـور القوميـة وعمودها الفقرى ، وهى أهم مقوماتها ومشخصاتها .

وأما التاريخ ، فهو بمثابة شعور الامة وذاكرتها : فان كل أمة من الامم انمـا تشـعر بذاتها وتتعرف الى شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص . والذكريات التـاريخية تقـرب النفـوس وتوجد بينها نوعا من القـرابة المعنـوية . والأمة المحكومة التى تنسى تاريخهـا الخاص ، تـكون قد فقـدت شعورها ووعيها . ولذلك نجد ان الأمم المستولية والحاكمة تعمد قبل كل شىء الى مكافحة تاريخ الأمة المحكومة وتبذل ما استطاعت من الجهود لاقصاء ذلك التاريخ عن الاذهان . وأما اليقظات القومية ــ بعد عهود الحكم الأجنبى ــ فتبـدأ

عادة بعكس ذلك ، بتذكر التاريخ القومى ، وبالاهتمام به اهتماما خاصا .

واذن فاللغة والتاريخ هما العاملان الاصليان اللذان يؤثران اشد التاثير فى تكوين القوميات .

وفيما يلى نتكلم عن تاريخ نشوء الفكرة القومية ، حتى نلقى نورا كشافا على تفكيرنا السياسى ، ومن ثم يمكننا التنبؤ بما سيكون عليه مستقبل الفكرة القومية فى البلاد العربية ، وبالتالى يمكننا اصدار حكم صحيح على ما يجب أن يكون عليه سلوك الناشئة العربية ازاء «الفكرة القومية» .

نشوء الفكرة القومية فى المانيا

ان تاريخ الوحدة الالمانية من أهم وأمتع صفحات التاريخ فى القرون الاخيرة : لان المانيا كانت ــ فى العقد الاخير من القرن الثامن عشر ــ منقسمة الى ٣٦٠ وحدة سياسية ، مستقلة بعضها عن بعض استقلالا مطلقا . غير ان عدد هذه الوحدات السياسية ، أخذ يقل شيئا فشيئا ، بسبب اتحاد واندماج بعضها ببعض ، وكان العامل الأصلى فى ذلك هو « نشوء الفكرة القومية » فى المانيا ، وتغلب هذه الفكرة على « فكرة الدولة » القديمة الباقية من القرون الوسطى .

ويبدأ تاريخ الفكرة القومية فى المانيا ــ بصورة واضحة ــ بالحروب النابليونية : فقد كانت المانيا فى أواخر القرن التاسع عشر تتألف من عدد كبير من الدول والدويلات والمدن الحرة ، وكانت كل منها تتمتع بسيادة تامة فى أمورها الداخلية والخارجية . وفى الواقع ، كان هناك ما يسمى ــ بصورة رسمية ــ باسم الامبراطورية المقدسة . ولكنها كانت مجرد اسم ، ولم تكن تتمتع بأى سلطة سياسية حقيقية ، اذ كانت الوحدات التي تشتمل عليها مستقلة استقلالا تاما . ومع

ذلك كانت ألمانيا قد وصلت الى مرتبة عالية جدا من التقدم والرقى فى ميادين العلوم والفنون والآداب ، وكان بين أبنائها عباقرة من أمثال « شيللر » و « جوته » و « كانت » و « هيجل » و « غوس » و « هومبولد » و « فرنر » .. وكان لها عدة جامعات راقية . وبذا كانت المانيا قوية وراقية وموحدة من حيث الثقافة ، على الرغم من كونها ضعيفة ومشتقه ومتأخرة من حيث السياسة .

فرنسا تتنكر لمبادىء الحرية !

هذه كانت حالة ألمانيا عندما قامت الثورة الكبرى فى فرنسا ، وقد قوبلت أخبارها بحماس واستحسان فى محافل المفكرين ، لأنها بدت لهم كفاتحة عهد جديد فى تاريخ البشرية سيضمن الحرية لجميع الأفراد ولجميع الأمم . غير ان الوقائع لم تلبث أن خيبت هذه الآمال ، **ولم تلبث فرنسا التى نادت بانها ستحرر الشعوب ، أن جنحت الى توسيع سلطانها ، والجرى وراء أطماعها ، وقد وصلت هذه الاطماع الى حدها الأقصى بعد تتويج نابليون وتنصيبه امبراطورا على فرنسا** . وقد صارت المانيا اول أهداف هذه الاطماع واشقى ضحاياها ؛ لأن انقسامها الى دويلات كثيرة صغيرة وضعيفة سهل على نابليون أن يتغلب عليها وأن يتصرف فى شئونها كما شاءت أطماعه وأهواؤه : فألحق قسما منها بفرنسا الحاقا مباشرا ، وكون من قسم آخر منها مملكة جديدة سماها باسم مملكة (وستفاليا) ، ونصب أخاه « جيروم » ملكا عليها ، ثم كون دولة اتحادية تجمع عددا غير قليل من الدويلات الالمانية سماها باسم (اتحاد الراين) واعلن نفسه حاميا عليها . ثم هجم على (بروسيا) نفسها ، ودحر جيوشها فى موقعة (يينا) المشهورة ، ثم زحف الى

برلين واستولى عليها ، وأملى على ملك بروسيا ما شاء من الشروط !

وقد كان من الطبيعي أن تولد هذه الكوارث رد فعل شديدا في نفوس الالمان ، **وقد صار الكل يشعرون شعورا واضحا بان هذه الرزايا كانت من نتائج ((فقدان الوحدة القومية)) و ((ضعف الروح الوطنيه))** . ومن ثم تولد في نفوس الالمان تيار قوي جارف من الحماسة الوطنية المقرونة بالرغبة الملحة في الاتحاد ، للتخلص من ربقة فرنسا . وكان مركز هذه الحركة ومحورها في بروسيا ، وقد اندفع الأدباء والشعراء فيها يصورون الرزايا التي ألمت بالبلاد تصويرا مؤثرا ، ويلهبون روح الوطنية ، ويثيرون حب الاستقلال والاتحاد بأشعار حماسية ، واندفع المفكرون والمعلمون يخطبون ويحاضرون ، كما اندفع رجال السياسة يهيئون السبل لحركات الوحدة والاستقلال . وقد كانت القوانين المرعية في بروسيا في ذلك التاريخ تميز طبقات المجتمع بعضها عن بعض تمييزا صريحا فعليا . **وقد أدرك رجال الاصلاح ما في ذلك من منافاة لمقتضيات الوحدة القومية ، فألغوا القوانين المذكورة ، واستعاضوا عنها بقوانين جديدة تزيل هذه القيود ، وتجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة ووطن واحد** . وقام رجال الجيش أيضا بتنظيم الحياة العسكرية على أسس جديدة تماما ، بطريقة تضمن تدريب جميع المواطنين على الحياة العسكرية . وقد استمرت هذه الجهود والتدابير التنظيمية والاصلاحية بدون انقطاع مدة سبع سنوات ، فخلقت في بروسيا روحا جديدة تماما .. حتى اذا ما بدأ نابليون يتراجع عن موسكو ، أقدمت بروسيا على التجنيد العام وكونت بغتة جيشا كبيرا قويا انضم الى جيوش الحلفاء ، وانتصر على الفرنسيين في

معركة (ليبزيج) المشهورة ، فمحا بذلك العار الذى كان قد لحق بالجيش البروسى وبالأمة الالمانية فى موقعة (يينا) .

اختلاف المنتصرين .. بدد الآمال

وكانت الجهود التى بذلها رجال الفكر والسياسة والجيش فى بروسيا تستهدف غايتين أساسيتين : هما تخليص البلاد الالمانية من النير الفرنسى من جهة ، وتوحيدها سياسيا وعسكريا من جهة أخرى . فلما تكللت هذه الجهود باندحار الجيوش النابليونية ؛ تولد فى نفوس الوطنيين العاملين امل قوى فى الوحدة الالمانية أيضا . **الا ان السياسة التى سارت عليها الدول المتفقة ــ بعد الانتصار على فرنسا ــ خيبت آمال هؤلاء . ذلك لأن ساسة الدول المذكورة قرروا تنظيم أوروبا من جديد على أساس « اعادة الحقوق الشرعية الى الملوك »** ، وقد حال ذلك دون توحيد ألمانيا بطبيعة الحال . واستمرت كل دولة من الدول الالمانية الكثيرة تعمل مستقلة عن غيرها تمام الاستقلال . الا ان فكرة الوحدة الالمانية ــ رغم الدسائس ــ ظلت تتغلغل فى النفوس ، وتتحقق شيئا فشيئا ، ومرحلة بعد مرحلة ، متغلبة على جميع أنواع المشاكل والعوائق التى كانت تعترض سبيلها .

وكانت أولى مراحل الوحدة بين الدول الالمانية هى توحيد الجمارك بينها ، وقد تكون « الاتحاد الجمركى » الذى عرف باسم « الزولفراين » بين الدول الالمانية .

الا أن الوطنيين لم يكتفوا بهذه الخطوة ، وانما راحوا يدعون إلى توحيد ألمانيا سياسيا ، وان كانوا قد اختلفوا فى وسيلة ذلك : فأراد بعضهم النظام الجمهورى ، وأراد البعض الآخر النظام الملكى . وهذا الفريق الاخير ، كان بعضه يريد الاتحاد بزعامة أسرة « هابسبورج » ، وهى العائلة المالكة

فى الامبراطورية النمساوية .. بينما كان بعضه الآخر يريد الاتحاد بزعامة أسرة « هوهينزولرن » ، وهى العائلة المالكة فى المملكة البروسية . حتى اذا قامت الثورات الشعبية فى مختلف انحاء أوروبا سنة ١٨٤٨ ، خرجت فكرة الوحدة من ساحة النظريات الى ميدان العمليات : **فقد راى الملوك والامراء ان الحكمة فى مسايرة الراى العام ، ووافقوا على دعوة مؤتمر شعبى عام فى (فرانكفورت) لوضع دستور يسرى على البلاد الالمانية باجمعها** ، وذلك بغية تأسيس دولة المانية تجمع شمل الدول والدويلات القائمة على أراضى جرمانيا القديمة . وقد انتخب أعضاء هذا المؤتمر عن طريق التصويت العام الذى اشتركت فيه جميع الشعوب الالمانية. وقد اتفقت الآراء فى المؤتمر على تكوين حكومة اتحادية فيدرالية على أن تكون « امبراطورية وراثية » ، وأن يقدم تاج « أمبراطورية المانيا الجديدة » الى ملك المملكة البروسية » .

حكومات اوربا ((تبتلع)) وعودها !

ولكن خلال هذه الفترة كانت معظم الحكومات فى أوروبا قد تغلبت على الحركات الثورية فى بلادها ، فتراجعت شيئا فشيئا عما اتفقت عليه فى المؤتمر ، بل ان ملك بروسيا نفسه رفض آخر الأمر ان يقبل تاج الامبراطورية من يد مجلس شعبى . ومن ثم انتهى الأمر بفشل مشروع الامبراطورية الالمانية !

وراحت مختلف الأوساط بعد ذلك تعتبر فكرة توحيد ألمانيا وهماً من الأوهام ، وحلماً من الأحلام . ولكن الوقائع التى حدثت فيما بعد ، برهنت — على العكس من ذلك — على ان هذه التكهنات كانت بعيدة عن الصواب ، لأن ايمان

القائلين بالوحدة الالمانية لم يتزلزل من جراء فشل مؤتمر فرانكفورت ، بل ظلوا يؤمنون بها ويعملون من أجلها ، الى ان تكللت مساعيهم بالنجاح وتحققت الوحدة الالمانية بصورة فعلية ، بعد مرور عقدين من السنين على محاولة فرانكفورت الأليمة .

دور الادباء فى تحقيق الوحدة

ولقد كانت العوامل والأعمال التى ساعدت على تحقيق الوحدة الالمانية كثيرة ومتنوعة : **وكان من أهمها الأشعار والمقالات والدروس والخطب التى كانت تصدر بدون انقطاع من أقلام الشعراء والكتاب والأساتذة والخطباء .** كما أن الأعمال والتدابير الاقتصادية والسياسية والعسكرية لعبت دورا هاما فى هذا المضمار . وكان لربط البلاد بالسكك الحديدية أثر عظيم كذلك .

وأما الأسباب التى كانت تحول دون تحقيق الوحدة على الرغم من انتشار الايمان بها والاعتقاد بضرورتها ، فيمكن ان تتلخص فى الأمرين التاليين :

أولا : أنانية الملوك والأمراء الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على السلطان الذى يتمتعون به .

ثانيا : دسائس بعض الدول الأجنبية ، ولا سيما الدولة الفرنسية ، لتقوية النزعات الاقليمية فى مختلف البلاد الالمانية : بقصد الحيلولة دون قيام دولة المانية قوية على حدود فرنسا الشمالية .

ولقد أدرك رجال الفكر والسياسة فى مختلف البلاد الالمانية تمام الادراك أن اتحاد بلادهم لا يمكن أن يتحقق الا بعد تذليل هذه العقبات الأساسية ، فأخذوا يعملون فى سبيل ذلك عملا متواصلا بحركة وتصميم [illegible] وثبات . وقد رأوا من الحكمة أن يختاروا «النظام الفدرالى» ليتركوا

للملوك والأمراء شيئا من حقوقهم وسلطانهم ، فيضمنون بذلك عدم معارضتهم لمشروع الاتحاد معارضة قوية قد تصل الى درجة الإستماتة . كما رأوا من الضروري أن ينشئوا جيشا قويا ، ليضعوا بواسطته حدا للدسائس والمؤامرات . وكانت هذه الخطط العملية تتطلب جهودا جبارة للغاية ، وما كانت هناك دولة تستطيع أن تأخذ على عاتقها مهمة تنفيذ هذه الخطط ، سوى المملكة البروسية . ولذلك أصبحت هذه الدولة قبلة آمال جميع القوميين الألمان ، فاحتشدت هناك جميع القوى المفكرة والفعالة من مختلف أنحاء البلاد الألمانية ؛ سيما بعد أن آلت الزعامة السياسية في بروسيا الى شخصية « بسمارك » القوية . فان هذا الرجل العبقري ، عند ما تولى رئاسة الحكومة البروسية ، كان قد ألم بكل ما يتصل بقضايا الوحدة الألمانية ، ومن ثم وضع خططه السياسية على ضوء اطلاعاته الواسعة . وصار ينتهز الفرص ، لتقريب وجهات النظر بين مختلف الدول الألمانية من جهة ، وللقضاء على تأثيرات الدسائس الأجنبية من جهة أخرى ، وعمل عملا متواصلا ، لرفع مكانة بروسيا بين الدول الألمانية ، تسهيلا لاجتماع الكل تحت زعامتها السياسية والعسكرية . **وقد أدت الجهود التي بذلها بسمارك الى اتفاق سبع وعشرين دولة من الدول الألمانية على تأليف دولة اتحادية تحت زعامة العائلة المالكة البروسية .**

وفي هذه الاثناء حدثت الأزمة السياسية التي عرفت باسم ازمة العرش الأسباني ، والتي انتهت بأن أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا ، وهزمت فيها شر هزيمة ، اذ أسرت الجيوش البروسية نابليون الثالث امبراطور فرنسا وزحفت على باريس ، فاضطرت فرنسا الى التسليم بشروط بروسيا ؛ وكان لهذا النصر الذي أحرزته بروسيا أثرا عظيما في بقية

الدول الألمانية التي كانت تعارض في الاتحاد . فلم يعد ثمة مانع يحول دون اعلان اتحاد جميع الدول الألمانية وتنصيب ملك بروسيا وتتويجه امبراطورا على المانيا الاتحادية . وقد تم ذلك في قصر فرساى الشهير القائم في ضواحي العاصمة الفرنسية في ١٨ يناير سنة ١٨٧١ . وهكذا تحققت وحدة المانيا وتأسست الامبراطورية الألمانية . بعد جهود دامت مدة طويلة تقرب من سبعين عاما .. **وقد كانت وحدة ألمانيا أكبر الانتصارات التي أحرزتها الفكرة القومية في القرن التاسع عشر .**

« وفي العدد القادم نوالي نشر بقية هذه المحاضرات الممتعة» عن الفكرة القومية في بلاد اليونان وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا والبانيا وتركيا .. والبلاد العربية





يقدم لك فى عدده القادم فى اوائل ابريل

١ ــ مسرحية ((تنيسى وليامز)) المشهورة

ملخصة بقلم : **الدكتور لويس عوض**

عربة اسمها اللذة !

٢ ــ تلخيصا وافيا للكتاب الذى يقف فريدا فى تاريخ الفكر العربى ، ويعتبر من خيرة كتب الاعترافات التى خطها المفكرون العالميون :

المنقذ من الضلال

حياة واعترافات الامام الغزالى

الكتاب الذى سبق به الامام العربى اعترافات ((**روسو**)) و ((**اندريه جيد**)) وغيرهما من كتاب الاعترافات ، وبه يساهم (كتابى) فى الاحتفال باحياء ذكرى الامام الغزالى هذا الشهر .

احجز نسختك من الآن

+ كتب عالمية اخرى



من من هؤلاء

مؤلف التحفة القادمة لمطبوعات كتابى؟

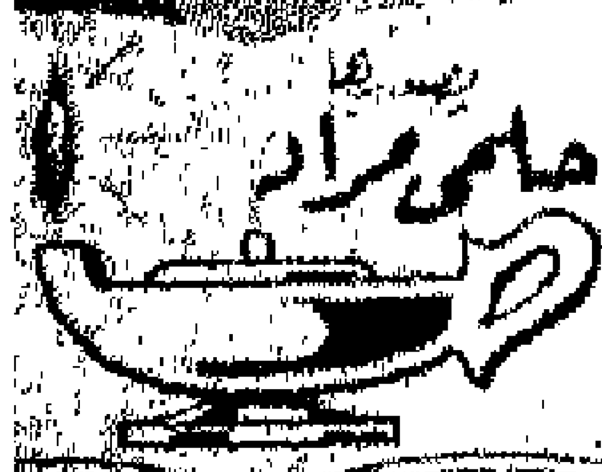
عزيزى القارئ..

منذ أصدرت من أجلك هذه السلسلة الشيقة لكتابى - سلسلة مطبوعات كتابى - وأنا أحرص على أن تضم مجموعتها مختارات منوعة من أدب جميع البلاد، لأشهر المؤلفين، فى جميع العصور، كى تكون هذه السلسلة بمثابة دائرة معارف للأدب العالمى من جميع مصادره.

وجريا على هذه الخطة، أقدم لك فى العدد القادم من "مطبوعات كتابى" - الذى يصدر بعد أيام - تحفة لأحد هؤلاء المؤلفين الذين ترى صورهم فى أعلى هذه الصفحة، فمن هو منهم؟.. وما هو الكتاب الذى اخترته لك من مؤلفاته؟

هذه هى المفاجأة القادمة لسلسلتك المحبوبة

حلمى مراد



ترجمة الكاملة الأمينة ...



"فتاة عربية"
للرسام الاندونيسي "باز وكي عبد الله"

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمى مراد



الكتاب الثانى والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة .

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وتسعون كتابا، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر.

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اربعة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

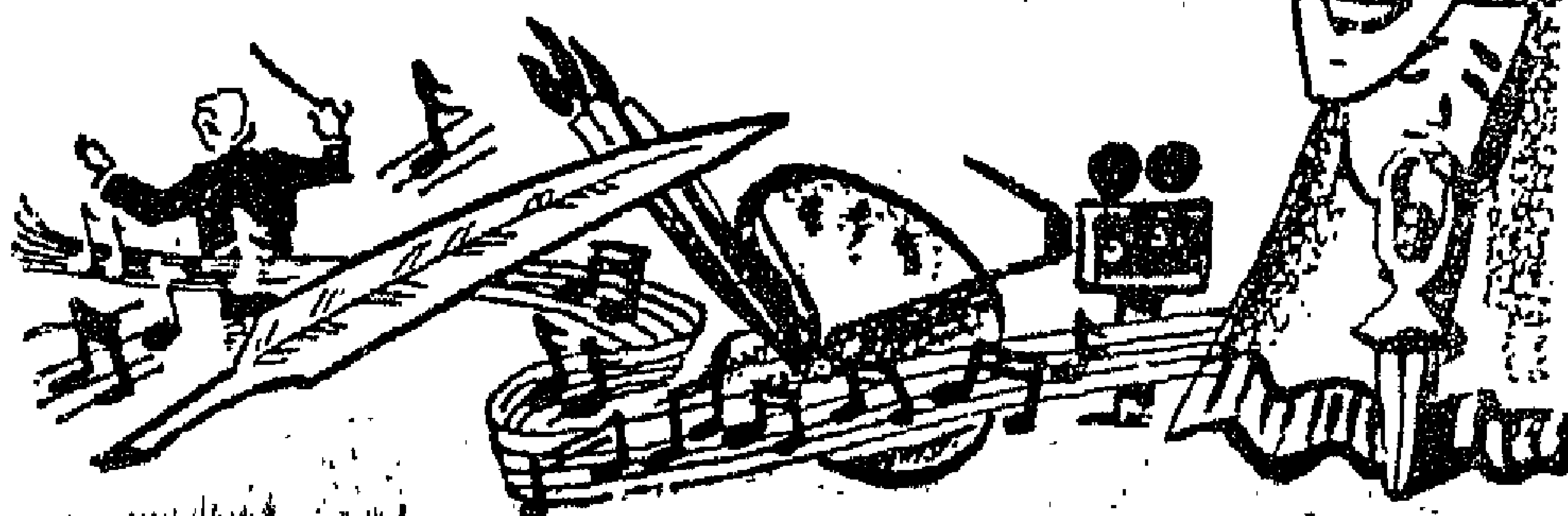
• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .



قراءات
ومشاهدات



٨

فولتير .. وغزو الفضاء !

عزيزى القارىء ..

كان الشهر الحالى شهر غزو الفضاء ، ففيه سجل صعود « جاجارين » الى حيث دار دورة كاملة حول الأرض ، أعظم انتصار علمى للعقل البشرى !

ورغم أن « كتابى » كان سباقا الى نشر أكثر من تلخيص يتصل بهذا الموضوع ، (ويحضرنى من هذه التلخيصات عند كتابة هذه السطور : تلخيص كتاب (عالم الفد ـ رحلات الى مستعمراتنا فى الكواكب على « سفن الفضاء » ، للباحث الانجليزى البروفيسور « أ . م . لو ») ، **وقد نشرته لك فى العدد ٦٥ الصادر فى أغسطس ١٩٥٧** .. ثم تلخيص كتاب (« انسان فى القمر » ، للروائى المعروف «هـ.ج. ويلز»)، **وقد نشر فى العدد ٦٨ ، الصادر فى نوفمبر ١٩٥٧** .. الى غير ذلك من التلخيصات المشابهة التى نشرت فى أعداد أخرى .

أقول ، انه رغم نشر تلك الأبحاث والموضوعات «التكهنية» أو « الخيالية » ، قبل تحققها ، **فاننى لم أستسغ أن يترك (كتابى) هذا الحدث الخطير يتحقق ، دون أن يحتفل به ـ بطريقته الخاصة ـ** فيقدم لك بشأنه مادة ثقافية جديدة ـ أو بالأحرى قديمة ـ تكشف لك جانبا مجهولا (بالنسبة لقراء العربية) من انتاج الأديب ، والفيلسوف ، وداعية الحرية ، الثائر « فولتير » !

فتعال معى نقرأ هذه القصة الفلسفية التهكمية اللاذعة ، التى كتبها فولتير عام ١٧٥٢ ، وتنبأ فيها بغزو الفضاء ، والسفر بين الكواكب .. فتحققت النبوءة بعد قرنين كاملين ! **(ولو أن نزعة فولتير الى السخرية قد ساقته الى مبالغات**

تدخل في باب « التخريف » ـ كما سترى ـ لكنه تخريف فلسفي ، له ظرافته على كل حال !)

والآن ، أترك الأديب الاستاذ ميخائيل بشاي ـ الذى ترجم لك من قبل مسرحيتى « ألبير كامي » : (كاليجولا) ، و (سوء فهم) ـ يترجم لك هذه القصة التى أطلق عليها فولتير اسم « ميكروميجاس » :

الفصل الاول

(رحلة واحد من سكان النجم الأبرق (١) الى كوكب زحل)

فى واحد من تلك النجوم المحيطة بالكوكب المسمى زحل ، كان يعيش فتى على قدر كبير من الذكاء والفطنة . وكان لى شرف معرفته ، فى رحلته الاخيرة الى عش النمل الذى نسكنه . وكان اسمه ميكروميجاس (٢) ، وهو اسم يناسب جداً كافة العظماء . وكان ارتفاع قامته ثمانية فراسخ . وتساوى هذه الفراسخ الثمانية ، فيما أعلم ، أربعة وعشرين ألف خطوة هندسية ، كل منها خمسة أقدام . (٣)

---

(١) النجم الأبرقى ، أو (سيريوس) هو أكثر النجوم التماعا ، وأكبرها حجما ، ويبعد عن الارض مسافة تساوى نصف قطرها مضروبا فى ٨٩٦٨٠٥ .

(٢) اسم مركب من الكلمتين اليونانيتين : « ميكروس » أى الصغير ، و «ميجاس» أى الكبير ، ويراد به أن كل شىء نسبى ، فالكبير صغير بالقياس الى ما هو أكبر منه وهكذا .

(٣) والقدم يساوى ١٦٢ر١ مترا ، فيكون مجموع طوله ٣٨٨٨٠ مترا ! والفرسخ يزيد على ٤ كيلومترات ، ويقدره فولتير بما يساوي ٤٨٦٠ مترا .

ولو أخذ بعض الرياضيين أقلامهم ، بالمناسبة ، وهم ذوو نفع ، على العموم ، لوجدوا أنه ما دام السيد ميكروميجاس الأبرقي يبلغ ، من فرعه الى قدمه ، أربعة وعشرين ألف خطوة ، تساوى مائة وعشرين ألف قدم ، فى حين أننا ــ نحن سكان الارض ــ لا نكاد نبلغ أقداما خمسة ، وأن محيط أرضنا يبلغ ثمانية آلاف فرسخ .. أقول لوجدوا أنه ينبغى، قطعا ، **أن يكون محيط النجم الذى أنجبه أكبر من محيط أرضنا الصغيرة واحدا وعشرين مليونا وستمائة ألف مرة .** وليس فى الطبيعة شىء بسيط ، ومألوف ، أكثر من هذا . ولو قورن بعض الممالك الالمانية ، أو الايطالية (١) التى يمكن أن يدور حولها المرء فى نصف الساعة ،بامبراطورية الاتراك أو الموسكوف أو الصينيين ، ما كانت هذه المقارنة الا صورة شاحبة للاختلاف العجيب الذى تضعه الطبيعة فى الكائنات . وما دامت قامة «صاحب السعادة» بهذا العلو الذى ذكرت ، فلابد أن يوافقنى رجال الفنون عندنا ، من نحاتين، ومصورين، على أن **محيط خصره يمكن أن يبلغ خمسين ألفا من الاقدام** .. وما أبدعها من نسبة !

أما عن مدى علمه ، ومواهبه ، فانه واحد من أولئك الذين بلغوا من الثقافة شأوا أبعد مما بلغناه الى حد كبير . **فهو** يعرف أشياء كثيرة: بل انه قد ابتكر بعضا منها ، **ولما يبلغ عمره الخمسين بعد المائتين** . وقد كان يتلقى علومه ــ كما هى العادة ــ بمدارس الجزويت ، فى كوكبه ! (٢) .. وقد اهتدى ،

(١) كان فولتير دائم السخرية من تلك الممالك الصغيرة التى كانت تحيط نفسها بمظاهر العظمة الزائفة ، فى حين كانت لا تقارن بعظمة فرنسا فى ذلك العصر !

(٢) كذلك كان فولتير دائم السخرية من رجال الدين « الجزويت » ، أو اليسوعيين ، فى بلاده .

بذكائه الحاد ، الى أكثر من خمسين نظرية من نظريات « اقليدس » ، أى تزيد ثمانى عشرة نظرية عما عرفه بليز باسكال الذى أصبح ــ (بعد أن اهتدى وهو يلهو ــ على قول شقيقته ــ الى اثنتين وثلاثين نظرية) ــ رياضياً متوسطا .

وفى **يفاعته** ، أى فى **نحو السنة الاربعمائة والخمسين من عمره** ، قام بتشريح عدد كبير من حشراته الصغيرة التى لم يكن قطرها يبلغ المائة قدم ، فكانت تختفى تحت المجاهر العادية . وألف عنها كتابا هاما ، الا أنه تعرض من جرائه لبعض المتاعب . ذلك أن مفتى بلاده ، وهو رجل على قدر كبير من التفاهة والجهل ، وجد فى كتابه **ذاك** أقوالا مريبة ، ومنحرفة ، وجريئة ، وملحدة ، يشتم منها الزيغ والضلال ، وطارده بعنف بالغ ، فقد كان يبحث فيما اذا كانت المادة التى تتكون منها براغيث النجم « الأبرق » من نفس طبيعة المادة التى يتكون منها الحلزون . ودافع « ميكروميجاس » عن نفسه بشدة ، وتشيعت له النساء (١) ، واستمر نظر القضية **مائتين وعشرين عاما** ، حتى أصدر المفتى حكمه بادانة الكتاب ، على لسان الفقهاء الذين لم يقرأوا منه حرفا !

وتلقى المؤلف أمرا بعدم الظهور فى البلاط الملكى ثمانمائة عام كاملة ، الا أنه لم يشعر بكثير من الأسف على طرده من بلاط لا يملؤه غير الملال ، والضعة . وألف أنشودة ساخرة فى هجاء المفتى الذى لم يبال بها كثيرا . ثم شد رحاله وراح يتنقل من كوكب الى كوكب . . وأولئك الذين لا يسافرون الا فى عربات البريد ، وغيرها من الصناديق المقفلة ذات

(١) كما تشيعن ، مثلا ، للكاتب الفرنسى شارل بيرو (١٦٢٨ ــ ١٧٠٣) فى المعركة التى دارت حول كتابه « مقارنة بين القدامى والمحدثين » .

النوافذ ، تدهشهم **مركبات الفضاء** (١) من غير شك ، لاننا فوق كتلتنا هذه التى من الطين ــ لا نهضم شيئا يفوق تعودنا عليه .

وكان رحالتنا يعرف ، الى حد عجيب ، قوانين الجاذبية ، وكافة القوى الجاذبة والدافعة ، فأفاد منها جميعا ، حتى انه : بمساعدة شعاع من أشعة الشمس ، أو ظرف مناسب لأحد الكواكب ، **كان ينتقل ، هو وأتباعه ، من كرة الى كرة ، كتنقل الطير بين الغصون** . كما أنه عبر الطريق اللبنى فى فترة وجيزة ، وأنا مضطر للاعتراف هنا بأنه لم ير أبدا ، بين أنجمه المتناثرة ، تلك السماء الجميلة العليا ، التى توهم القس الشهير « درهام » أنه رآها فى نهاية منظاره . ولست اعنى أن السيد درهام قد أخطأ الرؤية ، لا سمح الله ! الا ان ميكروميجاس كان هناك ، وانه لمراقب دقيق الملاحظة ، وما أريد أن أناقض أحدا .

وبعد أن دار ميكروميجاس دورة طيبة ، وصل الى زحل . ولأنه لم يعتد، الا قليلا ، رؤية الاشياء الجديدة ، فانه عندما رأى صغر الكوكب وساكنيه ، لم يستطع أن يمنع نفسه من ابتسام التفوق والامتياز الذى ينفلت أحيانا ، ويرتسم على شفاه الحكماء الكبار ، فلم يكن زحل ــ فى آخر الأمر ــ ليزيد حجمه أكثر من ثمانمائة مرة عن حجم الارض .أما أهله فأقزام لا ترتفع قاماتهم غير ألف « تواز » (٢) فى المتوسط . وسخر فى نفسه قليلا ، أول الأمر ، من أولئك القوم ، كما يضحك الموسيقى الايطالى من موسيقى « لوللى » عندما يزور

---

(١) من العجيب أن يستعمل فولتير تعبير « مركبات الفضاء » ، فى عام ١٧٥٢ .

(٢) مقياس طولي كان يساوي ٩٤٩ـ١ من المتر .

فرنسا (١) . لكنه لما كان ـ ذلك الأبرقى ـ مهذبا ، فسرعان ما ادرك أن كائنا مفكرا لا يبعث على الضحك لأن طوله لا يبلغ الا ستة آلاف قدم . ولما رأى دهشة الزحليين مازحهم وعقد صداقة وألفة مع سكرتير الأكاديمية هناك . وهو رجل ذكى، ولئن كان لم يكتشف شيئا فى الحقيقة، الا انه أفاد جيدا من اكتشافات الآخرين (٢) وألف أبياتا من الشعر ، وابحاثا رياضية لا بأس بها . وسوف أنقل هنا ، للقراء : حديثا نادرا كان قد دار يوما بين ميكروميجاس ، والسيد السكرتير .

الفصل الثانى

(حديث ساكن « الأبرق » ، مع ساكن « زحل »)

فبعد أن نال «صاحب السعادة» حظه من النوم ، واقترب السكرتير من وجهه ، قال ميكروميجاس : « ينبغى أن نعترف بما فى الطبيعة من اختلاف كبير» فأجاب ساكن زحل : «نعم ، تشبه الطبيعة بستانا من الزهر الذى . . » (٣) ، فقال الآخر : « آه ! دع بستانك حيث هو » ، فعاد السكرتير يقول: « انها مثل طائفة من الشقراوات والسمراوات اللائى حليهن . . » ، فقال صاحبه : « اه . ! أى شأن لى بسمراواتك ؟ ! »

ــ أنها ، اذن ، كمعرض التصوير الذى . .

(١) كانت المنافسة حينئذ شديدة بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الايطالية .

(٢) يسخر فولتير من « فونتينيل » السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم فى ذلك الوقت .

(٣) يسخر فولتير ايضا من « فونتينيل » الذى استخدم هذا الأسلوب المزخرف فى كتابه « تعدد العوالم » .

فقال المسافر : « كلا ! فالطبيعة لا تشــبه الا الطبيعة . ولمــاذا تبحث عن أوجه للمقارنة ؟ » . فأجاب الســكرتير : « لــكى أرضــيك » . ورد عليه الســائح : « **لست أريد ما يرضينى بل أريد ما يزيدنى علما** . قل لى ، أولا ، كم حاسة لأهل كوكبك ؟ » . فقال الأكاديمى : « أن لنا اثنتين وسبعين حاســة ، ونحن نشكو من قلتها دائما . فخيالنا يربو على حاجاتنا ، ونشعر بالحصر بين حواسنا الاثنتين والسبعين ، والحلقة المحيطة بكوكبنا ، وأقمارنا الخمسة . وعلى الرغم من تطلعنا ، والعواطف الكثيرة الجياشة الناتجة عن حواسنا تلك ، لا ينقطع ما نستشعره من الملل » . فقال ميكروميجاس: « انى مصدقك . **فحواسنا تقارب الألف ، الا أننا نشعر بما لا أعرفه من الرغبات الغامضــة ، والقلق الذى ينــذرنا ــ دائما ــ بأننا شىء ضئيل ، وأنه توجد كائنات أكثر منا كمالا .** لقد قمت بأسفار قليلة ، ورأيت خلائق تسمو علينا كثيرا ، لكننى لم أجد من بينها طائفة ليست شهواتها أكثر مما يقنعها ويرضيها . ولقد أصل يوما الى بلد لاينقصه شىء ، لكن أحدا لم يعطنى ــ حتى الآن ــ خبرا أكيدا عن ذلك البلد » .

واســتغرق الزحلى ، والأبرقى ، فى الاحلام ، والاوهام ، حتى وجــدا ــ بعد كثير من النقاش البارع ، والحجج التى يعوزها اليقين ــ أنه لابد من رجوعهما الى الواقع ، فقــال الأبرقى : « كما هى الحال عندنا تماما . فنحن لا نفتأ نشكو من قصر أعمارنا . ويبدو أن هــذه قاعــدة عامة من قواعد الطبيعة . » وقال الزحلى : « واحسرتاه ! اننا لا نعيش الا خمسمائة دورة شمسية كبرى (وهذه تبلغ بحسابنا خمسة عشر ألف عام ، فى المتوســط) . ومن هــذا ترى أننا نموت

حالما نولد. فوجودنا نقطة، وبقاؤنا برهة، وكوكبنا ذرة (١) . **وما أن نشرع فى تكوين أنفسنا ، حتى يأتينا الموت ، ولما نحصل على شىء من الخبرة** . أما أنا فلا أجرؤ على تحقيق شىء ، فما أجد الا اننى قطرة ماء ، فى محيط غير محدود ! »

ورد عليه ميكروميجاس : « او لم تكن فيلسوفا ، لخشيت ايلامك اذ أقول **أن حياتنا قدر حياتكم سبعمائة مرة** . لكنك تعلم حق العلم أنه ما أن يتحتم علينا تسليم جثثنا للعناصر ، وتجديد الطبيعة تحت مظهر آخر ـ هو ما يسمى بالموت ، عندما يحل بنا هذا التحول ـ حتى **يتساوى لدينا أن نكون قد عشنا أبدية كاملة ، أم عشنا يوما واحدا . لقد كنت فى بلاد يعيش أهلوها ألف مرة أطول مما نعيش . وألفيتهم يتذمرون أيضا** . لكن هناك ، فى كل مكان ، أناسا قد حسن ادراكهم ، فهم يتقبلون حظهم ، ويشكرون خالق الطبيعة . الا ما أكثر ما ينتشر فى هذا الكون من اختلاف تشمله وحدة عجيبة . فالكائنات المفكرة ـ مثلا ـ تتباين أشخاصها ، الا أنها جميعا تتفق فى خاصة الفكر والرغبات الطبيعية . والمادة منتشرة فى كل مكان ، الا أن لها فى كل كوكب خواص مختلفة عن غيرها فى الكواكب الاخرى . كم عدد الخواص التى تتميز بها المادة عندكم ؟ » .

فقال الزحلى : « اذا كنت تعنى تلك الخواص التى نعتقد أنه بدونها ما كان يتحقق لهذا الكوكب وجوده بحالته هذه ، فقد أحصينا منها ثلاثمائة : كالامتداد ، والصلابة ، والحركة، والجذب ، والانقسام ، الى آخره » . فرد عليه السائح

---

(١) يردد فولتير هنا آراء الفلاسفة الذين كانوا يصرون على تقرير الشقاء الانسانى خاصة ، من أمثال « مونتينى » ، و « بوسويه » ، و « باسكال » .

مفسرا : ((**جلي أن الخالق يجد فى هذا العدد ما يكفي كوكبكم الصغير . وانى لعظيم التقدير لحكمته ، ففي كل مكان أجد اختلافات شتى ، غير انى أجد التناسب فى كل مكان كذلك . فكوكبكم صغير ، وأهله صغار أيضا . وحواسكم قليلة ، ومادتكم لا تملك الكثير من الخواص ، وهذا كله من تدبير العناية الالهية**. اى لون يكون لشمسكم عندما تختبرونها ؟)) .

فقال الزحلى : ((اللون الأبيض المائل الى صفرة شديدة . وعندما نحلل منها شعاعا نجد انه يتألف من سبعة الوان(١)))

فقال الأبرقى : ((ان شمسنا تميل الى الحمرة (٢) . وعندنا تسعة وثلاثون لونا أساسيا . وليست هناك شمس تشبه الاخرى بين كافة الشموس التى دنوت منها ، كما أنه ليس عندكم وجه لا يختلف عن بقية الوجوه)) .

وبعد أسئلة كثيرة من هذا النوع ، تساءل عما أحصوه من العناصر التى تختلف اختلافا جوهريا فى زحل . وعلم أنهم لم يعرفوا هناك الا ثلاثين عنصرا ، كالاله ، والمكان ، والمادة ، والكائنات الهيولية التى تشعر ، وتفكر ، وغيرها المفكرة الغير الهيولية ، وتلك التى تتحد، وتلك التى لا تتحد ، الى آخره .

أما الأبرقى الذى أحصوا فى عالمه ثلاثمائة منها ــ واكتشف هو ، فى رحلاته ، ثلاثة آلاف أخرى ــ فقد أدهش الفيلسوف الزحلى الى حد كبير .

وأخيرا ، وبعد أن تبادلا كثيرا مما يعرفان، وما لا يعرفان ، وتناقشا معا زهاء دورة شمسية ، قررا أن يقوما ، سويا ، برحلة فلسفية صغيرة .

---

(١) هى ألوان الطيف التى اكتشفها اسحق نيوتن (١٦٤٢ ــ ١٧٢٧)

(٢) كان ضوء الأبرق ضاربا الى الحمرة ، وهو الآن أبيض .

الفصل الثالث

(رحلة ساكنى ((الأبرق)) و ((زحل)))

وهكذا رحل الصاحبان المتطلعان الى المعرفة ، فقفزا أولا الى الحلقة المحيطة بزحل (١) ، ووجداها مسطحة ، كما كان قد خمن رجل شهير من سكان أرضنا الصغيرة (٢) ، **ومن هناك أخذا ينتقلان — فى سهولة ويسر — من قمر الى قمر ، ومر أحد المذنبات ، قريبا من آخر قمر كانا يمتطيانه ، فقفزا اليه باتباعهما ، وأدواتهما . فلما قطعا نحو المائة والخمسين مليونا من الفراسخ ، التقيا بتوابع كوكب (المشترى) ، فانتقلا الى (المشترى) نفسه** ؛ ولبثا هناك عاما أتيح لهما فيه أن يعرفا كثيرا من الاسرار البديعة التى ستدفع الى المطبعة ، عما قريب ، دون تدخل الفقهاء ، الذين وجدوا بها أقوالا شديدة الوطأة ، لكننى قد اطلعت على أصولها بمكتبة الأسقف الشهير « . . . » الذى أتاح لى أن أرى كتبه ، فى عطف كريم لا أستطيع أن أفيه حقه من الشكر والتقدير .

ولكن، فلنعد الى سائحينا : فبعد خروجهما من (المشترى)، عبرا فضاء يقارب مائة مليون من الفراسخ ، حتى حاذيا كوكب (المريخ) الذى يقل حجمه — كما نعلم — خمس مرات عن أرضنا الصغيرة ، وشهدا قمريه اللذين غابا عن أعين علمائنا . وانى لأعلم أن الأب « كاستيل » (٣) سيفند — بطريقته المضحكة — وجود هذين القمرين ، لكننى أفوض

(١) هما ، فى الحقيقة ، حلقتان .

(٢) هو الهولندى كريستيان هويجنز (١٦٢٩ — ١٦٩٥)

(٣) عالم فرنسى من « الجزويت » (١٦٨٨ — ١٧٥٧) كان يشذ فى تفكيره أحيانا ، الا أنه كان ذا أصالة ، وقد اشتهر باختراع آلة موسيقية .

الأمر الى رجال المنطق الذين يستخدمون المقارنة والقياس . فأولئك الفلاسفة الطيبون يعلمون كم يكون من العسير ان يقنع المريخ، على بعده السحيق من الشمس، بأقل من قمرين . ومهما يكن من أمر، فقد اتضح لصاحبينا ان المريخ صغير الى الحد الذى جعلهما يخشيان الا يجدا فيه موضعا للرقاد ، فانطلقا ، على دربهما ، كسائحين يزدريان فندقا ريفيا ، فيهرعان الى المدينة المجاورة .

ولكن الأبرقى، وصاحبه ، سرعان ما أحسا بالندم اذ قطعا مرحلة طويلة ، دون أن يعثرا على شيء . وفى آخر الأمر ، لاح لهما نور ضئيل : **انها الأرض** . ولم يكن ذلك الا داعيا للاشفاق على قوم قادمين من المشترى . وخشية أن يندما ، للمرة الثانية ، قررا أن يهبطا اليها ، فاتجها الى ذيل المذنب، وألفيا أمامهما شفقا شماليا (١) فاخترقاه حتى وصلا الى الأرض ، على شاطىء شمالى من شطآن البلطيق ، فى الخامس من يوليو عام ١٧٣٧ وفقا للتقويم الجديد . (٢)

الفصل الرابع

(ما جرى لهما ، على الكرة الأرضية)

بعد أن استراحا قليلا ، والتهما ، فى فطورهما ، جبلين جهزهما للأكل أتباعهما (٣) ، أرادا أن يتعرفا على البلد الذى

(١) ظاهرة ضوئية تظهر فى السماء ناحية الشمال .

(٢) أى التقويم الجريجورى .

(٣) كما أكل « السيكلوب بوليفيم » بعض رفاق «اوليس» (الأوديسة ، النشيد التاسع) وكما أكل « جارجانتوا » ستة حيتان ، ليفتح شهيته (النشيد الثامن والثلاثون) ولكن البطلين هنا ، أضخم جدا من هذين الماردين .

كانا يحلان به ، فاتجها ــ أولا ــ من الشمال الى الجنوب . وكانت الخطوة العادية للأبرقى نحو ثلاثين الف قدم ، فكان القزم الزحلى ــ وقامته لا تزيد على الألف تواز ــ يتبعه ، من بعيد ، وهو يلهث . ولو شاء به لحاقا لصار عليه أن يخطو اثنتى عشرة خطوة ، كلما تقدم الآخر خطوة . تصـور (لو امكنت المقارنة) جروا ضـئيلا يتبع قائدا من حرس الملك البروسى !

ولما كان ذانك الفريبان يغذان السـير ، فقـد **دارا حول الارض فى ست وثلاثين سـاعة** ، بينما تقوم الشمس ــ أو الأرض ، على الأصح ــ برحلة مماثلة فى يوم واحد . ولـكن ينبغى أن نذكر ان حركة الجسـم تـكون أيسر لو دار حول محوره ، مما لو سـار على قدميه . وها هما قـد عادا الى موضع البدء من دورتهما ، بعد أن رأيا تلك المخاضـة التى تكاد لاترى بالقياس اليهما ، ويطلقون عليها اسم (المتوسط)، وذلك المستنقع الآخر الذى يحدق بتلال الخلد ، تحت اسم (المحيط العظيم) . ولم يكن الماء يرقى ــ بالنسبة للقزم ــ الى منتصف ساقه ، بينما لم يكد يغمر عقب الآخر . ولقد فعلا كل ما كان فى مقدورهما : جيئة ، وذهابا ، وارتقـاء ، وانحدارا ، ليعرفا اذا كان هذا الكوكب مأهولا ، أم غير مأهول، فانحنيا ورقدا ، وتحسسا فى كل موضع ، **الا أن عيونهما ، وأيديهما ، لم تكن تتناسب أبدا مع الكائنات الدقيقة التى تدب هنا . فلم يلمحا أثرا يحدسان منه أن لنا ، ولاخواننا الآخرين من سكان هذه الارض ، شرف الوجود !**

وفى أول الامر ، قرر القزم الذى كان يتسرع فى اصـدار أحكامه أحيانا ، أنه لا يوجد ثمة انسان على الأرض . وكانت حجته الأولى أنه لم يكن يرى أحدا . ولـكن ميكروميجاس أشعره ــ فى أدب ــ بفسـاد منطقه ، قائلا له : « هناك طائفة

معينة من النجوم الدقيقة الحجم ، أراها أنا بوضوح ، ولكنك لا تراها بعينيك الصغيرتين ، فهل تقطع ـ لهذا السبب ـ بأنها غير موجودة ؟ » . فقال القزم : « لكنني تحسست جيدا . » وأجابه الآخر : « لكنك لم تحس كما ينبغي . » فعاد القزم يقول: «هذا الكوكب رديء البناء ، فهو غير منتظم، وشكله يظهر لي باعثا على الضحك ! .. وكأن كل شيء هنا مختلط. هل ترى هذه الجداول التي لا يستقيم واحد منها ، وهذه البرك التي لا هي مستديرة ، ولا مربعة ، ولا بيضية ، ولا تقع تحت أي شكل منتظم ، وكل هذه الحبيبات المسنونة التي تجعل لهذا الكوكب سطحا شائكا ، وتدمي قدمي هاتين؟ (كان يعني الجبال) . وهل تلاحظ شكل هذه الكرة ، في مجموعها ، وكيف أنها مسطحة عند القطبين، وكيف أنها تدور حول الشمس بطريقة سيئة تجعل أرض القطبين بائرة ، بالضرورة ؟ **الحق أن ما يجعلني أفكر في خلو هذه الكرة من الناس ما أخاله من أن قوما ذوي ادراك سليم لا يقبلون العيش فيها ! »** .

فقال ميكروميجاس : « نعم ، **لعل سكانها ألا يكونوا قوما أذكياء** ، لكن هناك من الظواهر ما يدل على أنها لم تخلق بلا غرض. ولئن لاحت لك الاشياء غير منتظمة هنا ـ كما تقول ـ فلأن كل شيء شديد الاستقامة في زحل ، وفي المشترى . ولعله لهذا السبب نفسه يوجد هنا شيء من الاضطراب . الم أقل لك اني قد لاحظت دائما ، في رحلاتي، وجود الاختلاف؟» ورد الزحلي بكل ما يملك من حجة . وما كان الجدال لينتهي، لو لم يقطع ميكروميجاس ، لحسن الحظ ، قلادته الماسية ، في حماسة حديثة !

وتهاوت ماساتها ، على الأرض. وكانت جميلة ، وصغيرة ، وغير متساوية الأحجام ، فكانت كبراها تزن أربعمائة رطل ؛

بينما كانت الاخرى تزن خمسين رطلا . واستطاع القزم أن يجمع حبات منها ، فلما قربها من عينيه ، تبين من الطريقة التي سويت بها ، أنها مجاهر ، ممتازة ، فأخذ منها مجهرا صغيرا يبلغ قطره مائة وستين قدما ، وثبته تحت عينيه . كما تخير ميكروميجاس واحدا قطره ألفان وخمسمائة قدم . وكان المجهران على درجة فائقة من الكمال ، الا انهما لم يتمكنا من رؤية شيء بهما ، أول الامر ، وكان لزاما عليهما أن يعدلا من وضعهما . ثم شاهد الزحلي أخيرا شيئا معتما يضطرب بين خطين من الماء ، في بحر البلطيق . **وكان حوتا . فامسكه ببراعة ، ووضعه على ظفر ابهامه ، وأراه للأبرقي الذي ضحك ، مرة أخرى ، من ضآلة سكان كوكبنا.** وسرعان ما توهم الزحلي (وقد اقتنع الآن بأن عالمنا مأهول) أن أهله حيتان فحسب . ولما كان مفكرا كبيرا ، فقد أراد أن يعرف من أين تستمد ذرة صغيرة كهذه أصلها ، وحركتها .. واذا كانت لها أفكار ، وارادة ، وحرية ؟

وحار ميكروميجاس في الأمر ، فاختبر الحيوان في صبر عظيم ، وكانت نتيجة اختباره أنه ما من شيء يدل على أن به روحا . **حينئذ بدءا يميلان الى اعتبار أرضنا خالية من الحياة** ، حتى رأيا تحت المجهر شيئا مستطيلا يسبح في بحر البلطيق . ونعلم أنه ، في نفس ذلك الوقت ، كانت جماعة من الفلاسفة في طريق عودتها من الدائرة القطبية ، حيث قامت ببعض مشاهدات لم يتح لأحد أن يعرف عنها شيئا في ذلك الحين (١) . وقالت الصحف أن سفينتهم غرقت في خليج بوثني ، وان انقاذهم مستحيل . ولكننا ، في هذا العالم ، لا نعرف شيئا لم تسجله الخرائط . وسوف أروي

---

(١) يعني فولتير بعثة « موبيرتيوس » العلمية الى اقليم (لابونيا) ، في أقصى الشمال من أوربا .

ببساطة كيف حدث الشيء ، دون أن أضيف اليه زيادة من عندي . وهذا ، لعمري ، جهد ليس هينا بالنسبة للمؤرخ.

الفصل الخامس

(تجارب السائحين ، ومناقشاتهما)

مد ميكروميجاس يده ، في رفق شديد ، الى الموضع الذي كان ذلك الشيء يظهر فيه ، وبسط اثنين من أصابعه ، ثم طواهما ، خشية أن يخطيء الهدف . ثم عاد فبسطهما ، وقبضهما ؛ **فأطبقهما على السفينة التي كانت تحمل أولئك السادة ، وأرساها أيضا على ظفره ، دون أن يضغط عليها كثيرا مخافة أن يحطمها . وقال القزم الزحلي : ((ها هو ذا حيوان يختلف عن الأول اختلافا كبيرا .))** ووضع الأبرقي الحيوان المزعوم في كفه ، وظن أصحاب السفينة أن عاصفة هوجاء قد رفعتهم ، ثم ألقت بهم على نوع من الصخور ، فبادروا الى الحركة : فأخذ النوتية براميل النبيذ ، والقوا بها على كف ميكروميجاس ، وأسرعوا يغادرون السفينة بعد ذلك . وأخذ المهندسون أرباع دوائرهم ومقاطعهم (١) ، كما أخذوا فتاتين لابونيتين ، وهبطوا على أصابع الأبرقي ، وأكثروا من الحركة حتى أحس بشيء يدغدغ أصابعه ، وكأن عصا حديدية يفرسونها في سبابته . وتبين ، من تلك الوخزة ، أن شيئا قد خرج من جوف الحيوان الصغير الذي يمسكه ، لكنه لم يتوقع أكثر من هذا . ولم يكن المجهر الذي أظهر الحوت والسفينة ، بعد عناء ؛ لينجح في اظهار كائنات دقيقة ، كبني الانسان . ولست أريد هنا أن أصدم غرور أحد ، لكنني مضطر الى رجاء ذوي الخطر ، عندنا ، أن

(١) ربع الدائرة ، والمقطع ، آلتان تستخدمان في القياس.

يلاحظوا معى ملاحظة صغيرة : فلو قدرنا طول الرجل بخمسة أقدام ، لا يكون حجمه ، بالنسبة للأرض ، أكبر من حجم حيوان يقارب ارتفاعه جزءا من ستمائة الف جزء من ارتفاع البرغوث : على كرة محيطها عشرة أقدام . تصوروا كائنا يستطيع أن يمسك الأرض فى يده ، ونسبة أعضائه الى أعضائنا ، وقدروا أن هناك من أمثاله عددا كبيرا ، **ثم تصوروا — أرجوكم — رأى هذه الكائنات العظمى فى معاركنا الحربية التى يكتسب فيها المنتصر قرية ، ليفقدها بعد ذلك . (١)**

وما أشك فى أنه لو أتيح لقائد عسكرى أن يقرأ هذا الكتاب، لما طاول السماء بقبعات جنوده . وحسنا يفعل ، فانه ، وجنوده ، لن يكونوا أبدا الا صفارا : متناهين فى الصغر .

وأى خطاب رائع لا ينبغى أن يوجه الى فيلسوفنا الأبرقى الذى استطاع أن يرى تلك الذرات الدقيقة التى تحدثت عنها ؟ . ان « ليوفنهوك » و « هارتزوكر » (٢) لم يكتشفا شيئا مدهشا الى هذا الحد ، عندما وقعت عيونهما على المواد الاولية التى اعتقدا ان فيها تلك النواة التى نتكون منها . ويا للسعادة التى أحس بها ميكروميجاس وهو يرى تحرك هذه الآلات الصغيرة ، ويختبر دوراتها جميعا ، ويتبعها فى كل ما تعمل . فكم صاح جذلا ، وكم دفع مجهره الى رفيق رحلته وهو طروب ، وكم قالا فى نفس واحد : ((**أنى أراهم . ألا تشهد هؤلاء الذين يحملون أثقالا ، ويهبطون ، ويصعدون !))** .

---

(١) كان فولتير دائم السخرية من الحرب . انظر — بنوع خاص — رسائله الفلسفية ، ومادة (حرب) فى قاموسه الفلسفى .

(٢) الأول عالم طبيعى هولندى (١٦٣٢ — ١٧٢٣) والثانى طبيب وعالم هولندى كذلك (١٦٥٦ — ١٧٢٥) .

كانا يقولان هذا وأيديهما ترتعد ، من فرط سرورهما وهما يريان تلك الأشياء الجديدة ، وفرط خشيتهما أن يفقداها .

الفصل السادس

(ما جرى لهما فى دنيا بنى الانسان)

رأى ميكروميجاس فى وضوح ـ وكان أدق ملاحظة من صاحبه القزم ـ هذه الذرات الضئيلة ، وهى تتخاطب فيما بينها ، فأبدى ملاحظته لصاحبه الذى لم يشأ قط أن يعتقد ان ذرات كهذه تستطيع أن تتبادل الافكار . لقد كان يعرف اللغات التى يعرفها الأبرقى ، ولم يسمع قط حديثا لهذه الذرات الضئيلة ، فافترض انها لا تتكلم . **وكيف يكون لهذه الكائنات التى تتعذر رؤيتها ، أعضاء صوتية ، وماذا لديها لتقوله ؟ .. انها ، لكى تتكلم ، ينبغى أن تفكر ، او تقارب التفكير . لكنها اذا كانت تفكر ، فلابد أن لها روحا . ونسبة الروح الى هذا النوع كانت تبدو له سخيفة .**

وقال الزحلى : « ينبغى أن نحاول اختبار هذه الهوام ، أولا ، ثم نناقش أمرها بعد ذلك » . فقال ميكروميجاس : « أحسنت القول » . وأخذ ، على التو ، مقصا فقلم أظافره ، وصنع من قلامة ظفر ابهامه بوقا عظيما على هيئة قمع واسع ، ووضع أنبوبة على أذنه ، فأحاط القمع بالسفينة وأصحابها جميعا . وكان الصوت الخافت يتخلل نسيج الظفر الذى أجيدت تسويته ، بحيث أتيح لفيلسوف السماء أن يسمع ـ فى وضوح ـ ما تغمغم به هوام الأرض . وبعد ساعات قليلة أمكنه أن يميز الكلام ، وأن يسمع ـ أخيرا ـ حديثها بالفرنسية . وهكذا فعل القزم ، وان يكن قد وجد من العناء أكثر مما لقيه زميله . **وكانت دهشة السائحين تتضاعف**

في كل لحظة، وقد سمعا حشرات تتكلم فتحسن الكلام ، فبدا لهما عبث الطبيعة هذا غير قابل للشرح والتأويل . وأؤكد لكم أن الأبرقي ، وصاحبه القزم ، كانا يتحرقان شوقا الى مخاطبة الكائنات المذكورة . لكن القزم كان يخشى أن يصم آذانها صوته الجهوري ، وصوت ميكروميجاس ، خاصة ، فلا تتمكن من سماعهما .. ومن ثم كان من الضروري أن تضعف قوة الصوت ، فوضعا في فوهة البوق حزمة من العيدان ، ثم أجلس الأبرقي القزم على ركبتيه ، ووضع السفينة ، وشحنتها ، على ظفره . حتى اذا أتم احتياطاته ، قال في صوت خانيض : ((أيتها الحشرات الخفية التي ارتضت يد الخالق أن توجدها في قرار الكائنات المتناهية في الصغر . اني أشكره اذ جعلني أهلا لاكتشاف أسرار كان الكشف عنها مستحيلا . وربما كان القوم في بلاط بلادي لاينزلون الى مهانة استقبالك، الا أنني لا أحتقر أحدا ، بل أعرض عليك حمايتي)).

ولو عرف الدهشة قوم لكانوا أولئك الذين سمعوا هذا القول ، فانهم لم يستطيعوا أن يحدسوا من أين يأتي ، فراح القس يتلو دعواته ، والنوتية يرسلون أيمانهم ، والفلاسفة يرجعون الى قوانينهم ؛ لكنهم لم يعرفوا من كان يخاطبهم .. حتى استطاع القزم الزحلي ، في كلمات قليلة ، (وقد كان صوته أرق من صوت ميكروميجاس) أن يوضح لهم نوع الكائنين اللذين يخاطبانهم ، ثم حدثهم عن الرحلة من زحل ، وعرفهم من يكون السيد ميكروميجاس .

واذ رأى مبلغ شكايتهم من ضآلة أجسامهم ، سألهم اذا كانوا ، دائما ، في هذه الحالة التي تقارب العدم ، واذا كان عندهم ما يفعلونه في كوكب يبدو أنه وقف على الحيتان .. وهل هم سعداء ، وهل يتكاثرون ، وهل لهم أرواح ، ومائة سؤال آخر من هذا القبيل .

واحس واحد من الجماعة ــ وكان أكثرهم جرأة ــ بقسوة هذا الشك فى وجود روحه ، فأخذ يرقب المتكلم من خلال مناظير مثبتة على آلة القياس ، وعدل أوضاعها مرتين ، وفى الثالثة وجه اليه الحديث : « تعتقد اذن ، يا سيدى ، لأن ارتفاع قامتك ألف « تواز » من الفرع الى القدم ، أنك.. »

فصاح القزم : « ألف تواز ! يا للسماء ! كيف أتيح له أن يعرف ارتفاع قامتى ؟ .. ألف تواز ! انه لم يخطىء مقدار اصبع واحد . يا للعجب ! هذا الكائن الضئيل يقيسنى ! انه رياضى ، ويعرف ارتفاعى .. وأنا الذى لا أراه الا من خلال مجهر ، لا أستطيع له قياسا ! »

فقال له العالم : « أجل ، لقد أمكننى قياسك ، وسوف أنجح فى قياس رفيقك الهائل أيضا ! »

وحاز العرض قبولا ، فتمدد « صاحب السعادة » على الأرض ــ لأنه لو ظل واقفا لارتفع رأسه فوق السحاب ــ وغرس الفلاسفة فى مكان من جسمه عمودا كبيرا ، ثم انتهوا ــ بعد أن استعانوا بعدد من المثلثات ــ الى أن ما يشاهدونه انما هو فى الحقيقة شاب يبلغ طوله عشرين ألفا من الأقدام !

حينئذ قال ميكروميجاس : « الآن أرى أننا لا ينبغى أن نحكم على شىء بالقياس الى حجمه . **يا الهى ! يامن وهبت العقل لكائنات تبدو خليقة بالازدراء ! يامن تنظر الى المتناهى فى الصغر ، كما تنظر الى المتناهى فى الكبر ، على حد سواء .** ولو أمكن أن توجد بين مخلوقاتك أحياء أصغر من هذه ، لكانت لها أيضا عقول تسمو على مدارك الاحياء الفائقة التى رأيتها فى السماء ، والتى تغطى قدم واحدة منها ، هذه الكرة التى هبطت اليها ! »

وأجابه واحد من الفلاسفة ، قائلا أنه كان يؤمن دائما بوجود كائنات عاقلة أصغر كثيرا من الانسان . ولم يذكر له

كل ما قاله فرجيل عن النحل من أســاطير : بل عدد له ما كشفه « سوامردام » (١) وما قام بتشريحه « ريومور » (٢) .. وقال له أخيرا : ان هناك أحياء نسبتها الى النحل كنسبة النحل الى البشر ، وكنسبة الأبرقى نفسه الى تلك الاحياء الهائلة التى تكلم عنها ، بل كنسبة هاتيك الأحياء نفسها الى كائنات أخرى لا تبدو أمامها تلك الا ذرات ضئيلة .

وشيئا فشيئا ، صار الحديث ممتعا ، وتكلم ميكروميجاس قائلا :

الفصل السابع

(حديث مع بنى الانسان)

« **أيتها** الذرات العاقلة التى طاب للكائن السرمدى أن يعلن فيها وجوده وقدرته . لابد انك تتذوقين — فى عالمك — أفراحا نقية . وأن يكون حظك من المادة ضئيلا . وتلوحين ، فى جملتك ، عقلا وروحا ، **فلا بد أنك تقضين حياتك فى الحب، والفكر ، وهذه هى الحياة الحقيقية . اننى لم أر قط شيئا من السعادة الحقة ، الا أنها موجودة — هنا — من غير شك . »**

عندئذ ، هز الفلاسفة رؤوسهم ، واعترف أكثرهم صراحة بأنه لو كانت هنــاك قلة من أهل الارض جــديرة بشىء من اعتبــار ، فمــا بقيتهم الا جمــاعة من الحمقى ، والأشرار والأشــقياء . « وحظنا من المــادة أكثر ، فى الحقيقة ، مما نحتاجه لاقتراف الكثير من الشر — اذا كان الشر يأتى من المادة — كما أن حظنا من الروح كبير كذلك ، اذا كان الشر يأتى من الروح . هل تعلم ، مثلا ، **أن هناك — فى هذه الساعة**

(١) عالم طبيعى هولندى (١٦٣٧ — ١٦٨٠)
(٢) عالم طبيعى فرنسى (١٦٨٣ — ١٧٥٧)

التى أحدثك فيها ــ مائة ألف أحمق ، من أبناء جنسنا ذوى القبعات ، يقتلون مائة ألف آخرين من أصحاب العمائم ، أو يموتون على أيديهم (١) ، وأن هذا عين ما تفعله الأرض كلها ، من عهود لا يذكرها التاريخ ؟ !))

وارتعد الأبرقى ، وتساءل عن موضوع هذه المعارك الوحشية الدائرة بين كائنات ضعيفة الى هذا الحد ، فقال الفيلسوف : « ان سبب النزاع كتلة من الطين (٢) فى حجم عقبك . ولم ينشب هذا النزاع لأن واحدا من الملايين المتقاتلة يدعى أن له حقا فى عود من القش ، على هذه الكتلة من الطين ، وانما نشب النزاع بغية اثبات ملكيتها لرجل معين يسمونه السلطان ، أو لرجل آخر ينادونه ــ ولا ادرى لماذا ــ بقيصر .. **فى حين أنه لا هذا ، ولا ذاك ، رأى فى حياته تلك الزاوية الصغيرة التى تدور حولها المعارك ! .. ولعل واحدا من أولئك الذين يذبح بعضهم بعضا لم تقع عينه ، يوما ، على ذلك الرجل الذى يقتتل فى سبيله !))** .

وصاح الأبرقى ، فى احتقار شديد : « آوه ! يا للأشقياء ! هل من سبيل الى فهم هذا السعار المجنون ! ان بى رغبة جامحة فى أن أخطو ثلاث خطوات ، وأسحق بثلاث ركلات من قدمى عش النمل هذا الذى يسكنه السفاحون : الخليقون بالازدراء . »

وجاءه الجواب : « وفر على نفسك هذا العناء .. فهم يعملون على تدمير أنفسهم بما يكفى . ولن تجد ، بعد عشرة أيام ، واحدا من كل مائة من أولئك الأشقياء ، على قيد الحياة . واعلم أنهم لو لم يشرعوا أسلحتهم لماتوا من الجوع ،

---

(١) يعنى حرب روسيا وتركيا (١٧٣٦ ــ ١٧٣٩)
(٢) شبه جزيرة القرم ، على البحر الأسود .

او الارهاق ، أو الاسراف . ومن ناحية أخرى ، **فالعقاب خليق ، ليس بهؤلاء ، وانما باولئك البرابرة الجالسين على مقاعدهم ، الذين يأمرون من خلف مكاتبهم ، وهم يهضمون ما أكلوا ،بذبح مليون من الرجال ، حتى اذا تم لهم ذلك ، راحوا يشكرون الله فى حفل عظيم ! »**

وأشفق السائح ، من أعماق نفسه ، على الجنس البشرى الضئيل الذى وجد فيه تلك المتناقضات العجيبة ، ووجه خطابه الى أولئك السادة :

« أما وانتم من النخبة العاقلة ، وحيث أنكم ـ كما يبدو ـ لا تقتلون أحدا فى سبيل المال ، فأرجوكم أن تخبرونى : فيم تشغلون أنفسكم ؟ » .

فقال الفلاسفة : « اننا نقوم بتشريح الذباب ، ونقيس الخطوط المستقيمة ، ونجمع الأرقام .. ونتفق فى نقطتين أو ثلاث نقط نفهمها ، لنختلف فى ألفين أو ثلاثة آلاف لاندرك منها شيئا ! »

وجرى فى خاطر الأبرقى ، والزحلى ، أن يختبرا تلك الذرات المفكرة فى مواضع اتفاقها ، فقال الأخير : **« كم تقدرون المسافة من هنا الى القمر ؟ »**

ـ ستون مرة قدر نصف قطر الأرض ، بالعدد الدائرى .

ـ فما كثافة الهواء عندكم ؟

وظن أنه أحرجهم بالسؤال ، الا أنهم قالوا جميعا : انه يزن تسعمائة مرة أقل مما يزن قدر مساو له من الماء الخفيف ، وتسعة عشر ألف مرة ، أقل من ذهب الدوكات . (١)

وأدهشت اجابتهم القزم الزحلى ، فأوشك على الاعتقاد بأنهم سحرة ، وقد كان يرفض ـ منذ ربع الساعة ـ أن

(١) عملة ذهبية كانت تساوى من ١٠ الى ١٢ فرنكا .

يصدق أن لهم روحا ! .. وأخيرا ، قال لهم ميكروميجاس : ((**ما دمتم تعرفون الأشياء الخارجة عن كيانكم ، فلا بد انكم تعرفون ــ أكثر ــ ما بداخلكم . فقولوا لى : ما هى روحكم ، وكيف تكونون أفكاركم ؟**)) .

وتكلم الفلاسفة معا ، كما فعلوا من قبل ، الا أنهم لم يتفقوا على شيء . واستعان أكبرهم سنا بأرسطو ، بينما ذكر الآخر «ديكارت» ، والثالث «ماليبرانش» والرابع «ليبنتز» ، والخامس « لوك » . وقال شيخ من تلامذة أرسطو ، فى ثقة ، وفى صوت مرتفع : « الروح حقيقة كاملة (١) ، هكذا قال أرسطو فى صفحة ٦٣٣ من طبعة اللوفر » . وردد الفقرة .. الا أن المارد قال له : « لست أجيد اليونانية » .

ــ لست أجيدها أكثر منك !

ــ لماذا تردد ، اذن ، ما قاله أرسطو باليونانية ؟

فأجاب العالم : ((**لأنه ينبغى أن نذكر ما لا نفهمه باللغة التى لا نعرفها**))

وجاء دور الديكارتى ، فقال : « الروح نسمة خالصة ، تلقت فى بطن أمها جميع الأفكار الميتافيزيقية ، واضطرت ــ بعد ولادتها ــ الى دخول المدرسة ، لكى تتعلم من جديد كل ما كانت عرفته قبلا ، ولن تزيد به علما . » (٢)

فقال المارد ذو الفراسخ الثمانية ارتفاعا : ((**ليست المسألة أن تكون عالما فى بطن أمك ، ثم تصبح جاهلا بعد أن تتدلى لحيتك على صدرك !..؟المسألة هى : ماذا تعنى بالروح ؟**)) .

---

(١) كلمة استخدمها أرسطو ، وأخذها عنه ليبنتز .

(٢) اشارة الى نظرية « الأفكار الموروثة » التى قال بها « ديكارت » وعارضها « لوك » ، وجميع فلاسفة القرن الثامن عشر .

ـ ما هـذا الذي تطلب ؟ ليست عندي اية فكرة عن كنه الروح . يقولون انها ما ليس بالمادة .

ـ فهل تعرف ، على الأقل ، ما هي المادة ؟

ـ أعرف جيدا . هذه الصخرة ، مثلا ، رمادية اللون ، وشكلها هكذا ، وهي ذات أبعاد ثلاثة ، ولها وزن ، وتقبل الانقسام .

فقال الأبرقي : « وبعد ! هذا الشيء الذي تراه منقسما ، وثقيلا ، ورماديا ، هل تقول لي : ما هو ؟ .. أنت ترى بعض خواصه ، ولكن جوهر الشيء ، هل تعرفه ؟ »

ـ كلا .

ـ اذن فأنت لا تعرف ما هي المادة .

ثم وجه السيد ميكروميجاس حديثه الى حكيم آخر كان ممسكا به فوق ابهامه ، فسأله عن حقيقة روحه ، والعمل الذي تعمله ، فقال الفيلسوف الماليبرانشي : **((لا شيء على الاطلاق . فالله يعمل من أجلي كل شيء . وأرى فيه كل شيء ، وأؤدي بواسطته كل شيء ، دون أن أتدخل في شيء .))** (١)

فأجاب الحكيم الأبرقي : **((اذن كان من الأفضل ألا تكون .))** ثم قال لواحد من أتباع « ليبنتز » وكان حاضرا الحديث :

ـ وانت ، يا صديقي ، **ما روحك ؟**

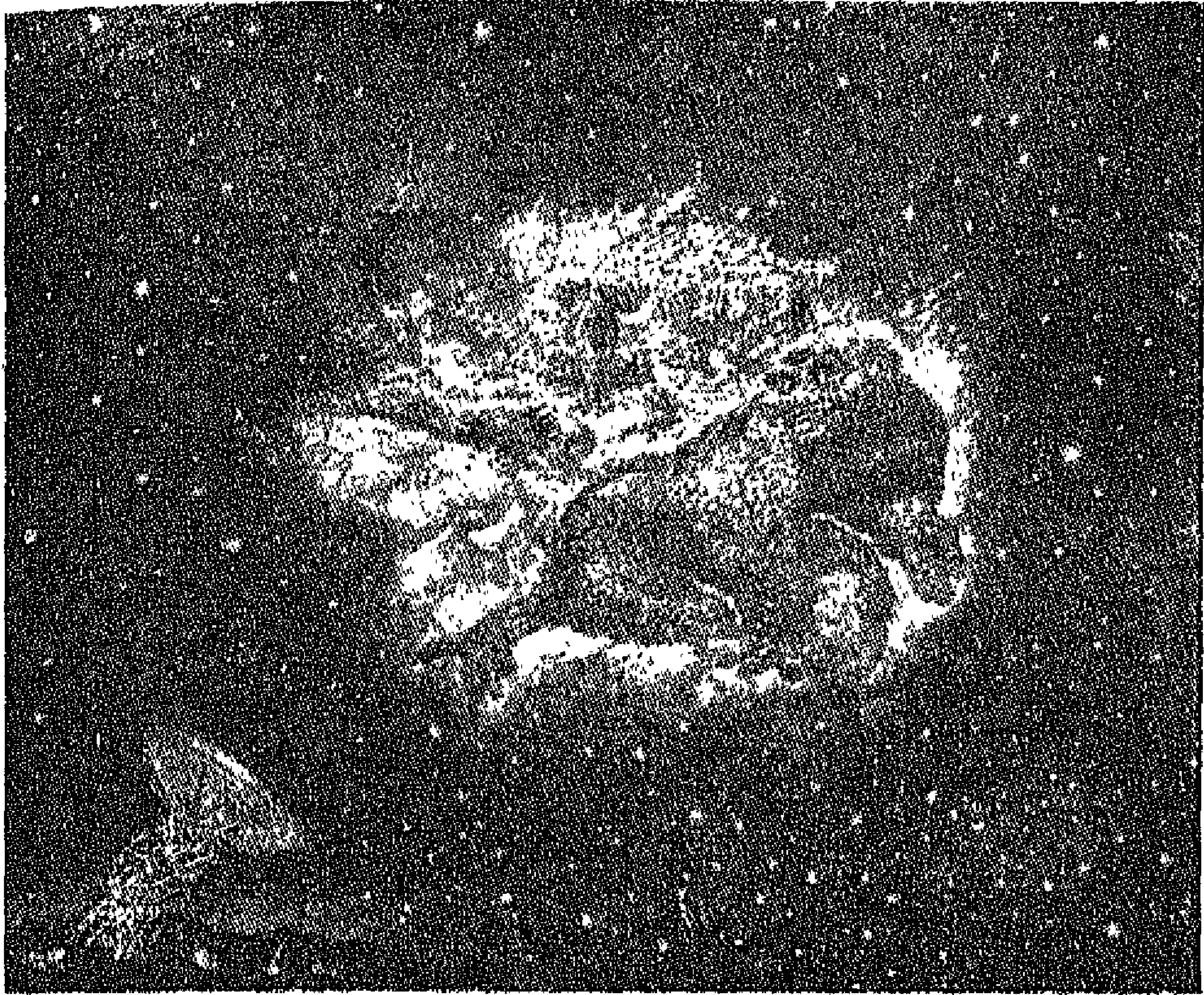
ـ انها المؤشر الذي يدل على الوقت ، بينما يرسل جسمي دقاته . أو اذا شئت ، فهي التي تدق ، بينما جسمي يحدد المواقيت . **أو أن روحي مرآة الكون ، وجسمي اطار المرآة .** ان هذا كله شديد الوضوح . (٢)

---

(١) هذه نظرية (وحدة الكون) التي قال بها «ماليبرانش»، ودافع عنها « سبينوزا » .

(٢) هذه نظرية (الانسجام السابق) عند « ليبنتز » .

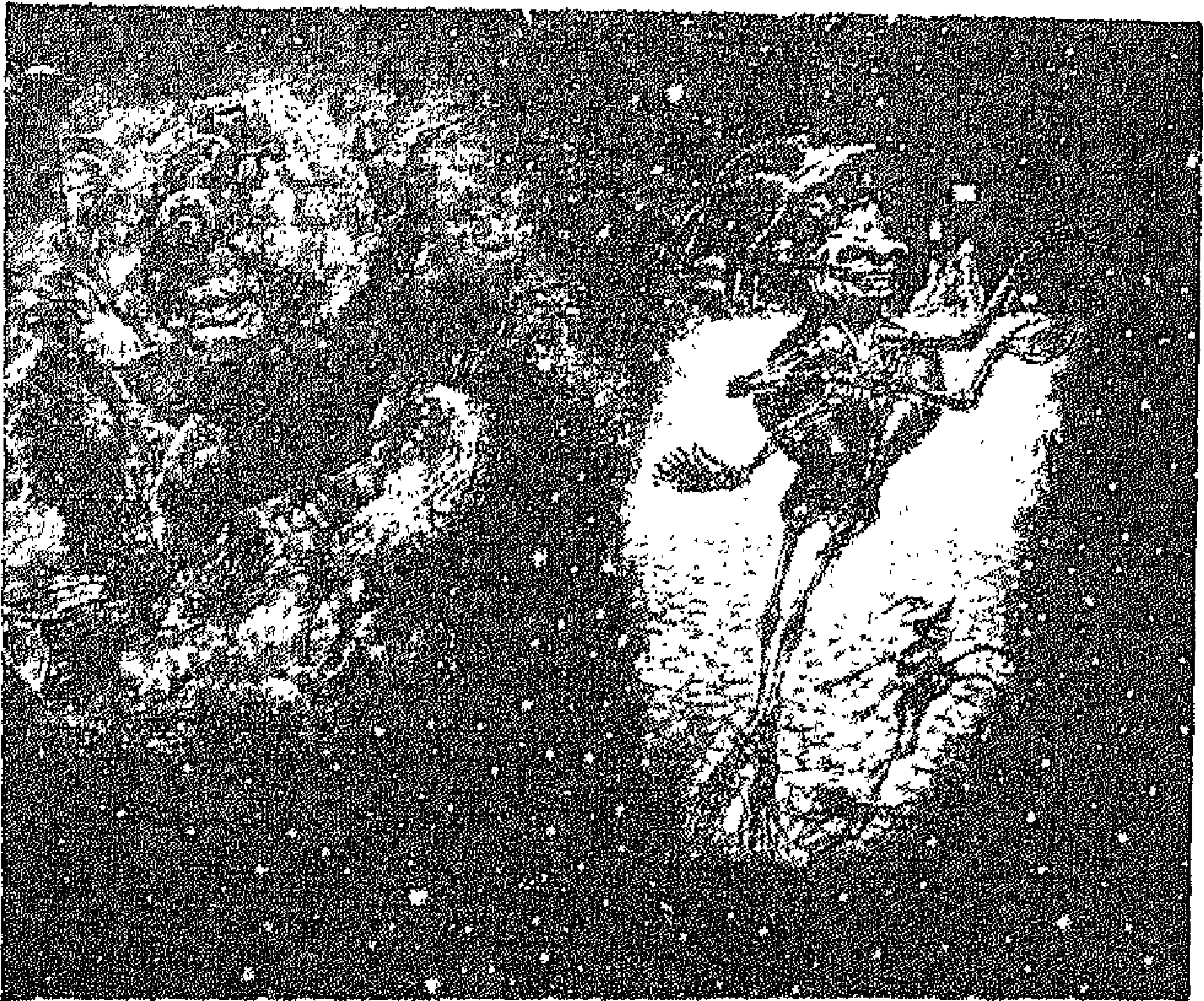
وكان هناك شاب من أتباع « لوك » . فلما وجه اليه السؤال ، أجاب قائلا : « لست أعرف الطريقة التى أفكر بها . لكننى أعرف أننى لم أفكر قط الا مستعينا بحواسى . انى أحترم القدرة السرمدية ؛ (البقية على الصفحة المقابلة)



على خلاف ما تصور « فولتير » ، نشر العالم المعاصر « راى برادبورى» منذ أيام ـ بعد رحلة «جاجارين» الى الفضاء ـ بحثا وضحه بهذين الرسمين من ريشة الفنان « فرد فريمان» ، وترى فى أولهما (فوق هذا الكلام) أحد مخلوقات الكواكب الاخرى، وقد تصوره العالم والرسام أشبه بالحيوان الضخم، ذا جلد سميك للغاية (بحكم قوة الجاذبية وقسوة الطقس)

وليس من شأنى أن أضع لها حدودا ، فلست أؤكد شيئا ، ويسرنى أن أؤمن بوجود أشياء ممكنة أكثر مما أظن . »

فابتسم المارد الأبرقى لحكمة المتكلم ورشاده . وكان القزم الزحلى خليقا بأن يعانقه ، رغم (**البقية على الصفحة التالية**)



وهذا (الى اليسار) مخلوق من كائنات كوكب آخر تكثر فيه المياه والأبخرة ، ولهذا تراه أشبه بسمكة ضخمة ، يبلغ من ضخامتها انها احتاجت الى ثلاثة عيون فى رأسها ، وعينين أخريين وعقل أيضا ، فى ذيلها ! .. أما المخلوق الذى الى اليمين فيعيش فى كوكب تقل فيه الجاذبية ويصفو الطقس ، ومن ثم فهو طويل، خفيف الحركة ، كبير الخياشيم والرئتين !

انعدام النسبة بينهما ، لو لم تكن هناك ، لسوء الحظ ، تلك الدابة ذات القلنسوة المربعة (١) ، التى قطعت حديث الدواب الفيلسوفة الأخرى . قالت الدابة انها تعرف السر كله ، **وراحت تنظر الى ساكنى السماء ، من أعلى الى أسفل ، ثم أكدت لهما أن شخصيتهما ، وعوالمهما ، وشموسهما ونجومهما ، جميعا ، قد خلقت لتكون فى خدمة الإنسان دون غيره .**

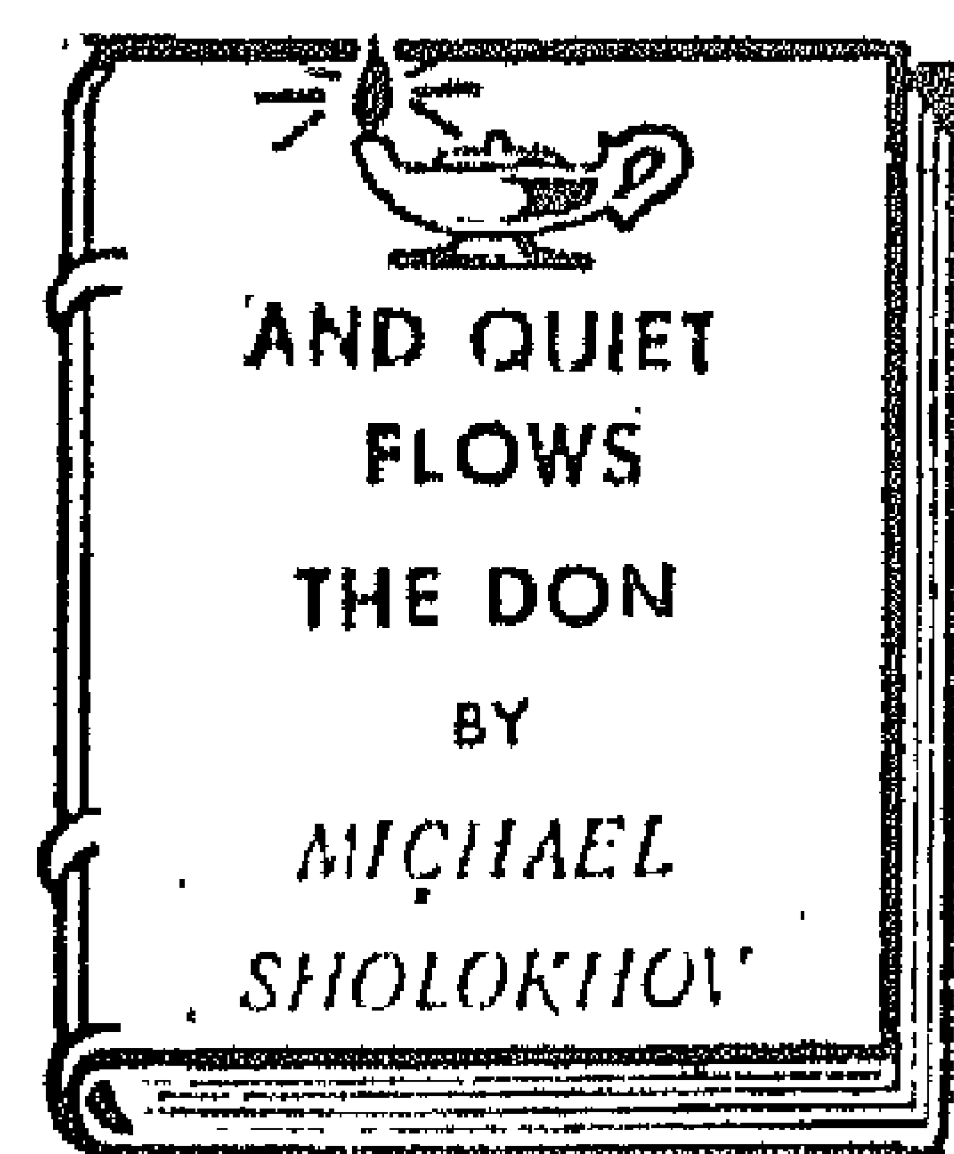
عندئذ مال كل من السائحين على صاحبه ، وقد تملكه ذلك الضحك العنيف الذى هو من خواص الآلهة ، فيما يروى هومير . وكانت أكتافهما وأحشاؤهما ترتج من هول الضحك ، فمالت السفينة ، وسقطت فى جيب سروال الزحلى ، فأخذا يبحثان عنها ، وطال بحثهما . . حتى عثرا على الجماعة ، فى آخر الأمر ، فعملا على تهدئتها ، واعادة النظام اليها .

وكان الأبرقى يحدث الجماعة فى رفق شديد ، وأن كان فى أعماقه يستشعر شيئا من الغضب على تلك الذرات التى **تتناهى فى الصغر ، لكن كبرياءها لا تقف عند حد** . وتعهد لها بأن يؤلف من أجلها كتابا فلسفيا مبسطا ، تجد فيه غايتها من كل شىء .

وحقق وعده ، فأعطاها كتابه قبل أن يرحل . فأخذته معها الى باريس ، وأودعته أكاديمية العلوم هناك . . الا أن السكرتير الشيخ عندما فتحه لم يجد غير صفحات بيضاء ؛ فغمغم قائلا : « آه ! لقد كنت أشك فى هذا كثيرا ! » .

---

(١) أى دكتور من جامعة السوربون .



نهر (الدون) الهادئ!

اروع قصة طويلة للأديب السوفييتي المعاصر

ميخائيل شولوخوف

تلخيص : كليمانس م . عبد الملك

ميخائيل شولوخوف



• **ولد** فى عام ١٩٠٥، ونشأ فى أسرة رقيقة الحال ، وعاش فترة طفولته وصباه بمسقط رأسه بين القوزاقيين الذين يعيشون على ضفاف نهر الدون .

• **تفتحت** مواهبه الفنية فى سن مبكرة ، عقب الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧ .

• **اهتم** به النقاد فى الاتحاد السوفييتى ، وعدوه أعظم روائى معاصر فى بلادهم . وكان مرشحا لنيل جائزة نوبل للأدب التى حصل عليها زميله باسترناك منذ عامين .

• **ترجمت** أعماله الى أكثر من ٥٥ لغة ، وصدر منها أكثر من ٢٠ مليون نسخة ، واستعانت السينما بمعظمها .

• **اصطحبه** خروشوف معه فى رحلته الأخيرة لأمريكا ، حيث قوبل بحفاوة بالغة .

• **من** أبرز أعماله : «**نهر الدون الهادىء**» ـ التى نقدمها لك فى هـذا العدد ـ وتعد أقوى رواية ظهرت فى روسيا الحديثة حتى الآن . وقد وضعها ماكسيم جوركى فى مرتبة رواية تولستوى المعروفة : «الحرب والسلام» . كذلك له : «**التربة العذراء**» ، «**مصير انسان**» . وتعد الأولى تسجيلا فنيا رائعا للثورة الاجتماعية فى الريف الروسى . أما الثانية فقد عالج فيها عاطفتى الوطنية والأبوة عندما تدهمهما الكوارث والأخطار .

• **صور** فى روايته « نهر الدون الهادىء » ـ التى تقرأ فى الصفحات التالية تلخيصا لها ـ قطاعا عريضا من حياة القوزاقيين ، (الذين يعيشون فى جنوب روسيا : على ضفاف نهر الدون) ، فأبدع فى وصف أخلاقهم وعاداتهم التى تختلف اختلافا شاسعا عن عادات واخلاق الروس من ابناء الشمال ، كما صور تقاليدهم وطباعهم فى الحب ، والزواج ، والحرب .. الخ .. وبذلك عرض لكل ما احتواه هذا القطاع من مظاهر الحياة اليومية ، والمشاكل الاخلاقية والاجتماعية .. الى ان انتقل فى القسم الاخير من القصة الى تصوير احداث الثورة الشيوعية التى اجتاحت روسيا فى عام ١٩١٧ ، فأسهب فى وصف القتال والمعارك الحربية بقدر كبير من التفصيل الذى لايهم القارىء العربى فى شىء ، ومن ثم رأينا الاكتفاء بتلخيص القسم الاول من القصة الذى يصور شعب القوزاق تصويرا رائعا كما سترى . (وقد عمد الفيلم الروسى الذى اقتبس عن القصة الى نفس الاجراء ، فاستبعد القسم الحربى الاخير ، واكتفى بالقسم الاول الذى نلخصه لك ـ عن الكتاب الاصلى ـ فيما يلى) :

عاد المحارب القوزاقى «بروكوفىميليخوف» ـ أثناء الحرب الاخيرة التى نشبت ضد تركيا ـ الى قريته (تاتارسك) التى نطل على نهر الدون.. وكانت بصحبته سيدة تركية من أسرى الحرب ، اتخذها زوجة ، وجاء بها الى القرية ! .. وكانت ضئيلة الجسم ، أخفت وجهها خلف خمار ، وتدثرت بشال حريرى ذى رائحة نفاذة ، كان يغطى جسدها من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وقد زينته رسوم بديعة اللون ، أثارت غيرة القرويات وحسدهن !

غير أن زواج « بروكوفى » المفاجىء ، أثار ضده حملة من السخط والاستنكار ، فطرده والده ، وتجمع الأهالى حوله ثائرين ساخطين ، وهم يستنكرون تصرفه على مسمع منه . أما هو فقد تجهم وعبس ، ولم يفلح العرق الذى تصبب على جبينه فى التخفيف عنه ..

ومنذ وقع ذلك الحادث ، عاش « بروكوفى » مع زوجته فى مسكن جديد شيده على ضفة الدون ، واعتزل الناس ، لكن الألسنة ظلت تلوك قصة زواجهما ، وانتشرت الاشاعات تحكى عن جمال الزوجة التركية تارة ، وعن قبح خلقتها تارة أخرى ! .. بل ان نساء القرية أخذن يتصيدن أخبارها ، ويذعنها فى كل مكان ، حتى تملك الحقد عليها قلوب النساء فى القرية ، اذ ما شأنهن بهذه الغريبة التركية ، وفى القرية حسان من بناتها لا يجدن أزواجا ؟ !

بل لقد أشاعت النسوة أيضا أنها ساحرة ، وأكدت احداهن انها شاهدتها عند بزوغ الفجر حافية القدمين ، تحلب بقرة حميها « ستاكوف » ، فما لبثت البقرة أن ضمر ضرعها ، ونفقت ! .. وصادف أن اجتاح الموت عددا من المواشى فى

ذلك العام ، مما جعل رجال القرية يجمعون على التخلص من تلك المرأة ! .. فهاجموا منزل « بروكوفى » بالفعل ، وانقضوا على زوجته ، وجروها من شعرها حتى كادوا أن يقضوا عليها .. ولم يخلصها من أيديهم سوى نجدة زوجها الذى شهر سيفه ، وأعمله فيهم .. وأثناء المعركة ، سقطت زوجته على الارض والدم يسيل من شفتيها . وفى تلك الليلة لفظت أنفاسها ، بعد أن وضعت طفلا لم تكتمل مدة حمله فى أحشائها ..

وولد طفل « ماركوفى » يتيم الام .. واطلقوا عليه اسم « بنتاليمون » تكريما لجده . وتولت جدته تربيته ، بعد أن حكم على ماركوفى بالاشغال الشاقة لاثنى عشر عاما ، بسبب المعركة التى دارت فى بيته ليلة وفاة زوجته ..

.. ومضت سنوات العقوبة ، وخرج ماركوفى من سجنه ليجد ولده «بنتاليمون» طفلا يافعا ، أسمر البشرة ، جموحا لا يسهل قياده .. وقد اختلط فى عروقه الدم التركى بالدم القوزاقى ، فأكسباه جمال الطلعة والشراسة ، وهى صفات تركية ، الى جانب انفه الافطس الذى حفظ له صفة القوزاقى ..

ولما توفى والده ، انفرد «بنتاليمون» بالمزرعة ، وضم اليها ما جاورها من الأراضى ، كما أدخل عليها تحسينات كثيرة .. ثم تزوج .. وبمرور الايام امتلأ جسمه ، حتى أصبح بدينا ، حاد المزاج ، يثور لأتفه الأسباب .. مما أثر فى زوجته « الينشنا » ، وجعلها تبدو أكبر من سنها ، إذ ذوى جمالها ، وتسللت الشيخوخة الى وجهها .

وهكذا أصبحت أسرة «بنتاليمون ميليخوف» ، فى النهاية ، مكونة من أربعة أفراد ، عداه وزوجته ، وهم : ((**بيوترا**)) ابنه الأكبر ، وزوجته ((**داريا**)) ، و ((**جريجور**)) الابن الأصغر

الذى عرف باسم « جريشكا » ، وأخيرا ابنتـه الصـغرى ((**دونيا**)) التى كانت معبودته ..

***

استيقظ « بنتاليمون » فى الفجر . وأخذ يتطلع الى السماء فاذا النجوم لاتزال تومض على صـفحتها ، بينمـا لفت نهر (الدون) سحابة كثيفة اتخـذت طريقها نحو سفح التل . ومـا أن فتـح باب الحظيرة ، حتى لمح « داريا » زوجة ابنه الأكبر متجهة بقوامها الممشوق الى الابقار كى تحلبها ، ولم يكن يسـتر جسـدها البض غير غلالة رقيقة كشـفت عن مفاتنها ، وجعلت « بنتاليمون » يتسمر فى مكانه وهو يراها تخطر على العشب الأخضر الذى أخـذ يتهدل تحت قدميها العاريتين المبللتين بالندى ..

لـكنه ما لبث أن انصرف عما رآه . واتجه صـوب سرير ابنه الاصغر «جريجور» فأيقظه ، كى يصاحبه فى الصيد .. وما أن انفرد به فى الطريق ، حتى بادره قائلا :

ـ لقد لاحظت أنك و « أكسينيا أستاكوفا » ..

وعنـدئذ تورد وجه « جريجور » ، واحمرت وجنتـاه ، لـكن الأب استـطرد قائلا بحـدة : ((**احـذر يا بنى .. فان ((ستيبان)) جارنا ، ولن أسمح لك بمغازلة زوجته ، وهاأنذا أحذرك ، فان لم ترتدع ، ففى هذه العصا خير رادع لك .. ومن الآن فصاعدا لن تخط قدماك ليلا خارج نطاق فناء الدار .. أسمعت ؟ !**))

فأجاب الفتى ، وقد غاض ماء وجهه :

« انها أكاذيب يا أبى ! »

ـ كفى

ـ ماذا لو زعم الناس ..

ـ صه ! .. كفى يا « ابن الكلبة » !

ثم ساد الصمت ، فألجم لسانيهما .. ومضت فترة اصطاد فيها « جريجور » سمكة كبيرة الحجم ، فقال أبوه : « امض بها للتاجر « موكوف » واشتر بثمنها تبغا » . ثم مضى فى طريقه ، وخلفه جريجور ، بينما وجهه يتميز غيظا ، وأسنانه تعض على شفتيه ، وذهنه يغلى بفكرة واحدة اخذ يرددها لنفسه : « شئت أم لم تشأ ، سأوافيها هذا المساء ، ولو أدى الأمر الى كسر ساقى ! »

ومضى الى بيت « موكوف » ليبيع له السمكة .. وفى الطريق صادف صديقه ((**ميتكا**)) ، فاصطحبه معه .. وما إن بلغا بيت التاجر ، حتى لمحا فتاة تجلس فى شرفة الدار فوق مقعد متحرك ، وهى تلتقط حبات « الفراولة » من طبق امامها . وسألتهما عن بغيتهما ، فتلعثم « جريجور » ، لكن « ميتكا » أسرع الى نجدته ، فسألها عما اذا كانت تود شراء سمك منهما ؟ .. فنهضت الفتاة إلى الداخل ، وقد انتعلت خفين مطرزين ، وعلى جسمها غلالة رقيقة استطاع «ميتكا» أن يستشف من ورائها الخط الفاصل بين ساقيها ، بينما بهره جمالها وبياض ساقيها الناصع ، لدرجة أنه لكز السمكة ــ بدلا من أن يلكز جريجور ! ــ وهو يلفت نظره قائلا : « يا له من ثوب شفاف كالزجاج ! »

واستطاع«ميتكا» أن ينفرد بالفتاة ــ بينماكان «جريجور» منهمكا مع الطاهى فىمناقشة ثمن السمكة ! ــ فأخذ يجاذبها أطراف الحديث .. وحين لاحظ شغفها بصيد السمك ، وعدها برحلة ذات يوم ، لكنها طلبت اليه أن يوقظها فى ساعة مبكرة .. واعقب ذلك حديثقصير بينهما عن الحب والزواج، أنهاه والدها الذى اقترب منهما بجسمه البدين ، وهو ينظر الي ميتكا شزرا . لكن ابنته كانت أسرع منه اذ قالت :

ــ لقد أتانا بشىء من السمك يا والدى ..
وعندئذ أقبل « جريجور » ، فأنقذ الموقف .

***

عاد جريجور فى تلك الليلة قرب الفجر ، أثناء صياح الديكة ، فتسلل الى « البيت » حتى لا يحس به أحد . لكنه لم يتمكن من النوم ، اذ أزعجه صياح ابن أخيه ، ومحاولة « داريا » أسكاته بالغناء . ومن جهة أخرى ضايقته حركة أخيه الاكبر « بيوترا » الذى كان قد اعتزم السفر فى الصباح التالى ، ليؤدى الخدمة العسكرية . وكان معنى هذا انه سينفرد بأعمال المزرعة الى جانب والده .

ولكن ما أن لاح الفجر حتى دعته أمه ، وطلبت اليه أن يوقظ جاره « ستيبان » ، الذى كان يعتزم الرحيل أيضا برفقة بيوترا وثلاثين شابا من القرية . ونظر جريجور من النافذة ، ففوجىء بستيبان راقدا على « بطانية » ، وقد أسندت زوجته « أكسينيا » رأسها على صدره . ورغم الضوء الشحيح فقد استطاع جريجور أن يلمح ساقيها الناصعى البياض .. فراح يحملق فيها ، وفى حلقه جفاف ، وفى رأسه طنين يكاد يفجره ! .. ثم نادى على « ستيبان » ، وهو أشبه بمذهول ، فاستيقظت « أكسينيا » مرتبكة . وفيما هى تحاول أن تستر ذراعيها العاريتين ، اذا بقدميها تتعثران ، وقد سيطرت عليها حالة ارتباك مفاجئة ، مما جعل « جريجور » يسرع بالاختفاء .. حتى لا يسبب لها ضيقا وازعاجا ..

وفيما كان « جريجور » متجها صوب النهر بجواد أخيه : اذا به يرى « أكسينيا » تهبط الى سفح التل ، بقدها المشوق وشعرها المتهدل على كتفيها ، والهواء يعبث به

.. وكان فى يدها « دلو » حرصت على الاحتفاظ بما فيه من ماء ، أما يدها الاخرى فكانت مشغولة بثوبها ، اذ اخذت تدس طياته بين ركبتيها اتقاء للريح .. لكن « جريجور » ما لبث أن استدار ناحيتها وهو مندفع بشدة ، وقد ثارت من خلفه سحابة من الغبار .. وما أن أصبح على قيد خطوة منها حتى بادرته قائلة بلهجة حادة :

ــ ماذا دهاك أيها الشيطان الأرعن ؟ ! .. كدت أن تقتلنى .. سأبلغ أباك برعونتك هذه !

ــ لا تحنقى على أيتها الجارة العزيزة .. فقد أكون ذا فائدة لك بعد رحيل زوجك .. بل قد تطلبين مساعدتى وقت الحصاد ، فسوف تكونين شبه أرملة .

ثم ابتسم مستطردا : « لعلك ستشعرين بفراغ بعد سفره ! »

ــ ولم لا ؟ .. انتظر حتى تتزوج ، وعندئذ ستعرف معنى الحنين والاشتياق .

ــ ومع ذلك فالبعض منكن يسعدن بفراق أزواجهن .. بل اننى أؤكد لك أن « داريا » سيزداد وزنها بعد رحيل شقيقى « بيوترا » !

ــ ان الزوج يمتص دماء زوجته .. ألا تعتزم الزواج قريبا ؟

ــ لست ادرى ، فهذا يتوقف على رغبة والدى .. ولا اظن أن شيئا من هذا سيتم قبل ان أؤدى الخدمة العسكرية .

ــ لست انصحك بالزواج وأنت ، بعد ، حديث السن .. فما الزواج الا ألم وشقاء .

ــ ليست لدى رغبة فى الزواج ، فهناك من تحبنى وتهوانى ، على ما أنا عليه الآن ، سيما وأنك ستودعين « ستيبان » اليوم !

ـ اياك أن تتلاعب معى ، والا أبلغت ستيبان .. صوب سهامك نحو غيرى .. ودعنى وشانى !

ـ بل سأزداد تعلقا بك ، وتشوقا للتطلع اليك .

وعندئذ انفرجت شفتاها عن ابتسامة ، وحاولت استئناف السير ، غير أن جريجور قطع عليها الطريق .. ولم يثنه عن سلوكه هذا توبيخها له ، ومناشدتها اياه بالكف عن ملاحقتها . اذ ظل يتبعها الى أن بلغت دارها .. بل انه وقف يشاهد توديعها لستيبان ، واحتضانه اياها .. ولم يكف عن مطاردتها بعينيه ، الى أن غاب ستيبان عن الانظار .

ولما كان ستيبان قد عهد لبنتاليمون بادارة شئون مزرعته ، ورعاية زوجته ، فقد اشرك الاخير الزوجة « أكسينيا » فى تحمل التبعة ، واعتبرها فردا من أفراد أسرته .. وهكذا هيأت الظروف لجريجور فرصة ذهبية لمكاشفتها بحبه لها .

وذات يوم ، كانت « أكسينيا » تشارك الاسرة فى رحلة للصيد . لكن الجو ما لبث أن ساء ، اذ هبت زوبعة شديدة ، عصفت الريح على أثرها ، وأبرق الجو وأرعد ، ثم هطلت الامطار بكميات وفيرة .. ولمح « جريجور » أكسينيا وقد ارتعدت فرائصها ، وتجمدت عضلاتها من شدة البرد ، فأثار هذا نخوته وحميته ، فما لبث أن قادها الى كومة من « التبن » ونصحها بدفن رأسها فيها حتى الكتفين .. ثم استلقى هو بجوارها ، والبرد يزلزل جسمه ..

وأحس بالدفء شيئا فشيئا .. وفجأة تحركت الرغبة فى مشاعره ، فأمسك برأسها ، وأداره نحوه . لكنها تملصت ، ونهضت ثائرة ولسانها يرغى ويزبد .. وبوغت بهجومها ، فبادرها قائلا :

ـ الزمى الصمت .. فان والدى على قيد خطوات منا ، وهو واقف لى بالمرصاد !

ـ دعني ، والا صرخت .. ((أيها الأب بنتاليمون)) !

وعندئذ سمعا صوت بنتاليمون يقترب منهما قائلا : « فيم الصياح؟ هل ضللتما الطريق؟ » .. فهب جريجور من مكانه ، ووقفت « أكسينيا » تسوى خصلات شعرها المبعثرة ، وهى تقول :

ـ لا شيء يا أبى .. انني أكاد أموت من شدة البرد .

ـ اذن هاك كومة من التبن يافتاتى، اسرعى الىالاستدفاء بها ..

ونظرت اليه ، وابتسمت وهى تنحنى على « زكيبة » السمك ، التى تركتها بجوارها ..

***

كانت « أكسينيا » قد تعرضت لحادث بشع غريب ، حين كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، أى قبل أن تتزوج بعام واحد ..

فقد حدث ذات يوم أن باغتها أبوها ـ وكان فى الخمسين من عمره ـ فى الحقل الذى كان يبعد مسافة خمسة أميال عن القرية ..وهددها بالقتل اذا لم ترضخ لطلبه..أو باحت لأحد بكلمة واحدة !

لقد اغتصبها والدها قهرا .. وما أن أفلتت منه ، حتى أطلقت ساقيها للريح متجهة الى البيت ، وهى تلملم ثوبها الممزق .. **وحين بلغت البيت ، ارتمت تحت قدمى أمها ، وهى تبكى بكاء مرا ، وأفلت لسانها ، فباحت لأمها بكل ما حدث !**

واصطحبتها الام مع ولدها الاكبر ـ على ظهور الخيل ـ الى الحقل ، حيث كان الوالد المجرم مستلقيا على ظهره ، ورائحة الخمر تفوح من فمه .. ولم تتمالك الأم نفسها ،

فانهــالت مع ابنها عليه ، وأوســعاه ضربا بآلات حادة ، على مشهد من الفتاة التى كانت ترتعــد خوفا .. ثم حملاه الى البيت . حيث توفى بعــد قليل .. واشــاعا بين الجيران انه سقط من عربة النقل فجرح ، ومات متاثرا بجراحه .

وفى اليوم التالى لزواج « أكســينيا » شرعت حمــاتها فى مضايقتها ، فأرهقتها بحلب الابقار ، واعداد الطعام ، وترتيب شئون البيت والعمل ، بدعوى أنها أصبحت عجوزا واهنة !

كما أن «ستيبان» ـ زوجها ـ اتجه اليها فى اليوم ذاته . فقادها الى جرن الفلال حيث أوسعها ضربا .. بلا سبب .. ثم أهملها وانصرف عنها .. وأصبح يقضى كل مساء ـ بعد أن يحبسها وحدها ـ مع النسوة الأخريات !

ومضت علاقتها به على هذا المنوال ، الى أن انجبت طفلها الأول ، الذى ماتت حماتها عقب ولادته .. وكان هذا ايذانا بالصفاء والسلام ، اذ هدأ « ستيبان » قليلا ، لكنه مع هذا لم يكن يدللها ، كمــا لم يكن يقضى ليالى الاســبوع كلها فى البيت .. أما هى فكانت تجد مشــقة بالغة فى التوفيق بين شئون بيتها وشــئون العمل فى المزرعة ورعاية الماشــية .. وكانت النتيجــة أن مات الطفــل . قبل أن ينقضى عام على ولادته .. لكن جذوة الحب كانت قــد انطفأت فى قلبها ، وصارت تقوم على خدمة زوجها بفتور وضيق ..

لذلك كانت الطريق ميسورة أمام « جريجور » .. ورغم نفورها منه ، وصــدها له ، الا انها أحست ـ بعــد فترة ـ بنفسها مدفوعة اليه ، دون أن تدرى .. فصارت تتأنق فى ملبسها أيام الآحاد ، وتكثر من ترددها على الحقل .. قاصدة أن تجذب انتباهه اليها !

لكن رحيل زوجها الى العسكر كان بمثابة المســكن الذى خدر احساسها تجاه ((جريجور)) .. فقد عزمت على الاقلال

من مقابلاته لها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا .. بل أن عزمها قد اشتد بعد حادثة الصيد بصفة خاصة !

***

وصادف أن التقت به بعد أيام . فى الطريق . وكان ممتطيا صهوة جواده، فخفضت بصرها متحاشية اياه ، لكنه لكز جواده فقفز قفزة كادت تودى بحياتها ، لولا انه تدارك الامر فى اللحظة الأخيرة فشد العنان . مما جعل الجواد يقف فى مكانه ، رافعا رجليه الأماميتين .. واحتدت « أكسينيا » ، فأخذت تعنفه بشدة ، بينما هو رابط الجأش ، يقابل اساءتها بابتسامة وحنان .. وقال لها :

ــ لم لا تمضين معى بقية النهار ؟

ــ لأنك لا تستحق ذلك !

وحملق فى عينيها ، فوجد الصمت يخيم عليهما ، لكن دمعة ترقرقت فيهما . ثم اضطربت شفتاها ، وهمست قائلة وهى تكاد تختنق : « دعنى وشأنى يا جريجور .. فلست غاضبة .. اننى .. » وأمسكت عن الكلام ، ثم مضت فى طريقها ..

وما أن حل يوم الحصاد ، حتى خرجت القرية بأكملها للعمل ، وغصت المراعى بالنساء اللاتى شابهن الزهور بملابسهن المطرزة المتعددة الألوان كقوس قزح . **أما جريجور ، الذى ملكت ((أكسينيا)) كل مشاعره وعواطفه ، فلم يكن يرى شيئا سواها ! .. وصار يسهو عن عمله لفرط انشغاله بها . وكثيرا ما كان يكيل لها القبلات فى خياله ، ويحدثها ــ دون أن تتحرك شفتاه ــ بأعذب الكلمات ، وهو لا يدرى كيف جادت بها قريحته !** .. كل ذلك وهى ترمقه بنظرات يتجلى فيها الحقد والكراهية ..

ولم يكن ما يدور بينهما بخاف عن عينى الأب ، الذى كلف

جريجور ـ رغم تمنعه ـ بحراسة الثيران ليلا .. ووجد المحب المتيم الفرصة سانحة أمامه لكى يواصل مناوراته ومطارداته للمرأة التى صدته ، وأغلقت دونه أبواب قلبها ! .. وكان الزمن كفيلا بعلاج سوء التفاهم الذى نشأ من جانبها وحدها .. ويبدو أن الحب كالزهور ، كلما أورقت على مهل ، زاد جمالها وانتفع الناس بها .. فما أن انقضى موسم الحصاد ، حتى كانت « أكسينيا » قد تحولت الى امرأة اخرى ، وانزاح عن قلبها سوء التفاهم ، فأصبحت تلتقى بجريجور علنا ! ورغم أن نساء القرية كن يلكن سيرتها ، ويشرن اليها كلما التقت عيونهن بها ، الا أنها ظلت شامخة الرأس ، سعيدة بحبها .

بل انها ردت ((بنتاليمون)) بشجاعة ، وجرأة ، عندما هددها بابلاغ زوجها . فقد أكدت له ، والسعادة تغمرها ، أن جريجور قد اصبح ملكا لها ، ولن تستطيع قوة على الأرض أن تسلبها إياه !

وغادر الاب بيتها ، مطأطىء الرأس ، الى داره ، وهو يسرع الخطى ـ رغم عرجه ـ وما أن دلف الى داخل الدار حتى شاهد جريجور جالسا أمامه ، فلم يتمالك نفسه ، وانهال على ظهره بعصاه ، وهو يهدده ويتوعده ، ان لم يذعن لتوجيهاته ، واعدا بأن يزوجه من أغنى فتاة فى القرية ! .. لكن الفتى المتيم لم يخضع للتهديد ، بعد ان ازدادت جذوة النار فى قلبه اشتعالا ، وظل يتسلل الى « أكسينيا » كل ليلة فيقضى الليل بجوارها .. ثم يعود عند مطلع الفجر .

بل ان اقتراب عودة « ستيبان » ذاته لم يردعهما ، ولم يردهما عن غيهما ومجونهما الفاضح ! .. وذات أصيل ، كان جريجور قد توسد ذراع أكسينيا ، بينما كانت هى تداعب خصلات شعره ، وفجأة قالت له وهى تحبس بمرارة

الفراق الوشيكة الحلول :

ـ لعلك ستهجرني عند عودة « ستيبان » .. ما اشد خوفى منه ! .. لابد أنه سيسفك دمى .. اتخيفك عودته ؟

واجاب وهو يتثاءب لشدة حاجته الى النوم الذى افتقده بسببها :

ـ ليست عودة ستيبان بالأمر المهم ، بل ان المهم هو اعتزام والدى تزويجى من ((ناتاليا كورشينوفا)) !

ـ ناتاليا ؟ ! انها فتاة ساحرة الجمال .. لقد رأيتها يوم الأحد فى الكنيسة ، وكانت على قدر كبير من الأناقة !

ـ لا تحدثينى عن جمالها وسحرها ، فلست اتوق الى الزواج من سواك !

وعندئذ امسكت بيديه الخشنتين . واخذت تضغط بهما على صدرها المضطرب ، ويديها الباردتين ، ووجنتيها الشاحبتين، ثم صرخت قائلة : ((**ألا تبا لك يا جريجور ! .. لم اعترضت طريقى ؟ لست أدرى ماذا أفعل .. اننى ضائعة .. ان ((ستيبان)) على وشك أن يعود ، فكيف أواجهه ؟ ومن ترى سيقف فى صفى ، ويشد أزرى ؟**))

وأخلد جريجور الى الصمت ، فأخذت تتنقل بعينيها الحزينتين فى وجهه ، واذا بشعور قوى يجتاحها ، فيزيل السدود من أمامها .. وعندئذ وجدت نفسها تقبله بجنون فى وجهه وعنقه وذراعيه ، بينما جسمه كله يهتز ويرتجف . ثم همست قائلة : «جريجور . . جريشكا . . يا أحب مخلوق الى . . لنرحل من هنا ، ولو الى المناجم .. حيث استطيع ان احبك وان أقوم على خدمتك .. اجبنى ولو بكلمة واحدة ! »

ولم يجب جريجور ، بل لبث برهة يفكر ، ثم قال ، وقد فتح عينيه الوقادتين اللتين يتميز بهما الآسيويون ، فبدت فيهما مسحة من السخرية : « يا لك من حمقاء يا اكسينيا !

.. كيف أغادر القرية ، وموعدى مع الخدمة العسكرية فى العام القادم ؟ .. وعلاوة على ذلك فان حياة المناجم شاقة مرهقة ، لا أحتملها ! » ..

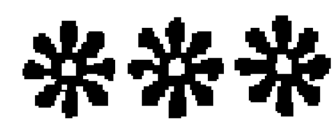
كانت « أكسينيا » تحس بالعذاب يؤجج صدرها ، وانتابها القلق ، من طول تفكيرها فى موقفها .. وكانت قد انقطعت فترة عن رؤية عشيقها الفتى ، مما سبب لها ألما وضيقا ، جعلاها تهرع ذات يوم الى منزل الساحرة العجوز «دروزديخا». حيث ألقت هناك بأحمالها الثقال ، فراحت تسرد عليها أشجانها ، ضارعة : **« أغيثينى أيتها العجوز .. اننى أكاد أحترق شوقا اليه .. لقد أصاب الهزال جسمى ، وغارت عيناى .. انهم سيزوجونه .. أسرعى الى نجدتى ، ولك منى كل ما تطلبين ! »**

.. واصطحبتها الساحرة فى فجر اليوم التالى الى نهر (الدون) حيث أمرتها بأن تنزل الى مياهه ، وعندئذ أخذت تنثر عليها من ماء النهر ، وهى تتمتم ببضع كلمات ، ثم رشت قليلا من الملح عند قدميها وسلمتها ما تبقى من الملح .. وما أن عادت «أكسينيا» الى دارها حتى ترامى الى سمعها صوت قرقعة عجلات ، وصهيل خيل فى الشارع .. فنظرت من النافذة ، واذا بها ترى « ستيبان » قادما ، وهو ممسك بسيفه . وعندئذ شحب وجهها ، وقبعت فى ركن من الدار ، فى انتظار مصيرها .

كان « ستيبان » قد علم بكل شىء منذ أيام ، مما أرهق أعصابه ، حتى امتنع عن الكلام ، وأصبح يثور لأتفه الأسباب ، ويتشاجر بلا سبب .. وخاصة مع « بيوترا » — شقيق جريجور — الذى عاد معه .. **وعندما كاشف زوجته بما لديه من أنباء ، لم تنكر ، بل طلبت منه أن ينتقم منها ، دون أن تحاول اخفاء عواطفها تجاه عشيقها !** .. وهاج «ستيبان»،

وركلها بقدمه ، فأطاح بها الى الباب ، ولما حاولت أن تفرلحق بها وأمسك بشعر رأسها ، ثم طرحها على الارض ، وأوسعها ضربا وركلا حتى كاد أن يقضي عليها !

وانزعج جريجور حين رأى وسمع ما ألم بحبيبته ، وهو يطل عليهما من نافذة المطبخ .. فانطلق لنجدتها : بصحبة أخيه «بيوترا» .. واضطر الشقيقان الى الالتحام بستيبان .. ولولا تدخل بعض الجيران الذين هبوا لفض الشجار ، لسالت الدماء : ولطخت المكان .. ولكان للحادث ضحايا كثيرون !



أمر بنتاليمون ولده جريجور باعداد العربة ، لكى تمضي بهم الى منزل « مايرون كورشينوف » ، كي يطلب منه يد ابنته « ناتاليا » لجريجور .

واستقل الأب العربة ومعه زوجته « الينشنا » ، والعمة الأرملة « فازيليزا » : بالاضافة الى جريجور وشقيقته « دونيا » ، التى جلست فى العربة وقد اغرقت فى الضحك ..

وكان بنتاليمون قد حذر العمة « فازيليزا » من الضحك ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، حتى لا تظهر أسنانها المعوجة المهشمة ، وحتى لا يفشل مشروع الزواج ! .. أما جريجور فقد اعتلي مكان القيادة ، وهو يرتدى قميصا من الساتان ، وأخذ يلهب ظهور الخيل التى انطلقت بهم فى سرعة شديدة : مما أثار دهشة القوزاقيين وهم يفسحون لها الطريق .. حتى الكلاب أخذت تعدو هنا وهناك بين ارجل الخيل .. !

ولما بلغوا بيت « مايرون كورشينوف » ــ وهو فسيح تبدو عليه مظاهر العظمة والفخامة ــ بقي جريجور فى حراسة الخيل ، بينما سار بنتاليمون ، ومن خلفه السيدتان ترفلان

في ثياب فضفاضة تحتك بالأرض فيسمع حفيفها من بعيد .. وهب كورشينوف وزوجته للقائهم .. وأسرعت الزوجة فقدمت لزائريها ثلاثة مقاعد ، بعد أن نفضت عنها الغبار الذى لم يكن له أثر عليها !

وبدأت المناقشة المعهودة : فبنتاليمون يطلب يد ابنتهما «ناتاليا» لولده ، وهما يتمنعان بحجة صغر سنها ، وحاجتهما اليها في البيت والمزرعة .

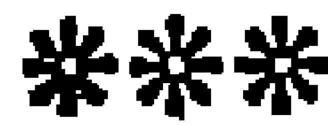
وأحست العمة « فازيليزا » بالفشل يلوح من بعيد : فأسرعت بانقاذ الموقف ، وهى تتململ في مقعدها بسبب وخز أعواد المكنسة التى كانت قد سرقتها عند الدخول ، وأخفتها بين طيات ثيابها ، اعتقادا منها بأن الخاطبة التى تسرق مكنسة العروس لا يرفض لها طلب ، كما تقول التقاليد .. لقد حاولت أن تنقذ الموقف بأن راحت تكيل الثناء والمديح للعروس وأسرتها وسلالتها حتى الجيل الخامس ، ثم تحولت الى العريس وأهله ؛ فأخذت تمدح جدهم وصبرهم على المشاق ، مما جعل أم العروس تحس بالاحراج ، اذ ترقرقت عيناها بدموع هى مزيج من التصنع والجد .. وأخيرا قبل الأب أن يرى جريجور عروسه ..

وأقبلت العروس والخجل يكسو ملامحها ، فوقفت أمام عتبة الحجرة وهى تفرك «مرولتها» بأصابع يديها . وأحست بها الأم فشجعتها على الدخول . وتطلع اليها جريجور مبهورا ، وهو يقلب عينيه ، ويتفحصها من قمة رأسها الى أخمص قدميها .. وأطال النظر الى عينيها الرماديتين المسبلتين ، والى الخال الذى زين وجنتها المتوردة ، ويديها الكبيرتين اللتين بدت عليهما آثار العمل الشاق .. ثم انتقل ببصره الى نهديها البارزين ، وهما يعلوان ويهبطان ، بينما لاحت قمتاها من تحت قميصها الاخضر الشفاف . . **وأخيرا استقر**

ببصره عند قدميها اللتين شعت منهما ظلال نضارة وجمال . وعندئذ ارتاحت نفسه الى الصفقة ، شأنه فى ذلك شأن المرء الذى يعاين فرساً فى السوق ثم يعلن أنها تصلح للشراء !

وما أن انتهت مهمة الفتاة، حتى أمرها والدها بالانصراف، ونهضت خـارجة وهى تلقى نظـرة على جريجـور ، بينمـا ابتسامتها وفضولها يفضـحانها ، وكأنها تريد أن تقول له : « ها قد شاهدتنى ، فما رأيك ؟ »

وأخيرا تم الاتفاق على منح الطرفين مهلة للاسـتفسـار والتفكير ، يتم بعدها القبول أو الرفض .



لم يكتشف « سـتيبان » أنه يحب زوجته حبا حقيقيا ـ ممزوجا بالكراهية والحقد ـ الا بعد أن أحس بخيانتها ! .. ورغم تعذيبه المستمر لها ، الا أنها ظلت محتفظة ببريق عينيها الذى تخلف عن الشعلة التى أوقدها جريجور فى قلبها .. بل انها ظلت حريصة على كتمان تفاصيل علاقتها بجريجور، بالرغم من تهديد زوجهـا اياها بالقتل ، ان لم تذعن لأوامره وتسرد عليه تفاصـيل هـذه العلاقة .. **وكم طلبت اليه أن يقتلها حتى تستريح من حياتها البغيضـة ، لـكنه كان يثور عليها ، ويعتصر صدرها الناعم البض بيديه الخشنتين ، وهو يكاد يزهق روحها.** وكلما نظر الى عينيها وجد فيهما لامبالاة غريبة ، فلا دموع .. ولا تأوهات !

ولم تعد «أكسينيا» ترى جريجور الا نادرا . لكنها التقت به مصادفة ذات مرة عند النهر، وأحست بالدلو يكاد يسقط من يديها الباردتين كالثلج ،عنـدما وقعت عيناها عليه وهو يقود الثيران أمامه ، وفى يده سوط يلوح به .

وتواعدا من جـديد على اللقاء .. على أن يتم فى غيبـة

« ستيبان » ، أثناء حصاد القمح !

وحل موعد اللقاء .. فأسرعت « أكسينيا » ، رغم خوفها من مباغتة زوجها ، لمقابلة العشيق الذى غاب عنها طويلا .. ومضت فترة ، وهى جالسة فى انتظاره ، والقلق يأكل قلبها : ترى أيوافيها ، أم تراه قد نسيها ؟ .. وفيما هى تنهض عائدة بعد أن يئست من قدومه، اذا بها تسمع صوته يناديها .. لقد وفى بوعده !

وجلسا متجاورين ، وتصافحت عيونهما ، ودام اللقاء طويلا ، لكنها ما لبثت أن انفجرت باكية ، وهى تفك ياقة سترتها لتريه آثار التعذيب فى صدرها ، قائلة : « **انه يعتدى على بالضرب المبرح كل مساء ، انه يمتص دمى .. وها أنت تبدو فى صحة وهناء .. بل انك تبدو ككلب لوث شرفى ثم تخلى عنى واختفى !** »

وأخذت تزرر سترتها بيدين مرتعشتين ، وهى تنظر اليه فى هلع ، خشية ان تكون قد كدرته .. لكنه أجابها بقوله :

ــ ان الكلب لا يضايق الكلبة بغير رغبة منها .

وعندئذ أخفت وجهها بيديها ، بعد أن أحست بوقع كلماته ، التى اخترقت قلبها وفجرت الدموع فى عينيها . أما جريجور فقد نظر اليها بجبين مقطب ، ثم قال : « ما هذا يا أكسينيا ؟ .. أترينني سببت لك كدرا ؟ »

فقاطعته ، وقد رفعت يديها عن وجهها : « لقد جئت لأسألك نصحا ، لا لأفرض نفسى عليك .. فلا تخف .. يكفى ما اعانى من مرارة . »

ــ اتحسبين ما بيننا من حب قد تلاشى ؟

فيبدو عليها الهلع وهى تهتف : «كيف تلاشى ؟.. كيف ؟»

ــ لقد حدث ما حدث يا أكسينيا . وينبغى أن نستأنف الحياة دون أن يلقى أحدنا باللوم على الآخر .. وقد فكرت فى

ضرورة وضع حد لـ ..

وعندئذ أمسك عن الكلام.. بينما تقلصت أصابع أكسينيا ، وتوترت أعصابها فى انتظار بقية العبارة ، وقد اجتاحها خوف مدمر ، كما جف حلقها ، ونفد صبرها ، ظنا منها أنه سيقول : « وضع حد لستيبان » ، لكنه قال : « وضع حد لهذه القصة .. ما رأيك ؟ »

وعندئذ نهضت ، محطمة القلب . وسارت نحو البوابة ، وهى تشق طريقها بين زهور عباد الشمس التى بدت فى لون شحوب وجهها .

ونادى جريجور عليها بصوت مختنق .. لكنه سمع صرير البوابة ، وتطلع اليها وهى تبتعد . فلم ير فيها « أكسينيا » التى يعهدها وانما رأى امرأة غريبة عنه ، لا عهد له بها .. !

***

فوجئت أسرة « مايرون كورشينوف » بابنتهما تعلن موافقتها على الزواج من جريجور ، بل تعلن انها لا ترضى بسواه بديلا ! .. ولم يكن أبوها ليوافقها على ذلك . فلئن كان قد أعجب بمهارة جريجور وصبره على مشاق الزراعة ، الا أنه كان يعتقد أنه من الانحطاط أن يرتبط بنسب مع تركى فقير تلوك الألسن سيرته . لذلك حاول أن يثنى ابنته عن عزمها ، لكنها لم تستمع لنصحه ، فاضطر فى النهاية الى افراغ آخر سهم فى جعبته : صرح لها بأن الفتى سىء السمعة ، ولا هم له سوى التسكع ومطاردة النساء أثناء تغيب أزواجهن! لكنها بكت ، وأطلقت قنبلة أخرى : فاما الزواج منه ، واما الانزواء فى الدير !

أما الأم فقد لجأت الى سلاح المرأة . فما أن دلف زوجها الى فراشه ليلا ، حتى اقتربت منه ، ثم همست ، وهى تربت

على يده ، قائلة :

ــ ان جريجور فتى حسن الطلعة ، صبور على العمل وقد وقعت ناتاليا فى شرك غرامه !

ــ صه أيتها الشمطاء التى حرمها الله من قوة البصيرة .. أترين حسن طلعته يدر علينا ثروة ؟

وعندئذ انقلب فى فراشه وولى ظهره لصدرها الضامر البارد ، وتركها تتكلم :

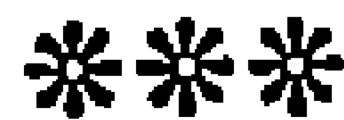
ــ بل ان أسرته ميسورة الحال ، معروفة بالنشاط ، وتحمل المشاق .

والتصقت به ، وظلت تربت على يده . لكنه قال :

ــ أغربى عن وجهى أيتها الشيطانة .. أفسحى لى المكان .. لماذا تربتين على كما لو كنت أنا بقرة ، وكنت أنت عجلا؟ ! .. انك تعلمين جيدا أن ناتاليا على إستعداد للوقوع فى شرك أى ذكر !

ــ أليس لك قلب ؟ ان عليك أن تشاطر ابنتك مشاعرها .

وعندئذ نفد صبره ، فالتصق بالحائط ، وشرع فى الشخير ، متظاهرا بالنوم !



لكن حيلة المرأة فازت أخيرا ، فظفر جريجور بالقبول ، وجاءت « الينشنا » ــ أم العريس ــ برغيف ناصع البياض ، فألقت به على المائدة ، أثناء الاجتماع الذى عقد بمنزل « مايرون » للاتفاق على اجراءات الزواج . وشرع بنتاليمون يرسم علامة الصليب ، ثم تسللت أصابعه فجأة الى فتحة معطفه الازرق ، وخرجت بزجاجة ذات سدادة حمراء .. سرعان ما أمسك بها قائلا : « **والآن أيها الاصدقاء ، لنقدم صلاة شكر لله ، ثم نشرب نخب هذه المصاهرة** »

ولاحظ مايرون أن بنتاليمون يبدو فى غير مظهره ، اذ كان

يرتدى معطفا من قماش فرنسى ، لوثته بقع الفودكا ، وبقع أخرى لأشياء كثيرة ، وأدرك أنه يتبـاهى بذلك رغبة منه فى تيسير زواج ابنه ! .. وفيما هم يتناقشون ، اذا ببنتاليمون يميل ناحية مايرون قائلا :

ــ ليس فى وسعى أن أقوم بما فرضتموه على من مطالب من أجل مقايضة ابنتك . فلـكى أتمكن من شراء المعـاطف المصنوعة من الفراء ، والاحـذية ولوازمها ، وغير ذلك ممـا تطلبونه ، سوف اضطر الى بيع بقرة من أبقارى !

ــ أو تبخل بها ؟

ــ لا .. لست بخيلا بها .

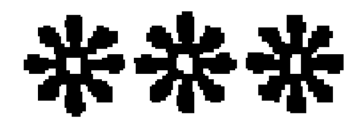
ــ ان هذه تقاليد القوزاق منذ القدم ، وعليك أن تحترمها ، والا فلتذهب الى الشيطان !

ثم يدفع بالاكواب من على المائدة ، فتسقط على الارض ، ويستطرد : ((**وكما كافحنا فى الحياة ، واسـتطعنا أن نعيش فى رخاء ، فعليك أن تدع العروسـين يكافحان أيضا من أجل قوتهما !**))

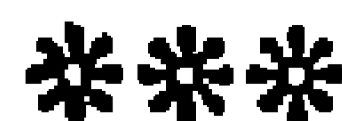
.. ورضخ بنتاليمون ، وقبل الصفقة على مضـض ، ثم شرع فى تناول خيارة خضراء ، وهو يبكى .. وبعد أن فرغت زجاجة الفودكا الثالثة ، تحدد موعد الزفاف ..

أما والدتا العروسين فقد جلستا متلاصقتين ، وكل منهما تحكى للأخرى متاعبها وشكاواها ، ثم تعقب على أخلاق ابنها أو ابنتها ، فتثنى عليها ، وتوصى مشددة بضرورة الزواج ..

وفى اثناء ذلك كان ((ميتكا)) ، شقيق العروس ، يطل على الحاضرين من ثقب الباب ، وبجواره شقيقتاه تتهامسان .. اما ((ناتاليا)) فكانت فى غرفة أخرى ، تمسح دموعها بـكم سترتها الضيق ، وهى تحس بضيق ورهبة من الحياة المقبلة المجهولة !



أخذت دار كورشينوف تعج بضوضاء الاستعداد للزواج .. وكان ميتكا عندما يعود من عمله ليلا ؛ ويشاهد شقيقته مكبة على اعداد قفاز العريس التقليدى ووشاحه ، يعمد الى اغاظتها ، فيقلل من شأن عريسها ، وعندئذ تنخرط فى البكاء حتى يختنق صوتها .. وتظل هكـذا الى أن ينقذها جدها « جريشكا » ، (الذى كان قد اشترك فى غزو تركيا عام ١٨٧٧ . حيث نال ميداليتين ووساما .. مما جعل أهل القرية يحترمونه .) .. وكان الجد قد قابل نبأ زواج ناتاليا المرتقب بهدوء وابتسامة ، لكنه كتم الحزن فى نفسه ، وشعر بغصة تستقر فى قلبه ، وهو يتذكر عطفها وحدبها عليه . ولما رأته ناتاليا حزينا شاحبا ، اندفعت اليه تسأله : « هل تخاف الموت يا جدى ؟ » .. فأجابها : **« بل اننى انتظره يا بنيتى كما انتظر ضيفا عزيزا على .. لقد حان وقت انطلاقى ، فقد أديت واجبى ، وخدمت قيصرى ، وشربت من الفودكا ما فيه كفايتى ! »**



وجاء جريجور يوما لزيارة عروسه ، فقضى معها وقتا طيبا ، ثم نهض عائدا .. وصحبته هى لتوديعه .. وتحت سقف مشتل الزهور ، أخرجت من صدرها لفافة ، ودفعتها الى يده وقد احمر وجهها خجلا ؛ وتألقت عيناها بالحب .. فوجد جريجور نفسه يجذبها نحوه بقوة ، باحثا بشفتيه عن شفتيها .. لكنها دفعته فى صدره بيديها ، وامالت رأسها الى الوراء قائلة :

ـ قد يروننا !

ـ وماذا يهم ؟

ـ يصدنى الخجل !

ثم أمسكت بعنان فرسه ، وابتعدت قليلا ريثما صعد الى ظهره .. ووقفت ترقبه ، وهو يلكز الحصان وينطلق به .. مخلفا وراءه غبارا وشوقا .. وتنهدت ، ثم إبتسمت وهى تقول لنفسها : « لم يبق سوى احد عشر يوما ! »

***

كانت « أكسينيا » تحس بالمرارة منذ هجرها جريجور .. وكثيرا ما خنقتها العبرات ، واعتصرها الأسى ، والفراغ الذى حل بقلبها .. لكنها أبقت على حبها لجريجور ، رغم حقدها عليه ، وغيرتها من « ناتاليا » ! .. وقد طالما فكرت جديا فى استعادته ، مهما كلفها ذلك من ثمن .. لكنه كان كالصخرلا يلين .. فتحققت فى النهاية من أنها لن تمتلكه .. لقد فر كطير غاب عن عشه ، وأضحى العش هناك ، بجوار ناتاليا !

***

وما أن حل موعد الزفاف ، حتى ضجت دار أسرةالعريس بالمدعوين الذين أخذوا يتوافدون عليها زرافات ووحدانا ، وهم يرتدون ثيابا زاهية الالوان ، مزركشة كقوس قزح .. واستقل عدد من أفراد الاسرة أربع عربات مزينة ، تجرها ثمانية جياد ، وانطلقوا بها لاحضار العروس .. وكان فى أولاها جريجور ومعه شقيقه الاكبر « بيوترا » وزوجته « داريا » .

وما أن وصل الركب الى دار العروس ، حتى قاد بيوترا العريس الى باب المطبخ ، حيث توقفا ، ثم راح بيوترا يطرق الباب الموصد من الداخل قائلا : « **ارحمنا أيها الرب يسوع !** » .. فأجابه صوت من الداخل قائلا : « **آمين** » .. ولما تكرر ذلك ثلاث مرات ، قال : « **أتسمحون لنا بالدخول ؟** » ، فأجاب الصوت : « **تفضلوا ، على الرحب والسعة** » .. وعندئذ فتح الباب على مصراعيه ، ثم قدمت « اشبينة » العروس الى « بيوترا » كأس شراب مر المذاق ، فتجرعه متأففا ، وسط ضحك الجميع ، كما قدمت لكل مدعو ثلاث كؤوس من الفودكا ، حسب تقاليد الزواج .

أما ناتاليا فقد وقفت في ثياب الزفاف خلف مائدة الطعام ، تحرسها شقيقتاها وأمها .. وعندما انحنى بيوترا ، وهو يقدم خمسين قطعة من عملة « الكوبيك » داخل كأس ، اعترضت والدة العروس قائلة وهي تضرب على المائدة بعصا : « **هذا لا يكفي .. لن نبيع العروس !** » .. وعندئذ أضاف الى المبلغ حفنة أخرى من النقود الفضية ، فاحتجت شقيقتا العروس هذه المرة ، لكن بيوترا كان عنيدا ، اذ صاح قائلا : « ماهذا ؟ لقد دفعنا ، ودفعنا فوق مايجب أن ندفع ! » .. وعندئذ تكلم مايرون قائلا وهو يأمر الفتاتين : « تنحين أيتها الفتيات » .. وكان هذا ايذانا بالموافقة ، وعندئذ وقف المدعوون ، ليفسحوا مكانا للقادمين . ثم ألقى بيوترا بطرف شال في يد جريجور ، واقتاده الى حيث جلس تحت أيقونة كبيرة بجوار العروس ، التى امسكت بطرف الشال الآخر .

.. وانهمك الحاضرون بعد هذا في تناول الطعام ، **ماعدا جريجور وعروسه ، فقد كانت تقاليد الزواج تحرم الطعام على العروسين !** .. ولما نهض مع عروسه ، وضع أحدهم

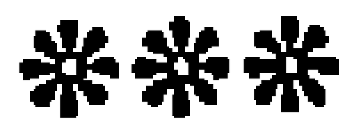
حفنة من القمح فى حذائه ـ اتقاء للحســد ! ـ الامر الذى سبب له ألما حادا فى قدمه أثناء السير !

وأمام منزل العريس ، وقف بنتاليمون ممســكا بأيقونة ، وبجواره زوجته « الينشنا » ، لاستقبال موكب العروسين اللذين تقدما حال وصــولهما لنيــل بركة والدى العريس ، وســط ضجيج من التهليل ووابل من حبوب القمح .. ثم انتقل الموكب الى الكنيسة ، حيث وقف جريجور ، بجـوار ناتاليا ، ممسكا بشمعة ، وقد استولى عليه الملل والنعاس ، بينما الكاهن يقوم بمراسم الزواج التى تخللها صوت الشماس ، وهو يردد مايقوله الكاهن بطريقة ناشزة .. وهكذا استسلم جريجور لما يدور حوله ، الى أن تنبه على صوت الكاهن وهو يطلب استبدال دبلتى الزواج .. ثم قبل ناتاليا قبلة العرس ، وأمسك بيدها الكبيرة الخشنة ، وعاد بها من حيث أتى ..

أما والدا العروس ، فلم يصلا الى بيت العريس الا بعـد ان توجه العروســان الى الكنيســة ، وكان برفقتهما الجد « جريشكا » مرتديا زيه العســكرى وأوسمته ! .. وهب بنتاليمون وزوجته لاستقبال القادمين ..

وحين عاد العروسان الى البيت ، ألفيا المدعوين فى صخب وضجيج ، بينما الانخاب والكؤوس تدار عليهم ، والغنــاء والانغام والرقص القوزاقى يصطخب فى كل مكان .. كمــا دارت رؤوس عــدد كبير من الحــاضرين الذين أفرطــوا فى الطعام والشراب .

واختتمت حفلة الزفاف بأن رقص « بيوترا » مع والدة العروس ، كما رقص كورشينوف مع والدة العريس .. أما بنتاليمون ـ الذى حال عرج ساقه دون الرقص ـ فقـد استعاض عن ذلك بتحريك لسانه ، واحداث فرقعة منتظمة به !



كان « سرجى بلاتونو فتش موكوف » (١) ينحدر من سلالة فلاح روسى ، ارسله القيصر « بطرس الاكبر » الى قرية (تشيجوناك) الواقعة على نهر الدون ، بقصد تعميرها .. وقد درت التجارة على « سرجى موكوف » أرباحا طائلة ، فشيد طاحونة بخارية ، كما سيطر على قرية (تاتارسك) وما جاورها . واستغلها استغلالا غاشما ، حتى أصبحت كافة دورها مدينة له !

وكانت زوجته الاولى قد توفيت عقب انجاب طفليها ـ « اليزابيتا » ، و « فلاديمير » ـ اللذين لم يولهما أبوهما أية عناية .. ثم لم يلبث أن تزوج من أخرى ، اتضح فيما بعد انها عاقر لا تلد . ومع ذلك فانها خصت الطفلين بحبها وعطفها ، لكنها لم تحاول اصلاحهما أو فهم نفسيتهما .. **وهكذا نشأت « اليزابيتا » بين أحضان الخادمة والطاهية الفاسدتى الاخلاق، ومن ثم تفتحت عيناها ـ فى سن مبكرة ـ على خبايا الحياة المنحلة الساقطة** ، ولم تتصرف بشكل لائق فى مرحلة المراهقة التى تتسم بالخجل والحياء ..

أما فلاديمير فقد شب بليدا ، مصابا بضعف خطير عرضه لمرض السل .. كما كان متعجرفا ، يلذ له ان يشبع غروره بالتسكع فى طاحونة أبيه ، لكى يسمع همسات العمال عنه !

وذات يوم ، بينما كان « ميتكا » ـ شقيق « ناتاليا » ، عروس جريجور ـ يرسو بقاربه ، اذا به يرى زورقا أنيقا

---

(١) التاجر الذى صادفناه فى بداية القصة ، حين ذهب جريجور الى بيته يعرض على ابنته شراء صيده من السمك (صفحة ٤١)

يتهادى على صفحة الماء ، يقوده شاب وبجواره فتاة ممسكة ببــاقة من الزهور .. وما أن لمحته الفتــاة ، حتى صرخت تحييه ، وحين رسا قاربها قفزت منه وهى تصيح بميتكا : « لقد خدعتنى ! ألا تذكر وعدك لى ؟ الا تذكر رحلة الصيد التى وعدتنى بها ؟ »

وعندئذ عرف ميتكا أن الفتاة لم تكن سوى « اليزابيتا » التى سبق أن وعدها برحلة كهذه .. لكنه اعتذر لها بكثرة مشاغله ، فلما رجته وألحت فى رجائها ، وعدها برحــلة فى اليوم التــالى . وعنــدئذ تهلل وجههــا وهرعت عائدة الى الزورق ، بعد أن ألقت اليه بابتسامة لاذعة .

.. وفى تلك الليلة استعد ميتكا للصيد ، كما لم يستعد من قبل . وطلب الى جده أن يوقظه عند صياح الديكة ..

وكان على « ميتكا » أن يتسلق الشرفة ليصل الى نافذة « اليزابيتا » .. وهناك تسللت الى أنفه رائحة عطور لم يألفها ، ونظر أمامه فوجــدها غارقة فى النــوم ، ونادى عليهــا فلم تستيقظ .. فخشى أن يكون قد أخطأ التقدير ، أو أن يلقاه أبوها بطلقة من بنــدقيته ! .. واخيرا تكلمت ، فخــرجت الالفاظ من فمها دافئة ناعسة ، وهى تطلب اليه الانتظار .. ومضت فترة ، هبطت بعدها من النافذة فتلقاها بيــديه .. وضغطت هى بشدة على يده ، وحدقت فى عينيه عن كثب .. ثم مضت معه الى حيث استقلا قاربا ، بعد أن حملهــا على ذراعيه ، وهى تصرخ ، وتتعلق بعنقه ..

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، تأوهت منها «اليزابيتا» : وتعثرت بسببها قدما « ميتكا » ، واندفع الماء داخل حذائه!

وما أن بلغا الضفة الاخرى ، حتى حملها ــ دون استئذان ــ الى داخل مجمــوعة كثيفــة من الشــجيرات .. وفوجئت

« اليزابيتا » بما بدر منه ، فانهالت عليه عضا ، وخدشا ، وصراخا .. ولما أحست بقوتها آخذة فى التلاشى ، اجهشت بالبكاء مختنقة ، لكن دموعها استعصت عليها ..

وفى أثناء العودة – فى نحو التاسعة صباحا – تحاشى « ميتكا » النظر اليها ، وهو منهمك فى التجديف ، وعند قدميه سمكتان صغيرتان . وكانت مشاعره مزيجا من الشعور بالاثم ، والرضا ، والقلق . أما « اليزابيتا » ، فقد جلست مسبلة العينين ، وهى تداعب عود زهرة بغير اكتراث ..

ولما غادرا القارب ، ناولها « ميتكا » نصيبها من الصيد ، فرفعت حاجبيها فى دهشة ، لكنها تناولت السمكة ، واستدارت عائدة ، وقد استولى عليها شعور بالتعاسة . **أحست انها قد ودعت كل بهجتها واطمئنانها عند تلك الشجيرات ! .. وتنبه « ميتكا » الى مزق بدا فى ثوبها ، فناداها .. لكنه دهش اذ رأى الدموع تنهمر من مآقيها !**

وسرعان ماسرى النبأ والهمس فى المدينة ! ... وأصبح موضوعهما شغل النساء الشاغل ، ومحور أحاديثهن ، وهن يلقين بالتبعة على جيلها من البنات : « فاسد .. لا يصلح لشىء ! »

وبلغت الانباء مسامع والد اليزابيتا ، فجن جنونه ، وانقطع يومين عن العمل ! .. وحين مضى اليه « ميتكا » ، عارضا ان يصلح فعلته ، طالبا يد « اليزابيتا » نعته الاب بأقذع الالفاظ .. ورماه بقضيب من الحديد ، أصابه فى ركبته .. فتحامل الفتى على ألمه واندفع الى الخارج وهو يقول : « **لقد أردت أن أصلح ما أفسدت ، اذ من سيطلب يد ابنتك الآن ؟ .. ان الكلب لا يمس عظمة نخرة .. ! »**

فهاج موكوف ، وطار صوابه ، فأطلق خلف الفتى أربعة

كلاب شرســة ، أطبقت عليه من كل جانب .. لـكنه قاوم مقاومة جبارة ، حتى استطاع ان يخنق أحدها ، وان ينجح - بمعاونة المارة الذين تجمعوا - فى طرد الثلاثة الآخرين ..



استطاعت « ناتاليا » ، بما بذلت من مجهود شاق فىأعمال البيت : ان تكتسب محبة والدى زوجها وعطفهمـا .. أما جريجور فلم يتمكن من تنظيم حياته الزوجية على أســاس مريح ، كما لم يستطع ان ينسى « أكسينيا » ، خاصة وانه لم يجد فى زوجته ماكان يجده فى أكسينيا منحرارة وحمية، اذ كانت قد ورثت عن أمها البلادة ، والبرود ، والنفور من المنشطات الجنســية .. وكان جريجور يقول لها متهكمـا :

« لابد وأن والدك قد صاغك من الثلج ! » .. **وعندما سألته أكسينيا يوما عن حياته الزوجية ، راح يتملص قائلا : « اننا نعيش ، لا أكثر ! » .. وبدأت العاطفة تتأجج من جديد فى صدره .. وأحس ان أكسينيا هى كل شيء فى حياته !**

وذات ليلة مقمرة، قاسية البرودة، قال جريجور لزوجته ناتاليا : « انك كالقمر فى برودته .. ولا يشعر الرجل الى جوارك بدفء أو قشعريرة .. ويؤسفنى ان أصرح لك بأننى لا أحبك ، ولا أحتمل هذه الحياة ! .. ومع انه قد مضيعلى زواجنا هذا الزمن الطويل ، الا أننى أشعر بأنك غريبة عنى، كما أشعر ان قلبى لايزال خاويا ! »

.. وهكذا تحول الى اكسينيا ، يبثها شوقه وعشــقه ؛ وهى ، بالمثل ، تهبه كل حبها وحرارتها .. وكانت النتيجة مؤسفة بالنسبة لنـاتاليا ، التى امتـدت الآم نفســها الى جسمها ، فذبلت وشحب لونها .. وعبثا حاول بنتاليمون وزوجته أن يجدا لها علاجا .. وجن جنونهما عنـدما أعلنت

انها ستعود الى دار أبيها ، مادامت امرأة غير مرغوب فيها ! .. ولم يعارض جريجور فى ذلك . فاحتد أبوه ، وخيره بين الاقامة مع زوجته ، أو الطرد .. لكنه اختار الطرد !

وخرج فى تلك الليلة ، غير عابىء ببكاء ناتاليا وتوسلاتها .. وأرسل سرا فى طلب ((أكسينيا)) ، التى وافته ومعها حاجياتها ، بعد أن انتهزت فرصة مغادرة زوجها للبيت ليلعب الميسر .

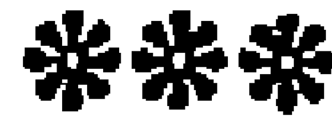
واحتضنته ((اكسينيا)) داخل معطفها ، وسارا ، وكل منهما يمنى الآخر بالسعادة .. وفكرت فى لحظة الهناء تلك أن تخبره بأنها حامل ، لكنها عدلت ، خشية أن تفقده ، اذ لم تكن متأكدة من أمر هذا الجنين ، وصاحبه !

أما ناتاليا فقد عادت الى دار أبيها ، حيث ارتمت عند قدميه ، وهى تنتحب قائلة : ((لقد قضى على سعادتى الى الأبد يا أبتاه .. لقد هجرنى جريجور ليعيش مع تلك المرأة !))

واحتد ((مايرون)) ، وأرغى وأزبد ، وأمر خادمه باعداد العربة التى أقلت ((ميتكا)) الى منزل جريجور ، ثم عادت بحاجيات شقيقته .

ولم يكن ((ستيبان)) أقل ثورة من ((مايرون)) ، لكنه انفرد بنوع خاص من الثورة ، **اذ كان قد لاحظ فى صبيحة اليوم الذى هربت فيه زوجته ((أكسينيا)) ، نضارة وبريقا يضيئان وجهها وعينيها ، فلما سألها أجابته بان هذا ناتج عن وهج النار التى قامت باعدادها فى ذلك الصباح ! .. لكنه أدرك السبب الحقيقى عند عودته فى منتصف الليل** .. وعندئذ لم يجد ماينتقم منه سوى سترتها التى كانت قد تركتها سهوا عند هربها ، فأخذ يطوح بها فى الهواء ثم يتلقاها

بسيفه ممزقا اياها .. وأخيرا ارتمى على مقعد ، منكس الرأس ، وأخذ ينقر بأصابعه المرتعشة على غطاء المائدة ..



توجه جريجور فى الصباح الى التاجر « موكوف » يطلب عملا ، وصادف ان كان هناك الضابط الشاب « يوجين لستنتسكى » .. فلما علم بأمره عرض عليه وظيفة سائق لوالده ، كما وعده بايجاد عمل لاكسينيا ..

وكان « يوجين » متوسط الطول ، عريض المنكبين ، أنيقا فى ملبسه . وكان يشغل وظيفة قائد الحرس ، الى جوار كونه ابنا للجنرال العجوز المتقاعد « نيقولاى لستنتسكى » ، (الذى كان قد فقد زوجته ــ ويوجين فى الثانية من عمره ــ أثناء الثورة ، عندما أخطأه الثوار فقتلوا زوجته وسائقه !) .. وأثرت هذه الحادثة فى نفسه فاعتزل الخدمة ، وعاد الى ضيعته ، حيث أقام هناك وحيدا ، يعانى من آلام مرض فى معدته . وكان يقوم على خدمته خادم خاص يدعى «بنيامين» ، وخادمة ، والطاهية « لوكريا » ؛ التى رفضت أن تتخذ « أكسينيا » مساعدة لها .. فاضطرت الاخيرة الى القيام بمسح الارض واطعام الدواجن وتنظيف حظيرتها .. هذا الى جانب « ساشكا » سائس الخيل العجوز ، والراعى تيخون ، وعدد كبير آخر من العمال الذين كانوا يعملون فى الضيعة الشاسعة ..

واخذ ((يوجين)) يتردد ، فى الاسبوع الاخير من عطلته ، على غرفة ((آكسينيا)) ، منتهزا فرصة تغيب جريجور .

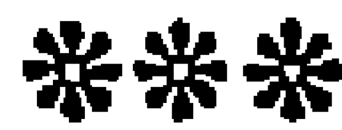
وذات يوم جلس قبالتها ، وراح يسألها عن ماضيها ، حتى احمر وجهها خجلا ، وهمت بالخروج ، وهى مرتبكة ، بحجة

اطعام الدجاج ؛ لكنه طلب اليها أن ترجىء هــذا .. وظل جالسا أمامها ، وعيناه الصافيتان البراقتان تختلسان النظر اليها فى نهم وجوع ..

وفجأة دخل عليهمــا جريجور ، فما لبث « يوجين » ان نهض ، وقدم له سيجارة ، ثم غادر الغرفة .

ولما تساءل جريجور عن سبب وجوده بالغرفة ، أجابته «أكسينيا» وقد غلبها الضحك، اذ تذكرت نظرات الضابط : « لست أدرى ! لقــد جلس هــكذا .. (وجلست تقلده فى جلسته) وطال جلوسه ، حتى ضقت ذرعا به !» .. فقال جريجور محتدا : « **لابد أنك قد أبديت له عطفا . فاحترسى اذن ، والا ألقيت به يوما على درجات السلم !)**»

وعندئذ تطلعت اليه مبتســمة ، وهى لاتدرى أجاد هو فى كلامه أم انه يهزل !



ولى الشتاء بزمهريره ، وأقبل الربيع .. بينما « ناتاليا » لاتزال مقيمة بمنزل والدها ، وطيف أمل ؛ بعودة جريجــور اليها ، يداعبها من حين لآخر .. وكما أن المصــائب لا تأتى فرادى كمــا يقولون ، فقــد ابتليت بهم آخــر أطاح بالبقية الباقية من هدوئها، وطمأنينتها .. ذلك ان شقيقها «ميتكا» فاجأها ذات يوم بقوله : « أما زلت تحنين الى جريجــور ؟ أريدك أن تنسى الألم .. » . ولم تفهم « ناتاليا » ما قصده أخوها ــ رغم انها لاحظت فى عينيه بريقا غريبا يوحى بنهم جنسى عنيف ! ــ فصفقت البــاب فى وجهه ولاذت بالفرار الى غرفة جدها ، حيث وقفت برهة تنصت الى دقات قلبها الذى كاد ان ينخلع رعبا !

لكن « ميتكا » عاود الكرة بعد يومين ، قائلا لها : «لاتعذبى

نفسك ياناتاليا .. » ، وعندئذ صرخت ، وهددته بافشاء الامر الى والدهما ، متوسلة اليه أن يبتعد عنها .. لكن الذئب لم يقنع بوداعة الحمل ، اذ أفصح عن مأربه قائلا : « لم هذا الصراخ أيتها البلهاء .. لن أقربك الآن .. لكنني أقسم أنني سأعود اليك ليلا ! »

واضطرت ناتاليا فى تلك الليلة الى دعوة شقيقتها الصغرى كى تشاركها الفراش ، حتى ينجلى الموقف. وجافاها النوم الى مطلع الفجر ، وهى تنصت فى فزع وقلق .. لكن الصمت ظل مخيما على الغرفة فى تلك الليلة ، لايقطعه سوى شخير جدها فى الغرفة المجاورة ..

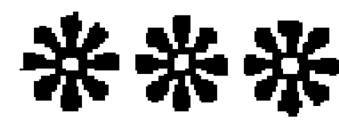
أما « ميتكا » ، الذى لم يتمكن من اعادة الثقة به ، فقد اتجه اتجاها آخر .. صار يقضى الليالى بصحبة نساء القرية من ذوات السمعة السيئة . وجمعته بستيبان صداقة وطيدة ، جعلته يشاركه لهوه وسهراته الحمراء .

وفى تلك الاثناء ، لاحظت « ناتاليا » الفساد والانحلال يغزوان القرية ، رجالا ونساء ـ فما أكثر قصص الانحلال الخلقى التى انصتت اليها وهى تحكى على ألسنة صاحباتها من النسوة ـ وعبثا حاولت المسكينة أن تعيد جريجور الى حظيرتها ، فقد أرسل اليها ردا على رسالة بعثت بها اليه ، وكان الرد يتألف من كلمتين فحسب ، هما : « لن أعود » !..

وكتمت الالم فى قلبها ، لكنها لم تتحمل سخرية الصبية فى القرية ، الذين كانوا يلاحقونها بالغمز واللمز كلما سارت فى الطريق ..

وازدادت حالتها المعنوية سوءا على سوء ، حتى حاولت فى النهاية أن تتخلص من حياتها .. وكادت أن تنجح ، لولا أن تداركتها الصدفة ، فافتضح أمرها ، وعولجت حتى شفيت من الجرح الذى أحدثته بخنجرتها ..

وغادرت الفراش وهى مشــوهة الوجه ، وضربت بأوامر أبيها عرض الحائط ، فعادت لتقيم بدار حميها ، حيث قوبلت بترحاب من الجميع ، ماعدا « داريا » — زوجة «بيوترا» — التى كانت ترمقها بنظرات الغيرة !



وضعت «أكسينيا» طفلة . . لكن جريجور أحس بالصدمة فجأة ، اذ بدأ الشك يساوره فى نسب الطفلة ، حتى انه كان ينتهز فرصة نوم « اكسينيا » ، فيهب من سريره ، ويتفرس فى وجه الطفلة ، فيراها على شاكلته تارة ، وتارة أخرى يراها صورة طبق الاصل من « ستيبان » ! . . ومع ذلك لم يقبل تحذير أبيه ، فتمسك بالطفلة وأعلن انه لن يتخلى عنهــا ، حتى لو لم تكن من صلبه . .

وحان موعد رحيله ، الى ادارة الجيش ، لقضــاء اربع سنوات فى الخدمة العسكرية . فرحل تاركا أكسينيا والطفلة بمنزل « الجنرال » ، الذى وعد بحسن رعايتهما . . وودعته « أكسينيا » ، والدموع تنهمر من عينيها ، لا حزنا على فراقه فحسب ، وانما خــوفا مما يخبئــه القدر لها طيلة فتــرة تجنيده . .

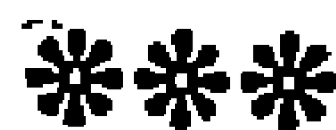
على أن الحياة العسكرية لم تكن شــاقة على جريجــور ورفقائه فحسب ، وانما صحبتها موجة من القسوة العارمة التى تسلح بها الضباط والقواد أثناء الفترة التى قضــاها بالجيش . . ولم تــكن الحياة فى المعســكرات مزودة بأدنى وسائل الراحة والتســلية . كما لم يــكن فى تلك البقعة من النســاء ســوى زوجة رئيس الخــدم المسنة ومســاعدتها « فرانيا » : التى حام حولها الضباط والجنود ، وأشبعوه

اغراء وتدليلا .. حتى امتلأت نفسها بالغرور ، فأمعنت فى اثارتهم ..

ورغم محاولتهم التقرب اليها ، فان قلبها لم يلن لاحد سوى القائد .. مما جعل الجنود يدبرون لها المؤامرة تلو المؤامرة للايقاع بها .. الى أن تم لهم النصر فى النهاية :
فذات يوم ، فوجىء جريجور بثلة من رفقائه وهم يتوافدون بالتوالى على حظيرة بالمعسكر : الداخل اليها منهم مسرع ، متلهف ، والخارج منها عاكف على ملابسه وشعره بالتعديل والترتيب !

وحاول أن يعرف جلية الامر :فانطلق الى الحظيرة ، وعندئذ انعقد لسانه من وقع المفاجأة : لقد شاهد « فرانيا» ملقاة على الأرض ، وعلى رأسها غطاء حصان ، وثوبها الممزق مرفوع الى مافوق صدرها ! .. فأيقن ان زملاءه قد اغتصبوها بالجملة .. وحاول أن يصرخ ، وأن ينادى الجاويش ، لكن الذئاب الجناة كانوا أبرع منه ، اذ لحقوا به ، وطرحوه أرضا ، وكمموا فمه ، وهددوه بالقتل ان فاه بكلمة عن هذه الجريمة . ثم أطلقوا سراحه بعد فترة . وتحولوا الى « فرانيا » فحملوها ، وهى فاقدة الوعى ، الى حيث ألقوا بها بعيداً ..

وفى ساحة الاستعراض لمح القائد مزقا فى سترة جريجور ، وزرا مخلوعا بها ، فسأله عن سبب ذلك ، لكن جريجور لم يجب ، وطفرت الى ذهنه صورة الحادثة البشعة فى الحال ، وعندئذ أحس بحاجة شديدة الى البكاء .



.. **وذات** يوم ، بينما كان بنتاليمون وأسرته منهمكين فى حصد محصول القمح ، اذا بفارس يقبل عليهم ، وهو ينهب

الارض نهبا، وفى يده علم أحمر . ثم صاح الفارس : « الوطن فى خطر ! » .. وان هى الا لحظات حتى أغلقت حانة القرية، وارتدى الرجال الزى العسكرى ، وبدت على القرية كلها مسحة من القلق والكآبة والارتباك .

وشدت الحرب الشبان الى ساحتها ، كما شدت معهم قلوب ذويهم وعواطفهم .. ولم تكن الحال رخية ميسورة ، اذ لم تنفع الصلوات التى شهدتها الكنائس ، والدعوات التى انطلقت الى السماء ، ونصح الشيوخ وارشادهم للشباب .. كل هذا لم يمنع رحى الحرب من أن تنصب على الآلاف فتزهق أرواحهم .. حتى أصبحت ساحة القتال فى النهاية مقبرة كبيرة مكشوفة ، تحدها الجثث من كل اتجاه !

أما جريجور الذى كان قد مضى عليه زمن فى الجيش ، **فقد خلفت المعارك فى نفسه أسوأ الاثر ، وظلت أشباح قتلاه تعذبه فى نومه وتطارده فى صحوه .. حتى أصاب الهزال جسمه .. بل انه كثيرا ما كان يفزع من نومه بسبب الاحلام المزعجة التى كانت تتراءى له** .. وزاد من بؤسه رؤيته لاصدقائه العائدين من المستشفيات ، مشوهى الوجوه والاطراف . فلم يكن هناك من يستطيع أن يسلم من بلايا الحرب ودمارها، بل ان أحدا من الجنود لم تخل أعماقه من ألم دفين ..

ولحقت آثار الحرب بداريا ، التى لم تستطع صبرا ــ وقد فارقها زوجها منذ عام ــ فدأبت على التبهرج، والتغيب عن البيت حتى ساعة متأخرة من الليل ! .. وعبثا حاول حموها وناتاليا ازجاء النصح والتأنيب لها ، وقد اتهماها بسوء السلوك ..

ويبدو ان احساس داريا بغياب زوجها قد سبب لها توترا فى وظيفتها كأنثى ، **فاندفعت فى طريق السوء الى حد**

الشذوذ عن المألوف ، اذ حاولت ذات مرة أن توقع حماها « بنتاليمون » فى شباكها ، لكن الرجل العجوز لم ينصت الى توسلاتها ، ولم يعترف بنظراتها الجائعة . وعندما ردها بقسوة عاتبته على سلوكه ، وبررت محاولتها قائلة : « .. اننى لم أر زوجى منذ عام ، ولست أستطيع العيش هكذا .. فماذا أفعل ؟ ! .. أن لم تشأ ، فدعنى أبحث عن آخر ، وعليك أن تصمت ! »

وأحس بنتاليمون بالطعنة تنفذ الى أعماقه ، فاخذ يحدق فيها شارد الذهن ، مشلول الارادة .. ثم مضى .. دون أن يبوح بهذا الحادث لاحد ، طيلة حياته ، حتى عند اعترافه على يدى الكاهن .



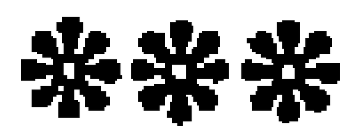
وفيما كانت أسرة بنتاليمون تتلهف على سماع أخبار من ولديها — بيوترا وجريجور — اذا بخطاب يصلهم من ادارة الجيش ، يخطرهم بأن جريجور قد استشهد فى ساحة القتال ، ومات ميتة الابطال !

وأذابت الصدمة قلوبهم ، وكادت أن تقضى على عقل الاب ، كما فقدت « ناتاليا » وعيها ، وظلت أسبوعا بين الاغماء واليقظة .. وبعد أيام وصلهم خطاب آخر ، لكنه كان من « بيوترا » هذه المرة .. وقد جاء فيه أن جريجور لم يمت ، لكنه عد ضمن القتلى لخطورة جرحه .. وهو الآن فى طريقه للشفاء . كما أنعم عليه بوسام « القديس جورج » !

وهكذا ، بين غمضة عين وانتباهتها ، انتقلت الأسرة من حزن اليم الى فرح مقيم .. وكان منظر بنتاليمون يدعو للتأثر ، وهو يجرى — رغم عرجه — فى شوارع القرية ، ممسكا بالخطابين ، معترضا سبيل كل من يصادفه ، طالبا

اليه أن يعيد عليه قراءتهما ، بينما دموع الفرحة تتألق فى عينيه ..

ثم وصلهم بعد ذلك خطاب من جريجور، سرد فيه أخباره، وبعث فى نهايته ــ لاول مرة ــ تحية عابرة لناتاليا !.. ورغم تصريحه فى نفس الخطاب بأنه لن يترك « اكسينيا » ، سيما بعد ان أنجبت طفلة ، الا ان التحية هزت مشاعر « ناتاليا »، ودب الأمل فى نفسها ، فقررت أن تتنازل عن قدر كبير من كبريائها . فزارت « آكسينيا » ، وتوسلت اليها أن تعيد اليها فتاها الغائب ، لكن الذئبة القاسية قابلتها بجفاء ، وثارت عليها فى احتقار .. الامر الذى جعلها تبادر بالنهوض .. وانصرفت كسيرة الفؤاد ، عليلة النفس ..



وان هى الا أيام حتى أصيبت الطفلة « تانيا » بالدفتيريا .. فجزعت أكسينيا ، اذ ظنت ان الله يعاقبها على اساءتها لناتاليا ، فتضرعت اليه ، جاثية ، باكية ، كى يرحمها .. لكن قضاءه كان قد نفذ ، فأسلمت الطفلة الروح بين ذراعى أمها ..

وصادف أن وصل فى تلك الاثناء « يوجين لستنتسكى »، الذى أصابته الحرب بجرح بليغ كاد أن يقضى عليه ، فجاء الى ضيعة أبيه كى يقضى فترة النقاهة .. فلما علم بموت تانيا ، مر بغرفة « أكسينيا » ليلا ، لتعزيتها ومواساتها . وكانت قد أوت الى فراشها ، فى غلالة رقيقة كشفت عن مفاتن جسدها . ومن ثم حاولت أن ترتدى بقية ملابسها ، لكنه منعها بحجة أنه سينصرف بعدلحظة .. وعندئذ ضغط على يديها ، معزيا ، ملاطفا ، فاستسلمت للبكاء . ومال عليها مهدئا من حزنها ، وأخذ يقبلها .. وما أسرع ما يتأثر

قلب المرأة ، فى وقت الحزن ! .. فما ان بلغت القبلات أكثر من ثلاث حتى تعلقت به بكل مافيها من قوة ، دون ان تدرى ماذا تفعل .. وقادها هذا فى النهاية .. الى الاستسلام !

***

حين تماثل جريجور للشفاء منح عطلة ، سافر خلالها الى أبيه .. وكان أول من لقى « ساشكا » ، فوقف يثرثر معه . وعندئذ لمح فى عينيه شيئا غريبا يود كتمانه .. واذ ضيق عليه الخناق ، قال : « **لقد كنت تحتضن أفعى بين ذراعيك ياجريجور .. اذ رأيتها بعينى رأسى تتسلل كل مساء الى « يوجين » ، ومن المرجح أن تكون معه الآن ! .. ان المرأة ، كالقطة ، تستسلم لمن يربت عليها ! »**

وعندئذ أحس جريجور بالدم الحار يغلى فى عروقه ورأسه ، وبالعرق يتصبب من جسمه .. ثم سار دون أن ينبس بكلمة صوب غرفة « أكسينيا » ! .. ووقف طويلا أمام النافذة ، دون أن يجرؤ على طرقها .. لكنه طرقها أخيرا بعنف . وما أن فتحت أكسينيا النافذة ، ورأته ، حتى اندفعت نحوه قائلة : « جريجور ! .. لقد ظننت أننى لن أراك ثانية ، بعد ان انقطعت عنى أخبارك ورسائلك فترة طويلة ! »

ولما احتضنها وعانقها ، أحست بجسمه يرتعد ، رغم أن يديه كانتا تشتعلان حرارة .. ثم جلس دون أن يخلع معطفه ، وراح يتفرس فيها بشوق ولهفة ، فبدت له فى صحة جيدة ، وقد زالت عن يديها آثار العمل والاجهاد ، فبدت — فى حركاتها — كربة بيت ، وليست كخادمة !

وعندما فاتحها بملاحظته هذه ، رمقته بنظرة كلها فزع ، واطلقت ضحكة مفتصبة ، وعندئذ أيقن ان هذا الجمال

الساحر الفتاك لم يعد ملكا له ، بعد أن أصبحت محظيةلابن سيد الضيعة !

ونهض للخروج ، لكنها استوقفته ، وقد اطمأنت الى انه يود أن يدخن لفافة من التبغ .. فوقف على سلم الدار ، ثم فتح لفافة صغيرة أخرج منها منديلا ، مطرزا ، محلى برسوم بدوية خلابة . وكان قد اشتراه لها ، كهدية يفاجئها بها عند عودته. لكنه أحس الآن أنها هدية حقيرة . فكيف يتسنى له أن ينافس ابن رجل ثرى يملك ضياعا شاسعة ؟ .. وفجأةتشنج وانخرط فى البكاء، ثم مزق المنديل اربا ، وألقى به تحت قدميه. وعاد الى الغرفة حيث لحقت به «أكسينيا»، وحاولت ــ رغم ممانعته ــ أن تخلع له حذاءه ، بينما غرقت عيناها فى بحر من الدموع ..

ونام جريجور فى تلك الليلة ، من فرط تعبه، لكن أكسينيا لم تذق طعم النوم ، اذ احتضنت أحد الاعمدة ــ وكان البرد قارسا والرياح هوجاء ــ وبقيت كذلك حتى مطلع الفجر !

وفى الصباح نزل جريجور الى فناء الدار حيث تلقى تهنئة سيده ، ثم تهنئة ابن سيده ــ وغريمه فى الوقت نفسه ! ــ وكان « يوجين » قد ذكر لجريجور أثناء حديثهما ، أنه سيخرج للنزهة . وعندئذ طلب اليه جريجور أن يأذن له بقيادة العربة التى سينطلق بها للنزهة ، فأذن دون أن يخطر بباله أن جريجور المسكين يخامره أدنى شك من جهته !

وفى طريقهما للنزهة مال عليه « يوجين » ، ووعده بثمن مشروب ان هو أحسن القيادة . فأجاب جريجور : « ألم تغدق على ما فيه الكفاية ؟ .. اننى مدين لك باطعام « أكسينيا » .. وبمنحها ... » وهنا أمسك عن الكلام ، وتهدج صوته ، وبدت فى عينيه نظرات الشك والريبة .

وأحس يوجين بالامتعاض ، فاستند الى المقعد ، وأشعل لفافة ، راح يدخنها بعصبية . أما جريجور فقد ألهب ظهور الخيل بسوطه ، فانطلقت تعدو بجنون ، مما جعل يوجين يفقد سيطرته على نفسه .

وما أن توغلا داخل الوادي، حتى أوقف جريجور العربة، وقفز منها بسرعة ، ثم هجم على يوجين ، فأوسعه ضربا بالسوط ، حتى سال دمه على وجهه .. بينما كان يصيح به اثر كل ضربة : « هذه ، انتقام لأكسينيا .. وهذه ، انتقام لى ! »

ومضى يلهب كل جزء فى جسمه بالسوط حتى كلت يداه، وتعب ، فأمسك عن ضربه ، واذ ذاك ركله بكعب حذائه الحديدى ، ثم تركه ملقى على قارعة الطريق ، ومضى الى البيت .

وهناك تكررت حادثة الضرب ، لكن ضحيتها كانت أنثى هذه المرة ، اذ انهال بنفس السوط والطريقة على أكسينيا وهو يصرخ فيها : « أيتها الحية .. يالك من كلبة خائنة ! »

وحين شفى غليله ، غادر الضيعة مسرعا ، دون أن يلتفت الى أكسينيا التى هرعت تعدو وراءه ، وتبعته مسافة كبيرة من الطريق ، لكنه ردها بقسوة ، ومضى وحيدا !

.. وما أن بلغ فناء دار والديه ، حتى خفت اليه شقيقته « دونيا » ، وهبط والده السلم مسرعا — رغم عرجه — ليعانقه ، كما ارتفع صوت أمه وهى تبكى من شدة الفرح . أما «ناتاليا» فانها وقفت الى جوار الباب ، وقد استندت اليه — حتى لا تسقط — وعلى شفتيها ابتسامة حائرة صادرة عن نفس معذبة !

.. وسرعان ماالمحها جريجور ، فتعانقا ، وتعـاتبا ، ثم تصالحا ..

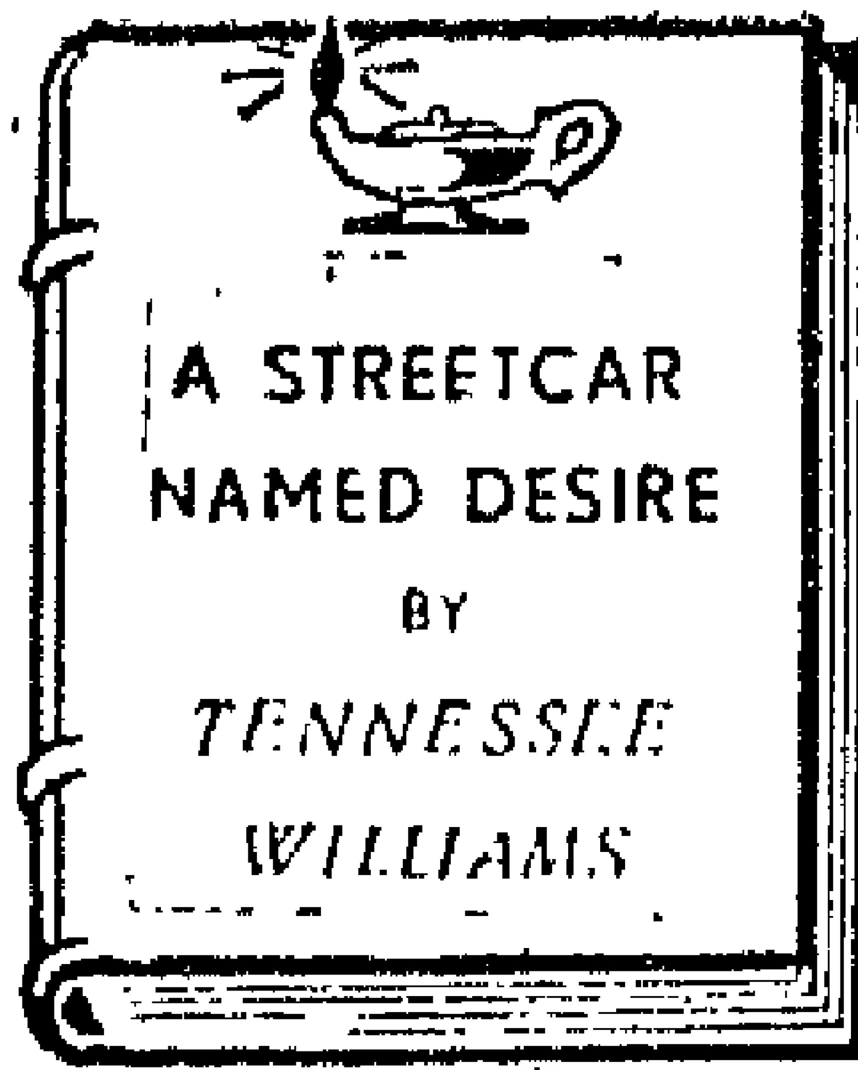
***

في **تلك** الليلة ، لكز « بنتاليمون » زوجته ــ وهي نائمــة الى جانبه فى الفراش ــ قائلا : « **سيرى بخفة وحذر لترى ما اذا كان جريجور وناتاليا نائمين معا ، أم لا ؟** »

.. وسارت المرأة بخفةوحذر كما نصحها الزوج العطوف ، حتى بلغت باب غرفتهما ، فأطلت من ثقب الباب ، ثم عادت تقول : « **انهما نائمان جنبا الى جنب !** »

وعندئذ نهض بنتاليمون ، وأخذ يرسم علامة الصليب ، وقد اختنق صوته بالبكاء ، وهو يقول :

« **حمدا لله ! .. شكرا لله ! .. حمدا لله .. !** »



عربة اسمها اللذة!

المسرحية التى بنت مجد الأديب الأمريكى المعاصر

تنيسى وليامز

تنيسى وليامز .. فى سطور



ولد «تنيسى وليـامز» فى مـدينـة (كولومبس) بـولاية (ميسورى) الأمريـكيـة ، حيث كان جده قسيس البلدة . وحين بلـغ الثانية عشرة ، انتقل أبوه ـ الذى كان منـدوب مبيعـات متجول ـ بأسرته الى مـدينة (سانت لويس) .. وهناك تبين الفتى وشقيقته استحالة الاخلاد الى حياة الاستقرار فى المدينة . وانه لفى حالة الكآبة والانقباض تلك ، التحق باحدى مدارس المدينة . لكنه تركها بعد سنوات ليعمل فى وظيفة كتابية فى شركة لصنع الاحذية .. وقضى فى الشركة عامين ، كان خلالهمـا ينتهز فرصـة الامسيات ليكتب . ثم التحق بجامعة (لووا) فى عام ١٩٣٨ ، حيث أتم دراسته ، فى نفس الوقت الذى كان فيه يعمـل ـ فى أوقات فراغه ـ أعمـالا اضـافية متبـاينة الاختـلاف والتنويع .

وفى عام ١٩٤٠ ظفر « تنيسى » بمنحة مؤسسة روكفلر ، عن مسرحيته (معركة الملائكة) . ومنذ ذلك الحين كتب عددا كبيرا من المسرحيات ؛ وبعض القصص والاشعار . واشهر هذه المسرحيات، التى ظفر أكثرها بشهرة عالمية على المسرح، كما أخرجت فى افلام سينمائية : عربة اسمها اللذة ، وشم الوردة ، قطة على سطح صفيح ساخن ، فجأة فى الصيف الماضى .. الخ .

ويعيش « تنيسى » الآن فى مدينة (نيو اورليانز)

عربة اسمها اللذة !

عرض وتلخيص : الدكتور لويس عوض

بلانش ديبوا امرأة جميلة ، فى الثلاثين من عمرها ، كانت تعمل ، الى عهد قريب ، مدرسة للغة الانجليزية بمدرسة فى مدينة لوريل ، من اعمال الجنوب فى الولايات المتحدة الامريكية ، حتى تركت عملها فى ظروف غامضة ، وانتقلت الى مدينة (نيواورليانز) الكبيرة ، حيث تقيم أختها «ستيللا ديبوا » ، أو على الاصح ستيللا كوفالسكى ، مع زوجها « ستانلى كوفالسكى » فى بيت حقير بحى الفقراء فى المدينة .

وحين تصل بلانش الى البيت تقف أمامه ، حاملة حقيبتها بيد ، وبيدها الاخرى ورقة فيها عنوان البيت ، وتبدو عليها الحيرة ، فينتقل بصرها مرارا من الورقة الى البيت ، ومن البيت الى الورقة . ويبدو مظهرها شاذا فى هذا الوسط الفقير ، فهى على اناقة واضحة ، فى فستان أبيض ناصع ، وجوانتى ابيض ، وقبعة واسعة ثمينة . وقد زينت صدرها

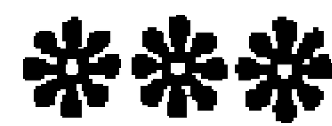
بعقد من اللؤلؤ وأذنيها بقرط من اللؤلؤ . وتظهر فى جمالها الهش كالفراشة حطت فى حقول غير مزهرة .

ولا تجد بلانش عند وصولها أحداً فى البيت ، الا جارة اسمها «يونيس» ، وتلتقى بها يونيس خارج البيت ؛ وتراها مصدومة حائرة . فتسألها ان كانت قد ضلت طريقها ، فتجيبها بلانش قائلة : ((**قالوا لى أن أركب عربة ترام اسمها اللذة ، ثم أغير للترام آخر اسمه الجبانات ، يسير بى ست نواص ، فأصل الى شارع اسمه جنة عدن !**)) .. وتعرف بلانش من يونيس إنها فعلا فى جنة عدن . انها تبحث عن المنزل رقم ٦٣٢ ، فتقول يونيس : « انه أمامك » . انها تبحث عن اختها ستيللا ديبوا ، تقصد مسز ستانلى كوفالسكى . وهذا من غير شك بيت أختها ، ويونيس خير من يعرف ذلك ؛ لانها تقيم معها فى هذا البيت الصغير المكون من دورين ، فهى تشغل مع زوجها « ستيف هبل » الدور الاعلى ، بينما تشغل ستيللا وزوجها ستانلى كوفالسكى الدور الاسفل، وليس بينهما الا سلم داخلى يصل الطابقين .

وتفتح يونيس الباب الخارجى المشترك فتدخل بلانش وتجيل نظرها فى الشقة كالمصعوقة ، فهى لا ترى الا حجرتين تنتهيان بالحمام ، أو على الاصح حجرة واحدة تستعمل للنوم ، اما الحجرة الاولى فهى تستعمل مطبخا ، وقد جهزت بسرير لتنام عليه بلانش عند وصولها . وليس بين الحجرتين باب يفصل بينهما . انها لم تألف هذه الحياة ، فهى قد ربيت مع أختها ستيللا فى أسرة كريمة ، عريقة ، تنحدر من أصل فرنسى ، كانت تملك عزبة كبيرة بها دار فخمة ذات أعمدة جميلة اثيلة ، يعرفها كل من جاورهم من سكان (الميسيسبى) باسم « بيل ريف » . وهى لهذا تعجب ان ترضى أختها ستيللا بالعيش فى هذا الوسط الوضيع ..

لقد كانت تحسب أن اختها ستيللا ـ منذ أن غادرت (بيل ريف) لسنوات خلت لتشق طريقها فى الحياة ـ قد تزوجت برجل من طبقتها !

وترحب « يونيس » ببلانش ، قائلة انها طالما سمعت ستيللا تتحدث عنها وعن ضيعتهما « بيل ريف » ، ودارهما ذات الاعمدة ، فتصرفها بلانش قائلة انها مرهقة وتحب أن تخلو بنفسها . وتنطلق يونيس الى مكان ليس ببعيد ، لتبلغ ستيللا وزوجها بمجيء بلانش . أما بلانش فتقبل على المطبخ باحثة عن شيء تشربه ، وتجد زجاجة الويسكى ، فتصب لنفسها كوبا تشربه ، ثم تغسل الكوب فى عناية ، وتجلس بجوار المائدة .



وبعد قليل ، تعود ستيللا الى بيتها ، وهى امرأة هادئة تصغر أختها بخمس سنوات ، وتحملق كل من الاختين فى الاخرى لحظة ، ثم تنهض بلانش وتعانق اختها وهى تصيح فى عصبية شديدة : « ستيللا ! ستيللا ! .. يا طفلتى المسكينة ! » .. انهما لم يلتقيا منذ سنوات عديدة ! وتمضى بلانش ترثى لحالها ولحظها القاسى الذى قذف بها لتعيش فى هذا المكان الوضيع . ولا تكف بلانش لحظة عن الكلام ، ثم تعجب لصمت ستيللا ، فتذكرها ستيللا فى هدوء بأنها لا تدع لها فرصة للكلام . ثم تؤكد لها أنها ، على غير ما تعتقد ، تحب زوجها ، وانها راضية بحياتها !

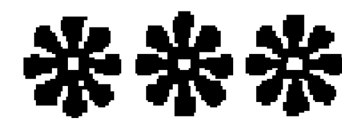
وتفسر بلانش سبب مجيئها بقولها ان الارهاق أخذ منها كل مأخذ ، حتى انهارت أعصابها ، وأوشكت ان تجن ، فنصحها المشرف على المدرسة بأن تأخذ اجازة تستجم فيها .

وتعرف بلانش انها ستنام فى المطبخ ، وتلاحظ انه ليس هناك باب يفصلها عن حجرة نوم اختها ، فتقول ستيللا أن

زوجها ستانلى بولندى، والبولنديون كالايرلنديين لايخجلون بسهولة . وتعرف بلانش ان ستانلى يجتمع أكثر الليالى بأصحابه ليلعبوا الورق فى البيت ، فتقول انها جاءت بثياب جميلة كثيرة لتبدو فى أحسن زينة أمام أصحابها . ولكن ستيللا تجيب بأن بلانش لن تسر كثيرا برؤية أصحاب زوجها ، فهم نماذج من غير من الفت ان تراهم فى بيل ريف ، فهى لن تحتاج الى كل هذه الاناقة بينهم .

وتقول بلانش لاختها ان بيت بيل ريف قد ضاع ، فتبدو الدهشة والاستياء على وجه ستيللا . ولكن بلانش تدافع عن نفسها قائلة ان ستيللا لا يجوز لها أن تبدى كل هذا الجزع على دار كانت هى أول من هجرها . وبعد ان تركت ستيللا بيل ريف وقع كل العبء على كاهل بلانش ، التى جاهدت ما أمكنها ذلك لتحتفظ بميراث الاسرة ، ولتحافظ على تقاليدها . ان ستيللا لا تعرف أن بلانش كابدت وشقيت فى بيل ريف وتحملت العبء كله ، فهى التى دفنت أباها وأمها ثم أختها مرجريت ثم عمتها جيسى . كلهم ذهبوا .. الواحد بعد الآخر ، وكانت هى ، بلانش ، الى جوارهم وهم يحتضرون . ان ستيللا لم تسمعهم وهم يصرخون متشبثين بالحياة : « لا تتركينى أموت . لا تتركينى أموت! » !.. حتى العجائز منهم كانوا يتشبثون بالحياة . أما ستيللا فقد كانت بعيدة عن كل ذلك . لقد كانت حقا تأتى بانتظام لحضور الجنازات ، ولكن الجنازات شىء هادىء ويجلله الصمت وتكثر فيه باقات الزهور . واذا كانت ستيللا لا تعرف ، فيجب أن تعرف ان الموت يكلف مالا كثيرا . ومن أين تأتى بلانش بكل هذا المال . لم يكن بد اذن من الاستدانة ، وقد ضاع البيت وفاء لهذه الديون الكثيرة . ان ستيللا تلومها على ضياع بيل ريف ، وهى التى كانت تنعم بأطيب الاوقات فى أحضان زوجها البولندى ،

بينما كانت بلانش تواجه حقائق الحياة والموت فى شجاعة .
وتبكى ستيللا من قسوة هذا الكلام ، وتدخل الحمام لتجفف دموعها وتغسل وجهها . وفى هذه الاثناء يقبل ستانلى كوفالسكى ومعه جاره ستيف وصديقه ميتش ، فتتوارى بلانش فى حجرة النوم ، وتسمع الرجال الثلاثة يتواعدون على لعب البوكر فى المساء التالى . وتسمع ميتش يقول انه يفضل الا يكون ذلك فى منزله ، لان امه العجوز مريضة جدا ، وهذا يزعجها ، فيقول ستانلى : « اذن فلنلعب فى بيتى بشرط ان تأتوا ومعكم البيرة » . ثم يصعد ستيف الى الدور الاعلى حيث يقيم ، وينصرف ميتش .. وهنا تخرج بلانش وتعرف ستانلى كوفالسكى بنفسها . وتنظر اليه لحظة ، فتجده رجلا متوسط الطول ، متين البنيان ، تبدو الحيوانية الشرهة فى كل قسماته ، والغلظة فى كل حركاته ، والسوقية فى كل كلماته .
ولا يلبث ستانلى ان يقول لبلانش ان العرق يجعل قميصه يلتصق بجسمه ، ويخلع قميصه آمامها دون تحرج . ويبحث عن زجاجة الويسكى ، ويلاحظ مابها من نقص ، فيقول هازئا ان الويسكى يتبخر بسرعة فى أيام الصيف . ثم يسأل بلانش عن حياتها الخاصة . انه سمع من أختها انها كانت متزوجة فى يوم من الايام . فتضطرب بلانش ويصيبها دوار شديد وتجيبه قائلة : « نعم .. كان هذا منذ زمن بعيد ، حين كنت فى السابعة عشرة » . ويلحف ستانلى فى السؤال : « وماذا حدث ؟ » فتجيبه فى اعياء : « ان الفتى الذى تزوجته .. قد مات ! » ثم تسقط براسها على ذراعها وتغيب فى ذهول ، فينصرف ستانلى للنوم .



وفى مساء اليوم التالى تخبر ستيللا زوجها ستانلى انهـا ستخرج بأختها بلانش للنزهة ، ليخلو البيت له ولاصدقائه فيلعبوا البوكر كما يحبون ، وان بلانش الآن تأخذ حماما ساخنا فى الصيف لتهدىء أعصابها الثائرة . وتبلغ ستيللا زوجها ان دار بيل ريف ضاعت، وهى لاتعرف كيف ضاعت، ولكنها تعتقد انها ضاعت وفاء للديون . وترجو ستيللا ستانلى ان يحسن معاملة أختها ، فلا ينسى أن يطرى جمالها ومظهرها حين يراها ، فهى بنت مرهفة الحس . وهى قد صدمت ، لانها لم تكن تنتظر ان تجدهما فى هذا البيت الصغير الفقير ، فهى لم تألف هذا النوع من الحياه . نعم ، يجب أن يظهر ستانلى اعجابه بأناقة بلانش ، لانها تهتم كثيرا بجمال المظهر .

ويختصر ستانلى الطريق ويقول فى غلظة : « كل هذا حسن . ولكن كيف ضاعت بيل ريف ؟ » ، وترجوه ستيللا أن يرجىء الحديث فى هذا الموضوع حتى تسترد بلانش هدوءها وصحتها . ويعود ستانلى الى جفافه فيقول : «أين عقد البيع ؟ أريد أن ألقى عليه نظرة . » ، فتجيب ستيللا ان بلانش لم تعرض عليها أوراقا . ويصر ستانلى على فحص الاوراق . وحين تقول ستيللا انها تثق فى أختها وانها لاتكترث بالاوراق ، يقول ستانلى فى خشونة : « هل سمعت بشىء اسمه قوانين نابليون ؟ اذا كنت لاتعرفين ، فيجب أن تعرفى أن قوانين نابليون هى القوانين المعمول بها فى ولاية لويزيانا . وبموجب هذه القوانين ، كل ما تملكه الزوجة يملكه الزوج ، وكل ما يملكه الزوج تملكه الزوجة . »

وتقول ستيللا ان راسها يدور .. لكن ستانلى يمضى فى غلظته قائلا : « سننتظر اذن حتى تهدأ أعصاب صاحبة

السمو اختك ، ثم نعلمها أحكام قوانين نابليون » . ولكن الذى يبدو واضحا له هو ان أختها نصبت عليها ، ونصبت عليه ؛ فهو له حق فى كل ما تملكه ستيللا !

وتحتج ستيللا قائلة ان ستانلى بلغ أسخف السخف فى كلامه ، فليس بين أهلها أحد ينصب على أحد . ويسألها ستانلى : « أين اذن المال ، اذا كان البيت قد بيع ؟ » فتجيبه : « انه لم يبع ، بل ضاع .. ضاع ! » ، فينطلق ستانلى الى حقيبة بلانش هائجا ، ويفتحها ويجمع بين ذراعيه عددا كبيرا من الاثواب ، ويصيح : « افتحى عينيك . أنظرى الى كل هذا . أتظنين انها أشترته من مرتب مدرسة ؟ أنظرى الى هذا الرياش ، وهذا الرينار ارجنتيه . » .. ويلقى ستانلى بالثياب على السرير ، ثم يخرج من الحقيبة علبة الجواهر ، ويستخرج منها الاسورة الذهبية وعقود اللؤلؤ وأقراط الماس ، وتاجا من الماس ، وهو يسب ويصخب . وتحاول ستيللا أن تفهمه أن فرو الثعلب كان عند بلانش من زمن طويل ، وان كل ما يراه من لؤلؤ وماس وذهب هو من الحلى « الغالصو » . لكنه يصر على أن زينة بلانش هذه هى التى ابتلعت (بيل ريف) ، وانه سيعرض هذه الاشياء على صديق له خبير بالجواهر ، لتعرف قيمتها الحقيقية . وحين لا تجد ستيللا سبيلا الى اسكاته ، تمضى الى الباب الخارجى وتنتظر به ، منعا للجدل .

وتخرج بلانش من الحمام ، وهى تطفح بشرا وتفيض عطرا . وتلاحظ ان ملابسها موضوعة على السرير ، فيقول ستانلى مفسرا انه أراد ان يعينها على ترتيب أشيائها ، ثم يضيف هازئا : « يبدو انك سطوت على محل ازياء فى باريس ! » فتجيبه بلانش ان الثياب الجميلة هى نقطة ضعفها . ويسألها عن فرو الثعلب فتقول انه هدية من معجب ، أيام ان كان

جمالها يستحق الاعجاب . اما الآن ، فمن ذا الذى يظن انها كانت جميلة فى يوم من الايام ! .. فيقول ستانلى كالتيس ـ أن منظرها لا غبار عليه . فتضحك بلانش وتقول انها كانت تتصيد منه الاطراء . فيجيب بقوله ان النساء تافهات مغرورات، لا عمل لهن الا تصيد الاطراء من الرجال ، أما هو ، فانه لا يكترث لهذه الفتنة التى تضحك بها النساء على الرجال . وهو لا يهتم الا بالمرأة التى تكشف كل أوراقها وتعامله بصراحة . فتقول بلانش متملقة انها فهمته فى أول لحظة رأته فيها : فقالت لنفسها أن أختها قد تزوجت رجلا .

وتعود ستيللا ، ويعود ستانلى كوفالسكى الى قصة المرأة التى يجب أن تكشف كل أوراقها . فتكف بلانش عن المراوغة وتقول انها مستعدة للاجابة عن كل سؤال . ويذكرها ستانلى بقوانين نابليون المتبعة فى ولاية لويزيانا ويضيف : « أين الاوراق ؟ أهى فى الحقيبة ؟ » فتجيبه : « أن كل ما أملك موجود فى الحقيبة . »

ويهجم ستانلى على الحقيبة ، ويذهب ينبش فيها بحثا عن الاوراق ، فتغضب بلانش وتصيح به : « ماهذا الذى تفعل ؟ أتظن انى أخفى عن أختى شيئا ؟ دعنى آتيك بالاوراق، فهذا أبسط وأسرع . »

وتخرج بلانش من الحقيبة صندوقا من الصفيح وتفتحه . ويلمح ستانلى ربطة من الاوراق فى الحقيبة ، ويسألها عنها فتقول انها خطابات غرامية ، فيخطف الرابطة . وتصرخ فيه بلانش فى حدة : « هات هذه الرسائل ! » .. ولكن ستانلى يصر على فحصها أولا ، فتصرخ فيه قائلة : « انك تلوثها بلمسها » ؛ ولا يكترث بكلامها ، ويذهب يتصفحها . وتتناثر من يده الاوراق على الارض . فتجمعها بلانش قائلة :

« سأحرقها مادمت قد لوثتها بيدك ونظرك ! » . ويسألها ستانلى ، ذاهلا ، عن مضمون هذه الاوراق ، فتجيبه : « انها قصائد كتبها فتى صغير . كتبها زوجى . وقد مات . وانا اسأت اليه كما تريد أنت الآن أن تسىء الى . ولكنك لن تدفعنى كما دفعته انا الى .. أنا لم أعد صغيرة ، ولم يعد من السهل جرحى ! »

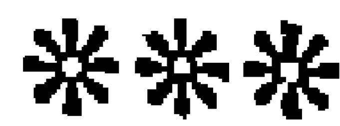
وتوشك أن يغمى عليها ، ولكنها تتمالك قواها وتجلس ، وتقول : « معذرة ، ان لكل منا أشياء خاصة لا يحب أن يطلع عليها الغير . لقد فقدت صوابى لحظة » .. ثم تناوله أوراقا من الصندوق الصفيح تحمل اسم « شركة امبلر وامبلر للرهونات » . نعم ، هذه هى الشركة التى أقرضتها المال ، وارتهنت دار بيل ريف ، ثم استولت عليها حين عجزت عن السداد ، ويسألها فى غلظة عن بقية الاوراق ، فتسلمه مجموعة ضخمة منها ، وهى تصيح : « هذا كل ما تبقى من بيل ريف . تاريخ مئات السنين تحول الى أوراق ضاعت جزءا جزءا . اضاعها اجدادنا فى ملاحم النكاح والصبوات . هذه هى الصراحة . لقد اضاعت عزتنا كلمة من ثلاثة احرف ! .. أسأل ستيللا عن التفاصيل . وكل ما ورثناه منها البيت وعشرون فدانا والمقبرة التي تضم رميم كل آل ديبوا ما عدا ستيللا وأنا . اليك بالاوراق . أدرسها . احفظها عن ظهر قلب . من حسن حظ بيل ريف أن يقع مصيرها بين يديك القادرتين . »

ويقول ستانلى أن قوانين نابليون تخول له أن يرعى شئون زوجته المالية ، سيما وان ستيللا حامل .

وتعود ستيللا ، فتهنئها بلانش على انها تنتظر مولودا . وتعتذر ستيللا لبلانش عن فظاظة زوجها ، فتقول بلانش :

« الآن وقد فقدنا بيل ريف فلعله ينفعنا أن يختلط دم الاسرة بدم رجل مثل ستانلى كوفالسكى . »

وتنصرف ستيللا وبلانش للنزهة . ويقبل الضيوف واحدا بعد الآخر ، فهذه ليلة البوكر .

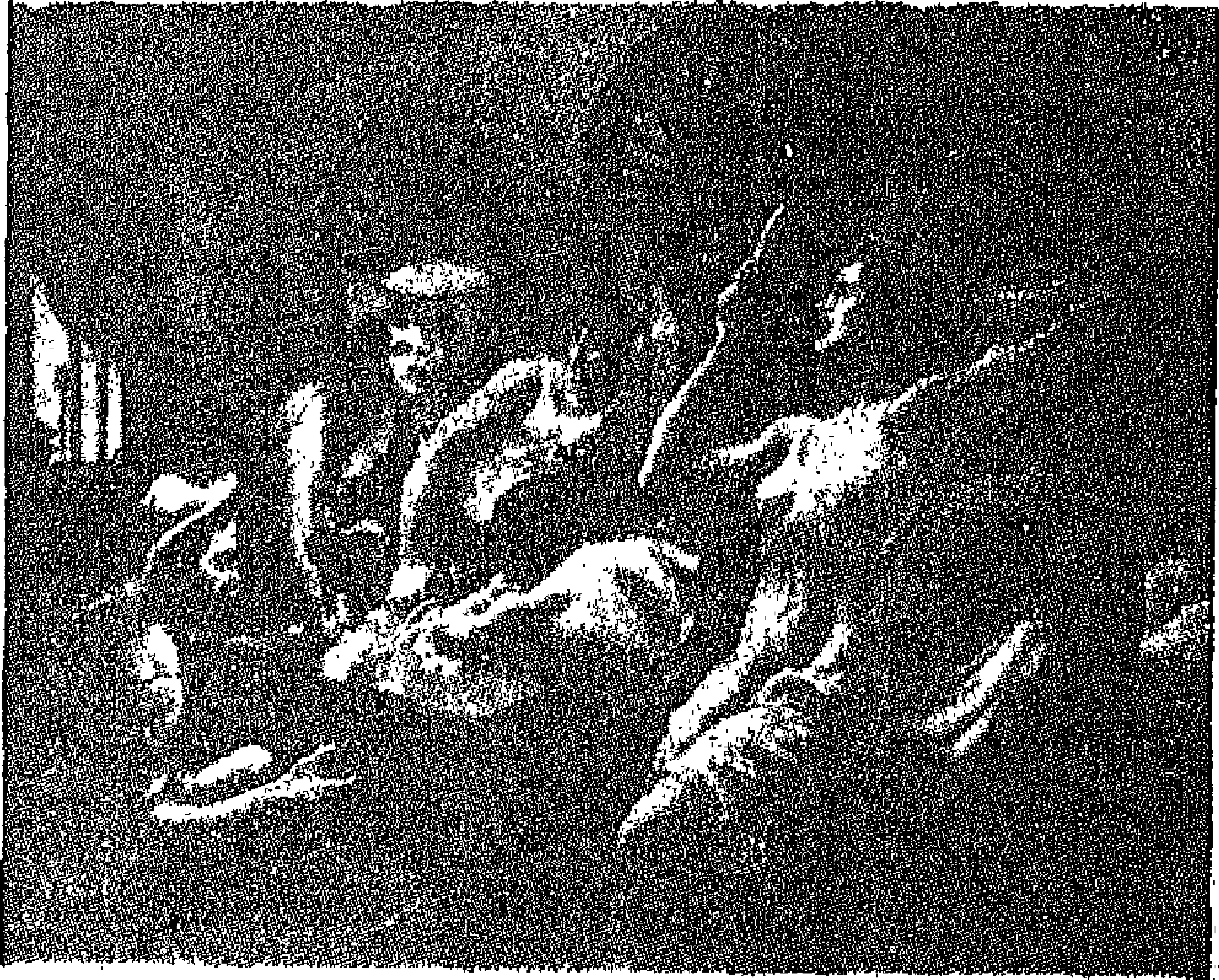


يقبل الجار « ستيف » وصديق العمل « ميتش » ثم « بابلو جونزاليس » ، وكلهم فى قمصان سوقية الالوان : ويضعون على المائدة زجاجة من الويسكى ويمضون فى اللعب . وبعد قليل ينذر ميتش الجماعة انه لن يفرط فى السهر معهم ، لان له أما مريضة ، وهى لا تنام قبل عودته . انهم متزوجون ومعهم زوجاتهم ، أما هو فسيبقى وحيدا فى الحياة حتى تموت أمه . ويعيره ستانلى بأنه لا يزال بحاجة الى « بزازة » !

وبعد قليل تعود ستيللا وبلانش من السينما . ولما تقترب منهم بلانش تقول للرجال بلهجة السيدات الكرائم : «ارجوكم لا تقفوا » ، فيقول ستانلى هازئا : « اطمئنى .. لن يقف لك أحد ! » ، ولكن ميتش هو الوحيد الذى يعامل بلانش باحترام ، فيلفت هذا نظر بلانش اليه ، وتذهب تجمع من اختها المعلومات عنه وهما على حدة . كلا ، انه ليس متزوجا . كلا ، انه ليس زير نساء . نعم ، هو زميل ستانلى، وهو يعمل فى ضبط الادوات بالمصنع فى قسم قطع الغيار . ويعلو حديث الاختين وضحكهما ، فيغتاظ ستانلى ، لان الضجة تفسد عليه لعبة البوكر ، فيأمرهما بالسكوت ــ فى هياج ــ وقد امتلأت شرايينه بالويسكى . فتسكت الاختان قليلا ثم تمضى بلانش الى الراديو وتفتحه فتسمع منه موسيقى الرومبا . وتطرب الجماعة للموسيقى ، ما عدا

ستانلى الذى بدأ يفقد أعصابه من الشراب ومن الخسارة فى البوكر . ويصيح ستانلى : ((اقفليه)) . ولكن بلانش لا تتحرك من مقعدها ، فينهض ستانلى ويقفل الراديو فى عصبية ، ويعود الى مكانه .

ويأنس ميتش للحديث مع بلانش فلا يلقى بالا للعب ، بل يذهب يتجاذب معها اطراف الحديث، وتطلب بلانش سيجارة فيريها ميتش علبة سجائره الفضية . وتقلبها بلانش معجبة فتقرأ عليها نقشا يقول : ((**ولو أراد الله لزاد حبى لك .. بعد الموت !**)) ، وهو بيت من شعر ((اليزابيث براونبج)) . ويقول ميتش ان البنت التى أهدته العلبة قد ماتت ، وانه حزن لموتها حزنا شديدا ، فتقول بلانش ان الاحزان تطهر



لوحة للرسام ((توماس هارت بنتون)) تمثل مشهدا من المسرحية ، وتقتنى هذه اللوحة ـ ضمن مجموعة كبيرة ـ السيدة ((ايرين ماير سيلزنيك)) ، منتجة المسرحية عند تمثيلها على مسارح نيويورك

النفوس . وتفتح بلانش الراديو مرة أخرى فيسمع منه فالس جميل ترقص عليه بلانش بمفردها ، ويجاريها ميتش وهو فى سعادة قصوى . ولكن ستانلى يثور حنقا ، ويندفع الى الراديو ، فيرفعه ، ويقذف به من النافذة !

وتعنفه ستيللا غاضبة ، وهى تصيح : « أنت سكران .. انت سكران ! .. هيا انصرفوا جميعا . ان كانت بكم بقية من كرامة ، فارجوكم أن تنصرفوا . ! »

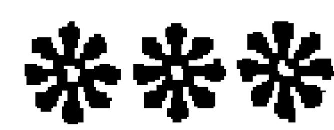
ويهجم ستانلى على ستيللا قاصدا ضربها .. وتصيح بلانش قائلة : « ان اختى حامل » . ويهدىء الرجال من ثائرته ، وتتفاداه ستيللا ثم تتوارى فى المطبخ ، ولكن ستانلى الهائج يتبعها ويلكمها ، فتصرخ بلانش .. ويتجمهر الرجال على ستانلى ، ويدفعونه دفعا الى حجرة النوم . ويتهافت ستانلى على الفراش ، بعد أن كان يقاوم مقاومة عنيفة . وتصرخ ستيللا : « اريد أن أرحل ! أريد أن أرحل ! » ويقول ميتش : « هذا فظيع ! هذا فظيع ! ان البوكر لا يلعب فى بيت فيه نساء . » وتجمع بلانش ملابس أختها وتصعد معها الى شقة يونيس فى الدور الاعلى . ويضع الرجال ستانلى تحت « الدوش » حتى يفيق ثم ينصرفون ، كل بما كسب . ويجأر ستانلى بالصياح قائلا : « ستيللا يا حبيبتى ! .. عودى الى يا حبيبتى ! يونيس ! يونيس ! ردى على يا حبيبتى ! » وتجيبه يونيس : « كفى نباحا ونم .. » ويعود ستانلى الى الصياح : « ستيللا ! ستيللا ! يا حبيبتى ! عودى الى يا حبيبتى . » ، فتجيبه يونيس مرة أخرى : « انها لن تعود ، فكف عن الصياح ، والا ناديت البوليس . »

ولكن ستانلى لا يكف عن الصياح ، وهو يبكى بكاء الاطفال : « ستيللا ! ستيللا ! عودى يا ستيللا ! » .. ويصعد السلم ، ويدق بكلتا يديه باب يونيس ، وهو لا يكف عن

النداء بأعلى صوته. **وأخيرا يفتح الباب وتخرج منه ستيللا ، والدموع تبرق فى عينيها ، وشعرها محلول على كتفيها ، ويحملق كل منهما فى الآخر لحظة ، ثم يمضيان نحو غرفة النوم ، وهما يئنان أنينا خفيضا كأنين الحيوان ، ويركع ستانلى أمامها ، ويلصق خده ببطنها ، فيشيع فى جسدها حنان قوى ، وينهض ويحملها على ذراعيه الى الغرفة المظلمة ، ويجذب الستار الذى يفصلهما عن المطبخ الكبير .**

ويعود ميتش ليطمئن على ما يجرى فيجد بلانش ذاهلة من هذا الذى رات . أن اختها ستيللا دخلت مع زوجها حجرة النوم بعدكل الذى فعل! ؟ انها لم تألف هذه الاشياء !

ويشرح لها ميتش أن هذه عاصفة فى فنجان ، ولكنها لا تفيق من دهشتها . ويخرج ميتش الى الهواء ، لتدخن معه سيجارة تهدىء بها أعصابها .



وفى صباح اليوم التالى تنهض ستيللا من نوم عميق مريح ، وقد تلألأ وجهها بضياء الراحة والسعادة ، أما بلانش فقد قضت ليلة ساهدة ، لم تذق فيها طعم النوم .. بينما خرج ستانلى ليصلح الراديو ، وليشحم السيارة .

ويدور بين الاختين حديث يبدأ هادئا ثم يعنف. ان ستيللا كانت مجنونة لانها عادت الى زوجها ــ بل لعلها استسلمت له ــ بعد أن ضربها ! وتعتذر ستيللا لاختها عما كان من ازعاج لها فى الليلة السابقة . ولكنها تجد أن بلانش تهول فى الامر ، وهى تفهم هذا ، فقد كانت بلانش دائما بنتا عصبية. انها لا تقر ما فعله زوجها ، ولكنها لا ترى داعيا للمبالغة فى الامور . فالرجال حين يشربون يميلون الى الشجار ، ومنهم من يحطم كل ما تقع عليه يده . وستانلى من هذا النوع .

وهى تذكر كيف انه ، ليلة الزواج ، تناول حذاءها ، وذهب يكسر كل اللمبات الكهربائية بكعبه ، وهو قد اعتذر لها فى



الممثلة العالمية ((فيفيان لى)) كما تبدو فى دور ((بلانش ديبوا)) ، فى فيلم ((عربة اسـمها اللذة)) الذى اقتبس من المسـرحية .

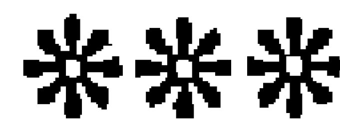
الليلة السابقة بما فيه الكفاية ، فلا ضرورة اذن للتهويل فى الامر كما تفعل بلانش .

اما بلانش فتصر على ان ستيللا متزوجة من مجنون ، وانه لا بد من ايجاد مخرج لهما . فلا يجب ان تبقى هى أو اختها ، لحظة واحدة ، تحت سقف هذا الوضيع الذى يضرب زوجته ! وبلانش تعرف طريقا ، فستيللا لا شك تذكر صديق الاسرة الفتى « شب هنتلى » .. انه الآن من اصحاب الملايين فى تكساس ، يملك ابار البترول التى تتجشأ الذهب فى جيبه ، وهى قد التقت به فى «الكريسماس» الماضى ؛ وفى استطاعتهما أن يقصدا اليه ، فيعينهما بفتح محل تجارى لهما . ان قلبها يتفطر لسوء حالة اختها ستيللا ، ولسوف تنقذها وتنقذ نفسها من هذا الجحيم الذى تعيشان فيه .

وتهم بلانش فعلا بارسال برقية الى شب هنتلى تعلن قدومها ، ولكن ستيللا تمنعها من ذلك قائلة انها لا تعيش فى جحيم كما تتوهم بلانش ، بل على العكس من ذلك فهى سعيدة مع زوجها . وتجيبها بلانش قائلة انها لا تتحدث عن السعادة بل تتحدث عن اللذة ، اللذة الصاخبة التى تصخب حتى تصم آذانها ؛ كما تصخب عربة الترام — تلك التى يسمونها « اللذة » — فى شوارع مدينتها الضيقة . وحقيقة الامر أن زوجها حيوان ، مجرد حيوان ، انه رجل من العصر الحجرى ؛ يخرج كل يوم للصيد ، وفى المساء يعود اليها ليضربها ويقبلها ، ويحملها الى مغارة من تلك المغارات المظلمة ، التى لا تختلف كثيرا عن حجرة نومها . ولكن ستيللا تنسى ان العالم قد تقدم ، وان فيه شيئا اسمه الشعر ، والموسيقى ، وكل ما هو جميل ، ورقيق . .

ويعود ستانلى [illegible] بلانش [illegible] هلا [illegible]

حدث . ولكنه يحدجها بنظرات شك واضحة ، ويسألها قائلا : « اتعرفين رجلا اسمه شو ؟ » فترتبك بلانش قليلا ، ولكنها تتمالك نفسها وتجيب : « ليس هناك أحد لا يعرف رجلا باسم شو » . فيمضي ستانلي في كلامه قائلا : « ان شو هذا يعتقد انه قابلك في مدينة لوريل . لا شك ان الامر اختلط عليه ، فهو يقول انه قابلك في فندق (فلامنجو) ، وهو فندق سيء السمعة . انه يذهب يوميا الى لوريل ، لتصريف منتجات الشركة ، وفي امكانه التحقق من الامر .



وبعد أن ينصرف ستانلي يعود الاضطراب الى بلانش وترتجف يداها . وتراها ستيللا على هذه الحال فتسألها عما بها . فتقول بلانش في شبه هذيان : « هل سمعت احدا يخوض في سيرتي ؟ ماذا يثرثر الناس عني ؟ » وتنفي ستيللا عاجبة أنها سمعت احدا يذكرها بسوء . فتقول بلانش انها لم تكن مثالية السلوك في السنتين الاخيرتين ، بعد ان ضاعت (بيل ريف) . لقد كانت في الماضي ضعيفة ، وكان جمالها مصدر قوة لها . اما الآن فجمالها يذبل ، وقد جاوزت الثلاثين !

وتسرع بلانش الى الشراب فتخلط لها ستيللا الويسكي بالكوكاكولا لتهدئها . ولكن بلانش تظل على حالتها العصبية وتقول : « ان ميتش قادم في الساعة السابعة . وأنا لم أعطه شيئا الا قبلة وداع . أنا أريده أن يحترمني ، انه لا يعرف حقيقة سني . انا متعبة . . متعبة جدا . واريد أن أستريح ، ولو تزوجني لانتهت مشاكلي ومشاكلكم . »

وتقول ستيللا لبلانش مشجعة ان أمنيتها ستتحقق ، وتحذرها من الافراط في الشراب ، ثم تنصرف للقاء زوجها

فى الخارج . ولكن بلانش تبادر الى زجاجة الويسكى وتشرب منها بيد مرتعشة . ان ميتش هو أملها الاخير .. ولو ضاع منها ميتش ، فما أبأسها .. ! ترى ماذا يكون مصيرها ؟ هل تعود الى مدينة (لوريل) ؟

ويقبل فتى حديث السن ويضرب الجرس فتفتح له الباب . انه محصل جريدة « الايفننج ستار » . وحين تقع عينها عليه تتوه فى الذكريات البعيدة ، وتذكر زوجها الذي مات وهو بعد دون العشرين . وتعتذر له بأن ربة البيت قد خرجت ، فيجيب : « لا بأس اذن . سأعود فى وقت آخر » . ويهم بالانصراف ، فتدعوه اليها كأن مغناطيسا يجذبها اليه قائلة : « ايها الفتى ! أما سمعت أحدا يقول لك انك تشبه أميرا صغيرا فى ألف ليلة وليلة ؟ »

ويضحك الفتى ويحمر وجهه خجلا ، فتقول له بلانش : « تعال .. اريد أن أقبلك . قبلة واحدة رقيقة على فمك . »

وقبل أن يتنبه الفتى تقبله بلانش قبلة واحدة رقيقة على فمه ثم تقول : « هيا انصرف .. انصرف بسرعة .. فلا ينبغى ان أتعرض للاطفال .. » ويحملق الفتى فيها ذاهلا ، ثم ينصرف وهى تتبعه بنظرات غريبة زائغة .

وما ان يختفى حتى يظهر ميتش عند المنعطف حاملا باقة من الورد ، فتطرب لرؤياه..وحين يصل تقول له فى بهجة : « يا فارسى ! انحن اولا ثم قدم لى ورودك . »

***

وتخرج بلانش وميتش لقضاء المساء فى الملاهى . ويعودان بعد الساعة الثانية صباحا ، فيجدان ان ستانلى وستيللا لم يعودا بعد من نزهتهما . ويتضح من هيئة بلانش وميتش ، ومن كلامهما، انهما لم يقضيا مساء موفقا، فقد كانا مكتئبين

أكثر الوقت. واجتهدت بلانش أن تتكلف المرح طوال المساء، لكن شخصيتها النورستينية كانت دائما تغلبها . وكان هو



بلانش ديبوا (فيفيان لي) في موقف رائع من الفيلم ، تبدو فيه ساهمة النظرات ، وقد حطمها اليأس ، وبدا يذهب بعقلها ..

يحاول تقبيلها ، ولكنها كانت ترده ، لخشيتها من توغله فيما بعد القبل .

وتدعو بلانش ميتش للدخول ، الى ان تعود اختها وزوجها ، فيدخل . وتأتيه بشيء من الويسكى لينبسط انقباضه . ولا يجدان ما يتحدثان فيه ، فيذهب يحدثها عن وزنه وعن وزنها . ويعلم منها انها لم تعد موضع ترحيب فى بيت أختها ، وانها ، لهذا ، سترحل عنه قريبا . انها تمقت هذا البيت وتمقت ستانلى . انها منذ أن وقعت عينها عليه وهى تعتقد انه جلادها .. انه محطم حياتها . انها تعلم انه يمقتها من صميم قلبه ، ولا يجد سبيلا الى اهانتها الا وسلكه .

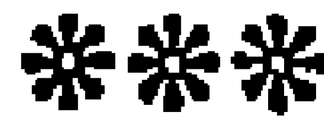
ويجمع ميتش قواه ويسألها فجأة عن عمرها ، فترتجف وتقول : « وفيم هذا السؤال ؟ » فيقول ميتش : « لانى تحدثت مع أمى عنك فسألتنى : « كم عمر بلانش ؟ » ، ولم أعرف بماذا أجيب . » نعم ، انه تحدث مع أمه عن بلانش وقال لها انها بنت لطيفة وانه يأنس اليها كثيرا . وأمه المريضة تعرف انها لن تعيش أكثر من شهور معدودة ، وهى لهذا تحب له أن يتزوج ، قبل أن ترحل هى عن الحياة . وهذا سر اهتمامها بعمر بلانش .

ان بلانش تفهمه حق الفهم . انه رجل مخلص ، متفان فى الاخلاص . وحين تموت أمه سيعيش فى وحدة قاتلة . انها تفهمه لانها تعرف معنى الوحدة القاتلة . فقد أحبت هى ايضا شخصا ما ، أحبته حب العبادة ، ثم فقدته . ومنذ ذلك اليوم وهى تعيش فى وحدة قاتلة . وتستعين بلانش بكأس آخر من الويسكى لتهدىء أعصابها ، ثم تمضى فى سردها فتقول لميتش : « كان غلاما صغيرا ، وكنت بنتا صغيرة . فحين كنت فى السادسة عشرة اكتشفت الحب ..

اكتشفته فجأة ، وفى اكتماله وتمامه .. **كأن أنوارا كشافة تفشى الابصار سقطت على شيء كان دائما نصف محجوب فى الظلال** .. وكنت سيئة **الحظ . فقد كان الفتى مختلفا عن غيره من الفتيان .. كانت فيه عصبية ورقة وحنان ليست من صفات الرجال ، وان كان أبعد ما يكون عن التخنث .. وجاءنى يطلب العون . ولم أكن أعرف انه ينتظر منى العون .**
لم أعرف ذلك الا بعد زواجنا .. بعد ان هربنا وعدنا .. وكان كل ما عرفته اننى عجزت عن مساعدته فى شيء غامض ، وفشلت فى اعطائه العون الذى كان يحتاج اليه والذى كان يعجز عن الافصاح عنه . كان كمن تسوخ قدماه فى الرمال المتحركة وقد تشبث بى طالبا النجدة . غير انى بدلا من أن أجذبه كنت أسوخ معه فى الرمال . ولكنى لم أعرف ذلك وقتئذ . وكل ما كنت أعرفه انى أحببته حبا لا يطاق .. ثم اكتشفت الحقيقة فى ابشع صورها . فذات يوم دخلت فجأة غرفة كنت أحسبهاخالية .. فوجدت فيها هذا الفلام الذى تزوجته ، ومعه رجل يكبره سنا ، كان صديقه من سنوات .. لكنى تظاهرت بأنى لم أكتشف شيئا .. وخرجنا ، ثلاثتنا ، فى سيارة الى كازينو (مون ليك) ، ونحن فى حالة سكر شديد ، نضحك طول الطريق . ورقصنا رقصة « البولكا » .. وفى منتصف الرقص لم أملك نفسى فجأة فعيرته بما فعل . وانفلت الفلام منى وخرج من الكازينو .. وبعد لحظات سمعنا طلقة ! » .. وهكذا انتحر زوجها ! .. وجرت هى لترى ما الخبر ، ولكن الناس منعوها من الاقتراب من جثته . وهى منذ ذلك الوقت تعيش فى وحدة قاتلة .. تعرف مئات الناس ولكنها تعيش فى وحدة قاتلة ! ..

ويهدئها ميتش قائلا انه بحاجة اليها وانها بحاجة اليه .

فهل تقبله زوجا . فتتمتم بلانش قائلة : « ان الله يكون احيانا اقرب الينا من حبل الوريد ! »

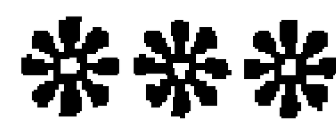


وفى اليوم التالى يدخل ستانلى كوفالسكى فيجد زوجته ستيللا ترتب الشموع لعيد ميلاد بلانش ، فيقول هازئا : « لقد اكتشفتها ! لقد اكتشفتها ! » .. انه تحقق الآن من كل شيء . تحقق من أن اختها أفاقة من اعظم طراز وكذابة من الدرجة الاولى ، فالكذبة الاولى انها تمثل أمام ميتش دور المرأة الطاهرة التى يخدشها مر النسيم ، والعذراء التى لم يقبلها رجل ؛ والحقيقة التى جاء بها صاحبه « شو » من مدينة لوريل ، انها كانت تعيش فى فندق فلامنجو الذى لا يسأل فيه نزيل عن شيء يفعله ؛ وان كل أهل المدينة يعرفونها ، بل ويشيرون اليها بالاصابع ويسمونها «المجنونة» . والكذبة الثانية هى انها تقول انها راجعة الى مدرستها فى لوريل ، وهى تعلم تماما انها طردت من عملها ، لانهم اتهموها باغواء فتى فى السابعة عشرة ؛ بعد أن اشتكاها ابوه لناظر المدرسة !

وتدافع ستيلا عن أختها بحرارة ، قائلة انها لاتصدق كلمة واحدة من هذه الوشايات ! .. وتمضى فى ترتيب الشموع ، وهى تتحدث عن زيارة ميتش المنتظرة ، فيقاطعها ستانلى قائلا انه من الخير الا تنتظر ميتش . ان ميتش صديقه وزميله فى العمل وهو لن يقوى على مواجهته اذا اكتشف هذه الحقائق بعد فوات الاوان . وهو لذا قد اطلعه على كل شيء حتى يكون على بينة من أمره ، بل أكثر من ذلك ان ستانلى قد اشترى لبلانش تذكرة سفر الى لوريل ، فهى لا بد أن ترحل بعد يومين !

وينصرف ستانلى ، بعد ان أفرغ كل ما فى جعبته من وشايات ! .. ويسقط فى يد ستيللا حين تسمع هذا الكلام ، وتلزم مكانها كالمصعوقة . وحين تقبل عليها بلانش متهللة فى انتظار ميتش ، ترى وجهها فى شحوب الموتى ، فتستفسر عن الخبر فى انزعاج شديد، ولكن ستيللا تمضى فى ترتيب المائدة ، متظاهرة بأن كل شىء على مايرام .

وبعد ساعة يجتمع ثلاثتهم حول مائدة الطعام ، ويحتفلون بعيد ميلاد بلانش احتفالا غريبا : فستيللا تبتسم فى وجوم وفى عينيها عبرة معلقة لا تريد أن تفيض ولا تريد أن تنهمر . وبلانش يبدو عليها القلق الشديد لعدم مجىء ميتش ، وستانلى لايكف عن العبارات الموجعة يكيلها لبلانش . وبعد العشاء يقول ستانلى ان لديه هدية يريد أن يقدمها الى بلانش ، بمناسبة هذا العيد . ويخرج من جيبه تذكرة السفر الى (لوريل) ويقدمها اليها ! .. ولا تحتمل التعسة هذا الموقف ، فتجرى الى الحمام لتنتحب فى خلوة ، أما ستيللا الغاضبة فيصيبها دوار ، وقبل أن يثقل عليها الالم تقول لستانلى : « انقلنى الى المستشفى » .. لقد جاءها المخاض .



ويعود ستانلى بعد أن نقل ستيللا الى المستشفى . يعود ليجد ان ميتش قد جاء ليعنف بلانش ثم مضى ، وأن بلانش قد عرفت انه قد دمر حياتها ، أو مابقى من حياتها . ويجد ستانلى بلانش قد أفرطت فى الشراب بعد انصراف ميتش . وتسأله بلانش عن صحة ستيللا فيجيبها بأنها فى صحة جيدة . وتسأله عن الطفل فيقول انه لن يولد حتى الصباح . وتنتبه بلانش الى انها وحيدة مع ستانلى ، فترتجف ..

ويتنبه ستانلى الى انه وحيد مع بلانش ، فيمضى الى غرفة النوم ويلبس بيجامته الحريرية ، ثم يقول انه لم يلبس هذه البيجاما منذ ليلة زفافه، وهو يلبسها الليلة احتفالا بالمولود.

وتصطنع بلانش أولا عدم الاكتراث وتذهب تتحدث عن صديقها المليونير شبلى الذى سيضيفها ويحترمها لانه يحبها حبا افلاطونيا . . انه جنتلمان ، انه يحترم عقلها وثقافتها ، أما هنــا فهى تلقى دررها أمام الخنــازير . وينظر اليهــا ستانلى فتقرأ الشبق الجائع فى نظراته . انه لايفتــأ يعيرها ــ مستهزئا ــ بكل هذا الذى ســمعه عنها . انه ينظر اليها نظرته الى بغى . وتحاول بلانش أن تتجنبه ، ولــكنه يدنو منهــا ، وترى فى عينيــه نظرات وحش مفترس . انه ليس بالابله ليستمع لاحاديثها الزائفة عن شعر الحياة وموسيقاها ومعانيها السامية . انه يعرف ماضيها فى (لوريل) !

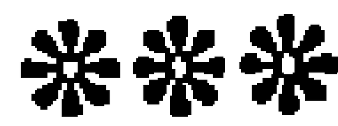
وتســعى بلانش للخروج ، وتراه يعترض طريقهــا ــ أو يخيل لها ذلك ــ **فتأمره بأن يبتعــد عن طريقها .. فتلتهب فيه الرغبة ، ويدنو منهــا ، فتتراجع بلانش حتى تبلغ غرفة النوم ، وتجد زجاجة فترفعها ثم تحطمها على المائدة وتشهر رأس الزجاجة المكسور صائحة انها ســتدافع عن نفســها ، وتتراجع الى الغرفة .. فيتبعها كأنه يتبع قنيصــة ويقول : ((مادمت تطلبين العنف ، فليــكن عنفا !)) ، ثم يهجم عليهــا ويقبض على معصمها بيد من حديد حتى تســقط من يدها الزجاجة . وتســقط بلانش متهافتة على الارض ، فيحملها ستانلى على ذراعيه ويتجه نحو الفراش قائلا : ((هذا الموعد ضربناه منذ اليوم الأول)) .**



((أينها النمرة .. أينها النمرة .. دعى هذه الزجاجة !))
(النجمة الفرنسية ((أرليتى)) ، والنجم ((ايف فنسان)) ، كما مثلا دورى ((بلانش)) و ((ستانلى)) على المسرح الفرنسى ، بعد أن اعدها له الاديب الفرنسى الكبير ((جان كوكتو)))



((هذا الموعد ضربناه منذ اليوم الاول !))
(((مارلون براندو)) فى دور ((ستانلى)) ، ونجمة المسرح ((جسيكا تاندى)) فى دور ((بلانش)) ، كما مثلا المسرحية على مسارح نيويورك)



وتعود ستيللا مع وليدها من المستشفى فتجد أن بلانش قد انهارت تماما ! .. انها لم تعد تأكل زادا ، ولا تكف عن الشراب ، وهى تحدثها عن شىء فظيع جرى بينها وبين ستانلى ليلة دخولها المستشفى ! .. ان حديثها قد غدا كالهذيان المستمر ، ولابد من حل عاجل لانها فى كل يوم تسوء عنها فى سابقه ! .. ان ستيللا لا تدرى أتصدق ما تقوله بلانش عن ستانلى أم تعده ضربا من هذيانها . انها لن تطيق الحياة مع ستانلى بعد ذلك ان كان هذا صحيحا . وتميل عليها جارتها يونيس قائلة : « لا تصدقى شيئا مما سمعت ، فلابد ان تجرى الحياة مجراها . ومهما حدث حولك من اشياء ، فلا بد ان تثابرى على الحياة . »

وبعد قليل يأتى طبيب الامراض العقلية ومعه الممرضة تحمل « الكاميزول » ، احتياطا للطوارىء . وتقاوم بلانش فى أول الامر ، ولكن الطبيب العجوز يقول فى رفق واحترام : « لا تجزعى يا آنسة ديبوا ! » ، فتحملق فيه بلانش ، وتأنس الى أدبه الجم . ان هذا السيد الغريب يناديها باحترام قائلا : « يا آنسة ديبوا ! » .. انه لا شك فارس شهم ، جاء لينقذها من الجحيم الذى تعيش فيه . وتهش له بلانش وتقول فى صوت تشيع فيه الراحة : « لقد اعتمدت دائما على كرم الغرباء . »

وتعتمد على ذراعه ، وتخرج معه فى هدوء .. تتبعهما الممرضة .



حياة واعترافات الإمام الغزالي

تلخيص : عبد الجليل حسن

الغزالى فى سطور

• **ولد** أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى عام٤٥٠ هـ - (١٠٥٩ م) - ببلدة (طوس) من أعمال خراسان . وهو من اصل فارسى .

• **توفى** بطوس فى ١٤ جمادى الآخرة عام ٥٠٥ هـ - (١٨ ديسمبر عام ١١١١ م) .

• **قدره** كثير من المستشرقين، والفوا كثيرا من كتبهم عن حياته وأعماله . ومن بينهم المستشرق الالمانى « وستنفيلد » والمستشرق الانجليزى « ماكدونالد » .

• **قال** عنه المستشرق الالمانى الدكتور زويمر : « كل باحث فى تاريخ الاسلام ، يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظام وهم محمد (النبى) ، والبخارى، والاشعرى، والغزالى»

• **قال** عنه المستشرق ماكدونالد : « ان الغزالى لم يكن كشافا ، ولا أول من سلك الطريق ، واهتدى الى النجد ، ولكنه كان رجلا كبير الشخصية ، شديد التأثير النفسى ، نهج سبيلا مطروقة فجعلها مشرعا عاما ومحجة واضحة ، وهذامن فضل شخصيته وقوة خلقه . »

من اقوال الغزالى

• الشكوك هى الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال .

من كتابه (ميزان العمل)

• الحياة محبة وعبادة

• اطرح المذاهب ، فليس مع واحد منهم معجزة يترجح

بها جانبه . فاطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن فى صورة أعمى مقلد ، وانما خذ الحق أينما وجدته ، وفى أى ناحية كان ، وأطلب الحق بالنظر لا بالتقليد — فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها .

• الطلاق ايذاء ، ولا يباح للرجل ايذاء المراة الا بجناية من جانبها .

• من الخطأ أن يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم ، فهذا ظن الجهال .

• أروع الناس وأتقاهم ، وأعلمهم ، من لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة ، بل بعضهم بعين الرضا ، وبعضهم بعين السخط .

من (احياء علوم الدين)

الغزالى : الباحث عن الحقيقة

بداية الطريق

كان أشهر أستاذ بالمدرسة النظامية ببغداد . وكان الطلاب يقبلون على دروسه من جميع انحاء العالم العربى !

وماذا يبتغى شاب فقير من الحياة بعد هذه الشهرة العريضة ، والحظوة عند ((السلطان)) ، الذى ولاه التدريس بمدرسته بعد أن قهر العلماء ، وبز الفقهاء ، ولم يكن هناك من يقدر على منازعته مكانته وعلمه الغزير ؟ ! .. **ولكن الاستاذ أحس فى داخله بأن كل هذا المجد زيف وباطل** ، فماذا يكسب اذا ربح العالم وخسر نفسه ؟ وماذا تغنى عنه دنياه اذا خسر آخرته ؟ .. لابد أن يراجع نفسه ومعتقداته وعلمه . هل هو سائر فى الطريق الصحيحة ؟ وهل هو واثق من علمه تمام

الثقة ، بحيث لا يتطرق الى ما يعرف أدنى ريب ؟ وهل يؤمن بما تؤديه اليه حواسه ؟ ـ ونحن نعلم أن الحواس خداعة ، فالنجوم على ضخامتها فى السماء تبدو كالدنانير !

لا .. انه لن يركن الى الحس ، فشهادة العقل تكذبه ، ولكن العقل أيضا لا يطمأن اليه الا اذا كان ما يقرره شيئا واضحا ، بينا بذاته ، بحيث لا يمكن له أن يتناقض مع نفسه قط ، كأربعة وخمسة تنتجان تسعة . ولكن مثل هذه الحقائق الجلية قليلة . ويا لضيعة حياتنا اذا لم تقم على مثل هذه الحقائق الصلبة !

ولكن ما نعده صادقا معقولا قد يكون كذلك أمامنا فقط فى هذا الوجود . ولعل هناك حياة أخرى تقف حياتنا امامها كالسراب الضائع . ألسنا نجزم أثناء احلامنا بأن الحياة فى منامنا واقعية ؟ .. لعلنا كذلك نعيش فى خلم طويل . من يدرى ؟

رباه !.. اين الحقيقة ؟ اننى الآن امام من ائمة المسلمين . فماذا يكون حالى لو اننى نشأت فى أسرة مسيحية ؟ لا ريب أننى كنت أكون مسيحيا . وما قصدى من التدريس ؟ أليس هو الجاه وذيوع الصيت ؟ **ان نيتى فى عملى اذن ليست خالصة لوجه الله . فلابد ان أجد نفسى لأنجو بها ..**

دعك يا أبا حامد من هذا الزخرف الذى تحيط به نفسك، لكى تعرف حقيقتك فى هذه الدنيا. ان أسرتك واهلك وجاهك ومالك وولدك ، كل هؤلاء لن يغنوا عنك شيئا .

يا أبا حامد ، طلق كل هذا ، وعش وحدك باحثا عن الحقيقة !

محنة نفسية .. ومرض غامض !

منذ تسعمائة سنة كان فى بغداد رجل ، يناهز الثامنة والثلاثين من عمره ، يعيش هذه المأساة العقلية التى كانت

تطحنه ، وتدق كيانه بأسره ، جاعلة منه انسانا قلقا ، كبندول الساعة ؛ لا يدرى أين المستقر !

ودامت هذه المحنة النفسية قرابة ستة أشهر ، حتى أصيب الامام العالم بمرض مجهول غريب . فلم يعد يستطيع النطق ، وهو الذى شهدت له بغداد بطلاقة اللسان ، ورشاقة العبارة ، ولطيف الاشارة ، وطريف الملح .

وجافى الطعام ، ولم يعد يحس له طعما . ويئس الاطباء من شفائه ، وقالوا : « هذا داء نزل على القلب ، ولا رجاء فى حياته ، مالم يكف عن اجهاد ذهنه ، وارهاق عقله »

نعم ، **ان الرجل مريض بداء البحث عن الحقيقة ، وهو يريدها واضحة ، سافرة ، لا تحجبها عنه عادة ، او مالوف ، أو تربية ، أو قول أستاذ ! .. وليس من سبيل أمامه الا أن يتجرد من كل شىء ، ويخرج الى العالم بنفسه ، باحثا عن ((حجر الفلاسفة)) ، مستخرجا كبد الحقيقة .**

وكيف ذلك ؟

ان الخليفة سيمنعه من السفر الى الشام ، وكذلك أصحابه وتلاميذه . فليعلن اذن عزمه على الحج ! .. وهذا ما كان . فقد ترك التدريس ، وأناب أخاه مكانه ، وتخلى عن كل شىء لأسرته ، ولم يأخذ معه الا القليل لقوته .

ومضى عام .. لكن الامام ابو حامد الغزالى لم يعد الى بغداد . وعجب الناس لهذا الرجل الذى هجر الجاه ، واعتزل الناس ، لكى يعبد الله !

وطالت غيبته .. واتسعت سياحته ، فذهب الى دمشق ، بعد أن أدى فريضة الحج ، زاهدا متصوفا ، يرتدى ثيابا خشنة . واعتكف فى منارة (المسجد الاموى) ، وأخذ يزور المساجد ومقابر الصالحين من عباد الله وأوليائه . ثم رحل الى (بيت المقدس) ، وتنقل بعد ذلك سائحا فى انحاء العالم

الاسلامى ، فزار الاسكندرية ، ومكة ، والمدينة . واستمر فى هذه السياحة النفسية والمادية ما يزيد على عشر سنوات !

طفولته ونشأته ..

ولعله كان ، حينذاك ، يراجع حياته منذ نشأ فى (طوس) . وكانت تتراءى أمامه صورة أبيه ، الذى توفى وتركه طفلا بجوار أخيه الآخر ، وهو جالس أمام منزله بمدينة (طوس) من أعمال اقليم خراسان. وكان يراه يحتفل أيما احتفال بهؤلاء « الدراويش » الذين يفدون عليه ، بينما هو يدعو الله أن يجعل من ولديه فقيهين ، يعظان الناس . ثم يذكر هذا الدرويش الطيب القلب الذى كفله مع أخيه بعد وفاة والدهما ، وأخلص فى تعليمهما القراءة والكتابة ، الى أن شبا عن الطوق ، فبعث بهما الى المدرسة ، طلبا للعلم . ويذكر أيضا انتقاله من طوس الى (جرجان) ، طلبا للعلم على يد شيخه « أبى نصر الاسماعيلى » .

وهو اذ يذكر انتقاله هذا الى (جرجان) ، تتدافع الى مخيلته صور طريفة تجعله يغرق فى الضحك . **فقد هاجمه اللصوص ، وهو عائد من الدرس ذات يوم ، وسرقوا ما معه ، فلم يجد مفرا سوى أن يعدو خلف زعيمهم ، يستعطفه ويرجوه ان يرد اليه كراريسه واوراقه ، ففيها علم تعب فى تحصيله**. لكن اللص قال له : « كيف تدعى انك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها ، وبقيت بلا علم ؟ » . ثم اشفق عليه وسلمه المخلاة بما فيها . فلما عاد الى طوس حفظ ما فيها ، **وأدرك ان العلم يجب ان يحفظ فى الرأس ، لا فى الورق !**

ثم يذكر ، فيما يذكر ، أستاذه العظيم امام الحرمين « أبا المعالى الجوينى » ببلدة (نيسابور) ، الذى درس على يديه

أصول الفقه والمنطق والحكمة والفلسفة . واظهر أمامه كفاءة نادرة جعلت الاستاذ يصفه بأنه « بحر مفرق » !

لكن استاذه ما لبث أن مات ، فحزن عليه حزنا جما ، ووجد نفسه فى النهاية متخذا طريقه الى الوزير « نظام الملك » ، الذى كان يجل العلم والعلماء . فهو الذى أنشأ (المدارس النظامية) ، نسبة اليه ، فى طول البلاد وعرضها .

وظهر فضل الغزالى أمام الوزير .. كان يساجل العلماء والفقهاء ، محرزا النصر عليهم ، مما جعل الوزير – اعترافا بقيمته – يوليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد التى أنشأها لكى تكون جامعة لفقه اهل السنة وعلومهم ، ردا على الفاطميين الذين أنشأوا الجامع الازهر لنشر تعاليم المذهب الشيعى .

انه يذكر الآن هذه السنوات الاربع التى قضاها فى التدريس بالمدرسة النظامية ، ويذكر المجد والشهرة ، وما كان يحظى به من تقدير واحترام ، ويحس براحة نفسية عميقة : **فقد ترك كل هذا من أجل البحث عن الحقيقة التى ينهل من مذاقها الآن فى نسكه وعبادته ، واقباله على الآخرة .**

لقد اكتشف الآن الطريق المأمونة : طريق الحق .

الاستعمار الغربى يتخفى فى ثوب الدين !

ولكن كيف اهتدى الغزالى الى الطريق الحقة ؟ هنا يحسن أن نلقى نظرة عجلى على المسرح الذى عاش فيه الغزالى ، لنتبين ملامح الحياة فى عصره ، واتجاهاتها العقلية والفكرية ، حتى نعرف لماذا كان الامام الغزالى امام الدين وحجة الاسلام ، وكيف وجد المسلمون فيه بطلا دافع عن الدين ، ورد الى الافئدة مكانته ؟

لقد كان القرن الخامس الهجرى – والحادى عشر الميلادى –

عصر فوضى واضــطراب عقلى وسياسى واجتمــاعى . وكان المجتمع بحاجة الى بطل يدفع عنه خطر الفرقة السياسية ، ازاء الاستعمار الغربى المتشح بثوب الحروب الصــليبية . فها هم الصــليبيون قد استولوا على بيت المقــدس ، بينما العالم الاســلامى والعربى متفرق ، مشتت ، مجزأ الى دول ودويلات ضعيفة منهــكة . ونحن نعرف أن صــلاح الدين الايوبى قد مثل دور المنقذ بنجاح وبطولة فيما بعد . **لــكن الخطر الآخر العميق ، الذى لم يكن الضــعف السيــاسى الا صدى له ، كان يتمثل فى الفرقة العقلية والمذهبية التى دوت فى أرجــاء الوطن العربى وقتذاك** . فقــد تعــددت المذاهب والفرق والاحزاب ، كل يؤمن بصواب جانبه وخطأ غريمه : فهناك **المعتزلة** الذين ساروا وراء العقل أينما كان ، وحيثمــا أدى بهم ، وكذلك **المتكلمون** الذين كانوا يؤيدون الدين بحجج وجدل عقلى لا يقنع عقلا متحررا ، وهناك **الفلاســفة** الذين شككوا الناس فى الدين والوحى والبعث ، حتى أصبح الناس لا يطمئنون الى راى ! .. وممــا زاد الطين بلة أن كثيرين من ضــعاف العقول قد انخدعوا بآرائهم ، واغتروا بأنفســهم ، فتجرؤوا على الدين . كما كانت هنــاك فرق **الباطنية** التى زعمت ان وراء الاوامر والنــواهى الدينيــة دلالات باطنة لا يفقهها الا الذين تلقوها عن الامام المعصوم .

وهكذا انتشرت الفرق المختلفة والجمــاعات السرية التى كانت تهــدد أمن المجتمع ، مثل الاســماعيلية ، والقرامطة ، واخوان الصفاء ، على تفاوت فى درجة الخطورة والتهديد .

ولم يصب الناس من كل هذا الجدل المتلاطم الا ضــعف الايمان ، والاستهتار بالدين والشريعة ، مما جعل طائفة من الناس تنصرف عن كل هذا ، وتهرع الى الله ، متلمسة طريق

لحق من خلال التجربة الروحية والمجاهدة النفسية، وهؤلاء هم **الصوفية** .

بين الغزالي و ((ديكارت))

وقد عاش الغزالي هـذا كله بعمق ، وأدرك خطر هـذه الفوضى العقلية الساذجة . واراد أن يستخلص الحق من بين هذا الظلام ، فارتضى لنفسه سبيل الشك فى كل شيء لا يتضح أمامه بجلاء ويقين . **لقد اتخذ الشك منهجا للوصول الى الحقيقة ، والشك هنا منهج عقلي ونفسي . وهذا هو الفرق بينه وبين شك الفيلسوف الفرنسي ((رينيه ديكارت)) ، الذى جاء بعد الغزالي بخمسمائة عام** . اذ ان شك ديكارت ذهني عقلي فقط ، يتيح له تخليص الذهن من الآراء السابقة ، حتى يطمئن الى حقيقة واحدة هى وجوده من خلال شكه . فهو يبنى مذهبه على قوله : ((**انا افكر ، فاذن انا موجود**)) . أما الغزالي فيقيم شكه على هذا المنهج العقلى الذى يتخلص من الآراء السابقة، غير مسلم الا بالحقيقة الجلية الواضحة، ولكنه يفترق عنه فى أنه أعمق منه ارتباطا بالنفس وتأثيرا فيها . اذ هو قد انفصل به ، وبلغ به مداه ، ولم يقف عند حقيقة معينة . فقد سار فى طريق الشك ، حتى اضطربت نفسه ، وأصابه المرض ، واستمر يغالب هذه المأساة العقلية بعمق أكثر من شهرين . فالشك كمنهج للوصول الى المعرفة يتفق فيه ديكارت مع الغزالي ، لكن الخلاف ينحصر فى أن الثاني قد عاش شكه بلحمه ودمه . وبينما نجد أن ديكارت قد تخلص من شكه بالكوجيتو (أنا أفكر فأنا اذن موجود) ، نجد ان الغزالي قد تخلص من شكه « بنور قذفه الله تعالى فى الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف » وذلك تخلص القلق الحائر الذى لم يصبر على عذاب الروح !

وقد قص الغزالي سيرته ، واظهر للناس وجدانه الحائر فى

كتاب يقف فريدا فى تاريخ الفكر العربى ، ويعتبر من خيرة كتب الاعترافات التى خطها المفكرون العالميون بأقلامهم ، وهو كتاب « المنقذ من الضلال » ، الذى سنتركك معه بعد قليل.

حجة الاسلام وزين الدين

والآن لنترك الغزالى فى سياحته ، وتأملاته ، ومجاهدته لنفسه وانقطاعه للعبادة والتأليف مدة تزيد على العشر سنوات ، كتب فيها أعظم كتبه : **((احياء علوم الدين))** ، الذى يدل اسمه على رسالة صاحبه فى حياتنا .. لنتركه بعد أن هدأت نفسه ، واطمأن الى طريق الحق ـ طريق التصوف بمعنى آخر ـ لننظر فيما فعله حتى رد الى الدين سلطانه على النفوس ، وحتى لقب « بحجة الاسلام وزين الدين » .

لقد أدرك الغزالى أنه « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله . فاذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده ، حقا » .. وذلك ما كان . فقد درس الغزالى مذاهب علم الكلام ، ووجد أن هم المتكلمين هو حراسة الشريعة ، ولكن حججهم ليست مما يستعصى على الشك ، كما أن خطرهم ليس كبيرا؟.أما الفلسفة فهى الميدان المختلط الذى يستهوى الكثيرين ، ويضل الجموع ، وقد الف فى ذلك كتابه ((**مقاصد الفلاسفة**)) ، فقرر فيه مسائل الفلسفة دون أن يتعرض لها بالنقد ، حتى كشف الحجب التى تتلفح بها آراء الفلاسفة من الغموض والاصطلاحات ، واخرج الفلسفة الى الفضاء ، وكشفها للناس عامة ، ثم الف عمله الفلسفى النقدى الذى دحض فيه الفلسفة وهدمها ، حتى لم تعد لها قائمة بعد ذلك . فكتب كتابه : ((**تهافت**

الفلاسفة » ، وفيه تتجلى عبقريته الذهنية وعمقه فى البحث .

وقد كانت الفلسفة ــ وقتذاك ــ تشمل العلوم الرياضية والطبيعية والمنطقية والسياسية والاخلاقية . وليس يكمن الخطر فى هذا ، وانما يكمن فى الالهيات او «ما وراء الطبيعة» ، حيث توجد اكثر اغلاط الفلاسفة . وقد وقع الغلط فى عشرين مسألة ، كفرهم الغزالى فى ثلاث منها ، وهى قولهم بقدم العالم ، وانه غير مخلوق فى زمن معين ؛ وان الله يعلم الكليات والعموميات فى العالم دون الجزئيات ، (وبذلك تنتفى العناية الالهية) ، وأخيرا قولهم ان الاجساد لا تبعث .

وقد حشد الغزالى للهجوم على الفلسفة والفلاسفة كل الاسلحة الممكنة ، ونزع الى هدم آرائهم ، ومعارضة اشكالاتهم بمثلها ، دون أن يحلها . وكان هدفه من ذلك أن يبين فساد قولهم . وقد استعان على ذلك بما وجده لدى المعتزلة ؛ ولدى يحيى النحوى ، بل ولدى الفلاسفة انفسهم ، من تناقض . ومن ثم أشعلها حربا شعواء ، جعلت الفلسفة تنزوى فى الشرق ، ولم يقلها من عثرتها القاتلة ما حاوله الفيلسوف الاندلسى العظيم « ابن رشد » حين رد على الغزالى فى كتابه : « تهافت التهافت » .

والواقع ان الغزالى ، من خلال حججه ومناقشاته ، يسمو على فلاسفة الغرب فى كثير من الآراء المبتكرة . وليس سموه هنا من قبيل التهافت، وانما هو سبق احرزه بجدارة واستحقاق .

وماذا بعد الفلاسفة ؟

لقد رد الغزالى على الباطنية ، وفضحهم . وتحول الى الصوفية فدرس آدابهم وحصل علومهم ، وأدرك أن التصوف لايكون بمجرد المعرفة، وانما يجب أن يجرب ، وأن يتذوق . ثم

اكتشف نفسه من خلال التصوف ، ووجد الراحة وهدوء النفس فى رحابه ..

سنواته الاخيرة ..

بعد عشر من السنين ، قضاها الغزالى فى رحلته الروحية، عاد الى مسقط راسه فى (طوس) ، وقد جرفه الحنين اليها . ثم استدعى للتدريس ببغداد مرة أخرى ، فعقد بها مجالس للوعظ ، و « تكلم بلسان أهل الحقيقة ، بكلام أطرب الأنام ، وأعجب الخاص والعام ، وحدث الناس بكتاب الاحياء وغيره من مصنفاته » .

وما لبث أن ترك بغداد ، من جديد ، الى (نيسابور) ، حيث درس بمدرستها ، ولكنه سئم جدل الفقهاء وحسدهم، فغادر نيسابور عائدا الى طوس . واتخذ هناك مجلسه ، متعبدا ، صائما ، متوفرا على دراسة الحديث والسيرة النبوية .

لكن الحياة لم تمتد به طويلا ، اذ غادر دنياه ، وارتحل الى العالم الآخر ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره .

ماذا ترك لنا الغزالى ؟

تلك سيرة رجل من أعظم رجال البعث الفكرى والروحى فى العالم قاطبة ، رجل بعث الطمأنينة والثقة والمحبة فى نفوس الملايين من المسلمين ، فى مختلف العصور ، وأعاد للدين مكانته ، ورد عنه أباطيل خصومه . **فهو خير من كتب عن المحبة والاخاء والاخلاص والصداقة بفهم عميق انسانى شامل ..** وما كتابه « احياء علوم الدين » الا دستور شامل للمسلمين ، قسمه الى اربعة اقسام : تناول فى القسم الاول العبادات وآدابها واسرارها . وتناول فى الثانى العادات

والتقاليد الاجتماعية كالزواج ، والاكل ، والاستماع الى الموسيقى ، وأخلاق النبوة . اما القسم الثالث فقد عالج فيه الصفات المهلكة . ثم خصص الرابع والاخير للحديث عن الصفات المنجية ــ كل ذلك بأسلوب تحليلى بارع . ولئن كان قد حشد فيه بعض الاخبار والروايات التى قد يستنكرها البعض ، الا أن قصده كان الترغيب والترهيب .

ولكن ما الميراث الذى أورثنا اياه فيلسوفنا الغزالى ؟

طبيعى بعد كل هذا أن يشق على الباحث أن يلخص مآثر مفكر متنوع الانتاج وافره كالغزالى ، ولكننا نقدم اليك النقاط الاربع التالية ، قاصدين الاشارة دون الاحاطة الواسعة ، والقاء الضوء دفعا الى التوسع فى الالمام بحياة هذا المفكر الجليل وأعماله . واليك نقاطنا الاربع التى تجمع مآثر الغزالى ، وتلخص مكانته فى الفكر العربى والعالمى :

• **منهج التفكير الحر** ، وعدم التقيد بالتقليد ، ومحاربة الايمان التقليدى ، واتخاذ الشك منهجا للوصول الى الحقيقة ، والاعتماد على التجربة والمعاناة فى تذوق التجربة الدينية .

• ثروة فكرية ضخمة ، زادت على **مائة وثلاثين مؤلفا** ، انتاجها وسط جو حافل بالاضطراب السياسى ، وخلال حياة قصيرة انتهت عند الخامسة والخمسين .

• **نظرة متطورة الى الدين والعبادات** ، تقضى بأنهما ليسا نصوصا جامدة ، وحركات وشعائر تقليدية ، وانما هما روح وحياة . وليس الايمان جدلا ونقاشا ، ولكنه عمل ، فالقرآن يقرن الايمان بعمل الصالحات دائما .

• **سبقه لكثير من أعلام الفلسفة الغربية** فى العصور الحديثة . ويجدر بنا أن نقف قليلا عند هذه النقطة بالذات.

ذلك لأن الغزالى قد سبق الفيلسوف الفرنسى «**بليز باسكال**» (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) الذى عاش بعد الغزالى بخمسة قرون والذى تشبه حياته الروحية ، وتطوره العقلى ، ورضاؤه بالزهد والتصوف فى آخر حياته ، مثيلتها لدى مفكرنا العربى .
فقد قال باسكال بنظرية مشهورة تعرف ببرهان باسكال ، مؤداها انه اذا كانت الآخرة حقيقة ، فاننا نخاطر مخاطرة كبرى باقبالنا على الحياة الدنيا ، وملذاتها ، وهى محدودة .. فالعقل يدعونا للاستعداد للآخرة ، لنتخلص من العذاب الأزلى فيها .. وهذا عين ما اتبعه الغزالى فى جدله مع الدهريين والاطباء والمنجمين ، وضرب لذلك مثلا قوله : **« رجل عاقل يقدم له طعام يشتهيه ، لكنه يشك فى كونه مسموما ، فهل يتناول منه لقمة مهما بلغت لذتها ، فيعرض نفسه للهلاك ، أم يكبح جماح الشهوة المؤقتة ، فينجو من خطر الموت الدائم ؟ ! »**

كذلك يقف الغزالى موقفا مشابها من الفيلسوف الالمانى المشهور «ايمانويل **كانت**» ، حين اثبت عجز العقل عن معرفة كنه الاشياء . ثم هو يحلل الزمان والمكان ، ويربط بينهما ، ولا يجعلهما منفصلين ، ويردهما الى مجرد العلاقات بين الاجسام ، ويجعلها مجرد وسيلة نستعين بها على ادراك العالم الخارجى .

أما كلام الغزالى عن السببية ، وتحليله لها ، فيكاد يكون بنصه كلام الفيلسوف الانجليزى « دافيد **هيوم** » . فالغزالى حين يقول ، متحدثا عن المعجزات : « اذا أدنيت قطعة من القطن من النار فاحترقت ، فليس هناك ما يجعلك تقول ان النار هى سبب الاحراق . اذ كل ما تستطيع أن تقوله هو أنك شاهدت القطن يحترق عند ملامسة النار له ، فهناك مجرد تعاقب حادثتين ، واقترانهما معا . ولا حق لك فى أن

نزعم أن الحادثة الاولى هي سبب الثانية ، كما يقول قانون السببية . فالعلية هذه ليست سوى تتابع لحوادث حكمنا ، بسبب العادة والمألوف وتكرر المشاهدة ، بأن الاولى منهـا سبب للثانية . » وهذا عين ما قاله الفيلسوف الانجليزى . بعد الغزالى بأكثر من ستة قرون !

حقا ! تلك سيرة رجل ومفكر يقف على رأس مفكرى لاسلام المجددين الواعين .

والآن ، اليك درة الاعترافات فى الادب العربى ، التى سبق بها الغزالى « روسو » و « أندريه جيد » ومن نحا نحوهما فى الغرب والشرق :

المنقذ من الضلال

سألتني : أيهـا الأخ فى الدين ، أن أبث اليك غاية العلوم واسرارها ، وغائلة المذاهب واغوارها ، وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، الى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام ، وماكرهته ثانيا من طرق اهل التعليم ، الذين قصروا معرفة الحق على تقليد الامام المعصوم ، وما ازدريته ثالثا من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخرا من طريقة التصوف . وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من لباب الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى الى معاودتى بنيسابور بعد طول المدة ، فابتدرت لاجابتك الى طلبك بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت ، مستعينا بالله ومتوكلا عليه :

خوض البحر ..

اعلموا ، أحسن الله ارشادكم وألان للحق قيادكم ، ان اختلاف الخلق فى الاديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه الا الاقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهذا مصداق قول سيد المرسلين : ((**ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة**)) ، فقد كاد ما عد أن يكون .

ولم أزل فى عنفوان شبابى ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق واخوض غمراته ، خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، فأتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ، ومبطل ، ومتسنن ، ومبتدع . لا اغادر باطنيا الا واحب ان أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا الا وأريد أن اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته .. ولا متعبدا .. ولا زنديقا .. الا وأريد أن أعرف سره .

عطشان الى اليقين

وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور رأيى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، على قرب عهد سن الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود

لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام .

وسمعت الحديث القائل : ((**كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، و . . . يمجسانه**)) ، فتحرك باطنى الى معرفة حقيقة الفطرة الاصلية التى يخلق عليها الناس جميعا ، ثم معرفة حقيقة العقائد التى تغشى هذه الفطرة بتقليد الوالدين والمعلمين ، ثم التمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات، فقلت فى نفسي : أولا ، مطلوبى العلم بحقائق الامور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟

وبان لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه . مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وانكارا ، فانى اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا امان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى .

مداخل السفسطة وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة ، الا فى الحسيات والضروريات . ولكن هل أنا على ثقة كاملة من المحسوسات ؟

فأخذت أتأمل المحسوسات والضروريات ، وأبحث ه
يمكننى أن أشكك نفسى فيها ؟ فانتهى بى طول التشكيك ا
أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات أيضا
واتسع الشك، وأخذت أقول لنفسى : كيف أثق بالمحسوسا
ـ وأقواها حاسة البصر ـ وهى تنظر الى الظل فتراه واق
غير متحرك ، وتحكم بنفى حركته ، ثم بالتجربة والمشاها
بعد ساعة أعرف أنه متحرك ، وان لم يتحرك دفعة واحا
بل على التدريج ، وأنظر الى الكوكب فأراه صغيرا فى مقد
الدينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الارض
فالحس يحكم على المحسوسات ، ثم يكذب حكم العق
المحسوسات . اذن فقد بطلت الثقة بالمحسوسات . ولع
لاثقة الا بالعقليات ، التى هى من قبيل الاوليات والبديهيات
كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لا يجتمعا
فى الشىء الواحد .

ثم انبرت لى المحسوسات ، وقالت : لم تأمن أن تكو
ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات . وانظر ، فقد كنه
واثقا بى ، ثم أتى العقل فكذبنى ، **فلعل وراء العقل حاكم
آخر لو تجلى لكذب العقليات . وعدم تجليه لا يدل عا
استحالته . اما تراك تعتقد فى النوم أمورا ، وتتخيل أحوالا
وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها
ثم تستيقظ فتعرف أن ذلك كان خيالات !** فبم تأمن ان يكو
جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل ، هو حق ، بالاضاف
الى حالتك التى أنت فيها . لكن يمكن أن تطرأ عليك حاا
تكون نسبتها الى يقظتك، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكو
يقظتك نوما بالاضافة اليها !

ولعل هذه الحالة ما تدعيه الصوفية ، فهم يزعمون انه
يشاهدون أحوالا ، اذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسه

يشاهدون أحوالا توافق هـذه المعقولات . ولعل هـذه الحالة هى الموت.((**فالناس نيام ، اذا ماتوا انتبهوا**)) ، ولعل الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة !

الشفاء من الشك !

خطرت لى هـذه الخواطر ، ولم استطع دفـع ذلك الا بالدليل. ولم يمكن ترتيب دليل بعد فقد الثقة فى المحسوسات والمعقولات . وأعضل هذا الداء ؛ ودام قريبا من شـهرين ، أنا فيها على مذهب السفسطة ، بحكم الحال لا بحكم النطق والمقـال ، حتى شـفى الله تعـالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بهـا على أمن ويقين . ولم يـكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ؛ بل بنور قذفه الله تعالى فى الصـدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشـف موقوف على الادلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وهذا هو معنى ((**الشرح**)) فى قوله تعالى : ((**فمن يرد الله أن يهديه، يشرح صـدره للاسلام**)) ، فقـد فسره رسول الله : ((**هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب**))، وسئل: ((**وما علاقته؟**))، فقال : ((**التجـافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود**))

أصناف الطالبين

ولما شفانى الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عنـدى فى أربع فرق ، وقلت فى نفسى : الحق لايعدو هذه الفرق الاربع، وهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فان شـذ الحق عنهم ، فلا يبقى فى درك الحق مطمع ، ولا يمـكننى العودة الى التقليـد . فأسرعت بسلوك هـذه الفرق الاربع ، علنى اهتـدى الى الحقيقـة .

فابتـدات بعلم الكلام ، فالفلسـفة ، ثم الباطنيـة ، وأخير الصوفية .

علم الكلام

طالعت كتب علم الكلام ، وحصلته ، وعقلته ، وصـنفت فيه ما أردت أن أصنف ؛ ووجـدته علما يهـدف الى حفظ عقيدة أهل السـنة وحراستها من تشـويش أهل البدع ، والنضـال عن العقيدة . وهم فى جـدلهم يسـتندون على مقدمات تسلموها من خصومهم ، اضطرهم الى التسليم بها ، اما التقليـد أو اجمـاع الامة أو مجـرد القبول من القرآن والاخبـار ، وهـذا قليل النفع فى حق من لا يسـلم سـوى الضروريات شيئا أصلا .

والمهم اننى وجدت علم الكلام وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى . وقـد يكون فيه شـفاء غيرى . والفرض الآن حكاية حالى ؛ لا الانـكار على من استشـفى به ، فان أدوية الشـفاء تختلف باختلاف الداء . وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر .

الفلسفة

ثم ابتدات ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسـفة . وعلمت يقينا انه لايقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصـل ذلك العلم . ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله . واذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا ، ولم أر أحدا من علماء الاسـلام صرف عنايته وهمته الى ذلك .

وعلمت أن رد المذهب ، قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، رد فى عماية . فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل الفلسفة من

الكتب ، وذلك بمجرد المطالعة فى كتبهم دون الاستعانة باستاذ . وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فىالعلوم الشرعية ؛ وأنا مشغول بالتدريس والافادة لثلثمائة نفس من الطلبة ببغداد ، فأطلعنى الله سبحانه ، بمجرد المطالعة فىهذه الاوقات المختلسة ، على منتهى علومهم فى أقل من سنتين . ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريبا من سنة ، أعاوده وارادده حتى ادركت ما فيه من خداع وتلبيس .

واسمع الآن حكايتهم ، فانى رايتهم اصنافا ، وعلومهم أقساما ، ووصمة الكفر تشمل كافتهم .

أصناف الفلاسفة

ينقسم الفلاسفة الى ثلاثة اقسام : الدهريون والطبيعيون والالهيون :

الدهريون ، هم الذين ينكرون وجود الصانع المدبر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك ، بنفسه وبلاصانع .. وهؤلاء هم الزنادقة .

الطبيعيون ، وهم قوم أكثروا من البحث عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، فراوا فى ذلك بدائع حكمة الله سبحانه ، فاضطروا الى الاعتراف بوجود فاعل حكيم ، ولكنهم قالوا ان النفس مرتبطة بالبدن ، وتموت بموته ولا تعود ، فأنكروا الآخرة والجنة والنار والحشر . وهؤلاء أيضا زنادقة .

الالهيون ، وهم المتأخرون منهم مثل سقراط ، وهو استاذ أفلاطون ، وافلاطون أستاذ أرسطوطاليس ، وهؤلاء ردوا على الدهريين والطبيعيين ، وكفى الله المؤمنين القتال . ورد ارسطو على سقراط وافلاطون ، ولكنه استبقى رذائل

من كفرهما ، فوجب تكفيره ، وتكفير شـيعته من المتفلسفة الاسلاميين ، كابن سينا والفرابى . وما صح عندنا بحسب نقل هذين الرجلين من فلسـفة أرسـطو ، ينحصر فى ثلاثة

اقسام : قسم يجب التكفير به . وقسم يجب التبديع به . وقسم لا يجب انكاره أصلا ، فلنفصله :

أقسام الفلسفة

الرياضة : وتتعلق بالحساب والهندسة وعلم الفلك ، وهى لا صلة لها بالدين ، نفيا أو اثباتا . وهى أمور برهانية ؛ وتولد عنها آفتان ، فالذى يراها على ما بها من دقة ووضوح ووثاقة برهان ، ثم يسمع بكفر الفلاسـفة فيكفر بالتقليد ، ويقول: لو كان الدين حقا ، لما اختفى على هؤلاء ، مع تدقيقهم فى هذا العلم . وغاب عنه انه لا يلزم من الحاذق فى صناعة ، أن يكون حاذقا كذلك فى غيرها .

والآفة الثانية نشأت من صديق جاهل للاسلام ، ظن انه ينصر الدين بانكار هـذه العلوم ما دامت منسـوبة اليهم . والذى يسـمع ذلك ، ويعرف أن هـذه العلوم قائمـة على البرهان القاطع ، يعتقد ان الاسلام مبنى على الجهل ، وانكار البرهان القاطع ، ويزداد للفلسفة حبا وللاسلام بغضا .

وأما **المنطقيات** ، فلا يتعلق شىء منهـا بالدين ، نفيا أو اثباتا ؛ بل هو النظر فى طرق الادلة والقياس والبرهان .. وقد يظن البعض أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين ، فيستعجل بالكفر قبل الانتهـاء الى العلوم الالهية التى لم يستوفوا فيها ما اشترطوه فى منطقهم .

وأما **علم الطبيعيات** ، فهـو البحث فى عـالم السـموات والعنـاصر ، كالمـاء والهواء والتراب والنـار ، ومركبـاتها

كالحيوان والنبات والمعادن وأسباب تغيرها ؛ ومثل هذا الطب ..

وليس من الدين انكار هذا الا فى مسائل معينة ذكرتها فى كتابى : « تهافت الفلاسفة » . والمهم أن نعرف أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها .

وأما **الالهيات** : ففيها أكثر أغاليطهم .. ومجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا ، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر . ولابطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين : صنفنا كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وأما المسائل الثلاث التى خالفوا فيها كافة المسلمين، فهى قولهم ان الاجساد لا تحشر ، وانما المثاب والمعاقب هى الارواح المجردة ، وقولهم ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات .. وقولهم بقدم العالم وأزليته. هذه هى المسائل التى كفروا فيها. أما قولهم فيما وراء ذلك من نفى الصفات ، فهم يذهبون فيه الى ما يقرب من مذهب المعتزلة .

وأما **السياسيات** ، فكلامهم فيها يرجع الى المصلحة الدنيوية ، وأخذوه من كتب الله المنزلة على الانبياء .

وأما **الخلقية** ، فكلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس ، وأخلاقها ، وذكر أجناسها وانواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها . وانما أخذوها من كلام الصوفية ، ومزجوها بكلامهم ، توسلا بالتجمل بها الى ترويج باطلهم .

ولقد كان هناك جماعة من المتألهين المتصوفة فى كل عصر ؛ وتولد من مزجهم كلام النبوة والصوفية بكتبهم آفتان : آفة فى حق القابل ، وآفة فى حق الراد . فأما الآفة الثانية فهى أن يستنكر الشخص ضعيف العقل كلام النبوة وكلام الصوفية المدون فى كتبهم ، ما داموا قد ذكروه ، لانه يرد كل

ما ذكروه فى كتبهم ، وان كان حقـا . والضـعفاء هم الذين يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

وقد استنكر البعض ما ذكرناه فى تصانيفنا فى أسرارعلوم الـدين ، وقالوا انهـا من كلام الاوائل ، مع أن بعضـها من مولدات الخواطر . ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر .. ولو هجرنا كل حق ذهب اليه خاطر مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجـر جمـلة آيات من آيات القرآن ، وأخبار الرسول ، وحـكايات السـلف ، وكلمـات الحكماء والصوفية ، لان صاحب كتاب ((**اخوان الصـفا**)) أوردها فى كتابه ، مستشهدا بها ، ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها .. وهذا وهم باطل ، وهو غالب على اكثر الخلق . **فمهما نسبت الكلام ، واسندته الى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه وان كان باطلا . وان أسندته الى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه وان كان حقا . فابـدا يعرفون الحق بالرجـال ، ولا يعرفون الرجـال بالحق ، وهو غاية الضلال** . ولـذا وجب حسم الباب ، وزجر الكافة عن مطالعة كتبهم .

وامـا الآفة الاخرى : آفة القبـول ، فهى أن من ينظر فى كتبهم ويرى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والـكلمات الصوفية ، ربما استحسنها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع الى قبول باطلهم المزوج به لحسـن ظن حصـل فيمـا رآه واستحسنه .

ولذا يجب زجر الكافة عن مطالعة كتبهم لما فيها من الخطر . فكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب زجر الخلق عن مطالعة كتبهم .

منهب التعليم وغائلته

ثم بعد أن فرغت من الفلسفة ، وزيفت منها مايزيف . وكان قد شاع بين الخلق ما تقوله طائفة الباطنية ، أصحاب التعليم ،

القائلين ان معنى الامور يتلقى من جهة الامام المعصوم ، عن لى أن أبحث ما يقولون . ثم ورد أمر من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعنى مدافعته . وصار ذلك مستحثا لى من خارج ، ضميمه للباعث الاصلى من الباطن ، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم .. ورتبت مقالاتهم ، وقررت شبهاتهم أوضح تقرير، حتى اعترض على البعض بأننى أنصر مذهبهم بترتيبى له . ولكن شبهاتهم كانت منتشرة ، فالجواب عنها فرض . والمقصود اننى قررت شبهتهم الى أقصى الامكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : انه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم . فدعواهم أنه لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم ، قول حق ان أريد به ضرورة الحاجة الى التعليم والمعلم . ولكن اشتراطه بالمعلم المعصوم فمردود ، لان معلمنا المعصوم هو الرسول عليه السلام . وهو قد علم الدعاة ، وبثهم فى البلاد ، وأكمل التعليم . اذ قال الله تعالى : ((**اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى**)) ، وأمرنا بالاجتهاد فى أمر ديننا . فقواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة . وما وراء ذلك من التفصيل والمتنازع ، يعرف فيه بالوزن ، بالقسطاس المستقيم ، وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ، وهى خمسة ذكرتها فى كتاب ((**القسطاس المستقيم**)) ..

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك فى كتاب ((**المستظهرى**)) اولا ، وفى كتاب ((**حجة الحق**)) ثانيا ، وكذلك فى كتاب ((**مفصل الخلاف**)) ، وفى كتاب ((**القسطاس المستقيم**)) .

طرق الصوفية

ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طرق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم انما يتم بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمأثور عن الجنيد والشبلى والبسطامى .. حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وظهر لى أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . **وكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة وحد الشبع ، وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان ! ... فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا** . فعلمت يقينا أنهم أرباب الاحوال ، لا أصحاب الاقوال ..

وكان قد حصل لى ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت فى نفسى ، وظهر عندى انه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وراس ذلك كله قطع علاقة القلب بالدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور . ولا يتم ذلك الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالى . . فوجدتنى مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة . **ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها**

طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت انى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافى الاحوال .

حيرة .. ومرض

ولم أزل أفكر فى ذلك ، وأصمم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الاحوال ، ثم أعدل ، واقدم رجلا وأؤخر اخرى . ولم أزل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة ، قريبا من ستة أشهر ، اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة . وفى هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ اقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس. فكنت اجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا ، تطييبا لقلوب المختلفة الى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب . فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة .

وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : ((**هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم**)) .

ثم لما احسست بعجزى ، التجأت الى الله التجاء المضطر ، فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والاولاد .

مفارقة بغداد

وأظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمى

المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج عن بغداد، على عزم الا أعاودها أبدا .

واستهدفت لالسنة الناس . فقال البعض أنى فارقتها لاستشعار من جهة الولاة ، ولكن الذين كانوا يعلمون مدى تعلق الولاة بى ، واعراضى عنهم قالوا : ((**هذا أمر سماوى ، وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم**)) .

وفارقت بغداد ؛ وفرقت ما كان معى من المال . ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الاطفال .. ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريبا من سنتين، لا شغل لى الا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس وتصفية القلب . فكنت اعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى .

ثم رحلت منها الى بيت المقدس ؛ أدخل كل يوم الصخرة، واغلق بابها على نفسى . ثم اشتقت الى الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة الرسول عليه السلام ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، فسرت الى الحجاز .

العودة الى الوطن

ثم جذبتنى الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن . فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة به أيضا ، حرصا على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لى الحال الا فى أوقات متفرقة .

انكشاف السر

ودمت على هذه الحال نحو عشر سنين ، انكشف لى فيها طريق الحق ، طريق الصوفية . وعلمت يقينا أن الصوفية

هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الاخلاق ..

وتنكشف لى المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الانبياء ، ويسمعون منهم أصوات .. حتى ينتهى الامر الى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ .. اذ هذه أمور لا يمكن التعبير عنها . وتلك الحالة تتحقق بالذوق وسلوك طريقهم . وبان لى من سلوك طريقهم حقيقة النبوة وخواصها .

العودة الى نشر العلم

ثم انى لما واظبت على العزلة والخلوة ، قريبا من عشر سنين ، بان لى فى أثناء ذلك أن الانسان خلق من بدن وقلب. وأعنى بالقلب حقيقة روحه التى هى محل معرفة الله دون اللحم والدم ، الذى يشارك فيه الميت والبهيمة .

وكما أن للبدن أمراضه ، وأدويتها عند الأطباء ، فكذلك للقلب أمراضه المهلكة ، وأدويتها العبادات . والانبياء هم أطباء أمراض القلوب ..

ولما كنت قد فكرت فى مختلف الفرق، الذين يزعمون طلب الحقيقة : وعرفت من ضعف ايمانهم الكثير ، حتى كان افضاح هؤلاء أيسر عندى من شربة ماء ، لكثرة خوضى فى علومهم وطرقهم ، أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء .. خطر لى أن من الواجب ترك العزلة .

ولكن ماذا استطيع أن أعمل ؟ وكيف لى أن أقاوم هؤلاء الخلق ؟ .. ما لم يكن هناك زمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر .

فآثرت العزلة ، متعللا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة .

فقــدر الله تعالى أن حرك داعيــة سـلطان الوقت ؛ فأمرنى بالنهوض الى (نيسابور) . وخطر لى انه يجب ألا أوثر العزلة حبا فى الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس ، وصونها عن اذى الخلق . وتأيد ذلك بمشورة أرباب القلوب الصالحين ، ومناماتهم التى شهدت بأن هذه حركة خير ورشد .

فذهبت الى (نيسابور) فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . وكان الخروج من بغداد فى ذى القعـدة سـنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وبلغت مدة العزلة احـدى عشرة سنة .

أى علم أنشر ؟

وأنا أعلم أني، وان رجعت الى نشر العلم، فما رجعت!.. فان الرجوع عود الى ما كان . وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى يكتسب الجاه ؛ وأدعو اليه بقولى وعملى . وكان ذلك قصدى ونيتى .

وأما الآن فأدعو الى العلم الذى به يترك الجـاه ، وتعرف به سقوط رتبة الجاه. هذا هو الآن نيتى وقصدى وامنيتى ، يعلم الله ذلك منى . وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى .

ولست أدرى أأصل الى مرادى، أم أموت قبل نوال غرضى؟

دعــاء ..

أسال الله أولا أن يصلحنى، ثم يصلح بى . ويهدينى، ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقا ، ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ، ويرزقنى اجتنابه . وأن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده الى الحق وهداه ، والهمه ذكره حتى لا ينســاه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ؛ واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه .



شواطئ الحب الضارية

نزوات زوجة !

للاديبة المؤرخة "ليلى بلانش"

تلخيص : ماهر مينا

المغامرة الرابعة .. والأخيرة !

عزيزى القارىء ..

فى الاعداد (٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧) قدمت لك الفصول الثلاثة الاولى من هذا الكتاب الممتع (شواطىء الحب الضارية) ، الذى جمعت فيه الاديبة المؤرخة « ليسلى بلانش » سيرة أربع نساء مغامرات ، جمع بينهن حب الشرق والتعلق بسحره وغموضه ، الى حد دفعهن الى التضحية بكل شىء : بالوطن ، والاهل ، والزوج ، والولد ، والماضى ، والمستقبل .. فى سبيل اجتلاء خوافيه ، وارتياد فيافيه ، وممارسة الحب والحياة تحت سمائه المشرقة الصافية ..

ففى الحلقة الاولى ، قرأنا سيرة المغامرة الفرنسية « ايميه دوبوك دى ريفيرى » ، (ابنة عم الامبراطورة « جوزفين » ، زوجة نابليون) ، فرأينا كيف بدأت حياتها فى الدير ، ثم خطفها القراصنة فى عرض البحر ، واهدوها الى حاكم الجزائر « بابا محمد » ، الذى أهداها بدوره الى سلطان تركيا « عبد الحميد » ، فصارت محظيته .. ثم أنجبت منه ولدا قدر له أن يتولى عرش القسطنطينية ، ففدت « ايميه » ـ أم السلطان ـ الحاكمة الفعلية للامبراطورية العثمانية !

وفى الحلقة الثانية، قرأنا سيرة المغامرة الاوربية ـ المنحدرة من أصل روسى ـ « ايزابيل ابرار » ، التى أحبت العرب ، ودرست فلسفة الاسلام ، ثم هجرت اوربا لتعيش ـ وتموت ـ فى شمال افريقيا !

وفى الحلقة الثالثة ، قرأنا قصة حياة ومغامرات « ايزابيل ارندل » التى عشقت الرحالة « رتشارد برتون » وتزوجته، كى تجوب معه أقطار الشرق التى شغف بارتيادها !

والآن ، تعال معى نقرأ الحلقة الرابعة والاخيرة من الكتاب:

لم تضن عليها الطبيعة بكل ما تشتهيه امراة من فتنة ، ومال ، وعراقة أصل ، بل اغدقت عليها من هذه النعم بغير حساب ، فاذا بها تصبح قبلة انظار المجتمع اللندنى وشبابه الارستقراطى المثقف ، ومطمع الملوك والأمراء الاجانب الذين راحوا يلاحقونها فى غير كلل، وقد منى كل منهم نفسه بالظفر بحبها والزواج منها ! .. على انها لم تكن بالمراة التى تقنع بالحياة المستقرة الهادئة التى تخلو من الحب ، وان ظللتها السعادةالزوجية واحاطتها جميع أسباب الجاه والثراء . فلم تلبث طبيعتها النارية ، وعواطفها المشبوبة المختزنة فى قلبها المتعطش ، ان دفعتهـا الى هجر زوجها واولادها ، وارتياد شواطىء الحب الضارية ، غير عابئة بما كانت تثيره وراءها

من فضائح وزوابع تزلزل أركان المجتمع الانجليزى الصارم، ويتردد صداها بين أرجاء مجلس اللوردات ذاته !.. **وكانت تحسب انها سيدة مصيرها ، وانها مهتـدية حتما الى ذلك المصـير اذا ما سـعت هى اليه ، فقضت حيـاتها تخوض المغامرات العاطفية ، متنقلة من حب الى حب ، متوهمة ـ فى كل مرة ـ انها بلغت غايتها المنشودة ،** وما أن كانت تبرأ من الجراح التى خلفتها لها تجربتها الفاشلة ، حتى يتملكها أمل جديد أشـد قوة من سابقه ، فاذا به يدفعهـا الى معاودة الكرة والمضى فى طريق المجهول .. الى أن انتهى بها المطاف فى بلاد الشرق البعيدة ، حيث وجد القلب الولهان ـ بعـد طول انتظار وتجارب مضنية ـ سيده ومولاه !

تنشأ فى بيئة مشبعة بسحر الشرق

ولدت «جين ديجبى» فى عام ١٨٠٧ ، فىمقاطعة(نورفولك) بانجلترا ، من اسرة عظيمة الثراء ، عريقة الحسب ، تتمتع

بهيبة كبيرة كادت تبلغ مسامع المجتمعات الراقية التى تضمها العاصمة .. ومنذ فجر صباها ، تفتحت عينا « جين » على المناظر الريفية الساحرة ــ بجوها الحالم الخلاب ــ التى كانت تحوط بحياتها من كل جانب. وكانت نفسها المرهفة تهتز لمشهد الغسق بأشعته الذهبية الصافية التى راحت تنعكس على وجوه الفلاحين وهم يلهون ويلعبون فى ساحات القرى ، بينما كانت مياه النهر تنساب عذبة هادئة فى رحلتها اللانهائية .. **وكان سحر الشرق قد بدأ يداعب خيال الفنانين ، فيوحى الى الرسامين بلوحات تمثل شروق الشمس أو غروبها على الصحراء ، والى الموسيقيين بألحان شرقية شجية كانت تطرب الانجليز وتستحوذ على مشاعرهم ، فتدفعهم الى التعلق بذلك الشرق الرومانتيكى البعيد بسحره وغموضه الآسرين !** .. وكان لابد لفتاة مثل « جين » ، أوتيت عاطفة متأججة ، وخيال متقد ، ان تتأثر بذلك الجو الشاعرى ، وان تعشق بلاد الشرق ، وتتوق نفسها الى مشاهدتها ، حتى لقد عقدت العزم ــ بينها وبين نفسها ــ على أن ترحل اليها فى اول فرصة تواتيها ، سيما وان الترحال وارتياد الاقطار النائية كانا من تقاليد أسرتها ومن أحوالها المألوفة .. فقد كان والدها «الاميرال ديجبى» معروفا برحلاته البحرية الحافلة التى جلبت له لقب « ذئب البحار» ؛ لما كان يبثه من رعب وهلع فى قلوب أعداء انجلترا . وحين بلغت «جين» الثانية عشرة من عمرها ، رأت ابن عمها « هنرى انسن » يهجر بلاده ويرحل الى (مكة) ، متنكرا فى ملابس عربية ، كى تتاح له زيارتها التى كانت محرمة على الأوروبيين . فكان لكل تلك الأمور اثرها البالغ فى تشكيل ميول الفتاة وتكوين مزاجها ، ودفعها الى التطلع الى ذلك الشرق البعيد الذى بات حبه يملأ قلبها ويشغل بالها !

مجون زوجها المسن ، يطيح بحياتها الزوجية !

على انها لم تكد تبلغ السابعة عشرة من عمرها ، حتى كانت قد صارت فتاة مكتملة الانوثة ، رائعة الحسن ، لامعة الذكاء ؛ تستأثر بحب جميع المحيطين بها واعجابهم . وسرعان ما قرر والداها أن يستغلا ما أوتيته ابنتهما من نعم طبيعية ، لتزويجها من رجل من الطبقة الارستقراطية الانجليزية ،صاحب اسم وجاه ، يكفل لها الحياة الكريمة التي الفتها في بيت اسرتها . **وما لبثا ان عثرا على ضالتهما المنشودة في شخص رجل موسر ، ذى مكانة اجتماعية مرموقة ، ماجن الطباع ، متقدم في السن ، يدعى « اللورد النبورو » !**

على أن زوجا من ذلك الطراز ، ما كان ليقدر على اسعاد فتاة لها طبيعة « جين » وشبابها وحيويتها . وسرعان ما بدأ النزاع يدب بين العروسين ، وهما بعد في الأيام الأولى من شهر العسل ، واذا بالزوج يهجر عروسه ، وينصرف عنها باحثا عن فتاة أخرى يعيش بجوارها ويلهو معها ، علّه ينسى تجربة زواجه الفاشل ! .. واخذت الشائعات تتواتر بين أرجاء المجتمعات اللندنية ، كاشفة النقاب شيئا فشيئا عن فضيحة اللورد الثرى الذى هجر زوجته الفاتنة ، وراح يعيش حياة لا تليق برجل له سنه وهيبته ! . **ولعل «جين» قد ارتضت تصرف زوجها في البداية على اعتبار انه وضع طبيعي ، فسلمت بالأمر الواقع** ، وراحت تأمل - في صبر - ان يكف زوجها الشيخ عن غيه ، وان يعود اليها تائبا نادما ، فيستأنفا حياتهما الزوجية الأولى !

حبها الأول !

واذ ذاك وقعت لجين أول مغامرة من سلسلة مغامراتها

العاطفية التى قدر لها ان تقلب حياتها رأسا على عقب ! ..
ففى عام ١٨٢٧ ، التقت بشاب انجليزى ، وسيم القسمات، فى السابعة والعشرين من عمره ، يدعى «فريدريك مادن» . وكان الشاب يشغل احدى الوظائف بالمتحف البريطانى ، فأراد والد « جين » ان يستعين به لجرد محتويات مكتبة قصر (نورفولك) واعادة تنظيمها . وفى أحد ايام الربيع ، وفيما كان « مادن » غارقا بين الكتب ، عاكفا على ترتيبها ، اذا بالقدر يدفع «الليدى الضورو» الى الحضور الى القصر لزيارة اسرتها .. وكانت امرأة فى نحو العشرين من عمرها ، أشد ما تكون فتنة وجمالا ، ذات عينين زرقاوين تبهران الناظر اليهما من فرط سحرهما . ولم يلبث « مادن » ان وقع فى غرام « جين » ، كما تدلهت هى الاخرى فى حبه ، واذا بهما لا يفترقان منذ ذلك الحين ، ويقضيان اوقاتهما فى تجاذب أطراف الحديث والتريض بين حدائق القصروالحقول المجاورة ، بعيدا عن أنظار الفضوليين !

على انها سرعان ما بدأت تحس بالندم ووخز الضمير لما اقترفته من جرم فى حق الأمانة الزوجية ، فقررت ان تضع حدا لعلاقتها بمادن ، وان تتجنب لقاءه ما استطاعت الى ذلك سبيلا ..وان هى الا ايام ، حتى غادرت منزل اسرتها فجأة ، وقفلت عائدة الى لندن .. وحاول الشاب اللحاق بها هنالك واستئناف علاقتهما الغرامية ، بيد أن « جين » ظلت تحرص عى تجنبه والتهرب منه ، حتى اسقط فى يده ، فلم يقدر لهما أن يلتقيا قط بعد ذلك !

تعشق الأمير من النظرة الأولى !

وفى شهر فبراير من عام ١٨٢٨ ، رزقت « جين » بطفل أسمته « ارثر » تيمنا بالدوق « ولنجتون » رئيس وزراء

بريطانيا فى ذلك الحين .. ولما كان زوجها اللورد يتوق الى أن يكون له وريث يحمل اسمه ويخلفه فى إدارة ممتلكاته الشاسعة ، فقد بادر يعترف ببنوته للطفل . ومضت فترة صدر بعدها قرار بتعيين « اللورد النبورو » فى منصب حامل الاختام فى وزارة ولنجتون، فما ان تولى مهام منصبه الجديد حتى بدأ يهمل زوجته ويتجاهلها تماما ، سواء فى حياتهما الخاصة أو فى المجتمعات التى كانت تحتم عليهما الظروف أن يغشيانها ! . . **واذ ذاك أحست ((جين)) انها قد تحررت من القيود التى تفرضها عليها الحياة الزوجية ، وانه قد بات فى وسعها أن تجابه وتتحمل جو الفتور الذى يخيم على علاقتها بزوجها** ، فلما التقت بعد ذلك بالأمير النمسوى ، الذى قدر له ان يشغل حياتها الفارغة أمدا من الوقت ، كانت قد صارت امرأة ناضجة العواطف مكتملة الأحاسيس، تستطيع أن تقع فى الحب من النظرة الأولى !

فلقد هيأت لها الظروف ان تلتقى بأمير نمسوى شاب ، يعمل سكرتيرا بسفارة بلاده فى لندن ، ويدعى « فليكس شوارزنبرج » ..وسرعان ماهامت به حبا من النظرة الأولى، واذا بها تصبح عشيقته ، وتهجر بيتها لتمضى معه الساعات الطوال فى مسكنه الانيق بشارع « هارلى ستريت » ، غير عابئة بالنظرات والاقاويل التى راحت تلاحقها مستنكرة مسلكها الفاضح المشين الذى قلما شهد مثله أهالى لندن الشديدو الحرص على التقاليد والمبادىء الاخلاقية . وقد أغضب أسرة جين ان زوجها كان غافلا عن فضيحة امرأته ، فى الوقت الذى لم يكن فيه للنوادى والمجتمعات من حديث سوى مغامرة زوجة اللورد حامل اختام الملكة مع الامير النمسوى الوسيم !

على ان النبأ ما لبث ان بلغ مسامع اللورد الغارق فى

أعماله ومشاغله، فاذا به يقرر ان يسير على الفور فى اجراءات الطلاق ، صونا لاسمه وكرامته . وفى تلك الاثناء ، كان الامير العاشق قد غادر انجلترا عائدا الى بلاده .. وسواء كان قراره هذا صادرا عنه هو ، أو جاء بناء على تعليمات من وزارة خارجية النمسا ، فقد أعلن بعد حين انه قد نقل الى السفارة النمسوية فى باريس !

تلحق بعشيقها فى باريس !

ولم تكن « جين ديجبى » بالمرأة التى يعرف اليأس سبيلا الى قلبها ، أو بالتى تسمح لأية عقبة بأن تقف فى طريقها ، سيما إذا كان الأمر متعلقا بالعيش بجوار الرجل الذى أحبته !.. وعبثا حاول والداها ان يذكراها بواجباتها نحو بيتها وزوجها ، أو حتى نحو ولدها الذى كان مايزال طفلا ، فقد عقدت العزم على أن تهجر قومها وبلدها ، وتلحق بحبيبها فى باريس لتنعم معه بالسعادة والحب . **ولم يكن هروبها من انجلترا يرجع فى الواقع الى رغبتها فى تجنب فضيحة غرامها هناك ــ فما كانت لتأبه بالفضائح التى تكتنف حياتها ــ بقدر ما كان يرجع الى تلهفها على رؤية عشيقها والاستمتاع بالحياة فى كنفه !**

ولكنها لم تكد تصل الى باريس ، حتى وجدت ان عاطفة الامير قد انطفأت جذوتها ، وانه بدأ يعاملها فى فتور وتحفظ لم يخفيا عليها .. والحق أن الشاب كان ذا أخلاق لا تكاد تشبه من قريب أو بعيد طبيعة عشيقته العاطفية المندفعة .. لم يكن بالمخلوق الساذج الذى يجرفه الحب فى تياره الخطر المجهول العواقب ، بل لعله لم يكن يؤمن بالحب على الاطلاق ، سيما وانه لم يكن ينتوى ــ فى قرارة نفسه ــ أن يسعى لتطليق « جين » ليتزوج منها هو .. فقد كان هذا

المسلك خليقا بأن يغضب اسرته الكاثوليكية المحافظة ، وان يقضي على مستقبله باعتباره موظفا فى وزارة الخارجية !.. حقيقة ان عشيقته كانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن سحرا وجاذبية ، وانها قد ضحت من أجله بكل شيء : ثروتها ، وسمعتها ، وأهلها ، وأصدقائها ، **بيد انه كان قد بدأ يرى ان ذلك الوضع ما كان ليستمر الى الابد ، وانه يسبب لكلاهما حرجا وضيقا لا قبل لهما بهما !** .. ولم يكن انجابها منه طفلتين ـ فى الفترة التى عاشتها بجواره ـ ليجدى شيئا فى التقريب بينهما مرة أخرى ، أو توثيق عرى رابطتهما بشكل يسمح لهما بالاستمرار فى الحياة معا .. وعلى هذا النحو ، فحين شرع « اللورد النبورو » فى اتخاذ اجراءات الطلاق ضد زوجته فى لندن ، كانت « جين » تقف بمفردها لمجابهة محنتها الجديدة !

الطلاق فى انجلترا .. بقرار من البرلمان !

وكان الطلاق فى انجلترا فى ذلك الحين امرا نادر الحدوث، ويتطلب قدرا كبيرا من المال والوقت ، حتى أن قليلين من الانجليز كانوا يستطيعون مواجهة مشكلاته واعبائه .. **فقد كان يتعين أولا الحصول على موافقة البرلمان ، ثم يعرض الامر بعد ذلك على المحاكم الدينية ، التى لم يكن يجوز لها أن تقرر أكثر من « الفصل بين الزوجين »** .. وكان على طالب الطلاق بعد ذلك أن يرفع دعوى بالتعويض ضد عشيق زوجته (لم يكن يحق للزوجات المخدوعات ان يقمن مثل هذه الدعوى ، بل كان عليهن أن يتحملن ما لحق بهن من اضرار فى خضوع واستسلام !) حتى اذا حكمت المحكمة المدنية بالتعويض ، صار فى مقدور المدعى الاقدام على الخطوة التالية . فقد كان عليه أن يحصل من مجلس اللوردات على

قرار نهائى يخول له الزواج مرة أخرى . فاذا وافق المجلس ـ بعد بحث المستندات والاستماع الى الشهود ـ على طلب صاحب الدعوى ، أحيل الأمر برمته الى مجلس العموم لبحثه من جديد . حتى اذا أقره مجلس العموم بدوره ، أستصدر به مرسوم ملكى ليصبح سارى المفعول بعد ذلك !

ومن ثم لم يكن غريبا ان حالات الطلاق لم تكن تتجاوز فى ذلك الحين حالة واحدة أو حالتين سنويا ! .. وظل هذا الوضع قائما حتى عام ١٨٥٦ حين انشئت محاكم الطلاق والاحوال الشخصية ؛ بالرغم من معارضة الكنيسة وحملات « جلادستون » العنيفة !

تطلق من زوجها ، ولكن ..

على أن « جين » لم تكن فى حال تسمح لها بالتفكير فى انابة من يتولى الدفاع عنها فى القضية التى رفعها عليها زوجها ، بل لعلها لم تكترث باجراءات القضية على الاطلاق .. فقد كانت تقاسى من اليأس والانهيار اللذين خلفهما فى نفسها قيام القطيعة بينها وبين « شوارزنبرج » ، وكان طفلها الأول « ارثر » قد قضى نحبه قبل بضعة أشهر ، فلم يعد ثمة وريث « للورد النبورو » .. ومن هنا ، فحتى لو قد رغبت فى العودة الى زوجها ، لم يكن هناك شىء يمكن أن يجمع بينهما مرة أخرى . وبذلك قرر اللورد أن يمضى فى اجراءات الطلاق حتى نهايتها !

غير ان دعوى الطلاق التى أقامها اللورد ضد زوجته الخائنة ؛ ما لبثت أن لاقت معارضة لم تكن فى الحسبان .. **فعلى الرغم من أن الزوج كان قد خدع بطريقة سافرة لاتقبل جدالا ، فانه لم يحظ الا بقدر ضئيل من العطف والتاييد من**

جانب الرأى العام الانجليزى ، وخاصـة من جانب الطبقة الارستقراطية . ومع أن أحدا لم يحاول أن يبرىء ساحة الزوجة المتهمة ، فقد راح اللوردات يؤكدون أن القضية تنطوى على حلقة مفقودة وأمور غامضة ، وانهم يشمون فيها رائحة التواطؤ والتضليل .. اذ ما الذى يدعو اللورد الى أن يطلب الطلاق من زوجة لم يفكر قط فى أن يعاملها معاملة كريمة ؟ .. وفيم هذه الأهمية التى أخذ يعلقها فجأة على عفاف زوجته وطهرها ؟.. والا ، فما الذى جعله يهمل امرأة فاتنة لم تتجاوز العشرين ربيعا ، فيدعها تنام الليالى الطوال بمفردها ، وتغشى مجتمعات لندن فى غير صحبته ؟ !

ومن ثم ، لم يكن مجلس اللوردات راضيا كل الرضا عن وقائع الدعوى ، **بل لقد راح بعضهم ينظر الى ((جين)) على انها ضحية زوجها ، وانها ما كانت لتقترف ما اقترفت على ذلك النحو المشين ، لولا اهمال زوجها لها ، وعدم اكتراثه بها ، المتعمدين !** .. وساد الاعتقاد بأن اللورد كان قد قصد أن يتخلص ـ بطريقته الخاصـة ـ من زوجة رأى انها غير صالحة له ، وانه ابتز سرا من الأمير العشيق مبلغ خمسة وعشرين الفا من الجنيهات ، حتى لا يضطر أن يدفع من جيبه نفقة زوجته بعد تطليقها !

على ان قرار الطلاق سرعان ما صدر مع ذلك .. **ولكن اذا كان الزوج والعشيق قد اظهرا خسة ودناءة فى مسلكهما تجاه ((جين)) ، فان البرلمان كان أكثر شهامة ونبلا نحو امرأة حزينة يائسة** .. فقد تعمد أن يغفل اصدار القرار الذى يحرم ـ فى مثل تلك الأحوال ـ على الزوجة المذنبة أن تتزوج من شريكها ، وبذلك ترك لها الحرية فى أن تتزوج من الامير اذا شاءت !

توحي الى « بلزاك » باحدى بطلاته !

ظلت « جين » على علاقتها بالامير فى باريس من عام ١٨٢٩ حتى عام ١٨٣١ . ولكن لما كان « شوارزنبرج » لا يفكر فى الزواج منها ، فان حياتها المتحررة معه ما لبثت أن أضفت على شخصيتها سحرا جديدا فى نظر المجتمعات الفرنسية الراقية ، **فاذا بهـا تغشى مختلف الدوائر الادبية ، وتتعرف الى نجوم المجتمع ، وتختلط بمشـاهير الـكتاب والادباء .** وسرعان ما توثقت اواصر الصـداقة بينهـا وبين الروائى الفرنسى الأشهر « اونوريه دى بلزاك » الذى لمح فيها على الفور ـ بما عرف عنه من دقة ملاحظة ولماحية شـديدة ـ السمات الشرقية الصميمة والانفعـالات العارمة التى قدر لها أن تنمو وتزداد فيما بعد ، كاشفة عن حقيقة تلك المرأة الانجليزية ! .. ولم تلبث « جين » ان أوحت اليه بشخصية « ليدى ارابيلا دودلى » فى رواية « زنبقة الوادى » .. **وقد صـورها « بلزاك » فى روايته مخلوقا عنيف الطبـاع ، ذا شهوة جامحة ، يملك الحب عليه كل جوارحه ، ولا ينتمى الى دسائس « الصالونات » ومكائدها ..** ووصف مشاعرها بانها « افريقية » ، وشبه أهواءها ونزواتها بالاعاصير التى تجتاح الصحراء المحرقة !!

على أن العلاقات بينها وبين عشيقها أخذت تتدهور شيئا فشيئا منذ ذلك الحين ، حتى اذا حلت أواخر عام ١٨٣١ ، رحل الامير عن باريس عائدا الى بلاده ، فلم تلبث « جين » ان سئمت الحياة هناك بمفردها ، وبدأت تحس بالوحشـة بعد أن هجرها حبيبهـا ، **فاذا بهـا تغـادر باريس بدورها منطلقة على غير هدى ، دون أن تدرى انها قـد خطت بذلك خطوة أخرى نحو الشرق ، خاتمة مطافهـا ..** وانها كانت

تسير صوب شواطىء حب جـديدة كتب عليها أن ترتادها ، فتسعد بها وتقاسى منها !

تغدو عشيقة ملك بافاريا !

حين رحلت « جين » عن باريس ، كانت ما زالت نجمـا متألقا يحظى باهتمام جانب كبير من الرأى العام فى فرنسا ، حتى لقد راح سـفرها المباغت يثير العـديد من التأويلات والتقولات بين كبار شخصيات المجتمع : فمن قائل انهـا أضحت عشيقة للملك « برنادوت » عاهل السـويد ، ومن زاعم انها هربت مع أبن صـاحب أحـد الفنادق ، بل لقـد ذهب بعضهم الى حد التأكيد بأنها اعتزلت الحيـاة ولاذت بأحد الاديرة ! .. ولكن سرعان ما اتضح انها قـد شـدت الرحال الى (ميونخ) ، وانها اختارت ــ فى تلك المرة ــ ملك (بافاريا) عشيقا جديدا لها !

وكانت « جين » ــ بعد مغادرتها باريس ــ قد قصـدت الى (ميونخ) ، فلم يكد يستقر بها المقام هناك ، حتى راحت شهرتها كامرأة لها ماض صاخب حافل بالغراميات والفضائح تجتاح مجالس علية القوم والنبلاء من البافاريين ، فاذا بها تثير ضجة مدوية حولها ، واذا بالاضواء تسلط عليها مرة اخرى ، فلم يمض طويل وقت حتى تلقت دعوة بزيارة البلاط الملكى والتردد عليه وقتما تشـاء .. **وبعـد فترة وجيزة ، اسـتطاعت ــ عن طريق بعض اصـدقائها فى القصر ــ أن تلتقى بالملك لويس الاول وان تقدم اليه ، فلم يلبث هذا أن اخذ بحسـنها وفتن بشـخصيتها ، فاتخذها عشيقة له .**

ثم عهد الى رسام البلاط الخاص برسم لوحة لها كى يضمها الى مجموعة لوحاته الاخرى التى كان يحلو له أن يتـأملها كل يوم فى نشوة وطرب بالغين !

وعاشت « جين » فى (ميونخ) حياة تخيم عليها السعادة والطمأنينة . وكان الملك لا يفتأ يشجعها على الاهتمام بمختلف الفنون وتذوقها ، واستطاع ان يبث فيها حبه لبلاد اليونان التى قدر لها ان تلعب دورا حاسما فى حياتها فيما بعد . فأخذت تتلقى دروسا فى النحت والرسم واللغة الاغريقية القديمة ، وكان الملك يستشيرها فى جميع مشروعاته الفنية والعمرانية التى كان يحرص على أن تكون متميزة دائما بالطابع الاغريقى ، فلم تكن عشيقته تخيب ظنه قط ، بل كانت تحتفظ بثقته وتقديره على الدوام !

تتزوج للمرة الثانية !

ولعل « جين » حسبت انها قد بلغت فى حياتها الهانئة مع الملك لويس غايتها المنشودة التى طالما هفت اليها نفسها الهائمة الحائرة ، وانها وجدت فى كنفه الحب والاستقرار الحقيقيين اللذين ظلت تفتقدهما حتى ذلك الحين . بيد انها كانت واهمة كل الوهم ، اذ ان علاقتها بملك بافاريا لم تكن سوى حلقة جديدة فى سلسلة مفامراتها العاطفية ، التى قدر لها ان تنساق فى تيارها ــ الواحدة تلو الاخرى ــ حتى آخر أيامها !

فلم تنقض أشهر قلائل على مقامها فى ميونخ ، حتى علمت اسرتها فى انجلترا ــ فى ارتياح كبير ــ انها اقترنت من نبيل بافارى ثرى يدعى «البارون كارل تيودور فون فيننجن» ..
ودار اذ ذاك همس يزعم ان الملك هو الذى دبر زواج عشيقته كى يضمن لها مكانة رسمية فى البلاط ، وحتى يكفل لولده المنتظر ميلادا شرعيا لا تشوبه شائبة !. لكن البارون كان شابا وسيم الملامح ، واسع الثراء ، شديد الاباء ، ومن ثم فمن المستبعد ان يكون قد قبل الزواج من « جين »

لمجرد « تغطيـــة » علاقة الملك بها .. فضـــلا عن أن الطفل سرعان ما ظهر انه صورة مطابقة لأبيه البارون ، مما وضـــع حدا لجميع الشـــائعات التى راجت حول انتمائه الى الملك لويس !

ولكن أحدا لم يعلم ـ على وجه التحقيق ـ كيف استطاع البارون ، وهو الرجل الكاثوليكى الشديد الولاء لكاثوليكيته، ان يحصل من الكنيسة على تصريح بالاقتران من امرأة مطلقة، وان يكن من المرجح ان الملك قد تدخل شخصيا لدى البابا فى هذا الشأن ! .. وكيفما كان الأمر ، فقد عقـــد الزواج فى ايطاليا فى يوم ١٠ من نوفمبر عام ١٨٣٢ . وكان الملك يزور (صقلية) فى ذلك الشتاء ، وما ان حل شهر ديسمبر حتى وضعت « جين » طفلا فى (باليرمو) أسمته « هيربرت » .. ولبث آل « فيننجن » بعد ذلك عامين فى (صـــقلية) نعموا خلالهما بالشمس الدافئة والسعادة الغـــامرة . واعتقـــد البارون انه نجح فى ترويض زوجته ، وانها برئت من حب التجوال والتنقل ؛ **بيد أن الاسرة لم تكد تعود الى (ميونخ) وتســـتقر فى ضـــيعة البارون ، حتى عاود « جين » داؤها القـــديم ، وبدأت تضـــيق ذرعا بدورها كربة أسرة ، دائرة حياتها ضيقة محدودة ،** فاذا بها تنطلق سعيا وراء ما اعتبرته مجرد لهو وتســـلية ، ولو انه كان فى واقـــع الأمر بحثا عن المغامرات والمخاطر والحياة المتجددة التى طالما دفعتها اليها طبيعتها القلقة الشريدة !

بين الزوج .. والعشيق !

وفى احدى الحفلات التى أقيمت فى البلاط ، التقت « جين » بالكونت « سبيريدون تيوتوكى » ، وكان شـــابا ينحـــدر من أسرة يونانية عريقة ؛ لا يكاد يملك من حطام الدنيا شـــيئا ،

وان لم يحل ذلك دون ان يكون مزهوا فخورا شديد الاعتداد بنفسه ! .. **وقد لمحت فيه جين على الفور اشراقة أملها ومغامرة حياتها اللتين حرمها منهما زواجها من البارون !** ومع انها كانت تحب زوجها وتعجب بشخصيته النبيلة المستقيمة ، فانه لم يكن يسعها ان تتصور نفسها — وهى بعد فى السابعة والعشرين من عمرها — ربة أسرة كتب عليها أن تعيش حياة هادئة مستقرة جرداء ، لا تتألق سماؤها بومضات العشق والهوى !

فلم يكد آل فيننجن ينتقلون الى ضيعتهم بمدينة (باد) ، حتى تبعهم الكونت اليونانى على وجه السرعة ، واستقر على مقربة منهم فى (هايدلبرج) . وتعددت النزهات الخلوية بين العاشقين ، فكانا يلتقيان بين الحقول النائية والغابات الكثيفة المنعزلة ، وكانت جين تقطع مسافة طويلة على صهوة جوادها لكى تلقى بنفسها بين ذراعى «سبيريدون» فى الوقت الذى كان فيه زوجها يتفقد اراضى ضيعته ، خالى الذهن عما كانت تقترفه زوجته وراء ظهره !

على أن الامور ما لبثت فى النهاية ان عكرت على العاشقين صفو غرامهما . فقد بدأ البارون يرتاب فى مسلك زوجته ، **ولما لم يكن من الرجال الذين يرتضون ان تخدعهم زوجاتهم دون أن يحركوا ساكنا ، فقد قرر أن يضع جين تحت رقابة شديدة ، حتى يتبين حقيقة أمرها !** .. وبعد أيام ، أقيم حفل فى البلاط تكريما لملك بروسيا ، واذا بالزوج يفطن الى تغيب زوجته وعشيقها اثناء الحفل ، فهرع فى الحال الى عربته التى كانت تنتظر فى الخارج ، وانطلق مسرعا فى أثر الهاربين . وما أن لحق بهما ، حتى أخرج غدارته ولوح بها فى وجه الكونت ، داعيا اياه الى منازلته ! .. **وجلست جين ترقب نتيجة المبارزة وقد تملكها الهلع ، بينما وقف سائق**

العربة ورفيقه يقومان بدور الشـهود . وسرعان ما انطلـق رصاص المسدسين، واذا بتيوتوكى يتهاوى مضرجا فى دمائه، وقد أصيب بجرح خطير فى صدره . ومع انه بدا ان الجريح يوشك أن يلفظ آخر انفاسه ، فقد استطاع ان يقسم لغريمه من خلال زفراته المتهدجة المتلاحقة ان حبه لجين كان طاهرا بريئا، وانه لم يحدث بينهما ما يخدش الشرف أو يمس العرض !

.. وكان البـارون شـهما نبيلا ، فوافق على نقـل الرجل المحتضر الى قصره ، حتى يقضى نحبه هناك .. أو تضـمد جراحه ان كانت ثمة جدوى ترجى من اسعافه !

وبعد ايام ، استطاع الكونت ـ بفضل ما احاطته به جين من رعاية واهتمام ـ ان يسترد قواه، وان يعد عدته للرحيل .. **وتحتم على الزوجة اذ ذاك ان تحسم موقفها ، فتختـار بين الرحيـل مع العشـيق الذى كان قـد ازداد ـ فى تلك الأثنـاء ـ تدلها فى هواها ، أو البقاء مع زوجهـا وأولادها الصغار ، وارتضاء حياة الهدوء والاسـتقرار** .. على انهـا ما لبثت ان اتخذت قرارها ، فاذا بها تعقـد العزم على ان تتخلى مرة أخرى عن حياتها الزوجية ، وتنطلق سعيا وراء الحب وبحثا عن **المغامرة !**

من ميونخ .. الى باريس .. الى أثينا !

وغادر العاشقان ميونخ قاصدين الى باريس ، وقد عولا على أرجاء سفرهما الى اليونان ـ موطن تيوتوكى ـ اذ رأيا من الحكمة الا يجاهرا بحبهما أمام المجتمع اليونانى المتزمت الذى ما كان ليسـمح بقيام علاقة غير مشروعة بين رجـل وامراة ..

وبعد سنوات أمضتها جين وعشيقها فى باريس ، ونعمـا خلالها بكل ما يشتهيه قلباهما المتعطشان من حب وسعادة ،

استطاعا أن يدبرا أمر طلاق جين من زوجها البارون ، وان يعقدا قرانهما توطئة لسفرهما الى اليونان . وفى عام ١٨٤١ غادرا باريس نهائيا ، الى جزيرة (كورفو) اليونانية ، مسقط رأس تيوتوكى .. وما أن وصلت جين ، حتى لقيت من أسرة زوجها ترحيبا وحفاوة لا حد لهما ، فلم تلبث أن أحبت أفرادالاسرة بدورها ، وعاشت بينهم حياة يرفرف عليها الهناء والوئام !

على أن الزوجين سرعان ما اضطرا الى مغادرة جزيرتهما السعيدة والانتقال الى (اثينا) ، بعد أن صدر مرسوم ملكى بتعيين الكونت ياورا خاصا لملك اليونان ! .. **وكانت جين اذ ذاك فى أوج سحرها وجمالها ، فلم يكد يستقر بها المقام فى العاصمة ، حتى ألفت نفسها محوطة بعدد كبير من العشاق والمعجبين ، واذا بالملك ذاته تبهره فتنتها ، فيقع فى هواها .. ويتخذها خليلة له !**

ولما انكشفت فضيحة الملك الغرامية ، بدأت الغيرة تدب فى قلب الملكة ، التى رأت فى جين مزاحمة خطيرة لها ، بعد أن استحوذت على قلب الملك واستأثرت بحب واعجاب العديد من رجال البلاط ، وجانب كبير من الشعب اليونانى . وراح الفتور ـ من ناحية أخرى ـ يخيم شيئا فشيئا على العلاقة بين جين وزوجها ، فلم يمض طويل وقت ، حتى انفصلا تماما ، وسار كل منهما فى طريقه !

الملكة تنتقم !

وفى ذلك الحين ، وقعت حركة تمرد فى البانيا ـ التى كانت تخضع للحكم اليونانى ـ وراحت تتسع بشكل ينذر بأوخم العواقب بالنسبة لحكومة اثينا .. وأراد الملك استرضاء الثوار لاخماد حركتهم ، فقرر أن يستدعي

زعيمهم — وكان يدعى « حاجى بطرس » — وان يعينه ياورا خاصا له ، بدلا من الكونت تيوتوكى زوج جين الذى كان على خلاف معها !

وكان القدر يدخر لجين قصة حب جديدة .. اذ لم يكد الثائر الألبانى يفد الى اتينا ، ويلتقى بها فى قصر الملك ، حتى هامت به حبا ، على نحو عنيف لم تعهده فى نفسها من قبل ، رغم ماضيها الحافل بتجاربها العاطفية المتلاحقة !

.. ولم يعنها قط ان الياور الجديد كان فى الستين من عمره ، وانه كان ابا لعدد من الأولاد . فقد رات فيه بطلا ثائرا ، يفيض رجولة وقوة ، وتنبعث منه رائحة النار والمغامرة ، ويمثل الحب والخيال اللذين طالما هفت نفس جين اليهما . فأخذت تصاحبه فى جولاته حول الجبال ، وترتاد معه الصحراء المترامية ، مشاطرة اياه ما كان يخوضه من مغامرات ومخاطر ، محققة بذلك أمنية حياتها التى جعلتها منذ فجر صباها تتطلع الى زيارة البيداء والعيش بين ارجائها !

وطفقت ((جين)) تفكر فى الطلاق من تيوتوكى كى تتزوج من بطلها الالبانى .. وكانت الملكة تتابع علاقتها ببطرس ، وقد وجدت فيها فرصة سانحة للانتقام ! فما ان شرعت العاشقة المغامرة تسير فى اجراءات الطلاق ، تمهيدا لزواجها الجديد ، حتى ضربت الملكة ضربتها . فصدر قرار — على حين غرة — بعزل «حاجى بطرس» من منصبه ، وابعاده عن البلاط !

.. وبادر الالبانى يكتب الى الملكة مستعطفا ، ملتمسا اعادته الى منصبه ، مفسرا مسلكه بقوله : **((اننى اذا كنت أبغى الزواج من تلك المرأة ، فما ذاك بدافع حبى لها ، وانما تحت وطأة الحاجة والمصلحة .. فهى غنية ، وأنا فقير ، لدى مكانة أريد المحافظة عليها ، وأولاد أحرص على تربيتهم !!)).**

ولكن الملكة لم تستجب لالتماسه ، وانما عمدت ـ بدلا من ذلك ـ الى نشر الخطاب واذاعة فحواه على الملأ !

تشد الرحال الى الشرق !

وكانت « جين » متسامحة الى أبعد حدود التسامح مع « بطرس » ، فلم تلمه قط على الطريقة التى فسر بها علاقتهما للملكة ، ولم تمسك عن امداده بكل ما كان يطلبه منها من مال ، بل ظلت على تفانيها فى حبه وولائها له ، رغم انكشاف حقيقة مشاعره نحوها !

ولكن لما كانت اثينا بأسرها ـ والملكة على وجه الخصوص ـ تستنكر مسلك جين المشين المتمثل فى علاقتها غير المشروعة بعشيقها الألبانى ، فقد قرر العاشقان أن يكفا عن معاشرة أحدهما للآخر ـ ولو الى حين ـ حتى لا يزيدا من نقمة الرأى العام عليهما . فاستأجرت « جين » مسكنين متجاورين فى احد أحياء المدينة المنزوية ، وأقامت فى أحدهما مع خدمها ، تاركة المسكن الآخر لبطرس ليشغله مع بعض اتباعه وانصاره !

ومضت حياتهما ـ حقبة من الزمن ـ صافية ناعمة ، لا تعكر سماءها غيوم أو زوابع .. **الى أن اكتشفت « جين » ذات يوم ان بطرس كان على علاقة غرامية بوصيفتها « ايجينى » ، فكان وقوفها على خيانة حبيبها ضربة قاصمة لحبها وكبريائها** ، ليس فقط لأنها كانت مخلصة فى حبها للعشيق الغادر ، وانما أيضا لان وصيفتها كانت منذ سنوات طويلة رفيقتها الوفية الكتومة ، وموضع سرها فى مغامراتها العاطفية المتتابعة التى يحفل بها ماضيها .. وكانت الصدمة هذه المرة أشد من ان تتحملها جين . فلم تلبث أن اصدرت اوامرها لوصيفتها بحزم الامتعة تأهبا للسفر ، دون أن

تكشف عن وجهتها لأحد .. **وحتى اذا انتهت من اعداد كل شيء ، غادرت أثينا ـ تصحبها ايجيني ، (التي كانت سيدتها من النبل بحيث غفرت لها أساءتها) ـ مقلعة الى الشرق .. الى سوريا** ، علها تدفن فى ذلك المحيط الجديد ما يفيض به قلبها من أشجان وأحزان ، فتنسى ذكرى غرامها الفاشل !

العشق يلاحقها أينما حلت !

حين وصلت « جين ديجبى » الى سوريا ، كانت تحسب انها قد صارت امرأة محطمة القلب ، لا تستطيع ان تقع فى الحب مرة أخرى ، وان حياتها كامرأة مغامرة تسعى الى العشاق ـ أو يسعى اليها العشاق ـ قد انتهت أو كادت .. فعولت ، كيما تنسى تجارب ماضيها الأليم ، على أن تنصرف الى دراسة الآثار العربية وزيارة المناطق الأثرية الشهيرة فى الشرق الادنى ، مثل (بعلبك) ، و (بيت المقدس) ، و (تدمر) ، لعلها تشبع بذلك هواية طالما راودتها وقت أن كانت بعيدة عن ذلك الشرق ، بجوه الغامض الأخاذ !

على أن القدر أبى الا ان يدفع فى طريقها بحب جارف جديد ، يختلف عن كل ما صادفته من قبل فى حياتها من مغامرات عاطفية عصفت بكيانها . اذ لم يكد ينقضي شهر واحد على وصولها الى سوريا ، حتى نشأت علاقة غرامية بينها وبين شاب عربى وسيم القسمات ، مشبوب العواطف ، يدعى « صالح » .. ولقد بلغت شدة تعلقها به حدا جعلها تفكر فى استئناف اجراءات الطلاق من زوجها « الكونت تيوتوكى » الذى تركته فى اثينا ، كى يتسنى لها الزواج من عشيقها العربى والعيش بين أهله وعشيرته حتى آخر أيامها !

ولكنها قبل أن تقفل عائدة الى اثينا للحصول على حريتها ، لم تستطع ان تدفع عن نفسها الرغبة فى أن تزور مدينة (تدمر)

لتتفقد مواقعها الاثرية ، فقد كان ولعها بالآثار يغلب فى قلبها — مع ذلك — على حبها لصالح ولهفتها على الزواج منه .. **وأحس العشيق انه قد أهين فى كرامته وجرح فى كبريائه ازاء ايثار ((جين)) لذلك ((المنافس)) الذى لم يكن فى الحسبان ،** سيما وانه لم يكن فى مقدوره أن يصحبها فى رحلتها ، لوجود بعض المنازعات بين قبيلته وقبائل (تدمر) . وعبثا حاول أن يثنيها عن عزمها ، فقد أصرت على السفر بمفردها ، وراحت تجرى الاستعدادات اللازمة للرحلة !

نهاية المطاف !

وفيما كانت « جين » تسعى للعثور على قافلة من الابل تصحبها فى رحلتها الطويلة غبر الصحراء — اذ كان السفر بين دمشق وتدمر يستغرق تسعة أيام — اذا بها تلتقى بالرجل الذى قدر له ان يكون نهاية مطافها . زوجها الرابع والاخير .. « الشيخ عبد المتعال المزراب » ! .. وكان ينتمى الى قبيلة « عنزة » التى كانت تهيمن على المناطق الصحراوية الواقعة حول (تدمر) . وكان مثقفا ، ويتحدث عدة لغات ، ويلم بتاريخ سوريا القديم ، ويعرف مجاهل الصحراء وخباياها ، مما جعله يقدم خدماته كمرشد لكبار الرحالة الأجانب .

وانطلقت القافلة فى طريقها الى (تدمر) ، يقودها عبد المتعال . وما أن توغلت فى الصحراء ، حتى راحت جين تقوم بجولات مع رفيقها لزيارة الاطلال والمضارب المعزولة ، والواحات التى كانت تصادفهما فى الطريق . وفى **تلك الاثناء ، كان الشيخ العربى — الذى كان يصغر جين بسنوات قلائل — قد بدأ يهيم حبا واعجابا بصاحبته ،** فاذا به يصبو الى الزواج من تلك الاجنبية الفاتنة والعيش بقربها ، ولكنه آثر

الا يبوح لها بمشـــاعره ، مؤقتا ، وان يرجىء مكاشـــفته لها برغبته الى حين عودتهما الى دمشق !

واستطاعت الرحلة الطويلة أن تجعل جين تنسى حبهـــا العابر لصالح . فلما عرض عليها عبد المتعـــال الزواج بعد ذلك ، قبلت على الفور ، وقررت العودة الى اثينا لاستكمال اجراءات الطلاق من زوجها اليونانى .

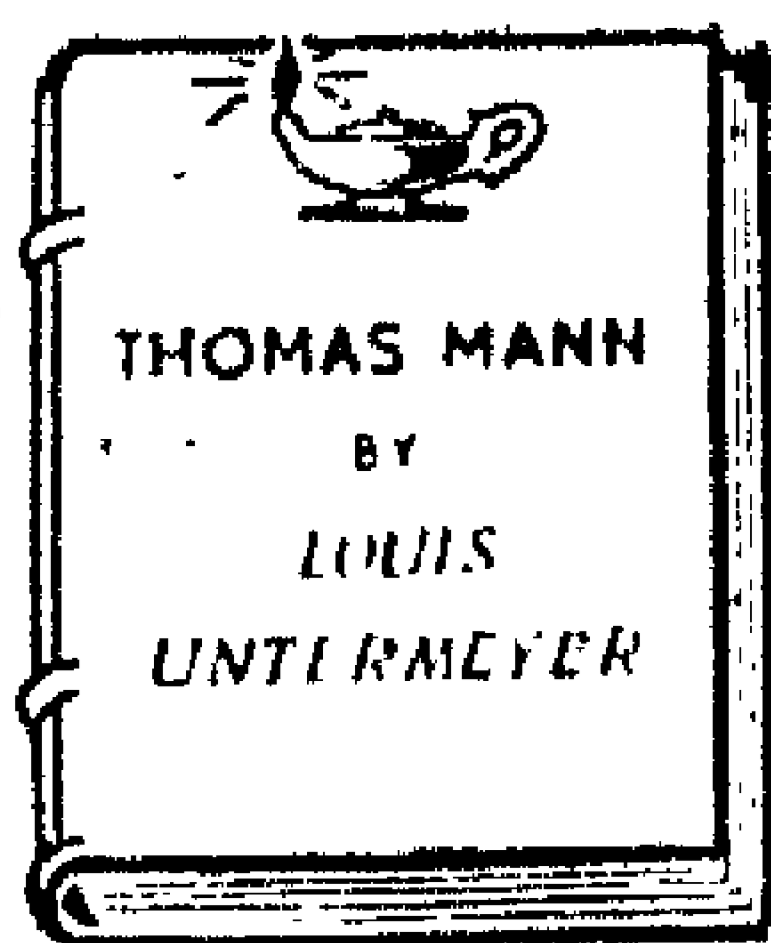
ولم تدم اقامتها فى اثينـــا الا امدا قصـــيرا .. اذ ما ان حققت بغيتهـــا هناك ، حتى اسرعت بالعودة الى دمشـــق حيث كان ينتظرها حبيبها على أحر من الجمر .. وكان لابد لهما ان يحصلا على موافقة القنصل الانجليزى فى دمشق . ولكن لما كان هذا القنصل يستنـــكر ذلك الزواج المتعجل ، **فقد راح يحاول اقناع جين بالعدول عنه أو ـ فى القليل ـ ارجائه ريثما يتشاور مع السلطات فى انجلترا .. بيـــد انها لم تتزحزح عن موقفها** ، وسرعان ما ذللت جميع العقبـــات الادارية ، فعقد القران فى (حمص) حيث كان عبدالمتعال يملك مسكنا صغيرا ، على الرغم من انه كان يؤثر عليه حياة الخلاء والمخيمات !

خمسة وعشرون عاماً من السعادة !

وعاشت « جين ديجبى » مع زوجهـــا العربى خمســـــة وعشرين عاما ، ذاقت خلالهـــا ما لم تذقه من قبل من حب صادق ، وصفاء نفس ، وراحة بال طالما افتقدتها فى حياتها الصاخبة الماضية .. واســـتطاعت ان تتأقلم بمعيشـــتها الجديدة فى فترة قصيرة ، فاذا بها تتعلم اللغـــة العربـــة ، وتعتنق عادات العرب وتقاليـــدهم ، فلم تلبث أن حظيت بحب قبيلـــة زوجهـــا وثقتهـــا ، حتى لقـــد راح افـــرادها

يستشيرونها فى كل ما كانوا يصادفونه من مشكلات فى حياتهم اليومية ! .. وهكذا قدر لجين أن تحقق أمنية عمرها .

.. ولكن كان لابد للنهاية من أن تجىء . ففى يوم ١١ من أغسطس عام ١٨٨١ ، دهمتها نوبة (ديسنطاريا) حادة ، لم تمهلها طويلا ، فقضت نحبها بين ذراعى عبد المتعال ، الذى ظل خمسة وعشرين عاما يمثل بالنسبة لها كل ما يزخر به الشرق من مغامرة وسحر .. وحب !



توماس مان

أديب ألمانيا المعاصر الذى جرد من جنسيته فارتفع إلى مكانة عالمية !

قاوم الطغيان فى وطنه .. فأحرقت كتبه التى منحته جائزة نوبل !

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

الكاتب الذى عالج فكرة ((واحدة)) فى رواياته !

• **امتاز** الكاتب القصصى الالمانى « توماس مان » ، بأنه حرص ــ فى كل رواياته ــ على معالجة موضوع معين بالذات ، راح يعالجه فى كل رواية من ناحية جديدة ، وعلى ضوء جديد .. ذلك الموضوع هو : حيرة الفنان بين العالم الخيالى السامى الذى يحلق فى أجوائه ، وبين العالم الدنيوى الارضى الذى يعيش بين أهله .. ولعل هذا الاصرار من أسباب نجاح « مان » وتفوقه ، حتى أصبح يعتبر من أقطاب الفن الروائى فى القرن الحالى . اذ انه يدل على ان الكاتب لم يكن يكتب لمجرد ارضاء القارىء ، وانما كان يسعى وراء فكرة يعالجها ، ويغوص فى أعماقها ، ويزداد ايغالا فى دراستها ، أملا فى أن يستطيع أن يجلوها !

ولقد قدم لك « كتابى » ــ فى العدد ٣٥ ــ ملخص واحدة من أشهر روايات « مان » وهى : « البجعة السوداء » .. وفى الصفحات التالية ، يقدم لك « كتابى » قصة « مان » نفسه !

واحد من عمد النهضة الروائية

• **اكتسبت** القصة التى تروى على لسان بطلها رواجا فى القرن العشرين ، حدا بمعظم الروائيين الى الاقبال عليها ، والابداع فى مضمارها ، حتى انها طفرت فى هذا القرن طفرات لم تظفر بمثلها فى القرون السالفة . وقد اجمع النقاد ومؤرخو الأدب على ان أربعة من الكتاب المتبايني الجنسية ،

هم الذين كانوا عمد هذه النهضة .. أولئك هم : مارسيل بروست الفرنسي ، وجيمس جويس الايرلندى ، وتوماس وولف الامريكى ، وتوماس مان الالمانى .

ولقد ظل ((**توماس مان**)) روحا معذبة حائرة ، تضطرم فى أعماقه المشاعر وتفور ، دون ان يهتدى الى أفضل سبيل للتفريج عنها ، الى أن قدر له أن يصدر أولى رواياته الطويلة ، التى اشتهرت بالاسراف فى الطول دون املال ولا تهريج .. ولعل أحداث هذه القصة التى اقتبست من صميم حياته هو وحياة أسرته ، هى التى حدت به الى أن يسوقها على لسان البطل ، فيسهم بذلك فى لون من أحب ألوان القصة الى القراء ، اذ يخاطب فيه الكاتب عقل قارئه وقلبه مباشرة !

هذه كانت أسرته ..

● **ولد** « توماس مان » فى مدينة (لوبيك) الحرة ، فى ٦ يونيو سنة ١٨٧٥ لأسرة كان ابناؤها ـ لعدة أجيال متعاقبة ـ من المبرزين ، ذوى المكانة والسمعة الطيبة . فكان جده لأبيه من زعماء حركة التحرر الفكرى ، وكان قنصلا لهولندا فى موطنه . كما كان أبوه من ثراة تجار الغلال ، وقد تبوأ منصب عمدة (لوبيك) مرتين ، فضلا عن أنه كان عضوا فى مجلس الشيوخ .. **ومع أن الجد كان من دعاة التحرر ، فان الأب كان محافظا .. فى غير ما رجعية ولا تزمت !**

أما أم « توماس » ، فكانت ابنة أحد أصحاب المزارع الكبرى فى أمريكا الجنوبية ، وكانت تجرى فى عروقها الدماء

البرتغالية والالمانية ممتزجة . ولعل الأصل البرتغالى هو الذىبث فىأبنائها روحا شاعرية وفنية، فقدرلابنيها الكبيرين « هينريخ » و « توماس » أن يكونا أديبين وروائيين !

ولقد كان « توماس » ثانى أبناء خمسة لهذين الزوجين السعيدين . وكان يتطلع الى أبيه كمثل يحتذى فى الاناقة ، والاعتزاز بالنفس ، والكرامة .. بينما كان يحب فى أمه شعرها الاسود الفاحم الجميل ، وبراعتها فى العزف على « البيانو » و « المندولين » ، و .. « اختلافها اختلافا مطلقا عن كل نساء المدينة »، كما سجل على لسان « تونيو كروجر »، وهو الاسم الذى توارى خلفه فى روايته : « آل بدنبروك » !

غيوم فى حياة الأديب الصغير !

• **وكانت** مرحلة الدراسة بالنسبة لتوماس الصغير ، مرحلة نظام قاس وقيود تتعارض مع روحه المشغوفة بالأدب. على أنه كان يستمد مسرة ومتعة من المسرح الصغير الذى أقامه أخوه فى البيت ، ومن الاقبال على القراءة .. وكانت حكايات « هانز أندرسن » ، وأساطير « هوميروس » من أحب مواد القراءة اليه .

وما ان بلغ « توماس » الخامسة عشرة من عمره ، حتى خيمت على حياته بعض الغيوم . اذ توفى أبوه ، واضطرت الاسرة الى التخلى عن المؤسسة التجارية التى تركها ، والى بيع « البيت الكبير » ، بما كان فيه من أثاث أثرى ثمين . ونزحت الأم الارملة بأولادها الصغار الى مدينة (ميونيخ) ،

بينما بقى « توماس » مع أخيه « هينريخ » ليستكمل دراسته فى (لوبيك) .

وفى تلك الفترة من عمره ، بدأ ((توماس)) ينظم الشعر العاطفى ، ويقلد ((جيته)) و ((شيللر)) و ((هاينى)) . وقد قدم بعض أشعاره الى مجلة صغيرة كانت تسمى « عاصفة الربيع » .. وكم رقص قلبه طربا عندما نشرت هذه القصائد ، مذيلة باسمه « بول توماس » .. وهو الاسم الذى عمد به عند مولده !

شعر وقصص .. بين الارقام الحسابية !

• **واذ** بلغ « توماس » التاسعة عشرة من عمره ، نزح هو الآخر الى (ميونيخ) لينضم الى الاسرة . وكان قد أصبح ـ اذ ذاك ـ شابا جادا ، معتدا بنفسه ، ذا عينين ثابتتى النظرات ، كأنهما عالقتان بغاية معينة عقد عزمه عليها .. **وكانت غايته أن يصبح كاتبا ومؤلفا !**

على انه كان بحاجة الى مورد ريثما تتحقق له هذه الغاية ، فلم يلبث أن حصل على عمل فى شركة للتأمين .. وبدلا من أن يبتهج ، شعر بألم يخز فؤاده ، لأن هذا العمل كان « مؤقتا » ! .. ومع ذلك فقد أقبل على العمليات الحسابية التى كان عمله يتطلبها ، دون أن يشغل بهذا عن غايته الأدبية .. **بل انه كان يختلس من أوقاته سويعات يرضى فيها نزعته الأدبية ، ويكتب القصص الخيالية .**

ولم يلبث أن وفق الى نشر أولى قصصه ، فاذا بها تستقبل باطراء ومديح من النقاد الادبيين !

وان هو الا عام ، حتى استطاع « توماس » ان يحرر نفسه من المنصب الكتابى الرتيب المهام ، وأن ينجو بروحه الأدبية من العمل الحسابى ، ومن قيود الوظيفة ، ومن الوسط الذى كان محوطا فيه بـ « كتبة يتعاطون السعوط » ، كما قال فى حديثه عن نفسه !

يرفض أن يختصر روايته الاولى

• **وكانت** قد تبقت من تركة أبيه بقية تسمح له بنفقات الدراسة لسنة واحدة ، فأنفق هذه السنة فى دراسة الادب والفلسفة فى الجامعة . حتى اذا فرغ منها ، تكفلت أمه بنفقاته لسنة أخرى ، يقضيها كما يهوى ويرغب . فرحل الى ايطاليا ، حيث كان أخوه « هينريخ » قد سبقه . وهناك ، قضى العام فى كتابة قصص قصيرة — جمع بعضها فى كتاب بعنوان « السيد فرايدمان الصغير » — وفى تأليف رواية طويلة ، فى قالب السيرة الشخصية ..

وفى ظل تشجيع « هينريخ » وتأييده ، مضى « توماس » يتحدث بلسان بطل هذه الرواية ، مسهبا فى الحديث ، معنيا بسرد أدق التفصيلات .. **حتى اذا قدر له أن يعود الى المانيا** — فى سنة ١٨٩٨ — **كان الكتاب قد بلغ حجما ضخما غير مألوف ، الى درجة أن الناشر رجاه أن يختصره الى النصف** . ومع ان « توماس » لم يكن قد تجاوز الثالثة

والعشرين من عمره ، ولم يكن قد اجتاز أعتاب الشــهرة الادبية ، فقد رفض أن يحذف صفحة واحدة من الكتــاب الذى ضمنه ــ فى الواقع ــ سيرة أسلافه وأسرته والمجتمع الذى عاشوا فيه !

يدين بمجده لروايته الاولى

• **وهكذا** قدر لأولى رواياته الكبيرة أن تنشر مع بداية القرن العشرين ــ فى أواخر سنة ١٩٠٠ بالتحديد ــ تحت عنوان **((آل بدنبروك))** أو « انهيار أسرة » .. وظهرت ــ بالرغم من محــاولات الناشر ــ فى جزءين ، فاذا بها **تظفر** برواج عجيب ، مذهل ، حمل الناشر على أن يعيد نشرها فى كتــاب واحد ضخم الحجم ، قبل أن ينقضى عــام على ظهور الطبعة الاولى !

ولم يكن استقبال النقــاد للرواية بأقل من استقبــال القراء، فاذا بهم يلهجون باطراء الكاتب الشاب .. **وسرعان ماترجمت ((آل بدنبروك)) الى جميــع اللغــات تقريبــا ، واتخذت مكانها بين ((الكلاسيكيات)) المعاصرة ، وأصبحت تزين منضدة قاعة الجلوس ، فى كل بيت ألمانى !**

واذا كان « توماس مان » مدينا بشهرته الأدبية الى هذه الرواية ، فانه مدين لها كذلك بالتقدير الدولى الذى ظفر به ، عندما منح جائزة نوبل فى سنة ١٩٢٩ .. فقــد قيل فى قرار منحه هذه الجائزة ، انه استحقها عن مؤلفاته .. « **لاسيما روايته العظيمة : آل بدنبروك** » !

فنان حائر بين الواقع والخيال

• **وتتمثل** هذه الرواية حقا فى عنوانها الفرعى : « انهيار اسرة » .. فقد مزج « توماس مان » الحقيقة بالخيال ، فى عرض روائى لثلاثة أجيال من أسرته ، عاشت فى منتصف القرن التاسع عشر ، مبينا كيف أن الاسرة أخذت تفقد ثروتها المادية باطراد ، مستعيضة عنها بثروة ثقافية .. باطراد كذلك !

ولقد كان الاسلوب الذى عالج به « توماس » قصته واقعيا، ولكنه كان يشف ــ خلال عباراته ووراء سطورها ــ عن فلسفة ما وراء الطبيعة . فلقد تغذى الكاتب الشاب على التعاليم الفلسفية لكل من شوبنهاور ونيتشه . ومع انه كان يستهجن فلسفة نيتشه ويعتبرها « بربرية » ، الا انه كان مفتونا بأسلوبه .. **وبتعبير موجز ، يمكن القول بأنه استخدم طريقة واقعية فى علاج مسألة روحية .**

فقد صور بطله « تونيو كروجر » حائرا موزعا بين عالمين : عالم المواطن العادى ، وعالم الفنان الذى لاينسجم مع بيئته ، فهو فى كل من العالمين يشعر بأنه غريب .. « وانى لأتعذب . فلقد كانت لأبى طباع الشمال ــ كما تعرف ــ فهو صلب ، مفكر ، متزمت فى استقامته ، معميل الى الاكتئاب . اما أمى ، فكانت من دم أجنبى غير محدد المعالم . **وكانت جميلة ، شديدة الحساسية ، ساذجة ، مشبوبة العاطفة ، مهملة ، شاذة بفطرتها ، على ما اظن .**

وكان المزيج غير مألوف بلا شك ، وينطوى على أخطار غير عادية . فكان نتــاجه : شخص بورجوازى يهيم بالفن .. بوهيمى يشعر بحنين مشبوب الى أن يــكون محترما .. فنان ذو وعى متعب . فمن المؤكد أن وعيى البورجوازى هو الذى يجعلنى أرى فى حياة الفنان ـ وفى كل شــذوذ وكل عبقرية ـ شيئا مريبا فى قرارته ، مشينا كل الشين ، يفعم نفسى بذلك الضعف المشوب بالحنين المشغوف الى الانسان البسيط الطيب، العادى المطمئن النفس، المتوسط، المحترم فى غير تكلف » !

النعيم يجعله كثير الانتاج

• **وعندما** بلغ « توماس مان » الثلاثين من عمره ، تزوج من « كاتيا برينجشايم » ، وكانت ابنة أستاذ شهير فى العلوم الرياضية ، وهاو من هواة جمع التحف الفنية . **وقدر له أن يعيش فى هناءة ونعيم مكناه من أن يكون منتجا ، مبدعا فى انتاجه ، خلال الثمانى والعشرين سنة التالية** . وأصبح له بيت فخم فى (ميونيخ) ، وكوخا ريفيا ، ومقرا صيفيا ..

ولعله نسى ـ فى غمرة هــذا الترف ـ شيئا من الحيرة التى كان يعانيها « تونيو كروجر » ، اذ انه لم يلبث ـ بعد زواجه بقليل ـ أن كتب رواية أخــرى ، هى **« صــاحب السمو الملكى »** .. وكان بطلها هى الاخرى فنانا من الطبقة العليــا ، حائرا بين العــالمين اللذين كانا يتوزعان « تونيو كروجر » . بيد أن لهجة « مان » ـ فى هذه المرة ـ كانت

أخف من ذى قبل، حتى لقد وصفت الرواية، فى غير مبالغة ، بأنها « رواية هزلية فى ثوب رواية جدية » !

الباحث عن الجمال

• **وما لبثت** نذر الحرب العالمية الاولى أن خيمت على العالم .. وكان من جرائها أن انقضت خمس عشرة سنة قبل أن يشهد الكتاب التالى من كتب « مان » النور .. وقدر لهذا الكتاب – وهو « الموت فى البندقية » – أن يعتبر اضخم مؤلفاته !

والواقع أن هذا الكتاب كان من نتاج منتصف العقد الرابع من عمر « مان » ، ولكنه لم ينشر الا مؤخرا .. وهو يدور حول سيد ارستقراطى أنهكته السنون، دون أن يكف عن البحث عن الجمال .. وقد تعلق بفتى بولندى بدا له أن كل ما هو جميل ولا سبيل الى بلوغه ، قد تجسد فيه ! .. **ومع ان السيد المستهام « جوستاف فون آشنباخ » لم يتبادل مع هذا الفتى كلمة واحدة ، الا أنه أبى ان يبرح مدينة (البندقية) – التى استشرى فيها وباء الطاعون –** وآثر أن يبقى ، ولو كان فى بقائه حتفه ، حتى لا يحرم من رؤية الفتى الذى أصبح ، كما كان يقول لنفسه: « روح الجمال ذاته .. انه الكمال الخالص ، الفرد ، الذى يسكن الذهن ، على شكل فكرة علوية قدسية » !

الفنان الحائر .. مرة أخرى !

• **ومع** أن القصة تخلو من العقدة ، ومن الحركة ، الا أنها تعتبر صورة لتمجيد كل ماهو سام ، علوى ، نادر . وقد وفق « مان » الى أن يخلق فيها جوا من التوتر الذى اقترب من الذعر المفجع ، والى أن يجعل منهـا تصـويرا لصرخة الجمال الذى يتسم بأنه ملهم وشرير فى آن واحد !

ليس هـذا فحسب ، بل انهـا انطوت ـ كذلك ـ على الوان من التباين فى معالجة « مان » للموضوعات الحبيبة الى نفسه : **المخاطر التى تكتنف الفن ، والانحرافات التى تبعد بالفنان عن الاستقامة ، وخطر الاشتغال بغير المألوف، ووحدة النفس وعزلة الروح ..** فنحن نرى « اشنباخ » يـكاد يكون وحيـدا كل الوحدة ، من بداية الرواية حتى ختامها .. ونرى أن ضعفه ازاء جمال الفتى ، وانصرافه الى « الفكرة العلوية القدسية » التى كان يراها متمثلة فيه ، قد استغرقه الى درجة بعدت به عن فنه ـ وهو وسـيلته للتعبير عن نفسه ـ ونأت به عن مبدأه الخلقى ، ودفعت به الى هوة العزلة التامة !

يفحص ضميره على ضوء الاحداث

• **ولم** ينتج قلم « مان » شـيئا من الأدب القصصى ، خلال الحرب العالمية الاولى .. ولـكن « جهاده بسـلاح الفكر » تمثل فى « تأملات انسان غير سياسى » . فقـد تجلي في هذا الكتاب أنه وإن قصر عقائده علي المبـاديء

الخلقية والفلسفية دون السياسية والاجتماعية ، الا أن ميوله وأذواقه ومعتقداته التى ورثها بالفطرة ، كانت تتمثل فى التعصب ـ الى درجة العدوان ـ للعنصر الجرمانى !

وان هى الا سنوات قلائل ، حتى تبين ((مان)) انه لم يعد ذا ايمان ايجابى بمبادىء المحافظين وقيمهم الخلقية ، بل ان دواعى العصر ـ الذى كان يعيش فيه ـ قد تكالبت عليه . فأقبل يفحص ضميره ووعيه ، ويدرس الموقف الذى وضع نفسه فيه .

ولم يلبث أن تأكد من أنه كان على خطأ ، وانه لم يعد يستطيع أن يكون وفيا لثقافة لم تكن مجافية للسياسة فحسب ، بل انها كانت غير تقدمية !

مدنية معتلة بين المجازفة والواجب

• **وبهذه** العقلية التى فحص بها نفسه ، كتب : ((**الجبل السحرى**)) . واذا كان النقاد قد وصفوا : « آل بدنبروك » بأنها أول رواية ألمانية خالصة ، فانهم وصفوا « الجبل السحرى » بأنها أول رواية أوربية خالصة ، واعتبروها الثانية بين شوامخ « توماس مان » .

ولقد راودته فكرة هذه القصة ـ أول ما راودته ـ فى سنة ١٩١٢ ، أثناء زيارة قام بها الى مصح كانت زوجته تعالج فيه من علة رئوية •• وفى خلال الاسابيع الثلاثة ـ التى استغرقتها هذه الزيارة ـ أخذ يقلب الفكرة فى ذهنه . ففكر ـ فى بادىء الامر ـ فى أن يعالجها كقصة فكهة يتناول

فيها الصراع بين المجازفة ـ التى تؤدى الى الموت ـ وبين الشعور « البورجوازى » بالواجب . ولكن سحر الموت ، وانتصار الفوضى المتطرفة على الحياة التى قامت على النظام ـ وكرست من أجل النظام ـ تحولا الى رمز هائل ، يشير الى مدنية معتلة ، وحضارة سقيمة .

العالم فى مصح صغير !

• **وعالج** « مان » هذه الرواية بأسلوبين .. على الاقل : الاسلوب الواقعى ، والاسلوب الرمزى . ففى الناحية الواقعية ، تدور القصة حول شاب برىء النفس ، متفتح الذهن ، يغادر المانيا الى سويسرا ليزور ابن عم له فى مصح للسل فى سويسرا . فاذا الزيارة التى كان قد قدر لها ثلاثة أسابيع ، تمتد سبع سنوات ، **يتعرض خلالها الشاب لكثير من المغامرات والتجارب البدنية والروحية ، ويكتشف الدنيا فى صورتها المصغرة داخل نطاق المصح .**

ذلك لان المصح يضم عددا من الافراد الذين يمثلون كثيرا من الجنسيات والقوميات، والذين يتأثر بهم الشاب الالمانى ، ومنهم طبيب المانى ، وامرأة روسية ـ يقع البطل فى هواها ـ وهولندى من أصحاب المزارع ، وعالم نفسى سلافى .. ويظل الشاب يستمع الى مجادلات ، ويشترك فى مناقشات ، حتى ينتهى ـ آخر الامر ـ الى جمود وتبلد أشبه بالموت .. ثم لا يلبث أن يجد نفسه وقد نفض عنه هذا الخمول فجأة ،

وخرج عن عزلته التى كانت تقصيه عن الحياة .. وما أروع وصف « مان » لسحر العزلة ولعنتها !

دنيا القرن العشرين

• **أما** الناحية الرمزية فتتمثل فى أن القصة استعراض وفحص للمذاهب القومية والتحررية ، تنتهى الى أن : « الانسان لا يعيش حياته الخاصة ـ كفرد ـ فحسب ، وأنما هو يعيش ـ سواء عن ادراك أو دون أن يفطن ـ حياة عصره وحياة معاصريه كذلك » !

ومع أن الرواية تبدو خرافية ، أو غير واقعية ، يعيبها طول الاحاديث ـ التى كثيرا ما تبدو أشبه بخطب جامدة ، مرصوصة ـ الا أن قوة « مان » الفكرية ، وبراعته فى خلق الشخصيات وتصويرها ، وسعة مجال تفكيره وتشعب الموضوعات التى يهتم بها .. **كل هذه جعلت من « الجبل السحرى » تحفة فذة من ابداع الخيال ، واستعراض ـ فى قالب روائى ـ لدنيا القرن العشرين ، وللفساد الذى يدب فيها** . . الفساد الذى لم يتبين «مان» مداه ، فى بادىء الامر ، حتى عندما قام «هتلر» بحملاته الشعواء على الديموقراطية !

الروائى الفيلسوف فى ميدان السياسة

• **ولعل** هذا يفسر لنا سر سكوت « مان » على بوادر الاستبداد التى تجلت فى تصرفات « هتلر » .. ولقد راح أولاده وأخوه « هينريخ » ـ وكان توماس مان قد رزق

بثلاثة أولاد ، صار أحدهم كاتبا ، وثلاث بنات قدر لاحداهن أن تصبح ممثلة — راح هؤلاء يستحثون « توماس مان » على أن يعلن احتجاجه على الجموح الذى كان ينذر باستبداد هتلر ، ولكن الرجل « غير السياسى » لم ينسق لهم ، **اذ وجد من الشاق على نفسه أن يعرض بألمانيا — ممثلة فى شخص حاكمها — متأثرا فى ذلك بتعلقه بالنزعة المحافظة ..**

بيد أن حريق « الرايخستاج » — البرلمان الالمانى — الذى دبره النازيون، لم يلبث أن كشف له عن الاستهتار الاجرامى الذى انتهجه هتلر فى سبيل بلوغ غاياته . فجزع الروائى الفيلسوف أيما جزع ، وانطلق — وقد فطن الى حقيقة الاحداث المحيطة به — يحذر مواطنيه من « البربرية » المنبعثة من خيال مجنون .

« هتلر » يحرق كتب « مان »

• **وكان** « توماس مان » — حينذاك — فى سويسرا ، فلم يقدر له أن يعود الى وطنه بعد ذلك . واستقر به المقام فى (زيورخ) فى سنة ١٩٣٣ ، بينما صودرت ثروته فى المانيا ، وأحرقت كتبه فى ميادينها ، ثم حرم — فى سنة ١٩٣٤ — من الجنسية الالمانية .

وبعد أربع سنوات ، رحل « مان » الى الولايات المتحدة ، حيث عين أستاذا فى جامعة (برينستون) ، وأخذ يساهم فى الجهود الموجهة ضد الفاشية ، **متخليا بذلك عن مسلكه القديم الذى كان يعتبر الفكر والفن والسياسة عوالم مستقلة ، كل منها منفصل عن الآخر ..**

ولم يلبث « مان » أن توطن فى أمريكا نهائيا ، واكتسب الجنسية الامريكية فى سنة ١٩٤٤ . وكان منذ أواخر العقد الثالث من القرن العشرين ـ أى منذ حوالى سنة ١٩٢٨ ـ قد عكف على تأليف كتاب عن يوسف الصديق . وقد بدأه فى المانيا ، وكتب شطرا منه فى فلسطين ـ أثناء زيارة قام بها قبيل سنة ١٩٣٣ ـ واستأنفه فى سويسرا ، ثم أتمه فى أمريكا .

١٦ عاما فى كتاب !

• **ومن** الطريف حقا ، أن « توماس مان » استلهم فكرة كتاب «يوسف» ـ الذى ملأ أربعة مجلدات ضخمة ، والذى ظل يعمل فيه ستة عشر عاما ـ من حادث عارض بسيط .. فقد حدث حين كان فى الخمسين من عمره ـ وكان فى (ميونيخ) ـ أن أراه أحد الفنانين ملفا ضمنه لوحات أراد بها أن يصور قصة «يوسف» كما وردت فى التوراة ، وسأله أن يكتب لها مقدمة تحليلية وافية .

وعكف « مان » على قراءة القصة فى التوراة مرارا ، وهو يتذكر ما قاله « جيته » بصددها يوما : **((ان هذه القصة البسيطة فاتنة حقا ، ولكنها جد قصيرة ، حتى ليشعر المرء باغراء يوحى اليه بأن يكمل ما اسقط منها من التفصيلات))** .
فاذا هذا الرأى يحفز « مان » على المغامرة ومحاولة تحقيق ما كان يتوق اليه « جيته » فعلا .. واستهواه أن ينتزع نفسه من جو الحاضر ، ليغوص فى أجواء روحية ، تحمله الى

الانسان والبيئة .. دائما !

• **وهكذا** عكف « مان » ست عشرة سنة على سيرة يوسف الصديق ، فملأ أربعة مجلدات ، تناول فى أولها : ((**يوسف وأخوته**)) ، وقد نشر تحت عنوان « قصص آل يعقوب » ، فى سنة ١٩٣٤ .. وكان « مان » قد قضى ست سنوات فى تأليفه. ثم نشر الجزء الثانى بعد ذلك بعام ، تحت عنوان : « يوسف الشاب » .. وفى سنة ١٩٣٨ ، ظهر الجزء الثالث بعنوان : ((**يوسف فى مصر**)) .. أما الجزء الرابع ، فقد أصدره فى أمريكا ــ سنة ١٩٤٤ ــ بعنوان : ((**يوسف الموكل بالمؤن**)) .

ومع أن « مان » حرص على أن يتبع الخطوط التى رسمتها التوراة للقصة ، الا أنه حشاها بفيض من البيانات التاريخية ، والتحقيقات الاثرية الطريفة. ثم نظر الى موضوعها من زاوية الكاتب المحلل ذى العقلية الحديثة ، **فاذا به يرى ((يوسف)) شبيها ببطل روايته السابقة ((الجبل السحرى)) : شابا برىء النفس ، طاهر القلب ، يجد نفسه فى بيئة غريبة ، يشوبها الفساد والنفاق** . وكان هذا المزج بين الواقعية والرمزية ــ وهو الطابع الذى لازم « مان » فى كل رواياته ــ هو المصدر الذى بعث فى القصة قوة وحيوية !

فنان يكرس نفسه لسواه !

• **وعلى** هذا الضوء تمثل « مان » فى « يوسف » عين الشخصية التى اعتاد أن يبنى حولها رواياته : شخصية

الفنان الذى يناضل المجتمع المحيط به . فرسم «يوسف» الحـالم ـ ومفسر الاحلام ـ الذى غدر به أخوته ، اذ بعث جماله الغيرة فى قلوبهم . . والذى ظلم ، وأسيء اليه ، وسجن بسبب فضيلته وعفته . . **والذى حرر من سجنه أخيرا ، ورفع الى أسمى المراكز ، بفضل ايمانه وثباته على هذا الايمان !**

ومع أن « مان » لم يجعل الموت المشوب بمأساة محزنة ختاما لقصته ـ كما هو شأن معظم الابطال ـ بل ختم القصة بانتصار بطله ، الا أنه حرص على أن يصور هذا البطل فى صورة الفنان الذى يكرس نفسه من أجل الغير . . فهو يحمل عبء توفير الاقوات للقوم ، ويعمل ـ فى الوقت ذاته ، وخلال آلامه ـ على انقاذهم وتخليص نفوسهم !

انتاج أدبى متواصل

• **على** أن انصراف « مان » الى قصة « يوسـف » لم يحرمه من فترات مارس فيها كتابة القصص الخيـالية ، فأصدر حوالى سنة ١٩٤٠ : **« أقاصيص ثلاثة عقود من الزمن »** ، كما اصدر كتابا ضم مجموعة رائعة من المقالات ، تنـاول فيها « جيته » و « فرويد » و « فاجنر » . . ومجموعة أخرى بعنوان **« مقالات ثلاثة عقود من القرن »** .

كذلك أصدر رواية طويلة عن « جيته » فى كهولتـه ، اسماها : **« لوط فى امارة فايمار »** ؛ صور فيها « جيته » فى صورة النبى الذى يعانى الامرين فى سبيل هداية قومه ، كما فعل « لوط » من قبل . وقد أبدى « مان » براعة وعمق

نظر فى تفسير تأملات « جيته » وخواطره . كما أصدر رواية قصيرة تعتبر تعقيبا على قصة «يوسف» ، تناول فيها النبى موسى والوصايا العشر ، بعنوان : **((ألواح الناموس))** .

رواية فى سن الثمانين !

• **ومرة** أخرى ، عاد « توماس مان » الى ابداء تقديره واحترامه لشاعر المانيا وفيلسوفها « جيته » ، فأصدر **((الدكتور فاوستس))** ، التى عالج فيها أسطورة «فاوست» من ناحية جديدة غير التى عالجها منها « جيته » .. من ناحية تتمشى مع الموضوع الذى ظل يتناولهفى كل قصصه.. **موضوع الفنان الحائر فى مجتمع لا يستطيع أن يتكيف وفقا له ، فهو دائما فى صراع مع بيئته !** .. واذا كان«جيته» قد جعل « فاوست » يبيع نفسه للشيطان من أجل المال والنفوذ ، فان « مان » جعل الشهرة هى الغاية من الصفقة !

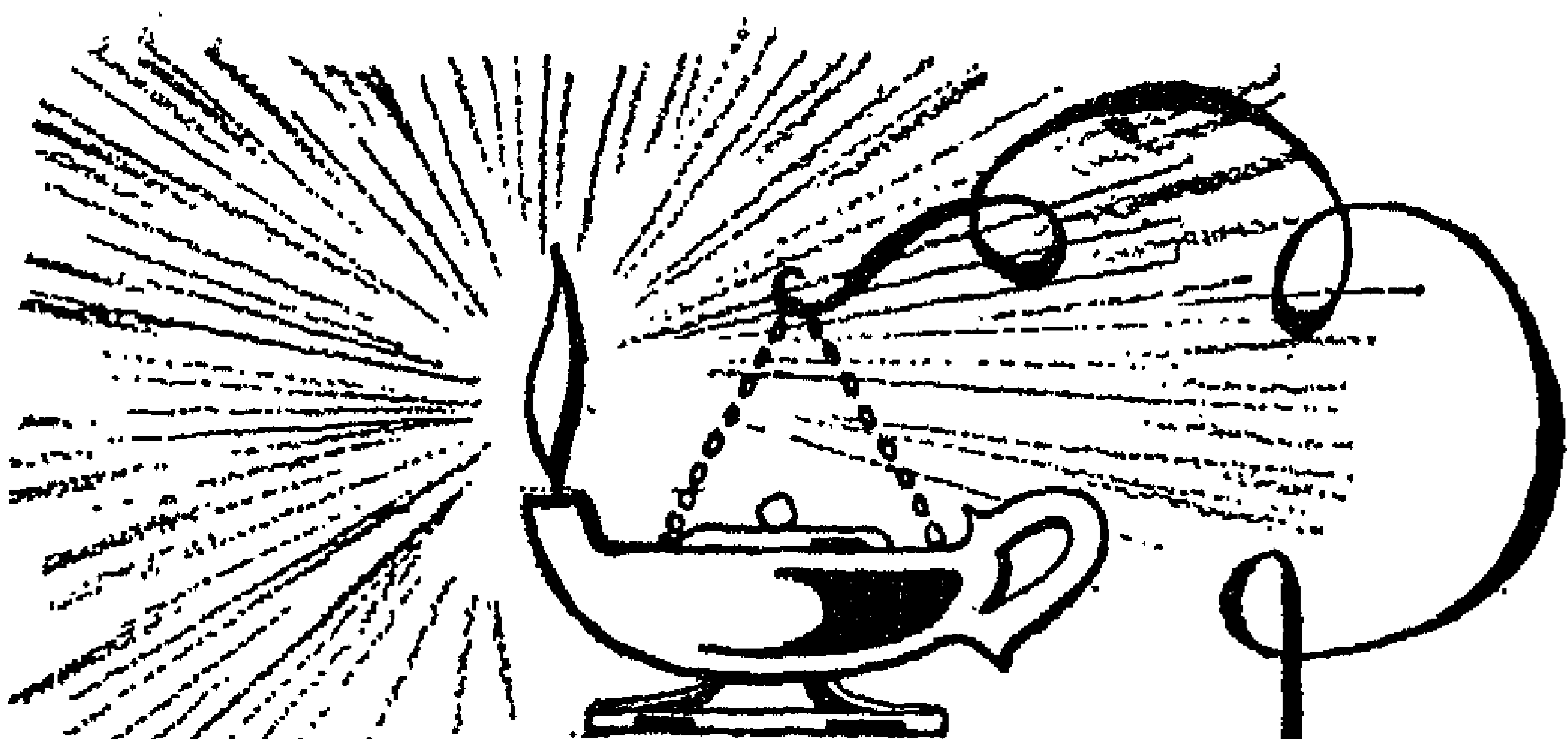
واذ بلغ « مان » الثمانين من عمره ، خال أصدقاؤه والمعجبون به أنه قد آن له أن يستريح ، وأن قريحته ولابد قد نضبت . ولكنه فاجأهم برواية جديدة بهرتهم وملكت عليهم مشاعرهم .. تلك هى : **((البجعة السوداء))** ، التى سبق أن قدمها لك « كتابى » ، والتى عالج فيها مسألة نفسية جنسية . اذ تدور القصة حول المرأة فى فترة التحول الى سن اليأس ، حين ينقطع منها الحيض الشهرى ، **فتتوهم أنها قد فقدت الوظيفة الانثوية التى أعدتها لها الطبيعة ، وأنها ـ لذلك ـ لن تلبث أن تفقد اعجابالرجال، وان تعيش حياة مجدبة من العاطفة .**

وعلى ضوء هذه الظاهرة ، تخيل « مان » بطلة قصته امرأة فى وسط العمر ، تنتقل الى سن اليأس .. وفى تلك الاثناء تقع فى هوى شاب لا يكبر ابنها بأكثر من سنوات قلائل .. وفيما هى تحلم بارضاء شهواتها ، اذا بها تكتشف انها مصابة بالسرطان ، فتنهار آمالها !

مولع بالاسهاب فى اسلوبه

• **ولقد** بلغ « مان » حد الابداع فى تحليل نفسية بطلة « البجعة السوداء » وعواطفها .. ولم ينتقص من شأن ابداعه سوى اسرافه فى استخدام الكلمات الطنانة ، والعبارة المبالغ فى تنميقها .. وبوجه عام ، يلاحظ على أعمال «مان» مغالاته فى الاسهاب والاطالة ، بالرغم من أن كثيراً من أفكاره كان يسهل التعبير عنها فى ايجاز واقتضاب . وعذره فى ذلك انه كان يغلو فى التفصيلات ليزيد أفكاره وضوحا ، وكان يرى ان الأدب القصصي يعتمد ـ الى جانب الفكرة ـ على الابداع الانشائى ، والبلاغة ..

ومهما يكن الرأى فى هذا الصدد ، فليس من شك فى أن « مان » قد جعل لنفسه مكانة لا نزاع فيها ، فى عالم الأدب الروائى المعاصر .



كتب جديدة

من الغرب والشرق

[عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية في العالم]



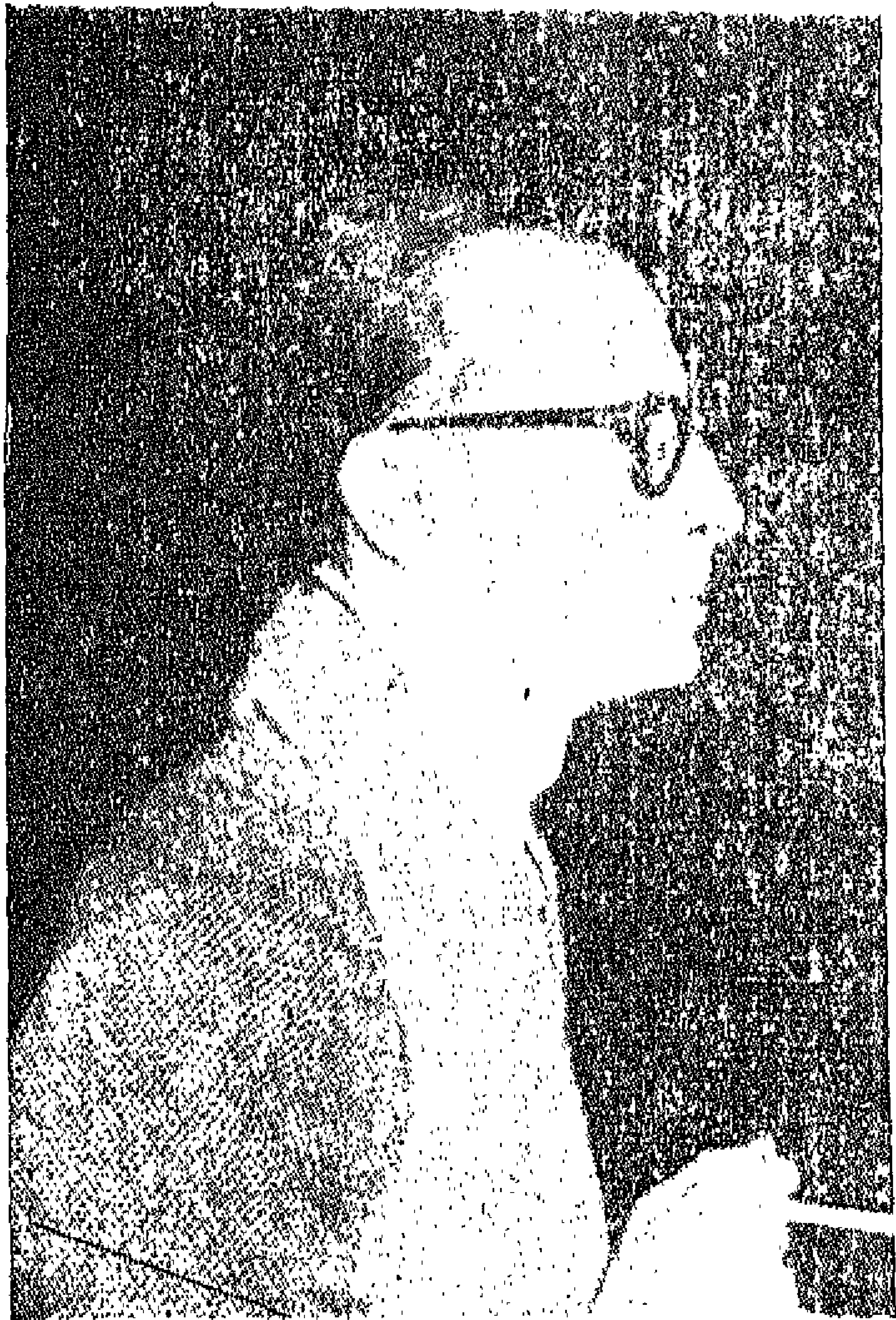
رسالة باريس

يقدمها : الدكتور أنور لوقا

الرحلة

مسرحية للأديب اللبنانى جورج شحادة

Le Voyage
Par Georges Schehadé



المؤلف : جورج شحادة

على مسرح عريق من مسارح باريس ، يطل على حديقة «اللوكسمبور» فى الحى اللاتينى — وقد آل أخيرا الى فرقة الفنان القدير « جان لوى بارو » ، تحت رعاية الدولة التى أطلقت عليه اسمها « تياتر دى فرانس» — ظهرت مسرحية جديدة سرعان ما

أجتذبت الجمهور بموضوعها الانسانى ، وجوها الساحر ، وجمال اخراجها وتمثيلها : عنوانها « الرحلة » ؛ ومؤلفها الأديب اللبنانى « جورج شحادة » .

ولا عجب اذا كانت شهرة ((جورج شحادة)) أوسع فى باريس منها فى لبنان وفى العالم العربى عامة ! .. فقد كتب بالفرنسية وبرع فى التعبير بها عن أرق المعانى . انه قبل كل شىء شاعر مرهف . وما زال شاعرا فى تأليفه للمسرح ، كما تشهد بذلك روايته الجديدة .. وجدير بالملاحظة أن أكثر ادباء الطليعة المجددين فى المسرح الفرنسى اليوم قد أقبلوا من بلاد غير فرنسا ، مثل «أوجين يونسكو» الرومانى ، و «صمويل بيكيت» الأيرلندى ، و «أرتور أداموف» الروسى ؛ و« جورج شحادة » اللبنانى .. **والأدب الذى يريد أن يحيا ويتطور هو الذى يعرف كيف يفسح الطريق للمواهب المتفتحة ، على اختلاف عناصرها ومواردها وتجاربها .**

ولقد سبق لـ « بارو » أن قدم مسرحيتين من تأليف « شحادة » ، قبل أن تتحول فرقته الى فرقة قومية . ولكن «الرحلة» انضج وأقوى بلا شك من «سهرة الامثال» (١٩٥٤) و « قصة فاسكو » (١٩٥٦) .

.. وهى رحلة من نوع غريب ، لا ينتقل خلالها البطل « كريستوفر » من مكان الى مكان ، وانما يتخذ رحيله نحوا آخر وأبعادا أخرى . ولا ينبغى أن نبحث فى هذه الرواية الشعرية عن الحياة الواقعية بحدودها المألوفة ، ومنطقها المحكم فى تسلسل الاحداث . فالواقع هنا يجرى فى عالم الاحلام بقدر ما يجرى فى دنيا الناس . على أن النظارة لا يصطدمون بما قد يخشاه النقاد فى مثل هذه الاعمال الفنية من تناقض بين المعقول وغير المعقول، ومن مفاجآت وفجوات ، لأن المؤلف والمخرج قد عنيا بالتمهيد للمواقف المتباينة ، وخلق الأجواء المواتية للمعانى دائما .


((ستراوبرى)) تاجر الازرار

نحن فى مدينة (بريستول) بانجلترا ، حوالى سنة ١٨٥٠ . والمعروف أن هذه المدينة ميناء نشيط الحركة . وترتفع الستارة عن متجر متخصص فى بيع الأزرار ، صاحبه – ((مستر ستراوبرى)) – شخصية فكاهية تشبه شخصيات الروائى الشهير ((تشارلس ديكنز)) . انه رجل مادى ، ضيق الأفق ، لا يعنيه سوى كسبه ورواج تجارته . والأزرار – سلعته الوحيدة – رمز لكل ما هو مغلق ، وثيق العرى ، مشدود محدود . وهو لا ينى عن لوم ((كريستوفر)) ، الموظف عنده ، على تطلعه المتصل من النافذة الى حركات السفن الرائحة الغادية ، **وما جدوى النظر الى البحر ما دام البحر ثابتا فى مكانه ؟**

على أننا نفطن الى أن الفتى مفتون بالبحر ، تواق الى الانطلاق من قيود حياته الصغيرة ، على ظهر احدى السفن . ولا يشغل نفسه إلا التفكير فى الرحيل الى جزيرة نائية ، غريبة المناظر والعادات ، كاسترالیا . **ويلهيه شغفه هذا عن زميلته فى المتجر ، الآنسة ((جورجيا)) الوديعة ، التى تحبه فى حياء ، وقد تخرج للنزهة معه أحيانا فيتجه بها الى أرصفة الميناء ، ولا يحدثها بغير عزمه على السفر ، مما تشقى**



((كريستوفر)) لاه عن ((جورجيا))



الكاهن اللبق والتاجر الغافل

به الفتاة المتيمة . انها عاجزة عن استبقائه فى بريستول ، الى جانبها !

ويتأثر لحزن الفتاة الكاهن الطيب القلب «الأب لامب» . وهو يعطف على « كريستوفر » كما يعطف على «جورجيا» ، ويود أن يزيل ما بينهما من سوء التفاهم ، دون أن يتدخل بصورة مباشرة قد تثير عناد الفتى وتفسد الامور . لذلك يلفت نظر « ستراوبرى » الى الموضوع بلباقة ، لكى يتولى علاجه . ولكن التاجر لا يبالى بتنبيه الكاهن ، ولا يهتم الا بكمية الأزرار الضخمة التى أتى «الأب لامب» يطلب توريدها لبعض هيئات رجال الدين .

ويخالط « كريستوفر » الملاحين ، ويستمع الى حكاياتهم العجيبة التى تفتح لاحلامه آفاقا جذابة . ولا يلبث حتي



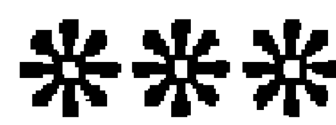
« كريستوفر » لاه عن « جيم »

يغلبه الاغراء ، فيفضى الى الملاح « جيم » برغبته فى الالتحاق باحدى البواخر ، ويعده « جيم » بأن يمهد له السبيل .

وها نحن الآن فى مقهى يكثر « كريستوفر » من التردد عليه للالتقاء برجال البحر . وأمامنا شخص يحوطه شىء من الغموض ، يزعم أن اسمه « دييجو » ــ واسمه الحقيقى « ديك » ــ وهو عائد من ميناء (سانتوس) بالبرازيل ، حيث تعلم اللغة البرتغالية ، بطريقة طريفة ، هى دروس يلقيها عليه ويرددها ببغاء متخصص ، يحفظ عددا من مفردات اللغة البرتغالية وعباراتها ، وما يقابل ذلك بالانجليزية ! .. ويكاد يتعرف على شخصيته ملاحان غشيا المقهى ، فيستجوبانه عن مصرع رجل عزيز عليهما هو الضابط البحرى «هوجان» ، الذى قتله فى حانة بمدينة (سانتوس)

غريمه « اسكندر ويتيكير » فى ظروف لم تتضح لأحد. ولقد أطلق القضاة سراح الجانى لعدم وجود شهود ، اللهم سوى ذلك الببغاء الناطق باللفتين . ونفهم من سياق الحوار ان الملاحين حريصان على استقصاء ما حدث ، وجمع القرائن والأدلة ، **لأنهما قد بيتا النية على الاقتصاص من القاتل ، والثأر للقتيل ، وتنفيذ الحكم العادل الذى لم يستطع اصداره قضاء قاصر ، مقيد بمظاهر النفى والاثبات .**

ولا تكاد تنقضى لحظات وجيزة ، حتى يدخل الجانى نفسه ــ وهو الضابط البحرى « اسكندر ويتيكير » ــ نهبا للخوف مما طرق سمعه من وعيد الملاحين اللذين انصرفا وكأنهما شبحان يتعقبانه . ولكى يستعيد اطمئنانه ، يلوذ بالحديث الى هذا الفتى الوحيد ، فعلى وجهه سمات الثقة والأمل ؛ وفى عينيه تجول أحلام كريمة . ويأنس اليه «كريستوفر» ؛ ولا يكتمه أمنيته التى تلح عليه . ويستغل الضابط البحرى سذاجة الفتى واعجابه برتبته الراقية وزيه الجميل، فيعرض عليه أن يتنازل له مدة ليلة عن زيه هذا ، ليحقق بارتدائه بعض ما يصبو اليه من طموح ، وبعض ما يفتقد من متعة .. وعبثا تحاول صاحبة المقهى أن تحذر الفتى الغرير مما يتورط فيه ، فانه لا يلقى اليها بالا ؛ ويخرج منتشيا وقد لبس بزة « اسكندر » الخلابة . ثم تظهر على أحد الجدران ظلال شخصين !



وفى اللوحة التالية ، ننتقل الى دار « الأميرال بونت » ؛ وهو شيخ غزير الشعر ، نبيل الوجه ، صارم الارادة ؛ يعيش فى جو عجيب من وشى خياله . لقد هجر البحر ساخطا عيوفا ، بعد أن جرده من رتبته مرؤوسوه ــ وهو فى عرض البحر يقود سفينته ــ على اثر هفوة لا ندرى ما هى ،


الاميرال العادل

وشاطره نفس المصير لجائر اثنان من كبار ضباطه : هما « الكومندان جرينش » و « الكابتن ويسبر » . وألف بين الثلاثة حنقهم على الاوضاع الرسمية ، واستنكارهم عدالة البشر الزائفة ، فقرروا تشكيل هيئة عليا منهم ، ديدنها الشرف ، للفصل فى القضايا التى يخسرها أصحاب الحقوق امام المحاكم القانونية . **وعلى « كريستوفر » الآن أن يمثل بين أيديهم . وهو يتقدم شهما ، غير هياب ، يحمل مسئولية زيه ورتبته ، ويريد أن يدافع عمن تقمص شخصيته ، فهو الآن « اسكندر وينيكير » !**

وهنا تعود بنا القصة الى حقبة ماضية ، فاذا نحن فى حانة (سانتوس) نشهد وقوع الجريمة ، ونتتبع تفاصيل مقتل الضابط البحرى « هوجان » . ولعلنا نشهد هذه الحقبة كما تدور فى خلد أولئك القضاة وقد عقدوا جلستهم الفريدة ، فنحن نرى المواقف التى يتمثلها منطقهم :

فى الحانة يلتقى الضابطان المذكوران ، ويتنازعان على فتاة برازيلية يحبها كل منهما ، اسمها « كوكولينــا » ، ويحتدم الشجار حتى يعتدى « اســكندر » على « هوجان » ويرديه صريعا . وهذه رواية تدين « كريستوفر » التعس ، سـيما والببغاء اللغوى يندد به قائلا : « أساسينو » أى « قاتل » ! .. انه لن ينجو اذن من الحكم عليه بالاعدام !

ولــكن ها هى ذى عودة أخرى الى الوراء ، تمتــاز بطابع خيالى لا شك فيه ، فهى تعرض لنا الأحداث ذاتها كما تسرى صورها فى ذهن «كريستوفر» . والدليل على ذلك أن جميع الشخصــيات التى تؤدى المشــهد فى هــذه المرة ، انما هى الشخصيات التى طلعت علينا فى الفصل الأول : فصــاحب الحانة هو « ســتراوبرى » بعينه ، و « كوكولينــا » هى « جورجيا » بعينها . وهذا يعنى أن « كريستوفر » يعيشر



النزاع على الحسناء « كوكوليبا » في حانه (سانتوس)

مفامرة « سانتوس » مستعينا بعناصر تجربته العـادية فى (بريستول). وعلى هـذا النحو ، يلقى الضـابط المقتول حتفه أيضا ، ولـكن فى ظروف تخلع على الضربة التى أردته صفة الفعل الطارىء ، غير المتعمد . **وهكذا تحـكم محـكمة ((الأميرال بونت)) ببراءة المتهم !**

ولكن « الاميرال » العادل يستدرك ، وينبه الى مسـألة ما زالت قائمة بلا حل : كيف يمكن الحصول على النفقـات اللازمة لدفن القتيل فىمقبرة تليق بضابط بحرى؟ ومن الذى سيتكفلبأداء هذا الواجب ؟ .. وهنا لايتردد «كريستوفر» ، بل يلبى النداء ؛ وقد غلبه التـأثر ، وفاض فى قلبه شـعور الكرامة الخليق بأن يصدر عن ضابط بحرى مثله . انه يضع تحت تصرف هيئة المحكمة الجنيهات العشرين التى تجشـم صنوفا من الحرمان حتى ادخرها من مرتبه ، لكى يحقق بها رحلته المنشودة . **وبهذا المبلغ يسـدد القضـاة الثلاثة ثمن ما أمضـوا الليل فى احتسـائه من كئوس الخمر العاتية ..**

ولعل هذه الخمر قد عبثت أيضا بعقل الفتى فأوهمتـه بأنه أبحر الى البرازيل ، حيث أحب ، وصـارع ، واستبسـل ؛ وانتصر ، وحوكم ، وبرىء ؛ على حين أنه لم ينتقل من حانة (بريستول) ، حيث بات ينادم الملاحين !

والفصل الأخير عود على بدء ، يردنا الى (بريسـتول) ، والى متجر الأزرار ؛ والى «ستراوبرى» الغليظ و«جورجيا» الرقيقة . وها هو ذا « كريستوفر » يقبل متثاقل الخطى ، خائب الآمال ، بعد ليلته تلك الباهرة . وعندما يأتيه الملاح « جيم » ، حاملا اليه بشرى موافقـة القبطان على سـفره لأستراليا ، يضطر الى الاعتذار ، ويعترف بأنه أصبح صفر اليدين ؛ لا يملك شيئا من النفقات المطلوبة للرحلة. **ولا يطول أسفه ، وانما يدرك ــ بفضل حكمة ((الأب لامب)) ــ أنه ضل**



خاتمة المطاف

اذ مضى يبحث عن السعادة بعيدا ، بينما السعادة فى متناول يديه . ويستجيب لحب ((جورجيا)) ، ويبارك الكاهن الطيب خطبتهما .

لقد أتم بذلك الفنى الحالم رحلته .. حول نفسه !

وفى مسرحيات « جورج شحادة » ـ الذى تأثر بمنهج الشاعر الفرنسى «سوبرفييل» ـ نزعة ايجابية طيبة لتجديد المسرح . نزعة تأبى أن تقتصر على تقديم الواقع . فمن الاسراف بتر الحياة ، وتجاهل غير الظاهر من أقسامها ، وحصرها فى نطاق « الواقعية » المباشرة ؛ لأنها بطبيعة نموها تمتد جذورا وأزهارا فى باطن المرء ومخيلته وأحلامه . وتلك أبعاد أصيلة ، يشقى الانسان اذا تجرد منها ، أو يجف ويتقسى ، وبدونها ننكر انسانيته على كل حال . انما الشعر غذاء ضرورى للنفوس ، و « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .. !

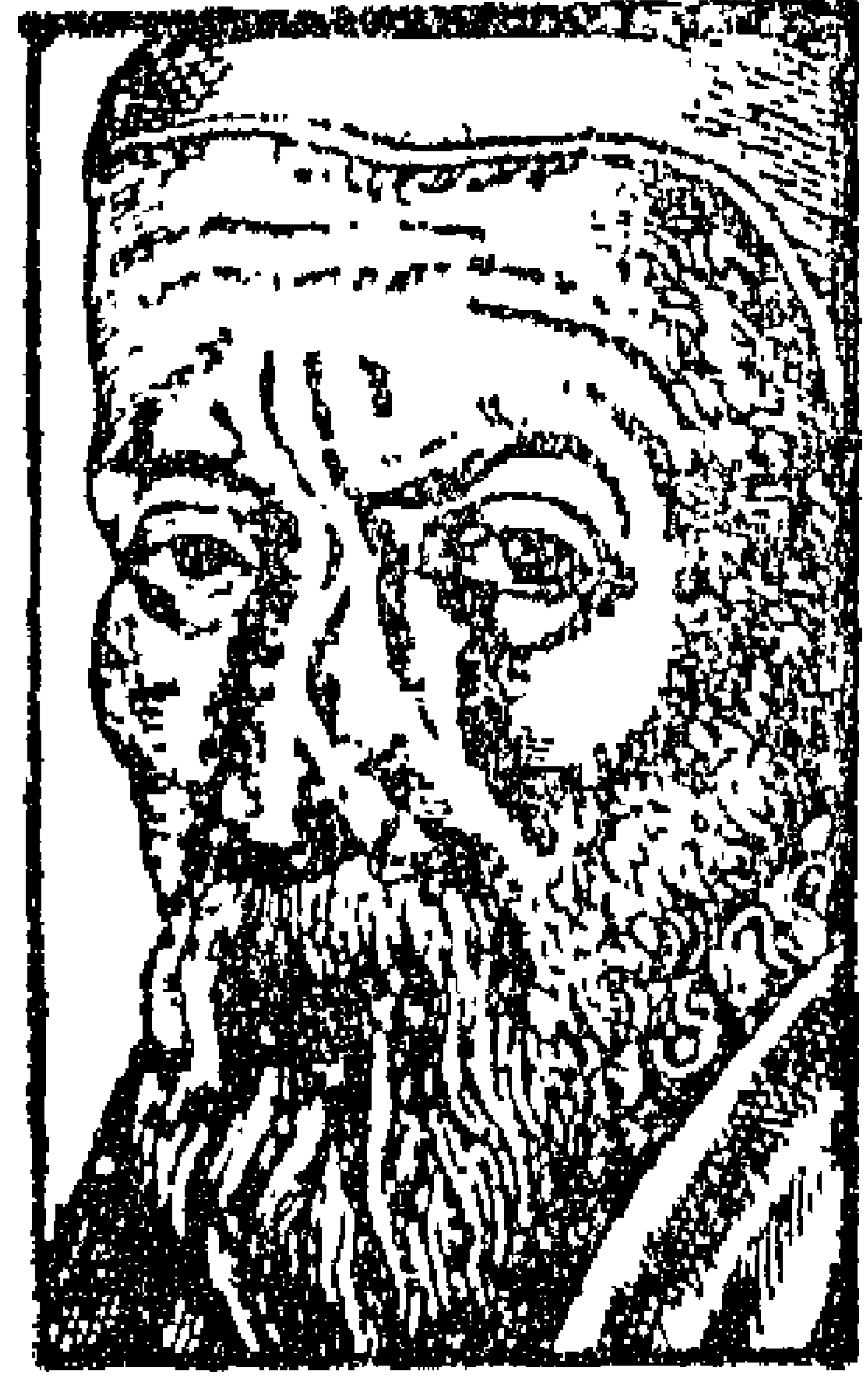
رسالة لندن

يقدمها : على شلش

((العهد الجديد)) .. فى ثوب جديد !

تعرضت العاصمة الانجليزية ، فى الاسبوعين الماضيين ، لتجربة جديدة فى الميدان الثقافى والدينى بصفة خاصة ، اذ فرغت المطابع من اعداد طبعةجديدة من الانجيل ، قدمتها الى السوق تحت عنوان : **((الانجيل الانجليزى الجديد))** .. وقد صدرت هذه الطبعة الجديدة بعد مجهود متواصل دام ثلاثة عشر عاما ، مما يجعل ظهورها حدثا غير قليل الشأن فى المحيط الدينى والثقافى بوجه عام .

هذا ، وقد كانت للانجليز نسخة معتمدة من الانجيل (أو العهد الجديد من الكتاب المقدس) طوال القرون الثلاثة



((وليام تنـــديل)) ، ترجم الانجيــل الى الانجليزية فى القرن ١٥

والنصف الماضية ، اذ كان ظهورها فى عـــام ١٦١١ . على أن وجــود هـــذه النسخة المعتمدة لم يحل دون ظهور طبعات أخرى ، اختلفت وتفرقت بعد ذلك ، وتعددت مستوياتها البلاغية :

ففى عام ١٨٨٢ قام أحـــد رجـــال الاعمال ، ويدعى ((**فيرار فنتون**)) ، باصدار طبعة أخرى من الانجيـــل ، توخى فيها التيسير ، وقد أخرجهافى أجزاء ، تمت عام ١٨٩٥ .

وفيمـــا بين عامى ١٨٩٨ ، ١٩٠١ ظهــرت طبعـــة أخرى فى ثلاثة أجزاء بعنوان : ((**العهد الجديد للقرن العشرين**)) . كما صـــدرت فى عام١٩٠٢ طبعة ((**ويمــاوث**)) بعنوان : ((**العهد الجـــديد باللغـــة العصرية**)) . ثم قـــام ((**جيمس موفات**)) باصـــدار طبعة جديدة فى عام ١٩١٣ بعنوان : ((**العهد الجديد : ترجمة جديدة**)) .

وكذلك كان الحال فى أمريكا ، اذ تعددت طبعات الكتاب المقدس ، واختلفت بين منقحـــة وميسرة ، الى أن تشـــكلت لجنة ((ستاندارد الامريكية للانجيل)) ، التى تولت اعـــداد النسخة المعتمدة الآن فى أمريكا .

أما هذه النســـخة التى ظهرت أخيرا ، وأحدثت ضجـــة واسعة فى لندن، فقد تم نقلها عن اليونانية، وراعى مترجموها قداسة الطبعة القديمة . فلم يكن فى برنامجهم الاعتداء على

الاصل القديم ، بقدر ما كانت تهمهم مقارنة النسـخة اليونانيـة به ، ثم تيسـير لفتها ، مع الاحتفاظ بالروح الأصلية للنص المقدس ، واجراءبعض التغييرات الطفيفـة التى لا تخـل بقداسته .



((دكتور دود)) ، ترجم الانجيل الى الانجليزية فى القرن ٢٠

وقـد أشـار مترجمو النسـخة الجديدة ، فى مقدمتها ، الى الظروف التى دفعتهم الى القيام بهذا العمل . ومنها انهم وجدوا فى النسخة القديمة اغرابا فى اللفظ وتعقيدا فى اللغة ، مما يحول دون وصولها الى مدارك الرجل العادى .

كذلك وجدوا أن النسخة القديمة قد أدت دورهابالنسبة للدارسين وطلاب اللاهوت ، الذين يهتمون بجـزالة اللفظ وفصاحة العبارة . ومن ثم تقف الطبعة الجـديدة موقفـا وسطا ، بمعنى أنها ترضى الباحث المتخصص والقـارىء العادى على السواء .

وقد تحدث الدكتور ((س. هـ. دود)) مدير المشروع فى التلفزيون الانجليزى فقال : **((ان من أهداف الانجيل الجديد انه وضع من أجل الذين لا يترددون على الكنيسـة ، ومن أجل الجيل الناشىء الذى لم يتاق دراسة أدبية وكلاسيكية واسعة .. وقد عمل المترجمون على أن يصل الانجيـل الى الجمهور العادى ، بحيث يجده ممتعا ، يسير الفهم والقراءة .))**

على أن هذا كله لم يقنع الكثيرين من المعلقين والمتزمتين، اذ ثارت ضجة هائلة حول هذا الموضوع على صفحات الجرائد الانجليزية . واختلفت الآراء وتشعبت ، حاملة فى ثناياها تيارات من التأييد والمعارضة ، بل ومن الحياد السلبى أيضا !

ومن بين الآراء الجديرة بالتنويه هنا ماطالعتنا به صحيفة ((**التايمز**)) أخيرا فى ملحقها الادبى الاسبوعى ، حيث كتب المحرر الادبى دراسة جادة ، قيمة ، تناول فيها موضوع ترجمة الانجيل الجديدة ، مستندا فى بحثه الى النسختين : القديمة والجديدة معا .

وهو يعترف ـ بادىء ذى بدء ـ بمبدأ ترجمة الانجيل من جديد ، لكنه يشترط أن تكون ترجمة بليغة ، بعيدة عن التبسيط والتيسير المبتذل . ثم يسوق عددا من الحجج ، منها :

• **ان** تصريح الدكتور دود السابق ذكره لايجب أن يطبق على كتاب مقدس. ذلك لأن تيسير القراءة ، وتبسيط اللغة ، والرغبة فى الامتاع ، وغير ذلك من مزايا مقترحة ، **لاتعد ذات** نفع كبير بالنسبة للكتب المقدسة ، التى تطلب لذاتها . أما اذا أردنا ذلك كله ، فيجب أن نقصره على الصحيفة اليومية مثلا ، أو القصة ، بمعنى ضرورة توافر هذه العناصر فى كل منها ـ سواء على حدة أو مجتمعة ـ لكى تصل الى بغيتها من الذيوع والانتشار .

• **ليس** ثمة داع لأن يكون للانجليز انجيلان : أحدهما للخاصة وهو القديم المعتمد ، وثانيهما للكافة وهو الجديد المستحدث .

• **من** شروط الاقناع فى الكتاب المقدس أن يكون قمة فى البيان واللغة ، بحيث يطغى على الاصوات البيانية الاخرى .

وهــذا مالم يتوفر فى الطبعــة الجــديدة ، التى تقف ، مع مثيلات لها فى المستوى البيانى ، كرجع الصدى بالنســبة للنسخة الاصلية !

• **أن** الطفل الانجليزى ينشأ ، منذ نعومة أظفاره ، على دراسة الانجيل القديم ، رغم أنه لا يدرك معــانى الكثير من الفاظه . غير أن هذه طريقة مثلى لتوسيع مدارك الطفل ، اذ ما الفائدة التى تعود عليه اذا كانت الالفاظ مطروحةأمامه منذ البدء ؟ وما جدوى ادراكه لها ، وهى فى مستوى لغــة الكلام العادية ، التى يتخاطب بها مع من حوله ؟

تلك هى أهم القضايا التى أثارها المحرر الادبى لجــريدة التايمز . **وقد خلص فى النهاية الى ضرورة معالجة الترجمة الجديدة مرة أخرى، حتى يرتفع مستواها اللغوى والبيانى.**

والحق أن المحرر المذكور قد أفاض فىبحثه هذا ، واستند الى الترجمتين معا ، وعقد بينهما مقارنة ذكية ، **مرجحــا كفة النسخة المعتمدة القديمة .**

على أن المعركة ما تزال دائرة بين الأنصار والخصــوم . ولئن كانت ترجمة الــكتاب المقدس أمرا معقولا ومحتملا من حيث المبدأ ، فان مشروع الترجمة الانجليزية الجديدة قد نجح ، الى حد كبير ، فى توجيه اهتمام المثقفين الانجليز الى ضرورة مراجعة حصــيلتهم من التربية الدينية ، لا بهدمها والاتيان ببديل جديد ، وانما بدراستها ومحاولة الانتفــاع بكل جديد طارىء .

وحبذا لو انتفعت الكنيســة فى بلادنا العربية بما حدث فى انجلترا ، الحريصــة على تقاليدها وشــعائرها الدينية الى درجة التزمت، حتى يجد المثقفون منا انجيلامترجما ترجمة حديثة ، ببيان عربى سليم ، يفهمه القارىء غير المتبحر فى الدين .

العبقرية التى أحدثت رعشة فى الأدب المعاصر !

اسمه كاملا : « توماس ستيرنز اليوت » . لكن قراءه يعرفونه باسم : **((ت . س . اليوت))** فقط .


((ت . س . اليوت)) كما يبدو فى تمثال له ، للفنان ((دونالد هيستنجز))

وقد ولد « اليوت » فى (سانت لويس) بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨٨ . ثم هاجر الى انجلترا نهائيا فى عام ١٩١٥ . أى أنه **أمريكى المولد والنشأة، بريطانى الجنسية** . ومن الطريف حقا — لهذا السبب — أن نجد **البريطانيين والأمريكيين فى تنازع مستمر حول ((ملكية اليوت)) !** . ذلك لأن نقاد الادب الانجليزى ومؤرخيه يدرجونه ضمن أعمدة النقد والشعر

الحديث فى بلادهم ، وهذا أمر طبيعى بلا شك . لكن الغريب — فى الوقت ذاته — أن نقاد الادب الامريكى ومؤرخيه يدرجونه بدورهم ، ضمن أعمدة النقد والشعر فى بلادهم . أما القارىء — فى بلادنا وبلادهم — فله الله !.. (ولعل اليوت نفسه يجد عزاء فى سلفه العظيم « شكسبير » الذى ادعت ملكيته بلدان كثيرة !)

وقد التحق اليوت ، عقب هجرته الى انجلترا ، بأحد البنوك فى لندن . وظل يعمل موظفا به قرابة ثمانى سنوات. وتمكن فى تلك الفترة من العمل بالصحافة ، حيث شغل منصب نائب لرئيس تحرير مجلة : The Egoist لمدة عامين ، من ١٩١٧ الى ١٩١٩ . ثم أسس مجلة : criterion فى عام ١٩٢٢ ، وقد ظل يواليها بجهده ونشاطه الى أن توقفت عن الصدور فى عام ١٩٣٩ . وكان قد التحق ، فى تلك الأثناء ، بمؤسسة « فابر وفابر » للنشر ، التى قامت بنشر معظم مؤلفاته .

وقد ظهرت باكورة انتاجه الشعرى فى عام ١٩١٧ ، وتلاها بقصيدته المعروفة : ((**الأرض الخراب**)) فى عام ١٩٢٢ . أما فى النقد فقد أصدر أول أعماله النقدية فى عام ١٩٢٠ فى كتاب جعل عنوانه : ((**الغابة المقدسة**)) .. هذا ، الى جوار مسرحياته الشعرية العديدة ، مثل ((**حفلة الكوكتيل**)) وغيرها. على أن انتاج اليوت ، الشعرى والنقدى والمسرحى ، يتسم بالغزارة والعمق ، وهما صفتان أهلتاه لنيل **جائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٤٨** .

ولعل أحدا من كتاب العالم الأحياء أو شعرائه لم يؤثر فى جيله والأجيال التالية له ، مثلما أثر اليوت . بل أن أحدا منهم أيضا لم تمتد رقعة تأثيره ونفوذه ، عابرة المحيطات والصحارى ، مثلما امتدت رقعة نفوذ اليوت ، فى الشعر والنقد خاصة .

يقول « جون هيوارد » فى المقدمة التى كتبها للمختار من مقالات اليوت (طبعة بنجوين) :

« **لا أحسب أحدا من النقاد قد انكب عليه العالم المتمدين، قراءة ودراسة ، على نطاق واسع فى حياته ، مثلما هو الحال مع اليوت . وليس ذلك فى اللغة الانجليزية فحسب ، وانما فى كل لغة تقريبا ، ما عدا الروسية .** »

والحق أن هيوارد لم يخطىء التقدير . ذلك لأن اليوت يتمتع ، بين مثقفى العالم الغربى على الأقل ، بمكانة وتقدير لا يستهان بهما . وليس هو بغريب على القارىء العربى ، الذى التفت الى انتاجه فى السنوات الأخيرة . ولعل القارىء يذكر تلك المعركة التى دارت بين نقادنا فى الشهرين الأخيرين حول مذهب اليوت فى النقد ومفهومه عن الشعر .

والحق أن المجال ضيق امامنا لرسم صورة دقيقة لـ اليوت ، الشاعر ، الناقد ، المسرحى . لكننا نرجو أن نتمكن من رسم هذه الصورة تباعا فى رسائلنا القادمة .

ولا بد أن نشير بعد هذه المقدمة الموجزة الى حلقة جديدة من الدراسات التى عقدها الكتاب البريطانيون حول شاعر « الارض الخراب » . وقد تمثلت هذه الحلقة فى ثلاثة مؤلفات صدرت أخيرا ، حاملة العناوين الآتية :

• **« ت.س. اليوت » وفكرة التقاليد** (٢٢٢ صفحة) عن دار كوهن ووست . تأليف : « شين الوسى » .

• **مسرحيات « ت.س. اليوت »** (٢٤٢ صفحة) عن دار روتلدج وكيجان بول . تأليف « دافيد جونز »

• **الشاعر فى القصيدة** (١٦٧ صفحة) من مطبوعات جامعة كامبردج . تأليف « جورج . ت رايت » .

وهذه المؤلفات الثلاثة تعالج جوانب انتاج اليوت الثلاثة أيضا . ذلك لأن فكرة التقاليد تعد أساسيا فى النقد لدى اليوت .

وهو قد عالجها بدراسة نشرها عام ١٩١٩ ، بعنوان : « التقاليد والموهبة الفردية » ، لخص فيها تقديره للتراث الأدبى ، وأبان أهميته ؛ وألح فى ضرورة الانتفاع به .

وقد نفى مؤلف الكتاب الأول فكرة الجمود التى اتهم بها اليوت . أما الكتاب الثانى فيعد أول دراسة مطولة كاملة لمسرحيات اليوت فى اللغة الانجليزية . وقد أشار مؤلفه الى أن اليوت لا ينقصه الذكاء ، ودقة الملاحظة والاسلوب ، بالاضافة الى الرنين العاطفى الذى يسرى فى أعماله .

وقد حاول جورج رايت فى كتابه عن شعر اليوت أن يربطه بمنهجه ــ أى اليوت ــ فى التفكير ، وأن يتتبع مراحل نموه فى قصائده ، وأن يستخلص منها أساسا يمكن لدارسى شعره أن يهتدوا به .

حقا ! ان اليوت عبقرية أحدثت فى الأدب المعاصر رعشة لا يستهان بها .

أخبار أدبية

• **ظهرت** فى السوق الانجليزية ترجمة لرواية **الدكتور محمد كامل حسين : ((قرية ظالمة))** ، قام بها « كينيث كراج » فى ٢٥٥ صفحة ، وأصدرتها دار « هاراب » . وقد حول المترجم عنوانها الى : city of wrong

وقد علق على الترجمة المحرر الأدبى لجريدة التايمز . وناقش فكرتى المؤلف عن الظلم ؛ والخير والشر فى المجتمع . كما أشار الى قيمتها الفنية والفكرية ، مقدرا الجهد الذى بذله الدكتور كامل حسين **((كمفكر اسلامى بارز))**

وانتهى المعلق الى أن الرواية **((جديرة بالانتباه** ، فى عالم يقوم الفرد فيه ــ ربما أكثر مما كان عليه من قبل ــ بحماية نفسه خلف اطار الدولة . »

• **القومية العربية والاستعمار البريطاني** .. كتاب جديد لجون مارلو (٢٣٦ صفحة) صدر عن دار (كريست) . وقد تتبع مؤلفه السياسة العربية الراهنة ، وظهور الرئيس عبد الناصر ، وانهيار النفوذ البريطاني فى الوطن العربي .

• **صدر** عن دار « آرثر ميشركوت » كتاب جديد لبرنارد شو بعنوان : ((**كيف تصبح ناقدا للموسيقى**)) . وهو مجموعة من كتابات فى الموسيقى نشرها المسرحى الراحل متفرقة ، وظلت كذلك الى أن جمعها « دان هـ . لورنس » وأعدها أخيرا للطبع .

ومن رأى شو أن ناقد الموسيقى يجب أن يتمتع بثلاثة مؤهلات ـ الى جوار المؤهل العام الذى ينحصر فى الحس الموسيقى الممتاز ومعرفة العالم ـ هى الذوق الموسيقى القائم على الثقافة، وموهبة الكتابة، وممارسة النقد فترة طويلة . كما يجب أن يكون ذا ذاكرة قوية وخبرة طويلة أيضا .

• **ظهر** للشاعر الانجليزى « م . ل روزنتال » كتاب بعنوان « الشعراء المعاصرون » (٢٨٨ صفحة) من مطبوعات أوكسفورد . وقد قصد به ازالة الفواصل بين الشعر والقارىء العادى ، مقدما ـ فى الوقت ذاته ـ للشعر الحديث، الذى يعالج فى رأيه « أعماق النفس المجهولة » .

وبالكتاب مقالات عن الشعراء الانجليز والامريكيين من أمثال : وليم ييتس ، ازرا باوند ، اليوت ، روبرت فروست، ماريان مور . كذلك به فصل عن د . هـ لورنس ، وأودن ، وغيرهما من شعراء الأربعينيات من هذا القرن . **غير أن المؤلف اعتبر لورنس مصلحا اجتماعيا** ، ولم يعترف بشاعريته ، أو موهبته الشعرية !

• **يظهر** قريبا كتاب لأندريه ديتش بعنوان : ((**أوراق من يوميات**)) ، وهو يتضمن وصفا ـ من واقع يوميات الملكة

فيكتوريا ـ لزيارة نابليون الثالث والامبراطورة أوجيني لانجلترا في ربيع عام ١٨٥٥ ، كذلك زيارة الملكة فيكتوريا لباريس بعد ذلك بشهور . والكتاب مذيل بالصور والرسوم، ومنها رسم للامبراطورة الفرنسية بريشة الملكة فيكتوريا .

رسالة نيويورك

يقدمها : علي شلش

((برخت)) ورسالة المسرح



((برتولت برخت))
(صورة التقطت عام ١٩٤٢)

أصدرت دار (جروف) الأمريكية مجلدا ضخما ، في ٥٨٧ صفحة ، يضم مجموعة قيمة من مسرحيات الكاتب الالماني المعروف ((برتولت برخت)) ـ (١٨٩٨ ـ ١٩٥٦) ـ عددها سبع مسرحيات ، من أروع أعماله المسرحية وأبرزها .

لكن ، من هو ((برخت)) ؟

.. الحق أنه اسم مجهول في أذهان الكثرة من قرائنا ورواد مسارحنا ، بينما هو ـ في الخارج ـ علم من أعلام المسرح المعاصر . **فقد اهتم به النقاد والدارسون ، وقارنوه بشكسبير وجوته وشيلر** ، وقدرته باريس (راجع ما كتبه الدكتور أنور لوقا في العدد الماضي) ولندن وموسكو

ونيويورك ، وترجمت أعماله الى مختلف اللغات ، كما مثلت مسرحيته « أوبرا البنسات الثلاثة » فى نيويورك زهاء خمس سنوات ، وبلغ عدد مرات تمثيلها نحو ٢٢٤٨ مرة !

وقد ولد « برخت » فى عام ١٨٩٨ بمدينة (أوزبورج) البافارية ، من أب ثرى كان يمتلك مصنعا للورق . وحين شب ، خدم فى الحرب العالمية الاولى ـ حيث التحق بقسم الخدمات الطبية ـ **فلما انتهت الحرب، تعرض برخت لفترة قلقة من حياته ، جعلته يدور فى حلقة واحدة قوامها الصعلكة والتشرد ، اذ حمل ((جيتارا)) وراح يعزف عليه مقطوعات من شعره فى الطرقات !**



مشهد من مسرحية ((برخت)) المشهورة ((اوبرا البنسات الثلاثة)) عند تمثيلها على مسارح نيويورك

وما أن تولى هتلر الحكم ـ وكان برخت فى الخامسة والثلاثين ـ حتى بدأت فترة جديدة من حياته ، أدت به الى صعلكة من نوع آخر : اذ اضطهده هتلر ، وحاربته السلطات النازية ، فلم يجد مفرا من الهرب الى الخارج ، وهو أشد ما يكون حقدا على النازية وأساليبها .

وتنقل بين بلدان أوربا ، كالدنمارك والسويد وفنلندا ، ثم شد رحاله الى الولايات المتحدة ، حيث قضى هناك سبعة اعوام. لكنه لم يسلم خلالها أيضا من الاضطهاد، اذ طاردته لجنة النشاط المعادى لأمريكا : **فاضطر الى التسلل خلسة ، ميمما وجهه شطر ألمانيا الشرقية ، حيث قضى البقية الباقية من عمره ، الى أن توفى فى عام ١٩٥٦** . وكان قد كون فرقة مسرحية أطلق عليها اسم « الفرقة البرلينية » ، شاركته فيها زوجته الممثلة القديرة « هيلين فيجيل » . (وما تزال هذه الفرقة موجودة الى اليوم ، تعرض روائع « برخت » على مسارح باريس وأوربا عامة .)

ولبرخت فى الشعر قدم راسخة أصيلة . ذلك لأنه اهتم بالشعر قبل أن يهتم بالمسرح والدراما ، وطاوعته موهبته المتدفقة ، فسجل فى الشعر مكانة ممتازة . واليك سطورا من قصيدة صور فيها عذابه وقلقه :

أنا ، برتولت برخت ، من الغابات السود
حملتنى أمى ،
وها أنذا ارقد داخل المدن ،
كما رقدت فى رحمها .
ان برودة الغابات ،
ستظل بداخلى ، الى يوم مماتى .

ومرة ثانية نتساءل : **لماذا يهتم النقاد والنظارة ببرخت ؟** .. الأنه ناصر الضعفاء والمغبونين فى المجتمع ؟ أم لأنه جذب

الانظار اليه بقوة بيانه وذكاء أسلوبه ولمساته ؟ .. يخيل لى أن لا هذا ولا ذاك فقط. ذلك لأن برخت لم يكن كاتبا عاديا ، يجلس الى الورق والقلم ، وفى رأسه موضوع جاهز معد ، فيخرج فى النهاية بمسرحية أو قصيدة . وانما كان برخت انسانا يعيش فى عالمه بكل ذرة فى كيانه وعقله . ومن ثم شكل عالمه المسرحى وفق تفكيره هو ونظرته للأمور ، ولم يكن هذا التشكيل رياضيا ، بمعنى جمع الآحاد الى الآحاد مثلا ، وانما قام تشكيله على الموازنة بين النسب ، حتى يخرج الشكل فى النهاية متفاعلا ، ذا دلالة واضحة هادفة .

فمن رأى برخت أن الناس خيرون بفطرتهم ، وأن الانسانية رائدتهم ، وأن الطبيعة لا تشكلهم بقدر ما تشكلهم العلاقات الاجتماعية. وهم أنفسهم ضحايا للبيئة ، وليس من الضرورى أن يظل الشرير شريرا أسود القلب ، فالانسانية لها الغلبة على الافكار والمعتقدات فى النهاية .

تلك هى الخطوط الاساسية للفلسفة التى قام عليها مسرح برخت. ومنها نرى **أن المسرح لديه ليس أداة للمتعة ، وانما هو رسالة ضخمة ، يؤديها الكاتب من أجل خير البشر.** وعليه بالتالى أن يوجه ، أن ينفع ، أن يرشد الناس الى ما فيه خيرهم فى النهاية ، وأن يثيرهم ضد الشرور والمساوىء التى تفرضها عليهم طبيعة العلاقات الاجتماعية .

ففى أول مسرحية بالمجموعة التى صدرت حديثا فى نيويورك ، وعنوانها : **المستنقع** (١٩٢٣) ، نجده ينتهى بالقاء اللوم على البيئة ، التى يعتبرها مستنقع المدنية الحديثة.

وفى مسرحية « **جان دارك فى الاسطبل** » (١٩٢٩) يعرفنا برخت بتاجر لحوم من شيكاغو يدعى « بيير بونت مولر » ، وهو رجل فظ ، ميت القلب ، يعامل عماله بخشونة وقسوة لا مزيد عليهما . ويحدث أن يخطىء أحد عماله فى تشغيل

ماكينة « فرم » اللحوم ، فيأمر الرجل الفظ بالقائه فيها ، كى تفرمه ضمن ما تفرم من لحوم ! .. وتظهر جان دارك ، فتحاول أن تستعطف مولر لينقذ العامل المسكين ، لكنه لا يأبه بهـا ، بل يحـاول أن يثير فيها الحقـد على العمـال وحماقاتهم .

وعبثا تحاول جان دارك تهدئته . وفى النهـاية تضرب عن الطعام ، وتضعف قواها ، حتى توشـك على الموت . لكنها تعلن، قبل أن تلفظ آخر أنفاسها ، أن العنف ــ فحسب ــ هو الذى سوف يصلح حال العالم ! .. ثم يظهر « كورس » من لابسى القبعـات القش السـوداء ومعبئى اللحم ، ويرددون كلماتها الاخيرة ، الى أن تستشهد !

وفى ((**الأم شجاعة**)) (١٩٣٩) ــ وهى من أحسن أعماله ، ان لم تكن أروعها قاطبة ــ يعرض برخت صـورة للجهـاد الانسـانى ، المتمثـل فى الصراع بين انحطاط النفـوس وشجاعتها . لكنه يجعل الانحطاط ينتصر فى النهـاية ، ثم تظهر بطلة المسرحية على المسرح ، داعية الناس الى الجهـاد وعدم اليأس !

واذا انتقلنا الى مسرحية ((**جاليليو**)) (١٩٣٨) فاننا نجد نموذجا غريبا للفلكى الايطالى ، **اذ صـوره برخت انتهازيا ، حسيا ، شرها . ومن ثم فهو قـد دفع ثمنا غاليـا من أجل البقاء .**

ومن الطريف ان برخت اختار الممثل المعروف « تشارلز لوتون » ، ليقوم بدور جاليليو فى نيويورك عام ١٩٤٧ . وكان برخت قد شـاهده فى مسرحية هنرى الرابع لشـكسبير ، فأعجب بطريقته فى التهام الدجاج !

وقد صدرت هذه المجموعة الامريـكية لمسرحيات برخت بمقدمة للنـاقد المسرحى المعروف « اريك بنتلى » ــ الذى


الممثل العالمى «تشارلس لوتون» فى دور « جاليليو » كما مثله على مسارح نيويورك عام ١٩٤٧

ترجم لبرخت مسرحياته الى الانجليزية ، وكان على رأس النقاد المتحمسين له ـ وقد كتب بنتلى مقدمته باسهاب، شارحا ومحللا طريقة برخت فى معالجة الدراما .

والواقع، أخيرا ، أن برخت جدير باهتمامنا ، خاصة فى هذه الفترة التى نبحث فيها عن أشكال جديدة لمعالجة المسرحية . ويكفى انه نسيج وحده بين كتاب المسرح فى العالم .

عندما يؤلف الممثل !

الذين يعرفون الممثل الكبير **«سير سيدريك هاردويك»** ، قد يجهلون عنه موهبة التأليف ـ أو بالاحرى الاملاء ـ التى ظهرت عنده أخيرا ، واثمرت كتابا بعنوان : « فيكتورى فى الميزان » .. وهو عبارة عن ذكريات أملاها الممثل القدير على جيمس برو ، الذى أعدها فى النهاية للنشر فى ٣١١ صفحة ، وأصدرتها دار « دبلداى » .

وقد ولد سير سيدريك فى عام ١٨٩٣ ، وكان أبوه طبيبا ، لكنه هوى التمثيل فى صباه ، ودرسه بلندن قبل الحرب الاولى ، ثم احترفه فى المسرح والسينما والتلفزيون . ومن

رأيه أن الممثل يجب أن يكون أنانيا ، على أن ينأى بنفسه عن الغرور !

ومن بين ذكرياته الطريفة ذلك اليوم الذى فاجأه فيه **الملك جورج الخامس** فى عام ١٩٣٤ ، بسيف ذهبى وضعه على كتف الممثل، ثم صاح فيه قائلا : «سير صامويل بكويك!» (إشارة الى شخصية بكويك المعروفة التى صورها شارلز ديكنز)

كما يحكى أيضا قصة صداقته **لبرنارد شو** ، وكيف أن الأخير قال له ذات يوم : « انك خامس ممثل من المفضلين لدى ، أما الأربعة الاولون فهم اخوان ماركس ! »

أخبار أدبية

◆ **صدرت** عن دار (نوف) رواية جديدة بعنوان «الكوخ» ، (٤٠٢ صفحة) للكاتب الصحفى « ويليام ماكسويل » الذى رأس تحرير صحيفة « النيويوركر » فى الخمسة والعشرين عاما الماضية . وهو يتابع فى روايته هذه الرسالة التى بدأها الروائى المعروف « جيمس جويس » ، أى دراسة الشعب الأمريكى ، وعلاقته بحضارة العالم القديم .

◆ **صدر** عن دار دبلداى ترجمة لحياة الرسام الايطالى **«مايكل انجلو»** فى٦٤٤ صفحة ، بعنوان : «الألم والذهول » . ومؤلفها الروائى المؤرخ « ارفنج ستون » ، الذى لخص « كتابى » له فى العدد الماضى ترجمته لحياة « لنكولن » .

وقد قضى المؤلف أربع سنوات فى اعداد هذه الترجمة ، وجعلها مسحا تاريخيا لعصر النهضة : وقد أصدر من قبل ترجمة لحياة الفنان « فان جوخ » ، بالاضافة الي مؤلفاته الأخرى التى تبلغ ١٣ كتابا .

• **منحت** دور النشر الأمريكية جوائز قيمتها ألف دولار لثلاثة من الكتاب والشعراء تشجيعا لهم . وقد فاز بها :

١ ــ الروائى ((**كونراد ريختر**)) (٧٠ سنة) على روايته العاشرة : ((مياه كرونوس)) .

٢ ــ الصحفى ((**وليام شيرر**)) (٥٧ سنة) على كتابه : ((نشأة الرايخ الثالث وسقوطه))

٣ ــ الشاعر ((**راندال جاريل**)) (٤٦ سنة) على ديوانه الثامن : ((المرأة التى بجوار حديقة واشنطن للحيوانات))

وقد أطلق على الجائزة اسم : جائزة الكتاب القومى .

• **لقيت** رواية ((السماء لا أحباء لها)) (٣٠٢ صفحة) ، التى صدرت عن دار (هاركوت) ، نجاحا كبيرا فى الاوساط الأدبية الأمريكية . ومؤلفها هو الكاتب الالمانى الاصل ((**أريك ماريا ريمارك**)) (٦٢ سنة) ، الذى يعيش فى سويسرا مع زوجته الممثلة ((بوليت جودار)) .

وهذه هى الرواية التاسعة له بعد روايته الاولى المشهورة : ((**كل شىء هادىء فى الميدان الغربى**))

من الكتب العربية

نشوء الفكرة القومية

تلخيص : زكى شنودة المحامى

فى العدد الماضى ، لخصنا لك الجزء الاول من هذا الكتاب الممتع ، الذى يضم مجموعة محاضرات الفيلسوف العربى المعاصر ((ساطع الحصرى)) عن الفكرة القومية ، وقد تحدث فيه عن نشوئها وتطورها فى ألمانيا . وفى هذا الجزء الثانى والأخير من الكتاب ، يتحدث الباحث الكبير عن نشوء الفكرة القومية فى بلاد البلقان ، وتركيا ، والبلاد العربية :

نشوء الفكرة القومية فى البلقان

كانت البلاد البلقانية ، فى أوائل القرن التاسع عشر، تابعة برمتها الى السلطنة العثمانية ، مع انها كانت موطنا لشعوب وقوميات عديدة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا . فقد كان هناك اليونان ، والبلغار ، والصرب ، والألبان ، والبوشناق ، والبوماق ، والافلاق ، والأتراك . **وكان لكل واحد من هذه الشعوب البلقانية لغة خاصة به وتاريخ مستقل عن تاريخ غيره .**

ولكن منذ أوائل القرن التاسع عشر أخذت قوة الدولة العثمانية تضعف وتنحط بسرعة كبيرة ، كما أخذ الوعى القومى يسرى فى نفوس الشعوب البلقانية شيئا فشيئا ، فكان من الطبيعى أن تبدأ بعض الحركات الاستقلالية فى مختلف أقسام البلقان ، **وقد أدت الحركات والثورات القومية آخر الأمر الى تكوين خمس دول قومية ، هى : اليونان ، ورومانيا ، ويوغوسلافيا ، وبلغاريا ، والبانيا .**

وقد نشأت الفكرة القومية عند كل واحد من هذه الشعوب وسارت بطرق خاصة بها تختلف عن التى نشأت وسارت عليها عند سواها .

قصة استقلال اليونان

١ ــ **وقد** كانت الأمة اليونانية اولى الأمم البلقانية التى استفاقت من سباتها ، وشعرت بقوميتها ، وثارت على السلطنة ، ونالت استقلالها . وذلك لأنها حافظت على لغتها وتقاليدها الأصلية ، كما أنها ظلت تتمتع بنوع من الكيان القومى بفضل تشكيلات الكنيسة الأرثوذكسية ، التى كان لها السلطان الدينى على كل بلاد البلقان . وقد ظلت الأمة اليونانية ، بفضل سلطة هذه الكنيسة وجهودها ، محافظة

على تماسكها وتساندها ، ومتمسكة بلغتها وتقاليدها ، ومدركة لقوميتها ، وبتعبير آخر ، مستجمعة لجميع « مقومات امة ذات كيان متميز خاص » . كما أن جميع المتنورين فى مختلف انحاء أوروبا كانوا ينشأون على حب الأدب اليوناني القديم وتمجيد تاريخ اليونان : **فكان من الطبيعي أن يعطف هؤلاء المتنورون على أحفاد اليونانيين القدماء ، وأن يقولوا بوجوب مساعدتهم على نيل الاستقلال**. فلما قامت الثورة فى اليونان خلال العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، تضافرت كل هذه العوامل على مساندتها . وقد بدأت الثورة فى شبه جزيرة موره . فلما بادرت السلطنة العثمانية الى اخمادها ، اجتمعت أساطيل الدول الأوروبية وهجمت على الأسطول العثمانى الراسي فى خليج (**نافارين**) ، فأبادته تماما . **وقد كانت هذه الواقعة ــ كما يقول بعض المؤرخين ــ نقطة تحول فى السياسة العالمية بوجه عام ، لأنها كانت أول تأييد فعلى اجماعي لمبدأ القوميات** ، وأول عمل ايجابي فى سبيل اعادة النظر فى بناء الدول وفقا لمقتضيات ذلك المبدأ . وقد استمرت حروب الموره ، حتى أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية ، واضطرتها آخر الأمر الى توقيع معاهدة

(ادرنة) سنة ١٨٢٩ ، وقد كان اعتراف السلطنة العثمانية باستقلال الدولة اليونانية من جملة شروط هذه المعاهدة . الا أن حدود الدولة اليونانية طبقا لهذه المعاهدة كانت بعيدة عن الانطباق على حدود القومية اليونانية ، لأنها لم تكن تتجاوز حدود شبه جزيرة موره ، مع مقاطعة أتيكيا ، فلم تكن تشمل تساليا ، ولا أبير ، ولا مكدونيا ، ولا شيئا من جزر ايجه . وكذلك فان « فكرة استقلال جميع اليونانيين تحت ظل دولة تشمل جميع البلاد اليونانية » ، أو كما كان اليونانيون يسمونها « الفكرة العظمي » ، ظلت هي حلم

الساسة اليونانيين وهدف جهودهم عشرات متوالية من السنين . وقد دأبوا لتحقيقها على انشاء المدارس ونشر الثقافة اليونانية ، وتأليف الجمعيات التى تؤدى الى تماسك أفراد الطوائف اليونانية ، وتكوين الجمعيات السرية لتهيئة وسائل الاستقلال ، وتأليف العصابات وشن الثورات المسلحة لاجبار الحكومة على تلبية المطالب القومية ، والقيام بدعايات واسعة النطاق فى البلاد الاوروبية لكسب عطف الشعوب والحكومات على القومية اليونانية . **وقد ضمنت هذه الجهود المتنوعة للأمة اليونانية الاستقلال شيئا فشيئا :** فانضمت اليها جزيرة كورفو سنة ١٨٦٣، ثم مقاطعة تساليا سنة ١٨٧٩ ، ثم القسم الاعظم من المقاطعات المعروفة باسم «أبير ومكدونيا وتراكيا» مع جزيرة كريت بعد الحرب البلقانية سنة ١٩١٣. واخيرا انضمت الجزر الايجية المعروفة باسم الدوديكانيز الى الدولة اليونانية بقرار من الدول المتحالفة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ونلاحظ من كل ذلك أن الفكرة القومية عند اليونان نشأت وترعرعت بسهولة وسرعة ، لتضافر العوامل المساعدة لها . واما المشاكل التى اعترضت سبيل تحقيق هذه الفكرة ، فكانت كلها سياسية وعسكرية .

استقلال بلغاريا

٢ ـ **أما** الأمة البلغارية فكانت تختلف أحوالها عن أحوال الأمة اليونانية اختلافا كليا ، لأن البلغار كانوا قد فقدوا كثيرا من مقومات الأمة ، لانهم كانوا محرومين من تاريخ مشهور ، ومن لغة أدبية راقية ، كما كانوا محرومين من كنيسة قومية تساعد على حفظ كيانهم القومي وتحمي لغتهم الخاصة . بل كانوا على العكس من ذلك خاضعين لكنيسة أجنبية عنهم ـ هى بطريركية الفنار اليونانية ـ التى كانت تهمل لغتهم

اهمالا كليا ، وتعارض قوميتهم معارضة شديدة . فكانت لا تعترف الا باللغة اليونانية ، وتعتبرها لغة الكنيسة ، ولا تقبل فى سلكها من لا يجيد هذه اللغة . ومن ثم كان التعليم فى المدراس كذلك باللغة اليونانية . **ولذلك فقد كان البلغار فى الواقع خاضعين لسلطتين أجنبيتين ، هما الدولة العثمانية ، والكنيسة اليونانية .** فكان على البلغار أن يتحرروا أولا من سيطرة الكنيسة اليونانية ليثبتوا كيانهم القومى ، ثم يتحرروا من سيطرة الدولة العثمانية ، ليكتسبوا كيانا سياسيا أيضا . ومن ثم بدأت الفكرة القومية بين البلغار أول ما بدأت بجهود تحوم حول « اللغة البلغارية » ! اذ قام سنة ١٨٣٥ رجل اسمه «تنوفيت ريلسكى» فأسس مدرسة يعلم فيها باللغة البلغارية ، وألف أول كتاب فى الصرف البلغارى ، كما أنه ترجم الكتاب المقدس الى اللغة البلغارية ، وعكفت جماعة أخرى على البحث فى تاريخ البلغار القديم . ولكن الكنيسة ظلت متمسكة باللغة اليونانية ، ومن ثم بدأ صراع عنيف بين زعماء القومية وبين رؤساء الدين . وقد رأى زعماء الوطنية البلغارية العمل على تكوين كنيسة جديدة مستقلة عن الكنيسة اليونانية ، تقيم طقوسها باللغة البلغارية . وفعلا تم ذلك فى سنة ١٨٧٠ ، **ومنذ ذلك التاريخ انضمت الكنيسة الى العاملين فى سبيل نشر الفكرة القومية بين الشعب . ومن ثم تم للبلغار استقلالهم الثقافى ، وتطلعوا بعد ذلك الى الاستقلال السياسى ، فثاروا على الدولة العثمانية** : واستمرت ثورتهم زمنا طويلا بذلوا فى اثنائه كثيرا من التضحيات . وكانت **روسيا تساندهم ، حتى أعلنت** الحرب أخيرا على السلطنة العثمانية سنة ١٨٧٨ ، وانتصرت عليها وارغمتها على توقيع معاهدة « آياستفانوس » التى اعترفت فيها باستقلال بلغاريا .

استقلال رومانيا

٣ ــ **وقد** كانت الاوضاع القومية فى (رومانيا) تشبه الاوضاع القومية فى بلغاريا ، من وجوه عديدة : فان الشعب الرومانى ، مثل الشعب البلغارى ، كان خاضعا لسيطرتين اجنبيتين : سيطرة السلطنة العثمانية من الوجهة السياسية ، وسيطرة بطريركية الفنار اليونانية من الوجهة الدينية والثقافية . ولذلك فعندما بدأت فكرة القومية الرومانية تدب فى نفوس المفكرين ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، شعر هؤلاء بضرورة التخلص من السيطرة اليونانية ، **ومن ثم بدأت الحركة القومية فى رومانيا بجهود للنهوض باللغة الرومانية ، ثم بابحاث فى تاريخ الأمة الرومانية.** ولم يستمر النضال بين اليونانية والرومانية مدة طويلة ، لأن رومانيا اكتسبت كيانا سياسيا قبل بلغاريا بمدة طويلة تبلغ نصف القرن ، نظرا لوضعها الجغرافى والتاريخى ، فقد استقلت عقب الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٨، وان كانت بعض القبائل الرومانية ظلت خارج حدود هذه الدولة ، وقد بذلت الجهود المتواصلة لضمها ، حتى كللت هذه الجهود بالنجاح بعد الحرب العالمية الاولى .

استقلال يوغوسلافيا

٤ ــ **وقد** كان نشوء الفكرة القومية فى يوغوسلافيا أكثر تعقيدا من كل ما سبق ، لان القومية اليوغوسلافية كانت أشد تركيبا من القوميات اليونانية والبلغارية والرومانية ، اذ أن الدولة اليوغوسلافية الحالية ضمت داخل حدودها عدة شعوب كانت تعرف باسم الصرب والكروات والسلوفن والبوشناق . وكان أهل الصرب ، فى بداية القرن التاسع عشر ، تابعين للسلطنة العثمانية ، فى حين أن الكروات

والسلوفن كانوا تابعين للامبراطورية النمساوية ، وا البوشناق ، فكانوا تابعين للسلطنة العثمانية حتى سـ ١٨٧٨ ، ولكنهم انتقلوا الى الدولة النمساوية بعد ذا بموجب معاهدة برلين ، فنشأت هذه الشعوب — لهـ الاسباب — تحت ظروف سياسية وادارية وحضارية يختلف بعضها عن بعض اختلافا كليا . **وقد بدأت الفكرة القومية تظهر بين الصرب منذ اوائل العقد الثاني من القرن التا عشر ، وذلك على شكل جهود تبذل في سبيل انهاض اللغ القومية من جهة ، واحياء التاريخ القومي من جهة اخرى** وقد جمع المفكرون كلمات اللغة الصربية في قاموس محيط وترجموا الكتاب المقدس اليها ، وألفوا بها كتبا أدبية وعلميا كما عكفوا على نشر أبحاث تاريخية قومية ، تثير في نفوس الناشئة شعور الاعتزاز بمآثر الاجداد . وقد نشرت هـ الجهود المتنوعة بين الناس فكرة القومية الصربية ، ودفعته الى القيام بثورات استقلالية ، مما ساعد على تكوين الدو الصربية ، في المقاطعات الشمالية التي تقطنها جماعات كثيف من الصرب ، وبقيت جماعات كبيرة منهم ، خارج حدود هذ الدولة ، حتى ضم جزء كبير منها الى الدولة الصربية عقب حرب سنة ١٩١٣ ، ثم عمل زعماء القومية الصربية على ضـ الكروات والسلوفن والبوشناق التي كانوا يعتبرونها مر صميم الشعب الصربي ، حتى تم لهم ذلك بعد الحرب العظمى الاولى ، مع ضم البوسنة والهرسك والجبل الاسود كذلك باسم « الدولة الصربية الكرواتية السلوفنية » .. ثم ما لبث أن تحول هذا الاسم الى « يوغوسلافيا » .

استقلال البانيا

٥ — **أما** الألبان فكانوا أصغر شعوب البلقان ، وقد دخلوا تحت حكم السلطنة العثمانية في أواسط القرن الخامس

عشر ، وبقوا تحت هذا الحكم حتى انتهاء حرب البلقان سنة ١٩١٣ . وكانوا يتكلمون بلغة خاصة بهم ، وقد اعتنق أغلبهم الدين الاسلامى ، وشغلو مناصب فى السلطنة العثمانية ، غير أنه نظرا لبعد البانيا عن عاصمة السلطنة ، فانها تأثرت تأثيرا شديدا بالحركات القومية والثورات الانفصالية التى قامت فى البلاد البلقانية ، **وبدأت الفكرة القومية تعمل عملها اولا بتوجيه العناية الى اللغة القومية** ، لان التعليم كان يجرى باللغة التركية واللغات الاوروبية ، ونظرا لان اللغة الالبانية لم تكن لغة مكتوبة — وانما لغة كلام فقط — فقد بدأوا يدونونها ، حتى نشبت الحرب سنة ١٩١٣ بين السلطنة العثمانية وبين الدول البلقانية المتفقة ، وانتهت باندحار الجيوش العثمانية وانسحابها من شبه جزيرة البلقان ، ومن ثم الى خروج تلك البلاد من الحكم العثمانى بصورة نهائية . وهكذا استقلت البانيا وأخذت تعزز قوميتها بكل ما لديها من قوة .

وهكذا تكونت فى شبه جزيرة البلقان خمس دول مستقلة ، مؤسسة على أسس قومية . **وقد بدأت الحركات القومية فيها جميعا بالاهتمام باللغة القومية وبالتاريخ القومى .**

نشوء القومية عند الاتراك

والاتراك من الاقوام الكبيرة ، المنتشرة على مساحة واسعة من الارض : فالفرع الغربى منهم يقطن آسيا الصغرى المعروفة باسم (الأناضول) ، فى حين أن الفرع الشرقى منهم يقطن (كاشغر) المعروفة باسم (التركستان الصينية) . وقد أسس الاتراك دولا عديدة فى مختلف أقسام آسيا ، فى مختلف أدوار التاريخ ، وبعض هذه الدول حكم أقساما كبيرة من قارة أوروبا أيضا . غير أن هذه الدول كلها كانت قد انقرضت قبل أواسط القرن التاسع عشر ، باستثناء واحدة

منها ، هى الدولة العثمانية ، التى حافظت على استقلالها ، بالرغم من زوال شوكتها . والعنصر التركى أصبح خلال القرن التاسع عشر من الأمم المحكومة فى كل مكان ، باستثناء أراضى السلطنة العثمانية ، التى لم يكن فيها مستقلا فحسب ، بل كان حاكما أيضا .

ونشوء الفكرة القومية عند الاتراك العثمانيين يعطينا نموذجا خاصا يختلف عن سائر النماذج اختلافا كبيرا ، لانهم كانوا مستقلين ومتحدين ، قبل أن تدب فى نفوسهم فكرة القومية التركية . وكان الاتراك العثمانيون يدينون بالاسلام ، ويسعون لتوسيع دائرته ، وكانوا يعبرون عن « القومية » بكلمة « الملة » ، ويقولون على الدوام « الدين والملة شيء واحد » . وكان الاتراك العثمانيون ــ حكومة وشعبا ــ مرتبطين بفكرة « الوطنية العثمانية الاسلامية » ارتباطا شديدا ، وبعيدين عن الشعور بالقومية التركية بعدا كبيرا . **الا انه منذ أوائل القرن العشرين ، بدأت فكرة « القومية التركية » تعمل عملها فى النفوس ، وقد انتصرت بقيام « الدولة التركية الفتية » ، مقام السلطنة العثمانية المحتضرة .**

وقد بدأت الفكرة القومية عند الاتراك العثمانيين كحركة لغوية أدبية ، ثم صارت تظهر فى الأبحاث التاريخية ، وبعد ذلك انتقلت الى ميادين الحكم والسياسة . وقد أخذت الجمهورية التركية الجديدة على عاتقها اتمام صبغ الشعب والحكومة بالصبغة التركية ، وتحقيق كل ماتقتضيه فكرة القومية التركية . وأزالت بذلك جميع النظم الباقية من عهد « الدولة العثمانية الاسلامية » التى كانت سائدة .

وكان أول أثر للفكرة القوميةالتركية يتناول اللغة والأدب ، اذ بدأت بالاعتراض على نسبة اللغة والأدب الى العثمانية ،

وبالدعوة الى الكف عن اقتباس الكلمات من المعاجم اللغوية والدواوين الشعرية العربية والفارسية . ويقول فى ذلك الشاعر ضيا باشا « نحن اتراك ، فينبغى أن يكون لنا لغة تركية » . وقد شجع الغازى مصطفى كمال هذا الاتجاه . كما ان التطورات التى حدثت فى اللغه بسبب انتشار فكرة القومية التركية اثرت فى الشعر ايضا ، فتحرر من أوزان العروض المأخوذة عن الشعر العربى . كما ظهرت نفس النزعة فى الأبحاث التاريخية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، فراح المؤلفون يكتبون عن تاريخ الاتراك « السابق للاسلام ، والمستقل عن الاسلام » . وقد بدأ تيار قوى يدعو الى اعادة النظر فى التاريخ المدون ، اذ قالوا ان « التاريخ العثمانى كتب بنظرات دينية ، وهذه النظرات الدينية حالت دون تقدير الوقائع على وجهها الصحيح » . حتى اذا تقرر آخر الأمر الغاء الخلافة الاسلامية ، أصبحت الدولة بذلك تركية بكل معنى الكلمة . وهكذا أتمت الفكرة القومية نشوءها عند الاتراك العثمانيين ، وأوجدت دولة تركية بحتة : تركية فى اسمها ، وفى سياستها ، وفى لغتها ، وفى مختلف فروع نشاطها . وقد وصلت فكرة القومية عند الاتراك العثمانيين الى غاية مبتغاها ، بخلق وتكوين الجمهورية التركية الحديثة ، وجعلها متقدمة ، وقوية ، ومرهوبة الجانب .

نشوء القومية فى البلاد العربية

فى أوائل القرن التاسع عشر ــ عندما بدأت « الفكرة القومية » تلعب دورا هاما فى السياسة الاوروبية ــ كانت البلاد العربية داخلة فى حوزة السلطنة العثمانية منذ قرون عديدة ، (وذلك باستثناء المغرب الأقصى من جهة ، وحضرموت مع قلب الجزيرة العربية من جهة أخرى) . وكانت البلاد العربية بوجه عام خاضعة فى استسلام للسلطنة العثمانية

باعتبارها دولة اسلامية تدافع عن الاسلام . حتى حدث في النصف الاول من القرن التاسع عشر في البلاد الاسلامية حادثان خطيران زعزعا الاوضاع القائمة في السلطنة العثمانية زعزعة شديدة ؛ وهما ثورة الوهابيين في نجد ، وثورة محمد علي في مصر . الا ان الثورة الوهابية كانت حركة دينية، فلم تؤثر في نشوء الفكرة القومية . وكذلك لم تستمد ثوره محمد علي قوتها من نزعة قومية . وأما نشوء فكرة القوميةالعربية بمعناها التام ، فقد بدأ في البلاد العربية الاخرى التي كانت باقية تحت الحكم العثماني المباشر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

فقد كان المسلمون التابعون للدولة العثمانية يعتبرون التاريخ العثماني تتمة للتاريخ الاسلامي العام . ولذلك فلم تكن لديهم فكرة عن « تاريخ الأمة العربية » .. حتى اذا بدأ بعض المفكرين يشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين ، **ظهرت فكرة ان الخلافة الاسلامية من حق العرب ، فيجب أن تعود الى العرب . ثم أخذ بعض المتنورين كذلك يفكرون في القومية العربية تفكيرا مستقلا عن الاعتبارات الدينية** ، فقام بعضهم يصفون سوء احوال البلاد ، من جراء فساد الحكم ، ويقولون بوجوب مطالبة الدولة باصلاحات جدية في البلاد العربية ، وراح البعض الآخر ينظرون الى الامور بنظرات قومية أكثر وضوحا واشد صراحة ، فأخذوا يقارنون بين الولايات العربية وبين سائر الولايات العثمانية، ويخرجون من هذه المقارنات بأن حقوق العرب مهضومة في السلطنة العثمانية ، ووجوب ازالة الغبن اللاحق بالعرب .

القومية العربية دعوة مجردة عن الاعتبارات الدينية

أما العرب المسيحيون فقد توصلوا خلال دراساتهم الى ان « الأمة العربية من أعظم الأمم في التاريخ . وقد كانت لها

حضارة قبل الاسلام ، وصارت لها حضـارة أرقى من ذلك بكثير بعد الاسلام ، **والمسيحيون ساهموا فى بناء الحضـارة العربية قبل الاسلام وبعد الاسلام . وهذه الحضارة لم تكن دينية بحتة ، كما يتوهم البعض ، بل ان لها كثيرا من العناصر والمظاهر التى لاتمت الى الدين باية صلة** . ومما يبرهن على ذلك أن الاوروبيين اقتبسوا منها أشياء كثيرة وكثيرة جدا . ولذلك كله ، يجب على العـرب المسيحيين أن يفتخـروا بالتـاريخ العربى ، وبالحضـارة العربية ، شـأنهم شـأن المسلمين » . وكانت هذه هى البذور الاولى لفكرة « القومية العربية » المتجردة من الاعتبارات الدينية .

ومن هنا ، ظهرت الدعوة الى اقامة خلافة عربية بأجلى مظاهرها فى كتاب « أم القرى » لعبدالرحمن الكواكبى ، وقد صدر باللغة العربية فى مصر سنة ١٣١٦ هجرية . كماظهرت الدعوة الى انشاء دولة عربية مستقلة بوضوح تام فى كتاب « يقظة الأمة العربية » لنجيب عازوزى وقد صدر فى باريس باللغة الفرنسية سنة ١٩٠٥ ميلادية .

.. حتى اذا بدأت « الحياة النيـابية الدسـتورية » فى السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، بدأت القومية العربية تأخذ شكلا واضحا ، سيما وأن الانتخاب والترشيح كانا مباحين للجميع ، ومن ثم أصبح للنواب العرب رأى مسموع . وقد أدى سير الحوادث بمعظم ساسة الأتراك لأن يقولوا بوجوب جعل السلطنة « تركية عربية » . ولكن نظرا لموقف الحكومة العثمانية المجافى لمصالح العرب ، رأت بعض الجمـاعات أن تلجأ الى التشكيلات السرية ، بينما رأت جماعات أخرى أن تسعى لعقد مؤتمر عربى عام خارج البلاد العثمانية . وهذه الفكرة الاخيرة تولى تحقيقها جماعة من شبان العرب المقيمين فى باريس . وانعقد المؤتمر العربى الاول فى باريس فى ١٧ حزيران

سنة ١٩١٣ . واشترك فى المؤتمر ممثلون لمختلف الجمعيات العربية القائمة فى الآستانة ودمشق وبيروت والقاهرة وممثلون لمهاجرى العرب فى المكسيك وفى الولايات المتحدة الامريكية . وتلقى المؤتمر خلال انعقاده عددا كبيرا من برقيات التهنئة والتأييد من مختلف المدن العربية . وكان من أهم ماقرره المؤتمر : المبادرة الى تنفيذ الاصلاحات الحقيقية فى المملكة العثمانية ، وكفالة تمتع العرب بحقوقهم السياسية ، بأن يشتركوا فى الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا ، ويجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها ، وأن تكون اللغة العربية معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية .

وقد ألقى « عبدالغنى العريس » خطابا فى المؤتمر جاء فيه « **ان العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ، ووحدة مطمح سياسى ... فنحن عرب قبل كل صبغة سياسية** . حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة ، رغم ما كان ينتابنا من حكومة الآستانة من أنواع الادارات ، كالامتصاص السياسى أو التسخير الاستعمارى ، أو الذوبان العنصرى . فكل ماتذرعت به الآستانة من الوسائل لم يؤد الى غير نتيجة واحدة ، وهى الحرص على مكانة حق الجماعة واحياء هذا الحس الشريف النبيل : حس الجنسية . فاقتفاء للماضى نقرر مناهضة كل ما يؤول الى اضعاف هذه القومية ، والتذرع بكل ما فيه حياة لخصائص العرب وميزات العرب . فنحن كتلة حية قائمة بذاتها ، وخاصتنا لاتدع اية قوة تمس هذا الركن الركين » .

تراجع .. وانتقام!

وقد ابدت الحكومة العثمانية استعدادا طيبا للاستجابة لمطالب المؤتمر ، وظهر من التصريحات الرسمية للمسئولين فيها انها أصبحت على أبواب حياة جديدة ، تقوم على التفاهم والتعاضد بين العرب والاتراك . الا أن الحوادث التى توالت بعد ذلك ، ولا سيما الحرب العالمية الاولى ، غيرت مجرى الامور تغييرا كليا . فما ان نشبت الحرب حتى توقفت

الحكومة العثمانية تماما عن تنفيذ ما كانت قد وعدت به . بل أن تصرفات الحكومة فى الشئون العربية ، لم تتوقف عند حد « تأجيل الاصلاحات التى كان قد تم الاتفاق عليها سابقا » ، بل تعدت ذلك الى « الانتقام من زعماء الحركة التى أدت الى ذلك الاتفاق » . وذلك بغية نسف فكرة الاصلاحات من أساسها . وكان من الطبيعى أن تثير هذه التصرفات الجديدة كوامن النفوس ، وأن تدفع الناس فى آخر الامر الى الثورة دفعا . ونستطيع أن نقول : ان الثورة العربية التى أعلنها الملك حسين ، فى أواخر السنة الثانية من الحرب — فى ١٠ حزيران سنة ١٩١٦ — جاءت موافقة لآراء متنورى العرب ورغباتهم تمام الموافقة . ولذلك انضم الى الثورة عدد كبير من المتنورين ، من ضباط ومدنيين ، من مختلف الاقطار العربية . وهذه الثورة التى بدأت من مكة المكرمة ، تحت زعامة أمير مكة ، لم تكن ثورة حجازية ؛ بل كانت ثورة عربية بكل معنى الكلمة ، لانها كانت ترمى الى استقلال الولايات العربية بأجمعها ، وكانت تصبو الى تكوين دولة عربية جديدة موحدة ، تنهض بالأمة نهضة حقيقية ، وتعيد اليها مجدها السالف. **ولذلك اشترك فى الثورة ، وقام بأعبائها رجال من مختلف الاقطار العربية ، كما كان بينهم المسلم والمسيحى . وقد تقدمت الثورة من الحجاز الى**

دمشق ، ثم تعدتها لتتعقب الجيوش التركية حتى حلب وما وراءها . وقد قوبلت الثورة فى لبنان وسوريا بحماس عظيم. واستمرت الحماسة واستعرت مدة سنتين ، اختمرت خلالها فكرة القومية العربية ، واكتسبت قوة عظيمة ، وانتشرت انتشارا كبيرا . وتولدت فى النفوس من جراء ذلك كله « وطنية عربية » ، صريحة ، متحررة من قيود نزعة « العثمانية الاسلامية » التى كانت تأخذ بخناق فكرة القومية العربية ، وتمنعها عن الانطلاق والاندفاع .

دول الاحتلال والانتداب تحارب القومية العربية

والواقع ان المقررات التى اتخذها الحلفاء فى مؤتمر (سان ريمو) بشأن الانتدابات والاجراءات العسكرية التى اعقبت تلك المقررات ، أنزلت على فكرة القومية العربية ضربات قاسية ، ولكنها لم تستطع القضاء عليها . بل نستطيع أن نقول انها فتحت فى تاريخها فصلا جديدا .

ذلك أن الثورة العربية كانت قد قامت بغية ضمان استقلال الولايات العربية بأجمعها ، وبأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة . ولكن معاهدات الصلح ومقررات الانتداب قضت على هذا الأمل ، وقسمت الولايات العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية الى سبع وحدات سياسية ، احداها تحت حكم أجنبى محض ، واثنتان منها مستقلتان استقلالا تاما ، والاربع الباقية تحت ادارات وطنية مقيدة بقيود الانتداب . وقيام هذه الدول العربية بهذه الصورة صار سببا لتوليد «نزعات اقليمية » مرتبطة بكل دولة من الدول . وهذه النزعات الاقليمية أخذت تعاكس فكرة « القومية العربية » ، وتعرقل سيرها ، بل تحاول فى بعض الاحيان وفى بعض الجهات القضاء عليها . **كما ان الدول المحتلة والمنتدبة لم تكن ترتاح**

بوجه عام الى تكتل الشعوب العربية ، فهى ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد بين هذه الشعوب، بل ان ينفاقم ويتأبد . ولذلك تبذل كل ما فى استطاعتها للحيلولة دون انتشار فكرة القومية العربية . وقد اهتمت بذلك فرنسا بوجه خاص اهتماما كبيرا جدا ، وحاربت فكرة القومية العربية بكل وسائل الدعاية الخداعة .

الا أن ثمة عوامل أخرى كان من شأنها توطيد فكرة القومية العربية ؛ ومنها ما استجد من وسائل المواصلات السريعة التى تربط بين الامم العربية ، وكذلك الصحافة والاذاعة ، مما ساعد على تكوين شعور مشترك عام ، يشمل مختلف الاقطار العربية . كما قام جماعة من القوميين يؤلفون الاشعار والاناشيد ، ويلقون الخطب ، والمحاضرات ، وينشرون الكتب والمقالات ، لبث الفكرة القومية ، ومحاربة النزعات الاقليمية . كما أن بعض الحكومات أخذت على عاتقها مهمة نشر فكرة القومية العربية مباشرة ، فأدخلت فى مناهج مدارسها المختلفة الأبحاث التى تخدم الغاية المذكورة فى صراحة . وقد كانت هذه الاعمال والمساعى تنحصر فى بادىء الامر داخل كل دولة على حدة ، الا أنها صارت بعدئذ تجمع رجالا من دول مختلفة يعملون فى جمعيات دائمة أو مؤتمرات موقوتة . وأخيرا صارت الدول العربية نفسها تشترك فى أمثال هذه الاعمال والمساعى .

القلوب والانظار تتجه نحو مصر

وفى هذا الطور من القضية العربية ، أخذت مصر تلعب دورا هاما جدا : فمصر كانت قد انفصلت عن الدولة العثمانية فعليا منذ مدة طويلة ، وابتليت بمشاكل خاصة من جراء الاحتلال البريطانى منذ ١٨٨٢ . وفى حين كانت

مصر مشغولة بمشاكلها تلك ، **كان جماعات من مثقفى العرب تتجه بقلوبها وبأنظارها نحو مصر ، تنتظر منها أن تتزعم الحركة العربية . حتى اذا وقعت معاهدة (لوزان) ، أخذت مصر تهتم بالقضايا العربية ، ففتح ذلك فى « تاريخ نشوء الفكرة القومية عند العرب » فصلا جديدا** . اذ أصبحت الفكرة القومية موضع بحث واهتمام لدى كثير من الهيئات فى جميع الدول العربية ، وفى كثير من المؤتمرات الدورية كالمؤتمرات الطبية العربية ، ومؤتمر المحامين العرب ، ومؤتمر المهندسين العرب ، كما تناولت المؤتمرات الشئون السياسية : كالمؤتمر الفلسطينى العربى العام الذى عقد فى بلودان سنة ١٩٣٧ . وبعد تلك المؤتمرات الشعبية ، صارت الحكومات أيضا تشعر بضرورة التعاون والتعاضد لصيانة المصالح العربية المشتركة ، ومؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد فى لندن سنة ١٩٣٩ لمناقشة قضايا فلسطين كان أول مظهر من مظاهر هذا الشعور .

وهذه الاجتماعات والتشكيلات الشعبية والحكومية المتفرقة والمؤقتة ، مهدت السبيل الى منظمة دائمة تتولى شئون الدول العربية . فتكونت جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥

على أن فكرة « القومية العربية » لاتزال فى حالة كفاح مع النزعات الاقليمية . فماذا عساها تكون نتيجة هذا الكفاح ؟ **ان ما لاحظناه من الاتجاه الثابت فى تاريخ نشوء فكرة القوميات عند الامم الغربية والشرقية ، لايترك مجالا للشك فى ان الغلبة ستكون فى آخر الأمر لفكرة القومية العربية العامة .**

(وعند هذا الحد وقف المؤلف فى محاضراته التى ألقاها عام ١٩٤٨ . وقد حققت الاحداث حدسه ، على يد رائد القومية العربية الرئيس جمال عبد الناصر) .

يكولوجية القاب

تأليف: والتر فانديك بنجهام
وبروس فكتور مور
ترجمة: فاروق عبد القادر
وعزت سيد إسماعيل
مراجعة: الدكتور مختار حمزة
تقديم: الدكتور محمد توفيق رمزي
الناشر: دار النهضة العربية
الثمن: ٤٠ قرشا

تقدم
لقراء العالم العربي أحدث مطبوعاتها





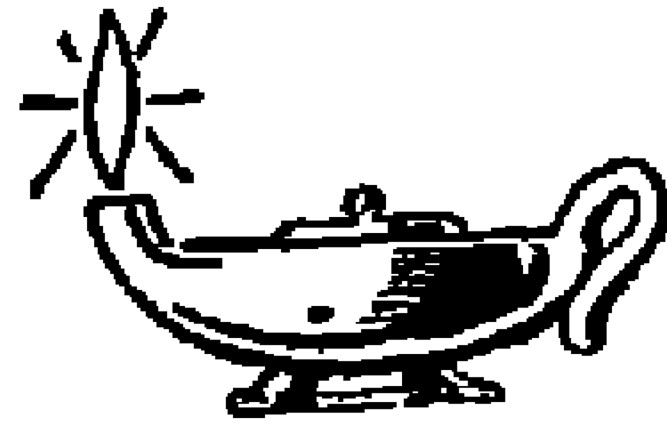
كتاب الجيب لتلخيص الكتب العالمية

”حسناء الغابة“.. فيم تفكر؟

للفنان الانجليزي [illegible]

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمى مراد



عدد خاص

عن الآداب الاسيوية والافريقية

الكتاب الثالث والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ستة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٢٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مجتمـــع العاملين .. لا الخاملين !

عزيزى القارىء ..

منـذ قامت ثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢ ــ وكان « كتابى » يومئذ فى الشهر السـادس من عمره ــ وكاتب هذه السطور يتابع بالاعجاب والتعليق ــ فى كل مناسبة ــ خطواتها الجبارة وجهود قائدها الملهم الرئيس جمال عبد الناصر ، فى سبيل خلق مجتمع جديد يؤمن بالعمل والكفاح كوسـيلة لكسب العيش .. **مجتمـع للعـاملين المجـدين ، الجـادين ، لا الخاملين ((العاطلين بالوراثة))** ، كما أبدع فى وصفهم قائد الثورة فى خطبته المشهورة عام ١٩٥٩ ..

ذلك أن محرر « كتابى » كان ولا يزال يفخر بأنه يعمل ، وانه لا يعيش الا من عمله ، وكده المتواصل ، مستمدا القوة على هذا الكد من ايمانه برسالته الثقافية التى وهب نفسه وحياته من أجل تحقيقها ، والتى لم ولن يألو جهدا فى سبيل النهوض بها على أكمل وجه ، ما استطاع .. **حتى لقد صار ((كتابى)) رمزا للكفاح الطويل الشاق الذى يسـتعذب كل جهد وعرق فى سـبيل المحافظة على مسـتواه الادبى ، بل الارتفاع بهـذا المسـتوى تدريجا ــ ورفع القارىء العربى اليه** ــ لا النزول بنفسـه وبمادته الى المستوى السطحى الغث الذى يحقق له الرواج الاوسع والكسب الرخيص ..

وعلى ضوء هذه النظرة ، وهذا الايمان ، ينتهز « كتابى » فرصة صدور القوانين الاشتراكية الاخيرة ليشارك الشعب ترحيبه بها ، **من أجـل خلق مجتمع جديد يعيش كل فرد فيه ــ من رئيس الجمهورية الى أصغر عامل ــ من ثمـرة عمله ، وكده ، وكفاحه ..**

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

٧ أيام حافلة .. فى الاقليم السورى

زرت الاقليم الشمالى ثلاث مرات ، قبل هـذه المرة ..
لكنى أعترف بأنى لم أر وأتعرف واستمتع — خلال تلك الزيارات الثلاث — بعشر ما رأيته وتعرفت عليه واستمتعت به فى هذه الزيارة الشائقـة التى دعانا اليها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب في الاسبوع الاخير من شهر يونيـه المنصرم ..
وذلك لعدة أسباب ..
منها أننى فى زياراتى السابقة لم أر من الاقليم السـورى غير مدينة **دمشق** ، ومصيفها الجبلى **بلودان** .. أما فى هذه المرة فقـد اتسعت الزيارة وامتدت من دمشق — وغوطتها الفيحاء ، ومصايفها الجبلية جميعا : (بلودان ، والزبدانى، وبقين ، ونبع بردى .. الخ) — الى مدن ومحافظات الاقليم الاخرى الهامة : حمص ، وحماة ، ومعرة النعمان ، وحلب ، والسويداء ، ودرعا ، وبصرى الشام ، واللاذقية ، وكسب .. الخ

أكثر من ألفى كيلو متر قطعناها بالسيارات ، ذرعنا فيها الاقليم السورى طولا وعرضا ، وشمالا وجنوبا .. فى أقل من سبعة أيام !
ولقد كانت الرحلة شاقة ، لكنها برغم ذلك كانت ممتعة حقا ..
والسبب الثانى الذى ضاعف من متعة هذه الزيارة عن سابقاتها ، أنها أتاحت لى فرصة التعرف الى نخبـة أدباء الاقليم السورى وفنانيه ، الذين لم يسعدنى الحظ بلقائهم فى جولاتى السابقة ، ولو ان لقاءنا بهم كان قصيرا خاطفا ،



سرب من فتيات الجيل الصاعد فى (حلب) الشهباء

بحكم تنقلنا المستمر بين مدن الاقليم وأطرافه الشاسعة ..

وثمة **سبب ثالث** أضفى على هذه الزيارة متعة خاصة ـ لعلها لم تدخل فى حساب المجلس الاعلى للفنون والآداب حين نظم الرحلة ! ـ هو انها أتاحت فرصة رائعة لتعرف أدباء الاقليم الجنوبى وفنانيه أنفسهم ، بعضهم على بعض ـ وكان أكثرنا . ويا للأسف ، لا يعرف من زملائه غير أسمائهم فحسب ! ـ سيما وقد ضمت الرحلة مجموعة تمثل مختلف قطاعات الأدب والفنون فى مصر ..

فلقـــد ضمت من **الأدباء** : أمين يوسف غراب ، وثروت أباظة ، ومحمود البدوى ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ، ويوسف جوهر ، والدكتور يوسف عزالدين عيسى ، وكاتب هذه السطور ..

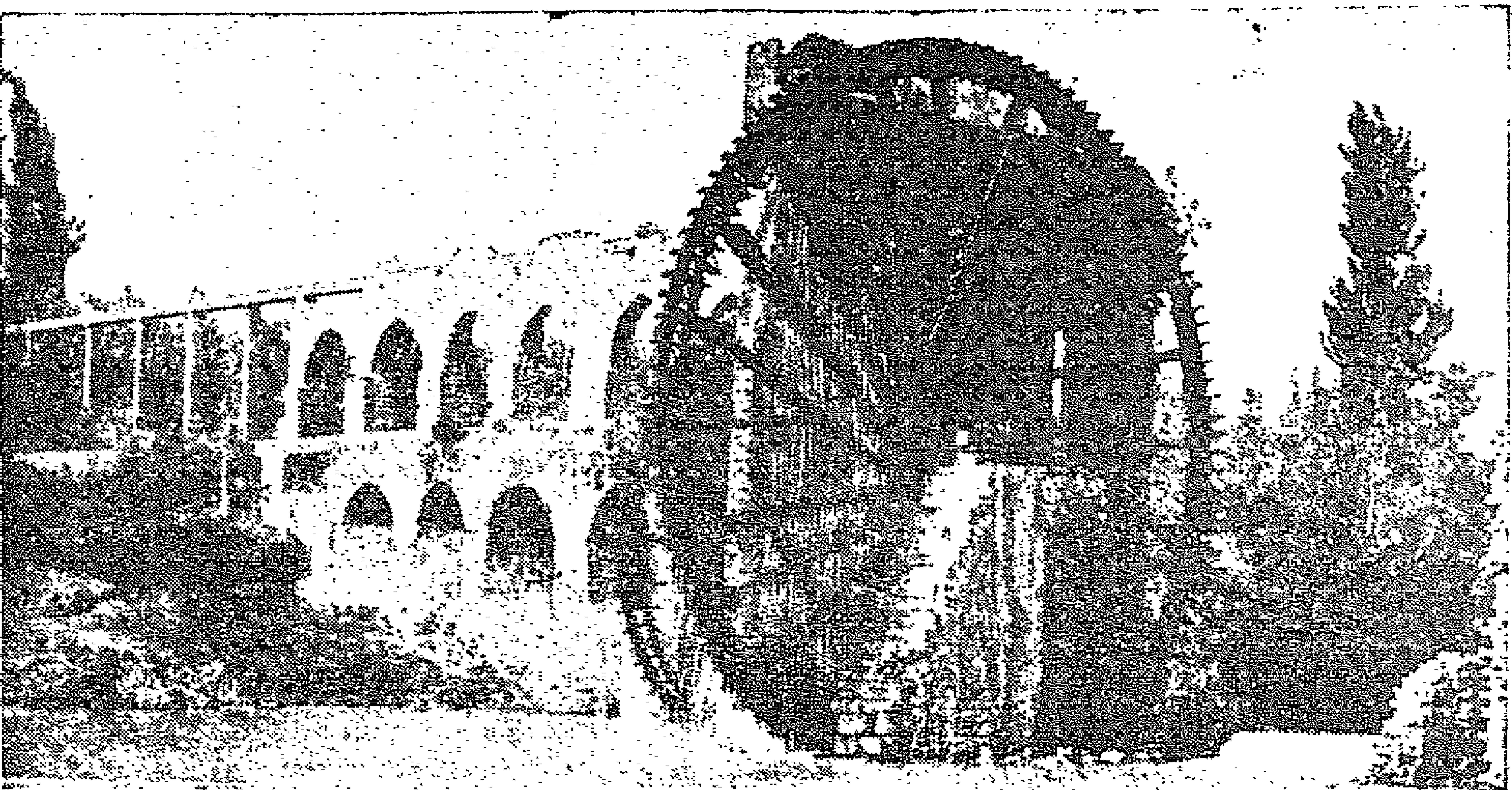
.. وضمت من **الشعراء** ، الشاعرين : محمد عبد الغنى حسن ، ومحمد مصطفى الماحى ..

.. ومن **الموسيقيين** ، الفنانين : بليغ حمدى ، وعبدالحليم نويرة ، وعبد العظيم عبد الحق ، وعبـــد الحميد توفيق زكى ، وعلى فراج ..

ومن **السينمائيين** : المنجمين أحمد مظهر ، وصـــلاح ذو الفقار ، والمخرجين : توفيق صالح ، وعاطف ســالم ، وكمال الشيخ .

.. ومن ممثلى **الفنون التشكيلية** ، الفنانين : أحمـــد عثمان ، الحسين فوزى ، سعد الخادم ، سيف وانلى ، سيد عبدالرسول ، على كامل الديب ، محيى الدين طاهر ..

واشـــهد أن صحبتهم جميعـــا كانت متعة نادرة ، **وانها اكسبتنى صداقات عـديدة خالصة سأظل أعتز بها** ، من فرط ما تعرفت فى أصحابها على نماذج مصفاة من الموهبة الفنية والخلق الكريم ..



« النواعير » (السواقى) المشهورة فى مدينة (حماة)

فى غوطة دمشق

وكانت جولتنا الاولى فى دمشـــق نزهة فى الغوطة . ولا يستطيع زائر لدمشق أن يتحدث عن المدينة بغير أن يعرض للكلام عن غوطتها .. فهى ليست مجرد جزء من المدينـــة ، وانما الغوطة ودمشق أشبه باسمى مكان مترادفين متلازمين، لا يذكر أحدهما بغير أن يذكر الآخر !

والغوطة هى اسم يطلق على البســاتين والقرى المحيطـة بدمشق ، وهى اشبه بغابة هائلة تشرف على المدينة العريقة وتطوقها ، كأنما تحنو عليها ، وتعطر هواءهـــا بأريجهـــا الفـــواح .. ومعنى (الغوطة) — فى رأى الاديب الدمشقى الكبير « محمد كرد على » ، فى كتابه المتع عن دمشـــق — مشتق من « الغائط » ، وهو المطمئن من الارض .

ويبلغ طول الغوطة نحو عشرين كيلو مترا ، وعرضها بين عشرة وخمسة عشر كيلو مترا ، ومساحتها نحو مائة ألف فدان (تدخل فيها مساحة المدينة ذاتها) .. وعدد القرى المتناثرة فى الغوطة اثنتان وخمسون قرية ، لا يقل تعـداد سكانها عن المائة ألف نسمة . وتربتها خصـــبة تنتج أجود الحبوب والبقول ، والاشجار والثمار ، وتمون بها دمشق وسواها ، حتى لقد قيل **« لولا الغوطة ما كانت دمشق! »** . وفاكهتها مشهورة بلذة طعمها وطيب نكهتها ، سواء فى ذلك الكمثرى والخوخ والمشمش والتفاح والعنب والبرقوق .. الخ .

وتعتبر الغوطة فى مجموعها من اجمل متنزهات الشرق، اذ تسير فيها السيارة أميالا وسط أشجار باسقة ، وجداول وينابيع ، ومرتفعات خضراء تتوجها المقاهى والكازينوهات الجميلة المشرفة على الطريق ، ولا سيما فى منطقة (دمر)



نهر (بردى) يروى بفروعه السبعة غوطة دمشق، فيجعل منها جنة أرضية!

التى تمر بها جميع السيارات الذاهبة الى بيروت أو الصاعدة الى مصايف دمشق الجبلية ، واهمها : (بلودان)، و(الزبدانى)، و(بقين) .. الخ .

ولعل أصدق ما قيل فى وصف جمال الغوطة ، هذه الابيات التى نظمها فيها أحد الشعراء القدامى :

أنى اتجهت رأيت ماء سابحا
متدفقا أو يانعا متهدلا
وكأنما أطيارها وغصونها
نغم القيان على عرائس تجتلى

وكانمـا الجوزاء ألقت زهرها
فيها وأرسلت المجـــرة جدولا
ويمر معتـل النسيم بروضها
فتخـــال عطارة يحرق منـدلا

ويروى أن **عمر بن الخطاب** حين قدم الشام رأى الغوطة ونظر الى المدينة والقصور والبساتين ، فتلا قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ؛ وزروع ومقام كريم ؛ ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين . »

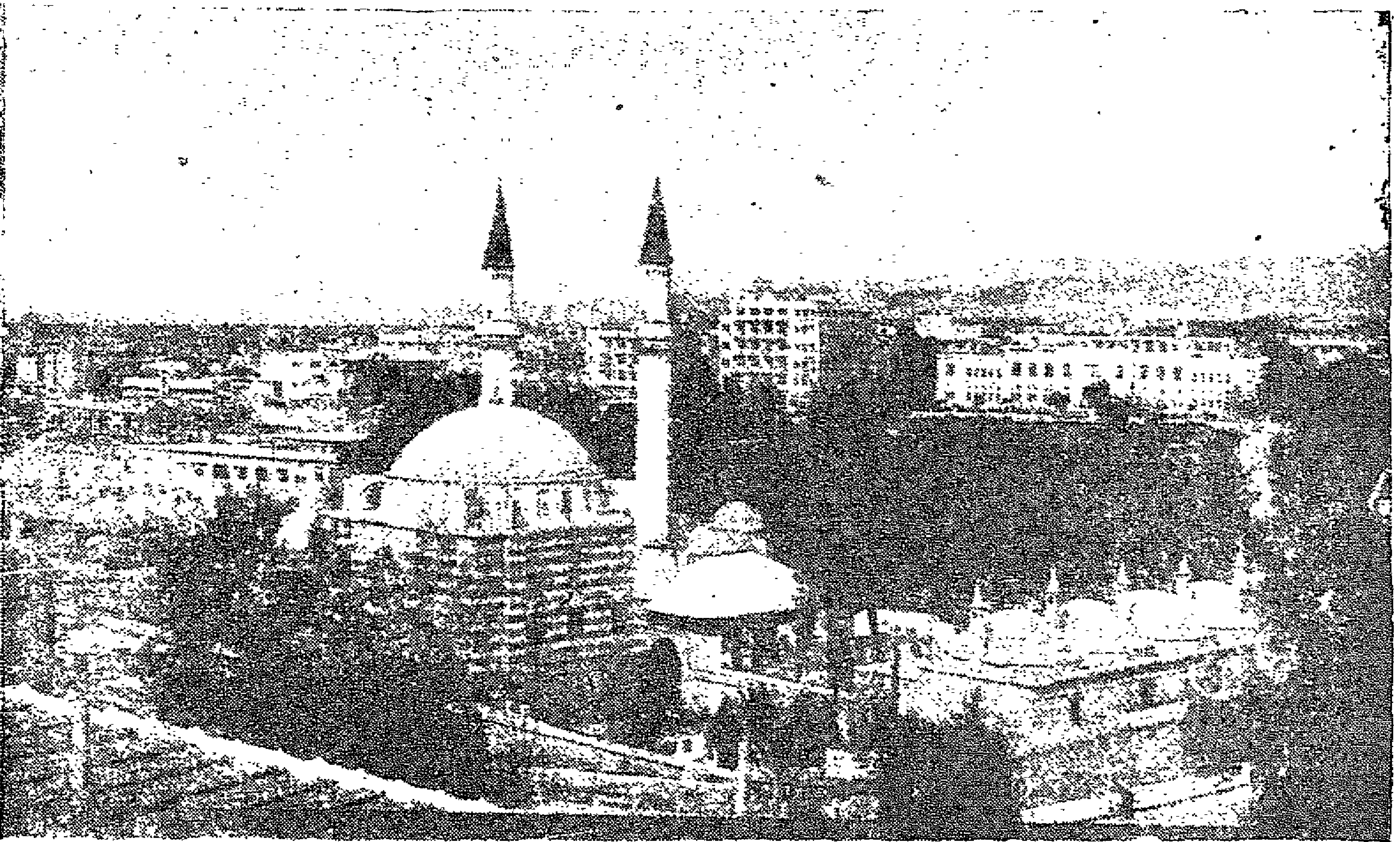
كما يروى أن **أمير المؤمنين « المأمون العبـاسى »** أقسـم يوما وقد نظر الى أشجار الغوطة ونباتها ، أنهـا خير مغنى على وجه الأرض ، وقال : عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذى لم يخلق مثله . »

وقد مرت على الغوطة عصور مختلفة ، تغيرت فيها حتى ازياء الجنسـين من سـكانها ، فغير الرجال خلالها لباس رؤوسهم ثلاث مرات ، وكذلك فعلت النساء بملاءاتهن .

ومن فرط اعجاب الدمشقيين بالغـــوطة ، واعتزازهم بها ، يقولون ان حيواناتها الضـــارية لا تؤذى أحدا ، وان الشر فيها محكوم عليه بالزوال ، بدليل أن ثعالبها وضباعها توشك أن تبيد ، وأن كواسرها وجوارحها أقل من عصافيرها وحمامها .

والآن ، تعال نبدأ جولتنا فى غوطة دمشق الفيحاء ، حتى نبلغ أعلى مصايف دمشق ارتفاعا ، وهو مصيف بلودان .

وأول ما يلفت نظرك وأنت تستقل السـيارة من قلب دمشق ، حيث يربض فندق سميراميس الفاخر ، مجرى نهر (بردى) الخالد الذى يمتد تحت أقدام الفندق ، فلا تكاد تدلف من عتبته حتى تراه محاذيا الرصيف يتلألأ بريقه من اليمين ومن اليسار الى امتداد البصر ، فيشق الطريق



مآذن المسجد الاموى تطل على جانب من دمشق

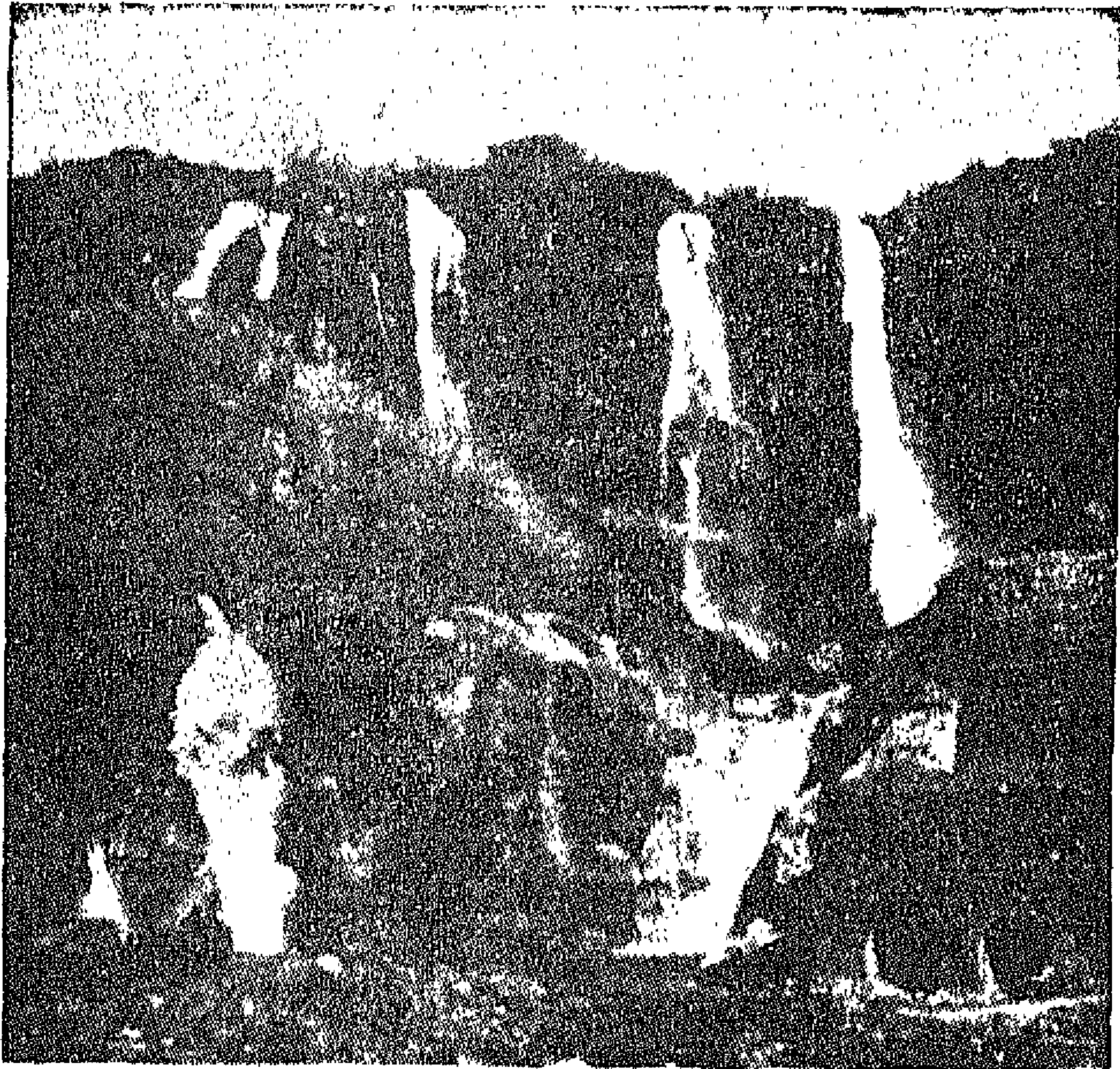
الى شارعين فسيحين من أجمل شوارع دمشق .(وشوارع دمشق على العموم تمتاز باتساعها الى درجة تلفت النظر ، حتى ليبلغ عرضها ضعف عرض شوارع القاهرة وبيروت، بل أكثر) . وفى تلك المنطقة المجاورة لفندق سميراميس يقام على ضفة نهر بردى فى شهر أغسطس (آب) من كل عام معرض دمشق الدولى ، الذى يحوى أجنحة لنحو عشرين دولة من دول الشرق والغرب ، ومن دول الكتلتين الشرقية والغربية على السواء .

وفى مواجهة منطقة المعرض ، ترى طريقا صاعدا بزاوية تلفت النظر ، وفى نهايته قمة جبل (قاسيون) ، وعلى جانبيه صفين من القصور والدور الحديثة المتدرجة مع الطريق الصاعد حتى قمة الجبل . وتسمى تلك المنطقة العصرية الأنيقة من دمشق (حى المهاجرين) – ويا لغرابة المفارقة بين الاسم والمسمى ! – وتربط قمتها بأسفل المدينة عدة طرق تتفرع فى كل اتجاه . واذا نظرت اليها ليلا – من اى مكان – رأيت أضواء مبانى الحى أشبه بعقود من الثريات تتوامض وتتلامح وكأنها ملايين من النجوم قد انسكبت من السماء وتناثرت فى كل اتجاه ؛ فرصعت سفوح تل (قاسيون) واستكانت فى أحضانه ..

ونعود الى منطقة المعرض ، فنواصل انطلاقنا بالسيارة الى الغوطة ، بين أشجار ، ومتنزهات ، ومقاه مرتفعة عن الطريق عشرات الامتار ، تحف به من الجانبين ، وقد شيدت فوق ربوات وهضاب عالية .. وعيون المياه المنبثقة من قلب الصخور تسكب جداولها المتعرجة على جوانبها .. فهذا كازينو (اشبيلية) ، وهذا (الوادى الاخضر) ، وهذا (دمر) ، الى عشرات غيرها من الملاهى والمقاهى ، فاذا صعدت الى احداها ألفيت نافورات لا حصر لها ترسل



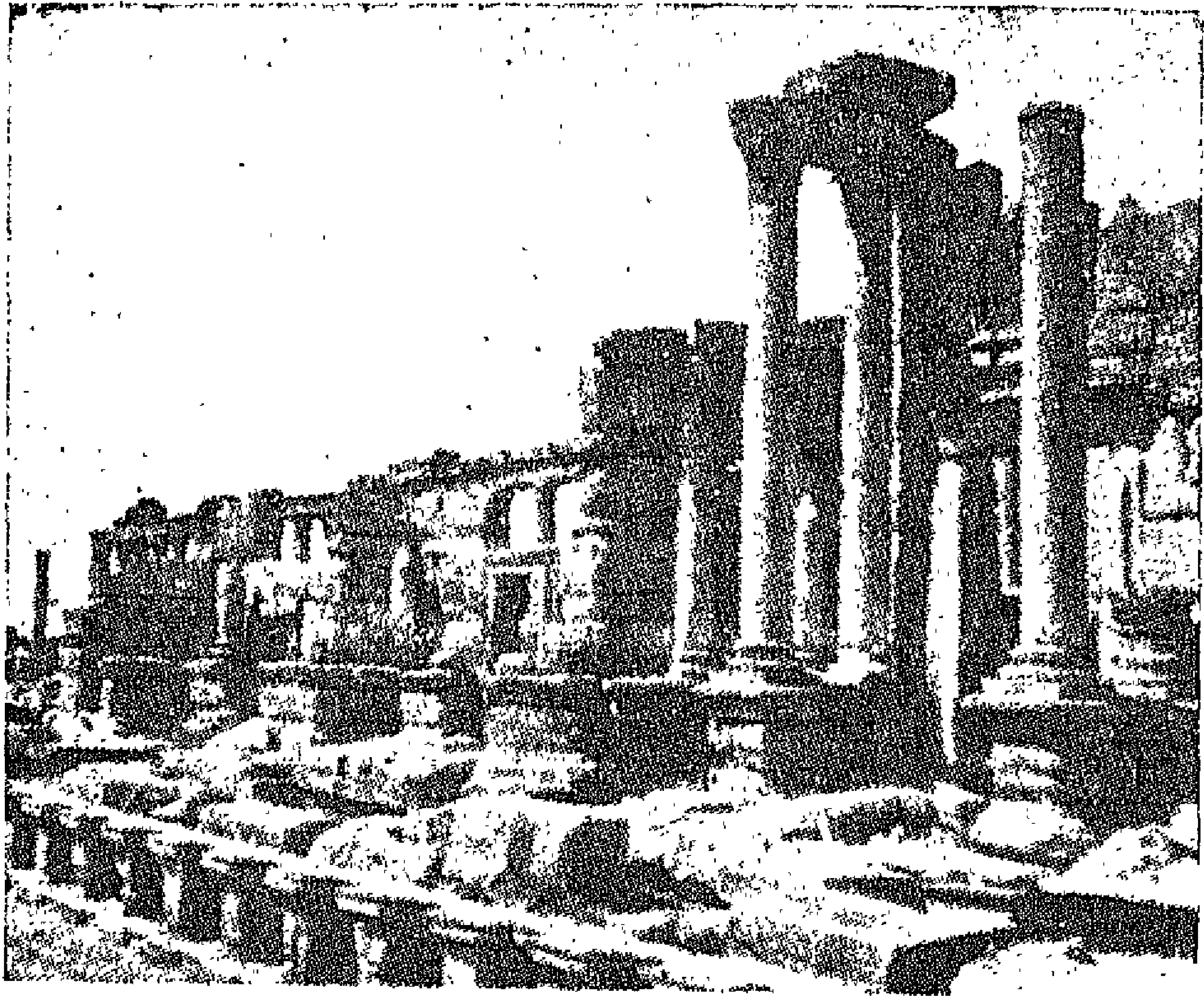
منظر ليلى رائع لحى المهاجرين الانيق ، على سفح جبل (قاسيون) بدمشق



أينما سرت فى (الفوطة) ، ترى عيون المياه العذبة والشلالات الفضية

ماءها فى الاحواض .. وجداول متعـــددة تتسلل تحت أقدامك بين المناضد ، وقد انسكبت فوق مياهها الاضــواء الملونة .. وبعض هذه الملاهى يقـــدم فى الســـهرة برامج موسيقية وغنائية منوعة ، تحييها مطربات وراقصـــات من فنانات الاقليمين الشمالى والجنوبى ، وفنانات لبنان ..

ثم نخلف هذه المنطقة العامرة ، كى تصعد بنا الســيارة طريقا جبليا متعرجا ، نحو (بلودان) .. وفى الطريق ، نمر بعدد من المصايف والمواقع الجميلة ، أولها :



بقايا مدرج أثرى ، فى مدينة ((تدمر)) (أو ((بالميرا)))

نبع بردى : وهو بحيرة صغيرة ترصع واديا جميلا يشرف عليه الطريق الجبلي من عل ، فتبدو البحيرة فى قاع الوادى وكأنها ماسة تبرق وسط الرمال .. وعلى ضفة البحيرة يتناثر عدد من المقاهى الهادئة ، وقد غصت بروادها الذين جلسوا يستمتعون بالجو الشاعرى ويتناولون ما طاب لهم من الطعام والشراب ..

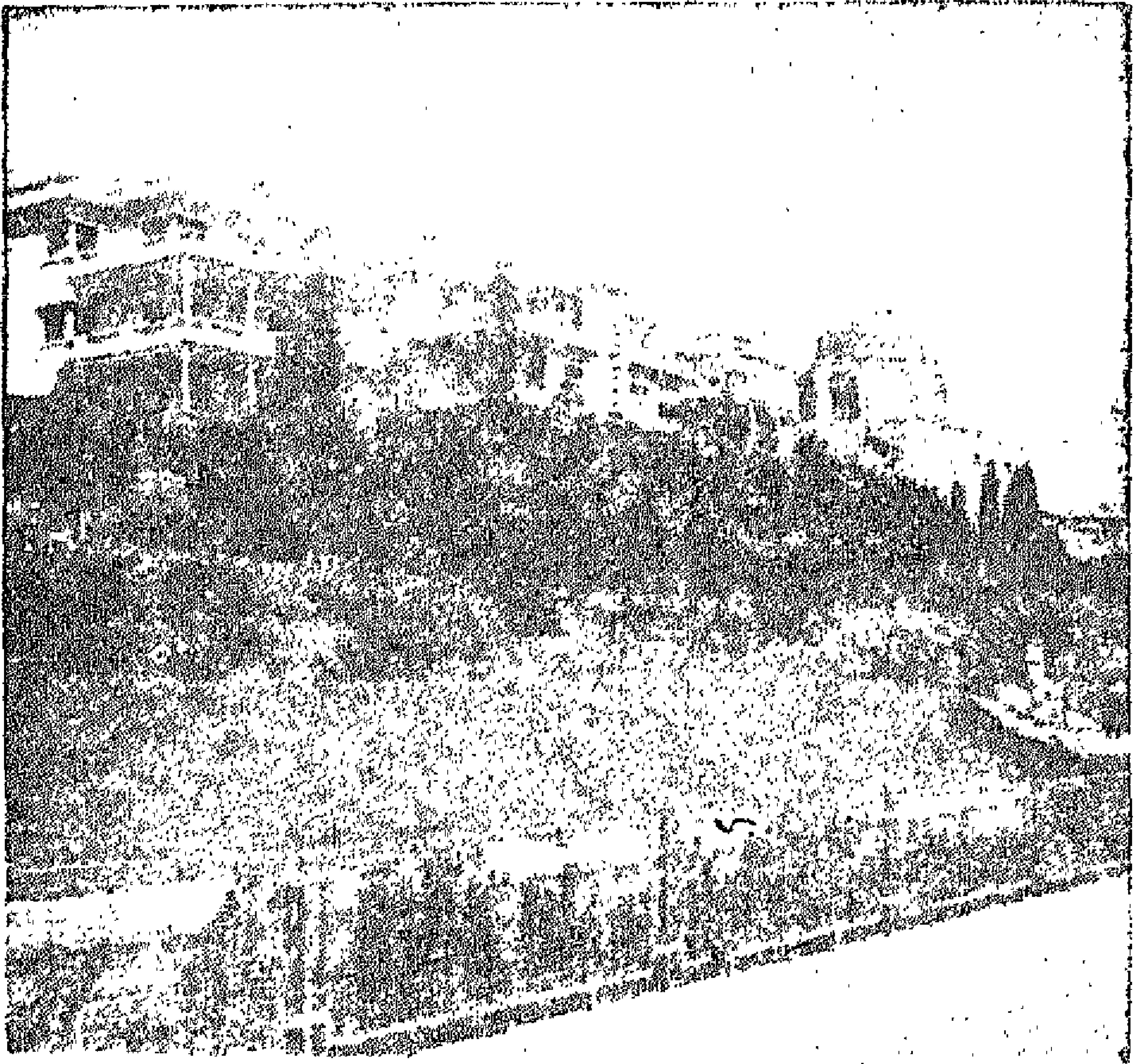
فاذا صعدت من قاع الوادى الى الطريق انطلقت بك السيارة فى الطريق الجبلى المتعرج نحو نبع آخر تنبثق فيه المياه من قلب الصخور ، ويطلقون على القرية أو المصيف

الجبلى الذى يقع فيه اسم : **بقين** (وينطق الاسم بكسر الباء وتشديد القاف مع كسرها) . ولا تكاد تبلغ هذه القرية الجبلية ــ التى ترتفع عن سطح البحر نحو ١٣٥٠ مترا ــ حتى ترى عشرات السيارات العامة والخاصة متراصة عند مدخل المقهى الرئيسى ذى الطابقين ، المعلق على حافة الجبل ، وقد ازدحم فى داخله مئات من الرجال والنساء والأطفال ، وتكأكأ عدد كبير منهم على صنبور يتناولون منه جرعات من ماء النبع المعدنى العذب ، البارد كالثلج .

فاذا غادرت (بقين) ، مضت بك السيارة تتسلق الطريق المتعرج ، الذى تحف به الجبال والوديان ، والقرى والخضرة والينابيع ، حتى تبلغ بعد دقائق المصيف السورى الأشهر :



((باقة)) من الفتيات السوريات يرقصن رقصة (السماح) التقليدية



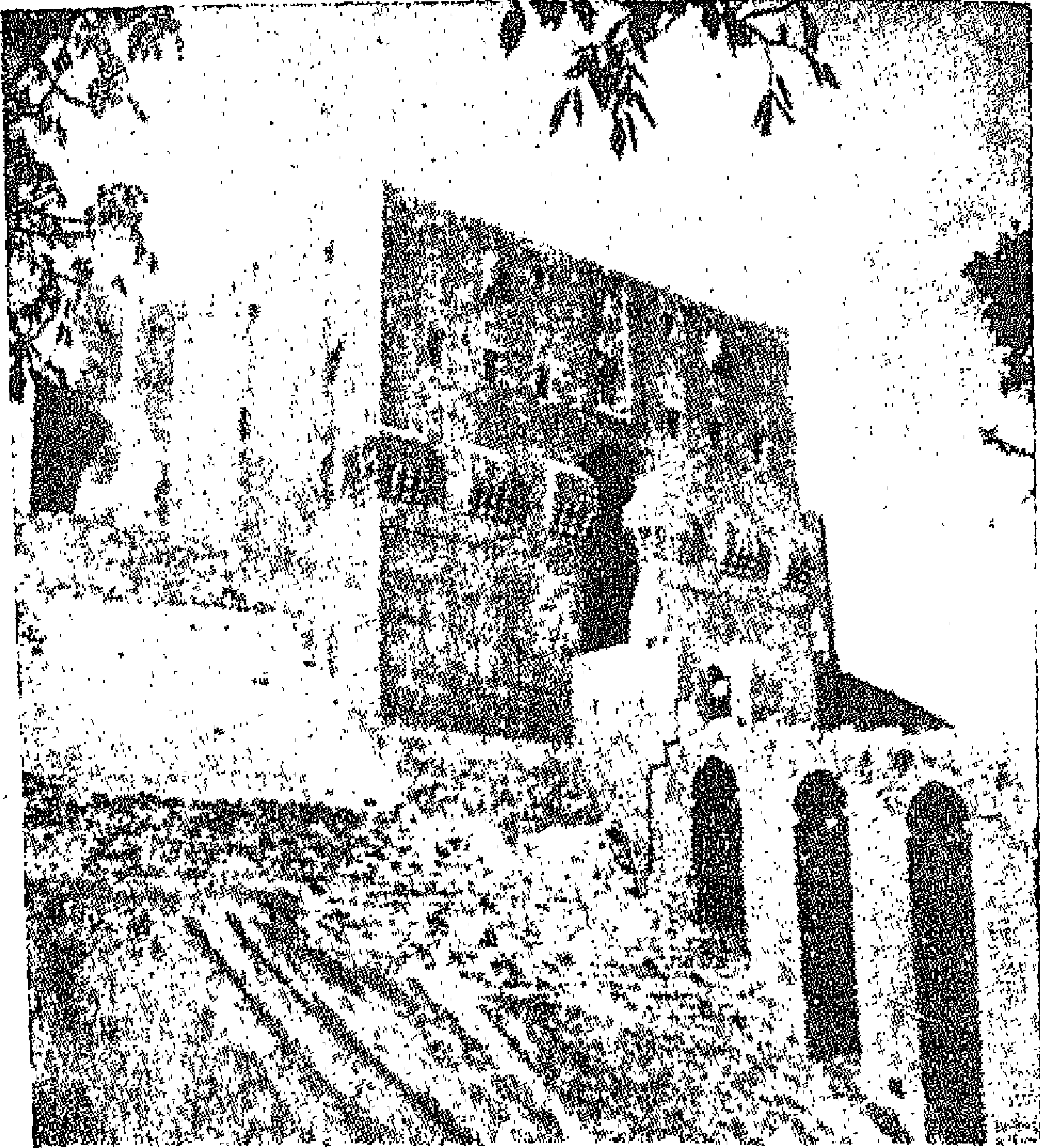
قصور دمشق الحديثة تطل على الطريق من فوق الروابى الخضر

بلودان : وترتفع عن سطح البحر ١٥٠٠ متر ، وتستطيع ان تعتبرها قرية كبيرة أو بلدة صغيرة ، فيها عدد كبير من لحوانيت ، والمقاهى ، والفنادق ـ من كل مستوى ـ وفى مقدمتها (فندق بلودان الكبير) الذى يعتبر من فنـادق الدرجة الاولى العريقة التى تمت الى المستوى الدولى الذى كان سائدا فى الثلث الاول من هذا القرن ، قبـل الحرب الأخيرة . وبه شرفة خلفيـة هائلة تطل على منظر خلاب للوادى السحيق ، وتعزف فيها جوقة موسيقية فى الامسيات

.. كما تنبسـط أمام مدخله من النـاحية الاخرى شرفة مماثلة تزدحم بنزلاء الفندق وبغيرهم من الرواد والزائرين. وتعقد فى هذا الفندق ـ فى المناسـبات ـ مؤتمرات عربية مختلفة ، كما عقدت فيه منذ أوائل هذا القرن مؤتمـرات واجتماعات سياسية وثقافية بالغة الاهمية .

فاذا اردت مكانا أكثر ارتفاعا من مستوى هذا الفنـدق وما حوله من شوارع ومقاه ، فانك تستطيـع أن تمضى فى الطريق الجبلى الصاعد بضع مئات أخرى من الامتـار ، فاذا انت امام مقهى جميل يندس وسط الاشجار هو مقهى (أبو زاد) ، ويخيم عليه هدوء شاعرى بالغ الروعة ، وهو مـزود بمقاعد مريحة من أحدث طراز .. ولا تلمس مبلغ الهدوء المخيم على هذا المكان الا اذا هبطت منه مرة أخرى الى قلب بلودان ، فاذا المقـاهى والمطـاعم تغص بالطاعمين والشـاربين ، ولاعبى النرد ، ومدخنى « النارجيلة » ، التى تقبل عليها فى الاقليم السورى وفى لبنان نسـبة كبيرة من الرجال والنساء ..

فاذا غادرت (بلودان) هابطا الى دمشق ، ففى وسعك أن تسلك طريقا آخر غير الذى جئت منه . وفى هـذه المرة لن تمر بـ (بقين) و (نبع بردى) ، وانما سـتمر بمصيف آخر لايقل جمالا عن بلودان ـ وان قل عنه صخبا وازدحاما ـ هو مصيف (الزبدانى) ، الذى يرتفع عن سطح البحـر ١١٧٥ مترا .. وهناك تستطيع أن تتسكع فى طرقات القرية الجبلية الوادعـة . وتتناول قمعا من البوظة (الجيلاتى) المطاطة الشهية التى يحلو مذاقها فى الاقليم السورى عموما ، وتكثر حوانيتها النظيفة فى كل مكان .. ثم نعرج على الحانوت المجاور فتبتاع شيئا من الفاكهة المنوعة الرخيصة الاثمان ، مثل الخوخ والبرقوق والكمثرى ، (ويطلقون عليها هنـاك

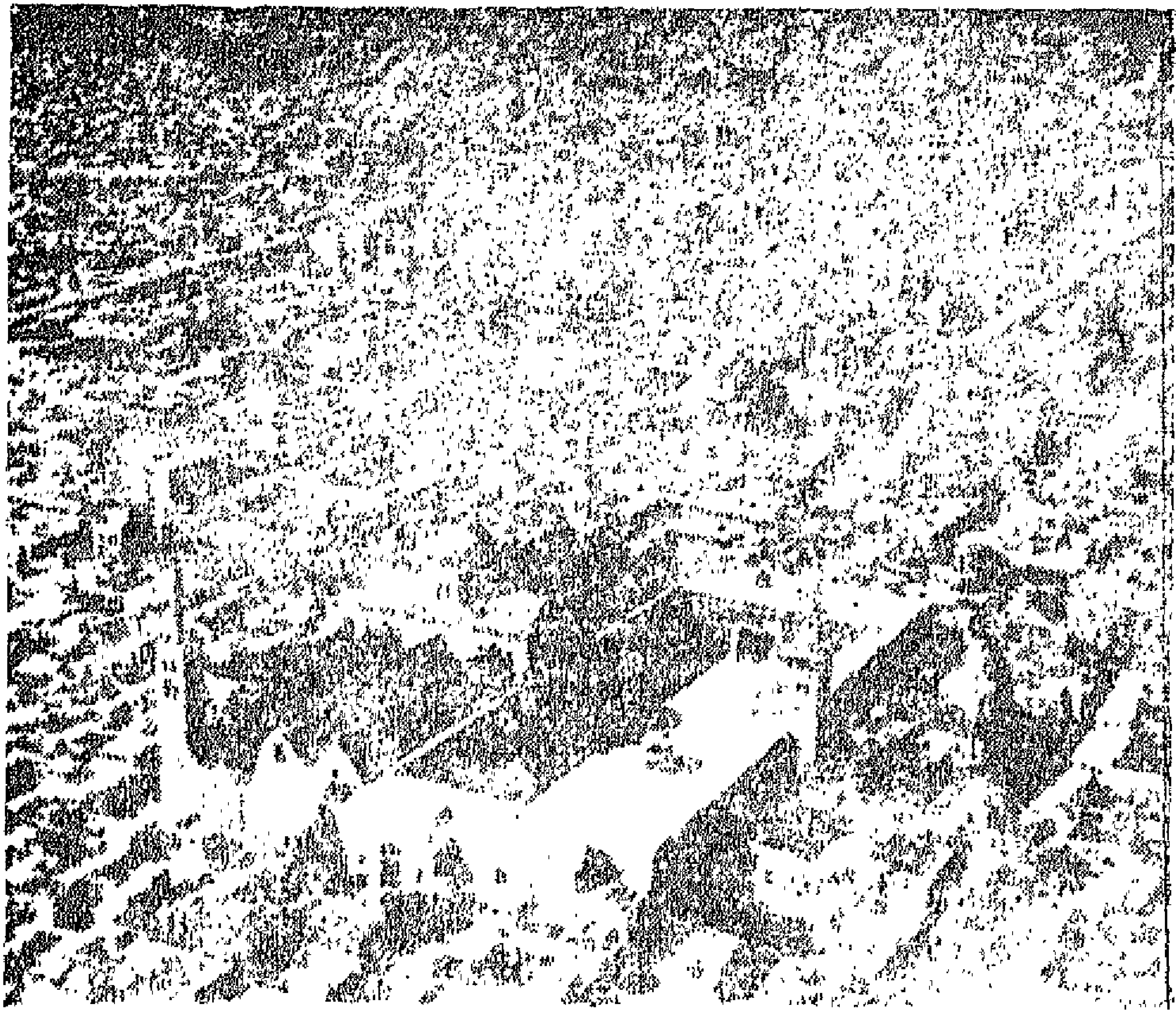


جانب من قلعة حلب التاريخيه

أسماء أخرى مثل : الدريق ، والانجاص .. الخ) .. فاذا تعبت من المشى فى القرية والجبل ففى وسعك أن تستريح فى أحد المقاهى لتطلب كأسا من شرابهم المفضل (العرق) ، وهو يستخرج من العنب ــ ويقابل (الزبيب) فى اقليمنا

الجنوبى — ولا تستغربن أن يحضر لك الساقى مع الكأس نحو عشرين طبقا صغيرا من « المزة » ، فى مقدمتها طبعـا الطبق القومى المفضل (اللبنة) ، وهى أشبه باللبن الزبادى . .

فاذا هبطنا من الزبدانى لنقوم بجولات اخرى فى الغوطة، مررنا بعدد من المناطق ذات الموقع الطبيعى الجميل ، سواء بجوار نبع من الينابيع ، أو وسط غابة أو بسـتان ، وفى بعضها ترى جداول المياه تنساب بين مناضد المقاهى ، ومن فوقها الاشجار تظلل الجالسين ، كما هو الحال فى (زحلة) بلبنان . .



منظر عام التقط من الطائرة لدمشق يتوسطها المسجد الاموى

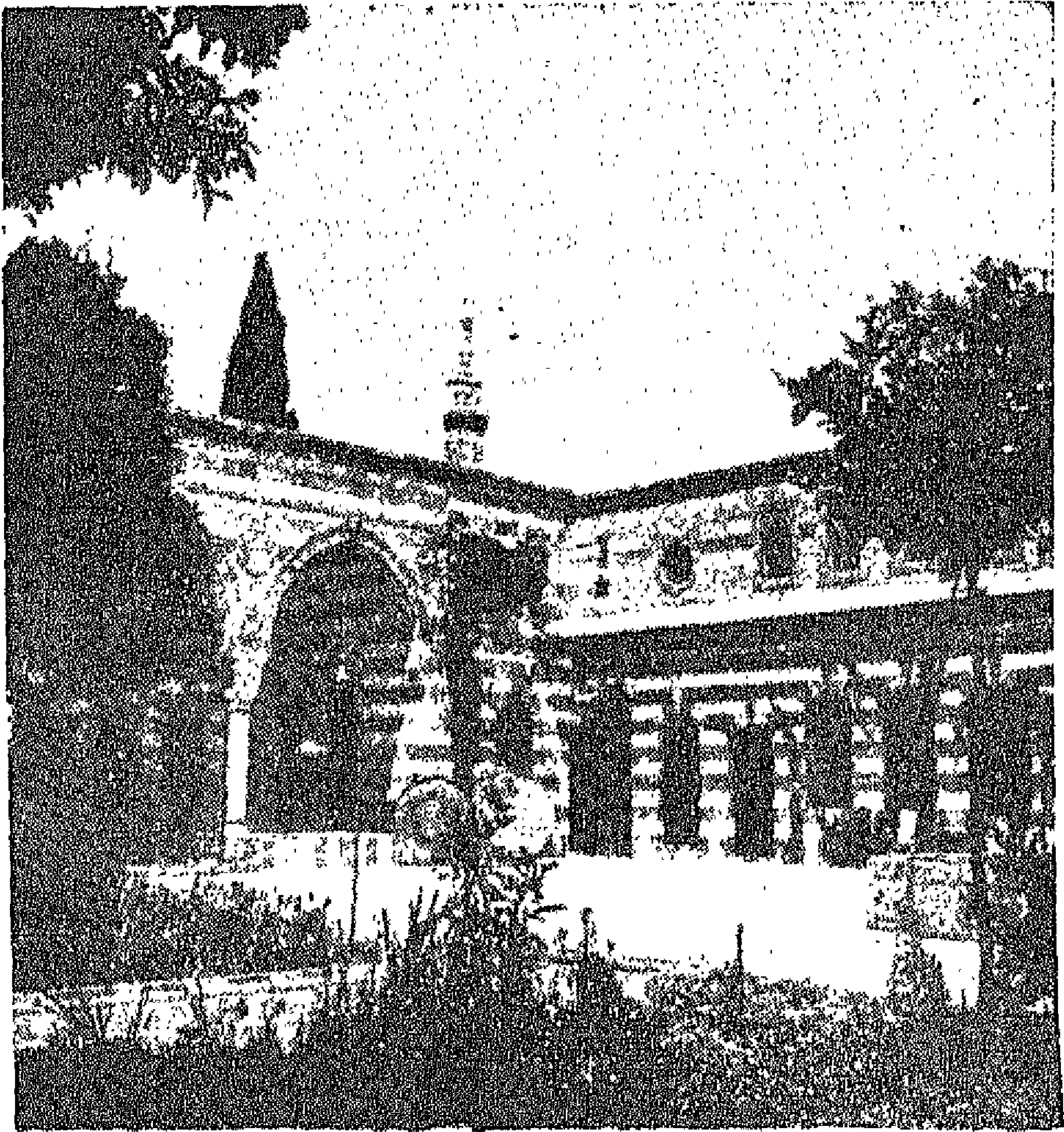


المسجد الاموى .. من أشهر معالم دمشق التاريخية

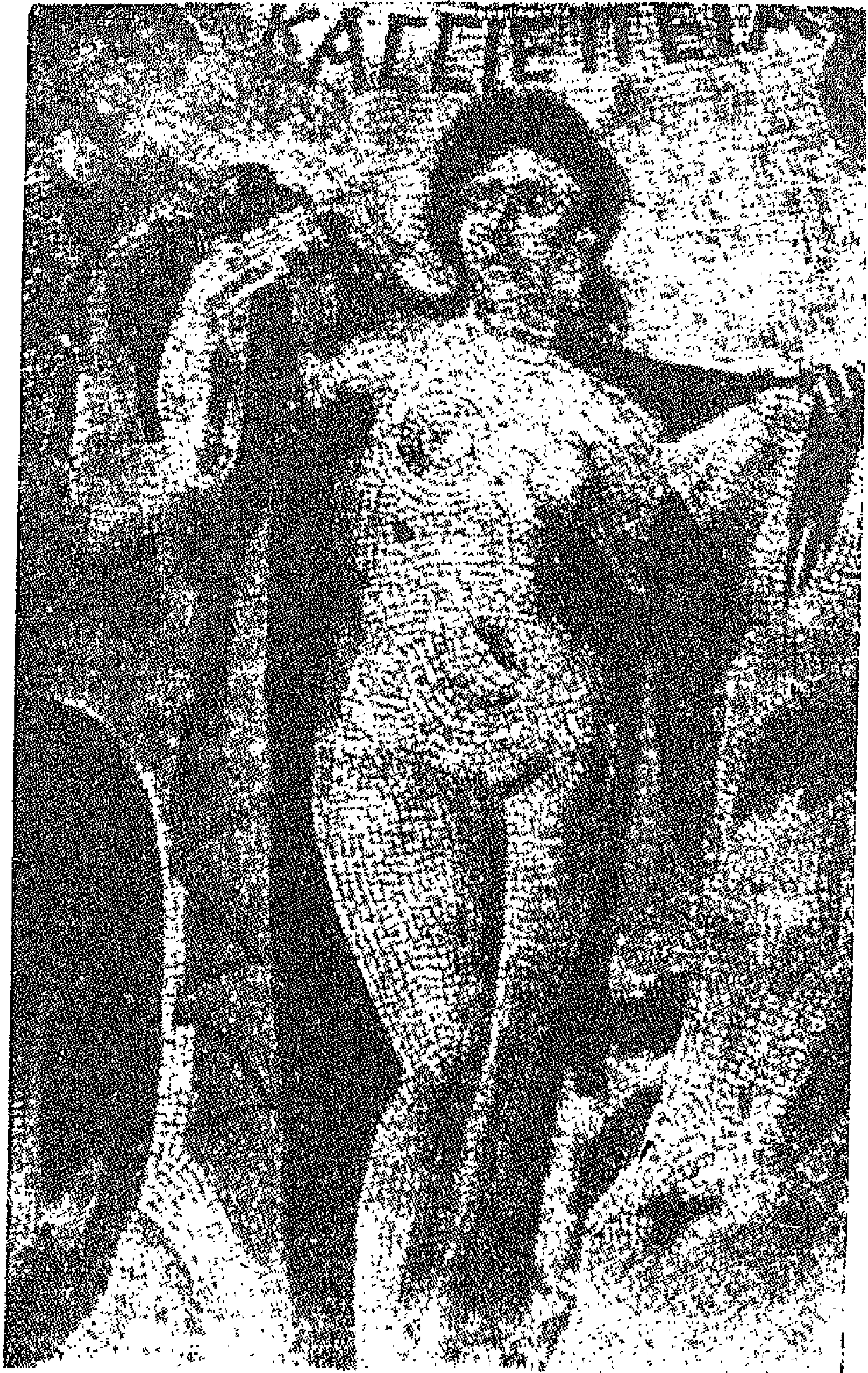
وطوال الطريق بين هذه المغانى والقرى والمصايف ، ترى سيارات الدمشقيين تنتحى جانبا من الطريق ، أو أركانا من الحقول ، فتخرج العائلات من السيارات لتفترش الحشائش أو تتناول وجبة طعام فى ظل الاشجار .. وتستهوى مناظر الطبيعة الجميلة أنظار الرسامين من أفراد قافلتنا ، فيخرج

الفنانون « سيف وانلى » و « الحسين فوزى » و « على الديب » أقلامهم الملونة واوراقهم ليسجلوا عليها رسوما تخطيطية سريعة للمناظر التى تستهويهم ..

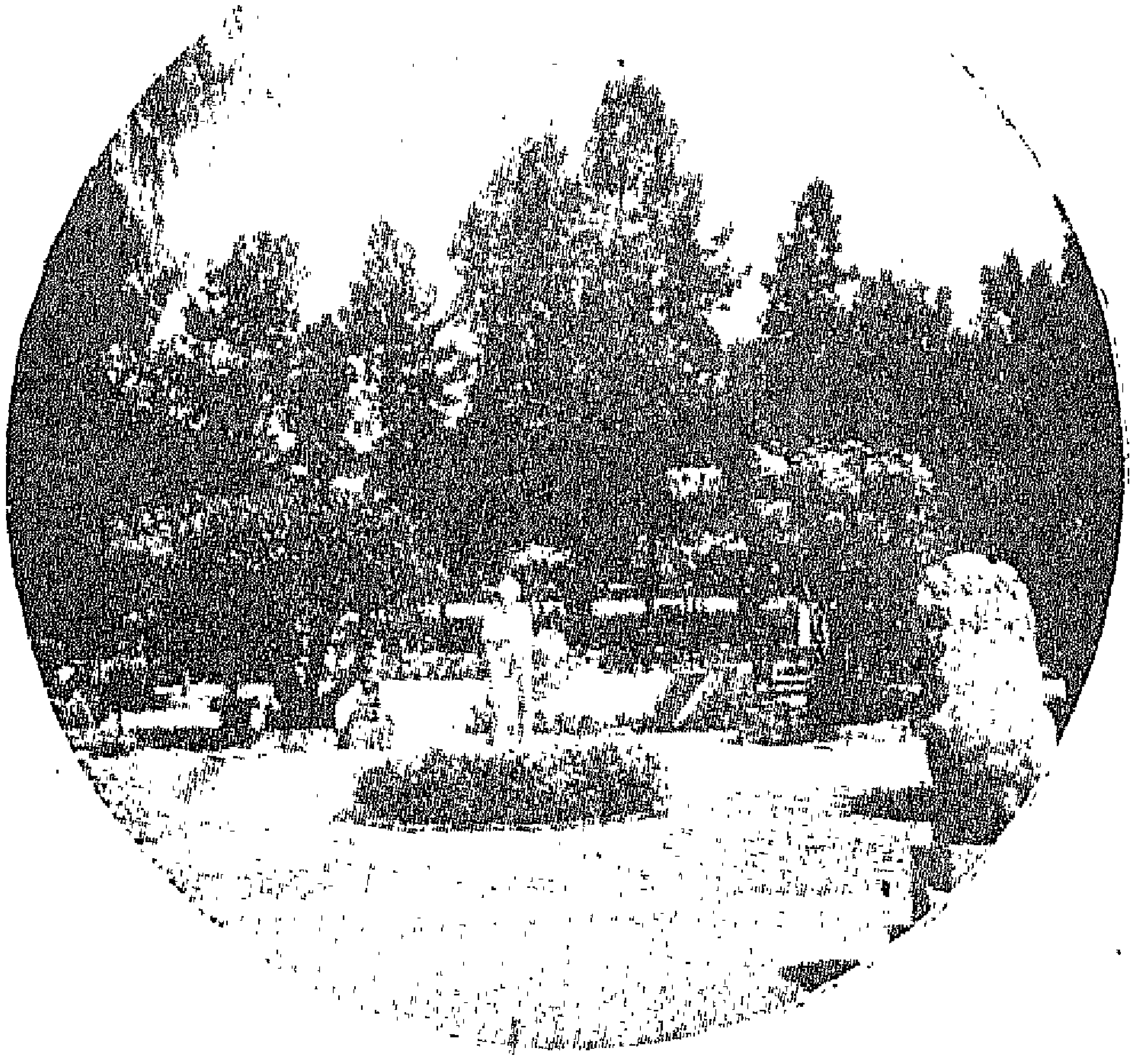
وقبل عودتنا الى دمشق ، نتوقف برهة فى منطقة (ميسلون) ، لنزور قبر الشهيد « يوسف العظمة » ، بطل موقعة (ميسلون) المشهورة التى خاضها المجاهدون



قصر (العظم) ، أحد متاحف دمشق الهامة



لوحة اثرية من (الموزايكو) بمتحف دمشق

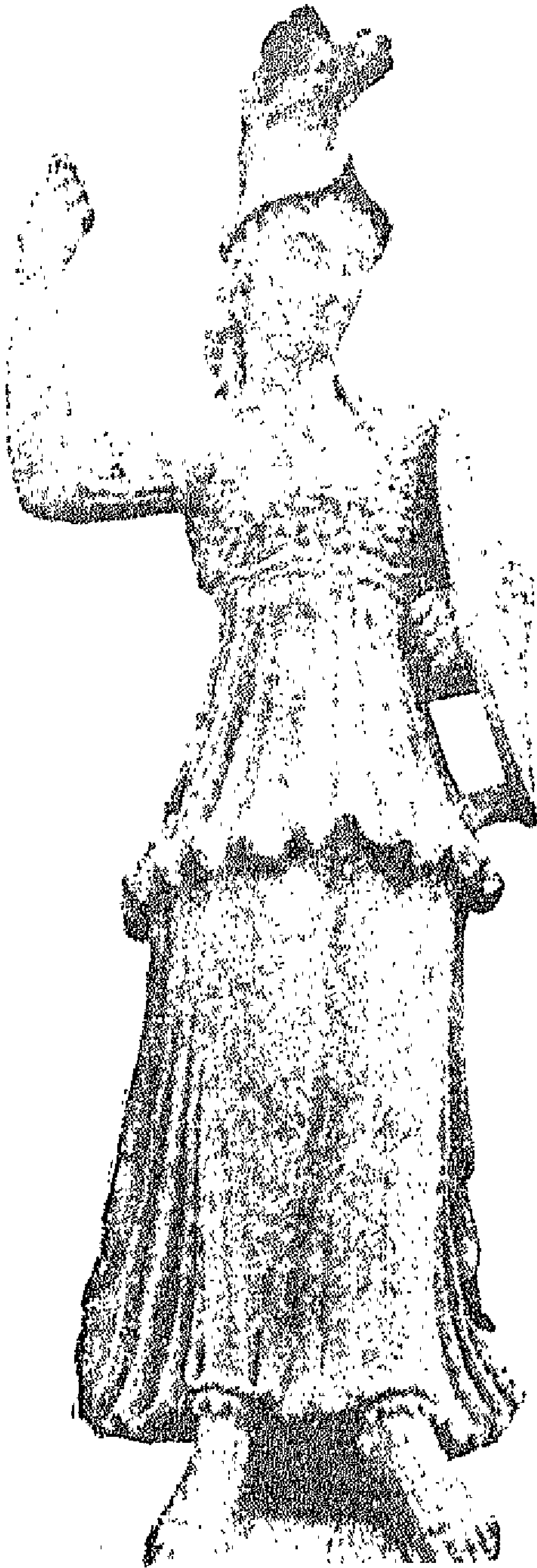


حديقة متحف دمشق القومى الحافل بالاثار والتحف

السوريون البواسل ضد الاستعمار الفرنسى الغاشم ..
واكتفى بهذا القدر عن مغانى الغوطة ومصايف دمشق.. كى أصحبك صباح غد فى جولة نزور فيها معالم مدينة دمشق ذاتها . . وقبل أن نبدأ هذه الجولة ، تعال نلم بطرف من تاريخ الاقليم السورى بصفة عامة :

قال أحد كبار المؤرخين عن سوريا : ((**انها الوطن الثاني لكل رجل مثقف فى العالم**)) .. فلقد تعاقبت عليها كثير من الحضارات القديمة ، فتركت فيها آثارها التى تعتبر اليوم تراثا ضخما وثمينا ، ففى كل مكان منها تنتشر آثار من عصور الحيثيين ، والاراميين ، والأشوريين ، واليونان ، والفرس ، والرومان ، والعرب ، والصليبيين ، والايوبيين ، والمماليك ، والعثمانيين .. وخلال كل تلك العصور ، شهدت الارض السورية اعنف أحداث التاريخ ، وارتوت بدماء المحاربين والغزاة من كل تلك الأجناس !

ولعل أشهر الاماكن التى تضم آثار ذلك التاريخ العريق ، مدينتا (تدمر) — أو (بالميرا) — و (بصرى الشام) .. وتليها فى الاهمية قرى ومواقع أخرى



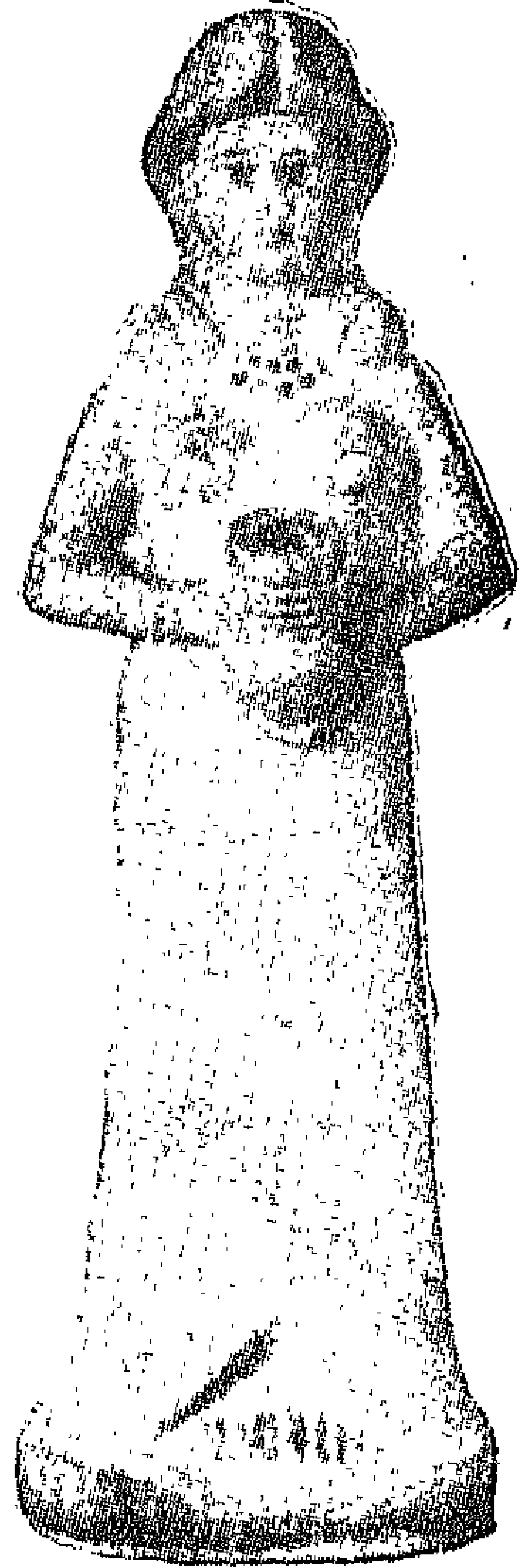
تمثال للالهة ((منيرفا)) بمتحف دمشق

بها آثار هامة ، منها : قبر هابيل ، معلولا ، قلعة الحصن ، صيدنايا ، كنيسة الزنار ، دير القديس سمعان .. الخ .

وقبل أن أروى لك شيئا عن كل من هذه المدن والبقاع ، تعال نزر أهم المعالم السياحية فى مدن سوريا الرئيسية الخمس : دمشق ، حلب ، حمص ، حماه ، اللاذقية :

دمشق

يطلق على دمشق ــ بجدارة ــ وصف « أقدم مدينة فى العالم » ، والمقصود بهذا أنها **أقدم مدينة ظلت مأهولة بالسكان على مر العصور ، ومازالت مزدهرة حتى اليوم ..** فهناك مدن أقدم منها ، لكنها اندثرت وعفى عليها الزمان .. ومدن أخرى كانت ذات امجاد وتاريخ ، ثم ففدت قيمتها ولم يبق منها غير اطلال دارسة (مثل بصرى الشام ، التى كانت عاصمة الرومان المحتلين لسوريا ذات يوم ، ثم تضاءلت قيمتها بعد جلائهم فلم يبق منها اليوم غير قرية صغيرة لا تكاد تحسب فى عداد المدن السورية الرئيسية) . وتدين دمشق ببقائها وازدهارها الى موقعها الهام (فى ملتقى



تمثال لالهة الاخصاب بمتحف دمشق



« زنوبيا » ملكة (تدمر)

قارات ثلاث) ، ومناخها المعتدل ، ثم الى نشاط أهلها وحيويتهم .

وتعداد سكان دمشق يبلغ نحو ٤٠٠ ألف نسمة وقد نشطت حركة العمران فيها منذ جلاء الفرنسيين عنها فى أعقاب الحرب الاخيرة ، بسرعة هائلة : فشقت الشوارع الفسيحة ، والميادين الكبرى ، وشيدت العمائر والمبانى الحديثة ، بل أنشئت فيها أحياء كاملة على الطرز العصرية (مثل « حى المهاجرين » الذى سلفت الاشارة اليه) ، بحيث صار زائر دمشق اليوم يرى فيها المدينتين القديمة والحديثة تتجاوران وتتجاذبان نظر السائح ، وتتقاسمان اهتمامه ووقته ..

ولا يملك زائر دمشق الا ان يذكر ما قاله فيها الشاعر « **لامرتين** » : « انى اقترب منها ، فيسبح ناظراى فى أروع وأغرب أفق وقع عليه نظر انسان : انها (دمشق) ! .. مآذن المساجد التى لا حصر لها ، وقباب القصور ، تعانق وتعكس أشعة الشمس الغاربة .. والمياه الزرقاء المتلألئة لسبعة أنهار تختفى شيئا فشيئا عبر الطرقات والحدائق .. »

أو قول الاديب « **موريس باريس** » : « حلم ، قديم قدم الدنيا ، يستكين تحت أشجار الصفصاف ، على ضفة

النهر السريع .. دمشق ، فى شبابها الزاهر ، وشيخوختها العريقة ، وهى تذيع شهرتها الخالدة من بين تلالها الشامخة الحمراء ، تبهرنا وتثير فينا الرقة والحنين .. انها وطن من أوطان الخيال ، وموطن من مواطن الشـــعر ، وقصر من قصور الروح ! »

وفى العدد القادم نواصل باذن الله جولتنا فى دمشـق ، وسواها من مدن الاقليم السورى ..



قناع وخوذة من العصر الرومانى ، بمتحف دمشق

تهنئة

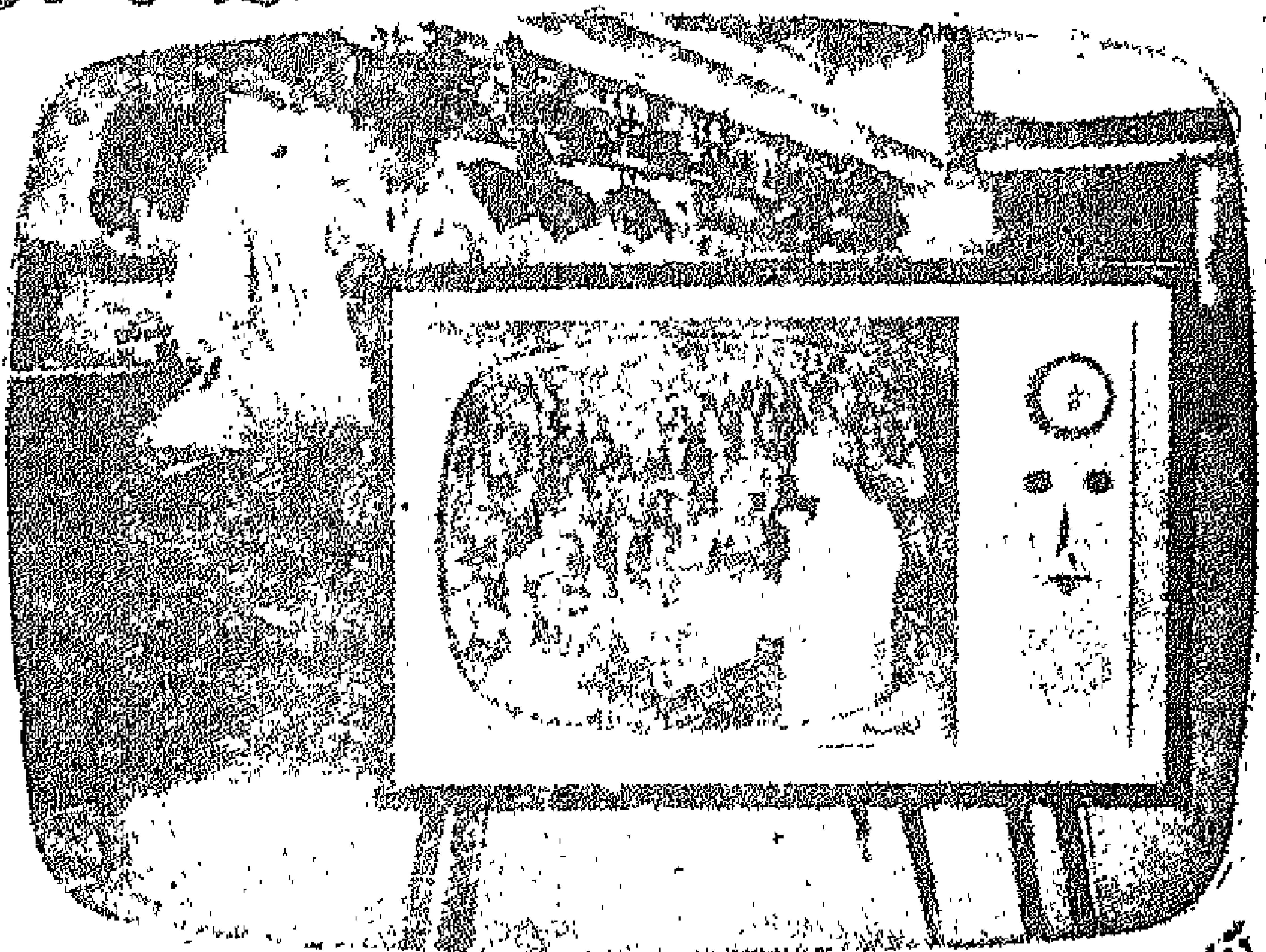
في عيد ميلاده الأول

يوليو ١٩٦٠ – يوليو ١٩٦١

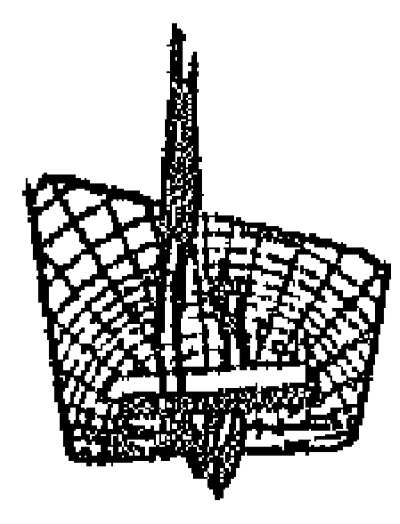
إلى التليفزيون العربي

لمعجزة العربية التي تحققت بفضل توجيه ورعاية الرئيس جمال عبد الناصر

وفي عهده المشرق



وتحية إلى أبطاله الأوفياء الذين أرسوا قواعد هذا الصرح الشامخ ..



تقدمها

شركة النصر لصناعة أجهزة التليفزيون

انتشار إشعاع التليفزيون العربي في كل مكان

يتقدم ركب الصناعة العربية، ويرتفع ..

من [illegible] إلى نصر إلى نصر

ليؤكد عزم الصناع العرب والمهندسين والخبراء العرب على النجاح الساحق

وتصميمهم على التفوق في كل ميدان جديد يقتحمونه عن جدارة

.. ابتهاجا بالعيد التاسع للثورة المباركة

يبدأ حجز التليفزيون النموذجي العربي

نصر ٢١

بوصة

مقاس ٢١ بوصة

في أشكاله وتصميماته الجذابة المتألقة، بالموبيليا، بالفورمايكا، أو عادة

ويتم البيع النقدي عن طريق شركة النصر

ويتم عمليات التقسيط والنقد بمحلات عمر أفندي وفروعها

وذلك اعتبارا من اليوم

التسليم الحالي لاستمارات الحجز فقط وقيمة العربون ٥ جنيهات فقط

الشركة تضمن جميع الأجهزة .. وتوفر لها الخدمة والصيانة وقطع الغيار



اعداد وترجمة : على شلش

عزيزى القارىء ..

احتفل العالم ، منذ أسابيع قليلة بالذكرى المئوية لميـــلاد شاعر الهند الاكبر وناثرها وفنانها العظيم : رابنـــدرانات تاجور .

وقد قدمنا لك فى الاعداد السـابقة من كتابى ومطبـوعاته عددا من روائع تاجور ، نذكر منها على ســبيل المثال روايته الممتازة « حطام السفينة » ، التى ترجمناها بعنوان : « قلوب ضالة » (مطبوعات كتابى : العدد ١٢) ، ومسرحيته المعروفة : تشيترا (كتابى : العدد ٥١) ، وقصـــته العاطفية الجذابة : المنبوذ (كتابى : العدد ٩١) ..

واليوم ، يساهم كتابى فى احياء ذكرى ميلاد هذه العبقرية الفذة ، التى أنجبتهـا الهنـد السـخية ، وقدمتهـا للعـالم ، لتشارك بها فى رصيد التراث العالمى .

ولقد كان تاجور ـ كما سـترى بعـد قليل ـ فنانا عـلى صعيد واسع ، متعدد الزوايا . وهو لم يكن فنـانا فحسب ، وانما كان رجل عمل أيضا .. شـغلته قضـايا بلاده ، عـلى اختلافها وتعددها . **بل اننا لانجانب الحق اذا قلنا انه قدشغل نفسه ـ الى يوم مماته ـ بقضايا العالم بأسره .**

والآن ، ندعك مع الصـفحات التالية ، لتعرفك بحياة الرجل العظيم وأعماله :

حيـاة تاجور

فى القرن الحادى عشر الميـلادى كانت الهنـد مقســمة الى ممالك صغيرة ، تربطها عقيـدة دينية واحـدة ، هى العقيـدة البراهمية ، المنســوبة الى « براهما » ، الاله الخـالق القـادر .

وفى احدى هذه الممالك ـ وكانت تسمى (كانوى) ـ عاش رجل من البراهمة يدعى « باهاتانا راينا » ، كان كل اهتمامه منصبا على العبادة والدين .

وقد حدث أن طلب ملك البنغال من جاره ملك كانوى أن يبعث اليه بوفد من البراهمة ، ليعاونه فى تنظيم حفل دينى بالمملكة .. وكان أن وقع اختيار ملك كانوى على « بهاتانا راينا » ، فأرسله على رأس وفد مكون من خمسة براهمة ، حوالى عام ١٠٧٢ .

وتم الحفل بنجاح ، لكن «بهاتانا راينا» لم يعد الى مملكته ، اذ آثر أن يقضى بقية حياته فى البنغال ، حيث تزوج ، وكون لنفسه أسرة صغيرة ..

من أعظم الأسر فى التاريخ .

وسرعان ما نمت الاسرة الصغيرة ، وامتدت أصولها وفروعها عبر السنين ، الى أن ارتقى معظم أفرادها مدارج الشهرة والمجد فى تاريخ البنغال . فقد كان الامير « دواركا نات تاجور » ـ جد رابندرا نات ـ مصلحا كبيرا ونصيرا للعلم والفن ، وكان ابنه « ديفندرا نات » من رواد حركة الاصلاح الدينى فى القرن الماضى ، كما ضمت الأسرة رسامين وشعراء وفلاسفة ، ساهموا فى احياء الثقافة الهندية فى القرن الماضى . فليس من عجب ـ اذن ـ أن يصف البحاثة الأمريكى « ول ديورانت » أسرة تاجور بأنها من أعظم الأسر فى التاريخ !

ومع هذا اتيح لتاريخ هذه الاسرة العريقة الموهوبة أن يشهد ـ قبل أن ينصرم القرن الماضى ـ تفتح موهبة جديدة ، أضافت الى رصيد الأسرة رصيدا جديدا ، أشد وأقوى .

يقول نهرو :

« لقد لعبت أسرة تاجور دورا ضخما في شتى حركات الاصلاح فى البنغال ، خلال القرن التاسع عشر • وكان فيها رجال لهم من عظمة الروح شأن كبير ، وكتاب وفنانون ممتازون • لكن رابندرا نات بزهم جميعا ، وسما عليهم • »

•• تلك الموهبة الجديدة المتعددة الجوانب قد تركزت فى الفتى الأسمر . النحيل ، الهادىء : رابندرانات تاجور •

الخالدون على موعد !

ولد رابندرا بمدينة (كلكتا) ، عاصمة ولاية البنغال ، التى كانت ـ اذ ذاك ـ أكثر ولايات الهند تقدما • وكان مولده فى السادس من شهر مايو عام ١٨٦١ ، فهو قد ولد فى السبعينيات من القرن الماضى ، أى فى ذات العقد الذى سجل ميلاد مواهب أخرى ـ فى أقطار أخرى من العالم ـ أضافت بدورها الى حصيلة التراث الانسانى شيئا جديدا نافعا • ومن هذه المواهب مواطنه العظيم : **غاندى . وأديبا فرنسا المعروفان : رومان رولان وأندريه جيد ، ورائد القصة القصيرة : أنطون تشيكوف ، وأديب بريطانيا : جون جالزورثى ، وشاعر ايرلندا : وليم بتلر ييتس •• الخ**

واسم « رابندرا » معناه باللغة البنغالية : الشمس • وقد أطلقه عليه أبوه تيمنا به ، وعلل ذلك بقوله : « دعوته رابندرا ـ ومعناها الشمس ـ لانه سيجوب العالم ، وسيهدى الناس بنوره » ••

ثلاث حركات ثورية

وقد ولد رابندرا ابان فترة خطيرة فى تاريخ البنغال والهند على السواء ، ذلك لان مطلع القرن الماضى قد سجل فى البنغال

انبعـــاث ثلاث حركات على جانب كبـــير من الخطورة . أولها حركة اصلاح دينى تبناها مصــلح ذكى هــو « راجا راموهان روى » ، الذى أرسى دعائم عقيدة دينية جديدة ، اســتوحاها من الديانة المسيحية ، والاسلام ، والنصوص الدينية القديمة ، فجاءت مزيجا حيا يقوم على تقديس الكائن الأعظم ، ومحاربة عبادة الأصنام ، وابطال العــادات الســيئة التى كانت منتشرة فى ذلك الحين ، كعــادة احــراق الزوجة بمجرد وفاة زوجها !

وكان هــدف الحــركة الثانيــة احيـــاء الأدب واللغـــة ، وتطويرهما ، وقــد نهض بهــا رائد ثورى ، هو « شـــاندرا شاترجى » .

أما الحركة الثالثة فقد تحولت الى الناحية القومية ، وسجلت فيها تقدما كبيرا ، أثر على كثيرين من معاصريها .

ولم تكن أسرة تاجــور بمعزل عن هـــذه الحركات الثلاث ، وانما شارك فيها جميــع أفرادها ، وكانت دار الأسرة ـ التى ولد فيها رابندرا ـ مركزا للنشاط الثــورى ، عــلى اختــلاف ابعاده الثلاثة .

ومن ثم نشأ رابندرا فى جو حافل بشتى ألوان النشاط الأدبى والوطنى والدينى ، مما أثر على روحه الرقيقة ، وجعله يمتزج بما حوله امتزاجا عنيفا ، حطم فى نفسه كل الحواجز والسدود التى تعوق الشاعرية والتأمل والخيال ، وهى صفات وخصائص كانت قد تشكلت فى داخله .

آثار عكسية

على أن هذه النشأة التى أمدته باستقلال مبكر فى الروح ، لم تكن ذات آثار حميــدة فى جانب آخر من حياته . ذلك لان محاولات ارساله الى المدرســـة مالبثت أن فشــلت تمـــاما ،

ولم يكن ذلك راجعا الى تقصير أو غباء من جهته ـ فقد شهد له كل من عرفه فى تلك السن بالذكاء والألمعية ـ وانما هو نفور من نظام التعليم الذى كان سائدا فى ذلك الحين .. فهو يصف أيام دراسته بقوله : « **كان علينا ان نجلس جامدين بلا حراك ، كقطع أثرية فاقدة الحياة فى أحد المتاحف ، بينما الدروس تنهمر علينا من عل ، مثلما تنهمر حبات البرد على الزهور !** »

وهو يعنى بالزهور هنا الأطفال ، الذين كان يرى ضرورة اتاحة كافة الفرص أمامهم ، لكى ينمو فى حرية وانطلاق . لكن هل نما هو فى نطاق هذه الحرية التى طالب بها ؟ .. الحق ان فشله المتكرر فى الانتظام فى الدراسة قد أصابه ـ فى البداية ـ بخيبة أمل وقنوط ، جعلاه ينطوى على نفسه ، ويبقى فى الدار رهين الجدران .

غير أن هذا القلق والقنوط لم يلازماه طويلا ، اذ مالبث أن فتح عينيه على الطبيعة الخلابة ، التى امتدت مظاهرها أمامه بلا حدود . فقد اعتاد أن يقضى معظم أوقاته فى حديقة هادئة ملحقة بالدار .

وسيطرت الطبيعة بحسنها وروعتها على روحه تماما ، فراح يتأمل كل شىء حوله ، وهو يناجى الطيور السابحة فى الفضاء، ويغازل الورود والازهار ، بل انه كان يرخى العنان لقلبه وعقله ، متيحا لهما أن ينهلا من هذا الحسن الماثل أمامه بلا ثمن، متأملا ـ فى الوقت نفسه ـ كل صغيرة وكبيرة تقع عليها حواسه المتفتحة العطشى .

عود الى ماض عريق

وحار الوالد المثقف الطيب ـ دفندرا نات ـ فى أمر ولده المتمرد القلق : ماذا يفعل من أجله ؟ ان داره منتدى

للثقافة ، وملتقى للمثقفين والفنانين ، فماذا عساهم يقولون لو علموا بأمر هذا الولد الهارب من الدراسة ؟

فكر الأب طويلا ، واستعان باتساع أفقه ، وبعد نظره . وما لبث أن استدعى المعلمين الى داره ، حيث عهد اليهم بأمر رابندرا ..

ونجحت المحاولة هذه المرة . فقد أبدى الصبي اهتماما ، لا مزيد عليه ، بالدراسة والعلوم . لكنه كان اهتماما من نوع غير مألوف بالنسبة لمن هم في سنه . ذلك لانه تعلق بالأدب القديم أيما تعلق ، وبذل من الجهد والعناء ، في فهمه واكتناه معانيه ، القدر الذى يبذله الدارس المتخصص ، مع فارق السن والتجربة . وكانت أسفار « الاوبانيشاد » أول ماوقعت عليه عيناه : فقد استهواه سمو المعاني ، وعفة الخيال ، وعمق الفكرة .. وانتقل بعد ذلك الى شعراء الهند القدامي والمحدثين ، فقرأ أشعارهم ، ونهل من فيض معينهم .

رحلة الى لندن

وأحس أبوه أنه ماض في طريق وعرة ، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره بعد ، ومن ثم قرر ايفاده الى انجلترا ، حتى يكمل تعليمه هناك ، ليعود بعد ذلك متسلحا بالأسلحة التى تعينه على مواجهة الحياة .

وأبحر الفتى الى لندن فى العشرين من سبتمبر عام ١٨٧٧ ، يرافقه شقيقه ، بقصد دراسة القانون ..

لكن القانون لم يلبث أن تحول الى أدب . ذلك لأن رابندرا لم يكن تستهويه دراسة علم جاف كالقانون ، وانما اجتذبه ذلك التراث الهائل من الشعر الذى خلفه شكسبير وملتون وشيلى ووليم بليك ، فراح يعب منه فى ساعات فراغه ، تاركا أصول القانون وأبحاثه ..

وهكذا حالفه الفشل فى الدراسة مرة أخرى ، فعاد الى وطنه بعد عام واحدقضاه فى لندن ، غارقا فى خيال الشعراءالانجليز، متأملا مظاهر الطبيعة من حوله ٠

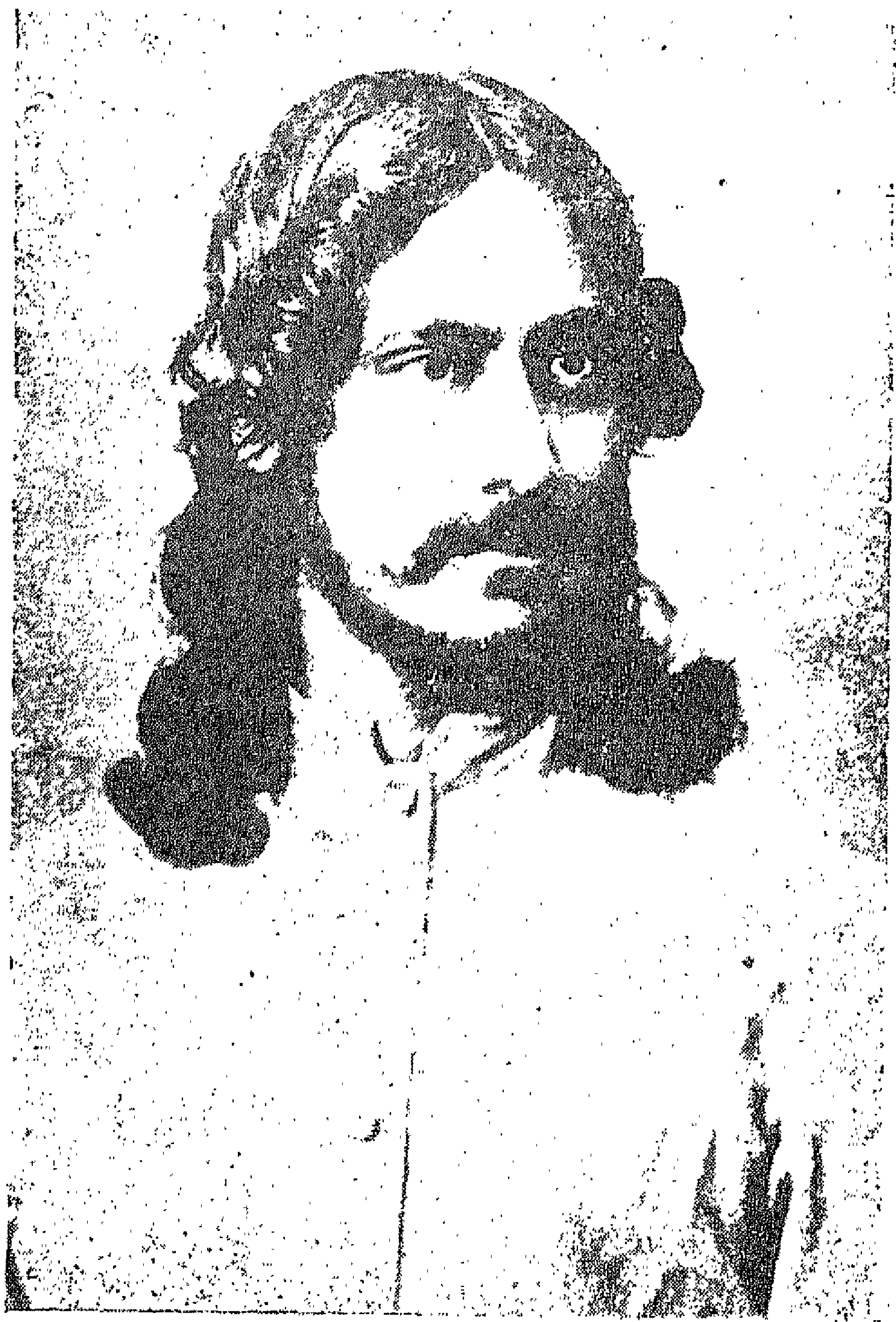
زواج ٠٠ من الشعر والفن

عاد رابندرا الى الهند ليجد ان الأفكار الثورية – فى الدين والأدب والسياسة – قد شرعت تنفذ الى أفئدة الناس وعقولهم ٠ وظهر رابندرا على مسرح الحياة ، وفى نفسه تصميم على الخلق والاضافة ٠٠ لقد تفتحت موهبته ، فأخذ ينظم الشعر ، ويغنيه ، ويلحنه ، آنا بنفسه وآنا آخر بمعاونةأخوته وأقاربه ٠

وخرجت أشعاره وأغنياته – أولماخرجت – فى ثوب بسيط وأفكار واضحة بسيطة أيضا ، لكنها حملت معها روحا جديدة لم تكن مألوفة فى الشعر البنغالى آنذاك ، مما لفت الانظاراليه، وجعل النقاد والمتزمتين على السواء يناصبونه العداء ٠ فهم لم يألفوا لونا من الشعر أوالأدب على شاكلة ما أحدثه هذا الفتى اليافع الذى عاد من بلاد مستعمريهم ، وفى جعبته الكثير من كنوزهم ، بينما فى روحه آمال كبار ٠ ومضى القرن التاسع عشر يحث الخطى نحو النهاية ، لكن كل عام انقضى منه كان يعلى من شأن موهبة « رابندرا نات » التى ازدادت توقدا واشتعالا ٠٠

كيوبيد يطارده

لكن هل يمكن أن يسلم شاعر رقيق الحس والوجدان من تجربة الحب الحقيقى ؟ ٠٠ ان تاريخ الأدباء والشعراء يجيب بالنفى القاطع على السؤال ، فما بالنا بشاعر بلغت به الرقة والحساسية حدا جعله يعتبر نفسه جزءا من الطبيعة ذاتها ؟



تاجور في شبابه « عام ١٨٨٥ »

لقد أحب الفتى ، منذ نعومة أظفاره ، هذه الطبيعة ، وعشق حسنها .. **فلم لا يعشق المرأة ؟ أو ليست كالزهرة الغضة التي أسره حسنها ، قبل أن يتعمق في تركيبها ؟**

لقد هفت روحه الى المرأة ، وهو على عتبات عامه الثالث والعشرين . فقد أحب فتاة رقيقة ، يشع من عينيها ذكاء نفاذ ، وتطل من وجهها روح هادئة خجولة . وكان اسمها : **((مرينالينى ديفى))** .. التقى بها في مدينة كلكتا ، فأحس بالهوى يعتصر جوانحه .. ولم يلبث أن طلب يدها .

وتزوج الشاعر الفنان ، وانزاحت عن قلبه تلك الوحشة التي تسللت اليه اثر عودته من انجلترا . لكنه لم يلبث أن انتقل الى الريف ، فاستقر في ربوعه ، ومعه زوجته ، حيث عاش هناك فترة ، أنجب فيها أطفالا من الشعر والانس على السواء .

دار السلام

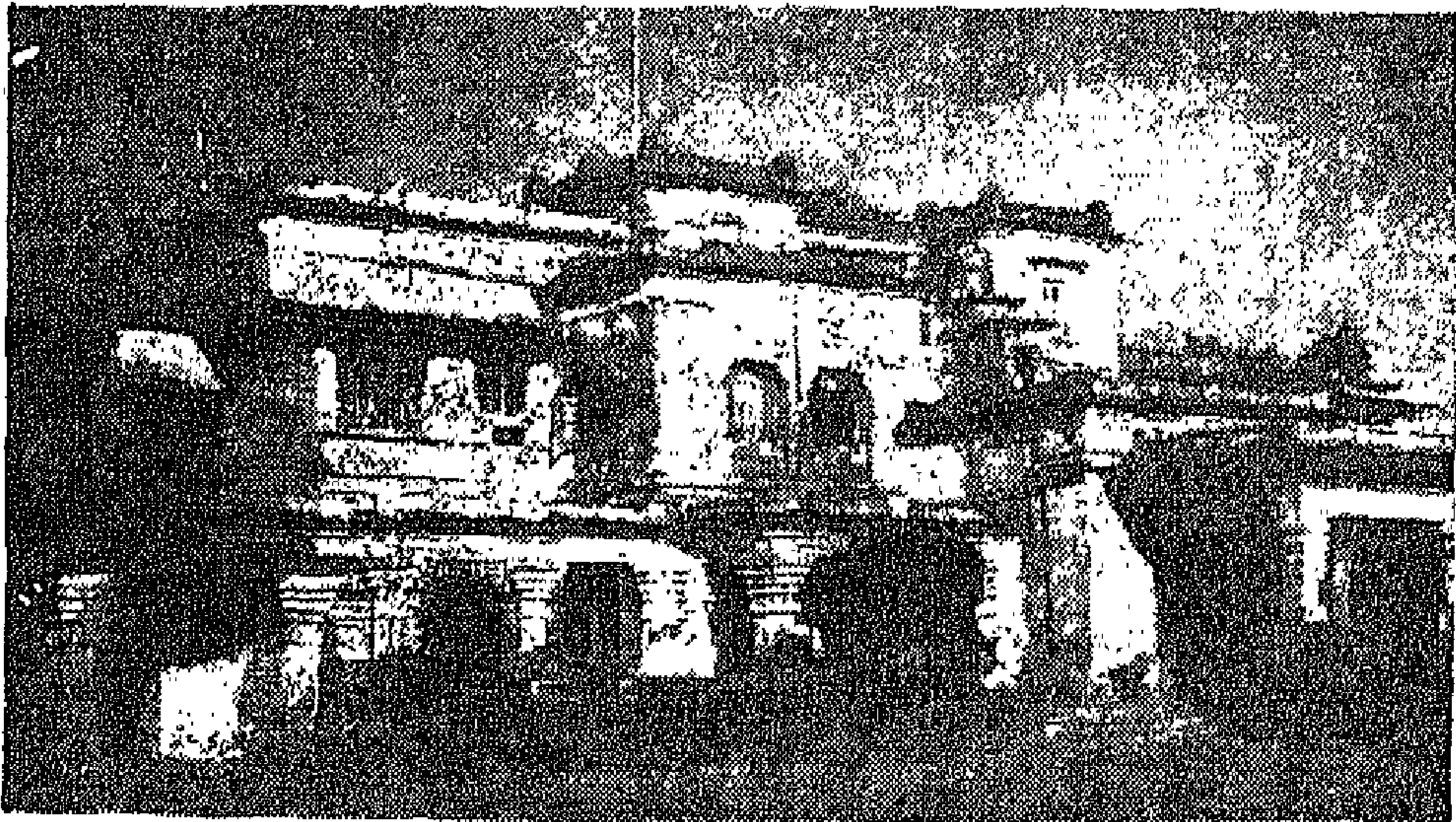
وفي عام ١٩٠٠ رحل مرة أخرى الى الخارج ، فزار انجلترا وايطاليا وفرنسا ، سائحا متأملا . لكن تيار الحنين الى وطنه لم يلبث أن جرفه من جديد . فعاد الى الهند ، وقد أصبح صيته يدوى في كل الاقطار التي زارها ، والتي لم يزرها ..

وفي تلك الأثناء كان تاجور مهتما ببلاده أشد الاهتمام ، وبهؤلاء الناس الطيبين الوديعين ، الذين يملأون الريف نشاطا وخيرا . ومن ثم فكر في ضرورة العمل على خدمتهم وتيسير سبل التعليم أمام أولادهم . وهو لا ينسى أنه قاسى الأمرين من ذلك النظام التعليمي البغيض ، الذي فرضه الاستعمار على بني وطنه ، لذلك استقر رأيه على تأسيس معهد متواضع لخدمة الريف وأبنائه . ففي عام ١٩٠١ اختار تاجور بقعة هادئة بالقرب من مدينة كلكتا ، أسس فيها ذلك المعهد

الصغير، الذى عرف باسم (شانتينكيتان) ، أى دار السلام . وكان أبوه قد مر بهذه البقعة قبل مائة سنة ، فتأثر كثيرا بهدوئها وصفاء جوها ، مما جعله يؤسس هناك قاعة للصلاة والعبادة ، خصصها للمسافرين والحجاج المجهدين من عناء الطريق ..

فلسفته فى الحياة والتربية

كان تاجور يؤمن بالعلم والتعليم، ويؤمن أيضا برسالتيهما ، لكنه كان يبغض الوسائل المتبعة فى عصره ، وخاصة فى تربية الطفل . ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة تثقيف الأجيال الغضة عن طريق اتاحة الفرص أمامها ، لكى تنمو وتتفتح فى حرية وانطلاق موجهين بتعاليم مأخوذة عن خبرة عميقة بنفسية الطفل .. كانت المدرسة — لديه — مكانا محببا يجب أن يرغب الطفل فيه ، بحيث لا يفر منه ، كما فر هو من قبل .. والمعلم — لديه — بطل ، وفنان مبدع للحياة .. والتعليم — فى النهاية — لابد أن يجعل حياتنا متسقة مع الوجود بأسره



صورة للدار التى كان تاجور يفضلها لسكناه فى «شانتينكيتان» وقد ألهمته كثيرا من روائعه

.. أن الحرية ، والتعبير الذاتي الخلاق . والاتصال الايجابى بالطبيعة ، والعلاقة المباشرة بحيساة الجماعة .. كل هــذه مبادىء اساسية لفلسفة تاجور فى التربية ، تلك الفلســفة التى نبعت من فلســفته فى الحياة . وهى فلســفة تتركز فى الترحيب بالحيــاة والابتهــاج بها ، كما تحتفى بالســعادة الداخلية الناشئة عن تحقيق الأهداف وبلوغها .

المصائب لا تأتى فرادى !

ولم يكد تاجور يســتقر فى معهــده هــذا ، حتى فجع فى زوجتــه ، التى توفيت فى عام ١٩٠٢ . ثم توالت المصــائب بعد ذلك ، واحدة تلو الأخرى : توفيت ابنته الكبرى فى عام ١٩٠٤، وتوفى أبوه فىعام١٩٠٥ ، وابنه الاصغر فىعام١٩٠٧ ..

.. وكان قــد مر بتجربة الموت قبل ذلك ، حين فقد امه وهو فىالسابعة من عمره. لكنه وجد عزاء ــ آنذاك ــ فىحداثة سنة . أما وقد جاوز الأربعين ، فالمصيبة اعظم ــ كما يقول شاعرنا العربى ــ ذلك لأنه أحس بالعالم يخبو ، وبالوحشة تخيم على الكائنات من حوله . وماذا يصنع شــاعر مرهف الحس فى ظرف كهذا ؟.. لقد أعتصرته المحنة ، وزلزلته من الداخل.. فلم يجد سوى الشعر فى النهاية ، فحط رحاله ، ومضىيبث القلم والورق لواعجه وأشجانه ، حتى انتظم لديه فى النهاية ديوان كامل من الشعر الغنائى ، أطلق عليه اسم (جيتا نجالى) : **أى ((قربان الأغانى))** .

قربان الأغانى يرفعه الى المجد

كان ظهور ذلك الديوان ــ الذى در عليه فيضا من الشهرة والصــيت ــ فى عام ١٩٠٩ .. وقد نظمه باللغة البنغــالية . لكنه لم يلبث أن ترجم الى الانجليزية فى عام ١٩١٢ ، وكتب

مقدمته الشــاعر الأيرلندى الكبير وليم بتلر ييتس ، الذى احتفى به ، وسعى الى معرفة ناظمه ، الى أن التقيا فى لندن ، حيث جمعتهمــا صــداقة وطيدة ، دامت ســنوات طويلة ، وانتهت بوفاة ييتس فى عام ١٩٣٦ .

كتب ييتس فى مقدمته يقول :

« لقد حملت معى مخطوط هــذه الترجمة اياما ، وكنت أطالع فيه فى القطارات ، وفى عــربات الأوتوبيس ، وفى المطاعم . وكثيرا ما كنت أكف عن المطالعة ، فاغلق المخطوط ، خشــية ان يلحظ على أحــد جنونى به . فهــذه القصــائد الغنائية قد استعرضت بأفــكارها عالمــا كم تمنيت ــ فى احلامى ــ ان أعيش فيه . »

ولم يكن موقف «ييتس» من أشعار تاجور موقفا غريبا ، أو مفــالى فيه ، ذلك لأنها قــدمت للعــالم لونا جديدا من الاحساس الشعرى ، المنظوم بعاطفة مشــبوبة ، يســندها عالم بأكمله من الصور والأفكار .

واســتقبل العالم الديوان اســتقبال الغزاة الفــاتحين ، وصفقت لناظمه أوربا ، ســواء فى ترجمتــه الانجليزية أم فى زميلتهــا الفرنســية ، التى قام بها اديب فرنســا الــكبير « أندريه جيند » . .

أول شرقى ينال جائزة نوبل

وقدرته المحافل الأدبية ، ورشــحته لجائزة نوبل ، فنالها فى عام ١٩١٣ . ومن طريف ما يذكر أن تاجور تنازل يومئذ عن قيمة الجائزة لمدرسته ، ورفض أن يستغلها لصالحه !..

وقــد نال تاجور جائزة نوبل للأدب فى وقت مبــكر ، فلم يكن قد مضى على قرار توزيعها ــ منذ وفاة صاحبها المخترع

السويدى الفريد نوبل ـ أكثر من اثنىعشر عاما . وبذا كان أول أديب من الشرق يفوز بهذه الجائزة ..

وفى ذات السنة (١٩١٣) منحته جامعة كلكتا شهادة



تاجور بين حشد من معجبيه ومستقبليه أثناء جولته فى اوربا عام ١٩٣٠

الدكتوراه .. ومنحه ملك بريطانيا وسام الفروسية برتبة « سير » فى عام ١٩١٤ .

ولعل القليلين هم الذين يعرفون قصة هذه الرتبة الأخيرة . ذلك لأنه تنازل عنها فى عام ١٩١٩ ، احتجاجا على مذبحة « أمرتزار » التى شهدها اقليم البنجاب ، ولم يقبل منذ ذلك التاريخ أن يعيدها الى الحياة مرة أخرى .

المدرسة الصغيرة تتحول الى جامعة دولية

على أن الشعر والفن لم يصرفاه عن رسالته الاجتماعية التى آمن بها . ففى غمار الصراع السياسى الذى شهدته الهند فى الثلث الأول من هذا القرن ، كان تاجور بمثابة قارع الطبول لشعبه المعذب الضائع .. واساه ، وحذره من أعدائه ، وحثه على التقدم والنهوض . فهو لم يكن قط منعزلا عن قضايا بلاده ، وقضايا الانسانية كافة ، ولم يكن من ذلك الصنف من الشعراء الذين يلوذون بالأبراج العاجية وقت الخطر ..

كان تاجور شعلة نشاط ، لا يخمد لها أوار ، رغم تقدمه فى السن ، ورغم زهده ومرضه ..

لذلك نجده يفتتح فى عام ١٩٢١ جامعته الكبيرة ، التى بدأت ــ يوم أسسها وأطلق عليها اسم شانتينكيتان ــ بخمسة فقط من التلاميذ . وقد جعل شعارها : « حيث يلتقى العالم بأسره فى مكان واحد » .. ذلك لأنه كان يؤمن بضرورة ازالة الخلافات والحواجز التى تعوق اتصال بنى البشر ، على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم ، فهو يؤمن بوحدة الانسان أينما كان . يقول : « ان الفيزفا بهاراتى تمثل الهند بما لديها من ثروة فكرية مطروحة للكافة » .. وبهذا المفهوم الانسانى الرفيع أوضح تاجور المربى قيمة الالتقاء

الثقافى . او المعاشرة الثقافية ، على حد تعبير النائب الحالى لمدير « الفيزفابهاراتى » ، وهو الاسم الذى عرفت به الجامعة . .

وهكذا ضمت أقسام (الفيزفا بهاراتى) المديدة ، طلابا من شتى أنحاء الارض ، يختلفون اليها ليدرسوا فيها كافة العلوم العصرية وغير العصرية على السواء . ذلك لانك تجد فيها الموسيقى والرقص جنبا الى جنب مع الدراسات القديمة ، كدراسة اللغات والاديان .

وللجامعة ايضا تقاليد وروح خاصة ، تجعلان منها نمطا فريدا من الجامعات . كما أن لها توأما آخر لا يقل عنها مكانة او شهرة . . **تلك هى شرينكيتان : دار الثروة ، التى** أسسها تاجور لتكون مركزا لاصلاح الريف بالقرب من شانتينكيتان .

وفى هذا المركز بذل تاجور تجربة عمره بأسرها ، فقد تدافعت الى ذهنه انطباعات طفولته وصباه عن الفلاحين الذين عاشرهم ، وخبر احوالهم . ومن ثم لم يستطع أن يقاوم الاحساس العنيف بضرورة مساعدتهم . .

سندباد عصره

كان شغف تاجور بالرحلات جما ، فريدا فى الوقت ذاته . فمنذ أن قام بأول رحلة الى انجلترا فى صباه ، وهو دائم التفكير فى التنقل والارتحال . لكنه لم يكن تفكيرا مجردا لذاته . وانما قام على أساس أن الرحلات وسيلة للتفاهم ، وتبادل المعرفة والخبرة . وكان هذا التفكير يزداد حدة كلما تقدمت السن بتاجور . فقد زار اليابان فى سن الخامسة والخمسين ، وزار امريكا فى التاسعة والخمسين ، وزار أوربا أكثر من مرة **بعد أن تجاوز الستين .**



تاجور فى بداية حياته ، والى جواره زوجته «مرينالينى‌ديفى» ،
وكانت اذذاك فى الثالثة عشرة من عمرها

لم يدع تاجور قطرا معروفا دون زيارة أو زيارتين · وقد أمدته هذه الزيارات والرحلات بشعبية لا نظير لها · فما من قطر زاره ، الا وتجمع أهله لمصافحته والترحيب به ، بل ومطاردته ـ أيضا ـ أينما حل ! ·· فقد كانوا يلمسون في أحاديثه عذوبة وأبوة حانية ، وكلما ازدادوا قربا منه ، كانوا يحسون بجلال ومهابة يشعان من وجهه وعينيه الوقادتين ، ويتأملون هذه النفحة التى أهداهم الشرق اياها ، فلا يملكون الا الاعجاب والثناء ·

لقد صوره الروائى الفرنسى الكبير رومان رولان ـ وقد كان صديقا حميما له ـ بقوله :

« هادىء النبرة ، متناغم الحركة ، عيناه سوداوان لماعتان ، تعكسان جلاله الصافى · اذا قاربته فكأنك تدخل هيكلا ، فتخاطبه بصوت خفيض · انك تلحظ فى وجهه النبيل ، خلال النغم ، وموسيقى الخطوط ، ذلك الألم الذى يسيطر عليه ، كما تلحظ رجولة فذة تتحدى معارك الحياة · »

فهكذا كان تاجور أمام الآخرين ، بل وأمام نفسه أيضا ، ذلك لانه كان يتمتع بوحدة فريدة فى شخصيته ·

تاجور فى الاسكندرية والقاهرة

وكانت مصر ضمن الأقطار التى زارها تاجور فى عامه الخامس والستين ·· وهى قد عرفته ـ على البعد ـ شاعرا فحلا ، ألهم الكثيرين من شعرائها ومثقفيها الشباب فى فترة مابين الحربين ·

وكثيرا ما تتبعه المثقفون والأدباء وتنسموا أخباره ، وودوا لو صافحت وجوههم وجه هذا الشاعر ، الذى بهرهم بقوة خياله وصفاء روحه · ثم جاءت الفرصة على غير موعد سابق ··

ففى صباح السبت ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٢٦ ، رست بميناء الاسكندرية الباخرة الرومانية (الامبراطور تراجان) ، قادمة من أوربا ، وعلى ظهرها الضيف العظيم ، يرافقه عدد من أفراد أسرته ، من بينهم ابنه وزوجة ابنه وحفيدته الطفلة ٠

وما أن علم الناس بوصوله ، حتى خفوا لاستقباله على ظهر الباخرة ٠ ووقف هو يرحب بهم ، ويتفرس فى وجوههم مبتسما محييا ، كطفل وجد ضالته بعد طول غياب ٠

يصفه الاستاذ نيقولا يوسف ـ وقد أتيح له أن يراه فى شبابه ـ بقوله :

« **كان ـ آنئذ ـ شيخا فى الخامسة والستين ٠٠ مديد القامة ، أسمر اللون ، مشرق الوجه مستطيله** ، عريض الجبهة ، مهيب الطلعة ، ذا لحية بيضاء مسترسلة ، وشعر أبيض متهدل ، يبدو تحت قلنسوة عالية ـ غير منتظمة الحواشى ـ من القطيفة السوداء ٠ ٠ ذا عينين واسعتين سوداوين عميقتين ، يشع منهما الذكاء والحنان ، وابتسامة حلوة بريئة ، وصوت منخفض مسموع هادىء النبرة ٠ ٠ تكسوه عباءة فضفاضة برتقالية اللون ، تستر ماتحتها من الملابس الشرقية . ويرى من تحت ذيولها « بنطلون » رمادى عادى ٠ »

فلسفة الشاعر هى فلسفة الشعب

فى اليوم التالى أقيم له احتفال ضخم على مسرح « الحمراء » بالاسكندرية ، شهده جمع حافل من المسئولين والمثقفين ورجالات الجالية الهندية ٠ ثم ألقى تاجور محاضرة قيمة ، عنوانها « فلسفة قومنا » ، قال فيها انه ليس فيلسوفا ، وانما هو شاعر فحسب « كالكثير من أهل الهند لاتتعدى فلسفتى فلسفة الشعب » ٠٠ وتلك فلسفة الشاعر

– يرى الشعر والفلسفة سلاحين من أسلحة تحقيق كمال الاتصال بالحياة ·· ودعا الى « الانطلاق الى حيث تجد النفوس ماتتوق اليه من حقيقة الحياة الروحية ، التى هى أساس الكمال الانسانى ومصدر الطمأنينة النفسية · »

وانتقل تاجور بعد ذلك الى القاهرة ، حيث كان فى استقباله – بالمحطة – عدد كبير من العرب والأجانب ، وعلى رأسهم أمير شعراء العصر أحمد شوقى ·

أمير الشعراء يحتفى به

وفى المساء أقام أمير الشعراء حفل شاى لتكريمه بداره المعروفة باسم : كرمة ابن هانىء ، شهدها عدد من السياسيين والأدباء ، من بينهم : سعد زغلول ، أحمد لطفى السيد ، حافظ ابراهيم ، محمد حسين هيكل ، عبد العزيز البشرى ، وكثيرون غيرهم من العرب والاجانب ·

ونهض تاجور ، فارتجل كلمة باللغة الانجليزية ، حيا فيها الحاضرين ، وشكر لهم تأجيل انعقاد مجلس النواب احتفاء به ، ثم أشار الى روح الشرق فى الثقافة والشعر قائلا :

« **ان بلدكم بلد شرقى هو مصر · وقديما كان الشرق مهبط الشعر ومهد الشعراء** · وقديما كان الشرقيون أشد الناس احتراما للشعر واعزازا للشعراء ·

« تلك ميزة الشرق المعنوية – وهى ميزته الكبرى – وانى سأحمل الى بلادى مجموعة من نفائس الثقافة العربية ، لكى ينتفع بها المتأدبون من أهل بلادى · » ··

عبد الوهاب يغنى لتاجور

ثم جاء دور الموسيقى والغناء . فغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب بعضا من أغانيه ، بينما الضيف الكبير منصت ، متتبع للنغم ووقع الكلمات · وليس من غرابة فى ذلك فقد

كان تاجور يجيد الغناء كما يجيد التلحين · وقد استمع اليه الجمهور في الاسكندرية والقاهرة وهو يغني شعره ملحنا ، فطرب له أيما طرب ، وحار الناس ــ آنذاك ــ اذ سمعوه يلون صوته في براعة ، ومقدرة فائقة على الترخيم والتلوين ··

ولم تنقطع حفلات التكريم بعد ذلك ، اذ تتابعت وتنوعت ، مصحوبة بصفحات كاملة من صحف ذلك العهد في التعريف بالضيف العظيم ذى الموهبة المتعددة الزوايا ·· كتب عنه طه حسين والعقاد والرافعى وهيكل والمازنى ، ونظمت من أجله قصائد التكريم والترحيب ، وأفاض الخطباء والأدباء في ذكر مكانته ومزاياه ·

العودة للوطن

وانتهت زيارة تاجور في الثاني من ديسمبر ١٩٢٦ ، بعد ستة أيام قضاها فى « قطعة من فؤاد الشرق » ــ على حد تعبيره في احدى قصائده عن افريقيا ــ غنية بأحاسيسها وحبها له ··

وعقب عودته الى الوطن ، دعته جامعة اكسفورد فى عام ١٩٢٨ لالقاء سلسلة من المحاضرات على طلبتها · لكنه ما أن استعد للسفر ، حتى داهمه المرض ، فألزمه الفراش فترة من الوقت ، اضطر خلالها الى الاعتذار عن قبول الدعوة ·

رسائل من روسيا

ثم سافر الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣١ ، حيث أقام فترة ، درس فيها أحوال الشعب الروسى ··

وخرج من رحلته هذه بكتاب جعل عنوانه : **رسائل من روسيا** ، جمع فيه انطباعاته عن الحياة والفكر هناك ·

وما أن لاحت نذر الحرب العالمية الثانية فى الجو السياسى ، حتى بادر الشاعر بالعودة الى وطنه ــ وهو أشد مايكون

مقتا واحتقارا للنازية والفاشية ، اللتين سبق له أن هاجمهما في عقر دارهما ـ حيث أقام في شانتينكيتان ، بين تلاميذه ومواطنيه من الفلاحين البسطاء ٠

وفي ١٩٤٠ منحته جامعة اكسفورد درجة الدكتوراه في الأدب ، تقديرا لجهوده ، واعترافا بفضله ٠ لكنه لم يأبه كثيرا بهذا الشرف الذي ناله ـ وتلك كانت عادته ـ فقد مضى الى نفسه يراجعها ، غير ملتفت الى صيحات التقدير والثناء التي عمت العالم بأسره ، قانعا ببيت صغير متواضع ، شيده من أديم الارض ، وأطلق عليه اسم « سيامالى » ، ولم يبخل عليه بقصيدة تعد من أروع شعره ٠

بداية النهاية

وحلت ذكرى ميلاده الثمانين ، فاجتمع الناس للاحتفال به وتكريمه ، لكنه لم يكن في حال تسمح له بمشاركتهم ، اذ كان المرض قد سرى الى جسده الرقيق ، فأقعده عن الحركة ٠٠

لقد ضعفت صحته ، وازدادت حالته سوءا ، يوما بعد يوم ٠ ومع ذلك كان يقاوم المرض ، ويتحمل أوجاعه ـ رغم شيخوخته ـ بشجاعة وصلابة ، دونهما شجاعة وصلابة ابن العشرين ٠

لم يكن يخشى الموت قط ٠ اذ الموت لديه ـ كما عبر عن ذلك في قصيدته التي ستطالعها في غير هذ المكان ـ أجازة ينالها المرء ، ليحلق بعد ذلك في عالم أعظم وأكمل ٠

لكن ، أيصمت رجل عطوف القلب ـ اعتبر العالم بأسره وطنا له ـ على هذه المظالم الوحشية التي كانت ترددها الأنباء من حوله كل يوم ، ناقلة اليه تحركات الجيوش الهتلرية في أوربا ، وغير أوربا ؟ ٠٠ أو يلوذ بالصمت ، بينما

العالم يضج صارخا ، مستنجدا بكل ماهو انسانى شريف ؟
.. ذلك فى الواقع ماكان يعذب روحه النبيلة الصافية .
فهو قد جاب الارض من المشرق الى المغرب ، وحمل الى الناس رسالة الحق والسلام والتعاون ، وها هو الآن عليل ، طريح الفراش ، لايملك أن يرفع صوته ، ولا يملك أن يتحرك ، وأن يلحق بالجيوش ، مناشدا ، ساعيا الى أمان العالم وسلامه ..

الحارس العظيم ينهى نوبة الحراسة

لقد كان قيظ يوليو من ذلك العام ـ ١٩٤١ ـ يلهب الارض ومن عليها ، ومع ذلك لم يضعه الشاعر فى الاعتبار ، مثلما وضع ذلك اللهيب الحقيقى الذى كان يوشك أن يلم بأطراف الارض بين لحظة وأخرى .

وهرع الشاعر ذات ليلة ـ وعلى التحديد فى الليلة قبل الاخيرة من شهر يوليو ـ الى القلم ، وراح يسطر أحاسيسه شعرا ، حتى انتظمت أمامه قصيدة سكب فيها خلاصة عقله وقلبه ، ومنها :

ها قد أزفت ساعة الرحيل .. انى أمضى صفر اليدين ، لكنما الأمل يغمر قلبى .

ان الطير فى فضائه يحلق ، لا ليجوب الخلاء ، وانما ليعود ـ من حيث أتى ـ الى عالمه الأعظم .

لقد أحس بدنو منيته ، ومع ذلك فالامل يغمر قلبه الغض النابض ! .. الأمل فى خلاص البشرية من زبانية الدمار .

ولم تكد تمضى ثمانية من الأيام على هذه الحادثة ، حتى فاضت روح الحارس العظيم ـ فهكذا وصفه غاندى ـ فى السابع من أغسطس عام ١٩٤١ .. لم تحلق فى الفضاء ، وانما عادت ـ من حيث أتت ـ الى عالمها الأعظم !

نظرات في أدب تاجور وفنه

ترى ، ماذا تركت لنا هـذه الحياة الحافلة التي بلغت ثمانين من السنين ؟ ..

لقد عاش رابندرا نات تاجور هذا العمر المديد بصدق واخلاص لنفسه وعالمه ، وكان غزير الانتـاج متنوعـة .. لم يترك بابا من أبواب الفن أو الأدب دون طرقة أو أكثر من أنامله الرقيقة الحانية .

نظم شعرا ، وكتب قصصا قصيرة وروايات ومسرحيات ، وألف أغان ومقطوعات موسيقية ، ومثل وحاضر ، ودبج بقلمه رسائل لأصدقائه وأقاربه بلغت حدا كبيرا من الروعة والكمال ، وألف في النقد واللغة والتاريخ وعلم الجمال ، وجاب العالم متنقلا بين بلدانه .. وماذا أيضا ؟

أكمل فنان عرفه العالم

الحق ان تاجور قد حير مؤرخيه ونقاد أدبه ، لكنهم أجمعوا في النهاية على انه كان فنانا بأوسع معاني هـذه الكلمة ، بل ان أحدهم ـ وهو الدكتور سـوكو مارسن مؤلف تاريخ الأدب البنغالي ـ قد قال عنه انه « **أكمل فنان عرفه العالم** » ، ثم أضاف الى ذلك قوله :

« كان المرء يحس ، اذا ما التقى به أو قرأ له ، بأنه يقترب من جبل شامخ من جبال التجربة والحكمة الانسانيتين » ..

الطبيعة هي الأم الحنون

واذا كان تاجور قد نفى عن نفسـه صفة الفيلسـوف . واذا كان مؤرخوه ونقاد أدبه قد شاطروه هذا النفي ، بمعنى انه لم يكن فيلسـوفا ، ذا نظـرية متكاملة شـاملة كما هي الحـال



تاجور يؤدي مشهدا تمثيليا في احدى مسرحياته .. وكان في الثانيـة والعشرين (التقطت في عام ١٨٨٢)

بالنسبة للفلاسفة الاكاديميين ، الا انه كان مفكرا ذا نظرات عميقة صائبة ، نشرها في مؤلفاته وابداعاته ٠٠

وأبرز هذه النظرات نظرته الى الطبيعة ٠٠ ذلك انها كانت مفتاح الحقيقة بالنسبة لأدبه وفنه ٠ وهو قد تعلق بها منذ نعومة أظفاره ، كما يتعلق الطفل بثدى أمه ٠ ومن ثم اعتبر نفسه من مظاهرها ومكوناتها ، شأنه في ذلك شأن الشجرة والنبات ٠

كتب الى ناشر شعره ذات مرة يقول :

« انني — أيضا — أفهم الشخص الذى تنظر اليه باعتباره رابندرا ٠ فهو شيء من أشياء الطبيعة ، كالبرعم والتويج في الاشجار والنباتات ٠ **ولو انه أزهر وأورق بشكل طيب ، ولو انه ذبل وخبا ، لما حدث أى ضرر من جراء ذلك ! »**[1]

وهذه النظرة مستمدة من فلسفة الهند القديمة ذاتها ٠ ذلك لان الشرق — وتمثله الهند — يحترم الطبيعة ، ويسلم بها ، ولا يثور عليها ٠ اذ ثمة علاقة وثيقة تربط الانسان بغيره من كائنات الطبيعة ، وهى علاقة أشد ماتكون وضوحا فى الهند ٠ لكن كيف يصل الانسان الى تحقيق هذا الترابط الوثيق ؟ ٠٠ ذلك ماشغل بال تاجور ٠ لكنه سرعان ما أجاب عليه في شعره وفنه وأدبه ٠٠ اذ دعا الى مصادقة الطبيعة ، الى الحلول فيها ، الى التعاون معها ، حتى نتمكن فى النهاية من فض أسرارها وكشف غوامضها ٠٠

الشاعر يرى الحقيقة ويظهرها للناس

لم يكن تاجور قد تجاوز عامه الثانى عشر حين فاضت أحاسيسه ، وظهرت الى الوجود شعرا ، لفت أنظار الناس ٠ وجعلهم يهتمون بأمره ٠٠

وقد لازمه نظم الشعر الى أرذل العمر ، وجر عليه الشهرة

والصيت . فقد ترك ـ بعد وفاته ـ تراثا شعريا لا نظير له فى أدب بلاده الحديث . .

ان متذوق شعره يحس ، فور الانتهاء من المطالعة الأولى ، بانه ولج عالما حافلا ، سدنته الحب والصفاء ، ولحمته الانطلاق والشفافية . . وما ان يعاود المتذوق طرق باب هذا العالم الشعرى الفسيح ، حتى يحس بأنه جديد عليه ، وانه لم يدخله من قبل ، بل انه يحس أيضا انه كان يبحث عنه . .

وفى شعر تاجور عفوية لا حد لها ، وهى عفوية تلمح فيها آثارا من حكمة الهند وروحانيتها . ذلك لأن تاجور لم يرفض التراث القديم ، وانما انكب عليه ونهل منه ، واعتبره مرحلة من حقه أن يضيف اليها . وتلك كانت ميزته الكبرى ، اذ جدد فى اللغة البنغالية ، ونهض بأساليبها ، وادخل عليها الكثير من التحسينات والاضافات .

مبادىء اولية فى تذوق الشعر

على أنه من واجب المتذوق ، قبل ان يطرق باب هذا العالم الشعرى ، أن يضع فى اعتباره بعض المبادىء الأولية ، التى اقترن بها الشعر العالمى المعاصر وهى :

• ليس الشعر هو الواقع بدقائقه وتفاصيله ، وانما هو خلق جديد لهذا الواقع .

• ليس الشعر مطابقا للنثر فى شرطى الوضوح وتسلسل الأفكار . وانما الشعر وسيلة للتعبير ، مخالفة تماما للوسيلة الاخرى ، وهى النثر . والفرق بينهما ليس فى مسألة الشكل أو المجاز ، وانما هو فرق فى طريقة التفكير والاحساس . ومن ثم يكون للشعر أن يبتعد عن وضوح النثر ومنطقيته ، ويكون له أيضا أن يستعين بالرموز ، وغير ذلك من وسائل مسعفة .

• **الشعر** يخضع للتجربة ، التى ينسجها الشاعر وفق هواه وثقافته واحساسه. ومن ثم يكون من العسير أن يفسر، وأن يحلل الى عناصره الأولى الموجودة فى الواقع . فقد يرى الشاعر السماء بلون الدم ، رغم أننا نعرف أنها زرقاء صافية ، وهنا يقع الخلاف . اذ يجب أن ندرك أن الشاعر يعرف ـ كما نعرف نحن ـ لون السماء فىالحقيقة والواقع ، لكنه ، فى تجربته الشعرية ، قد رآها على خلاف لونها الحقيقى ، وهذا من حقه .

وعلى هذا نجد تاجور يصف السكون ـ فى احدى قصائده ـ بأنه مشمس ، فلا غرابة فىذلك ما دمنا قد اتفقنا على ولوج عالم التجربة الشعرية ، ونحن خالين تماما من الأحكام المسبقة ، ومن النزعة المنطقية الآخذة بالاسباب والمقدمات قبل النتائج ..

لماذا تعددت الأشكال الفنية ؟

لقد عرفنا عن تاجور تنوع انتاجه الفنى ، فما سبب ذلك ؟ .. الجواب أنه كان فنانا كاملا ، كما قال الدكتور سوكومار من قبل . والفنان الكامل لا تؤرقه مسألة الشكل الفنى ـ أى انقسامه الى قصة أو قصيدة أو مسرحية ـ وانما يؤرقه الموضوع ذاته بما فيه من دلالات ومضامين . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة أخرى هى ما تسمى بمرحلة التفاعل بين الشكل والمضمون .. هذه المرحلة هى التى تحدد الشكل فى النهاية . فقد يرى المبدع موضوعه لا يستقيم الا فى شكل قصيدة ، ومن ثم يخرج العمل الفنى منظوما فى قصيدة ، وهكذا ..

لقد هوى تاجور الرسم وهو على مشارف عامه السبعين ، وفسر ذلك بقوله : ((**ان لوحاتى هى شعرى منظوما فى**

خطوط » . ومعنى ذلك أنه وجد فى الرسم وسيلة مسعفة لنقل مضامينه ودلالاته ، وتوصيلها الى المتلقى والمتذوق .. فلا بأس اذن من أن يستعين بالرسم لافراغ هذه المضامين والدلالات .

ومثل آخر .. يقول تاجور فى قصيدة له ، شرح فيها تغلب روح كتابة القصة القصيرة عليه :

«اننى اشعر بالاضطرار الى كتابة القصص ـ واحدة تلو الاخرى ، وبطريقتى الخاصة ـ **حول حياة المتواضعين الخاملين من الناس ، وحول مسائل ذات دلالات صغيرة ، بسيطة حقا وواضحة . »**

من ذلك كله نتبين مدى الشعور بالمسئولية لدى تاجور ازاء المضامين والدلالات ، وهو شعور جعله ينوع من الأشكال الفنية . بقدر حاجته الى هذا الشكل أو ذاك !

شاعريته أساس فى كتاباته

على أن روحه الشاعرة وشاعريته المتدفقة قد تغلبتا على ما عداهما من صفات وخصائص فنية ، تمتع بها هذا الشاعر الفذ .

ففي اول مسرحية له ـ كتبها عام ١٨٨١ اثر عودته الأولى من انجلترا ـ نجده يستعين بالشعر فى صياغة أفكاره ، بدلا من الحوار النثرى ، المألوف فى المسرحيات الحديثة .

كذلك لم يكن تاجور فى نثره محللا منطقيا ، يأخذ بالمقدمات والأسباب قبل النتائج ، وانما تسلل الشعر الى نثره ، فغلف الفاظه ومعانيه ـ فى أحيان كثيرة ـ بالرقة والعذوبة وجنوح الخيال .

الحب الانسانى الشامل

ولم يكن تاجور يقدس شيئا قدر تقديسه للانسان .. باعتباره ظاهرة طبيعية . ومن ثم أحبه تاجور ، وأخلص له حتى النهاية ، والتقى به فى شتى انحاء الأرض ، وأقام له فى كتاباته وأشعاره هيكلا ، تلا فيه الصلوات من أجله ، فى كل مكان ..

وكما أحب تاجور الانسان أحب الحياة أيضا ، ونظر اليها كحركة متجددة على الدوام .. ومعنى ذلك أن الحياة لديه أزلية تسمح بتناسخ الأرواح ، وما الكون كله الا وحدة شاملة تجمع هذه الحياة بما بعدها من حياة أخرى .

نبوءة ابيه تتحقق

لقد مضى تاجور ، ورحل الى الحياة الأخرى التى تشدها بعد أن شغل العالم بموهبته أكثر من نصف قرن ..

غير أن العالم لم ينس هذه الموهبة التى شغلته ، وانت استضاء بنورها ، وقبس من اشعاعها .. تماما كما تنبأ ابوه من قبل ، حين قال انه ــ كالشمس ــ سيجوب العالم وسيهتدى الناس بنوره .

اعماله فى سطور

• أكثر من ١٥ مجموعة شعرية ، اشهرها : جيتا نجالى ، البستانى ، القمر المهل ، الطيور الشاردة .

• أكثر من ١٠٠ قصة قصيرة .

• أكثر من ٢٠٠ أغنية ، من بينها النشيد القومى للهند المعروف باسم : جانا جانا مانا

• نحو ٢٥ مسرحية من فصل واحد وفصلين ، أشهرها : تشيترا ، الضحية ، مكتب البريد ، الملك والملكة .

- نحو ٨ روايات اشهرها : حطام السفينة (أو قلوب ضالة) ، جورا .
- ٤ مؤلفات فى الأدب الشعبى وفلسفة اللغة وعلم الجمال والرحلات .
- مجموعة ضخمة من الرسائل الخاصة ، التى بعث بها الى أولاده واصدقائه .
- مجموعة من الرسوم واللوحات تربو على ٢٠٠ لوحة .

هؤلاء قالوا عن تاجور

ماذا كان تاجور : أكان حالما وشاعرا ، أم مغنيا ، أم فنانا وموسيقارا ، أم مؤلفا مسرحيا وممثلا ، أم روائيا وكاتب مقالة ، أم معلما وانسانيا ، أم قوميا وعالميا ، أم فيلسوفا ورجل عمل ؟ . . حتى هذا السجل الموجز لتعدد جوانب حياته لا يفى بأكثر من صورة متواضعة لما كان عليه !

((نهرو))

انما الذى يملأ نفسك فى حضرة تاجور هو تجلى فكرته الروحية فى كل شىء من كيانه المادى .

((طه حسين))

لقد قام خير قيام بالمهمة الموكولة اليه ، مهمة تنوير معاصريه ، وتوجيههم نحو السبيل السوى .

((رومان رولان))

لا أظننى عرفت فى الآداب العالمية نبرة أسمى وأجمل من نبرة تاجور.ان ما يعجبنى فيه ، ويملأنى دموعا وابتساما ، تلك الحيوية الخصبة التى يفيض بها شعره ، فتجعل من التعاليم البرهمانية العويصة شيئا خفاقا ، نابضا بالروح !

((اندريه جيد))

ان قصائده تستعرض بأفكارها عالما كم تمنيت احلامى ، أن أعيش فيه .

((وليم بتلوبيتس))



صورة نادرة تمثل تاجور وهو يؤدى أحد الحانه بمصاحبة ابن اخيه .

باقة من شعر تاجور وأقواله

والآن ، بعد أن فرغت من مطالعة حياة الشـــاعر العظيم ، يمكنك أن تمضى فى مطالعة هذه الباقة التى انتقيناها لك من انتاج تاجور . ونقدم لك أولا باقة من شــعره وأقواله ، ثم مقتطفــات من ديوانه المعروف : ((**الطيور الشـــاردة**)) .. وأخيرا نقدم لك قصته القصيرة : ((**موظف البريد**)) .

دلال !

قال لى فى همس : ارفعى عينيك يا حبى
فنهرته بحدة ، وقلت : ((أمض !)) ، لكنه لم يحرك ساكنا .
وقف أمامى ، وأمسك بكلتى يدى ، فقلت : ((دعنى !)) ،
لكنه لم يمض .
أدنى وجهه من أذنى ، فنظرت اليه ، وقلت : ((يا للعار !)) ،
لكنه لم يحرك ساكنا .
ولامست شفتاه وجنتى ، فارتجفت ، وقلت : ((يالجرأتك!)) ،
لكنه لم يخجل .
وثبت زهرة فى شعرى ، فقلت : ((لا فائدة !)) ،
لكنه وقف بلا حراك .
ثم أخذ الاكليل عن عنقى ، ومضى بعيدا ..
انني أبكى ، وأسال قلبى :
لم لا يعود مرة أخرى ؟ !

(من ديوانه : البستانى)

حنان

رأيتها ، فيما يرى النائم ، تجلس الى جوار رأسى ،
كانت تداعب خصلات شعرى بأصابعها فى رقة ،

وهي تعزف بلمساتها لحنا .
وتأملت وجهها ، وغالبت دموعي ،
حتى انهال على حزن كلماتي التي لم أنطق بها ،
ففجر نومي كما تفجر الفقاعة .
ونهضت جالسا ، فرأيت تورد الطريق عبر نافذتي ،
مثل عالم من الصمت استقر على النار ،
وحرت :
ترى ، أكانت هي في تلك اللحظة تحلم
بما كنت احلم به أنا ؟
.. أو كان حلمها يتجاوب مع حلمي ؟
(من ديوانه : هدية المحب)

أغنية للأم

أماه ، سوف أنسج سلسلة من اللآلىء بدموع حزني ،
لتكون سوارا يحلي جيدك ..
ان الثروة والصيت يأتيان منك ،
ومن أجلك يعطيان ، ويمسكان عن العطاء .
لكن أساي لا يشاركني فيه أحد قط ،
فهو لي فقط .
وحينما أقدمه اليك ، قربانا مني : تكافئينني
ببركتك وسماحتك .

أنشودة الوداع

أيها الأخوة ، قولوا لي وداعا ، فها قد منحت اجازتي !
انني أنحني لكم جميعا ، ثم أمضي في رحلتي .
وها أنا أرد لكم مفاتيح بابي — مستغنيا عن كل مطالب داري .
ولست أبغي منكم سوى كلماتكم الطيبة .
فقد كنا جيرانا لمدة طويلة ، لكنكم منحتموني

اكثر مما اعطيتكم .

وها قد انبلج الفجر ، وانطفأ المصباح الذى كان ينير زاويتى المظلمة .

فقد جاء من يدعونى .. وهاأنذا على استعداد للرحيل .

(من ديوانه : جيتا نجالى)

***

الحقيقة طيبة ونافعة . اذا ما اتصلت ـ بطريقة او بأخرى ـ بحياة الانسان .

***

ليس من داع ـ فى القصة القصيرة ـ الى السرد الملون ، وتكديس الوقائع والحوادث ، والتفلسف والوعظ .

***

شخصيتنا هى أول حق فينا : فنحن موجودون ، وذلك ما لا شك فيه .

***

ليس الابن عزيزا على أبيه لذاته ، ولكن لأن الأب يرى فيه امتداد نفسه ، ويرى فيه خلود حياته لأجيال مقبلة .

***

فلسفة الهند تصور الحرية على أنها كمال الاتصال بما يحيط بنا ، فاذا نقص اتصالنا نقصت حريتنا .

***

الجمال هو ادراك الحقيقة كما هى ، والحقيقة ـ من حيث هى ـ جمال لا يعدله جمال .

***

نحن الهنود نؤمن بشىء لا نهائى هو سر الوجود ، وليس فيه شىء من معنى العدم . وغاية أدياننا جميعا أن تدفعنا

لنجد حريتنا فى اللانهـائى الكائن على أنه حقيقة ملموسـة مفهومة. ولا يمكن أن يكون تطهيرا ما هو ايمان بشىء موجود تمكن معرفته عن طريق الروح .

***

الأمم تختلف فى ظواهرها وتقاليدها وافـكارها ، ولـكن الرقى الحقيقى لن يتم الا بالتعـاون بينهـا جميعا ، وبعمل مشترك يقوم به العقل البشرى .

***

تاريخ الانسان انما هو تاريخ تشييد الانسانية العالمية .

ديوان : الطيور الشاردة

والآن نقدم لك شيئا جديدا من روائعه الشـعرية ــ لم يسبق أن ترجم الى اللغة العربية ــ وهو ديوان : « الطيور الشاردة » ، الذى ستطالع أهم ما جاء فيه من مقطوعات فى الصفحات التالية .

وقد ظهر هذا الديوان فى عام ١٩١٦ ، حيث قدم فيه تاجور طرازا جديدا من الكتابة الشعرية القريبة من الشعر المنثور ، مزج فيه العاطفة بالعقل ، والحـكمة بالوجـدان ، فخرج فى النهاية متخذا شكل مقطوعات قصيرة ، لا تزيد سطور معظمها على سطر واحد ، لكنها ــ رغم قصرها ــ تحمل شحنة مشعة من الحكمة والعاطفة فى آن واحد ..

ومما يذكر أن الشـاعر قـد نظم هـذه المقطوعات ــ أو « الحكم » بمعنى آخر ــ ابان الحرب العالمية الأولى . وكان قـد أحس ــ اذ ذاك ــ بدنو منيتـه ، ومن ثم أطلق العنان لروحه الشاعرة ، المتيمة بالانسـان حيثما كان ، وأخذ يتنقل

من بستان لآخر ، كطير شارد ، الى ان لجأ الى المرفأ الحنون الذى طالما لجأ اليه من قبل .. مرفأ الحب الانسانى ، فنظم هذه الدرر القصار المشحونة ، التى تردنا الى نبع الحكمة الهندية ، بكل ما فيها من صفاء وجمال وعذوبة :

***

لست تجد قوة الله العظيمة فى العاصفة ، وانما تجدها فى النسيم الرقيق .

***

يحنو الليل على الأزهار فتتفتح فى سرية ، ثم يسمح للنهار بتلقى الشكر على ما أداه من صنيع .

***

طبعت قطرات المطر قبلاتها على الأرض ، وهمست : أماه ، اننا أطفالك الحانين البررة ، نعود اليك من السماء .

***

تمر الأفكار بذهنى كأسراب البط فى السماء .. انى اسمع رفيف أجنحتها .

***

تحب القناة ان تحسب ان الأنهار لم توجد الا لكى تمدها بالماء .

***

ان الذى يبغى عمل الخير يطرق الباب ، أما الذى يحب فيجد الباب مفتوحا .

***

الفنان عشيق للطبيعة .. ومن ثم فهو عبدها ، وهو سيدها !

***

لا تجعل انعدام شهيتك ذريعة لتوجيه اللوم الى طعامك .

***

اننا ندنو من العظمة حين نكون عظماء فى تواضعنا .

***

العفة ثروة تأتى من وفرة الحب وسخائه .

***

يهمس القوس للسهم قبل أن ينطلق : حريتك فى يدى .

***

أيتها الأفكار الهلوعة ، لا تخافى منى .. اننى شاعر .

***

حين يغدو الانسان حيوانا يكون ــ عندئذ ــ أسوأ من الحيوان .

***

لا يمكن قط للزيف ان يتحول الى حقيقة ، ولو أدى به الأمر الى الاستعانة بالسلطة والقوة .

***

فليكن للموتى خلود الصيت والشهرة ، وليكن للأحياء خلود الحب .

***

الحب هو الحياة فى تمامها وامتلائها ، كالكأس مليئة بخمرها .

***

اطفئى المصباح متى شئت ، فاننى سوف آتبين ظلامك ، وسوف أحبه .

***

طوبى لمن لا تفطى شهرته على حقيقته .

***

ذات مرة تراءى لنا فى المنام أننا كنا غريبين ، ثم استيقظنا فوجدنا أن كلا منا عزيز على الآخر .

***

انني اجلس الى نافذتي هذا الصباح ، حيث يمر بى العالم كعابر سبيل ، فيقف لحظة ، وينحني لى ، ثم يمضي .

***

لست أستطيع أن أتخير الأجود . . فالاجود يتخيرني .

***

تنتمي الراحة للعمل ، مثلما تنتمي الجفون للعيون .

***

تشق الزهرة الرضيعة برعمها ، ثم تصيح : ايها العالم العزيز ، أرجوك ، لا تجعل الذبول يتطرق الى نفسك .

***

اننا نطالع صفحة العالم بطريقة تجانب الصواب ، ثم نقول انه يغرر بنا ويخدعنا .

***

تمر ريح الشاعر بالبحر والغابة ، باحثة عن صوته هو !

***

الانسان يضع المتاريس امام نفسه !

***

فلتكن الحياة جميلة كزهور الصيف ، وليكن الموت جافا كاوراق الخريف .

***

فى الموت يصبح الكثير واحدا ، أما فى الحياة فالواحد يصبح كثيرا .

***

قالت القوة للعالم : انك ملكى ، فسجنها العالم على عرشها . وقال الحب للعالم : انى لك ، فوهبه العالم الحرية فى داره .

***

الجذور أغصان ممتدة فى باطن الأرض . والأغصان جذور فى الهواء .

***

الحلم زوجة عليها أن تتكلم، والنوم زوج يقاسى فى صمت .

***

يولد العظيم طفلا ، وحين يموت يهب العالم طفولته .

***

اذا أنت أغلقت بابك دون الزيف والضلال ، فسوف تمتنع عليك الحقيقة .

***

الفراغ فى نشاطه عمل ، وسكون البحر يثير الأمواج .

***

قالت الكلمة للعمل : اننى خجلى من خوائى . فقال العمل للكلمة : انى أعرف كم أكون مسكينا حين أراك .

***

صوت حزين عشش بين حطام السنين ، يغنى لى فى الليل قائلا : انى أحببتك .

***

انني أسكب الماء من جرتى وانا سائر فى طريقى ، فلا يتبقى لدارى الا القليل .

***

انني أترك الأشياء الصغيرة من خلفى لأحبابى .. اما الأشياء الكبيرة فانني تارك اياها للجميع .

***

أيتها المرأة ، انك تجعلين من عمق دموعك سياجا يحف بقلب العالم ، مثلما يحف البحر بالأرض .

***

يرحل الظلام صوب النور ؛ لكن العمى يرحل صوب الموت .

***

المديح يخجلنى ، مع أننى أسعى اليه سرا .

***

يا أرضى ، جئت الى شاطئك غريبا ، وعشت فى دارك ضيفا ، وغادرت بابك صديقا .

***

لقد انتهى وقت العمل . فاليك وجهى يا أماه ، خبئيه بين ذراعيك ، ودعينى أحلم .

***

كلمة واحدة تبقى لى فى صمتك ؛ أيها العالم ، حين أموت .. هى أننى « قد أحببت » .

***

اننا نعيش فى هذا العالم حين نحبه .

***

احب العالم الانسان عندما ابتسم - وذعر منه عندما ضحك .

***

صمت الاله ينضج أفكار الانسان ، ويجعلها كلاما .

***

سندرك يوما ما أن الموت لايستطيع قط أن يسلب ما جنته أرواحنا من مكاسب، لأن مكاسب الروح جزء لا يتجزأ منها .!

***

الهى ، دعنى أعيش بحق ، حتى يصبح الموت حقا بالنسبة لى .

***

ان تاريخ الانسان ينتظر — فى صبر — انتصار الانسان المتهن .

***

لقد عانيت ، ويئست ، وعرفت الموت ، لكننى سعيد اذ ارانى موجودا فى هذا العالم العظيم .

***

فلتكن آخر كلماتى اننى أثق فى حبك .

موظف البريد ترجمة : المحرر

كان موظف البريد يمارس عمله فى قرية (أولابور) . وكانت القرية صغيرة ، لاتستحق ان يقام فيها مكتب بريد ، لولا انه كان يوجد بالقرب منها مصنع كبير ، سعى صاحبه الى انشاء مكتب البريد ، تسهيلا لأعماله . .

وكان موظف البريد قد نشأ فى مدينة (كلكتا) الكبيرة ،

فأحس ـ فى هذه القرية النائية ـ باحساس السمكة حين يخرجونها من الماء . وكان مكتبه ، ومسكنه الصغير الملحق به ، فى كوخ معتم ، بالقرب من بركة موحلة . وتحيط به من كل جانب احراش كثيفة الاشجار ..

وكان موظفو المصنع مشغولين بعملهم على الدوام ، الى جانب انهم لم يكونوا من بيئة موظف البريد ، ابن (كلكتا) الفخور بنشأته ، النفور من صحبة الغرباء .. ومن ثم لم يكن للفتى اصدقاء فى القرية ، وكان عمله قليلا ، لا يشغل كل وقته ، فازداد احساسه بالفراغ الذى يعيش فيه !

وحاول ان يزجى وقت فراغه بنظم الشعر ، لكنه عجز عن الاستغراق بقلبه فى هذه الهواية .. فان المسكين كان يذوب شوقا وحنينا الى (كلكتا) .. كان يتمنى لو أغمض عينيه عن الغابات الموحشة التى حوله ، ثم فتحهما فاذا هو يذرع شوارع مدينته الكبرى الفسيحة ، ومن حوله العمارات الشاهقة التى تحجب سحب السماء !

وكان مرتب الفتى ضئيلا ، فكان يطهو طعامه بنفسه ، ويتقاسمه مع فتاة يتيمة تدعى «راتان» ، كانت تعنى بشؤون مسكنه المتواضع . وفى المساء ، حين تتصاعد سحب الدخان من أكواخ القرية ، وتزقزق العصافير والحشرات فى كل دغل ، ويغنى الشحاذون أغانيهم المألوفة فى أماكن اجتماعاتهم اليومية .. وحين يحس كل شاعر موهوب بانتفاضة غامضة فى أوصاله ؛ وهو يتأمل رعشة أوراق الشجر فى احراش (البامبو) الكثيفة .. عندئذ كان الفتى يوقد مصباحه وينادى خادمته :

ـ راتان !

فتجيبه « راتان » ، التى كانت تجلس خارج الكوخ فى انتظار ندائه :

– هل دعوتني يا سيدى ؟
فيسألها : « ماذا تفعلين ؟ »
– ينبغي أن أوقد نار المطبخ ، لطهو الطعام .
فيجيبها موظف البريد :
– دعى نار المطبخ تنتظر قليلا ، واشعلى لي غليونى أولا
فتدخل « راتان » ، وتنفخ فى فحمة متقدة كى تذكى نارها ، ثم تشعل له الفليون .. فيتيح له ذلك فرصة التحدث اليها . يسألها عن أمها – وهو موضوع للحديث لا ينضب – فتسترسل فى الذكريات ، وهى جالسة على الارض عند قدميه : لقد كان أبوها شغوفا بها أكثر من أمها ، ولهذا فهى تذكره فى صورة أكثر وضوحا .. ثم تروح تحدث سيدها عن أخ صغير لها كانت تلعب معه لعبة صيد السمك على شاطىء البحيرة .. ويحلو الحديث ، ويمضى الوقت : حتى يحس موظف البريد بالكسل عن النهوض لطهو أى طعام ، فيكتفى بشرائح من الخبز تقدده له الفتاة على النار ، ثم يكملان عشاءهما بالبقية الباردة من وجبة الصباح .

وفى بعض الامسيات كان الفتى يتحدث عن ذكريات أسرته هو .. عن أمه ، وأخته ، وكل أعزائه الذين يفتقدهم قلبه فى وحدته الموحشة .. ومن فرط ما ألفت الفتاة البسيطة احاديثه عنهم ، صارت تشير اليهم فى كلامها كأنهم أمها ، واختها ، وأخوها ، وكأنها كانت تعرفهم طوال حياتها !

وذات عصر ، كان المطر ينهمر ، والنسيم البارد يهب على الغابة ، ورائحة الحشائش الرطبة تملأ الجو ، وراح عصفور يرسل نواحه الحزين الشاكى بلا انقطاع .. ولم يكن لدى الفتى ما يفعله ، فجعل يرقب اوراق الشجر التى بللتها قطرات المطر الفضية ، وهى ترتعش فى العراء ، والسحب القاتمة تتجمع من بعيد .. ولم يملك أن حدث نفسه : « آه

لو كان بالقرب منى كائن حنون يفهمنى ، وأستطيع آن اضمه الى صدرى ! » .. وخطر له ان ذلك بالضبط ما كان العصفور يحاول ان يقوله . وهو الشعور نفسه الذى كانت أوراق الشجر الهامسة تحاول أن تعبر عنه !

ثم هز الرجل المستوحش رأسه فى اكتئاب ، وهتف مناديا : « راتان ! » . وكانت راتان متمددة تحت شجرة « الجوافة » ، تأكل بعض ثمارها الفجة ، فنهضت على عجل تلبى نداء سيدها .. الذى ابتدرها بقوله : « لقد فكرت ان اعلمك القراءة ! » .. ثم انفق بقية الامسية فى تعليمها الحروف الابجدية ، فأظهرت ذكاء وسرعة بديهة .. بينما استمر المطر يهطل بغزارة ، حتى امتلأت القنوات والحفر والفجوات ، وتعذر السير فى طرقات القرية ..

وذات ضحى ، انتظرت التلميذة النجيبة ان يدعوها سيدها كعادته ، فلما طال انتظارها ، حملت كتابها وتسللت الى حجرته فى هدوء ، فألفته مضطجعا فى فراشه . واذ حسبته نائما ، استدارت لتنصرف فى سكون ، فاذا هو يناديها . وسألته : « هل كنت نائما يا سيدى ؟ » ، لكنه أجابها بصوت واهن : « بل انى مريض . تحسسى جبهتى . الا تجدينها ساخنة ؟ »

وفى وحشته ، وكآبة الجو المطير : أحس بحنين الى لمسة حانية من يد ناعمة على جبينه .. وانتابه شوق الى وجود المرأة المحبة .. شوق الى قربى الأم والأخت .. ولم يخب أمله ، فقد كفت «راتان» عن أن تكون فتاة صغيرة ، وقفزت فجأة الى مرتبة الأم : فاستدعت له طبيب القرية ، وأعطته الدواء فى اوقاته المقررة ، وسهرت طوال الليالى الى جوار فراشه ..

على انه لم يكد يبل أخيرا من مرضه ، حتى كان صبره

على الاقامة فى القرية الصغيرة قد نفد ، فكتب الى رؤسائه فى كلكتا طالبا نقله الى جهة أخرى، بسبب عدم ملاءمة القرية لصحته .

واذ أعفيت « راتان » من مهمتها كممرضة ، عادت الى مكانها السابق خارج الباب ! .. لكنها لم تعد تسمع النداء القديم . وصارت تطل أحيانا على سيدها ، فتراه جالسا فى مقعده بلا حراك ، أو مضطجعا فى سريره ينظر الى لا شىء .. فبينما كانت « راتان » تنتظر نداءه ، كان هو ينتظر الرد على طلب نقله .. !

وبعد نحو أسبوع ، سمعته « راتان » ذات مساء يناديها .. فاندفعت الى مخدعه صائحة ، من قلب خلى ، كما اعتادت أن تفعل :

ــ هل ناديتنى يا سيدى ؟

فأجابها : « انى راحل فى الغد يا راتان ! »

ــ الى أين ؟

ــ الى موطنى .

ــ ومتى ستعود ؟

ــ لن أعود !

واستطرد يقول : ان طلب نقله قد رفض ، فاستقال من عمله ، وتأهب للعودة الى موطنه !

لزم كلاهما الصمت ، برهة طويلة ، ثم نهضت « راتان » فمضت الى المطبخ لتحضر له وجبة طعام .. لكنها لم تكن سريعة فى انجازها كعادتها. كان رأسها قد امتلأ بأشياء كثيرة تفكر فيها . فلما فرغ سيدها من عشائه ، سألته بغتة : « هل لك أن تأخذنى معك الى موطنك ؟ »

فضحك وقال : « يا لها من فكرة ! » .. لكنه لم ير داعيا لأن يشرح للفتاة لماذا بدت له فكرتها سخيفة ومستحيلة !

..وطوال تلك الليلة ، راح جوابه الساخر يرن فى اذنيها ، فى صحوها ومنامها : « يا لها من فكرة ! » .. فلما استيقظ فى الصباح ، وجد حمامه اليومى معدا. كانت قد نهضت قبل شروق الشمس لتجلب له الماء من النهر ، فلما فرغ من الحمام سمعته يناديها ، فدخلت صامتة ، ونظرت الى وجه سيدها متطلعة ، تنتظر اوامره . فقال لها : « لا ينبغى لك أن تقلقى بسبب رحيلى يا « راتان » ، فسوف أوصى خلفى كى يعتنى بك »

يا لقلب المراة . وغموضه ! .. لقد احتملت « راتان » فيما مضى أكثر من تقريع من سيدها ، دون تذمر ، لكنها لم تحتمل هذه الكلمات الرقيقة .. فأجهشت بالبكاء وهتفت : « كلا ، كلا ، لا حاجة بك لأن توصى بى أحدا ، فلست أبغى البقاء هنا بعد الآن »

وعقلت الدهشة لسان الفتى ، فلم يحر جوابا .. انه لم ير « راتان » على هذه الصورة من قبل !

***

ولم يلبث أن وصل موظف البريد الجديد ، فسلمه سلفه مهام عمله ، ثم اعد عدته للسفر الى كلكتا . لكنه قبل ان يبدأ رحلته ، استدعى « راتان » ، وأخرج من جيبه مرتب الشهر الأخير ــ فلم يحجز منه سوى نفقات السفر ــ ومد يده به اليها ، قائلا : « هاك مبلغ أرجو أن يكفيك لفترة من الوقت » .. لكنها بدلا من ان تتناوله منه ، ارتمت عند قدميه صارخة : « أوه ، بربك لا تعطنى شيئا . لا تزعج نفسك البتة بسببى ! » .. ثم انطلقت تعدو بعيدا ، لا تلوى على شيء !

لبث موظف البريد يرقب ابتعادها فى أسى .. واخيرا

تناول حقيبته ورفع مظلته فوق راسه ، ثم سار متباطئا نحو الزورق الذى سوف يقله ، وخلفه تابع يحمل صندوق متاعه المصنوع من الصفيح . وحين أوغل الزورق فى عرض النهر ، أحس بالكآبة تجثم على صدره وتثقله .. وبحافز يغريه بأن يعود ادراجه ليصطحب معه تلك الصبية اليتيمة التى لا سند لها ولا صديق .. لكن الريح كانت قد ملأت الأشرعة ، والزورق قد بلغ وسط النهر بالفعل ، مخلفا القرية بعيدا وراء ظهره .. فلم يجد المسافر عزاء له الا فى رحاب الافكار الحكيمة التى راودته : عن تعاقب اللقاء والفراق فى الدنيا .. وعن الموت ، ذلك الفراق الأكبر الذى لا رجعة منه !

لكن «راتان» لم تظفر بشىء من هذه التأملات يريح خاطرها ، فمضت تطوف حول مكتب البريد والدموع تهطل من عينيها . ربما كان لايزال يراودها الامل — فى ركن خفى من قلبها — فى ان سيدها الحبيب سوف يعود . ولعل ذلك ما انقذها من الاستسلام لليأس .. والمرء من طبعه أن يتعلق فى ضراوة بأمل عقيم ، حتى يأتى يوم يجف فيه معينه ، وعندئذ يقطع الحبال التى تقيده اليه ، ويطير لائذا بالفرار !.. تلك هى شيمة الطبيعة البشرية .. أن تستمر اخطاؤها الحمقاء . وليس من السهل أن يتغلب العقل والمنطق على الآمال العقيمة .. والاحلام الجوفاء !

.. ثم تعقب ذلك تعاسة اليقظة .. ولكن ، لا ينقضى وقت طويل ، حتى تعاود المرء الرغبة الملحة فى أن يعود الى ارتكاب نفس الاخطاء !









من حياة الشعوب

عزيزى القارىء ..

حياة الشعوب مرايا تظهر على صفحاتها صور عديدة لما يسلكه هذا الشعب أو ذاك داخل الاطار الاجتماعى الذى يعيش بداخله .. وكثيرا ما تأتى الصورة غريبة ، محيرة ، باعثة على الدهشة ، وكثيرا أيضا ما تتوافق الصورة مع ما يحمله القارىء من صور قريبة الى حياة الشعب الذى ينتمى اليه . لكن هذه الصور – على أية حال – لا تعدم عنصر الامتاع ، بل والافادة فى النهاية ..

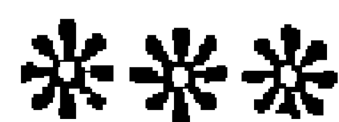
وفى هذا الباب الجديد الذى نقدمه لك لأول مرة ، ستتعرف الى لون من ألوان الحياة لدى الشعب اليابانى . وهو لون من السلوك الاجتماعى يعتز به اليابانيون أيما اعتزاز ، ويضعون له القواعد والأصول ، ليساير طريقتهم فى الحياة .. **اى البساطة ، والتواضع ، والرغبة فى التأمل ، وعشق الجمال .**

ان تناول الشاى – مثلا – له هنا قواعد وأصول لا يجوز الطعن فيها ، وانما هى واجبة الاحترام ، بالنسبة للكبير والصغير على السواء .. بل انها أصبحت عقيدة بذاتها .. تسمى عقيدة الشا – نو – يى ..

CHA-NO-YU (Tea Cult Of Japan)

وقد اخترنا لك كتابا فى هذا الموضوع عنوانه :

.. اى الشا – نو – يى : عقيدة شرب الشاى فى اليابان . وهو من تأليف الكاتب اليابانى « ياسينوسيكى » فيكيكيتا » . وقد أعده الزميل : **يوسف حمودة .**



فى العصور القديمة كان الرهبان البوذيون ، فى الصين واليابان ، يشربون الشاى ، ويعللون اقبالهم عليه بأنه يفيد الصحة ، وينعش القوى الذهنية !

وتوارث اليابانيون هـذه العادة عن أسـلافهم ، فاهتموا بالشاى اهتماما لايعادله اهتمام بقية شعوب العالم مجتمعة . وقد ابتكروا ـ منذ أربعة قرون ونصف ـ طقوسا لتنـاول الشاى ، أطلقوا عليها اسم : « شا ـ نو ـ يى » .

« الشا ـ نو ـ يى » تسلية وتقليد اجتماعى

يتناول اليابانيون الشاى خلال وبعد كل وجبة من الطعام ، كما يقـدمونه لضـيوفهم دون تقيـد بتوقيت معين . وهم يعدونه وسيلة لخلق جو من الالفة بين المضيف وضيوفه .

والشا ـ نو ـ يى تقليد فريد تتميز به اليابان ، ويستخدم فى اعداده مسحوق الشاى لا أوراقه ، وهى طريقة ترجع ـ فى الأصـل ـ الى الصـينيين الذين نقلوها الى اليابان عن طريق الرهبان البوذيين .

على أن الملاحظة العابرة لطقوس الشا ـ نو ـ يى قد توحى بأنها « **مجرد اتيكيت اجتماعى معقد** » ، وهذا ما يرفضـه أصحابها . اذ يعتقدون أنها تقليد اجتماعى راسخ ، جـدير بالاحترام ، بعيد عن التعقيد .

ولهـذا نوجز لك طريقة اعداد الشاى ، وكيفية تناوله ، والحفل الذى يخصص له ، ويسمى شا ـ نو ـ يى .

فعند اعداد مسحوق الشاى يلزم وضعه فى وعاء أكبر من وعاء الشاى العادى ، ثم يصب فوقه الماء المغلى .

واعداد الشاى الثقيل (كيوشا) يسـتلزم عجن المزيج بضغط مافى الوعاء بواسطة فرشاة مصنوعة من الخيزران .

أما الشاى الخفيف (يوسيشا) فيستلزم اضافة كمية كبيرة من الماء الى المسحوق ، ثم يحرك المزيج بشدة ، أو يرج حتى يصير كثير الرغوة . واذ تتم هذه العمليات الثلاث يبدأ تقديم الشـاى الى الزوار والضيوف .

انتقال الشاى من الصين

يؤخذ الشاى من الاوراق الصغيرة ، أو من براعم شجيرات الشاى . وهو يزرع – كما هو معروف – فى الصين واليابان والهند وسيلان . وقد انتقل من الصين الى اليابان ضمن أشياء أخرى كثيرة انتقلت عن طريق التبادل الحضارى بين البلدين . ويبلغ عمر شجرة الشاى نحو مائة عام ، وقد يبلغ عمر بعضها مائتى عام . وكلما كانت الشجرة متقدمة فى العمر كانت أوراقها أعذب مذاقا .

ومن المعروف أيضا أن للشاى – بالاضافة الى مذاقه اللطيف – فائدة غذائية لا يستهان بها . **فالشاى اليابانى الأخضر يحتوى على فيتامين ا ، ث . وكذلك يحتوى – بدرجة كبيرة – على الألكالين والمنجنيز ، الذى يساعد على قتل الميكروبات** . كما أن به كمية من الحديد الذى يلعب دورا هاما فى تنقية الدم .

اساتذة الشا – نو – يى

أخذت عادة تقديم مسحوق الشاى اليابانية فى الانتشار منذ نقله الرهبان البوذيون الى اليابان فى القرن الخامس عشر .

ولقد وجد أباطرة اليابان وحكامها – أيضا – متعة كبيرة فى تناول مسحوق الشاى . بل ان بعضهم كان يخصص فى قصره حجرة خاصة ، يقدم فيها مسحوق الشاى لزواره ومريديه . ومن بين الذين وضعوا أسس الشا – نو – يى رجل الدين شيكو (١٤٢٢ – ١٥٠٢) والشاعر النابغ جوو (١٥٠٣ – ١٥٥٥) ، وقد عارض الاخير فكرة استخدام أدوات الشاى الغالية ، كما وضع مجموعة من القواعد الاقتصادية البسيطة لحفلات الشا – نو – يى **وقد كان من**

رأيه أن تقديم مسحوق الشاى انما هو تقديس للنقاء والصفاء الواجبين بين بنى البشر .

على أن هذين الاستاذين قد خلفا . من بعدهما . أفرادا آخرين ، اخذوا على عاتقهم اتمام رسالة الشا ــ نو ــ يى . فمنهم من ابتكر التصميمات لغرف وحدائق الشاى ، ومنهم من تفنن فى أعداد الأدوات التى تتصل باحتفالات الشاى . كالأوانى والعلب المختلفة الاحجام .

وهكذا أخذت تقاليد الشا ــ نو ــ يى ترسخ وتتدعم . محتفظة ببساطتها الاولى ، رغم أن الطبقة الارستوقراطية قد أحالت الشا ــ نو ــ يى الى مباراة فى الفخامة والاسراف !

توجيه الدعوة للشا ــ نو ــ يى

يقوم المضيف باختيار الضيف الرئيسى ، ويسمى : « شونياكو » ، ويخطره بالدعوة قبل الحفل بأسبوع على الاقل . كما يقوم ــ أيضا ــ بدعوة أربعة ضيوف آخرين ، تتناسب مكانتهم الاجتماعية مع مكانة الضيف الرئيسى ، الذى تعرض عليه أسماؤهم لابداء الرأى فيها .

وقد كانت الدعوة فى الماضى تتم ببطاقة مكتوبة ، لكن البطاقة لم تعد الآن أمرا جوهريا . اذ يستعاض عنها ــ فى كثير من الاحيان ــ بالمحادثة التليفونية . على أن المتمسكين بتقاليد الشا ــ نو ــ يى لا يقبلون مثل هذا التصرف الاخير ، وانما يصرون على أن تكون دعوة الضيوف ببطاقة مكتوبة بخط المضيف نفسه .

أما موعد الحفل فهو يختلف باختلاف فصول السنة . ففى الصيف يتم فى الساعة السادسة صباحا ، أو فى وقت الظهيرة . او فى الأصيل . وفى الشتاء تحدد الساعة الرابعة بعد الظهر موعدا لحفلات الشاى ، حتى يتمكن الضيوف من مشاهدة الحديقة الملحقة بغرفة الشاى .

وعندما يطول النهار - فى أشهر يونيو ويوليو وأغسطس ، يكون من الأنسب أن يبدا الحفل فى السادسة مساء .

كما جرت العادة أن يحضر الضيوف قبل موعد الحفل بربع ساعة. وهناك نظام خاص للملابس التى يلزم ارتداؤها فى الحفل . اذ يجب أن تتكون من عباءة حريرية سوداء ، ورداء تحليه شارة العائلة باللون الابيض ، وقميص ، وحف ابيض . ومن المحرم على الزائر أو سائر رواد الحفل أن يرتدوا الملابس الزاهية ، أو ذات الألوان الفاتحة .

وعلى الضيف أن يحضر ومعه مروحة مطوية ، وبعض الورق . وقطعة قماش حريرية ، لاستخدامها فى تنظيف الأوانى التى يستعملها !

فى مكان الانتظار (يوريتسيكى)

يتجمع الضيوف ــ قبل دخولهم حجرة الشاى ــ فى مكان الانتظار ، وهو عبارة عن حجرة متسعة ، تغطى أرضيتها ثلاث قطع من الحصير ، ولها مدخلان ، أحدهما لدخول الضيوف من الحديقة ، والآخر يؤدى الى حجرة الشاى .

وما ان يصل أحد الضيوف حتى يخف لاستقباله ــ عند المدخل الرئيسى للمنزل ــ مندوب عن رب الدار : يقوده الى حجرة الانتظار ؛ حيث يقوم الضيوف بتبادل التحية والثناء على كرم المضيف .

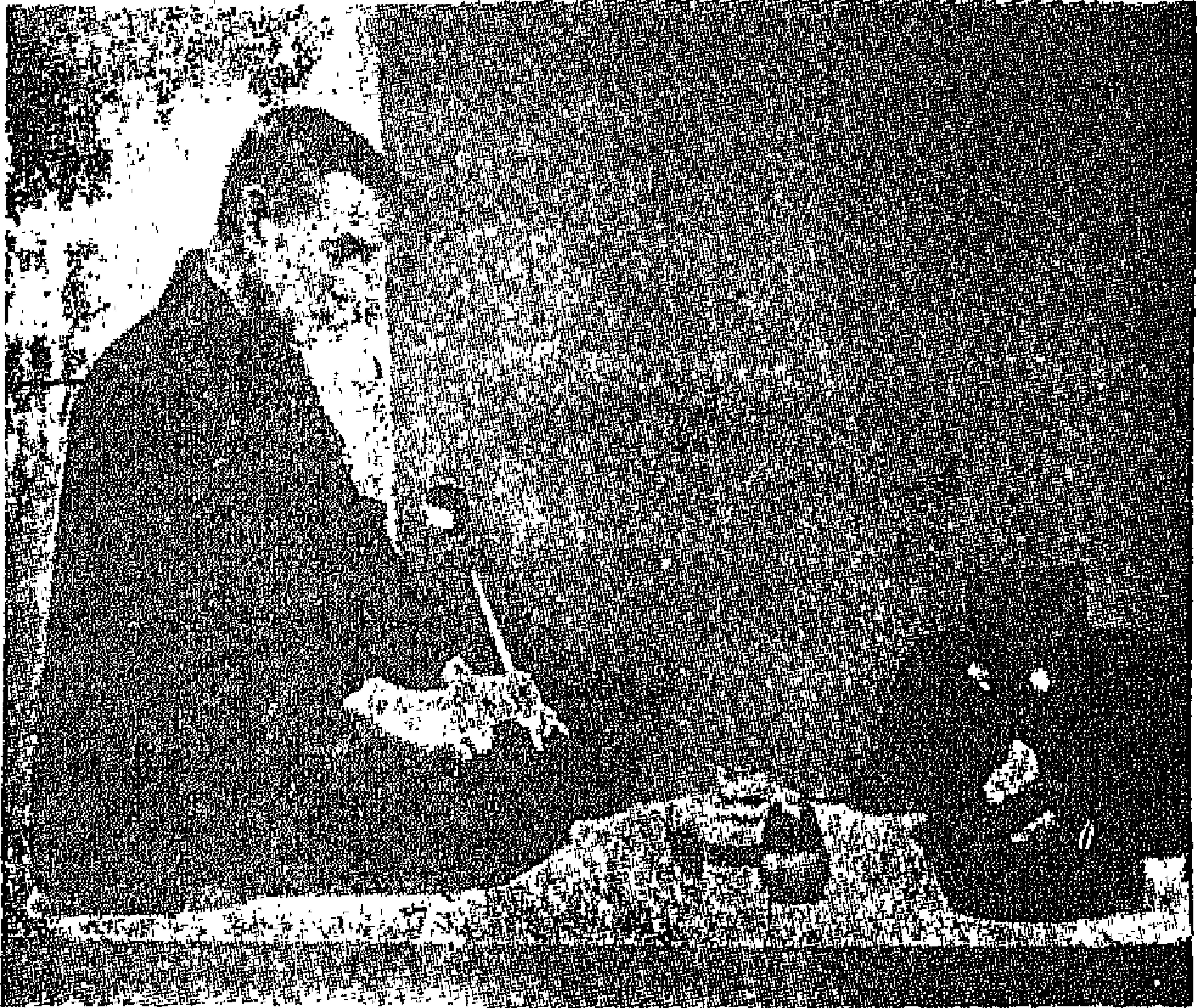
والمحافظة على الحضور فى الموعد المحدد عنصر أساسى فى اتيكيت الشا ــ نو ــ يى ، ذلك لأن هناك اعتقادا يجعل من تأخر الضيف فألا سيئا ، يشوه بهجة الحفل .

ويقوم ممثل المضيف بمراقبة وصول الضيوف الى غرفة الانتظار . وما ان يتم ذلك حتى يعمد الى الطرق على مدقة خشبية . لكى يخطر المضيف بوصولهم ، فينتقل الأخير من

غرفة الشاى الى غرفة الانتظار ، ممسكا بيده اليمنى فرشاة كبيرة من الريش .

وفى اثناء الانتظار يقوم الضيوف بمشاهدة الأدوات المختلفة التى تضمها غرفة الانتظار ، كالصندوق الذى تحفظ فيه المحبرة وفرشاة الكتابة ، واللوحة المعلقة على الحائط ، وصينية الدخان ، والمدفأة الصغيرة ، والفلاية ، والفناجين المخصصة لتقديم الشراب المعطر . . ذلك لان هذه الاشياء تختار خصيصا لحفلات الشا ــ نو ــ يى ، كما يعتز المضيف بها اعتزازا كبيرا .

وما أن يقوم المضيف بفتح الباب المنزلق ــ وهو مصنوع



المضيف ، فى حالة تأمل ، قبل الشروع فى خدمة ضيوفه . وترى امامه أدوات الشاى كالوعاء والمغرفة والفرشاة . . الخ .

من الورق ويؤدى الى غرفة الانتظار ـ حتى ينحنى راكعا على عتبة الباب دون أن ينبس بحرف . ومعنى ذلك ان المضيف قد أصبح على استعداد لاستقبال الضيوف فى حجرة الشاى .

ويرد الضيوف تحية مضيفهم بمثلها . ثم يعود المضيف الى حجرة الشاى تاركا الباب مفتوحا نصف فتحة .

وبعد دقيقتين أو ثلاث ينتقل الضيوف الى حجرة الشاى، ويمرون من الباب المنزلق ، الذى يكون المضيف قد سبقهم الى فتحه تماما .

ويخصص لكل ضيف زوج من ((الصنادل)) ، لاستعماله فى حجرة الشاى . وحين يكون الجو ممطرا يرتدى الضيف قبقابا وقبعة كبيرة من القش . وينتظر ممثل المضيف فى الخارج غالبا ، كى يعد لكل ضيف صندله . ذلك لأن حجرة الشاى تعد مقدسة ، ولا يجب أن توطأ أرضها بالأحذية التى يكون الغبار قد علق بها فى الخارج .

ممر الحديقة (روجى)

ويبدأ الحفل تحت اشراف الضيف الرئيسى، فور الانتقال من غرفة الانتظار الى حجرة الشاى . ويعد لكل فرد فى الحفل مكان خاص لجلوسه .

وقد جرت العادة فى اليابان ان تلحق بكل بيت ـ أيا كان مستواه ـ حديقة خلفية . واذا كان اليابانى على ثراء ويهوى اقامة حفلات الشاى ، فانه يقوم ببناء ركن للشاى فى حديقة بيته ، أو غرفة للشاى فى مواجهة الحديقة . ولعل هذا راجع الى حب اليابانيين للطبيعة والمناظر الجميلة . **ومن ثم فهم يهتمون اهتماما كبيرا بتنسيق الحديقة ، وتوزيع الممرات والمصابيح وجداول الماء الصغيرة التى تتخلل ارض الحديقة ،**

بحيث يبدو الترابط بين الطبيعة والفن موحيا ، يدعو الى الهدوء والتأمل .

وهذا الممر ، المسمى : روجى ، يعتبر جزءا هاما فى الحديقة . ولا يقل الاهتمام بتنسيقه وزخرفته عن الاهتمام بتنسيق وزخرفة حجرة الشاى ذاتها ، ويبلغ طوله عادة نحو ٢٠ قدما وتنحصر أهميته فيما يعود على الزوار من متعة التأمل العقلى والبصرى ، التى يمارسونها حين يمرون به ؛ ويلحظون عدم انتظام الأحجار التى تغطيه واختلافها فى اللون والحجم والتكوين ، كما يجدون أنفسهم ملزمين بالسير داخله ، حتى لا تعوقهم الطحالب والأشواك التى تنتشر على أرض الحديقة ، خارج نطاق الممر .

وليس الممر ــ بعد هذا ــ مستقيما ، وانما يتعرج بغير انتظام ، كما أن أحجاره تكون ــ فى الغالب ــ مبتلة بالماء الذى يتلألأ فوقها ، مما يزيد فى جمال الممر وحسنه .

ويصل الضيوف ــ فى مسيرهم بالممر ــ الى نقطة قريبة من حجرة الشاى ، حيث توجد ــ عادة ــ بوابة صغيرة ، أو حاجز منخفض ذو باب .

وفى الطرف الآخر من البوابة أو الحاجز يوجد مصباح وحوض أقيما من الاحجار ، على الطراز القديم ، ليكونا مكانا للغسيل ، حيث يقوم الضيوف بغسل أيديهم وأفواههم ، واصلاح هندامهم . وهم يستعينون بمغرفة ومناشف صغيرة توجد بجوار الحوض . **ولغسل الأيدى يتناول الضيف المغرفة ويملأها بالماء بيده اليمنى ، ثم يصب ما فيها فى يده اليسرى ، وعليه بعد ذلك ألا يضع المغرفة على شفتيه !**

ويخضع الماء فى الحوض لحالة الطقس ، ففى الصيف يكون باردا ، أما فى الشتاء فيستحسن أن يكون دافئا .

وطبيعى أن يقوم الضيف الرئيسى باتمام شكليات التطهر

قبل باقى الضيوف .. وبانتهاء هذه الطقوس يستعد الضيوف لدخول حجرة الشاى .

حجرة الشاى (شاشيتسو)

ليست هناك قاعدة خاصة بموضع حجرة الشاى ، فقد تلحق بالمنزل كجزء منه . وقد تقام فى مكان منعزل عن المنزل . وتبلغ مساحتها – فى الغالب – نحو تسعة أقدام مربعة ونصف قدم . **وبالحجرة – أيضا – مخدع ، ينحنى أمامه الضيف الرئيسى حين دخوله الحجرة ، ثم يركع شكرا واحتراما ، متوجها ببصره الى اللوحة المعلقة على الحائط ، أو الى آنية مليئة بالزهور** ، تحل محل اللوحة فى حالة ما اذا كان الحفل فى المساء .

وغالبا ما تحتوى اللوحة المعلقة على أبيات من الشعر تتعلق بمناسبة الحفل ، أو بشخص الضيف الرئيسى ، كذلك قدتحتوى على اقتباس من الأدب اليابانى أوالصينى القديم ، أو صورة نادرة لأحد كبار الرسامين القدامى .

ولكى تحظى المعلقة بتقدير الضيوف يجبأن يكون المضيف الذى اختار أبيات الشعر أو عبارات الحكمة متضلعا فى الأدب اليابانى والأدب الصينى ، وكذلك فى الرسم والخط ، كما يجب أن يكون خبيرا فى أنواع الاقمشة الحريرية لاختيار اللوحة من أجود أنواع القماش .

غرفة الخدمة

ويلحق بحجرة الشاى غرفة أخرى صغيرة تسمى : غرفة الخدمة ، وهى تشبه غرفة المؤونة – الكرار – فى بيوتنا . وفيها يتم اعداد أدوات الشاى وغسلها . أما الطعام فيعده فى المطبخ طاه ماهر تحت اشراف المضيف شخصيا ، ثم ينقل الى غرفة الخدمة . ومنها الى غرفة الشاى .

وما أن يوصد باب حجرة الشاى بالمزلاج ايذانا بتمام حضور

الضيوف ، حتى ينهض المضيف الى غرفة الخدمة ، ثم يعود حاملا سلة مليئة بالفحم الخشبى ، بأحجام وأشكال مختلفة ، وبها كذلك حلقتان لحمل الغلاية وملقط للنار وفرشاة صغيرة من الريش .

ثم يشرع المضيف فى اشعال النار فى الموقد ــ وهو عبارة عن صندوق عميق مربع الشكل يبلغ حجمه نحو ١٧ قيراطا مكعبا ــ وبذلك يأخذ باقى الضيوف فى الانتقال قريبا منه . .

وينهض المضيف مرة أخرى قاصدا الى غرفة الخدمة ، ثم يعود ليعلن فى أدب أن **((طعاما بسيطا))** **قد** تم اعداده .

تقديم الطعام طبقا لطريقة كياسيكى

يتطلب اتيكيت الشا ــ نو ــ يى أن يحمل كل ضيف حقيبة صغيرة لا تسمح بنفاذ الماء منها ، حتى يستطيع أن يضع فيها ما يتبقى أمامه فى الصينية من طعام .

ولما كان الطعام الذى يقدم فى غرفة الشاى ــ كجزء من حفل الشا ــ نو ــ يى ــ يتطلب عناية كبيرة : فان المضيف يأخذ على عاتقه هذه المهمة ، **ومن ثم يذهب بنفسه الى السوق ، صباح اليوم المخصص للحفل ، لينتقى افخر أنواع السمك والخضروات ، وغالبا ما يقوم بالطهى وخدمة ضيوفه بنفسه ، دون الاستعانة بطاه أو خادمة .**

وتتضمن قائمة الطعام : خضراوات ، حساء من عجينة الفول ، أنواع مختلفة من الاسماك تقدم وحدها فى أطباق من الصينى الفاخر أو مع الخضراوات ، كما تتضمن أيضا أشياء فاتحة للشهية تقدم فى أطباق صغيرة مطلية بطلاء جذاب .

وعندما يفرغ المضيف من نقل الطعام الى حجرة الشاى ، يقوم بدعوة ضيوفه الى تناول خلاصة الارز ، فى اكواب ذات أشكال مختلفة . ثم يتجه الى الضيف الرئيسى ، ويقدم اليه شيئا فاتحا للشهية ، ويصب له خلاصة الارز ، ثم يمر بباقى

الضيوف ، موزعا عليهم خلاصة الأرز وفاتح الشهية .
وبعد الانتهاء من تناول الطعام ، يقوم كل ضيف بتنظيف صينيته بواسطة ورقة يحضرها معه . ثم ينهض المضيف فيحمل الصوانى الموضوعة أمام ضيوفه ، ابتداء من صينية الضيف الرئيسى . وبعد ذلك يقدم لهم الحلوى . وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من الشا ـ نو ـ يى . وعندئذ يتقدم المضيف الى ضيوفه ، داعيا اياهم الى خارج حجرة الشاى ، بقصد الراحة والاستمتاع بالهواء الطلق وجمال الطبيعة ، استعدادا للمرحلة الثانية .

الحفل المخصص للشاى الثقيل

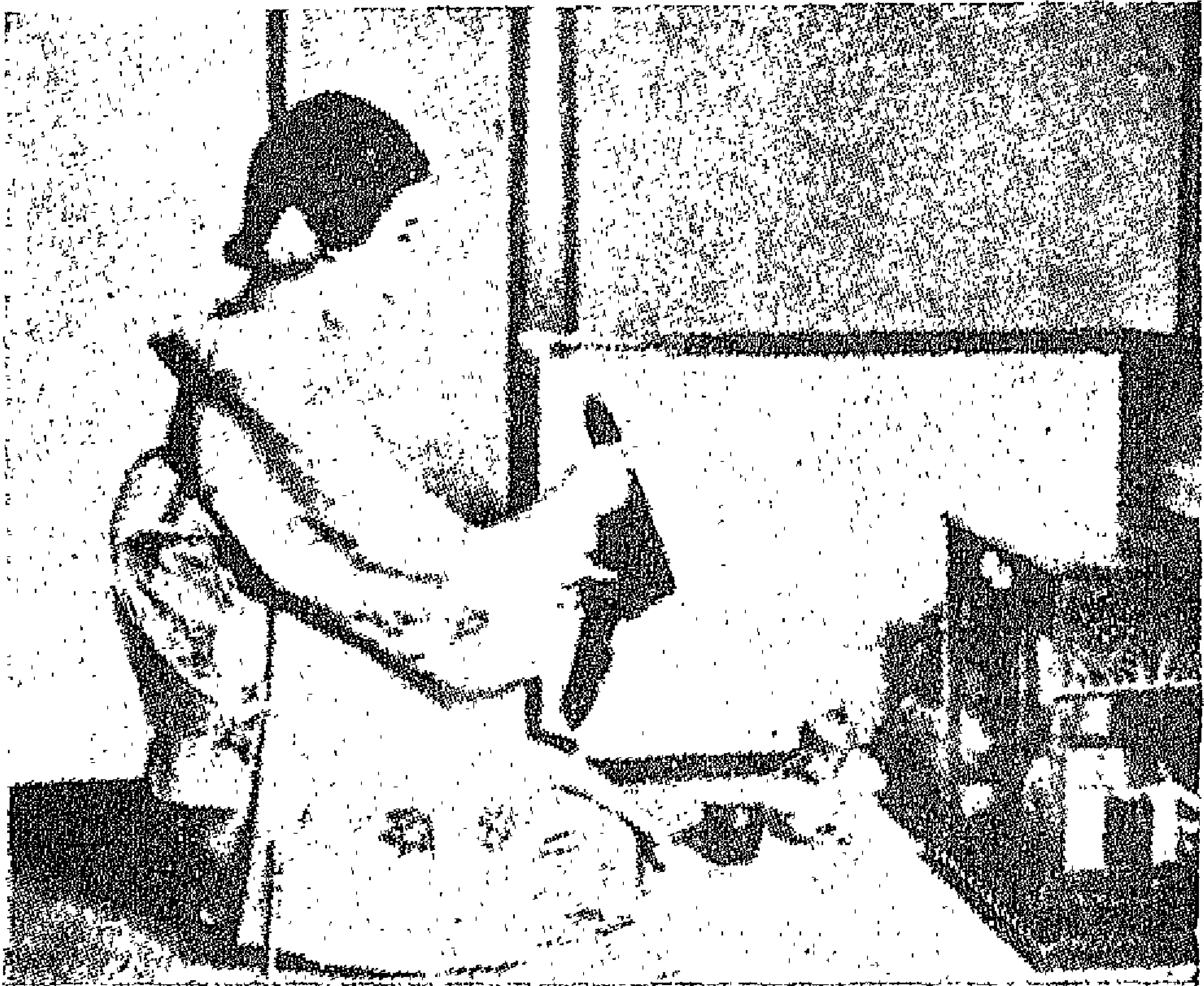
فى الفترة ما بين المرحلتين الأولى والثانية ، يقوم الضيوف بالتدخين وشغل الوقت بالحديث . وما أن تصل الى أسماعهم دقات الناقوس الخشبى أو النحاسى ـ وهى دقات خفيفة كأنها أنغام الموسيقى ـ حتى يكفوا عن الحديث، ويبدأ يتهيأون للمرحلة الثانية .

وقبل الدخول الى حجرة الشاى مرة أخرى ، يقوم الضيوف باتباع ذات الشكليات التى اتبعوها فى المرحلة الاولى ، اذ يقصدون الى مكان الفسيل ، ثم يأخذون فى دخول حجرة الشاى واحدا بعد الآخر . وفى هذه المرة تكون المعلقة قد استبدلت بآنية زهور ، تضم غصنا من شجرة الكاميليا ، وبرعما نصف متفتح، وبعض أوراق الزهور، وكلها ينتقى بعناية وحرص حتى ترضى أذواق الضيوف . اضف الى ذلك ما تضفيه على جو الحجرة من جمال وروعة يتفقان مع جلال الحفل .

الشاى الثقيل يجب أن يكون قليل الرغوة

على انه يجب مراعاة بعض القواعد الأساسية قبل تقديم الشاى الثقيل للضيوف ، وهى قواعد تحلو للمشاهد

مراقبتها وتتبعها . اذ يقوم المضيف بوضع المغرفة فى يده اليسرى ، ثم يرفع غطاء الغلاية ويضعه فوق قطعة من الخيزران ، وعندئذ ينقل المغرفة الى يده اليسرى ، ويصب قليلا من الماء المغلى فى وعاء الشاى الذى توجد به فرشاة من الخيزران، يقوم بتحريكها داخل الوعاء ، ضمانا لنظافته . وفى النهاية يتناول قطعة خاصة من القماش لتجفيف الوعاء . ثم يتناول المضيف مقدارا من مسحوق الشاى بالملعقة ، مراعيا عدد الضيوف ، ويضعه فى الوعاء ، ويصب فوقه الماء المغلى ، وعندئذ يقوم بعجن المسحوق بواسطة الفرشاة ، على أن يقلل ــ قدرالامكان ــ الرغوة الناتجةمن تحريك الفرشاة ؛ **ذلك لان العادة جرت على أن يقدم الشاى الثقيل دون**



ابنة المضيف تقوم بتنظيف أدوات الشاى استعدادا لتقديمه .

رغوة ، اما الشاى الخفيف الذى يقدم فى نهاية الحفل فمن واجب الضيف أن يزيد رغوته .

وحين ينتهى المضيف من عمل الشاى يقوم بوضع الوعاء امام الضيف الرئيسى ، الذى يقوم ـ بدوره ـ بصب جزء منه فى كوبه ، ثم ينقل الوعاء الى جاره ، وهكذا الى أن يتم صب الشاى لجميع الحاضرين .

وفى هذه الاثناء يدور بين الجميع حديث متنوع متفرق ، يتخلله حديث آخر ـ يديره المضيف بنفسه ـ خاص بنوع وتاريخ وعاء الشاى وأدواته الاخرى ..

الشاى الخفيف (يوسوشا)

يقدم المضيف الشاى الخفيف فى حجرة الشاى أو فى حجرة أخرى أكثر اتساعا . **وعند ذلك تظهر ابنة المضيف لتشارك فى هذه المرحلة ، وقد تحل محلها زوجة المضيف او احد أصدقائه .**

وما ان ينتهى تناول الشاى الخفيف حتى يتهيأ الضيوف لمغادرة الحجرة ، اذ يكون الحفل قد تم ، كما يكون من حقهم ان ينتقلوا الى غرفة الانتظار مرة اخرى ، كى يرتدوا أحذيتهم ، استعدادا للخروج ، بعد أربع ساعات ممتعة شغلوها بالحديث والمتعة وتناول الشاى بأنواعه المختلفة .

وفى اليوم التالى يقوم الضيوف بشكر مضيفهم على كرمه وحفاوته بهم ، اما شفويا واما كتابة فى رسائل خاصة .

مدرسة للكرم الخالص والملاطفة الصادقة

تتطلب حفلات الشا ـ نو ـ يى مجهودا عنيفا من المضيف او المضيفة ، كى يستطيعا أن يبعثا السرور والمتعة فى نفوس ضيوفهم .

غير أن الجدير بالملاحظة هنا انه ما من احد يستمتع بحفل

الشا ـ نو ـ يي قدر استمتاع المضيف نفسه . ذلك لان احساسه بأن كرمه قد نال التقدير ، وأن الضيوف قد سعدوا بالحفل ، يجعله أكثر الناس سرورا وغبطة .

ان الضيافة والخدمة التي تتم في ظل حفلات الشاي اليابانية ليست أمرا عاديا هينا ، وانما هي مدرسة يتعلم فيها الافراد دروس الكرم الخالص والملاطفة الصادقة . ويقتضي هذا أن يكون المضيف ـ وضيوفه بالتالي ـ على قدر طيب من الثقافة والحكمة . يقول أحد أساتذة الشا ـ نو ـ يي في ذلك :

« على من يريد أن يكون أستاذا في فن الشا ـ نو ـ يي أن يطلع جيدا ، وأن يطلع دائما . »

الياباني يعيش الى اليوم كما كان يعيش أسلافه

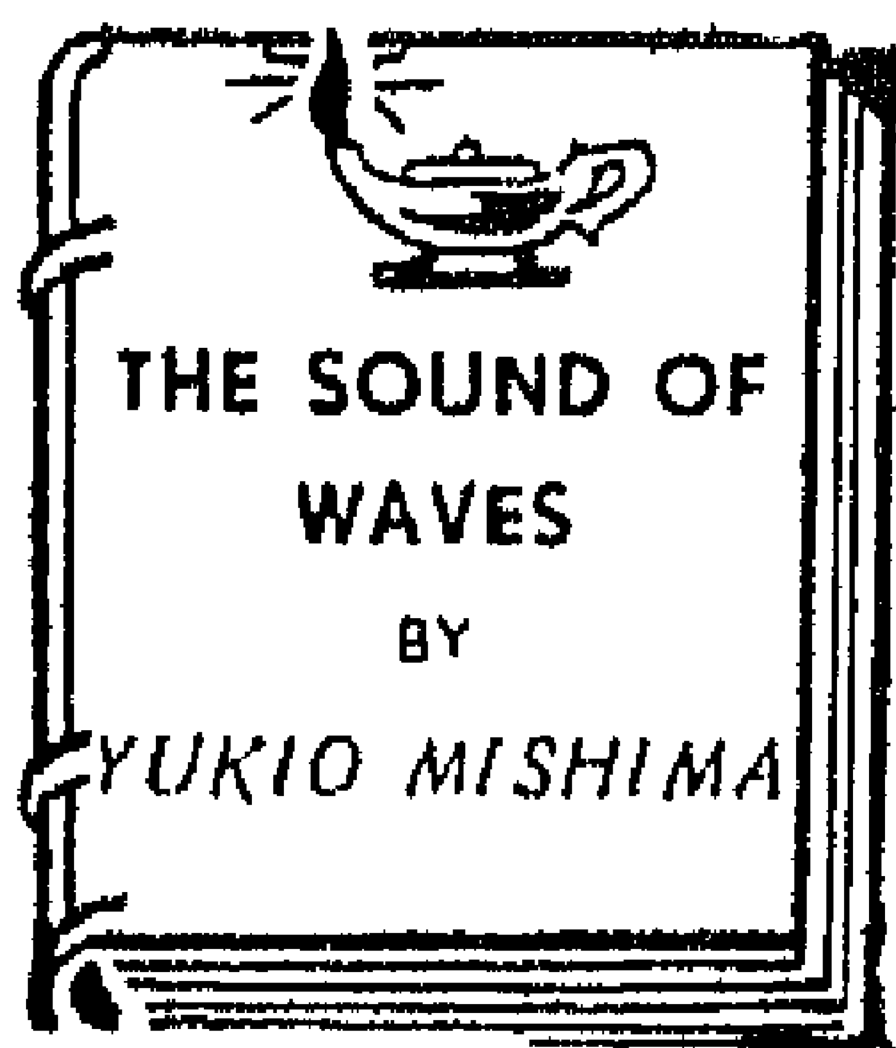
ان أثر عقيدة الشا ـ نو ـ يي يبدو في كل بيت ياباني ، رغم أن غالبية الشعب الياباني لا تعرف دقائق وتفاصيل هذه العقيدة . والبيت الياباني نفسه مكان لصفاء الذهن وعشق الفن ، تزيده عقيدة الشا ـ نو ـ يي ـ التي تهدف الى غرس الروح الجمالية في النفوس ـ بساطة وتواضعا .

ومع أن في اليابان الآن عددا كبيرا من المطاعم والمشارب والفنادق والاندية العصرية ، التي تتبع الاسلوب الاوربي أو الامريكي ، **الا أن الشعب الياباني ما يزال ـ حتى اليوم ـ يعيش حياته بالطريقة التي كان يعيش بها أسلافه في القرون الخالية** . والطريف أن الشباب الياباني تجده الى اليوم حريصا على تلقي أصول الشا ـ نو ـ يي ، اعتقادا منه بأنها تساهم في غرس الاتزان والكياسة والاطمئنان والبشاشة في نفسه ، وهي صفات أساسية تعمل على ترقيته .

وسائل جديدة لعصر جديد

على أن عقيدة الشا ـ نو ـ يى ليست عقيدة جافة متزمتة ، وانما هى قابلة للتطوير والترقية . فقد بدا كثيرون من عشاقها يستخدمون المقاعد والموائد بدلا من الابسطة والوسائد . اذ كثيرا ما تجد المضيف جالسا فوق الحصير طبقا للطريقة القديمة ، بينما قد أعد الموائد والمقاعد لضيوفه ممن لا تستهويهم الطريقة التقليدية ..

تلك هى عقيدة الشا ـ نو ـ يى التى يدين بها ملايين من اليابانيين . **وهى ـ كما رأيت ـ تصرفهم نحو التحلى بصفات وسجايا حميدة ، وتغرس فى نفوسهم الحب والاخاء والنبل ، بعيداً عن وطأة المجتمع الأوربى المسرف فى تقدير حضارته .**



غرام فى الجزيرة

القصة التى احتلت فى الأدب
اليابانى مكانة "قيس وليلى"
فى الأدب العربى
للكاتب اليابانى المعاصر "يوكيو ميشيما"

عزيزى القارىء ..

لكل شعب من شعوب العالم قصة غرامية ، يعتبرها ابنــاؤه مثالا لما يجب ان تكون عليه العلاقة بين الفتيان والفتيــات . وغالبا مايكون ذلك الغرام عذريا ، مليئا بالعواطف السامية . ففى الادب العربى نجد من هذا النوع قصة (قيس وليــلى) و (جميل وبثيــنة) .. الخ ، وفى الادب الانجليزى (روميو وجــولييت) ، وفى الادب الفــرنسى (بــول وفرجينى) و (أوكاسان ونيكوليت) ، وفى الادب الاغريقى القديم (دافنى وكلو) .. الخ .

وفى اليابان ، ظهر ـ عام ١٩٤٥ ـ كتاب «صوت الأمواج» ، الذى نقدمه لك فيما يلى بعنوان « غرام فى الجزيرة » ، فهلــل له النقاد وغمروه بالثناء ، وانزلوه منــزلة قصص الغــرام الخالدة ، فهى ـ عــلى حد قول أحدهــم ـ « قصــة عالمية ، يمكن أن تدور وقائعها فى أية دولة من دول العالم ! »

والقصة من تأليف الروائى اليــابانى المعاصر « يوكيــو ميشيما» . وتقع حوادثها فى احدى جزر اليابان الصغــيرة ، التى يعيش أهلها حيــاة بدائيــة بالغة التزمت .. ومع ان سعيهم وراء الرزق كان يفرض على الرجال منهم أن يعملــوا منذ شروق الشمس الى غروبها ، وعلى النســاء أن يتحملن برودة مياه البحر ، أثناء مزاولتهن مهنــة الغطس التى كانت تحتم عليهن التجرد من ملابسهن ، الا ان كل ذلك لم يحــل بين « شنجى » و « هاتسو » ـ بطلى القصة ـ من أن يتلاقيــا ويتبادلا كؤوس الغرام . غير أن الشائعات الخبيثــة سرعان ماتدخلت بينهما ، فأحدثت من التطورات فى علاقتهمــا ، ومن المواقف المثيرة بينهما ، ماسوف تستمتع بقراءته فيمــا يلى ..

من هذه المواقف ، استطاع « يوكيو ميشيما » أن يصور قصة غرامية ، بلغت حد الروعة فى تصوير العلاقة البريئة الطاهرة التى جمعت بين الفتى والفتاة ، فى أسلوب ينبض بالدفء والحنان ، كما سترى :

المؤلف فى سطور



المؤلف : يوكيو ميشيما

- ولد فى طوكيو عام ١٩٢٥ .
- تخرج من مدرسة (بير) عام ١٩٤٤ ، وقد أنعم عليه الامبراطور بوسام الشرف ، لتفوقه فى الدراسة .
- تخرج من مدرسة طوكيو للتشريع العالى عام ١٩٤٧ .
- نشرت أول رواية له عام ١٩٤٨ .
- أخرجت له المطابع ٨ روايات طويلة ، وكتابا سياحيا ، و ١٠ مسرحيات من فصل واحد ، وما ينوف على ٤٥ قصة قصيرة . كما قدم له مسرح (كوبالى) أربع مسرحيات ناجحة .
- نالت روايته « صوت الأمواج » ، التى نشرت بعنوان « شيوساى » ، جائزة (شنشموشا) الأدبية .
- زار الولايات المتحدة الأمريكية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ونزل ضيفا على وزارة الخارجية بالاشتراك مع

جريدة «بارتيزان ريفو» . وهو يعتبر اول كاتب يابانى ينال هذا التكريم فى أمريكا .

• يمارس فى فراغه رياضتى حمل الأثقال وتربية الاجسام .

غرام فى الجزيرة

تلخيص : رمسيس شكرى

- ١ -

يقطن جزيرة (يوتاجيمـا) ـ أو جزيرة الأغانى ـ حوالى اربعمائة نفس .. ويمتد شاطئها الى ما يقرب من ثلاثة أميال . وتمتاز الجزيرة ببقعتين بلغتا حد الروعة والجمال ، احداهما ضريح « ياشيرو » الذى شيد فى الشمال الغربى منها تكريما لاله البحر « واتاتسومى نو ميكوتو » .. ولما كان جميع سكان الجزيرة يزاولون مهنة الصيد ، فقد كان من الطبيعى أن يعبدوه ويتوجهوا اليه بصلواتهم ودعواتهم كى يمنحهم دائما بحرا هادئا ! .. **فما أن ينجو أحدهم من خطر داهم حاق به فى البحر ، حتى يهرع الى الضريح ، مصليا لاله البحر عن عرفانه بالجميل ، مقدما اليه قرابينه وذبائحه !**

أما البقعة الاخرى التى لا تقل عن الاولى جمالا وفتنة ، فهى جبل (هيجاشى) ، الذى يطل على شاطىء صخرى بطول البحر ، يعلوه منار مرتفع يرسل أضواءه عبر البحر ليهدى الصيادين الى الشاطىء ، ويستطيع حارسه أن يقرأ بسهولة ـ خلال منظاره المكبر ـ اسم أية سفينة أو قارب يعبر قناة (ايراكو) !

***

كان الوقت بعد الظهر ، وقــد انتصب جبل (هيجاشي) يحجب أشعة الشمس فى سعيها الى الغروب ، تاركا المنطقة القريبة من الفنار ترقد فى الظلال .. واذ ذاك حلق صــقر ضخم فى أعالى السماء الصافية الأديم فوق البحر ، وأخــذ يرفرف بأحد جناحيه ثم تلاه بالآخر ، وكأنه يختبر قوتهما ! .. وفى اللحظة التى بدأ فيها كأنه قد قرر الهبوط الى أسفل ، اذا به يحلق عاليا مرة أخرى !

وما لبثت الشمس ان غربت تماما .. وأسرع صياد شاب يتسلق ممر الجبل فى طريقه الى (المنار) ، وقد أمسك فى احدى يديه بسمكة كبيرة أخذ يطوح بها .. وكان الفتى فى الثـامنة عشرة ، طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، فبدا أكبر من ســنه ، لولا تقــاطيع وجهه التى كانت تنبىء عن حقيقة عمره ، وقد أحرقت أشعة الشمس بشرته فبدا فاحم السواد .. وكان يتميز ــ مثــل غيره من قاطنى الجــزيرة ــ بأنف مستقيمة وعينين سوداوين صافيتين ، **ذلك الصــفاء الذى يســبغه البحر على كل من يعتمد عليه فى كسب قوته ! ..** وكان يرتدى سروالا قديما ورثه عن أبيه ، وقميصا رخيصا !

ومع أن الممر الذى كان الفتى يتســلقه شــديد الانزلاق بدرجة خطيرة ، فقد كان بوسعه ان يتسلقه مغمض العينين ! .. وسار فى طريقه دون أن يتعثر أو يتردد !

***

كان الفتى قــد خرج فى ذلك الصــباح ــ كعــادته ــ الى عرض البحر ، على ظهر سفينة الصيد الصغيرة (تايهى مارو) ، المزودة بمحرك بخارى ، بصحبة صاحب السفينة وفتى آخر !

.. فلما غربت الشمس ، عادت السفينة الى الجزيرة تحمل نصيبها من الصيد . وما ان القت مرساها على الشاطىء ، حتى قفز الفتى منها واخذ يشدها الى الرمال ، ثم نقل السمك الى قارب (الجمعية التعاونية) !

وانتقى الفتى سمكة كبيرة ليهديها الى حارس المنار وزوجته ، وبينما كان يسير على الشاطىء ، وقع بصره على جموع الصيادين ، وقد انهمكوا فى شد قواربهم الى الرمال ، صائحين مهللين .. وفجأة لمح فتاة غريبة ، لم يرها من قبل ، تستند بجسدها الى كومة من الألواح الخشبية ، لتسترد انفاسها بعد الجهد الشاق الذى بذلته فى نقل الألواح الى الشاطىء !

وكان العرق يتصبب من جبينها ، وقد توهج خداها .. واذ ذاك هب من الغرب نسيم بارد ، **فأدارت الفتاة وجهها المرهق نحوه ، واستقبلته فى نشوة واستمتاع ، تاركة خصلات شعرها الطويل تتطاير خلف ظهرها !** .. وكانت ترتدى قميصا قطنيا بلا أكمام ، وسروالا نسائيا طوت طرفيه حتى ركبتيها ، وقفازا متينا !

ووقفت الفتاة ترنو ببصرها الى السماء جهة الغروب ، واخذت تتأمل قرص الشمس القرمزى ، الذى كان يختفى بين طبقتين من الغيوم السوداء ! .. ولما أدركها الفتى تعمد أن يقف أمامها ، وراح يحملق فى وجهها ، كما يفعل الأطفال عندما يشاهدون شيئا غريبا ! .. غير أن الفتاة لم تتحرك ، وظلت واقفة تتطلع الى البحر ! .. بل ولم تلق اليه نظرة واحدة !

***

ولما وصل الفتى الى منتصف الممر ، فى طريقه الى المنار ،

أدرك فجأة ما فى تصرفه نحو الفتاة من فظاظة وسوء أدب .. وعندئذ صعد الدم الى وجنتيه خجلا وغمره شعور بالندم ! .. غير أن ذلك لم يمنعه من أن يستحث الخطى نحو المنار ، فان زوجة حارسه قدمت ـ ذات يوم ـ الى أمه خدمة جليلة . ومنذ ذلك اليوم اعتاد أن يحمل اليها جزءا من محصول صيده اليومى !

وأخيرا ، وصل الفتى الى المنزل الذى يقيم فيه حارس المنار ، فأعلن عن قدومه مناديا من الخارج .. واذ ذاك انفتح الباب وأطلت الزوجة ، وقالت :

ـ أوه .. أهذا أنت يا شنجى « سان » ؟ (١)

ومد الفتى يده اليها بالسمكة ، دون أن ينبس بكلمة ! .. فتناولتها منه ثم نادت زوجها قائلة :

ـ أيها الأب .. لقد أحضر لنا شنجى سان سمكة !

وجاء صوت حارس الفنار ، اللطيف ، من الداخل قائلا :

ـ أشكرك .. أشكرك .. تفضل بالدخول أيها الفتى شنجى !

ـ ٢ ـ

جلست أم الفتى وأخوه ـ الذى كان فى الثانية عشرة ـ ينتظران أوبته من البحر ، فى غرفة صغيرة من المنزل ، يضيئها مصباح تدلى من السقف ! .. لقد كان والد الفتى يعمل صيادا الى أن لقى مصرعه فى الحرب ، فما لبث أن وقع عبء اعالة الأسرة على عاتق الأم ، فعملت « غطاسة » لصيد

---

(١) سان : كلمة يابانية بمعنى ((المحترم)) وهى تضاف الى كل اسم ، اظهارا للاحترام ، الذى يعد من صفات اليابانيين الأصيلة !

الاخطبوط ، الذى كان يمثل ثمانين فى المائة من ثروة الجزيرة ، أما العشرون الأخرى فكانت تأتى من السمك !

فلما عاد الفتى ، ابتدرته أمه قائلة :

ـ هل حازت السمكة رضاء حارس المنار ؟

ـ نعم ، وقال لى : «تفضل بالدخول .. تفضل بالدخول» .. ثم قدم لى شرابا اسمه « الكاكاو » !

ـ وما هو هذا الـ « كاكاو » ؟ !

ـ انه شراب ، يشبه حساء الفول !

وقامت الأم وطهت بعض السمك الذى احضره ابنها . وبينما كان الفتى يتناول عشاءه ، شرد ذهنه الى الفتاة التى رآها على الشاطىء .. انه يعرف جميع فتيات الجزيرة .. ترى من تكون ؟ .. واستبد به الفضول ، لمعرفة شخصيتها ! فما أن تناول عشاءه حتى اصطحب أخاه الى الحمام العمومى ، حيث يجتمع الكثيرون من سكان الجزيرة ، ليستحموا ويتبادلوا الانباء والأراء . غير أن رئيس الجمعية التعاونية للصيد وساعى البريد ــ اللذين تصادف وجودهما هناك ــ قضيا كل الوقت فى الخوض فى الشئون السياسية ، دون أن يعرجا على موضوع الفتاة !

***

وفى اليوم التالى ، خرج الفتى «شنجى» على ظهر سفينة الصيد « تايهى مارو » ، وأخذ يلقى الشباك بمساعدة الفتى « ريوجى » .. أما صاحب السفينة « جوكيتشى » ، فقد كان يتولى قيادتها الى أكثر الأماكن ازدحاما بالأسماك .. فلما حل موعد الغداء ، جلس الثلاثة يتناولون طعامهم الذى يتكون من خليط الأرز والشعير المغليين ، مضافا اليه شرائح من الفجل .

وفجـاة ، وعلى غير انتظار ، اذا « بجـوكيتشى » يرضى فضول الفتى ، ويجيب عن السؤال الذى طالما شغل باله ، فقد نظر اليه وقال :

ـ هل علمت أن العم ((تيرو مياتا)) قد اسـتعاد ابنته ؟

ـ لم أكن أعلم أن له ابنة !

واستطرد « جوكيتشى » يروى للشابين القصـة قائلا : « لقد انجب العم « تيرو » أربع بنات وولدا واحدا .. فلما راى أن ما لديه من البنات يزيد عن حاجته ، عمل على تزويج ثلاث منهن ، وعرض الرابعة على راغبى التبنى . وما لبثت احدى الأسر التى تقيم فى (شيما) أن تبنت الفتاة «هاتسو» ! .. ولكن ، ماذا حدث ؟ .. لقد توفى ابنه الوحيد فى العـام الماضى بداء الرئة ، فشعر بالوحدة تقتله ! .. ومن ثم أرسل الى الفتاة يستدعيها اليه ، وأعاد تسجيل اسمها فى سجل أسرته .. وهو يبحث لها الآن عن زوج يتبناه ! .. لقـد نضجت الفتاة ، وأصـبحت بارعة الجمال ، ولا شـك فى ان كثيرين من الشبان يتمنون الزواج منها .. فماذا عنكما ؟ .. هيه ؟ »

فنظر كل من « شنجى » و « ريوجى » الى وجه الآخر ، وقد صعدت الدماء الى وجنتيهما ، الا أن احتراق بشرتهما قد اخفى ذلك الاحمرار ! !

***

وفى ذلك المساء ، حضر « شنجى » الاجتماع الذى اعتاد شـباب القرية أن يعقـدوه فى كوخ صـغير ! .. ولمـا دخل « شنجى » الكوخ ، أبصر أحد الفتيـان راكعا على الأرض ، وقد ترك شعر رأسه تحت رحمة مقص صدىء يمسـك به أحد اصدقائه ! .. وابتسم «شنجى» ، ثم جلس على الأرض

مستنداً بظهره الى الحائط .. وظل كعادته صامتا ، يستمع الى ما يقوله الآخرون !

وكان الشبان ينتظرون قدوم زعيمهم «ياساو كاواموتو» . ومع أنه لم يتجاوز التاسعة عشرة ، الا أنه كان ابن زعيم القرية ، ويتمتع بين أقرانه بنفوذ واسع ! .. **لقد أوتى موهبة « قيادة الآخرين » ، وكان يعرف كيف يجعل الجميع يتبعونه ويرضخون لأوامره وتعليماته !** .. وكان يتصرف دواما مع اتباعه على نحو يضفى على شخصه أهمية ورفعة . فكان يعمد الى الحضور آخر الجميع !

وما لبث الباب أن فتح فى جلبة ، ودلف « ياساو » الى الكوخ .. وكان بدينا ، ورث عن أبيه احمرار الوجه ، الذى كانت ملامحه تنطق بالسذاجة ، وان كانت نظرة عينيه تكشف عن خبثه وسوء طويته ! .. وما ان جلس حتى قال مسرعا :

ـ اعتذر لتأخرى .. حسنا ، لا يجدر بنا أن نضيع الوقت .. ها هو ذا البرنامج المحدد لمشروعات الشهر القادم !

وأدرك الجميع أنه كان فى عجلة من أمره ، فجلسوا فى صمت يستمعون الى برنامجه دون مقاطعة .. ولما انفض الاجتماع ، استفسر « شنجى » من أحد أصدقائه عن سبب عجلته ، فأجابه قائلا :

ـ الا تعلم ؟ .. انه مدعو لحضور الحفلة التى يقيمها العم « تيرو مياتا » الليلة ، احتفالا بعودة ابنته « هاتسو » !

وسرعان ما أعاده ذلك الجواب الى الواقع المرير الذى كان يعيش فيه ، ذلك الواقع الذى لم يكن من قبل ليوليه أى اهتمام ! .. لقد كان صيادا فقيرا ، لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، فأنى له أن يطمع فى تلك الفتاة الغنية التى يملك أبوها الكثير من سفن الصيد ، والتى يتهافت على الزواج منها

الصفوة من أثرياء الشبان ، من أمثال « ياساو » ابن زعيم القرية ؟ !

وما لبث أن انفض الاجتماع ، وانصرف الحاضرون الى سبيلهم ، زرافات وفرادى . أما « شنجى » ، فقد انطلق يضرب فى دروب القرية على غير هدى .. وأخيرا وجد نفسه يسير على الشاطىء ، فى طريقه الى ضريح (ياشيرو) ، حتى بلغ أسفل الدرجات الحجرية ، التى يبلغ عددها المائتين ، والتى كانت ظلال أشجار النخيل تتراقص فوقها ، فأخذ يصعد الدرجات وصوت «قبقابه» الخشبى يطرقع فوقها . ثم ارتفعت نظراته الى أعلى ، فوجد الظلام يخيم على منزل الكاهن !

ولم يجد فى الضريح أحدا ، فتملكته الرهبة والخشوع .. ثم ألقى بعشرين « ينا » فى صندوق النذور ، وصفق بيديه الخشنتين قاصدا جذب انتباه « الاله » اليه ، وانطلقت من قلبه صلاة صامتة ، ابتهل فيها قائلا : « أيها الاله .. امنحنى بحرا هادئا وسمكا وفيرا ، واجعل قريتنا تسير من نجاح الى نجاح .. اننى لا أزال شابا ، ولكن بمرور الوقت ، دعنى أصبح صيادا بين الصيادين ، وهبنى من لدنك حكمة واحاطة بفنون البحر وأسراره ، وبكل ما يتعلق بالسمك ، والقوارب ، والطقس ! .. وباختصار ، امنحنى مهارة وتفوقا فى كل ما يوكل الي من أعمال . وأرجو أن تولى برعايتك أمي الرقيقة ، وأخي الطفل .. وأخيرا ، أتقدم اليك بأمنية خاصة أرجو أن تحققها لى .. **وفق عبدك المتواضع الفقير فى الحصول على عروس جميلة الطلعة ، طيبة القلب .. مثل ابنة « تيروكيتشى مياتا » العائدة ! »**

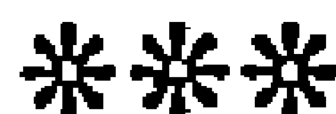
واذ ذاك هبت الريح ، وأخذت أغصان اشجار النخيل

تهتز وتتمـايل فى عنف ، وانبعثت من داخـل الضريح المظلم أصداء رهيبة ، وكأنما استجاب اله البحر لصـلاة الفتى !

- ٣ -

انقضت بعد ذلك أربعة أيام ، ثم اجتاحت البحر عاصـفة هوجاء ، وطفقت الأمواج تصخب وتتلاطم فى عنف عند حاجز الميناء .. ورغم أن السماء كانت صافية ، الا أن السـلطات منعت خروج قوارب الصـيادين الى عرض البحر خوفا من العاصـفة ! .. ومن ثم ظل أهل القرية فى منازلهم ، فطلبت أم « شنجى » الى ولدها ان يحضر حزمة من الحطب كانت قد جمعتها فى أعلى الجبل ، وعقدتها فى ربطة ، غير أنها تركتها ملقـاة على الأرض فى الطابق الأول من البرج ، لعجـزها عن حملها الى الدار !

وكان طريق الجبل ساكنا ، لا يخطر فيه انسان ، بل ولا كلب ضال .. فأخذ الفتى يصعد الى قمة الجبل حتى وصل الى البرج ، ثم اتجـه الى الطابق الاول حيث وجـد حزمة الحطب كما تركتهـا أمه .. فلما هم بحملها ، خيل اليه انه قد سمع صوتا صادرا من أعلى البرج ، فانصت بانتباه ، غير ان الصوت كان قد تلاشى ، فاعتقد أنه كان واهما ! .. لكنه أراد أن يتأكد من الأمر ، فقرر أن يصعد الى السطح . وفيما كان يصعد الدرج ، ترامى الى سمعه فى وضوح صوت انسان ينتحب ، فأدرك انه لم يكن واهما ، ومن ثم انطلق راكضـا نحو السطح !



وكانت ملامح الفتاة التى وجدها شـنجى فى أعلى البرج تنطق بالفزع والخوف .. فقـد فوجئت بظهور ذلك الفتى

أمامها ، دون أن تسمع وقع قدميه ، وكأنما قد خرج من الفضاء ! .. وكانت الفتاة تضع في قدميها «قبقابا» خشبيا ، وقد اتكأت على حاجز البرج وراحت تنتحب ، غير أنها ما ان لمحته حتى أمسكت عن البكاء ، واخذت تنظر اليه فى خوف ووجل !.. أما الفتى الذى عرف فيها «هاتسو» على الفور ، فقد فاض قلبه غبطة ، الا انه حسب أن عينيه تخدعانه . فلم يكن يحلم قط أن يلتقى هكذا مصادفة بفتاة أحلامه التى طالما هفا اليها فؤاده !

ووقف كل منهما يحدق في عيني الآخر ، كحيوانين كاسرين التقيا في الغابة على حين غرة ، وقد تضاربت عواطفهما بين الحذر والفضول ! .. وأخيرا نطق « شنجى » قائلا :

ــ انك « هاتسو سان » .. أليس كذلك ؟

فأطرقت الفتاة برأسها ، وقد تملكتها الدهشة لمعرفته شخصيتها ، غير أن هاتين العينين السوداوين أعادتا الى ذاكرتها فجأة صورة ذلك الفتى الذى كان يحملق فى وجهها على الشاطىء منذ أيام !

واستطرد شنجي متسائلا :

ــ لقد كنت أنت التى تبكين .. اليس كذلك ؟

ــ نعم !

ــ ولماذا كنت تبكين ؟

وعندئذ أخذت « هاتسو » تقص عليه كيف انها كانت فى طريقها الى حضور درس تعقده زوجة حارس (الفنار) لتلقين الفتيات العائدات الى الجزيرة قواعد اللياقة . واذ وصلت مبكرة الي المكان ، خطر لها أن تتسلق الجبل ، فاذا بها تضل طريقها !

ولما انتهت من روايتها ، تطوع « شنجى » لان يهديها الى الطريق ، وأن يصحبها بنفسه ــ ان شاءت ــ الى (الفنار) ،

فارتسمت على شـفتيها ابتسامة فاتنة ، وان لم تحاول ان تمسح الدموع التى انسابت فوق خدها . فأخذ قلب الفتى يخفق بشدة من فرط سعادته ، غير ان الوقت كان يمر بسرعة فائقة ، وحان موعد عودة الفتاة الى (الفنار) . فلم تلبث هذه ان ابتعدت عن سور الاسمنت الذى كانت تتكىء عليه ، واستدارت الى شنجى قائلة :

ـ يجب أن أعود الآن !

ولمح « شنجى » بقعة سوداء تلطخ قميص الفتاة الأحمر ، فتتبعت الفتاة نظراته وشاهدت بدورها بقعة فوق ثدييها حيث كانت تستند فوق سور الاسمنت ، فأخذت تدلك مكان البقعة بكفها حتى زالت تماما !

وأخيرا انطلق الفتى يهبط درجات البرج متقدما الفتاة التى تبعته فى صمت . وفيما كانت قدماه تنتقلان من درجة الى درجة ، عادالى ذهنه منظر ثدييها الممتلئين وهما يهتزان فى رقة ونعومة تحت تأثير تدليكها ! .. فلما بلغا الطابق الأول ، انفجرت الفتاة ـ فجأة ـ ضاحكة فى مرح ، فتوقف «شنجى» واستدار نحوها فى حيرة ، ثم سألها :

ـ ما الذى يضحكك ؟

ـ ان بشرتى سمراء ، غير أن بشرتك سوداء .. كالفحم !

فضحك «شنجى» ، ثم تابع نزوله . غير أنه ما كاد يغادر البرج ، حتى عاد أدراجه راكضا .. فقد نسى أن يحضر حزمة الحطب التى طلبت اليه أمه احضارها ! !

ـ ٤ ـ

كان شنجى يعيش ـ حتى ذلك الحين ـ حياة بسيطة راضية ، لا يحس فيها بمرارة الفقر الذى يرزخ تحته . غير أن فؤاده ما كاد يتعلق بـ « هاتسو » ، حتى أخذت الأفكار

تعذبه وتحرمه لذة النوم الهانيء ، وقد أضناه الشعور بأنه لا يملك ما يغرى فتاة مثل « هاتسو » بقبوله زوجا لها .. حقيقة انه كان يفيض صحة وقوة ، وان المرض لم يعرف الى بدنه طريقا ، كما انه كان فى وسعه أن يسبح حول الجزيرة خمس مرات دون توقف ، الا أن كل تلك الصفات ما كانت لتجذب قلب الفتاة نحوه !

وأراد « شنجى » أن يتخلص من هذه الأفكار التى تؤرقه وتعذبه ، فافرغ همه فى العمل ، فكان يقضى احدى عشرة ساعة كاملة كل يوم ، على ظهر السفينة (تايهى مارو) ، فى صيد الاخطبوط ، دون أن يدع لنفسه وقتا للتفكير !

وكان من المعتاد أن يقوم كل قارب بتسليم حمولته من السمك الى سفينة الجمعية التعاونية التى تتولى بيعه مقابل عمولة تحصل عليها .. وكان اليوم العاشر من كل شهر هو موعد سداد قيمة السمك لكل صياد .. وفى ذلك اليوم ، قبض « شنجى » من مخدومه نصيبه الذى بلغ أربعة آلاف « ين » ، ما ان وضعه فى جيب صديريته حتى انطلق عائدا الى منزله .

وبينما كان يسير على الشاطىء ، وقع نظره على بعض النسوة وهن يجذبن قاربا نحو الرمال ، فتقدم منهن ، ونزل الى الماء ، ثم أخذ يدفع القارب من الخلف بساعديه المفتولين القويين ، فما لبث القارب أن انزلق فوق الرمال !

ولما عاد شنجى الى المنزل ، وجد أخاه يقرأ كتابا ، بينما كانت أمه تجلس أمام الموقد تطهو الطعام .. ولم يجب « شنجى » على ترحيب أمه بكلمة ، بل استلقى فوق الفراش دون أن يخلع حذاءه ! .. وكان يحب دائما أن يسلم أمه مظروف النقود دون أن ينبس بكلمة ، أما هى فقد كانت تتظاهر بأنها قد نسيت أن ذلك اليوم هو اليوم العاشر .. يوم قبض

ثمن السمك ، اذ كانت تدرك مقدار سروره عندما يرى الدهشة ترتسم على وجهها !

ودس شنجي يده فى جيب صديريته الأيمن ، ثم فى الجيب الأيسر ، ثم فى بقية جيوبه ، غير انه لم يجد النقود ! . . وادرك انها لا بد قد سقطت منه على الشاطىء أثناء دفعه للقارب ، ومن ثم انطلق خارج المنزل راكضا دون أن يفوه بكلمة !

وبعد قليل ، سمعت الأم نداء عند الباب ، ولما خرجت لاستطلاع الامر ، رأت فتاة جميلة تقف فى الظلام ، ممسكة بمظروف فى يدها . . وأبتدرت الفتاة المرأة العجوز سائلة :

ـ هل « شنجي سان » موجود . . بالمنزل ؟

ـ كلا ، لقد حضر منذ قليل ، ثم خرج ثانية !

ـ لقد عثرت على هذا المظروف على الشاطىء . . ولما كان اسمه مكتوبا عليه ، فقد . .

ـ ان هذه لكرمة منك . . لا بد انه خرج ليبحث عنه !

ـ اتودين أن أذهب لأخبره ؟

ـ احقا تفعلين ؟ شكرا لك . . شكرا لك !

***

وكان الشاطىء يسبح فى ظلام دامس ، عندما لمحت « هاتسو » شبح « شنجي » ، منحنيا خلف أحد القوارب ، وقد راح ينقب فى الرمال . ولم يشعر الفتى بقدومها الى أن وقفت أمامه . . وأفضت اليه « هاتسو » بأنها عثرت على مظروف نقوده ، الذى كان يربض فى تلك اللحظة آمنا بين يدى أمه ! . . واستطردت تشرح له كيف انها اضطرت أن تسأل ثلاثة أشخاص عن عنوان منزله قبل أن تستطيع الاهتداء اليه !

وتنهد شنجي بارتياح ، ثم ابتسم وقد ومضت أسنانه البيضاء من خلال الظلام . . ولما كانت الفتاة قد أقبلت راكضة

طوال الطريق ، فقد أخذ نهداها يعلوان ويهبطان بسرعة جعلت « شنجي » يستعيد في ذهنه صورة أمواج البحر الزجراجة ! ٠٠ ورغم أن رؤيته للفتاة قد أزاحت التعب والجهد اللذين لاقاهما طوال يومه ، وأعادت الانتعاش والغبطة الى روحه ، فانه لم يستطع أن يحبس الكلمات التى انطلقت من فمه بغير ارادته ، فقد وجد نفسه يسأل الفتاة :

ـ لقد سمعت انك سوف تتزوجين من ياساو كاواموتو ٠ فهل هذا صحيح ؟!

وكان وقع سؤاله عليها عجيبا ! ٠٠ فقد انفجرت ضاحكة ، ثم علا ضحكها وأخذ يدوى شيئا فشيئا حتى كادت تختنق !٠٠ **وحار شنجي كيف يسكتها ، لكنه اقترب منها ، وأراح كفه فوق كتفها ٠ ورغم أن لمسته كانت رقيقة ، الا أن الفتاة سرعان ماسقطت فوق الرمال ، وهى لاتنقطع عن الضحك٠٠** واذ ذاك انحنى شنجي فوقها ، وقد أمسك بكتفيها ، وراح يهزها بعنف متسائلا : « ماذا دهاك ؟ ٠ ٠ ماذا دهاك ؟ » ٠ ٠ وسرعان ماخف ضحكها ، ثم نظرت الى عينى الفتى فى جد واهتمام ٠ فأدنى « شنجي » وجهه منها ، وأعاد سؤاله قائلا :

ـ أخبرينى ٠٠ هل هذا صحيح ؟

ـ أيها السخيف ، انها لأكذوبة كبرى ٠٠ أكذوبة حقيرة !

وفى اللحظة التالية ، كان الاثنان يجلسان فى ظل أحد القوارب ، وقد ضم كل منهما ركبتيه الى صدره ٠٠ وفجأة وضعت الفتاة يدها على صدرها ، وقالت :

ـ أوه ٠ ٠ لكم أوجعنى قلبى ! ٠ ٠ لقد انسقت في الضحك حتى وخزنى قلبى ٠ ٠ هنا ٠٠ فى هذا الموضع !

وفى غير وعى ، وضع شنجي يده على قلبها ، فلامست أصابعه ثديها الأيسر ، وما لبثت أن سألها :

ـ كيف حالك الآن ؟

ـ لقد شعرت بتحسن بمجرد ضغط كفك على صدرى !

وسرت عدوى اللهاث الى « شنجى » ، وأخذ صدره يخفق بشدة .. وفجأة تقارب خداهما حتى كادا أن يتلامسا ، فسرت رائحة جسد كل منهما ودفئه الى الآخر ، ولم يشعرا الا وقد التحمت شفاهما الجافة المتشققة فى قبلة طويلة ، فذاق شنجى فى شفتيها شيئا من طعم الملح ، أشبه بطعم أعشاب البحر !

وأخيرا ، انقضت اللحظة ، فابتعد الفتى عن الفتاة ناهضا ، وقد شمله شعور بالذنب وتأنيب الضمير ، فى أول تجربة له من هذا القبيل ! .. لكن بعد قليل ، استرد الفتى هدوء نفسه ، وقال فى صوت هادىء يفيض رجولة :

ـ غدا ، سأذهب ببعض السمك الى منزل حارس المنار ، بمجرد انتهائى من الصيد !

وفى اليوم التالى ، عاد « شنجى » من البحر يحمل هديته المعتادة الى حارس المنار وزوجته . وسار فى طريقه الى الفنار يؤرجح سمكتين من سمك الثعبان لايقل طول الواحدة منهما عن ست بوصات ! .. وما أن جاوز مؤخرة ضريح (ياشيرو) ، حتى تذكر انه لم يقدم بعد الى اله البحر صلاة الشكر ، لاستجابته الى طلبه بمثل هذه السرعة . فقفل عائدا ، ودار حول الضريح الى أن بلغ واجهته ، وهناك وقف يصلى فى خشوع !

وفى تلك الأثناء ، اتجهت « هاتسو » ، فى طريقها الى منزل حارس المنار ، تحمل لزوجته هدية من « خيار البحر » ملفوفة فى صحيفة قديمة ، فقوبلت بالترحيب الحار من الحارس وزوجته . وسرعان ما استغرق الثلاثة فى الحديث

في مختلف الشئون ! ٠٠ فلما غربت الشمس ، وخيم الظلام على الجزيرة ، لمحت الزوجة للفتاة بأن موعد عودتها الى منزلها قد حان ، وان القلق قد يساور قلب أبيها لغيابها ٠٠ غير أن الفتاة تظاهرت بعدم ادراك قصدها ، ولم تبد عليها أية رغبة في الانصراف ، بل تطوعت بمساعدة المرأة في اعدادطعام العشاء !

وأخيرا ، وصل الى مسامعهم صوت وقع أقدام في الخارج ، وانبعث صوت من ثنايا الظلام ينادي قائلا : « طاب مساؤكم » ، فنظرت الزوجة من باب المطبخ ، ثم قالت : « أيها الأب ٠ ٠ لقد أحضر لنا « شنجي سان » بعض السمك » ٠ فأجاب الزوج الذى كان يجلس بجوار الموقد قائلا للفتى : « أشكرك مرة أخرى ٠٠ تفضل بالدخول ، أيها الفتى شنجي ! »

وفى غمرة ذلك الترحيب ، التقت نظرات الفتاة والفتى ٠ ٠ وصادف أن اتجهت الزوجة بنظرها نحوهما ، فلمحت « شنجي » و « هاتسو » وهما يتبادلان الابتسام ، فقالت :

ــ أوه ٠ ٠ يبدو انكما قد تعارفتما من قبل ٠٠ هذا حسن! ٠٠ انها لقرية صغيرة ٠٠ تفضل بالدخول يا « شنجى سان » ٠٠ أوه ٠٠ لقد تذكرت ٠٠ لقد أرسلت ابنتنا « شيوكو » خطابا من طوكيو ، وألحت فى السؤال عنك وعن أحوالك ، يا « شنجي سان » ٠ ٠ وهى تقول انها ستعود الى الجزيرة خلال عطلة الربيع !

ثم أردفت قائلة وهى تبتسم فى مكر :

ــ لاشك ــ اذن ــ فى أن اختيارها قد وقع عليك ٠ لذا أرجو أن تحرص على رؤيتها عندما تجيء !

وكانت قدما « شنجي » قد اجتازتا عتبة الدار ، غير أن تلك الكلمات التي باغتته ، دفعته الى التقهقر فى خطوات عجلى متعثرة ٠ وأخذ الجميع ينادون عليه ، غير انه واصل

تراجعه ، وقد راح ينحنى لهم بين خطوة وأخرى ٠٠ فضحكت الزوجة ، وقالت :

ـ هذا الـ « شنجى » ٠٠ انه حقا لفتى خجول !

***

وقبع الفتى فى الظلام ينتظر قدوم « هاتسو » ٠ ولم يمض وقت طويل حتى رأى شبح الفتاة تسير فى الممر المؤدى الى (منحنى النساء) ، وقد أمسكت فى يدها بمصباح كهربائى صغير ، ينير بشعاعه الطريق أمامها ٠٠٠ وجاوزته الفتاة دون أن تفطن الى وجوده ، فركض خلفها حتى أدركها ، ثم أحاطها بذراعيه من الخلف ٠٠ واذ ذاك أطلقت الفتاة صرخة فزع ثم سقطت على الارض ٠٠ وما لبث « شنجى » أن انحنى فوقها فقبض على ذراعيها ، ثم جذبها الى أعلى حتى وقفت على قدميها ثم أخذ ينفض التراب الذى علق بثوبها فى رقة وحنان !

أما هاتسو ، فقد وقفت كالطفل لاتحرك ساكنا ، وقد أسندت يدها فوق كتفيه القويتين ٠٠ وفيما كان شنجى ينفض التراب عن ثوبها ، لاحظ علامات الغضب والاستياء تبدو على قسمات وجهها ، فلم يملك أن سألها :

ـ لماذا أنت غاضبة ؟ ٠٠ أتراني قد فعلت مايثير استياءك ؟!

ـ انه كل ذلك الحديث عن ٠٠ « شيوكو سان » !

ـ يالك من غبية !

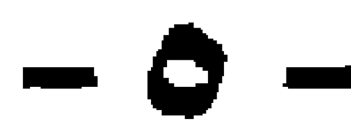
ـ اذن ، فالأمر ليس صحيحا ؟

ـ كلا ،ليس صحيحا !

وبعد قليل ، كان الاثنان يسيران الهوينا ، وقد أمسك شنجى بالمصباح ، لينير أمامهما الطريق الوعرة المنحدرة ، وكأنه قبطان باخرة ! ٠ ٠ واذ كان الصمت يخيم حولهما ، أراد الفتى أن يبدد ذلك السكون ، فأخذ يبث الفتاة أمانيه

وآماله ، مؤكدا انه يرجــو أن يتمـكن ، ذات يوم ، مـن أن يقتصد من المال مايكفل له شراء سـفينة صـيد صغيرة ، حتى اذا تحقق له ذلك ، عمل جاهدا على توفير السعادة لأمه وأخيه الصغير وسائر أهل الجزيرة !

وأنصتت « هاتسـو » الى حـديثه دون أن تنبس بكلمـة ، غير انها كانت نطرق برأسها ـ بين اللحظة والأخرى ـ علامة الموافقة . ولم يطرق الشك أو الملل ـ من حديثه ـ قلبها لحظة واحدة ، بل فاض وجهها بتعبير صـادق عن مدى ثقتهـا به ، مما بعث الغبطة والنشوة فى قلب الفتى الولهان !



- ٥ -

أفرغت السـفينة (كاميـكازىمارو) حمولتهـا من الطلبة والطالبات العـائدين لقضـاء عطلة الربيـع فى الجزيرة ، عـلى رصيف (توبا) الذى يقع فى الجانب المقـابل لها .. ووقفت جموع المسافرين تنتظـر وصول القارب الذى سـيقلها الى الشاطىء ، وبينهـم « شـيوكو » ابنـة حارس (الفنـار) التى كانت تتلقى العلم فى (طوكيـو) .. وكانت ترتدى ثوبا بسـيطا ، بنى اللون . وقـد خلا وجهها من أى أثر للزينـة ، وارتسم عليه تعبير مكتئب من فـرط احساسها بحرمانها مـن الجمال ، مما دفعها الى أن تعتزل النـاس وتهجـر المجتمعات ، فتفرغ قنوطها ويأسها فى الكتب .. وكانت تشـكو ، دائمـا وأبدا من انها قد ورثت قبح الخلقة عن أبيها !

وفيما كانت تنتظـر مجىء القـارب ، وقد أوشـك صـبرها عـلى النفاد ، شـعرت بيد تربت عـلى كتفهـا ، فالتفتت الى الخلف ، فاذا بها ترى « ياساو كاواموتو » رئيس جمعية الشبان الذى وقف ضاحكا وقد التمعت سـترته المصـنوعة من الجـلد تحت أشعة الشمس .. ولم يلبث أن قال لها :

ــ هوه ٠٠ مرحبا بعودتك ٠٠ لقد حلت عطلة الربيع ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ، فلقد انتهت الامتحانات البارحة ٠

ــ اذن ، فقد عدت كي ترتشفي جرعة أخرى من « لبن » أمك ؟!

وكان ياساو يتحدث اليها كمن يحاول أن يثبت لتلك الفتاة التى تتلقى العلم فى الجامعة ، انه لايقل عنها طلاقة فى الحديث !

٠ غير انها ادركت فى الحال ما يكمن خلف المرح والحيوية اللذين لاحا من خلال حديثه ، فقد كان ينظر اليها وكان لسان حاله يقول : « لاريب ان هذه الفتاة معجبه بى ! » ٠ ٠ واذ ذاك عاودها الاحساس بالقنوط والأسى ، وراحت تسائل نفسها : ترى ألن يقدر لها قط أن تقابل ــ يوما ــ ذلك الشخص الذى ينظر فى عينيها ، فيقول لها : « اننى أحبك » ، بدلا من أن يقول : « انك تحبينني » ؟ ! ٠٠ **لطالما راودها ذلك الحلم الجميل ، غير ان زمنا طويلا قد انقضى منذ أن يئست تماما من تحقيقه !**

وأفاقت من تأملاتها على صوت « ياساو » وهو يقول : « لقد أوشك القارب على الاقلاع » ٠ ٠ فلما حاولت أن تصعد الى القارب ، مد لها الفتى يده فأمسك بساعدها ٠ ٠ وكان يتمتع ــ حقا ــ بعضلات قوية ، ولكن شتان مابين يده التى كانت تفيض قوة وحيوية ، وبين ماتعشقه فى يد « شنجى » ــ الذى كان يملأ فؤادها وأحلامها ، والذى كانت تتحرق شوقا الى رؤياه ــ من رقة وحنان !

فلما استقرا فى القارب ، جلس « ياساو » الى جوارها وخيم عليهما صمت طويل . قطعته شيوكو أخيرا بقولها :

ــ ماهى آخر أنباء الجزيرة ؟

ـ لا جديد ·· أوه ، نعم ·· لقد استعاد العم « تيرو مياتا » ابنته ·· انها تدعى « هاتسو » ، وهى بارعة الجمال !

واذ ذاك غيمت سحابة مـن الحزن على وجهها ·· فقد كان « الجمال » الكلمة الوحيدة التى لاتنفـك تطاردها أينما حلت ، فتعيد الى ذاكرتها دمامة وجهها وبشاعة خلقتها ! ·· واسترسل « ياساو » فى ثرثرته قائلا :

ـ ان العم « تيرو » يفضلنى على سائر الشبان ·· لذلك يقول كل من فى القرية ان اختيـاره سـوف يقع على لأكون زوجا لابنته !

غير ان أفكار الفتـاة كانت شـاردة بعيدا ، فلم تستمع الى حرف واحد مما قاله لها ·· !

***

وصل « شنجى » الى برج المراقبة والمياه تقطـر من ملابسـه ·· لقد هبت فى ذلك اليوم عاصفة هوجاء ، وزمجرت الريح وأرعد البرق ، ثم هطلت الامطار بغزارة ·· غـير ان غضب الطبيعـة الثائرة ماكان ليعوقه عن موافاة حبيبته حسب اتفاقهما فى اليوم السابق !

فما أن وصـل الى البرج القـديم المتهـدم ـ الذى كان يستخدم فى مراقبة جنود الاعداء أثنـاء الحرب ـ حتى لجـأ اليه ليحميه من العاصفة ، وهناك جمع بعض الحطب وأشعـل نارا ، ثم جلس يستدفىء من البرد الذى سرى فى جسـده من ثيابه المبتلة ، محتضنا ساقيه ·· لقد وصل الى موعـد اللقاء مبكرا ، فلـم يعد أمامه ما يفعله سـوى أن ينتظـر قدوم محبوبته !

وسرعان ماتسلل الدفء شيئا فشيئا الى جسده المرهـق فلم يمض وقت طويل حتى كان قد استغرق فى نوم عميـق ·

فلما استيقظ ، أخذ يتساءل عما اذا كان قد نام فترة طويلة ·· وكانت النار مازالت تتوهج مثلما رآها قبل غفوته . غير انه لمح شبحا غامضا يقف فى الجانب الآخر من النار ·· أتراه كان يحلم ؟ ·· كلا ، لم يكن هذا حلما ، ولا كانت عيناه تخدعانه · فقد كان – بالتأكيد – يرى فتاة تقف خلف النار وهى تنشر قميصا أبيض اللون ليجف ، وقد ظهر بجلاء النصف الاعلى من جسدها عاريا ·· وأدرك انها « هاتسو » ، واذ ذاك راودته فكرة خبيثة ، هى أن يتظاهر بالاستغراق فى النوم ، حتى يستطيع أن يراقبها خلسة بعينيه نصف المغمضتين !

وكانت نساء الجزيرة اللواتى يحترفن مهنة الغطس لصيد الاخطبوط ، قد تعودن ان يجففن أجسادهن أمام النار بمجرد خروجهن من الماء ·· ومن ثم فان « هاتسو » لم تتردد فى أن تفعل الشيء عينه ! ·· لقد وجدت نارا مشتعلة ، ورأت فتاها مستغرقا فى النوم ، فقررت فى الحال ، دون تردد – وكما يفعل الاطفال – الا تضيع الوقت ، فانتهزت فرصة نوم « شنجى » لتجفيف ملابسها وجسدها المبتلين ! ·· ومجمل القول ، أن فكرة اقدامها على التجرد من ملابسها امام رجل غريب ، لم تكن لتخطر لها على بال اطلاقا ، وغاية مافى الامر ، انها لم تكن قد وجدت نارا سوى هذه ، وان الفتى كان مستغرقا فى النوم !

ولو أن « شنجى » كان أكثر خبرة بالنساء ، لأدرك على الفور ، أن ذلك الجسد العارى ، الذى يقف خلف النار ، كان جسد فتاة عذراء ! ·· لقد كان لون بشرتها ابعد ما يكون عن البياض ، نتيجة لتعرضه الدائم لحرارة الشمس وماء البحر ·· وكان صدرها عريضا ، يبرز منه نهدان نافران صغيران ، أشاح كل منهما – قليلا – عن الآخر ، وكأنه خجلان من رفيقه ،

كما أطلت من طرفيهما برعمتان بلون الورد !

غير ان « شنجي » لم يستطع أن يستمر طويلا فى القيام بدور المستغرق في النوم ، فقد كان من العسير عليه أن يراقب ذلك الجمال الفتان دون أن يتحـــرك ، ومن ثم مالبث أن طـــرف بعينيه · وفى سرعة البرق سترت الفتاة تدييها خلف قميصها المبتل وهى تصـــيح : « أغمض عينيـــك ! » ·· فأطاعها الفتى « الشريف » ، وأطبق عينيه تماما ، وقد أخـــذ ضـــميره يوبخه على اقدامه عـــلى تلك الفعلة الذميمـــة ·· عـــلى أن الذنب لم يكن ذنبه ، فهو لم يقصـــد قط أن يســـتيقظ فى تلك اللحظة بالذات !

واستولت الحيرة على « هاتسو » ، ولم تدر كيـــف تتصرف ، بل انها لم تحاول أن ترتدى قميصـــها ، فاذا بها تهتـــف مرة أخرى فى صوت يفيض بنبرات الطفولة : « اغمض عينيـــك » · غير أن شنجى لم يحاول ــ هـــذه المرة ــ أن يتظـــاهر باغـــلاق عينيه ، فلم يكن منظـــر امرأة عارية بالأمر الغريب عليه ! ·· لقد اعتاد ــ منذ نعومة أظفاره ــ أن يرى نســـاء قريته عاريات كما ولدتهن أمهاتهن ، وان كانت هـــذه هى المرة الاولى التى يشاهد فيها الفتاة التى يهواها ·· وقد تجردت من الملابس !

وأخيرا نهض شنجي واقفا ، وتقـــدم من الفتاة التى أخـــذت فى التقهقر الى الخلف فى وجل ، بينمـــا انتصبت النيران حائلا بينهما ·· وسألها : « لماذا تفرين منى ؟ »

ــ لماذا ؟ ·· لأننى أشعر بالخجل !

واذ ذاك ، زمجـــرت الرياح فى الخـــارج وازداد هطـــول الأمطار بغزارة ، وصـــفقت فى عنف نافـــذة المبنى المتهـــدم ، فأجفلت الفتـــاة فى رعب وقد أوجســـت شرا ، ومن ثم راحت تتقهقر فى خطوات متعثرة ــ وقد أدركت الا مهرب أمامهـــا ــ

حتى لامس ظهرها حائط المبنى المصنوع من الاسمنت ٠٠ ومد « شنجى » ذراعيه نحوها ، هاتفا فى توسل : « هاتسو ! » ٠٠ ثم قفز فوق النار ، فلما بلغ الفتـاة ، ولامس صـدره ثدييها ، طوق جسدها العارى بذراعيه القويتين ٠٠ ومع انه كان يظن أن الفتاة ستقاومه ، فانه لم يلبث أن أحس بذراعيها تضمانه اليها ٠٠ وسرعان ما هوت الفتاة الى الأرض ، جاذبة الفتى معها ٠٠ وأخيرا همست قائلة :

ـ ان الأرض ملأى بالأشواك ٠٠ انها تؤلمنى !

ومد الفتى يده بالقميص محاولا أن يفرشه تحت جسدها ، غير أنها أمسكت بالقميص وكورته فى يدها ، ثم وضـعته أسفل وسطها ، محاولة أن تستر جسدها العارى ٠٠ وقالت فى لهجة تفيض عفة وطهرا :

ـ انها لخطيئة ٠٠ انها لخطيئة ! ٠٠ من العـار أن تفعـل الفتاة هذا قبل الزواج !

ـ هل تعتقدين حقا انها خطيئة ؟

ـ انها خطيئة الآن ٠٠ لأننى قررت أن تـكون أنت الرجل الذى سوف أتزوجه !

وكانت ذراعاه لا تزالان تحتضنانها ، وقد أشـعلت القبلة الطويلة التى تبادلاها ، النـار فى جسده المشتاق ٠٠ غير أن عبارتها الأخيرة ما لبثت أن أحالت ذلك العذاب الى سـعادة طاهرة مقدسة ! ٠٠ وبعد أن ارتدت الفتـاة ثيابها أصبح فى وسعهما أن يتبادلا القبلات فى راحة وأمان !

***

ولما شرع الاثنان فى العودة الى منزليهما ، لم تكن العاصفة قد هدأت بعد تمـاما ، ومن ثم اختـار « شنجى » الطـريق المألوفة التى تمر بالفنـار ، غير عابىء بمـا عسـاه أن يتبادر

الى ذهن الحارس وزوجته . لو صادف أن لمحاه يعبر الطريق المهجورة متأبطا ذراع « هاتسو » !

وفي تلك اللحظة ، كانت « شيوكو » ـ ابنة حارس المنار ـ تطل من النافذة ، وقد سرحت ببصرها الى طريق الجبل ، مستغرقة في التفكير ، متسائلة عن السبب الذى قد عاق « شنجى » عن الحضور لزيارتها . وفجأة لمحت شبحي فتي وفتاة وهما يهبطان الجبل ، وقد التصق كل منهما بالآخر . فأخذت تدقق النظر حتى استطاعت أن تتعرف عليهما .. فأسرعت بالابتعاد عن النافذة ، وأخذت تجول بنظرها فى أرجاء الغرفة ، وقد اعتصر الألم قلبها .. وكانت أمها تجلس بجوار المدفأة تحيك بعض الملابس ، بينما انهمك أبوها فى تدخين غليونه .. وكانت العاصفة ماتزال تزمجر خارج المنزل ، بينما كان الهدوء يسود فى الداخل ، **ولكن . هل كان بوسع أحد أن يدرك حقيقة ما يعتمل داخل قلب « شيوكو » المعذب من اكتئاب ووحشة ؟!**

- ٦ -

وفي اليوم التالى . كانت العاصفة قد هدأت والبحر قد خمد . والسماء قد صفت . فعادت القوارب الى الاقلاع فى عرض البحر . بحثا عن الصيد .. ولم تكد الشمس تشرق حتى يممت « شيوكو » صوب متجر « ياساو » . ورغم أنها جاهدت نفسها طويلا ، حتى لا تبوح لياساو بما شاهدته أثناء العاصفة . فانها مالبثت أن سردت عليه ماكان من شنجي وهاتسو ، ورؤيتها اياهما وهما يسيران عبر ممر الجبل متعانقين !

ونزل الأمر على « ياساو » نزول الصاعقة ، وأصاب

كبرياءه في الصميم ، فقضى ليلته يتقلب فى فراشه وقد اعتمل الغيظ والحقد فى صدره ٠٠ لقد كان ابن أغنى رجل بالجزيرة ، وكان الوحيد الذى يملك ساعة ذهبية فوسفورية ، فكيف استطاع اذن ذلك الغلام « البكر » ، الذى لا خبرة له بالنساء ، أن يستحوذ ــ دونه ــ على عواطف ومشاعر أجمل فتيات القرية ؟! ولم يشك ياساو قط فى أن الفتى قد فاز بجسدها أيضا ، كما انه أيقن من انه لم يرغمها على الرضوخ له ، وأن الأمر لابد قد تم بمحض رغبتها واختيارها ! ٠٠ **وكان أشد مايؤلمه ان ذلك الفتى الفقير قد كسب منه جولة غرامية ، وهو الذى طالما تباهى بأن الفتاة التى تستطيع مقاومة سحره وفتنته لم تكن قد ولدت بعد !**

فلما انبلج الفجر ، هداه تفكيره المضطرب الى الخطة التى يجب أن يتبعها حتى يصل الى تحقيق مأربه ٠٠ لقد كانت فى القرية بئر واحدة يستقى الماء منها جميع أهل الجزيرة ، ومن ثم فقد عمدت السلطات ــ منعا للتزاحم والشجار ــ الى تحديد ساعة معينة من كل يوم ، تذهب خلالها فتاة من كل أسرة لجلب الماء من البئر ٠ ٠ وكان ياساو قد قرأ فى القائمة المعلقة اسم عائلة « تيروكيتشى مياتا » أمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل ٠٠ وكان ذلك يعنى ان « هاتسو » سوف تذهب الى البئر بمفردها ، بينما تكون القرية فى سبات تام ، فما الذى يمنعه من أن ينتظرها فى الظلام ، حتى اذا ماحضرت هاجمها واغتصبها ٠٠ انها لن تجرؤ ــ بعد أن يتم الأمر ــ على أن تفضى الى والدها بما حدث !

وقضى « ياساو » اليوم التالى وهو يترقب فى لهفة حلول الظلام ، فلما غربت الشمس عاد الى منزله واستلقى فى فراشه ٠ ورغم أن الغيرة والحقد اللذين استبدا بكيانه ضد

شنجى ، كانا كفيلين وحدهما بطرد النوم من عينيه ، فقد طفق يقرص فخذيه حتى لايستغرق فى النوم !

وفى الساعة الواحدة والثلث ، تسلل « ياساو » الى خارج المنزل ، فترامى الى سمعه فى وضوح صوت أمواج البحر الهادئة ، بينما كان القمر يرسل أشعته الفضية فوق أرجاء الجزيرة ، والسكون العميق يخيم على القرية النائمة • واجتاز ياساو المدرسة الابتدائية ، ثم صعد الدرجات الحجرية ، وتابع سيره حتى بلغ بناء مكتب البريد • وهناك استند الى جذع شجرة ضخمة فى انتظار حضور الفتاة !

***

ولما حلت الساعة الثانية ، لمح ياساو « هاتسو » مقبلة نحوه ، وقد حملت فوق كتفيها عصا غليظة يتدلى من كل طرف منها دلو فارغ •• واذ كانت الفتاة خالية الذهن تماما عن الخطر الداهم الذى يتربص بها فى الظلام ، راحت تسير بدلويها فى خطوات مرحة رشيقة ، وكأنها تجد متعة فى أداء ذلك العمل الشاق !

وفى تلك اللحظة ، استوقف الضوء المنبعث من ساعة « ياساو » الفوسفورية ، انتباه (دبور) كان يحوم حول المكان ، فأقبل يطن فى فضول بحثا عن مصدر الضوء • واذ لم يجد فى الساعة مايرضى فضوله ، صوب ذنبه نحو ساعد الفتى وغرسه فيه بقوة جعلت « ياساو » يصرخ من شدة الألم !

وأجفلت « هاتسو » ، ثم استدارت بسرعة تبحث عن مصدر الصيحة • وفى لمح البصر ، اذا بها تلقى بالدلوين أرضا وتمسك بالعصا الغليظة ، وقد اتخذت لنفسها موقف الدفاع • فأدرك « ياساو » انه قد فقد عنصر المفاجأة ، ومن ثم قرر

أن يتظاهر بأنه كان يقصد مداعبتها ، فبرز من مكمنه ، وضحك ضحكة مصطنعة ، ثم قال :

ـ هيه .. لقد نجحت فى ادخال الرعب الى قلبك .. أليس كذلك ؟ .. لقد ظننتنى عفريتا !

ـ يا للسماء .. انه الأخ « ياساو » !

ـ لقد اختبأت هنا كى أفزعك !

ـ ولكن .. أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟

وتقبلت « هاتسو » تفسيره دون تفكير ، وصدقت فعلا انه كان يقصد مجرد مداعبتها .. واذ ذاك استغل «ياساو» فرصة ثقتها به واطمئنانها اليه ، فاختطف العصا فجأة من يدها ، ثم أمسك بساعدها فى قوة قائلا :

ـ والآن ، استمعى الى .. اذا كنت لا ترغبين فى أن يعرف الجميع بأمر العلاقة التى بينك وبين « شنجى » ، فاصغى الى جيدا .

وصعد الدم الى وجهها ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط فى غضب ، ثم قالت :

ـ دع ذراعى .. ماذا تعنى بالعلاقة التى بينى وبين « شنجى » ؟

ـ كفاك تظاهرا بالبراءة ، وكأنك لم تستسلمى لشنجى !

ـ انك تكذب .. تكذب .. اننى لم ارتكب هذا الفعل !

ـ اذن ، ما الذى كنتما تفعلانه فوق الجبل ، فى ذلك اليوم .. يوم العاصفة .. اتذكرين ؟ .. لا تخشى شيئا . لسوف افعل أنا أيضا عين الشىء .. هيا .. هيا !

وقالت « هاتسو » وهى تحاول أن تتملص من قبضته :

ـ اذهب عنى .. ابتعد عنى !

غير أن « ياساو » لم يكن بوسعه ـ فى تلك اللحظة ـ أن

يتركها تفلت من يده ، اذ لو انه فعل ، لهرعت من فورها الى أبيهـا وقصت عليه كل شيء ، أما لو نال منهـا مأربه ، فلن تجرؤ ــ في هذه الحال ــ على أن تتفوه أمامه بكلمة !.. واستطاع «ياساو» ــ أخيرا ــ أن يطرحها على الأرض ، فرأى خياشيمها تتحرك في عصبية ، وعينيها تومضان ببريق عجيب !

وفجأة ضمت « هاتسو » شفتيها ، ثم استجمعت قوتها وصوبت الى وجهه بصقة كبيرة أصابت ذقنه ! .. وعندئذ ، غلت الدماء في عروقه ، وازدادت الرغبة في جسده اشتعالا . واذ أدنى وجهه من خدها ، وأخذت شفتاه تبحثان في جنون عن شفتيها ، شعر بثديها يهتزان تحت جسده !

غير أن (الدبور) عاد الى الطنين حوله من جديد ، فلدغه لدغة موجعة في مؤخرته . واذ ذاك أفلت « ياســاو » الفتاة وهو يسب ويلعن ، فنهضت هذه بسرعة ، وأخذت تعدو حتى بلغت شـجرة مرتفعة ، سرعان ما تسـلقتها .. فلما حاول « ياساو » أن يلحق بها ، قذفته بحجر ، فتراجع الى الخلف ثم راح يتوسل اليها قائلا :

ــ انزلي من الشجرة .. أقسم انني لن أمسك بسوء !

ــ كلا ، لن أنزل !

ــ أتوسل اليك .. وسأفعل كل ما تطلبينه مني !

فلما لم يسمع جوابا ، استطرد قائلا :

ــ أتوســل اليك .. لا تخبـري أباك بشيء .. انني على استعداد لأن أفعل أي شيء ، لو قطعت على نفسك وعدا بعدم الافضاء بشيء لأبيك !

ــ حسنا .. لن أقول له شيئا ، على شريطة أن تحضر لي الماء من البئر وتوصله الى المنزل !

ــ أحقا ؟

ـ حقا !

ـ حسنا ، سوف افعل .. فليس العم «تيرو» بالشخص الذى يستهان به !

وانطلق ياساو يقوم بالمهمة التى أخذ على عاتقه اتمامها ، دون ان ينطق بكلمة .. فما ان ملأ الدلوين بالماء ، وعلقهما بالعصا ، حتى حملهما على كتفيه ، ثم سار فى الطريق يتقدم الفتاة .. وكانت القرية لا تزال ترقد فى سبات عميق ، وسقوف المنازل تسبح فى بحار من ضوء القمر الفضى ، بينما كانت « هاتسو » تتبع خطوات « ياساو » من بعيد ، فاذا ما توقف توقفت ، واذا ما تابع سيره تبعته فى سكون !

ـ ٧ ـ

عاد « هيروشى » ـ أخو « شنجى » ـ الى المنزل ، وقد كاد يسقط من فرط الجوع ، بعد الجهد المضنى الذى بذله فى اللعب مع أصدقائه . ولم يكن « شنجى » قد عاد من الصيد بعد ، فوجد أمه تدفع بالحطب الى الموقد الذى وضعت فوقه وعاء الطعام ، فسرت رائحة الطعام اللذيذة فى أرجاء المطبخ !

واستلقى «هيروشى» فوق الحصير ، وما لبث ان التفت الى امه فجأة ، وسألها :

ـ أماه .. ماذا تعنى كلمة « أوميكو » ؟ .. لقد أخبرنى أحد الصبية أن هذا ما فعله « شنجى » مع « هاتسو » !

وقبل أن يتم عبارته ، اذا بأمه تجلس الى جواره ، وقد انقلبت سحنتها ، وأومضت عيناها ببريق مخيف ، ثم قالت :

ـ هيروشى .. أنت .. اين سمعت هذا ؟ .. من قال لك هذا ؟

ـ انه « سوشان » !

ـ اياك ان تردد مثل هذا الكلام مرة أخرى ، بل اياك أن

تنطق بكلمة منه امام اخيك .. اسمعت ؟ والا فسوف احرمك من الطعام تماما .. أفهمت ؟!

لقد كانت أمه تنظر - عادة - الى العلاقات الغرامية التى تدور بين فتيان الجزيرة وفتياتها ، برحابة صدر .. وحتى فى أثناء موسم الصيد - حين كانت تقف النساء أمام النار ليجففن ملابسهن ، ويرددن الاشاعات - كانت تحرص هى دائما على أن تمسك لسانها ! .. ولكن ، لما كانت الاشاعات الخبيثة تدور - هذه المرة - حول ابنها ، فقدرات أن أمومتها تفرض عليها أن تتدخل فى الأمر !

فما أن استغرق « هيروشى » فى النوم ، حتى اقتربت من « شنجى » - وكان قد عاد من الخارج - ثم همست فى أذنه بصوت حازم :

- هل تعلم أن الناس يرددون شائعات عن وجود علاقة دنيئة بينك وبين هاتسو ؟

فهز شنجى راسه وقد صعد الدم الى وجهه خجلا .. لقد كانت امه تعانى بدورها من الحرج ، غير انها استجمعت شتات جرأتها حتى تواصل حديثها فى صراحة تامة ، ثم استطردت تقول :

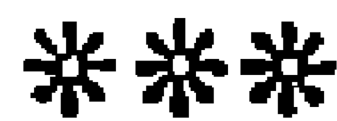
- أخبرنى ، هل ضاجعتها ؟

فهز شنجى رأسه مرة أخرى . فقالت الأم :

- اذن ، فانت لم ترتكب شيئا يصلح لأن يكون مادة للاشاعات ! .. أتقول الحق ؟

- نعم ، لقد افضيت اليك بالحقيقة !

- حسنا ، اننى أصدقك .. ولكن ، أرجو أن تكون أكثر حرصا فى المستقبل ، فان الناس لا يملون أبدا التدخل فى شئون غيرهم !



وفى مساء اليوم التالى ، شهدت أم شنجى اجتماعا عقد فى نادى (الاله القرد) ، وهو النادى النسائى الوحيد فى الجزيرة . وما ان ولجت النادى حتى توقفت النسوة فجأة عن الحديث ، وأخذن يتطلعن اليها وكأنها قد ألقت عليهن ببطانية مبللة ! .. فأدركت فى الحال انهن كن يثرثرن حول علاقة ابنها الغرامية !

وحدث الشيء ذاته عندما ذهب « شنجى » الى جمعية الشبان ، فقد وجد مجموعة من الفتيان يلتفون حول منضدة فى وسط النادى ، وقد راحوا يتجاذبون أطراف الحديث . فما أن لمحوه حتى أخلدوا الى الصمت فجأة ، وساد المكان سكون مطبق لم يعكره سوى صوت أمواج البحر !

وبعد هاتين الواقعتين بأيام قلائل ، وبينما كان « شنجى » يتناول غداءه على سطح السفينة (تايهى مارو) ، اذا بزميله « ريوجى » يكاشفه بمكنون نفسه ، فيقول :

ـ أيها الأخ شنجى ، ان الدم ليغلى فى عروقى ، عندما استمع الى ما يردده «ياساو» فى أرجاء القرية عنك وعن ..

واذ ذاك اندفع « جوكيتشى » رئيس شنجى قائلا :

ـ لقد سمعت أنا أيضا هذا الكلام .. غير أن الغيرة والحقد هما اللذان يدفعان هذا الفتى ـ المغرور بنفوذ والده وثرائه ـ الى نشر هذه الاشاعة الدنيئة .. ولكن ليس هنالك ما يدعوك الى القلق ، فان صادفتما أية متاعب ، فلن أتوانى عن الوقوف فى صفكما !

وهكذا أخذت الاشاعة تنتشر فى أنحاء القرية انتشار النار فى الهشيم ، حتى لم يبق ثمة انسان لم يسمع بها سوى والد « هاتسو » ! .. وحتى هذا ما لبث أن علم بها

اخيرا ، اذ بينما كان يخلع ملابسه فى « كابين » ملحق بالحمام العمومى ، تناهى الى سمعه صوت شابين ، يدور بينهما حديث على النحو التالى :

ـ لا ريب فى أن العم ((تيرو مياتا)) قد عاد طفلا من جديد ! .. انه ما زال يجهل أن ابنته قد اصبحت ((ابريقا مشروخا)) !

ـ وهـذا الـ ((شنجى)) .. لقد خدع الجميع بتظاهره بالسذاجة والطهر ، فبينما يعتبره الجميع طفلا ، اذا به يستولى على الفتاة تحت انظار أبيها ، ودون أن يحرك هذا ساكنا !

وما أن بلغ بهما الحديث هذا الحد ، حتى اندفع العم خارجا من « الكابين » ، وقد استبد به الغضب ، فقبض على عنقى الشبابين ، وما لبث أن ضرب راس كل منهما براس الآخر ، ثم قذف بجسديهما فى الماء المغلى !

***

وفى اليوم التالى ، أبرز جوكيتشى ـ رئيس شنجى ـ ورقة مطوية ، وعرضها عليه وهو يضحك ضحكة ذات مغزى ، ثم قال :

ـ بينما كنت أمر هذا الصباح أمام منزل العم « تيرو » ، رأيت « هاتسو » واقفة أمام الباب ، فما أن لمحتنى حتى اقتربت منى فى خطوات خجلة ، ثم دست هذه الورقة فى يدى . فلما فضضتها وجدت أنها قد استهلت بعبارة : « عزيزى شنجى » ، ومن ثم قبلت أن اقوم بينكما بدور ساعى البريد ؛ فأحضرت لك الرسالة !

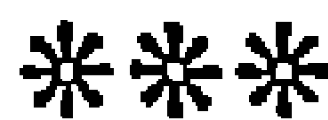
وأمسك شنجى بالرسالة فى حرص ، ثم أخذ يفضها فى بطء بالغ ، خشية تمزقها .. فلما شرع فى قراءتها ـ بصوت مرتفع ـ وجدها تقول : ((**فى الليلة الماضية ، وفيما كان**

والدى يستحم ، اذا به يستمع الى اشاعة حقيرة تدور حولنا ، فثار ثورة عارمة ، وحرم على أن أرى ((شنجى سان)) مرة أخرى .. ارجو أن تفكر فى طريقة ما ، فاننى أخشى أن أبعث اليك برسالة عن طريق البريد ، لأن ساعى البريد سوف يعلم بالأمر .. لذلك رأيت أن أكتب اليك كل يوم رسالة ، أضعها فى مقبض الجرة الموضوعة أمام المطبخ .. كما أرجو أن تضع رسائلك أيضا فى نفس المكان .. لكن ، اياك أن تحضر شخصيا ، والأفضل أن تكلف صديقا تثق به كى يقوم بهذه المهمة نيابة عنك !

((أواه يا ((شنجى سان)) .. لنظل على حبنا واخلاصنا ، بقلبين ثابتين لا يتزعزعان .. سوف أصلى كل يوم أمام ضريح (ياشيرو) ، داعية الاله أن يحفظ ((شنجى سان)) من أخطار البحر ، واننى لواثقة من أن الاله فى السماء يعلم جيدا ما يدور بين جوانحى !))

وبينما كان « شنجى » يقرأ الرسالة ، كان التعبير المرتسم على وجهه يتغير ــ من لحظة الى أخرى ــ من الأسى والحزن لافتراقه عن محبوبته ، الى الفرحة بتسلمه الدليل الدامغ على صدق عاطفتها نحوه !

وما أن انتهى من قراءة الرسالة . حتى أخذوا يتناقشون فى شأن من يصلح للقيام بمهمة احضار رسائل الفتاة ، وأخيرا استقر رأيهم على أن « ريوجى » ــ زميل شنجى ــ خير من يستطيع القيام بهذا العمل ، فقد كان يمر ــ عادة ــ أمام منزل الفتاة عند ذهابه الى السفينة صباحا وأوبته منها فى المساء !



واصبحت الرسائل اليومية المتبادلة بين الفتى والفتاة ،

الموضوع الرئيسي الذى يشغل الأصدقاء الثلاثة خلال تناولهم طعام الغداء فوق ظهر السفينة (تايهى مارو) ، فكان كل من جوكيتشى وريوجى يشارك الفتى فيما كانت تثيره خطابات الفتاة فيه من مشاعر وأحاسيس .. وقد أثارت رسالة الفتاة الثانية غيظهم وغضبهم ، اذ روت فيها «هاتسو» كيف أن « ياساو » كمن لها فى الظلام ، بعد منتصف الليل ، وكيف انه حاول أن يغتصبها عنوة ، فلما فشل فى بلوغ وطره منها ، أخذ يروج الشائعات الدنيئة عنهما .. لقد حاولت الفتاة كثيرا أن تقنع والدها ببراءة وطهر العلاقة التى تجمع بينهما ، غير انه قرر انه ما دام الجميع يعرفون بأمر هذه العلاقة ، فليس بوسعه ان يقبل زواجها منه !

وكان شنجي يقرأ الرسالة ، وقد احمر وجهه وشعت من عينيه نظرة قاسية . فأدرك جوكيتشى ما قد استقر عليه عزم الفتى ، فابتدره قائلا :

ـ اننى أعرف جيداً ما يدور بخلدك .. انك تزمع أن تنهال على « ياساو » ضربا .. ولكن ، مهلا ، مهلا .. أنصحك بالصبر ! .. ان الفتى لغبى أبله ، فدعه وشأنه .. انك صياد ، وتدرك جيدا مدى الصبر الذى يلزم لصيد سمكة .. فليكن الصبر رائدك ، واننى لعلى ثقة من أنك سوف تفوز بفتاتك فى النهاية !

- ٨ -

بعد ان كانت أم شنجى تضيق بالصخب والضجيج اللذين كان ابنها يثيرهما فى المنزل ، أيام هنائه وصفاء باله ، صار القلق يملأ نفسها ، بعد أن زايل ولدها مرح الشباب وبهجته ، وغدا دائم الوجوم والانعزال !

وفى أحد الأيام ، ارتدت ملابس الخروج ، ويممت صوب

منزل والد الفتاة التى استولت على لب ابنها ، وما أن وصلت الى المنزل حتى هتفت من الخارج قائلة : « طاب يومكم » .. فلما لم تسمع جوابا ، عاودت الكرة مرة اخرى .. وسرعان ما ظهرت « هاتسو » ، فلما رأت أم شنجى اخذت ترحب بها قائلة : « مرحبا بك يا عمتى ! » .

ووقفت الأم تتأمل الفتاة ، وراحت عيناها تنتقلان من وجهها الذى أصابه الشحوب وعينيها المتورمتين الى جسدها الرشيق المتناسق ، فأدركت الفتاة أن المرأة كانت تتفحصها بنظراتها ، فصعد الدم الى وجنتيها خجلا !.. وما لبثت الأم أن استجمعت شتات شجاعتها ، وقالت :

ــ هل والدك بالمنزل ؟

ــ نعم .

ــ أرجوك أن تخبره بأننى ارغب فى التحدث اليه .

ــ لحظة واحدة من فضلك .

وبعد قليل ، عادت الفتاة وقد بدا الاستياء على ملامحها ، واطرقت براسها ثم قالت :

ــ ان أبى يقول .. انه لا يرغب فى التحدث اليك !

ــ اتعنين انه يرفض مقابلتى ؟

ــ نعم ، ولكن ..

ــ حسنا .. اذن ، فأنت تقولين انه يرفض أن يستقبل فى داره أرملة فقيرة مثلى ؟ .. انك تعنين انه لا يرغب فى أن اجتاز عتبة بيته مرة أخرى ، أليس كذلك ؟ .. حسنا .. قولى له .. أتسمعين ؟ .. قولى له اننى لست راغبة فى ذلك ، واننى لن أجتاز عتبة بيته اللعينة ما حييت !

ــ ٩ ــ

وأخيرا حل موسم الغطس ، فاستقبلته نساء القرية

وفتياتها بالحبور والغبطة : تماما كما يفعل تلاميذ المدارس بعد الانتهاء من الامتحان النهائى ! .. ذلك أن شهرى يوليو وأغسطس كانا أكثر الشهور نشاطا وأوفرها رزقا بالنسبة للنسوة اللاتى يحترفن مهنة الغطس . وكان من عادة الغاطسات ان يتجردن من كل ملابسهن ويزاولن عملهن عاريات، على الشاطىء المنعزل ، البعيد عن الأعين المتلصصة !

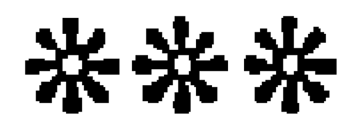
وفى أول أيام الموسم، حضرت أم «شنجى» الى الشاطىء ، فوجدت زميلاتها واقفات وقد تجردن من ملابسهن ، ورحن يعرضن صدورهن العارية ، محاولات معرفة من منهن صاحبة أجمل ثديين ! .. فما ان وقع بصرها على « هاتسو » ، حتى وقفت من بعيد تتأمل صدر الفتاة فى اعجاب ، فأدركت على الفور لماذا خمدت ـ بمرور الوقت ـ تلك الشائعات التى دارت فى القرية عن وجود علاقة بين الفتاة وابنها . فقد كان مجرد النظر الى ثدييها يقطع بكذب تلك الاشاعة ، اذ كان منظرهما لا يدل فقط ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ على أن صاحبتهما عذراء لم يمسسها رجل ، وانما كان يؤكد أيضا عدم نضجهما ، وانهما ما زالا فى طور التكوين والامتلاء !

ومع أن الأم لم تستطع أن تنكر ـ بينها وبين نفسها ـ ما كانت تتمتع به الفتاة من فتنة وجمال : فانه لم يسعها ان تنسى ما بدر من أبيها ، وقررت أن تتجنب الاقتراب منها والتحدث اليها .. غير أن « هاتسو » ما لبثت أن اتجهت نحوها ، فى خطوات خجلة متعثرة ، وقدمت اليها حقيبة يد صغيرة ، بنية اللون ، وهى تقول : **« ارجو يا عمتى أن تتقبلى منى هذه الهدية المتواضعة ، التى فزت بها فى مسابقة الغطس! »**

ـ ولكن .. لماذا ؟ .. لا استطيع !

ـ أتوسل اليك ان تقبلى .. اننى أرغب فى أن أعتذر الى « عمتى » عما بدر من ابى نحوها ، فى ذلك اليوم !

واذ ذاك هللت بقية النسوة قائلات : « يا لها من فتاة طيبة القلب ! » . واخذن يمتدحن تصرف الفتاة . ويحثثن المرأة على أن تقبل الهدية ، فأمسكت الأم بالحقيبة ، وقد تضرجت وجنتاها ، اذ امتلأت نفسها فرحا وسرورا لما أظهرته الفتاة من احترام واريحية ، واغتبطت لتوفيق ابنها فى اختياره لعروسه !



ورغم أن موسم الفطس قد جلب معه مزيدا من الرزق لجميع سكان الجزيرة ، فانه لم يحمل لشنجى سوى الألم والحزن ، بعد أن انقطعت فجأة ، وبلا سابق انذار ، رسائل هاتسو اليه ! .. واذ حاول استجلاء الأمر ، علم أخيرا أن أباها قد اكتشف الطريقة التى ابتدعتها « هاتسو » لتوصيل الرسائل اليه ، فحرم عليها ذلك !

وقبل أن ينتهى موسم الفطس ، وصل قبطان الباخرة « يوتاجيما مارو » ـ وكانت أكبر سفينة فى أسطول العم «تيرو مياتا» ـ الى شاطىء الجزيرة ، فاتجه رأسا الى منزل بتروكيتشى ، ومن هناك ذهب لزيارة « ياساو » .. وفى المساء ، قابل « جوكيتشى » رئيس شنجى ، ثم يمم شطر منزل شنجى !

وما أن وطىء بقدميه عتبة البيت ، حتى أخذ يفاوض أم الفتى فى أمر الحاق ابنها بالسفينة التى يقودها ، فقد جرت العادة ، فى الجزيرة ، أن يتدرب كل شاب يبلغ السابعة عشرة ، على العمل باحدى سفن الصيد الكبيرة التى تعبر المحيطات . ولما كان شنجى قد جاوز تلك السن ، فقد وقع اختيار القبطان عليه ، لما سمعه عنه من ثناء وتقدير .. وعندئذ أجابه شنجى بأنه يتعين عليه أن يستشير رئيسه ،

قبل أن يستطيع ان يبت في ذلك العرض ، فقال القبطان انه قد حصـــل بالفعل على موافقة « جوكيتشي » قبل أن يفاتح الفتى في **الأمر !**

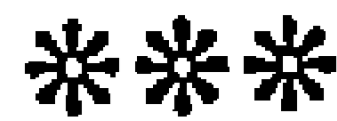
غير أن ثمة شيئا غامضـــا أثار حيرة الفتى .. لقـــد كانت السفينة « يوتاجيما مارو » تمتلكها « تيروكيتشي » ، الذى يحقد على شنجي حقـــدا لا مزيد عليه ، فما الذى دعاه الى أن يلحقه بالعمل لديه ؟ ! .. وسرعان ما أجاب القبطان على تساؤله بقوله : **((ان العم ((تيرو)) ليس بالرجل الغبى .. انه يعلم جيدا انك بحار ماهر ، فما أن رشحتك ، حتى وافق على الفور !))**

وفي اليوم التالى ، صعق شنجي حين علم ان « ياســـاو » أيضا سوف يقضى فترة تمرينه على نفس السفينة ، غير أن هـــذا ما كان ليـــوافق على ذلك ، لولا آن العم « تيرو » علق موافقتـــه على زواجه من ابنته على اجتيـــازه فترة التمرين بنجاح !.. وأخيرا حل موعد الرحيل،فصعد شنجي وياساو الى ظهر السفينة ، واستندا بجسديهما على الحاجز الأمامى راقبان المودعين .. لقد اقبل حشد كبير لتوديع «ياساو» ، واستطاع شنجي أن يلمح «هاتسو» من بينهم . أما شنجي ، فلم يحضر لتوديعه سوى آمه وأخوه « هيروشي » .

ولم تلتفت « هاتسو » الى ناحية شنجي مطلقا ، ولـــكن ما أن أوشكت السفينة على الاقلاع ، حتى همست بشيء في اذن أمه ، ثم دست في يدها لفافة صغيرة ، سارعت الأم الى توصيلها اليه فيالحال .. فلما فض اللفافة ــ بعد ان اقلعت السفينة ، وانصرف الجميع الى النوم في ذلك المساء ــ وجد بداخلها صورة صغيرة لهاتسو ، ورقية من ضريح (ياشيرو) ، وخطابا تقول فيه : **((سوف أواظب كل يوم على زيارة ضريح (ياشيرو) كي أدعو الاله ان يحفظك ســالما .. ان قلبي ملك**

لك وحدك ، لذا أرجو أن تحافظ على نفسك وأن تعود الى فى أتم صحة .. أرفق مع هذا صورة لى التقطت فى رأس (دايو) ، لتكون بمثابة قطعة منى ترافقك فى رحلتك ! .. لم يفاتحني ابى فى شأن سفرك ، غير اننى أعتقد أن لا بد لديه سببا يكمن وراء ارسالكما ، أنت وياساو ، للعمل سويا .. ان هاتفا يداعب خيالي بأن ثمة بصيصا من الأمل امامنا ، لذا أرجو الا تستسلم لليأس ، وأن تستمر فى كفاحك ! »

وبعث خطاب محبوبته فى نفسه شعورا بالقوة تسرى فى ساعديه ،وامتلأ احساسا بالتفاؤل وبأن الحياة جديرة بأن يحياها المرء !



وأخذت السفينة تشق عباب اليم . الى أن رست فى ميناء (أوكيناوا) ، حيث أفرغت شحنة من الخشب ، ثم مضت فى طريقها عائدة الى (كوبى) . وكان البحارة يقومون بأعمالهم المعتادة ، ثم يجلسون — فى المساء — يتناقشون فى أمور « سخيفة » : كالحب والزواج وغيرهما .. وكان «ياساو» يظهر مهارة فائقة فى ادارة دفة الحديث والمناقشة ، تلك المهارة التى اكتسبها أثناء شغله منصب رئيس جمعية الشبان . أما « شنجي » فقد كان يجلس دائما ، محتضنا ساقيه ، لا ينبس بكلمة ، منصتا الى ما يقوله الآخرون ، مما جعل البعض يحسبونه غبيا !

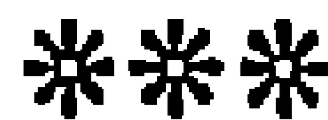
غير أن البحارة سرعان ما اكتشفوا أن « ياساو » كان بالغ الكسل ، على عكس « شنجى » الذى كان يقوم بكل ما يعهد اليه من أعمال ، بل كان يضطلع أيضا بالنصيب الأكبر من عمل ياساو .. وذات يوم ، فاجأ النوتى الأول « ياساو » وهو يتسكع على ظهر السفينة ، فانفجر فيه غاضبا ، غير أن الفتى نظر اليه فى برود ، ثم قال :

ـ حسنا .. على كل حال ، ما أن تنتهى هـذه الرحلة . حتى أصير « ابن » العم تيرو ، ومالك هـذه السـفينة بمن عليها !

ورغم أن النوتى الأول كاد ينفجـر غيظا ، فقـد آثر أن يمسك لسانه . فمن يدرى ؟ .. أليس من المحتمل أن يتحقق كلام الفتى ؟ ! .. وفى تلك الأثنـاء ، كان « شـنجى » دائب العمل لا يكل صموتا كعادته ، ولم يتسع أمامه الوقت ، كى يتأمل صـورة « هاتسـو » ، الا لفترة قصـيرة قبل ذهابه للنوم ، أو أثناء قيامه بنوبة الحراسـة . وذات يوم ، وقف يستمع الى « ياساو » وهو يتباهى بأنه سوف يتزوج ابنة صاحب السفينة ، فلم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسأله عما اذا كانت « هاتسو » قـد أهدت اليه صـورتها ؟ .. فأجاب « ياسـاو » بغير تردد : « نعم .. لقـد فعلت ! » . واذ لم يكن يخامر شنجى أدنى شك فى أن الفتى كان يكذب ، فقد امتلأ قلبه بشـعور الحقـد والاحتقـار نحوه . غير أن « ياسـاو » لم يلبث أن سـأله بعد لحظات قلائل ، قائلا : « وأنت ؟ .. هل أهدت اليك صورتها ؟ »

ـ كلا .. لم تفعل !

وكانت تلك هى المـرة الوحيـدة التى لم يتـردد فيهـا « شنجى » فى أن ينطق بأكذوبة متعمدا !



وفى ذات ليلة ، وقبل منتصف الليل بقليل ، صعد شنجى وياساو وأحد البحارة الشبان الى ظهر السـفينة ليقوموا بنوبة الحراسة، وكانت الريح تعصف بشدة ، فتلفح وجوههم وكأنها وخزات الابر ، وتدفع اجسادهم الى الخلف ، مـما اضطرهم الى ان يزحفوا على أيديهم وركبهم كى يصـلوا الى

نقطة الحراســة . فما أن بلغوها حتى تشــبثوا بالحاجز ، حيث ربضت السلسلتان والحبلان التى كانت تربط عوامة الارشاد بالسفينة !

وعندئذ صلصلت السلســلتان ، فأحدثتا دويا يشــبه الصراخ ، فنظر كل من الفتيان الثلاثة الى الآخر ، وقد خيم عليهم صــمت مطبق . وكان عملهم الرئيسى فى تلك الليــلة يقضي بمراقبة ارتباط العوامة بالسفينة وانذار القبطان فى حالة تفكك السلاسل أو الحبال .. وبعد أن قضوا فى وقفتهم مدة طويلة ، اذا باحدى الســلاسل ترتفع فجأة فى الهواء ثم ترتطم بالحاجز فى عنف . وكان من حسن حظهم أن استطاعوا الافلات من الموت فى الوقت المنــاسب ، فلو ان الســلسـلة أصابت أحدهم لقضت عليه فى التو واللحظة .

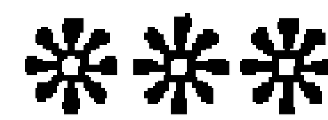
وأسرع « ياساو » راكضــا ، لينذر القبطان بما حــدث . فلما أقبل هذا ، نظر الى الفتيان الثلاثة متفحصــا وجوههم ثم قال : « **ليس أمامنا سوى أن يسبح أحدكم بالسلســلة حتى يصل الى العوامة ثم يربطها بها .. فمن منــكم ، أيها الفتيان ، يتطوع بالقيام بهذه المهمة ؟** » .. وعندئذ ارتجفت شفتا « ياساو » ، ثم اذا به يخفى راســه بين كتفيه . أما شنجى فقد هتف فى صوت مرتفع ، واضــح النبرات : « **أنا أتطوع !** » ..

وأصدر القبطان تعليماته الى البحارة ، الذين ما لبثوا أن قيدوا طرف السلســلة بالحاجز ، وســلموا الطرف الآخر الى « شــنجى » ، وصــاح القبطان فى اذن شــنجى قائلا : « أعقد طرف السلسلة حول خصرك ، حتى اذا ما وصــلت الى العوامة ، اربطها بها ، ثم عد بأقصى سرعة ! » .. ومع أن العوامة لم تكن تبعد عن الســفينة أكثر من خمس وعشرين ياردة ، وأن الفتى كان ماهرا فى السباحة ، بحيث كان بوسعه

ان يسبح حول الجزيرة خمس مرات دون توقف ، فان كل ذلك لم يبد له كافيا لبلوغ العوامة !

ووقف شنجي ينظر الى الأمواج الصاخبة فى تردد ، غير انه ما لبث أن ألقى بجسده فى اليم ، بعد أن تحسس صورة « هاتسو » فى جيبه ، تيمنا بها ، ثم اندفع يشق طريقه خلال الأمواج ، فخيل اليـه أن ضربات ذراعيـه القويتين كانت تمضى فى الماء عبثا ، وكأنه كان يسبح خلال كتلة سميكة من الشحم !.. فما أن وصل ـ أخيرا ـ الى العوامة ، ولامستها يداه ، حتى لطمته موجة عنيفة فجذبته الى الخلف . غير أن السماء أرسلت اليه ـ فى تلك اللحظة ـ موجة أخرى دفعته الى الأمام ، فلم يشعر الا ويداه قد تعلقتا بها ، فأخذ يلهث من الاعياء وقد جف ريقه واوشك على الاختناق !

ولما عاد الفتى الى ظهر السفينة ، ربت القبطان على كتفه فى تقدير واعجاب ، ثم أمر « ياساو » بمرافقته الى غرفته ، حيث التف البحارة حوله وراحوا يجففون ملابسه وجسده . وفى اللحظة التى لامس فيها جسده الفراش ، اسـتغرق فى سبات عميق !



وأخيرا عادت السفينة « يوتاجيما مارو » الى الجزيرة ، متأخرة عن موعد وصولها ، فلما نزل البحـارة الى الجزيرة كانت احتفالات موسم (المصباح) قد انتهت . وتوجه شنجي فور وصوله الى ضريح ياشيروحيث وقف يتعبد فى خشوع ، ومن هناك انطلق راكضا الى منزله !

وفى المساء لبى دعوة رئيسـه « جوكيتشى » لحضور الحفل الذى أقامه تكريما له . ورغم ان شنجى لم يـكن قـد ذاق طعم الخمـر من قبل ـ ومن ثم عارض كثيرا فى تـناول شىء

منهـا فى أول الأمر ــ فانهم اصروا على ملء كاسـه شراب (الساكى) عدة مرات !

وبعد يومين ، عاد «شنجى» الى العمل مع رئيسه القديم . ومع أن الفتى لم يفض الى أحد بشىء مما وقع أثناء الرحلة . فان « جوكينشى » كان قد عرف القصة من القبطان . ومن ثم ازداد عطفه وحدبه على الفتى .. واخـذ شنجى يترقب طويلا أن يعرج أحد على موضوع « هاتسو » . الا ان أحـدا لم ينطق بحرف عنها . فافرغ همه فى العمل من جديد . وقد اكتنفه شعور عميق بالوحشـة والوحدة ، ذلك العمل الذى كان يلائم نفسيته تماما . وكانه حلة غلفت جسده فى احكام فلم تترك له مجالا للهموم والأفكار !

ــ ١٠ ــ

وحلت اجازة الصيف . وانتظر حارس المنار وزوجته فى لهفة عودة ابنتهما « تشيوكو » . فبعثت الأم اليها برسـالة تحثها فيها على الاسراع فى العودة . وبعد عشرة أيام وصـل رد الفتاة ، فـكان ردا مفاجئا ومذهلا فى الوقت نفسـه .. **لقد اعترفت الفتاة فى رسالتها بجريرتها ، وسردت على أمها كيف فرقت بين العاشقين الصغيرين ، وكيف اوقعت وشايتها بالاثنين فى متاعب جمة ..** واسـتطردت تقول ان ضـميرها ما زال يبـكتها ، وانها لن تجرؤ على العودة قبل أن يجتمع شمل العاشقين ، **فلو أن أمها توسطت فى الأمر واسـتطاعت أن تقنع ((تيروكيتشى)) بأن يوافق على زواجهما ، ففى هذه الحـالة فقط ــ وكان هـذا هو الشرط الذى اشترطته ــ يصبح فى وسعها ان تقضى العطلة فى الجزيرة !**

وما أن قرأت الأم رسالة إبنتها حتى سرت القشعريرة فى جسدها ، وقد خطر لها فجأة انها ما لم توفق فى مساعيها .

فان ابنتها ــ التى لا ينفك ضميرها يؤنبها ــ قد تقدم على الانتحار !.. ولم تضيع وقتا ، فاتجهت من فورها الى منزل « تيروكيتشى » الذى رحب بها . فما أن استقبلها داخل منزله حتى ابتدرته قائلة : « ارجو أن تنصت الى دقيقة واحدة . فان لدى ما أود ان أتحدث اليك بشأنه ؟ »

ــ حسنا .. هل هنالك ثمة خدمة استطيع أن أؤديها اليك ؟

ــ اننى ارغب فى أن أتحدث اليك بشأن ابنتك « هاتسو سان » ، وذلك الفتى ابن عائلة كوبو .. شنجى سان !

ــ هاتسو وشنجى ؟

ــ نعم .

ولأول مرة منذ أن بدأت المراة تتحدث ، نظر اليها الاب بامعان ثم قال :

ــ اذا كان هذا هو الموضوع الذى يشغل بالك ، فاننى اود ان اصارحك بأن ((شنجى)) هو الذى وقع عليه اختيارى ليكون زوجا للفتاة .. لقد غضبت عندما علمت بالشائعات التى انطلقت فى القرية عن وجود علاقة غير شريفة بين الاثنين ، غير أن الفتاة أقسمت لى بأنه لم يحدث بينهما ما يمس الشرف . ولما كنت أثق بصواب نظرتها الى الأمور ، فاننى لم أجد ما يحول بينى وبين وضعه تحت الاختبار لفترة من الزمن ، كى اقارن بينه وبين الشخص الآخر الذى تقدم لخطبتها . ولقد أخبرنى القبطان بأننى لن أجد خيرا منه زوجا لها !

ثم رفع صوته ، وقال فى حماس :

ــ ان كل انسان فى هذه الدنيا عرضة لأن يولد فقيرا ، غير أن الموهبة الحقيقية التى تميز الرجل الكفء هى قدرته على الكفاح ، فان هذه الموهبة هى التى نحتاج الى توفرها فى رجال

الجزيرة .. ألا توافقينني على هذا الرأى ، يا سيدتى ؟ . ان شنجي قد أوتي هذه الموهبة ، اعنى موهبة الكفاح ، على عكس الآخر الذي لا يجيد شيئا سوى الكلام !

***

وصار شنجي فى حل من أن يزور خطيبته علانية .. وفى ذات ليلة ، قصد الى منزلها ، فور عودته من الصيد ، مرتديا سروالا وقميصا نظيفين . وكانت « هاتسو » تنتظر قدومه ، اذ تواعدا على الذهاب سويا لزيارة زوجة حارس المنار ، كى يعلنا اليها خطبتهما ، وليعبرا لها عن عمق امتنانهما لما قامت به من مسعى حميد فى سبيل جمع شملهما !

وكان شنجي يستند بجسده الى الباب فى انتظارها ، فلما ظهرت أمامه لوحت باحدى قدميها اللتين البستهما قبقابا انيقا ، وكأنها تريد أن تطرد بها الحشرات ، ثم غمغمت قائلة : « ان البعوض لمزعج ! » .

ـ نعم ، انه لكذلك !

وقبل أن يذهبا لزيارة زوجة حارس المنار ، رأيا ان يعرجا على ضريح (ياشيرو) . فلما بلغا المكان ، صعدا سويا الدرجات الحجرية التى تقود الى الضريح ، فى خطوات بطيئة ، وقد غمرهما شعور بالرضا والقناعة . **فما أن وصلا الى القمة ، حتى وقفا يتأملان السماء التى تلألأت النجوم فى صفحتها ، ويستمعان الى صوت الأمواج وهى تغمغم فى هدوء ، وكأنما استغرق البحر فى سبات عميق !** .. وأمام الضريح ، أحنت « هاتسو » رأسها ، وأخذت تتعبد فى صمت .. ومن أسفل ياقة (الكيمونو) الذى كانت ترتديه ، لمح شنجي عنقها الذى بدا له ـ وان لم يكن قد تميز بالبياض الناصع ـ وقد فاق فى فتنته أكثر الاعناق بياضا . وعندئذ

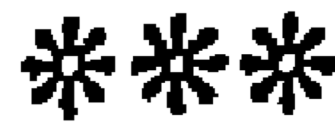
ناض قلبه بسعادة غامرة ، اذ أدرك أن الآلهة قد استجابت الى كل دعواته ، وحققت له امانيه .

ولما انتهى الاثنان من صلواتهما التى استغرقت وقتا طويلا ، تابعا سيرهما قاصدين الى المنار . وفى منتصف الطريق ، مسك « شنجى » بيد الفتاة ، ثم قال لها هامسا : « اننى فكر فى اجتياز اختبار ، كى أحصل على شهادة تؤهلنى لكون نوتيا أول . »

ـ انها لفكرة رائعة !

ـ أعتقد اننى اذا ما حصلت على هذه الشهادة ، اصبح فى حل من التعجيل بعقد القران .

فابتسمت « هاتسو » فى خجل ، ولم تنبس بكلمة !



وبعد أن اجتازا منحنى (النساء) ، واقتربا من منزل حارس المنار ، نادى الفتى معلنا عن قدومهما ، أمام الباب الزجاجى الذى لمحا من خلاله شبح الزوجة وهى تطهو وجبة العشاء . فلما فتحت الزوجة الباب ، رأت الفتى وخطيبته وهما يقفان فى الظلام ، وقد ترددا فى الدخول ، فقالت لهما :

ـ أوه .. ها قد أقبلتما .. مرحبا بكما .. مرحبا بكما !

ثم نظرت داخل المنزل ، وصاحت :

ـ أيها الأب ، لقد حضر « شنجى سان » وخطيبته !

وانبعث صوت الزوج من الداخل وهو يقول :

ـ تفضلا بالدخول ، تفضلا بالدخول .. اننى أقدم اليكما خالص تهانئى !

فلما دخلا ، واغلقت الزوجة الباب ، نظرت اليهما فى غبطة وفرح ، ثم قالت : «ان شيوكو ـ ايضا ـ سوف تحضر غدا !»

وقضيا فى المنار ما يزيد عن الساعتين ، والسعادة ترفرف

حولهما . فلما سارا فى طريق عودتهما ، أخـذ شنجى يفكر قائلا لنفسه انه رغم كل ما مر به هو وحبيبته من أحداث ، فها هما فى النهاية يشعران بالحرية داخل اطار التقاليد والأخلاق ، الذي نشآ فيه .. وقصارى القول ، **فان هـذه الجزيرة المغلفة بالظلام ، هى التى صانت سعادتهما ، وعبرت بقصة غرامهما بحر الشائعات الظالمة ، ورست بها الى شاطىء الأمان !**

وفجأة ، استدارت « هاتسو » نحو شنجى ضاحكة ، ثم اخرجت من كمها صـدفة صغيرة وردية اللون ، كان شنجى قد أهداها إياها قبل أن تفرق بينهما الأحداث ، ثم قالت :

ـ أتذكر هذه ؟

ـ نعم ، أذكرها !

وابتسم الفتى ابتسامة فاتنة ، ثم أخرج من جيبه صورة « هاتسو » ، ودفع بها الى خطيبته ، فلمستها هذه برفق ، ثم أعادتها اليه وقد ومضت عيناها زهواً وخيلاء ، اذ حسبت أن صورتها هى التى صانته من أخطار البحر !



واصف بطرس غالي



تقاليد الفروسية عند العرب

ترجمة : أنور لوقا   تقديم : الدكتور طه حسين

عرض وتلخيص : الدكتور أنور لوقا

المؤلف : بين السياسة والأدب

بين الأهازيج الرائعة التى يوحيها موكب القومية العربية لأبناء هذا الجيل ، يطيب لنا اليوم أن نصيخ الى نبرات **هذه** التحية البليغة ، وقد ارسلها من وراء القبر صوت راحل كريم من أبناء الجيل الماضى واعلامه البارزين .

لقد كتب «**واصف غالى**» هذا الكتاب الجامع عن «تقاليد الفروسية عند العرب » بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٦ ، ونشره بالفرنسية فى باريس عام ١٩١٩ . على أن جمهور القراء لدينا يقرن اسم«واصف غالى» قبل كل شىء بثورة «سعد» ، والوزارات الأولى ، والسياسة الخارجية ، وقد لا يتوقع أن يطالعه الاسم نفسه على غلاف كتاب من مصنفات الأدب . والحق ان هذا السياسى المجاهد كان اديبا رقيقا ، وشاعرا مطبوعا ، التقت فى وجدانه جذوة الوطنية وجذوة الفن .

ويعرف القراء عن «واصف غالى» المجاهد أنه الفتى الذى **رفع صوت أمته عاليا فى محافل باريس عند انعقاد مؤتمر ((فرساى)) عام ١٩١٩** ، ايام كمم الاحتلال البريطانى أفواه المصريين وضيق عليهم الخناق ، فواصل بخطابته وبيانه كفاح الرواد الأول ، ومرافعة « مصطفى كامل » فى صدر القرن العشرين دفاعا عن قضية البلاد أمام محكمة الضمير الدولى . ويعرف القراء عنه أنه **الثائر البر الذى آزر ((سعد زغلول)) ، فحكم عليه الانجليز بالاعدام تارة وبالسجن تارة أخرى ، حتى أعلن استقلال مصر ، وألف ((سعد)) وزارته ، فاستعان به وزيرا للخارجية وآثره بتقديره ووده** . ويعرف القراء أيضا أنه هذا الوزير الذى اتصف بكفاءته الممتازة ، ودماثة خلقه ، وعفة نفسه ، وابائه ووقاره ، مما حفظ اسمه فوق مستوى المهاترات الحزبية والمشاحنات الشخصية ، الى

أن توفى فى عزلته سنة ١٩٥٨ – عن ثمانين عاما – بعد أن رفض أكثر من مرة الاشتراك فى وزارات عهد فاروق الأخيرة .

ولكن القراء الذين يذكرون هذا كله من سيرة الوزير النبيل ، قد يغيب عن أذهانهم أنه كان كذلك من صفوة أهل الثقافة والفكر والأدب ، وأنه دبج المقالات ونظم القصائد وأنشأ الفصول والكتب ، بل وأنه حاضر عن الأدب العربى فى باريس . لقد غدا فى منصب وزير الخارجية المصرية خير سفير لنا بين ممثلى الدول المتقدمة ، اذ تولى تعريف شعوب الغرب بالحضارة العربية مؤلفا ومترجما ، شاعرا وناثرا ، مجادلا وخطيبا ، واستخدم فى ذلك جلده على البحث ، وكلفه بجمع الوثائق والتواريخ ، وطاقات قريحته المواتية ومواهبه النادرة التى أتاحت له اتقان اللغة الفرنسية على نحو جعله من المتفننين فى تصريفها ، وفى عداد كتابها الذواقين الذين شهد لهم نقاد الجيل الماضى فى الأدب الفرنسى ولا سيما « جول ليمتر » .

وفى ديوان أنيق عنوانه ((**جنة الأزهار**)) ، ترجم « واصف غالى » الى شعر فرنسى روائع الشعر العربى ، من جاهلى واسلامى ، ونقل الى قرائه لمحات شائقة من الحياة العربية كما عاشها أولئك الشعراء الفحول . وفى كتابه ((**اللؤلؤ المنثور**)) أظهر أهل الغرب على مثل للعرب من قصص وأساطير تصور شيمهم ، ومثلهم العليا . وهو فى كتابه ((**تقاليد الفروسية عند العرب**)) يتعمق فى تلك الحياة ، ويتلمس جذورها الاجتماعية والأخلاقية ، ويسجل ما ساد سلوك الفرسان من مبادىء الشجاعة والوفاء والجود ، والمروءة والعرض والشرف .

واصف غالى .. بقلم طه حسين

وتستهل الترجمة العربية التى ظهرت أخيراً لهذا الكتاب الجامع ، مقدمة طلية كتبها أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين بعنوان « واصف غالى كما عرفته ». وفيها يستعيد الصديق الوفى ذكريات الألفة التى اتصلت بينه وبين هذا الرجل « الكريم النفس » . فقد كانا يلتقيان فى مصر وفى فرنسا ، تجمعهما دائما أحاديث الأدب . ويعجب عميد الأدب العربى بهذا السياسى الذى كان لاتساع ثقافته « يظهر غريبا بين رجال السياسة » ، وكان لعلمه بأسرار السياسة « يظهر غريبا بين الأدباء » . ويروى قصة نشأته وتربيته وجهاده ، ثم يعرف بكتبه التى نشرها بالفرنسية ، والدور الذى أدته فى اظهار حضارة وطنه للغرب « نقية مبرأة من كل الشوائب التى شابتها فى نفوس الغربيين نتيجة للجهل بها أو لتعمد الفض منها » . ويذكر ـ الى جانب هذه المناقب ـ ما امتاز به واصف غالى من تواضع وزهد فى الشهرة ، ولا أدل على ذلك من نزوله عن عضوية مجمع اللغة العربية فور انتخابه بالاجماع ، وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها لاقناعه بالقبول رئيس المجمع والدكتور طه حسين نفسه .

وبعد أن نقل للقارىء هذه الصورة الأمينة لشخصية المؤلف وأعماله ، خص الدكتور طه حسين كتاب « الفروسية عند العرب » ـ فى أصله الفرنسى وترجمته العربية ـ بحديث العالم الذى يقوم مادة هو خير حجة فيها ، وحديث المواطن الذى يبين أهمية هذه الدراسة فى نشر وعى سليم لدى الغربيين ولدى العرب .

أصول الفروسية

والمؤلف لا يعمد فى كتابه الى تعريف الفروسية . فهى

طائفة من الأفكار والعواطف والنظم . هيهات ان تحتويها صيغة محددة . وبعد أن يشير إلى ظهور منظمات الفرسان في فرنسا اثناء القرون الوسطى . ويبين ما تمتاز به من مبادىء انسانية على الحضارتين اليونانية والرومانية ، يتساءل : هل الفروسية نزعة طبيعية في نفوس البشر اينما وجدوا . أم قد استعارتها من شعب معين شعوب اخرى ؟

ويستعرض إجابات الباحثين الذين ذهبوا ــ معتمدين على اسانيد تاريخية أو شعرية ــ الى أنها ذات أصل روماني ، أو عربي . أو جرماني ، أو مسيحي ، أو الى انها جرمانية عربية مسيحية في آن واحد .. وفي رأيه ان جميع أولئك المؤرخين قد أخطأوا اذ نظروا الى الفروسية على انها منظمة ثابتة الشكل والأوضاع مهما ختلف الزمان والمكان ، فالحق انها عمل انساني لم يمسك عن التبدل والتطور عبر التاريخ . وقد يكون المنهج السليم لدراسة الفروسية هو الوقوف عند كل مرحلة من مراحلها لاستقصاء أسباب ما اعتراها من تحول ، ثم استخلاص فكرة كاملة عن الفروسية بجمع نتائج ذلك التحليل .

ولكن المؤلف لا يتبع هذا المنهج . ويكتفي بالبحث عن التأثيرات التى أدت الى خلق الفروسية وتنميتها ، حتى تجتلي أصولها . وهو يعني الفروسية الفرنسية ، لأنه يكتب الفرنسيين . فيقول لهم ان فروسيتهم « فرنسية »المنبت ، ثم يستدرجهم الى الاعتراف بأنها قد تأثرت بحضارة العرب ..

وهكذا كان سياسيا أديبا في تقديم الموضوع، فهو ــ كما يقول الدكتور طه حسين ــ « لم يهجم على الفروسية العربية منذ بدأ كتابه حتى لا يفجأ قراءه من الغربيين بما ليس لهم به عهد ، وانما تحدث عن الفروسية الفرنسية والغربية ثم

مازال في حديثه هذا حتى وصل في لباقة ورفق الى الفروسية العربية »

ولتوضيح أثر العرب ، توقف عند العلاقات التى نشأت بين الشرق والغرب منذ القرن السابع حتى القرن الخامس عشر، ولاسيما بين الأندلسيين وأهل جنوبى فرنسا ، متخيرا طرائف الوقائع من التاريخ والنصوص الأدبية .

ولقد اتخذت الفروسية الغربية صورة هيئة اجتماعية منظمة ذات قواعد وقوانين وطقوس خاصة تهدف الى غاية محددة ، **فهل قامت فى الشرق هيئة من هذا النوع تولت زعامة الفروسية** ؟ كلا . . وما حاجة العرب الأولين الى انشاء منظمة للفروسية ؟ لقد كانوا فرسانا على السليقة ، وكانوا ينكرون الفروق الاجتماعية والامتيازات أو الألقاب ، وكان رجال القبيلة الواحدة اخوة لا يعوزهم الارتباط بعهود ومراسيم دينية . **وهذه المساواة قد دفعت العرب الى التفوق بعضهم على بعض فى ميدان الفضائل والمآثر** . لقد كانوا يحبون الفخر و «حسن الذكر» . ألحت عليهم حاجات العيش فى بيئة مجدبة فحفزتهم الى النشاط والجرأة . وسادت الروح الحربية بلاد العرب ، لأن الحرب ــ بما تتيحه من غنيمة ــ كانت صناعة البدوى الكبرى . ومن هنا كان الاعتماد على النفس ، والاستخفاف بالثروة التى تقبل وتدبر مع الكر والفر ، والاهتمام بالقوة وما تدعو اليه من العناية بالأسلحة البتارة والجياد الكريمة .

تلك هى الأصول الطبيعية للفروسية العربية ، التى لم تتخذ شكل منظمة ــ على النمط الأوربى ــ الا فى القرن الثانى عشر، عندما ضعفت عواطف المروءة . ويوجز المؤلف فصوله الثلاثة الأولى فى هذه العبارة الجميلة : « يبدو أن تبادلا فى

الأفكار والعواطف قد تم فى القرن الثانى عشر بين الشرق والغرب : فقدم الغرب الهيكل أى النظام الذى كان خليقا بأن يسند تقاليد العرب النبيلة ، وقدم الشرق مقابل ذلك حضارة مرهفة ، وفهما عميقا رقيقا للفضيلة ، فأزهرت بذلك أبهة الفروسية الأوروبية » . ثم يعلن أن **هدف كتابه هو التعريف بأخلاق العرب التى يجهلها السواد الأعظم ، مع أنها جزء قديم من حضارة الانسانية ، وانها تؤكد للمعاصرين أن الشر فى صراعه ضد الخير لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة دائما .**

الحسب وتعظيم الآباء

ويبدأ المؤلف وصف أركان الفروسية العربية بفصل عن « الحسب وتعظيم الآباء » وقد نشأ الاعتزاز بالأجداد عن المساواة الاجتماعية ، اذ كان كل عربى فى خيمته سيدا ولو كان فقيرا . وأما رئيس القبيلة فنفوذه نسبى ، وينتخبه أهلها تقديرا لفضائله وهى بوجه عام : الجود والبطولة الحربية والجلد والحلم والتواضع والفصاحة . انه بمثابة الملك الدستورى ، ولكن بلا امتيازات أو مخصصات ، بل وعليه أن يؤدى لقومه « ما يؤدى العبد لسيده » .

وبعد ظهور الاسلام أصبحت الدولة جمهورية استفتائية يتولاها رئيس تنتخبه الجماعة ، ويقول كعمر : **« يا قوم من رأى فى اعوجاجا فليقومه »** .

لذلك لم تنشأ فى جزيرة العرب أرستقراطية ثروة ، ولا أرستقراطية نسب ، بل سادت أرستقراطية فردية شخصية مؤقتة تخلعها على المرء بطولته وفصاحته ومآثره ، وهى مكملة لتلك الارستقراطية العامة المستمدة من صفة العروبة وحدها .

ولم يقنع العرب بنسب خرافى ـ كالأمة الفرنسية التى

تنتمي الى « اينيه » الذى نجا من واقعة «طروادة» فى ملحمة « فرجيل » – بل انتسبوا الى اسماعيل . وبات الفخر جماعيا ، يتمثل فى القبيلة . وداخل ارستقراطية القبيلة نهضت أرستقراطية الأسرات ، حتى جعل الاسلام تقدير الشرف من وجهة نظردينية : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم ».

تعظيم المرأة

ومن أسمى العواطف التى جاءت بها الفروسية عاطفة الحب. فقد ارتقى الحب عما كان عليه فى ظل الرومان واليونان وتنقى من الشوائب الحسية ، وأصبح لونا من الابتهال الصوفى ، أنجب التورع ومغالبة النفس والتضحية . **فالحب عند الفرسان مدرسة للفضائل ، ومنهج كامل من مناهج التربية ، بل منظمة اجتماعية لها رموزها وقوانينها ومحاكمها وشهداؤها .**

وما الذى أثر فى اتجاه الحب القديم فأحاله من مبدأ للشر والاعتداء الى منبع للخير والصلاح ؟ لقدنادت المسيحية بنقاء القلب والتضحية ، ولعل تعظيم العذراء مريم قد ادى الى تحسين حال المرأة ، وان كنا نلاحظ فى القرون الوسطى وجود فروسية مستقلة عن الكنيسة ، تعظم المرأة وتقتحم الأهوال للفوز برضاها .

ويستبعد المؤلف هنا أيضا تأثير الجرمان ، وينصرف عن شمال أوروبا الى جنوبها ، حيث ازدهر فى « البروفانس » شعر الغزل الرقيق . ويجمع أوجه الشبه بين شعراء العرب وشعراء جنوب فرنسا المعروفين «بالطروبادور» ، فى حياتهم وأساليبهم وتصويرهم للحب .

ومن بطون الكتب العربية القديمة ، يقتطف باقة عاطر

من تعريفات الحب - تظهر روحانيته - كقول ابى مالك الحضرمى : « العشق نفث السحر ؛ وهو أخفى وأحر من الجمر - ولايكون الا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين . . » . ثم يروى قصة « قيس وليلى » وقصة « عروة بن حزام وعفراء » . **ويستخلص أن الحب العربى شعور عفيف ، ساذج وعميق ، كأنه تعبد حالم ، وان كان العرب قد اتخذوه فيما بعد مادة للهو والدعابة والمجون .**

ويوازن بين المرأة الأوروبية فى العصور الوسطى والمرأة العربية فى الجاهلية ، فيرسم لوحتين بديعتين . .

ولقد وجهت الى الأوروبية فى القرون الوسطى اتهامات عديدة . ولكن المؤلف يدافع عنها ، اذ كانت تعيش فى مجتمع طغى رجاله . وفى ارتقاء تلك المرأة التى استطاعت ـ بفضل دهائها ومثابرتها ـ أن تستأنس المقاتل الجلف وتهذبه ، وأن تصبح شريكته ونظيرته ، درس بليغ يلقيه واصف غالى على نساء الشرق اللواتى رحن اذ ذاك يسعين الى التحرر .

وأما المرأة العربية فقد كانت ربة بيت طيبة ، تربى أطفالها ، وتعرف الأنساب ، وتشترك فى أعياد القبيلة ومآتمها ، وتحسن الرثاء . وهى ذات دل تستخدم جمالها فى اثارة الحماسة ، وصنع الأبطال ، والهام الشعراء . ولقد كان التغزل بها مطلع القصائد التقليدية . وهنا يستشهد المؤلف بالمعلقات . ويعترف بأن المرأة الجاهلية كانت أدنى منزلة من الرجل ، الا أنه يبرز قوة شخصيتها ، ويعدد مواقف البطولة النسائية وما أكثرها فى « الأغانى » و « العقد الفريد » . .

ويستعرض أنواع الزواج التى مارسها العرب فى الجاهلية ، من زواج « الصفا » (أى زواج التجربة الذى تفصم عراه اذا لم تكن التجربة مرضية للطرفين) ، وزواج « المتعة »

(الذى يعقد لمدة محددة) . ونكاح « الرهط » بين امرأة وعدد من الرجال لا يتجاوز العشرة ، الى نكاح « البدل » (حيث ينزل الرجل عن زوجته لرجل آخر مقابل تنازله له عن زوجته بالمثل) ، و « نكاح الاستبضاع » الذى تعمد فيه المرأة – وهى فى عصمة زوجها – الى الحمل من رجل ممتاز فى الشجاعة أو الكرم ، رغبة فى نجابة الولد . . **وهى الوان من الزواج يستنكرها العصر الحديث** ، وبتعذر على المؤلف أن يوفق بينها وبين ما سلف من احترام العرب للمرأة فى جميع العهود ، فيقول انها « كانت زيجات استثنائية » ، ويجتهد فى تبريرها اجتماعيا وأخلاقيا ! ثم يستقى من اخبار العرب وقائع يتجلى فيها استقلال بعض الفتيات عن ارادة اهلهن عند اختيار الزوج ، مثل « ماوية » التى بعد أن امتحنت خطابها الثلاثة فى قرض الشعر وفيض الكرم تخيرت اشعرهم واكرمهم وهو « حاتم الطائى » .

ويذكر المؤلف المهر ، والطلاق ، عند قدماء العرب ، ويرى فيما اتبعوا من عرف صورة لمجتمعهم . **ويقص طلاق ((هند بنت عتبة)) من زوجها ((الفاكه)) الذى شك فى وفائها ، ثم احتكم معها الى كاهن يمنى ، وبعد أن شهد الكاهن لها ، أراد أن يستردها فرفضت ، ثم تزوجها ((أبو سفيان)) فولدت له ((معاوية))** .

قصة تطور المرأة العربية

ولم تلبث فتوح الاسلام ان أخضعت العرب لحضارة الفرس والروم ، فقد اقتبس البدو اساليب اللهو والترف ، وانستهم الأسيرات المهذبات زوجاتهم الصارمات . ونستطيع أن نميز منذ ذلك الحين بين طائفتين من النساء : الزوجة الوقور التى تضع الأولاد وتربيهم وتعيش فى عزلة عن

المجتمع ، ويدل جهلها على فضلها . والجارية الحسناء التى تجيد الغنـاء والرقص وترتجل الشـعر وتروى القصـص وتسـحر عظماء الرجال فى عصور الحضـارة المرهفة كأيام الرشـيد وملوك غرناطة والفاطميين . على أن الجوارى كن يسـعين الى أن يصـبحن فى آخر الأمر زوجات شرعيات ، واذ ذاك يتكلفن صفات السـيدات الحرائر ، من جهل واعتزال واحتشـام ! وهكذا عم الجهل جميع النساء ، ولم تعد المرأة طوال الاثنى عشر قرنا الماضية الا الخادم الرسمية لزوجها وأولادها .

ولما كان الرجل هو الأقوى ، فقد استسلم لفرائزه الأمارة بالسوء ، واذل تلك التى كان من حقها أن تظل رفيقته ، بل وتعسف فى تفسير النصوص الدينية ليثبت بها ظلمه وطغيانه .

وهنا يتأمل المؤلف ما ورد فى القرآن والحديث من قواعد معاملة المرأة. ويرى النبى « يحسن معاملة المرأة – لا زوجاته فحسب بل جميع النساء – فيلقاهن بالبشر والعطف ، ويرعى حرمتهن ويرفق بهن » ، ويعـلم الرجـال أن « الجنة تحت اقدام الأمهات » ، ويزين بهن دار النعيم ؟ فالفردوس تعمره الحور العين ، وتلك « أروع وأرق تحية صدرت عن مؤسس دين من الأديان » .

وأما تعدد الزوجات فقد كان فاشيا فى الجاهلية . وكان من المخاطرة أن يقدم امرؤ على معارضة الأوضاع الاجتماعية المتأصلة ، والغائها طفرة واحدة . ولذا عالج الاسلام المشكلة باحتياط ، فانقص عـدد الزوجات الى أربع ، واثنى على من يكتفى بواحدة . واشـترط المسـاواة بين الزوجات ماديا وعاطفيا : وقد يتيسر العدل فى توزيع الغذاء والكساء والنفقة بين اربع نساء ، ولكن العدل فى توزيع الحنان والمحبة شرط

من المحال تحقيقه . وهكذا ينتهى التحـديد الى التوحيد : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » .

وكذلك نظم الاسلام الطلاق على نحو اكثر رعاية لمصلحة المراة ، فأجاز الطلاق بناء على رضا الطرفين ، أو حكم القاضى على اثر طلب الزوجة . وزود المرأة بسلاح يحميها من ظلم الرجل ، عندما اتاح للزوجين عند اقترانهما أن يضمنا العقد نصوصا فى صالح المراة : « لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » . ويدعو المؤلف الى أبسط الحلول وهو « الغـاء الطلاق فى النطاق الذى لا يتعارض ونص الشريعة القرآنية » . ويقترح أن تضـاف الى عقود الزواج رسـميا هذه الصـيغة : « فيما عدا الاتفـاق على غير ذلك يعتبر أن الزوج قد تنازل عن حقه فى الطلاق » . وهذا التأويل يطابق الروح الحقيقية لما يهـدف اليه الشـارع الأسـمى ، ففيه الانصاف وحماية كرامة الزواج . وليس من شأنه أن يلغى الطلاق ، وانما أن يحد من انتشاره .

وللحجاب أيضا قصة . فقد كان فى عصور الاسلام الأولى من علامات الامتياز ، للتفريق ضـمن النسـاء بين الحرائر والجوارى ((اللواتى لم يكن يفوت الشبان أن يتعقبوهن)) . ثم عمم الحجـاب ، وأصـبح فاصـلا بين الذكر والانثى . وازدادت كثافته حتى أدت الى عزل المراة . وليس فى القرآن ما يخول فرضـه أو يعـذر من يستغله ، فقد أجمع مفسرو الكتاب على انه يجوز للمراة ان تكشف عن وجهها ويديها .

ولا ينبغى عزل النساء عن الرجال بتعميم قوانين استثنت على وجه التخصيص لصون كرامة زوجات النبى ، فقدصدر لهن الأمر بالبقاء فى بيوتهن وعدم كشف وجوههن لأجنبى ، كمـا حرم عليهن أن يتزوجن بعـد وفاته ، نظـرا الى شرف

مكانتهن . ولقد فهم أصحاب الرسول تلك الوصايا على هذا النحو . **وشهدت عصور الاسلام الأولى اختلاط النســاء فى حرية بالرجال ، واشتراكهن فى اجتماعاتهم وندواتهم الأدبية والدينية ، بل وفى مشاجراتهم** . وأدل مثل على ذلك اضطلاع « عائشة » ــ ارملة النبى ــ بدور هام فى المنازعات الحزبية التى تلت مقتل عثمان . وســاهمت بصورة فعالة فى موقعة « الجمل » .

وهكذا منح محمد المرأة ما يكاد يسـاوى حقوق الرجل : فهى أهل لأن ترث وتشــهد وتتولى أمر ما تملـكه ، وتبيــع وتشــترى وتوصى دون حاجة الى اذن الزوج ، وأن تزاول الوظائف العامة كالافتاء وتعليم الفقه والقضــاء بالعدل بين الرجال انفسهم !

لا يجب اذن فى البحث عن سر تأخر هــذه المرأة ، الخلط « بين الشريعة الاسلامية وبين التأويلات المفرضة المشئومة ، التى تفتقت عنها عقول الرجال فى عصور الفساد والانحطاط » .

تعظيم الفرس

ولابراز قيمة الحصـــان ــ فلا فارس بلا فرس ــ يرســم المؤلف الشاعر هذه الصورة الجميلة لمهــد الحياة العربية :

« تخيلوا مساحات شاسعة من الرمال ، تناءت فيها العيون والمراعى ومضارب الخيام . هناك لا أنهار ولا ســفن ، ولا سبيل الى التواصل السريع سوى الحصـــان . وتخيلوا من ناحية اخرى حياة العرب المضطربة بالأحداث ، وقتالهم الذى لا ينقطع بين هجــوم ودفاع ، وتنقلهم الفجــائى ، ورحيلهم المتلاحق لانتجاع الكلأ . فعلى سرعة الطرد أو السلب تتوقف سرعة العودة بالصيد أو الغنيمة .. وعلى قدر خفة الجواد يقصر أو يطول البعد بين الفارس ومحبوبته .. »

ولم يكن مالك الجواد يعتز به لانه مجلبة للمنافع فحسب ، بل ولأنه نعم الرفيق الذى يقاسمه أخطار المغامرات والمعارك، وأشواق الحب اذا انطلقا الى موعد غرام. ولقد أبدع شعراء العرب فى وصف الجياد ، والتعبير عما يربطهم بها من مشاعر الشكر والزمالة والاحترام المتبادلة . وكان الفارس وفرسه يتشاطران الحياة ويتلازمان الى درجة استوجبت تعريف كل منهما باسم الآخر : « فرس عمرو » أو « فارس بهرام » ..

ولقد أرخ العرب للحصان فقالوا انه عاش متوحشا كالغزال والنعامة ، وان اول من ركبه «اسماعيل» . وهناك قصص خيالية عن خلق الحصان ، فقد جبله الله من حفنة من ريح الجنوب ! ويتتبع المؤلف «أنساب الخيل» — كما وردت فى الكتب القديمة — من داود الى سليمان الى أزد الى بنى تغلب . . وخلاصتها أن الجياد العربية كانت من نسل حصان داود المسمى « زاد الراكب » ، الذى ينتسب الى الجياد الشريفة التى وهبها الله عبده اسماعيل .

وللحصان تربية تقليدية خاصة منذ يولد حتى يشب ، ويتدرب على الركض ، ويقترن بفرس عريقة النسب رائعة ذكية ، فان مصاهرة الجواد الأصيل خيلا أدنى منه نسبا وصمة عار تلحق بالأسرة وبالقبيلة جمعاء !

ويستشهد المؤلف بأجمل ما قيل فى الجياد من أبيات الشعر ، ثم يذكر مشاهير الأفراس ، ومنها « جديمة » ، و « جلاب » التى نحرها حاتم لاطعام ضيوفه ، و « عوج » التى قطعت قيودها و انطلقت تعدو أربعة أيام حتى وجدت صاحبها ، و « داحس والغبراء » وقد أشعل تنافسهما فى السباق حربا بهذا الاسم دامت أربعين سنة بين قبيلتى عبس وذبيان !

الأسلحة والحرب والمبارزة

كما ترنم الشعراء ـ فى قصائد طويلة ـ بسمو الجياد : كذلك اشادوا بفضل الأسلحة . ولا عجب أن تعلو قيمة الأسلحة فى اقليم جعلت طبيعته الصيد أهم وسائل العيش ، وفيه تنشأ المشاحنات لأوهى الاسباب بين أهله .

بدأ ذلك « الشعب الشاعر » باستخدام الاسلحة فى قضاء حاجات أصبحت يوما تلو يوم مشروعة ، ثم احب الأسلحة لذاتها ، وتوسم فيها آيات الجمال ، بل ورموز الحب : **فانحناءة القوس تحكى « حاجبى » الحبيبة ، والسهام لا تصيب كما تصيب « سهام العيون النجل » ، والرمح أسمر مستقيم للدن كجسم الحبيبة الرقيق !** .. وخلع العرب على الأسلحة الجيدة شخصيات مستقلة ذات أصول وانساب ، ورصعوها باللآلىء . وأطلقوا على السيوف والرماح والدروع أسماء ، ونقبوا عن تاريخ صانعها مهما غاب فى ليل الزمن وأيا كان هو انسا أو جنا ، وأحاطوها بالأساطير كما طعموها بدقيق الزخارف .

وبعد أن استعرض المؤلف أنواع الأسلحة العربية ، بحث عن رأى العرب فى الحرب ـ وهم الذين شغفوا باصطكاك السيوف والرماح ـ فوجده واضحا فى قول **زهير** :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمو
وما هو منها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضرى اذا ضريتموها فتضرم

وقول امرىء القيس :

الحرب أول ما تكون فتية
تبدو بزينتها لكل جهول

حتى اذا حميت وشب ضرامها
عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جزت راسها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيل

وقول معاوية :

«الحرب اولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى».

وكانت المعارك أشبه بالمباريات تسبقها المنافرة . فقد كان أحد المقاتلين ينفصل عن رفاقه ويتقدم الى خطوط العدو ، فيستثير مقاتلا معينا يرى أنه جدير به ، أو يصيح متحديا « هل من منازل كفء لى ؟ » . وكان الاستنفار فى العادة ببيت او ابيات من الرجز ، يهدد فيها قائلها بالموت السريع الرهيب ذلك الخصم . وفى الحال ينبرى من معسكر العدو شجاع يرد على التحدى بأبيات من نفس البحر ونفس القافية ونفس الافراط فى التهديد ، ثم يبدأ النزال . .

وحمل العرب معهم هذا الأسلوب فى القتال الى الأندلس ، حيث انتشرت المبارزات فيما بعد . وكثيرا ما كانت المصارعة او المبارزة ـ دون سفك دماء ـ رياضة بين الأفراد على مشهد من الجماعة .

تعظيم الشرف

يشبه المؤلف الشاعر « الشرف » بنبتة فواحة نمت فى صحراء العرب ، أزهارها : الوفاء والولاء والاقدام والجود والمروءة .

ولم يظهر تعظيم الشرف فى أوروبا الا ابان القرون الوسطى ، وكان صفة اختصت بها طبقة الامراء والفرسان الارستقراطية ، بقصد تأمينهم أولا ضد وحشية المقاتلين ؛ ثم نفذ الشرف الى أعماق الاخلاق واصبح الحافز على أفعال الفروسية .

وعلى نقيض ذلك كان الشرف سلوكا عاما لدى العرب ، لا تمتاز به طبقة دون سواها . وكان النبع الفياض الذى غذى فصاحتهم وصدرت عنه جميع بطولاتهم . ادت الى ذلك بيئتهم التى جعلتهم اكثر أهل الارض تمتعا بالحرية : فدفعتهم بالتالى الى أن يتفاهموا على حصر وتحديد الاخطار التى تعرضهم لها حياتهم المليئة بالمغامرات والاحتياجات واسباب الفخار والشجار ، وهم الذين لم يعترفوا بسلطان عليهم لأمير أو قانون أو حكومة . أجمعوا اذن - من تلقاء انفسهم - على احترام المرأة والضيف والجار والمظلوم ؛ لأنه كان من مصلحة كل منهم الا يلحق به ولا بأهله اذى . ومن هنا نبذوا الغدر والجبن والدناءة ، وقدسوا العهد والعرض.

ولم يصغ قانون الفروسية لدى الأوروبيين فى نصوص واضحة ، الا انه يتلخص فى عدد قليل من الوصايا ، يختص بعضها بفروض الدين ونظام الاقطاع ، وبعضها بدعائم العسكرية والفروسية . وقد عرض المؤلف هذه الوصايا ، واورد ما يقابلها من النصوص القرآنية. ثم وقف وقفة اطول بالوصايا التى تشمل فضائل الفروسية الأربع الرئيسية وهى : الشجاعة (**لا تتقهقر أمام العدو**) ؛ والوفاء بالعهد (**لا تكذب وأوف بعهدك**) ، والكرم (**كن جوادا واغدق على الجميع**) ، وحماية الضعيف (**احترم جميع الضعفاء**) .

واستمد المؤلف من « الأغانى » و « العقد الفريد » و « ديوان الحماسة » أمثلة بليغة تبين وفاء الافراد والقبائل بالعهد فى مختلف الظروف .

وواصل سرد الأمثلة التى تصور الكرم . والكرم فى رأيه ثلاثة : السخاء (كرم اليد) ، والتسامح (كرم النفس) ، والعفو عن الذنوب والشهامة ازاء العدو (كرم القلب) .

وكان السخاء العربى ينطوى على ثلاث صفات جوهرية

هى السرعة والتبذير والاستخفاء . ومن الطريف أن العرب ـ قبل ظهور الاسلام بزمن طويل ـ كان لديهم ما يشبه صندوق اغاثة المعوزين حاليا ، دون أن يحمل أية تسمية تجرح كبرياء المعوز ، وكان غذيه لعب الميسر . فكانوا يلعبون بتسعة سهام ـ لكل منها اسم معين ـ توضع فى جعبة ، يتناول منها كل لاعب سهما . وكان الرهان فى أغلب الأحيان جملا ، ينحر ويوزع لحمه على المساكين . **فما كانوا يلعبون الميسر ابتغاء لمتعة المغامرة فحسب ، بل ابتغاء لمتعة اطعام البائسين أيضا .**

وكان أسلوب العرب فى العطاء أروع من عطاياهم . فهذا « هرم بن سنان » كما يقول ((**زهير**)) :

تراه اذا ما جئته متهللا

كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ولم يكن ترحيب العرب بضيوفهم أداء لواجب نص عليه قانون ، كما كان الحال لدى الجرمان والبورجنديين ، بل كان تقليدا قديما ينسب الى ابراهيم جد العرب (سورة الذاريات) .

ومن أمثلة كرم النفس ـ أى التسامح ـ ينقل واصف غالى عن الشيخ محمد عبده هذه الواقعة :

عندما أحس طبيب « المنصور » بدنو أجله ، استأذن فى أن يعود الى بلاده حتى يدفن بين أهله . فحاوره الخليفة قائلا : « أسلم حتى نلتقى فى الفردوس ! »

فرد المريض بقوله : ((**انى أوثر أن ألحق بأجدادى ، سواء أكانوا فى السماء أم فى الجحيم .**))

واستظرف المنصور رده فضحك ، وأنعم على الطبيب بعشرة آلاف دينار ، وأمر له بحراس يرافقونه حتى مسقط رأسه .

وأما « كرم القلب » ـ أى الحلم ـ فنجتليه فى آلاف الأمثلة . ومنها قصة « عمر بن الخطاب » الذى أمر بسجن رجل مخمور فسبه سبا فاحشا . واذا بعمر يعفو عنه قائلا : « لقد أفلح فى أن يغضبنى ، وأخشى اذا عاقبته أن اكون متشفيا لا عادلا » . ويقال ان « ريشار قلب الاسد » عندما مرض فى الحرب احتاج الي فاكهة ، فجعل « صلاح الدين » يرسل اليه الكمثرى والخوخ والبلح الطازج الذى يأتى به رجاله من الجبل كل يوم !

وما اكثر الأمثلة المؤثرة التى تدل على حماية الضعيف ضد القوى ، ومعنى الانتصاف للمظلوم من الظالم ! اننا نحيل القارىء اليها فى الفصل الذى خصصه المؤلف لهذا الموضوع .

الخلاصة

وقبل أن يضع المؤلف قلمه ، يستخلص الدرس العملى من بحثه هذا المتشعب : « ليعرف العرب أنفسهم ! ولا ينبغى أن يتعمقوا فى تاريخهم لكى يستسلموا للطرب الذى تغمرهم به امجادهم الغابرة ؛ بل ليقفوا على فضائلهم العريقة ، ويترسموها فى السعى الى مصيرهم . »

وعواطف الفروسية ليست مزية عصر أو بلد . فمن المآثر التى سجلها الكتاب ما اقتطفه المؤلف على ضفاف الفرات وبردى والاردن والنيل والوادى الكبير ، ومنها ما سبق ظهور الاسلام ومنها ما أتى بعده . وهذا يعنى أن تلك فضائل عامة تحلت بها جميع الاجناس ذات الثقافة العربية واللغة العربية والتقاليد والذكريات العربية ، لا فارق بين جنس وجنس أو بين دين ودين . فالارض وحدها لا تصنع الانسان ، بل بتألف الوطن من التربة التى تنبت الابدان ومن الآداب والفنون التى تنشىء النفوس .

وما أصدق حدس المؤلف حين يقول ـ وكأنه يتنبأ بالوحدة العربية : « وفى المصريين ـ مسيحيين أو مسلمين ـ وفى السوريين وأهل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب نفس الروح العربية التى تجدها لدى اهل العراق أيضا . وعلى الجميع واجب مزدوج هو السعى الحثيث لانهاض البلاد التى ولدوا فيها ، واحياء الفنون والآداب والفضائل العربية التى أصبحوا ورثتها الشرعيين . »

ويستقصى واصف غالى علة التخلف فى العالم العربى ، ويردها الى نظام الحكم التركى الذى ابتلينا به حتى القرن الماضى . ويهاجم روح الاستعمار وسياسة الطغيان عند الاتراك ؛ ويشرح كيف كانت مصدر جميع الرذائل التى يتهم بها الغرب الاسلام جورا . ويفرق بين الروح العربية والروح التركية . ويحمل على اولئك الذين « بكروا بالمجىء الى الاسلام ، تغريهم المنفعة اكثر مما تحدوهم الرحمة ، فكوروا العمائم ، ونحروا الخراف فى الاعياد ، وتباهوا بالصوم والزكاة ـ ولكن نفوسهم ظلت تتارية همجية ولم يفلح الاسلام فى تهذيبهم : **وعندما تولى هؤلاء المتوحشون الأمر عمدوا الى الشريعة يفسرونها على هواهم ، لتطابق أوضاعهم أو تقضى رغبات لهم عابرة . »**

انهم لتوطيد سلطانهم نشروا عقيدة القدر المحتوم ، اى الاذعان لهم لا الثورة عليهم . كما منعوا العرب من البحث العقلى خشية أن يفسروا النصوص ، وان يناقشوا أسس السيادة ، وان يكتشفوا ما اغتصب الدخيل من حقوقهم ، فالجهل ضمان لبقاء الامر الواقع .

والآن وقد تخلص العرب من التتار ، عليهم أن يستأصلوا من قلوبهم جراثيم الشر التى بذرتها الهمجية ، وأن يعودوا

الى تقاليدالرجولة والمروءة . عارفين قدر انفسهم ، شاعرين بكرامة الانسان وكرامة المواطن .

ويستنكر المؤلف جهل الشعوب بعضها ببعض ، ويقدم لأبناء الغرب كتابه هذا للتعريف بالعرب وانصافهم . ويستبشر بما انجلت عنه الحرب العظمى من اثبات حقوق الشعوب والمساواة بينها . ويشيع عهد الاستعمار الجائر بهذه السطور البليغة :

« لقد انقضى العصر الذى كان يستبيح فيه الاوروبى ان يستغل أرضا غير أرضه ، يتجبر على أهلها ، ويسومهم العذاب ، ويتحدى مطالبهم الشرعية . انما عليه ان يعين الشعب المتخلف معونة صديق مرشد ودود . وأحرى بالأوروبيين أن يتعرفوا عواطفنا ومبادئنا وروح الفروسية الفعالة فى حياتنا ، فهى خير ما يرسم لهم مثل العهد والجوار . »

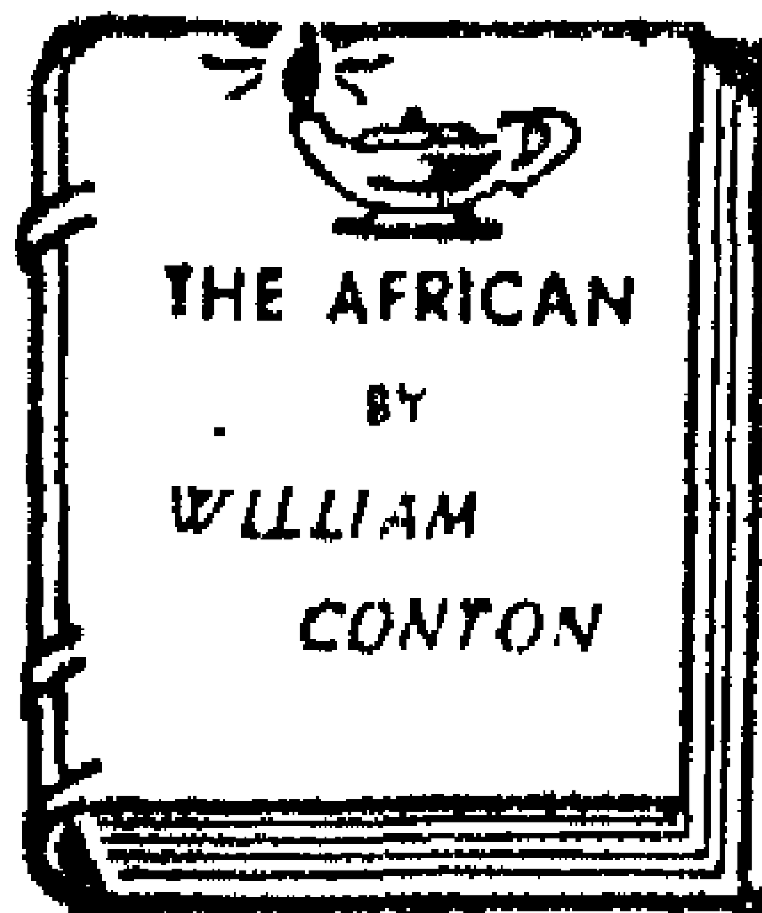
وتراود خيال الشاعر صورة الانسانية متآلفة ، كحقول القمح والذرة والشعير تنبسط فى ريف واحد ، أو ثمار التين والزيتون والاعناب تنضج فى بستان واحد . وما أجمل أن نرى ، جنبا الى جنب فى رحاب الله ، ثقافات متنوعة تنمو وتزدهر ، من الثقافة العربية الى اللاتينية والانجليزية السكسونية والصقلبية .. فى سبيل غاية واحدة ، هى التقدم والخير للجميع !

قديم .. جديد

وهكذا تنطوى بين يدينا صفحات هذا الكتاب القديم الجديد . ان فصوله تتسلسل رشيقة بديعة ، لا يرهقنا فيها جفاف البحث العلمى ، بل تطربنا عذوبة الشعر ويهزنا صدق العاطفة ، وذلك فضل من يكتب هاويا لا محترفا .

ولا شك فى ان « واصف غالى » قد اكثر من نقل النصوص فأصبح كتابه كمجموعة « المنتخب من أدب العرب » ، ولم يكن يرجع الى الاصول بقدر ما كان يكتفى بالاخذ عن المستشرقين وترجماتهم . ومنهج الجمع هذا يستبعد منهج الدراسة فى اغلب الاحيان . غير أن المؤلف قد عوضنا عن التعمق بجمال اسلوبه الممتع فى التعبير وفى السرد .

ولعل الذى يمتاز به هذا الكتاب فوق ذلك كله ــ وقد أيد واقع اليوم أمنية الأمس ــ هو جلاء البصيرة ، وصفاء المورد ، وسمو الفرض . لقد أطلق « واصف غالى » تلك الدعوة الى مثل الفروسية العربية ــ مثل الكرامة والحرية ــ منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ؛ فهو بحق من رواد القومية العربية . ولم يصدر فى دعوته الى هذا البعث الا عن سجيته المرهفة ، التى الهمته اصالته ، وأطلعته على صورة نفسه ، فعبر بأسلوب الشاعر عما تردد فى أعماق قلبه . ذلك أن فضائل الشهامة والاباء والشرف ، أى خلائق الفروسية العريقة . قد تغلغلت فينا جيلا بعد جيل .. **وما كان أسعد ((واصف غالى)) لو أن الأجل امتد به قليلا ليشهد حلمه وقد تحقق بقيام دولتنا الفتية على أسس الفروسية التى نادى بها فى فجر النهضة !**





بقلم : وليام كونتون

أول رواية أفريقية لكاتب من أبناء القارة المكافحة ، تثير إعجاب النقاد فى أوربا وأمريكا.

تلخيص : عبد الواحد الامبابي

عزيزى القارىء ..

للمرة الأولى يقـدم لك (كتابى) فيما يلى تلخيصـا وافيا لرواية أفريقية خالصة ، بقـلم كاتب من أبنـاء القارة أنفسهم ، هى رواية « الأفريقى » ، التى ظفرت بالتقدير والثنـاء من جانب نقـاد الأدب ومتذوقيه فى أوربا وأمريكا ، طوال الشهور الاخيرة .

ولقد جرت العادة أن يطالع القـارىء العربى أعمالا لكتاب أوربيين وأمريكيين يتخذون من القارة الافريقية مسرحا ومادة لانتاجهم . اما أن يطالع القارىء هـذه الاعمال لكتاب من البيئة الأفريقية ذاتها ، فهذا مالم يكن يسير المنال ، نتيجة للسيطرة الاستعمارية ، وما جرته على أقطار القارة من وبال ما تزال آثاره واضحة الى اليوم ..

ومـؤلف هـذه الرواية ـ « وليم كونتون » ـ هو نفسه « كيزيمى كامارا » ، بطلها وراويها . وهو أيضا أحد كتاب غرب أفريقيا اللامعين ، الذين فرض عليهم المستعمر لغته الانجليزية .

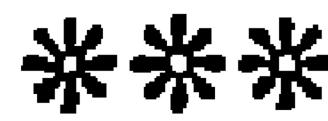
وعندما ظهرت هذه الرواية ـ فى أواخر عام ١٩٦٠ ـ استقبلتها الصحف والدوائر الأدبية فى انجلترا وأمريكا بعاصفة من التقدير والثناء . وقد علق المحرر الأدبى لصحيفة (الاوبزيرفر) الانجليزية على صدورها بقوله :

« لقد استطاع كونتون ـ باصداره هذه القصة الطويلة المتعة ـ ان يحتل لنفسـه مكانة مرموقة بين الكتاب الافريقيين المحـدثين ، من امثـال « اموس توتولا » و « شينوا اشيب » ، وغيرهما من الكتاب الذين تقرأ لهم باللغة الانجليزية ، والذين لا يقل ادبهم ـ من حيث

الشكل أو المضمون الواقعي المعبر عن ظروف البيئة وما يسودها من تيارات مختلفة ــ عن مستوى أعظم الكتابات الأدبية التي تطالعها اليوم لمشاهير اساتذة الأدب والقصة في أوربا وأمريكا .. »

ان هذه القصة تصور البيئة الافريقية في غرب القارة تصويرا رائعا ، لا يقل طرافة عن الأصل ذاته .. وتمضي صفحاتها في بساطة ، متتبعة تاريخ حياة احد ابناء افريقيا ــ على لسانه ــ مما يجعلها اقرب الى مايسمونه في الخارج بأدب الأنا ، أي اليوميات والاعترافات والمذكرات وغير ذلك من ألوان أدبية ..

والآن يمكنك أن تمضي في مطالعة هذا العمل الأدبي الممتاز ، الذي يشعرك ــ منذ البدء ــ بأنك لست غريبا عنه :



اسمي « كيزيمي كامارا » .. ولدت في قرية (لوكا) بمنطقة غرب أفريقيا البريطانية ، في موسم كانت أمطاره شديدة الغزارة .

وكان والدي يفلح فدانا من الارض ، يقع حول دارنا المتواضعة ، كما كان يقوم ــ في أوقات فراغه ــ بصيد السمك في مجرى نهري قريب موحل . وكنت أنا ثاني أولاد الأسرة التي تضم أحد عشر فردا ..

أمي تبيع النبيذ والملح وحب العزيز

أما أمي المسكينة فقد كانت تدير ــ بالاضافة الى عملها المنزلي ــ حانة لبيع «عرقي» البلح ، وحانوتا لبيع الملح وحب العزيز وبعض الفواكه الطازجة .. وكانت تضع حصيلة

البيع فى صندوق سجائر قديم ، ترفعه أحيانا الى أعلا ، ونحركه فى الفضاء . ولم تكن تستطيع أن تخنق البسمة على شفتيها حين يزداد رنين قطع العملة المتكاثرة فيه .

ولست أذكر أننى سمعت يوما ، أبى وأمى يتناقشان حول موضوع الحاقى بالمدرسة . غير أننى فوجئت ذات يوم — وكان عمرى اذ ذاك عشر سنوات ، على ما أظن ، اذ كانت يدى تصل الى الاشياء المدلاة من السقف — بأبى يناديني قائلا بصوت وقور فيه رنة فرح :

— كيزيمى .. عليك أن ترتدى أحسن ثيابك ، وأن تغسل قدميك جيدا ، ثم تتبعنى .

ورمقت والدى . فرأيته يرتدى سترته الكاكية النظيفة التى اعتاد ان يرتديها عندما يكون عازما على لقاء شخص ذى مكانة فى القرية .

الآنسة ((شوارتز)) ذات البشرة البيضاء !

وسار فى الطريق وأنا اتبعه على قيد خطوات منه ، الى ان بلغنا مبنى المدرسة التى تديرها احدى الارساليات الامريكية بقريتنا .. وفى احدى الحجرات التقينا بسيدة امريكية على قسط وافر من الجمال . وما أن لمحتنا حتى نهضت لتحيتنا ، كأنما كانت تعرفنا منذ زمن طويل .

كانت بشرتها بيضاء مشربة بحمرة ناعمة — حتى أننى تمنيت ان ألمسها ، وأن أتحسسها بيدى ! — ثم تحدثت الينا ، فخيل لى أن صوتها غير موسيقى ، وغير عادى أيضا . وكانت تتحدث بسرعة ، لدرجة أن الصبى الذى استدعته ليقوم بالترجمة لم يكن يفهم تماما ما كانت تريد أن تقوله ، ولم يكن يستطيع ملاحقتها .

كان التعليم فى هذه المدرسة بالمجان . وقد أحسست —

آنذاك ـ أن أبي قد ألقى بي في طريق طويلة لا نهاية لها ، مما دفعني الى التشبث بمعرفة كل شيء حولي .. وذات يوم اعلنت الآنسة شوارتز ـ وهذا اسمها ـ عن حاجتها الى أحد تلاميذ المدرسة ، كي يعيش معها ويساعدها في أعمال المنزل بعد الفراغ من اليوم المدرسي. **وكان أن وقع اختيارها علي ـ في النهاية ـ من بين عدد كبير من زملائي ، مما جعلني أعد ذلك نصرا لي ولوالدي على السواء ، اذ كان يعني زوال مسئوليته تجاه أحد الأفواه التي يسعى لاطعامها !**

لماذا يترك الأمريكيون وطنهم ليعيشوا بيننا ؟

والواقع أن الآنسة شوارتز كانت تعيش بشخصية مزدوجة . اذ كنت أراها في الصباح فتاة مرحة ، لا تفارق البسمة شفتيها ، حتى اذا ما ضمها المنزل سرعان ما تتحول الى امرأة قلقة شاردة الذهن . وكانت تشاركها المسكن فتاة أمريكية أخرى تعمل طبيبة في ذات الارسالية ، وتشرف ايضا على شئون الصحة في قريتنا وما جاورها من قرى . وكثيرا ما ساءلت نفسي عندما كبرت قليلا :

لماذا تركت هاتان الفتاتان بلديهما ، وجاءتا للعيش والحياة في وطن ناء غريب عنهما ، بين أناس تختلف طباعهم وتقاليدهم وحضارتهم عن طباع وتقاليد وحضارة شعبهما ؟ لقد كنت ارى اختلافا كبيرا بين سلوك هاتين الآنستين وسلوك سيدات وطني وفتياته . فابتساماتهما متكلفة ، وفي معاملتهما للغير تصنع وافتعال !

وكان يتردد على مسكنهما ـ بين الحين والحين ـ مساعد حاكم الاقليم ، وهو شاب طويل القامة ، برونزي اللون ، اسمه « آندرسون » . وقد ظل يتردد على الفتاتين فترة طويلة ، الى أن علمت فيما بعد أنه نقل الى مقاطعة

أخرى ، فحزنت كثيرا ، لأن زياراته المتكررة كانت تساعدنى فى توسيع ثقافتى الانجليزية . والحق أنه لولا هذه الفرصة التىأتاحها لى القدر داخلمنزل هاتين الآنستينالأمريكيتين ، لما بلغت ذلك المستوى الذى جعل أساتذتى جميعا يقررون صلاحيتىوأهليتى للالتحاقبالمدرسة الثانوية فى(ساجريسيا) .. العاصمة .

ولقد كانت مدينة (ساجريسيا) تعنى - بالنسبة لى - عالما مثيرا وجديدا . وقد عرفتها عن طريق الوصف الرائع الذىكان يسبغه عليها بعض اصدقائى منسائقى اللوريات ، ومن بعض الكلمات التى كانت تتردد عنها أحيانا فى أحاديث الآنستين . أما والدى وأهل قريتى فلم يكونوا على وفاق مع هذه المدينة ، اذ كانت تشكل - بالنسبة لهم - خطرا كبيرا ، ناشئا عن « تفرنجها » الزائد ، وابتعادها عن روح القرية البسيطة المسالمة !

الرحيل عن القرية

ومع ذلك وافق والدى فى النهاية على رحيلى الى (ساجريسيا) ، وكان يوم الرحيل قارس البرد غزير المطر ، الا أننى صعدت الى السيارة الكبيرة دون تأفف من برد أو مطر . وكان بجوارى والدى والآنسة شوارتز ، بينما وقف الأهل والأصدقاء فى انتظار تحرك السيارة . وتطلعت الى أمى فلمحت فى عينيها بريق الفخار والزهو .. وفجأة أدير محرك السيارة ، فتحركت معه صدورنا جميعا ، وارتفعت الهمهمات حتى غدت صراخا ، وامتدتالأصابع الى الوجنات تلتقط حبات الدموع الساخنة ، التى دفعت بها العواطف العميقة الى مآقى العيون ..

وجلست الآنسة شوارتز فى الدرجة الاولى ، بينما اندسسنا - والدى وأنا - بين ركاب الدرجة الثانية . وما

أن ابتعدنا عن القرية حتى عم السكون الا من عواء المحرك المتواصل .

وراحت السيارة تقطع الطريق بنا ، وتصعد مرتفعا لتهبط آخر . الى أن لاحت أمام ناظرى بيوت شاهقة لم تألفها عيناى من قبل ، وعند ذاك أدركت أننا بلغنا (ساجريسيا) .. العالم الجديد الذى أراه لأول مرة !

وتوقفت السيارة فجأة عند ناصية شارع نظيف مرصوف ، ونزلت الآنسة ، وأشارت لنا أن نتبعها . ثم دلفت الى منزل — عرفت أنه مركز الارسالية — وهناك قدمتنا الى رجل أمريكى ، كان المسئول عن شئون الطلبة ، فدار بيننا حديث عن امتحان القبول ، لم يستغرق وقتا طويلا . وعندذاك أخرج والدى بعض الهدايا التى أحضرها معه من القرية لمثل هذه المناسبات ، وقدم منها لهذا السيد الأمريكى شيئا من الفواكه الطازجة ، فشكره الأخير بحرارة .

رسالة من أبى .. تغير مجرى حياتى !

واستقر بى المقام فى المدينة الكبيرة ، وأحببت أن أتجول فى شوارعها ، لأتعرف على أهم معالمها ، فتملكتنى الدهشة اذ رأيت الناس تزدحم بهم الطرقات ، وتغص بهم الاسواق ، وهم — بين هذا وذاك — يتفاهمون بلغة أجنبية ، ليست الانجليزية بالطبع ، كما انها لم تكن لغة (الحوصة) التى نتحدث بها فى قرانا .

وكان يعذبنى الشعور بالغربة أشد العذاب ، فما كنت أطمع يوما فى أن أغترب عن قريتى وأهلى ، لأحل فى مدينة كبيرة تختلف كثيرا عما ألفته فى قريتى الصغيرة . غير أن الفضول وحب الاستطلاع دفعانى الى معرفة المزيد ، وشق أغوار كل ما هو مجهول غامض .

وكنت ــ منذ عاد والدى الى القرية ــ مشغولا بالدراسة ، والاستعداد لأداء امتحان القبول . . وما ان ظهرت نتيجة الامتحان حتى أسرعت ــ فى فرحة بالغة ــ الى قلمى ، فسطرت رسالة الى والدى ، انبأته فيها بنجاحى . ثم مرت أيام ، واذا بى اتلقى ردا منه ، عرفت فى سطوره خط معلمى ، الذى تلقيت على يديه ــ فى مدرسة القرية ــ مبادىء القراءة والكتابة .

ولست بمستطيع الآن أن أنكر الدور الخطير الذى لعبه هذا الخطاب فى حياتى ، لا لأنه كان أول خطاب أتلقاه من والدى ، وانما لأنه كان كالمهماز الذى يستعين به الفارس على مضاعفة سرعة حصانه . لقد كان يتضمن ــ الى جوار التهنئة بالنجاح ــ نصيحة ثمينة ، ظل مغزاها يلازمنى طوال شطر كبير من حياتى . . قالت النصيحة ، على لسان والدى :

« ولدى كيزيى :

« لقد شرعت الآن فى تسلق شجرة النخيل ، التى كان من العسير عليك أن تتسلقها فى الماضى . وان الجميع ــ هنا ، فى (لوكو) ــ قد اصبحوا ، أكثر من أى وقت مضى ، مترقبين خطواتك نحو الصعود . **وانك لمدرك أن الثمار الناضجة توجد دائما بأعلى الشجرة ، فاذا ما فشلت فى بلوغ القمة فان جميع هؤلاء الذين يرقبونك ــ سواء منهم من سيظل حيا أو من سيموت ــ سوف يصبون فوق رأسك جام لعناتهم واحتقارهم .**

« . . واذا ما قدر لك أن تبلغ هذه القمة وتقطف الثمار لتأكلها بمفردك ، وتستأثر بها دون غيرك ، فان التخمة ستصيبك بالاعياء ، وحينئذ ستسقط على الارض وتموت .
أما اذا عدت الى وطنك بعد جنى هذه الثمار ، وأشركت معك

اهل بلدك ومواطنيك ، فان الجميع سـيمتدحونك ، ويثنون على من جاء بك الى هذه الحياة . »

لقدجئت اذن لهدف أكبر من هدف تعلم اللغة الانجليزية ، بل اكبر من مجرد وجودي في هذه العاصمة ، بين قوم أكثر مدنية وحضارة من أهل (لوكو) .. انني هنا ـ وساظل فى كل مكان ـ من أجل بلدى وابناء قومى !

وكانت المدرسة الثانوية التى التحقت بها عبارة عن مبنى كبير منسـق ، يشـبه معظم مبانى مدينة (ساجريسيا) . وكنت أرى نفسى ، بين تلاميذ الفرقة الأولى ، اكبر منهم فى السن الى حـد ما ، اذ كنت أبلغ من العمر يومذاك سـبعة عشر ربيعا . وكانت الدراسة صـعبة للغاية ، ولم يكن أمام المدرسين من عقاب سوى الضرب بالمسطرة على ظهور أصابع اليـد . ومع ذلك اجتهـدت فى دروسى ، وكنت التلميـذ « الحوصـوى » الوحيد الذى احتفظ بزيه القومى وتقاليده الريفية ، بينما اسـتبدل الجميع من أهل لغتى وعشـيرتى ازياءهم بأخرى أفرنجية .

لا وقت للحب !

وثمة حقيقة يجب علي أن أؤكدها هنا . تلك هى أن حياتى الرومانتيكية ، أو بعبارة أخرى اهتمامى بالفتيـات وتعلقى بهن ، لم يكن لها وجود بالمرة . وأذكر أننى كنت أسـير مع صديق لى فى شارع الأمير هنرى ، فى احـدى الأمسـيات ، فوجدت نفسى أمام أسراب الفتيات ، وحرت ، لكننى لم أزد من التطلع اليهن ، والصفير اعجابا بهن !

وقال لى صديقى «كودجو» ، وهو يشـير الى فتاتين كانتا تسيران أمامنا بملابس المدرسة ، انه يعرف احـداهما ، ثم طلب الي ان أحث الخطي قليلا حتى نلحق بهما . ووجدتني

اسرع الخطو مع « كودجو » دون ارادة ، حتى أصبحنا على قيد خطوة أو اثنتين منهما. وما أن أحست الفتاتان باقترابنا حتى اضطربت خطواتهما ، وخيل الى أنهما تريدان الفرار ، فالتفت الى كودجو استفسره تعليلا لهذا الموقف الجديد ، فخاطبنى باللغة الحوصوية ، مؤكدا لى أن مّن الوقاحة بعد ذلك ان نواصل مطاردتهما . ومن ثم قفلنا عائدين .

وقد حدث أن نظمنا محاضرة عن « بلدية (ساجريسيا) وأثرها فى تنظيم هذه المدينة » ، فدعونا مستشار البلدية وعمدة المدينة للاشتراك فى القائها . وخشى ناظر المدرسة أن نقوم بأى تصرف من شأنه أن يسىء الى الضيفين الكبيرين ، فحذرنا . لكننا لم نكن فى حاجة الى مثل هذا التحذير ، لأن الأفريقيين ــ بصفة عامة ــ يحسون احساسا عميقا متوارثا باحترام كل من كان كبيرا فى السن .

وتحدث الضيفان ، ودام الحديث طويلا ، الا أننى خرجت من المحاضرة ــ فى النهاية ــ بأمرين على جانب كبير من الأهمية : أولهما أن الدستور على الورق أمر يختلف اختلافا بينا عن الدستور فى عالم الواقع ، وثانيهما أن الكبار لا يميلون الى اجراء أى تغيير فى النظام السياسى الذى تعودوه . واقتنعت بعد ذلك بأنه اذا كان نجاح حركة التطور الوطنى يتوقف على تغيير جذرى فى النظام السياسى القائم ، فان مركز النفوذ السياسى يجب أن ينتقل ــ حتما ــ من أيدى الجيل القديم الى أيدى الجيل الجديد .

التفرقة العنصرية تتدثر بالنفاق !

وقبل الامتحان بأسبوعين وقعت مشادة عنيفة بينى وبين « صامويل » ، ابن أحد المدرسين ، امتزج فيها الدم الساجريسى بالدم اللوكى . وكم كان غريبا أن يدعونا والد

صمويل بعد هذا الى بيته ، مصلحا بيننا ، قارئا علينا — بصوت متهدج — بعض نصوص الانجيل التى تنادى بالأخوة والمساواة والسلام بين بنى البشر جميعا . على أن هذا الأستاذ قد بدا فى نظرى منافقا ، كما بدا فى نظر ابنه خائنا ، ذلك لأن مظاهر التفرقة والاختلاف بينى وبين ابنه حقيقة واقعة لا تحتاج الى بيان .

ثم جاء الامتحان ، وظهرت النتيجة بعد فترة من القلق والترقب ، وكنت — وصامويل — من بين الطلبة المتفوقين . ومعنى ذلك انبلاج أمل قوى أمامنا ، أمل الحصول على منحة دراسية تجعل من حقنا أن نواصل تعليمنا العالى .

وفى تلك الليلة التى أعلن فيها نجاحنا ، قمت وصامويل — بعد أن زالت أسباب سوء التفاهم بيننا — بنزهة خلوية ، دامت طويلا ، استمتعنا فيها بجو كله مرح وصفاء ، واقبال على الحياة . لقد كان الاحساس بأننا قد شرعنا فى الوقوف على عتبات حياة أكاديمية جديدة ، ندق أبوابها بروح الجندى المنتصر ، يملأ علينا كل ذرة فى حياتنا .

الزواج بالأجنبيات .. ممنوع !

ومرت أربعة شهور ، ألفينا أنفسنا بعدها — فجأة — على ظهر باخرة ، أبحرت بنا الى انجلترا لتلقى العلم فى جامعاتها . وكنت قد عزمت على دراسة اللغة الانجليزية وآدابها . بينما أصر صديقى صامويل على دراسة الطب .

ووقعنا — قبل السفر — تعهدا كتابيا ، ألزمنا بخدمة الحكومة الوطنية مدة خمس سنوات بعد العودة من انجلترا . هذا بالاضافة الى شرط آخر ألزمنا بعدم الزواج فى الخارج الا بعد موافقة الحكومة . ولست أدرى ما شأن الحكومة بهذه الأمور الشخصية !

وكنت قد قضيت الاسبوعين الأخيرين فى قريتى ـ (لوكو) ـ بين اقاربى ومعارفى . واذكر ان اخى . الذى وصل الى (ساجريسيا) لتوديعى ، قد وقف ليشد على يدى مصافحة للمرة الاخيرة . واذ أسلمت له يدى محييا ، دس فيها قطعة كبيرة من الماس ، واخبرنى أن والدى يرجونى ان أحتفظ بهذه الماسة معى دائما ، حتى تذكرنى بقيمة اخلاص شعبى وعواطفه نحوى . ولما كان قانون (ساجريسيا) يحرم على الناس حمل مثل هذه الماسة ، فان المغامرة بأخذها معى قد اضافت الى قيمتها معنى كبيرا فى نظرى .. لقد ظلت هذه الماسة حتى الآن اثمن ما أعتز به من ثروه فى حياتى . ذلك لأننى كنت ـ وما زلت ـ أرى فيها الشعلة المجيدة لروح أفريقيا ، والثراء الوفير لخيراتها ، بل كنت أرى فيها الطرف الحاد لطاقتها وقدرتها .. لقد أصبحت هذه القطعة الماسية تمثل أمام عينى ـ فى كل وقت ـ الشعاع المتسلل لنجمة الحرية فى أفريقيا ، والضوء الذى سيوقظ العملاق الأسود الذى يرقد على سرير القارة العذراء !

لا مكان للسود على ظهر السفينة !

وسارت السفينة تمخر بنا عباب اليم ، وكانت حكومة ساجريسيا قد حجزت لى أنا وصاموبل مكانين فى الدرجة الأولى ، فتأكدنا من أننا سنختلط بالانجليز البيض الموجودين فى الباخرة ، ونتحدث اليهم ، ونأكل معا طعاما شهيا ، مما يقدم لركاب الدرجة الأولى . الا أن آمالنا سرعان ما انهارت فجأة حين صدرت التعليمات بعدم اختلاط البيض بالسود .. فتحول تفاؤلى الى تشاؤم حزين ، غير أن هذه الكآبة لم تدم طويلا ، اذ التقينا لحسن الحظ ـ أنا وصاموبل ـ

بثلاثة طلبة آخرين من ابناء منطقة غرب افريقيا البريطانية ، وكانوا يعانون مثلنا مرارة سياسة التفرقة العنصرية .

لقد كنا شبابا تملأ اذهاننا مشروعات جديدة بناءة . وكنا طموحين ، متحمسين لاحداث انقلاب جذرى فى كل مجالات الحياة فى بلادنا ، ثم اذا بنا نصدم بهذه الخرافة التى يدين بها البيض . ويطبقونها حرفيا . . غير أننا ادركنا أن سعادتنا لن تكون فى صحبة الاجانب ، وانما هى فى صحبةأبناء وطننا ؛ ولذلك قررنا نحن الخمسة أن نتحد فى رابطة لاتنفصم عراها .

وفى ميناء (لاس بالمز) ، وهو الميناء الذى يقع قبل ليفربول ؛ كنا أول من هبط الى الشاطىء ، وآخر من عاد الى الباخرة . وفى الليلة الأخيرة من السفر اقيمت حفلات الوداع . فاجتمع ا بيض فى صالات الرقص ، وأخذوا يغنون ويرقصون على نغمات الموسيقى الصاخبة ، بينما انعزلنا نحن السود فى « كابين » بعيدة مستقلة . وشرعنا نغنى ونرقص بدورنا . أليست هذه هى بريطانيا التى تصدر الى بلادنا أشياء نعجب بها ، وأشياء أخرى نأسف لوجودها ؟ !

مؤتمر وطنى ، على نطاق ضيق

ثم انخرطنا فى حديث دار حول المستقبل : اين سندرس ، وماذا سنتعلم فى انجلترا ؟ ووقف «أديمولا» الشاب الأسود القصير الذى يزين وجنتيه وشم قبيلته . وسألنا : « هل بينكم من يفكر فى الاشتغال بالسياسة عندما يعود الى وطنه ؟ » . . فاندفعت أجيبه على الفور : « أما من ناحيتى فلن أفكر فى الأمور السياسية حتى أشعر بأننى قد كونت نفسى تماما » . وهنا أردف « أديمولا » يقول : « ان بعض قادتنا وزعمائنا يدمرون بلادنا . . انظروا مثلا الى الطريقة

التى يريدون أن يحكموا بها شعبنا . انهم فى نظرى مجرمون يستحقون السجن المؤبد ! »

.. ثم تحدث « اوتوبى » ــ الفتى الأسود ذو العوينات السميكة ، الذى يتجه الى انجلترا لدراسة علوم الهندسة فى جامعاتها ــ فقال : « اننى أوافق على ذلك . فانا أعتقد ان علينا معشر الشباب أن نبدأ على الأقل فى الحديث عن مستقبل بلادنا ، وان نقرأ كل ما نستطيع قراءته عن المواقف السياسية فيها ، فى الوقت الذى ندرس فيه فى جامعاتنا . »

كيف نؤدب الرجل الأبيض ؟

وعندئذ نهض «أبابا» ، الشاب العريض المنكبين ، وقال : « ليست هناك سوى طريقة واحدة لمعاملة الرجل الأبيض . أتدرون ما هى ؟ » .. فأجبناه جميعا بصوت واحد : «ماهى يا صديقنا ؟ » ، فقال ، وشفتاه الغليظتان تختلجان من الغضب : « هىأن نقنعه ــ بطريقة عملية ــ بأن فىاستطاعتنا أن نضربه على أم رأسه ! » .. وعندئذ انفجرنا جميعا ضاحكين . وبعد برهة من الصمت انبعث صوت زميلى « صاموبل » يدعونا الى التزام الهدوء والحرص على أن نشعر ركاب السفينة الآخرين بأننا قوم نعرف أرقى أنواع السلوك الاجتماعى .. فقد كنا فى ساعة متأخرة من الليل .

وهرع الجميع الى حجرات النوم بعد ليلة صاخبة معربدة .. ولكن « أبابا » استطرد يقول : « اننى أعتقد يا أخوانى أن كل الدول الأفريقية ستحصل على الحكم الذاتى ، ان آجلا أو عاجلا ، فاننا معشر الأفريقيين من عنصر ممتاز .. انظروا الى خصائصنا الجسمية .. أليس فى شعرنا المجعد وشفاهنا الغليظة دليل على أن مرحلة التطور فى حياتنا أكثر تقدما من المرحلة التى وصل اليها البيض ؟ واذا كان هدف

الحضـــارة هو تحقيق التناســـق الاجتماعى ، فمن اذن اكثر حضــارة : الافريقيون أم الأوربيون ؟ .. انظروا الى ارقام الطلاق والمصابين بالجنون والذين يرتكبون جرائم الانتحار فى أوربا ،لتعرفوا ما حققته حضارتهم التى يتشدقون بها ! »

وبعدمناقشـة طويلة ، امتدتالى ساعة متأخرة من الليل ، قررنا أن ننصرف الى فراشنا بعد أن عقدنا العزم على تدعيم أواصر الاتصال بيننا فى لندن .

الرجل الابيض يكنس الشوارع !

وفى اليوم التالى وصلنا الى ليفربول . ووقعت أعيننا ـ لاول مرة ـ على الارض المـوعودة ، فراعنـا منظر المبـانى الشـاهقة ، وحركة المواصـلات المزدحمة .. وبينما كنا فى انتظار القطار الذى سـيقلنا الى المناطق التى تقرر أن تقيم فيها ، رأينا منظرا أثار دهشتنا ، وعقد ألسنتنا ، لغرابته : لقد رأينا رجلا أبيض يمسك بيديه مكنســة طويلة ، ينظف بها أرض الشارع ! وتعجبنا جميعا ، اذ كيف يوجد على ظهر الأرض رجلأبيض يقوم بأعمال الخدم والعبيد ؟ ! لقد عهدنا الرجل الأبيض فى بلادنا حاكما أرسـتقراطيا ، أو صـاحب مصنع او مزرعة ، أما كناسا يزيل غبار الشوارع ، فهـذا جانب لم نكن نعتقد ان الأبيض من أهله .

الانجليزى يعامل كلبه كما يعامل ابن عمه !

ثم ركبت القطار الى (يوركشير) ، حيث استقر بى المقام هناك ، فى أحد البيوت المعدة لنا . وفى هذه المدينة أستطعت ان أختلط بالناس فى كل مكان ، فاكتشفت اشياء لم يـكن لى عهد بها من قبل .. فالانجليز فى بلادهم يختلفون تمـاما عنهم فى خارجها . .أما الشيء الذى أثار اهتمامي ـ ولا شك

انه أثار اهتمام كل الافريقيين الذين عاشوا فى انجلترا — فهو روح الفردية عند الشعب الانجليزى . ذلك لأن روابط الأسرة تكاد تكون معدومة بينهم ، فقد يتزوج المواطن الانجليزى دون أن يحضر زفافه أحد من أفراد عائلته ! .. وتذكرت على الفور مجتمعنا الأفريقى المتماسك ، الذى لايمكن للفرد فيه أن يقدم على خطوة ترتبط بدور هام فى حياته ، دون أن يستشير الكبار فى أسرته .. ولا تكاد تقع كارثة لأحد منا حتى يحضر الجميع لمواساته ومساعدته ، ولذلك كنا نضحك من أعماق قلوبنا عندما نسمع الأساتذة الانجليز يتحدثون عن الروابط العائلية .. وكانت النكتة الشائعة بيننا هى أن الانجليزى يعامل كلبه كما يعامل ابن عمه ، ويعامل ابن عمه كما يعامل ابن رجل غريب عنه !

وقد قضيت العام الأول فى يوركشير على ما يرام ، وكنت اقوم فى آخر كل اسبوع بنزهة خلوية التقط خلالها صورا لكل ما كان يروق لى من مناظر طبيعية جميلة . وحرصت على التردد على بيت الشباب : حيث كنت أقابل عددا كبيرا من الطلبة الذين تتباين اتجاهاتهم وميولهم . وكنت أجد لذة فى الحديث اليهم والجلوس معهم .

ذات الشعر الذهبى ، التى أوقعتنى فى شباكها

وعلى مائدة بحانة يرتادها الطلبة الأفريقيون ؛ رأيت فتاة شقراء ، ذات شعر ذهبى أصفر ، يتدلى على ظهرها فى خصلات خفيفة ، تزداد جمالا كلما داعبتها النسائم الرقيقة . وكانت تتلفت فى بطء ، وتوجس بنظراتها خلال موائد الجالسين ، لكننى لم أستطع أن اتبين تفاصيل وجهها تماما . والحق يقال اننى قابلت مجموعة كبيرة من الشقراوات ، راقصتهن وضحكت معهن ، ولكنى لم أتأثر بواحدة منهن مثلما تأثرت

بهذه الفتاة . لقد كانت « جريتا » ـ وهذا أسمها ـ تجلس على قيد خمس ياردات منى ، وجذبت نظرى عيناها الزرقاوان الهادئتان ، فأحسست حين التقت بهما عيناى ، برعشة تسرى فى كل كيانى .. لكنى تمالكت نفسي ، وجمعت كل شجاعتى ، ثم انتقلت اليها لأحييها .

وحين ابتدرتها قائلا : « سعدت صباحا يافتاتى » ، توقعت الصمت من جانبها ، فالشقراوات ينظرن دائما الى أمثالنا من السود نظرة ازدراء وأنفة .. لذلك كانت دهشتى عظيمة ، حين أجابتنى بصوت موسيقى هادىء : «سعدت صباحا» . وحينئذ وجدت الفرصة مواتية للحديث معها ، فقلت لها : « اننى اعتذر عن وقاحتى ، وأرجو قبول عذرى » ، غير أنها أطرقت بعينيها الى الارض ، وأدارت وجهها بعيدا عنى ، فأحسست بشعور الاستياء ينتابنى ، وخيل الى أنها تريد منى أن أبتعد عنها ، فسارعت أقول : « ربما أخطأت .. هل تسمحين لى بالانصراف ؟ » .. وعندئذ رفعت رأسها محملقة فى وجهى ، ثم سألتنى : « أين تعلمت اللغة الانجليزية بهذه الطلاقة ؟ » .. فأجبتها على الفور : « تعلمتها فى احدى مدارس (سونجهاى) ، بمستعمرة (غرب أفريقيا) البريطانية .. ان الكثيرين فى مثل هذه المدن يتحدثون الانجليزية ، وربما بطلاقة أكثر منى ، كما لا بد تعرفين» . فأجابت : « صدقنى ، لا أعرف ، فأنا من (بريتوريا) ، وليست لى معرفة كبيرة بما فى منطقتكم » . وعندئذ أحسست بالاطمئنان والراحة ، فقلت لها : « اذن كلانا من افريقيا ! .. عالم صغير ، أليس كذلك ؟ » ، فابتسمت فى هدوء وتثاقل ، ثم أردفت قائلة : ان (جنوب أفريقيا) بلاد تختلف عن بلاد (غرب أفريقيا) » ، أجبتها : «ليس الاختلاف بين المنطقتين كبيرا أو أساسيا .»

خلاف حول المبادىء

وشعرت حينئذ بالسرور والفرحة ، لأن تطرق المناقشة بيننا على هذه الصورة قد خلق موضوعا لحديث يهم كلا منا على السواء . والتقطت هى خيط المحاورة لتقول لى : « ان هناك كثيرين من البيض فى جنوب أفريقيا لا يؤمنون بمبدا التفرقة العنصرية ، وأنا من بينهم ! »

وفى هذه اللحظة ادركت أن فى هذه الفتاة شيئا يدعونى الى الاعجاب بها . ثم استطردت قائلة : « وليس معنى هذا انه لا توجد أسباب تاريخية وراء فكرة العنصرية ولكن .. » .. فقلت فى لهجة حماسية : « ان رئيس وزرائكم أكثر الناس تعرضا لكراهية الأفريقيين ومقتهم ، وأؤكد لك يا صديقتى أنه لا يوجد فى أفريقيا كلها شخص يهتم بالبحث عن الاسباب التاريخية لفكرة التفرقة العنصرية . وكل ما نعرفه عن هذا الرجل الذى يرأس حكومة بلادكم انه شخص يعمل على خلق روح التفرقة بين شعبى وشعبك ، لأنه من المؤمنين بسمو عنصر من الناس على عنصر آخر ، لا يفرقهما سوى اختلاف لون البشرة . ونتيجة لهذه السياسة التى يحاول بها بث روح العداوة بين الابيض والاسود ، قام بعض الافريقيين فى غرب أفريقيا بالاعتداء على بعض الهولنديين الذين كانوا فى زيارة خاطفة لبلادهم ، كما أن أحد القسس من الهولنديين أيضا لم يستطع أن يمكث فى بلادنا الا تحت حماية البوليس ؛ ولا ادرى لماذا نحس معشر الافريقيين جميعا بأن أول دولة ستتعرض لهجوم الولايات الافريقية المتحدة ، عندما تقوم ستكون دولة اتحاد جنوب أفريقيا ! »

اقتناع .. بعد شك !

وهنا لزمت « جريتا » الصمت هنيهة ، ثم قالت فجاة : « ان ما تقوله يا صديقى لشيء مؤلم حقا ، ولا أستطيع ان انكر أن الكراهية ، بسبب العنصرية ، أمر كله شر ، **بغض** النظر عمن يقوم به أو يوجه اليه » .. ثم حدقت فى بعينيها الجميلتين وقالت : « اننى انتمى الى اسرة من (البوير) ، **ولو رآنى احد من افراد جماعتى البوريين اتحدث اليك الآن ، أو حتى سمعوا بما أقوله لك ، لالهبوا ظهرى بسياطهم .** ولقد جئت الى هنا لأتأكد بنفسى من انه لم يعد لديهم سند معقول فى التعصب لأفكارهم ، ضد ثقافتكم ، ومواهبكم العقلية ، **بعدما حققتم لانفسكم المزيد من التقدم . لقد** جئت الى هنا لأتعرف على أكبر عدد ممكن من الطلبة الافريقيين الذين يدرسون فى جامعة لندن .. ولكن ألست معى فى أن ما تقوله أنت الآن يساعد على اقناع شعبى بأن العنصرين لا يمكن ــ ولا ينبغى ــ أن يعيشا سويا ؟ »

والى هنا أحسست بالخجل، فاستدركت قائلا : « معذرة يا سيدتى ، وارجو قبول عذرى ، اذا كان قد بدر منى ما خالف دعوتك ، **وأحب أن أؤكد لك أن معظم افراد شعبى فى غرب افريقيا اناس يحبون السلام ويدينون بالتسامح »**

وطال بنا الحديث ، فأتيح لكل منا أن يكتشف فى الآخر أشياء كثيرة .. علمت انها يتيمة الابوين ، وأن اباها الذى كان يمتلك مزرعة كبيرة قد توفى قبل أن تشب عن الطوق ، وانها قد حضرت هنا بصحبة أخيها وصديق له ، للدراسة فى جامعة لندن . وفى نهاية الحديث وجهت الى دعوة للحضور الى مسكنها ، وزيارة أخيها « جان » وصديقه **فردريك »** ، وقالت لى : « **انني افضل أن تاتى بنفسك ،**

وتتحدث اليهما ، **حتى تقنعهما بأنكم معشر السود قوم جديرون بالثقافة والرقى . »** .. ووجدت فى هذه الدعوة فرصة أتيحت لى لمقابلتها مرة ثانية ، فلبيتها بسرعة ، وذهبت الى المنزل حيث التقيت بجان وفردريك . وهنا طلبت الى أن أقدم لهما نفسى ، فقلت: « أننى كامارا كيزيمى كامارا » ، ثم قدمت هى نفسها قائلة : « أما أنا فأدعى « جريتا هالس » ، وانني لسعيدة لأن أقدم اليك أخى « جان » ، وخطيبى فردريك هيرتوج » .

وانتهت هذه المقابلة ، وانصرفنا على أن نلتقى فى موعد آخر ، فى بار (رويال كيزويك) . وكنت أعتقد أن هذا البار قد يكون محرما على أمثالنا من السود ، الا أننى حين ذهبت اليه وجدته مزدحما بالزبائن من كل جنس . وقد وصلت فى الموعد المحدد ، فلمحت جريتا جالسة فى ركن قصى من المقصف. وأحب ان أقول منذ البداية ان أى شخص يستطيع أن يتحكم فى حواسه الخمس كان لا بد أن يفكر مرتين على الاقل فى المحافظة على مثل هذا الموعد ، واذا كان من الضرورى أن أعترف هنا بالحقيقة ، فأننى أقول بصراحة ، ودون التواء ، ان ذهابى الى بار (رويال كيزويك) هذه المرة لم يكن القصد منه ـ مطلقا ـ استمالة هؤلاء الى آرائى ، فيما يتعلق بقضية التفرقة العنصرية، وانما كان ـ ببساطة لرؤية جريتا مرة أخرى والجلوس معها !

لون بشرتي يسبب لي المتاعب

ولقد ارتديت يوما ملابس السهرة الانيقة التى اعتدت أن أرتديها فى حفلات (ساجريسيا) ، فبدوت شخصا يستحق اهتمام كل من يراه ، والواقع أن ملابسى لم تثر نظرات الآخرين بقدر ما أثارهم لون بشرتى . وذهبت الى جريتا حيث كانت

تجلس ، فوجدتها تحتل المائدة بمفردها . وحين حييتها ابتدرتني قائلة : « ان أخي جان سيحضر بعد قليل ، أما خطيبي فردريك فلن يحضر ، واخشى الا يكون موافقا تماما على الموضوع من الفه الى يائه ! »

وتمالكت نفسي ، حتى لا أظهر لجريتا مدى ما اشعر به من غيرة قاتلة من فردريك ، الا أنني أحسست في الوقت نفسه بما يشبه الانتصار عليه ، فقلت لها : « هوني الامر على نفسك يا عزيزتي ، فهذا لن يعجل بنهاية العالم ! » .. غير انها استدركت قائلة : « لا ، يا كامارا ، انني أعلق أهمية كبيرة على مقابلتك لفردريك ، فهو سينتهي من دراسته بعد اربعة أسابيع ، ثم يعود الى وطنه ، وقد لا تتاح لكما فرصة اخرى للقاء والمناقشة في هذا الموضوع الحيوي » . فقلت لها ـ رغبة مني في ادراك مدى حبها لفردريك ! ـ : « أيزعجك أن تتزوجيه اذا لم يقتنع بآرائي في التفرقة العنصرية ؟ ـ » ، فأجابتني وعلى شفتيها ابتسامة باهتة : « نعم ، هذا بالضبط ما أفكر فيه .. فان والده كان يمتلك مزرعة كبيرة في جنوب أفريقيا ، وقد اعتاد أن يعامل السود هناك معاملة وحشية فظة . وكان هذا السلوك من جانبه يثير ثائرة هؤلاء السود ويغضبهم منه ، حتى أنهم كانوا يحرقون مزارعه ، ويتلفون محصولاته . وقد حدث في أحد الأيام أن اشعلوا النار في سيارته فأصيب اصابة بالغة أدت في النهاية الى وفاته بعد ذلك ، ولعل هذا هو سبب كراهية فردريك لكل من هو أسود ! »

النبي الذى صعد الى الجبل !

فقلت لها بعد أن وضعت يدي على يدها : « اذن خذيني معك الى حيث يوجد فردريك وجان ، فانني أحب أن أتحدث

اليهما ! » .. وشعرت فى هذه اللحظة باننى سأكسب — من غير شك — جولة النصر الثانية مع جريتا . وسرنا سويا وقلبى يضطرب ، دون أن أستطيع تحديد معالم الدوافع التى سببت هذا الاضطراب فجأة ، حتى وصلنا الى الحجرة التى يقطنها فردريك وجان . وطرقت جريتا الباب بقوة ، فانفتح عن ذلك الشاب الطويل القامة ، العريض المنكبين ، فحيته جريتا بابتسامة جادة رزينة ، ثم قالت له بعد أن أشارت الى بيدها : « هذا هو كامارا .. النبى الذى صعدت به الى الجبل ! ولاشك يا فردريك أنك تعرف من هو كامارا ، ولماذا جاء معى الى هنا ! » .. فأجابها بعد أن حدجنى شزرا بعينين تشع منهما روح الحقد والكراهية : « ألم أقل لك يا جريتا اليوم أننى لم أقطع ستة آلاف ميل لكى أصادق الزنوج الذين ركلتهم بقدمى فى جنوب أفريقيا ! ؟ »

وأحسست بالدم يغلى فى عروقى ، ورذاذ شرر أحمر يتطاير أمام عينى ، وأدركت أن هناك شيئا واحدا يجب أن أنفذه بأقصى سرعة ، فقلت له : « ليس من الذوق أن أركلك بقدمى هنا فى حضرة جريتا ، وحديثك معنا بهذه الطريقة يدل على أنك لم تستفد كثيرا مما تعلمت ! » . ثم هرعت خارجا والدنيا تزمجر من حولى ، واتجهت من فورى الى مبنى بيوت الشباب ، حيث انتحيت مكانا هناك على شاطىء النهر ، ودفنت وجهى بين راحتى ، ورحت أسرح مع أفكار لا حصر لها ، كانت تصطرع كلها داخل عقلى ..

وبينما أنا كذلك إذا بى أفاجأ برجل يربت على كتفى قائلا لى : « ان جماعة من كيزويك يريدون مقابلتك ، وأرجو الا تستبقيهم هنا طويلا ، فالوقت — كما تعلم — متأخر بعض الشىء » .. ونهضت لأقابل جريتا وأخاها الذى ابتدرنى قائلا : « اننا آسفان كثيرا لما حدث اليوم ، فسلوك فردريك

معك كان ـ بالفعل ـ خشنا وجافا ، ولعلك تلتمس له العذر بعد أن سمعت من جريتا ما روته لك عن قصة والده مع السود . اضف الى هذا أن فردريك شديد الغيرة على جريتا ، وقد اشتعلت نار غيرته أكثر حين رآها تتلطف معك على هذا النحو ، وتؤيد أفكارك فيما يتعلق بمسألة التفرقة العنصرية !»

وقلت لجان بعد أن لمست فيه هذا الموقف الطيب : « أرجوك يا جان ، لا تعتذر لى بأكثر مما فعلت .. واننى أؤكد لك ، صراحة ، انني لا أحمل ضغينة لأى مخلوق ، مهما يكن لونه أو جنسيته ، أو مستواه الثقافى » .. فضحك جان ثم نظر الى فى أدب قائلا : « أظن أنه ليس هناك مانع من ان تتفضل لتتناول طعام العشاء معنا هذه الليلة فى الفندق الذى ننزل فيه ، ولن يكون معنا فردريك بالطبع ، لأنه انتقل هذا الصباح الى فندق آخر » .

واختلست نظرة الى جريتا فى هذه اللحظة ، فوجدتها ترمقنى بعينين معبرتين تعلنان تأكيدها لدعوة أخيها ، فقالت بعد ان أحسست بهدوء اعصابى : « اننى اشكر لكما هذه الدعوة ، وأعدكما بالحضور كما أردتما » .. ثم انصرفت جريتا واخوها ، واستسلمت انا لأحلامى وأفكارى سابحا فى عالم الحب ، محاولا مقاومة روح الكراهية التى ملأت قلبى ضد فردريك ، الذى غدا غريمى فى أكثر من ميدان .. لقد كنت أكرهه لأنه كان شديد الاحتقار لى ولأبناء جنسى ، وكنت أكرهه كذلك لأننى كنت أعتقد أنه غير جدير بأن يكون زوجا لهذه الانسانة الفيلسوفة ، التى ملكت على كل احاسيسى ومشاعرى !

يفسخ خطبته ، لاختلاف وجهات النظر !

والتقينا حول مائدة العشاء ، ودار حديث طويل عن

فردريك وميوله العنصرية ، ثم اتفقنا أنا وجريتا على اللقاء في الصباح . وكان يوما جميلا رائعا حقا ، بل لعله كان أسعد يوم في حياتي . فقد سرنا سويا ، وتنـاولنا في أحاديثنا كل ما يدخل السرور والبهجة على النفوس ..

وتوطدت العلاقة بيني وبينها ، فكانت تزورني في مسكني الخاص ، وكنت ــ بدوري ــ أتردد كثيرا على الفندق الذي تقيم فيه .. كان كل منا يكتشف في الآخر ــ يوما بعد يوم ــ شـيئا جديدا .. وكنا نكتشف سويا ، أحيانا ، بعض أسرار الطبيعة وألغازها .. وفي لحظة من لحظات اللقاء قالت لي ، ومسحة من الحزن الخفيف تعلو وجهها : « ألا تعلم يا كامارا أن فردريك قد فسخ خطبته مني ؟ .. لقد قال لي أن اختلاف وجهتي نظرنا ــ حول التفرقة العنصرية ــ اختلاف جوهري لا يمكن للحياة الزوجية أن تسير معه ؟ ! » . وحين خطرت في ذهني فكرة الزواج منها بعد أن تخلى عنها فردريك ، تذكرت على الفور ذلك التعهد الكتابي الذي أخذته علينا حـكومة سـونجهاي بألا نتزوج في الخارج دون موافقتها . فأحجمت قليلا ، ورأيت من الاصوب أن أدع التفكير في هذا الموضـوع الى وقت آخر .

وارتبط كل منا بالآخر ، حتى لم نعد نطيق الفراق يوما واحدا . وفي احدى ليالي الصيف جلسنا نتحدث ، حتى لم يبق على اشراقة الصباح سوى ذوبان تلك السحابة الرقيقة من عتمة الليل . وغلبنا النوم ، فأمسكنا عن الكلام ، وحين طلع الفجر كان كل منا مستيقظا في مكانه يسبح في تأملاته وأفكاره دون أن ينبس ببنت شفة .. كنت أفـكر في بلادي افريقيـا ، وتطير خيالاتي لتتركز أحيـانا على فتاة سـوداء ضفيرة ، كانت تحلي جيدها بالعقد الاحمر الجميل ، وتغني

بصوت مرتفع ، وهى تستحم تحت رذاذ المطر الافريقى المتساقط .

أما جريتا فقد كانت ـ كما أظن ـ تفكر هى الاخرى فى بلادها افريقيا ، ولكن افريقيتها كانت تختلف من غير شك عن أفريقيتى .

وتقدرون .. فتضحك الأقدار !

وذات يوم طلبت جريتا الى أن نخرج سويا فى نزهة خلوية ، فلبيت دعوتها عن طيب خاطر ، واحتوانا شارع طويل كنا نقطعه ، وقد تأبطت ذراعها .. وكنت أريد ان أقول لها شيئا يعتمل فى صدرى ، وكنت أشعر بأنها هى الاخرى كذلك . ثم سمعنا خلفنا صوت سيارة قادمة من بعيد ، أخذ نداء بوقها يعلو أكثر فاكثر ، وظلت تقترب منا حتى أصبحت على قيد خطوات قليلة . وفجأة ندت عن جريتا صرخة مجنونه أفقدتنى وعيى ، وحين أفقت وجدت نفسى راقدا فى سرير باحدى المستشفيات ، فسألت ذلك الشخص الذى كان يجلس بجوار سريرى ، عن جريتا ، فلم يشفنى باجابة قاطعة ، بل راح يتجنب المناقشة معى ، وهنا احسست بقلبى يضطرب فى سرعة ، واخذت الاوهام والمخاوف تنتابنى بشكل مزعج ، وظلت حياتى مرتبطة لمدة اسبوع كامل بخيط واهن يتأرجح بين الأمل واليأس : **ترى هل أصابها مكروه ؟ هل قضت السيارة الملعونة التى كان يقودها ذلك السائق الطائش على هذه الفتاة الحلوة الطيبة ؟ ..** **وأخيرا علمت ، فى يوم مشئوم ، أن جريتا قد قضت نحبها ، وانها قد ماتت ولن تعود !** .. ثم بدأ رجل البوليس الذى سمح له الطبيب بالتحدث الى يستجوبنى ويوجه الى بعض الاسئلة بشأن الحادث ، بعد أن أخبرنى أن ادارة المباحث

تتعقب السائق الذى دهمنا بسيارته ، فذكرت له على الفور اسم فردريك ، وشرحت له قصة علاقتى بجريتا وأخيها جان ، وخطيبها السابق فردريك ، منذ اليوم الاول الذى تقابلنا فيه نحن الثلاثة . وتركنى رجل البوليس والشكوك تساوره فى صحة ما اقول .. لقد خيل الى أنه كان يظن أننى لازلت فى حالة هذيان !

وعلمت ـ للأسف ، فيما بعد ـ أن فردريك قد نجح فى اقناع رجال البوليس بأنه كان فى لندن ليلة وقوع الحادث ، وأنه فوجىء به ، كما فوجىء به كل من يعرف جريتا ، وعزمت على أن أرفع قضية ضد فردريك بعد خروجى من المستشفى ، أوجه اليه فيها تهمة قتل جريتا عمداً مع سبق الاصرار !

وذات يوم ، كنت راقداً فى سريرى بالمستشفى ، أعانى الوحدة والمرض ، واذا بصديقى « صامويل » يدخل على ، بعد أن ظل يبحث عنى فى كل مكان . وبكى كالطفل الصغير حين رآنى على هذه الصورة . وعندما سألنى عن تفاصيل الحادث لم أستطع يومها أن أبوح له بأمر جريتا وقصتها معى ! ..

البحث عن عمل ..

وانتهت فترة اقامتى بالمستشفى فخرجت، بعد أن عقدت العزم على أن أتوجه الى ليفربول للعمل هناك ، ولكى أكون أيضا قريبا من صامويل الذى كان يدرس فى أحد معاهدها . واقتنعت يومذاك بأننى أستطيع فى مثل هذه المدينة ، الحصول على عمل يكفل لى دفع مصروفات الدراسة التى انفقتها فى غير بابها ، حتى أثبت لحكومة سونجهاى أننى جدير فعلا بالمنحة التى منحتنى اياها ..

وبعد ثلاثة أيام من البحث عن عمل ، تحسست جيبى

فوجدت أن ما كان به ، لم يبق منه سوى جنيه واحد ! وكان لونى الأسود هو السبب الرئيسى فى اننى لم أحصل خلال هذه الفترة على أى عمل فى تلك المدينة التى ابتلعت مصانعها كل الايدى العاطلة .

طالعت الأدب الانجليزى أثناء نوبات الحراسة

ثم وفقت أخيرا الى وظيفة خفير ليلى لحراسة أحد البيوتات التجارية فى شارع (ريجنت) . وقد أتاحت لى هذه الوظيفة الجديدة فرصة قراءة الأدب الانجليزى الكلاسيكى . وكانت الضوضاء فى شارع البرلمان الذى يقع فيه مسكنى مزعجة لدرجة لم أكن أتمكن معها من النوم أثناء النهار . فعزمت على البحث عن عمل آخر يكون اكثر ملاءمة لى .. الى أن عثرت على وظيفة باحدى الشركات الكبرى .

وفى تلك الاثناء قدمت أوراق الانتساب الى الكلية الملكية فى ليفربول ، وضاعفت جهدى فى المذاكرة والتحصيل ، حتى أصل الى المستوى الذى وصل اليه الطلبة الانجليز انفسهم .

وعلمت من صديقى صامويل أن الحكومة قد قطعت عنه المنحة الدراسية لأنه فشل فى دراسة الطب التى جاء من اجلها ، وتحول عنها الى دراسة القانون ، وانه يعتمد الآن فى مصروفاته على ما يجود به عليه أقاربه وأصدقاؤه فى غرب أفريقيا ، فعرضت عليه قرضا متواضعا يكفيه لمواصلة تعليمه الى أن تحل مسألته بطريقة أو بأخرى ،فقبله بعد تردد منه ، والحاح منى بأخذه .

ونجح بعد قليل فى الحصول على عمل ، ينحصر فى كتابة الاعلانات وبيعها للشركات ، وكانت آماله كلها تتركز — يومذاك — فى الحصول على درجة جامعية من لندن فى القانون ، وكان يدرس فى ذات الوقت علم الاقتصاد فى (نيوكاسل) .

التفرقة العنصرية مرة أخرى

وأخيرا ، وبعد خمس سنوات طوال قضيناها فى انجلترا ، تزودنا فيها بالكثير من العلم ، وفهمنا فيها سلوك الشعب الانجليزى ، **عدنا الى الوطن الحبيب، فوجدناه يغلى كالمرجل، ورأينا مظاهر الحياة فيه قد تبدلت كثيرا عما كانت عليه من قبل .. فوقفت حائرا مضطربا ، لا أدرى ماذا أفعل : هل** اوافق على هذا التطور الذى يتسم بطابع المادية الغربية وحضارة أوربا ؟ أم أظل مخلصا لتقاليد أفريقيا وتراث **اجدادى الاولين ؟**

وكنت قد عزمت على أن أنسى كل ما يتعلق بجنوب افريقيا ، وأن أسدل ستارا كثيفا على أخبارها وما يرتبط بها ، غير أنى وجدت عينى تتركزان فجأة على عنوان ـ بالبنط العريض ـ فى صدر صحيفة بريطانية . ووجدتنى أنجذب بقوة مغناطيسية الى قراءة هذا الموضوع الذى يتصل بموقف حكومة جنوب أفريقيا من الملونين ، فقد قرأت فيه أن هذه الحكومة قد حذفت أصوات الملونين من قائمة الانتخابات العامة ، بالرغم من معارضة بعض البيض فى جنوب أفريقيا لهذا القرار.وكان هذا يعنى ـ بالطبع ـ أن الحكومة لاتزال مصرة على ابقاء السود فى مناطق العزل التى أقامتها لهم ، **ووجدت اسماء عدد كبير من أساتذة الجامعة وغيرهم تذيل** قرار الاحتجاج ، وتعارض سياسة الحكومة ازاء السود .

وهنا أحسست بثورة عارمة تجتاح كل كيانى ، ذلك لأن هؤلاء السود الذين يتعرضون لهذا الظلم والاضطهاد ، ليسوا الا أبناء عمومتنا وخؤولتنا فى العائلة الأفريقية الكبيرة .

وعندما قرأت تعليق رئيس تحرير هذه المجلة الانجليزية أعجبنى قوله : « ان حكومة جنوب أفريقيا تكاد تكون الحكومة

الوحيدة فى العالم التى تطبق سياسة التمييز العنصرى بهذه الصورة - فحتى بعض الحكومات التى كانت الى عهد قريب تتبع هذه السياسة ـ كالولايات المتحدة مثلا ـ نحاول اليوم أن تتجنب تطبيقها بصفة رسمية داخل بلادها » ؛ ثم ختم المعلق حديثه بقوله : « ان حكومة جنوب أفريقيا تعمل اليوم على ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ! » ..

وقلبت صفحات المجلة فرأيت صورة لعدد من **رجال البوليس البيض فى احدى مدن جنوب أفريقيا وهم يرغمون السود على الانتقال من منازلهم ، وفى الصورة ـ أيضا ـ منظر لأحد ضباطهم وهو يحمل امرأة أفريقية ـ تحتج على هذه المعاملة ـ ليضعها فى احدى عربات اللورى ، كما لو كانت حيوانا فى طريقه الى المذبح !**

وقرأت تحت الصورة هذه العبارة الساخرة : « ما نوع المستقبل الذى تنتظره مثل هذه المرأة ؟ ! » .. وحينئذ شعرت بأن سحابة كثيفة تحجب الرؤية عن عينى ، فألقيت المجلة الى جوارى ، وأخرجت علبة السجائر ، وبأصابعى المرتعشة من الثورة التى كانت تغلى فى أعماقى ؛ أشعلت احدى لفائف التبغ ، ونهضت متجها الى شرفتى ، ورحت انظر الى الأفق اللانهائى الممتد امامى ، وافكر فيما يجب على ان اعمله فى هذا الموقف . ثم أخذت أذرع الشرفة بخطوات ثقيلة تشبه دقات الطبول الرتيبة ، وأنا استعرض فى خاطرى صورة لأشجار القطن فى حقول (ساجريسيا) ، وقد كست سطح الأرض بلون لوزاتها البيضاء ، ثم كابوس الليالى الحزينة التى أعقبت مصرع جريتا ..

بين سياسة العنف .. وسياسة السلام

وفكرت فى أن أسرى عن نفسى بالكتابة الى صديقى

« صامويل » ، أعرض عليه المقترحات التى أتخذت بشـأنها موقفا معينا . فيما بينى وبين نفسى ، قوامه أن أكرس كل حياتى وجهودى لخدمة القضية السياسية فى (ساجريسيا) أولا ، ثم فى آفريقيا كلها بعد ذلك . ولكن ما الوسـيلة التى سـأنفذ بها خططى ومشروعاتى .. هل الجـأ الى أسـلوب التدمير والعنف ، ام اتبع سياسة البناء والسلام ؟

واخيرا . وبعـد أن قلبت نتـائج الأمور على ضـوء هاتين الوسيلتين . وجدت أن من الخير لبلادى أن أكون فى كفاحى رجل بناء وسـلام ، اذ قررت أن أعطى الفرصـة لكل طفل أفريقى كى يؤكد وجوده ، ويحدث ثقله فى كفتى ميزان وطنه ، **وقـررت كذلك أن أمحو خرافة سـمو الجنس الأبيض على الجنس الأسـود وتميزه عنه ، ووضـعت لنفسى شـعارا ، التزمتـه فى كل خطوة من خطـواتى ، وهو : ((انـكار الذات والتضحية من أجل الآخرين مهما كلفنى ذلك من ثمن)) !**

وكان الهدف الاكبر بعد ذلك أن أسـتبدل تعاليم الغرب التى جاءت بها الدول الاستعمارية الى بلادنا ، بنظام الاسلام الذى وفد الينا من الشرق .. وكان الصراع عنيفا وقاسيا بحق . وكتبت الى صامويل أحثه على التعجيل بالعودة ، كى نعمل سويا على انشاء حزب سياسى . من شـأنه أن يحقق أفكارنا .

شغل الفراغ العاطفى

وجدت بعـد ذلك أننى فى حاجة الى من يشـغل الركن العاطفى فى حياتى ، فعزمت على الزواج ، وذهبت الى قريتى أطلب من والدى أن يبحث لى عن فتاة مناسبة فى (لوكو) . وكم كانت دهشة الجميع عظيمة اذ رأوا شابا أفريقيا ، تلقى تعليمه العالى فى أوربا ، يتمسـك بتقاليد بلاده القديمة الى

هذا الحد ! .. لقد ألفوا دائما أن يروا الكثيرين من ابناء افريقيا الذين يرحلون لطلب العلم فى أوربا . يعودون وفى صحبتهم زوجات أجنبيات . ولكننى كنت زعيما لمدرسة – او كنت أريد أن أكون كذلك – نطالب بوضع « فرملة » لسرعة الانغماس فى كل عادات الغرب وتقاليده .

وعكفت بعد هذا على دراسة كل ما يتعلق بأفريقيا ، واختلطت بالناس فى كل مكان ، **وخلعت الملابس الافرنجية لأرتدي الاثواب الافريقية الفضفاضة ، وحرصت على أن أبدو كذلك أمام الناس فى كل رحلاتى . ولم أكن أتحدث باللغة الانجليزية الا عندما لا يكون هناك مناص من أن أفعل ذلك**..وأخيرا ، وبعد طول ترقب وتلهف ، تلقيت رد صديقي صامويل بالموافقة على كل ما اقترحته عليه ، مع وعد منه بالحضور حالا . فشعرت بالفرحة تجتاحنى لأن بناء الفكرة قد أخذ يعلو ويتشامخ .

صامويل يلحق بى

وفى اليوم الذى حدده للوصول ذهبت لاستقباله ، فلمحت فى وجهه مظاهر التحمس والتصميم . وفى اليوم التالى لوصوله بدأنا العمل ، بعد أن وضعنا شعارنا الذى سيحدد اتجاه حركتنا ، فكان : « الاتحاد فورا ، والحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات » . ثم أخذنا نوالى اصدار النشرات الدورية التى نشرح فيها للجماهير سياستنا وأهدافنا . وأعلنا عن مشروع تأسيس الحزب الجديد الذى التزمنا بانشائه كنواة لميدان التجمع الكفاحى ، وظللنا نلتقى كل يوم حتى تمكنا فى فترة وجيزة من ابراز فكرة الحزب الى حيز الوجود ، ونظمنا حملة دعائية لنشر أهداف الحزب وبرنامجه .

والحق أن مساعدة صاموبل الايجابية كانت عاملا هاما وكبيرا فى نجاحنا السياسي فيما بعد . فقد انضم الى الحزب عدد كبير جدا من مختلف أنحاء البلاد ، وكانت الاشتراكات التى كنا نجمعها كفيلة بأن تساعد الحزب على مواصلة نشاطه ، فقررنا نشر التعليم كجزء أساسى من حركتنا ، واعتمدنا فى ذلك على مساهمة أعضاء الحزب وجهودهم .

شريكة حياتي

وأرسل لى والدى خطابا يخبرنى فيه بأن كل الاجراءات الخاصة بزواجي قد تمت ، أما عن الفتاة التى وقع اختيار أهلي عليها لكى تكون شريكة حياتي فى المستقبل ، فهى فتاة سبق لى أن تعرفت عليها من قبل معرفة خاطفة حين كنت فى (لوكو) ، تنتمى الى أسرة طيبة من الاسر العريقة فى قريتى . وكانت على جانب لا بأس به من الجمال .

وفيما كنت أسير الى منزل والدى مساء يوم الجمعة ، احسست بقلبى ينبض فى حركة مضطربة غير عادية ، وأدركت يومها أن السبب المباشر كان شعورى بأننى على أعتاب حياة جديدة أواجهها لأول مرة ، واننى سأعاشر فتاة لا أعرف عنها الشيء الكثير ، اختارها الغير لى ، وهو تقليد يختلف تماما عما يفعله الاوربيون فى مثل هذه الحالات . اذ أن عملية الزواج تتم فى أوربا على أسس مادية بحتة . فللزوج شروط وللزوجة كذلك شروط ، أما الزواج لدينا نحن معشر الافريقيين فانه يعتمد أساسا على الارتباط الروحى . فالعروس تهب زوجها كل روحها وكذلك يفعل الزوج بدوره ، وهذا هو سر دوام العلاقة بين العروسين .

اختيارى زعيما للحزب

على ان الحزب سرعان ما تشكل ، وأجمع الناس على اختيارى رئيسا ، مما زاد فى احساسي بالمسئولية .. غير ان الحكومة أحست - بدورها - بخطورة عملنا ، فألقت القبض على صامويل - زميلى فى الكفاح - ثم القت القبض ايضا ، بعد فترة ، على زوجتى « فاطمة » . لكننى لم ايأس من مواصلة الكفاح ، فقد ازددت اصرارا وعزما على النضال ، غير ملق بالا الى ما قد يعترض سبيلى من متاعب .

وأتيح لى ان أزور جنوب أفريقيا ، وتذكرت عند ذلك قصة جريتا ومصرعها ، ومناواة فردريك لافكارنا .. **ورحت افكر فى فردريك راغبا فى الالتقاء به ، حتى انتقم منه ، عقابا له على قتله جريتا ، التى كانت تعطف على السود ، ولا تؤمن بسياسة التمييز العنصرى** . وكنت اعتقد ان هذا الاجراء من جانبى بالنسبة لقضية جريتا جزء هام من رسالتى التى جئت من اجلها الى جنوب افريقيا !

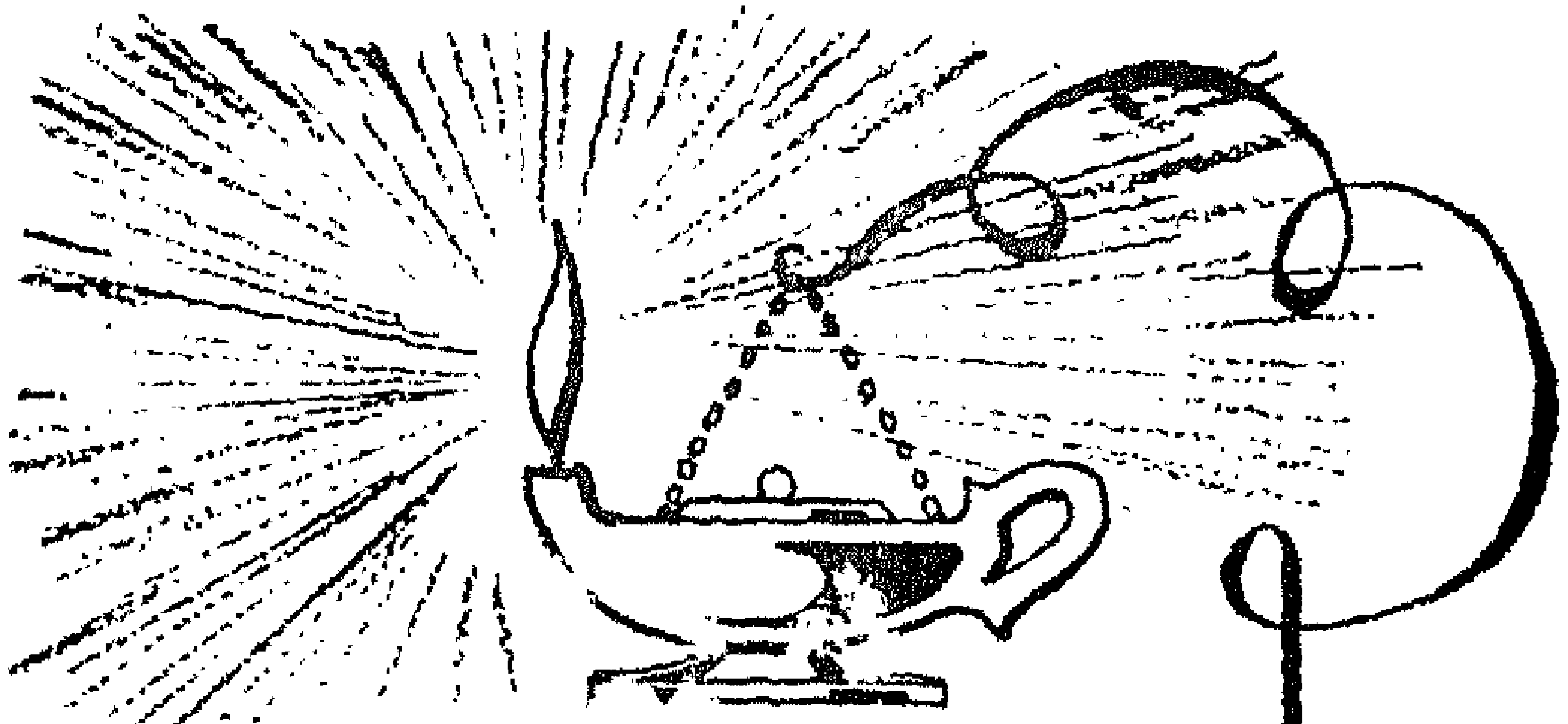
انسانية الافريقى تغلب روح الانتقام !

وأخذت ابحث عن فردريك فى كل مكان حتى عرفت اخيرا انه يتردد على احد الأندية . ورأيت ان أسلم طريقة للاقتصاص منه هى أن أعمل فراشا فى هذا النادى ، وبذلك تتاح لى فرصة تنفيذ ما عزمت عليه ! .. وحين كنته أقدم كؤوس الويسكى لفردريك باعتباره أحد أعضاء النادى ، اذا به يصرخ فى وجه السكرتير المسئول عن الادارة متوعدا : « ألم أقل لك اننى أكره هؤلاء السود ، ولا احب ان أرى واحدا منهم يعمل هنا ؟ » .. وهنا احسست بالرثاء مرة أخرى لهذا المسكين الذى جرد نفسه من كل شعور بالانسانية !

وفى منتصف الليل خرج ثملا ، تلعب الخمر برأسه ، لا يدرى الى أين يمضى . فتبعته .. وكانت الليلة شديدة البرودة ، والأمطار تهطل بغزارة وعنف . وبعد قليل ، حاول أن يسرع الخطى ، على غير هدى ، فاصطدم بحجر كبير كان يعترض طريقه ، ووقع مغشيا عليه ، **وكادت الأمطار أن تدفنه تحت سيولها المنهمرة ، لتتولى هى عملية الانتقام بدلا منى ، فتوقفت كتمثال من حجر ، لا روح فيه ولا حركة ، واحسست بعاملين يتصارعان فى أعماقى : عامل الانتقام الذى يدفعنى الى القضاء على هذا الوغد الذى قتل جريتا ، وعامل الرحمة التى تعيش داخل قلوبنا نحن الأفريقيين ، وايماننا بكرامة الانسان من حيث هو انسان .**

وأخيرا ــ وبدون أن أعى ــ وجدتنى أنحنى على هذه الجثة وأحملها بين يدى ، ثم أسير بها حتى وصلت الى المنزل الذى عرفت أن فردريك يقيم فيه ، حيث ألقيت به هناك ، وعدت وانا اشعر بدفء الراحة النفسية . فالشيطان لم يستطع أن ينتصر على ارادة الخير عندى .

وقلت لنفسى : **لو يعلم الناس أننا جميعا أبناء الله ، وأن التفرقة التى يصطنعوها لخلق حواجز واهية ، ليست الا مظهرا من مظاهر سيطرة الشيطان على الانسان وتمكنه منه .. لو يعلم الناس مثل هذه الحقائق الخالدة لما تطاحنوا ، وتشاحنوا ، وتحاربوا !**



كتب جديدة

من الغرب والشرق

عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية في العالم



رسالة لندن

يقدمها : على شلش

قضية الأدب فى افريقيا

ثمة ظاهرة هامة تشغل حيزا ـ منذ سنوات قلائل ـ فى أذهان الكثرة من المثقفين فى أوربا وأمريكا . تلك هى ظاهرة الأدب الافريقى ، الذى شرعت براعمه فى التفتح والازدهار ، فى أعقاب الحرب العالمية الاخيرة بصفة خاصة .

ذلك أن دور النشر الانجليزية ـ وبالمثل فى فرنسا وأمريكا وروسيا ـ قد اهتمت بما ينتجه أبناء أفريقيا من أدب وفن ، وراحت تلح عليه . وتهتم بنشره واذاعته . .

لكن : ما قصة هذا الأدب ؟ أو بالأحرى ما قصة هذه الظاهرة ، التى شغلت الاذهان فى السنوات الاخيرة ؟

أن المتتبع لتاريخ القارة الافريقية ، لا بد أن يصل الى ادراك حقيقة التطور الهائل ، الذى شملها فى أعقاب الحرب الاخيرة بصفة خاصة . ذلك لأن الفترة التالية لهذه الحرب قد سجلت للأفريقيين تطورات باهرة فى شتى الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية . .

ولعل أهم ظاهرة تستحق التأمل فى الميدان الثقافى والفكرى ، هى ازدياد النشاط الابداعى ـ من أدب وفن ـ ازديادا لم تشهده سنوات ما قبل الحرب الثانية .

على أننا يجب أن نحدد ـ بداءة ـ ميدان هذا النشاط الجديد الذى انبثق داخل القارة الشاسعة . **ونعنى به : على وجه التحديد ، جنوب القارة ، فيما وراء الصحراء الكبرى .**

ذلك لأن هذا الجزء الضخم من القارة قد شهد منذ نهاية الحرب الأخيرة نموا ملحوظا فى الأدب والفن : بدرجة لا مثيل

لها . خلال النصف الاول من هذا القرن بأكمله . كذلك لأن هذا الجزء ـ أيضا ـ لم نعرفه نحن . قراء العربية . معرفة حقيقية . مثلما عرفنا الجزء الشمالي من القارة . الذى يكتب ويفكر بالعربية فى الغالب . ومن جهة ثالثة ينبع اهتمامنا به . دفعا لمغالطة خطيرة . ألح عليها المستعمرون كثيرا . كى يفصلوا بين شمال القارة وجنوبها . اذ نجد مصطلحا خاصا لدى الاوربيين . وضع ـ فى الغالب ـ لدعم هذه التفرقة الخطيرة .

فهم حين يتحدثون عن الأدب الافريقى يقصدون به ـ على وجه التحديد ـ أدب الاقطار الافريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. ثم يتبعون ذلك بمصطلح آخر اطلقوا عليه أدب **الكتاب السود** Negro Writers وتلك فى الواقع مغالطة خطيرة . يجب أن ندفعها عن القارة حين نتناول أدبها . ذلك لأننا نجد ـ حسب تحديدهم هذا ـ أن الادب الذى ينتج فى ليبيا ، أو الاقليم المصرى ، أو السودان ، أو الجزائر وغيرها من الاقطار الافريقية . التى تكتب وتفكر بالعربية منذ مئات السنين .. **هذا الادب ليس أفريقيا ، ومن ثم يعزلونه عن القارة ، حين يتناولون أدبها !**

ومع ذلك نجد مهمتنا ازاء تعريف الناطقين بالضاد بهذا الادب . مهمة على جانب كبير من الاهمية والضرورة

فالحق أن أفريقيا ، فيما عدا الاقطار الشمالية منها . قد عاشت طويلا مجهولة بالنسبة لهذه الاقطار . ولم نكن ـ من قبل ـ نعرف هذا الادب الا عن طريق مايكتبه الاوربيون عنها .

وتنقسم هذه الكتابات الاوربية الى قسمين. أولهما يتخذ القارة مسرحا وميدانا له . كما فعل الكثيرون من أمثال دكتور جونسون وفورستر وجويس كارى وهمنجواى من الناطقين بالانجليزية ، أو هيجو والفونس دوديه وبيير لوتى والبير كامى

فى الأدب الفرنسى . وكذلك تاجور فى الادب الهندى . فكل هؤلاء قد اتخذوا القارة مسرحا لأعمالهم المنظومة والمنثورة على السواء .

أما القسم الثانى من هذه الكتابات فقد عالجه الأوربيون والأمريكيون أيضا ، خلال النصف الاول من القرن الحالى . حين راحوا يسجلون القصص والاغانى الشعبية ، التى تداولها الأفريقيون فى أسمارهم وحياتهم اليومية . ومن الطبيعى هنا أن نجد ، فى الكثير من هذه الكتابات مغالطات واخطاء . مقصودة أو غير مقصودة .

ولقد عاشت قارتنا ــ وبخاصة الجزء الجنوبى منها ــ وهى لا تكاد تعرف الكلمة المكتوبة ، أو الأدب المكتوب . وإنما انصب كل نشاط الاهالى الابداعى على الشفاه ، تنقله من مكان لآخر . أغان وأنغاما وحكايات .

ورغم قلة الموجود باليد من هذه الحصيلة الضخمة المتناثرة عبر الادغال والرمال ، الا أننا نلمس فيها أصالة . ورباط دم يربط كل هذه النماذج بمثيلات لها عندنا نحن الذين فصلنا عنها تاريخ طويل من السيطرة الاستعمارية ، مما يؤكد ، لدينا ، صلة الشعوب الأفريقية ، على اختلاف نحلها وأجناسها . وهى صلة أشد ما تكون نصاعة ووضوحا فى القصص والاغانى الشعبية ، التى تتداول ابتداء من القاهرة فى أقصى الشمال الى كيب تاون فى أدنى الجنوب . **وليس يفصل قصة عن أخرى ، أو اغنية عن أخرى ، الا اختلاف الأسماء والأزياء . وليس يفصل مثلا شعبيا عن آخر ، الا اختلاف اللغة المكتوب بها هذا المثل أو ذاك .**

نعود بعد هذا الى أهم ظاهرة ألمحنا اليها فى بداية هذا الحديث ، وهى ظاهرة اطراد الأدب المكتوب ونموه فى أقطار عديدة من القارة . تبدأ من مدغشقر وكينيا فى الشرق وتصل

الى الكميرون والسنغال فى الغرب ، ومن الروديسيات فى الوسط الى أدنى الجنوب .

وقد بدأ هذا النمو - كما قلنا - فى أعقاب الحرب الثانية . لكنه اتخذ شكلا غريبا الى حد ما ، مما يؤكد لنا بشاعة الطرق الاستعمارية فى تنظيم ثقافة المستعمرات . اذ فرضت الدول الاستعمارية لغاتها ، وحاربت اللغات القومية فى القارة . ونشأ عن هذا الوضع الخطير - الذى تعانيه الجزائر أيضا فى الشمال - أن اتجه الكتاب الى التعبير بواسطة اللغات الأجنبية ، وعلى رأسها الفرنسية والانجليزية .

وعرفت أوربا وأمريكا هذه الألوان الجديدة من الأدب عن طريق لغاتها هى ، وكذلك عن طريق المؤتمرات الثقافية ، التى عقدها الكتاب والفنانون الأفريقيون فى روما وباريس ولندن ، خلال سنوات متتالية ، كان آقربها فى العام الماضى .

والحق ان هذه المؤتمرات قد كشفت عن خبث الوسائل الاستعمارية فى محاربة الآداب القومية للقارة .

والملاحظ فى هذا الانتاج المتنوع من قصة الى قصيدة الى مسرحية ، انه يحتفل بقضايا القارة احتفالا كبيرا ، ويلح على تفهم الواقع الأفريقى وتصويره ، والكشف عن أعماقه ، التى لا زال بها أثر من الرواسب التى بثها الاستعمار عبر تاريخه الطويل فى القارة .

وماذا عن الشعر فى أفريقيا ؟ ..

انه يشكل جانبا حيويا من جوانب الحياة اليومية لسكانها الذين يزيدون على مائتى مليون نسمة . وهو مرتبط أشد الارتباط بأصالة هؤلاء السكان ، وقوة احساسهم بضرورة النغم فى تشكيل حياتهم . فالمرء - كما يقول أحد كتاب غانا - يسمع موسيقى حيثما ذهب : اذ يجد الأم تغنى حين تجلب الماء من البئر ، أو حين تطحن الاذرة ، أو حين تهدهد

طفلها . كذلك يجد المرء البائع الجائل يستعين بالاغنية لجذب انتباه زبائنه . كما يمارس الرجال الموسيقى بأنفسهم في الحانات ، أو ينصتون اليها ، وهى تتسلل من الآلات الموسيقية التي يحملها الموسيقيون الجائلون .

فاذا اضفنا الى ذلك ما نعرفه عن القبائل الكثيرة من **استخدام الطبول فى تبادل الرسائل واذاعة الأخبار ، وكذلك الأغانى الجماعية التى تؤدى استجلابا للمطر أو الخير ، وما يصدر عن الغابة وجداول الماء من حفيف ، وهسهسات ، وخرير منظم موقع** ، اذا اضفنا هذا كله لتحققنا من أن الأنغام تمتزج بالطبيعة والانسان ، وتحل فيهما ، كلما توغلنا فى القارة .

ولئن كان ذلك هو حظ الشعر فى قارتنا ، فما بالنا بالنثر ؟ .. طبيعى أن يتأخر النثر فى بلاد لم تعرف الكلمة المكتوبة الا حديثا ، ومع ذلك فقد أتاحت لنا دور النشر الاوربية الاطلاع على ألوان من القصة والرواية ، ذات طعم خاص ، لا تجده فى أى من الآداب الاخرى .

على أننا يجب أن نفرق — بادىء ذى بدء — بين نوعين مختلفين من الكتابة القصصية : أولهما هو النوع الشعبى ، أى الحكاية التى لا تنتمى الى مؤلف معين ، ويكون القصد من تأليفها ابراز قيمة ، أو حكمة ، أو متعة ، الى غير ذلك مما تتقبله الأسمار . وهذه الحكايات — أيضا — تؤلف لكى تسمع ، أى أن تنصت اليها جمع ، أو عدد من الافراد ، وهى — لهذا — تختلف اختلافا كبيرا عن القصة المكتوبة بأشكالها الحديثة .

ولقارتنا رصيد ضخم من الحكايات والأقاصيص الشعبية **وهو رصيد عريق ، يعادل — كما يقول بعض الدارسين — التراث الكلاسيكى بالنسبة للآداب الأوربية** . وهذا الرصيد

يتخذ مادته ـ فى الغالب ـ من الطبيعة ومكوناتها ؛ وتتناقله الاجيال ، واجدة فيه متعة وتسلية .

ولقد ظل الاهتمام بجمع هذه القصص الشعبية وتسجيلها مقصورا على الاقطار التى تحضرت ، واتصلت بالحضارة الغربية . كما هو الحال فى أقطار كالسودان والاقليم المصرى وشمال القارة .

اما فيما وراء الصحراء الكبرى ، فقد ظلت هذه الحصيلة حبيسة على شفاه الرواة الى عهد قريب ، عندما اهتم الاوربيون بجمعها وتسجيلها من بيئاتها المختلفة ؛ بقصد الاستفادة منها فى العلوم الحديثة ، وعلى الأخص علم الانثروبولوجيا (علم وظائف الانسان) .

ووصلت الينا هذه القصص والحكايات الشعبية فى النهاية مجمعة ـ بعد تسجيلها ـ فى مجموعات باللغات الاوربية ، ومنقولة عن لغات وطنية : كالحوصا واللغة السواحلية .

ولقد فطن الكتاب الافريقيون المحدثون الى أهمية هذا التراث الشعبى . اذ أكدوا فى مؤتمرهم بروما عام ١٩٥٩ على أهمية جمعه وتنسيقه . كما شرعوا ـ بالفعل ـ فى الاستفادة منه . ففى نيجيريا قاص شاب يسمى **آموس توتولا** ، الح كثيرا على القصص والاساطير الشعبية ، واعاد كتابة بعضها من جديد ، كما غير فى دلالات البعض الآخر ، لدرجة أن أحد النقاد الروس وصف أعماله بأنها ((**تطوير للأسطورة البطولية**)) ذات الموضوع الواحد .

أما النوع الثانى من الكتابة القصصية ، فهو النوع الحديث المكتوب . وينقسم بدوره الى رواية وقصة وأقصوصة . وهذه الالوان ـ بشكلها الحديث ـ تعتبر حديثة النشأة فى كثير من أقطار القارة .

غير أن المتتبع للحركة الأدبية في هذه الأقطار الواقعة جنوب الصحراء ، يجد فى السنوات الاخيرة اهتماما كبيراً بالقصة والرواية والأقصوصة . كما يلحظ أن هذه الحركة تبرز فى أقطار مثل الكميرون والسنغال ونيجيريا وغانا وغرب افريقيا ، وتقل فى أقطار أخرى كفينيا وكينيا والصومال واتحاد الجنوب .

ومن بين الكتاب الذين لمعوا فى السنوات الأخيرة كاتب شاب من الكميرون اسمه **مونجو بوتو** . وقد نجح فى تصوير مجتمعه والأخطار المحدقة به . ففى روايته : ((**يسوع يومبا الفقير**)) تناول موضوع ارساليات التبشير ، ونقد فكرتها نقداً عنيفا ، رغم أنه تعلم فى احداها . وفى روايته الأخرى : ((**رسالة مكتملة**)) عالج موضوع التقاليد القديمة واصطدامها بالأفكار والمعتقدات الحديثة .

وفى الكميرون أيضا جيل كامل من الكتاب ، يقف على رأسه ــ الى جوار مونجو بوتو ــ كتاب شبان آخرون من أمثال فرديناند أيونو وبنيامين ماتيب . كما نجد فى السنغال عبد الله سادجى وعثمان سمبين . وفى نيجريا **آموس توتولا وشنوا أشيب** ، وفى الغرب **وليام كونتون** ، **الذى آثار اعجاب الدوائر الأدبيــة الانجليزية بروايته الأخيرة : ((الأفريقى)) ، التى نقدمها لك فى هذا العدد .**

وفى المسرح أيضا نجد حركة ناشئة نشطة ، لكنها لا تعادل حركة القصة والرواية ..

غير أن أهم مشكلة تواجه الكتاب الافريقيين الآن ، هى مشكلة استخدام اللغات الوطنية فى التعبير الأدبى ، بدلا من الانجليزية أو الفرنسية ..

ان نمو النشاط الأدبى المكتوب وازدياده ، فيما وراء الصحراء الكبرى ، يؤكد ايمان هذا الجزء الضخم من القارة

بالكلمة المكتوبة - وضرورتها فى معركة التحرر التى تخوضها اقطار كثيرة فى الوسط والجنوب ، **كما يؤكد وحدة الوسائل والغايات بين الشمال والجنوب ، بين الشمال المتحضر والجنوب الذى شرع فى الأخذ بأسباب الحضارة والمدنية .**

رائعة الأدب التركى المعاصر

صدرت عن دار كولينز وهارفيل ترجمة لرواية : «صقرى محمد » ، للروائى التركى المعاصر **ياشار كمال** . فى ٣٥١ صفحة ، وقد قام بترجمتها الى الانجليزية ادوارد روديتى ، الذى عاش فترة من حياته فى تركيا .

وياشار هو أكبر روائى تركى معاصر . وقد نال جائزة الدولة للأدب فى بلاده على روايته هذه ، التى بيع منها ــ منذ ظهورها فى عام ١٩٥٨ الى الآن ــ أكثر من ٢٥ ألف نسخة ، رغم أن معدل الامية فى تركيا يصل الى ٩٨٪ كما يقول معلق « التايمز » الأدبى !

ورواية : صقرى محمد ــ وهى الرواية الاولى له ــ تدور أحداثها فى قرية تركية صغيرة ، حيث تعيش أرملة فقيرة مع ابنها الوحيد محمد . .

وينشأ الفتى فى جو قاس ، تزيده حدة سطوة اقطاعى ، يسيطر على القرية وخمس أخرى من القرى المجاورة . . ولا يلبث محمد أن يضيق بالحياة فى القرية ، فيفر منها وقد ازداد بغضا للأغا الاقطاعى . **(فى تركيا يطلقون لقب أغا على كل رجل ثرى)** لكنه يصمم ــ فى الوقت نفسه ــ على الانتقام من الأغا ، وتحرير الفلاحين من سطوته . .

غير أن البوليس يشرع فى مطاردته ، ولا يلبث أن يقع فى قبضته . لكنه ينجح ذات ليلة فى الفرار ، وبصحبته محبوبته هاتشيه ، التى كان ابن عم الأغا قد خطبها الى نفسه . .

وتستمر المطاردة ، الى أن ينجح البوليس فى القبض على هاتشيه . فيزج بها فى السجن .. ويضطر محمد الى الانضمام لعصابه من قطاع الطرق ، فيجد فيهم رفقاء طيبين .. وتذيع شهرته ، ويغدو مثل روبين هود فى العصور الوسطى . فهو لا يقتل أو يسلب لمجرد اشباع رغبة فى نفسه ، وانما هو يسلك سبيلا . رأى أنها من الممكن أن تخلص الفلاحين المساكين من العبودية والسخرة .

غير أنه يفشل فى قتل الأغا ، ثم ينجح بعد ذلك فى تخليص هاتشيه بمعاونة القرويين المعجبين ببطولته وشجاعته .

ويعود محمد بهاتشيه ، فيعيش معها فى مغارة سرية بأحد الجبال . لكن البوليس لا يكف عن مطاردته ، الى أن ينجح أخيرا فى قتل هاتشيه ..

ويجد محمد نفسه وحيدا بلا حبيب ، سوى طفل صغير كان قد رزق به من هاتشيه . ويعود مرة أخرى الى حياة العصابات ، وقد تملكته رغبة عارمة فى قتل الأغا بأى ثمن .

وفى النهاية ينجح فى الانتقام من الطاغية العجوز ، فيصفو الجو فى القرية ، ويتنفس الفلاحون الصعداء .

ان محمد نمط انسانى خارق : يضحك وقت الشدة ، ويصوب الرصاص على ثقب الابرة ، فلا يعجز عن اصابته . لكنه أيضا على شيء من الحكمة والفلسفة . ومن هذا نجد أن المؤلف قد قصد ، بتصويره لشخصية محمد ، أن يعكس روح تركيا الجديدة ، التى تكافح الاقطاع والتقاليد العقيمة الموروثة .

ولعل من أسباب ذيوع هذه الرواية ، واهتمام الدوائر الأدبية فى انجلترا بها ، هو هذه المشاهد العديدة ، الحافلة بصور الشخصيات الشعبية والجو الشعبى الخالص ، الذى يفوح فى كل صفحة من صفحاتها ..

رسالة نيويورك

يقدمها : على شلش

العبقرية الرقيقة التى أنجبتها الهند

سانتا راما رو فنانة هندية . تشتغل بالصحافة والتأليف الروائى والمسرحى .، ولدت بمدينة مدراس . وكان أبوها يعمل فى السلك السياسى الهندى . فأتاح لها ذلك زيارة عدد من اقطار اوربا وأمريكا وافريقيا والاقامه فيها ، مما ساعدها على تنمية مواهبها الأدبية والفنية .

وفى سن الشباب التقت «سانتارما» بشاعر بلادها العظيم رابندرا نات تاجور ـ وكان فى أواخر حياته آنذاك ـ فأعجبت به . وتعلقت بأدبه وفنه : واستطاعت ان تدرس شخصيته عن قرب ، فكان لها ـ من هذا وذاك ـ نصيب لا بأس به من معرفة قدره. واقتدار طيب على التعريف به . انسانا وفنانا .

وفى هذا الشهر الذى احتفل فيه العالم أجمع بالذكرى المئوية لميلاد شاعر الانسانية ، عهدت مجلة ((لايف)) الامريكية الى مواطنته سانتا راما بكتابة تحقيق شامل عن حياته وأدبه :صدرته بهذا العنوان الذى جعلناه على رأس الكلام .

وقد رأيت ـ استكمالا لما قدمناه فى الصفحات الماضية من حديث عن حياة تاجور وادبه ـ أن ننقل ، هنا ، أهم ماجاء بهذا التحقيق الجاد الطريف من آراء وزوايا جديدة ، تجلو ما قدمناه : وتضيف اليه :

• **منذ** نحو ١٣٠ عاما سافر الى أوربا ثرى هندى من اثرياء البنغال . وكانت ترافقه حاشية مؤلفة من ٣٠ شخصا من الأصدقاء والخدم والطهاة ..

وزار الرجل انجلترا ، وحل ضيفا على الملكة فيكتوريا . ثم تابع رحلته الى فرنسا ، حيث استضافه الملك لويس

فيليب .. ومن طريف ما يروى عنه ــ فى رحلتــه تلك ــ أنه كان يهوى الشمبانيا : ويفضلها على ما عداها من شراب . ومن ثم كانت تعبأ خصيصا له ! .. **كان الرجل يدعى الأمير دواركا نات ، ومع ذلك خلف بعد وفاته دينا يقدر بنحو ١٠ ملبون روبية !**

• **وجاء** ابنه دبندرانات من بعده ، فلقب بالمهارشى (أى القديس) لانه كان بسيطا فى حياته ، زاهدا ..

وقد قام دبندرانات بتسديد ديون أبيه.. الأمير المسرف . واتبع فى ذلك خطة لم يحد عنها : خلاصتها التقشف والامتناع من الملذات والكماليات ..

وأنجب دبندرانات ولده الرابع عشر ــ وهو اصغر اولاده ــ رابندرانات منذ ..١ سنة .

• **وهكذا** نشأ رابندرانات تاجور فى أسرة متقشفة بسيطة .. وقد كتب عن ذلك يقول :

« كنا نرتدى أبســط الملابس وارقها . وقــد مضى علينا حين من الدهر قبل أن نشرع فى ارتداء الجوارب . وكان من الكماليات ، بالنســبة لنا ، أن تحتوى جراياتنــا من الطعام على رغيف من الخبز وقطعة من الزبد ملفوفة فى ورقة موز !»

على أن أسرة تاجور لم تكن ــ مع هذا ــ لتضن على افرادها بالرعاية . اذ كان يقوم على خدمة الاولاد وتربيتهم عدد كبير من الخدم والمعلمين . وكان يختلف الى دارهم الموسيقيون الجائلون من حين لآخر ، فيقيمون بالدار أياما ، ثم يرحلون .

يقول تاجور مصورا علاقته بأحد هؤلاء الموسيقيين :

« اعتدت فى الفجر أن أنزع عنه ناموسيته ، لأرغمه على أن يغنى لى » ..

وكثيرا ما كان أطفال الدار ـ بما فيهم تاجور ـ يلعبون بالدمى، ويمثلون أدوارا ساذجة ، يقتبسونها من المسرحيات . لكنهم كانوا ممنوعين من اجتياز البوابة الحديدية الكبيرة التى تنتصب أمام فناء الدار ..

• **نظم** تاجور الشعر فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على وجه التقريب . **وأطلع أبوه على شعره ، فأعجب به ، ومنحه ـ عند ذاك ـ مكافأة قدرها ٥٠٠ روبية .**

وفى عامه الثانى والعشرين أصدر أول ديوان شعرى جدى بعنوان : « أغانى الصباح » .. وفى ذات السنة تزوج من فتاة فى الثانية عشرة من عمرها ..

وهو لم يكن من الشعراء الذين يمتنع عنهم شيطان الشعر اذا امتنعوا ـ بدورهم ـ عن تهيئة الجو له . فقد كان يكتب الشعر وينظمه فى أى وقت ، وفى أى مكان ، بلا قيد أو شرط . يقول أنيل تشاندار الذى رافقه سنوات طويلة :

« لقد شاهدته يكتب أعظم القصائد ، وهو جالس فى استراحة محطة قطار ! »

وقد كان الشعر والموسيقى يشكلان لديه شيئا مرنا ، قابلا للتحسين والتغيير . ولم يكن يهمه فى ذلك أن يكون العمل قد طبع أو نشر أم لا . لدرجة أن سكرتيره قد احتج عليه يوما بقوله :

« لكنك لا تستطيع أن تغير تلك القصيدة .. ان آلافا من تلاميذ المدارس قد حفظوها عن ظهر قلب ! » . فأجابه تاجور ـ باحتداد ـ قائلا : **« ومن علمهم أن الشعر شكل ميت جاف ؟ ! »** .

• **تذكر** ابنته الكبرى أنه كان يحب **الشيكولاتة والموز** ، وانه كان يستيقظ مبكرا فى الفجر ، فيتناول افطاره المكون من اللبن المحفوظ والخبز ، وأنه كان يحب الاطفال حبا جما فلا يسرى الضيق الى نفسه اذا ما تجمعوا حوله ـ كما كان يحدث فى الغالب ـ وحالوا بينه وبين الحركة .

• **كان** عليه ذات مرة أن يقوم برحلة الى كالكوتا .. وتمت ترتيبات السفر ، وجىء بالتذاكر ، واستعدت الحاشية لركوب القطار ، فاذا بتاجور يلاحظ ـ فى طريقه الى المحطة ـ أن الشمس تبدو مشرقة بديعة على غير العادة . وعند ذلك تساءل فجأة : « لماذا ترغموننى على السفر الى كالكوتا ؟ » **ثم أصر على العودة الى شانتينكيتان ، لكى يتأمل الشمس فى هدوء !**

• **كان** يحتقر المال ، وينفق كل ما ملكته يداه .

• **ألف** كتابا فى الطبيعيات فى سن الخامسة والسبعين .

• **لم** يدخن قط .

• **يجد** الزائر لمتحف تاجور الملحق بشانتيكيتان ، كل ما خلفه الشاعر العظيم : صوره ، رسومه ، آخر ما خطه قلمه من رسائل ، الكتب التى تلقاها من «**البرت شفايتزر**» ، النعلين اللذين كان يستخدمهما فى آخر أيامه ، المدالية الذهبية لجائزة نوبل ، مكتبه ، قلمه .. و .. وأشياء أخرى لا حصر لها ، توحى للزائر ـ فى النهاية ـ بأن صاحبها قد استمتع بحياته غاية الاستمتاع !

من الكتب العربية

شجرة الحضارة

عرض وتعليق بقلم : ثروت أباظة

كتاب جليل لعالم أمريكى معروف هو الدكتور ((**رالف لنتون**)) ، نقله الى العربية **الدكتور أحمد فخرى** . وقد قال المترجم فى مقدمته انه لو شاء أن يختار عنوانا آخر غير شجرة الحضارة لاختار «قصة الانسان منذ فجر ماقبل الحضارة» . واعتقد ان هذا العنوان يعطى فكرة واضحة عن هذا الكتاب الكبير .

وقد تناول الكاتب البحوث مستقصيا الحضارات العالمية الكبرى فسار مع الانسان حتى أصبح مجتمعا ، ثم ألقى أضواءه على الحضارات فى مختلف منابتها : كما دار المؤلف بانحاء العالم ، لم يفلت من بين يديه خيط كان لا بد له أن يتقصاه ، ولم يغفل ظاهرة انسانية كان لها أدنى أثر فى تطور حياة الانسان . ولا عجب فالمؤلف توج حياته الطويلة فى خدمة العلم بهذا الكتاب العظيم . فهذا الكتاب وليد خبرة أربعين عاما قضاها الدكتور لنتون فى دراسة الانتروبولوجية ـ « علم وصف الانسان » ـ « والأثنولوجيا » (علم الآثار وعلم أصول السلالات البشرية) . وقد بسط المؤلف علمه الذى توافر له على مدى هذه السنين الطويلة ، ولم يكتف بهذا بل مد نظره الدقيق العالم الى ما كتبه العلماء الآخرون ، ثم ألقى بعد ذلك بنظرته الخاصة حول ما تناوله من موضوعات ، وهى نظرة عمقها المراس الطويل والدربة البارعة على الاستاذية والصدق .

والكتاب يقع فى أجزاء ثلاثة من القطع الكبير ، ويتراوح

عدد صفحات كل جزء بين الثلاثمائة والخمسمائة . فالاحاطة به فى هذه العجالة أمر عسير . ولكنى اعتقد أنه يعنينا خاصة من بين فصوله الكثيرة فصلان :

الفصل الأول عن **الحضارة المصرية** ، والثانى عن **الحضارة الاسلامية** . وقد كانت مؤسسة فرانكلين موفقة غاية التوفيق أن توسع لفضيلة الأستاذ الشيخ « محمد محمد المدنى » أستاذ الشريعة الاسلامية أن يعقب على ما جاء فى الكتاب عن الحضارة الاسلامية. فالذى لاشك فيه أن المراجع الاسلامية التى أتيحت للدكتور المؤلف غير كافية . وهذا امر يؤسفنا غاية الأسف لقصور المجال فيه ، فان تقارب الثقافات بيننا وبين العالم كان يحتم على القائمين على شؤون التاريخ أن يكثروا من ترجمة المؤلفات الاسلامية حتى يجد أمثال هؤلاء العلماء من المراجع ما يهىء لهم الطريق الواضح يسيرون فى هديه الى الطريق الصحيح .

ونعود الى كتاب الحضارة وهذين الفصلين اللذين رأيت انهما يتصلان بنا أكثر من غيرهما من فصول الكتاب . فنجد ان المؤلف لم يراع الترتيب الزمنى للحضارات . بل اننى فى الواقع لم أتبين الترتيب الذى نهج عليه فى ذكر الحضارات . فهو قد ذكر الحضارة الاسلامية فى الفصل السابع والعشرين الواقع فى آخر الجزء الثانى من الكتاب بينما تناول الحضارة المصرية فى الفصل التاسع والعشرين الذى يقع فى الصفحات الأولى من الجزء الثالث . وأجدنى مضطرا أن اخالف المؤلف فى هذا الترتيب ..

الحضارة المصرية القديمة

كان المؤلف مشرفا من مرتفع على الحضارات ؛ فهو يبدأ حديثه عن الحضارة المصرية بقوله بعدمقدمة قصيرة : « فلقد اقترض الاغريق جيران مصر الآسيويون من حضارتها — دون

تحفظ أو خجل – الشيء الكثير . ولكنهم أخذوا ما استطاعوا رؤيته دون أن يكبدوا أنفسهم مشقة فهمه . وبالرغم من أن الحضارة المصرية قد استمدت جذورها من نفس المصدر الذى استمدت منه حضارات جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى (وهى الحضارات التى كانت الأصل الذى تفرعت منه حضارات أورآسيا) ، فان الحضارة المصرية اتخذت فى تطورها سبيلا خاصا بها ، يشعر به الدارس الحديث كما شعر به من قبل الكتاب الكلاسيكيون الذين استطاعوا أن يلاحظوا المصريين فى حياتهم اليومية. **وقد ذكر ((هيرودوت)) أن المصريين من أغرب المخلوقات البشرية ، وأنهم كانوا يفعلون عكس ما يفعله الناس ، وأنهم ذهبوا فى ذلك الى أنهم كانوا يدخلون المنازل لقضاء الحاجة بدلا من أن يستخدموا الشارع لهذا الغرض كما يفعل المتحضرون ، أى الاغريق !!**

وبهذه اللمحة الهينة ينصف المؤلف المصريين من التقليد ؛ ثم هو فى ذكره لما أورده هيرودوت ، يبين كيف كان المصريون سباقين فى الحضارة وفى شعورهم بانسانيتهم . والمؤلف لا تفوته السخرية من هذه المقارنة التى عقدها هيرودوت بين المصريين وبين من كان يظنهم هيرودوت متحضرين !

وفى مكان آخر من الحديث عن الحضارة المصرية يصف المؤلف وادى النيل فيقول أن الخمسمائة الميل الأولى من وادى النيل ليست الا أخدودا لا يزيد اتساعه عن اثنى عشر ميلا ، أما فى المائة والخمسة والسبعين من الاميال التالية ، فان الوادى يصبح شبيها بمروحة منشورة تتخللها المستنقعات ويسير فيها النهر بطيئا فى فروع متعددة . وتتبخر مياه الفيضان بسرعة ، وبالرغم من أن الوثائق المصرية القديمة قد ذكرت سقوط بعض الأمطار من آن لآخر فى مناطق لا تسقط فيها الأمطار فى الوقت الحاضر ، فان

الزراعة لا يمكن مزاولتها دون تنظيم للري . وقد قامت في مصر قبل فجر التاريخ الحكومات التي استطاعت تنظيم العمل الجماعي اللازم لحفر القنوات وبناء السدود ، والتي كانت تملك الحق في تسوية المنازعات التي لا يمكن تفاديها حول حقوق الماء .

ويمضي المؤلف في تناول **العادات المصرية** في افاضة وصدق حتى يصل الى هذه المنطقة التي حار فيها المؤرخون جميعا : كيف استطاعت مصر أن تبلغ ذلك المدى المذهل من التقدم ؟ ويعترف المؤرخ الكبير بعجزه هو أيضا عن أن يدرك ذلك السر الكبير ، فنجده يقول : « وتميزت الفترة التي أعقبت توحيد شطري مصر مباشرة بالتقدم الحضاري السريع . اذ أن مصر كانت ما بين عام ٣٢٠٠ وعام ٢٥٦٠ ق . م . مركزاً لاحدى القفزات الحضارية التي ما زالت معرفة أسبابها من المشاكل الرئيسية التي تواجه الباحثين في تطور الحضارات » .

ويتناول المؤلف بتفصيل دقيق هذه الفقرة الحضارية التي حققتها مصر . ويقع هذا الفصل فيما يقرب من أربعين صفحة ، أراها مغنية كل الغناء لمن يريد أن يتبين هذه العلامة الكبرى من علامات الحضارة في تاريخ العالم .

الحضارة الاسلامية

ونتنقل بعد ذلك الى الاسلام ... قد قدم المؤلف للحديث عن الاسلام بحديث عن العالم الذي ظهرت فيه الرسالة . والواقع أن المؤلف تناول البحث من الناحية العلمية الخالصة ، فاذا قدرنا قصور المراجع التي استطاع أن يرجع اليها ، الى جانب المراجع المغرضة التي هاجم بها الاسلام أعداؤه في اللغات الأجنبية . واذا قدرنا أيضا أن الناحية العاطفية لم تكن ذات شأن في البحث ـ بل لعل العاطفة ان تدخلت كانت في الناحية المضادة للاسلام ! ـ اذا قدرنا هذا

جميما استطعنا ان نقول في انصاف ان الرجل لم يتجن فيما قال، او انه على الأقل لم يقصد الى التجنى . بل لقد كان فى حديثه عن النبى « عليه الصلاة والسلام » يحيطه بكثير من التوفير العفيف ، البعيد عن الحقد .

فهو يقول عن نزول الوحى : « فعندما بلغ الاربعين من عمره بدأ يحس بعدم الرضا عن حياته الهادئة الرضية ، وكان يذهب الى كهف خارج مكة ليتفرغ للتأمل . وجاءه الوحى فى صورة أحلام وأصبح مقتنعاً أن الله قد اختاره ليكون وسيلة لهداية الناس » .

واعتقد ان هذا الأسلوب يعتبر غاية فى النزاهة من رجل لا يؤمن بالدين الحنيف .

وانني حين قرأت تعليقات فضيلة الشيخ محمد المدنى وجدت أغلبها يصحح وقائع تاريخية ، أو يبين مواضعات اجتماعية عربية لم يستطع المؤلف أن يتبينها فى المراجع الهزيلة التى بين يديه . والواقع أننى لم أجد بين التعليقات ما يمس العقيدة الا رد فضيلة الشيخ المدنى على المؤلف فى النص رقم ١٨ . وقد قال المؤلف فى هذا النص : « وبالرغم من أن محمداً لم يعش طويلا ليضع حداً نهائيا لكل ما استجد من مشاكل - فانه وضع أسس عقيدة ونظام قانونى . أتمهما من جاءوا بعده . . . الخ . »

وقد أجاب الشيخ المدنى على ذلك بأن العقائد هى الحقائق الايمانية التى لا يكون المسلم مسلما الا بها ، كاعتقاد وحدانية الله ونبوة محمد والبعث والدار الآخرة . ورأى فضيلة الأستاذ أن هذه العقائد لا اختلاف فيها ولا يستطيع أحد أن يكملها . ثم تناول فى بحث مفصل الخلافات التى نشبت بعد وفاة الرسول (صلعم) وفرق بينها وبين هذه العقائد . ورأى أن المؤلف لم تقم فى ذهنه الفروق الواضحة بين العقيدة

الايمانية وبين الاحكام الأخرى التى اختلف حولها الفقهاء . ولعل الدارس للقانون يستطيع أن يدرك هذا الفارق مما عرفة عن الأحكام الآمرة التى لا سبيل الى تناولها بغير الطاعة ، وبين الأحكام المفسرة التى وضعت لتسهيل المعاملات ، والتى يستطيع المتعاملون أن يأخذوا بها أو يتفقوا على غيرها .

وعلى أى حال فقد وقف المترجم موقفا جليلا من هذا الفصل عن الحضارة الاسلامية ، فكان يسعف القارىء بالرأى الاسلامى فى هامش الصفحة فى تفصيل يدل على الايمان العميق والدراسة الوافية .

ولا شك أن الدكتور أحمد فخرى قد وفق فى هذا العمل الضخم من ترجمة الكتاب والتعليق عليه ، وهو توفيق لا ينتظر غيره من أستاذ جليل له ما للدكتور أحمد فخرى من علم وماض وتفهم .

كما أعتقد أن مؤسسة فرانكلين قد وفقت فى اختيار هذا الكتاب للترجمة فهو يفتح آفاقا من التاريخ لا غنى عنها للمثقفين .

ولا أريد أن اختتم هذا المقال قبل ان أعود باللائمة مرة اخرى على جميع الجهات الاسلامية التى لم تهتم بترجمة المؤلفات الاسلامية العربية الى اللغات الاجنبية ، حتى تتيح لأمثال هؤلاء المؤرخين ولغيرهم من الباحثين أن يجدوا من المراجع ما يجعلنا نصب اللوم عليهم أن أخطأوا . فاننا الآن لا نملك حين نقرأ عن ديننا ومجتمعنا الاسلامى معلومات خاطئة فى كتبهم ، **لا نملك** الا أن تقول لهم « كان الله لكم فانتم لا تعلمون . والجرم جرمنا نحن فى انكم لا تعلمون » .

رجال "أرامكو"



تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التى تؤخذ من المنـاطق التى تحتوى على الزيت داخــل الارض هامة جدا . وتظهر هــذه المعلومات الحـالات التى بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت فى باطن الارض .

والسيد عبد الرحمن سليمان العجاجي هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الالات ومعــرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر فى الصورة .

وقد التحق السيد عبد الرحمن فى شركة ارامكو فى عام ١٩٤٨ ، فعمل فى فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم فى مراكز فرز الغـاز من الزيت حتى أصبح مشغلا أعلى خارج الورشة . وفى اوائل هذا العام عاد الى العمل فأصبح مشرفا بقياسات الحـــرارة والضغط .

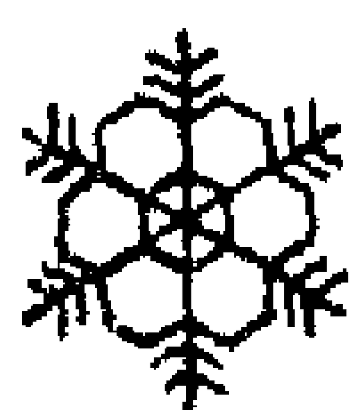
وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين فى بلدة ظرما فى نجد . وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها فى مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعـلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هــذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن أخيرا الى الولايات المتحـــدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على أعمال تسجيل الحرارة والضغط فى حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة فى هذا الباب .

أرامكو : شركة الزيت العربية الأمريكية

الظهران - المملكة العربية السعودية

ايديال ثلاجة ٩ قدم





ثلاجة العمر



كتابى يحتفل بذكرى "تاجور"

يحتفل العالم هذه الأيام بذكرى مرور مائة عام على مولد أديب الهند الكبير "رابندرانات تاجور"، الذى أذاع صيت الهند الحديثة فى أربعة أركان الأرض خلال نصف القرن الأخير - مثله مثل "غاندى" سواء بسواء !- وتوجت مواهبه بمنحه جائزة نوبل فى الأدب، وهى الجائزة العالمية التى تكلل هامة حاملها بأكاليل الغار .

وقد كان "تاجور" فنانا واسع الأفق متعدد الجوانب ، فهو لم يكن أديبا ، وشاعرا، فحسب - يكتب القصة ، والمسرحية ، والحكمة المأثورة ، وينظم الشعر - وإنما جمع إلى جانب ذلك دراية وإنتاجًا رفيعا فى كل من فنون : الرسم ، والموسيقى ، وغيرها . .

ويسر (كتابى) ، بهذه المناسبة، أن يشارك الدولة الصديقة - الهند - كما يشارك العالم بأسره ، احتفالاته بذكرى "تاجور" فيقدم لك فى هذا العدد سيرة حياته الحافلة ، وباقة من أروع نماذج إنتاجه الأدبى . . إلى جانب باقة منوعة من نماذج الآداب الاسيوية والافريقية الأخرى .

فتعال نستمتع معًا بقراءتها ، ونتذوق روعتها . .

يصدرها
حلمى مراد

الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية



١٢ ق

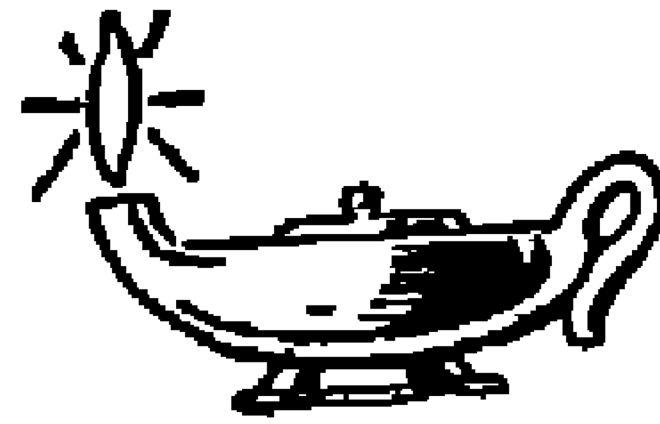
امرأة تصفف شعرها !

ـــة للرسام الاندونيسي "بازوكا عبد الله"

كتابك

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد



الكتاب الرابع والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الإدارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها أربعة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها سبعة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة
• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .
ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .
• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

عزيزي القارئ ..

بينما كانت آلات الطباعة تجرى ؛ لتقدم لك هذا العدد ؛ فوجئت القومية العربية ـ لا الجمهورية العربية المتحدة وحدها ـ بأحداث الاقليم الشمالي .. الاحداث التي طعنت كل قلب عربي مخلص ..

و **((كتابي))** ، لا يملك أزاء هذه الأحداث التي أذهلت العروبة جمعاء ، سوى أن يردد **أقوال الرئيس جمال عبد الناصر** ، الذي كان صموده وموقفه الثابت ، الجرىء ، مصدر النور الهادى في هذه الظلمات العاصفة :

((قد تنتكس الثورات ، والانتفاضات ، وحركات التحرير .. ولكن الشعوب الحية لا يمكن أن تموت ..

((وستظل جمهوريتنا ـ دائما ـ قلعة للقومية العربية ، وسندا للحرية العربية ..))

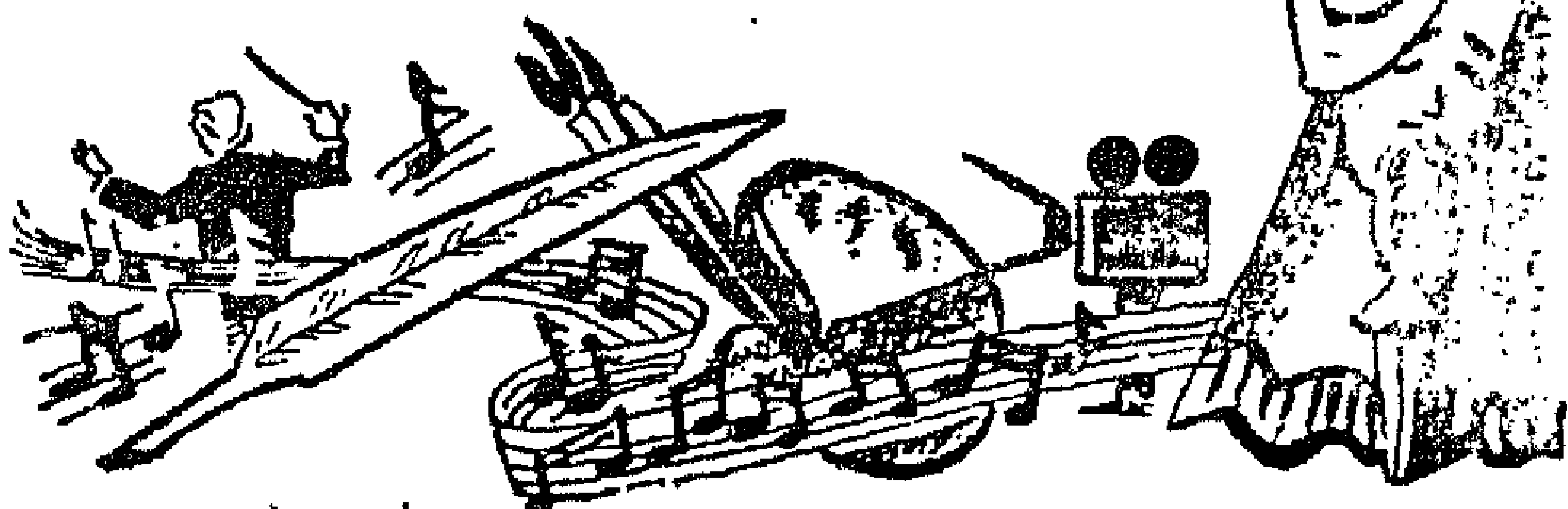
ونحن نؤكد للعالم ، ما أكده السيد الرئيس في أيمان قوى ، وعزيمة ثابتة .. من أننا اليوم، اذ نواجه لحظات حاسمة في تاريخ الوطن العربي والامة العربية ، أشد تمسكا بعروبتنا وبرسالتنا ، وبمبادئنا ، منا في أى وقت آخر ..

والله يوفقنا .. والله معنا .

أسرة ((كتابي))



قراءات ومشاهدات



عزيزى القارىء :

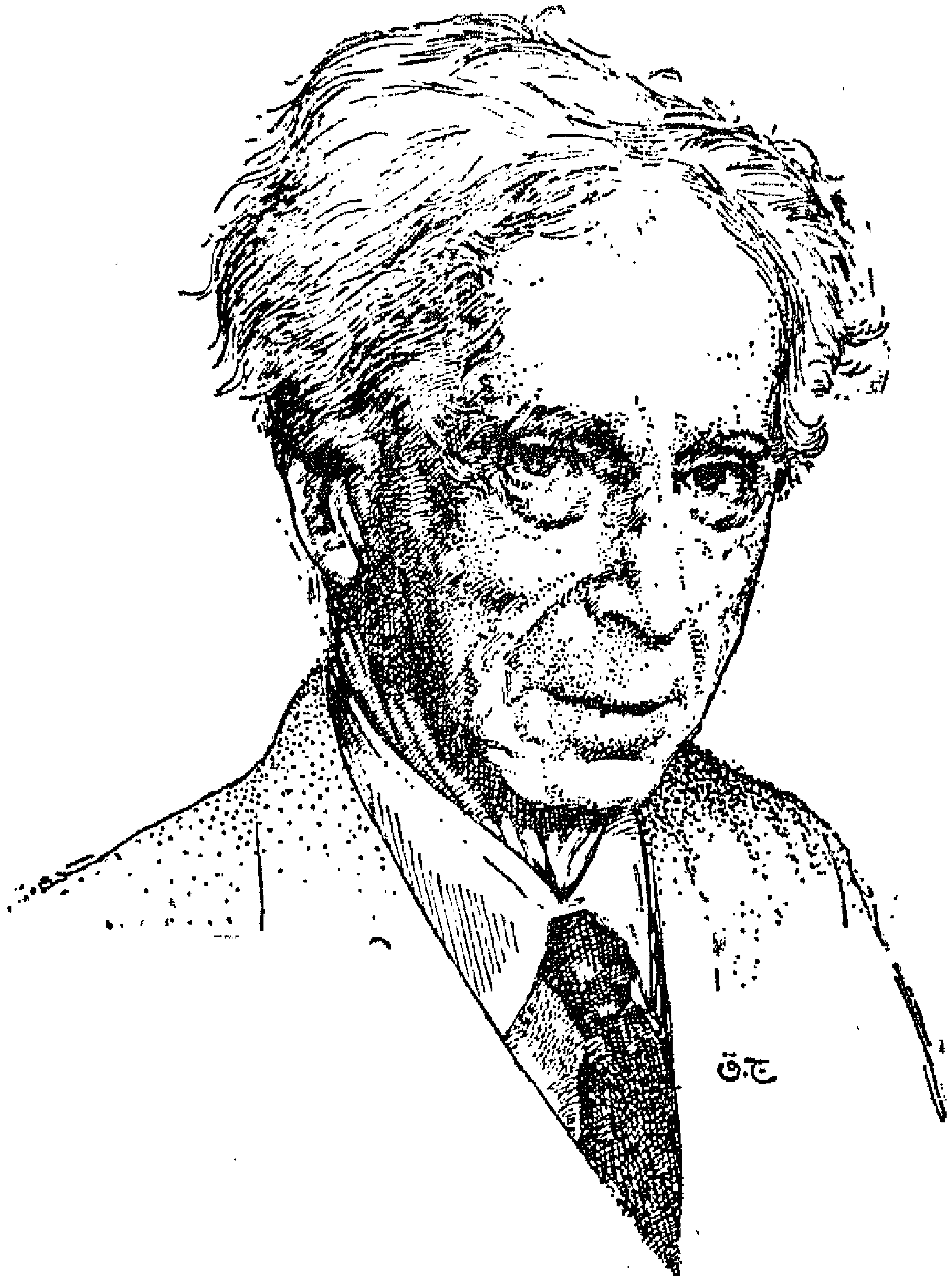
ضجتان شغلتا الرأى العام فى انجلترا عن الأحداث الدولية : حبس « لورد » برتراند رسل .. واختفاء لوحة لدوق ولنجتون ، من رسم الفنان الاسبانى الخالد الذكر « فرانشيسكو جويا » ..

والحادثان يستحقان أن نقف عند كل منهما قليلا ..

رسل .. عبقرية علمية وأدبية

• **وليست** هذه اول مرة يحبس فيها « برتراند رسل » ، فقد سبق ان سجن ـ عقب الحرب العالمية الاولى ـ لأنه انتقد قانون التجنيد .. فقد نشأ منذ صغره يكره الحروب .. وسجن ـ فى هذه المرة ـ لأنه دعا الى لون من العصيان المدنى ، احتجاجا على سباق التسلح الذرى ..

وبرتراند رسل ـ واسمه الكامل « برتراند آرثر وليم رسل » ، من مواليد سنة ١٨٧٢ . وقد درس فى كلية « ترينيتى » بجامعة « كمبريدج » . واذا كان النوابغ قد اعتادوا ان يكشفوا فى صغرهم عن اتجاه الى احد فرعين من المعرفة : العلوم الرياضية والعلوم الادبية ، **فان « برتراند » امتاز بنبوغ فى الفرعين معا ، فكان ـ أثناء دراسته فى « ترينيتى » ـ دائم الفوز بالجوائز الأولى فى الرياضيات والأدبيات معا ،** حتى انه أختير ـ فى سنة ١٩٠٨ ـ «زميلا» فى الجمعية الملكية للعلوم .. بينما كان قد أصدر فى سنة ١٨٩٦ ـ وهو بعد فى الرابعة والعشرين من عمره ـ كتابا فى « الاشتراكية الديموقراطية الالمانية » ..



برتراند رسل .. اللورد
الذى لم يرهب السجن فى سبيل عدائه للحرب

وهكذا مضى فى حياته ، يوزع جهوده وعبقريته بين المواد العلمية ، والبحوث الرياضية ، والدراسات الاجتماعية والسياسية .. فبين مؤلفاته : ((**معرفتنا بالعالم الخارجى ، كميدان للاسلوب العلمى فى الفلسفة**)) ــ وقد اصدره فى سنة ١٩١٤ ــ و ((**مبادىء اعادة الانشاء الاجتماعى**)) ــ فى سنة ١٩١٧ ــ و ((**طرق الحرية**)) ــ سنة ١٩١٨ ــ و ((**نظرية البلشفية وممارستها**)) ــ سنة ١٩٢٠ ــ و ((**الف باء الذرة**)) ــ سنة ١٩٢٣ ــ و ((**ألف باء النسبية**)) ــ سنة ١٩٢٥ ــ و ((**الزواج والاخلاق**)) ، سنة ١٩٢٩ ..

يعمل صحفيا .. فى الخيال !

• **ولعل** سر كراهية ((رسل)) للحرب ، يرجع الى خوفه على العلوم والثقافة والحرية .. فهو يقول : ((**من الممكن أن يصبح العلم نعمة ، اذا امكن الغاء الحرب ، وصون الديموقراطية والحرية الثقافية .. فاذا لم يتسن هذا ، فان العلم سيقذف شرورا أعظم من كل ما خبره الجنس البشرى**)) ..

وقد امتاز ((رسل)) ببعد نظر عجيب .. وقد عثرت لك بين اوراقى القديمة ، على مقال طريف نشره ((رسل)) فى مجلة ((ليدر)) ــ اى الزعيم ــ فى سنة ١٩٤٩ ..

وفى سنة ١٩٤٩ ، لم يكن الموقف بين الاتحاد السوفييتى والغرب يختلف كثيرا عما هو الآن ، **اللهم الا فى ان مريكا كانت تحتكر اسرار الطاقة الذرية ــ والاسلحة الذرية ــ اذ ذاك .**

وفى هذا المقال ، تصور ((رسل)) انه عمل صحفيا حرا ــ أى لا يمثل صحيفة معينة ــ وانه استطاع أن يحظى بلقاء ((ستالين)) .. ثم راح يعرض آراءه فى السياسة الدولية ،

دما توهمه من حديث بينه وبين « رسل » ..

والمقال — اذا ترجم كاملا — يشغل صفحات عديدة . لذلك سأكتفي هنا بأن أختار لك فقرات منه :

الحرب القادمة نكبة للجميع

• « هناك مسألة أساسية واحدة ، اوقن من ان كل العاقلين ، فى جميع الدول ، يتفقون عليها .. تلك هى أن حربا عالمية ثالثة ، يحارب فيها شطر من العالم — بقيادة روسيا — فريقا آخر تقوده امريكا ، **لا يمكن أن تكون سوى نكبة مدمرة للانسانية ، ونحس ماحق .. لا للمنهزم وحده ، بل للمنتصر كذلك** . وانى لأعلم ان فى الغرب بعض متهورين يفكرون على عكس هذا ، وما من شك فى أن فى روسيا عددا من صنفهم . ولكنى أعرف أن كل سياسى مسئول فى الغرب ، يرغب فى تفادى الحرب ، ولست اشك — ياسيدى — فى أنك من نفس الرأى . فهل ترانى أصبت ؟

« وانا واثق من أن ستالين سيهز رأسه ، ولكن من المحتمل أن يقول **أن تصرفات الغرب المثيرة جعلته يشك فيما اذا كانت الرغبة فى السلام صادقة فى الغرب ، كما هى لدى الحكومة السوفييتية** . ولكن ، اذا كان السلام رغبة الغرب حقا ، فليس من العسير الوصول الى تسويات للمسائل العديدة التى يدور حولها النزاع .

«واذ ذاك سأقول اننى قد جسست نبض ذوى النفوذ فى امريكا وانجلترا ، وقدحصلت علىعين الاجابة التى ادليت لى بها ، كلمة بكلمة تقريبا . فقد قيل لىهناك — كذلك — انه وان كان منالجلى أن الحرب خراب لاسبيل الى تصوره ، فان **أعمال الاثارة في الشرق ، جعلت من المشكوك فيه — لدى**

الرأى العام الغربى ـ ما اذا كان الشرق راغبا حقا فى ان يتفادى حربا عالمية . أما أنا ، فانى مقتنع بالرغبة فى السلام لدى الشرق والغرب على السواء ، ولكن الشك المتبادل هو وحده الذى يجعل هذه الرغبة غير ذات مفعول . وطالما ظل هذا الشك المتبادل ، فان كل جانب خليق بأن يتخذ اجراءات دفاعية ـ فى رأيه ـ ولكنها فى رأى الجانب الآخر تبدو كاستعدادات للهجوم . **ولما كان كل امرىء يعرف أن الهجوم هو خير دفاع ، فان من المحتمل أن تؤدى استعدادات الدفاع الى هجوم .**

« فماذا تكون الخطوة الاولى ، اذا اريد تحطيم هذه العقدة ؟

ميثاق التعهد بالسلام

. « **أننى** اذ افترض ان الرغبة فى السلام حقيقية لدى الفريقين ، أرى أن الخطوة الاولى هى المجاهرة ببيان مشترك ، يؤكد هذه النقطة التى لاجدال فيها . ولست اعنى بالبيان صيغة جليلة جوفاء ، من تلك الصيغ التى تنسب فيها الدول الى نفسها درجة من الفضل لاسبيل الى تصديقها . **أنما أعنى بيانا مفصلا .. بيانا يثبت ـ بمحتوياته ـ صدقه واخلاصه** . والذى أتمثله بيان تصدره جميع حكومات الدول الاعضاء فى الامم المتحدة ، وتقول فيه :

« **اننا** ـ اذ فحصنا وتدارسنا نتائج الحرب الحديثة ـ نوافق على ان اية حرب عالمية ثالثة ، مهما تكن نتيجتها ، وسواء انتهت بانتصار للشرق ، أو بانتصار للغرب ، أو بتعادل .. ستنطوى ـ لا محالة ـ على الشرور التالية .. »

وبعد تعديد النتائج الضارة ، يمضى البيان :

((**هذه الشرور تفوق فى ضخامتها واهميتها كل موضوعات النزاع . ثم فلن يكون من مصلحة اية دولة كبرى أن تلجا الى الحرب ، لحسم هذه الموضوعات))** .

الخوف المتبادل نتيجة الشك

• ((**فاذا** أفترضنا نجاح هذا البيان ، وجب أن تكون الخطوة الثانية ، هى السعى الى تهدئة مؤقتة فى كافة النواحى التى بلغ فيها خطر الاصطدام أقصى احتدامه .

((والعقبة الاساسية ، ليست مما يسهل التفاوض بشأنها ، وهى أن **كلا من الفريقين يخاف أن يهاجمه الآخر** . وللتخفيف من هذا الخوف ، لابد - أولا - من تخفيف الشك المتبادل القصير الاجل ، حتى اذا تحقق جو موات ، وجب بحث اجراءات يتفق عليها لجعل اى هجوم لفاجىء أكثر صعوبة ، أن لم يكن مستحيلا ..

((وخير طريقة لتخفيف الخوف من القوات المسلحة الروسية فى أوربا ، هى **السماح بقيام المانيا كدولة قوية ، محايدة ، قادرة على أن تقاوم الغزو ، سواء كان من الشرق أو من الغرب** .. وخير طريقة لتخفيف خوف روسيا من القنبلة الذرية ، **هو تدويل موارد الطاقة الذرية** .. فطالما أن امريكا تحتفظ بالسبق فى صناعة القنابل الذرية ، فان روسيا تحظى بفائدة هائلة ، اذا أبدل الاحتكار الامريكى الحالى ، بسيطرة دولية ..

صعب كتمان الاسرار فى وقت السلم

• ((**وساستطرد** قائلا : اننى أعرف أنكم ترون فى وجود تفتيش دولى - عند التدويل صناعة الطاقة الذرية - خطرا يمكن من ترونهم أعداء لكم من ان يعرفوا أسراركم الحربية

.. ولن أسفه من هذا الخوف ، ولكنى أتناول حجج الجانب الآخر ، التى يبدو أن الحكومة السوفيتية لم تستبنها جيدا . **وفى الاعتبار الأول** : أن المختصين السوفييت سيعرفون أسرار الغرب الحربية ، وهذا يعادل اطلاع أمريكا على الاسرار الحربية السوفييتية .. **وفى الاعتبار الثانى** أن من الصعب كتمان الاسرار فى وقت السلم ، ولعل الامريكيين يعرفون عما يرغب الروس فى كتمانه أكثر مما يظن الروس .. **وفى الاعتبار الثالث** : ان كل سلطة يعتد بها فى الغرب ، مقتنعة بأن قيام سباق للتسلح الذرى ، سيكون شرا .. **وهذا هو مادعا الحكومة الامريكيـة الى أن تعرض النزول عن احتكارها الحالى لهيئة دولية .. »**

لوحة مسروقة تخفف وطأة الحوادث الدولية

• **اما** « جويا » ـ صاحب اللوحة التى سرقت من المتحف البريطانى ـ فله حديث آخر ، ستقرأه فى كتاب « الماجا العارية » ، الذى نلخصه لك تلخيصا وافيا ـ فى حوالى ٥٠ صفحة ـ **ابتداء من صفحة (٩٩) من هذا العدد**

ولكنى هنا سأحدثك عن اللوحة ذاتها .. اللوحة التى اشتراها المتحف بمبلغ مائة وأربعين ألف جنيه استرلينى .. ولقد وصف بعض المعلقين سرقة اللوحة بأنها : **« حادث سعيد خفف من ضغط الحوادث والتطورات السياسية والدولية ، فصل شديد الكآبة والوطأة بطبيعته » !**

ولم يكن فى حديث هؤلاء المعلقين مبالغة ما ، فالواقع أن

الصحف البريطانية كلها ـ وتبعتها صحف العالم ـ أنقضت على هذا الحادث ، كشيء مثير من الدرجة الأولى .

علمه الفرنسيون كيف يحاربهم

• **وكانت** اللوحة تمثل « دوق ولنجتون » الأول .. وقد كان من كبار رجال الحكم والحرب ـ في انجلترا ـ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، والنصف الأول من القرن التاسع عشر .. وكان من اطرف المتناقضات في حياته ، انه ـ بعد أن أتم دراسته في (ايتون) ـ **درس الفنون العسكرية في مدرسة حربية فرنسية .. ثم برز أول ما برز في ميدان الحرب ، في معركة ضد فرنسا** ، اشترك فيها في سنة ١٧٩٣ .. وعنده من العمر ست وعشرون سنة !

ثم خدم في الهند ، وشترك في عدة معارك هناك ، أبدى فيها من البلاء والبراعة العسكرية ، ما جعله يرقى الى مرتبة « ميجر جنرال » ، في سنة ١٨٠٢ ، اى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره !..ثم عاد الى انجلترا بعد ثلاث سنوات ، ليحمل لقب «ايرل» . ودخل البرلمان في العام التالى ، وبعد ان تقلب في بعض المناصب ، أوفد الى البرتغال ، على راس قوة لتعزيز مقاومة هذه البلاد للاحتلال الفرنسى ، وتمردها على نابليون ..

ومن سخريات القدر أن البرتغال اليوم من أشد دول الاستعمار المغرورة تمسكا بمستعمراتها .. كما يتجلى في موقفها من (انجولا) ! !

واستطاع « ولينجتون » ان يطرد الفرنسيين من البرتغال .. ثم استطاع أن يطردهم من اسبانيا .. وكانت هذه بداية مجده ، وسبب فوزه بلقب « الدوق » .

وفي سنة ١٨١٤ ، اوفد الى باريس سفيرا لبلاده .. ثم


اللوحة المسروقة !

تولى — فى العام التالى مباشرة — قيادة جيوش الدول المتحالفة ضد نابليون .. وهزمه فى معركة (ووترلو) المشهورة . ثم احتل باريس !

يرسم نقوشا لصناعة السجاد

◆ **وبالرغم من** أن كتاب «الماجا العارية» يروى شطرا كبيرا من قصة « جويا » ، الا أنه لا يحوى كل سيرته .. لذلك أرى أن الخصها لك فى سطور قلائل :

ولد «**لوسياناس فرانشيسكو جوزيه دا جويا** » فى سنة ١٧٤٦ .. وبعد أن درس أعمال كبار الفنانين الاسبان فى عصره ، رحل الى (روما) ، حيث قضى عدة سنوات ، ثم عاد الى (ساراجوسا) — فى سنة ١٧٧١ — حيث قام برسم لوحات لتزيين جدران كنيسة عذراء (ديل بيلار) .. وعاش معظم عمره — بعد ذلك — فى مدريد ، حيث توفر ، فيما بين سنتى ١٧٧٥ و ١٧٩٠ ، على رسم مناظر تخطيطية لتنقل نسجا على السجاجيد والابسطة التي كانت تصنع فى (سانتا باربارا) ..

وفى تلك الفترة ، رسم كذلك بعض الرسوم العجيبة التى اشتهر بها ، ولوحات لنبلاء الطبقة الارستقراطية الاسبانية ، امتازت بعمق تحليله لشخصيات أصحاب هذه اللوحات ..

على أن أشهر انتاجه — فى هذه الفترة — هما لوحتنا

« الماجا » .. وأحداهما عارية ، والأخرى مكتسية .. وهما الآن فى متحف أكاديمية سان فيرناندو ، بمدريد .

وتقد إثارت « الماجا العارية » ضجة ، فى ذلك العهد ، اذ لم تكن الصور العارية مألوفة ، بل كانت التقاليد تعتبرها لونا من الخلاعة والتبذل ..

ومما زاد الضجة شدة ، أن اللوحة كانت تمثل احدى النبيلات ، وهى دوقة الب .. على أن بعض المؤرخين يقولون ان الدوقة لم تستلق أمام «جويا» لتكون النموزج الحى الذى ينقل عنه ، وانما استخدم الفنان أحدى فتيات « الماجا » ، فرسم جسدها عاريا ، **ثم رسم وجه الدوقة فوق ذلك الجسد ، أوجرت ريشته بمعالم الوجه ، كما كانت عادته منذ أحب الدوقة ..**

ولا يستبعد هذا ، اذا راعينا أن « جويا » كان سامى الحس والذوق ، بعيدا عن التبذل .. وانه أحب دوقة البا حبا صادقا ـ كما ستقرأ فى الكتاب الملخص فى هذا العدد ـ ومن ثم فقد كان جديرا بأن يربأ بالدوقة أن تستلقى أمامه عارية ليرسمها ..

وفى سنة ١٧٨٥ ، أصبح مديرا لأكاديمية الفنون ، والرسام الاول لبلاط الملك شارل الرابع .

عشرون ولدا .. ماتوا فى حياته !

• **على أن** « جويا » برز ـ بوجه خاص ـ فى رسم « الكاريكاتور » ، والرسم الهزلية ، و « الأسكتشات » .. وفى المتحف البريطانى بلندن ، و «اللوفر» بباريس ، مجموعة كبيرة من مخلفاته فى هذه الميادين .

وقد خدع « جويا » ـ فى البداية ـ بما كان لمبادىء الثورة الفرنسية من رنين طنان ، حتى أنه عارض مقاومة القوات

الفرنسية ، عندما غزت اسبانيا ، ظنا منه انها ستحرر المستضعفين — من مواطنيه — من فساد الحكم الملكي ، ومن طغيان الارستقراطية .. **ولكنه ما لبث أن تبين أنه انما كان حالما ، فانضم الى المتمردين على الحكم الفرنسي ..**

وعقب تحرر اسبانيا ، عاد « جويا » الى حياته الماضية .. وتقول بعض الروايات أن نضاله مع الاحرار ، الان قلب زوجته ، فعادت اليه — بعد الخصام الطويل الذى ستجده فى قصة « الماجا العارية » — واستأنفا حياتهما الزوجية ، وانجبا .. عشرين طفلا !

وكأنما كان الاسى على موعد مع « جويا » ، اذ مات اطفاله العشرون قبل وفاته هو .

وقد أصيب فى اواخر حياته بالصمم ، وعاش المرحلة الأخيرة من عمره ، فى مستعمرة اللاجئين الاسبانيين فى (بوردو) .. لا رفيق له سوى العزلة ، والريشة الساخرة التى لا تكف عن نقد الأوضاع الفاسدة ..

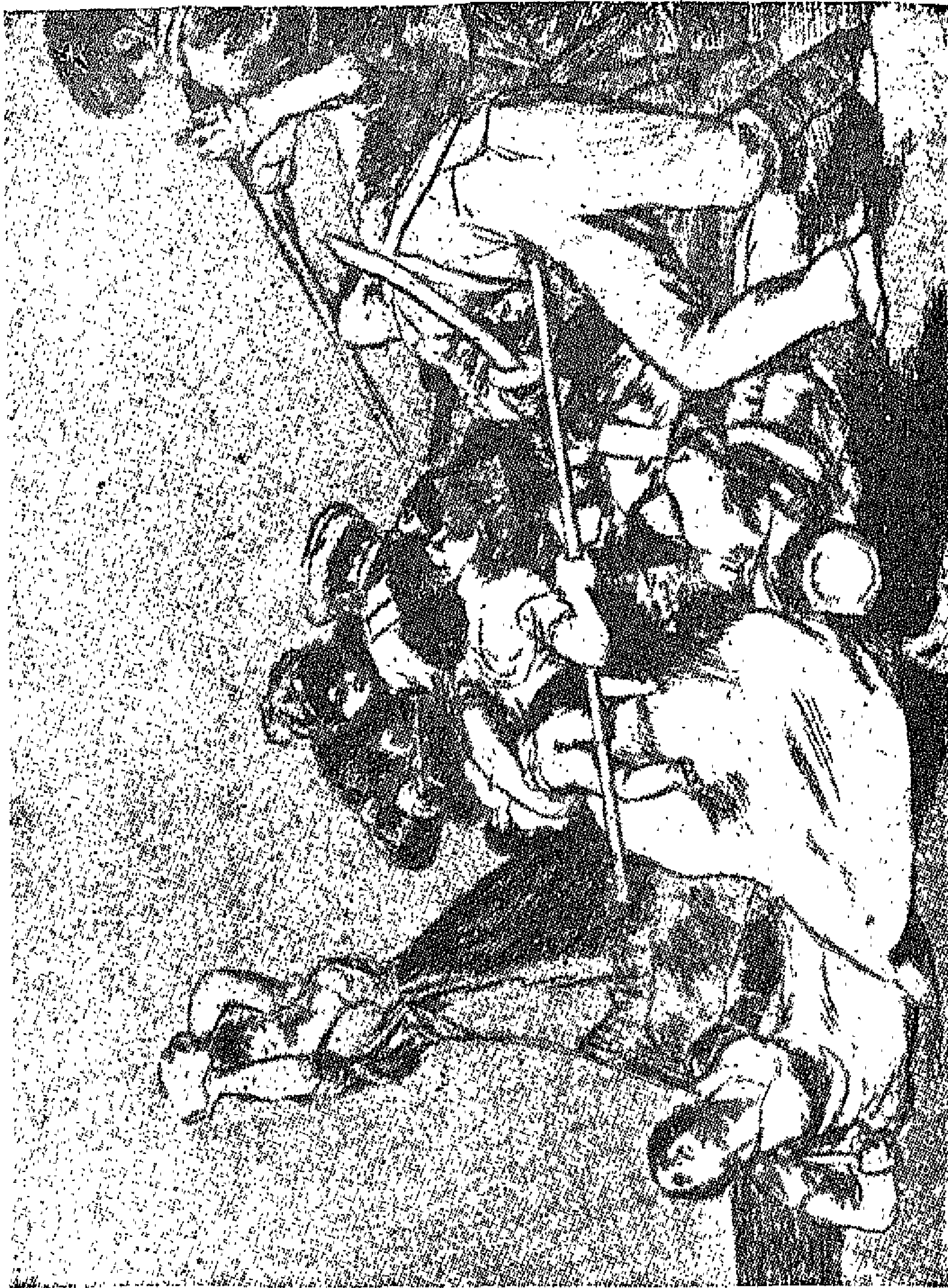
سلسلة من السرقات الدولية

● **ولقد** أختفت اللوحة — التى سرقت أخيرا — فى ليل يوم الاثنين ٢١ اغسطس .. فى عين الوقت — تقريبا — الذى سرق فيه « فنشينزو بيروجيا » لوحة « موناليزا » — من متحف اللوفر — ليردها الى ايطاليا ، منذ .. خمسين سنة ! .. فهل تراها كانت مصادفة ؟ ! .. لقد كان الامر من الغرابة بحيث أن البعض ظنوا — فى البداية — أن بعض المازحين أنما سرقوا لوحة « دوق ولينجتون » ، لمجرد أحياء ذكرى سرقة لوحة « مونا ليزا » !

ولكن الامر لم يكن مزاحا . فالواقع أن سرقة هذه اللوحة ،

. . . .

الى اليسار : تحفة لجويا منقوشة على الخشب



تمت بعد سلسلة من السرقات الدولية للتحف الفنية .
ولما كان من شبه المستحيل بيع لوحة كهذه ــ لاسيما بعد الضجة التى اثارتها سرقتها ــ فان المرجح أن السارق من عشاق الفن ، وقد دفعه جنون الهواية الى أن يستأثر باللوحة .. غير أن بعض ملابسات أحاطت بالحادث ، تجعل من العسير الركون الى هذا التعليل كأمر قاطع .. من ذلك أن ادارة الامن ــ فى لندن ــ تلقت رسالة من مجهول ، يعد فيها باعادة اللوحة الى مكانها ، اذا قدمت الدولة بضعة آلاف من الجنيهات لبعض الجهود التى تبذل للحيلولة دون حرب ذرية .. ومن ذلك ما قيل من أن شركة التأمين التى كان مؤمنا على اللوحة لديها ــ وهى شركة فرنسية ــ استطاعت أن تتصل بالسارقين فهم أكثر من واحد ، وان تصل معهم الى اتفاق مبدئى .

يتفرجون على .. الفراغ الذى خلفته اللوحة !

• **ومن** الطريف ، ان كثيرا من الناس ترددوا على المتحف البريطانى ــ بعد السرقة ــ **ليتأملوا مكان اللوحة وقد خلا منها .**

وهذه اللوحة واحدة من ثلاث لوحات اخذت عن رسم للدوق ولينجتون فى حياته ، عقب معركة (سالا ماتكا) ، احدى معاركه الفاصلة لطرد الفرنسيين من اسبانيا .. واللوحة المسروقة تمثل قسمات وجه ولينجتون وملامحه .. وهناك لوحة أخرى ، فى أمريكا .. أما اللوحة الثالثة ، فتمثله على صهوة جواد ، وهى الآن فى معرض (ابسلى هاوس) الفنى بانجلترا .. أما الصورة الأصلية ، التى نقلت عنها معالم اللوحات الثلاث ، فتوجد الآن بقسم الطباعة بالمتحف البريطانى .





قصة غانيتين

خدعة بخدعة .. والبادى أظلم !

درجت مجلتنا «كتابى» و «والمطبوعات» - منذ صدورهما - على تقديم ألوان متعددة من الفن والفكر الانسانيين . ومن الملاحظ أن معظم هذا الانتاج من تأليف كتاب وأدباء معروفين ، غير أن هنالك نوعا آخر من الأدب الذى لا ينتمى لمؤلف معروف ، وانما تحمله الشفاه وتتناقله من جيل لجيل ، ذلك هو الأدب الشعبى .

وفى الشهر الماضى عثرت لك على كتاب طريف يتضمن مجموعة كبيرة من الأساطير الهندية القديمة التى تعد ركنا أساسيا فى الأدب الشعبى الهندى . وهى مأخوذة من مجموعة بعنوان « محيطات من أنهار الغرام الأعظم » .

والأسطورة - التى انتقيتها لك هذا الشهر - من هذه المجموعة ، تصور حياة فئة معينة من نساء الهند ، هى فئة المحظيات التى كانت تمثل قطاعا لا يقل اهمية عن فئة الزوجات المحصنات .. لقد كانت الفتاة الهندية تظل رهينة المنزل حتى يتقدم اليها من يطلب الزواج منها ؛ ومن ثم كانت لا تحصل على قدر كبير من التعليم ، وتنحصر معلوماتها واهتماماتها فى شئون منزلها . أما اذا رغب الشاب الهندى فى أن يمارس المتعتين ، الثقافية والحسية معا ، فكان عليه أن يتجه الى المحظية ، التى كانت تودع - منذ ولادتها - فى أحد المعابد الوثنية ؛ حيث تتعلم فنون الموسيقى والرقص والغناء والتمثيل ..

وهكذا لعبت فئة المحظيات دورا كبيرا فى المجتمع الثقافى والتعليمى فى الهند ، كما فعلت زميلات لهن فى بلدان أخرى ، مثل فتيات (الجيشا) فى اليابان ، وعاهرات أثينا القدامى !

والآن نتركك مع « قصة غانيتين » التى تعالج جانبا من

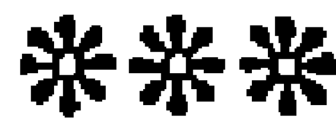
يحكى انه كان يقيم فى مدينة كبيرة من مدن الهند ، غنية بالثروات ، تدعى (سيتراكيتو) ، تاجر ثرى اسمه « رتنا ماكرا » . وكان قد من عليه الاله « سيفا » بابن ذكر ، أطلق عليه اسم « ا بسفاراماان » تيمنا به .

ولما رأى التاجر الكبير أن ابنه قد انتهى من دراسته واقترب من طور الرجولة ، قال فى نفسه : « لقد صور الاله مخلوقا واحدا ، تتجسد فيه الرذيلة بأجلى معانيها ، **يسلب اموال الشبان الاثرياء الذين تعميهم فحولتهم** ، هذا المخلوق هو « المحظية » .. لذلك يحسن بى أن أودع ابنى لدى احداهن ، حتى يشب وقد تعلم كل حيلهن وألاعيبهن ، ويكتسب مناعة تحميه من الوقوع فى شباكهن ! »

وفى اليوم التالى ، اصطحب التاجر ابنه « اسفارا » الى منزل وسيطة تدعى « يلما جيهفا » ، أى (لسان الموت) .. وكانت مكتنزة الوجنتين ، بارزة الأسنان ، فطساء الأنف .. فلما قادته الخادمة الى الداخل ، وجد الوسيطة منهمكة فى تلقين ابنتها اسرار مهنتها قائلة : « يجب أن تدركى ، يا ابنتى ، أن كل شىء فى الوجود ــ سيما المحظية ــ له سعر يباع به ويشترى . لذلك وجب على الغانية أن تحذر من الوقوع فى شراك الحب . ذلك أن العاطفة تشبه الفسق ، **فكما أن غروب الشمس يعلن اقتراب الليل ، كذلك سقوط الغانية فى شباك الحب يعد نذيرا بزوال مجدها !** .. وكما أن الممثلة القديرة تتظاهر بغير ما تبطن من مشاعر ، فيجب على تاجرة الحب أن تحذو حذوها ! .. فان الحاذقة هى التى تغوى الرجل وتحتلب نقوده ، حتى اذا ما جردته تماما من كل ما يملك ، نبذته نبذ النواة . اما اذا عاد واثرى من جديد ، رحبت به وفتحت له ذراعيها ! .. انها تشبه الناسك المتعبد الذى ينزل الحدث والشاب والعجوز فى مرتبة واحدة ،

وهى أيضا ينبغى ان تتسلح بنفس النظرة ، **فسيان لديها ان كان الرجل جميل الطلعة أو دميم الخلقة !** .. وبذلك تحصل على أسمى الفوائد وأجلها ! »

وتقدم « راتنافارمان » الى الوسيطة ، التى ما أن لمحته حتى نهضت واقفة واستقبلته بكل مظاهر الاجلال والاحترام . فجلس التاجر الى جوارها ، ثم قال : « لقد جئت أطلب اليك أن تعلمى ابنى شتى فنون المحظيات وحيلهن ، حتى يصير خبيرا ذا دراية .. وسوف أجزيك مقابل هذا بألف قطعة من الفضة » .. وفى الحال رحبت المرأة بعرضه ، فدفع لها « راتنافارمان » المبلغ ، وأودع ابنه رعايتها ..



وتابع « ايسفارا » دراسته فى منزل « ياماجيهفا » لمدة سنة كاملة ، عاد بعدها الى منزل أبيه وقد ناهز السادسة عشرة . فما أن ابصر أباه حتى انطلق قائلا : « ان النقود تجلب الحب والاحترام .. النقود مصدر الشرف .. النقود سر الشهرة ! » .. واذ سر والده من نتيجة دراسته ، نفحه ثروة تقدر بخمسين مليونا من القطع الذهبية !

وأخذ الابن النقود ، وانضم الى احدى القوافل الراحلة الى (سومطرة) ، حتى وصل الى مدينة تدعى (مدينة الذهب) ، حيث حط رحاله ونصب خيامه فى غابة صغيرة خارج المدينة . وبعد أن استدعى احد المدلكين لتدليك جسده ، دخل المدينة ، ثم قصد الى أحد المعابد ليشاهد احدى المسرحيات التى تعرض هناك .. وما لبث أن وقع نظره على فتاة كانت تؤدى رقصة عنيفة ، **فبدت له وكأنها موجة صاخبة من موجات الجمال وقد عصفت بها رياح من الرشاقة !** .. وامتلأ ذهنه بصورتها الخلابة ، حتى لقد تبخرت من عقله كل تعاليم الوسيطة ونصائحها !

فلما فرغت الراقصة من أداء رقصتها ، أوفد اليها «ايسفارا» رسولا يحمل اليها عرض سيده بقضاء ليلة معها . فقبلت العرض على الفور ، بانحناءة من رأسها ، وهى تقول : **« لى الشرف .. لى الشرف ! »**

وانطلق « ايسفارا » ليوافى الراقصة « سونداری » فی دارها . وهناك استقبلته أم الفتاة بكل مظاهر المودة والحفاوة التى عرف بها منزلها ! .. وفى المساء ، قادته سونداری الى غرفة نومها ، حيث أعد فراش وثير ، ذاق فوقه « ايسفارا » - بين أحضان الغانية اللعوب - من ملذات الغرام ما أطاش صوابه ، **فقد اظهرت له الفتاة مهارة فى فنون العشق ، تضارع مهارتها فى الرقص والغناء !**

وفى اليوم التالى ، وجد الشاب مشقة بالغة فى انتزاع نفسه من بين ذراعيها ، فقد تشبثت بالبقاء الى جواره ، وتعلقت به ، كما لو كانت قد عشقته عشقا مبرحا !.. وأراد الشاب أن يقدم لها مليونين من القطع الذهبية ، مقابل اليومين اللذين قضاهما فى فراشها ! .. غير انها رفضت باباء وشمم ثم قالت : « ما حاجتى الى المال ؟ .. اننى أملك ثروة طائلة .. الا اننى لم التق برجل مثلك من قبل .. فما قيمة الذهب ، ما دمت أنت معى ؟ ! »

وبينما كانت « سونداری » تتظاهر بالعزوف من قبول ذهبه ، اذا بأمها - التى لم تنجب سواها - تقول لها على مسمعه : « ان كل ما نمتلكه قد أصبح الآن ملكه أيضا .. **فما ضرك لو اضفت ذهبه فوق ذهبنا** ، ليكون الكل تحت تصرفه ؟ ! » .. وهكذا سقط ابن التاجر الثرى فى شراك فتنة « سونداری » وروعة اغانيها ورقصاتها ، فقضى الى جوارها شهرين ، أنفق عليها خلالهما عشرين مليون قطعة ذهبية !

وذات يوم ، جاءه صديق يدعى « أرثاداتا » ، واختلى به ثم قال : « امن المعقول يا صديقي ان يذهب سدى ذلك المجهود الجبار ، الذى بذلته فى تلقى تعاليم الوسيطة ؟ .. هذا فى الوقت الذى انت أشد ما تكون فيه حاجة اليها ! **واأسفاه ! .. ما أشبهك بالفارس الجبان الذى تخذله فروسيته فى ساعة الخطر** .. انك تؤمن أن مشاعر الداعرة نحوك صادقة ؛ **فهل السراب فى الصحراء حقيقى ؟** .. لنغادر — اذن — هذا المكان قبل أن ينفد ما تبقى لديك من نقود . ان والدك سوف يستشيط غضبا ، ولن يغفر لك مسلكك ، لو بلغه ما حدث ! »

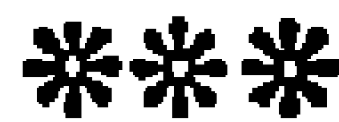
فأجاب ايسفارا قائلا : « انك على حق يا صديقى ، فليس يجدر بالمرء ان يثق ببنات الهوى . الا أن سونداري تختلف عن قريناتها .. انها تخلص لى الحب ، **بل انها على استعداد لأن تنتحر لو غبت عن نظرها دقيقة واحدة !** .. فاذا كنت ترى الا مناص لى من الرحيل ، فعليك أنت أن تقوم بابلاغها الأمر ! »

وتوجها فورا الى « سونداري » وأمها « ماكاراكاتى » ، فقال لهما « أرثاداتا » : « أننا نؤمن بأنكما تحبان « ايسفارا » حبا لا مثيل له .. غير أن الوقت قد حان له ليتابع رحلته الى سومطرة ، كى يكتسب ثروة طائلة ، حتى اذا ماتحقق له ذلك ، عاد من فوره ليعيش معكما الى الأبد ، فى سعادة وهناء ! »

واخذت « سونداري » تحملق فى وجه « ايسفارا » ، وقد ترقرقت الدموع فى عينيها ، ثم قالت فى رنة أسى ويأس : « الامر لكما .. فمن أكون أنا لأناقش هذا الامر ، أو لأعترض على حكم القدر القاسى الذى فرضه على ؟ ! » .. وعندئذ ، حاولت الأم أن تبث السكينة فى قلب « العاشقة » الصغيرة ،

فقالت : « لاتبتئسى يا بنيتى .. هدئى من روعك ! .. ان صديقك لا محالة عائد اليك .. فاننى على ثقة من انه لن يهجرك . بعد ان يجنى ثروته المنشودة » .. فتمالكت الابنة مشاعرها ، وقد بدا انها اقتنعت بكلام أمها . فلما اختلت الام بابنتها ، أخذتا تنسجان خيوط مؤامرة جديدة للايقاع بالفتى الفر ، فكان ان أعدت الام شبكة ، امرت بوضعها فى قاع بئر خارج المدينة !

وبينما كان قلب «ايسفارا» يتأرجح بين الشك واليقين ، عزفت نفس « سونداوى » عن الطعام والشراب . **غير انها لم تستطع أن تخفى ((هواها)) له و ((شغفها)) به ، من خلال اغانيها ورقصاتها !** .. أما « ايسفارا » فقد حاول من جانبه أن يبث العزاء فى فؤادها « المعذب ! » ، بكل ما وسعه قلبه الساذج من مشاعر واحاسيس !



وبعد ايام قلائل ، وقفت الأم تمنح ايسفارا « بركاتها ».. وهو يتأهب للرحيل ، ثم خرجت مع ابنتها كى تصحباه حتى خارج البلدة .. وبينما الجميع يسيرون فى طريقهم ، كانت الدموع تنهمر بغزارة من عينى الفتاة ! .. فلما وصل الركب الى البئر التى وضعت الأم فيها الشبكة، حياهما «ايسفارا» مودعا ثم طلب منهما ان تعودا الى منزلهما .. غير انه ما ان أولاهما ظهره، حتى انطلق فجأة صراخ الأم والخدم، قائلين : «أواه يا ابنتى ! .. أواه يا سيدتى !» ، فاستدار «ايسفارا» لفوره ليستطلع جلية الأمر ، واذا به يتبين أن محبوبته قد القت بنفسها فى البئر !

واخذت الام تنتحب بحرقة ، وتلطم خدها ، متحسرة على ابنتها التى قضت نحبها فى ربيع شبابها ، شهيدة العشق والغرام ! .. ثم امرت خدمها ، الذين كانوا على علم بالمؤامرة ،

ان ينزلوا فى البئر . فهرعوا لتنفيذ أوامرها ، وأحضروا حبالا طويلة استخدموها فى الهبوط الى القاع .. وبعد قليل سمعهم ايسفارا يهتفون : ((**يا لقدرة الآلهة . لتتبارك الآلهة .. انها تعيش .. انها حية !**)) ، ثم صعدوا بها الى الخارج .

وتظاهرت الفتاة بالموت ، غير انها ما أن سمعت أن عشيقها قدعاد اليها ، حتى ارتدت الحمرة الى وجنتيها الشاحبتين ، وندت عنها صرخة خافتة ثم غابت عن وعيها ! .. وعاد «ايسفارا» بعشيقته وصديقه الى المنزل ، ولم يعد يخالجه ادنى شك فى صدق مشاعر الفتاة ، بل انه قدم للآلهة قرابين الشكر والعرفان بالجميل ، **لأنها اسبغت عليه أعظم نعمة فى الوجود : وهى نعمة الحب الحقيقى المجرد عن الزيف والخداع !!**

***

ولما استقر به المقام فى منزل المرآتين ، قال له صديقه « ارثاداتا » : « ماذا دهاك يا صديقى ؟ .. هل أطاش الحب بعقلك تماما ؟ .. امن المعقول أن تثق ثقة عمياء فى حب فتاة فاجرة مثل «سونداری» ، لمجرد انها قد القت بنفسها فى البئر ؟ .. **يجب أن تعلم ، يا صديقى ، أن حيل الغانيات وخدعهن ، تفوق تصاريف القدر غرابة وغموضا** .. ماذا تراك قائلا لأبيك عندما تفقد بقية ثروتك ؟ .. والى أين تذهب حينئذ ؟ .. غادر هذا المنزل حالا ، اذا كنت ما زلت محتفظا بقواك العقلية ! »

وقضى ابن التاجر شهرا كاملا يقلب الامر على مختلف وجوهه ، مفكرا فى نصيحة صديقه ، مبددا الثلاثين مليونا الباقية من ثروته .. حتى اذا أفلس تماما ، صفعته « ماكاراكاتى » على عنقه ، وطردته شر طردة !

واسرع « ارثاداتا » الى (سيتراكيتو) ، وأخبر « راتنافارمان » ــ شاهبندر التجار ، ووالد ايسفارا ــ بما

حدث لابنه ، فصعق هذا ويمم من فوره شطر منزل الوسيطة « ياماجيهفا » ، التى كان قد عهد بولده اليها . فما ان رآها حتى ابتدرها صائحا : « لقد تقاضيت منى مبلغا كبيرا من المال ، مقابل تلقين ابنى حقائق الحياة .. ولكن ، يبدو انك فشلت فى مهمتك ، طالما أن « ماكاراكاتى » قد استطاعت بسهولة ان تبتز منه كل ثروته » .. وبعد أن هدأت ثائرته قليلا ، قص عليها مغامرة ابنه الخائبه ، فأجابت الوسيطة العجوز قائلة : « أعد أبنك الى ، وسوف القنه الطريقة التى يستطيع بواسطتها ان يسلب كل ثروة المحتالتين وممتلكاتهما » .

وفى اليوم التالى ، بعث راتنافارمان « ارثاداتا » الى ابنه ، حاملا رسالة خاصة يدعو الأب فيها ابنه الى العودة ! .. فانطلق الصديق الى (مدينة الذهب) حيث قابل « ايسفارامان » ، الذى اصبحت حاله تستدر الشفقة والرثاء . فلما سلمه رسالة ابيه ، قال له : « يا صديقى المسكين .. لقد أبيت أن تستمع لنصحى . وهنا قد رأيت ، بعينى رأسك مدى خيانة المرائين ! .. **الا تعلم انه أيسر على المرء أن يعتصر من الرمال زيتا ، من أن يجد عاطفة صادقة فى قلب مومس ؟** .. أو هل غابت عن ذهنك طبيعة الامور ؟ .. ان الرجل لايعد عاقلا ، متزنا ، مستأهلا للاطراء ، الا اذا تجنب السقوط فى براثن المرأة اللعوب ! .. لذلك ، ينبغى عليك أن تبادر بالعودة الى والدك ، كى تضع حدا للغضب الذى يستبد بكيانه ! »

وعاد « ارثاداتا » بالابن الضال الى ابيه . واذ كان « راتنافارمان » يكن لابنه عاطفة عميقة ، فقد غفر له طيشه ورعونته ، واستقبله بترحاب وعطف .. وفى اليوم التالى ، اصطحبه الى منزل الوسيطة ، التى اخذت تستفسر منه عما

وقع له . فقص الفتى عليهما كل ما صادفه من أحداث ، وكيف ضاعت نقوده ، وما فعلته « سونداری » عندما تأكدت من رحيله . . وعند ذلك قالت « یاماجیهفا » : « أن الذنب ذنبي . . لقد غاب عن ذهني ان ألقنه تلك الخدعة . . لقد وضعت « ماكاراكاتي » شبكة فی قاع البئر ، حتى اذا ما القت سونداری بنفسها ، تلقفتها الشبكة ، ونجت من الغرق . . **غير أن لكل داء دواء ، ولم يفت الأوان لمعالجة الأمر** » . . ثم أمرت خادماتها باحضار القرد (آلا) ، الذی كانت قد دربته على القيام بمختلف الحيل !

وبينما كان الجميع يراقبون ما يجرى أمامهم ، أعطت الوسيطة القرد الف قطعة ذهبية ، وأمرته قائلة : « ابتلع . . ابتلع » ، فابتلع القرد المدرب الذهب . ثم قالت له : « اعطه مائة قطعة . .أعطه ستين . .أعطه مائة . . الخ » ، وكان القرد فی كل مرة ، يستخرج العدد المضبوط من القطع الذهبية ، حسب تعليماتها اليه !

واتجهت « یاماجیهفا » بحديثها الى « ایسفارا » ــ بعد أن استعرضت أمام الجميع حيلة القرد ــ فقالت : « خذ معك القرد ، واحمل قدرا من المال يكفى نفقات يوم ، ثم عد الى منزل « سونداری » . وهناك دع القرد يبتلع المال سرا ، ثم احضره أمام الجميع ، واطلب منه أن يعطيك المبلغ . فاذا ما شاهدت « سونداری » القرد يقوم بالخدعة ، **خيل اليها أنه « التعويذة السحرية » ، التی تستجيب للدعوات ،** وعندئذ سوف تحاول أن تساومك عليه بكل ما تمتلك يداها من نقود . . واذ ذاك ، خذ النقود واعط القرد نفقات يومين ، ثم فز من الغنيمة بالاياب ! »



وفى اليوم التالى ، حث « ايسفارا » السعى نحو (مدينة الذهب) ، حاملا معه القرد وعشرين مليونا من الدينارات الذهبية ، أهداها اليه والده . فلما وصل الى المدينة بعث برسول الى « سونداري » معلنا قدومه ، ثم دخل منزلها ، **فاستقبلته بأحضان حارة ، وتعلقت به متشبثة** ، كما رحبت بصديقه « أرثاداتا » !

.. واكد لها « ايسفارا » أن ثروة طائلة قد واتته ، ثم اتجه بحديثه الى صديقه ، على مسمع من اهل المنزل ، فقال : « قم وأحضر القرد (آلا) حالا ! » . فأطاع صديقه ودخل بالقرد الذى كان قد ابتلع ألف قطعة ذهبية ، فامره «ايسفارا» قائلا : « آلا ، يا بنى . . اعطنى ثلاثمائة دينار للطعام والشراب ، ومائة أخرى للبهارات والحلوى ، وقدم للأم « ماكاراكاتى » مائة قطعة ، وللكهنة مائة اخرى . . ثم قدم لسونداري ماتبقى من ألف دينار ! »

ولبى القرد أوامر سيده ولفظ القدر المضبوط من النقود ، حسب ما تلقى من تعليمات . . فلما شاهدت « سونداري » القرد يقذف بالنقود من جوفه ، تشاورت مع أمها ثم قالت : «لابد أن «حجر التمنيات» السحرى قد سكن فى جسد القرد عن طريق السحر ، ما دام قد استطاع أن يقدم ألف دينار فورا **.. فاذا ما تمكنا من اقناع ايسفارا بالتنازل لنا عنه ، تكون كل احلامنا ومشروعاتنا قد تحققت »** . ثم أخذت المرأتان تفكران فى الطريقة التى تحقق لهما بغيتهما .

وفى ذلك المساء ، دعت المرأتان عددا من أصدقاء الشاب وقدمت لهم أرقى أنواع الشراب ، **ثم عرضت عليهم من فنون الرقص ما يفتن الراهب المتنسك !** . . وبعد أن شاهدت « سونداري » الجميع يتمايلون من النشوة والطرب ، تقدمت نحو «ايسفارا» وأخذت تتوسل اليه فى دلال ، قائلة :

ــ اذا كنت تحبنى حقا ، فاعطنى القرد !

فضحك « ايسفارا » وقال :

ــ ليس هذا فى استطاعتى .. انه كل ما تبقى من ثروة أبى ، وليس من اللائق أن أفرط فيه لأحد !

ــ سوف اعطيك ، مقابله ، خمسين مليون قطعة ذهبية !

غير أن « ايسفارا » أصر على الرفض قائلا :

ــ حتى لو منحتينى كل ثروتك ، وأضفت اليها كل مافى المدينه من كنوز ، فلن استطيع أن أهديك اياها .. **فما نفع بضعة ملايين من القطع الذهبية الى جوار هذا « الكنز » الذى لا ينضب !**

ــ اننى أعرض عليك كل ما أملك .. فقط اعطنى القرد ، فان أبى سوف تغضب كثيرا لو فشلت فى الحصول عليه !

ثم ألقت بنفسها عند قدميه .

واذ ذاك ، اخذت جموع الحاضرين ، بما فيهم صديقه « ارثاداتا » ، تتوسل اليه أن يستجيب لطلبها ! .. واخيرا ، رضخ « ايسفارا » لرجائهم ووافق على أن يبيعها القرد .. **وفى تلك الليلة ، قضى «ايسفارا» ساعات لاتنسى ، بين أحضان** الفاتنة « سوندازى » ، التى كانت تغبط نفسها على فوزها بتلك الصفقة الرابحة !

***

وفى اليوم التالى ، رحل « ايسفارا » عن المنزل ، فى طريقه الى (سومطرة) ليتابع تجارته ، بعد أن أطعم القرد ، سرا ، ألفى قطعة ذهبية ، وسلمة الى الفتاة . وحمل معه ــ عند الرحيل ــ كل ما كانت تملكه من ثروة وممتلكات !

وقام القرد بمهمته خير قيام ، فأمدهما خلال اليومين الأولين بألف قطعة ذهبية يوميا ، مما بعث الغبطة والانشراح

فى قلبى الفاتنتين .. غير أن القرد عجز ، فى اليوم الثالث ، عن المضى فى مهمته ، رغم استخدامهما جميع وسائل الترغيب والتدليل .. وأخيراً استشاطت « سونداري » غضباً ، فصفعت وجه القرد (آلا) بقبضة يدها . وعندئذ ثارت ثائرة القرد ، فقفز فوق المرأتين ، وأعمل أسنانه وأظافره فى وجهيهما ، فأسال منهما الدماء .. ولم تلبث الأم أن انهالت عليه لطماً وركلا حتى قضى نحبه .

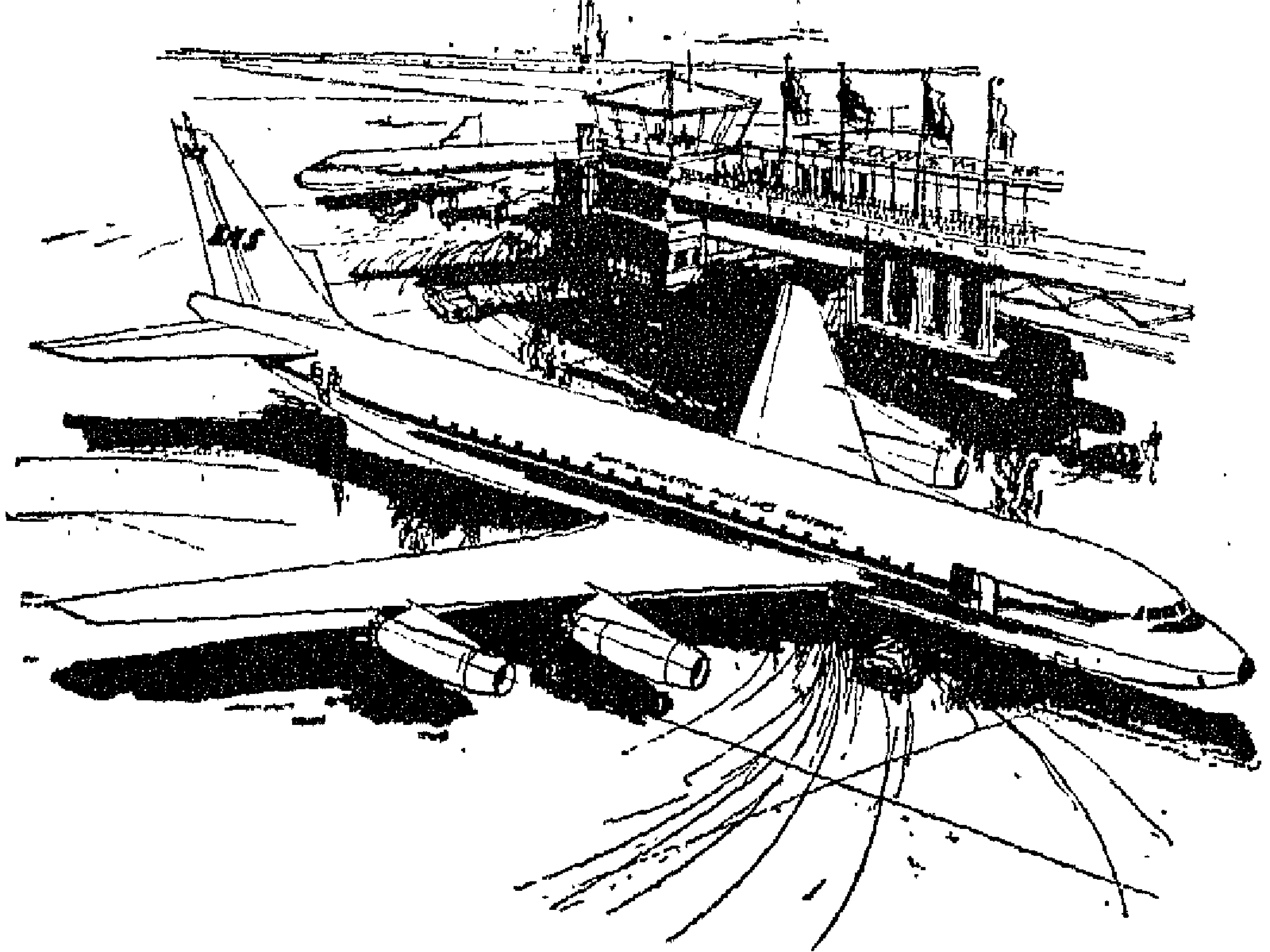
فلما رأت المرأتان أن القرد قد مات ، وأن جميع آمالهما قد ذهبت أدراج الرياح ، أوشكتا أن تنتحرا . وانتشرت القصة فى أرجاء المدينة ، فأخذ الناس يتندرون عليهما قائلين :

ـ لقد سلبت ((ماكاراكاتى)) نقود ابن التاجر عن طريق شبكة ، غير أنه استرد ماله عن طريق قرد مدرب !

***

وانقضت فترة من الزمن ، عاد « ايسفارا » بعدها من رحلته الى (سومطرة) ، حيث أقبل على منزل أبيه بعد أن أضاف الى ثروته ثروة أخرى ، وقد شفى الى الابد ، من كل عاطفة يمكن أن تترعرع فى قلبه نحو الفاتنات ، وما لبث أن اتخذ لنفسه زوجة ، عاش معها فى ثبات وثبات ، وأنجبا بنينا وبنات ! !

الولايات المتحدة الأمريكية بطائرات DC-8

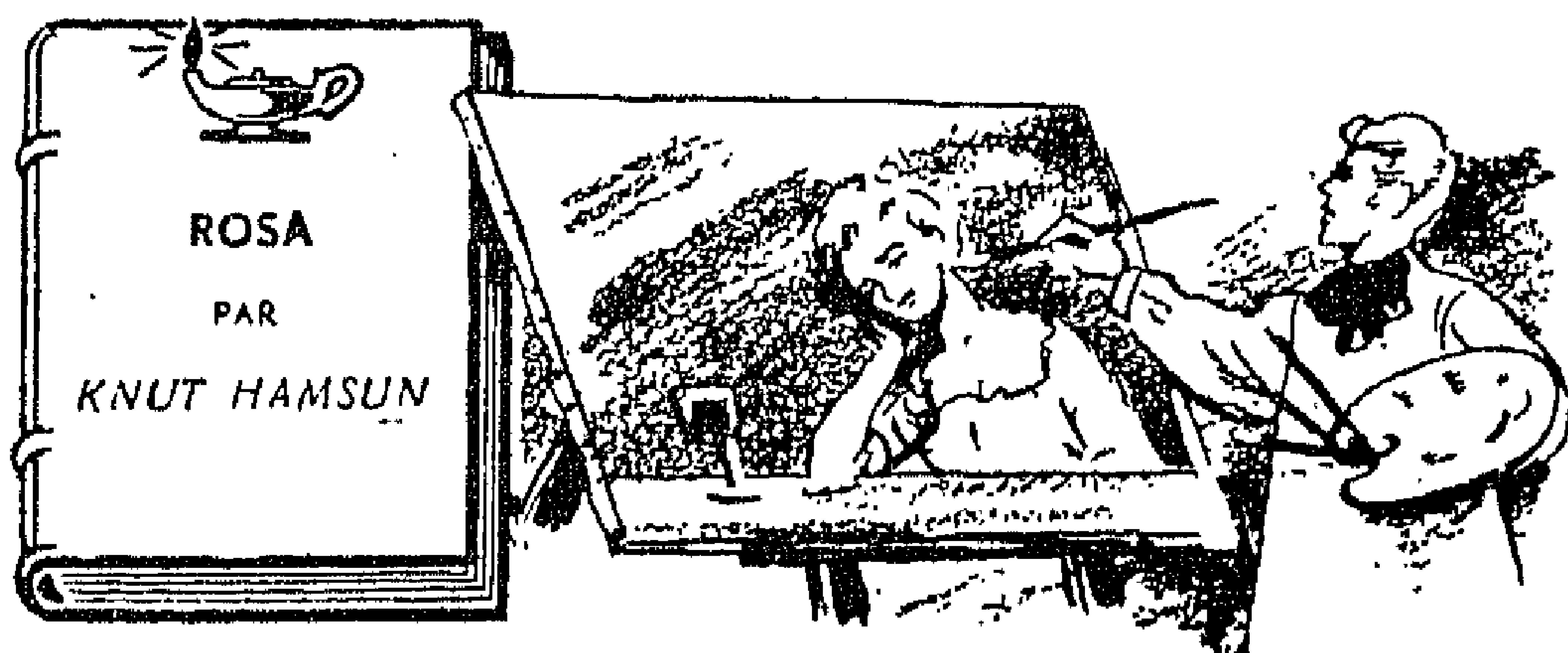


لاختصار المسافات الطويلة

سافروا بطائرات
ساس كارافيل
النفاثة
و ساس DC-8 النفاثة
لتوفر لكم
أسفاراً مريحة مقرونة
بكرم الضيافة الاسكندنافية



للحجز والاستعلامات اتصلوا بمكاتب السياحة أو أقرب مكاتب ساس
القاهرة: ت ٧٤٥٨٤/٥/٦ - الاسكندرية: ت ٣٣٩٧٣





من روائع القصص النرويجي المعاصر

للكاتب الروائى :

كنوت هامسون



عزيزى القارىء :

لعل المامك بالادب النرويجى لايزال الماما غير مكتمل ، فما اقل ما ينقل الى لغتنا من ادب دول الشمال .. لذلك اخترت لك هذه الرواية ، التى تمثل لك لونا من الحياة النرويجية .. الحياة فى بلدة يسكنها صيادو الاسماك ، على جزيرة صغيرة . وعلى الرغم من صغر المسرح الذى اختاره المؤلف لروايته ، **الا انك ستجد القصة حافلة بالحركة ، والمشاعر ، والانفعالات .. وستلمس براعة فى تحليل الشخصيات، والكشف عن دفائن النفوس .**

ولمؤلف القصة ــ الكاتب النرويجى «كنوت هامسون» ــ قصة فى حد ذاته .. فقد ولد فى (لوم) بالنرويج ، فى سنة ١٨٥٩ ، لأبوين فقيرين . ونشأ وترعرع فى جزر (لوفوتن) ، التى تجرى احداث القصة فى واحدة منها .. وقد اظهر منذ صباه عبقرية غير عادية ، اخذت تنمو وتتطور مع نموه وتطوره ، اذ عاش بوهيميا، متنقلا ، لايستقر فى مكان ، جريا وراء التغيير .. **فعمل وسيطا تجاريا (قومسيونجى) ، ثم معلما فى مدرسة ، ثم سائق ((ترام)) فى الولايات المتحدة ، ثم صحفيا ..** وكلها اعمال كانت كفيلة بأن تجعله يحتك بالحياة واهلها احتكاكا مباشرا ، فأكسبته خبرة بالنفوس والعواطف .

وظهر أول كتاب لكنوت هامسون ، عندما بلغ التاسعة والعشرين من عمره ــ اى فى سنة ١٨٨٨ ــ وقد اطلق عليه اسم «الجوع» .. ثم توالت مؤلفاته ، واصابت من النجاح ما ارتقى به الى عرش الادب الاسكنديناوى ، **ومكنه من ان يظفر بجائزة نوبل للأدب ، فى سنة ١٩٢٠ ..**

كنا فى الشــتاء ، عندما حزمت امتعتى ، ووليت وجهى شطر ميناء (روتنبرج) ، فاستقللت احدى سفن الصيد ـ التى كانت تتأهب للرحيل الى جزر (لوفوتن) ـ سعيا وراء صديق يدعى « مونكن فنت » .. اذ كنا قد اتفقنا على ان نقوم برحلة على الاقدام .. وكان قد مضى على اتفاقنا احد عشر عاما ، اى نصف عمر شاب !

وقضيت فى البحر اربعة اسابيع ، حتى اذا كان يوم « عيد الشكر » ـ ١٦ ابريل ـ بلغنا (سيريلند) ، الجزيرة التجارية التى يتقاسم السيطرة عليهـا وملكية مبانى الصيادين ومشروعات صيد الاسماك فيها ، كل من ((**ماك**)) ـ السيد الكبير ـ و ((**بنوني هارتفيجسن**)) ، وكان رجـلا مثرنا ، لايحجم عن مساعدة احد .. لذلك لجأت الى داره ، نشد ضيافته .

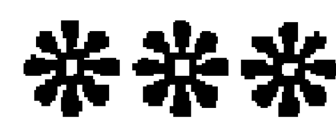
واخذ ((هارتفيجسن)) يلح على بالأسـئلة ، حتى عرف انني طـالب ادعى ((باريليوس)) ، وانني اجيـد الرسـم والزخرفة . فابدى لى من العطف والكرم ، ما أثلج صدرى ، وعرض على ان اقيم لديه فترة ـ قبل ان استأنف الرحيل ـ وأن اقوم بزخرفة سـفن الصيد والقوارب التابعة له ، فضلا عن جدران منزله .. وسألنى وهو يبتسم : « امتزوج انت ؟ »

ـ كلا ، فانا لم اتجاوز الثانية والعشرين بعد !

وشرعت ـ عقب انقضاء عيد القيامة ـ فى اداء المهمة التى كلفنى بهـا .. وحـدث ـ ذات يوم ـ ان قصدت حانوتا لابتيـاع ما كان يلزمنى فى عملى ، واذا بى اجـد نفسى امام

« ماك » ، السيد الكبير ، كما كانوا يسمونه فى الجزيرة .. وكان رجلا مسنا ، تبدو عليه امارات القوة والصلابة ، انيقا فى ملبسه ، وقورا فى مظهره ، جليلا فى حركاته ..

وكان لزاما ان نتعارف ، فما ان ادرك اننى طالب ، اعتزم القيام برحلة ، حتى تهلل وجهه ارتياحا ، اذ خشى ان اكون سجينا هاربا !



وراح « هارتفيجسن » يمطرنى بعبارات التقدير والثناء ، كلما شهد انتاجى ، حتى انتهى به الأمر الى ان اقترح ان ابقى الى الخريف التالى ، وان ابذل عصارة فنى فى زخرفة اكبر سفينة للصيد يملكها .. وكان اسمها « سا اى ايه » .. ولم اتردد ، فالحق ان المرء لم يكن يمل الاقامة فى (سيرلند) ، لجمالها الطبيعى ، وحسن ضيافة اهلها .

وقدر لى ان اصادف « ماك » ـ ذات يوم ـ بصحبة سيدة غريبة عن الجزيرة ، تضع على كتفيها فراء ثعلب ازرق اللون .. وكان لجمالها سحر عجيب ، هز اوتار قلبى .. **كانت فى العشرين من عمرها ، طويلة القامة ، كستنائية الشعر ، ذات فم دقيق ، وعينين تفيضان دعة وبراءة .. فلما قدمنى اليها « ماك » ، عرفت انها تدعى « روزا »** .

وما ان عدت الى المنزل ، حتى رويت لهارتفيجسن ما حدث ، فسألنى باهتمام : « أجميلة هى ؟ » ، فأجبت فى تحمس : « جدا ! » ، فهتف :

ـ روزا ؟ ! .. الآن ، فقد عادت !

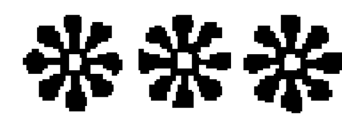
ولم يكن التطفل والفضول من خصالى ، فاكتفيت بقولى : « اجل .. انها جميلة حقا ، ويبدو انها ليست من اهالى

البلدة » .. ولكنى علمت ـ فيما بعد ـ من الخادم العجوز ، انها ابنة راعى كنيسة الجزيرة المجاورة ، وانها تزوجت من شخص يدعى « نيكولاى ارنتسن » ، لكن زواجهما لم يعمر طويلا ، اذ هجرها الرجل بعد فترة قصيرة ، وسافر الى الجنوب .. ثم انقطعت اخباره . **كما علمت انها كانت مخطوبة من قبل لهارتفيجسن ، وكان كل شىء قد أعد لزواجهما .. لكن هذا الزواج لم يتم ، لظروف غامضة !**

ولاحظت ـ منذ ذلك الحين ـ ان هارتفيجسن اخذ يهتم بمظهره وهندامه ..

وفى ذات صباح ، كنت معه فى حانوت البلدة ـ نبتاع بعض المسامير لاطارات الصور ـ واذا به يتركنى فجأة ، ويدخل مكتب صاحب الحانوت ، وكان من حقه ان يدخل دون استئذان ، لجاهه وثرائه .. وان هى الا برهة ، حتى اقبلت « روزا » ، فرمقتنى بنظرة طويلة ، جعلت الدم يصعد الى وجنتى ، ثم حيتنى ، فأدركت انها تذكرتنى .. وتمنيت ـ اذ ذاك ـ أن يعود « هارتفيجسن » حتى يراها . وكأنما اجتذبته خواطرى من حيث كان ، فاقبل .. وبسطت اليه «روزا » يدها ، فتصافحا فى هدوء ولطف ..

وسألها هارتفيجسن : « أحسبك تقضين بعض الوقت هنا .. أليس كذلك ؟ » .. فأجابته : « بلى » . ثم راحت تبحث عن أشياء كانت تريدها من الحانوت . وما لبثت ان قالت : « انها ليست لى ، بل للمنزل ! .. الا ترى اننى اتصرف بحرية ، كما كنت افعل فى الماضى ؟ .. ولكن يدى لن تمتدا الى شىء ! » . وهتف ـ اذ ذاك ـ وقد شعر بوخز عباراتها : « دعينا من السخرية ! » .



ولو انني كنت في موقف هارتفيجسن لما توانيت عن مغادرة الحانوت .. ولكن الظاهر ان الافكار تزاحمت على ذهنه ، فجعلته ينسى نفسه ويبقى في مكانه بلا حراك .. على انه انتبه من شروده عندما آن لها ان تغادر الحانوت ، فانصرفنا معها .. وقال هارتفيجسن ، وكأنه يحاول ان يصل حبل الحديث : « معي ضيف غريب ، يود لو تفضلت يوما فاسمعتيه بعض المقطوعات على البيانو ! »

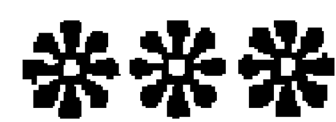
واجابته باقتضاب ! « لا استطيع العزف على مسمع من الغرباء ! » .. ثم استدركت ، ملتفتة نحوي : «لست اجيد العزف على الاطلاق .. اما اذا كنت انت تجيد العزف ، فهلا تفضلت ؟ » .. **وكنا قد بلغنا دار « ماك » ، فصعدنا الى قاعة الجلوس . وجلست « روزا » الى معزف فخم بجانب الشرفة ، وهي تحاول جاهدة ان تمحو الاثر السيء الذي احدثه في نفسي رفضها ..**

وسرعان ما سرت الانغام عذبة من بين اصابعها الرشيقة .. ثم اقبل « ماك » فقدم لنا الشراب والحلوى . وبينما راح يطوف بي ارجاء المكان ، ليطلعني على لوحاته القيمة ، كان هارتفيجسن وروزا يتجاذبان اطراف الحديث ، بصوت مسموع .. وما لبث ان سألها رأيها في ان يكفل « مارتا » ، وكانت طفلة ابنة عامل يدعى « ستين » . فقال ماك : «فكري في هذا الأمر ! » .. واذا بها تنفجر باكية ، وهي تقول : « ما الذي تريداني على ان افعله ؟ » . فقال هارتفيجسن مسريا عنها : **« لا تبكي ! .. انما اردت ان اكفل الطفلة لأنك علمتيها الطباع الجميلة ! »**

ـ أكفلها ، وليحسن الله جزاءك .. ولكني لن اقوى على الذهاب الى دارك !

ـ .. وليس بوسعي ان أكفل الطفلة بدونك !

وهنا قال ماك مؤيداً : « طبعا ! » .. فأشارت « روزا » بيدها مؤكدة الرفض ، وغادرت القاعة .



وبدأ الصيادون يعودون الى (لوفوتن) ـ مع فصل الربيع ـ وقواربهم وسفنهم محملة بالصيد الوفير ، فاستحالت الميناء الى عرس كبير ، وتردد الغناء في جنباتها ..

وبينما كنت أتنزه ـ في اصيل أحد الايام ـ قادتني قدماي الى المنار ، فاذا حارسه جالس على قطعة من الحجر ، في سكون الجماد .. وانتبه من شروده عندما ازددت منه اقترابا ، فتفرس في بنظرات متفحصة . على اننا لم نكد نتعارف ، حتى تخلى عن جموده ، وسألني : « أأنت ضيف هارتفيجسن ؟ » . فلما رددت بالايجاب ، قال : « اذن .. لاتبلغه تحياتي ! » . فتساءلت في عجب : « أتكرهه ؟ »

ـ أجل ، فهذه الاراضي التي تسير عليها كانت بالأمس ملكا له .. **انك تسير على مليون من الجنيهات .. ولكنه باعها عن آخرها ، واصبح .. لاشيء !**

ـ ولكن .. او ليس هارتفيجسن غنيا ؟

ـ لا ، فهو لايملك سوى ان يشتري ثيابا فاخرة تناسب مركزه ، ثم لايتبقى له الا ما يقيم اوده !

وعاد الى جموده وتأملاته ، اذ تركته وآخر عباراته ترن في

اذنى : ((ان الحيـــاة كالمرأة ، فلا ينبغى علينــا أن نعاملها بشهامة وكرم ، فنتيح لها فرصة التغلب علينا ؟ !))

ولمحت ــ وانا عائد الى البلدة ــ سفينة تسعى الى المرفأ .. وعلمت ان ((ادواردا)) ــ ابنة ماك ــ كانت قادمة عليها ، بعد أن توفى زوجها ، وكان ((بارونا)) فنلنديا ، وخلفها مع طفلتين انجباهما فى حياتهما الزوجية .. والفيت روزا مع ماك وهارتفيجسن فى انتظارها ، حتى اذا هبطت الى البر ــ اخيرا ــ الفيتها طويلة ، ملفوفة القوام ، تسدل على وجهها نقابا خفيفا .. وصافحتنى ــ بين من صافحت ــ فاذا يدها طويلة ، ناعمة .. وما لبثت ان تجاهلت سيدا انجليزيا جاء معها على السفينة ، ويدعى السير ((هيو تريفليان)) ــ وقد إعتــاد ان يقضى الربيع فى الجزيرة ــ وســارت الى جوار ((هارتفيجسن)) ، منهمكة فى الحديث معه بلا مبالاة ..

ومرت ايام ..

وسألنى هارتفيجســن أن ارســم لوحة لســفينة ((سا اى ايه)) ، فذهبت فى قارب ــ ذات صباح ــ الى مقربة منها .. وكانت سفينة تجارية ذات شراع وعشرة مجاديف ، تكبر السفن التى كان العبيد والمحكوم عليهم بالاشــغال الشاقة يسخرون فى العمل عليها ، فى القرن الثامن عشر .. وعندما عدت ، بعد ان رسمت السفينة بالقلم الرصاص ، وجدت ــ على رمال الشــاطىء ــ روزا وهارتفيجســـن والبارونة .. وكانت هذه تقول : ((لكم تغيرت معالم البلدة ! .. كنت جد مشغوفة بك ، فى الايام الخالية ياهارتفيجسن ، ولكن .. هاانذى اليوم فى الثلاثين من عمرى ، وأما لعدد من الاطفال ..))

ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت صغيرة القد ، سمراء اللون ،

ذات راس رشيق .. وقاطعها هارتفيجسن قائلا : « ليسوا عديدين .. مجرد طفلتين » . فقالت : « ولكن مسئولياتهما تشقلنى » .

ــ ولكنهما مع ذلك ، اثنتان فحسب .. فى الوقت الحالى ، على الاقل ! ..

وضحك ، فضحكت البارونة بدورها .. وكانت لاتفتأ ترفع ذراعها ، فى دلال واغراء ، فى جو من عدم الكلفة والاكتراث .. وما كان موقفها بالمستجيب ، ولكنها كانت يائسة !



ودعانى « ماك » مع « هارتفيجسن » و « روزا » الى حفلة اقامها ابتهاجا بعودة ابنته « البارونة » .. وفيما كنت متهيأ للذهاب ، اقبلت « روزا » بحجة اصطحابى الى بيت « ماك » ، اذ اضطر «هارتفيجسن» الى التأخر خارج البيت .. **ولاحظت انها كانت تتلفت يمنة ويسرة ، وكأنها تتفحص المنزل الذى عرض عليها ((هارتفيجسن)) ان تشاطره سكناه** .. واذ فطنت الى اننى كنت ارقبها ، استبد بها الخجل ، وتمتمت متلعثمة : « عفوا .. كنت .. لا ، لاشىء ! »

والفينا ــ فى دار « ماك » ــ حارس المنار وزوجته ، ووالدى « روزا » .. راعى كنيسة الجزيرة المجاورة ، وزوجته .. وكان القس مليحا ، بادى القوة ، اشتهر ببراعته فى الصيد .. حتى اذا ضمتنا المائدة ، راح «ماك» يحرص على ان يبدو انيقا ، مهذبا ، فى حين ابدت ابنته كثيرا من عدم الاكتراث بالحاضرين ، واشتطت فى تصرفاتها الطائشة . فكانت تقضم الخبز باسنانها ، وتشرب بصوت مسموع ،

ممـا أثار استياء الضيوف ! . . وما لبثت ان استأثرت بهارتفيجسن ـ بعد العشـاء ـ وراحت تثرثر معه . فاذا «روزا» تستسلم للوجوم ، وقد شغلت بأفكارها الشاردة عن كأس النبيذ الاحمر ، التى تركتها «تحترق من الوحدة»، على حد تعبيرى لها . . وحاولت ان اسرى عنها ، بيد انها بدت غائبة الحس ، الى ان فطن هارتفيجسن اليها ، فدعاها الى مشـاركته كأسـا من الخمر . . **واذ ذاك ، تهلل وجههـا ، واقبلت عليه وقد نسيت وجومها . . وما لبثت آن نهضت فراحت تعزف للحضور بعض الموسيقى !**

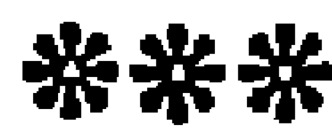
وتعاقبت الايام وهارتفيجسن متشبث ببقائى ، قائلا ان «روزا» ما كانت لتقبل المجىء الى داره مالم ابق انا معه . . والواقع انها ظلت ترفض طويلا ، وتحاول ان تقطع ما بينها وبين الرجـل . . بيد انه كان من الجلى ان المحـاولة كانت تضنيها وترهقها . . الى ان كان ذات صباح ، فاقبلت وهى بادية التعب والاجهاد ، حتى لقد اشفقت عليها لفرط ماكانت تبذل من جهد لتتناسى كرامتها ، وهى تسأل هارتفيجسن : « الم توفق بعد الى من تدير شؤون دارك ؟ » . واذ اجابها بالنفى ، فى عدم اكتراث ، قالت : «بوسعى ان اقوم بالعمل!»

وكأنما بث فيه انهيار عنادها نوعا من البطر ، فقال بتؤدة : «بديع ، ولكن . . لست ادرى تماما . .» . فقاطعته متسائلة: « اتراك غيرت رايك ؟ » . وقال فى كثير من التبجح : « لا ، لكنك انت التى غيرت رايك فيما مضى !» . . وكانت قد ظلت واقفة لدى الباب ويدها على مقبضه ، فاذا بها تنصرف عند هذا الحد من الحديث . . وقضى هارتفيجسـن تلك الليلة بصحبة البارونة !

ولكن « روزا » داست كبرياءها ، واقبلت ــ مرة اخرى ــ فى الصباح التالى .. وتمنيت لوكنت على مائة فرسخ من المكان ، حتى لا اشهد ذلتها .. وضحكت بمرارة ، وهى تشير ــ من طرف خفى ــ الى صحبته للبارونه ، قائلة : « انها تقول ان عمرها ثلاثون سنة .. اجل ، انها تكبرنى بكثير ! »

وارتمت على الأرض ، وراحت تبكى .. واذ ذاك ، نهض هارتفيجسن فتناول يدها ، وربت كتفها ، وطيب خاطرها ، وهو يشعر بأنه السيد الآمر ، الذى يتذلل الناس امامه ، فيرق قلبه لحالهم !

وانتقلت «روزا» والصغيرة «مارتا» الى دار هارتفيجسن. على أن الرجل لم يبد كثير اهتمام بهما ، وكان يتركنا معا وينطلق معظم اوقاته الى العمل ، اذ كان قد اشترك مع « ماك » فى بعض مشروعات الصيد . وداخلنى الشك فى أن البارونة كانت وراء هذا التدبير ، لتحبك شباكها حول هارتفيجسن .. ولكن « روزا » كانت تحبه ، وقد اذلت نفسها من اجله ! !



وتوالت الأيام هادئة ، ليس فيها من الاحداث ما يستثير الاهتمام .. اما انا ، فقد كانت لى لحظات سرور ، ولحظات احزان .. كنت كل يوم ازداد اعجابا بروزا ، ولكننى لم اكن اتوقع من القدر سعادة تذكر .. لم اكن جديراً بها ، لاننى اجنبى ، ولكن معاملة هارتفيجسن لها ، كانت تثيرنى ضد هذا القدر . فقد كان يزداد كل يوم خشونة وعدم اكتراث .

على انه لم يلبث ان فاجأها ــ ذات مساء ــ متسائلا : « ما رأيك فى ان انقل خاتمى الذهبى الى اليد اليمنى ؟ » ..

وكان هذا معناه عرضا للزواج ، ولكن ((روزا)) كانت مرتبطة بزوجها الاول ((نيكولاى آرنتسن)) ، فهو قد هجرها ، ولكنه لم يطلقهـا .. وكانما حدس هارتفيجسن ، ما كان يدور بخلدها ، فقال : « لقد دبرت الأمر مع ماك ! » .. وروى لها انهما استصدرا من الملك امرا بفسخ زواجها ــ نظرا لهجر زوجها اياها زمنا طويلا ــ وانهما دفعا لنيكولاى مبلغا من المال كى ينسحب من الميدان .. ثم اردف قائلا أن «نيكولاى» مات لافراطه فى الشراب !

وبدا لى ان « روزا » تلقت النبأ كصدمة ، فغادرت القاعة حتى لا اشهد حزنها .. وعلمت فيما بعد من هارتفيجسن انه اشترى انسحاب نيكولاى بالمال ، ولكن هذا لم يكد يتسلم الثمن ، حتى اخذ ينفقه فى الشراب الى درجة توحى بأنه كان ينتحر انتحارا بطيئا !.. ووجدتنى اسائل نفسى : «الا يوحى هذا بأن نيكولاى لم يمت بعد ؟.. أتراه لم يمت فعلا ؟ !» .. **وكنت كلما امعنت فى التفكير ، شعرت أن ((روزا)) لم تتعلق بهارتفيجسن الا بدافع من الغيرة ! ..** ولكن ، كيف حدث ان فرطت « البارونة » فيه بهذه السهولة ؟ .. وشعرت ان هناك امورا كثيرة لاتزال خافية على !

وفى ذات يوم ، مررت بالطاحون فى طريقى الى البيت ، واذا بى اصادف البارونة « ادواردا »، وعلى ثيابها آثار من الدقيق ، تشى بانها كانت بداخل الطاحون .. ولحقت بها ، فاستأذنتها فى أن انفض الدقيق عن ثيابها .. ثم سرنا معا ، فراحت تروى لى كيف انها اعتادت فى طفولتها ان تتردد على الطاحون ، وان تجرى وراء عربات الدقيق ..

واتخذ صوتها نبرة حزينة ، خافتة ، وهى تتنهد قائلة :

اننا نمارس كل العاب الحيــاة ، حتى نفطن فجأة الى انه لم يعد لنا شيء منها ! » .. وروت لي انه كان لدى أبيها خادم يدعى « جانس » غادر الجزيرة ، وتزوج ، ولكنه لم يلبث أن فقد ماله وصحته وزوجته..وقد عاد الى الجزيرة أخيرا ، ولجأ الى البارونة يستعطفها حتى لان له قلبها ، فوفرت له عملا .. وقلت معلقا على القصة : أن المرء يسعد حين يوفر السعادة للآخرين ، فهتفت في أسى : **« السعادة ؟ ! .. لا ، انها لو جاءتني لنظرت اليها في استنكار ، كشيء غريب عني ! »**

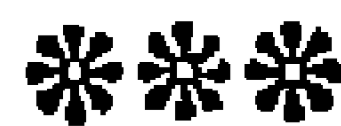
وتحولت تروي لي قصة المرة التي عرفت فيها السعادة .. كان ذلك حين التقت ــ في صباها ــ بصياد شاب يدعى « جلان » .. وهتفت والحسرة تقطر من صوتها : « أوه ؛ يا جلان ! .. لقد منحني من السعادة ما لم احظ به في اي وقت من حياتي .. كنت احبه الى درجة ان العالم كله كان يغيب عن ناظري حين يقبل هو ! .. ولكن الزمن حطم كل هذا ! .. كان فارع الطول ، وسيم الخلقة ، تنقل الى أنفاسه عبير الاعشاب التي اعتاد أن يقتات بها . وجاءني يوما وقد حسر قميصه عن صدره ، فبدا شــعره كمرج يدعوني الى الاستلقاء عليه .. وكنت غضة العود ، صغيرة السن ، كلما التقت عيناي بعينيه ــ وهو مقبل علي ــ شعرت بأن نظراته تنفذ الى اعماقي وتسبب لي دوارا .. دوار النشوة ! .. **أواه ، انني أقول هذا وقــد خبرت الزواج ومارســته ! .. كنت اعبده ، واعبد روحه التي لم يكن لها قرار .. ولست أدري ، أكان الها ، أم كان حيوانا ! »**

ــ ولكني ارى انك لاتزالين على حبه بكل تأكيد ..

ــ احبه ؟ لستأدري ، لكنني اتذكره كثيرا .. يقال انهرحل

ألى العـالم الآخر !.. اذكر اننى كنت ، يوما ، اقطع العجين بالسـكين ، واذا به يمر تحت نافـذة مطبخى ، فلوحت له بالسكين قائلة : « ماراًيك لو اننا متنا سوياً ؟ » ، فأجاب : « هيا معى الى كوخى لنموت هنـاك ! » .. **ومضيت معه ، ولكننى عـدلت عن رايى ، فمـا كان منه الا ان امتعض .. تصور ! لقد بدت عليه خيبة الأمل** .. كان لبساطته لايعرف المزاح . ولئن بدا ـ أحيانا ـ فى صورة أبله ، الا انه سرعان ما كان يصبح ثاقب النظر ، بصيراً بكل شىء .. وحاولت ـ فى مرة أخرى ـ اغاظته ، فأوصيت « جانس » بقطع أغصان شجرة كان يعتز بها فى الغابة ، فثارت ثائرته .. وخشيت غضبه ، فنسبت لنفسى ما حدث لكى ازيد من اثارته ، لكنه قال لى : «لا ، لست أنت ، أنه شخص أعسر » .. وفعلاً ، كان « جانس » قـد ربط ذراعه الأيمن فى حمالة وعلقه على صدره .

وعندئذ تبينت مدى قسـوة هذه المرأة ، التى مدت يدها بالأمس ، الى الشخص الذى كان سببا فى ايلام حبيبها !



وفى هذه الاثناء ، استـولى على هارتفيجسـن شـذوذ مخبول ، اذ تخيل نفسه الحاكم الآمر فى الجزيرة ، ولم يعد يرى لمخلوق عداه اية قيمة .. وتمكنت هذه الفكرة منه حتى أتت على ما تبقى لديه من تواضع وكرم نفس .. واخـذت سقطاته وعثراته تتوالى ، حتى اساء الى كل الناس تقريبا . **وما لبث ان حـان دورى ، حين اعلننى ذات يوم بأنه اعتزم استئجار خادم للبيت ، وانه فى حاجة الى الحجرة التى كنت**

اشغلها .. وادركت ان شخصا ما قد اثار شكوكه نحوى ، فقررت ان اغادر الجزيرة كلها !

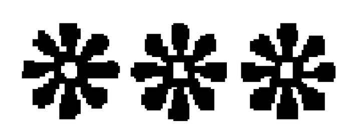
ولكن البارونة علمت بالامر ، فطلبت الى ان اعنى بتربية طفلتيها ، لتستبقينى .. والحق اننى كنت قد الفت الجزيرة ، فوددت ان ابقى بها . ومع اننى ادركت ان « ادواردا » كانت وراء ما اصاب علاقتى بهارتفيجسن — رغبةمنها فى الاستئثار بى ، لاسيما حين تبينت تعلقى بروزا — الا اننى لم اتردد فى قبول عرضها .

ومع ان «روزا » كانت قد انتقلت الى دار هارتفيجسن ، الا انها لم تكن قد زفت اليه بعد .. وعندما تلقيت يوما بطاقة — من ابيها — لحضور حفلة الزفاف ، توزعتنى حيرة اليمة ، بين الرفض والقبول . ولكن مرض احدى ابنتى البارونة املى على القرار الأخير ..

وعندما ذهبت — فى المساء التالى — لاقدم التهانىء للعروسين ، كان وجه « روزا » مشرقا بالابتسام ، وكان « هارتفيجسن » لايكاد يستقر فى مكان ، كالطفل الذا استبدت به الفرحة . وشعرت — اذ ذاك — بمرارة طاغية ، وبفراغ فى قلبى .. حتى اذا استبد بى الشعور بالوحدة والوحشة والحسرة ، لجأت الى الغابة . وهناك ، كانت فى انتظارى مفاجأة تسمرت فى مكانى بسببها ، وقد جمد الدم فى عروقى .. فقد وقعت عيناى على منظر اشد ما يكون بشاعة .. **كانت البارونة فى احضان رجل طويل الشعر ، خشن المنظر ، كان يعيش فى الغابة كالحيوان .. وكانا يسبحان معا متعانقين ، وقد تجردا من كل الثياب ، وغابا عن الوجود المحيط بهما ..**

ووجدتني اندفع هائما على وجهي في الغابة كالمجنون ، فما خطر لي يوما ان البارونة تفرط في شرفها بهذه السهولة .. ولمن ؟

ولم افطن الى نفسي الا وقد صرت في غرفتي ، ورحت اتحسس وجهي الذي كان يلتهب بنار خفية ، وقد خضبته الدماء ، من اثر الاغصان التي كانت تصفعني وانا اعدو كالمجنون !



وفي يوم عيد ميلادي دعاني هارتفيجسن الى داره ، وراح يتحدث في امور كثيرة كعادته ، و « روزا » تصغي اليه ، وتقاطعه – من آن الى آخر – لترضي غروره . فكان يجيبها بغيظ وجفاء : « نعم ، نعم .. انني ادرك تماما سر اكتئابك وضيقك ، فلا تبالي ! » .. وما لبثت ان غادرت مقعدها ، وانتحت جانبا عن المدفأة ، لتكتم ما كان بنفسها . وان هو الا قليل حتى انبعثت طرقات على الباب ، فمضى اليه هارتفيجسن بنفسه .

وكانت البارونة هي القادمة .. ولم تمكث طويلا ، بل سرعان ما انصرفت ، مصطحبة هارتفيجسن .. وشق على ان اشهد اسى « روزا » ، فلم البث ان اغريتها بالخروج معي لصيد السمك . وانطلقنا الى الشاطىء ، فاستقللنا قاربا صغيرا .. ورحت أروي لها قصصا مضحكة لأسري عنها – وانا القي اشباك في البحر – ولكنها لم تستجب لمداعباتي . وبدت مهمومة ، مثقلة الصدر ، مستسلمة الى الوجوم ..
ورحت اسائل نفسي : ترى هل هي مرتاحة الى اطالة فترة بقائنا على صفحة الماء ؟ .. وهل تراها تخشى العودة الى البر ؟

وكانت تلقى بالشص فى الماء حين هتفت : « احذرى ، فان خاتم الزواج معرض للسقوط ! » . وتوقعت ان تقول : « فليسقط ! » . بيد انها — على النقيض — رفعت يدها فجأة ، وتحسست الخاتم لتحكم وضعه ، بينما كان وجهها متجهما عبوسا . .

وعندما عدنا الى الدار فى المساء ، اصر هارتفيجسن على أن أشاطرهما العشاء . . وكانت « روزا » — طيلة الوقت — بادية الوجوم والقلق ، فلم اجد افضل من الانصراف بمجرد انفضاضنا عن المائدة ، وفى نفسى عزم على أن ارسم لوحة اهديها الى « روزا » . . لوحة تمثل كأس الحياة جميلة ، مترعة بخمر قرمزية !

وفيما كنت عاكفا على رسم اللوحة ، اذا بالبارونة تدخل ثائرة ، وعلى وجهها آثار بؤس وشقاء واضحة . وامسكت بصدرها فى حركة عنيفة ، كأنما كانت تريد ان تنتزع قلبها من مكانه ، فأودت — فى النهاية — بأزرار ثوبها ، وهى تقول : « لاشىء هنا يجلب السلام . . فلعل لديك شىء منه ! » ، فهتفت : « انا ؟ ! . . لا ! »

— اذن ، فخليق بك ان تنطلق للصيد ، فان هذا يسرى عن النفس . . ان طلقات البندقية تبعث على الانتعاش !

على ان البارونة لم تكن تقصد طلقات بندقيتى ، بقدر ما كانت تقصد استعادة ذكرى طلقات الصياد « جلان » الذى استأثر بقلبها فيما مضى !

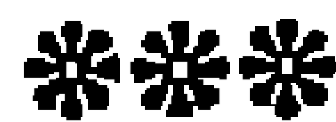
وراحت تنتقل فى ارجاء المكان ، وهى شاحبة الوجه ، بينما كنت احاول ان احدثها عن الصيد . . ثم لم تلبث ان راحت تقول ، وكأنها تتكلم بدون وعى : « ما جئت لأتحدث فى

موضوعات رفيعة ، ولكن .. عن الشيطان ، ان كنت ادرك ما هو الشيطان ! .. لست ادرى ، لماذا اعجز عن فهم مايدور فى هـذه الحيـاة ، وازداد حيرة يوما بعـد يوم ؟ ! .. اننى اسائل نفسى : ماذا دهى الحشائش ، والاشجار ، والطيور ؟ .. اكاد ارى كل شىء على نقيض ما اعتدت ان اراه بالأمس . ترى ما الذى اصابنى ؟ .. لابد ان روح الطفولة قد فارقتنى مع الايام ، وان كان هنا بعض من لايزالون يحتفظون بروحهم فتية .. لكأن الشر قد اخذ يتطرق الى نفسى ! .. **لو اننى كنت قد تزوجت ممن احببت ومكثت هنا ، لكان من المحتمل ان يستطيع السير فى دروب الغابة ، ان يحفظ لنفسى سلامها وطمأنينتها !** .. لعل الحيـاة ذاتها هى التى سـاقتنى الى معاداة نفسى ، فلمـاذا ؟ .. ان الرقى قد ابعدنى عن راحة النفس .. فلقـد تزوجت رجـلا ثريا ، مهـذبا ، لايهوى الحشائش والأشجار ، وتعلمت ان اتحدث بلباقة ، واعبر عن خواطرى بأسلوب منمق مهذب .. ولكن نفسى ظلت تهفو الى شخص تملأ الأخطاء احاديثه .. **كان مثلى يحب الحشائش، ولا يحتفظ الا بقليل من الاصدقاء ! »**

واستطردت تقول : « كنا نستلقى على الحشائش ، او يقتفى كل منا خطوات رفيقه . وكنت اناديه : « ياحبيبى ! » فأحس كأن نفسى تنساب انغاما ، وأمنحه ثديى مقابل طلقة البندقية التى كان يطلقها باسمى .. كانت حياتى ملكا له ، وكنت اعرف اين يوجـد الصدر الحنون الذى اريح اليـه رأسى ! »

وسألتنى أن ارافقها الى الخارج ، فأطعتها .. اذ شعرت انها كانت في أشد الحاجة الى أنيس يبدد وحشة وحدتها ..

وعندما افترقنا ـ اخيرا ـ وقد هدأت نفسها ، قالت : « يالها من حياة ضارية .. لكم يفترس المرء أخاه ، ويدق عنق الدجاجة ليلتهمها .. أننا لنسحق الورود تحت أقدمنا ، ونضرب الاطفال فنبكيهم ! .. أن الاشمئزاز من الحياة يعتصر قلبي ! »



وساقتني قدماي يوما الى الحانة ، فالتقيت بهارتفيجسن ، الذي راح يثرثر طويلا .. وكان حديثه منصبا على الرغبة في السفر الى (بيت المقدس) . فلما تبين انه سيطر على سمعي وانتباهي ، قال في خيلاء : **« لقد كانت هذه رغبتي منذ الطفولة .. ولن أكون وحدي ، بل ستصحبني امرأة ! »** .. وذهلت ، فقد قفز الى خاطري انه لن يبقى لي ما يحببني في البلدة ، لو ان « روزا » غابت عنها ! .. ولكن ذهولي تضاعف حين أقبلت البارونة ـ في تلك اللحظة ـ وفوجئت بأنها كانت المقصودة .. وكأنما لمحت ما اصابني ، فقالت وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة : « هل يزعجك سفرنا ـ انا وهارتفيجسن ـ الى هذا الحد ؟ .. اتخشى شيئا ؟ » . **وانجابت عني الدهشة ، لتحل محلها سعادة طاغية ، اذ تبينت ان « روزا » لن تسافر ..**

وسألت البارونة اخيرا : « ولماذا تسعين الى بيت المقدس بالذات ؟ » . فأجابت وعيناها تفيضان بالبؤس والشقاء : « اما هارتفيجسن فيبغي الذهاب الى هناك ، لأنه قرأ الكثير عن هذه المدينة المقدسة في التوراة .. اما انا ، فأتوق الى زيارتها ، لأنني لم أعد أشعر بالطمأنينة وراحة البال .. وقد اظفر من الزيارة بما لم اظفر به من الادوية والعقاقير ! »

ودهشت لأن «روزا» لم تفاجأ بالنبأ ، حين أزجيته اليها ،

بل قالت وكأن الامر لايعنيها : « اننى اعلم ذلك » . وتساءلت وقد ازددت دهشة : « اولا تملكين ان تحولى دون هذا السفر ؟ » ، فاجابت : « ولماذا اقف فى سبيله ؟ » .. بيد اننى لم البث ان عرفت انها اوحت الى « مالك » بالتدخل فى الأمر ، فاستطاع هذا ان يقنع هارتفيجسن بأن يصطحب زوجته اذا شاء الذهاب الى الاراضى المقدسة .

وعدت الى لوحتى معتزما انجازها ، لتكون ذريعة للقاء « روزا » .. فلما اتممتها ، قدمتها اليها .. وتأملتها مليا ، ثم اعتذرت بأن زوجها لم يكن بالدار ليدفع لى ثمنها .. وآلمنى هذا القول منها ، ولكنى تمالكت نفسى ، وقلت فى شمم : « ولكنها ليست للبيع ! » .. فماكان منها الا ان رفضت أخذها .

وقلت ، اذ رأيتها تتأملها من جديد : « **هذه كأس النبيذ التى لم تقربيها .. لاتزال فوق المنضدة «تحترق من الوحدة» .. اما تذكرين ليلة حفلة البارونة ؟** » .. وأومأت برأسها موافقة . ثم سألتنى فجأة : « هل رأيت هارتفيجسن فى الطريق ؟ » .. وتبينت أنها أدركت اننى قصدت لقاءها وحدها . فقلت : « اترينني أخطأت بذلك ؟ » .. وكان جوابها : « **اجل .. فليس لك أن تحبنى !** »

ـ اشد ما فقدت راحة البال التى كنت انعم بها قبل ان أعرفك !

وما كان ابسطها واطيب قلبها ، اذ فهمت اننى احببتها . فدعتنى الى الجلوس بجوارها ، ثم قالت : « اننى لست بالمرأة المستهترة ، ولذلك أشعر بأننى لم أنفصل ـ حتى الآن ـ انفصالا تاما عن زوجى الأول : نيكولاى . واظن ان هذه حال كل مطلقة ، فلا تصدق انها تنفصل تماما عن زوجها ..

ولكن هذا الشعور يقوى عند بعضهن ، ويتضاءل عند البعض الآخر .. أما فيما يتعلق بك ، فان شعورك مجرد طيش .. **فأنا أكبرك بسبع سنوات ، فضلا عن أنني متزوجة ، ولا أبتغي ان أمضي معك في علاقة حب .. وحتى لو أحببت ، فانني أفضل ان احترق بكتماني للحب !** .. ولعلك تذكرني بحبي لهارتفيجسن ، لكن هذا الحب لم يكن قط صادراً من القلب ، فأنا من هارتفيجسن بمثابة مدبرة بيته .. أترى حديثي هذا يسوؤك ؟ »

واذ أكدت لها انني غير مستاء استطردت تقول : « ولو انني كنت في مثل سنك ، وغير متزوجة ، لما اهتممت بك ! »

ــ لعل السبب يرجع الى أنني مثلك ، غير موفق في حياتي .. وكذلك كان شأن زوجك الأول ، الذي انتظرته طويلا .. انك تحاولين ان تبدي قسوة واستهتاراً لتساعديني على مغالبة موقفي !

فتساءلت مبتسمة : « أتعتقد هذا ؟ » .. واذ ذاك ، تجلت لي حقيقة قلبها .. كانت تحاول أن تشوه من حبها لهارتفيجسن ، كي تصرفني عن حبي اياها .. وأدركت هي انني فهمت الموقف ، حين قلت لها : ((**أكاد ارى ان حبك لهارتفيجسن لم يكن سوى .. مجرد غيرة من غريمة لك !**)) .

فقد ابتسمت في ضيق ، وهي تقول : « ربما ! » . بيد انها لم تلبث أن هتفت في انفعال : « لا ، ليس الامر كذلك .. على انه لا يعنيك في شيء ، فلماذا افسر لك موقفي ! » . ولكن انفعالها كان أقوى من ان تكتفي بهذه الكلمات ، فلم تلبث ان عادت تقول : « أتعتقد انني اغار من البارونة ؟ .. لست ممن يتدلهن في الهوى ، بل انني طبيعية وبسيطة ، حتى ان زوجي الاول كان يردد انني مملة .. واعتقد انه كان محقا !»

وسكتت فترة ، ثم عادت تقول :« المهم ان مشاعرك نحوي في غير محلها ، ولست املك سوى ان اوقفها عند حدها » .

فقلت : « ولكنك لاتملكين ان توقفيها ! » . فهتفت : « حقا .. ولكن ، لو انك وجدت هنا نساء غيرى ، لما فكرت فى .. انا بالذات ! .. ومعذرة اذا قلت ان حالتك غير عادية ، فما من واحد ممن شغفوا بى أضرب عن الطعام ، وحالف السهاد .. لقد كان نيكولاى هادئا ، وكذلك بنوتى ! »

وكأنما قرأت ما كان يدور بخاطرى ، اذ اوحى الى اليأس بأنه لم يعد لى أن أتردد على منزلها ، فهتفت : « كن عاقلا ، ولاتسلك مسلك الاطفال ! » .. ثم أردفت — بعد برهة — قائلة : « الحق انني اليوم مضطربة ، فلا تزدنى اضطرابا .. لقد علمت ان ام نيكولاى العجوز ، قد تلقت مبلغا لابأس به ، عن طريق البريد ، منذ عهد قريب .. **فمن اين يأتيها المال ان لم يكن من نيكولاى نفسه ؟ .. لابد — اذن — من انه على قيد الحياة ! »**

— لكنكما منفصلان ، سواء كان حيا ام ميتا !

— لا ، هذا تقدير غير مصيب تماما .. ثم انهم ابلغونى انه قد مات ولولا ذلك ما تزوجت .. ان القرار الملكى الذى احلنى من زواجى من نيكولاى لم يكن كافيا ، ومن ثم زعم مالك وهارتفيجسن ان نيكولاى قد توفى !

وشعرت بالغيرة تجتاحنى فجأة ، نحو هذا الميت الذى شغل عقل « روزا » .. الم يكن قد باعها مقابل مال انفقه فى الشراب حتى توفى ، كما اخبرنى هارتفيجسن ؟ .. على اننى لم اجد داعيا للخوض فى حديث ليس من حقى ، فاعتذرت اليها عما بدر منى ، وتأهبت للانصراف ، واذ ذاك امسكت بيدى قائلة : « ان عاطفتك ليست سوى نزوة طارئة .. فلنبق صديقين ! .. ولا يسوؤنك ماقلت ، فقد كنت خائفة مضطربة منذ بلغنى ذلك النبأ ! » .

ـ انك لم ترتكبى شرا ، ولم تأت ذنبا ، فاطمئنى !

***

وتوالت الأيام وانا لا أدرى كيف اواجه جفـاء « روزا » العاطفى نحوى .. وذات يوم ، جاءت البارونة تسألنى عن صديقى « مونكن فنت » ، وحملتنى رغبتها فى دعوته ، لكى يعاون « مارتا » فى استذكار دروسها .. ومن الغريب ، أن « هارتفيجسن » جاءنى بدوره ملحا فى دعوة « مونكن فنت » .. ولم اتصور أن يعيش صديقى مع « روزا » تحت سقف واحـد ، لذلك أسـرعت اليها محذرا إياهـا من الوقوع فى غرامه . فقد كان اكبر منى سـنا ، وكان يفوقنى وسـامة واناقة . **ولكنها أطلقت ضحكة عالية ـ مست اعماقى ـ وقالت : « لن اقع فى غرام احد .. سـواء أكان صديقك أم غيره ! »** .. وعندما أردت أن اشرح لها شيئا عن صديقى ، ردتنى قائلة : « لايهمنى ان اعرف شـيئا عنه .. فلسـت أهتم بأحد ! »

وذهبت لأبحث عن صديقى ، ومضيت فى الغـابة وحيدا .. وكان الخريف قد جرد أشـجار الحور من اوراقهـا ، وسيطر السـكون عميقا ، لا يعكره سوى تقصـف الأوراق على طول الطريق .. وانطلقت الافكار والهواجس تعربد فى رأسى : لماذا ترغب البارونة فى دعوة « مونكن فنت » ؟ .. اتراه قادرا على ان يريحها من عذابها النفسى ؟ .. وشغلتنى الاسئلة عن نفسى وعن متـاعب الرحلة ، الى ان عثرت على « مونكن فنت » ، بعد يومين .. فـاذا البارونة كانت قـد أوفدت اليه « جانس » فى المهمة ذاتها .. **فلماذا كان هـذا الحرص والالحاف منها ؟**

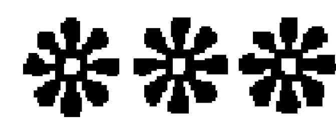
والفيته ، كما تركته : انيقــا ــ برغم أن ملابســه كانت متواضعة كملابسى ــ خفيفا فى مشــيته .. لكنه كان يمتاز بطباع الصيادين الذين لا يطيقون العيش بين الجدران وانما يهوون الحياة الطلقة ، فى الخلاء .

وعندما اقتربنا من « سيرلند » ، لاحظنا قواما نســائيا مقبــلا نحونا . وعندئذ صرخ متعجبــا .. واتضح لنا أن البارونة هى القــادمة .. وبالرغم من اضطرابها ، الا أنهــا اصطنعت ابتسامة رقيقة ، قائلة : « ها قد وصلتما ! » .. وأومضت عينــا « مونكن فنت » بخبث ماكر ، وهو يتأمل البارونة الرشيقة ..

والواقع انه لقى حظوة لدى البارونة منذ البداية ، فقــد بالغت فى اكرامــه ، وعمدت الى توثيق الود معه ، **واخذت تنتهز كل فرصة لتخرج معه فى نزهة يعودان منها وسحائب الحب والهنــاء تظللهما !** .. وجاءنى يوما يســألنى رأيى فى « روزا » ، فتمهلت قبل أن اجيب بالثناء عليها .. ولما لم يشــف جوابى غليله ، تحول يســألنى عن البارونة ، فأجبت بالأسلوب ذاته . وهنا قال : «انها ســيدة غريبة ! .. لكم تسبب الحيرة للجميع بحرارة انفعالاتها ، وبكائها المستمر على صديق صياد عرفته فى شــبابها ! .. ان هذه العجوز تقتلنى بثرثرتها ! »

وعندما ســألته : « هل رأيت مارثا التى جئت من اجل تعليمها ؟ » ، اجابنى : « جئت من اجل ماذا ؟ .. انك تعرف تماما ان مالدى من معلومات لايؤهلنى للتدريس .. وسأعود من حيث أتيت ! » .. والحق أن صديقى قد لقى ــ بجانب الجفاوة ــ عذابا نفسيا فى انتظاره .. **اذ أن شخصية البارونة اتت على ما تبقى لديه من عقل وكياســة** ، فصار فى النهاية

بتوتر الأعصاب ، نافد الصبر .. وانتهى به الامر الى ان رحل ، بعد ان صار حنى بحيرته !



وذات يوم التقيت بروزا على رصيف الميناء . ولم اكن قد رأيتها من زمن بعيد ، اذ كنت قد آليت على نفسى الا اثير شعورها او ازعجها .. كما اننى رايته فى ابتعادى عنها تكفير عن ذنب اعتقدت اننى ارتكبته فى حق هارتفيجسن .

وكانت جميلة ورقيقة كالعهد بها .. فلما سألتها عن احوالها ، اشتكت من ان هارتفيجسن كان دائم التغيب عن البيت .. « فالكل يطلبه ، وهو يستجيب للجميع ! » .. **اما هى ، فقد ظل الخوف المبهم ـ الذى داخلها منذ علمت بنبأ وصول نقود الى ام نيكولاى ـ ملازما اياها .**

وغصت الميناء بالناس ، اذ كانت سفن الصيد عائدة من رحلة الخريف .. وكم كانت الصدمة قاسية ، حين افتقد هارتفيجسن سفينته الكبرى ، فعلم انها اصطدمت بجبل ثلجى .. وكانت ثورته عارمة ، حين علم ان « ماك » هو الذى كان قد رسم لربانها الطريق الذى صادفت فيه الجبل الثلجى ـ دون ماقصد منه ، طبعا ! ـ فتشاجر مع « ماك »، وفض ماكان بينهمامن معاملات ، وراح يتحين الفرص للانتقام منه ، بالرغم من ان الصدمة قد اودت باعتداده بنفسه وثروته .. فطلب الى ان اهجر بيت « ماك » ـ حيث كنت اعلم ابنتى البارونة ـ وان اعود الى داره معلما لربيبته « مارتا » ..

والحق ان الفرحة استتنى نفسى وما كنت قد عاهدتها

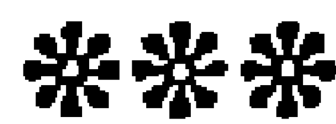
عليه من ان لا اتعرض للازمة « روزا » .. ووجدتنى ابادر الى دار « هارتفيجسين » لألقى الفاتنة . وما ان اذنت لى بالدخول ، حتى بادرتهـا قائلا: « لقد جئت الى هنا برغبة فوق ارادتى ! » .. وادركت ماكنت ارمى اليه ، وما كان يساورنى من مشاعر ، فقالت : « ولكننى امرأة متزوجة ! »

ـ اجـل ، ولكنك ملكت قلبى منذ اللحظـة الاولى ! .. **اجماد انت ام انسـان ؟ .. لقد سئمت التمثيل والتصنع ، وآن لك آن تفعلى بى ماتشائين !**

لكم كنت سـخيفا ، تافه التفكير ! .. كان الغرور قـد اوحى الى انها لن تلبث ان ترحب بمقدمى . ولكن شفتيها راحتا ترتجفان ، وكأنها اصيبت بمس من الحمى .. اما انا ، فقد سمرت فى مكانى ، والألم ينهش فؤادى .. وكأنما فطنت « روزا » اخيرا الى موقفنا ، واشـفقت على ممـا فعله بى استقبالها الجاف فتمالكت نفسها ، وحاولت ان تتلطف ـ برغم اضطرابهـا ـ وهى تقول : « آه ، لقد دعاك بنونى الى المجىء اذن ؟ .. لقد ظننت فى بادىء الأمر .. »

ولم انتظر حتى تتم حديثها .. وبترته هى اذ رات ما الم بى . فقد رحت ارتجف فجأة ، واخذ صدرى يعلو ويهبط ، وتقدمت ـ وانا لاعى ـ حتى كدت المسها . . بل اننى لمستها بالفعل ، وراحت شفتاى تتحسسان شعرها وعنقها وجيدها .. وفى حركة خـاطفة ، هوت كفها على صدغى بصفعـة ، وانفلتت من بين ذراعى ، فارتميت على مقعد ، وكأننى غائب عن الوعى !

ومرة اخرى ، اشفقت علي.. واخذت تعمل ــ بعد ذلك ــ على ان تترضانى ، وان تسرى عنى ، فلم تزدنى محاولاتها الا الما ، والا شعورا بالخسة والضعة .. على ان الأيام لم تلبث ان خففت من هذا الشعور شيئا فشيئا ، حتى عادت الصداقة بيننا مجراها الاول . وان آثرت ان اظل بعيدا عن البيت ..



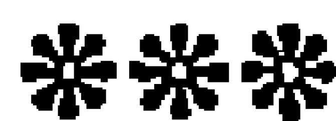
واشتد الخصام بين هارتفيجسن وماك ، فراح الأول يفتن فى تدبير المكائد للثانى .. ومن الغريب ان ابنة « ماك » ــ البارونة ــ كانت تساعده ، الى أن اصيب « ماك » بمرض اوشك ان يودى به .. فكأنما كان هذا المرض رسول التوفيق بين الفريمين ، فلم يلبث هارتفيجسن ان انصرف عن الرغبة فى الانتقام .

وفى تلك الاثناء ، انجبت « روزا » ولدا ، فكان مقدمه سببا فى ان استرد هارتفيجسن هناءه واشراقة وجهه .. وعندما ذهبت لأهنئها ، وجدتها ترتعد .. وظننتها متأثرة من الجو ــ الذى كان عاصفا ــ ولكنى سرعان ما تبينت انها انما كانت ترتعد خوفا .. اذ كان « نيكولاى » ــ زوجها الاول ــ قد عاد الى الجزيرة ..

وتكشفت لى نواحى جديدة من نفسية المرأة وقلبها .. كانت « روزا » فى هم من عودة « نيكولاى » ، ولكنها كانت فى حيرة مما يصير اليه موقفها ازاء « بنونى هارتفيجسن » .. ولقد تبينت انها كانت تحب « نيكولاى » ، وكان حبها له غذاء لروحها .. اما الزوج الثانى ، فكان مصدر الغذاء لجسمها .. كانت تدخر لنيكولاى اجمل الذكريات ، ولكن

مامن ذكرى بريئة واحدة كانت تعتز بها لهارتفيجسن ،
وكانت تفضي بكل هذه الهواجس والاضطرابات لى .. ا الذى كنت أطوى القلب على نار حب لاأمل فيه !

يا روزا المسكينة ! .. وياللعواطف الحائرة ، كيف تعصف بالنفوس ! .. لقد كذب هارتفيجسن ـ واستعان بمالك ؛ كذبه ـ الثراء ابتعاد نيكولاى عن « روزا » ، ولاقناعها بموت .. فهل سعد هارتفيجسن وهل أسعدها عندما تزوج منه بعد ذلك ؟ .. الواقع انه ظل مذبذبا بين «روزا» الساذجة المتواضعة .. و « البارونة » الماكرة ، ذات الثراء والنفو .. وقد حاولت البارونة أن تصرفه عن « روزا » ، ولكنها لم نكن تحبه ، بل كانت تحب صيادا شريدا فى الغابة ، عرفته فى صباها .. انما كانت محاولتها اجتذابه نوعا من الانتصار الذى كانت تنشده لتسرى عن نفسها شعورها بأن « روزا » كانت أجمل منها ، وكانت مرغوبة ! .. **واستجابت «روزا» للتحدى ، فسعت الى الفوز بهارتفيجسن ، لا لأنها كانت تحبه ـ بدورها ـ ولكن بدافع من الغيرة والرغبة فى التفوق على السيدة ذات المركز والجاه !** .. وكانت تعرف اننى اذوب وجدا من اجلها ، ولكنها صدتنى ، لأن فؤادها كان يتجه إتجاها آخر .. اتجاها لم تستبنه الا عندما علمت أن « نيكولاى » قد بعث فى الجزيرة !



وخرجت فى تلك الليلة أهيم على وجهى ، فالتقيت بغريب يسأل عن « هارتفيجسن » ، ويلح فى طلب لقائه .. فتطوعت

فى ارشـــاده اليه . وكانت « روزا » امــام باب الدار حين اقتربنا ، فلم تكد ترانا ، حتى ولتنا ظهرها ، وانطلقت تعدو فى الاتجـــاه المقابل من الطريق . . وكانت لاتزال ضعيفة من جراء الوضع ، فسرعان ما اصابها الارهاق ، وكادت تسقط اعياء . .

ولحقنا بها ، فبادرها الغريب قائلا : « لاعليك ياروزا . . اطمئني ! » وادركت ـ اذ ذاك ـ ان الغريب لم يكن سـوى . . « نيكولاى » . واستطاعت روزا ان تنتزع صوتها من حلقها ـ اخيرا ـ لتسأله عن سبب مقدمه ، فقال متأففا : « جئت لبعض اعمال . . ولأرى والدتي ! » . وهممت بأن انسحب احتراما لعواطفهمـا ، ولأخلى لهما الجو ، ولكن « روزا » تشبثت ببقائى ، فابد « نيكولاى » رغبتهـا . . وادركت من الحاحها انها كانت تشعر بشيء من الطمأنينة لوجودى .

وقال الرجل : « انا نيكولاى آرنتسن ، الذى كان ـ من قبل ـ زوجا لها . . وقد جئت انشـد حقى ممن وعدونى به ! » . . ثم التفت الى روزا ، وقال : « الا ترين انه يجدربنا أن نلقى بنفسينا فى البحر ياروزا ؟ » . فهتفت المسـكينة والاسى يعتصرها : « هذا افضل ، فى الواقع ! »

ـ ولكن ، لماذا ؟ . . أن لك زوجا ، وطفلا . . وامامك حياة طويلة ، مليئة بالسعادة . .

ـ الا تكف عن السـخرية ؟ . . جدير بك ان تقدر اننى الآن زوجة لسواك !

ـ هذا طبيعى ، وغير طبيعى ، فى آن واحـد . . وهاأنذا

قد جئت لأسوى كل شيء ، وارد الأمور الى طبيعتها .. لقد خدعك ماك وهارتفيجسن عندما زعما انني توفيت ، لكي يجوز لك ان تتزوجي من الاخير .. ولقد خدعاني — انا الآخر — اذ انهما لم يدفعا لي كل المبلغ الذي وعداني به ، ومن ثم آثرت ان ارتد الى الحياة حتى احصل على حقي !

وكانت « روزا » ترتجف بعنف ، وهي تجلس على حجر في الطريق ، وقد راحت تدك الارض بكعب حذائها .. كانت موزعة العواطف ، مضطربة ، حائرة .. ولم تلبث ان قالت : « ليس بوسعي ان اجيبك الآن برأي قاطع ! »

— ولو ذكرتك بماضينا .. وبما كان يشرق عليه من ابتسام؟

— ولو ! .. انك آثرت أن تنشد المال بدلا مني ..

وكان ردها اشبه بسكين قطع حبل كل حديث ، فرفع راسه في اباء ، وقال لها : « لم يعد بيننا كلام .. فعودى الى طفلك ، واجتهدى ان لاتذرف الدمع على ! »

وفي اليوم التالي ، علمنا ان نيكولاي القى بنفسه في البحر .. لقد استراح ، ولكن .. هل استراحت « روزا » ؟ .. انني اذ استعرض هذه الأحداث — بعد ان بارحت الجزيرة ، ونزحت الى الشمال — اوقن من ان الحب الذي كان يعمر قلب « روزا » انما كان لنيكولاي اكثر مما كان لهارتفيجسن ، فلماذا عزفت عن الرجل حين ظهر لها انه كان على قيد الحياة ؟ .. هل كان عزوفها وفاء للوعود التي قطعتها لهارتفيجسن ، حين تزوجت منه ؟ .. ولكنها كانت تدرك ان ليس لها لان تطمئن الى حب هارتفيجسن ! .. اذن ،

فهل كان تصرفها راجعا الى الطفل الذى انجبته من هارتفيجسن ؟ .. أم ترى أن الغيرة — غيرتها من البارونة — هى التى حدت بها الى ان تتشبث بهارتفيجسن ، برغم حبها لنيكولاى ؟ .. أم ترى ان قبول « نيكولاى » النزول عنها ، لقاء مبلغ من المال ، قد أثار كرامتها كأنثى ، وحبيبة ، وزوجة ؟ ..

انه لغز لا ازال افكر فيه ، دون ان أهتدى الى حل !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الأعداد الماضية ، الكتب الآتية على التوالى :

◆ كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية ◆ طريق السعادة الزوجية ◆ مركب النقص ◆ حواء الجديدة ◆ كيف تقهر الخجل ◆ كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة ◆ فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة

◆ غزو السعادة ◆ التحليل النفسى ◆ الجنس الآخر ◆ عش حياة ايجابية

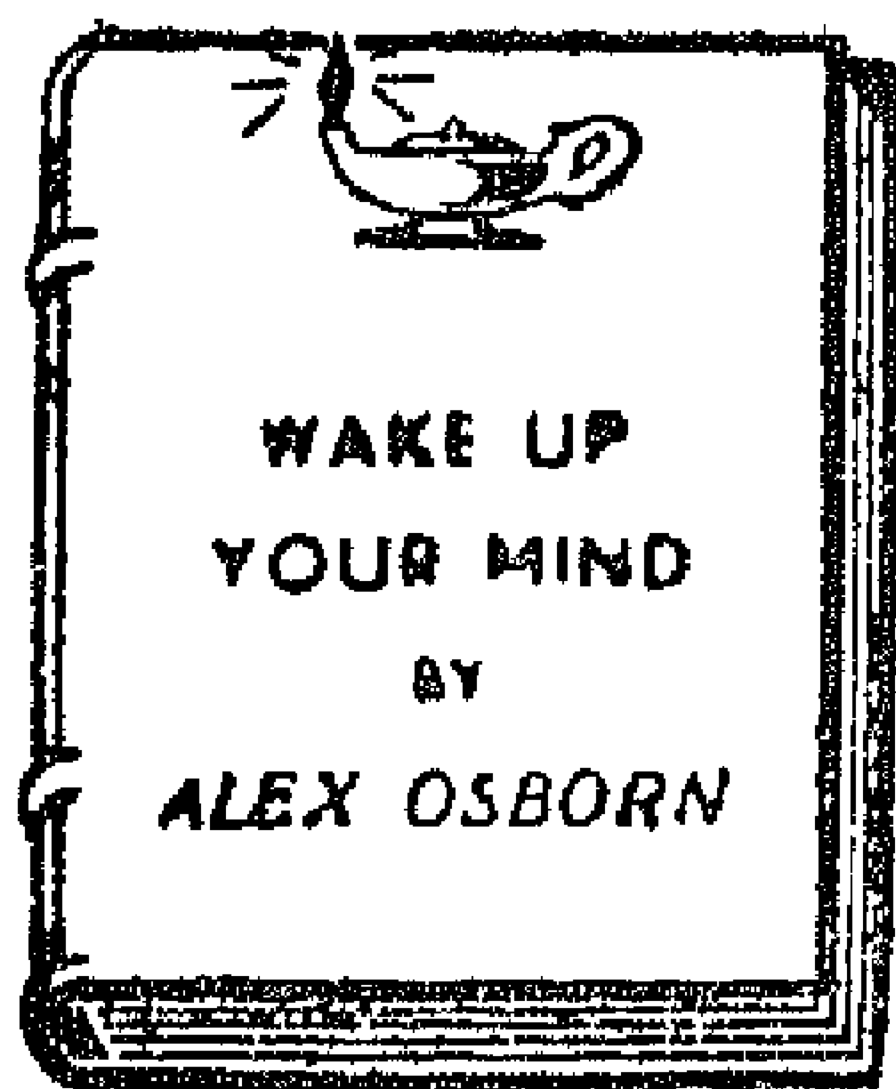
◆ أبواب الحب المغلقة ◆ فن الحب (لاوفيد) ◆ الانتصار على الخوف

◆ عش بحكمة تعش سليما ◆ كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة ◆ كيف تفسر أحلامك ◆ كن متفائلا ◆ تاريخ الغزل ◆ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة ◆ اتح لعقلك حياة جديدة ◆ دنيا الحب والسعادة ◆ حب وجنس وخيانة ◆ السلوك الجنسى عند الرجل ◆ السلوك الجنسى عند المرأة ◆ فى بلاد العراة ◆ اضواء على الجنس ◆ على اعتاب شباب الكهولة.

واليوم .. أقدم لك كتابا جديدا .

لا تخنق عقلك !

للعالم النفسانى الامريكى :
أليكس اوزبورن



تلخيص : محمد بدرالدين خليل

عزيزى القارىء :

كل انســـان يولد وفيه قوة تؤلف جزءاً من عقله ، ولك أن تسميها « قوة الخيال » أو « القريحة » ، او « الادراك » ، او « قوة التصور » ..

على أننى آثرت هنا ان اطلق عليها الاسم الاول .. ذلك لأننا اعتدنا — فى الحياة العادية — ان نقصر الخيال على كل شيء تتصوره عقولنا دون ان يكون له وجود ، واعتدنا ان نقرن الكلمة بالشــاعرية والجو الحالم .. **لهذا اردت ان اقر فى ذهنك ان ((الخيال)) اوسع من هذا واعم ..** فالتفكير فى سبيل حل مسألة حسابية اوهندسـية ، لابد له من « خيـال » .. والتفكير فى مشكلة من مشكلات الحياة ، لايستغنى عن « الخيال » .. وما المخترعات والمبتكرات الا نتائج تفكير علمى لعب فيه الخيال دوراً كبيرا .. **ولولا ان الانسان اعتاد — منذ اقدم العصور — ان يتمثـل فى خيـاله اختراق الفضـاء المحيط بالأرض ، والانطلاق الى الكواكب — والى القمـر بالذات — مانعمنـا فى عصرنا الحـالى بالصواريخ التى شـقت الفضاء فعلا ، وبلغ بعضهـا القمر ،** كما فعل الصاروخان الروسى والامريكى اللذان حملا اعلام الاتحـاد السوفييتى والولايات المتحدة الى القمر ..

ومؤلف هذا الكتاب : **((اليكس اوزبورن))** ، يذهب — نتيجة لدراسـته وابحاثه — الى ان حياتنا الحديثة تســاعد على ضمور الخيال واضمحلاله ، فى حين ان « الخيال » هو النور الذى يستطيع ان يحيل حياتنا الى بهجة ومتعة ..

انني اقدم لك - في الصفحات التالية - ماسوف يقنعك بأهمية الخيال - والخيال الخلاق بالذات ، في حياتك .. وبقيمة استغلالك هذه الهبة الطبيعية - أو هذا الجزء من تكوينك وكيانك - وتمرينه .. وآمل ان استطيع ان اقدم لك - في عدد تال - خير الوسائل والطرق التي توصل اليها علماء لشحذ القريحة واستغلال الخيال ..

اضمحلال الخيال اشبه بانهيار الجسد

• من الاقوال التي اذكرها لوالت ديزني : « كل انسان - تقريبا - يكون واسع الخيال في طفولته ، ولكننا نفقد قوة خيالنا رويدا ، كلما تقدمت بنا السن .. **واخفاقنا في توجيه خيالنا ، لايقل اثرا عن انهيار قوانا الجسدية نتيجة اهمال الرياضة والمران ! »**

بل ان اضمحلال الخيال قد يكون اسوا اثرا من اضمحلال القوى الجسدية ، اذ ان التغلب على العقبات التي نلقيها الشيخوخة في دروب حياتنا : يتطلب اكثر من القدرة على تمحيص الامور والبت فيها .. يتطلب خيالا مدربا ، مرنا ، نحتفظ بنشاطه عن طريق المران الخلاق خلال مراحل الحياة .. وقد كرس عالم تربوي كبير - هو البروفيسور «هيوز ميرنز» - جهوده في الفترة بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٤٦ للدراسة وتعليم « المقدرة الخلاقة » .. مقدرة الخيال على الخلق . وقد لخص ثمرة جهوده كرئيس لقسم التربية الخلاقة بجامعة نيويورك في عبارات قلائل : « **الملكة (بفتح اللام) الخلاقة بمثابة قلب آخر لنا** . وما استطاع امرؤ أن يعرف مصدر

قوتها ؛ ولكن احدا لايشـك فى ان هذا المصدر كامن فينا . وهذه الملكة كفيلـة بأن نبقى على حيويننـا ؛ اذا اتحنـا لها فرصة خدمتنا . اما اذا تركناها تخمد ، فكأنما اخمدنا الحياة فينـا .. **فهى فى حاجة الى مران مسـتمر يقويهـا فتزداد معاونتهـا لنا فى التغلب على حاجات معيشـتنا**)) . على ان ((البروفيسور ميرتز)) لم يشق بكلامه وتجاربه سوى درب واحد ؛ فى عالم كان التربيون وعلماء النفس يتجاهلونه ..

مطالب الحياة تخنق خيالنا

• **ولو ان** كل امرىء منا عرف عقله كما ينبغى ، لتفتحت امامه **ابواب معرفة** تفوق كل ما عرف حتى اليوم .. ولكننا لانزال نتطلع ـ حين نتأمل عملية التفكير ـ الى ظلام لا تبدده سوى ومضات واهنة ، سريعة ..

ولقوانا العقلية اربع شعب ، بوجه عام :

(**اولا**) **قوة الاستيعاب** : المقدرة على الملاحظة والاهتمام ..

(**ثانيا**) **قوة الاحتفاظ** : أى ادخار ما نستوعبه ، ونذكره ..

(**ثالثا**) **قوة التمحيص** : المقدرة على التحليل والحكم ..

(**رابعـا**) **قوة الخلق** : المقـدرة على التامـل ، والنفـاذ بالبصيرة الى ماوراء المظاهر ، وتكوين الافكار والآراء ..

فالعقل يعمل ـ فى الاستيعاب والاحتفاظ ـ كالاسفنج ، ثم تبدا عملية التفكير .. **والعقل المفكر يجد ان البت والحكم** اسـهل عليه من الخلق . والتعليم يسعى الى ان ينمى فينا موهبة النقد والتمحيص ، بينما تربى التجـارب فينا موهبة الحكم على الامور . فانت ـ من الصباح الى المساء ـ تنهمك فى أصدار احكام ، والبت فى مسائل : ((هل اغادر الفراش ، او استلقى فترة اخرى ؟)) .. ((هل اعمل هذا ، او اعمل

ذاك ؟ » .. **ومن الغريب حقـا ، اننا كلما ازددنا ممارسـة لموهبة الحكم ، قل تدريبنا لخيالنا ! ..**

وبالاسـراف فى استخدام مقدرتنـا على البت فى الامور ، نعمل على شل مقدرتنا الخلاقة .

الخيال انواع .. ارقاها ((الخيال الخلاق))

• و ((**الخيال**)) تعبير يشمل نطاقا واسعا ، غير واضح المعالم ولا الحدود ، حتى لقد وصفه احد العلماء بأنه « مجال يخشى علماء النفس ان يطأوه» .. ذلك لأن الخيال يتخذ كثيرا من الاشكال ، بعضها جامح ، وبعضها عديم النفع وقد يكون ضارا ، وبعضها خلاق .. فمن الجموح : التهوس ، والخبل ، والتعصب ومختلف انواع الشذوذ العقلى .. ومن الاشكال عديمـة الجدوى : احلام اليقظـة ، واحلام النوم ، **وهى قد تنقلب الى ضارة كما فى العقد النفسية والضجر ، اذ تسعى الانفعالات الى توجيه الخيـال الى العمل ضد صاحبه .. ولكن فى وسعنا ان نتغلب على هذه الاشكال بالتفكير الخلاق .**

وهنـاك انواع **تصورية** من الخيـال ، تمنحنـا قدرة « التمثل » ، اى ان نرى بعين العقل مالم نبصره فى الحيـاة الواقعية قط .. كما ان هناك خيالا مبتكرا ، يمكننامن ان نبصر جبلا — مثلا — فى منطقـة لاتوجد بها جبـال البتة .. ثم هناك الخيال ((**المسترجع**)) الذى يمكننا من اسـترجاع منظر من الماضى البعيـد ، او اصداء كلام مضى عليـه زمن طويل ، فهو يضيف البصر والسمع الى الذاكرة !

ومن انواع الخيال التصويرى ((**التمثل المجسم**)) .. ان ابنتى تتامل « باترون » ثوب يروق لها ، فسرعان ما تتراءى لها صورتها فى مرآة وقد ارتدت هذا الثوب !

والخيال ((**التقمصى**)) اشـبه بجسر ينتقل عليه المرء من

شخصيته الراهنة الى شخصية اخرى .. **كما يحدث للفتاة « الكومبارس » ، حين تتصور نفسها بطلة تؤدى دورا امام « الفتى الاول » وتستأثر باعجابه وهيامه ..**

ويبقى بعد ذلك الخيال « **التوقعى** » ، وهو كثيرا مايتجه بنا الى التشاؤم او التوجس ، فيسمم عقولنا . ولكنا حين نستطيع ان نتوقع الخير ، ونحن نعد انفسنا لاسوا الاحتمالات ، انما نستغل الخيال التوقعى استغلالا خلاقا .

الطبيعة تزودنا بمخ اكبر مما نستخدم

• **وارفع** انواع الخيال طرا ، هو « **الخيال الخلاق** » ، فعن طريقه نشق خلال الحقائق القديمة ، سبيلا جديدة ، ونتغلغل الى ماوراء الحقائق القائمة ، لنصل الى حقائق لم تعرف بعد . **ومن ثم فنحن نستخدم الخيال هنا كالمصباح الكشاف ، نسلطه هنا وهناك ، الى المعلوم وغير المعلوم ، لكى نكتشف جديدا .**

ومن الممكن – كذلك – استخدام الخيال الخلاق كأداة للخلط والمزج بين عناصر معلومة ، لنكون منها شيئا غير معلوم ، كفكرة جديدة او راى جديد .. وبهذا **نبتكر** او **نخترع** . وقد كان بعض الفلاسفة – فى الماضى – يصفون « الخيال » بأنه : « الارادة التى تتسلط على مواد الذاكرة » .. ولاجدال هناك فى ان المقصود بهذا التعريف هو « الخيال الخلاق » .

ومن الناحية العلمية ، تزود الطبيعة الانسان بمخ اكبر مما يستخدمه فعلا . ويثبت ذلك ان معظم مراكز المخ – كتلك التى تمكننا من الكلام او القراءة او السمع – توجد مزدوجة ، بحيث يظل واحدا من كل منها معطلا الى ان يصاب

المركز المقابل له بضرر او تلف ، ومن لم نبدا فى تدريب واستخدام المركز الذى كان بلا عمل .. وليس ادل على هذا من ان « **لويس باستير** » ـ **العالم الخالد الذكر ـ اصيب بشلل اتلف نصف مخه .. ومع ذلك ، فان فريقا من اعظم اكتشافاته العلمية تم بعد اصابته بالشلل** .. كذلك اجرى اختبار للذكاء ، لرجل من اهالى نيويورك كان الثلث الامامى من مخه قد ازيل ، فكانت النتيجة ان وجد ان ذكاءه مرتفع بدرجة كبيرة .

« برنارد شو » كان يفكر مرة كل اسبوع

• **ويقول** « البروفيسور » وليم جيمس ـ من اساتذة جامعة هارفارد ـ بهذا الصدد : « اننا انصاف يقظى ، اذا قورن بين مانحن عليه وما ينبغى ان نكون عليه . فنحن لانستغل سوى جزء صغير من مواردنا العقلية » .. وقد صاغ « جورج برنارد شو » هذه الحقيقة بأسلوب ادبى مسرحى ، حين قال : « قلة اولئك الذين يفكرون اكثر من مرتين او ثلاث فى السنة . **وقد استطعت ان اكتسب شهرة دولية لاننى افكر مرة او اثنتين فى الاسبوع** » .

والمقصود بهذا التفكير : التمحيص ، والتحليل ، والمقارنة ، واستخلاص النتائج .. اى الاحكام . اما بالنسبة للتفكير الخلاق ، فنحن اشد تقصيرا فى استعمال عقولنا فى مجاله . ويروى ـ فى هذا الصدد ـ عن « جيمس وولف » ، الذى كان من المع مصممى الاعلانات فى امريكا ، انه استخلص من خبرته الطويلة ان « **الخيال ليس هبة نادرة ، وانما هو عادة تنشا عن اقبالنا على استخدام عقولنا** .. وقد يقول معترض انه لايستطيع ابتكار الافكار الجديدة ، ولكننى اسأله : الم

اى مدى تحاول ؟ .. هل بذلت حقا جهدا صادقا ، لزمن طويل، لتدريب عقلك على التفكير الخلاق ؟ »

وما اكثر من ينظرون منا الى « الخيال » على انه شيء يسير من تلقاء نفسه ، كالمعدة أو اى عضو من اعضاء الجسم يعمل تلقائيا تحت ارشاد من جهاز عصبى منسجم ! .. ومن ثم ، فما لم ندفع خيالنا الى العمل ، فانه لايلبث ان يخمل ويتضاءل .

وينعقد الاجماع على ان الخيال هو الجذوة المقدسة التى تجعل الانسان ((سيد الحيوان)) . فالحضارة من نتاج الخيال الخلاق .. كل المخترعات ، وكل الافكار والآراء والمبادىء التى تدفع الانسان فى طريق التقدم ، من ثمار هذا الخيال .

الخيال القوى يخلق الفرص لصاحبه

• **ولقد** قام الدكتور « س . ل . ويلز » بدراسة تحت اشراف الجماعة الامريكية لعلم النفس التطبيقى والمهنى ، اختبر فيها فريقا من الموظفين ذوى المرتبات العالية ، وفريقا مساويا من ذوى المرتبات المتوسطة . فتبين ان **اولئك الذين بلغوا ارفع المراتب كانوا اكثر من سواهم مقدرة على التفكير فيما يفعلون ، وكيف ينبغى ان يفعلوه .. فالخيال القوى يهيىء لصاحبه الفرص** .

واذا تحولنا الى شؤوننا الخاصة ، وجدنا انه مامن شيء يملأ حياتنا بهجة واشراقا اكثر من خيال مدرب ، وموجه خير توجيه . فان مجرد استخدام هذا الخيال يعتبر متعة ومبعثا للرضى . ومع ذلك ، فان علماء النفس والتربية لم يلقوا اضواء كافية على ملكة التفكير الخلاق .

وقد لايكترث كثيرون منا لأن يعلموا ان الخيال هو الضوء الذى ينير لنا دنيانا ، وان الافكار الخلاقة هى الدرجات التى

نصعد عليهـا الى المجد .. ولكن الذى يجب ان نكترث له جميعا ، هو اننا نسـتطيع ان نحصل من دنيانا على نصيب اوفر من نصيبنـا الحالى ، اذا نحن اسـتخدمنا خيالنـا استخداما فعالا .

نحن اموات جزئيا .. مالم نستغل عقولنا

• **والخيال** ـ فوق كل هذا ـ من دعامات الحياة المستقرة الهانئة . فان ابحاث معهد الهندسة الانسانية ـ فى امريكا ـ تدل على ان معظم القلق والتذمر فى حياتنـا ، ينشـأ عن عدم اسـتخدامنا لملكاتنا ومقدراتنا . فان مواهبنـا تصبو دائما الى منفذ لترى النور ، فضلا عن انها تتوق دائما الى النمو والتطور . **فاذا نحن سـددنا عليها المنافذ ، وضيقنا عليهـا مجـال النمو والتطور ، انقلبت الى مصدر للضيق ، والقلق ، وعدم الرضى ..**

ويتناول البروفيسور «د . ك . واينبرينر» هذه الفلسفة بالايضاح ، اذ يقول : « اننا اموات جزئيا ، لاننا لانستخدم كل مقدراتنا . واوفرنا حيـاة هو اكثرنا انتاجـا خلاقا . فالشخص الذى اوتى خيالا خلاقا ، يستطيع ان يكون حرا ولو كان رهين « زنزانة » فى سـجن .. اما الذى لم يؤت خيالا خلاقا . فمثله كمثل حيوان يسير فى عالم مجهول ! »

ولقد انعمت الطبيعة على كل منا بدرجة معينة من الخيال .. وهذه الموهبة لاتتوقف على التعليم كثيرا ، فكم راينا من فنانين برعوا فى الفنون دون ان يكونوا قد درسوها دراسة وافية كافية .. وكم راينا من اناس نجحوا فى ميدان الاعمال دون ان يكونوا قد الموا بنصيب يذكر من العلم .

الثور الذى يسبق القطار !

• **ومن** الطرائف الفكهة التى يحسن ايرادها هنا ، للتخفيف من وطأة الحديث العلمى ، ان احد اصحاب مزارع تربية الماشية فى ولاية (تكساس) ، كان يقف يوما فى احدى النوافذ ، واذا به يرى سيارة مقبلة ، لم يكد يتعرف على من كان يستقلها حتى اندفع الى داخل داره ، وقال لخادمه : « ان القادم من ذوى المكانة فى (شيكاجو) .. وقد حدث ان ضمنى واياه مجلس شراب ، فرحت ازهو امامه — فى نشوة الخمر — **بان لدى ثورا اعتاد ان يسابق القطار كلما مر بحذاء المزرعة فى كل صباح ، وان يسبقه فعلا** .. وقد رغب الرجل فى ان يرى هذا الثور العجيب ، وانت تعرف ان لاوجود له فى الواقع .. لذلك اعهد اليك باستقبال الزائر ، فان سالك عنى ، فقل اننى سافرت ! »

وبينما تسلل السيد من الباب الخلفى ، سعى الخادم الى الباب الأمامى ، واستقبل الضيف مرحبا .. حتى اذا ساله هذا عن مخدومه ، قال : « لقد سافر الى (نيو اورليانز) ، ومنها الى (اتلانتا) و (جاكسونفيل) ، ثم الى (نيويورك)، والى (تورنتو) ، والى (كليفلاند) و (سنسيناتى) فى طريقه الى (شيكاجو) .. ومن هناك ، سيقصد الى (سانت لويس) ، ثم الى (دنيفر) ، فالى (سيتل) .. ثم يعود ، معرجا فى طريقه على هوليوود ! »

— وى ! .. يالها من رحلة ! .. وكم ينقضى من الزمن قبل ان يعود ؟

واذ اجاب الخادم : «يومان» ، هتف الضيف : «يومان ؟ ! .. كيف يتسنى له ذلك ؟ .. هل يستقل طائرة نفاثة خاصة ؟ » .. واجاب الخادم بهدوء : « لا ياسيدى .. انه يمتطى ذلك الثور السريع الذى يمتلكه ! »

النبوغ ليس شرطا للخيال الخلاق

• **واذا** كانت الملكة الخلاقــة تختلف من فرد الى آخر ؛ فان الدافع المحرك لها يكون اكثر اختلافا وتباينا .. وعلى هدى هذه الحقيقة ، يقسم التربويون الاطفال الى ثلاثة انواع:

(١) **المنساقون** : الذين يريدون من يملى عليهم مايفكرون فيه : ثم يتلونه عليه بعد أن يستوعبوه ..

(٢) **السائرون فى الركب** : الذين يحاولون ان يتبينوا ما يريده المدرس ،ثم يبــذلون من الجهــد ما يكفى لأن ينــالوا الدرجة التى تكفل أهم النجاح .. وحسب !

(٣) **حلالو المعضلات** : الذين يحبون الافكــار الجديدة ، ويحبون ان ينشروا افكارهم فى الصف الدراسى ، وان يتلقوا منها الجزاء المناسب .

وليست بنا حاجة لأن نكون موهوبين بنعمة النبوغ الفذ ، حتى نصبح من « حلالى المعضلات » .. **كما ان من الممكن ان نحرك مقدرتنا على التفكير الخلاق ، بطريقة لا تكبد كثيرا من العناء ..**

والواقع ان الخيال أشبه بجناحى النعامة ، فهو يمكننا من الجرى السريع ، وان لم يمكننا من الطيران ! .. ولكن كثيرين منا لايمشــون ، فما بالك بالجرى ؟ ! .. انهم اما ان يقفوا جامدين ــ فى مضمار الفكر الخلاق ــ واما ان يتقهقروا من طفولة نشيطة الخيال ، الى يفاع مجدب !

عقول النساء .. الغاز غامضة !

• **ولقد** قال جوستاف فلوبير ــ مؤلف « مدام بوفارى » ــ يومــا : « ان الموهبة رهن بتصرفاتنــا . فاما ان نهمــل اســتعمالها فتضمحل ، واما ان ننميها . بممارسة الخيال

الخلاق .. بحل المسائل والمشكلات .. باستخدام فراغنا بطرق تروض خيالنا » ..

ويرى بعض علماء النفس ان المرأة اقل من الرجل فى « القوة البدنية والخيال » . وانى لأشك فى هذا ، اذ تبين ان الاختبارات العلمية تدل على أن المرأة لاتقل خيالا عن الرجل ، ان لم تفقه أحيانا .. وقد اتيح لى ان ادرس خيال المرأة وتفكيرها طويلا ، لاسيما وان لى زوجة واربع بنات وسكرتيرة .. ومع ذلك ، فانى أعترف بأنهن لا يزلن غامضات بالنسبة لدراستى !

واذكر اننى قلت لزوجتى ، عندما ولدت ابنتنا الاولى : « اننى بالماجستيراه التى حصلت عليها فى علم النفس ، سأستطيع ان اوجهها بطرف اصبعى ! » .. ولكم كنت على خطأ : كما تبينت عندما بلغت ابنتى العاشرة من عمرها . فقد حدث ان وجهت اليها — ذات امسية — لوما رفيقا ، فاذا بها تدق الارض بقدمها ، وتصرخ : « اننى اكرهك ! » ..

وفى اقصى كرم وتلطف — اصطنعتهما لأظهر مدى قوة ارادتى — سألتها عن سر كراهيتها المزعومة ، فاذا بها تجيب: « لمجرد اننى أكرهك ! »

ولم تتحول عن هذا الجواب فى كل مرة وجهت اليها السؤال .. بل انها كانت تزداد انفعالا كلما ازددت انا رقة وتلطفا ، حتى انتهى بها الأمر الى ان ارتمت على الارض وراحت تدقها بيديها وقدميها ؛ وانا لا اكف عن سؤالها : « لماذا تكرهيننى ؟ » .. وفى النهاية ، قالت بصوت خافت : « انما اكرهك لانك .. شديد التلطف ! »

اعمال البيت تشحذ خيال المرأة

• وعلى الرغم من عجزى عن الالمام بعقل المرأة ، الا ان من

حقي ان اقول اننا ـ معشـر الرجال ـ خليقون بأن نعترف باننا اقل منهن خيالا . وكل ما نحتاج اليه للتثبت من هذا ، هو ان نتأمل الاعمال اليومية للنسـاء ، فسوف نرى ان ربات البيوت يمارسـن الخيال ويسـتغللنه اكثر مما يفعل معظم الازواج . **ذلك لان عمل الرجل غالبا ما يكون ((روتينيا)) ، اما المرأة ، فلا تخضع لقواعد تقيدها ، في عملها في البيت من الصباح حتى المساء ..** فتصور مدى التفكير والخيال اللذين تستخدمهما في تدبير مشترياتها ، وفي تصميم الاطعمة ، وفي تنسيق البيت ، وفي حمل الاطفال على ان يفعلوا هذا ويكفوا عن ذاك .

وكم من ازواج تبينوا مدى مالزوجاتهم من خيال خلاق ، فركنوا اليهن ، واستعانوا بهن .. وقصة « كوري » و «مدام كوري » اقرب مثـال لذلك . فقد كانا شـريكين في البحوث العلمية ، كما كانا شريكين في الحياة الزوجية .

اثر البيئة الحديثة على العقل

• **وهناك** حقيقة هـامة ، في مجـال الحديث عن تدريب الخيـال الخلاق وتمرينه .. تلك هي ان نموه قد يتعطـل بسـبب الجو الذي نعيش فيه . فالحـاجة هي التي دعت اسلافنا الى ان يبتكروا ويخترعوا مايخفف عنهم عناء الحياة والعمل . وكان عليهم ان يقدحوا فكرهم معظم الوقت ، لكي يصونوا حياتهم . **اما حياتنا الراهنة ـ وهي ناعمة نسبيا ـ فمن شـانها ان تخدر روحنا الخلاقة ، وان تبث الخمول في تفكيرنا الخلاق !**

ذلك لأن الانسان أصبح ـ في العصر الحديث ـ أكثر امنا وطمانينة ، بفضل ما اصبحت تكفله له الدولة من امن ، ومن معاش ، ومن تامينـات تقيه شر البطـالة والعوز .. كذلك

اصبح الانسان اقل جهدا فى العمل ، بفضل المخترعات الحديثة .. حتى العمليات الحسابية ـ بالنسبة لكاتب الحسابات ـ اصبحت الآلات تقوم عنه بها .. الأمر الذى يشجعه على أن لايشحذ عقله ، أو يجهد فكره .

لقد كان شعار الحياة عند أجدادنا : « اعمل والا مت ! » .. **اما الآن ، فاصبح انسان العصر الحديث يعتمد على الدولة ، ويطمئن الى انها لن تتخلى عنه ، او تترك اسرته للجوع والمرض والتشرد** .. فضلا عن انها تدافع عنه وعن اسرته ضد كل مايهدد أمنهم وسلامتهم .. لهذا فقد أصبح الشعار اليوم : «لماذا احاول ؟ .. ان الدولة ترعانى ، وتكفل لى العمل الذى أرتزق منه .. فلماذا أرهق عقلى فى الابتكار ؟ »

حياة المدينة تخدر الفكر والخيال

• **وهكذا** نرى ـ من وجهة النظر الى استغلال المرء لمواهبه ـ ان الشعور بالأمن والطمأنينة ، كثيرا مايكون عائقا لنمو خياله الخلاق .. فعدم الاطمئنان هو اعظم قوة محركة فى العالم .

ولقد كانت روح الجماعة محفزة فى الماضى على التنافس ، ولكنها اليوم تزداد خمولا .. كذلك اصبح اسراف الدولة فى فرض الضرائب من العوامل التى تقعد بالكثيرين ـ ممن لم يؤتوا التوجيه السليم ـ عن الاجتهاد والابتكار ..

وحياة المدن من العوامل التى تخدر قوى الفكر والخيال ، اللهم الا بالنسبة لبعض أهل الفن ورجال العلم واصحاب الاعمال .. اما حياة الريف ، فان الخشونة التى تتسم بها تتيح مجالا لممارسة الخيال الخلاق .

وقد قامت لجنة تابعة لمؤسسة كارنيجى ، بدراسة استغرقت خمس سنوات ، لتحديد الاصول الجغرافية والنشأة الاقتصادية لعدد ممن برزوا فى ميدان البحوث العلمية

.. فانتهت الى ان « البحث الخــلاق يقوى فى العقول التى لاتزال مرتبطة بالأوساط البدائية ، ولو بالذكريات .. وفى العقول التى نشأت ـ من الناحية الاقتصادية ـ فى الصفوف الدنيا من الطبقة المتوسطة » .

كذلك تؤثر الحرب ، والخوف من الحرب ، على القريحة الخلاقة فتضعفها .. بل ان المجندين يدربون ـ فى الجيوش ـ على ان يفعلوا مايؤمرون ، وليس لهم ان يفكروا .. ثم ان الحرب تولد عقدا مناوئة للمقدرة الخلاقة .. كذلك الشعور الذى يوحى للمرء : « ما الفائدة ؟ » .. على ان هناك استثناء واحدا يتمثل فى مجال البحوث التى يتطلبها المجهود الحربى ..

***

وبعد ؟ ! ..

الآن وقد ادركت قيمة التفكير والخيــال الخلاقين ، ابدا من هذه اللحظة .. ايقظ عقلك ، وايقظ خيالك ، حتى تنعم بالحياة وتشعر ببهجتها !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمي
(التمثيل - والفنان)

عزيزي القارىء ..

قدمت لك في هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • في سبيل الحب • الام • الملك يلهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • أغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الارامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع في حبائلهن • حلاق اشبيلية • الهاربة من الفضيحة • رجل الاقدار • جوديث • نيكراسوف • انباء مثيرة • الدروماك • جندى محترف • الشقيقات الثلاث • مهنة مسز وارين • الجحيم هو الناس • اقوى من المال • كردينال اسبانيا

واليوم أقدم لك : ((توسكا))



توسكا !

أروع تحف
المسرح الغنائي العالمي

عن مسرحية من تأليف : "ساردو" - ألحان : "بوتشيني"

عزيزى القارىء :

التمثيلية التى اقدمها لك ــ فى هذه المرة ــ ((الاوبرا)) ، تعتبر من أروع تحف المسرح الفنائى العالمى .. وهى مقتبسة عن مسرحية من تأليف ((ساردو)) ، مثلتها ((ساره برنار)) .. الفنانة التى تألق نجمها فى الربع الاول من القرن الحالى ، حتى تجاوز وهجه سماءالمسرح الفرنسى لينتشر فى سماء مسارح العالم بأسره ..

ومما زاد هذه ((الأوبرا)) قوة وخلودا ، أن تولى وضع ألحانها الموسيقى الايطالى ((جياكومو بوتشينى)) ، واصنع الحان اوبرات ((مدام بترفلاى)) و((البوهيمية)) ، و ((مانون ليسكو)) .. وكلها ((أوبرات)) قدمناها لك فى اعدادسابقة من ((كتابى)) . وقد بلغ من ابداع ((بوتشينى)) فى الحان ((توسكا)) ، ان توارى اسم مؤلف المسرحية وراء اسمه !

والقصة ــ بعد ذلك ــ تبدع فى وصف التضحية فى سبيل الحب ــ من جانب المرأة ــ والتضحية فى سبيل الصداقة ، من جانب الرجل ..

ومن طريف ما يذكر ، أن ((توسكا)) نقلت الى العربية ، فى اوج انتعاش المسرح المصرى ــ فى العقد الثالث من القرن الحالى ــ وقامت بدور البطلة السيدة ((منيرة المهدية)) ، التى كانت ملكة الغناء فى ذلك الحين ..

شخصيات الرواية :
فلوريا توسكا : مغنية مشهورة
ماريو كافارادوسي : رسام
البارون سكاربيا : رئيس البوليس
سيزار انجيلوتي : مجرم سياسي
الجلاد ــ الكردينال ــ القاضي ــ مسجل العقود ــ الضابط ــ لفيف من الجنود والشرطة ..
سيدات ونبلاء ومواطنون وصناع .. الخ .
الزمان : يونيو سنة ١٨٠٠
المكان : روما ..

الفصل الاول

• **نحن** فى احدى امسيات يونيو سنة ١٨٠٠ ، وقد بات « نابليون » طاغية اوربا ومصدر الرعب لاكثر ممالكها وسكانها ..

المنظر : هو فى كنيسة « سانت اندريا الافالى » .. الى اليمين قاعة صغرى للعبادة شيدتها اسرة « اتافانتى » .. والى اليسار « سقالة » مما يستعمله البناءون والرسامون ، ومنصة للرسم عليها صورة كبيرة مغطاة بقطعة من القماش ، والى جانبها ادوات الرسام .. ثم سلة بها طعام .

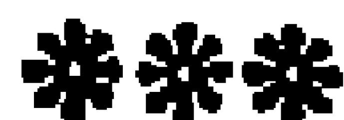
يدخل الهارب السياسى « **انجيلوتى** » لاهثا ينشد مكانا يختبىء فيه من مطارديه ، بعد ان فر من سجنه .. ويتلفت حوله فيرى صورة للعذراء معلقة وسط عمود ضخم ، **يبحث تحتها فيعثر على مفتاح ، فيفتح به باب قاعة اتافانتى ويختبىء فيها ..**

يدخل « شماس » الكنيسة المسن ــ المنوط به خدمة

انهيكل ــ حاملا فرشاة الرسام التى فرغ من تنظيفها ، يدهشه ان لايرى الرسام « كافارادوسى » فى مكانه فوق منصته .. وحين ينظر فى السلة فيرى محتوياتها لم تمس ، يقتنع بأنه كان واهما حين خيل اليه انه لمح الرسام يدخل منذ برهة ..

وبعد لحظات يدخل الرسام فعلا ، فيرفع الغطاء عن الصورة التى يرسمها .. واذا هى صورة « مريم المجدلية » الخاطئة ذات العينين الزرقاوين الكبيرتين وجدائل الشعر الذهبى .. **واذ ذاك يتعرف الشماس فى ملامح الصورة على قسمات سيدة من كرام المترددات على قاعة « اتافانتى »** ، فيعترف « كافارادوسى » بأنه قد استوحى صورة المجدلية من تلك السيدة بالذات ، لكنه لايرى فى ذلك بأسا ، رائما يأخذ فى المقارنة بين وجهها ووجه المرأة التى يحبها ، المغنية المشهورة « **فلوريا توسكا** » .. وهو يرفع عقيرته بأغنية مرحة !

لكن الشماس ــ وهو يغسل فرش الرسام فى اناء به ماء ــ لايكف عن تأنيبه على استلهامه صور الشخصيات الدينية من وجوه النسوة الطائشات .. وحين يرى زهد الرسام فى الطعام الذى تحويه السلة ، يرمقها هو بنظرة نهمة ، ويغبط نفسه على المنفعة التى سوف تعود عليه من قناعة الفنان الكبير .. ثم يغادر المكان ، بينما يمضى « كافارادوسى » فى مهمته ..



واذ تسكن الاصوات ، يحسب السجين الهارب « انجيلوتى » ان المكان قد خلا من الرجلين ، فيخرج من مخبأه .. ولاتكاد عيناه تلتقيان بعينى الرسام حتى يعرف كلاهما فى الآخر

صديقا قديما له .. فيعرض «كافارادوسي» على «انجيلوتي» معونته الكاملة .. وفي تلك اللحظة ، يسمع صوت « توسكا » في الخارج ، فيعطي الرسام الهارب المضني سلة الطعام — التي تحوي لحما ونبيذا — كي يقوى على مقاومة مطارديه . ويهيب به ان يعود الى مخبئه في القاعة المجاورة قبل دخول توسكا .. بينما تواصل هذه مناداة حبيبها من الخارج : « ماريو ! »

ويفتح لها كافارادوسي اخيرا ، فتدفعها الغيرة الى استجوابه عن المخلوقة التي كان يتهامس معها والتي سمعت هي من الخارج خطواتها وحفيف ثيابها ! .. لكنه يطمئنها ويقبلها ، فتطلب منه ان ينتظرها عند باب المسرح في نهاية السهرة ، كي تصحبه الى « الفيللا » التي يقطنها ، فيعدها خيرا وهو شارد الذهن .. ثم يتذكر صديقه المختبىء فيستحثها على الخروج بحجة رغبته في اتمام لوحته . لكنها ترتاب في نواياه ، وخاصة حين تلحظ الشبه بين الصورة وبين وجه الليدي اتافانتي ، فتثور ثائرة غيرتها الضارية .. لكنه يفلح في تهدئتها بعد لأي . ولا تكاد تخرج ، حتى يفتح الباب لانجيلوتي ، الذي نعلم من نقاشهما انه شقيق الليدي اتافانتي ، وانها هي التي دبرت ترك مفتاح المخبأ له ، كما اعدت له في القاعة طقما كاملا من الثياب النسائية التي تعينه على الهرب ..

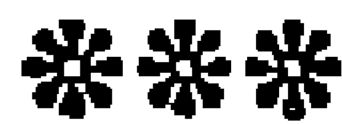
ونسمع طلقة مدفع قوية ، تعلن هروب احد المسجونين .. فيقترح الرسام على صديقه ان يخبئه في بئر عتيقة جانبة ملحقة بمنزله ، ومنها عبر ممر سري الى سرداب مظلم ، لا يستطيع « سكاربيا » وزبانيته من رجال الشرطة ان يهتدوا اليه .. ويتطوع كافارادوسي بأن يقود الهارب بنفسه الى

مخباه الجديد ، من خـلال باب القاعــة الحلفى .. وهكذا يخرج الانسان على عجل ..

وبعد لحظات يدخل الشماس منفعلا يحمل انباء خطيرة . فقد هزم نابليون ! .. وسرعان ما تتقاطر الجماهير من كل صوب ، كى تستوثق من الانباء وتحتفل بالنصر العظيم .. وفجأة يدخل **سكاربيا** مدير البوليس ــ ورجاله ــ على غير انتظار ، فيسود المكان سـكون رهيب ، ويجمد الجميع فى اماكنهم كالماخوذين ..

وأثناء التفتيش ، يعثر رجال الشرطة على مروحة تحمل الحروف الاولى لاسم الليدى اتالانتى ــ شقيقه الهارب ــ وعلى السـلة الفارغة .. ولايكاد يخرج احدهم بها ، حتى يصيح الشــماس ــ دون وعى ــ قائلا انها سلة الرسـام ، ويبدى دهشته من العثور عليها فارغة بينما كان صاحبها قد اكد انه لن ياكل مابها !

وهكذا يظهر لسـكاربيا بوضوح ــ وخاصة بعد ان تبين مشابهة صورة المجدلية لوجه شقيقة الهارب ــ ان الرسام هو الذى اعطى ما كان فى سلة الطعام لانجيلوتى ، وهو الذى اعانه على الفرار !



وهنا تدخل «توسكا» لتعتذر لحبيبها عن عدم استطاعتها تلبية موعد الليلة ، بسبب حفلة النصر ، فيدهشها ان لاتجده امام لوحته .. ويسـتغل « سكاربيا » الماكر هذه الفرصة لاصطيـاد الهـاربين عن طريق هذه المرأة ، فيعرض عليهـا المروحة كى يثير غيرتهـا ، زاعمـا انه وجدهـا فوق منصة الرسم ! .. فتتناولها منه فى لهفة وتفحصها ، فترى عليها رموز اسم « اتالانتى » ! ..

وتجد توسـكا فى ذلك الدليل ــ اقوى الدليل ــ على ان

صديقها على صلة غرامية بامرأة اخرى ، لعلها قد صحبته الى مسكنه ! .. فتتملكها نوبة غضب شديدة ، وتغادر المكان والدموع فى عينيها .. فيشيعها سكاربيا فى لباقة حتى الباب ، حيث يومىء برأسه الى مساعده « سبوليتا » كى يتبعها خلسة ، ويخطره بالنتيجة فى حفلة المساء بقصر « فارنيز » ..

وفى تلك الاثناء ، تبدأ اجراس احتفالات النصر تدق فى تجاوب منتظم ، ويسمع دوى مدافع قلعة سانت انجلو .. ثم يدخل الكردينال ويتجه فى مهابة نحو المذبح الأعلى ، معلنا بدء الاحتفال . وإثناء مروره ، ينحنى له رئيس البوليس فى احترام وهو يخاطب نفسه : « سوف نلتقى مرة اخرى ياتوسكا ! » . **فقد صح عزمه على ان يرسل كافارادوسى الى المشنقة ويرغم توسكا على ان ترتمى بين ذراعيه هو** .. وسوف ينزل فى سبيلها مختارا عن جميع آماله فى السماء !

ثم يركع على ركبتيه ويشارك الحاضرين — فى حرارة — فى صلاة الشكر لله من اجل النصر ..

الفصل الثانى

• **ويحل** المساء ، فاذا نحن فى قصر فارنيز ، فى جناح « سكاربيا » بالطابق الاول .. نافذة كبيرة تطل على فناء القصر .. سكاربيا جالس الى مائدة يتناول عشاءه . وبين الحين والآخر يتوقف عن الاكل ليفكر فى قلق .. يسمع عزف جوقة موسيقية من الطابق الاسفل ، حيث تقيم الملكة « كارولين » احتفالا ضخما لمناسبة الانتصار على نابليون .. الجماهير ترقص ، فى انتظار حلول موعد غناء توسكا .

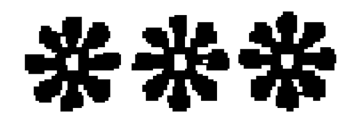
يستدعى سكاربيا مرؤوسه « سكياروني » ويعطيه خطابا كي يسلمه الى المغنية حال وصولها .. بينما يعود مرؤوسه الآخر سبوليتا من المهمة التي كان قد اوفده فيها ، فيقص على سكاربيا ماحدث : لقد تبع توسكا عند خروجها من الكنيسة حتى بلغت «فيللا» تكاد تخفيها الاشجار ، فدخلتها .. وبعد برهة قصيرة خرجت ، **فاقتحم سبوليتا واتباعه البيت ، وفتشوه تفتيشا دقيقا .. لكنهم لم يعثروا لانجيلوتي على اثر !**

ويغضب سكاربيا لذلك ، لكن غضبه ينقشع حين ينبئه سبوليتا بانهم قد اهتدوا الى الرسام كافارادوسي ، والقوا القبض عليه ، واحضروه معهم !

ومن النافذة المفتوحة ، يسمع الآن لحن بدء الحفلة ، فنعلم أن « توسكا » قد وصلت ، وانها فى الطابق الأسفل ، حيث توجد قاعات الاستقبال الملكية . وبناء على امر سكاربيا يحضر الشرطة كافارادوسي مخفورا ، يتبعه الجلاد «روبرتي» وقاض معه كاتبه ..

ولا يخفى الرسام شعوره بالحنق والتحدى ، لكن سكاربيا يظهر فى البداية شيئا من الحلم والدماثة .. وبين لحظة واخرى ، يسمع صوت توسكا تغنى فى الطابق الاسفل . واخيرا يغلق سكاربيا النافذة فيحتجب كل صوت .. ويبدا فى استجواب كافارادوسي بصوت صارم : **« مرة اخرى واخيرة ، أسالك : اين انجيلوتي ؟ »**

وفى هذه اللحظة تقبل توسكا ، منزعجة على اثر الرسالة التي تلقتها من سكاربيا .. فلا تكاد ترى حبيبها حتى تعانقه فى حرارة وانفعال .. وخلال انفاسها اللاهثة يوصيها هامسا بأن لاتبوح بحرف عما رات فى الفيللا !



ويأمر سكاربيا بنقل كافارادوسي الى غرفة التعذيب المجاورة ، لارغامه على الاعتراف . . ثم يبدأ حديثه مع توسكا في هدوء واحترام ، فتقرر أنها لم تمكث في «الفيلا» عبر فترة وجيزة . ولكن سكاربيا يكون قد بنى على المعلومات التي أدلى اليه بها تابعه « سبوليتا » ، ان « توسكا » حين ذهبت الى « الفيللا » لم تفاجىء حبيبها متلبسا مع غريمتها المزعومة اتافانتي - كما اوحت اليها غيرتها وشكوكها - بل وجدته يدبر الخطة لاخفاء انجيلوتي .. ويرى في لقائها العاطفي الحار لحبيبها الآن تأييداً لهذا الاستدلال .

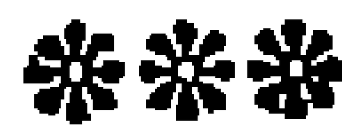
وتجيب المرأة في البداية على اسئلة سكاربيا في هدوء .. لكن اجاباتها لاتلبث ان تتخذ مظهراً مصبيا ، حين يلح ويلحف في سؤالها عن الاشخاص الذين رأتهم في الفيللا .. فيستدير اليها آخر الامر ، قائلا - بصرامة وحشية - ان رجاله لن يكفوا عن تعذيب كافارادوسي حتى ينتزعوا منه اعترافا شاملا ..

وفي تلك اللحظة ، تسمع من الغرفة المجاورة آهة متوجعة، فتناشد توسكا محدثها ان يرحم حبيبها .. لكنه يشترط عليها في مقابل ذلك ان ترشده الى مكان اختفاء انجيلوتي .. وتتوالى الآهات الصادرة من غرفة التعذيب ، حتى تنهار توسكا تحت وطأتها ، فتنخرط في البكاء بحرقة وعصبية ، ثم تتهالك على اريكة قريبة ..

لكن قلب «سكاربيا» لايرق للتعسة ، فيظل العاتي جامداً صامتا حتى يلمح بوادر تخاذلها .. واذ ذاك ينهض الى الباب ويشير الى الجلاد طالبا مضاعفة اجراءات تعذيب المتهم .. فتمزق الهواء صرخة الم واحدة طويلة ، تعجز معها توسكا عن احتمال اوجاع حبيبها المتزايدة ، فتضطر

الى التفريط فى توصيته اياها ـ من بين اسنانه المطبقة ـ بان تلزم الصمت المطلق .. وهكذا تبوح لسكاربيا ملهوفة ، وبصوت خائر : « البئر .. فى الحديقة ! »

ويحمل « كافارادوسي » على الفور من غرفة التعذيب الى حيث يلقى على اريكة ، فتركع توسكا بجانبه وتمطره بدموعها وقبلاتها .. وفى هذه الاثناء ينصرف الجلادوالقاضى والكاتب ، بينما يبقى سبوليتا وجنوده فى مؤخرة المكان اطاعة لاشارة من سكاربيا ..



ولا يلبث كافارادوسى ان يسأل محبوبته ـ بتأثير من الخلاصه القوى لصديقه ، وبالرغم من آلامه المبرحة ـ عما إذا كان قد بدر منه اثناء تعذيبه قول يستدل منه على موقع المخبأ المنشود ؟ .. فتطمئنه «توسكا» من هذه الناحية ، فى الوقت الذى يصيح فيه سكاربيا بمرؤوسه سبوليتا بصوت عال آمر : « **فى البئر التى فى الحديقة .. هيا ياسبوليتا ! !** »

ومن كلمات سكاربيا ، يعلم كافارادوسى ان توسكا قدباحت بالسر اثناء تعذيبه فأرشدت القوم الى مكان اختفاء انجيلوتى .. فيغتم . وفجأة ، يدخل القاضى سكياروني مضطربا ، ويعلن انه يحمل انباء سيئة .. فان الانتصار الذى يحتفلون به قد إنقلب الى هزيمة ، وقد انتصر بونابرت فى موقعة (مارنجو) .. فيثير النبأ حماسة كافارادوسى ، ويصيح برئيس البوليس : « فلترتعد خوفا ياسكاربيا .. ايها السفاح المرائى ! »

لكنه بذلك يسجل صك وفاته ، فان سكاربيا يامر القاضى والجنود بأن يقتادوه تمهيدا لشنقه ! .. **وبعد خروجهم يجلس الماكر الى سمائدة قبه توسكا ، يساومها على انقاذ**

حبيبها من الموت .. فيملأ لها كأسا بالنبيذ ويدفعها اليها ، فتسأله فى ازدراء : « وما الثمن الذى تطلبه ؟ » .. لكنه ـ دون ان يجيب ـ يملأ لنفسه الكأس الاخرى فى برود مثير .. انها ((هى)) الثمن الذى يطلبه لانقاذ حبيبها !

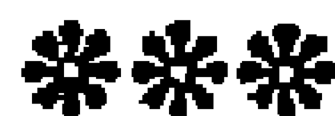
وتجفل المرأة مذعورة من فداحة الثمن ، ولا تخفى بغضها الشديد للرجل الذى يطلبه .. لكن اجفالها ورعبها يزيدانها سحرا وجمالا فى عينيه .. وتسمع دقات طبول من بعيد .. طبول الفصيلة التى سوف تقود كافارادوسى الى حتفه !

ويوشك سكاربيا ان يفرغ من عشائه ، فيتناول تفاحة ـ فى هدوء ـ ويقطعها الى اربعة اجزاء ، وهو يرمق ضحيته بين لحظة واخرى ، بنظرة فاحصة تحاول قراءة افكارها ..

ويستبد بالتعسة الخوف ، ولا تجد من تستنجد به فى محنتها غير ربها ، فترفع اليه صلاتها الضارعة وتغنى اغنيتها المشهورة : ((فى سبيل الموسيقى والحب عشت .. لم اوذ قط انسانا .. فلماذا يارب تركتنى فى ساعة حزنى وبليتى ؟))

وتسمع طرقة على الباب ، ثم يدخل سبوليتا ، فيبشر رئيسه بأنه قد داهم السجين الهارب ـ الجيلوتى ـ فى مخبأه بالبئر .. فلما لم يجد هذا سبيلا الى الفرار ، ابتلع سما ومات !

ثم يضيف الضابط : « اما الآخر ـ يقصد كافارادوسى ـ فهو فى انتظار قراركم الأخير » . وهكذا تبيت حياة معشوق توسكا رهن تصرف الرجل الذى افصح لها ـ منذ هنيهة ـ عن الطريقة الوحيدة لانقاذ هذا الحبيب ..



وسألها سكاربيا فى نعومة : «ماقولك ؟» .. فتهز راسها ـ مضطرة ـ بالموافقة .. ثم تدفن راسها فى وسادة الاريكة ، وتسيل دموعها .. تبكى عارها !

ولا يلبث سكاربيا ان يشرح لتوسكا خطته لانقاذ كافارادوسى ، فيقرر انه لامفر من ان تجرى عملية اعدام صورية ، محافظة على المظاهر ، قبل ان يتسنى للعاشقين الفرار من روما .. ثم يستدير الى مرؤوسه قائلا ان الاعدام يجب أن يصطنع « **كما فعلنا فى حالة السجين باليرى .. أتفهم ؟ »** .. فيجيب سبوليتا وهو يضغط على مخارج الالفاظ مؤكدا : « **بالضبط مثل حالة باليرى ! »**

ثم ينصرف ، فيستدير سكاربيا الى توسكا قائلا : «الان؟ لقد حافظت على وعدى ! » .. واذ ذاك ، **تطلب توسكا** ــ اولا ــ جواز مرور يخول لها ولحبيبها **حق الخروج من روما آمنين** .. فيتجه رئيس البوليس نحو مكتبه كى يجيبها الى **طلبها** ، بينما ترفع هى الى شفتيها ــ بيدين **مرتجفتين** ــ كاس الخمر التى ملأها لها سكاربيا ، **عسى** ان **تجد فى الخمر** ما يشد عزمها على التضحية .. وفيما تفعل ذلك ، **تلمح السكين الحادة المدببة التى قطع بها التفاحة ونزع قشرتها ــ فتسترق نظرة سريعة الى الرجل تستوثق بها من انه مايزال منهمكا فى الكتابة ــ ثم تمد يدها فى حذر الى السكين فتتناولها . وتخفيها وراء ظهرها !**

ويفرغ سكاربيا من اعداد **التصريح بالمرور** ، **فيطوى** ورقته ، ثم يتقدم نحو توسكا فاتحا ذراعيه يبغى عناقها ، وهو يهتف جذلا : « توسكا .. اخيرا صرت ملك يمينى ! » .. لكنها بدلا من ان تستجيب لعناقه ، تطعنه بحركة واحدة سريعة ، قائلة : « بل هكذا يكون عناق توسكا ! »

ويترنح ، ثم يسقط .. ويحاول جاهدا ان ينهض ، فيبذل محاولة اخيرة .. لكنه يسقط على ظهره .. ميتا !

وتتجه توسكا ــ على عجل ــ **الى المائدة** ، حيث تغمس طرف المنشفة فى الماء ، وتغسل بها اصابعها ، وهى تلقى

نظرات متقطعة الى الجثة الملقاة وراءهـا .. ثم تقف لحظة امام المرآة كي تصلح شعرها وهيئتها ، وتهرع الى المنضدة لتاخذ جواز المرور ، فلا تجده ! .. وبعد ان تفتش عنه فى عدة اماكن ، تعثر عليه آخر الامر بين أصابع سكاربيا الميتة ، فترفع ذراعه ، وتستخلص الورقة ـ فى حذر ـ من بين اصابعه .. ثم تفلت الذراع اليابسة من يدها ـ لتسقط على الارض ثقيلة جامدة ـ بينما تعمد هى الى الورقة فتخفيها فى طيات صدرها ، وتلقى على الجثة نظرة اخيرة ، ثم تطفىء الشموع التى فوق مائدة العشاء ..

وفيما هى تهم بالخروج ترى الشمعة التى فوق المكتب موقدة ، فتوقد بها اخرى ، وتضع الشمعتين فى خشوع .. واحدة الى يمين رأس سكاربيا وواحدة الى يساره . ثم تتناول صليبا ـ كان معلقا على الحائط ـ فتركع ، وتضعه على صدر الميت .. وانها لكذلك ، تسمع دقات طبول بعيدة ـ طبول فرقة الاعدام ـ فتنهض وتتسلل من الغرفة فى سكون ..

الفصل الثالث

• زنزانة فى سجن سانت انجلو .. الى اليسار نافذة صغيرة ، بجوارها منضدة ومقعد خشبى ، وعلى المنضدة مصباح ، وسجل ضخم ، وادوات للكتابة .. والى اليمين باب يفضى الى درجات سلم تقود الى فناء السجن .. ومن بعيد ، يرى مبنى الفاتيكان وكاتدرائية سان بول .. والسماء الصافية لا تزال مرصعة بالنجوم ، فنحن قبيل الفجر ، واجراس الماشية ـ الذاهبة الى مراعيها ـ تملأ الهواء من بعيد ، ثم تقترب وتعلو .. راع يعزف على مزماره .. ضياء اغبر قاتم يبشر باقتراب الفجر ..

فرقـة الاعدام ـ التى تقود كافارادوسى ـ تهبط سـلم الزنزانة ، الى حيث يستقبلها حارس يسامه جاويش الفرقة ورقة يكتب بمقتضاها شيئا فى سجل السجن ، ثم يذيله الجاويش بتوقيعه ..

ويهبط الجميع سلما اخرى ..

وينبعث رنين جرس ، فيقول الحـارس لكافارادوسى : « لاتزال فى عمرك ساعة ! »

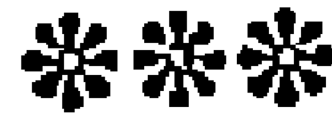
ويقبض الشجن بالفنان ، فيدفن وجهه بين راحتيه . بينما يقود سبوليتا والجاويش «توسكا» ـ التى اقبلت على عجل ـ الى حيث يوجد السجين .. فلا تكاد عيناهـا تبصران حبيبهـا المنكفىء على ذراعيه ، حتى تندفع نحوه ، فترفع وجهه عن راحتيه ، وتريه نفسها . ثم تطلعه على جواز المرور الذى حصلت عليه لكليهما فيسالها فى انزعاج : «**وما الثمن؟**»

وتروى له هامسة ماطلبه منها سكاربيا ، وكيف تظاهرت بالقبول حتى حانت لها فرصة مناسـبة فانتقمت لشرفها وقتلته . فيتنـاول كافارادوسى يد حبيبتـه بين يديـه فى شغف ، ويرتفع صوتهما معا باغنية الشـكر على الخلاص :

« اواه ايتها اليدان الرقيقتان الرحيمتان .. لم احس قسوة شوكة الموت الا اشفاقا عليك ياغرامى .. ! »

وتوضح توسكا لحبيبها ما تم التفاهم عليه ، من ضرورة اجراء عملية اعدام صورية ، ووجوب تظاهره ـ بمجرد اطلاق النار ـ بانه اصيب ، فيتظاهر اذ ذاك بالارتماء على الارض بلا حراك .. ويظل جامدا كالميت حتى تناديه هى ..

ويضحكان من طرافة الخدعة التى سيمثلانها . ولا تلبث ان تصل فرقة اطلاق النار الى ساحة التنفيذ .



ويعرض انجاويش ان يعصب عيني كافارادوسي ، ولكن هذا يرفض ، ويدير ظهره نحو الحائط ، ووجهه الى الجنود المتراصين .

ويطلق الجنود النار .. ويسقط كافارادوسي .. وتحدث توسكا نفسها معجبة : « يالبراعته في التمثيل ! » . ثم يلقي الجنود غطاء على « جثة » المحكوم عليه .. وتبدأ الفرقة سيرها ، عائدة الى مراكزها ..

وتهمس « توسكا » لحبيبها ان لايتحرك بعد .. حتى اذا مات صدى خطوات الجنود المبتعدة ، هتفت به : «والآن .. **انهض !** » .. لكنه لايتحرك ! .. أمن الممكن ان لايكون قد سمعها ؟

وتزداد منه اقترابا ، وتهيب به : « ماريو ، انهض بسرعة كي نفر .. قبل فوات الاوان ! .. انهض ، انهض ياماريو ! »

وترفع عنه الغطاء ، فاذا المفاجأة تتكشف لها ..

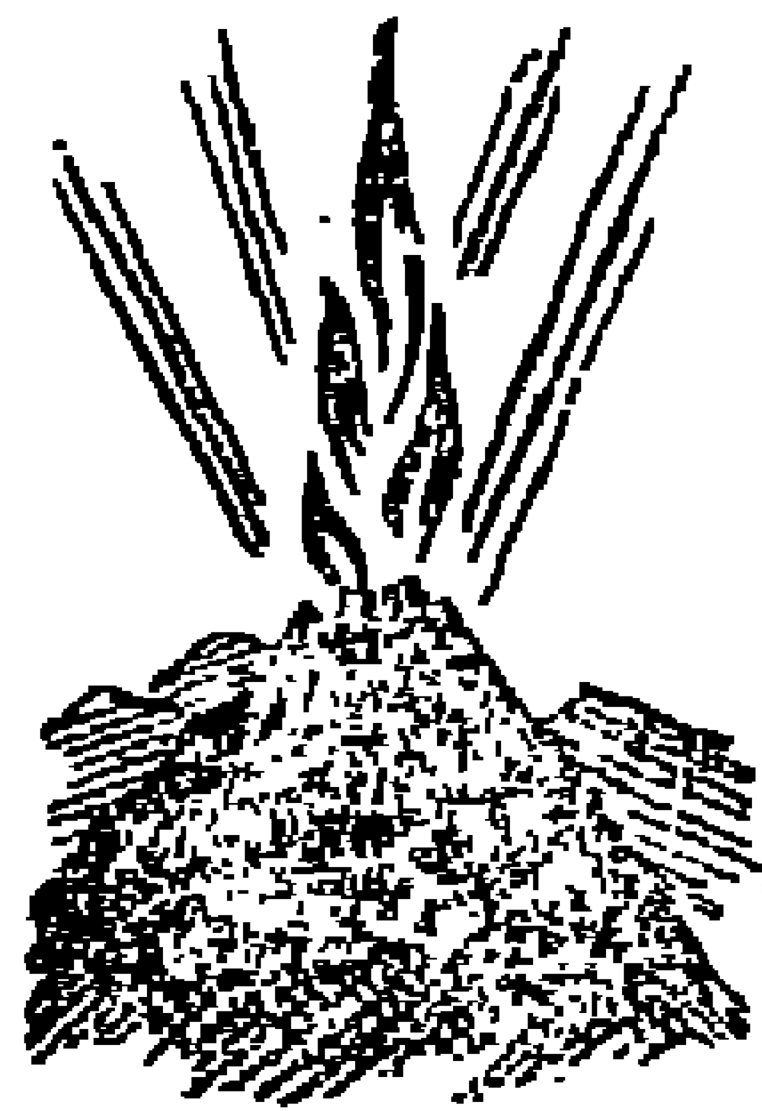
لقد خدعها سكاربيا ، واوصى مساعده ان ينفذ في المتهم اعداما حقيقيا لا صوريا .. اذن فهذا ماكان يقصده حين امره باتباع سابقة السجين « بالميري » ؟ !

وتتعالى الصيحات من أقصى فناء السجن .. لقد اكتشف مصرع سكاربيا ، وجاء جنوده يطاردون القاتلة ! .. **ولكن ماذا بقي لتوسكا في الدنيا كي تحرص على حياتها ؟**

وقبل ان يبلغ الجنود مكانها ، تندفع بأقصى سرعتها نحو سور السجن المطل على الهاوية .. وتلقي بنفسها الى الفضاء السحيق !

(ستار)

الخالدون



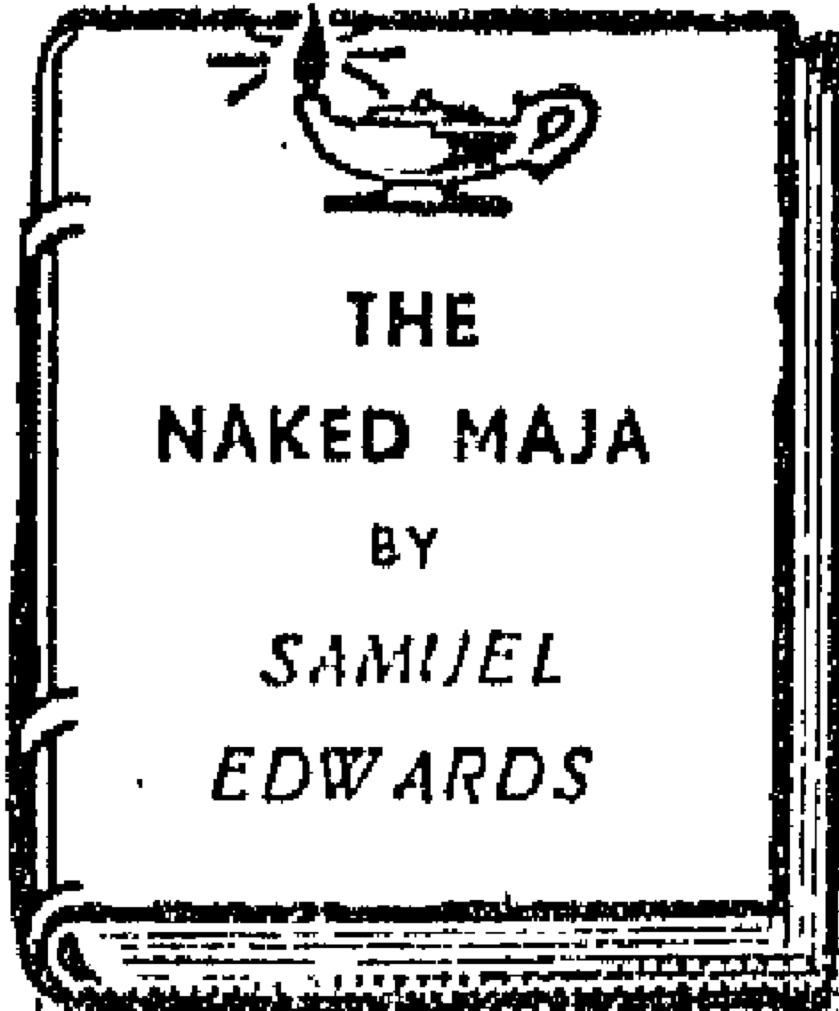
عظماء.. فى عيون السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة: «لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و «ماركونى» .. و «تشايكوفسكى» .. و «مصطفى كمال» .. ثم «شوبان» .. و «جى دى موباسان» .. و «مختار» و «تشارلس ديكنز» و «بيتهوفن» و «موسولينى» و «شيلى» .. و «بلزاك» و «بودلير» و «دستويفسكى» و «جيته» و «موليير» و «كونفوشيوس» و «الكسندر ديماس» و «ميكيل انجلو» ثم «ارسطو» و «اينشتين» و «فولتير» و «بيكاسو» و «البرت شفايتزر» وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب، والطب، والاختراع، والفنون .. الخ

وفيما يلى اقدم لك قصة حياة وغرام الفنان الاسبانى «جويا» ..

"الماجا" العارية !



قصة الفنان الاسبانى الثائر "فرانشيسكو جويا"
والمرأة التى ألهمته ثورات .. فى الفن ..
والحب .. والسياسة !

للكاتب والمؤرخ الروائى :
صموئيل ادواردز

تلخيص : رمسيس شكرى

عزيزى القارىء :

انصرف الرأى العـــــام فى انجلترا ، فى الأسابيع الاخيرة ، عن متابعة الاحداث الدوليـــة ، ليتابع حدثا داخليا .. **سرقة لوحة ، من المتحف البريطانى !**

واللوحة تمثل « دوق ولنجتون » .. ولكن اجـلال الشعب الانجليزى لذكرى هذا القائد ، لم يكن السبب الرئيسى لكل هذا الاهتمام ، فقد طغى عليـــــه سبب آخر ، أهم وأعظم .. ذلك هو : **ان اللوحة من ريشة فنان اسبانيا الخالد ((فرانشيسكو جويا)) ! ..** فان لدوق ولنجتون لوحات كثيرة ، ولكن .. ليس بينها ســوى لوحة واحدة بريشة « جويا » !.. ومن هنا كانت هـذه اللوحة ــ فى نظر شعب يتطلع الى الفن بنوع من التقديس والاكبار ــ أثمن من ان تقدر بمال !

فمن هو ((فرانشيسكو جويا)) ، الذى اعتبر ضياع لوحة من ريشته نكبة تثير الاهتمام ؟

ان الصفحات التالية تحدثنا عن « جويا » هذا .. عن شخصيته .. وعن نزواته .. وعن غرامياته .. وعن عبقريته .. وعن اخطائه .. ثم ، عن الحب الذى رد اليه وعيه ، واضاء له الطريق لكى يعرف نفسه ، وهـداه ــ أخيرا ــ الى أن يكرس ريشته لتحرير وطنه (اسبانيا) من الاحتلال الفرنسى ، بعد ان خـــدع يوما بشخصية نابليون بونابرت ، وبرنين مبادىء الثورة الفرنسية ، فخيل اليه ان فى احتلال نابليون لبلاده ، تحريرا لهـذه البلاد !..

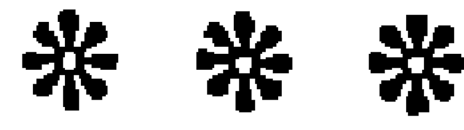
تناقض؟!.. لا بأس ، لنقرأ القصة كى تجد التفسير الذى يبرره !

- ١ -

هبت ريح نظيفـة من العلم والمعـرفة على اوروبا ـ فى القرن الثامن عشر ـ فمحت عن العقول ما كان يرين عليهـا من غبار الجهل ، وسمحت للضوء بان ينفذ الى الاذهـان ، مما استحق معه ذلك العصر ان يلقب « عصر النـور » .. **ولكن هذا النور لم يجد سـبيلا ـ فى بادىء الأمر ـ الى اسبانيا ، اذ شاء حكم ((شارل الرابـع)) أن يحتمى منه بظلال محاكم التفتيش** .. وحاول أن يبقى البـلاد فى حمأة الجهل والتأخر ، رازحة تحت طغيان طبقة النبلاء التى كان أفرادها يتمتعون بسلطات غير محدودة ..

على أن هذه الجهود لم تقو طويلا على صد الهواء النقى ، والشمس الصافية ، فما لبثا أن تسربا الىالبلاد.. وما أن سرى نقاؤهما ودفئهما الى عقول الناس ، حتى سرى معهما الى النفوس تململ منالاوضاع ، وحنين الى الحرية..**وكان الادباء والفنانون فى طليعة حملة المشاعل ـ كشأنهم دائما ـ** فسرعان ما انتشرت آراؤهم الصريحة الجريئة فى مختلف المدن ، من (مدريد) ، الى (برشلونة) ، الى (ساراجوسا) ـ عاصمة اقليم (اراجوان) ـ حيث كان يقيمرسامشاب ، يدعى **((فرانشيسكو جويا))** .

وكان « جويا » يقطن غرفة صغيرة فى قمة مبنى لم يكن يبعد كثيرا عن كاتدرائيـة « متروبوليتان ديل بيلار » ، الكاتدرائية الرئيسية للمدينة..ولكن القرب من مكانالتعبد ، لم يصرف « جويا » عن أن يقضى الشطر الأكبر من وقته فى الرقص والشراب ، فى حانات المدينة ومواخيرها ، برفقة الراقصات وفتيات « الماجا » .. وهـن صنف من الاناث ، كرسن حياتهن لايناس طلاب اللهو .



وفى ذات يوم ، أقبل « مارتن زاباتر » على مسكن « جويا » .. وكان من ادباء المدينةالمشهود لهم بروعةالانتاج فى الفلسفة والتعليق على الأحداث الجارية فى الصحف ، وقد ارتبط بجويا برباط وثيق من صداقة مخلصة ، كانت تجعله يعتبر نفسه فى مركز الأخ الأكبر له ، فكان لا يفتأ ينصحه بأن يكف عن اسرافهفى اللهو ، **خشية ان يقتلالمجون ما كان يؤمن بتوفره لديه من مواهب ونبوغ .**

ولقد أثاره — فى ذلك اليوم — اصرار الرسام الشاب على مجونه ، فراح يتأملهوهو يتخلل — بأصابعهالرقيقة — شعره الفزير الفاحم ، الذى كان ينسدل على عنقه ، ثم قال له : « عيبك انك لا تصغى لنصح ، وتعتقد انك ما دمت تمارس الرسم ، فمن حقك ان تنساق لكل ماتمليه عليك نزواتك.. ولكنى أقول انك وصمة عار للفن .. انظر الى نفسك ! »

والقى « جويا » نظرة على ثيابه ، ثم قال : « لقد ابتعت معطفى بنقود كسبتها من مصارعة الثيران .. وبقية ثيابى من رهان فزت به فى الحانة ! » .. فصاح «زاباتر»فى مرارة : **« مصارعة الثيران والمقامرة ؟ !.. أهذه وسائلك الى تنمية مواهبك يا « مايسترو » فرانشيسكو جويا ؟ » ..**

وصعد الدم الى وجنتى الشاب ، اذ لمس سخرية صديقه ، فان لقب « مايسترو » لم يكن يطلق الا على أعضاء أكاديمية مدريد . وأسلم رأسه الى راحتيه ، ثم قال معاتبا : « لماذا تصر على تأنيبى وتوبيخى ؟ »

— لأنك لا تمل صحبة فتيات «الماجا» فى حانة «ديابولو»، ولا تكف عن المقامرة مع الضباط ، وعن مصارعة الثيران ..

— ولكنى لا أجد فى ذلك ما يعطل انتاجى الفنى !

ـ حقا ؟ .. لقد أخبرنى « مارتينيز » انك لم تمسك الفرشاة منذ أن انتهيت من لوحة المدفع !

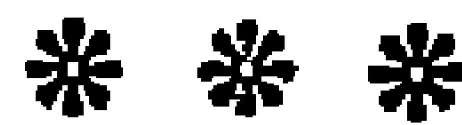
ـ فقط أعطنى وقتا ، وسوف ..

ـ ليس للفنان الخلاق ما يبيعه سوى وقته .. ولن تستطيع أن تستعيد تلك الشهور التى تنفقها هكذا هباء !.. اننى واثق من أنك ـ لو عمدت الى اتباع النظام فى حياتك ـ لاستطعت أن تغدو مرموقا ، والا .. فلن ترتفع يوما عن فنان من الدرجة الثالثة ، يكتسب رزقه من تصوير صغار الضباط !

ـ ليس هذا صحيحا !

ـ اننى أدرك أن هذا ليس هدفك . غير أنه ينقصك أمران لا بد من أن تتعلمها : **انك لا تدرك معنى العاطفة ، ثم انك لم تخبر الألم ... فاذا ما مررت بهاتين التجربتين ، صار فى وسعك أن تغدو فنانا حقيقيا !!**

وما أن انصرف (زاباتر) ، حتى أخذ « جويا » يستعيد نصائحه .. وشعر فى قرارة نفسه بأن صديقه كان محقا ، وان الواجب عليه أن يبدأ فورا فى العمل . غير انه كان يكره العمل فى ضوء الشموع ، وكان فى تلك الليلة يشعر بالقلق ، فلم يلبث ان شد حزام سيفه حول وسطه ، وارتدى قبعته ذات الريشة فى زاويتها اليمنى ، ثم يمم صوب حانة (ديابولو) !



وكانت الحانة مزدحمة بروادها ، غير أن « فرانشيسكو » وجد منضدة شاغرة . وما أن جلس حتى طلب لنفسه مشروبا ، وأخذ يذرع المكان بنظراته عله يجد أحد معارفه . وفجأة ، استرعى انتباهه نبيل شاب يدعى « دون لويز مينوزا » ، كان يجلس الى منضدة مجاورة برفقة احدى فتيات « الملجا » . وكان « دون لويز » ملازما فى فرقة المشاة

الثالثة ، كما كان عمـه كبير قضاة محـاكم التفتيش ، مما جعل سكان (ساراجوسا) ينظرون اليه على أنه من أعـداء الشعب .

وأخذ « فرانشيسكو » ينظـر فى اهتمام الى الفتاة التى كانت تجالس الضـابط .. كانت باهـرة الفتنة ، برغم انها كانت تنتمى الى احقـر الطبقات . وكان قميصهـا قصير الأكمام ، مفتوح الصدر ، يكشف عن نحر ناصـع البياض . وادركت الفتاة اهتمـام « جويا » بها ، فما أن تطلع رفيقها بعيدا ، حتى أغدقت على الشاب نظرة فتانة. **ولكن الضابط لمح ابتسامتها للغريب ، فقال لها فى غضب : « بياتريس .. يحسن بك أن تركزى اهتمامك على ! »**

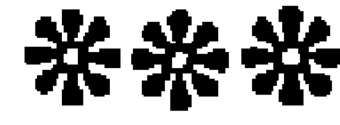
واذ ذاك ، ضحك « جويا » بصوت عال ، ثم نهض متجها الى مائدة الضابط وقال : « لبياتريس الحق فى أن تجالس من تشاء . واعتقد انها تفضل صحبتى عن صحبتـك » . واذ رأى الضابط أن غريمه كان يحمل سيفا ، رمـاه بقفازه ، فأسرع الخدم وأزاحوا المناضد استعدادا للمبارزة ، والتف الرواد الى جوار الجدران يتطلعـون فى اهتمام . أمـا « بياتريس » فقد أثملها الشعور بالفخار ، فرفعت صدرها مختالة ، ووقفت فى تيه وقد وضعت يديهـا فوق ردفيها ، وأخذت شفتاها تختلجان .

وكان غريم « جويا » يجيـد استخدام السيف ، لـكنه كان ــ اذ ذاك ــ فريسة للغضب والغيظ ، فلم يمض وقت طويل حتى وجد جويا فى صدر غريمه هدفا سهلا اخترقه بحسامه . ووقف الضابط فى مكانه سـاكنا ، والدم يتدفق من جرحه ، ثم ما لبث أن سقط على الأرض ، وقد بان الألم على وجهه . فمسح جويا سيفه بقميصـه ، وهو ينظر الى غريمه الملقى على الأرض بلا حراك. **وفى تلك اللحظة ، سمع**

صوت ((بياتريس)) تهمس فى أذنه قائلة : ((اتبعنى !))
وقادته الفانية خلال أزقة ملتـوية وشوارع خلفيـة لم يشاهدها من قبل . حتى اذا ما أدركهـا التعب ، توقفـت فجأة وأخذت تلهث أعياء . فسألها « جويا » أن تدله عـن الطـريق التى تؤدى به الى منزل « مارتن زاباتر » ، ثم أصر على أن يفترقا هناك ، وأفـرغ كيس نقوده الملىء بالقطـع الفضية فى يديها .

وكان الظلام يخيم على منزل صديقه ، ولكنه راح يطرق الباب فى رجاء .. واذا « زاباتر » يفتح الباب ، وهو فى كامل ثيابه . وما أن عرف شخصية « جـويا » حتى قاده الى الداخل ، وهو يقول : « كنت أتوقع قدومك .. ان المدينـة تتحدث عن فعلتك الجنونية ! » . **وأنبأه بأن ((دون لويز)) لم يمت ، وان عمـه قد استعدى السلطات على الرسـام الشاب ، فأصبحت سجون محاكم التفتيش فى انتظاره !**

وقال « فرانشيسكو » فى ارتياح : « ولكن ، ما دام دون لويز لم يمت ، فلن يستطيعوا أن يلفقوا لى تهمة قتله ! » .
فأجاب صديقه بقوله : « باكو .. يخيل الى أحيانا انك لن تتعلم شيئا البتة .. أسمعت يوما أن احدى محاكم التفتيش قد أصدرت حكما عادلا ؟ .. يجب أن تغادر (ساراجوسا) الليلة ، فلا تعود ثانيـة ! » .. وحملق « جـويا » فيه فى حيرة ، بينما استطرد زاباتر قائلا : « حـاول أن تصل الى مدريد .. وهناك ، اتجه فورا الى منزلى . وسأبقى هنـا يومين قبل أن أتبعك .. وسانطلق الى هناك رأسا ، ومن ثم فسوف أسبقك فى الوصول » . ودفع الى صديقه بثيـاب ليرتديها بدلا من ملابسه ، ثم لوث وجهه بالفحم . وبعد أن انتهى من عملية التنكر التى أجراها له ، قال : « لست أعلم لماذا أهتم بأمرك . لقد أظهرت فى عملك بعض ملامح العبقرية ، ولكنك لن تغدو فنانا حتى تكتشف روحك ! »



ما أن انطلق « جويا » فى طريقه ، وبارح حـدود المدينة ، حتى اكتشف انه أعطى كل نقوده لفتاة « الماجا » ، وأصبح خالى الوفاض . فكان عليه أن يعمل ـ خلال طريقه ـ فى كل مزرعة يصادفها ..

واكتشف خلال رحلتـه ، أن السنوات التى قضاها فى (ساراجوسا) أنسته ما انطوت عليـه نفوس عامة الشعب والفلاحين من نبل .. كما تبين ما كان يعيش فيه النبلاء من بذخ ، بينما كانـت بقيـة الشعب ترزح تحت وطأة الفقـر والعوز ..

ودامت الرحلة اشهرا .. فلما أقبل الخريف ، لم يكن قد تجاوز ـ فى سيره ـ حصن (جـوادا لاجارا) القـديم .. وهناك ، عمل خادما فى حظيرة خيل تابعة لفندق كانت تؤمه صفوة النبلاء . وكان دوق « البا » ـ الطاعن فى السن ـ بين النزلاء ، فما لبث «فرانشيسكو» أن سمع عن حياة الرجل ، **وكيف أنه لم يـكن يعنى فى الحياة بغير الصيـد ومطـاردة العذارى الصغيرات !**

وتصادف أن ذهب « فرانشيسكو » ـ ذات يوم ـ الى بئر فى مؤخرة الفندق ، فملأ دلوا بالماء .. وبينما كان يبحث عن ركن منعزل ليغتسل ، أبصر فتاة صغيرة تركض نحوه ، وعلى أساريرها ذعر قاتل ، وقد انزاح قميصها عن أحـد كتفيها كاشفا عن ثديها .. وعرف فيها الوصيفة التى عينت بالفندق بمناسبة مقـدم الدوق .. ثم أبصر الدوق الـكهل يعدو خلفها ، فى حيوية لا تلائم سـنه ، **فلم يتردد ((جويا)) فى أن يعترض طريقه ، فيصطدم به متعمدا .. وسقط الاثنان على الأرض ، والدلو فوقهما .. وكان جزاء ((الخادم !)) أن فصل من الفندق فورا ..**

وآوى الى غرفته يحزم متاعه القليل ، ليستأنف رحلته . . واذا به يسمع طرقا خفيفا على الباب ، ثم أقبلت الوصيفة ، فرمقته فى امتنان ، وقالت : « **جئت أقدم لك شكرى ، وأهبك ما عجز الدوق عن شرائه !** » . . ومع انه لم يكن قد خالط النساء من أمد غير قصير ، الا أنه لم يشعر برغبة فى أن يستغل « كرم ! » الفتاة . . وفجأة ، ألفى نفسه يهمس لها : « لا تتحركى ! » . ثم أمسك بقلم الفحم ، وصفحة من الورق ، وراح يرسمها وهى تزيح قميصها لتكشف له عن مفاتنها . . ودفع اليها بالرسم قائلا : « احتفظى به تذكارا للمناسبة التى أعادت الى فرانشيسكو جويا ايمانه بالشعب ! »

- ٢ -

وبلغ مدريد أخيرا ، فألفاها مليئة بالمتناقضات ، تثير فى النفس اعجابا واشفاقا ، وتفيض جمالا وقبحا ، ويعيش فيها الأغنياء فى نعيم باذخ بينما ينسحق عامة الشعب تحت أعباء الفقر . .

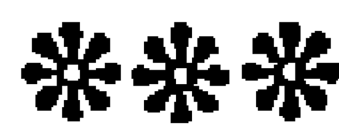
ولم يلبث « جويا » أن اختلط بأهل الفن ، فسمع منهم سيرة الملك شارل الرابع ، وزوجته « ماريا لويزا » ، ورئيس وزرائه « دون مانويل جودوى » ، الذى قيل أنه كان عشيق الملكة ، وان واحدا ـ على الأقل ـ من أبناء الملك كان ثمرة هذه العلاقة التى أطلقت يده فى الحكم ، فكان المسيطر الفعلى على البلاد . .

وأخذ « فرانشيسكو » يقضى فترة الصباح متتلمذا على الفنان المشهور « مارتنيير ديل باراكو » ، وينصرف بعد الظهر الى الرسم ، حتى أن « زاباتر » ـ الذى كان يشاركه المسكن ـ لم يعد يجد فى حياته مجالا للانتقاد . ولم يستبق الرسام الشاب من هواياته السابقة ، سوى التردد على

حلبات مصارعة الثيران .. الى أن قدر له أن يتعرف على أخت زميل له ، كانت بارعة الجمال ، وتدعى « جوزيفا » ..

وفى ذات مساء ، استبد به الاعجاب ، فدعاها الى أن تتمشى معه فى الحديقة ، وراح يبثها آماله العـراض ، وحلمه بأن يصبح يوما رسام البلاط الملكى .. وفجأة ألفى نفسه يضمها الى صدره ، ويطبق بشفتيه على شفتيها .. **وعندما استطاعت الفتاة أن تفلت من ذراعيه ، وأن تدفعه عنها ، ابتدرها قائلا : ((أرجو ــ بكل تواضع ــ أن تقبلينى زوجا !))**

وكانت « جوزيفا » متزمتـة فى استقامتها ، متسامية بعواطفها ، ولكن حرارة المفاجأة أذابت تزمتها .. فتزوجا ! !

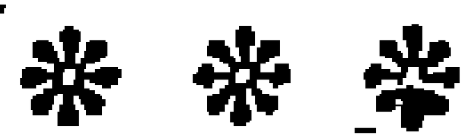


على أن هذا الزواج كان مقدرا له الفشل من البداية ، اذ أن المسئوليات الجديدة اضطرت « فرانشيسكو » الى أن يرسم أفرادا كان يرفض ــ من قبل ــ أن يخلدهم بريشته ، مما أوحى اليه بأن الزواج كان سببا فى أن يخالف مبادئه .. كما أن « جوزيفا » كانت تثور كلما وفد على مسكنها أحد أصدقاء زوجها من مصارعى الثيران ، مصطحبا احدى فتيات « الماجا » ..

وما كان هذا كله ليحطم الزواج تماما ، لو لم يلمس ((فرانشيسكو)) فى زوجته نفورا من العلاقة الجنسية ، نتيجة التزمت التى نشأت عليه ، والذى كان يصور لها هذه العلاقة ــ المشروعة بين الزوجين ــ لونا من التبذل والتردى .. ثم جاءت الطامة الكبرى ، يوم أراد « جويا » أن يسترضي زوجته ، فرسم لها لوحة ــ أطلق عليها اسم **((الشمسية))** ــ وعلقها فى قاعة الاستقبال .. فما أن رأتها « جوزيفا » حتى ثارت وبكت ، اذ رأت فى تعمده رسمها وصدر ثوبها مفتوح ، اهانة لها .. وعبثا حاول أن يقنعها

بأن الجمال نعمة من الخالق ، يجب أن يراها كل الناس ، وأن يخلدها الفن ، فقد كان جواب جوزيفا : « لا تكن متبذلا ! .. لقد صاحبت فتيات « الماجا » طويلا ، ولعلك تخيلتني منهن !.. أترغب فى أن تعرض جسدى على الملأ ؟ »

وقال ــ أخيرا ــ يسترضيها : « لا بأس .. ما دامت اللوحة لم تحز رضاك ، فسأبيعها ! ». **واذ ذاك اشتدت ثورتها وتناولت سكينا ، وانقضت على اللوحة تحاول أن تمزقها** .. واعترض جويا طريقها ، فصاحت فيه : « لن تجرؤ على بيعها ، فلست أسمح لك ! .. أترغب فى أن يتأملنى الأغراب ، كأننى من فتيات الماجا ؟ » .. وهددته بأن تبرح داره فلا تعود اليها . وكان الغضب قد استبد به ، فانحنى لها فى سخرية ، ثم سار الى الباب . حتى اذا بلغه ، التفت اليها قائلا : « من تراك تكونين حتى تتعالى بهذا الشكل على ؟.. اذا قدر لأحد أن يتذكرك فى الدنيا ، فلن يكون هذا الا لأنك كنت يوما أنموذجا (موديل) لفرانشيسكو جويا ! »



وفيما كان يهيم فى شوارع المدينة ليفثأ غضبه ، التقى بصديق ممن كانوا يشاطرونه التردد على حلبات مصارعة الثيران فى (ساراجوسا) ، ويدعى «جوانيتو» ، فاحتفى به ، وانطلقا الى حانة راحا يعبان فيها من شراب «الكالفادوس» ، الذى تشعل كاس واحدة منه النيران فى أشد الدماء برودة .. ثم دعا « جوانيتو » صاحبه الى مشاهدة حفلة لمصارعة الثيران ، فى ساحة كان قد تولى ادارتها مؤخرا .

واحتلا مقعدين وسط الصفوف التى كانت مخصصة لعلية القوم .. ومع أن « جويا » كان قد أفرط فى الشراب ، الا أن الغضب ــ الذى ظل يراوده ــ حفظ له توازنه . فما

أن استقر به المقام ، حتى راح يتأمل وجوه المتفرجين ، وما ارتسم عليها من تعبيرات ، وقد راودته رغبة في أن يرسمها .. وفجأة لمح « دوق البا » في احدى المقصورات ، **ولكن نظراته سرعان ما تحولت عن الوجه المكتهل ذى اللحيــة البيضاء ، واستقرت على وجه حسناء كانت الى جواره ..**

وكان قد علم أن الدوق تزوج ــ قبل شهرين ــ من فتاة فى عمر ابنته ، قبلته مرغمة ، تحت ضغط والديها الطامعين فى ثروته ونفوذه .. وخيل الى « فرانشيسكو » ــ وهو يتأملها ــ انها اجمل امرأة فى الوجود ، فما كان ليخطر بباله أن بين البشر امرأة اوتيت كل هذه الفتنة والجمال .. اذ كانت طويلة ، رشيقة القوام ، ذات شعر احمر متألق ، كأنه نار انحدرت فى تموج على كتفيها .. وكانت بشرتها ناصعة البياض ، وعلى محياها معالم الصحة .. وقد ارتدت ثوبا ذهبى اللون ، التف حول جسمها فى احكام ، كاشفا عن صدر شامخ ، فوق خصر نحيل ، على خلاف نساء الطبقة العليا فى ذلك العصر ، اذ كن يهوين البدانة !

وفطنت الدوقة ــ أخيرا ــ الى الفنان الذى كان يلتهمها بنظراته .. وبدون حرج أو استحياء ردت عليه بمثلها ! .. وبدا أنها وجدت فى شكله مااستأثر باهتمامها . ولكنه لم يفطن الى شيء ، اللهم الا انه لن يجد فى حيــاته من تفوقها حسنا وسحرا !

وفجأة ، انتبه الى انتهاء المباراة ، فراح يشق طريقه ــ مع جوانيتو ــ بين أمواج الحشد .. وغابت الدوقة عن نظره برهة ، ولكنه لم يلبث أن لمحها من جديد مع زوجها ، وقد أحاطت بهما ثلة من الجنود ــ يرأسها ضابط بدين ــ تفسح لهما الطريق ..

والتقت نظراته بنظراتها ، فأيقن انها كانت تتفحصــه فى

جرأة ، غير محاولة أن تكتم اعجابها به ! ..ثم انتبه من شروده فجأة على صوت الضابط البدين ، وهو يصيح فيه : « انت .. افسح الطريق ! » .. ودفعه بطرف سيفه ، فمدت الدوقة شفتيها فى استياء ، وتطلعت الى « جويا » ترتقب ماقد يفعل ..

والفى نفسه يشهر سيفه ، ويلوح به فى وجه الضابط صائحا فى مثل لهجته : « انت .. حذار من استعمال لعبتك الحديدية هذه ! » .. فرد الضابط فى استكبار : « اتتحدى الملك ؟ » .. ولكن فرانشيسكو أجاب ببرود : « ولكنك لست الملك ! » .. ولم يتم جملته ، حتى كان الضابط قد هجم عليه ، رافعا سيفه وكأنه هراوة .. وانزاح « جويا » عن طريقه فى اللحظة المناسبة ، فتعثر الضابط . واذ ذاك **وخزه جويا بسيفه قاصدا مجرد جرحه .. لكن السيف اخترق جسده ، فسقط الضابط على الارض والدم ينبثق من جرحه بغزارة ..**

أما الاحداث التى تلت ذلك ، فقد كان فرانشيسكو غائب الوعى عنها .. كل مافطن اليه منها ، هو أن الدوقة كانت تبتسم له ، ولم يكن لديه شك فى أنها كانت تقر مافعله .. ولكن « جوانيتو » ــ الذى لم يسلب لبه جمال الدوقة « ماريا كايتانا » ــ أدرك حرج الموقف ، فقبض على معصم الفنان ، وراح يركض به بين الجموع ، حتى اجتازا نطاق الناس ، وتغلغلا فى أزقة مدريد .. وتذكر الفنان الشاب ــ وهما يلوذان بالفرار ــ ماجرى فى (ساراجوسا) من قبل ، فأدرك أنه لم يفد شيئا من تجربته السابقة .. واستبد به الحنق على « جوزيفا » ، فان استشارتها اياه ، كانت سبب كل هذه الاحداث !

***

واضطر « فرانشيسكو » الى أن يختفى عن الانظار فترة من الزمن ، راح خلالها يتنقل من بلدة الى بلدة ـ بصحبة « جوانيتو » ـ مكتسبا قوته من مصارعة الثيران ، حتى دبر صديقه وسيلة رحلا بها الى ايطاليا .. وبالرغم من أن لندن وباريس كانتا تتنافسان لاحتلال الصدارة فى ثقافة العالم الغربى ، الا أن (روما) كانت بعد أكثر المدن فنا وثقافة .. وهناك انهمك « فرانشيسكو » فى عمله ، وواصل النهار بالليل فى رسم اللوحات ، حتى أن كثيرا من أساقفة الفاتيكان عهدوا اليه بعمل لوحات دينية للكنائس . **غير أن عاطفته ووجدانه ظلا يتجهان الى وطنه المكبل بأغلال الاقطاع ..** وفطن ـ فى تلك الاثناء ـ الى أنه من السخف ان يحاول أن يفك تلك الاغلال بالقوة ، ورأى فى ريشته الوسيلة المثلى لتحقيق هدفه . ولكنه لم يكن يملك أن يفعل شيئا فى هذا السبيل مادام يعيش فى المنفى ، ومن ثم كتب الى صديقه « زاباتر » طالبا منه أن يحاول أن يجد طريقة للحصول على عفو ملكى ، كما سأله أن يذهب الى زوجته ، عارضا عليها أن يستأنفا حياتهما الزوجية ، معبرا عن ندمه على حماقاته السابقة ، موطدا العزم على الاستقرار .

ووفق « زاباتر » فى الطلب الاول ، فقد وصل الى سمعه ان « دوقة ألبا » كانت معجبة بأعمال « جويا » ، وكانت تحتفظ فى منزلها ببعض لوحاته . ومن ثم فقد ذهب الى منزلها وعرض عليها قضية صديقه ، واذا بها تعده بأن تعمل غاية وسعها للحصول على العفو . وقبل أن ينصرف ، نظرت اليه الدوقة ، ثم قالت : « ان أسبانيا تحتاج الى رجال أمثال فرانشيسكو جويا .. وأنا ـ أيضا ـ أحب وطنى ! » .. لكنه حين ذهب لزيارة « جوزيفا » فى منزل أخيها ، رفضت

باصرار وبرود أن تعود الى زوجها مهما يحاول ، قائلة انها وطدت العزم على قضاء بقية أيامها « ارملة » !!

- ٣ -

وكان « فرانشيسكو » قد غادر روما الى نابولى ، عندما زاره أحد موظفى السفارة الاسبانية ، وسلمه — **دون** ايضاح — مستندا يحمل توقيع الملك شارل الرابع ، بالعفو عنه عفوا شاملا .. فبادر يتخذ عدته للرحيل .. وبعد أيام قلائل وصله خطاب من « مارتن زاباتر » يخبره فيه بأن **« دوقة ألبا » كانت صاحبة الفضل فى العفو عنه ، فكتب اليها — على الفور — معبرا عن امتنانه .**

وما أن وصل الى أسبانيا ، حتى ذهب — من فوره — الى زوجته ، غير ملق بالا الى ماقاله « زاباتر » . لكن « جوزيفا » استقبلته فى برود وتعال ، وأصمت اذنيها عن توسلاته . على أن الشىء الذى أثار غضبه ، هو أنها اتجهت نحوه ، وقالت فى صوت يشبه فحيح الافعى : « مازلت تعمد الى الحيلة لبلوغ أغراضك ، فلست تطلب منى أن أعود اليك ، الا لان أخى انتخب رئيسا للاكاديمية ، واحسبك تطمع فى ان يعينك فيها ! » .. وقاوم الشاب نفسه حتى لايبطش بها ، وتسمرت قدماه ، والتمعت عيناه ، ثم قال : « ان أعمالى هى التى ستقودنى الى الاكاديمية ، ولن يستطيع أخوك أو أى انسان أن يوصد أبوابها فى وجهى ! » .. وغادر المنزل وهو موقن من انه لن يشعر بالاسف أو الندم ، اذا لم يقابل زوجته مرة اخرى !

وفى اليوم التالى ، استأجر غرفة صغيرة ، تصلح لان تكون مرسما — « استوديو » — وابتدأ من جديد يكرس وقته للعمل .. **وبرغم انه كان يستخدم كثيرا من فتيات « الماجا »**

كنماذج حية لرسومه ، فانه لم يحاول قط أن يندمج فى أية علاقات غرامية !

❊ ❊ ❊

وكان « فرانشيسكو » منهمكا فى رسم احدى اللوحات ـ ذات يوم ـ حين اندفع « جوانيتو » الى المرسم صائحا : « يـاكو ، لقـد نجـحت .. لقـد نجـحت ! » . فقطب فرانشيسكو حاجبيه ، وقال دون أن ينظر اليه : « نجحت فى ماذا ؟ » ، فأجـاب جوانيتو وهو يفرك راحتيه : « لقد بعت لوحتين الى أحد تجار اللوحات ! » .. ثم التفت الى (الموديل) قائلا : « بيبا .. لقد عشت حياتى كأحد العبيد ، اقضى أيامى فى تدبير مباريات مصارعة الثيران .. لكن كل هذا انتهى الى غير رجعة .. كل مايتعين على أن أفعله ، هو ان أذهب الى حوانيت الفن قائلا أن « السنيور فرانشيسكو جـويا » قد خولنى حق بيع لوحـاته . وعندئذ يتبـارى اصحاب الحوانيت فى الفوز بهذه اللوحات ، واكتسب فى نصـف يوم ماكنت اكتسـبه فى اسـبوع كامل . يالها من حياة رائعة ! »

واذ اسـتقر « جويا » فى حيـاته الجـديدة ، فكر فى أن واجبه كان يحتم عليـه أن يزور « ماريا كايتانا » ـ دوقة البا ـ ليعرب لها عن امتنانه لسعيها فى الحصـول له على العفو الملكى ، غير انه علم أنها غادرت مدينة مدريد بصحبة الملك والملكة ـ الى المصيف الملكى ـ فعاد من جديد الى الانهماك فى عملـه . وسرعان ماذاع صيته فى مختلف بلدان اوربا ، حتى أن صحف لندن وباريس كانت تنشر ـ بجوار أخبار غزوات نابليون بونابرت ، وأطماعه فى الاستيلاء على بلدان اوربا ـ مقالات طويلة عن الفنان الاسبانى الشـاب ، الذى كانت رسومه تعبر عن روح الشعب الاسبانى ، ممثلة

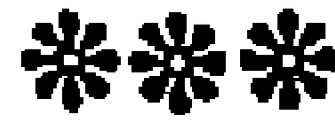
فى فلاحيه وعامته . وانهالت عليه الرسـائل من كثير من الشخصيات المعروفة فى اوربا .. بل ان « مدام دى ستايل » ـ التى كانت من المع نجوم البلاط الفرنسى يوما ـ قدمت خصيصا لرؤيته ! .. **ثم قدر له أن يتوج كل هذا النجاح اذ انتخب عضوا فى الاكاديمية ، برغم معارضة شقيق زوجته!**

غير ان هذا المجد كله لم يفلح فى ان يبعد عن نفسه القلق .. القلق الذى كان « جوانيتو » يعزوه الى حاجة الفنـان الشاب الى النساء ، برغم اصراره على التعفف والزهد .. ولقد حاول « جوانيتو » أن يقنعه بأن فتاة « الماجا » التى اعتادت أن تقف أمامه ليرسـمها ، كانت على استعداد لان تهجر كل « زبائنها » لتعيش معه .. بيد أن « فرانشيسكو » كان ينظر الى « بيبا » ـ فتاة « الماجا » التى كانت مضطرة الى أن تبيع جسدها تحت ضغط الفاقة والجهل ـ فيتمثل فيها وطنه الذليل المستضعف !

انما كان القلق ـ فى رأى « فرانشيسكو » ـ ناشئا عن شعوره بأن **لوحاته اخفقت فى أن تحث بلاده على النهوض او توقظ وعى الطبقـة الفقيرة ، او تنبه ضـمير الطبقـة المستنيرة ..**

وفى تلك الفترة بالذات ، اعلن عن مسابقة بين الفنانين لاختيـار الرسـام الاول للبلاط الملكى .. ودفع الطمـوح « فرانشيسكو » على ان يتقدم اليهـا ، فطلب اليه تزيين جـدران كنيسة « القديس انطونيو » ـ التى اعتـادت الاسرة الملكية أن تتردد عليها ـ برسوم مستمدة من القصص الدينية .. واذ ذاك ، قرر أن ينفذ الرسوم بطريقة لم يتبعها رسام أسبانى من قبله ، **بأن ينقل قسمات وجوه شخصيات من عامـة الشـعب ، على صـور الملائكة والقديسين ..**

واستخدم فى ذلك « بيبا » ، وشحاذا ، وكهلا كان فى ماضيه مديرا لمباريات مصارعة الثيران !



وبينما كان « فرانشيسكو » منهمكا ــ ذات يوم ــ فى عمله ، وصل الى سمعه هتاف جماعة من الشعب : « الموت للساحرة » . فلما خرج ليستطلع الامر ، شاهد ثلة من رجال محاكم التفتيش تدفع امامها امرأة فى مقتبل العمر ، على ظهر حمار ، وقد ألبسوها ثوبا من الخيش ، ووضعوا على رأسها قبعة المسجونات . فجمد « فرانشيسكو » فى مكانه ، وصر على أسنانه فى غيظ ، قائلا فى نفسه « يا للمجانين ! .. انهم يقتلون الابرياء باسم المسيح ! » . واذ ذاك احس بيد « جوانيتو » على ذراعه ، وسمعه يهمس : « لا تحاول أن تقاومهم ، والا كان مصيرك مثل مصيرها . دعنا ندخل ! » . غير أن « فرانشيسكو » نزع ذراعه من يد صديقه ، ثم قال فى عنف : « كلا .. اننى أريد أن اتذكر دائما هذا العار ! »

وفيما هو فى انفعاله ، لمح ــ فجأة ــ ثلة من النبلاء تحيط بامرأة بارعة الجمال . ومضت فترة قصيرة قبل أن يتعرف فيها على « ماريا كاييتانا » دوقة ألبا ، فوقف والذهول مسيطر عليه ، اذ لم يكن قد علم بعودتها الى مدريد . وأحست « ماريا » بنظراته الثاقبة ، فتطلعت اليه .. ثم تلاقت عيونهما ، فأحس بذلك الشعور الجارف الذى استولى عليه عندما شاهدها اول مرة .. **لقد أيقظت رؤيتها ــ فى نفسه ــ مختلف المشاعر ، من اثارة وتحد وخوف ، فى آن واحد .. فلقد داخله خوف من لقائها ! ..**

وسمع صوت جوانيتو يقول : « دعنا ننصرف .. انهم يحرقون المرأة البريئة ، بدلا من هذه (الساحرة) ! » واشار نحو « ماريا » بهزة من رأسه ، **فقال فرانشيسكو : « اتنسى**

أنها صاحبة الفضل فى عودتى الى اسبانيا ؟ » . فأجاب جوانيتو : « ربما كنت محقا ، ولكن .. صدقنى انها ذات عين شريرة ! »

وظل « فرانشيسكو » عاجزا عن ان ينسى منظر البائسة ـ التى كانوا يقودونها الى الحرق ـ حتى بعد ان ذهبا الى حانة « روجا » ، حيث اعتادا أن يتناولا وجباتهما . فأخذ يسرف فى الشراب ، ثم تناول قلما وورقة .. **وسرعان ما اكتمل على الورقة شكل الموكب الرهيب .. غير ان وجه المرأة اتخذ ـ دون وعى منه ـ ملامح ((الدوقة)) تماما !** .. وعندما رفع رأسه أخيرا ، كاد القلم ان يفلت من بين أصابعه، اذ أبصر « الدوقة » وسط أصدقائها النبلاء .. ومع انه كان يؤمن بالمساواة بين طبقات الشعب ـ حتى فى ارتياد الحانات ! ـ الا انه اعتبر وجود امرأة مثل « الدوقة » فى حانة « روجا » عملا غير ناضج ، ولعله كان منبعثا عن تظاهر كاذب ، أكثر منه عن رغبة صادقة فى الاختلاط بالشعب .

وراح يراقب « الدوقة » وصحبها فى فضول ، فلم يلبث ان خيل اليه انها لم تأت سعيا وراء المغامرة ، او رغبة فى الخروج على رتابة حياتها ، **وانما أقبلت لأنها كانت تشعر بأن مثل هذه الحانة هى مكانها الطبيعى** .. تماما كزوجة الخباز التى انتحت وزوجها أحد الأركان ، وكفتاتى « الماجا » اللتين كانتا تجالسان بعض الرواد !

ولفت نظره بطل من مصارعى الثيران ـ يدعى «جوزيه» ـ راح يفرط فى الشراب حتى ثمل تماما .. وما لبث أن سار مترنحا الى « الدوقة » ، وسألها ان تراقصه . واذ ذاك ، تصدى له أحد رفاقها ، فصرعه « جوزيه » بلكمة قوية .. وقفز رفاق النبيل من أماكنهم ، ولكن المصارع تغلب عليهم واحدا بعد آخر .. وثار الهرج فى الحانة .. ولم يجرؤ أحد

من الرواد على كبح جماح المصارع المهتاج ، سوى « فرانشيسكو » الذى لم يقو على أن يقعد دون نجدة « الدوقة » ، فى موقفها الحرج .. فلما رأى المصارع « فرانشيسكو » يتقدم نحوه ، استل مدية وشهرها فى وجهه. **فأمسك هذا بالرداء الذى يستعمله مصارعو الثيران فى الحلبة ، وأخذ يلوح به فى وجه « جوزيه » ، متلقيا به الطعنات** .. وما لبث ان القى بالرداء فى وجه المصارع، وانتهز فرصة تخبطه وتعثره ، فصوب الى فكه لكمة قوية القت به على الأرض صريعا .

وبينما كان يعود الى مائدته ، لمح « الدوقة » تبتسم له : فانحنى لها ، وقد خطر بباله ان الفرصة كانت مناسبة كى يزجى اليها شكره وامتنانه لتدخلها فى صالحه . واخذ قلبه ينبض فى عنف ، وتفصدت راحتاه بالعرق ، وشعر بارتباك يشبه ارتباك الفتى المراهق عندما يحاول ان يلفت نظر فتاة حسناء اليه .. لقد كان « جوانيتو » محقا فيما قاله عن عينيها ، فقد بدا ان نظراتها راحت تخترق رأسه وتصل الى أعمق أفكاره !

وفى تلك الاثناء ، أفاق « جوزيه » من غيبوبته ، ولمح المدية ترقد بجواره ، فما لبث أن قبض عليها ، ناهضا على قدميه . وقبل أن يشعر أحد بما كان ينتويه ، ركض نحو « فرانشيسكو » ، ولو لم تصرخ الدوقة فى الوقت المناسب ، لاخترقت المدية ظهره ، غير انه انحرف فجأة ، فأصابت المدية ذراعه بجرح سطحى ..

❊ ❊ ❊

والتف « جوانيتو » وبعض الحضور حول الرسام الشاب ، وقادوه الى غرفة جانبية ، فغسلوا جرحه بالبراندى .. ولم يجدوا ضمادة للجرح ، فما كان من « بيبا » ــ التى

كانت بين الحضور ـ الا ان مزقت قطعة من قميصها الداخلى، لتكون ضمادة . . واذ شهد « فرانشيسكو » ساقيها البديعتين ـ عندما رفعت عنهما القميص ـ ألقى اليها بعشر قطع من عملة « الدوبلون » ، قائلا : ((**اليك . . خمس من أجل الثوب ، وخمس لقاء الكشف عن أجمل ساقين شاهدتهما منذ سنوات طويلة !**))

وفجأة ، انبعث فى الفرفة صوت نسائى يقول : « كنت اعتقد ان رؤية السيقان العارية ليست مستغربة لدى الفنانين ! » . . **وكانت ((الدوقة)) هى صاحبة الصوت .** وما ان رآها القوم حتى انصرفوا تباعا ، وخلا المكان الا منها والرسام الجريح . وانحنت تصلح له الضمادة التى احاطت بذراعه ، وهى تقول : « أخشى ان اكون قد أفسدت عليك سهرتك » . . ثم أردفت : ((**ما من مرة نلتقى فيها الا وتقحم نفسك فى عراك بسببى !**)) . فبادر قائلا : « بالعكس ياصاحبة السمو . . ان لك فضلا سابقا لا يزال يطوقعنقى ، اذ توسطت لدى الملك من اجلى ! »

ـ كان هذا أقل ما ينبغى ان افعله ، فقد كنت السبب المباشر فى اضطرارك الى مبارزة ذلك الضابط . . **ألم أكن أشجعك بنظراتى ؟**

وارتبك فرانشيسكو ، وارتج عليه القول ، اذ لم يألف مثل هذه الصراحة من النساء . . ولكن « الدوقة » لم تلبث أن بددت الصمت المحض ، بأن راحت تتحدث اليه عن رسومه ، فقالت : « ان رسومك تثير الفزع فى نفسى ، فهى قاسية وحكيمة فى نفس الوقت . . غير أن الحقيقة غالبا ما تكون قاسية ، أليس كذلك ؟ . . أخبرنى ، ماذا يوجد فيها ، حتى أنها تثير فى نفسى ذلك الاحساس ؟ » . فأجاب « فرانشيسكو » بقوله : « ليس لى أن أتحدث عن أعمالى

يا صاحبة السمو .. **غير انه يبدو لى ان الحقيقـة ترتدى دائما قناع الشيطان .. لكن الشيطان لا ينبغى أن يفزعنا ، اذا ما واجهناه بشجاعة !..** اما اذا تجنبنا الحقيقة ، فاننـا نبنى حولنا عشا من الأكاذيب ، نحتمى داخله من متاعبنا ! » .. فأطرقت برأسها علامة الموافقة ، غير انهـا ما لبثت ان انفجرت ضاحكة وقالت : « يبدو انك تعتقد ان للشيطان عدة وجوه ! »

وفجأة ، لمح فرانشيسكو فى يدها الورقة التى رسم فيها منظر الساحرة ، فصعد الدم الى وجهه وقال : « عفـوا يا صاحبة السمو .. أؤكد لك اننى لم أقصدك شخصـا بذلك الرسم . كل ما فى الأمر اننى شاهدت المرأة البائسة تقاد الى المحرقة ، وكنت انت هناك ، فرحت أفكر فيهـا ، وفيك فى نفس الوقت .. فلم أشعر الا وقد رسمت صورتك مكانها ! »

فأخذت تهون عليه الأمر ضاحكة ، وأخيرا قالت : « انك فنان موهوب يا سنيور جويا . لذلك ، ارجو أن تحضر غدا لترسم صورتى .. **ربما كان فى استطاعتك ـ بفنـك ـ أن أن تبدد الشائعات التى يروجها اعدائى بأن روحـا شريرة تسكن جسدى ! »** . وحاول « جويا » ان يعتذر عن الذهاب ، بحجة أن الرسم الذى كلفه به البلاط الملكى كان يشغل كل وقته ، غير ان لهجتها اللطيفة تغيرت فجأة ، فصارت تماما كلهجة الدوقات عندما يصدرن أمرا ، ويتوقعن ان يطاع . اذ قالت : « غدا .. فى الخامسة تمـاما ! » . ثم تحولت منصرفة .

وقرر « جويا » ان يرفض الموعد ، فظل فى مرسمه منهمكا فى العمل ، حتى ناهزت الساعة السادسة . واذا برسول من الدوقة يفد متسائلا عن سر تخلفه عن الموعد ، فما كان منـه

الا أن اجاب بخشونة : « اخبرها بانني كنت مستغرقـــا فى العمل ، ولست أقبل ان يصرفنى انسان ، مهما تكن مكانته ــ ولو كان امرأة جميلة مدللة كالدوقـــة ــ عن أهم شيء فى حياتي ! » .. ولم يتراجع عندما قال الرســـول : « حسنا يا سيدى ، سأنقل اليها ردك حرفا بحرف ! »

وكان صديقه « زاباتر » موجودا ، فأخذ يلومه على تهوره الذى يكسبه اعداء وهو أشد حاجة الىأصدقاء ، ومضى يبين له ان الدوقة كانت أشد افراد طبقة النبلاء ميلا الى الشعب ــ لا سيما بعد وفاة زوجها ــ **فهي لا تفتأ تجاهد بكل ما تملك من عزم وحيلة ، لتكسب لهم حقوقا جديدة ، حتى أصبحت حاشية الملك تناصبها العداء** .. وكانت الملكة اشد الجميــع خصومة لها ، اذ كانت تحقد عليها لجمالها ، ولاستئثارهـــا باعجاب الرجال .. ثم لتنديدها بالعلاقات غير المشروعـــة التى كانت بين الملكة ورئيس الوزراء « جودوى » !

وكان « فرانشيسكو » ينصت وهو مبهوت ، فقد كان من العسير عليه ــ ازاء ما كان يراه من تصرفات «الدوقة» ــ أن يصدق ان هذه المرأة المترفة تجاهد من اجل عامة الشعب عن ايمان صادق ، بل خيل اليه انها انما كانت تفعل ذلك عن تظاهر ، ليكون لها من تعلق الشعب بها ــ اذا ما اغتر بما تزعمه من دفاع عن حقوقه ــ ستارا تفعل من ورائه ما تمليه عليها نزواتها ، ولتجد من مناصرة العامة لها ــ اذا ما اشتد الصراع بينها وبين الحاشية ــ ما تستطيع ان تستند اليه !

ـ ٤ ـ

واستطاع « جويا » ــ اخيرا ــ ان يفوز فى المسابقـــة الملكية فأصبح الرسام الأول للبلاط الملكى ، وترك مرسمـه القديم فى رعاية صديقه « جوانيتو » ، وانتقل الى الجنـــاح الخاص الذى أفرد له فى القصر الملكى ، حيث لم يعد له من

عمل سوى رسم اعضاء الأسرة المالكة ، والتنقل فى ارجاء القصر دون رقيب .. وسرعان ما تفتحت عيناه – فى الوسط الجديد – على كثير من الاسرار .. وروعه **ان تبين ان الملك كان على علم بعلاقة الملكة برئيس الوزراء ، ولكنه كان يؤثر ان يغضى عنها خشية ((جودوى)) الذى كان يمسك أزمة السلطان فى قبضته !**

واستنكر « جويا » هذا الانحلال ، حتى أنه شعر بشىء من الابتهاج ،حين نمى اليه ان رئيس الوزراء كان يمهد لجيوش « بونابرت » كى تحتل اسبانيا . فبالرغم من ان الفنان الشاب لم يكن يحبذ أن يحتل اجنبى بلاده ، لا سيما اذا كان هذا الاحتلال قائما على غدر من رئيس الحكومة ، الا انه كان يكبر « بونابرت » ويحترمه ، فأيقن من ان دخوله الى اسبانيا كفيل بأن يطهرها من الفساد ، وان ينشر المبادىء التى كانت الثورة الفرنسية تنادى بها : **الحرية والاخاء والمساواة !**

وفى ذات يوم ، أفضى اليه « جوانيتو » بأن دوقة ألبا لا تفتأ تنشر عنه الأقاويل بين اصدقائه ، زاعمة أنه باع نفسه وريشته للملك وحاشيته ، وان الترف صرفه عن قضية الشعب المضطهد ، والحرية التى كانت مقيدة مكبلة .. واستشاط « فرانشيسكو » غضبا ، فقد غاظه انه كان يشعر – فى قرارة نفسه – بأن هذا الاتهام يحمل ظلا من الحقيقة ، الى حد ما .. وراح يتحين الفرص ، الى ان لمح « مارينا كايتانا » مقبلة على القصر ذات مساء ، فأسرع الى استدراجها بعيدا عن الأنظار والآذان ، ثم بادرها متسائلا عن سر حقدها عليه .

واجابته فى رقة مصطنعة : « أحقد عليك ؟!.. صدقنى يا سيدى ، اذ قلت اننى لا احمل لك أية شعور ، سواء اعجابا أو كراهية ! » . فقال بخشونة : « اذن ، فلماذا تحاولين

تشويه سمعتى ، ونشر الشائعات عنى ؟ » . واذ ذاك هتفت : « آه ! .. اذا شئت الحقيقة ، فاليك بها .. **لقد اعتقدت يوما ـ كما اعتقد كثيرون غيرى ـ انك قد تصبح الزعيم المرتقب لمعركة الحرية .. ولكنك اخترت لنفسك الطريقة السهلة المريحة** .. وما احسبك تنكر انك تكرس وقتك وموهبتك لخدمة أولئك الذين يكبلون شعب اسبانيا بالاغلال ! »

ـ وماذا تريدينى ان أفعل ؟.. ان اقدم رسوما تمكن « دون مانويل جودوى » من ارسالى الى السجن ؟

ـ اريدك ، أنا ؟!.. لا يا سيدى ، لست اريدك على شيء ، **فقد فقدت كل اهتمام بك منذ اللحظة التى تحولت فيها من وطنى متحمس الى انتهازى أجير !**

ـ وكيف تجرؤين على أن تجعلى من نفسك حكما وقاضيا ؟

ـ أليس من حق كل من يشاهد أعمال فنان ان يصدر حكمه عليها ؟

ـ مهما يكن ، فلن تستطيعى ان تحطى من قيمة اعمالى !

ـ اننى أكن لأعمالك الفنية كل تقدير واكبار ..

ـ اذن ، فأنت تقدرين « فرانشيسكو جويا » الفنان ، أما « فرانشيسكو جويا » الانسان ، فأدنى من ان يصل الى مستواك الرفيع . أليس كذلك ؟ .. لو انك كنت رجلا ، لدعوتك الى المبارزة !

ـ ولكنى امرأة ، ولست رجلا .. فما رأيك ؟

واقترب منها فى انفعاله ، حتى لفحته أنفاسها .. ولم يمنعه من ان يقبض على عنقها ، سوى شعوره بأنها كانت تستثيره ، فلم يشأ ان يمكنها من غايتها !

***

شعر « جويا » – فى اليوم التالى – بأن جو القصر الملكى يكاد يخنقه ، فقصد الى مرسمه القديم ، واذا به يجد « جوانيتو » ممسكا بهراوة ضخمة .. وتناولها منه ، فراح يزنها فى قبضته ، ثم قال : « يا لها من سلاح رهيب .. اننى اكره ان تصيب جمجمتى منها ضربة ! » . فأجاب صديقه ضاحكا : « انها أعدت لقوات جودوى ! »

وعجب فرانشيسكو ، فتحول يسأل جوانيتو تفسيرا . وروى له صديقه كيف ان انباء ما كان جودوى يفعله لتمهيد الطريق لبونابرت قد اثارت سكان مدريد ، **فاعتزموا ان يقوموا بمظاهرة سلمية – منتهزين فرصة اجتماعهم فى حفلات « الكرنفال » – ليطالبوا جودوى بأن يذهب الى الشيطان ، وان يصحب «نابليون» معه !** .. وقال الرسام – اخيرا – فى تباطؤ : « ولكن جودوى لن يحجم عن ارسال فرقة من الحرس الملكى لتشتيتكم »

– لو كنت فى مكانه ما فعلت هذا ، لا سيما اننا سنكون متفوقين فى العدد .. وسيكون معنا بعض النبلاء ..

– أتقصد .. دوقة البا ؟

– لماذا لا تنضم الينا فترى بنفسك ؟.. لسوف تكون معنا ، أليس كذلك ؟

– لو ان المظاهرة كانت ضد « جودوى » وحده ، لما ترددت .. ولكن ، لماذا تقحمون « نابليون » فى الأمر ؟

– لأنه يطمع فى الاستيلاء على اسبانيا ..

– وهل ستكون الأمور ، اذ ذاك ، اسوأ مما هى الآن ؟.. **ولماذا لا ترجحون ان يتيح نابليون لنا من الحرية ما كفله للشعب الفرنسى ؟.. اننى لا اقر العنف !**

– ألم تكن تردد انه لا بد للشعب الاسبانى من النضال ان شاء ان يحصل على حريته !

ــ ولا ازال أؤمن بهذا ، ولكن .. دون اراقة الدماء .. كذلك أوقن من ان « نابليون » كفيل بأن يساعدنا فى استعادة حريتنا ، ولذلك فلن اشترك فى مظاهرة الغد !

بيد انه لم يستطع ان يكبح فضوله ــ فى اليوم التالى ــ فخرج الى الميدان الرئيسى ، واذا به يغص بالقوم وقد ارتدوا ثياب التنكر . وبدلا من ان يحتفلوا بـ « الكرنفال » ، اذا بهم يشرعون فى التظاهر .. ولمح فريقا من الرجال يرفعون على اكتافهم امرأة ، فتدوى فى أرجاء الميدان عاصفة من التصفيق .. وخيل اليه انها احدى فتيات « الماجا » ، ولكنه ما لبث ان امسك انفاسه ، اذ تبين انها **«ماريا كايتانا» ، دوقة البا ، وقد ارتدت قميصا مكشوف الصدر ، التف حول جسدها فى احكام ، مبرزا مفاتنه !..** وادرك انها اختارت هذا الزى ــ زى فتيات « الماجا » ــ لتقنع الشعب بأنها تشاركه مشاعره وآلامه .

وعزفت الموسيقى الشعبية ، فقفزت الدوقة الى منصة عالية ، وأخذت تؤدى احدى الرقصات القومية .. وفجأة ، لمحته وسط الجماهير ، فتوقفت ــ وعلى شفتيها ابتسامة مزهوة ــ ودفعت صدرها الناهد الى الامام ، ووضعت يديها على ردفيها ، ثم صاحت مشيرة اليه : « فرانشيسكو جويا .. الا تراقصنى ؟ » . وارتج عليه القول اذ ادرك السخرية فى لهجتها .. وامسكت الموسيقى عن العزف .. وظل «جويا» جامدا ، صامتا .. وغاظها موقفه ، فصاحت : « **انها ليلة شعب اسبانيا .. ومن ليس معنا ، فهو علينا .. ففى أى صف تقف يا فرانشيسكو جويا ؟ ..** أأنت اسبانى ، أم تراك خادما حقيرا لاولئك الذين يضنون على الشعب بحريته ؟.. لماذا لا تجهر بحقيقة ميولك ؟.. أمامك أحد أمرين : اما ان

تراقصني ، واما أن تجرؤ على أن تعلن نفسك عدوا لحرية الشعب ! »

ووجد جويا نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فلم ير بدا من الصعود الى المنصة ، وقد نازعته رغبة فى خنقها . وكانت الجماهير تهتف وتهلل فى حماس جنونى ، ولا ريب انها ما كانت لتتردد فى تمزيقه اربا ، لو انه استسلم لرغبته !.. وانحنى نحوها فى احترام مصطنع ، ومد يديه نحوها ، فى اللحظة التى عاود فيها الموسيقيون عزف لحن مثير !

وفجأة ، وبينما كانا منهمكين فى الرقص ، والجماهير تصفق على نغمات الموسيقى ، سرت همهمة بين الجموع ، **اذ أقبلت فصيلة من الحرس الملكى .. ودب الرعب فى الصدور ، فأخذ القوم يركضون على غير هدى ..** وقفز الراقصون من فوق المنصة ، فلم يبق هناك سواهما . وصاح فرانشيسكو فيها فى غضب : « أرجو ان تكونى قد استمتعت بحوادث الليلة ! » . ولكن ماريا لم تسمع حرفا مما قاله ، وبدا وجهها — تحت مسحوق الأرز واللون الأحمر ، اللذين تستعملهما فتيات « الماجا » — شديد الشحوب . وفجأة انتابتها نوبة من الذعر ، فقفزت بدورها من فوق المنصة ، لتحاول الوصول الى عربتها التى كانت تنتظر خارج الميدان ، غير ان الجماهير — التى كانت تتدفق حولها بالآلاف فى فزع جنونى — ما لبثت أن أسقطتها فوق الأرض ، ووطأتها بأقدامها الغليظة . ولم يشعر فرانشيسكو الا وقد اندفع خلفها ، شاقا طريقه وسط ذلك الخضم الهائل من الشعب ، مستعملا كتفيه . **فلما ادركها ، وجدها تصرخ فى رعب حتى اذا انهضها الى قدميها تعلقت به ،** وسرعان ما جرفهما تيار الأجساد المتدافعة الى خارج الميدان ، وأصوات طلقات البنادق تدوى فى آذانهما .

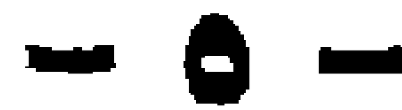
وبلغا اخيرا أحد الازقة الجانبية ، وهما يلهثان ، فوقفا يلتمسان بعض الراحة .. وأخذ « فرانشيسكو » يتفحص الدوقة بنظراته ، فاذا هي لم يصبها سوى بعض رضوض بسيطة ..**وبدت بشعرها المشعث، وثيابها المتهدلة، وحذاءيها الملوثين بالطين ، أشبه ما تكون بفتيات ((الماجا)) !..** وفى تلك الاثناء ، مرت بهما كوكبة من فرسان الحرس الملكى ، تطارد الناس وتقسو فى البطش بهم ، حتى ان « فرانشيسكو » لم يتمالك ان راح يلوح بقبضته فى غيظ ، بينما دفنت الدوقة وجهها فى صدره ، واخذت تنتحب ، وهى تتمتم : « ما كنت احسب جودوى يجرؤ .. » . واحاطها الفنان الشاب بذراعه ، وجذبها ليستأنفا سيرهما ..

وفجأة ، التقيا بضابط شاب ــ برتبة الملازم ــ بدا من هيئته انه من النبلاء ، وقد سار متقدما اربعة من الجنود . فلم يكد يرى الدوقة حتى عرفها ، فقفز عن جواده ، واندفع نحو فرانشيسكو صائحا ، وهو يلوح بسيفه : «دعها فورا !».

فدفع الرسام رفيقته خلف ظهره ، وشهر سيفه قائلا : «عد الى معسكرك ايها الفتى، قبل ان تجر الشر على نفسك!». وعبثا صاحت الدوقة فيهما ، فقد التحما فى مبارزة لم تجد « ماريا » معها بدا من ان تلقى بنفسها بينهما .. وجمد كل منهما ، واخذ يرمقها بذهول ، **فصاحت فى الضابط : ((لم أتصور قط ان تتصرف بمثل هذا الغباء يا ردريجو !)) . ثم التفتت الى فرانشيسكو قائلة : ((اما انت فقد أثبت من زمن طويل انك اكثر رجال اسبانيا تهورا واندفاعا !))**

وبادرت تعرف كلا منهما بالآخر ، فأعادا سيفيهما الى قرابيهما .. وراح « ردريجو » يؤنب الدوقة على نزقها ، اذ ذهبت وحدها الى ساحة « الكرنفال » ، فشعر

« فرانشيسكو » بلذعة الغيرة تسرى فى فؤاده ، وقد اوحى اليه الشك بأن ثمة علاقة بين « ماريا » والضابط الشاب .. ولكن الدوقة لم تفطن الى ما خامره ، بل تأبطت ذراعى الرجلين ، قائلة : « أحب ان تتصادقا .. ولنبدأ علاقتنا الجديدة بتناول الشراب معا ! »



ولم تكن حانة « روجا » بعيدة عن المكان ، فساروا اليها، واذا بها غاصة بالقوم الذين كانوا يحاولون نسيان أحداث اليوم بالرقص والاغراق فى الشراب .. واقترحت الدوقة على « فرانشيسكو » ان يراقصها ، فلم يمانع .. وتقبل « ردريجو » الأمر برحابة صدر . على ان الرسام أخذ يرقص وهو شارد الفكر ، تائه فى فتنة المرأة التى راحت تهتز فى خطوات منتظمة ، ويداها فوق ردفيها ، ووجهها لا يبعد عن وجهه بمسافة تذكر .. **وأحس بأنه عاجز عن احترامها كدوقة ، اذ غدت ـ فى نظره ـ مجرد فاتنة لا تدخر وسعا فى اظهار رغبتها فيه .. حتى عيناها ، كانتا تصرخان بنداء صامت !**

وعندما عادا الى المائدة ، كان « ردريجو » قد انصرف ، وكأنه لم يستسغ وضعه بينهما .. وسأل فرانشيسكو صاحبته عن علاقتها بالضابط الشاب ، ولكنه لم يشأ ان يتقبل ردها بأنه كان مجرد صديق ، بل مضى يلح عليها بشكوكه : « أولست مغرمة به ؟.. أولم تكونى يوما مغرمة به ؟.. ما احسبه الوحيد .. ثم انه لا يزال يهواك ! » .. واسندت ظهرها الى ظهر المقعد ، واغمضت عينيها لحظة سادهما الصمت خلالها، ثم اتكأت الدوقة بمرفقيها الى المائدة، وتفرست فى وجهه قائلة : « لقد رسمت لى صورة ، فى لقاء سابق ، فماذا ترى الليلة فى وجهى ؟.. **أما زلت تتمثلنى**

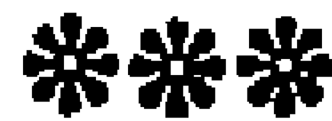
ساحرة ، أم شيطانة ، أم غانية تنشد الهوى على قارعة الطريق ؟ »

وتردد قبل أن يجيب فى تؤدة : « أرى الليلة فى وجهك سماء (اراجون) ، وقد ازدحمت بالنجوم الساطعة.. ومياه نهر (كاستيليا) الصافية ! » . وحاولت « ماريا » أن تبتسم ، ولكنها شهقت مأخوذة ، على الرغم منها .. وما لبثت أن عادت تسأله : « منذ متى ترى كل هذا فى وجهى ؟ »

ـ مذ رايتك اول مرة .. حتى ونوبات الغيرة والحقد تتنازعنى .. لقد رسمتك آلاف المرات !

ـ واى اللوحات تراها أقرب الى حقيقتى ؟

ـ تلك التى سأرسمها الليلة !



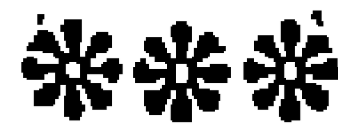
وذهبت معه الى مرسمه ، فأشعل كل الشموع والمصابيح ، ثم شرع يمزج الألوان بعناية ، بينما راحت الدوقة تسوى شعرها ، وتصبغ شفتيها باللون الأحمر .. ثم استلقت على أريكة مواجهة للوحة الرسم .. ولم ينبس أحدهما بكلمة ، بينما راحت الفرشاة تتنقل فوق اللوحة.. وبدت الدوقة ساكنة ، هادئة ، لا ينم عما كان يضطرب فى صدرها من عواطف ، سوى ارتفاع وانخفاض ثدييها ، مع تردد انفاسها .. وما لبث الرسام أن لاحظ أن رعشة سرت الى يديه ، فألقى بالفرشاة جانبا ، وتقدم فوقف أمام الحسناء المستلقية . واذ ذاك ، فاضت مشاعرها وهى توقن من انه سيرتمى فى احضانها ، **فان الحاجز الذى كان يفصل بينهما قد أنهار أخيرا .. وتلقت خطوته الأخيرة بلهفة ، وبفرح امرأة لا تطمع من دنياها فى أكثر من الفوز برجلها !**

وعندما أفاقا من الغيبوبة التى لفتهما ، هتف فرانشيسكو :

« أواه ، لكم أحبـــك ! » .. وأدهشه أنه ظل طـويلا يعاند نفسه ، قبل أن يدرك هذه الحقيقة . ولكنها رمقته طويلا ، ثم قالت وهي تطرق برأسها : « أخشى انني لا أصلح لك .. بعد كل ما كان مني فيما مضى ! »

وهفا الأسى الذي ارتسم على وجهها بعواطفه ، فهتـف : « لقد مات المـــاضي وانتهى ! .. أو تظنينني منزهـــا عن الأخطاء ؟ .. أتعلمين لماذا هجرتني زوجتي ؟ .. لأنها كانت بحاجة الى رجل عاقل متزن ، بينما كنت ضاريا ، مغرورا ، صعب المراس ! » .. فأنعمت مـاريا النظر فيه ، وقالـت : « وأنا الأخرى لست بالسهلة القياد .. ألم تسمع ما يروى عني من قصص لا يمل أهل مدريد ترديدها ؟ .. لقد كنت صبية ، لا أفقه من امـور الدنيا شيئا ، عندمـا تزوجت . **فما أن ترملت ، حتى رحت أبحث عن الحب والحنان ، ولكني أخفقت .. لماذا لا تدعني وشأني ؟ .. انني جمـوح ، ولا أصلح لأي رجل ! »**

وقاوم رغبة طاغية في أن يغرق جفونها بقبـلاته ، وقال : « لا أصدق هذا » . فقالت ، كأنها تنذره : « ستظل ذكـرى ما حدث تطاردك ما حييت ! » .. فأجابها : « لن يحدث هذا قط ! »



وعادت الى قصرها ، عـلى وعد أن تزوره في اليوم التالي ليتم رسمها .. وكانت موقنة من أن « جودوي » ـ رئيس الوزراء » ـ لن يغفر لها دورها في المظاهرة ، ولكنها لم تتوقع أن يضرب بالسرعة التي فوجئت بها . فما أن دخلت قصرها ، حتى وجدت غريمها مع ثلة من الجنود ، وقد حزموا ثيابها في الحقائب ، واستصدروا أمرا ملـكيا بأن تنفى سنة كاملة في

ضيعتها ، فى مقاطعة (سولينار) .. ولم تجد توسلاتها لجودوى فتيلا !

واذ لم توافـ « جويا » ـ فى اليوم التالى ـ وعلم برحيلها الى ضيعتها ، صمم على اللحاق بها ، ولو فقد بذلك منصبه ككبير رسامي البلاط الملكى ! .. على أنه لم يكد يبلغ الضيعة ، حتى استقبلته وصيفة الدوقة فى غلظة ، وأنبأته بأن مولاتها نائمة .. **ولم يعبأ الرسام المفتون ، بل أزاح الوصيفة عن طريقه ، واندفع الى مخدع الدوقة ، فاذا بها تجلس الى المرآة تصفف شعرها !**

واجفلت ماريا اذ لمحته على صفحة المرآة ، وصاحت فى غضب : « كيف تجرؤ على اقتحام خدرى ؟ » . فأجابها : « وكيف جرؤت على الهرب منى ؟ » .. وكان ردها : « انما فعلت لمصلحتك . . ألم أنذرك بان تبتعد عن طريقى ؟ »

ولم يشعر الا وأصابعه القوية تغوص فى لحم كتفيها ، وقد راح يهزها فى عنف ، صائحا : « قلت لك اننى احبك .. ولست بالذى يفرط فى عاطفته ! » . وحاولت أن تفلت منه ، ولكنه ظل يهزها ، وكأن شيطانا قد تملكه .. حتى اذا أفلتها أخيرا ، لاحظ أنه قد مزق ردائها فانزلق عن جيدها ، كاشفا عن احد ثدييها عاريا .. وظلت ساكنة لا تتحرك .. ومع أن سكونها كان يحمل معنى الاستسلام ، الا ان النيران التى اتقدت فى عروق « فرانشيسكو » لم تلبث أن امتزجت بفيض مفاجىء من الحنان ! .. **وأدرك أن رغبته فيها لم تكن وليدة الجسد وحده ، وان حبه لها كان نابعا من أعماق قلبه وروحه !**

واحتواها بين ذراعيه ، واطبق شفتيه على شفتيها ، فلم تقاوم ، بل استكانت فى جمود .. ولكن دفء عناقه لم يلبث أن أذاب برودها ، فأحاطت عنقه بذراعيها !

وتوالت الأسابيع فاكتملت أشهرا ، وهما غارقان في كؤوس الهوى .. ولم يكن فرانشيسكو يفيق من لذته الا ليمضى فى رسم لوحة جديدة لامرأة عارية تماما ــ كما ولدتها امها ــ وقد اتخذ من « ماريا » نموذجا .. حتى اذا فرغ منها ، أيقنا معا من أنها تحفة سيكتب لها الخلود .. واختارا لها اسم « **الماجا العارية** » ، تخليدا لذكرى ليلة الكرنفال ، التى اكتشفا فيها غرامهما . . والى جانب اللوحة ، رسم « جويا » لعشيقته « اسكتشات » لا حصر لها ، فى أوضاع مختلفة ، مستمدا الالهام من غرامهما الملتهب .

وكانا يحرصان على أن يتجنبا الجدل فى السياسة ، اذ لم يكن لدى اى منهما أمل فى أن يعالجا اختلاف وجهات نظرهما . . على أن « ماريا » لم تقو على مغالبة قلقها ، عندما نمى اليها ان « جودوى » أرسل كل قوات الجيش الاسبانى غربا ــ لتواجه خطر جيش البرتغال ــ تاركا الحدود الشمالية بدون حراسة ، فى الوقت الذى كان نابليون يتأهب فيه لغزو البلاد . . **ولم تستطع أن تكبح غضبها ، حين تبينت أن « فرانشيسكو » لم يكن يأنف من ان يغزو « نابليون » بلاده ، ايمانا منه بأن هذا سيكفل للشعب الاسبانى حريته !**

وفى ذات يوم ، فوجئت « ماريا » بوصيفتها تعلن اليها مقدم « جودوى » . وكان « فرانشيسكو » قد خرج ليتريض ، فلم تجد بدا من أن تقابل رئيس الوزراء . . واذ دخل عليها ، بادرته بجفاء : « أجئت لتتأكد من اننى لم أهرب ؟ » . . فارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات معنى ، وقد وقع بصره على اللوحات التى رسمها « جويا » لها ، وبينها « الماجا العارية » . . وعادت تسأله عن سر حضوره ، فلما اطمأن الى اشتداد فضولها ، كشف لها عن مهمته . فقد جاء يساومها على منحها حق العودة الى مدريد ، مقابل أن ترحب

باحتلال نابليون لاسبانيا .. فقد كان «جودوى» يعلم مدى ما لها من نفوذ شعبى !

واذ أعيته الحيلة ، انذرها بأن على « فرانشيسكو » أن يعود لفوره الى مدريد ، واشار الى انلوحاته ـ التى رسمها لها ـ قد تهم محكمة التفتيش ، لما سجلته منأوضاع منافية للآداب ..

واستطرد قائلا : « **انك هنا تنفيذا لحكم صدر عليك بالنفي ، وليسلتستمتعى بشهر عسل . وسأترك هنا فصيلة من الجند لاعتقال جويا ، اذا رفض الرحيل طواعية ! »**

وكانضابط الفصيلة هو العاشقالذى خيبتالدوقة آماله من أجل فرانشيسكو .. الملازم « دون ردريجو شانسيز ! »

- ٦ -

وادركت ماريا ـ بعد انصرافجودوى ـ حرج ظروفها .. كان من العسير اقناع « ردريجو » بأن يدعها وعشيقها فى سلام ، فان وفاءه لواجبه ـ كضابط فى الحرس الملكى ـ كان يفوق تدلهه فى هواها ، فلم تفلح معه أساليب الاغراء والاقناع التى عمدت اليها .. وفى وقدة غيظها ، صاحت فيه : « الا تفطن الى أن جودوى يستخدمك ـ فى هذا الموقف ـ كما لو كنت قطعة من الشطرنج ، تحقيقا لمآربه .. ان أهل مدريد طرا يعلمون اننا كنا نلتقى كثيرا هناك ، فاذا ما اقصيت « جويا » عن هنا ، أدركوا انك تصدر عن نقمة عليه .. او اننى نبذته من أجلك ، واذ ذاك سيعتبروننى عاهرة .. **وهذا ما يسعى اليه جودوى ، فهو يصبو الى تشويه سمعتى ، والقضاء على نفوذى فىالأوساط الشعبية ، وبذلك يكبت المساعى التى تبذل لاحباط تحالفه مع**

الفرنسيين ! » . فأجاب الضابط فى تحمس : «اننا لن نتردد عن قتال نابليون ، لو جاء غازيا ! »

وأمسكت بذراعى الضابط الشاب ، وراحت تهتف : « أرجوك يا ردريجو .. ساعدنى ! » .. واذا صوت فرانشيسكو ينبعث من خلفهما فى تهكم مرير : « يبدو أننى حضرت فى وقت غير مناسب ، فاغفرا لى تطفلى ! » .. كان قد حضر دون أن يفطنا اليه ، فأساء فهم الموقف .. وقفزت « ماريا » مرتاعة ، ثم تمالكت نفسها ، وحاولت أن تقرب بين الرجلين اللذين كانت الغيرة تلذع قلبيهما من أجلها .. غير أن « ردريجو » ــ **الذى كان ينظر بامتعاض الى أنها سلمت قلبها لذلك السوقى الوضيع المنبت** ــ ابتدر جويا قائلا : « سنيور جويا .. ستعود اليوم الى مدريد ! ». فانحنى فرانشيسكو نحوه فى سخرية ثم قال : « ينبغى أن اهنئك يا دون ردريجو .. غير اننى لا أملك سوى أن أشفق عليك ! ».. واذ ذاك استشاط الضابط غضبا ، وصاح فيه قائلا : « اننى أمنعك من أن تتحدث بهذه اللهجة أمام صاحبة السمو .. أحزم متاعك ، وارحل عن هذا المكان فى الحال ! »

وحاولت « ماريا » أن تشرح الأمر لفرانشيسكو ، غير أن الضابط التفت اليه ، وصاح به مرة أخرى : « أخرج من هنا ! » . فأجابه فرانشيسكو فى هدوء ورباطة جأش غريبين : « لست أسمح لأى انسان بأن يتحدث الى هكذا .. اننى أطلب منك أن تسحب ملاحظاتك الوقحة ! » .. وسرعان ما كان الاثنان يتبارزان ، وقد صمم كل منهما على أن يظهر مهارته أمام المرأة التى كانا يتنافسان على حبها ! .. وراح ردريجو يقاتل بمهارة ، غير أن فرانشيسكو استخدم فى قتاله مع غريمه الطريقة التى تعلمها فى مصارعة الثيران ، فما لبث أن جرح « ردريجو » جرحا سطحيا فى كتفه .

وما ان رأى بقع الدم تلطخ بزة الضابط ، حتى اجتاحه فرح وحشي ، وصمم أن يقتله . الا أن صراخ « ماريا » كان عاليا ، فوصل الى مسامع الجنود . وفى الحال اندفع فريق منهم وامسكوا بفرانشيسكو ، وانهالوا عليه ضربا بمؤخرات بنادقهم ، حتى فقد رشده . ولو لم تصرخ فيهم « ماريا » آمرة اياهم بأن يكفوا ، لقضوا عليه تماما !

***

وقضى فرانشيسكو شهرين فى الفراش بمرسمه فى مدريد . وقد بذلت « بيبا » جهدا محمودا فى الاعتناء به حتى أبل من اصابته . وبعد اسبوعين عاود الرسم من جديد ، الا أن تغييرا شاملا كان قد ألم به ، فرفض أن ينبس بكلمة عما حدث له فى (سولينار) ، كما رفض نصيحة « زاباتر » بأن يزور القصر الملكى كى يحاول استعادة منصبه القديم . **وأخذ يقضى ساعات طويلة من يومه فى رسم مجموعة من الصور ، أطلق عليها اسم « نزوات »** ، تهكم فيها على جميع الناس ، وكل الطبقات ، وهاجم مختلف مظاهر الحياة فى اسبانيا ، مثل استغلال الأثرياء للفقراء ، وجشع الطبقة المتوسطة . بل أن قلمه القاسى هزأ من بطولة مصارعى الثيران فى الحلبة ، وسخر من الزواج .. **غير أن زاباتر وجوانيتو لاحظا أن ملامح دوقة ألبا كانت تبدو بوضوح فى وجه كل فتاة أو امرأة رسمها !**

وفى ذات يوم ، وبينما كانت ريشة فرانشيسكو تخط فى لوحة بعض الخطوط ، وصل الى سمعه ـ من الخلف ـ صوت « ماريا » تناديه باسم التدليل : « باكو ! » .. فلم يستدر نحوها ، وظل منصرفا الى الرسم . فقالت له وكأنها كانت تحدث نفسها : « لست ألومك على كراهيتك لى ؛ غير أن الوقت قد حان لتعرف الحقيقة .. لم تكن ثمة علاقة بينى

وبين « ردريجو » .. لقد كان ينفذ أوامــر صدرت اليه من رئيس الوزراء » . واذ ذاك ، التفت فرانشيسكو نحوها ، وسألها فى تهكم : « وهل كان ينفذ أوامــر رئيس الوزراء عندما ترك جنوده يضربونى حتى كادوا يقتلونى ؟ » . ففامت سحابة من الحزن على وجهها ، وأجابت قائلة : « لقد كانت هذه حادثة مؤسفة .. غير أن الذى يؤلمنى ويحــز فى نفسى هو كراهيتك لى ! »

ـ انك مخطئة يا صاحبة السمو .. فلست أحمل لك أية كراهية أو ضغينة .

ـ لا أصدق انك سلوت حبى بهذه السرعة . .لا اصدق انك ترفض الاستماع الى تفسير ما حدث .. ان القضـــاء يسمح لأعتى المجرمين بأن يقدم تبريرا لما فعله !

ـ ليس هناك ما يستلزم الشرح والتفسير .. يا صاحبة السمو !

ـ اذن ، فالماضى لا يعنيك فى شىء !

ـ اننا نعيش فى الحاضر ، يا صاحبـــة السمو ! .. لقد مات الماضى ودفن منذ زمن بعيد !

ـ انك تكذب يا « باكو » ، فلقـــد شاهدت مجمـــوعة « النزوات » التى قمت برسمهـــا .. ان وجهى يبرز فى كل صفحة فيها !

ـ لقد تعلمنا فى المدرسة أن للشيطان عدة وجـــوه ..

ـ هل تحاول أن تنتقم لـــكرامتك المجروحة ، بتصويرك اياى فىأوضاع تثير الاستهزاء والسخرية ؟

ـ كلا .. فاننى أرسم ما أشعر به !

ـ سوف تدرك يوما ما ـ كما أدركت أنا ـ أن الحـــب لا يعرف معنى للكبرياء الزائفة !

***

ادرك رجال محاكم التفتيش أن الزمام يوشك أن يفلت من ايديهم ، نتيجة لانتشار العلم والمعرفة ، فصاروا يترقبون فى لهفة مقدم « نابليون بونابرت » الى اسبانيا ، معتقدين أنه سيعزز قبضتهم على الشعب الثائر .. ومن ثم رأوا أن يقضوا — تمهيدا لذلك — على الأدباء والفنانين الذين كانوا يبثون بذور الكفاح والثورة ، وعلى راسهم « **فرانشيسكو جويا** » !

وفى ذات مساء ، ألقى القبض على الرسام — دون ماتعليل او تبرير — والقى فى سجن القلعة القديمة ، حيث قضى أياما قبل أن يمثل أمام محكمة التفتيش . .وما أن دخل القاعة ، حتى شاهدها مكتظة بالجماهير التى جاءت مشوقة الى سماع دفاعه عن نفسه . . فلما جلس فى قفص الاتهام ، تقدم منه قس أبيض الوجه ، طويل القامة ، فى ثوب اسود فضفاض .. وسأله : « أأنت فرانشيسكو جويا الفنان الزنديق ؟ » .. فأجابه بهدوء : « **بل أنا فرانشيسكو جويا .. الفنان !** » . وعرض عليه القس — الذى كان يمثل الاتهام — مجموعة « النزوات » ، فقال الرسام بصوت جهير : « اننى اجاهر امام الملأ بأن هذا من انتاجى » . فالتفت القس الى رئيس المحكمة قائلا :

— انه يدين نفسه بلسانه ، وانى لأقدم لهيئة المحكمة المبجلة احدى الصور ، وقد أطلق عليها اسم : « منقار من ذهب » ، وصور فيها جمعا من الرهبان ينصتون الى تبشير ببغاء !

والتفت الى جويا قائلا : « الا تؤمن بغضب الله ؟ » . فأجابه الرسام : « **بل أؤمن بمحبة الله !** »

— أتزعم انك لا تسخر من الكنيسة ؟

ـ بل اننى احاول ما استطعت انتشالها من الوهدة التى تردت فيها . .لقد شاهدت فى البلدان الأخرى ـ حيث لا نفوذ لمحاكم التفتيش ـ مدى الخدمات التى تقدمها الكنيسة لرعاياها . .أما هنا ـ فى اسبانيا ـ فلا تقدم الكنيسة للشعب المعذب سوى التفاهات !

وراح يرد على كل اتهام بتوجيه اتهام آخر الى الكنيسة الاسبانية ومحاكم التفتيش ، فلم يجد ممثل الاتهام بدا من ان يقدم المفاجأة الكبرى .. اذ أمر رجلين ، فتقدما يحملان لوحة مغطاة بقماش سميك . . وقال القس لجويا : « هذه لوحة رسمتها . . صورة داعرة ، فاسقة ، يستنكرها الله والناس ! . . الست تعلم ـ وأنت الرجل النابه المتعلم ـ **أن** رسم صورة أمرأة عارية خطيئة مميتة ؟ »

ـ فى رأى من هذا ؟

ـ فى رأى محاكم التفتيش .

ـ اذن ، فكل الرسامين العباقرة على مر الاجيال ـ ممن كانوا ابناء بررة للكنيسة ـ قد ارتكبو الخطيئة المميتة ! . . **وقداسة البابا ، وكثيرون من امراء الكنيسة ، يعتبرون ـ على ضوء رأى محاكم التفتيش ـ مذنبين ، لتشجيعهم رسم هذه اللوحات !**

وتململ أحد اعضاء المحكمة .. وساد الوجوم الحضور ، بينما كشف القس الستار عن « الماجا العارية » فسرعان ما سرت فى القوم همهمة اعجاب مذهول . . وصاح جويا فى حرارة : « انها ليست داعرة . . لقد صورت فيها جمال المرأة، الذى اعتبره من جلال الخلق ! . . ان المدعى يحاول ان يظهر اللوحة ، وكأنها عمل مدنس ، **وينسى ان أول عرى فى الدنيا كان من صنع الله ، وان الدنس لم يلحقه الا من عمل الشيطان !»**

وهنا قال رئيس المحكمة : « لقد اخترت لنفسك مهنة لاتناسبك ياسنيور جويا ، وكان خليقا بك ان تختار لنفسك

مهنة المحاماة .. ويدهشني أنك لم تقف في صف بونابرت مدافعا عنه ! .. فصاح جويا ، دون وعى : **« لو ان نابليون منحنا الحرية والمساواة ، لما ترددت فى الوقوف فى صفه ! »**

وما أن نطق بهذه الكلمات ، حتى لاحظ ان رئيس الوزراء كان يجلس وسط المتفرجين ، الامر الذى أثار دهشته ، إذ لم يكن من عادته التردد على محاكم التفتيش . ولاحظ « جويا » أن «جودوى» كان يبتسم فى رضا .. فلما سكتت لضجة التى حدثت نتيجة لتصريح « جويا » المذهل ، توجه رئيس المحكمة اليه قائلا انه تلقى من القصر الملكى التماسا باطلاق سراحه ، ومن ثم فان المحكمة تخلى سبيله ، ثم ختم كلامه قائلا : « أرجو ان تتعظ من هذه المحاكمة .. لقد أغدق عليك المولى موهبة رائعة ، حبذا لو استخدمتها فى خدمة الكنيسة والدين ! »

وحار فرانشيسكو فى تعليل هذا العفو : لاشك ان «جودوى» هو الذى سعى لاطلاق سراحه ، ولكن .. ما الذى دعاه لذلك ؟.. على انه سرعان ما عرف الحقيقة . فقد حضر اليه «جودوى » ــ فور انفضاض المحكمة ــ وسيماء الظفر تبدو على وجهه ، وقال له : «اهنئك بحصولك على حريتك» .
فاجابه فرانشيسكو بقوله : « اننى مدين بحريتى اليك ، يا صاحب السعادة »

ــ لقد وفيت ذلك الدين مقدما ، دون أن تدرى . لابد أنك تعلم أن نابليون يعتزم تسيير جيوشه الى اسبانيا ، وسيصل الى مدريد قبل نهاية فصل الصيف .. **الا ان الكثيرين من النبلاء وعامة الشعب وضباط الجيش يعارضون ماأراه من عدم مقاومة نابليون . وقد حضر الكثيرون منهم محاكمتك ، لذلك لن ينقضى اليوم قبل أن يعرف الجميع بأمر دفاعك عنه ، واستعدادك للوقوف في صفه .**

ولما خرج رئيس الوزراء من قاعة المحكمة ، التفت الى مساعده قائلا : « أما زالت «دونا انيتا» تعمل وصيفة لدوقة البا ؟ »

واذ اطمأن « جودوى » الى أن « دونا انيتا » لاتزال فى خدمة الدوقة ، تساءل : « **وهل مازلت تحتفظ بالمسحوق الذى استولينا عليه من الصيدلى الذى أعدم لدسه السم فى شراب زوجته ؟** » . . وواتاه الرد بالايجاب ، فقال له : « اذن ، فأوفد مندوبا الى دونا انيتا ، يطلب اليها ان تنفذ التعليمات التى لديها ! »

- ٧ -

وبلغت جيوش نابليون ــ أخيرا ــ الاراضى الاسبانية ، وتوغلت فيها . . واصطفت الجماهير فى شوارع (برشلونة) و(اشبيلية) تشاهد القوات الفرنسية . ولكن احدا لم يهتف للغزاة أو يحتفل بمقدمهم . بل ان بنات « الماجا » اعرضن عن غزل الفرنسيين وانصرفن عنهم . . **ولكن « فرانشيسكو » كان أحد القلائل الذين رأوا فى الاحتلال الفرنسى بداية لخلاص الشعب من سيطرة النبلاء والاقطاعيين** ، حتى انه لم يرفض ان يرسم صورة للسفير الفرنسى ! . . على انه لم تمض ايام قلائل ، حتى اعتقلت السلطات الفرنسية جميع أفراد الاسرة المالكة ، وارسلتهم مخفورين الى فرنسا .

واعتبر الشعب هذا العمل لطمة . . وقبل ان يفيق منها ، فوجىء بتنصيب « جوزيف » ــ شقيق نابليون ــ ملكا على أسبانيا ! . . وتجلى الغدر واضحا ، فصعق الشعب ، وذهل « فرانشيسكو » واهتز ايمانه بنابليون ومبادىء الثورة الفرنسية . . على ان بقية من الامل جعلته يتمالك ايمانه ويتريث . . ولم يطل به الانتظار ، فلم يلبث ان تبين ان كل التطور الذى حدث ، لم يتعد انتقال الحكم من سيد غبي ــ من الاسبان ــ الى

سيد ذكى من الاجانب . .**اما الفرد العادى ، فظل يعانى ما كان يعانيه فى الماضى .. ولأول مرة ، تبين «فرانشيسكو» ان « ماريا » كانت على حق فيما قالته عن نابليون ، وان غرامه بها أضر بقضية الشعب الذى كرس نفسه لخدمته .**

وجافاه النوم ، وعافت نفسه الطعام .. وحاول ان يجد فى الرسم ما يسرى عنه ، ولكنه عجز عن تركيز أفكاره.

وفى ذات يوم ، فوجىء بجوانيتو يعود الى المرسم ، فينعم النظر فى وجهه ، ثم يتحول فى صمت ،ويأخذ فى حزم متاعه .. حتى اذا فرغ ، التفت الى « فرانشيسكو » ، وقال :«امرتاح انت الآن ؟ .. أو ان أحداً أخبرنى بانك ــ انت بالذات ــ تقبل التعاون مع الفرنسيين ، لأبيت أن اصدقه ،ولكن اللوحات تشهد عليك ..» . فقاطعه فرانشيسكو قائلا : «أننى فنان ، ارسم ما يروق لى ، وارفض أن أقدم حسابا الى أحد ! »

وتحول جوانيتو فتناول سكينا كبيرة دسها بين الحذاء والساق ، وهو يقول : « لعلك تعيش فى غير الزمن الذى نعيش فيه .. انهم يسلبوننا القليل الذى نملكه ! .. لست اشك فى أن السفير سيجزل لك العطاء لقاء رسمك اياه، ولكنى اشك فى انك ستستمتع بأموال سرقت من الشعب الاسبانى ! » . واذ لمح الاكفهرار يسود وجه الرسام ، عاد يقول : «لاداعى للغضب ياصديقى ، فاننى مغادرك ..الاتتمنى لى حظا طيبا ؟ »

ــ بلى ، بالتأكيد .. والى اين ترحل ؟

ــ الى حيث اقاتل الفرنسيين !

ــ اتراك فقدت صوابك ؟ .. اتعتقد انبوسعكم التغلبعلى جيش قهر جيوش العالم ! .. وبأى سلاح ؟.. بالمدى والسكاكين ؟

ــ لقد كنتتتحدث عن المساواة بينالعامة والنبلاء ، فها قد

اصبحنا الآن متساوين فى العبودية ! .. فلماذا لانوحد جهودنا لقتال العدو المشترك ؟ .. ان الجيش الفرنسى يتألف من مائتين وخمسين الفا من الجنود ، فى حين ان الاسبان عدة ملايين .. لقد نفد صبرنا ، ولن نحجم عن ان نهاجم جنودهم اينما وجدوا ، وان نقطع عنهم خطوط التموين والامدادات ، وسنرميهم بالرصاص فى الازقة ومن النوافذ .. وان نكف حتى يجلو آخر جندى فرنسى عن اسبانيا ..

ـ لا ازال اعتقد ان علينا ان نتيح لنابليون فرصة لاثبات حسن نيته ..

ـ عندما يسطو لص على منزلك ، فانك لاتقعد حتى ترى ماذا يأخذ ، بل انك تطلق عليه النار قبل ان يستولى على متاعك !

وأخذت الكلمات تدوى فى رأس فرانشيسكو ، بعد انصراف جوانيتو .. وراح يذرع الغرفة بخطوات مضطربة ، ونفسه نهبا للانفعالات .. وفجأة ، سمع طرقات على الباب ، فلما فتحه ، الفى الملازم « دون ردريجو شانسيز » أمامه . وتذكر ماكان بينهما ـ فى اللقاء الاخير ـ فتلفت بحثا عن سيفه ، ولكن الضابط ابتدره قائلا : « لاداعى للسلاح ، فلست احمل سيفا .. اذ صدر مرسوم ملكى ، بتوقيع صاحب الجلالة « جوزيف بونابرت » يحرم على المواطنين حمل السلاح »

وهتف فرانشيسكو ، فى دهشة : « ولكنك ضابط فى الجيش .. »

ـ كنت .. ولكنى لم اقو على العيش فى مهزلة ، وماكان بوسعى أن اسهم فى حفر قبر اسبانيا !

وظلا برهة صامتين ، يتأمل كل منهما الآخر . ومالبث الضابط ان قال : « لعلك مندهش لزيارتى .. انما جئت لاعتذر لك ـ أولا ـ عما حدث فى (سوالينار) ، وأؤكد لك انه لم يكن

لى يد فى اعتداء الجنود عليك .. **وجئت ـ ثانية ـ لأنبئك بأن « ماريا كابيتانا » مريضة .. أشد المرض ! »**

وأجفل فرانشيسكو ، ولكنه تمالك مشاعره ، وقال ببرود : « ان هذا يؤسفنى ، وانى لآلم من اجلك ، واتمنى لها شفـــاء عاجلا ! »

وأوشـــك ردريجو أن يفقد صبره ، ولكنــه تجلد وقال : **« أما زلت تأبى الاقتناع بأنها لم تحب أحدا ســواك ؟ »** .. فسأله فرانشيسكو : « أهى التى أوفدتك ؟ » .. وأجــابه الآخر : « لا .. بل انهــا لا تعلم عن حضـــورى شيئا .. افتتصور اننى كنت أكتم عن العالم بأسره حبها ـ وهو جل مرادى فى الحياة ـ لو انها أحبتنى ؟ »

وأغمض الفنان عينيه ، وراح يمسح وجهه بيــده ، بينما دار « ردريجو » على عقبيه وانصرف . وظل فرانشيسكو وحيدا ، لا يفكر فى غير .. « ماريا » . واستبدت به الرغبة فى أن يراها ، فسعى الى قصر « ألبا » على قدميه .. واخبرته الخـــادم التى استقبلته بأن الدوقة كانت تنتظـــره فى الحديقة .

والفاها جالسة تحــت ظلال الأشجار ، فى ثوب ذى الوان هادئة .. **ومـــا أن رأته ، حتى هتفت باســـم التدليل : « باكو ! » .. وأردفت : « كنت موقنة من أنك ستأتى ! »** .. واندفع نحوها ، ثم ركع على الأرض أمامها ، وقد انعقـــد لسانه . واذ ذاك ، تنهدت « ماريا » فى لطف ووهن ، ومدت يديها ، فاحتوت وجهه بين راحتيها .. وظلا ساكنين فترة ، ثم نهض فرانشيسكو قائما ، فأوسعت له « ماريا » مـــكانا بجوارها على المقعد . واستسلما للصمت مرة أخرى ..

***

وامسك رأســها بين يديه فترة ، وهو يحدق فى عينيها ، فهمست : « ماذا تقرأ فيهما الآن ؟ .. أما زلت ترانى مــن الساحرات الشريرات ؟ » . فأجابها : « بل ارى الصبح ينبلج بعد ليلة مظلمة طويلة .. أرى أشعة الشمس تنســكب على قصر (ســولينار) ، فتحيل الظــلام نورا ! » . **وهلع قلبه وهو يتبين شحوب وجهها ، والهالات السوداء التى احاطت بعينيها ، ولم يلبث أن أضاف : « وأرى فتاة مريضة كذلك ! »**

وراح يحاول مغالبة القلق الذى سرى من فؤاده ، ثم سألها . « وما رأى الأطباء ؟ .. هل يعلمون متى تستكملى الشفاء ؟ »

ـ لقد انتهى الآن أقسى انتظار .. انتظار مقدمك . أمــا الانتظار الباقى ، فسهل يسير !

وأشرق وجهها بالابتسام ، ثم همست : « لــكم يؤسفنى اننى لم أمرض قبل وقت طويل ، لأستعيدك ! » . وضاعفت لهجتها قلقه .. وقال يغالب ما به : « لســـــوف تبلين من مرضك .. أليس كذلك ؟ » . فجاهدت لتخفى ما كان بها ، وقالت : « بالتأكيد ! »

ـ لو كان ثمة خطــــر ، فلست أحسبك تخفينه عنى .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. ما كنت لأخفيه حتى لا أحرم نفسى متعة تلاوة كلمات الوداع ، التى انتقيتهـــا بعناية ، وحفظتها عن ظهر قلب .. أتود أن تسمعها ؟ .. اليــك هى : **وصيتى الأخيرة ألا تشعر بوحشة لغيابى ، وألا تفتقدنى ، لأنك اذا انعمــت النظر فستجدنى فى وجه كل اسبانى واسبانية .. وهـــذا ـ فى رأيى ـ تفسير لغز وجهى !**

وقهقه فرانشيسكو قائلا : « أأنا الفنــــان أم انــت ؟ ..

ما صادفت ـ ولن أصادف ـ فى حياتى امراة مثلك . فمنذ ان قابلتك لم أرسم شيئا ، ولا عملت عملا ، الا بوحى منك ! ». فقالت : « هراء ! .. من الجائز اننى ساعدتك فى ادراك حقيقة نفسك ، والتشبث بها . .ولكنك ما كنت تعجز عن الوصول الى المجد بدونى ! » .. وبعثت عبارتها توجسا انقبض له قلبه فهتف : « ولكننى لن أستطيع المضى فى الحياة بدونك يا ماريا ! »

وكانت قد دبرت كل شىء ، فمرت بأصابعها خلال شعره ، وقالت مصطنعة الانشراح : «ان مستقبلك لم يبدأ الا أخيرا ، وبعد ان فارقتنى .. ولسوف تدرك يوما ما يفعله الفرنسيون بشعبنا ووطننا ، ومع اننى لا أود أن أثير موضوعا قد يقودنا الى خلاف ، الا اننى موقنة من أنك لن تستمر طويلا فى ولائك لبونابرت .. **واذ ذاك ، ستحيا اسبانيا خلال قلمك وريشتك ! »**

وغص حلق فرانشيسكو بالعبرات ، فظل صامتا .. وما لبثت ماريا أن سألته : «هل ستحبنى دائما ، يا باكو ؟» . فلم يجد جوابا أبلغ من أن يرفع يدها الى شفتيه ، ويقبل راحتها فى عبادة صامتة .. وأشاحت بوجهها حتى لا يرى الدموع تترقرق فى عينيها . .ومع أنها كانت قد وطنت نفسها على الاستسلام للقدر ، عندما تكهن الأطباء بأنها وشيكة أن تموت : الا ان رغبة جامحة جعلتها تتمنى ان تتشبث بالحياة .. وعادت تسأله : « أتحضر لزيارتى قريبا ؟ » . فهتف : « بل غدا .. وكل يوم ! »

ـ انك تمدنى بسبب يجعلنى أتشبث بالحياة !

واخيرا ، آن له أن يفارقها ، فطبع قبلة على شفتيها ..

وود كل منهما لو يطول العناق ، الى نهاية الأجل . . وأخيرا ، أفلتها فرانشيسكو وأسرع بالانصراف ، وفي نفس كل منهما هاجس بأنه . . اللقاء الأخير !

- ٨ -

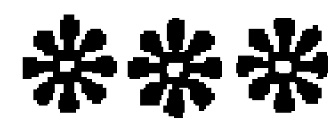
وكان اللقاء الأخير فعلا . . ورفض الفرنسيون ان تقام الصلاة على روح « ماريا كايتانا » في النهار ، ومنعوا الجماهير من أن يودعوها ، خشية المظاهرات . . أما « فرانشيسكو » فقد ظل ساعات يهيم في الطرقات ، وقد كاد الحزن يودى بصوابه . . وفيما هو يتخبط في أساه ، أبصر الجماهير تنساب في اتجاه معين ، وهي تهتف : « الموت للطغاة !.. الموت لجودوى . . تحيا اسبانيا ! »

وسار بينهم ، وقد خطر له ـ فجأة ـ انه لم يعد ثمة لديه ما يخشى أن يخسره . . حتى الحياة !

وبلغت المظاهرة الميدان الرئيسي ، فشاهد « فرانشيسكو » ستة من الاسرى ، قيدت أيديهم خلف ظهورهم ، وسار خلفهم عدد من الجنود الفرنسيين ، راحوا يلكزونهم بالبنادق ، ويدفعونهم الى نافورة في وسط الميدان . . وجرى الدم ساخنا في عروق فرانشيسكو . ثم لمح ـ فجأة ـ بين الأسرى صديقه « جوانيتو » ! . . وكان يدرك انه لا يملك لصديقه انقاذا ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم رغبة في نفسه ، في أن يشعره بأنه يقف الى جانبه ، فهتف بأعلى صوته : « جوانيتو ! »

ومع أن « جوانيتو » لم يستطع أن يميزه بين الحشد ، الا أنه عرف صوته ، فابتسم مغتبطا ، واذ ذاك صاح فرانشيسكو : « ليباركك الله ياصديقي . . وتحيا اسبانيا ! »

فهتف الرجل : ((المـــوت للطغاة !)) . وسرعان ما زارت الجماهير مرددة : ((الموت للطغاة ! . .لتحيا اسبانيا !)) .
وفى تلك اللحظة ، اصدر أحد الضباط امرا ، فســاد القوم صمت رهيب .. ثم ارتفع صوته بأمر آخر ، فدوت طلقات نارية .. ولمح فرانشيسكو صديقه يهوى ــ وسط أقــرانه الاسرى ــ والدماء تنزف منه !



ولكن الشعب لم يستسلم لحكم الارهاب ، فكان الفرنسيون يكتشفون ــ كل يوم ــ بعض جنودهم مقطـوعى الرقاب ، وكان ضباطهم يختفون دون أن يظهــر لهم أثر .. وتوحدت قوى الشعب ــ كما تنبأت ماريا ــ لمقاومة المحتلين ، فأخذ القوم يغادرون مدريد تباعا الى الجبال ، حيث اجتمعــت قيادتهم تمهيدا لحـــرب عصابات مسلحة .. وحــاول الفرنسيون أن يسدوا المنافذ بحراسة مشــددة ، ومع ذلك فقد ظل المناضلون يتسللون ..

وقضى فرانشيسكو اسبوعــا يقلب الأمر على جميــع وجوهه . **فقد عقد العزم ــ منذ مصرع جوانيتو ــ عــلى أن ينتقم له ولكل من استشهــدوا فى سبيل قضية البلاد .. فقرر أن ينضم الى العصــابات ، وأن يكرس فنه لخدمــة القضية !** .. ومن ثم امتطى جواده ــ ذات صباح ــ واتجه الى خارج المدينة .. وتصدى له ضــابط فرنسى وثلة من الجنود ، عنــد الحدود . ومـــا أن عرف الضــابط انه ((فرانشيسكو جويا)) الفنان ، حتى هتف فى عجب : ((ولماذا تغادر المدينة يا سنيور جويا ؟))

ــ أن الحيــاة اصبحت لا تطاق هنا .. فلا بد لمهنتي من

الهدوء والسكينة ، ولذلك أسعى الى مكان منعزل أعمل فيه بعيدا عن اطلاق الرصاص !

ــ ان الجميع يعرفونك مواليا للامبراطور.. فهل ما زلت على مبادئك ، أم تحولت الى صفوف المتمردين ؟

ــ ما زلت كما أنا دائما .. أؤمن بالحرية والاخاء والمساواة !

واذ تأكد الضابط من أن « جويا » لم يكن يحمل سلاحا ، وان حقيبته لم تكن تضم سوى أقلام الرسم والفرش والألوان ، تركه يغادر المدينة ، وهو يقول لجنوده : « خلوا سبيله ، فهو غير مؤذ . .غير مؤذ اطلاقا ! »

وما أن ابتعد « جويا » عن مركز الحراسة ، حتى انطلق مقهقها ، وهو يقول لنفسه : « يا لهم من أغبياء ! .. غير مؤذ اطلاقا ! .. **من المضحك حقا أن الفرنسيين لم يفطنوا الى الدور الذى يستطيع القلم والفرشاة أن يؤدياه فى الصراع ضدهم ! »**



ملكات صنعن التاريخ بغرامياتهن

ابتسامة وحدت مملكة

للمؤرخ الفرنسي المعاصر
جي بريتون

ترجمة وتلخيص : ماهر مينا

عزيزى القارىء :

قد تكون الكتابة فى التاريخ سهلة ، ولكن كتابة ما يستحق ان يقرأ — من التاريخ — من اشق الامور .. ويبدو — فى بعض الاحيان — ان اقبال الكتاب على هذا الميدان ، قد استهلك ما فيه من مواد مشوقة ونافعة .. ولكن الكاتب المؤرخ المتمكن من علمه ، والعاشق لفنه ، يأبى ان يقف عند هذه الظاهرة ؛ فيصر على ان يغوص فى أعماق التاريخ ، او ان يضرب فى جوانبه ، **وسرعان مايتبين ان التاريخ اشبه بالمحيط .. بل اشبه بالفضاء ، كلما ارتاد الانسان منه طبقة ، وجد انه لايزال عند ابوابه !**

و ((جى بريتون)) — المؤرخ الفرنسى المعاصر — من هذا الصنف الذى لايكف عن ارتياد التاريخ ، وان كان يقتصر فى الغالب على قطاع ضيق من قطاعاته .. القطاع الخاص بفرنسا . وهو قطاع حافل — برغم ضيقه — بالاحداث والقصص والعجائب .. احداث العهود السابقة على المدنية ، وقصص الاقطاع وعهود الملوك ، وعجائب الثورة والانتصارات التى حققتها .. **ثم غرائب النكسات التى اودت بالثورة ومبادئها ، وانتهت بتنكر حاكم مثل ((ديجول)) ، لا لمبادىء الثورة الفرنسية وحدها ، بل لمبادىء الانسانية باسرها ..**

وفى اطواء هذا التاريخ الحافل ، عثر «جى بريتون» — فى بعض جولاته الارتيادية — على ناحية راح ينبش اطواءها ، فخرج بمجموعة عجيبة ، مشوقة من القصص .. **قصص ملكات فى تاريخ فرنسا ، استطعن بالحب ، وبمغامراتهن الغرامية ، ان يساهمن فى صنع**

تاريخ بلادهن ..

والقصة التى نقدمها لك فى الصفحات التالية ، من النوع الأول .. لقد استطاعت ((**ابتسامة**)) لمعت على شفتى فتاة — فى وقت كانت فرنسا فيه مقسمة الى ممالك صغيرة — ان تكون بداية لأحداث وتطورات انتهت بتوحيدها فى مملكة كبيرة !

عائدون من مهمة خطيرة

فى احد أيام ربيع عام ٤٩٢ ، وفيما كانت الأزهار البيضاء فى أوج نموها وتفتحها بين احراش بلاد (الفال) ، انطلق خمسه فرسان من مدينة (فالينسيا) ، فاجتازوا مسرعين اقليم (بورجونيا) ، ثم راحوا يشقون طريقهم محاذين نهر (الرون) ، مارين بمدن (ليون) و (ديجون) و (لانجر) ، ثم تغلغلوا فى أراضى الفرنجة .. ودون ان يخففوا من سرعتهم واصلوا رحلتهم ، فاجتازوا مدن (طروا) و (شاأون) و (رانس) ، الى ان وصلوا — ذات صباح مشرق من شهر مايو — امام قصر الملك « كلوفيس » فى (سواسون) ، وقد استبد بهم الاعياء ، وان ظلوا مشدودى القامة ، مرفوعى الرؤوس ، فى كبرياء واعتداد .

كانوا يحملون نبأ يعرفون انه سيبعث الفرحة والغبطة فى قلب مليكهم الشاب . **فما أن استقبلهم ((كلوفيس)) ، حتى ابتدره أحد الفرسان بقوله : ((لقد عثرنا لك على اجمل امرأة فى العالم !))**

وأومضت عينا الملك ـ الذى كان فى الخامسة والعشرين من عمره ـ ببريق خاطف ، ثم علت محياه ابتسامة عريضة كشفت عن أنياب تشبه أنياب البرابرة .. اذ كان البحث قد أعياه عن زوجة تجمع بين ملاحة الخلقة وعراقة الأصل .. وهما صفتان كان يصعب توافرهما فى امرأة واحدة ، فى ذلك الحين !

وما لبث كلوفيس أن تساءل : « وهذه الفتاة .. من يكون أبوها ؟ »

ـ انه شيلبريك ملك بورجونيا ، الذى كان يحكم ليون .. لكن الفتاة يتيمة الآن !

يقتل اخاه ثم يربى ابنتيه !

وراح احد الفرسان يروى للملك كيف ان « جوندبو » ـ ملك (ديجون) ـ ذهب ذات يوم لمحاربة اخيه «شيلبريك » الذى كان يطمع فى مملكته ، فألفاه يتناول الطعام مع اسرته ، وعلى الفور أقدم على عمل وحشي منكر . **اذ أنه لم يكد يلمح ملك (ليون) ، حتى سدد الى عنقه ضربة محكمة من فأسه ، فأطاح برأسه وأسقطه فى احدى الصحاف المتراصة فوق المائدة !** .. واستغل جنديان ـ من جنود المعتدى ـ الفوضى التى استشرت على الأثر ، فاختطفا زوجة الملك الصريع ، وهى لا تكف عن اطلاق صرخات مروعة ، والقيا بها فى نهر (الرون) . ثم اخذ البرابرة يلهون بذبح اولاد شيلبريك وتقتيلهم ، فلم تفلت من الموت غير ابنتين ، احداهما فى الخامسة والأخرى فى السادسة ..

ولم يكن « جوندبو » شديد القسوة ـ فى اعماق نفسه ـ فلم يلبث ان رق قلبه لليتيمتين المسكينتين ، فشملهما برعايته وتولى تربيتهما .. وكان ان ارسلت احداهما الى

المدير ، اما الأخرى ، فكانت تلك الحسناء ذات الجلال والألمعية ، التى وقع بصر مبعوثى كلوفيس عليها فى (فالينسيا) !

وعاد الملك «كلوفيس» يسأل مبعوثيه : «وما اسم الفتاة؟»

ـ اسمها «كلوتيلد» .. وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، شقراء الشعر ، ذات عينين خضراوين لهما بريق الذهب !

وارتاح الملك لهذه الاوصاف ، فشكر لمبعوثيه جهودهم القيمة ، ثم استدعى صديقه « اوريليان » ـ الذى كان يأنس فيه سلامة التفكير وبراعة المسلك ـ وعهد اليه بالسعى للحصول على موافقة « كلوتيلد » و « جوندبو » على ان تصير الفتاة زوجة له !

« جوندبو » يوافق محرجا ..

ورحل « اوريليان » فى الحال .. ولم تكد تنقضى ايام قلائل ، حتى بلغ (فالينسيا) ، وقد تنكر فى ملابس متسول ، كى يسهل عليه الاقتراب من « كلوتيلد » دون ان يسترعى انظار اتباع «جوندبو » ..

وفى ذات مساء ، وبينما كانت الفتاة توزع الصدقات عند الباب الداخلى للقصر ، دنا منها « اوريليان » ، فقبل طرف ثوبها ، وهو يجذبه فى رفق ليستلفت انتباهها .. وافلح فى ذلك ، اذ دهشت كلوتيلد ، فانحنت لتتبين الأمر . واذ ذاك قال لها الرجل فى صوت هامس : « سيدتى ، اننى اريد التحدث اليك ! » .. فزادت الفتاة من انحنائها ، وقالت : « تكلم ! »

ـ ان الملك كلوفيس يريد الزواج منك ، وقد بعث بى لكى احصل على موافقتك .. وبرهانا على صحة مهمتى ، هاك خاتم الملك !

ـ الى به .. وقل لسيدك أن يسارع الى طلب يدى من « جوندبو » .. وسأكون زوجة له !

ولم يشأ مبعوث « كلوفيس » ان يضيع وقتا ، بل رحل لتوه الى (جنيف) ـ حيث كان يقيم « جوندبو » وقتذاك ـ وطلب اليه رسميا ان يوافق على زواج « كلوتيلد » من مولاه .. ودهش ملك (بورجونيا) ، وتملكه الحنق . لكنه لم يجترىء على اغضاب كلوفيس برفض طلبه ، فسأل اوريليان : « ولكن .. ترى هل توافق الفتاة ؟ »

ـ لقد احيطت بالأمر علما ، فلم تتردد فى الموافقة .. ولو انك وافقت بدورك ، لاصطحبتها الى مليكى !

وامتعض « جوندبو » ، اذ لم يعد يجد حجة يتعلل بها ، فاجاب : « اذن ، فاذهب بها اليه ! »

.. ثم يسعى لاسترجاع العروس

وقفل « اوريليان » عائدا الى (فالينسيا) .. وسرعان ما اعدت المركبات للرحيل ، وحملت بكثير من الهدايا الثمينة والاموال ، بمثابة بائنة للعروس .. واتخذت « كلوتيلد » مكانها من المركبة الرئيسية ، وهى مشبوبة الفرحة ، اذ قدر لها ان تغادر (بورجونيا) فى ظروف سعيدة كهذه .. ظروف تجعل منها زوجة لملك طالما سمعت القوم يشيدون باخلاقه وجماله ، ويتغنون بقوته وشجاعته .

ولكن سوء الطالع شاء أن يتدخل .. فقبل ان تقترب القافلة من حدود مملكة « كلوفيس » ، لحق بها فارس اقبل فى سرعة هائلة .. **واختلى بكلوتيلد لحظات ، اخطرها خلالها بان عمها قد ندم على موافقته على زواجها ، واصر على استرجاعها** . واستطرد قائلا : « وقد بعث الملك فى اثرك بفرقة يقودها « اريديوس » ، لاعادتك ثانية الى فالينسيا ! »

وذعرت « كلوتيلد » ، واستبد بها الهلع . فبادرت بترك مركبتها الفخمة ، خشية أن يتيح بطء تقدمها لمطارديها فرصة اللحاق بها .. ولم تتورع عن ان تمتطي جوادا ، وتنطلق في صحبة « اوريليان » ، مخلفة بائنتها ونفائسها في جوف الغابة !

و .. تم زفاف الملك !

خمسة ايام بأكملها ، انقضت في سفر متواصل ، مرهق ، قبل أن تصبح الفتاة في مكان مأمون ، بعيدا من متناول « جوندبو » ورجاله .. وبعد ايام قلائل اخرى ، وصلت الى (سواسون) ..

وما ان وقع بصر « كلوفيس » عليها ، حتى بهر بجمالها ، لاسيما حين افتر ثغرها عن ابتسامة زادت من فتنتها ، فاذا بوجنتيه تحتقنان ، وفكيه يرتعشان .. وبادر قائلا لها : « لقد كان من المقرر ان نحتفل بزفافنا غدا ، ولكنني ساعقد قراننا فورا ! »

ومع ان ((كلوتيلد)) كانت عذراء ساذجة ، الا انه لم يغب من تفكيرها البرىء ان ذلك التعجل كان ينطوي على شيء من عاطفة غير لائقة ، فتضرج وجهها حياء ! .. وسرعان ما قادتها بعض نساء القصر الى الحجرة التي افردت لها ، فتولين تزيينها ، والبسنها ثوب الزفاف .. ولم يكدن يفرغن من ذلك ، حتى اقتحم « كلوفيس » الغرفة ، وقد استبدت به لهفة طاغية وشوق عارم ..

واسرعت النسوة بمغادرة الغرفة ، فخلا ملك الفرنجة الى سليلة (بورجونيا) الحسناء ، و .. سجلا الرباط الذي فزز وثيقة الزواج !

الحب .. صانع المعجزات !

وعاش الزوجان حياة هانئة ، ذاقا خلالها من مباهج الحب ومتعته ما اسكر روحيهما الوالهنين .. وكان « كلوفيس » عشيقا خبيرا بشؤون الهوى ، فلم يلبث ان استطاع ان يفتح امام « كلوتيلد » ابواب عالم من السعادة الغامرة ، كان مجهولا لديها حتى ذلك الحين .

وارادت هي — اعرابا عن امتنانها — ان ترد له صنيعه بصنيع آخر من لدنها ، فقررت في نفسها ان تسعى جهدها لكي تحمله على ان يتخلى عن وثنيته ، ويعتنق المسيحية . **اذ انها كانت مسيحية شديدة التقوى والتدين ، وكان يشقيها ان ترى « كلوفيس » يعبد آلهة البرابرة !**

وشرعت تبين له — شيئا فشيئا — زيف عقيدته وما كانت تنطوي عليه من ضلال ، مستخدمة طائفة من الحجج القوية ، التي كان يلقنها اياها « سان ريمي » كبير اساقفة الكنيسة في ذلك الوقت . فما لبث الملك — الذي كان متيما بحب زوجته — ان اقتنع بآرائها ، وآمن بتعاليمها ، حتى انه بات على استعداد لقبول تعميده ، لولا ما كان يخشاه من ان يؤدي انصرافه عن آلهة اجداده الى تعريض سلطانه للخطر ..

ذلك لان الفرنجة كانوا يرون في الملوك الذين يحكمونهم ، خلفاء لآلهتهم وممثلين لهم .. وكانت قيادة الشعب وزعامته حقا للآلهة وسلالاتهم دون غيرهم .. ومن ثم ، فان اعتناق المسيحية كان يؤول على محمل التنكر للاجداد ، والتجرد من الانتساب الى سلالة الآلهة .. وبالتالي ، التجرد من الحق في تولي الحكم .

لذلك كان الملك في حاجة الى شجاعة بالغة ، كي يقدم على اعتناق دين غير دين قومه . وقد ادركت «كلوتيلد» كل هذه

الأمور ، فآلت على نفسها ان تلهم «كلوفيس» هذه الشجاعة المنشودة ، وان تبث فيه الجرأة وقوة الحجة ، كي يقنع اتباعه وجنوده بمبدأ الفصل بين الحكم والدين .. وقد مضت في سعيها متذرعة بقوة اليقين والحب !

.. ولكن الطفل مات !

وكانت الخطوة الاولى نحو غايتها ، أن اقنعت الملك بأن يوافق على تعميد أول طفل رزقا به ، وقد سمياه «انجومير» .. وتراءى لها ان اضفاء مظاهر الابهة والجلال على حفلة العمادة ، قد يقع من نفس زوجها موقعا يساعدها على بغيتها . ومن ثم حرصت على تزيين جدران الكنيسة وارضها بأغلى الستائر وافخم الأبسطة والسجاجيد ..

وافلحت تدابيرها المحكمة في ايقاع الرهبة في قلب الملك ، وفي خلب لب رجل بربري مثله . ولكن .. **لم تكد تنقضي ايام قلائل ، حتى وقع الطفل فريسة لمرض خطير سرعان ما قضى على حياته . فانهار صرح العمل الدائب الذي شيدته الملكة من اجل تحقيق بغيتها .**

وصاح كلوفيس في زوجته غاضبا ، وهو في لوعته لوفاة ابنه : « لو ان ولدنا قد كرس لآلهتي ، لظل على قيد الحياة .. ولكن لما كان قد نال طقوس العمادة باسم آلهكم ، فانه لم يستطع ان يبقى حيا ! » .. ولم تضطرب كلوتيلد ، ولا تلعثمت في كلامها ، بل اجابته بقولها :

ـ انني احمد الخالق العلي القدير على جميع ما شملني به من افضال ، اذ اعتبرني اهلا لأن ارى الطفل الذي خرج من احشائي يشاركه في ملكوته .. فأنا اعلم ان الأطفال الذين ينقلهم الله الى جواره ، وهم بعد في لفائفهم البيضاء ، انما يقدر لهم دائما ان ينعموا برؤيته !

واحتار « كلوفيس » عند سماعه هذا الكلام ، اذ ان ما اخبرته به زوجته كان فوق تصوره . ولكن ذلك الايمان العميق الذى لمسه فى « كلوتيلد » الفاتنة ، لم يلبث ان ملأ نفسه باعجاب دافق زاد من حبه لها ، حتى لقد عزم على ان يبرهن لها على هذا الحب دون ما ابطاء !

المرض يصيب الطفل الثانى

وكان ان حقق ما تاقت اليه نفسه . اذ لم تلبث الملكة ان انجبت له طفلا آخر ، اطلقا عليه اسم « كلودومير » ..

واستطاع المولود الجديد ان يعيد الى «كلوفيس» سعادته التى ظل محروما منها منذ وفاة طفله الأول ، فاستغلت « كلوتيلد » تلك الفرصة لتخبره بأن من دواعى فرحها ان يوافق على تعميد الطفل .. ومرة اخرى ، امتثل الملك لرغبة زوجته الحبيبة ، فأقيم حفل فاق فى روعته وبهائه حفل تعميد المولود الأول ..

ولكن « كلودومير » اصيب ــ فى اليوم التالى ــ بمرض خطير .. **واذ ذاك فاض الهم بكلوفيس ، فاذا به يصيح فى زوجته فى اسى : « لسوف يحدث لطفلنا هذا ولابد ، ما سبق ان جرى لأخيه .. انه ، وقد عمد باسم الهكم ، سوف يلقى حتفه حتما ! »**

ولم تدر الملكة كيف تخفى ما تملكها من ارتباك وحيرة ، فهرولت الى الكنيسة .. وهناك اختلت بنفسها يومين كاملين ، وراحت تصلى فى حرارة وابتهال .. الى ان قدر لطفلها العليل ان يبرأ من مرضه ! .. وجاء شفاء الطفل فى وقته الملائم . اذ كان كلوفيس قد عقد العزم على الا يعتنق

تلك الديانة التي تعرض حياة معتنقيها للخطر .. الا ان كلوتيلد سرعان ما افلحت في اقناعه بتغيير موقفه من المسيحية !

الملك يصلي لرب كلوتيلد

على ان الملك ظل يابى – مع ذلك – قبول المعمودية .. وواقع الامر ، ان ذهنه كان منصرفا – في تلك الاونة – الى مسائل كانت تبدو له اكثر اهمية . فقد كانت القبائل الجرمانية ، التي طالما اثارت القلاقل والاضطرابات ، تهدد دواما باجتياز نهر (الراين) والاستيلاء على بلاد (الغال) . **.. وذات يوم ، اعلن ان واحدة من تلك القبائل المشاغبة قد حاصرت سهل (الالزاس)** .. وقرر كلوفيس على الفور الا يدع فرصة للمعتدين كي يتغلغلوا داخل البلاد ، فاسرع لملاقاتهم على رأس جميع قوات الفرنجة . وما لبث ان اوقف زحفهم في منطقة تقع على مقربة من مدينة (ستراسبورج) !

* * * * * * * *

وتقول الأساطير انه اثناء المعركة خطر لكلوفيس ، وقد تبين ان العدو يوشك ان ينتصر عليه ، **ان يتوجه بصلواته الى ((رب كلوتيلد)) ، عله يمد اليه يد النجدة فينزل الهزيمة بالمعتدين** .. وما ان انتهى من صلاته ، حتى كان الأعداء قد شتتت صفوفهم ، فولوا الأدبار يجرون اذيال الانكسار والهزيمة . واذ ذاك ، اعتزم ملك الفرنجة اعتناق المسيحية اعرابا عن شكره وعرفانه لرب المسيحيين ، لما حباه به من رعاية اثناء القتال !

غير ان المؤرخين المحدثين ينكرون هذه الواقعة ، ويقررون

ان اعتناق ملك الفرنجة للدين المسيحى لا يرجع الى انتصاره على الجرمانيين الغزاة ، بل الى الحب المشبوب الذى كان يحمله بين جوانحه لزوجته كلوتيلد !

.. وتغير وجه التاريخ !

وعاد كلوفيس الى زوجته ـ بعد انهزم الجرمان ـ فالفاها اشد ما تكون تحرقا الى رؤياه ، وقد اضناها طول الفراق وعذاب القلق .. وبين القبلات المشتاقة والعناق الحار ، راحت كلوتيلد ـ التى كانت ذات عزيمة لا تلين ـ تتوسل الى زوجها فى الحاح واصرار ان يهجر ديانته البربرية . وما زالت تمعن فى توسلاتها ، حتى وافق الملك فى النهاية على ان يتلقى تعاليم الدين المسيحى على يد « سان ريمى » كبير اساقفة الكنيسة !

فلما حل عيد الميلاد فى عام ٤٩٦ ، اقيم حفل ضخم فى مدينة (رانس)، عمد فيه كلوفيس امام حشود غفيرة توافدت من جميع انحاء بلاد (الغال) . وبعد ان احنى الملك العظيم هامته امام كبير الاساقفة ، اقبل ثلاثة آلاف من رجاله ـ بأمر منه ـ ليتلقوا بدورهم مراسيم العماد . فكان اجراء غاية فى الاحكام والبراعة ، اذ ان دخول الفرنجة فى دين مليكهم ، كان بمثابة اعلان بان ولاءهم له باق !

على ان ذلك التحول الجوهرى الحاسم ـ الذى كان مرده الى الحب قبل كل شىء ! ـ ما لبث ان اسفر عن نتائج سياسية بعيدة المدى .. ففى وقت كان فيه سائر ملوك البرابرة الآخرين من الوثنيين الكفار ، استطاع كلوفيس ان ينصب نفسه زعيما على الملايين من الكاثوليك الذين كانوا

يقطنون بلاد (الغال) . فجلبت له تلك الصفة مساندة جميع الأساقفة ـ الذين كان نفوذهم عظيما فى ذلك الوقت ـ وساعدته على ان ينتزع من التتر اقليما واسع النطاق ، يمتد من نهر (اللوار) الى جبال (البرانس) !

وقد قدر للقب « ملك الكاثوليك » ان يتيح ـ فيما بعد ـ لابناء كلوفيس ان يغزوا (بورجونيا) ويستولوا عليها . .

* * * * * * *
* * * * * * *

فيا لها من ابتسامة تصنع المعجزات ! . . ذلك لانه من الممكن القول ـ دون ما مغالاة ـ انه بفضل ابتسامة «كلوتيلد» الساحرة ، استطاعت مملكة الفرنجة ان تحقق وحدتها لأول مرة . . تلك الوحدة ألتى قدر لها ان تقرر مستقبل فرنسا بأسرها !

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة ((جورجيت هودو)) ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين ((بيرك)) و ((هير)) .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم ((سقراط)) .. ومحاكمة ((آن بولين)) ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن ، فمحاكمة ((دريفوس)) .. ومحاكمة ((ستافسكى)) .. ثم محاكمة ((مرجريت فهمى)) .. ومحاكمة ملك انجلترا ((شارل الاول)) واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. ثم محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات اثينا القديمة) و ((جريمة درب العشاق)) .. و ((جريمة حارة التونى)) .. ثم حلقات من كتاب ((نساء ومآس فى ساحة العدالة)) .

وفى هذا العدد اقدم لك احدى القضايا المعاصرة ، التى اثارت جدلا قانونيا ..

الجريمة .. والعقاب

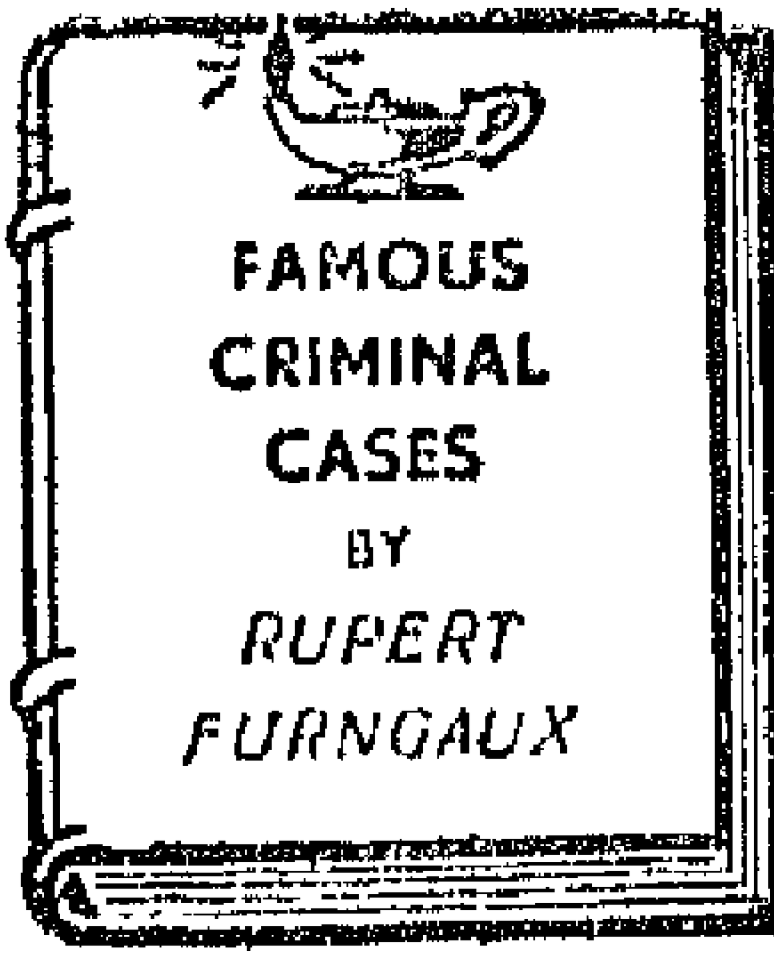


المحاكمات الكبرى

فى الماضى والحاضر

أشهر القضايا الجنائية الحديثة

القاتل .. الذى حاز عطف الجماهير !



للكاتب والمحقق الانجليزى : روبرت فورنو

عزيزى القارىء :

شعرة بين الاعدام وبين العودة الى الحياة .. شعرة رفيعة ، يتعلق بها المتهم والدفاع ، وقد تحتملهما معا فتنتهى الى ان يرى القضاء ان الجريمة لم يسبقها « عمد ولا ترصد » ، وفى هذه الحال ، يستبعد الاعدام نهائيا من تقديره ، وينصرف الى وزن الظروف التى احاطت بالمتهم وبالجريمة .. وقد يصدر ــ بعد ذلك ــ حكما مخففا الى اقصى الحدود !

والمتهم فى القضية التى نقدمها لك اليوم ــ من كتاب « **اشهر القضايا الجنائية** » ، لروبرت فورنو ــ كان قد اعتزم القتل .. **قتل زوجته الخائنة ، ولكن الظروف ساقته ــ على غير توقع ــ الى قتل عشيق الزوجة ! .. وكان السبب هو : « الاستفزاز » ..**

واثارت القضية ضجة بين الناس والصحف .. ولكن ضجيجها فى الدوائر القانونية والقضائية ــ فى انجلترا ــ كان أشد واقوى .. اذ كان لابد من تحديد لدرجة « الاستفزاز » التى تسمح للمرء بأن ينسى نفسه ويقدم على جريمة قتل ..

من هنا تدرك ان القضية ليست لمجرد التسلية ؛ ولكنها ــ فى الوقت ذاته ــ تنطوى على دراسات نفسية وانسانية وقانونية .. وقد أبدع المؤلف ــ وهو من اشهر الكتاب الذين يدرسون القضايا ويعرضونها ــ فى ابراد الاحداث والدراسات بطريقة ممتعة ، لاتذهب برواء القضية كمجرد قصة .. انسانية !

ـ **كنت** اعلم ان هذا سوف يحدث .. كنت اعلم ان هذا سوف يحدث !

هكذا صرخت الخادم « جيسى كجيرولف » ، وهى تحملق فى فزع الى جثة تاجر الازياء الثرى « هوراس لندسى » ، وقد وقف الى جوارها « ارنست فانتل » ، ممسكا بمسدس يتصاعد الدخان من فوهته .. وكان مندوبا متجولا لاحدى شركات السياحة ، فى الخامسة والاربعين من عمره ..

وطلب «فانتل» من الخادم ان تستدعى رجال الشرطة ، ثم مكث فى الغرفة حتى حضروا فألقوا القبض عليه .

تعترف لزوجها بانهاتحب سواه

• **وفى** قسم الشرطة ادلى فانتل باعتراف مفصل : « لقد تزوجت منذ ثمانية عشرة عاما ، من زميلة كانت تعمل معى فى سلاح الطيران ، واثمر زواجنا ولدا واحدا ، يبلغ الآن الرابعة عشرة من عمره .. وكنا نعيش فى سعادة وهناء حتى شهر يوليو من العام الماضى ، حين التقت زوجتى بـ « هوراس لندسى » ..

« **لقد اعترفت لى زوجتى ـ منذ شهرين ـ بأنها تخوننى مع رجل آخر ، وطلبت منى ان أوافق على الطلاق ، اذ لم يعد بوسعها ان تعاشرنى !** .. وزاد من قسوة الصدمة قولها بانها جاهدت كثيرا فى ان تجتث افتتانها بذلك الرجل من قلبها ، غير انها فشلت !

« وصرحت لى «مس نورما ماكرى» ـ ابنة عم زوجتى ـ ان زوجتى كانت تكثر من التردد على منزل « لندسى » .. وكنت ـ اذ ذاك ـ قد عدت لتوى من جولة قمت بها فى بلدان

اوربا ، بتكليف من الشركة التى اعمل بها . فلما سمعت هذا الكلام كذبت اذنى ، غير اننى لم البث ان تقصيت الأمر ، فتأكدت من أن زوجتى قد عزمت ـ فعلا ـ على الزواج من عشيقها ، فور حصولها على الطلاق . **واذ كنت احبها حبا جنونيا ، فقد تملكتنى رغبة عارمة فى ان اقتلها ! ..**

« وفعلا ، انتهزت فرصة قيامى بجولة اخرى فى اوربا ، فابتعت مسدسا من سويسرا .. »

الزوج يتوسل .. والعشيق يتعالى ويحتقر !

• **واستطرد** فانتل فى اعترافه قائلا : « وما ان عدت الى انجلترا ، حتى اتصلت تليفونيا بعشيق زوجتى ، طالبا منه ان يحدد لى موعدا للقائه .. واعتذر ـ فى بادىء الامر ـ بأن وقته لم يكن يسمح له بذلك ، غير انه وافق أخيرا على ان اذهب لزيارته فى مسكنه ، فى العاشرة من صباح البارحة .. وفى الموعد المحدد ، خرجت قاصدا ذلك المسكن ، بعد ان عبأت خزان المسدس بالرصاص .. ووصلت الى هناك فى الساعة العاشرة الاعشر دقائق . واذ قادتنى الخادم الى الداخل ، وجدت غريمى جالسا فى مقعد مريح . **فما ان وقع بصره على حتى سألنى فى برود عن سبب حضورى .. وقبل ان اجيب ، أردف قائلا اننى احاول عبثا ان استرد منه زوجتى .**

« ورحت اتوسل اليه ان يترك زوجتى وشأنها .. وفى محاولة يائسة لأن الين قلبه ، تحدثت اليه عن حياتنا الزوجية ومستقبل طفلنا . غير انه لم يعر توسلاتى اهتماما ، واجاب بأنه **يتكفل بأن يولى طفلى الرعاية اللازمة ! ..** ثم نهض من مقعده ـ وهو ينظر الى فى ازدراء مهين ـ معلنا انتهاء الزيارة . فلم اشعر الا وقد سحبت المسدس من

جبهى ، وصوبته نحو راسه ، ثم ضغطت الزناد .. غير ان الرصاصة طاشت ولم تصبه . فاطلقت رصاصة أخرى نحو صدره ، واذ ذاك تعثر ، واتجه نحو الباب محاولا الفرار ، فلم البث ان اطلقت عليه رصاصة ثالثة اخترقت جمجمته ، فسقط على الارض صريعا ! »

اعتراف الزوجة بالخيانة لايبرر قتلها

• **وعرضت** الجريمة امام القضاء ، فأثارت عاصفة من تعليق الصحف والرأى العام على السواء .. ودار الجدل حول مدى « الاستفزاز » الذى يجب أن يتعرض له القاتل قبل اقدامه على جريمته ، فيكون شفيعا فى التخفيف من شناعتها ، **ويحولها من جريمة ((القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد)) ، الى جريمة ((ضرب أفضى الى موت)) !**

ذلك ان القانون الانجليزى ــ قبل عام ١٩٤٧ ــ كان يتطلب من القاتل الذى يستخدم فى جريمته سلاحا مميتا ، أن يثبت بما لا يدع مجالا للشك ، انه أقدم على فعلته عند مواجهته خطر الموت او الأذى الجسيم . كما كان ينص ايضا على ان « الاستفزاز » يجب أن يتخذ شكل الاعتداء البدنى ، فيما عدا حالة واحدة استثناها القانون ، وهى **مفاجأة الزوج لزوجته متلبسة بجريمة الزنا** .. أما اعتراف الزوجة لزوجها باقدامها على خيانته ، فانه ــ فى حد ذاته ــ ليس كافيا لتبرير الجريمة !

الدفاع يعرض عناصر الاستفزاز

• **وتالفت** هيئة المحكمة من القاضى « سالمون » ، و « مستر كريسماس همفريز » ممثلا للاتهام ، و « مستر فيكتور دوراند » ممثلا للدفاع .. وقد قام الدفاع بمهمته

خير قيام ، فاستعرض امام المحلفين وقائع الجريمة ، وقدم اليهم من يوميات المتهم ، والبيئة التى عاش فيها ، والظروف التى صادفته ، ما يثبت ان مستر « فانتل » ـ الذى عرفه الجميع رجلا مستقيما يتمتع بأخلاق قويمة لاغبار عليها ـ قد تعرض لدرجة من الاثارة والاستفزاز ، يطيش لها صواب أعقل الناس وأكثرهم اتزانا !

كانت يومياته تنطق بالعذاب والمهانة اللذين كان ينوء تحت وطأتهما . فهو يقول فى احداهـا : « .. لقد فترت العلاقة بيننا ، فهى لم تعد تلمسنى او تداعبنى» . وفى اخرى يقول : **« مضت ساعتان منذ خرجت .. اننى لا احب ان اسبب لهما حرجا ، او ادبر لهما كمينا .. اننى ارى النهاية قادمة فى الطريق .. فهى قد رفضت حبى واذلت نفسى ! »** .. كما قال فى ثالثة : « .. ان راسى يكاد ينفجر .. لقد اصبحت افتقد الحب والحنان .. انها تنظر باحتقار الى كل اعمالى وآرائى .. لقد تعودت ان تصدر الى اوامرها »

ضعف الزوج .. وجراة الزوجة !

• **وعرض** الدفاع ـ من يوميات المتهم ـ الوانا مما كان « فانتل » يحتمله من عذاب وذلة وهوان :

٢٥ مايو : « .. انه اسود يوم فى حياتى .. سوف يتم الطلاق فى خلال اربعة او خمسة اشهر ، وقد قبلت ان ابدو بمظهر المذنب .. لقد تبلبل عقلى .. **انهـا لم تحـاول ان تسـأل نفسـها عما يحدث او اننى رفضت الموافقة على الطلاق ، فهى تعتبر رضوخى لرغبتها امرا مفروغا منه .. »**

٢٦ مايو : « لقـد تحطم بيتى ، وفقدت اسـرتى ، وانا فى الخامسة والأربعين من العمر ، فكيف أبدأ من جديد؟ .. اننى لا افتأ اسائل نفسى : كيف انها لم تول حياتنا الزوجية



القاتل : ارنست فانتل

ـ التى دامت ثمانية عشر عاما
ـ ادنى اهتمام ؟ .. **لقد صارت ترفض النوم فى فراشى ، اذ انها تعتبرنى قد شخت ! ..**

« أن الطفل والزوجة يمثلان ـ من وجهة نظرى ـ وحدة لاتتجزا ، لذلك فلست اكتفى بانصاف الحلول .. اما أن احصل على كل شىء أو لاشىء .. اننى لاازال احتفظ فى قلبى بشعور من الواجب والشرف، فليس بوسعى ان اخذل ايا منهما .. لقد كنت دائما على استعداد لأن أضحى بكل مشاعرى وروحى وجسدى على مذبح أهواء ونزوات المخلوق الوحيد الذى احببته .. أعنى « سيلفيا » ! .. غير انى أثق تماما من ان كل ما أقدمت عليه « سيلفيا » كان وليد تفكير وتدبير سابقين ، لذلك لايسعنى ان اتقبل عذر « الافتتان » الذى ابدته !

الذنب ليس ذنبها .. بل ذنب الوراثة !

● « **لماذا** لا تصارحنى بالحقيقة ، فتقول لى : «لقد ضقت ذرعا بحياة الفاقة والعوز التى اقاسمك اياها ، تحت رحمة زوج لاتنتهى مطالبه ، فى الوقت الذى لايكتسب فيه مايقيم أود اسرته ؟ ! » ..

« لماذا لاتواجهنى قائلة : ((**لقد عثرت ـ اخيرا ـ على الرجل الذى يحقق لى كل أحلامى .. رجل ثرى ، فى ريعان شبابه ، لا يرجو منى ان اطهو طعامه او آتوى قمصانه ، يوما بعد آخر ؟ !**)) .. بل لماذا لايحضر عشيقها ايلاقينى ؟ .. ايجبن عن ان يقاتل فى سبيلها ؟ .. لمن أبكى وبمن استنجد ؟

« ان الزوج الانجليزى المخدوع يعمد ـ فى مثل هذه الظروف ـ الى مقاضاة عشيق زوجته ، طالبا منه تعويضا ماديا عن الاضرار التى لحقته ، فتغدو القصة ـ حينئذ ـ مادة للصحف والمجلات الصفراء ، تتناولها بحثا وتعليقا .. و ((سيلفيا)) تدمن قراءة هذه القاذورات . **اليست هى التى قالت له : ((دعه لى ، وانا الكفيلة بأن اسوى حسابى مع هذا المغفل المكتهل ؟ فلماذا انتظرت كل هذا الوقت قبل أن تصارحنى بالحقيقة ؟** .. لا ريب فى انها ارادت التأكد من حقيقة مشاعره نحوها ، وأنه على استعداد لان يتزوجها بعد أن تحصل على حريتها ، دون ان تعنى بالتفكير فيما تؤول اليه حياتى بمفردى .. الحق انها قتلت فى نفسى شيئا لا سبيل الى استعادته ، غير ان الذنب ليس ذنبها ، فلقد ورثت أخلاقها وطباعها عن والديها ! »

عندما يجتمع الحقد والحب

• **وتطرقت** ((اليوميات)) تدريجا الى حديث القتل ولكن .. قتل الزوجة لا عشيقها :

« أن حبى الطاغى لها يكاد يفقدنى رشدى .. اننى افكر احيانا فى قتلها او تشويه وجهها ، انتقاما لما قاسيته خلال ثمانية عشر عاما ، من نيران الحب .. ذلك الحب الذى لم تستجب له ، بل تجاهلته وقابلته بالصد والاحتقار ! .. اعتقد

انه لن يمضى وقت طويل حتى افقد صوابى تماما .. ان اشد ما تعذبنى هى تلك الاسئلة التى لا تنفك تطاردنى وتطرد النوم من جفونى : **أتراها تستسلم له كلما رغب فى ذلك؟.. وهل تهرع اليه فى كل مرة يبعث اليها بصفيره ؟.. واين ضاجعها فى أول مرة ؟.. أتكون هى التى تطارده ؟.. لكم اخجل من الاعتراف بأن زوجتى تخوننى مع رجل آخر !**

« لماذا تصر على جلب العار الى عائلتى ؟.. ان (ل) المحظوظ يبدو واثقا من نفسه : بينما اكتوى انا بنيران اشمك .. لقد صار قلبى باردا وقاسيا ، بالرغم منى ، فقد تمزق شىء داخل صدرى ، ولم يعد يملأ روحى سوى المرارة والحقد .. غير اننى لا استطيع ان اسلو حبها ، فما زلت أعشقها بجنون !

« لماذا لم تكتف معه بمغامرة عابرة ، بدلا من ان تهجر منزلها فتذل زوجها وتيتم طفلها؟.. **لقد كنت على استعداد لان اغفر لها زلتها . غير انها لا تحب شخص حبيبها فقط ، بل تحب نقوده أيضا !..** اننى أتمنى — فى بعض الاحيان — ان تثوب الى رشدها ، وتعود الى مرة اخرى ، غير اننى لا البث ان ادرك ان عقلى المريض هو الذى يصور لى هذه المعجزة : اذ انها ما كانت لتعاشره معاشرة الازواج لو لم تكن مغرمة به !.. لقد فقدت عقلى .. ان عينى محتقنتان كأن فيهما نارا ، وعقلى يطن .. ترى هل اصبت بالحمى ؟ ! »

.. تشهد ضد ابنة عمها !

• **وبعد** ان انتهى مستر دوراند — ممثل الدفاع — من قراءة تلك الفقرات من يوميات المتهم أمام المحلفين ، استدعى للشهادة « مس نورما ماكرى » ، ابنة عم مسز فانتل .

فسردت على هيئة المحكمة ما كان يكتنف العلاقة بين الزوجين من متاعب .. وكيف حاولت التوفيق بين الزوجين ، غير انها سرعان ما ادركت ان العقبة الرئيسية التى كانت تقف دون عودة المياه الى مجاريها بينهما ، هى علاقة الزوجة بعشيقها .

وعندئذ سألها « مستر دوراند » قائلا : « بمعنى آخر .. ان الهناء العائلى الذى كان يسود الزوجين ، قد تحطم على صخرة علاقة الزوجة بعشيقها ! » . فأجابت : « نعم »

ـ وهل كان سلوك الزوج ـ يوم ١٩ يوليو ـ مغايرا لسلوكه المعتاد ؟

ـ نعم . . لقد كانت ابنة عمى مفتونة بلندسى . . **اما فانتل، فلا استطيع ان انطق فيه سوءا .. اننى لم أره يوما ثائرا او فاقد الشعور .. نعم ، لقد كان سلوكه فى ذلك اليوم يختلف عن سلوكه المعتاد !**

وقال مفتش الشرطة « هنرى رولنج » فى شهادته ، ان كثيرا من الخطابات وصلته من اناس كانوا على صلة بفانتل، اشادوا فيها بأخلاقه . كما شهد المفتش « رايموند دراج » بأن سلوك « فانتل » بعد ارتكاب الجريمة كان مجردا من الشماتة او اية رغبة فى الانتقام ..

« وعندئذ سأله مستر « دوراند » قائلا : « كيف تصف خدمته فى الجيش ؟ .. هل كانت رائعة ؟ » . فكان جوابه : « نعم .. رائعة ! » .. وعاد ممثل الدفاع يسأله : « وهل كانت اخلاقه ممتازة ؟ » .. ومرة أخرى ، اجاب : «نعم» .

آخر ليلة للقتيل مع عشيقته

• **وبعد** ذلك استدعيت « دوروثى جيسى كجيرولف » التى كانت تعمل فى خدمة القتيل ، لاداء شهادتها . فقالت

ان « فانتل » حضر لزيارة مخدومها ، فقادته الى الداخل ، ثم تركتهما معا .. وبعد قليل ، وصل الى سمعها صوت اطلاق النار . فسألها « دوراند » عما اذا كانت مسز فانتل قد اعتادت التردد على ذلك المسكن . وأجابت : « نعم .. لقد كانت تداوم على زيارة المجنى عليه .

ـ وهل كانت تبيت هناك احيانا ؟

ـ نعم .

ـ ومتى كانت آخر مرة قضت فيها الليلة هناك ؟

ـ فى الليلة السابقة للحادث !

هكذا كانت حياته تسير ..

• **واذ** انتهت الخادم من اداء شهادتها ، استدعى المتهم ، فروى امام هيئة المحكمة قصة حياته : فقد ولد فى (براغ) عاصمة تشيكوسلوفاكيا من ابوين ثريين . فلما انتهى من دراسته ، هاجر الى امريكا حيث قضى بعض الوقت ، ثم عاد الى وطنه . وهناك التحق بسلاح الطيران التشيكوسلوفاكى . ولما كان يتقن الكثير من اللغات الاجنبية ، فقد عين بالمخابرات . **غير ان الحرب ما لبثت ان نشبت ، وافنى النازيون عائلته بأجمعها ..وكانت تتكون من ثمانية وثلاثين فردا ، لم ينج منهم سواه** . فكان الوحيد الذى تمكن من الفرار فى الوقت المناسب الى انجلترا ، حيث عمل بسلاح الطيران البريطانى .

ولكن ما ان خمدت الحرب حتى عاد مرة أخرى الى وطنه ، فعمل كضابط اتصال بالجيش الامريكى . وفى عام ١٩٤٢ تزوج .. وقد حاول الشيوعيون فى عام ١٩٤٨ ان يختطفو زوجته وابنه ، لكنه استطاع ان يفر الى انجلترا ، بعد ان

ترك خلفه كل ثروته وممتلكاته ، فالتحق مرة اخرى بسلاح الطيران البريطانى ، واستمر يعمل به حتى عام ١٩٤٨ .

المسدس كان مصدرا للشعور بالقوة

• **واستطرد** « فانتل » قائلا انه فى اليوم التاسع من شهر يوليو ، تأكد من ان حياته الزوجية قد انتهت . ثم وصف وضع ابنه بأنه كان **((مزعزعا))** .

وعندئذ سأله مستر دوراند : «لماذا اشتريت المسدس؟»: فاجاب قائلا : « لقد دنت الرغبة فى قتل لندسى تنازعنى منذ وقت طويل ، اذ كنت اشعر بضعف موقفى امام غريمى الذى كان يقبض فى يده على مصير اسرة بأكملها . غير ان الشجاعة خانتنى فنبذت فكرة القتل . **ولكن ، لما كانت زوجتى مفتونة به ، فقد كنت فى حاجة الى ما يبث فى نفسى بعض القوة ، فاعتقدت ان مجرد حملى المسدس كفيل بأن يغنينى فى ذلك ! ..))**

ولقد قضى فانتل حوالى ثلاثة ارباع الساعة . امام مسكن القتيل ، مترددا فى الدخول ، ومحاولا ان ينقب فى ذهنه عما يتعين عليه ان يقوله لعشيق زوجته . واخيرا ادرك ان اقدامه على قتله لن يجديه شيئا ..

بين الزوج والعشيق !

• **ومع ذلك** فقد شعر بأنه لابد من ان يلقى غريمه .. واستطرد قائلا : « لم أكن ــ حتى تلك اللحظة ــ ابيت له شرا ، بل نسيت تماما المسدس الذى كنت احمله ، **بل لم افكر اطلاقا فى أى شىء سوى موضوع الطفل** .. وعندما دخلت ، وجدت لندسى جالسا فى مقعده . ولم يحاول ان ينهض عندما شاهدنى . وكان يرتدى ملابس الخروج .. واشار الى كى اتناول لفافة من التبغ ، غير اننى بادرت فى

الحال الى سؤاله عن مستقبل الطفل ، فأجاب قائلا ان الطفل سينال حظا وفيرا من التعليم ، وانه يترك لى حرية رؤيته كلما رغبت فى ذلك !

« وفجأة تحول مجرى الحديث الى موضـــوع زوجتى ، فسألته عما دعاه الى انتزاعها منى ، فنظر الى باحتقـــار ثم هز كتفيه فى برود ، وقال انها هى التى تطارده . ثم أخذ يتباهى بأنها قضت الليلة السابقة فى فراشه .. وكانت تلك الليلة هى عيد زواجنا الثامن عشر ! ..

« وما لبث لندسى ان نهض ، ونظر الى ساعته ، وقال ان موعد الزيارة قد انتهى . ثم اشار نحو الباب .. ولا ادرى ماذا حدث بعد ذلك ، حتى سماعى صراخ الخادم ، ووصول رائحة البارود الى خياشيمى ! » ..

لا يزال يعبد زوجته ! ؟

• وقرر « فانتل » انه لم يستعد حواسه تماما الا فى قسم الشرطة ، بعد مرور ساعة على ارتكاب الجريمة .. كان فى غيبوبة لا يعى شيئا ، اذ ان لندسى اهانه ومرغ كرامته فى الرغام .. فلقد عيره بمسلك زوجته ، ثم سخر منـــه ، واخيرا .. طرده من المنزل !

وكان فانتل يدلى بأقواله والتأثر باد على محياه ، ثم قال بعد فترة صمت : « لقد كنت ــ وما زلت حتى الآن ــ اعبد زوجتى ! »

وعندئذ سأله مستر دوراند قائلا : « ما الذى تسبب فى اصابتك ــ وانت فى الخامسة والاربعين ــ بهذه الحالة التى تصفها ب « الغيبوبة » ؛ والتى انفقت منها بعد قليل ؟ » . فأجاب فانتل قائلا : « اعتقد انه مسلك لنـــدسى نحوى ..

فلقد شعرت بمذلة بالغة ، لم اصادف مثلها فى حياتى من قبل!»
ــ وماذا كنت تنتوى ان تفعل عند ذهابك الى مسكن القتيل ؟

ــ كنت أرغب فى استعادة زوجتى وابنى !

وكانت مرافعة ممثل الاتهام اقصر مرافعة فى مثل هذه الجريمة ، فقد اكتفى بسرد وقائع القضية ، ولم يحاول حتى ان يفند اقوال المتهم عن « الاستفزاز » الذى تعرض له . وختم مرافعته بقوله : « لا اعتقد انه يوجد هناك ما يضاف الى ما سبق . ولست انوى ان اخاطب المحلفين مرة أخرى!»

محامى المتهم يتكلم ..

● **وعندئذ** وقف محامى المتهم وأخذ يترافع قائلا : « لقد كان حب المتهم لزوجته وابنه ، هما كل ما تبقى له فى هذه الدنيا ، بعد ان تسببت الحرب فى فقده ثروته وممتلكاته ووطنه . فلا عجب ــ اذن ــ فى ان يتشبث بهما ، وان يحاول جاهدا استعادتهما . اننا نصادف فى حياتنا كثيرا من المنغصات ، غير اننا لم نسمع اطلاقا قصة تثير اشفاقنا مثل هذه ، ولا استفزازا مثل الذى تعرض له « فانتل » فى مسكن القتيل ، المؤثث فى بذخ واسراف ! .. »

وتحول يهاجم لندسى قائلا انه من ذلك النوع من الناس الذين يقطنون مسكنا يبلغ ايجاره أربعين جنيها شهريا ، ويقتنون سيارة من طراز « بنتلى » بيضاء اللون ، ويحيون حياة السلاطين ؛ ولا يتورعون عن السطو على اعراض الازواج التعساء . فاذا ما حضر اليه احدهم متوسلا اليه ان يبتعد عن زوجته ، عامله معاملة فظة !

القاضي يشيد بتضحيات المتهم

• **بعد** أن ختم الدفــاع مرافعته ، وجه القــاضى الى المحلفين كلمة قال فيهــا : ((**لا أعتقد انه يوجد بينكم من لا يعتمل فى صدره شعور بالاحتقار نحو القتيل** ، فلقد قدم الدفاع وقائع ثابتة ، تبين كيف حاول عامدا تحطيم حياة المتهم العائلية .. ان فانتل عندما بمم شطر مسكن القتيل . لم يكن ينتوى قتله ، فقد ادرك ان قتله لن يجديه شيئا ! .. وقــد اثبتت اقواله ــ التى لم يتقدم شــاهد واحــد لتفنيدها ــ ان لندسى قد تصرف تصرفا بشــعا ! .. **كما تثبت ــ ايضا ــ ان فانتل لم يكن واعيا لما فعل ، بل ولم يدرك تماما حقيقة ما كان ينتويه عند ذهابه الى مسكن القتيل .** فلما دخل ، قوبل باسوأ معاملة تخطر على بال انسان ..

((ان عليكم ان تضعوا فى اعتباركم ان المتهم قاسى الكثير فى حياته ، كما قدم للعالم خدمات جليلة اثناء الحرب ، فى الوقت الذى فقد فيه كل ثروته وممتلكاته . غير انه لم يكن يولى خسارته الفادحة اهتماما ، اذ بقى له شيء يفوق كل كنوز الدنيــا قيمة ، وذلك هو حيــاته العائلية الهانئة بين زوجته وابنه . **فلما تعرضت للتحطم سـعى الى مسـكن القتيل تحدوه رغبة واحدة ، وهى انقاذ ذلك ((الكنز)) !** .. غير ان معــاملة القتيل السـيئة له ، ومباهاته بان زوجته قضت الليلة السابقة فى فراشه ــ ليلة عيد زواجهما الثامن عشر ــ افقدته وعيه ، وجعلته يخرج المسدس من جيبه ، ويطلق عليه النار ثلاث مرات !))

((الاستفزاز)) هو العامل الجدير بالدراسة

• **واستطرد** القاضي ســالمون يقول ان محاكم الطلاق تشهد الكثيرين ممن يستحقون العقاب ، ولكن .. ((لو أن

كلا منا نصب نفســـه قاضيـــا ، ونفذ القانون بيده ، لعمت الفوضى ولما استقام الوضع !

« .. وقد تعتقدون ان ظروف هذه القضية تختلف عن مثيلاتها ، الا ان الموضوع الرئيسي الذى يجب ان نوليه الدراسة الوافية هو : «هل كان الاستفزاز الذى تعرض له المتهم كفيلا بأن يفقده رشده ، بغض النظر عن مدى احتقارنا للقتيل او اشفاقنا على المتهم ؟ » .. وما ان ختم القاضى كلمته ، حتى انسحب المحلفون الى غرفة جـانبية ، ليدرســوا القضية ويقرروا نوع الجريمة .

والآن .. فكر مع المحلفين !

• ويحســن بالقارىء هنــا ان يعيد النظر فى وقــائع القضية ، وان يضع نفســه مكــان المحلفين فى دراســتهم للموضوع :

لم يكن هنالك شك فى ان «فانتل» اطلق النار على لندسى ، فلقد اعترف بذلك اعترافا مفصلا ، كما انه اشترى مسدسا خصيصا لهذا الغرض . بيد انه لم يكد يصل الى مســكن القتيل حتى عدل عن عزمه .. **وهناك عامله القتيل بفظاظة كما لو كان ((قذارة)) ، وهز كتفيه ثم اشار له نحو الباب !**

لقــد كان من حــق المحلفين ان يخففوا من نوع جريمته : فيحولوهــا الى جريمة ((**ضرب افضى الى موت**)) ، ولكن لم يكن بوســعهم ان يبرئوه تماما . وقد نص القانون على ان الاستفزاز يجب ان يكون قويا بدرجة تفقد المتعرض له رشده وارادته . لذلك كان على المحلفين ان يضعوا فى اعتبارهم نوع السلاح المستعمل فى الجريمة ، والوقت الذى انقضى بين وقوع الاســتفزاز وارتكاب الجريمة . اما الدفاع فقد كان يتعين

عليه ان يثبت ـ بما لايدع مجالا للشك ـ ان « فانتل » كان فاقد الوعى اثناء اقدامه على القتل ، بينما لفى القاضى على عاتق المحلفين تقرير ما اذا كان ذلك الاستفزاز كفيلا بأن يفقد اى شخص عاقل ، رزين ، رشده وسيطرته على نفسه ، لو انه كان فى مكان « فانتل »

. . . .

. . . .

ولم يجد المحلفون صعوبة فى الوصول الى قرار .. فلم تمض اكثر من ثمانية دقائق حتى عادوا الى قاعة المحكمة . ووقف أحدهم وقرا على الملأ قرارهم الاجماعى الذى **ادان المتهم بارتكابه جريمة ضرب لندسى ضربا افضى الى موته** . وعندئذ اصدر القاضى حكمه الذى كان يقضى على « فانتل » **بالحبس لمدة ثلاث سنوات** .

وقبل ان تفض الجلسة ، توجه القاضى بحديثه الى السجين قائلا : « لا ينكر احد انك تعرضت لاستفزاز عنيف من القتيل ، غير ان هذا لايبرر ان تمسك بالمسدس وتطلق عليه النار ثلاث مرات . ولولا الظروف المخففة فى هذه القضية ، وسجلك الرائع اثناء الحرب . لشعرت ان من واجبى ان اصدر عليك حكما اشد قسوة ! »

لوصبر القاتل .. !

• **غير انه** ما زالت للقصة بقية : فقد مات « هوراس لندسى » بعد ان جمع ثروة تقدر بحوالى ربع مليون جنيه . غير ان تلك الثروة لم تجده شيئا ، فلم تحل دون قتله فى مسكنه . ولما مات لم يخلف شيئا لزوجته السابقة ا

لعشيقته « مسز فانتل » ! .. **كل ما خلفه وراءه خمسمائة جنيه للفتى الذى كان يرافقه اثناء لعبه ((الجولف)) ، ومثلها للسفرجى !**

وقد علقت زوجته السابقة على القضية بقولها : **((لقد كان لندسى اجبن رجل رايته فى حياتى ! ..** لو كان «فانتل» يعلم مدى جبنه لما ارتكب جريمته ! .. لو أنه هدده فقط، قائلا : « دع زوجتى وشأنها والا حطمتك ! » ، لما تردد فى اطلاق ساقيه للريح والهرب بعيدا » ! !


من حياة
الشعوب

عزيزى القارىء ..

قدمنا لك فى العدد الماضى جانبا طريفا من حيـــاة الشعب اليابانى ، يتمثل فى عادة شرب الشاى ، التى وضعوا لها ــ هناك ــ قواعد وطقوس ، تجعل منهــا عقيدة بذاتها .

واليوم ، نقدم لك جانبا آخر ، يصور قطاعا من حياة الشعب التركى ، **ويتمثل فى الحمــامات الشعبية ــ المخصصة للنساء ــ المنتشرة فى المدن التركية ..**

وقد اخترنا لك فصــــلا من كتــاب شيق ، ظهر بالانجليزية منذ سنوات ،واعيد طبعه اكثر من مرة ، بعنوان : **لوحة لأسرة تركية**

A PORTRAIT OF A TURKISH FAMILY

للكاتب التركى المعاصر : **عرفان اورجا** . وقد ولد « عرفــان » بمدينة (اســتانبول) فى ١٩٠٨ ، وخدم فترة بســلاح الجو التركى ، الى ان عين ملحقا جويا بالسفارة التركية فى لندن . لكنه ما لبث أن استقال من عمله فى عام ١٩٤٧ ، وآثر ان يتفرغ للكتابة والتاليف .

وفى هذا الكتاب ــ وهو باكورة انتــاجه ــ يرســم « عرفان اورجا » صورة حية شيقة للمجتمع التركى ، خــلال النصف الأول من هــذا القرن . وهو يعرض الصورة من خلال حياته هو ، مســتمدا عناصرها من محيط اسرته .

والصورة التى رسمها الكاتب لحمامات النساء فى تركيا ، لا تقل طرافة ، عن باقى صوره ولوحاته ، التى حفل بها كتابه ، ذو الصفحات الست والثلاثمائة ..

فحمام النساء هناك ـ كما صوره لنا عرفان ـ مكان جدير بالدراسة .. **اذ تلتقى فيه طبقات الشعب على اختلافها ، وتعقد فيه الصداقات والزيجات ، كما تدبر بين ارجائه ـ أحيانا ـ المؤامرات والخلافات العائلية** .. هذا ـ وغيره ـ ما ستلمسه بنفسك فى الصفحات التالية التى لخصها لك الزميل : **على شلش**

يوم فى حمام تركى

• **اعتادت** جدتى ـ لأمى ـ ان تتردد على الحمام ، كلما عاودتها حالة الانسجام التى كانت تلم بها من حين لآخر .. وكان ذلك يحدث ـ عادة ـ بواقع مرة واحدة كل اسبوع .

والحق ان هذه الحمامات كانت اماكن الثرثرة ، وتداول انباء الفضائح ، و ((التقاليع)) فى أكثر اشكالها انحرافا .. كما كانت ملاذا لكل امرأة ، فى الحى ، تبغى الفرار من بيتها ، لتقضى فى الحمام يوما ، تتراوح ساعاته بين سبع وثمان .

الفتيات يعرضن أنفسهن للزواج

• **وكانت** الفتيات يترددن على الحمام بغية جذب انظار العجائز ـ اللاتى يكون لهن ابناء فى سن الزواج ـ الى اجسادهن الخمرية اللون أو البيضاء . وبذا كان يتاح للأمهات ان يحكين لابنائهن عن مفاتن الاجساد ومواضع الحسن فيها .

وكثيرا ما كانت الزيجات تتم عن هذه السبيل .. وكثيرا ـ ايضا ـ ما كانت المعارك تنشب بين الأمهات حول مشكلة الاختيار .. بل ان الحسد والغيرة كانا يشكلان دورا فى هذه المعارك .

وكان هناك ثمة خط حاد يفصل بين فريقين من رواد الحمام : فريق تشكله أمهات الفتيات ، وآخر تشكله أمهات الفتيان . فأمهات الفتيات كن يملن الى الضحك بصوت مرتفع ، وكن لا يكففن عن محاولة جذب الانتباه إلى عراقة اسرهن ، واصالة انسابهن . أما امهات الفتيان ، فكن يجلسن منعزلات على الارائك ، وقد طغى عليهن احساس بالامتياز والسمو عما يدور حولهن من ضجة وثرثرة . وكن — فى أثناء ذلك — يقضمن حبات الفاكهة فى تراخ وفتور ، وهن يتأملن الفتيات ، وينقدن سلوكهن .

ولم يكن لدى جدتى أولاد يصلحون ((**للبيع**)) ، لكن هذا لم يكن يمنعها من ان تثبت وجودها !

كنت الرفيق المفضل لجدتى

• **ولكن** مى لم تكن تشارك جدتى رغبتها . اذ كانت تستنكف جو الحمام المشحون بالمؤامرات والخبث . ومن ثم لم يحدث كثيرا ان صحبتها فى زياراتها هذه .. اما انا فقد كنت الرفيق المفضل لجدتى ، **رغم سيماء الذكورة التى بدأت تظهر على وجهى ، بعد عيد ميلادى الخامس !**

ومع أن هذا كان يثير الشك حولى فى محيط الاسرة ، الا ان جدتى كانت تصر على اصطحابى ، وترفض فكرة اعتبار السنين الخمس تقدما فى السن .. وكانت تحجز لنفسها — دائما — جناحا خاصا فى الحمام ، مكونا من غرفة لخلع الملابس ، واخرى للاغتسال ، حرصا منها على عدم الاختلاط بعامة الناس من رواد الحمام !.

زيارة على غير موعد

• **وذات** يوم ، اعلنت جدتى أنها ذاهبة الى الحمام فى صباح الغد . واذكر جيدا ماسببه ذلك من بلبلة فى محيط

الأسرة ، خاصة وان جدتى لم يكن قد مضى على آخرزيارة قامت بهـا للحمـام أكثر من يوم واحد . ومن الصعب ان يتردد المرء على امكنة كهذه كل يوم ..

ذلك لأن عملية ترتيب الزيارة للحمام كانت تسـتغرق وقتا وجهدا لايسـتهان بهمـا . وطبيعى أن تتضمن هذه العملية عددا من المهام ، منها : شـراء الأطعمة الخاصة ، وطهوها واعدادها ، وترتيبها فى السلال والحقائب . كذلك تشمل العملية اعداد الغرف الخاصة ــ فى الحمام ــ وترتيب محتوياتها .. وهى مهمة تلقى على عاتق اصحاب الحمام .

وعبثا حاولت أمى ان تثنى جدتى عن عزمها .. وعبثا نصحتهـا بالانتظـار يوما واحدا . **فقد اصرت الجدة على الذهاب ، ضاربة بمحاولات أمى وتوسلاتها عرض الحائط** .

واخيرا تقرر ان تذهب الوصيفة ((**فريدة**)) الى الحمام ، لتخطر ادارته بموعد زيارتنا ، فى الصباح التالى .. ولم تكن ادارة الحمام تجهل ما لجدتى من عيوب وتصرفات شاذة ، ومن ثم لم تكن تمتنع عن حجز ماتطلبـه جـدتى من غرف خاصة ، مهما تكن الظروف . ذلك لأن جدتى كانت تتمتع بنفوذ كبير ــ لم تكن تنتفع به ــ جعلها تسلك فى حياتها سلوك سيدات الاسرة المالكة !

اختيار الطعام امتياز استأثرت به جدتى

● **وما ان** تم حجز الغرف ، حتى نشأت مشكلة اخرى ، تمثلت فى تلك المناقشات الطويلة الفارغة التى دارت ــ بين جدتى والطاهية ((**هاجر**)) ــ حول نوع الطعام الذى كانت ترغب فى اعداده لرحلة الحمام .

واسرع الحوذى ((**مراد**)) الى السوق ، وفى يده سـلة بحجم جسمه الضئيل ، ثم عاد ــ بعد قليل ــ بكميات كبيرة

من الطعـام ، لاشـك فى ان معظمهـا كان مكتوبا له ان لا تمسسه يد ، وان يكون مصيره الاهمال .. غير أن جدتى كانت تفسر هذا البذخ بحبها لأن تكون لها حرية واسعة النطاق فى اختيار ما يحلو لها من طعام ! .. ولهذا السبب بالذات ، كان الطعام ــ فى البيت ــ طيبا على الدوام ، اذ انها لم تكن تسمح لأحد بالاشتراك معها فى اختياره .. فضلا عن انها لم تكن تشجع استقلال الرأى ، ولا كانت تقبل اية معارضة ، **قائلة ان هـذا ــ بالنسـبة للطعـام ــ يفسـد الهضم ، ويؤذى غشاء المعدة ، ويمزق الجهاز العصبى ، ويسبب كل الأمراض المعروفة !**

وظلت هاجر ، طوال ذلك اليوم ــ الذى لاينسى ــ مشغولة باعداد الطعـام وطهوه ، مولية عنايتها ــ بصفة خـاصة ــ للضولمة ، التى تصنع من ورق العنب المحشو بالأرز والزبيب والمكسرات وزيت الزيتون . وكانت جدتى تندفع الى المطبخ ــ كل بضع دقائق ــ كى تتدخل ، وتشير على « هاجر » بترك هذا وتنفيذ ذاك .. و « هاجر » ــ الخبيرة المترهلة البدن ــ كارهة لهذا التدخل ، وان تقبلت الاوامر مرغمة ! .. **وكانت جدتى تتذوق كل شىء امامها . وتأمر وتنهى ، بواقع تسـع مرات من كل عشر ..** بينما هاجر المسكينة حائرة ، تحملق فيها ، وهى لاتدرى ماتقول وماتفعل .

اعداد الصابون والمناشف والعطور

. **ثم** صدرت الأوامر للمربية الشابة **((انجى))** ، **بأن تنتقى** ملاءة نظيفة ، وملابس للحمام ، وعددا كبيرا من المناشف ، وغير ذلك من اللوازم .. كمـا احضرت قطع الصـابون ، وزجاجة كبيرة من «الكولونيا» ، وكافة الأدوات الأخرى التى تحتاج اليها المرأة عند التزين . اما انا ، فقد استدعيت مرارا



الى الطـابق العلوى ، **حيث صدرت الى أوامر وتحذيرات بالكف عن ارتكاب أفعال معينة لاتليق بى فى الحمام .**

واقبلت جدتى ، فجلست فى مقعد ذى مسندين ، وادارت المروحة حول وجهها بقوة ، وهى تشكو لأمى التعب والارهاق اللذين حلا بها .. وعبثا حاولت أمى ان تقنعها بأن تركن الى شىء من الراحـة ، فقد أخذت ـ من جديد ـ تصدر

الاوامر تلو الاوامر .. فعلى هذا ان يأتى باللحم من الجزار ، وعلى ذاك ان ينظف شيئا ما .. وهكذا !

وفجأة ، قالت انه يجب احضار الحناء ، كى تخضب شعرها . ثم صرخت فى وجهى قائلة ، والكلمات تخرج بصعوبة من بين اسنانها : « اذا ذهبت الى الحمام فسوف تعود الى المنزل كسرطان البحر . **ذلك لاننى سامسك برأسك ، واضعها تحت الماء المغلى ، الى ان تموت ، ثم اجذب انفك ، حتى يستطيل ، ويغدو كخرطوم الفيل ! »**

وما ان انمت هذا التهديد ، حتى فررت الى المطبخ ، واحتميت بهاجر ، التى قدمت لى قطعا من السكر ، واجلستنى على مقعد عال ، كى اتسلى بمشاهدة ما كانت تقوم به !

الحناء مكملة للزينة

• **غير اننى** لم البث ان ضقت بهذه الحال . فرحت ابحث – مرة أخرى – عن جدتى ، الى أن وجدتها فى غرفة نومها . وما أن لمحتنى حتى نادتنى ، والبسمة تفرق شفتيها . وعندئذ أطمأن قلبى ، ورحت أتطلع اليها ، بينما كانت مستسلمة لفريدة – أمام المرآة – وقد خضبت الحناء شعرها . ومن حولها انتشرت المناشف ، كما كانت على رأسها طبقة فوق طبقة من الورق الأبيض النظيف ، الذى يستعمل لتجفيف الشعر بعد أن يخضب بالحناء .

وقد عاقتها الحناء عن أن تنتقل الى غرفة الاستقبال او غرفة المائدة .. لذلك لبثت فى حجرتها ، تتسلى بأكل « الملبن » من طبق كبير وضعته على حجرها ، وتتناول – فى اثناء ذلك – جرعات من شراب الورد .

وما أن فرغنا من تناول طعام الغداء ، حتى كانت « فريدة »

قد انتهت من اعداد ملابس الحمام ، والملابس الداخلية . ثم وضعت شيئا من النبات العطرى ((**اللافاندر**)) بين كل ثنية من ثنايا الملابس .. فعبق جو البيت كله برائحتها .. وقد اعتدنا أن نشترى هذا النبات العطرى من الفجريات اللاتى اعتدن أن يجمعنه كل عام من التلال ، ثم يأتين الى المدينة ، ليبعنه فى سلال صغيرة .

وأذكر فتاة غجرية مرحة العينين ، كانت تختلف الى المنزل عندما كنت صغيرا .. **كانت تقف فى الشارع ، تعلن عن بضاعتها بنداء منغوم ، فتدعوها ((فريدة)) الى المنزل ، وتساومها على الثمن** .. وكانت هاجر تعد لها القهوة التركية ، فأتسلل الى المطبخ لأشاهد وجهها الغريب القاتم اللون ، وهى تجلس الى المائدة ، تؤرجح ساقيها الطويلتين العاريتين .

قراءة الطالع من مواهب الغجريات

● **وكانت** جدتى تأمر لها بطعام ــ أحيانا ــ ثم تستدعيها الى غرفة الاستقبال ، كى تقرأ الطالع لأمى وجدتى . لكن الفتاة لم تكن تجرؤ على دخول الغرفة ، **وانما كانت تفضل الجلوس عند عتبة الباب ، خشية أن تلوث الأبسطة بقدميها الحافيتين المتسخنين !**

وعندما تنتهى قراءة الطالع ، كانت جدتى تقذف بقطعة ذهبية من العملة ، تلتقطها الغجرية بمهارة . واذكر ان اصابعها كانت طويلة ونحيلة ، بينما أظافرها حادة ، مصبوغة بالحناء . اما وجهها فكان صغيرا ، بنى اللون ، ذا فم واسع ، يبدو ضاحكا على الدوام . هذا عدا ملابسها التى كانت تتسم بالغرابة والشذوذ ، اذ جمعت بين الوان كثيرة متناقضة ..

ولما عاد أبى الى البيت فى مساء ذلك اليوم المشهود ، كانت

الردهة حافلة بسلال الطعام . وبعدد كبير من اللفائف ، احتوى على « البياضات » النظيفة وادوات الزينة . فما ان وقعت عيناه على هذا المنظر ، حتى انفجر ضاحكـا ، قائلا لامى ان العالم بأسره على علم برحلة جدتى المنتظرة الى الحمام !

الأناقة لاتصلح الوهن والضعف

• ولم يكد يتم حديثه ، حتى لاحت جدتى على السلم ، آتية من الطابق العلوى . وكانت المجوهرات تتلألأ فى يديها ، بينما استقر فوق راسها « شـال » حريرى ملون ، لم يكسب جسمها الضئيل الواهن شيئا من الأناقة أو الجمال .

وقالت لابى انها ذاهبة الى الحمام ، فأومأ برأسه مبتسما . لكنه مالبث ان قطب جبينـه حين علم بأننى ذاهب معهـا ، واحتج قائلا ان سنى لم تعد تبيح لى ذلك . لكن جدتى أصرت على اصطحابى ، وتعهدت بالتغاضى عن ذلك فى المرات القادمة .

واقبل الحوذى ((مراد)) الى البوابة الأمامية ، يعتلى العربة اللامعة ، تجرهـا جيـاد متوثبة ، متحفزة ، تجلجل سروجها بانغام موسيقية كلما هزت رؤوسها الجميلة .

وسلمت « فريدة » الأشياء الى « مراد » ، ثم عادت لتكون فى رفقة جدتى ، التى لم تكن قادرة تماما على حفظ توازنها داخل العربة . اما انا فقدسرت فى موكبها ، الى ان استقر بى المقام الى جوارها داخل العربة ، ويدى تقبض على يدها فى حرص شديد .

يرحبون بى وهم يستنكرون وجودى !

• ولما بلغنا الحمام ، استقبلنا بحفاوة بالغة ، وانحنى موظفوه احتراما لجدتى ، لكنهم نظروا الى فى غرابة ، وكانهم

يستنكرون وجودى . بيد أن احدا منهم لم يجسر على ان يقول شيئا . . كل ما فعلوه انهم قادونا ـ فى هدوء ـ الى حجرة خلع الملابس ، التى كانت قد اعدت خصيصا لنا .

وعبرنا بهوا رخاميا واسعا ، به أرائك تستند الى الجدران التى تخللتهـا ابواب زجـاجية صغـيرة تؤدى الى الغرف الخاصة . وفى وسط البهو ، كان ثمة حوض حجرى ، تطل عليه نافورة ، ينساب منها الماء فى خرير رنان . ولمحت داخل الحوض عـددا كبيرا من زجاجـات « الفـازوزة » ، التى وضعت للتبريد . . أما الأرائك التى اصطفت على جانبى البهو ، فقد لمحت فوقهـا كثيرا من النسـوة ، جالسـات ومسـترخيات . اذ كان البهو بمثابة « استراحة » عامة ، يمكن للنسوة ان يجلسن فيها ، عندما ينتهين من الحمام . . حيث يتاح لهن ان يأكلن ويثرثرن فى حرية وانطلاق .

ولم نلتفت يمنة ولايسرة ، ونحن نجتـاز البهو . . والحق اننى ثبت عينى على الأرض ، تنفيذا لتحذير تلقيته من قبل .

فى غرفة خلع الملابس

● **وصعدنا** السـلم ، ثم مضينا الى غرفة صغيرة ، حيث شرعنا فى خلع ملابسـنا . وكنت اول من خلع ملابسـه : بمساعدة « فريدة » التى تركتنى ـ بعد ذلك ـ لتعاون جدتى فى خلع ملابسـها . وما ان تم ذلك ، حتى قامت « فريدة » باستدعاء عاملة الحمام ـ التى كانت تنتظر خارج الغرفة ـ وسـلمتها ما اتينا به من صابون و « كولونيا » . . والقدح الفضية الكبيرة (الكوز) ، التى تسـتخدم فى صب الماء على الاجسـاد . ثم وضعنا فى اقدامنا « **التاكونايا** » ، وهو نوع من القباقيب الخشبية . واذكر ان قبقابى كان ذهبى اللون ،

ذا حافتين مزينتين بالورود . **اما جدتى فقد استخدمت قبقابا اسود ، ذا كعبين مرصعين بالأحجار الكريمة !** .. وكنا نصدر بهذه القباقيب صوتا مزعجا ، كلما تحركنا بها على الأرض الحجرية العارية .. وكانت جدتى تبدو غاية فى الأناقة ، اذ كان ثوبها بلون الورد ، وشعرها مصففا خلف اذنيها بعناية ، وقد رشقت فيه امشاطا صغيرة ، تعلوها طبقة من الذهب .

وغادرنا غرفة خلع الملابس ، تتقدمنا عاملة الحمام ، متجهين الى غرفة الاغتسال ..

جدتى .. ناقدة للنساء !

• **ومرة** اخرى ، كان علينا ان نجتاز البهو ، حيث وجدنا عددا من النسوة مشغولات بالاغتسال ، واخريات مستلقيات على الأرائك .

وراحت جدتى تتأمل الفتيات العاريات بعين الخبيرة الناقدة . وكلما وقعت عيناها على جسم لايروقها ، دقت يدا بيد ، فى حركة معبرة للغاية ، قائلة ان فلانة نحيفة ، وان عجزها غير متناسق التكوين ، وانها لن تعثر على زوج مطلقا ، مالم يتحسن عودها ! .. ثم تأخذ ــ بعد ذلك ــ فى البحث عن ام الفتاة ، وتنصحها بقولها : ((**اعطيها كثيرا من البقلاوة !**)) .. فيرتفع الدم فى وجنتى الفتاة ، ويحس الجميع بالحرج .. اما جدتى ، فلم تكن تدرك انها احرجت احدا !

وعندما فوجئت النسوة بوجودى بينهن ، رحن يبدين سخطهن واحتجاجهن ، اذ كيف يجرؤ فتى كبير ــ له من العمر خمس سنوات ! ــ على الجلوس بينهن ؟ .. اليست هذه شهادة بينة على عريهن ؟ !

رجل .. لم يتجاوزالخامسة من عمره !

• **ورحن** يتخذن اوضاعا غريبة ، محاولات ان يغطين اجسادهن ، وهن يتفوهن - من خلف اذرعهن ، التى استقرت على وجوههن - بعبارات مبهمة ، ويتندرن بجراتى ، وعريى .. واعضائى التناسلية ايضا !

وانزعجت جدتى لمرأى هذا الطيش من جانب النسوة . ومالبثت ان اعلنت الى عاملة الحمام - التى كانت تنتظر فى ضيق - استعدادها للاغتسال . فتحرك موكبنا الصغير مرة اخرى . وطغت اصوات قباقيبنا على اصوات النسوة ، ولغطهن ، وتعليقاتهن الموجهة الى شخصى .. بصفة خاصة .

((دستور .. بسم الله)) !

• **وكان** علينا - كى نصل الى غرفة الاغتسال - ان نجتاز قناة صغيرة ، تجرى فيها المياه المتسخة لتصب فى المجارى . وتم لنا ذلك بعد تنفيذ شرط معين . فقد بصقنا ، ثلاث مرات ، فى الماء المتسخ ، وقلنا : **((دستور .. بسم الله))** ، كى نطرد الأرواح الشريرة ، التى تكمن دائما فى الاماكن القذرة .

كان على المرء - فى تركيا القديمة - ان يهادن الأرواح الشريرة . ومالم يقل : «دستور .. بسم الله» - ومعناها : **((اذهب بعيدا ، بسم الله))** - فان الأرواح الشريرة التى تسكن المجارى ، تحس بالاهانة ، فتسعى الى الحاق الأذى بالمتسبب ! .. ومن هنا كنا نهاب الأرواح الشريرة ولكن لها الاحترام ، خوفا من بطشها .

فى غرفة الاغتسال

• **كانت** غرفة الأغتسال شديدة الاتساع ، برغم انه لم يكن بها سوى حوض واحد كبير ، وكانت فى زاوية من جدارها

المرمرى « كوة » ، وضعت فيها « فريدة » سلال طعامنا . أما الصابون والمناشف و « الكولونيا » ، فقد وضعتها عاملة الحمام على رف فى الجدار . ثم استأذنت ، وانصرفت .

واسرعت « فريدة » فأسدلت ستارا على الباب ، حتى لايرانا احد . ثم انهمكت ـ بعد ذلك ـ فى غسل الحوض ، والجدران ، وارض الغرفة ، بصابون خاص جئنا به لهذا الغرض . . بينما كانت جدتى تصدر اوامرها تباعا **بغسل محتويات الغرفة ثلاث مرات ، وتنظيفها جيدا ، حتى لانتعرض لغضب الارواح الشريرة !**

وجلست فى الجزء النظيف من ارض الغرفة ، متتبعا عملية التنظيف التى تقوم بها « فريدة » . منتظرا اياها ، كى تصب الماء فوقى عندما اخلع ملابسى .

ومالبثت « فريدة » ان فرغت من عملها ، ففرشت الأرض بعدد كبير من المناشف ، كى نجلس فوقها . ثم التفتت الى ، وراحت تحرك الصابون فى الماء ، الى ان ازدادت الفقاقيع ، وبدا منظرها مسليا ، مما جعلنى انسى حكاية الأرواح الشريرة . .

عندما يتحول الاستحمام الى تعذيب

• **والحق** ان عملية الاغتسال كانت اسوا مراحل زيارتنا للحمام . ذلك لأن « فريدة » ـ مثلها فى ذلك مثل « انجى » ـ لم تكن رحيمة بى . فقد غطت جسدى بالصابون ـ من قمة الراس الى اخمص القدم ـ ثلاث مرات . . **ولم يكن باستطاعتى ان افلت من قبضة ساقيها القويتين ! . . ثم وضعت فى يدها اليمنى قفازا من الليف ، راحت تدلك به جسدى . .** الى ان سالت منه كميات من القذارة ، اخذت تتسرب من الحوض .

وما ان أطلقت سراحى - بعد هذا التعذيب الذى دام طويلا - حتى وجدتنى ابدو لامعا ، انيقا ، احمر اللون . وانتهزت فرصة تحول « فريدة » الى جدتى ، فتسللت - دون ان اشعرهما - الى خارج الغرفة . وسرت الى البهو ، غير منتبه الى اننى خرجت عاريا كما ولدتنى امى . ورحت اقترب من النافورة ، قاصدا ان ارطب جسدى بمائها البارد.

شجار بين النسوة .. بسببى !

• **وما أن** لمحتنى النسوة العاريات - اللائى كن يجلسن فى البهو - حتى رحن يلاحقننى بنظراتهن فى نهم غريب ! .. ومالبثت امرأة ارمنية بدينة أن دعتنى وقدمت لى تفاحة . لكننى رفضتها ، حسب الأوامر التى صدرت الى فى البيت . ولم يكن باستطاعتى الا ان اشكرها ، رغم ان امعائى تحركت فى جوفى ، شوقا الى التفاحة الحمراء .

واخذت المرأة تلاطفنى ، بعد ان اجلستنى الى جوارها . ثم احاطتنى بذراعها البض الممتلىء . وعندئذ حدث مالم يكن فى الحسبان ، اذ صاحت امرأة فى مقتبل العمر ، قائلة فى وقاحة : « أيتها السيدة ، كان الأفضل ان تأتى بزوجك الى هنا ، **فهذا الصغير لايتجاوز اصبعى الصغرى .. واخشى الا يصيبك منه نفع كبير ! »**

وعندئذ انفجرت النسوة الأخريات ضاحكات ، فتصاعد الدم فى وجه الأرمنية ، وبدا عليها الضيق والغضب . لكنها مالبثت أن تمالكت نفسها ، وقالت : **« الأفضل الا تسمعك الجدة ، وانت تتحدثين عنه هكذا ! »**

واعقبت ذلك فترة من الهرج والمرج ، والكل يذكى نيران المعركة المتوقعة بين المرأتين .. غير اننى لم انتظر طويلا ، اذ تسللت ، عائدا الى حيث كانت جدتى و « فريدة » ..

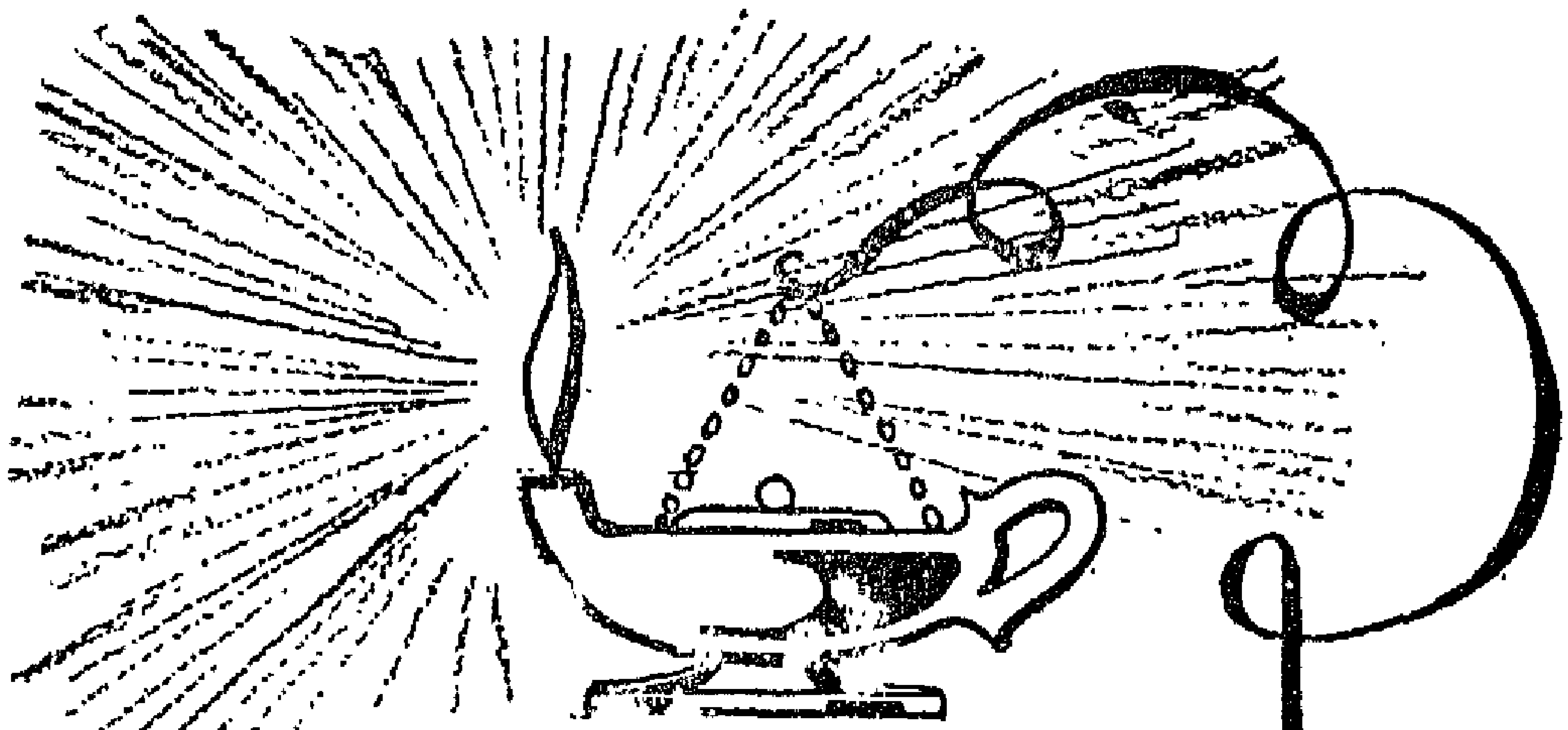
اطباق الطعام تصف على الأرض

• **ووجدت** جدتى مستلقية على الأرض ، و « فريدة » تصف اطباق الطعام على مفرش أبيض ، نشرته على مساحة من ارض الفرفة .. ثم جلسنا القرفصاء ـ ونحن فى لباس الحمام ـ ورحنا نأكل ، بشهية بالغة ، **اللاحانا دولماس** (الكرنب المحشو) ، **والكفتة ، والبوريك** (المحشو بالجبن الابيض والبيض والبقدونس) ، **والتورسو** (نوع من السلطة يتكون من الخضر والخيار والكرنب) .. ثم شربنا «الفازوزة» المثلجة ، التى قامت باحضارها عاملة الحمام . وتحولنا بعد ذلك الى الحلوى .

وما ان فرغنا من تناول الطعام ، حتى امرت جدتى بازالة بقاياه ، استعدادا للراحة والنوم ..

واستيقظنا قبل ان تغرب الشمس .. وكانت الحركة قد هدات فى الحمام نسبيا ، فاغتسلنا من جديد ، استعدادا للرحيل .ثم اخذت « فريدة » تجمع البياضات ، بينما كانت زجاجة الكولونيا ملقاة على الأرض فارغة .. اما جدتى ، فقد ارتدت ثوب الحمام الوردى اللون ، وساعدتنى على ارتداء ثوبى ، ثم سرنا ، فى الدهليز الطويل الخالى ، الى الفرفة التى تركنا فيها ملابسنا فى الصباح ..

ومالبثنا ان سعينا الى باب الخروج ، مارين بالنسوة المتبقيات فى الحمام .. وبينما حرصت على الا التفت اليهن، كانت جدتى تتلقى تحياتهن وتمنياتهن بدوام الصحة والهناء ، دون ان تكلف نفسها عناء الرد عليهن . فقد تجاهلتهن ، وسارت رافعة الرأس ، لاتنظر الى يمين او يسار !



كتب جديدة

من الغرب والشرق

عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية في العالم



رسالة نيويورك

فلاديمير نابوكوف والقارىء العربي

لعل المتتبع للحركة الادبية فى العالم ، بعد الحرب الثانية، قد لمس تلك الضجة التى ثارت ـ فى السنوات الأخيرة ـ حول رواية ((**لوليتا**)) ، بشكل لم يسبق حدوثه بالنسبة الى رواية او قصة مماثلة خلال هذه الفترة .

ولئن كانت رواية ((**دكتور زيفاجو**)) ـ التى قدمتها لك « مطبوعات كتابى » كاملة منذ عامين ـ قد أثارت ، هى الاخرى ، ضجة عند ظهورها ، **الا أن الضجة انصرفت كلها الى مؤلفها ((باسترناك)) ، وموقفه من جائزة نوبل .**

اما هذه الضجة الأخيرة التى ثارت حول « لوليتا » ، فمن نوع آخر . اذ انها لم تتناول موضوع الرواية او اتجاهها فحسب ، وانما تطرقت ـ ايضا ـ الى سبيل معالجة الموضوع ذاته ، مختلفة فى النهاية حكمين لا وسط بينهما **.. أحدهما ادان الكاتب ووضع روايته فى الدرك الأسفل من السوقية والابتذال .. أما ثانيهما فقد رفعه ـ مع روايته ـ الى مرتبة الامتياز !**

غير أن السنوات القليلة الماضية ، التى اعقبت صدور « لوليتا » ، قد صنعت منها عملا فنيا يكشف عن طبيعة العلاقة العاطفية ، التى تنشأ بين نمطين من الناس ، يفصل بينهما بون شاسع من السن ، والعاطفة ، والتكوين النفسى والاجتماعى .. **تلك العلاقة التى درج المجتمع على وسمها بالشذوذ .** بل ان هذا العمل الفنى ـ برغم قصوره فى بعض النواحى ـ قد غدا معينا للكتاب والشعراء ، يغترفون منه ماشاءوا من رموز ودلالات . ويكفى أن نذكر أن شخصية « أوليتا » ـ بنت العام الثانى عشر ـ قد أصبحت رمزا

للفتيات المراهقات ، اللواتي تتفجر أنوثتهن فينقدن لها ، ثم تكون النتيجة أن يقعن في أول حفرة تصادفهن ، حتى ولو كانت هذه الحفرة من صنع رجل في سن آبائهن !

ظل مغمورا حتى كتب ((لوليتا))

والمهم في الامر ، هو ان مؤلف « لوليتا » لم يستطع ان يجد سبيله الى الشهرة قبل صدورها ، برغم ما كان له من مؤلفات ونشاط سابق .. **وقد قدمت ((مطبوعات كتابي)) منذ اسابيع ــ في العدد ٥٧ ــ أحد هذه المؤلفات التي سبقت ((لوليتا)) ، وهي قصة ((ضحكة في الظلام))** ، التي اثارت ــ هي الأخرى ــ ضجة بين النقاد من عهد قريب ، وبعد أن انقضت سنوات على ظهور اول طبعة منها ..

وتأخر وصول « نابوكوف » الى الشهرة ، كان سببا في ان القارىء لم يعرف عن حياته وانتاجه سوى القليل .. والقليل جدا . ولذلك اخترنالك تحقيقا أدبيا طريفا ، ظهر مؤخرا على صفحات مجلة **لايف** . وقد كتبه محررها الأدبي **ول أونيل** ، وتناول فيه ــ بالعرض والتحليل ــ حياة نابوكوف العادية والأدبية على السواء ، ملقيا الضوء ــ في الوقت نفسه ــ على « لوليتا » ، والظروف التي احاطت بكتابتها ونشرها :

فجأة .. وجد نفسه ((اسدا)) !

من النادر أن تثب أسود الأدب ــ ان جاز التعبير ــ دفعة واحدة في وجه الجمهور ، خاصة حين تصل الى مرتبة النضج والاكتمال . وطبيعي ان تكون فرص الشهرة والصيت زهيدة بالنسبة لكاتب قضى ٣٩ عاما يكتب لجمهور يتألف ــ في الغالب ــ من المهاجرين الروس ، وهواة جمع الفراش ، وسكان قرية (جرينوتش) المنحرفين .

على أن الأمل في أن يغدو هذا الكاتب « أسدا » لايلبث أن

يختفى تماما ، اذا ما احس بالاضطرار الى طبع مخطوط غير صالح للنشر .. أى مخطوط يتضمن علاقة غرامية ، **تنشأ بين رجل فى منتصف العمر وفتاة فى عامها الثانى عشر !** .. ولكن الأمر جرى على انعكس مع « نابوكوف » منذ اعوام قلائل ، عندما القى الى السوق رواية اثارت ضجة شملت العالم بأسره ، وقفزت بسرعة الى المرتبة الأولى فى قائمة الكتب ذات الرواج الواسع فى امريكا .. تلك هى رواية « لوليتا » ، التى عالجت العلاقة الغرامية الشاذة .

وبعد سنوات طويلة من الجحود والاغفال الأدبيين ، وجد « نابوكوف » نفسه ـ فجأة ـ ((**اسدا**)) ، ذا هالة ضخمة من الشعر تحيط برأسه ، وعينين كمصباحين كاشفين لقاطرة ، ومجموعة من الأنياب والمخالب !

ضجة فى كل مكان

ولعل بريطانيا هى أكثر البلدان التى اهتزت جنباتها بالجدل حول « لوليتا» . فقد دخلت هذه الرواية الى ساحة البرلمان ، ودارت حولها معركة حامية ، وحمل عليها نواب حزب المحافظين ، قائلين انها ((**رواية سوقية**)) !

وانقسمت الأراء حولها ـ فى اوساط المثقفين ـ ما بين مؤيد ومعارض . فبينما وصفها الروائى المعروف **جراهام جرين** بأنها ((**رواية ممتازة**)) حمل عليها « جون جوردون » ـ رئيس تحرير جريدة « صنداى اكسبريس » ـ حملة مقذعة ، وصفها فيها بانها ((**اقذر ماقرأت فى حياتى !**))

اما فى الولايات المتحدة ، فقد لاقت « لوليتا » جوا مهيأ ، حتى لقد ارتفع رقم توزيعها ـ فى اسابيع قليلة ـ الى ٢٤٠ الف نسخة ، بالرغم من امتناع بعض المكتبات عن عرضها ، ومجاهرة الكثيرين باستهجانهم لموضوعها ! .. ولعل السر فى ذلك راجع الى ان **معظم النقاد هنا ـ فى**



الولايات المتحدة ـ لم يكتموا اعجابهم بالرواية ، ولم يضنوا بتقديرهم لموهبة مؤلفها وبراعته الادبية .. فلم تلبث « لوليتا » أن أصبحت حديث المجالس ، وان ضم قاموس المصطلحات الماجنة ـ الى جانب اسمها ـ اسم **((همبرت همبرت))** الشخصية الرئيسية فيها ، **أحدث صورة لنابوكوف** و **((عروس البحر)) ..** وهو التعبير الذى ابتكره « نابوكوف » واطلقه على « لوليتا » ولداتها من الصغيرات اللواتى يبكرن فى النضوج !

وتوجت شركات السينما ـ فى النهاية ـ كل هذه الضجة، بأن اشترت القصة من مؤلفها بملغ ١٥٠ / ٠٠٠ دولار ، فضلا عن ١٥ فى المائة من صافى الارباح !

بطل الرواية مجنون مثقف !

والرواية ، من الناحية الفنية ، عمل ادبى رائع . فهى مأساة صاغها المؤلف بسخرية حادة ، وجراة عجيبة . وهى ايضا لوحة نقدية للولايات المتحدة المعاصرة .

انها ـ فى الواقع ـ تمثل خير تمثيل مأساة المراهقات وشذوذ الشيوخ فى امريكا .

وليس همبرت همبرت ـ راوى القصة ـ بمجنون عادى .. فهو رجل اوربى مثقف ، ذلق اللسان ، **برغم انه صعلوك دنس ، يدرك ـ تمام الادراك ـ وقاحة شيطانيته وخبثها ،**

ازاء ((عرائس البحر)) ! .. وهو يعانى ، أشد المعاناة ، من تعرضه للمفردات التى تستخدمها ((لوايتا)) ـ ابنة العام الثانى عشر ـ فى احاديثها وطلباتها الغريبة التى لاتنتهى . فهى ـ دائما تلاحقه بحاجتها الى موسيقى الجاز ، وانشيكولاته الممزوجة بالصودا ، والكتب الهزلية ! .. وهو ـ برغم طريقته لمعوجة ـ رجل يحس فى قرارة نفسه بأنه يجب ان يكون أبا ، الى جوار كونه عاشقا .

أما لوايتا فهى فتاة صغيرة مراهقة ، ترتسم على وجهها مسحة من الحزن الدفين . ومع انها ليست على قسط كبير من الجمال ، فانها تغوى همبرت ، قبل ان يقدم هو على اغوائها أو استدراجها .. غير انه يروى افتتانه الوحشى فى انشراح داعر ، **لدرجة ان الرواية ـ احيانا ـ تبدو وكأنها تقطر تشبيبا وغزلا ! ..** ومع ذلك ، فان المرء لايستطيع أن يدرج الرواية فى قائمة الأدب المكشوف ، سواء فى مادتها أو مرماها .

مؤلفها يشك فى نجاحها

ومن العسير على المرء ـ قبل ان يلتقى بنابوكوف ـ ان يدرك السبب الذى ادى بكاتب محترف الى ان يبذل الشىء الكثير من الوقت والجهد فى عمل يحتمل المصادرة والسحب من السوق . غير أن الجواب على ذلك بسيط . **فقد كتب نابوكوف روايته هذه ، كى يشبع رغبته فى ان يعبر عما يجول فى نفسه ..** وكان واثقا ، منذ البدء ، من انها لن ترى النور ، وانها ـ أن رآته ـ فلن يقدر لها نجاح ما !

وكأنه ـ بذالك ـ انما كتبها لنفسه .. اصلا !

ارستوقراطي ورياضي وأستاذ جامعي

وفلاديمير نابوكوف رجل غير عادي : فهو يناهز الستين من عمره ، مرح ، ممتلىء الجسم ، لايستعمل رباط العنق . وهو واحد من الطبقة الأرستوقراطية الروسية القديمة ، التي نبذتها ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ . وقد تعرض — بعد مغادرته روسيا مع أسرته — الى التشرد في بلدان اوربا فترة من حياته ، الى أن انتقل نهائيا الى الولايات المتحدة ، حيث اقام هناك في عالم خاص شيده بيديه وافكاره .

ونابوكوف كاتب ذو طاقة زاخرة متدفقة . **فقد كتب ثماني روايات باللغة الروسية ، قبل ان يصبح كاتبا امريكيا** .. وهو لايزال ينظم الشعر — من حين لآخر — بلغة بلاده الاولى ، ويهوى تأليف الغاز الشطرنج ، التي يتنافس الكثيرون على حلها . كما انه معروف بتفوقه في هواية جمع الفراش ، التي يمارسها في منطقة جبال روكي . وقد كان — ايضا — لاعبا ماهرا للتنس وكرة القدم في شبابه ، ولايزال — برغم شيخوخته — رياضيا قويا . وهو — الى جانب كل هذا — مدرس جامعي مجتهد ، اذ يهب نفسه تماما لطلبته في الجامعة ، الذين يتلقون على يديه دروسا في الأدب الأوربي .

بين الثراء والثقافة والجاه

ولقد كانت اسرة نابوكوف في روسيا الامبراطورية على قسط كبير من الثراء والجاه اجيالا طويلة . فكان بين اجداده لأبيه عميدا لأكاديمية الطب الامبراطورية ، بينما كان جد آخر له وزيرا للعدل في عهد القيصر اسكندر الثاني . كذلك شغل احد اعمامه — **كونستانتين نابوكوف** — منصبا دبلوماسيا كبيرا ، اهله للاشتراك في مفاوضات معاهدة (بورتسماوث) — التي جرت مع الرئيس الامريكي «تيودور روزفلت » ، عقب الحرب الروسية اليابانية .

وكثيرا مازار نابوكوف ـ فى طفولته ـ (بياريتز) و (الريفييرا) ، حيث كان ينزل مع اسرته فى أفخم الفنادق هناك . وكانت اسرته تتنقل بين هذه الأماكن وبين قصرها المنيف فى (سانت بطرسبورج) ، اوضيعتها الكبيرة ، التى كانت تبعد عن العاصمة مسافه خمسين ميلا .

ولم يكن والداه ثريين فحسب ، وانما كانا مثقفين ايضا . وقد كان ابوه عضوا فى البرلمان الروسى ـ ابان الحكم القيصرى ـ متنورا ، يحب اولاده ويعطف عليهم ، ولايدخر جهدا فى سبيل تربيتهم وتثقيفهم . ومن ثمة درس « فلاديمير » واشقاؤه وشقيقاته اللغتين الفرنسية والانجليزية فى طفولتهم ، بينما كانوا ـ فى الوقت نفسه ـ يتلقون دروس اللغة الروسية ..

الاسرة تفر من البلاشفة

ولم تكن اسرة نابوكوف تحرص كثيرا على المال . فبالرغم من ان فلاديمير ورث ضيعة كبيرة ، وثروة تقدر بمليونين من الدولارات ـ وهو بعد لم يتجاوز عامه السابع عشر ـ الا انه كان مولعا بصيد الفراش ، وبفتاة تدعى «تامارا» ، وبالشعر والتنس ايضا . **ولم تستطع ثورة اكتوبر ان تخمد فى نفسه هذه الاهتمامات ، او ان تجعله يتحسر على ثروته التى صودرت .** فما ان استولى البلاشفة على الحكم ، حتى كان على الأسرة ان ترحل الى شبه جزيرة القرم ، محرومة من المال والثروة ، الا من بعض المجوهرات ، التى تمكن احد الخدم من اخفائها داخل « علبة بودرة » !

وقطع فلاديمير وشقيقه « **سرجى** » الرحلة الى القرم بالقطار . وعندما صعد جنود الثورة الى مقصورتهما لتفتيشها ، تظاهر « سرخى » بالمرض ، وأخذ يئن ويتأوه ، ثم همس فلاديمير قائلا لهم : **((أنه أخي .. مريض**

بالتيفود ! » .. واشفق الجنود على المريض ، أو لعلهم اشفقوا شئ انفسهم من العدوى ، فاسرعوا بالابتعاد !

غير ان المقام لم يطل بالأسرة فى القرم . اذ ما لبثت ان اضطرت الى مغادرة ميناء (سيباستبول) على ظهر باخرة يونانية ، بينما كان رصاص البنادق يدوى على الشاطىء فى جنون .

يتشبث بلغة بلاده

بالرغم من كل مالاقاه « فلاديمير » واسرته ، فانه يحب وطنه روسيا حبا جما ، ويعشق لغة بلاده وادبها . وقد عز عليه ـ اذ كان يدرس فى (كامبريدج) ـ ان يهجر اللغة التى نطق بها اول مانطق ، **ومن ثم فانه لم يكف عن نظم الشعر وكتابة القصة بها .. كل ذلك حتى لاينسى بلاده ولغتها .**

وعندما منع الاتحاد السوفييتى كتبه من التداول فى اسواقه .. وعندما وجد « نابوكوف » نفسه وحيدا فى مهجره ، بين زملاء من المهاجرين لايقلون عنه فقرا ، لم يجد عزاء الا فى الكتابة .. كان فيها متنفس لعذاب النفسى الذى امضه واقلقه . واضطر ـ فى تلك الأثناء ـ الى الاستعانة بمواهبه ، كى يدفع عن نفسه ـ واسرته ـ غائلة الجوع والفقر . فكان يعطى دروسا فى لعبة التنس للأثرياء من المهاجرين الالمان . كما أعتمد ـ من جانب آخر ـ على الترجمة فى كسب قوت يومه .

يفضل الحشرات على الكتابة !

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية ، تلقى « نابوكوف » دعوة من جامعة (ستانفورد) الأمريكية ، فلباها شاكرا .. واقام هناك ، موزعا وقته على هوايتين لاثالث لهما : **الحشرات والكتابة .** ولقد امدته هوايته للحشرات باحساس ملؤه الزهو والنشوة بالانتصار على الطبيعة ، والرغبة فى فض اسرارها ،

وكشف كوامنها ، **حتى انه صرح يوما بأنه لو خير بين الاثنين ـ أى هواية الحشرات وهواية الكتابة ـ لفضل ترك الكتابة !**

وقد قدر متحف (هارفارد) جهوده وسمعته فى اوربا نهلو كبير للحشرات ، فدعاه لمعاونه المختصين فى المتحف .. وكان له نصيب كبير فى اعادة تنظيم مجموعات الحشرات .

ومالبث نابوكوف ـ بعد فترة ـ ان شغل منصب استاذ فى الأدب بجامعة (كورنيل) . غير أن التدريس بالجامعة لم يشغله عن ممارسة هوايته . فقد اصبحت منطقة جبال روكى ـ حيث يكثر الفراش ـ ملاذ لاستاذ الجامعة المشتغل بالأدب ، يقصدها كلما احس بالحاح الحاجة الى اشباع هوايته .

فكرة تراوده ١٥ سنة

وقد تاحت له هواية جمع الفراش ان يختلط بأناس كثيرين ، مختلفي المشارب والمهن .. من سائقين ، ورعاة ، وفلاحين ، وطهاة .. وأتاحت له هذه التجارب ، بدورها ، تحديد معالم روايته «اوليتا» ، **التى حمل فى رأسه مفهومها ومحتواها طوال خمس عشرة سنة ، قبل ان تاخذ شكلها الحالى .**

ونابوكوف مفتون بالدراما التى تكمن فى العاطفة المتضخمة لدرجة الازعاج . وكان يشغل باله ـ دائما ـ التفكير فى هذه العاطفة ، وماتجره على صاحبها من كوارث أو انحرافات . ولعل هذا ما أدى به عام ١٩٣٩ ـ عندما كان فى باريس ـ الى ان يكتب قصة باللغة الروسية ، تدور حول رجل متوسط العمر غرر بفتاة صغيرة ، ثم انتحر . غير أن عددا من أصدقائه ـ وقتذاك ـ شن على القصة هجوما ، اضطر نابوكوف ازاءه الى العدول عن نشرها .



أحلى ساعات الكتابة .. وهو جالس فى السيارة

كيف جمع مادته عن ((لوليتا))

وعندما بلغ « نابوكوف » الاربعين من عمره ، هجر الكتابة باللغة الروسية وشرع يكتب بالانجليزية ، التى يجيدها كأحد أبنائها .. وقد بدأ فى كتابة «لوليتا» ، فى صيف سنة ١٩٥١ ، وقضى فى تأليفها عامين ، كان خلالهما يتسلى بجمع الفراش ، ويكتب القصص القصيرة ، ويترجم قصة « يوجين اونجين » للشاعر « بوشكين » من الروسية الى الانجليزية .

ولقد بذل جهدا كبيرا فى رسم شخصية « اوليتا » ، وبلغ به تحرى الدقة ان راح يجمع المعلومات عن الفتيات اللائى فى مثل سنها . **ومن وسائله فى ذلك ، انه كان يستقل سيارة من سيارات مدارس البنات ـ بين حين وآخر ـ ليصغى الى احاديث المراهقات** .. وكان يجمع كل ذلك فى « ملف » خاص ، ضمنه بيانات عن وزن لوليتا وطولها فى سنوات نموها المختلفة ، وما يستتبع ذلك من تغير مقاسات أحذيتها وثيابها ! .. وكذلك ضم الملف معلومات تفصيلية عن احب الاشياء اليها ، كطبقها المفضل ، وعباراتها المفضلة ، واسطواناتها المفضلة ، ونجمها السينمائى المفضل .. الخ .

مفتون بالكلاب الضالة !

والغريب أن نابوكوف وزوجته لايكفان ـ حتى الآن ـ عن التنقل من مكان الى آخر ، طلبا للتغيير والمتعة . وهما يغادران بيتهما مرة أو اثنتين فى العام ، ويصحبهما أحيانا ولدهما ديمترى (٢٥ سنة) الذى تخرج فى جامعة هارفارد .. وهو الذى ترجم بعض مؤلفات ابيه الى الانجليزية ، قبل ان يعمد « نابوكوف » الى التأليف بهذه اللغة مباشرة .

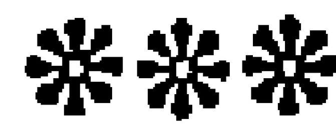
ونابوكوف ـ بالاضافة الى هذا كله ـ **مفتون بالكلاب الضالة !** وقد اعتاد ان يتفاهم معها بلغته الروسية ، وأن يدعوها الى قاعة المحاضرات كلما شاهد واحدا منها . وهو يروى عنها طرائف كثيرة ، منها **أنه ما يكاد يبدأ محاضرته ، حتى تكون قد استسلمت لنوم عميق ، ثم تستيقظ بطريقة لاشعورية ، قبل أن يصرف تلاميذه بخمس دقائق !**

وهو مولع اشد الولع بالسيارات ، رغم انه لايجيد قيادتها . ويعلل ذلك بقوله انه يخشى ـ اذا ماقاد سيارة ـ ان يشرد ذهنه ، جريا على عادته .. على انه يركن الى زوجته عادة فى قيادة السيارة ، اذا ما خرجا للنزهة ، حتى

يتفرغ للكتابة .. وعندما تقف زوجته بالسيارة تحت شجرة ، تتيح له بذلك جوا هادئا للكتابة ، يحس معه بالراحة والغبطة ، كما يحس بأنه فى عزلة عن العالم !

زواج غير موفق للوليتا

والغريب ان الناشرين فى امريكا رفضوا نشر روايته « لوليتا » ، عندما انتهى من كتابتها فى عام ١٩٥٤ . وحدث – فى تلك الأثناء – أن أنباه وكيله فى باريس ، بأن دارا من الدور التى تنشر الكتب المكشوفة باللغة الانجليزية ، تبغى اضافة لوليتا الى قائمة منشوراتها . وفكر « نابوكوف » فى الأمر طويلا ، لكنه مالبث أن أعلن موافقته بعد فترة . وقال فى ذلك : ((**أن الكتب كالاطفال ، يبغى المرء – بعد أن يتجشم كل عقبة فى سبيل تربيتهم وانضاجهم – أن يراهم متزوجين** . وقد لا تكون هذه الفرصة بمثابة اسعد زواج للوليتا ، لكنها فرصة سعيدة الى حد ما ، فقد أتاحت لى – على الاقل – فرصة رؤية عملى مطبوعا ، تضمه دفتا غلاف ، واستطيع ان أضعه على رف مكتبتى ! »



وهكذا نجد ان فلاديمير نابوكوف – على الأقل من خلال ما ساقه محرر ((**الايف**)) الأدبى فى الصفحات الماضية – كاتب يستحق من القارىء العربى الالتفات والاهتمام ، **لابقصد افتراض كمال افكاره ونضجها ، وانما بقصد دراسة اعماله – من حيث قيمتها الفنية** – ومقارنتها بما يسلكه كثيرون من الكتاب لدينا ، حين يتعرضون لموضوعات مماثلة لما يطرقه نابوكوف الروسي الاصل ، الأمريكى الجنسية .

أخبار أدبية

• **عرف** «جون أوهارا» في ميدانى القصة القصيرة والرواية ، لكنه لم يعرف في ميدان المسرح . وقد صدرت أخيرا من دار «راندوم» ، مجموعة من المسرحيات (٤٧٣ صفحة) كتبها « أوهارا » ، وتشتمل على خمس مسرحيات فقط ، كان معظمها — في الأصل — قصصا وروايات قصيرة ، ثم عالجها الكاتب مرة أخرى بطريقة مسرحية .

والطريف أن « أوهارا » صدر مجموعته هذه بمقدمة طويلة ، هاجم فيها مخرجى المسرح ونقاده . ومما قاله في حملته : « كان من الممكن لبعض هذه المسرحيات أن يمثل على مسارح برودواى ، لو أننى كنت راغبا في أن أتلقى دروسا في الكتابة من المخرجين . غير أننى لا أعرف مخرجا أحترم فيه موهبته في الكتابة ! »

• **« روبرت جرافز »** شاعر مخضرم في السادسة بعد الستين من عمره . لكنه شاعر مقل ، إذا قيس انتاجه الشعرى بما أنتجه في ميدان النثر . فخلال السنوات الأربعين الماضية ، أخرج جرافز ٧٠ كتابا في التراجم ، والقصة التاريخية ، والنقد ، والأبحاث ، والترجمة .

واليوم يطل « جرافز » على قارئه من نافذة الشعر . فقد أصدرت دار « دبلداى » مجموعة من أشعاره (في ٣٥٨ صفحة) ، جمع فيها شعره منذ عام ١٩٥٥ ، مضيفا إليه عددا آخر من القصائد الجديدة .. **وشعر جرافز غنائى — في معظمه — فيه نفحة من الذاتية ، تبعد به عن شعر المعاصرين** من أمثال اليوت ، وباوند ، وأودن . وهو يقول في مقدمته لأشعاره : « لقد كان النثر مهنتى ومعاشي . غير أننى قد استخدمته كوسيلة لشحذ احساسى بطبيعة الشعر »

رسالة لندن

ضوء جديد يسلط على لغز قديم

ما من مؤرخ تعرض لتاريخ الثورة الفرنسية الكبرى ـ فى القرن الثامن عشر ـ الا استهوته قصة القلادة الماسية، التى اعتبرهـا « جوته » اديب المانيا الأشهر ، الفاتحة الحقيقية للثورة !

ولعـل القارىء يذكـر ما كتبه المؤرخ الانجليـزى « **ب. كريسب** » حول هذا الموضوع فى كتابه : « **مـارى انطوانيت وفيرسن** » . (راجع « كتابى » : العدد ١٧) فقد تعرض بدوره لقضية القلادة الماسية ، وأشار الى أنها كانت قضية قائمة على الخداع والغش ، وأن مارى انطوانيـت ـ التى كانت طرفا فى القضية ـ قد انتقمـت لنفسها ، فى الوقت الذى ازداد فيه ايمان الشعب باستهتارها ، وتبديدها لأمواله وأقواته . .

ومع أن جمهرة المؤرخين ـ من أمثال كارليل ، وبرنارد فاى ، وبرنتانو ، وستيفان زفايج ـ قد حـاولت أن تزيح الستار عـن حقيقة القضية ، التى شغلت اذهان الشعـب الفرنسى فترة من الزمن ـ مثلما شغلت أذهان أحفاده قضية « دريفوس » فى عام ١٨٩٤ ـ **الا أن الغمـوض قد اكتنف جـوانب كثيرة فى القضية . ومن ثمة اختلف المؤرخون حول تحديد مسئولية الجناة الحقيقيين .**

والجديد فى الموضوع ، هـو هذا الكتاب الذى اصدرته ـ مؤخرا ـ دار « جولانسز » ، بعنوان « **قلادة الملكة** » ، وهو من تأليف الكاتبة المحققة : **فرانسس موسيكر** . . فقد انفقت « مسز موسيكر » سنوات من حياتها فى دراسـة الوثائق والمخطوطات المتصلة بالقضية ، واستعانت بادارة المحفوظات

الفرنسية ، الى أن انتهت من كتابها هذا ، الذى حاولت فيه أن تزيح الستار عن الحقيقة ، وأن تجلو الجوانب التى عجز عن تفسيرها أقرانها من المؤرخين والباحثين .

وقد بدأت قصة القلادة الماسية بخلاف نشب بين مارى انطوانيت والأمير لويس دوروهان ـ كاردينال كنيسة ستراسبورج وقتذاك ـ الذى كان أول من استقبلها حين وفدت من وطنها (النمسا) فى سن الرابعة عشرة ، لتكون زوجة لولى عهد فرنسا ومليكها فيما بعد . .

ولم يلبث ذلك الخلاف أن اشتد ، وتحول الى رغبة عارمة فى الانتقام من جانب مارى أنطوانيت ، التى كادت أن تنزل بالكاردينال المسكين افدح الوان النقمة ، لولا انها خشيت نفوذ أسرته ، فاكتفت باقصائه عن مناصب السلطان والنفوذ فى الدولة !

وحار الرجل الطيب ـ فهكذا وصفه مؤرخوه ـ فى أمر هذه الفتاة اللعوب المستهترة ، التى أصبحت صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة . وعبثا حاول ان يكسب جانبها .. ولقد لجأ ـ فيما لجأ اليه من وسائل لاسترضاء غريمته ـ الى وسيلة حسب انها الكفيلة بازالة أسباب الخلاف ، ولم يكن يدرى أنها ستدمر سمعته فيما بعد !

ذلك أن حظه العاثر وحسن نيته ، أوقعاه فى براثن عصابة من المحتالين ، تتزعمها امرأة فاجرة بشعة تدعى ، **مدام دو لاموت** . فقد نمى الى علمه انها على صلة وثيقة بمارى انطوانيت . ومن ثمة إتصل بها كى توفق بينه وبين الملكة الغاضبة . غير أن مدام دو لاموت ـ صاحبة التاريخ الطويل فى النصب والاحتيال ـ **لم تلبث أن اكتشفت فيه سذاجة والحاحا على الصلح ، جعلاها تفكر فى استغلال طيبته وثرائه** . فراحت تؤكد له أنها محل لثقة الملكة ، وأن

الأخيرة لا تستطيع ان ترد لها طلبا . بل انها قدمت له خطابات خاصة ، صادرة من الملكة اليها ، كبرهان على قوة علاقتها بها . ولم يفطن الكاردينال ـ فى غمرة حماسه وشوقه الى الصلح ـ الى أن هذه الخطابات مزيفة ، لا أساس لها من الصحة . فقد قام عشيق المرأة ، المدعو « ريتو دو لافيليت » ، بتزييفها لهذا الغرض !

وبهذه الوسيلة استطاعت المرأة الفاجرة ـ بمعاونة عشيقها وأفراد عصابتها ـ أن تبتز من الكاردينال أموالا طائلة ، مدعية أن الملكة فى حاجة اليها ، لانفاقها فى وجوه البر !

وفى تلك الأثناء ، علمت المرأة أن « جواهرجى » البلاط ـ **ويدعى بوهمر** ـ يحتفظ بقلادة ثمينة مرصعة بالماس ، تبلغ تكاليفها **مليونا وستمائة الف فرنك** ، وبأن هذه القلادة عرضت على الملكة ، ولكنها أعرضت عن شرائها لفداحة ثمنها. وهكذا وجدت المرأة الفرصة سانحة لكسب جديد . فانطلقت الى الكاردينال المخدوع ، **وأوهمته أن الملكة تتوق الى امتلاك القلادة ، وانها ـ أى دو لاموت ـ ترغب فى ابتياعها من أجلها ، لولا أنها لا تمتلك ثمنها !** .. وأخذت المرأة تحبك الخطة ، مستخدمة فى ذلك ما وسعها من وسائل الاغراء والاقناع ، الى أن قبل الرجل أخيرا ان يقرضها ثمن القلادة ، بعد أن تعهدت بتسديده على أقساط !

ومضى الكادينال الساذج يوهم نفسه بما ينتظره من جاه وسلطان ، زاعما لنفسه أنه لو اشترى القلادة للملكة ، لانفتحت أمامه كل الابواب المغلقة دونه ، ولاكتسب مكانة ونفوذا لا يقلان عما يتمتع به مازارين أو ريشيليو .

وسرعان ما حصلت مدام دو لاموت على القلادة الماسية ، وعند ذلك عمدت الى نزع ماساتها ، وباعتها فرادى !

وجاء الكاردينال يطالبها برد الجميل ، فأوهمته بأنها قد اتفقت مع الملكة على تسوية الخلاف ، وأن الملكة قد أبدت استعدادها للالتقاء به . ثم ضربت له موعدا عند منتصف الليل ، فى حديقة القصر الملكى . وهرعت المراة الفاجرة الى فتاة من أعوانها تدعى « أوليفا » ، فألبستها ثيابا كثياب الملكة، ثم اصطحبتها الى حديقة القصر خفيـــة . وهناك تم اللقاء المزيف ! اذ ظهرت اوليفا فى ثياب الملكة ، وأخذت تتهادى فى دلال ، والظلام يحوطها فلا يكاد يظهر شيئا من ملامحهـــا الحقيقية . وعندما اقتربت الملكة المزيفة من الكاردينال ، ركع **الاخير على ركبتيه ، غض بصره حياء ، ثم رفع يده ليتناول وردة قدمتها له المحتالة الذكية ، دون أن تنبس بكلمة !**

وقدر لمارى انطوانيت أن تعلم بما حدث ، فثـارت ثورة عنيفة ، وأحست أن كرامتها قد ديست ، وأن اسمها قد اتجر به وكانت النتيجة ان قدم الكاردينال الى المحاكمة أمام البرلمان بوصفه أميرا ، حيث حكم عليه بالنفى ، وأنزل عن رتبته . اما مدام دولاموت فقد حكم عليها بالسجن مدى الحياة ، والوشم على الكتف ، ثم احتجزت فى أحد ســـجون باريس . لكنها تمكنت من الفرار ذات ليلة الى انجلترا .

ورغم أن مؤلفة الكتاب الجديد ـ مسز موسـيكر ـ قـد حملت على مارى انطوانيت ، وكشفت عن مباذل البلاط الملكى، **الا أن الجناة الحقيقيين ـ فى هذه القضية التى لفها الغموض طويلا ـ هما مدام ((دو لاموت)) وعشيقها ((ريتو دو فيليت)) .** فهما اللذان دبرا المؤامرة ، وابتزا اموال الكاردينال الساذج ، الذى كان يسعى للصلح مع الملكة بأى ثمـــن . أما مارى انطوانيت ، فكانت ـ فى الحق ـ ضحية بريئة فى كل هـذه الفضيحة ، التى ما لبثت أن أطاحت بمـــا كانت تتمتـع به ـ مع زوجها لويس السادس عشر ـ من نفوذ وسلطان !

أضواء على حياة .. أم !

◆ **ويبدو** أن التاريخ الفرنسي لا ينفك يستهوى الكتاب الانجليز ، حتى ان انتاجهم المستمد منه ، يكاد يفوق انتاج زملائهم الفرنسيين . ففى الوقت الذى صدر فيه كتاب « سمز موسيكر » عن « قلادة الملكة » ، أصدرت دار « كولينز » للنشر كتابا عن .. السيدة الأم .. **ام نابليون بونابرت .**

ولعل واحدة من الامهات ــ فى التاريخ الحديث ــ لم تبلغ ما بلغته هذه السيدة الكورسيكية الحسناء من مكانة .. فقد انجبت للعالم ملوكا وقادة شغل بهم التاريخ والمؤرخون ، وحسانا تألقن فى مجتمع عهد نابليون وامبراطوريته ..



اسمها : ليتيشيا رامولينو بونابرت ..

صناعتها : انجاب الاولاد وتربيتهم ، منذ كانت فى الثالثة عشرة من عمرها !

ولقد كان انتاجها غزيرا ، مزدهرا ، على رأسه ذاك الفتى النحيل ، الضئيل الجسم ، الذى اعاد الى الحياة عهد امبراطوريات الاسكندر وقيصر . ومن هذا الانتاج ايضا : لويس ملك هولندا ، وجوزيف ملك نابولى ثم اسبانيا — فيما بعد — وجيروم ملك وستفاليا .. واميرتان هما : ماريان وبولين .. وكلهم يحملون اسم «بونابرت» ، ويدينون بالفضل لهذه السيدة التى نشأتهم ايما نشأة ، برغم أنها لم تتلق العلم فى مدارس ، وبرغم أنها ظلت — حتى وفاتها — تنطق اللغة الفرنسية خطأ ، وتدخل عليها من اللحن والتصريف ما يثير ثائرة رجل الشارع فى فرنسا اليوم . (وكانت فرنسا قد اشترت جزيرة كورسيكا — موطن أسرة بونابرت — من ايطاليا قبل مولد نابليون بسنوات .)

ولقد تزوجت ((ليتيشيا)) فى سن الثالثة عشرة ، ومع ذلك احتفظت بجمالها — الذى كان حديث كل من شاهدها — الى حين وفاتها فى فبراير عام ١٨٣٦ . وهى لم تتخلف يوما عن رعاية أولادها والعناية بهم ، حتى عندما بلغوا مراتب المجد والشهرة . اذ تذكر الآنسة **مونيكا ستيرلنج** فى كتابها الذى اصدرته مؤخرا — بعنوان **((فخر الاسود : لوحة لأم نابليون))** — أن ليتيشيا الأم القديرة كانت تحب أولادها حبا جما ، وأنها كانت تعطف على نابليون بصفة خاصة ، وتردد دائما — مشيرة اليه — قولها : **((من أجلك ستدوم هذه النعمة !))**

وتذكر الآنسة مونيكا أيضا أن ليتيشيا كانت قاسية فى معاملة أولادها ، برغم هذا الحب والعطف اللذين نبعا من قلبها .. وكانت قسوتها تصل الى حد الضرب . **وقد ذكر نابليون أن آخر مرة تعرض فيها للضرب من أمه ، كانت عندما تخرج ، وأصبح ضابطا فى الجيش فى سن السابعة عشرة !**

وكان نابليون يخشى أمه ويحترمها فى الوقت نفسه . وكان

لا يفتأ يقول لها : « اعتنى بصحتك ، فانك لو مت ، لتعرضت ـ أنا ـ لكل ما فى العالم من مساوىء !» .. **ومن الطريف ان نابليون مات عام ١٨٢١ ، أى قبل وفاة أمه بخمسة عشر عاما .** كما أنها لم تتركه وحده ، حتى فى أيام محنته فى المنفى . فقد عاشت الى جواره ، صبيا وضابطا وامبراطورا .. ثم سجينا فى جزيرة صغيرة .

وعندما مات ابنها العظيم ، أصابتها صدمة عنيفة ، لكنها لم تنل كثيرا من حيويتها وجمالها . غير أن الشيخوخة مالبثت أن أخذت تتغلب على هذه الحيوية شيئا فشيئا ، حتى خلفتها فى النهاية كتمثال من الشمع الناصع البياض .. تمثال ماتت فيه الحيوية .. «**ليس فيه الا العيون تتحرك!**» ، كما قال ـ بحق ـ الروائى الخالد ستاندال ..

وهكذا عاشت « ليتيشيا راموليتو » من أجل أبنائها ، ثم ماتت لتترك سيرتها على الألسنة ، كمثل لما يجب أن تكون عليه كل أم . وليس غريبا أن يطلق عليها **باسكال باؤولى** ـ بطل المقاومة الشعبية فى جزيرة كورسيكا ـ اسم « **كورنيليا** » ، نسبة الى زوجة أحد أباطرة الرومان القديمة ، وكانت معروفة بحسن تربيتها لأولادها ، ومثاليتها كأم .

رسالة باريس

يقدمها : الدكتور انور لوقا

انتاج لاينضب

• **أثبت** الكاتب الفرنسى المعروف ((**اندريه موروا**)) ـ الذى قدم « كتابى » تلخيصات لعدد من روائعه ـ أن انتاجه دافق لاينضب .

وقد وثب الى واجهات المكتبات البارلسية ، واحتل مكان الصدارة فيها ، كتاب جديد لأندريه موروا . والكتاب جديد فى مادته ، يروى ـ للمرة الأولى ـ سيرة امرأة غير شهيرة ، كانت زوجة رجل شهير ، هو « الجنرال لافايت » القائد السياسى والحربى الذى برز فى الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ ، ثم فى الثورة التى تلتها سنة ١٨٣٠ ، كما اشترك فى حرب الاستقلال بأمريكا .

لقد وجد ورثة « لافايت » فى قصره من الأوراق والوثائق والرسائل كنزا محفوظا ، ابقت عليه الأيام كاملا ، ولم تصل اليه أيدى الباحثين . فدعوا الى الكشف عن خباياه ذلك الأديب المرهف الذى برع فى كتابة السير وتوثقت علاقاته بالأدب الانجليزى والحياة الامريكية. ولبى « أندريه موروا » تلك الدعوة سعيدا ، وأخرج من الكنز المجهول كتابا يمتاز بدقة ما يسرد من وقائع التاريخ ، وصدق ما يرسم من صور الأحداث والنفوس ، فى اسلوب قصصى طلى انيق .

وقد أطلق على هذا الكتاب اسم : ((**ادريين**))

والطريف أن « موروا » لم يجذبه التأريخ لذلك القائد المعروف ، الذى دوى صيته بين فرنسا وأمريكا ، بل جذبته

وداعة زوجتــه « أدريين » التى توارت بتواضــعها وراءه ، وظلت حتى وفاتها بين يديه مثلا جميلا للتضحية والفضيلة والاخلاص ، رغم انصرافه عن حبها أحيــانا الى مغــامرات بعيدة . واذا كانت للافايت بعض مواقف البطولة فى الحياة العامة ، فان لهذه المرأة بطولتها فى الوفاء . ويعرفنا المؤلف باسرار ذلك القلب النبيــل ، دون أن يهمــل سـيرة لافايت نفسه، فلولا تفصيلها لغابت عنا معان كثيرة من كرم «ادريين» .

وهكذا يترجم فنان كبير لامرأة مغمورة ، فتصبح ترجمته ــ لشمولها وتعمقها ــ مرجعا من مراجع التاريخ .

كاتبة عربية .. فى فرنسا

• **وهذه** قصة عرفت من الرواج بين قراء باريس ما يبرره ثناء بعض النقــاد عليها ، وتكرار اســمها بين الــكتب التى رشحت لأكثر من جائزة. ولقد فازت بما يشرفها من الأصوات فى لجان التحكيم ، الا أنها لم تفز بالجوائز المرموقة .. ربما لأن مؤلفتها ــ ((**اندريه شديد**)) ــ من الجمهورية العربية المتحدة ، ولأن موضوعها عن مصر !

والقصة ــ وأسمها ((**اليوم السادس**)) ــ بسيطة ، تجرى احداثها أثناء أنتشار وباء الكوليرا ، سنة ١٩٤٧ . والبطلة ــ « أم حسن » ــ غسالة فقيرة ، ترهب عربة الاسعاف التى تأخذ المصابين الى المستشفى ولا تعيدهم ابدا . واذ تظهر اعراض المرض على أبنها الصغير ، تخبئه ، لاسيما وقد نقل الولد أخــيرا ان مدرســه قرأ فى الصحف أن المرض يزول خطره بعد اليوم السادس ، أن لم يمت المريض قبل ذلك . **لقد أصبح كل همها أن تبقى على أبنها حيا بين يديها حتى يمر هذا اليوم السادس** وانها لتنتظره كما ينتظر المؤمن يوم

البعث . وتعمد الى التستر على ابنها فى حجرة الفسيل ، ثم فى مركب على النيل مقلع نحو البحر . وتربط المصادفة فى قلبها بين فكره اليوم السادس وفكره الوصول الى البحر ، فتتشبث بهذا الرجاء ، حتى يصرع الموت ولدها ، ويدمرعها نبأ موته ، قبل أن يتحقق وهمها الساذج .

وبسذاجتها الواهمة تمثل « أم حسن » الحب الأموى الفريزى . وهو حب شديد عنيد ، يدفعه الجهل الى الايمان بعقائد قاهرة ، من صنع المصادفة لا المنطق ، وينتهى بها الى قتل الولد العزيز بعد تعذيبه بنقله من مكان الى مكان ، واقصائه عن أدنى وسائل العناية ، وحرمانه من الفرصة الوحيدة لخلاصه وهى المستشفى . وتهاجم المؤلفة فى رفق جهل « أم حسن » عندما تدبر لقياها على ضفة النيل بامرأة عائدة من المستشفى ومعها ابنها الذى تم شفاؤه.

وهناك شخصية القرداتى « أوكازيون » ، تصاحبه قردته « منجة » ، وهو يمثل الذكاء الشعبى والمكر والحيلة .، يعرف أن عواقب الجهل وخيمة ، فيبلغ أولى الأمر عن حالات الكوليرا الجديدة ، وان كان يربح من وراء ذلك مكافأة مالية فى كل مرة .

وتسيطر على الجزء الأخير من القصة شخصية الريس « أبو نواس » ، وهو رجل جاد ، نبيل ، قليل الكلام ، ولكنه يفلح فى أن يخفف عن «أم حسن» آلام احتضارها ، بأن يلقى فى سمعها أن ولدها قد دبت فى بدنه الحياة ، وتلون خداه ، وأنه راح يضغط بيده الصغيرة على اصبعه .. ويتلقف عباراته مساعده النوبى فيكررها كأنه الصدى القوى ، أو كأنه الكاهن القديم يردد أدعيته ..

وهكذا تبتسم « أم حسن » قبل أن تلفظ آخر أنفاسها ، واثقة من أن ابنها سوف يرى البحر .. وتنتهى هذه الصفحات المؤثرة ، النابضة بفزير من الرموز والمعانى المصرية الأصيلة .

ان « أندريه شديد » شاعرة ، نشرت بالفرنسية أكثر من ديوان فى باريس . و « اليوم السادس » قصة تمتاز بجمال الشعر وايحائه .

الدنيا تبدأ .. اليوم !

. ((**الدنيا تبدأ اليوم**)) .. قصة حياة ، وكتاب فى فلسفة الحياة . والمؤلف ـ ((**جاك لوسيران**)) ـ أستاذ واسع الثقافة ، مرهف الشعور ، كبير القلب ، يعرفه معرفة وثيقة عدد من شبابنا الذين درسوا على يديه الأدب فى مدرسة المعلمين بسان كلو ، قرب باريس . **وهو يروى ما يدور فى نفسه عبر حياة قاسية ، حسبه فيها شقاء حرمانه من نعمة البصر وهو فى الثامنة من عمره ، ثم الزج به فى معسكر اعتقال ألمانى وهو فى سن العشرين !** وبالرغم من شدة البؤس الذى أصابه ، ومر الجور الذى تجرعه ، ها هو ذا يحدثنا عن تجربته ، ويصف الناس كما عرفهم والحياة كما يتمثلها : حياة القلب والعقل ، والتفاعل العميق بين العالم وباطن الانسان . وفى رأيه أن الطمأنينة لا توجد فى العالم الخارجى ، بل توجد فى نظرتنا نحن الى هذا العالم .. نظرة الحب والرضا .

انه كتاب مؤثر ومقنع ، يدعو الى الثقة والاستبشار ، ويبين للمتشائمين طرافة الحياة فى تجددها كل لحظة . رسالته حكمة كريمة منعشة ، تتلخص فى أن الكون قد خلق

بقصد اسعاد الانسان .. سعادة يروعنا أن تتدفق ينابيعها من مجرد اشارة عابرة ، او حركة عارضة !

دفاع عن حضارة الرومان

• **فى** سلسلة قيمة عن الحضارات الكبرى يصدرها الناشر «ارنو» ، صدر أخير هذا الجزء عن ((**الحضارة الرومانية**)) بقلم جامعى متخصص هو ((**بيير جريمال**)) استاذ هذه المادة فى السوربون . والجديد فى هـذا الكتاب ذى المنهج العلمى الدقيق ، منحاه الفكرى الذى يرمى الى انصاف الرومان ، بعد ما شاع فى كتب التاريخ من انهم كانوا عالة على الحضارة اليونانية ، ينقلون ولا يبتكرون ، ولا يتفوقون على جيرانهم إلا بالأسلحة القاهرة وبالقوة الحربية الغاشـمة . والمؤلف يجلو عبقرية روما ، وعنايتها بالانسـان الكامن فى البطل ، وتفتحها على آفاق العالم الذى عاصرها ، وتوخى الوضوح فى بلاغتها والواقع فى فنها ..

انه برد ما لقيصر لقيصر !

الصين .. بين الماضى والحاضر

• **بين** صورتين متنـاقضتين للصين روجتهمـا امريـكا والشيوعية ، صورة تثير الرهبة واخرى تثير الاعجاب ، مضى الباحث الشهير ((**تيبور مند**)) ـ الذى تخصص فى دراسة ثورات آسـيا ـ يلتمس صورة الصين الحقيقيـة فى كتابه ((**الصين وظلها**)) . فاستعرض البلاد من الاقاليم الشرقية المكتظة العاملة فى نظام صارم يكاد يشبه السخرة . وسجل **بغض الصينيين للغرب ، فالغرب مسئول عما اصابهم من اسباب التـدهور** . ونبـه الى خطورة الدور الذى تقوم به اجهزة الدعاية ، فهى التى تلقن النـاس افـكارهم ، وتوجههم الى

الأهداف التي تحددها الحكومة ..

والكتاب يذكر في صدق ما للحكومة وما عليها ، ويظهر محاسن العهد الجديد كما يظهر عيوبه . ويروق للمؤلف أن يستشف وراء الحمية في العمل ، وتيقظ وعى قومى تمتد جذوره في تاريخ سحيق ، وتوثب الأمة الى مزيد من الرخاء والشرف .. طموح البشرية وأوزارها في كل مكان وزمان .

عندما طرق بلزاك ابواب المسرح

• **الحديث** عن « بلزاك » لا يكاد ينتهي .. وقد صدر ــ اخيرا ــ كتاب جديد عنه ، بعنوان **((بلزاك ، مؤلفا مسرحيا))** .. بقلم المدير السابق لفرقة الكوميدى فرانسيز **((بيير ديكاف))** .

والمعروف ان « بلزاك » ــ الذى تبوأ عرش القصة ــ قد طرق أبواب المسرح دون أن يظفر بما كان يرجوه في هذا الميدان من مجد . وتدهش الباحث كثرة عناوين المسرحيات التى خطتها ريشة بلزاك على أوراقه ، وكثرة الموضوعات التى ادخرها لأعمال درامية يتحدث عنها فى رسائله وكأنه فى غمرة انشائها ! لقد كانت تلك طبيعة بلزاك ، تتفجر قريحته بالأفكار والمشروعات . التى تظل مشروعات ، لأن الحياة لا تتسع لها . لقد عاش هذا الأديب الفحل خمسين سنة ، اتقن خلالها بفضل عمله الدائب فن القصة ، وكانت تعوزه خمسون سنة اخرى لاتقان فن المسرحية ! وما اكثر الكتب التى درست بلزاك من شتى نواحيه .. غير أن هذا الكتاب الجديد يقدم لنا صورة حية لمصير بلزاك الزاخر بالمعانى الانسانية ، ويطلعنا على نشاط ملكاته الخالقة ..

اخبــار أدبية

• للمرة الأولى دخل ادب « انطون تشيكوف » الى برامج فرقة « الكوميدى فرانسيز » ، فقد مثلت هذا الموسم ــ فى اخراج متقن ــ مسرحيته الشهيرة « العم فانيا » .

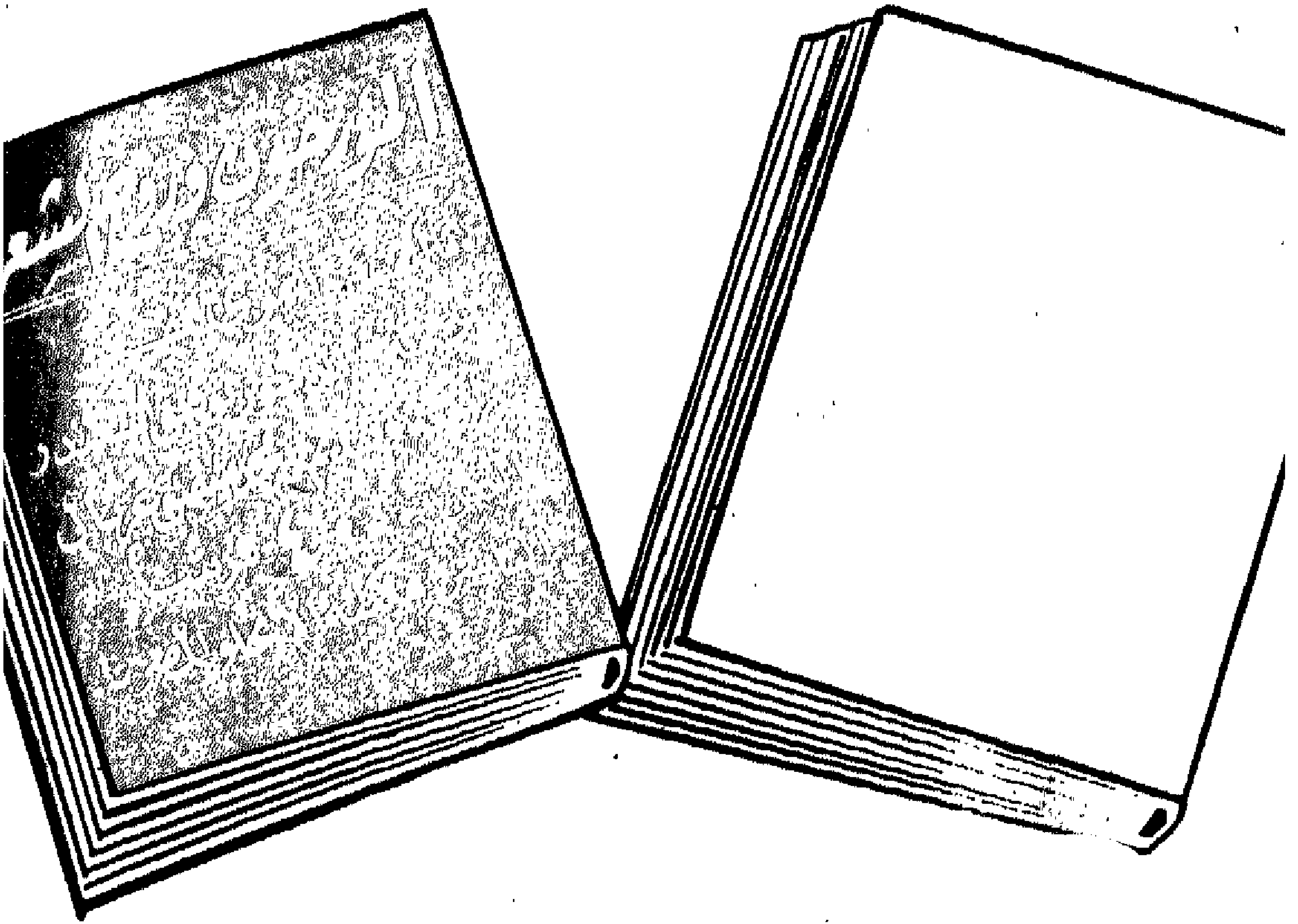
• اتهم القصاص الروسى « كوتنيزوف » الناشر الفرنسى « فيت » بانه اصدر بدون اذنه ترجمة لقصــة له ظهرت فى احدى المجلات الروسية بعنوان «نجم فى الضباب» . وترافع المحامى الذائع الصيت «موريس جارسون» أمام محكمة ليون المختصة فطالب بحماية حق الملكية الأدبية ، ولوكان لادباء ترفض أوطانهم الانضمام الى الاتفاقية التى أعدها « اليونســكو » لحماية حقوق المؤلفين . واخذت برايه المحكمة فقضت على الناشر الفرنسى بدفع تعويض للكاتب الروسى . وقد أثارت القضية فى الصحافة الأدبية مناقشة جادة حول مبدأ المعاملة بالمثل .

• ظهر الفيلم الأخير لجان كوكتو « الأميرة دى كليف » . وقد اقتبسه من القصــة التى كتبتهــا « مدام لافايت » فى القرن السابع عشر ، وهى أشهر وأجمل آثار الأدب القصصى فى ذلك العصر .

• ستضطلع دار «جارنييه» بنشر رسائل بلزاك محققة ، بترتيبها التاريخى ، فى عدة اجزاء ، ظهر منها الجزء الأول فى نحو ٩٠٠ صفحة ، وهو يشتمل على الرسائل المكتوبة من سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨٣٢ . والرسالة الأولى بقلم بلزاك عندما كان تلميذا بمدرسة «فندوم» ، فى العاشرة من عمره ، أما الرسالة التى ينتهى بها المجلد فتصور القصــاص عشية ابتــكاره مذهب عودة الأبطال فى رواياته . وبين هــذه وتلك

نتتبع جهاد بلزاك الادبى والمادى . وسوف تضم المجموعة نحو الف رسالة منا زالت مبعثرة فى كتب ومجلات وصحف ، كما ستثبت رسائل عديدة تلقاها بلزاك من افراد اسرته وناشريه واصدقائه الأدباء . ولن تقدم هذه الطبعة رسائل بلزاك « الى الاجنبية » ـ أى الى مدام « هانسكا » التى اصبحت زوجته قبيل وفاته ـ لأنها تؤلف مجموعة مستقلة ، سبق نشرها .

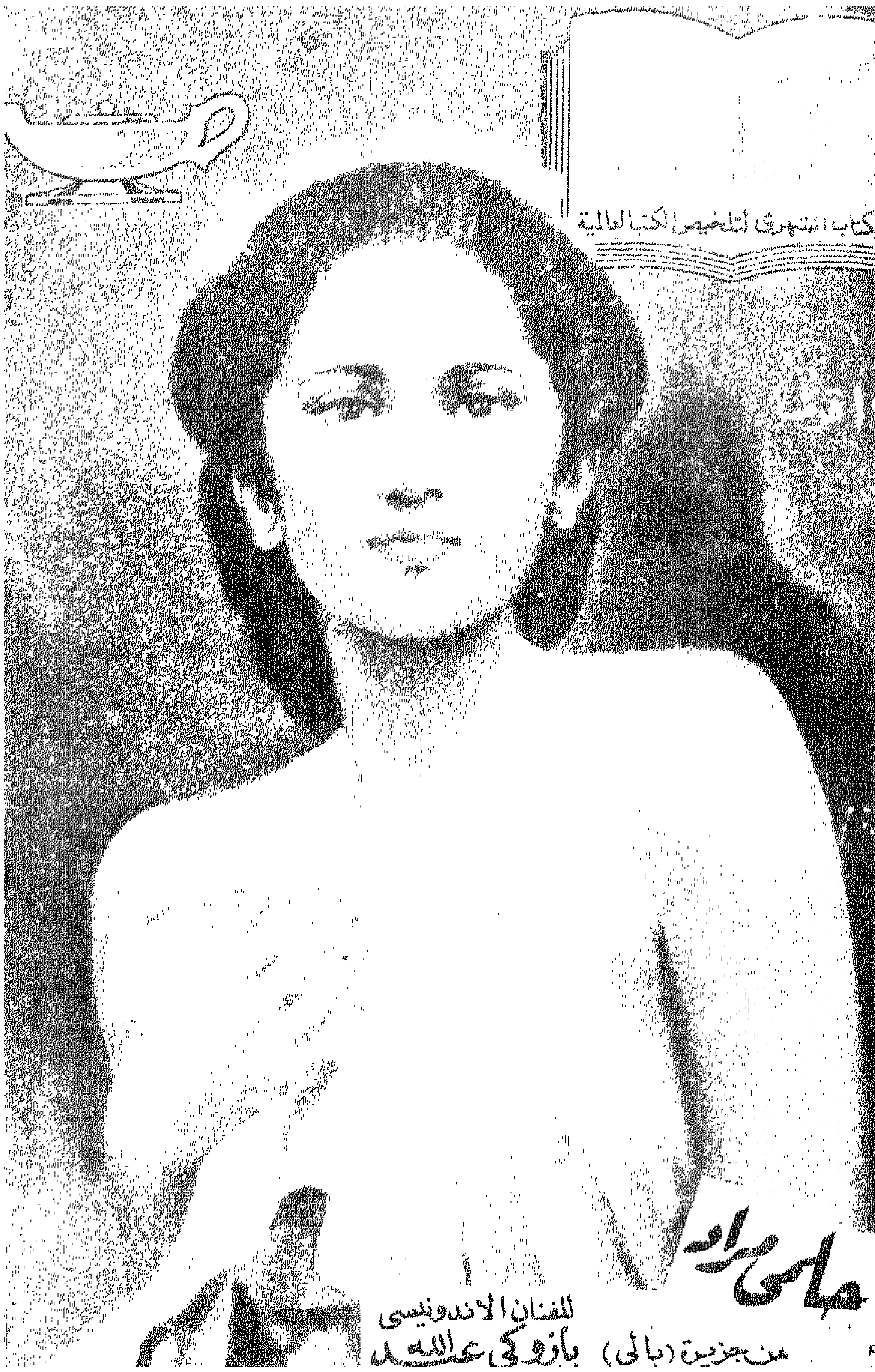
● يشترك أديب « رأسمالى » وشاعر شيوعى ـ هما اندريه موروا وأراجون ـ فى كتابة تاريخ للاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على التوازى منذ سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٦٠ . وسيضيف « موروا » قسما عن « الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠ » يعرض فيه نتائج اتصالاته ـ أثناء رحلته الأخيرة الى امريكا ـ برجال العلم والطب والهندسة والتربية .. هذا هو الكتاب الذى تترقب صدوره باريس .



تقـــدم

لقرّاء العالم العربي أحدث مطبوعاتها

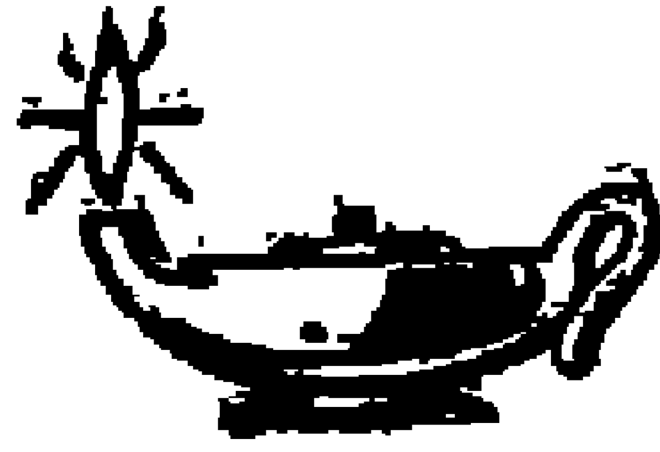



كتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية
للفنان الاندونيسى
من جزيرة (بالى) بازوكى عبدالله

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره : حلمي مراد



الكتاب الخامس والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والاعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤) شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

التليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

دور الاديب والفنان، في الثورة « الثقافية » !

عزيزى القارىء ..

فى الحديث البليغ فى تبسطه ، وتبسيطه للأمور ، الذى نفذ به الرئيس الى قلوب المواطنين جميعا — وليس الى اعضاء اللجنة التحضيرية فحسب — فى الجلسة الافتتاحية لاجتماعات اللجنة ، دعا قائد ثورة ٢٣ يوليو الى ان تقترن الثورة الاشتراكية الجديدة بثورة اخرى « ثقافية » ..

ولا يثلج صدر كل مشتغل بالثقافة والتثقيف فى هذا البلد ، مثلما يثلج صدره ان تمتد شرارة الثورة الى هذا الميدان الذى تخلف حتى الآن — غير متعمد — عن مساندة الثورتين السياسية والاجتماعية ، المساندة الكافية .

.. **واذا كانت** المساندة المطلوبة من علماء الاجتماع ، والاقتصاد ، والدستور ، والقانون ، هى ان يعكفوا — كماقال الرئيس فى حديثه الى اللجنة — على الدراسة والبحث ، كل فى ميدان تخصصه ، ليخرجوا من ذلك بأبحاث ونظريات جديدة تخدم أهداف مجتمعنا الجديد ..

فما هو دور الأديب ، والفنان ، فى هذا المجال ؟

ان واجبه الحقيقى ، ودوره الرئيسى هو أن يعمل — فى ميدانه الادبى ، أو الفنى — على بث روح التفاؤل ، والبهجة ، والتوثب ، فى مجتمعنا الجديد المتطور ..

فالتفاؤل هو « السلاح السرى » فى معركتنا الجديدة من أجل حياة أفضل ، ومستقبل سعيد ..

التفاؤل هو « الدينامو » الذى يشحذ الهمم ، ويضاعف الحمية ، ويقوى النفوس والاجسام على العمل والانتاج ..

فليكن هذا رائد الكاتب فيما يكتب .. والرسام فيما

يرسم .. والنحات فيما ينحت .. والموسيقى والمغنى فيما يلحن ويغنى ..

كفانا نواحا فى اغانينا .. وبكاء وعويلا فى مسارحنا .. وابرازا للجريمة والشر ، والارهاب والبلطجة ، فى أفلامنا ومسلسلاتنا الاذاعية ..

كفانا تشاؤما « وسوداوية » فى لوحاتنا ، وقصصنا ، وتمثيلياتنا التليفزيونية ـ مثل تمثيلية « غفران » التى شاهدناها على شاشته منذ ايام !

فانا أفهم ان يقدم لنا مخرجو التليفزيون الافاضل ـ مشكورين ـ «تراجيديا» تاريخية ليوسف وهبى ، ذات جو يمت الى عصر غير عصرنا ، وبلد غير بلدنا ، فلا يؤثر فى أعصابنا او يعكس كآبته على نفوسنا .. ولكنى لا أفهم ، ولا أهضم ، ان يقدموا لنا « مأساة » عصرية مفجعة من صميم وواقع بيئتنا ، لفتاة تتخرج من الجامعة ، وتظفر بالعمل الذى تحلم به ، ثم يخطبها المهندس الشاب الذى تحبه .. وفجأة تفجع فى بصرها ويصيبها العمى !.. فى الوقت الذى تصاب فيه أمها بمرض مميت ، تظل تصرخ من آلامه فى أسماعنا ، حتى تلفظ أنفاسها .. لا لشىء الا لكى يأخذ الطبيب قرنيتى عينيها فيعيد بهما البصر الى ابنتها العمياء !

اى والله !.. ومتى تقدم لك هذه التمثيلية ؟.. فى منتصف الليل ، قبيل النوم ، كيما تذهب الى فراشك مهتز الأعصاب، مضعضع النفسية ، بدلا من ان تنعم بنوم هادىء يهيئك لأن تستقبل عملك فى الصباح التالى ، متفتح النفس للكفاح ..

هذه مجرد أمثلة من روح التشاؤم الهدام الذى يجب ان نحاربه فى آدابنا وفنوننا ، اذا أردنا لها ان تساهم بدور بناء فى تطوير مجتمعنا الجديد المنشود .

والله ولى التوفيق .. **حلمى مراد**

رأيت وسمعت لك..
في تايلاند (سيام)



مشاهدات وتعليقات
للمحرر

حول العالم .. فى ٣٠ يوما !

عزيزى القارىء ..

ماذا تعرف عن مملكة (تايلاند) ـ أو (سيام) ، كما كان يطلق عليها قبل الحرب الاخيرة ؟

اغلب ظنى ان معلوماتك عنها لا تزيد كثيرا عن معلوماتنا جميعا ، التى استقيناها من مصدرين لا ثالث لهما : اولهما تلك السطور القليلة التى درسناها عن تلك البلاد النائية فى كتب الجغرافيا .. والمصدر الثانى هو ذلك الفيلم المشوه للحقائق الذى اخرجته هوليوود منذ أعوام واطلقت عليه (الملك ، وأنا) ، والذى اقتبست حوادثه من قصة نشرت من قبل فى كتاب عنوانه (أنا ANNA وملك سيام) !

وقد كانت تلك معلوماتى بدورى ، الى ان اتيحت لى فرصة زيارة تلك البلاد فى شهر سبتمبر الماضى ، لمناسبة افتتاح الخط النفاث الجديد الى الشرق الاقصى ، بطائرات شركة الخطوط الجوية السكندنافية SAS .. وهو الخط الذى يدور حول الكرة الارضية دورة كاملة ، فيبدأ من (كوبنهاجن) شمالا ، الى روما ، ثم جنوبا الى الهند ، مارا ب (كراتشى) و (كلكتا) ، ومنها الى (بانجكوك) عاصمة تايلاند ، ثم هونج كونج ـ أو (مانيلا) عاصمة الفيلبين ، ايهما يختار المسافر ـ فطوكيو عاصمة اليابان .. ومن هناك الى القطب الشمالى عبر (الاسكا) ـ بالقرب من كندا ـ ثم الى كوبنهاجن مرة اخرى ، حيث كانت نقطة البداية !

دولة محظوظة !

واسم (تايلاند) معناه « بلاد الاحرار » ، وهم اسم على مسمى ، فان تايلاند هى **الدولة الوحيدة من دول جنوب شرق آسيا التى لم تطأ أرضها قط أقدام اى مستعمر** ، فاحتفظت باستقلالها وحريتها طوال القرون الاربعة التى تفشى فيها الاستعمار الغربى فى تلك المنطقة بأسرها ، بين القرن السادس عشر والقرن العشرين — وينسب اهل تايلاند الفضل فى ذلك الى دهاء وكياسة ملكها الفذ « مونجكوت » . (بطل قصة « الملك وأنا ») ، وخلفائه الاذكياء — ولعل نجاة تلك البلاد من قبضة الاستعمار هى التى أضفت عليها جو السلام والسكينة الذى يسودها ، والذى جعل القوم هناك يطلقون عليها ((**بلاد الابتسامات**)) . وانه لأمر عجيب حقاً أن تحتفظ تايلاند بجو السلم والأمن والحرية ، وهى التى يحيط بها من كل ناحية « حزام » من الدول التى عاشت قرونا — وما تزال تعيش حتى هذه اللحظة — نهبا للاضطرابات ، والحروب ، والقلاقل ، والاطماع الاستعمارية : فمن ناحية الشرق والشمال الشرقى تتاخمها (لاوس) و (كمبوديا) .. ومن ناحية الشمال والغرب تقع (بورما) .. ومن ناحية الجنوب تقع (الملايو) !

.. ومع ذلك فقد ظلت (تايلاند) أو (سيام) بمنجاة دائما من نير الاستعمار الغربى ، ومن نيران الحروب ، الساخنة والباردة على السواء ! .. ولعل عدم ابتلائها بوطأة الاستعمار هو السبب فى انعدام اى شعور عدائى نحو دول الغرب الاستعمارية — فى قلوب سكانها ، الذين يستقبلون الوافدين اليهم من كافة بلاد العالم بنفس الابتسامة الودية المرحبة ، على وجوههم !

الاحرار .. لا ((السمر)) ، ولا ((الصفر)) !

اما الاسم السابق « لبلاد الابتسامات » وهو : (سيام) ، فقد كان مشتقا من لفظ (سايام) باللغة السنسكريتية . ومعناه « ذوى البشرة الداكنة » . وطبيعى ان يؤثر أهل تلك البلاد تسميتهم ب « الاحرار » على تسميتهم بالسمر أو الصفر ، أو أى لون من الالوان التى تعطى البيض سلاحا يميزون به أجناسهم ويبذرون بذور التفرقه العنصرية البغيضة !

وشعب تايلاند ينحدر من أهالى وادى نهر (يانجتسى) بالصين ، الذين هاجروا من وطنهم الاصلى نحو الجنوب ــ فى القرن الثالث عشر ــ واستقروا حول نهر (شاو فيا) ، فكانوا نواة هذه الدولة الودودة المسالمة .

وتبلغ مساحة رقعة تايلاند مائتى الف و ١٤٨ من الاميال المربعة ، (**اى مثل مساحة فرنسا ، أو مساحة ولاية ((تكساس)) الامريكية**) . وقد ارتفع تعداد سكانها حسب احصاء عام ١٩٦٠ الاخير الى ٢٥ مليونا و ٥١٩٩٦٥ نسمة (٢٥ر٥١٩٩٦٥) .

ويعمل نحو ٨٥ فى المائة من هؤلاء السكان فى زراعة الارض ، التى يملك نحو ٨٧ فى المائة من مساحتها الصالحة للزراعة ، زراعها الحاليون أنفسهم .

وتايلاند اقليم استوائى ــ اذ لا يبعد عن خط الاستواء سوى تسعمائة ميل ــ وتتراوح درجة الحرارة فيه بين ٢٠ ــ ٤٠ درجة مئوية . ويعتدل طقسها عادة خلال الاشهر من نوفمبر الى فبراير من كل عام . على ان الطقس يختلف بين منطقة ومنطقة من هذا الاقليم الذى تقع حدوده الجنوبية على

خط عرض ٥ ، وحدوده الشمالية على خط عرض ٢١ ، (وبين الطرفين مسافة تبلغ نحو ألف ميل) ، اما بالنسبة لخطوط الطول فتقع تايلاند بين خطى ٩٧ و ١٠٦ (وبينهما مسافة خمسمائة ميل) .

واذا نظرت الى خريطة تايلاند ، وجدتها تشبه رأس فيل و خرطومه ! .. ولعل هذا الشبه هو الذى جعل أهلها



حمال ينقل بضاعة فى احد شوارع (بانجكوك) الرئيسية ، بطريقة العصا المتوازنة فوق الكتفين ، وهى طريقة لحمل الاثقال منتشرة فى اكثر بلاد الشرق الاقصى ، سواء فى المدن او الحقول والمزارع .. الخ

يتخذون « الفيل الابيض » شعارا لبلدهم .. ولو ان الحيوان الذى يظفر باهتمام الشعب وتقديره هو الجاموس المائى ، لأنه أكثر الحيوانات المستأنسة مساهمة فى الانتاج القومى فى تايلاند ، نظرا لكثرة مساحات الاراضى التى تزرع ارزا ، والتى تغطيها المياه أشهرا طويلة كل عام . والارز هو الثروة القومية الرئيسية للبلاد .

القطط السيامية !

وعلى ذكر الحيوانات المستأنسة فى تايلاند أو (سيام) : قد يدهشك أن تعلم ان القطط « السيامية » التى تطبق شهرتها الآفاق فى كل انحاء العالم ، **لا وجود لها البتة فى (سيام) ، وهى المفروض ان تكون موطنها الاصلى !** .. ويبدو ان هذه النخبة الممتازة فى عالم القطط قد هاجرت من سيام الى بقية بلاد الارض !

على ان غابات (تايلاند) تزدحم ــ الى درجة الكثافة : ــ بأنواع مختلفة من الحيوانات المتوحشة ، منها : الدببة ، والنمور الرقطاء ، والفهود ، والخنازير البرية الضارية ، وانواع شتى من الوعول ، والجاموس الوحشى ، والثعابين المميتة ــ واشهرها (الكوبرا) ــ فضلا عن الفيلة الخطيرة .. الخ .. وبعض هذه الوحوش يبلغ وزن الواحد منه خمسة اطنان !

.. وتبادر مصلحة السياحة فى تايلاند ــ ولها نشاط محمود سأحدثك عنه فى موضع آخر ــ فتطمئنك إلى ان هذه الحيوانات المفترسة جميعا «لن تبحث عنك ، اللهم الا اذا بحثت انت عنها ! »

وبعض هذه الحيوانات يستأنس ويدرب على اقتلاع

الاشــجار من الغابات ، ونقل الاخشاب منــها الى المصانع والموانىء ..

واذا كان الزائر لتايلاند لايصادف وحوشها المفترسة الا اذا تعمد البحث عنها ، فانه على العكس يصادف الكثير من الزواحف الصــغيره غير الضاره ، مثل « اسحالى » ، التى يقتنيها الناس فى كثير من البيوت كى تأكل البعوض والحشرات الاخرى فتخلصهم منها . وبعض هذه السحالى « البيتية » كبير جدا ، حتى ليخيفك للوهله الاولى ، ولكنه بدوره غير ضار ، ولا خطر منه البتة .

ولا يســتطيع زائر تايلاند الا ان يلحظ بلابلــها وطيورها المغــردة الجميله ، فانت فى (بانجكوك) تصحو فى الصــباح الباكر على «كورس» من تغريد العصافير الصداحة ، تتجاوب اصداؤه من كل شجرة ! .. واذا كنت مولعا بهذه العصافير فانك واجد فى الحوانيت المتخصصة فى بيعهــا كل ما يخطر ببالك من انواع البــلابل والببغاءات على اختــلاف ألوانــها وأصواتها ..

٩٠ فى المائة من الشعب .. بوذيون

والديانة الرئيسية التى يعتنقها شعب تايلاند هى البوذية ، (اذ يدين بها ٩٠ فى المائة من سـكان البــلاد) ، لكن حــرية العبادة مكفولة فيــها كفالة كاملة للجميع ، ســواء بمقتضى التقاليد أو بنص الدستور . ويبلغ عدد المسلمين فيها نحو مليون نسمة ، اكثرهم فى المناطق الجنوبية منها ، كما يدين بالمسيحية ـ على اختــلاف مذاهبها ـ نحو خمسين الفا . وفى أنحاء تايلاند ٢٠٩٤٤ معبدا للديانة البوذية ، منها نحــو اربعمائة فى العاصمة (بانجكوك) وحدها ـ ومن هنا يطلقون على بانجكوك وصف « المدينة ذات الاربعمائة معبد » !



احدى قنوات ((السوق العائمة)) فى (بانجكــوك) ، وقد ازدحمت بعشرات الزوارق التى تحمل الخضروات والبقالة ومختلف الحاجيات، التى تباع لربات البيوت كل صباح بين ٧ــ١٠ .. واكثرهن يذهبن لشرائها فى زوارق مماثلة تختلط بزوارق البائعات . وعلى البر احد المستودعات ((الكبرى)) التى تتزود منهــــا الزوارق العائمة ببعض بضائعها .

على ان بانجكوك اشــتهرت على مــر العصور بتســمية أخرى ، اذ يطلق عليها البعض (((فينيسيا) الشرق الاقصى)) ،

نظرا للشبه الكبير بين المدينتين من حيث كثرة عدد القنوات التي تتخلل كلا منهما ، والتى تقوم مقام الشوارع — وان كانت سلطات تايلاند قد عمدت فى السنوات الاخيرة الى ردم اكثير من هذه القنوات ورصف شوارع فسيحة مكانها ، تمشيا مع عصر السرعة فى وسائل الانتقال من ناحية ، ولزيادة العناية بالصحة العامة من جهة اخرى .. والاسم الذى يطلقونه على هذه القنوات بلغة البلاد هو (كلونجز) .

السوق العائمة .. وسوق اللصوص !

لكن هذه السلطات لم ولن تفرط فى اكبر واشهر قنوات العاصمة التايلاندية ، وهى القنوات التى تقوم فيها اعجب واطرف سوق من نوعها فى العالم باسره : «السوق العائمة» .. وسأحدثك عنها ، وعن السوق الاخرى العجيبة المسماه « سوق اللصوص » ، فى موضع آخر ..

و ٩٠ فى المائة من سكان تايلاند من أهل البلاد ، اما العشرة فى المائة الباقية فهى موزعة كالآتى : (٤ر٣) فى المائة صينيون . و (٤ر٣) هنود ومن رعايا الملايو . وال (٢ر٣) الاخيرة تضم مختلف الجنسيات الاخرى سواء من الشرق أو من الغرب . **واكثر الجاليات الاوربية عددا فى تايلاند هى الجالية الدنمركية (اذ توجد بين البلدين صلات تجارية قديمة وعديدة) .** والجالية التى تليها هى الجالية الانجليزية ، ثم الجالية الامريكية (التى يتزايد عدد افرادها باستمرار منذ نهاية الحرب الاخيرة ، ولاسيما بعد انضمام تايلاند الى حلف جنوب شرق آسيا ، الذى يطلق عليه « سياتو ») .

مطاط .. وقصدير .. وجوز هند

وتنقسم اراضى تايلاند الى اربع مناطق رئيسية :

المنطقة الشمالية الشرقية ، وهى عبارة عن سهل فسيح منبسط .

والمنطقة الشمالية ، وتتخللها الجبال ، والقنوات . والوديان ، والغابات .. وبها بعض الصناعات الخفيفة .

ثم **المنطقة الجنوبية** التى تمتد الى شبه جزيرة الملايو ، وهى شريط رفيع من الارض يتوسطه « عمود فقرى » من الجبال . وتتميز هذه المنطقة بمناظرها الطبيعية الخلابة ، وغاباتها التى تنتج المطاط ، وجوز الهند ، والنباتات الاستوائية .. ثم أرضها الغنية بمناجم القصدير . ورغم ان طقسها اقل حرارة من طقس العاصمة (بانجكوك) ــ التى تقع فى الشمال منها ــ الا ان الرطوبة فيها مرتفعة ، والامطار غزيرة ، سيما فى شهر سبتمبر من كل عام ، حيث يهطل فى اكثر الايام ..

اما المنطقة الوسطى من تايلاند ، التى تتوسطها العاصمة (بانجكوك) ، فهى منطقة سهول ووديان ، يشقها نهر « شاو فيا » ــ وهو النهر الرئيسى فى البلاد ــ وتتفرع منه مئات القنوات ..

« البات » .. أو « التيكال » !

والعملة فى تايلاند يطلق على وحدتها الرئيسية « بات » ــ وان كانت التسمية الامريكية الشائعة منذ الحرب الاخيرة هى « تيكال » ــ وقيمة « البات » أو « التيكال » اقل من قرشين مصريين ، أو نحو ١٧ مليما . (فالجنيه الاسترلينى يساوى ٥٨ «بات» ، والدولار ٢١ « بات ») . وينقسم « البات » الى ١٠٠ « ساتانج » .

ثلاث عواصم سابقة .. قبل (بانجكوك)

والآن ، تعال نلم بطرف من تاريخ هذا البلد البعيد الذي نهم بزيارته :

كان شعب تايلاند يعيش فى القرن السابع الميلادى فى منطقة فسيحة من جنوب شرقى الصين ـ الى الجنوب من وادي نهر (يانجتسى) ـ حيث أسسوا لأنفسهم فى عام ٦٥٠ م مملكة (نانشاو) المستقلة . فلما غزت جحافل « كوبلاى خان » تلك المملكة ، عام ١٢٥٣ ، هاجرت نسبة كبيرة من أهلها ، على نطاق واسع ، نحو الجنوب ، متجهين جنوب الارض التى عرفت يومئذ باسم (سيام) ، وتعرف الآن باسم (تايلاند) .. واستقر المهاجرون فى وادى نهر (شاو فيا) الخصيب ، حيث اسسوا **العاصمة الاولى لمملكتهم الجديدة واطلقوا عليها (سوكهوتاى)** ـ وقد أطلق عليها فيما بعد « مهد الحضارة التايلاندية » .

وأشهر حكام سوكهوتاى كان الملك « راما خامهنج » (سنة ١٢٧٥ ميلادية) الذى كان بطلا وطنيا ، والذى ادخل ابجدية اللغة التايلاندية .

وفى عام ١٣٥٠ أسس الأمير « راما تيبودى » سلالة ملكية جديدة ، ونقل عاصمته الى **مدينة (أيودهيا) ، التى ظلت عاصمة للبلاد نحو ٤١٧ عاما ، تعاقب خلالها على حكم البلاد ثلاثة وثلاثون ملكا** .. حتى سقطت (أيودهيا) فى يد قوات بورما ، (عام ١٧٦٧) ، وكادت ان تدمر تدميرا شاملا .

وخلال تلك المعارك فر قائد من قواد الجيش يدعى « فيا تاك سين » ، ومعه خمسمائة من أتباعه .. فلم يمض عام حتى توج ملكا والف قوة استطاع بها ان يطرد الغزاة من العاصمة (ايودهيا) ، ثم **اسس عاصمة جديدة لملكه فى**

(دهونبورى) ـ وكان موقعها يواجه العاصمة الحالية (بانجكوك) ، عبر النهر .

وخلف الملك « تاك سين » واحد من قواد جيشه يدعى « شاو فيا شاكرى » ، وقد نصب نفسه ملكا باسم « راما الأول» ، **وأسس العاصمة الحالية (بانجكوك) عام ١٧٨٢** ، وما زالت سلالته المعروفة باسم « شاكرى » تحكم تايلاند الى اليوم .

ثورة ١٩٣٢ ، غيرت نظام الحكم

كانت (تايلاند) تحكم حكما ملكيا مطلقا حتى يوم ٢٤ يونية عام ١٩٣٢ ، حين تزعم عدد من ضباط الجيش ـ يؤيدهم بعض المدنيين البارزين ـ ثورة أرغمت الملك «براجادهيبوك» على التسليم للبلاد بنظام دستورى للحكم ، وضع السلطة التشريعية فى يد جمعية وطنية مؤقتة يختار نصف اعضائها بالانتخاب ، والنصف الآخر بالتعيين .

وفى عام ١٩٣٥ ، تنازل الملك «براجادهيبوك» عن العرش ، فخلفه ابن اخيه الملك « اناندها ماهيدول » ، الذى اغتيل فى ٩ يونية ١٩٤٦ ، (حين وجدوه قتيلا ، برصاصة فى جبهته .)

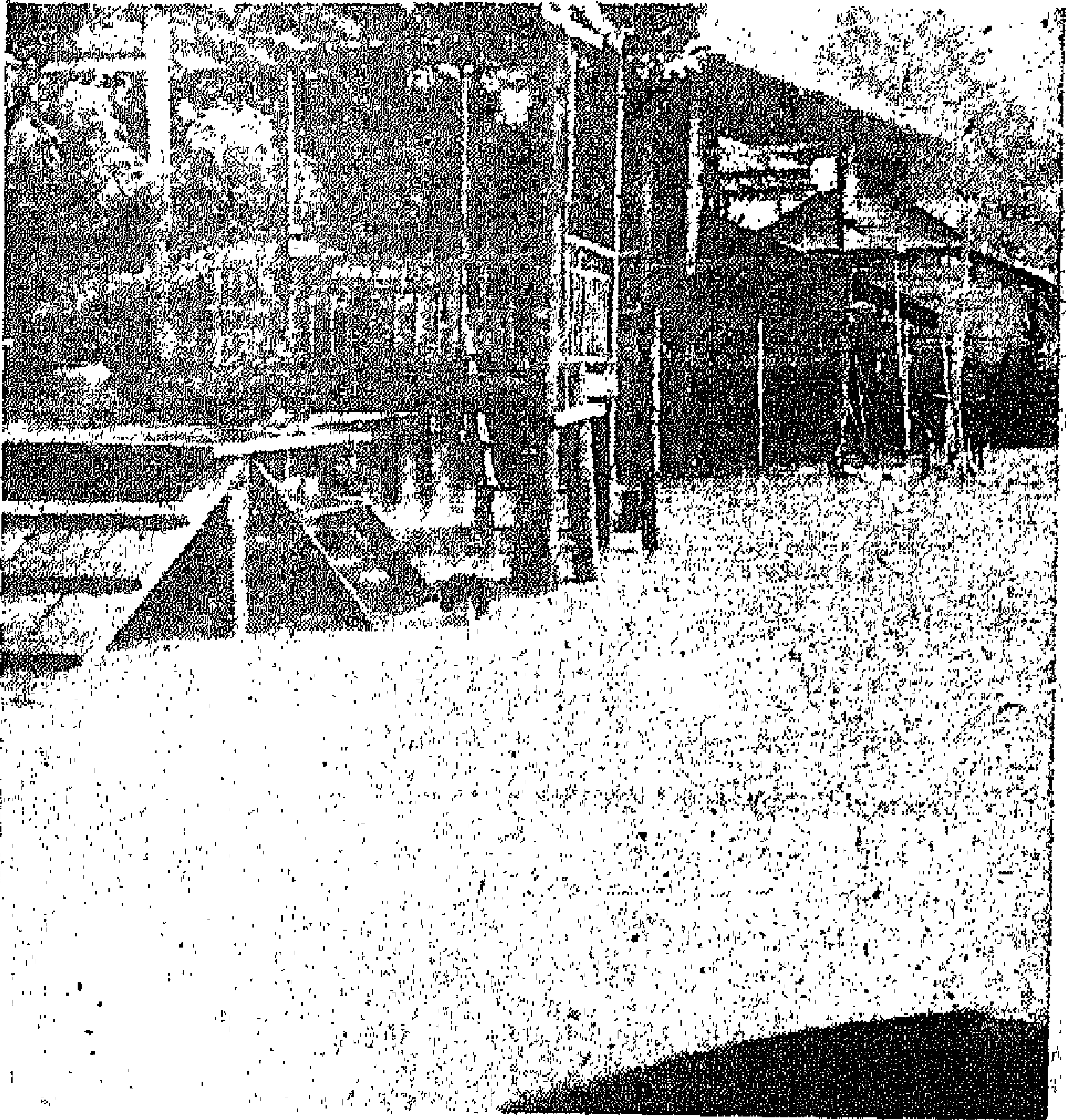
اما الملك الحالى « بهوميبول أدولياديج » ، فقد ولد فى مدينة كمبريدج بولاية (ماساشوسيتس) الامريكية فى ٥ ديسمبر ١٩٢٧ . وفى عام ١٩٤٩ تزوج من الملكة « سيريكيت » (التى تعتبر اجمل ملكات العالم فى الآونة الحاضرة !) .. وللملكين الآن ثلاث بنات وولد واحد ، هو ولى العهد الامير « فاجيرا لونجكورن » ، الذى ولد فى ٢٨ يوليو عام ١٩٥٢ .

والحكومة التى تحكم تايلاند فى هذه الايام اختيرت بواسطة

الحزب الثورى الذى استولى على السلطة فى ٢٠ اكتوبر ١٩٥٨ ، وتتلخص اهدافه التى أعلنها يومئذ فيما يلى :

١ ـ ادخال اصلاحات ادارية بعيدة المدى ، لتحقيق النزاهة فى اداة الحكم .

٢ ـ تحقيق الاستقرار فى الاقتصاد الوطنى ورفع



فتاة هبطت لتستحم تحت منزلها ، فى احدى قنوات بانجكوك (فنيسيا الشرق الاقصى) ، ويبدو راسها عند طرف السلم فى يسار الصورة .

مستوى معيشة الشعب عن طريق حسن استغلال وتطوير موارد البلاد الطبيعية الوفيرة .

وخلال العامين اللذين انقضيا منذ ذلك التاريخ ، وضعت خطط بعيدة المدى ، لتحقيق هذه الاهداف . وفى انتظار



تملأ شوارع (بانجكوك) سيارات التاكسى اليابانية ذات الثلاث عجلات ، وهى مفتوحة الجوانب بلا نوافذ ، تناسب طقس البلاد الحار . وترى سائق التاكسى واقفا بجوار سيارته الظريفة ، وفى يده صحيفة يومية .

وضع الدستور الدائم للدولة ، ألف مجلس مؤقت ، من اعضاء معينين ، ليقوم باختصاص السلطة التشريعية .

وتايلاند عضو فى الامم المتحدة ،وهناك فى بانجكوك اكثر من مقر رئيسى لمنظمات تنتمى الى هيئة الأمم .. كما ان حلف جنوب شرق آسيا (سياتو) ـ الذى تشترك تايلاند فى عضويته ـ يتخذ بانجكوك مقرا رئيسيا له .

واحسب فى هذا القدر الكفاية ليعطيك فكرة سريعة مبدئية عن (تايلاند) بصفة عامة ، قبل ان أروى لك مشاهداتى فيها بالتفصيل ، حين نصل اليها ..

والآن ، لنبدأ رحلتنا معا ، من أولها :

فى الطريق الى روما ..

.. **الطائرة** النفاثة منطلقة من القاهرة فى طريقها الى روما ، بسرعة تقرب من الألف ميل فى الساعة .. وقد جاوزت الساعة التاسعة ، من ذلك الصباح المشرق ..

.. ولم اكد أفك عن خصرى حزام المقعد وأسام التطلع من النافذة المجاورة الى منظر البحر ـ الابيض ـ الرتيب ، ثم ـ حين ارتفعت الطائرة اكثر ـ الى منظر السحب التى فرشت تحتنا بساطا من القطن المندوف .. حتى تناولت من حقيبتى الصغيرة «أطلسا» حديثا للعالم ، أحضرته معى ، ورحت أتابع عليه خط سير الرحلة البعيدة التى أنا مقدم عليها ..

ولم أملك نفسى من الاحساس بشعور يخالطه شىء من الرهبة والوحشة !

مالى ولهذه المغامرة التى انتزعتنى من بيتى فى القاهرة ،

لتعلقنى هكذا بين الارض والسماء .. ثم تحملنى الى اقصى الشرق ، الى طوكيو .. ومنها الى اقصى الشمال ، الى (الاسكا) ، بلاد الاسكيمو ، والمنطقة القطبية ! .. ثم تعود فتهبط بى من القطب الى كوبنهاجن ، فدوسلدورف ، وفيينا ، واثينا ، فالقاهرة !

.. وأفقت من تأملاتى فى خريطة العالم الذى أتأهب ل «غزوه» ! .. فأخذت اقلب الصفحات التالية من الأطلس الذى فى يدى ، واذا فى آخره فصل رائع ، يجمع الكثير من الاحصاءات الشائقة عن هذا الكون العجيب الذى نعيش فيه !

ورحت أقرأ فيه هذه الحقائق التى أنقلها اليك فيما يلى ، بغير ترتيب :

دوران الارض

تدور الارض فى مدارها حول الشمس بسرعة ٦٦٧٠٠ ميل فى الساعة .. فتتم دورة كاملة حول الشمس كل ٣٦٥ يوما ، و ٥ ساعات ، و ٤٨ دقيقة ، و ٤٦ ثانية !

وتدور الارض حول محورها (نفسها) بسرعة اكثر من ألف ميل فى الساعة ، فتتم دورة كاملة كل ٢٣ ساعة ، و ٥٦ دقيقة .

مقاييس الارض

عمرها ((المقدر)) : ٢ « بليون » (مليون مليون) سنة ، على الأقل !

وزنها : ٦ « سكستليون » و ٦٦٠ « كوينتليون » طن !

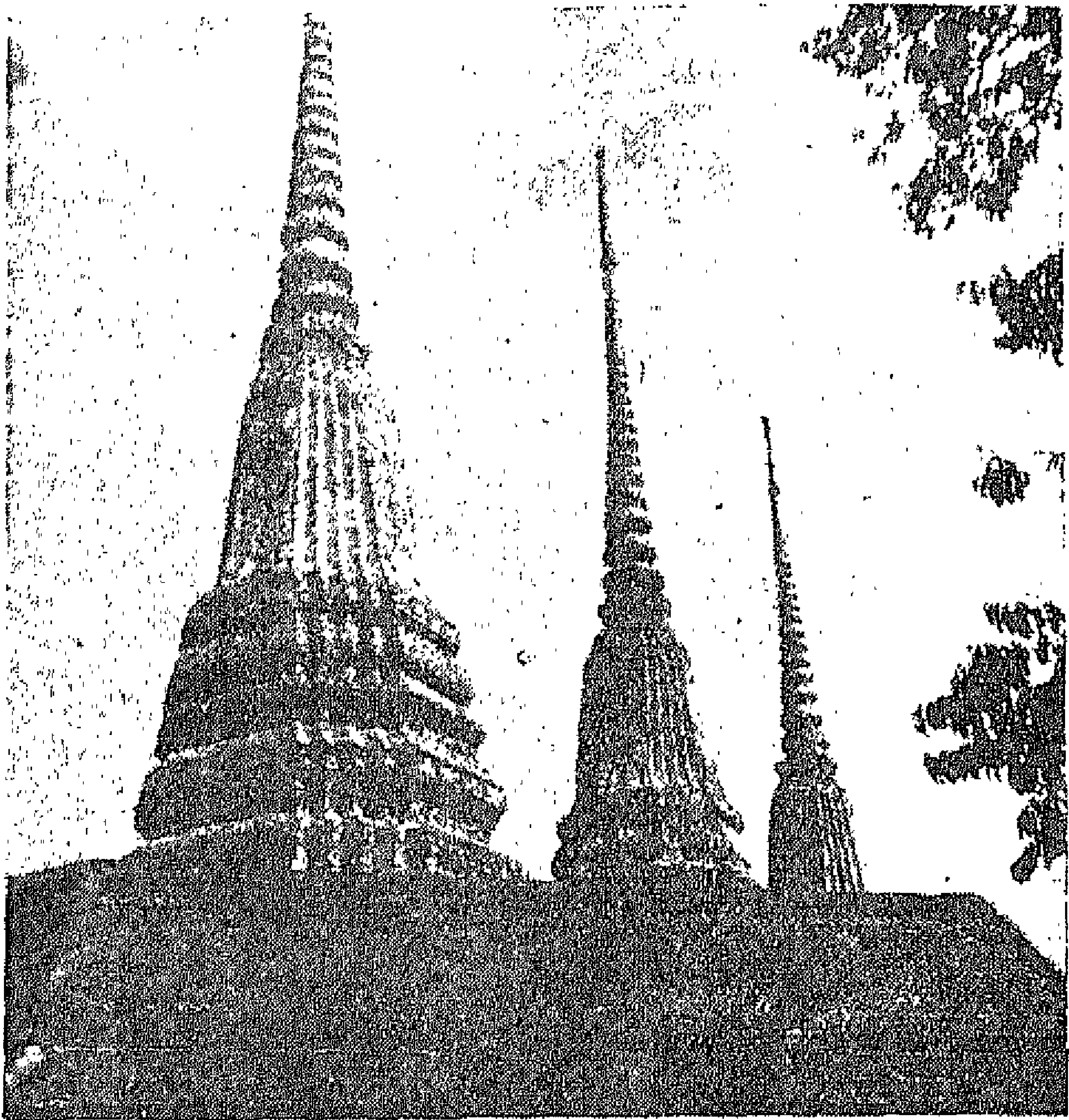
مساحتها : ١٩٦ مليونا و ٩٤٠ الفا و ٤٠٠ ميل مربع .

مساحة ((البر)) فيها ، (بما فى ذلك الانهار والبحيرات

الداخلية ، مع استثناء منطقتى القطبين) : ٥٢ مليونا و ١٢٥ الف ميل مربع .

قطرها الاستوائى : (بين الشرق والغرب) ٧٩٢٦ ميلا .

قطرها القطبى : (بين الشمال والجنوب) ٧٨٩٩ ميلا .



فى بانجكوك ، المدينة ذات الاربعمائة معبد ، ترى الكثير من هـــذه الابراج المدببة الطرف ـ (حتى لتكاد تثقب كبد الغمام) ـ ويبدو فى هذه الابراج التى تعلو جميع المعابد البوذية ، جمـــال فن المعمار التايلاندى ، ذى الطابع الفريد فى نوعه .

معدل قطرها : ٧٩١٨ ميلا .
محيطها الاستوائى : ٢٤٩٠٢ من الاميال .
محيطها القطبى : ٢٤٨٦٠ من الاميال .
الفرق بين المحيطين : ٤٢ ميلا .



((بوفيه)) شركة الطيران السكندنافية ، فى جانب من قاعة الطعـــام الفسيحة بمطار روما الجديد الفاخر الذى اطلقوا عليه اسم الفنان الخالد ((ليوناردو دافنشى)) . وقد شيدت واجهة القاعة (المطلة على ارض المطار) باكملها من الزجاج السميك ، كما ترى فى يسار الصورة

سكانها .. وسطحها

ويبلغ العدد الاجمالى لسكان الارض نحو ۲٫٦۲۰٫۰۰۰٫۰۰۰ نسمة ، (اى بمتوسط كثافة قدره خمسون نسمة فى الميل المربع) .

واعلى قمة فوق سطح الارض هى قمة (افرست) ، فى جبال (نيبال) بالصين ، ويبلغ ارتفاعها ۲۹٫۰۲۸ قدما فوق سطح البحر .

واكثر بقاع الارض انخفاضا هى شاطىء البحر الميت ، بالاردن ،وتنخفض عن سطح البحر بمقدار ۱۲۸٦ قدما .

واعمق نقطة فى قاع المحيطات هى (شالنجرديب) ، جنوبى (جوام) ، بالمحيط الهادى . ويبلغ عمقها ۳٥٦٤۰ قدما تحت سطح البحر .

مقاييس الحرارة والامطار بها

اعلى درجة حرارة سجلت فى بقعة من العالم هى ٥٨ درجة مئوية . فى بلدة (العزيزية) — فى ليبيا ، بشمال افريقيا — وكان ذلك يوم ۱۳ سبتمبر عام ۱۹۲۲ .

واقل درجة حرارة سجلت فى العالم هى ٦٧ درجة مئوية تحت الصفر ، فى جهة (فيرخويانسك) بصحراء سيبريا الجليدية ، وكان ذلك فى يومى ٥ ، ٧ فبراير عام ۱۸۹۲ .

واعلى متوسط للحرارة على مدار السنة ، هو ۳۰ درجة مئوية ، وذلك فى (مصوع) باقليم اريتريا ، و (جيبوتى) بافريقيا .

اما اقل متوسط سنوى للحرارة فهو ۳۰ درجة مئوية

تحت الصفر . وذلك فى (ايسميت) بمنطقة (جرينلاند) . وتقع بين خطى عرض ٥٤ ــ ٧٠ ، وخطى طول ٤٠ ــ ٤٢ .

واغزر نسبة لسقوط الامطار هى ٤٦ بوصة خلال ٢٤ ساعة ، وقد هطلت ليلة ١٤ ــ ١٥ يوليو عام ١٩١١ فى (باجيو) بمنطقة لوزون من جزر (الفيليبين) .

ومن الارقام القياسية ــ التالية لهذا الرقم من حيث غزارة سقوط الامطار ــ ما حدث فى (شيرابونجى) بالهند ، حين هطل اكثر من ١٥٠ بوصة من الامطار خلال خمسة ايام متوالية من شهر اغسطس عام ١٨٤١ . ثم هطل فى نفس المنطقة فى شهر واحد (هو يوليو من عام ١٨٦١) مقدار ٣٦٦ بوصة . هذا ويبلغ المعدل السنوى لسقوط الامطار فى (شيرابونجى) المذكورة ٤٢٦ بوصة .

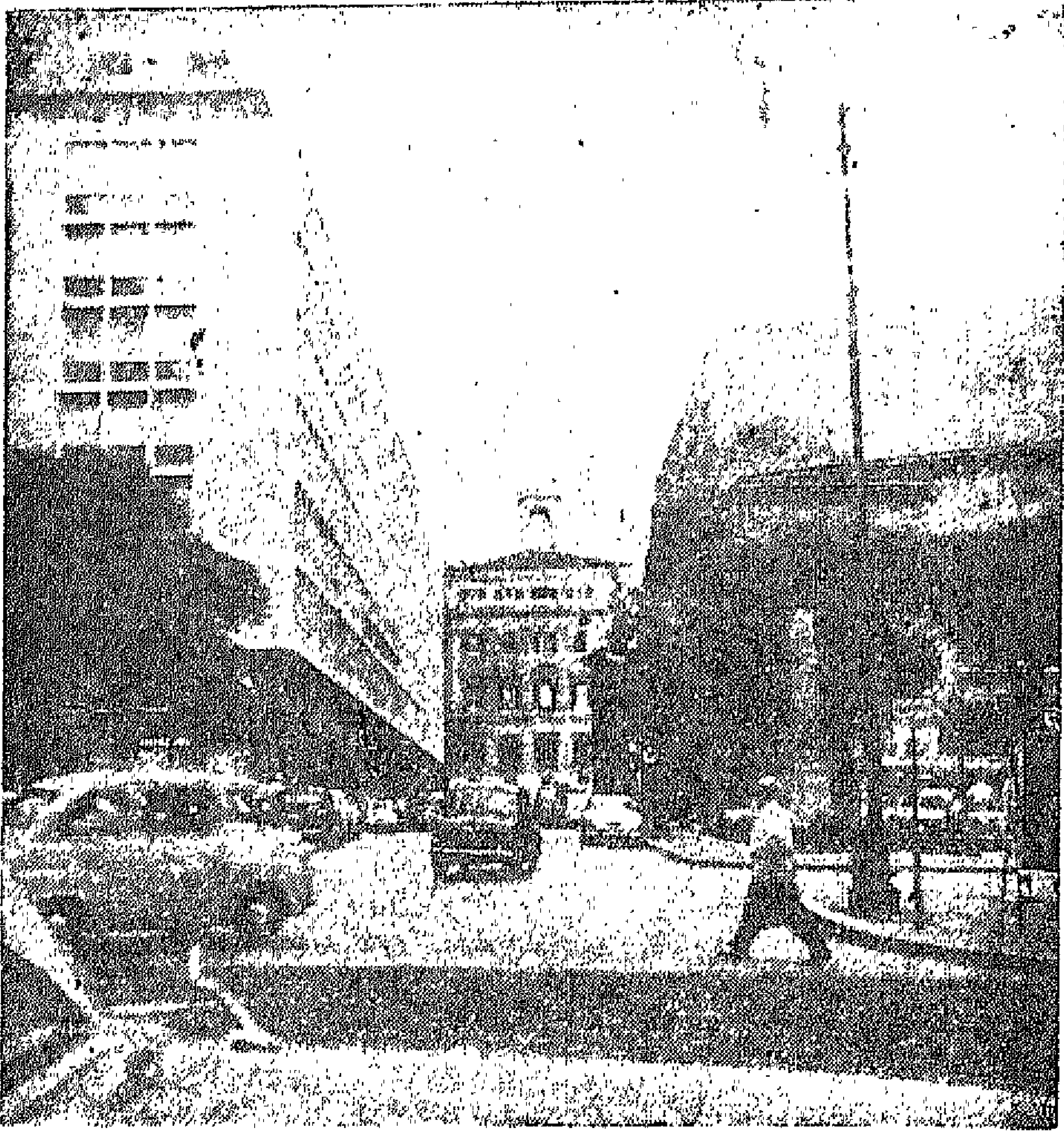
مقارنات طريفة .. بين القارات

وفيما يلى سلسلة من الاحصاءات المقارنة بين مختلف قارات الارض ، من حيث : المساحة ، وعدد السكان ، وكثافتهم فى الميل المربع ، ومتوسط الارتفاع ، واقصاه ، وادناه :

ولنبدأ بالمقارنة **من حيث المساحة** : فأكبر القارات جميعا قارة آسيا ، اذ تبلغ مساحتها ٠٠٠ر٠٣٥ر١٧ ميل مربع .. وتليها قارة افريقيا (٠٠٠ر٦٣٥ر١١ ميل مربع) .. ثم امريكا الشمالية (٠٠٠ر٤٣٥ر٩ ميل مربع) .. فأمريكا الجنوبية (٠٠٠ر٨٦٠ر٦ ميل مربع) .. ثم المناطق القطبية (٠٠٠ر١٠٠ر٥ ميل مربع) .. فأوربا (٠٠٠ر٨٥٠ر٣ ميل مربع) .. واخيرا استراليا (٥٨١ر٩٧٤ر٢ ميل مربع) .

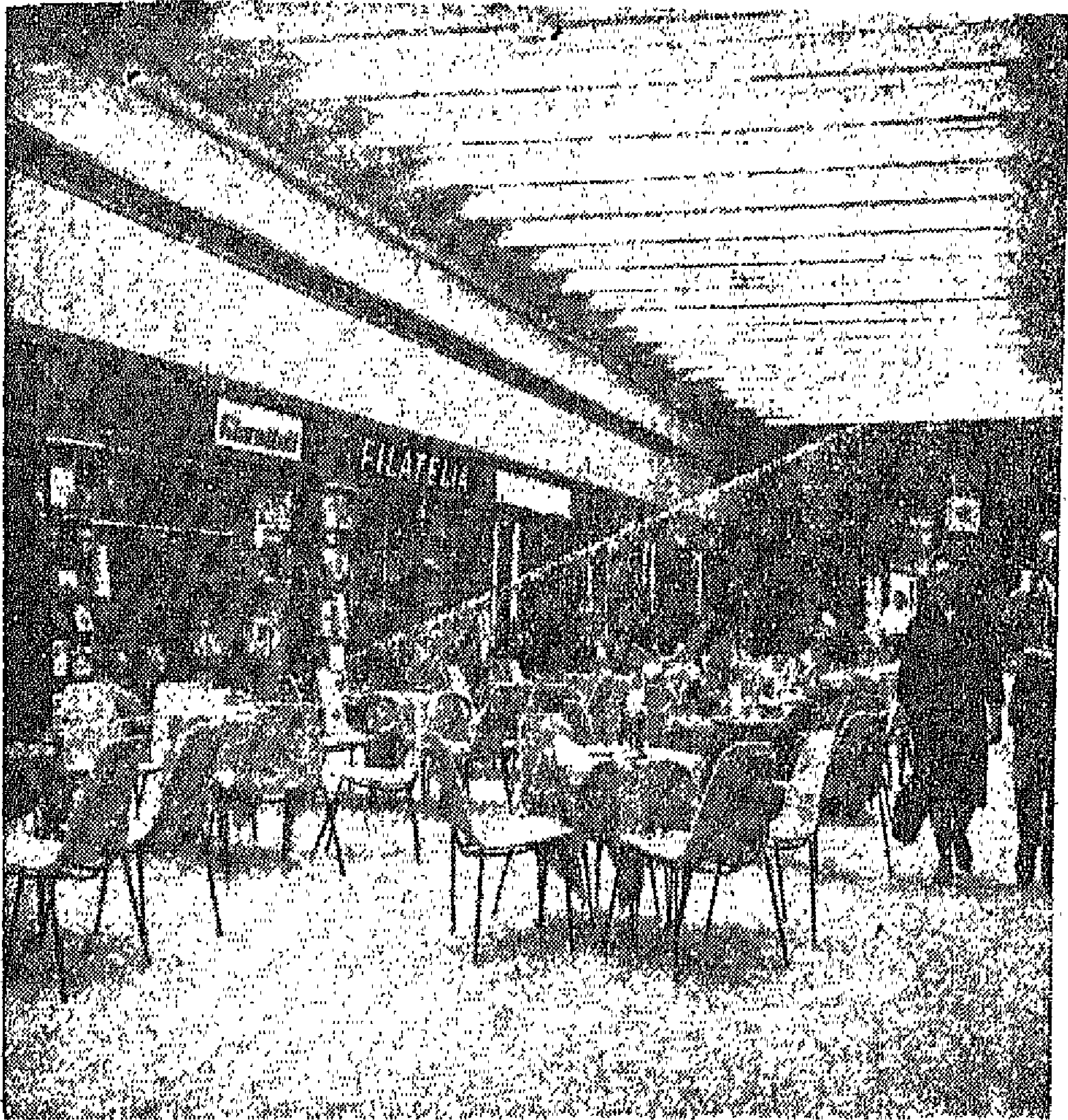
أما من حيث **تعداد السكان** ، فيبلغ عدد سكان آسيا

والمصدر الذى انقل عنه هذه الاحصاءات مطبوع عام



فى قلب مدينة (روما) تبدو هذه المفارقة الصارخــــة بين المبنى الاثرى القديم ، الى اليمين ، والمبنى العصري المشيد على احدث طراز فى مواجهته الى اليسار ! .. وكل شىء فى روما يتميز بهذه المفارقة الشاسعة بين القديم والحديث .

١٩٥٧) ...ر٦٠٠ر٤٩٣ر١ نسمة ـ (بكثافة قدرها ٨٨ نسمة فى الميل المربع) ـ ويليها فى عدد السكان أوربا (التى يجىء ترتيبها السادسة من حيث مساحة الارض !) فيبلغ تعدادها ...ر٣٠٠ر٥٥٣ نسمة ـ (بكثافة ترتفع الى ١٤٤



فى ممر «مسقوف» فاخر بين عمارتين من عمائر (روما) ، اقيم هذا المقهى الانيق ، تحف به من الجانبين عشرات الحوانيت والمكتبات ..

نسمة فى الميل المربع) .. ثم أمريكا الشمالية (٢٢٩٫٧٠٠٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة قدرها ٢٤ نسمة فقط فى الميل المربع .. فأفريقيا (٢١١٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة تنخفض الى ١٨ نسمة فى الميل المربع) .. فأمريكا الجنوبية (١١٨٫١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة قدرها ١٧ نسمة

فى الميل المربع) .. وأخيرا استراليا (٨٫٨٧٦٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة قدرها ٣ فقط فى الميل المربع !) .. أما المناطق القطبية، فغير مأهولة بالسكان .. وبالتالى فكثافتها : صفر !

واما من حيث المرتفعات والمنخفضات فى كل قارة ، ومتوسطها ، فتجيء آسيا فى المقدمة أيضا ، اذ توجد بها اعلى قمم العالم ــ كما أسلفنا ــ وهى قمة أفرست بجبال (نيبال) بالصين ، (٢٩٠٢٨ قدم) ــ كما توجد بها أدنى بقاع الارض انخفاضا ، وهى شاطيء البحر الميت (١٢٨٦ قدما تحت سطح البحر) .

ويلي آسيا فى مجال المرتفعات **امريكا الجنوبية** ، حيث توجد بها قمة جبل (أكونكاجوا) بالارجنتين (٢٢٨٣٥ قدما) .. فى حين لا يوجد بها أى منخفض يقل عن مستوى سطح البحر .

.. ثم **امريكا الشمالية** ، وبها قمة جبل ماكينلى فى (الاسكا) ، ويبلغ ارتفاعها ٢٠٢٦٩ قدما ، يقابلها فى الانخفاض (وادى الموت) ــ « ديث فالى » ــ بكاليفورنيا ، الذى يهبط الى ٢٨٢ قدما تحت سطح البحر .

اما **افريقيا** ، فأعلى قممها هى قمة جبل (كيليمانجارو) فى تنجانيقا (١٩٥٦٥ قدما) .. يقابلها منخفض القطارة فى مصر (٤٤٠ قدما تحت سطح البحر) .

ثم تليها **(اوربا)** ، حيث يبلغ ارتفاع جبل (ايلبروس) ــ فى الاتحاد السوفييتى ــ ١٨٤٨٠ قدما .. يقابلها بحر قزوين ــ فى الاتحاد السوفييتى أيضا ــ الذى ينخفض عن مستوى البحر بمقدار ٨٥ قدما .

وقد يدهشك ان **بالمنطقة القطبية** قمة يبلغ ارتفاعها ١٥١٠٠ قدم ، هى قمة جبل (ماركهام) .. فى حين لا توجد بها اية منخفضات عن سطح البحر .

واستراليا دائما فى المؤخرة : فأعلى قممها — وهى قمة جبل (كوزكيسكو) — لا يزيد ارتفاعها عن ٧٣٠٥ أقدام .. كما ان أدنى منخفضاتها لا تهبط الى اكثر من ٣٩ قدما تحت سطح البحر ، وهى بحيرة (اير) .

مدن العالم الخمسين الكبرى

والاحصاء الاخير المقارن الذى أورده لك فيما يلى ، لايقل طرافة وأهمية عن الاحصاءات السالفة ، وهو ينصب على بيان تعداد سكان اكبر خمسين مدينة من مدن العالم ، حسب ترتيبها من حيث عدد السكان ، (وقد أورد الاحصاء أمام اسم كل مدينة رقمين : أولهما عدد سكان المدينة ذاتها ، فى اضيق الحدود .. والرقم الثانى — المعول عليه — هو عدد سكان المدينة بجميع ضواحيها) .. وفيما يلى قائمة مدن العالم الخمسين الكبرى ، وقد جاء ترتيب (القاهرة) فيها ، السادسة والعشرين ، (وأعود فأكرر ان المصدر الذى اورد هذا الاحصاء مطبوع فى سنة ١٩٥٧) :

نيويورك : ٨٠٥٠ر٤٢٥ (١٣٨٦٥ر٣٨٤)
لندن : ٣٣٤٣ر٥٦٢ (٩٨٣٥ر٣١٩)
طوكيو : ٥٣٨٥ر٠٧١ (٨٤٠٠ر٥٢٧)
موسكو : ٥١٢٥ر٠٠٠ (٧٢٥٠ر٥٢٢)
باريس : ٢٨٥٠ر١٨٩ (٦٦٥٠ر٠٠٠)
شنغهاى (الصين) : ٦٢٠٤ر٠٠٠
شيكاغو : ٣٧٦٠ر٨١٧ (٥٦٢٥ر٩٦٥)
بوينس ايرس (الارجنتين) : ٣٣٤٤ر٢٠٣
(٥١٣٥ر٠٠٠)
لوس انجلوس (امريكا) : ٢١٧٥ر٥٣٤ (٥٠١٨ر٢٨٥)
اوزاكا (اليابان) : ١٩٥٦ر١٣٦ (٤٤٢٥ر٠٠٠)

لنينجراد (الاتحاد السوفييتى) : ٣٫٦٧٥٫٢٣٩
(٤٫٢١٢٫٨٧٥)
برلين (الغربية ، المانيا) : ٢٫١٩١٫٤٧٥ (٣٫٩٠٢٫١٩٨)
كلكتا (الهند) : ٢٫٥٤٨٫٦٧٧ (٣٫٧٥٠٫٠٠٠)
فيلادلفيا (الولايات المتحدة) : ٢٫١٤١٫٧٠٠
(٣٫٥٧٥٫٨٦٤)



فى ميدان (ايزيدرا) المشهور بمدينة روما ، الذى تتوسطه نافورة من اجمل نافورات المدينة العريقة ، خططت هذه العلامات البيضاء العريضة لتحدد احد اماكن عبور المشاة .

اسن (المانيا الغربية) : ٦٦٧ر٨٥٠ (٢٢ر٣٢٢ر٥٢٥ر٣)
ريو دى جانيرو (البرازيل) : ٢ر٣٦٦ر٣٧٢
(٣ر٠٧٥ر٠٠٠)

مدينة المكسيك (المكسيك) : ٢ر٢٣٣ر٩١٤
(٣ر٠١٥ر٠٠٠)
بومباى (الهند) : ٢ر٨٣٩ر٢٧٠
بيكين (الصين) : ٢ر٧٦٨ر٠٠٠
تيين تسين (الصين) : ٢ر٦٩٤ر٠٠٠
بوسطن (الولايات المتحدة) : ٨٠٥ر٢١٥ (١١٢ر٥٧٥ر٢)
سان فرانسيسكو (الولايات المتحدة) : ٧٨٠ر٣٨٠
(١٤٧ر٣٢٥ر٢)
مكدن (الصين) : ٢ر٢١٣ر٨١٢
سان باولو (البرازيل) : ٢ر١٩٧ر٣٦٠
القاهرة : ٢ر٠٩٠ر٦٥٤
هونج كونج (الصين) : ٨٥٢ر٣١٠ (١ر٩٨٢ر٠٠٠)
فيينا (النمسا) : ١ر٦١٦ر١٢٥ (١ر٩٠٠ر٠٠٠)
همبورج (المانيا الغربية) : ١ر٧٣٥ر٦١٠
واشنجطن (الولايات المتحدة) : ٨٦٠ر٢٤٧
(١ر٧٢٥ر٠٠٠
روما (ايطاليا) : ١ر٦٥٧ر٥٨٨
كليفلاند (الولايات المتحدة) : ٩٣٥ر٢٩٤ (١ر٦٣٠ر٠٠٠
سيدنى (استراليا) : ٢١٣ر١٨٥ (١ر٦٢١ر٤٤٥)
تشو نكنج (الصين) : ١ر٦٢٠ر٠٠٠
كانتون (الصين) : ١ر٦١٤ر٢٠٠
جلاسجو (انجلترا) : ١ر٠٨٣ر٤٣٢ (١ر٦١٢ر٠٠٠)
بودابست (المجر) : ١ر٥٩٥ر٣٠٠

برمنجهام (انجلترا) : ١ر١١٨ر٥٢٤ (١ر٥٥٢ر٣٠٠)
مدريد (اسبانيا) : ١ر٥٢٧ر٨٩٤
برشلونة (اسبانيا) : ١ر٢٧٦ر٦٧٥ (١ر٥٢٥ر٠٠٠)
بتسبرج (الولايات المتحدة) : ٦٨٠ر٤٢٦ (١ر٥١٥ر١٣٨)
مانيلا (الفيليبين) : ٩٨٣ر٩٠٦ (١ر٥١٠ر٢٧٥)
هانكاو (الصين) : ١ر٥٠٠ر٤١٧
ميلانو (ايطاليا) : ١ر٢٦٨ر٩٩٤ (١ر٥٠٠ر٠٠٠)
منشستر (انجلترا) : ٧٠١ر٨١٣ (١ر٥٠٠ر٠٠٠)
سيول (كوريا الجنوبية) : ١ر٤٤٦ر٢١٩)
دلهى (الهند) : ٩١٤ر٧٩١ (١ر٤٢٥ر٠٠٠)
مدراس (الهند) : ١ر٤١٦ر٠٥٦

وعند هذا القدر ، دعنا نطوى هذا الأطلس الطريف ، لنربط حزام المقعد ، ونتأهب لهبوط الطائرة فى روما ..
والى العدد القادم ..

حلمى مراد

رجال "أرامكو"



تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التي تؤخذ من المناطق التي تحتوي على الزيت داخل الارض هامة جدا . وتظهر هذه المعلومات الحالات التي بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت في باطن الارض .

والسيد عبد الرحمن سليمان العجاجي هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الالات ومعرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر في الصورة .

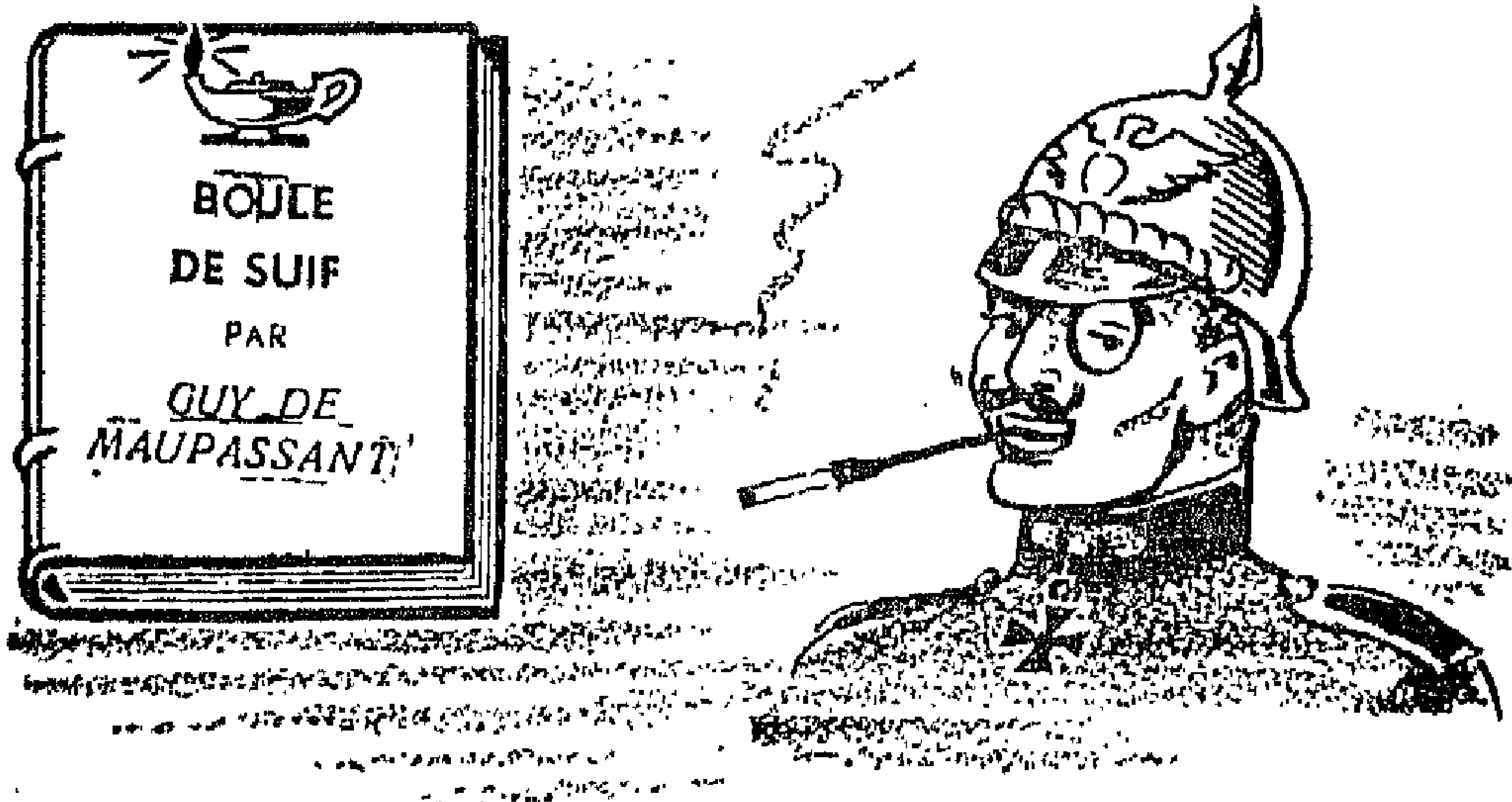
وقد التحق السيد عبد الرحمن في شركة ارامكو في عام ١٩٤٨ ، فعمل في فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم في مراكز فرز الغاز من الزيت حتى أصبح مشغلا أعلى خارج الورشة . وفي اوائل هذا العام عاد الى العمل فأصبح مشرفا بقياسات الحرارة والضغط .

وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين في بلدة ظرما في نجد . وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها في مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن أخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على أعمال تسجيل الحرارة والضغط في حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة في هذا الباب .

أرامكو : شركة الزيت العربية الأمريكية

الظهران - المملكة العربية السعودية



الشرف..؟!

"بول دي سويف"

القصة التي تكشف أدق ما في طبيعة الفرنسيين

لأمير القصة الفرنسية : جي دي موباسان



عزيزى القارىء :

ما أحسبك تجهل الكاتب القصصي الفرنسي « **جى دى موباسان** » ، فهو من أبرز أقطاب القصة .. وقد قدم لك «**كتابى**» بعض تحفه ، اذكر منها «شالى» (**العدد ١٥**) ، و « فرانشيسكا فى سوق الهوى » (٤٠) ، و « العانس » (٥١) .. كما قدمت لك « **مطبوعات كتابى** » روايته الرائعة « **حياة امرأة** » في عدديها **الخامس والسادس** .

والقصة التى اقدمها لك — فى هذه المرة — من اول انتاجه ، ومن المبدعات التى اذاعت صيته .. ولكنى لا اقدمها لك لقيمتها القصصية فحسب ، وانما .. **لأنها تعطيك أجلى وأصدق صورة لفرنسا التى تبطش اليوم بشعب الجزائر العربى الأصيل ، لانه يطالب بحريته ، بينما كانت تنصاع ذليلة ، مهينة ، تحت اقدام الالمان ، فى اكثر من مرة فى التاريخ الحديث .. تفرط لهم فى كل شىء ... حتى الشرف !**

ومع أن « بول دى سويف » تعنى « **كرة الدهن** » ، وكانت تطلق على البطلة للسخرية ، الا اننى آثرت استبقاءها لان لها رنين الاسماء .. ولأنها اكتسبت شهرة الاسماء عند قراء الادب .

كانت فلول الجيش الفرنسى تجتاز شوارع مدينة (روان) ، متقهقرة مبعثرة ، وقد ارتسمت على جباه جنودها آيات العناء والأعياء ، وبدت لحاهم مشعثة مرسلة ، وثيابهم مهلهلة ، وهم مشتتون فى كل صوب ، لا يجمعهم علم ، ولا

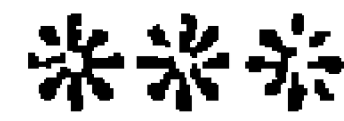
تضمهم كتيبة ، ولا تقوى أبدانهم على مواصلة السير . حتى اذا توقفوا يلتمسون بعض الراحة ، كانت اقـدامهم تخونهم فيسـقطون متخاذلين !

وما انقضى الهزيع الاخـير من الليل ، حتى كانت البقية الباقية من جند فرنسا قد اختفت هاربة امام طلائع الألمان .. **وما لبثت المدينة أن اقفرت وخيم عليها سكون رهيب ، وهى تنتظر فى هلع قدوم الفاتحين .**

حتى اذا تقدم النهار قليلا ، طلع على المدينة بضعة جنود من فرقة الفرسان الألمانية ، واخترقوا شوارعها مسرعين . ثم اقبلت ـ بعد قليل ـ كتيبة مدرعة من ناحية (سـانت كاترين) . . تلتهاكتيبتان من ناحيتى (دارنتال) و (بواجيلوم) . ومالبث السيل الألمانى أن تدفق ـ بعد ذلك ـ فى كل شواع المدينـة ، وارتفع صوت الخطوات المنتظمـة للجنود وهى تدق على احجـار الطريق . وراحت العيون المـذعورة ـ بينذاك ـ ترقب ، من وزاء النوافذ الموصدة ، أولئك القوم الظافرين .

ثم مالبث الألمان أن اخذوا يطرقون على الناس ابوابهم ، ويدخلون عليهم بيوتهم . **فهذا هو الاحتلال بعد الغزو ، حيث يبدأ واجب المقهورين فى ان يكونوا كراما نحو القاهرين ! ..** وراح ضباط الغزاة يأكلون على موائد كثير من الأسر ، فما مضى بعض الوقت حتى بدات الحيـاة تدب فى المدينـة من جديد . . ولم يحن اليوم التالى ، حتى فتحت المتاجر أبوابها ، واسـتأنف الناس معـاملاتهم ، وجرت الأمور فى مجراهـا المعتاد . . بل لقـد تجرأ بعض التجـار ـ الذين كانت لهم مصالح فى مدينة (الهافر) ـ على أن يطلبوا من الفـاتحين اذنا بالسفر الى هذه المدينة ، التى كانت بعد فى يد الجيش

الفرنسى..وتوسلوا لذلك ببعض الضباط الألمان الذين سبق لهم ان استضافوهم على موائدهم ، فحصلوا على اذن بالسفر من القائد العام .



ومن ثم اعد المسافرون عدتهم للسفر ، فى اليوم التالى ، بعربة تجرها الخيول . فلما كانت الساعة الرابعة من فجر ذلك اليوم ، اجتمعوا فى فناء فندق (نورمانديا) استعدادا للسفر . وكان النعاس يملأ عيونهم ، والبرد يفرى أجسامهم .. ومنا كان الواحد منهم ليتبين وجه أخيه فى الظلام الدامس . حتى اذا أقبلت العربة أخذوا مجالسهم فيها صامتين .

وبدات العربة رحلتها فى بطء ، وراحت عجلاتها تغوص فى الجليد المتراكم ، فيسمع لها صوت كتفكك الأوصال .. وعلا تنفس الخيل ، والبخار يخرج من خياشيمها ، والسائق يفرقع سوطه مستحثا اياها .. حتى بدأ الفجر يرسل ضياءه ، واخذ المسافرون ينظر بعضهم الى بعض ، ويتفحص كل منهم الآخر فى الضوء الخافت :

ففى اقصى العربة ، كانت تجلس **مدام ((لوازو))** ، ويجلس قبالتها زوجها **مسيو ((لوازو))** ، وهو رجل طويل القامة ، ضخم الجسم ، أحمر الوجه ، منتفخ الأوداج ، تكتنف عارضيه لحية كثيفة ، وكان من كبار تجار النبيذ فى شارع (جرانيو) .. وقد جلس بجواره **مسيو ((كاريه ليمادون))** ، وهو من طبقة ارفع مقاما وأعلى مرتبة ، وكان عضوا بالمجلس الأعلى ، وحاملا لوسام ((اللجيون دونير)) ، وقد ظل طوال عمر الامبراطورية رئيسا لحزب المعارضة .. **اما زوجته فكانت صغيرة السن مضيئة الوجه ، ويقال انها**

كانت سلوة ضباط حامية (روان) ، وقد جلست غارقة فى قرائها ، تنظر بأضطراب الى من حولها ..

اما جارهم **الكونت ((هيوبرى دى بريفيل))** ، فكان اسمه من اعرق الأسماء وانبلها فى (نورمانديا) ، وهو اشيب الشعر ، فاره الطول ، يقلد فى ملبسه الملك «هنرى الرابع» .. وكان كذلك عضوا فى المجلس الأعلى .. وقد جلست بجانبه زوجته الكونتة ، فى ترفع ووقار .

وكان اولئك الستة الجالسون فى اقصى العربة ، يمثلون اشراف القوم ذوى المبدأ والدين..وكانت السيدات الثلاث متجاورات ، **تتلوهن فى المقعد راهبتان تقلبان بين اصابعهما حبات مسبحتين ، وهما مستغرقتان فى الصلاة** .. وكانت احداهما كبيرة السن كثيرة التجاعيد ، والثانية رقيقة البنية ، جميلة الطلعة ، ناصعة البياض .

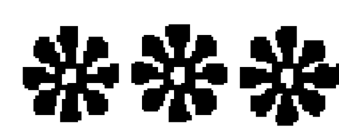
وكان يجلس أمام الراهبتين رجل وامرأة استرعيا انظار الجميع .. أما الرجل ، فهو شخص يدعى **مسيو كورنيديه** .. وكان عدو الأرستقراطية الألد ، وقد أضاع ثروة طائلة ورثها عن أبيه ، ومن ثم اخذ ينتظر بفارغ الصبر أن تحل الجمهورية محل الأمبراطورية ، حتى ينال الوظيفة التى يصبو اليها منذ أمد بعيد !

واما المراة فكان لقبها **((بول دى سويف))** .. وكانت غانية غضة الفصن ، ملفوفة الأعطاف ، موردة الوجنتين ، ذات عينين سوداوين ، وفم جميل ، وشفتين قرمزيتين تفريان بالتقبيل. فما كاد يعرفها القوم ، حتى بدأت النسوة الشريفات يتهامسن بعبارات قاسية ، طرق سمعها منها كلمات الزنا والفضيحة والعار .. **فرفعت راسها ونظرت اليهن فى جراة واستخفاف !** .. وماعتم الحديث ان اتصل

بين النسوة الثلاث ، وقد قرب بينهن وجود هذه المراة ، فجعلهن صديقات حميمات .

أما الرجال الثلاثة ، فما رأوا « كورنيديه » ، حتى اخذوا فى فنون متشعبة من الحديث ، متكلمين عن المال بلهجة الأغنياء الذين يحتقرون الفقر والفقراء .. فتحدث « الكونت دو بريفيل » عما كلفه غزو الألمان من خسائر فادحة ، وان لم تكن تؤثر فى ثروته الطائلة.. وراح مسيو «كاريه ليمادون» — وهو من اساطين صناعة القطن — يروى كيف احتاط للأمر ، وبعث بستمائة ألف من الفرنكات الى انجلترا لتكون هناك فى مأمن من أى سوء . وقال مسيو « لوازو » أنه باع كل ماكان يملك من تبيذ ردىء النوع الى الحكومة الفرنسية ، وانه من ثم يداينها بمبلغ طائل ، يأمل أن يتقاضاه فى (الهافر) .

وراحوا يديرون الحديث معا فى مودة واخاء ، فبالرغم من ان لكل منهم طريقة فى الحياة ، فانهم كانوا يشعرون بأنهم اخوان فى المال !



وكانت العربة — بينذاك — تسير ببطء شديد ، حتى انهم ، وقد بلغت الساعة العاشرة صباحا ، لم يكونوا قد قطعوا اكثر من أربعة فراسخ . ومن ثم فقد بداوا يقلقون ، لأنه كان من المفروض أن يتناولوا غداءهم فى مدينة (توت) ، وقد تبين لهم أنهم لن يستطيعوا بلوغها قبل المساء . واخذ كل منهم يتطلع الى الخارج عسى أن يجد فندقا فى الطريق ، الا أن العربة مالبثت ان انغرست فى كوم من الثلج ، فلم تستطع ان تواصل السير الا بعد ساعتين من العناء والجهد .

وشعروا بالجوع يفرى أحشاءهم ، وما من أحد فى الطريق

يجدون لديه شـيئا من الطعـام أو الشراب ، **فان الجيش الفرنسي الجـائع أتى على كل شيء وهو يفر أمام جحـافل الألمان !**

وقال « لوازو » أنه يدفع الف فرنك ثمنا لقطعة من لحم الخنزير . وقال الكونت أنه يشعر بجوع قاتل ، ولا يدرى كيف غفل عن أن يحضر طعاما معه . وكان مع « كورنيديه » زجاجـة نبيذ ، فقـدم منها للقوم ، فرفضوا فى فتور ، الا « لوازو » . فقـد أخذ منها جرعة ثم ردها شـاكرا . أما الراهبتان ، فقـد خبأتا ايديهما فى ثنايا اردانهما الواسعة ، وجلستا صامتتين لاتأتيان حركة ، وقد غضتا من بصرهما . **وكانت ((بول دى سويف)) ـ اثناء كل ذلك ـ لاتفتا تنحنى بين وقت وآخر ، لتنظر شيئا يستره الثوب عند قدميها .**

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ، حين وصلوا الى سهل فسيح لاتأتى على حدوده العين ، ولايقع فيه البصر على قرية أو كوخ . وعند ذلك ، انحنت «بول دى سويف» الى الأمام ، وتنـاولت من تحت المقعد سـلة كبيرة مغطاة ؛ واخرجت منها طبقا من الخزف وكوبا من البلور ، ثم ربطة كبيرة بهـا دجاجتان كاملتـان وفاكهة وحلوى ، وقد بدت تحت اللفافات أعناق اربع زجاجات من النبيذ . . فاقتطعت جناح دجاجة ، واخذت تاكله برشاقة مع قطعة صغيرة من خبز نورماندیا الشهير .

ومن ثم أصبحت محط الأنظار . واخذت رائحة الطعـام تفوح فى جو العربة ، حتى امتلأت بها الخيـاشيم ، وجرى الريق متدفقـا فى الأفواه . وهنـا كان احتقـار النسوة الشريفات لهذه المرأة الساقطة بالغا أشده ، حتى خيل اليهن ان يقتلنها أو يقذفن بها خارج العربة هى وكوبتها وسـلتها ، وما تحتويه من طعام . الا أن ((لوازو)) مالبث ان قال وهو

يكاد يفترس الدجاجة بمينيه : « ما أبدع هذا !.. ان سيدتى أكثر حذرا منا جميعا ! »

فرفعت اليه رأسها قائلة : « هل يتفضل سيدى بمشاركتى الطعام ؟ » .. فحياها قائلا : « بكل سرور يا سيدتى ! » . وألقى على الجميع نظرة ثم قال : **((انه لمن حسن الطالع — فى مثل هـذا الوقت العصيب — أن يجد الانسـان من يأسره باحسانه))** .

وبسط صحيفة كانت معه على ركبتيه ، وأخرج من جيبه مدية واقتطع فخذا من الدجاجة ، فوضعه بين أنيابه ، وأخذ يمضغه بتلذذ واطمئنان . وعند ذلك علت فى جو العربة تنهدات يأس عميق !

والتفتت بول دى سـويف الى الراهبتين ، وسألتهما — بصوت متواضع النغمة ، رقيقها — أن تشاطراها الطعام ، فقبلتا على الفور .. **ودون أن ترفعا بصريهما بدأتا تأكلان مسرعتين ، بعد ان تمتمتا عبارات الشكر** . وكذلك لم يرفض كورنيـديه دعوة جارته . وما لبث لوازو — وهو منهمك فى التهام الطعام — أن مال على زوجته وطلب اليها بصوت منخفض أن تحذو حذوه ، الا انها قاومت طويلا ، حتى اعترتها فى النهاية رعدة شديدة من الجوع ، فأذعنت بالقبول !

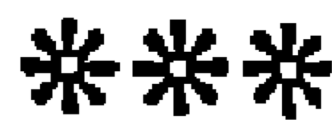
واضطرب القـوم حين رأوا الزجاجة الأولى من نبيـذ (بوردو) يفض ختمها . ولم تكن ثمـة غير كوبة واحـدة ، فتداولها الجميع بعد غسلها كل مرة .

وآلم منظر هؤلاء القوم — وهم يأكلون ويشربون — الكونت والكونتة ومسيو كاريه ليمادون وزوجتـه وهم جيـاع .. **وفجأة ، شهقت مدام ليمادون شهقة عالية ، لفتت اليها أنظار الجميع ، وأصبح وجهها ابيض كالثلج ، وأغمضت عينيهـا وطأطأت رأسها ، ثم فقدت شعورها** .. فجن جنون زوجها ،

ودعا القوم لمعاونته، فارتبكوا جميعا .. الاان كبرى الراهبتين اخذت راس المريضة بين يديها ، وافرغت فى فمها جرعات من خمر « بول دي سويف » ، فما لبثت أن فتحت عينيها، وقالت انها الآن أحسن حالا . فطمأنتها الراهبة قائلة : « انك بخير . وانما هو الجوع الذى فعل ذلك ! » .

فارتبكت « بول دي سويف » وعلا وجهها احمرار الخجل، ونظرت الى الأربعة الذين لم ياكلوا قائلة : « يا الهى . هل يمكنني أن أقدم اليكم ــ أيها السادة ــ شيئا من الطعام ؟ » .. فترددوا جميعا ولاذوا بالصمت . الا أن الكونت لم يلبث أن التفت الى الفتاة الخجلة ، وقال بلهجة السيد العظيم : « اننا نقبل دعوتك مع الشكر يا سيدتى » .

وهكذا ، لم يمض قليل من الوقت حتى كانت السلة قد افرغت من كل محتوياتها .



وما كان من الممكن أن يأكلوا من طعام الفتاة دون أن يجاذبوها اطراف الحديث ، فبدأوا يتكلمون معها متحفظين فى بادىء الأمر .. ثم لم يلبثوا أن تبسطوا معها فى القول . وكانت الكونتة رشيقة شيقة الحديث ، أما مدام لوازو فبقيت متحفظة .

وكانت الحرب بالطبع مدار حديثهم ، فتكلموا عن فظاعة الألمان ، وعن شجاعة الفرنسيين . وقصت «بول دى سويف» ــ فى حرارة وانفعال ــ كيف تركت مدينة (روان) قائلة : « كنت أعتقد ــ فى بادىء الأمر ــ انني استطيع البقاء فى المدينة ، ولكنني حين رأيت أولئك البروسيين ، صار شعوري أقوى من عزيمتى ، وغلى دم الغضب فى عروقى، وبكيت حزنا وخجلا طول يومي .. حتي اذا جاء واحد منهم للإقامة عندي،

وثبت على عنقه ، وكدت أخنقه ، لولا ان حالوا بيني وبينه .. وكان محتما ــ بعد ذلك ــ أن أختفى ، فلما سنحت الفرصة اقتنصتها .. وها أنا ذى ! »

فهنأها القوم كثيرا ، وارتفع قدرها فى نظرهم . **وكان ((كورنيديه)) ينظر اليها وهى تتحدث ، وابتسامة السرور والاعجاب لا تفارق شفتيه .**

ثم جاء الليل ، وخيم الظلام ، واشتد البرد ، حتى بدأت « بول دى سويف » ترتعد ، فقدمت لها الكونتة مدفأتها التى ما برحت تغذيها بالفحم منذ الصباح .

وأشعل السائق مصابيح العربة ، فما كان يتراءى على ضوئها الا تلال الثلج المتتابعة ، حتى بدت أخيرا ــ على البعد ــ أضواء مدينة (توت) . وما هى الا لحظات ، حتى دخلوها ، وانتهى بهم السير الى « فندق المسافرين » .

ولم يكد باب العربة يفتح ، حتى سمع القوم صوتا بعث الرعب فى قلوبهم جميعا .. **وكان ذلك صوت ضابط المانى يقول لهم : ((انزلوا جميعا !))**

وبدأت الراهبتان بالنزول مذعنتين، شأن من اعتاد الامتثال امام النوائب . ثم تبعهما الكونت والكونتة ، ثم «ليمادون» وزوجته ، وبعد ذلك مسيو لوازو وزوجته .. **وقد حيا ((لوازو)) الضابط فى تأدب ، فلم يرد عليه ، وانما نظر اليه فى صلف واحتقار** . ومع أن « بول دى سويف » و«كورنيديه» كانا أقرب الجماعة الى باب العربة ، فانهما نزلا آخر القوم ، وهما يبديان الكبرياء والأنفة أمام ذلك العدو . وقد اجتهدت « بول دى سويف » أن تحكم نفسها وتضبط عواطفها .

ودخلوا جميعا قاعة الفندق ، وراح الضابط يطلع على ما بأيديهم من الجوازات المؤشر عليها من القائد العام . حتى اذا استوثق من صحتها ، استدار منصرفا فى عجرفة وجفاء .

فتنفس القوم الصعداء ، وطلبوا طعام العشـــاء . . ولكنهم ما لبثوا قليلا حتى أقبل صاحب الفندق وصاح منـاديا : « مدموازيل اليزابيث روسيه ! » .. **فارتعدت بول دى سويف ، والتفتت اليه قائلة : ((نعم يا سيدى)) .**

فقال لها : « ان الضـابط البروسى يريد محادثتك » .

وفكرت هنيهة . ثم قالت : « ماذا يريد منى ؟ . . اننى لن اذهب اليه »

فالتفت الجميع حولها فى اهتمام ، وتقدم اليها الكونت قائلا : « انك مخطئة يا سيدتى ، فلربما تسبب عدم ذهابك فى متاعب عظيمة . . ليس لك وحدك ، بل لنا جميعا . لاينبغى ابدا مقاومة الأقوياء ! »

وانضم الباقون الى الكونت ، وراحوا يرجونها أن تذهب ، ويحثونها على ذلك ، حتى اذعنت فى النهاية قائلة : «انما أذهب استجابة لرغبتكم فقط ! » . . فأخذت الكونتة يدها قائلةلها: « ونحن نشكرك على ذلك »

***

وخرجت . . وظلوا هم ينتظرونهـا فى قلق ، حتى عادت اخيرا وهى محتقنة الوجه ، تكاد تنفجر غيظا وحنقا ، وقـد راحت تدمدم : « ياله من نذل . . ياله من نذل ! »

وسألوها عن جلية الأمر ، فأبت أن تجيب ، فجلسوا حول المائدة ، وراحوا يأكلون ويثرثرون . حتى اذا فرغوا من عشائهم ، ناموا الى مضـاجعهم ، وقد أخذ التعب منهم كل مأخذ .

ولما دخل « اوازو » غرفة نومه ، وآوت زوجته الى سريرها ، **راح يسترق النظر ــ خلال ثقب الباب ــ الى الغرفة المجاورة ، فرأى ((بول دى سويف)) فى رداء النوم تغادر غرفتهـا ..** حتى اذا عادت بعد قليل ، رأى كورنيديه يتبعها ، وهى تدفعه

بعنف عن حجرتها ، وقد راحا يتبادلان عبارات خافتة . ثم ما لبث ان ارتفع صوتهما .. اذ قال كورنيديه لها : « انك لحمقاء حقا .. فماذا يجديك هذا التمنع وما الداعى اليه ؟ » .. وأجابته : « أى عار تريد أن تدفعنى اليه ؟ .. أهذا يجوز، وفى الدار اولئك الالمان اللاعين ؟ »

وعندئذ سكت كورنيديه ، وقد تملكه الحياء . ومال على يدها فقبلها ، ثم انفلت الى غرفته فى حذر ، وساد السكون الدار .

ولما كان القوم قد اتفقوا فيما بينهم ، على أن يتابعوا سفرهم فى الساعة الثامنة صباحا ، فقد اجتمعوا — قبيل الفجر — فى قاعةالطعام . ولكن العربة كانت قائمة فى فناء الفندق بلاخيل، وقد علتها طبقة من الثلج .. ولم يبد للسائق أثر ، فراحوا يبحثون عنه فى كل مكان ، حتى عثروا عليه أخيرا فى حانة البلدة . فقال له الكونت : « ألم نصدر أمرنا اليك باحضار العربة فى الساعة الثامنة ؟ » . فأجابه فى برود قائلا : « نعم . ولكن صدر لى أمر آخر بعدم احضارها ! »

وعاد الكونت يسأله : « ومن أصدر اليك هذا الأمر ؟ » . فقال : **« أصدره لى صاحب الفندق بأمر الضابط الالمانى ! »**

فعادوا حائرين ، وسألوا عن صاحب الفندق ، فأخبرتهم الخادم بأنه لا يستيقظ من نومه — بأى حال من الأحوال — قبل الساعة العاشرة .. فانتظروا مرغمين . وما دقت الساعة العاشرة ، حتى جاء صاحب الفندق . فسألوه عن جلية الأمر ، فأجابهم قائلا : «لقد قال لى الضابط الالمانى الا ادعكم ترحلون الا بأمره ! »

فأبدوا رغبتهم فى مقابلة الضابط .. وارسل اليه الكونت بطاقته ، وكتب عليها « ليمادون » اسمه وكل القابه . **فجاء جواب الضابط بانه يسمح لهذين السيدين بمقابلته ،**

ولكن بعد ان يتناول غداءه ، ولم يكن يفعل ذلك الا فى الساعة الواحدة ! .. فلما جاء ذلك الوقت ، أقبل خادم الضـــابط يدعوهما لمقابلة سيده ، فانضم لوازو اليهما ، وحاول ثلاثتهم أن يضموا اليهم كورنيديه ليشد أزرهم ، ولكنه قال بكبرياء أنه لا يريد أن تكون له أية علاقة بالألمان !

***

ومن ثم صعد الثلاثة الى غرفة الضابط ، وهنالك وجدوه مضطجعا على مقعد وثير ، وقد وضع قدميه على حافة المدفأة ، وراح يدخن فى قصبة طويلة من العاج . فلما اقتربوا منه ، نظر اليهم دون أن يقف لهم أو يحييهم ، قائلا فى غطرســـه : « ماذا تريدون ؟ » .

فقال الكونت : « نريد السفر يا سيدى » .. واذا به يقول : **((كلا . لن تسافروا !))**

فارتبكوا ، وقال الكونت : « اننى ألفت نظر سيدى ــ بكل احترام ــ الى أن القائد العام هو الذى صرح لنا بالذهاب الى مدينة (دييب) .. ولا أظن أننا أتينا عملا يغضبك » . فأجاب قـائلا : « كل ما فى الأمر أننى لا أريد .. ويمكنــكم الآن أن تنصرفوا » .

فانحنوا وخرجوا .. وقضوا بقية اليوم فى حيرة وغم ، دون أن يقدر لهم أن يفهموا سر هذه الرغبة الألمانية . وراحوا يتناقشون ويفترضون كل الفروض عن سبب استبقائهم هذا : فهل يريدون أسرهم ؟ .. هل يريدون فرض ضريبة عليهم ؟ .. هل يحكمون عليهم بغرامة فادحة ؟

حتى اذا جاء ميعاد العشاء ، وجلسوا حول المائدة ، أقبل صاحب الفندق وقال بصوت مرتفع : **((ان الضابط الألمانى يطلب**

من المدموازيل اليزابيث روسيه افادته عما اذا كانت ماتزال مصرة على رأيها الأخير ؟ »

فامتقع لون « بول دى سويف » ، وخنقها الغضب ، ثم صاحت آخر الأمر قائلة : « قل لهذا الوغد الألمانى أننى لن اقبل مطلقا .. أسمعت ؟.. مطلقا ! »

وخرج صاحب الفندق ، فاجتمع القوم حول « بول دى سويف » يسألونها ، ويرجونها أن توضح لهم الحقيقة . فقاومت أول الأمر ، ولكنها ما لبثت ـ أمام شدة رجائهم ـ أن قالت : **« انه يريد منى العار ! »**

فاشمأزوا جميعا .. وحطم كورنيديه كوبته على المائدة ، وقال الكونت أن اولئك الألمان اوغاد لاخلاق لهم . وأبدت النسوة لبول دى سويف تعزيتهن ومواساتهن وملاطفتهن . أما الراهبتان ـ اللتان ما كان أحد ليراهما الا ساعة الطعام ـ فقد غضتا من بصريهما ، دون أن تنبسا بكلمة .

ولم يجلسوا الى الطعام الا بعد أن هدأت ثائرتهم ، وكان حديثهم ـ بينذاك ـ مقتضبا ، وقد راحوا يفكرون . وصعدت السيدات مبكرات الى غرفهن، ثم تبعهن الرجال بعد قليل .. وقضى الجميع ليلتهم كاسفى البال ، مهمومين .. حتى اذا اقترب الفجر ، استيقظوا جميعا وقد صمموا على السفر فى ذلك اليوم . ولكنهم ـ مع الأسف ـ وجدوا الجياد ما زالت فى حظيرتها ، والسائق لا أثر له !

وبدت من القوم جفوة حادة نحو « بول دى سويف » ، فقد أعاد الليل اليهم عقولهم .. **وباتوا يحقدون الحقد كله على هذه الفتاة ، لأنها لم تذهب ـ ولو فى الخفاء ـ لتقابل الضابط الألمانى ، وتنهى مسألة سفرهم !..** وما أهون هذا الأمر عليها ، وقد سبق أن أتته مرارا وتكرارا قبل اليوم !.. ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على التصريح بهذه الأفكار ..

وكان « لوازو » اشد الجميع حنقا ، ولم يكف عن التساؤل عما اذا كانت هذه الفتاة ستقضي عليهم بالمكوث اكثر من ذلك في هـذه القرية .. الا ان الكونت ما فتيء أن قال ـ بلهجته المؤدبة ـ **ان من غير اللائق برجل أن يطلب الى امرأة مثل هذه التضحية .. فان مثل هذه الأمور تجيء من تلقاء نفسها !**

وكان حديث النساء ـ بينـذاك ـ عن الملابس والأزياء ، ولكنهن كن قلقات متوترات . وعلى حين غرة ، ظهر الضابط الالماني بقامته المديدة، ومشيته العسكرية، فانحنى للسيدات، ونظر باحتقار للرجال .. وأخذ القوم يتـكلمون عنه وعن قوامه وملبسه ، فقـالت مدام ليمـادون ـ **وهي الخبيرة بالضباط (!)** ـ انه لاباس به، واسفت على انه ليس فرنسيا، لانه لو كان كذلك لاصبح ضابطا جميلا من ضـباط فرقة الفرسان .



وانصرفوا الى حجراتهم .. ثم نزلوا في الصباح التـالي وقلوبهم مثقلة ، وقد تجنب النسوة « بول دي سويف » ، فلم يوجهن اليها كلمة واحدة .

وفي تلك الأثناء ، دقت أجراس الكنيسة ايذانا بتنصير طفل . وكانت لبول دي سويف طفلة عند مرضعة قروية من (ايفوتو) ، فلقيت فكرة ذلك الطفل ـ الذي يستعدون لتنصيره ـ عطفا شديدا لديها ، وودت ان ترى حفلة العماد في الكنيسة ، فذهبت اليها .

وما اسرع ما نظر القوم بعضهم الى بعض بعد ذهابهـا ، وقاربوا من مجالسهم ، واتفقت كلمتهم على أن يحزموا أمرهم على عزم ما ، فرأى لوازو ان يقترحوا على الضابط **أن يبقى لديه بول دي سويف ما شاءت رغبته فيها ، ويأذن للباقين بالسفر !**

وفعلا كلفوا صاحب الفندق بأداء هذه المهمة . فذهب ، ولكنه ما لبث أن عاد قائلا ان الضابط أبى أن يخاطبه فى الأمر ، وقال أنه يمنعهم جميعا من السفر ما لم تتحقق رغبته .

فانفجرت عند ذلك مدام لوازو قائلة : « اننا لا نريد ان نمكث هنا حتى نموت . **وما دامت تلك صنعة هذه الفتاة الحقيرة ومهنتها التى تحترفها مع الناس جميعا ، بلا تفريق، فليس لها حق فى الامتناع عن هذا دون ذاك** .. وانتم تعلمون جميعا أنها كانت فى (روان) زرعا حلالا لكل الخلق .. حتى الحوذية والمتسولين . ثم تجىء اليوم ـ هذه الفاجرة ـ وتدعى العفاف ؟!.. اننى ارى هذا الضابط قد أتم الله عليه أدبه ، فلعله ولا شك زمن طويل ، حرم فيه النساء . **وها نحن ثلاث سيدات كان يمكنه ان يفضل احدانا على تلك الفتاة ، ولكنه قنع بها احتراما للسيدات المتزوجات !..** ففكروا فى الأمر . انه السيد هنا ، وما عليه الا أن يقول أنا اريد ، ليأخذنا عنوة بقوة جنوده ! »

واقشعرت السيدات الاخريات .. **ولمعت عينا مدام ليمادون ، وقد تخيلت الضابط يغتصبها** . واجتمع الرجال ـ بعد أن كانوا يتباحثون متفرقين ـ واقترح لوازو أن يسلموا تلك الفتاة موثقة اليدين الى الأعداء . ولكن الكونت ـ وهو سليل ثلاثة اجداد كلهم نبلاء ـ لم يوافق على هذا الرأى ، وارتأى من جانبه استعمال المهارة والحيلة ، بدل العنف ، قائلا : « ان علينا ان نجعلها تنهى الأمر طائعة ! » . وجلس الجميع يتآمرون .

والتصقت النساء كل منهن بالأخرى ، واشترك الجميع فى المناقشة . وراح كل يدلى برأيه .. وكانت النساء ـ خلال ذلك ـ يلقين مقذع الكلم وابعده عن الحياء بلهجة ظريفة وتعبيرات

مقبولة ، فلو أن غريبا دخل فى محادثتهن ، لما وعى شيئا مما كن يقلن !.. وكان الكونت يقول الفاحش من الكلام ، ولكن بمهارة تجعل القوم يبتسمون . وقد انتهى الجميع الى الاقتناع بالرأى الذى أبدته مدام لوازو ، وهو انه « **مادامت هذه صنعتها مع كل الناس بلا تفريق ، فلا حق لها فى ان تمتنع عن هذا دون ذاك** » . أما الحسناء ، مدام ليمادون ، فكانت ترى أنها — لو كانت فى مكان هذه الفتاة — لقبلت هذا الضابط الوسيم بلا جدال !



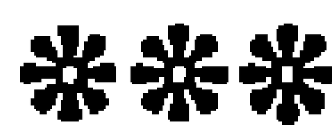
وهكذا راح كل منهم يستعد بفكرته وخطته ، وكأنهم يتاهبون لمهاجمة قلعة محاصرة . وتذرع الجميع بما كانوا يملكون من حيلة ودهاء للايقاع بالفتاة حين رجوعها .. حتى اذا دخلت عليهم بعد قليل ، صمتوا جميعا ، وخيم السكون على القاعة فى انتظار الموقعة القادمة ، ثم مالبثت الكونتة — وهى امهر النسوة — ان قطعت حبل الصمت ، قائلة لها : « اكانت حفلة التنصير سارة ؟ »

وكانت بول دى سويف قد ظلت متأثرة بما رأت ، فقصت عليهم كل شىء ، ثم قالت : « انه لعمل طيب أن يصلى الانسان لربه احيانا ! »

واجتمعت النساء حولها ، ورحن يلاطفنها ليكتسبن ثقتها .. حتى اذا جاء وقت الغداء ، جلس الجميع حول المائدة ، وبدأوا الحديث متكلمين عن الشرف ومعناه . وراحوا يضربون له الامثلة التاريخية ، بادئين بقصة كليوباترا ، وكيف امكنها بمهارتها النسائية ان تقهر أعظم القادة وتخضعهم لها .. ثم سردوا كل قصص **النساء اللاتى تغلبن على فاتحى بلادهن ، متخذات من اجسادهن سلاحا**

للقتال وسبيلا الي الحكم ، ومتذرعات بحسنهن وفتنتهن الى الانة القلوب الغليظة ، وبث الرحمة فى النفوس القاسية .. وكم من شريفة ضحت بعفافها على مذبح الوطنية والاخلاص !

وكانت الراهبتان ـ خلال ذلك ـ صامتتين ، غارقتين فى أفكارهما .. فى حين كانت « بول دي سويف » واجمة ، مسبلة العينين ، لا تنطق حرفا . وقد تركوها ـ طوال فترة بعد الظهر ـ تمعن الفكر والرأى . ولكنهم بدلا من ان يدعوها بالسيدة ـ كما كانوا يفعلون من قبل ـ بدأوا يقولون لها : « يا آنسة! » ، وكأنما أرادوا ان ينزلوها درجة من درجات الاحترام الذى رفعوها من قبل اليه ، وان يفهموها مركزها بينهم .



وما ان بدأ العشاء ، حتى دخل صاحب الفندق وكرر عبارته التى القاها بالامس ، قائلا بصوت مرتفع : «أن الضابط الالمانى يسأل المدموازيل اليزابيث روسيه ، أما زالت مصرة على رأيها الاخير ؟ »

فأجابت بول دى سويف فى جفاء : « نعم ياسيدى ، اننى لم اغير رأيى »

فأسقط فى يد القوم ، وفاه لوازو بكلمات قاسية .. وراح كل منهم يبحث عن مثال جديد يضربه لبول دى سويف . **ولكن الكونتة رأت ان تجىء الفتاة من ناحية الدين ،** فسألت كبرى الراهبتين عما فى تاريخ القديسين من جلائل الاعمال التى تعد فى نظر الناس جرائم كبرى ، ولكن الكنيسة اعتبرتها مغفورة لهم ، لانهم أتوها فى سبيل المجد السماوى ، او في سبيل سعادة الاجيال القادمة . وكان القوم يحسبون

الراهبة حيية خفرة ، ولكنها ما لبثت ان اندفعت فى القول بجراة وجسارة ، وراحت تؤكد صحة هذا القول ، ساردة قصص ذبح « ابراهيم » لابنه « اسحق » ، وتضحية « استير » بشرفها لاسعاد شعبها .. وختمت قولها بأنه **ما من عمل شائن يستوجب غضب الله ، اذا كانت نتيجته محمودة مستحبة .**

وتعلقت الكونتة بكلام هذه الشريكة ، التى ما كانت تنتظر مساعدتها ،وسألتها قائلة : « اذن فانت ترين يا اختاه ان الله يقبل كل الاعمال ، ويغفر كل الخطايا ، اذا كانت الغاية فى ذاتها فاضلة ؟ » .. فأجابتها الراهبة قائلة : « ومن يشك فى ذلك ياسيدتى ؟ .. أى عمل يستوجب اللوم ، خليق بأن يستوجب المدح اذا كان الباعث عليه شريفا ! »

ثم راحت تقص كيف أنها مستدعاة هى ورفيقتها للعناية بمرضى الحرب فى (الهافر) ، حيث مئات من الجنود مصابون بالجدرى ،وانها تتألم لاولئك المرضى الذين يموتون على مهل ، بينما هى محجوزة هنا بارادة ذلك الضابط الالمانى ، وربما كان فى استطاعتها ان تنقذ الكثيرين ، لاسيما انها ماهرة فى معالجة الجدرى على الخصوص ، لانها طالما اعتنت بالمصابين بهذا الداء فى حرب القرم ، وفى النمسا وايطاليا .

***

ولم ينطق أحد بعدها بحرف ، اذ كان تأثير كلامها كبيرا .. حتى اذا انتهى العشاء ، صعدوا جميعا الى حجراتهم .. ولم يبارحوها فى الصباح التالى ، الا بعد ان علا النهار ، وارتفعت الشمس . فتناولوا أفطارهم فى هدوء ، وتركوا

للبذور التى بذروها بالامس الوقت الكافى لتنمو وتثمر ..فى نفس الغانية العاصية ! !

وبعد الظهر ، اقترحت الكونتة ان يمضوا للنزهة . فتناول الكونت ـ كما كان متفقا عليه بينهم ـ ذراع بول دى سويف ، وسار معها فى مؤخرة الجميع ، واخذيحادثها بلهجته الرقيقة ، ويدعوها بأبنته العزيزة ، متنزلا من سامى مقامه الاجتماعى وشريف محتده . ثم مالبث ان طرق الموضوع دفعة واحدة ، قائلا لها : « والآن ياعزيزتى ، هل يرضيك أن نبقى هنا الى ماشاء الله معرضين لكل ما قد يحدث من مواقع حربية ، ومخاطر خفيه ؟ .. **وهل تفضلين ذلك على أن تأتى عملا عاديا طالما اتيته فى ماضى حياتك ، مثل كل امراة من بنات حواء ؟ »**

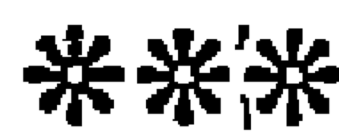
فلم تجب الفتاة . ولكنه ما فتىء يقنعها ويغويها ، وقد جاء لها من طريق اللين والرقة ، ثم من طريق العقل والحكمة ، ثم من طريق العواطف والمشاعر .. وعرف كيف يبقى ـ طول هذا الحديث ـ حافظا لادبه ولباقته ، اذ كان رقيق الحاشية لطيف المعشر .. وراح يردد لها انهم سيبقون مدى حياتهم حافظين يدها شاكرين صنيعها .

الا أن « بول دى سويف » بقيت صامتة ، حتى اذا رجعوا الى الفندق ، صعدت الى حجرتها .. ولم تظهر بعد ذلك . فلما جاء ميعاد العشاء ، انتظروها على غير طائل . وما لبث صاحب الفندق ان اقبل ـ أخيرا ـ وقال: « ان مدموازيل روسيه متعبة قليلا ، ويمكنكم تناول العشاء بدونها »

فرفع الجميع اليه ابصارهم .. واقترب منه الكونت وسأله بصوت منخفض : « هل قضى الامر ؟ » .. فاجابه : « نعم »

ومن قبيل الأدب ، صمت الكونت ولم يقل شيئا لرفاقه، الا انه افهمهم الواقع بأشارة من رأسه . نتنهدوا جميعا تنهد من أزيح عن صدره عبء ثقيل ، وتملكتهم نشوة السرور ، فصاح لوازو: «أنني أقدم لكم جميعا الشمبانيا !». وما لبث أن اقبل صاحب الفندق حاملا أربع زجاجات منها ، فشربوا ، وطربوا ، وعلا الحديث ، وعم الحبور ، ورفع « لوازو » يده الى أعلا وصاح يقول : «سكوتا ! » .. فسكت الجميع . **ورفع عينيه الى سقف الغرفة ، وأرهف أذنيه ، ثم قال : «اطمئنوا ، فكل شيء يسير حسب المرام!»**

فانفجروا جميعا ضاحكين . وراحت النساء يشرن الى مايجرى من الأمر بمهارة فى القول .. ورفع لوازو قدحا من الشمبانيا فى يده ، قائلا : «اشربوا نخب اطلاق سراحنا!». فوقفوا جميعا ، وصفقوا له ..حتى الراهبتان اجابتا رجاء السيدات ، وجلستا تشربان مع القوم .. وعندما انتهوا من حفلهم البهيج ، قاموا وصعدوا الى حجراتهم . وقالت مدام لوازو لزوجها : « **ألم تلاحظ كيف كان ضحك مدام ليمادون مغتصبا طول الوقت ، اذ كانت الغيرة تنهش صدرها ؟** .. فأنك لتعلم أن النساء يستوى لديهن الفرنسى والألمانى ، ما دام يرتدى الثوب العسكرى ! » .



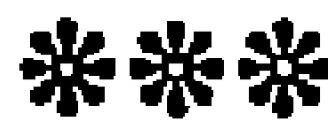
وفى الصباح التالى ، اشرقت شمس الشتاء على الثلج فازداد لمعانا ، وشدت الخيل الى العربة ، ووقفت تنتظر عند باب الفندق .

واعد القوم ــ وهم مغتبطون ــ عدتهم من الطعام لرحلتهم ، ولم يبق الا «بول دى سويف» ، فظلوا ينتظرونها حتى جاءت اخيرا ، وهى مضطربة تعلوها حمرة الخجل .

وتقدمت ـ فى استحياء ـ من رفاقها الذين اداروا عنها وجوههم ، كأنهم لم يروها . واخـذ الكونت بذراع امراته بعيدا عنها ، فوقفت الفتاة مذهولة .. ثم استجمعت مابقى لها من قوة ، ومرت أمام مدام ليمادون محيية اياها بصوت منخفض ، فردت هذه تحيتها بايمـاءة من رأسـها ، وهى **ترمقها بنظرة المرأة الطاهرة التىلحقتها أهانة من عاهرة !..** وابتعد الجميع عنها كأنها تحمل بين ثيـابها عدوى مـرض خبيث ، واندفعوا نحو العربة .

وجاءت هى منفردة ـ فى المؤخرة ـ فاتخذت مجلسها فى سكون .

وبدات العربة رحلتها ، وقد لزموا الصمت فى أول الأمر .. ولم تكن « بول دى سويف » تجرؤ على أن ترفع عينيها، وهى شاعرة أنها مهينة محتقـرة من الجميـع . والتفتت الكونتة الى مدام ليمادون ، وقطعت حبل الصمت بالحديث معها .. وراح مسيو ليمادون يحادث الكونت . كما راح لوازو يلعب الورق مع زوجته .. وتنـاولت الراهبتـان مسبحتيهما الطويلتين ، وأخذتا تتمتمـان بالصـلاة ، وهما ماتفتآن ترسمان علامة الصليب من وقت لآخر .. فى حين كان كورنيديه يفكر فى سكون .



وبعد مسـيرة ساعتين ، جمع لوازو ورق اللعب ، وقال انه يشعر بالجوع . فأخذت زوجته ربطة ملفوفة ، وانتزعت من ثناياها لحما مشويا ، وقطعت منه شرائح قدمتها له ، وراحت تأكل معه .

وقالت الكونتة : « ولم لا نأكل نحن أيضا ؟ » .. فوافقها الجميع،واخرجوا ما أعدوه من طعام .. وحذت الراهبتان

حذوهم . أما ((بول دى سويف)) ، فقد نسيت ــ فى عجلتها وارتباكها ــ أن تجىء معها بشىء من الطعام ، فجلست تنظر الى القوم وهم يأكلون غير مبالين بها .

ومن ثم راحت ترتعد من فرط الغضب والغيظ من أولئك الأوغاد ، الذين ضحوا بها على مذبح منفعتهم ، ثم نبذوها أخيرا كما ينبذ الشىء الشائن المحتقر . ورأت أنهــا ــ من فرط تأثرها ــ تكاد أن تبكى ، فحاولت حبس دموعهــا ، واجهدت نفسها فى ذلك ، كما يفعل الطفل ، ولكن دموعها غلبتها وترقرقت فى مآقيها ، ثم انحــدرت على خديها بطيئة متمهلة ، ثم تتابعت مسرعة مسترسلة . .

وبقيت هكذا تبكى طول الوقت ، ولا أحد يلتفت اليها ، أو يعيرها أى اهتمام !

حوافز الحياة



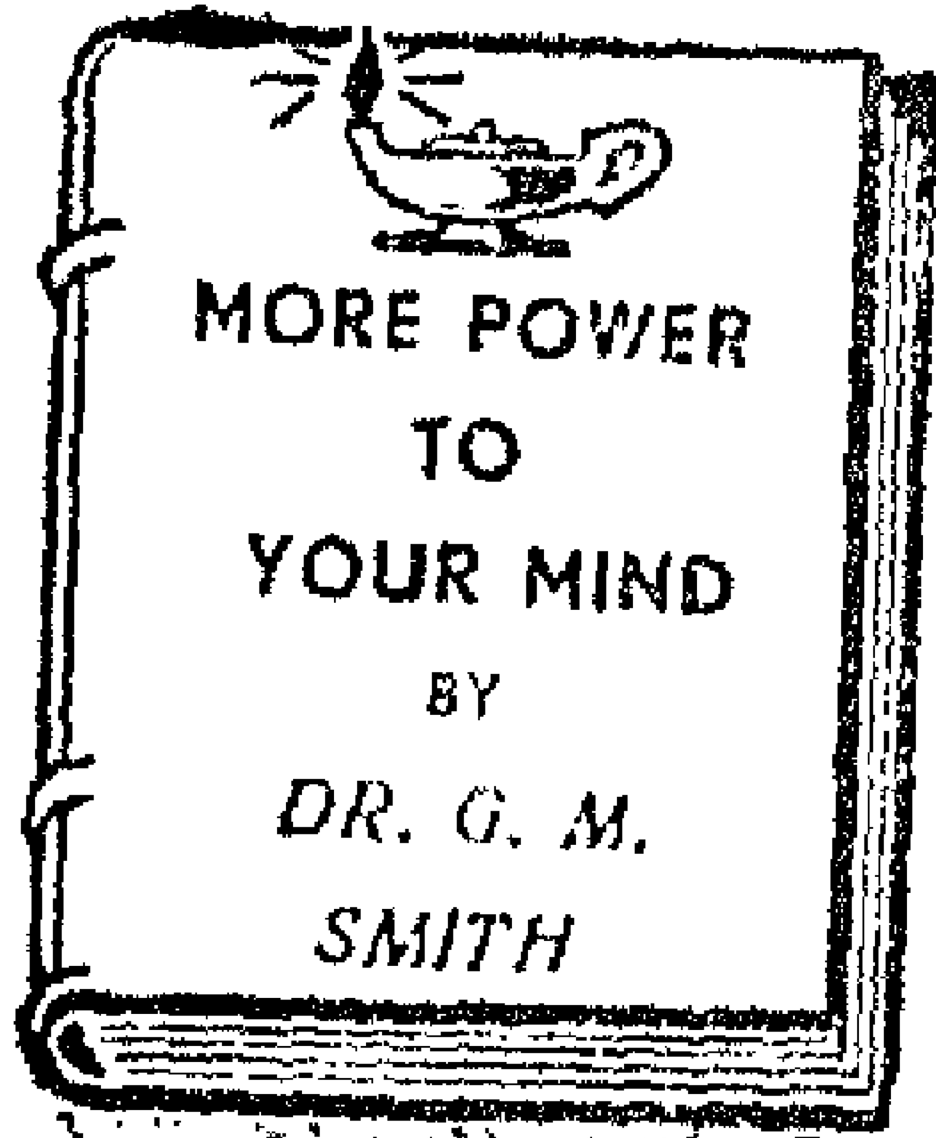
النفس والجنس.. والمجتمع..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية ، الكتب الآتيه على التوالى :

• كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية • طريق السعادة الزوجية • مركب النقص • كيف تقهر الخجل • كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة • فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة • غزو السعادة • التحليل النفسى • الجنس الآخر • ابواب الحب المغلقة • فن الحب (لاوفيد) • الانتصار على الخوف • كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة • تاريخ الغزل • كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة • السلوك الجنسى عند الرجل • السلوك الجنسى عند المراة • لاتخنق عقلك •

واليوم .. اقدم لك كتابا جديدا





علم النفس في خدمتك :

أضئ نفسك !

أطرف الأسرار التي يكشف عنها علم النفس ،
في ذلك العالم العجيب المتواري في أعماقك !

للعالم النفسي الأمريكي :
الدكتور ميلتون سميث

تلخيص : زكي شنوده المحامي

عزيزي القارىء :

لعل الدهشة ساورتك ، وانت تقرأ العنوان الذى اخترته لهذه الصفحات : ((**اخدع نفسك**)) !

فالخداع مكروه ، ومستهجن ، ولو . . مع النفس . **ولكن علم النفس الحديث ، وجد فى هذه ((الرذيلة)) ناحية نافعة** ، فاذا به يدعو الانسان الى ان يروض نفسه بشىء من الخداع . . تماما كما يقال : ((قليل من الخمر يشفى بعض العلل)) ! . . او كما يقال : ((بعض الكذب ينجى)) !

على ان علم النفس لم يترك الدعوة مطلقة ، بل انه **حدد أنواع الخداع التى يجوز للمرء ان يروض بها نفسه ، ومدى ما يمكن المضى فيه من هذا الخداع . .**

انه موضوع طريف ، يهمك فى حياتك اليومية ، وفى التخلص من الآثار التى تخلفها فى نفسك متاعب الحياة ، وما تتعرض له ــ وانت تخوضها ــ من اخطاء وزلات قد تجعلك ناقما على نفسك ، لائما لها ، الى درجة تعوق سيرك فى الطريق . .

فاقرأ ، لتتعلم كيف . . **تخدع نفسك !**

لماذا تميل النفس الى الخداع ؟

• **تلعب** النفس دورا هاما فى تكوين شخصياتنا ، وفى حياة كل منا . فهى معنا حيثما ذهبنا ، ولكنها ــ على الرغم من اتساع مدى نشاطها وقوة أثرها علينا ــ شديدة الخوف والحذر من النقد واللوم ، فهى من ثم تزاول كل عملها فى الخفاء !

وانها لحقيقة عجيبة ، أن القنـاع الذى تتوارى النفس خلفه ، **كثيرا ما يكون اثره فى اخفاء النفس عن ذاتها ، اشـد من اثره فى اخفـائها عن اعين الآخرين !** .. ولكن الواقع ان هذا ادعى الى تحقيق غرضها ، لأنها أكثر خوفا وحذرا من النقد واللوم اللذين يوجههما اليها الضمير الداخلى ، منها مما يوجه اليها من الخـارج . وذلك بسبب الرغبة الكامنة فى اعماق النفس .. الرغبة فى ان تنظر الى ذاتها على الدوام بعين التقدير والاعتبار . لأن احترام النفس عامل جوهرى فى الأنسان ، وبغيره تتشوه النفس ، وتفقد اعتبارها . ومن ثم فهى تلجأ الى بعض الحيل كى تحـافظ على اتزانها ؛ بل على ذات كيانهـا ، وتدفع عن نفسـها الهجمات التى تشن عليها ، سـواء من الداخل أو من الخارج . وهذا فى الغالب يتضمن قدراكبيرا من خداع النفس .

لذلك ، فلا مغالاة فى القول بأن **الكبرياء ليست سـوى وسيلة تضلل عقل الانسان وتعميه عمايرتكبه من آثام !..** لأننـا اذا اسـتخدمنا عقولنا فى نفـاذ وفى عمق ، أمكننا أن نكشـف الحيل ووسـائل الخداع التى تنتهجهـا النفس لتحتفظ بما تحب من تقـدير لذاتها . وأهم هـذه الحيل ، كثيرا ما يسمونها ب « العمليات الدفاعية » .

عندما تلتمس النفس لأعمالها مبررات

• **ومن** اكثر الحيل شـيوعا ، تلك التى نحـاول بها أن نحمى أنفسنا من النقد واللوم ، وهى المسـماة ب « المطابقة العقلية » . الا أن هذه التسمية ليست دقيقة ، لأن الوسيلة هنا فى الواقع ليست عقلية ، **وانما هى مبنية على العـاطفة اكثر منها على العقل** . ولذلك فالافضل أن نسـميها عملية «التماس العذر للنفس» ، أو «التبرير» ، لأنها ــ فى جوهرها

ـ تهدف لأنكار وقوع الخطأ وتبريره ، أكثر مما تهدف الى اعطاء الأسباب الحقيقية المعقولة لأفعالنا وأقوالنا .

وقديما ، حـاول آدم وهو فى جنة عدن أن ينتحل العذر لخطيئته التى خـالف بها ربه ـ حين أكل التفـاحة ـ بأن قال ان حواء هى التى قضمتها القضمة الأولى . ومنذ ذلك الحين ، ما فتئت هذه السابقة تتكرر كل يوم ، حتى امتد اثرها الى كل نواحى الحياة .. **فالتلميذة فى المدرسة تهمل استذكار دروس الجبر ، لالشىء الا لأن «المعلم دميم الخلقة» !** .. والفاشل فى حبه لايلبث ـ بعد الصدمة الأولى القاسية ـ أن يقول معزيا نفسـه : « لاضير فى ذلك ، فأنهـا لم تكن رائعة الجمال .. ثم أن طبعها لايحتمل .. وعلى أى حال ، فمنذا الذى يود ان يربط نفسه بسليطة اللسان هذه طول عمره ؟ »

وبدون هذه القـدرة على التبرير ، لايتسـنى للميل الى الارجاء والمماطلة ان يغدو أكبر سارق للوقت ، فأنت لا تفتأ تقول عندما تفكر فى ارجاء أى عمل : «ان غدا لناظره قريب .. وهذا العمل ـ على أى حال ـ يحتاج الى فكر صاف وعقلية رائقة لا تتأتى الا بالنوم هذه الليلة .. وربما يحسن أن أقوم بنزهة أولا ، ومن ثم يمكننى أن أبدأ العمل فى نشـاط ! » . وهكذا تظل تؤجل العمل يوما بعد يوم .

سر الميل الى نسيان الذكريات البغيضة

• **والتبريرات** لا تأتينـا من الداخل دائما ، وانما يأتينا بعضها من الخـارج فى صورة رأى جماعى . وهذه فى العادة تخـدم اغراضا عنصرية أو وطنيـة أو طبقية . بيد أن هذه الأغراض الجمـاعية كثيرا ما تكون مدعمة بكثير من الضجة وقليل من الفهم .

وفيما عدا هذه التبريرات المفروضة فرضا من الخارج ، بالدعاية والتلقين ، نجد ان التبريرات ليست ــ فى جملتها ــ سوى اكاذيب لا نصيب لهـا من الصحـة . فهى ــ فى الغـالب ــ صور محرفة لبواعثنا الحقيقية ، الناجمـة عن مشاهداتنا وذكرياتنا . فأن فينا نزعة عامة لأن نرى باجلى وضوح ، ونتذكر بقـدر ما فى الأمكان ، تلك الأشـياء التى ترتاح النفس اليها اكثر من غـيرها . **ومن ثم فاننا نتجاهل بقدر استـطاعتنا ما يوجه الينـا من لوم او ذم** ، ونهمل او ننسى ذلك الجانب البغيض من مشـاهداتنا وذكرياتنا .

والتبرير فى هذه الحالة ليس وسـيلة معيبة ، لأنه انما يهـدف الى غاية نافعـة . فلو اننا عجزنا عن التخلص من خطـائنا الصغيرة وهفواتنا الطفيفة ، فقد يثقل على كاهلنا حمـل الشـعور المتراكم بالذنب والقصور ، حتى نغـدو عاجزين حتما عن استخدام قدرتنا الايجابية . فى حين أننا بتغافلنا عن تلك الأمور التافهة ، نتيح لانفسنا فسـحة من الوقت ونسـتبقى الدافع للعمل . فهذا النوع من التغافل انما هو حل من الحلول الضرورية للحياة .

انما يكمن الخطـر فى أن تواتر اللجوء لعمليـة التبـرير والأغراق فيها ، قد يجعل هذه العملية ــ على مرور الوقت ــ آلية . ومن ثم تصدر عن غير ادراك ولاشعور . **فبعد أن نكون على بينة من اننا انما نخـادع انفسنا ، اذا بنا ــ بعـد طول الممارسة ــ نفقد الشـعور غير المباشر بخطئنا** ، فيقول الواحد منا : «نعم . لقد اخطأت . ولكن من الذى لايخطىء ؟» . وبذلك نقنع انفسـنا بأن الخطأ لم يقع أبدا . وينقلب أنكارنا الى حقيقة نتبجح بها .

معاهدة معونة متبادلة .. لاصلاح النفس !

• **ويميل** المرضى بالأعصاب ـ أكثر من غيرهم ـ الى اللجوء لعملية التبرير هذه ، وغيرهامن صورخداع النفس ، وذلك لأن حاجتهم الى حماية النفس أكبر .

وأكثر أمثلة خداع النفس بروزا هى **الغرور** الذىيتسلط على ذى العقل المختل ، فيسد حاجته الملحة للدفاع عن نفسه .

والوسيلةالتى نتجنب بها وقوعنا ضحية تبريراتنا ، هى **ان نعمد الى توجيهاللوم الى انفسنا وتوبيخها من آن لآخر .** فان كنا عاجزين عن وعظ أنفسنا بالمزيج المناسب من الصرامة والرفق ، فقديكون من الوسائل المفيدة لنا أن نعقد مع أحد أصدقائنا أو أفراد عائلتنا **((معاهدة معونة متبادلة))** يكون غرضها « التعاون على التحكم فى عمليات التبرير ، وانتهاج وسائل دفاعية أخرى » .

وقد يكون ضروريا لمعالجة بعض صور انخداع ، السكوت عنها بضعة أيام ، حتى يتاح للنفس المتورطة فيها ان تنتفع بالأثر الملطف الذى يحدثه مرور الوقت . كما يحسن فحص ((**الباعث**)) الى التبرير ، أو الحاجة الدافعة اليه . ونحن على ثقة من أنه فى كل مرة تفشل النفس فى تحقيق حاجة من حاجاتها ، يتولد الدافع الى خداع النفس !

الذكريات المكبوتة لا تنمحى

• **ومن** أقوى الحيل أثرا ، تلك التى تستخدمها نفوسنا أحيانا للدفاع عن نفسها ضد كل ما يهدد احترام الذات ، وهى وسيلة ((**الكبت**)) .

والكبت ـ فى صورته المتطرفة ـ يدخل فى باب الوسائل

المقصود بها تجنب التبرير ، ولكنه ـ فى صورته المعتدلة ـ قد يساعد على التبرير وغيره من وسائل الدفاع .

ونحن حين نكبت ذكرى حادث ما ، فانها لا تنمحي نهائيا، وانما تكمن فى الوعى .. وقد تبقى هنالك وعرة المنال ، فلا تطفو فى الذاكرة لسنوات عديدة ، أو ربما للأبد . والكبت التام ـ لو حدث ـ يكون نتيجة صدمة عنيفة ، تتضمن ـ فى العادة ـ مشهدا مخزيا ، أو على الاقل تهديدا شديدا لاحترامنا لأنفسنا . وليست كل الصدمات ـ لحسن الحظ ـ تستتبع الكبت . **ولكن لو أدى الكبت الى تحصن الذكرى فى اعماق الوعى ، بحيث تصبح صعبة المنال ، فان الكبت فى هذه الحالة يغدو ذا عواقب خطيرة ،** اذ يؤثر تأثيرا ملحوظا على عواطفنا وتصرفاتنا زمنا طويلا .

ومثال ذلك ان القلق الذى يبدو ان لا علة له ، والذى لا يرتبط فى الظاهر باى موضوع أو حادث ، قد يكون منبعثا ـ احيانا ـ عن .. الكبت ! وبعض الاحلام المتكررة الوقوع قد ترجع الى الكبت كذلك . فالمصاب بالاضطراب العصبى، الذى يندفع الى الشجار بغير وعى ، ثم لا يتذكر ـ بعد أن يرتد اليه وعيه ـ حوادث المعركة التى خاضها ، يظل عرضة لاحلام الشجار بصورة عنيفة مزعجة .

اكتشاف الشيء المكبوت ليس سهلا

• **ومع** أن «فرويد» اعتبر «الكبت» هو الوسيلة الاولى والأساسية من وسائل الدفاع ، الا أنه ليس من السهل أن نقره على هذا الراى . لأن الدليل على وجود « الكبت » لا يمكن التوصل اليه مباشرة . واذا كانت عملية التبرير تحدث كل يوم ، ويمكننا ملاحظتها مباشرة وقت حدوثها ،

الا أننا لا نملك ملاحظة الكبت الا بعد حدوث الحادث بفترة من الزمن .. طالت أو قصرت !

ومن الأدلة على ان الكبت ذو اثر على الشخص ؛ اننا نتذكر الحوادث التي تحصنت وراء الوعي زمنا طويلا ، فيتبع ذلك تغيير تام في سلوكنا .. ومن الادلة كذلك ، مقاومة الشخص للتذكر ، حين تقترب حوادث معينة من لوحة ذاكرته !

وثمة حالتان من حالات التنويم المغناطيسي مرتا بي في عيادتي ، توضحان هذا المعنى ، وسأشرحهما بشيء من الاسهاب .

الكبت قد يؤدي الى النسيان والخوف

• **الحالة الأولى :** شاب في التاسعة عشرة من عمره ، طالب في الجامعة ، خارق الذكاء ، يسمى « لارى » .. كان يشكو من أمرين . أولهما **عجزه عن تذكر أى شيء عن والده الذى مات وهو في الخامسة من عمره** .. والأمر الثانى ، خوف فظيع يفاجئه كلما وجد وحده في الظلام. وهذه الحالة مشوقة بوجه خاص ؛ لأن الحوادث الهامة وقعت فيها قبل أن يبلغ صاحبها العام الثالث من عمره بقليل . **وقد عرفنا من مصادر أخرى ان والده قضى السنتين الاخيرتين من حياته في مستشفى الامراض العقلية !**

وخلال جلسة التنويم المغناطيسي الاولى ، تذكر «لارى» غرفة كان يلعب فيها وهو صغير ، وقد وصفها بتفصيل كبير ؛ فالسقف موشى بالزخارف ، وثمة مقعد عالي الظهر ، وزهور في النافذة ، وباب كبير يؤدى الى ردهة طويلة مظلمة .. وبينما هو يلعب على الارض ، راى رجلا أطول قامة من امه ، ذا شعر أسود ، وانف معقوف ، ونظارات على عينيه ، وقد

استطاع ان يراه فى اوضاع مختلفة : فهو تارة ينحنى على الطفـل ـ الذى هو « لارى » ـ فى سريره ، وتارة أخرى يلعب معه ، بلعبة على شكل قرد يتسلق حبلا ، وهكذا .. **فلما أيقظنا لارى من نومه ، كان مقتنعا بان هذا هو والده ، وقد شعر بالارتياح ، كما لو كان قد تحرر من قوة مصادية لا يدركها !**

وخلال جلسة التنويم الثـانية ، تذكر حادثة يبـدو من المعقول اعتبارها السبب فى خوفه العنيف من الظلام . فقد راى نفسه فى الحجرة ـ التى وصفها فى الجلسة الأولى ـ يعبث بلعبة على شكل قطار . وكان والده جالسا على المقعد العالى الظهر ، يقرأ صحيفة فى يده . وفجـأة ، القى والده الصحيفة فى عنف ، وانتصب واقفا وقـد التوت عضـلات وجهه بصورة مفزعة ، ثم راح يضرب الارض بقدمه، ويصرخ، ويلوح بذراعيه . فزحف الطفل على قدميه وراح يجرى فى الردهة باحثا عن أمه .

وفى منتصف الردهة المظلمة ، استدار فرأى ذلك الرجل ـ الذى يعرفه على انه أبوه ، والذى أصبح الآن مختلفا جدا ـ يتقدم نحوه وعيناه جاحظتان ..

واذ كان لارى يصف هذا المشهد ، تقلصت عضلاته ، وطفر العرق من جبهته ، وقد تولاه رعب عظيم ، حتى انه لم يستطع تناول الطعام الا بعد انتهاء الجلسة بثلاث او أربع ساعات . وفى المساء ، ازداد خوفه من الظلام الى درجة مروعة .

شيء اكثر من الألم والخوف ..

• **ومن** ثم فقـد اضحت الرابطة بين الظـلام والخوف واضحة الآن . وبقى ان نعرف : **لماذا كبت هذا الحادث ؟**

ما من شك فى أن الطفل الصغير صدم صدمة قاسية ، ومن

الطبيعى ان يصد عن التفكير فى الحوادث المؤلمة . ولكن هذه الحالة تتضمن اكثر من مجرد الصد عن تذكر الماضى المؤلم ، كما يدل على ذلك فقدان الذاكرة التام الذى أصاب الشاب بالنسبة لوالده . **فان الباعث للكبت العميق يكون عادة اكثر من الألم والخوف .**

وهذا ما اتضح خلال الجلسة الثالثة والاخيرة ، ففى هذه الجلسة : تذكر « لارى » حادثة جديدة ، تدلنا على هذا الباعث . ففى اليوم التالى للمطاردة الرهيبة فى الردهة المظلمة ، جاءت والدة الطفل اليه فى غرفة نومه ، ووقفت تشير بأصبعها اشارة حازمة ، تنطوى على تهديد ، وهى تقول له : « اياك أن تقول لأحد على الاطلاق !.. أفاهم انت ؟ » .
ولا شك أن رد الفعل الذى أصاب الام حين رات أول أعراض جنون زوجها ، كان أمرا طبيعيا ومفهوما . ولكن ما فعلته مع الطفل كان بعيدا عن العقل ، **اذ أدت بتصرفها هذا الى ان ادخلت شعورا بالخزى فى عقله ، وقطعت السبيل عليه للتعبير عن خوفه .**

ولا يمكننا أن نحدد الوقت الذى حدث فيه الكبت . ولكن يبدو انه حدث فى الحال ، ثم استمر حين اصرت الأم على رفض الاجابة على أسئلة « لارى » عن والده ، أو اطلاعه على صورته . وحتى خلال فترة العلاج ، التزمت الأم الصمت التام عندما كان ابنها يسأل عن أبيه !

ان هذه الحالة تتضمن أيضا كشفت عنه الذكريات المفصلة لصاحبها ــ تحت تأثير التنويم المغناطيسى ــ عن والده والمشاهد الخاصة به .. وقد كانت هذه الذكريات بعيدة عن متناوله عدة سنوات .. **وقد اتضح أنه بعد ثلاثة أسابيع من تذكره المسلك المفزع لأبيه ، اختفى من نفسه الخوف من الظلام اختفاء تاما .** وأعقب ذلك تحسن كبير فى المظهر العام

للشباب ، بعد ان تخلص من الاحساس بما فيه من شذوذ . فأصبح يتمتع بقدر اكبر من الثقة بالنفس والرضاء عن الحياة . ويبدو ان الكبت ما كان ليحدث ـ فى هذه الحالة ـ لو أن الام عالجت الموقف بقدر اكبر من الحكمة والعقل .

الخوف من مواجهة الجمهور

• **وفى الحالة الثانية** : نرى مثالا طريفا لمقاومة تذكر موضوع مكبوت . وتلك حالة شابة فى العشرين من عمرها تدعى « أميلى » ، كانت تعانى من حالة رعب من مدة لا تتذكرها ، فتقول : « اننى أحس ـ حين اريد الكلام امام جمع من الناس ـ **كأن يدا حقيقية تضغط على حلقى ، فلا يصدر عنه صوت !** »

وقد تتبعنا هذا الرعب الشديد من الكلام امام الناس ، الى حادث وقع منذ ثلاثة عشر عاما ، بعد بضعة اشهر من انتقال أميلى من فيينا الى بولندا . ورغم انها كانت فى السابعة من عمرها ، وقد وصلت حديثا من بلد أجنبى ، فانها أبدت رغبتها فى القاء مقطوعة من الشعر امام عدد كبير من الحاضرين فى قاعة الاحتفالات بالمدرسة .

وحين ذكرت هذه الحقيقة لأول مرة ـ فى حالة اليقظة ـ انكرت أنها خافت . ولكن ـ تحت التنويم المغناطيسى ـ اتضح انها غير صادقة . فخلال الجلسة الأولى ، تذكرت مضمون الشعر فى جملته ، ولكنها عجزت عن أن تتذكر كلمة واحدة من كلماته البولندية ، **بل عجزت عن ان تتذكر العنوان الذى استطاعت ان تتذكره فى حالة اليقظة ، قبل اسبوعين .**

ويدل هذا على أنها تحت التنويم المغناطيسى تذكرت ـ بالتفصيل الكافى ـ الحادثة المزعجة التى تسبب لها التزام

حالة المقاومة ازاء الجانب المؤلم من الذكرى .. لانها ــ فى غيرها من المناطق ــ كانت اثناء التنويم المغناطيسى ، اقدر على انتذكر منها فى اليقظة . اذ تذكرت ــ مثلا ــ الاسماء البولندية لمعلماتها ، ومربيتها ، والكلب الصغير الذى كان فى الحديقة .. ووصفت اشكالهم وصفا دقيقا .

تتذكر الشعر وهى نائمة ..

• وفى **الجلسة التالية** ــ بعد مرور اسبوع ــ كانت مقاومة التذكر لا يمكن ان تخطئها الملاحظة . فحين سئلت « اميلى » ــ فى حالة اليقظة ، قبل تنويمها ــ لم تستطع ان تتذكر معنى الشعر الذى القته ، او أن تتذكر أين القته ، وكل ما كانت تعرفه أنها تدربت على القائه مع مربيتها ، فى حجرة المدرسة البولندية .

فلما وقعت تحت التنويم المغناطيسى ، راحت فى مبدأ الأمر تقرأ الشعر قائلة : « ماريانا ذات الشعر الذهبى ، تعقصه من الخلف بدبوسين يشبهان قوسين . انها .. » . **ثم مالبثت ان صاحت قائلة : « أنا لا اريد ان اقول الشعر .. الناس كثيرون .. اريد ان انساه ! »**

وحين استيقظت من هذه الجلسة قالت : « لقد راح قلبى يدق بسرعة عظيمة . ان كل شىء قد غلفه الظلام » .

وفى الجلسة الأخيرة ، استمرت مقاومة التذكر ، ولكنها بدأت تتراخى فى النهاية شيئا ما . فلما قلنا لاميلى ــ اثناء خضوعها للتنويم ــ أنها الآن مرة اخرى فى حجرة الدرس البولندية ، وسألناها عما ترى ، بدأت تصف الحجرة فى شىء من التفصيل . ثم قالت : « المعلمة الجميلة .. لقد كانت تعلمنا الأدب البولندى ، والهجاء ، والقواعد ، والمعانى

.. وفى الأسبوعين الأخيرين ، علمتنا الشعر .. كتبته على السبورة ونقلناه » .

حديث مع .. نائمة !

• ثم دار الحوار التالى بيني وبين اميلى ، التى كانت تقاوم عملية التذكر مقاومة ظاهرة :

ـ هل يمكنك رؤية الشعر على السبورة ؟

ـ كلا . لقد كان هذا منذ اسبوعين .

ـ ومن الذى يقرأ الشعر ؟

ـ تقرأه الفتاة التى تلينى بمقعدين ، ثم الفتاة التىتجلس امامى مباشرة .

ـ هل قرأت انت الشعر ؟

ـ كلا .. لقد دق الجرس قبل ان يحين دورى .

ـ وماذا حدث فى اليوم التالى ؟

ـ كنت الاولى فى القراءة .. وكنت فى قراءته مسرعة .

ـ وهل قرأته فى مكان آخر ؟

ـ كان المفروض أن أقرأه فى قاعة الحفلات .

ـ أنت الآن فى قاعة الحفلات . فما الذى يحدث ؟

ـ ارتقيت المسرح .. وكان هناك سكون . هذا كل ما يمكننى ان اتذكره .

ـ هل تتذكرين نزولك عن المسرح ؟

ـ كلا .. الشىء التالى الذى اتذكره هو اننى استقللت سيارة ، مع ابى وأمى ، الى المنزل .

ـ أنت الآن فى السيارة .. فماذا يحدث ؟

وعند هذا اندمجت اميلى أكثر من ذى قبل ، فى حالة الطفولة التى تتذكرها ، اذ بدات تتكلم بالألمانية ، وهى اللغة التى يحرص عليها والدها فى المنزل . واستطردت تقول :

ـ قال والدى : « لقد كنت فخورا بك .. لقد ابدى الحاضرون اعجابهم ! » .. وفى البيت شربت شيئا ، ولكننى لم أنم نوما هادئا ، فقد حلمت بالناس فى كل مكان ..

انتهى عهد الخوف !

• **وهكذا** ، فما من شك فى أن القاء الشعر أمام عدد كبير من الحاضرين ، كان تجربة بالغة الأزعاج للطفلة الصغيرة الأجنبية .. ولقد كانت فى طفولتها الأولى تجارب أخرى مزعجة ، تتضمن الما جسديا وخوفا .. وهى عمليات جراحية فى الأذن واللوزتين ، أجريت لها بين سن الرابعة والسادسة . ولكنها لم تكبت ذكرى هذه التجارب ، بل كان يمكنها فى حالة اليقظة أن تتذكر حتى درجة حرارتها فى ذلك الحين ، ولون الأغطية التى كانت ملفوفة فيها حين فحصت أذنيها بالأشعة السينية .. **فلماذا لم تكبت هذه التجارب ، بينما كبتت حادث ألقاء الشعر كبتا واضحا ؟**

يحتمل أنها كانت مرهقة بوطأة الشعور بالرهبة ، حين القت الشعر أمام الجمهور .. كما يحتمل أنها كانت خائفة من أن يسخر الجمهور من لهجتها الأجنبية .

ومع أنه لم يمكن فحص حالة اميلى فحصا كاملا ، لأنها تزوجت بعد الجلسة الأخيرة بقليل ، فان ثمة دليلا على أن نبش الموضوع المكبوت كان وسيلة مدهشة للشفاء .. فقد عانت قلقا شديدا من فكرة ظهورها أمام جمع كبير من الناس فى حفلة زواجها ، بيد أنها قالت بعد الحفلة : « لم اكن خائفة على الأطلاق .. ولم يحدث من قبل ـ كما حدث فى هذه المرة ـ أن خفت عنى وطأة الشعور بالخوف ، أو الأضطراب العصبى » .

الكبت الجزئى حماية من الشعور بالاستياء

• **ولابد** هنا من كلمة احتياط بصدد السرعة التى استجابت فيها هاتان الحالتان للتنويم المغناطيسى : **فليس التنويم المغناطيسى فى الحقيقة علاجا سريعا لكل الأضطرابات العصبية** •

ولنلاحظ ــ اولا ــ انه ليس ثمة سوى عدد محدود من الناس يمكن تنويمهم تنويما مغناطيسيا .. وثانيا ، أن الأضطراب العاطفى ــ فى حالتى لارى واميلى ــ كان محصورا فى نواح معينة ، يمكن تتبعها وردها الى حوادث الطفولة البعيدة .

فالأكثر وقوعا أن يكون الاضطراب ناشئا عن حالة طويلة الأمد ، لازمت الشخص فى المحيط ــ الذى يعيش فيه ــ زمنا ما ، كافتقاد الحنان فى فترة الطفولة . اما الحالتان السالفتان فقد قدمناهما ، لا لأنهما نموذجان لما هو شائع ، ولكن لانهما توضحان بجلاء وسيلة الكبت .

وكون الكبت التام يمكن اكتشافه فى بعض الأشخاص ، **ليس معناه أن هذا يمكن حدوثه بالنسبة للجميع كما يزعم بعض أصحاب النظريات** .. لأن اغلب الناس يعجزون عن الكبت التام ، ولا يكون الكبت لديهم الا جزئيا . والكبت الجزئى ــ كالتبريرات التى نجربها عن غير وعى ــ قد يكون ذا أثر نافع فى العلاج النفسانى . فهو يحمينا من حدة الشعور بالأستياء من نقائصنا ، ومن ثم يتيح لصفاتنا النافعة فرصة العمل المنتج . غير أن الخطر كل الخطر فى أساءة استعمال وسيلة الكبت ، بالاغراق فيها .

ترويض النفس على تقبل الماضى

● **وهناك** ـ بالتاكيد ـ مواقف يكون الضغط العاطفى فيها عنيفا جدا لدرجة أن انعدام الوعى التام فيها يغدو وسيلة نافعة فى العلاج . **فالاغماء ـ مثلا ـ رد فعل تقدمه الطبيعة للحماية من الألم الحاد والخوف الشديد** . الا انه لو حدث أن استمرت الحالة مدة من الزمن فقد تنقلب الفائدة الى ضرر. فقد تظهر علائم القلق أو غيره من أعراض التوتر . وبقدر ما يطول أمد الكبت ، يصعب اكتشاف العلة ، ومن ثم يغدو الشفاء مستبعدا .

ولكن ، لو أمكن نبش الموضوع المكبوت ، واخراجه من مكمنه ، سهل التوصل الى العلاج ، وذلك باستعراض الماضى من نقطة مأمونة .. كما حدث فى حالتى لارى وأميلى .

واستعادة الماضى وحدها ، لاتؤدى الا الى أيقاظ الأثر المخيف أو المشين الذى وقع فى الأصل . وانما اعادة الفحص واعادة التقدير هى التى تعين على أجراء عملية العلاج الأيجابى . فعلى النفس أن تتعلم أن تقبل ماضيها ـ الذى كثيرا ما يتبين أنه ليس سيئا بالصورة التى كان يبدو بها فى حينه ـ وأن تصحح وضعه فى سجل حياتها .

واحيانا ، لا يمكن استعادة الماضى الا بمجهود كبير ، لأن الذى الأحداث فيه قد يكون عنيفا جدا ، وحينئذ ينبغى استدراج الموضوع المكبوت بالتدريج ، حتى تتهيأ له قوة الأحتمال اللازمة .

صداقة الطفل لوالديه وقاية له !

● **لذلك** فأن علاج الكبت الشديد يجب ان يكون بواسطة أختصاصى محنك . الا أن فى استطاعتنا جميعا أن نلعب

دورا فى ايقاف اثر الكبت ، او تخفيف خطر تفاقم هذا الاثر فى اطفالنا : **بان نعمل على الا نربى فى نفوسهم شعورا قبيحا بالخزى والاثم** . كما يمكننا ان نشجعهم على ان يشركونا فى متاعبهم . وان يناقشوا معنا مشاكلهم فى حرية وفى غير حرج. فلو اننا توصلنا لأن نجعل اطفالنا يعاملوننا كأصدقاء ، فان ذلك يتيح لنا علاج الأمر فى سهولة ويسر .

ويمكننا ــ بهذا الصدد ــ أن نضع ثلاثة مبادىء قائمة على اصول « التكتيكات » العسكرية ، وهى : **الانسحاب الاستراتيجى ، والانتفاع بالحلفاء ، والهجوم باعتباره افضل وسائل الدفاع** . فحيثما يكون العدو متفوقا فى قطاع ما ، يتحتم الانسحاب مؤقتا . ولكننا ــ بعد أن نستنفد الوقت الكافى لأراحة قواتنا والاتصال بحلفائنا ــ يجب أن نعاود الهجوم ، قبل أن يغدو الانسحاب هو السبيل الوحيد امامنا .

ومن المهم الحصول على الراحة الجسدية قبل أن نتصدى لمعالجة مشاكلنا الكبرى . ويحسن كثيرا أن نشرك معنا فى ذلك صديقا مخلصا . فأن الكبت يقل خطره اذا نحن افضينا الى الغير بموضوعه بمجرد وقوعه ، ولو لم يكن لدى الغير مقترحات تساعدنا .

عندما نلقى اخطاءنا على الغير ..

● واذا نحن نجحنا فى منع النفس عن اللجوء للكبت التام كوسيلة للدفاع عن ذاتها ، ونجحنا فى كشف ما تلجأ اليه من عمليات التبرير ، فليس معنى ذلك أنها تبقى مجردة من وسائل الدفاع ، بل يبقى لها من هذه الوسائل الكثير ، كالحيلة الدفاعية المعروفة بعملية ((**القاء وزر الخطأ على الغير**)) ، او ((**التملص**)) . ومؤداه أننا نضيق ببعض اخطائنا

وبواعثنا ـ التى لا تتمكن من قبولها فى نطاق كياننا ـ فنطرحها على الآخرين ، وندينهم بها .. ومن ثم ، ننكر وجودها فى انفسنا ، ونستشعر الراحة والرضا فى أن نتهم بها غيرنا. وهذا هو المعنى الذى يتضمنه قول لاروشسفوكو : **((لو أننا كنا بلا أخطاء ، لما وجدنا مسرة فى النظر الى اخطاء الآخرين))** .

وفى هذا النوع من التحايل ، الذى ننسب فيه بواعثنا الى الآخرين ، يمكن ان تكون هذه البواعث سيئة او حسنة. الا أن « فرويد » يطلق هذا الأصطلاح على حالة نسبة البواعث السيئة وحدها للغير . وبهذا المعنى وحده يمكن الكلام عن هذه الوسيلة باعتبارها عملية دفاعية ، لأن قليلين منا أولئك الذين يحدوهم باعث قوى للدفاع عن انفسهم ضد الشعور بما يتحلون به من صفات عالية .

وفى استطاعتنا أن نجد أمثلة لعملية التملص هذه فى كل مكان : فاذا اصطدم أثنان من المشاة ـ عند مفترق الطرق ـ صاح كل منهما فى الآخر قائلا : «ألا تنظر أمامك ؟» . واذا اصطدمت سيارتان ، أتهم سائق كل منهما الآخر بالطيش والنزق .. والزوج الذى ما يفتأ يتشاجر مع زوجته على الدوام لعدم تنظيفها البيت ، نادرا ما يعنى هو بتنظيف ادراج مكتبه . والكاتب المتمسك بالاخلاق ، الذى يحرر المقالات فى ذم الكتب الأباحية ، لا يلبث هو ان يقتنى هذه الكتب ويقرأها فى الخفاء !

عملية ((التملص)) تحتاج الى تنظيم ..

• **والتملص** البسيط ، مثله مثل التبرير المعتدل والكبت الجزئى . فهو يخدم غرضا نافعا ، اذ يحفظنا من الانهيار تحت عبء الشعور الدائم بنقائصنا وصفاتنا المشينة . الا

ان الخطـر يكمن ـ هنـا كذلك ـ فى الأفراط فى اللجوء الى هـذه الحيلة الوقائية . **فان التغلغل المستمر من أخطائنا ونقائصنا لايلبث ـ بعد وقت ما ـ ان يفصل فصلا تاما بيننا وبين الحقيقة .**

ففى مستشفيات الأمراض العقليـة ، نجد ان التملص المستمر من الأخطاء والعيوب يساهم بقدر كبير فى تكوين جنون الأضطهاد . واذا كان التملص يصل الى اقصى مداه فى حـالات الجنون ، فليس معنى ذلك أنه هو ـ وغيره من العمليات الدفاعية ـ سبب الجنون . وانما هذه العمليات فى الغالب من أعراضه ، وليست من أسبابه .

ومع ذلك ينبغى أن نحذر من الأفراط فى اللجوء الى هذه الحيل التى تهـدف الى خداع النفس . **فمـاذا يمكن ان نتخذ من الاحتياطات لنمنع عمليات التملص من ان تفصلنا عن الحقيقة ؟**

ان الوسيلة المؤكدة لذلك هى ـ كما فى حـالة التبرير ـ المعرفة التامة لما نفعله ، والسبب الذى نفعله من أجله . ومما يفيدنا فى ذلك ، ان نستعرض ـ من وقت لآخر ـ عمليـات التملص التى نلجأ اليها . فاذا وجدنا أنفسنا عاجزين عن الوقوف عند حد معين فى اللجوء الى التملص ، قد يفيدنا ـ هنا مرة أخرى ـ ان نلوذ ب **((معـاهدة المعونة المتبـادلة))** مع بعض الاصدقاء العقلاء ، لتنظيم عملية الدفاع .

والى جانب الاهتمام بحماية أنفسنا من الافراط فى اللجوء الى التملص ، **علينا كذلك مسئولية حماية أطفالنا من تكوين عادة ممارسة هذا النوع من خداع النفس** . ومن ثم فان علينا ـ فى معاملتنا للاطفال ـ ان نعتنى عناية خاصة بالامتناع عن التساهل من جهة ، وعن التأديب القاسى من جهة أخرى .

الهرب الى المستقبل مفيد !

• **بقيت** حيلة اخرى تستعملها النفس لحماية ذاتها من رياح الحقيقة القاسية ، **وتلك هى اللجوء الى أحلام اليقظة، او الخيال ، أو التخيل ..** على أن هذه الحيلة تختلف ــ من وجهة ما ــ عن التبرير والكبت والتملص . فهذه العمليات الثلاث جميعا سلبية أو دفاعية ، اما التخيل فيمكن أن يكون ايجابيا كذلك ، اذ يمكن ان يساعد ــ ليس فقط على منع تحقير الذات ــ وانما كذلك على تعظيمها ، وعلى الارتفاع بها فوق المستوى الذى يوحيه الشعور بالنقص او بالخطأ .

ويحتمل ان يكون الخيال اكثر فائدة من تلك الحيل السلبية الثلاث، الا انه قد يكون فى بعض الحالات بليغ الضرر كالكبت العميق . **(ويمكن ان تجد مزيدا من التفصيل ، فى ملخص كتاب ((لاتخنق عقلك)) الذى نشر فى العدد ٩٤ من ((كتابى)))**

والخيال يتراوح بين الخيال الساذج للاطفال ، والخيال المبدع للفنان والكاتب والمهندس والعالم ، والأوهام الهستيرية للمريض بالشيزوفرانيا أو الفصام العقلى .

والعاب الأطفال التخيلية لاضرر فى معظمها . وكذلك لاضرر فى احلام اليقظة الرومانتيكية ، التى تشغل الكبار اذا لم تصل بهم الى اعتزال عالم الحقيقة .

وقد تكون للخيال قيمة علاجية : فالحلم بالمراعى الخضراء يلهمنا الصبر على الكدح فى أرض الحاضر القاحلة . كما قد يفيد الخيال فى التخفيف من أثر العداوة ، فتلميذ المدرسة الذى القى به طفل أكبر منه على الارض ، يجد الراحة فى ان يتخيل نفسه جاثما على صدر غريمه فى انتصار ، والمعجبون يحيطون به ويحيونه .. وهذا الخيال يخفف من توتر أعصابه .

والخيال ـ على العموم ـ يساعدنا على الهروب من ملل الحياة ، اذا لم يصل الى ابعد من زخرفة آمال للمستقبل . **ولا شك فى أن الهرب الى المستقبل اقل خطرا من الانسحاب الى الماضى .** لأن الماضى لا يمكن اعادته ، اما المستقبل فقد تتحقق بعض آمالنا فيه !

المسألة .. مسألة توازن !

• **والخطر** فى كل هذه الميول الهروبية ، أن تغدو عوضا دائما عن الحقيقة ، وخاصة اذا كان الضغط الناجم عن خيبة آمالنا قويا ومستمرا . **فحينئذ يزداد تعرض الشخص لان يكون خياليا وغير واقعى .** وهذا ما يحدث ـ اكثر ما يحدث ـ بين المسجونين . وغالبا ما تكون أحلام المحكوم عليهم بمدد قصيرة ، قريبة الى الواقع والامكان ، فى حين تنصرف احلام المحكوم عليهم بمدد طويلة الى تخيل قيام ثورة عالمية ، أو كارثة تؤدى الى انتهاء العالم .. ويظهرون هم فى هذه الاحلام فى دور الزعماء أو المنقذين .

انها على الدوام مسألة توازن : فاذا استعمل المرء هذه الوسيلة باعتدال ، امكن أن تسدى اليه معونة كبرى .. واذا هو ـ على العكس ـ أفرط فيها ، قد تصيبه بضرر عظيم . ان من المقبول ان ننظر الى الحقيقة خلال منظار وردى . **ولكننا لا نكسب شيئا من ان نعمى انفسنا . فلكى نتمتع بالحياة وننتفع بها فى ذات الوقت ، ينبغى ان نتعلم كيف نسيطر على هذه الحيل التى تخدع النفس ، لنحميها ولنتحكم فيها .**

حدث ذات يوم



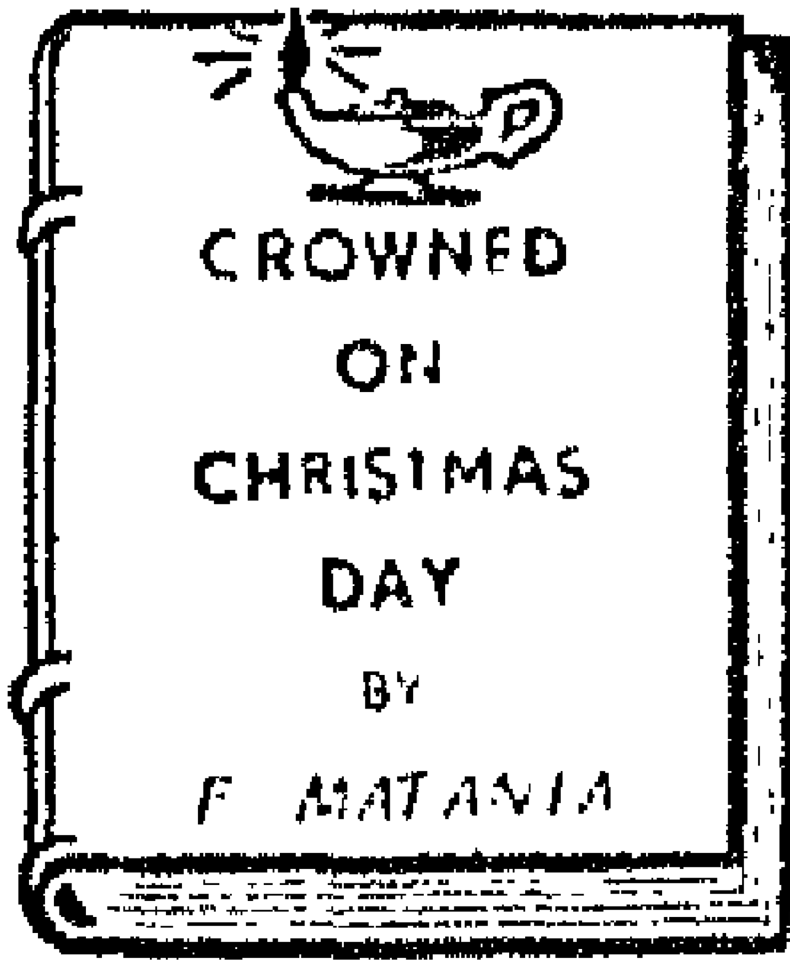
من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب ، قرات معى فى الاعداد السابقة : فضيحة «كارولين» ملكة انجلترا ، عشيقة نابليون (مارى فالفسكا) ، امرأة وملك (مدام دى مانتنون) ، «تيبريوس» قيصر روما ، لوكريشيا بورجيا ، نيرون : الطاغية السفاح ، ليدى هاملتون ، مارى انطوانيت ، مصرع القيصرية فى روسيا ، بولين بونابرت ـ ملكة الغواية ـ مأساة ملك بافاريا ، غرام الاميرة اليزابيث تيودور ، ديزيريه ـ خطيبة نابليون ـ اوليمبيا والدة الاسكندر ، بيرينيس ملكة فلسطين ، تيودورا الراقصة الامبراطورة ، «ساتوهى» او (المصرى) ، كريستين ملكة السويد ، رمسيس الثانى ، مرجريت فهمى ، مارى ستيوارت ، والمرأة التى كان لابتسامتها فضل توحيد فرنسا ..

واليوم ، اقدم لك حلقة جديدة من سلسلة «قصص الحب فى سياسة العالم» ..

الحب في سياسة العالم :



معاً.. إلى المجد!

قصة الفتاة التي دفعت شاباً جسوراً إلى غزو إنجلترا، وتغيير تاريخ التاج الإنجليزي

للمؤرخ الفنان: " ف. ماتانيا "

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

عزيزى القارىء :

يقول التاريخ السياسى والعسكرى ، ان وليم « الفاتح » زحف من ساحل (نورماندى) الفرنسى ، عبر (المانش) ، فغزا الجزيرة البريطانية . واعتلى عرشها ..

ولكن تاريخ الحب يقول ان « وليم » لم يكن **((فاتحا))** ، بل كان **((منتقما))** ..أما « الفاتح » الحقيقى ، أو ــ على الاصح ــ المحفز الذى دفع الى فتح انجلترا ، فكان .. **امرأة !! .. فتاة حسناء ، كانت من اجمل بنات قومها ، و ــ فى الوقت ذاته ــ من أكثرهن كبرياء ، واعتزازا بنفسها ، واختيالا بقدرها .. تلك هى ((ماتيلدا)) أميرة (الفلاندر) !**

لم تقرأ عنها ؟ .. ولا سمعت ؟! .. انها أنانية الرجال ،فان الذين كتبوا التاريخ رجال فى الغالب ..

ولكن « ماتيلدا » الحسناء المزهوة ، هى صاحبة الفضل فى فتح انجلترا ، وفى تغيير تاريخ هذه الرقعة الصغيرة من الارض ، الطافية على سطح الماء ، غير بعيد من الساحل الشمالى الغربى لأوربا ..

مهلا !! .. ان الوقائع ثابتة ، ولكنها متوارية بين سطور التاريخ .. واليك هى ، كما كتبها المؤرخ والفنان المعاصر **((ف .ماتانيا))** .. وما أحسبك بحاجة الى ان أقدم لك « ماتانية » ، فقد سبق أن حملت اليك صفحات « كتابى » روائع من انتاج قلمه وريشته معا ..

اميران تنعقد عليهما آمال شعبين

• **التاريخ** ملىء بأولئك الحكام الذين كان طموحهم يصبو الى الغزو والفتح لا لشيء الا من اجل المجد والغنائم .. اما الدوق « وليم » ، فكان حافزه الاول الى الفتح هو : **الحب .. والانتقام !**

ففي اواسط القرن الحادي عشر من الميلاد ، كانت مدينتا (ليل) و (روان) الفرنسيتان – اللتان تبعد كل منهما عن الاخرى بحوالي ٢٣٠ كيلو مترا – عاصمتين لامارتين من الامارات الضئيلة التى كانت فرنسا قد انقسمت اليها بعد وحدة .. **اما (ليل) ، فكانت عاصمة (الفلاندر) .. واما (روان)، فكانت عاصمة (نورماندي) ..**

وكانت الامارتان من اكثر الامارات والدويلات تألقا وازدهارا .. وفى كل منهما ، كانت ثمة شخصية متألقة ؛ تتطلع اليها أنظار شعبها فى رجاء واكبار : **((ماتيلدا)) ، ابنة ((بلدين)) الخامس ، فى (الفلاندر) .. والدوق ((وليم))، ابن ((روبرت)) الثالث ، فى (نورماندى) .**

ولم يكن احد من الشابين قد لمح الآخر .. ومع ذلك ، فان فكرة زواجهما كانت أملا داعب رؤوس شعبيهما ، وسرى الى تفكير « بلدوين » و « وليم » نفسه ؛ فارتاحت نفس كل منهما اليه وحبذه ..

اهانة تمس جرحا حساسا

• **واذ** نضجت الفكرة ، وانقلبت الى اجراءات واتصالات، بغية تحقيقها ، كانت « ماتيلدا » هى العقبة الوحيدة التى قامت فى سبيلها .. وكانت عقبة كؤودا حقا . فقد رفضت « ماتيلدا » الزواج من الدوق « وليم » رفضا باتا ، **اذ كانت**

عواطفها تميل نحو شاب من نبلاء ((السكسون)) يدعى ((بريتري)) .. كان أشقر ، وسيما ، جمع كل مايميز فارس الاحلام الذى يراود خيال كل عذراء ..

ومع أن « بريترى » لم يبادل « ماتيلدا » عاطفتها ، الا ان الاميرة الشابة ظلت متعلقة به ، متشبثة بالأمل فى انه لن يلبث ـ على مر الايام ـ ان يميل اليها ، أو ينصاع لسحرها .. ومن ثم آثرت الصبر . ورفضت الزواج من « وليم » حين جاء رسول من لديه يطلب يدها .

ولكن الامر لم يقتصر على الرفض .. فقد كان « وليم » خير بعل يرتجى للأميرة الشابة ، ومن ثم دهش جميع المحيطين بها لهذا الرفض .. حتى الذين كانوا يعرفون قصة حبها، لم يتمالكوا أنفسهم من العجب لاعراضها عن أمير شاب ، شجاع ، محبوب من قومه ، فى سبيل نبيل مغمور ، لم يقدر عواطفها حق قدرها ، ولم يبادلها الحب !

وكان من الطبيعى ان يلح عليها أولئك القوم بالنصح واللوم .. **أن آباها ـ الذى لم يكن يرى من هو أجدر بها من ((وليم)) ، والذى كان يقدر عواقب ارتباط امارته بامارة نورماندى ـ راح يراجعها ويناقشها** .. وفى ضيقها بهذه الالحاحات ، نطقت « ماتيلدا » بعبارات ما كانت تليق بأميرة مثلها !

سر مولد الدوق وليم

• **وكانت** عباراتها قاسية ، فى الحق .. بل انها انطوت على اهانات مقذعة للدوق وليم بالذات !

فقد كان ((وليم)) ثمرة علاقة غير شرعية بين ((روبرت)) وفتاة فقيرة من الشعب ، كانت ابنة صباغ .. وفى غمرة الفقر ، كثيرا ما يزيغ البصر جمال أخاذ .. وقد كان جمال

« آرليتا » ـ وهو اسم ابنة الصباغ ـ من هذا النوع الذى يبهر البصر والقلب معا ..

وما كان فى وسع « روبرت » ان يتزوج من ابنة الصباغ، لمكانته ، ولتقاليد منصبه كأمير وحاكم ..

وما كان فى طوقه ـ كذلك ـ ان يتنكر للعاطفة التى استبدت بفؤاده ، وان يغمض عينيه عن بريق الفتنة ..

وفى الخفاء ، راح يروى قلبه وجسده .. ويرضى عواطفه ونزواته .. **فاذا علاقته بآرليتا الحسناء تثمر ولدا يظفر بمظاهر الصحة ، وينعم بكثير من الجمال** .. وكما استولت « آرليتا » على قلبه وعقله ، استولى « وليم » الصغير على كل العواطف الغريزية التى تحركها الطبيعة فى الانسان حين يرى نتاجا منه ، يشهد بفحولته ، ويحمل ـ فى الوقت ذاته ـ رسالة بقاء ذريته وسلالته ..

ومن ثم فان ((روبرت)) لم يهمل ((وليم)) ،بل عنى به،ونشأه على كل ما ينشأ عليه الأمراء ، ودربه على كل فنون الحكم والحرب ، حتى صار ـ فى النهاية ـ فارسا لا يبارى .. ثم اورثه امارته .

وكانت هذه القصة « الحساسة » ، هى التى تناولها لسان « ماتيلدا » عندما استبد بها الغيظ والضيق !

انتقام فريد فى نوعه

• **وعاد** رسول « وليم » الى (روان) يحمل اليه نبأ الرفض ، متلطفا أيما تلطف فى ابلاغه .. ولكن الامير الشاب لم يلبث ان سمع بالعبارات التى انطلق بها لسان «ماتيلدا»، فاذا بكرامته تثور ،واذا غضبه ينطلق جامحا لايعرف حدودا .. اذ ان النظام والثقافة اللذين نشأ عليهما ، لم يفلحا فى

أن يمحوا تماما ـ من نفسه ـ غرائز الفطرة التى بثتها الطبيعة فى هذه النفس ..

وما كان لينتظر منه ـ وهو الامير الشاب ، ذو المكانة ـ أن يبتلع اهانة كهذه تمس منبته ، وتخز أدق نقطة حساسة فى حياته ..

وصحيح أنه ـ عندما اكتسب خبرة الحياة وعرك أحداثها ـ تعلم كيف يعالج هذه العقدة النفسية بفلسفة عملية ، الا أنه عند ماتلقى اهانة الاميرة الرعناء ، كان بعد شابا ، تجرى الدماء حامية متدافعة فى عروقه ، فتثير انفعالاته فى حدة لا قبل له بمقاومتها ..

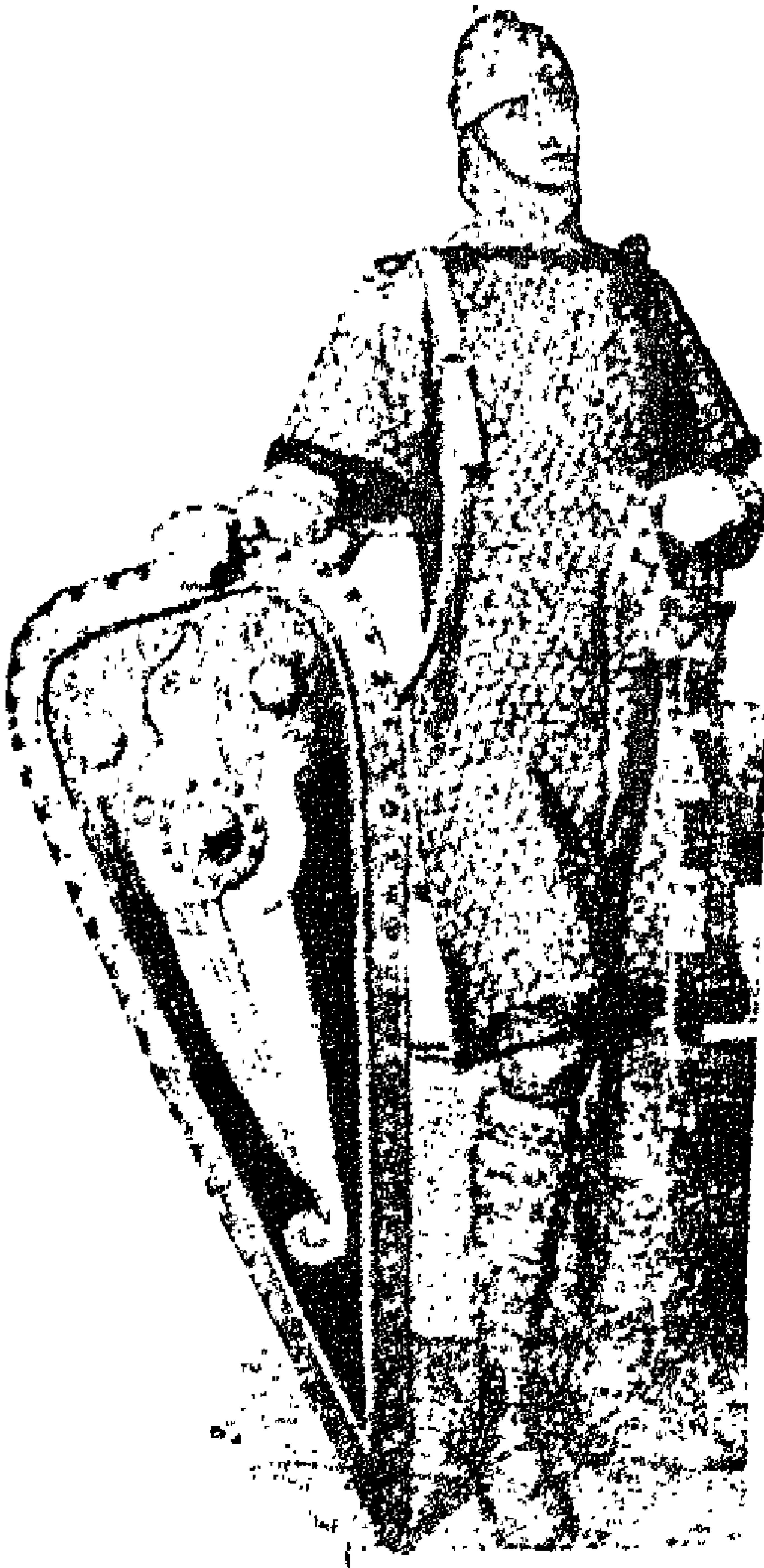
وامتدت يده ـ بمجرد سماعه الاهانة ـ الى سيفه ..**ثم تخاذلت بالسيف ثانية،** حين تذكر ان الاهانة انبعثت من فتاة ، وليس من شيم الفارس الاصيل ان يحارب انثى .. **ولكن مجرد كونها**



الاميرة ((ماتيلدا))
بريشة ((ماتانيا))

انثى ، كان يضاعف من وقدة الاهانة ولذعها .. وما كان ((وليم)) ليهنأ بالحياة مالم ينتقم !

وراح يفكر .. وامعن فى التفكير طويلا ، ثم أقدم على عمل خلد فى التاريخ **بحروف لا تمحى** .. اذ ان أحدا لم يسبقه ، ولا تبعه احد الى مثل هذا العمل !



الدوق وليم
كما رسمه ((ماتانيا))

ستة من الفرسان الغرباء

• **وفى** ذات يوم ، أقبل على مشارف مدينة (ليل) ستة من الفرسان ، اوقفوا جيادهم أمام « خان » من تلك البيوت التى كانت معدة فى ذلك الحين ليستريح فيها المسافرون ، فيطعموا ويشربوا ، ريثما تستريح خيولهم ويغسل الطين والغبار عن سيقانها .. أو يناموا اذا كان الليل قد هبط ؛ ولاسبيل الى استئناف الرحيل .

ونادى المسافرون صاحب «الخان» ، متظاهرين بانهم من التجـار .. بيد أن مظاهرهم وحركاتهم ، كانت تنبى بأنهم من أهل النظام والحرب .. **ونم مظهر أصغرهم ، ولهجته الآمرة ، على أنه رئيسهم ، وصاحب الكلمة فيهم .**

ولم يشأ الستة أن يستريحوا ، بعد ان سألوا صـاحب « الخان » عن قصر أمير (الفـلاندر) ، واسـتدرجوه الى الحديث عن الحراسـة المفروضة على القصر .. بل سرعان ماقفزوا الى صـهوات خيلهـم ، وانطلقـوا خـلال الطـرق الضيقة ، حتى اذا اجتازوا سـاحة السـوق ، عرجوا على شارع ضيق على مقربة من القصر .. فترجل أربعة منهم ، بينما واصل الاثنان الآخران تقدمهما .

« أنا وليم .. ابن الحرام » !

• **واذ بلغ** الاثنـان القصر ، ترجـل احـدهما ــ وكان الرئيس الشـاب ــ واسلم زمام جواده الى زميله ، وتقدم الى الابواب ، فتبـادل حديثا موجزا مع الحراس ، بادروا بعده الى اخلاء سبيله ، فدلف الى فناء القصر ، ومنه الى قاعة الاستقبال .

ولكنه لم يتوقف هناك ، بل نحى الخـدم ــ الذين خفوا لاستقباله ــ عن طريقه ، ومضى قدما .. وقبل ان يفيقوا من دهشتهم ، وينتبهوا الى مافى تصرف هذا الغريب من تحد ، كان الشاب قد بلغ البهو المفضي الى الجناح الخاص بالأميرة « ماتيلدا » ..وفى سرعة عجيبة ، وصل الى بابها ، ففتحه !

وعرفها لاول وهلة ، اذ كان قد حفظ اوصافها عن ظهر قلب ، ورسم لها فى خياله صورة على هدى هذه الاوصاف .. وبهره جمالها ، ولكن صوتها رده الى ماكان قد اعتزمه ، حين صاحت فيه :

ـ من انت ؟ .. وكيف تدخل دون اذن ؟ وماذا تريد ؟

ووقف لحظة ، ثم سار ببطء متعمد ، مقتربا منها .. وببطء اكثر ؛ قال وقد وقف امامها :

ـ انا وليم ، دوق نورماندى .. وليم ، **ابن الحرام !**

وانطلقت الكلمتان الاخيرتان من بين اسنانه التى انطبقت فى نوبة من الغيظ العارم .

تصمد للصاعقة فى ثبات

• **وقبل** ان تفيق « ماتيلدا » من ذهولها ، امتدت يده كالبرق الخاطف ، فامسكت بضفيرتى الشعر اللتين كانتا مهدلتين على صدرها .

ولف « وليم » الضفيرتين حول قبضته التى التصقت بذقنها ، ثم شد الفتاة اليه ، حتى ان انفاسه الساخنة راحت تلفح وجهها ..

وقال وهو يهزها كانها قصبة من الغاب : « اتحسبين ان لك ان تهينينى دون حساب لمجرد انك امراة ؟ .. اتحسبين ان قرابة اسرتك لملك فرنسا ، ولأسرات مالكة اخرى ، نحميك من نقمتى ، فأقدمت على ان تلدغينى بلسانك السام ، ايتها الافعى ! »

وكان يضغط على كل كلمة ، وهو يهز الفتاة بعنف ، غير مشفق عليها .. **واذ تمالكت « ماتيلدا » نفسها ـ بعد ان انجابت المفاجاة ـ راحت تناضل لكى تتخلص من قبضته ، وقد منعتها كبرياؤها من البكاء أو الصراخ ..** ولكن قبضة « وليم » كانت من حديد ، لاسبيل للفكاك منها .. وكانت الوصيفات ـ اللاتى تصادف وجودهن عند مقدمه ـ من الدهشة بحيث سمرن فى اماكنهن ، ومن الرعب بحيث شلت عقولهن ، وجمدت السنتهن فى افواههن .. كانت

المفاجاة غريبة ، وغير مرتقبة ، وسريعة كوميض الصاعقة المنقضة !

عجز عن اجبارها على الركوع

• **ودفع** « وليم » غريمته ، محاولا أن يجبرها على ان تركع امامه ، وهو يصيح مرعدا : «اركعى ، واطلبى الصفح ! .. اركعى ! » . **ولكن كبرياء ((ماتيلدا)) كان اشد واصلب مما توقع ، فقد أبت الفتاة ان تنصاع لأمره فى عناد .** واخذت تتلوى فى حركات قوية ، محاولة ان تقاوم دفعات يده ، وان تتجنب الركوع الذى يريدها عليه .. وهى ــ طيلة كل هذا ــ صامتة ، بادية الشمم والاعتداد .

ويئس « وليم » ــ اخيرا ــ من اجبار هذه العنيدة ، فلم يلبث ان طوح بها الى الارض ، غير مشفق ، ثم غادر الغرفة بخطى واسعة ، ثابتة .. وقد انزاح عن صدره جبل ثقيل .. جبل الغيظ من اجتراء الفتاة ، والغضب لكرامته ولمنبته !

ولم يكن احد قد فطن الى ماحدث فى مخدع الاميرة ، سوى وصيفاتها .. وقبل ان يتخلصن من جمود الذعر ، فتدب الحياة فى اطرافهن ورؤوسهن وألسنتهن .. وقبل ان يعين ما اصاب اميرتهن ، وأن تنشط عقولهن فتوحى الى حلوقهن بالصراخ ــ على الأقل ــ كان وليم «المنتقم» قد طوى البهو ، واجتاز قاعة الاجتماعات ، وبلغ الابواب الخارجية للقصر ، حيث كان زميله فى انتظاره ، ممسكا بعنان جواده ..

وقفز ((وليم)) الى ظهر الجواد ، وسرعان ما كان فى طريقه الى حيث كان الرفاق الاربعةالآخرون ، الذين كانواقد اعتلوا جيادهم ــ هم الآخرون ــ بمجرد ان سمعوا وقع الحوافر ..

ومرق الفرسان الستة مفادرين المدينة ، وكأنهم أطيافه لاتمت الى عالم البشر بصلة ..

مسافر تتقاذفه المشاعر الحائرة

وقطعوا نصف المسافة التى كانت تفصلهم عن حدود (نورماندى) ، قبل ان يكون احد من مطارديهم قد خف وراءهم ..

وكان « وليم » — فى انطلاقه — نهبا لطائفة من المشاعر المتضاربة .. **كان يشعر بشيء من الرضى ، اذ ادب الفتاة الرعناء بطريقة لم يجسر على انتهاجها رجل قبله .. وكان حانقا لأنها غلبته بكبريائها ، وابت ان تركع امامه كما كان يرجو ..** لقد تعرضت لعنف لا قبل لأنثى بأن تحتمله ، ولقد آلمها — ولابد — أشد ايلام ، ومع ذلك فانها لم تصرخ .. ولو على الرغم منها ! .. بل أنها كانت على استعداد لأن تتحمل اضعاف ما تحملت ، دون ان تركع !

ولم يتمالك نفسه من ان يهتف فى سريرته : ((يالها من انثى رائعة !)) .. هذه الكبرياء العارمة : الصلبة .. وهذا الجسد القوى ، اللين ، المرن .. وتلكما العينان اللتان كانتا تصليانه سهاما حادة من الغضب والتحدى ! .. لو ان هذه الفتاة اوتيت قوة رجل وخشونته ، لكانت محاربة تأتى من البلاء مايشبه الاساطير !

وغاظه انه لم يكن يتمالك نفسه من الاعجاب بها ..وغاظه اكثر انه شعر بأن حملته التأديبية قد اخفقت لأنه عجز عن ان يجبر الفتاة على ان تجثو امامه .. **عجز عن ان ينزل بها الهوان والصغار اللذين كان يشعر انهما وحدهما الكفيلان بان يطفئا نار الجرح الذى اصاب كرامته اذ عرضت الفتاة بمولده !**

وزاد غيظه تأججا ، انه لم يصادف أى عناء ، ولم يخض اية مخاطر ، فى سبيل الوصول الى غريمته ، كما كان يتوقع .. كان يحلم بأن تعترضه الصعاب قبل ان يصل الى مخدعها .. وكان يرجو أن يجد – فى خوض هذه الصعاب – مايشعره بعظم العمل الذى اداه للانتقام لكرامته .. ثم ، كان يرجو ان يجد امامه – بعد اجتياز المخاطر – فتاة مذعورة ، ترتمى على قدميه ، وتصرخ فى رعب ، ثم تلتمس منه الرحمة والصفح . فاذا به يجد ارادة صلبة وجلدا متينا ، ونظرات تفيض ازدراء ، وجسدا كأنه سيف من أجود أنواع الفولاذ ، فهو يلتوى دون ان ينكسر !

جيشان يتناوشان على الحدود

• **وهكذا** ، كان «وليم» يزداد – فى كل فرسخ يطويه – اقتناعا بأنه وجد فى «ماتيلدا» صنوا .. وجد فيها الند الذى يماثله تماما ، اللهم الا فى الجنس .. وجد فيها نصفه الآخر !

وفى تلك الاثناء ، كان نبأ ماجرى قد انتشر فى ارجاء قصر « بلدوين » ، فقامت قائمة الامارة ، وارسلت الحملات فى كل اتجاه للحاق بالمعتدى والعودة به ، حيا أو ميتا .. وعندما عادت الحملات خائبة ، لم يعرف غضب «بلدوين» حدودا !

اما « ماتيلدا » ، فقد التزمت صمتا غريبا ، غامضا ، ازاء ماجرى .. وراحت تراقب ، فى غير احتفال ، الاجراءات التى كان أبوها يتخذها للثأر ..

واوفد جيش الى حدود (نورماندى) .. وخف اليه جيش من الامارة .. ولكن الجيشين لم يلتحما ، بل كانت بعض فصائل من كل منهما تغير على حدود الآخر ، فتنهب القرى ، او تشعل النيران فى الحقول ، او تندمج فى مناوشات قصيرة مع فصائل من الجانب الآخر ..

ودامت هذه الحال فترة ، حتى اشتد توتر اعصاب جنود الفريقين ، وبداوا يفقدون جلدهم .. **فلا هم خاضوا حربا ترضي نفوسهم والحمية التي دبت فيها ، ولا هم انصرفوا من الحرب** .. كانوا اشبه بشخص لم يبرح به الجوع ،



ولم يشا الفرسان ان يستريحوا ، بعد ان سالوا صاحب ((الخان)) عن قصر الامير ..

(الرسم من ريشة الفنان ماتانيا)

ولكنه سيق الى مائدة حفلت بألوان من الطعام حركت شهيته وأسالت لعابه ، ثم .. حجز عن المائدة ، فلا هو انصرف عنها ، ولا هو استطاع اليها وصولا !

مفاجأة عندما تم الصلح

• **واذ** استفحل تذمر الجنود ، لم ير المسئولون فى الامارتين بدا من وضع نهاية لهذا الموقف .. وجرت الاتصالات بين الفريقين ، فلم يلبثا ان اتفقا على ان يجتمع مندوبون عن كل منهما ، لوضع معاهدة للصلح بينهما .

وجرت الأمور سهلة. .وتم وضع المعاهدة ، فلم يلبث ان وقعها الاميران وختماها بخاتميهما . ثم اجتمع المندوبون ليتبادلوا الوثائق . وما ان تم ذلك ، حتى فض أحد مندوبى (نورماندى) رسالة كان يحملها ، وطلب من الجميع ان يصغوا اليه .

ووسط الوجوم الذى ساد الجميع ــ اذ لم يكن احد يرتقب ان يكون ثمة شيء آخر بعد تبادل الوثائق ــ شرع المندوب فى قراءة بيان من الدوق وليم النورماندى ، يعرب فيه عن **رغبته فى ان يوقع عقد صداقة دائمة بين الدولتين، مجددا تقدمه بعرض الزواج من الاميرة ((ماتيلدا)) !**

وتلفت مندوبو كل فريق ، بعضهم الى بعض ، غير مصدقين ماسمعوا ، وكلهم يعرفون ماجرى بين الشابين ، وما كان من تواقح « ماتيلدا » ، ومن عنف عقاب «وليم» .. مما لم يكن يرتقب بعده سوى أن تظل العداوة بينهما ما عاشا .

وودوا ان يجدوا فى هذا العرض الجديد مادة للسرور والابتهاج ، **ولكنهم سرعان ما اوجسوا خيفة من ان يقابل بالرفض ، فيعكر هذا صفو الصلح .. وقد يودى به !**

بيد ان احدا لم يكن يملك البت فى الامر .. فلم يكن ثمة

بد من ان يحمل مندوبو (الفلاندر) بيـــان الدوق وليم الى اميرهم .

هكذا الحب .. دائما !

• **وقرا** « بلدوين » البيان على ابنتـــه بصوت يتهـــدج بانفعالات جمعت بين الغضب والانفة والتوجس.. فهو بعد لم يكن قد نسى ان « وليم » اجترأ على حرمة امارته وقصره ، وانه تجاسر على ان يعنف مع «ماتيلدا» . وقد توقع ان تثور ثائرة « ماتيلدا » ، وان يكون رفضها ــ فى هذه المرة ــ اشد فظاظة منه فى المرة الســـابقة . فتـــدور حرب هوجـــاء بين الامارتين ، لاتبقى ولاتذر .. ولكن ، شد ما كانت دهشتـــه عندما رأى الامر يتطور الى عكس ماكان يخشى !.. **فقداشرق وجه الاميرة الحسناء ، واجابت ، وهى تتمالك نفسها : ((قل للدوق وليم ــ يا ابت ــ انه يسرنى ان اصبح زوجة له)) !**

وبهت « بلدوين » .. بل انه ترنح من قوة المفـــاجأة .. وقبل ان يجـــد وقتا ليتمالك نفســـه ، فيسأل ابنته عما اذا كانت فى كامل وعيها وقواهـــا العقلية ، اذا بهـــا تطوق عنقه بذراعيها ، وتنهـــال عليه بالقبلات ، ثم تســـارع الى مغادرة الحجرة قبل ان يتمالك انفاسه المتهدجة !

وراح «بلدوين» يفكر فى الامر ، وهو محير البال من تصرف ابنته .. ولكنه لم يلبث ان قال فى نفســه : ((**ما اشبه الحب بالمشعوذ ، الذى لايكف عن القيـــام بحيل والعاب جديدة ، دون ان ينضب معينه !**)) .. ولم يجد افضل من ان يروض نفســـه على الامر الواقع . وما ان استقر على هـــذا الرأى ، حتى تولاه ما يتولى الأهل من رغبة فى احـــاطة ابنتهم بكل تكريم وكل ترفيـــه ، اذا ما آن الأوان لتزويجهـــا .. فلما عقدت اتفاقية الزواج ، وهب « بلدوين » ابنته من الارض والمال والمجوهرات ، مالا يتصوره عقل !

.. واقيمت الافراح !

• **وعينت** قلعة (او) مكانا لعقد القران .. وكانت قلعة يعتز بها «وليم» ، اذ انه استولى عليها من الكونت « او » ــ فى تلك الفترة ــ بعد صراع عنيف ، وحصار طويل قاس .. وكان « الكونت » سجينا فى القلعة عندما سار اليها العروسان ..

وكان « وليم » اسبق العروسين الى الوصول .. وما لبثت « ماتيلدا » ان اقبلت ، يصحبها ابواها ، وحاشية من النبلاء والنبيلات .. وفى أيام قلائل تحولت القلعة من بؤرة للبؤس والجوع ، الى مكان بديع الرواء ، جميل الزينة ، متألق الاضواء ، حافل بمظاهر الثراء والرفاهية ، وبالموائد المحملة بأطايب الاطعمة .

ولقد صان المؤرخون ــ عبر الاجيال ــ الكلمات التى اجابت بها «ماتيلدا» ، عندما سألها والدها ضاحكا ، وسط الافراح الصاخبة ، عن السر فى أنها رفضت خطبة وليم ــ فى بادىء الامر ــ فى ازدراء وقحة. فقد قالت الحسناء الجريئة :
« لاننى لم اكن قد عرفته ــ اذا ذاك ــ كما اعرفه الآن .. اذ لابد ان الدوق رجل عالى الشجاعة ، موفور الجرأة ، والا ماتجاسر على ان ينفذ الى ، وان يضربنى فى قصر أبى ! »

وكان هذا الرد ابلغ اعتذار محا الماضى ، أمام نبلاء واشراف الدولتين .. وانتشى « وليم » طربا وسعادة ، حتى انه ــ وقد ثمل بفرحته ــ أصدر عفوا عن غريمه الكونت « او » ، ورد اليه قلعته واراضيه ، فقدر الكونت كرمه وسماحته وشهامته ، وصار ــ من ذلك الحين ــ من اخلص اعوانه ، واوفى اتباعه ..



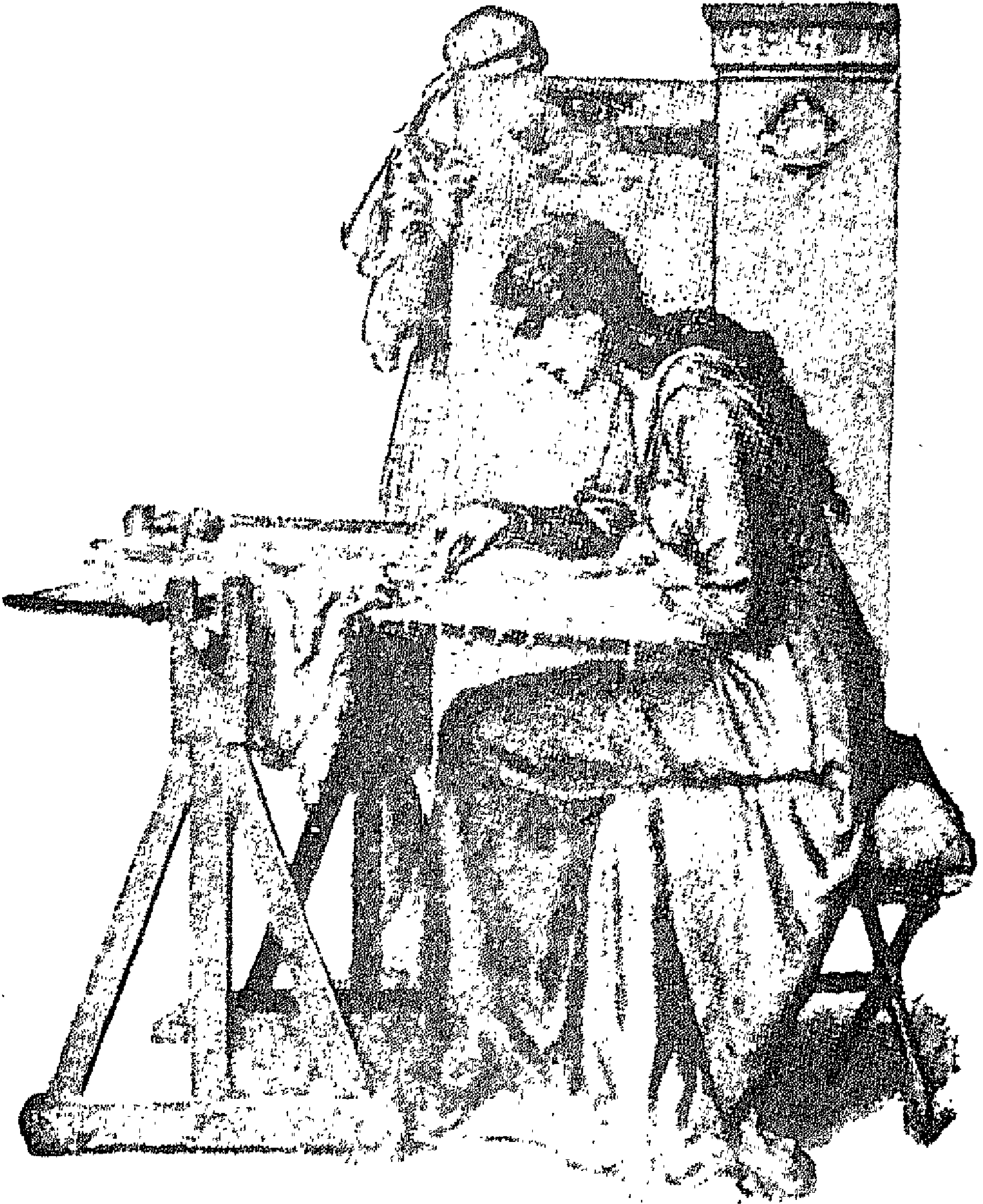
ودفع غريمته ، محاولا ان يجبرها على ان تركع امامه
(المنظر من رسم الفنان ماتانيا)

مشكلات ومؤامرات .. فى انتظار « العريس » !

• **وانتقلت** «ماتيلدا» ـ بعد افراح ومهرجانات صاخبة ـ الى مقر دوقية نورماندى ، لتحتل مقعد «دوقة» الامارة ، الذى ظل خاليا قبلها ثلاثين عاما .. فاستقبلها الشعب بحفاوة وتكريم عظيمين .

على ان كثيرا من المشكلات كان فى انتظار الدوق ، فلم تكد انفعالات الفرح تنجاب عنه ، حتى وجد ان من واجبه ان يتفرغ لمهام دويلته .. **فان (نورماندى) لم تكن يوما فى موقف اكثر حرجا من الموقف الذى كانت فيه اذ ذاك** .. كانت محوطة ـ من جميع الجهات ـ بجيران طامعين ، يصبون فى شوق الى ان يتقاسموا أرضها الخصبة . وكانت المؤامرات تحاك ضد الدوق .. حتى داخل حدوده . بل ان اسقف (روان) نفسه ناصب الدوق العداء ، وحاول بكل ماأوتى من دهاء ان يحول دون اتمام زواجه من « ماتيلدا » . **فلما آبت محاولاته بالفشل ، لم يتورع عن ان يصدر قرارا بحرمان العروسين الشابين من الكنيسة !**

وكاد «وليم » ان يجن غيظا ، فلجأ الى « البابا » ، الذى تكرم بالغاء قرار الحرمان ، على شرط .. ان يبنيا ديرا فى (كاين) ، ومستشفى للعميان ، وان يرصدا اموالا لنفقات كل من المؤسستين . وقد شرعا ـ فورا ـ فى انفاذ هذا الشرط ، فسرعان ما ارتفعت جدران دير القديس ستيفان ، فى (كاين) ..ولكن «موجيه» ـ وهو الاسقف الذى ناصبهما العداء ـ لم يكف عن مكائده .. لا ، ولا قعد « وليم » عن الانتقام منه ، فما عرف التاريخ أن أحدا خاصم « وليم » ونجا من انتقامه ! .. وسرعان ما وجهت الاتهامات الى



خذقت الاميرة فن النسيج المزين بالصور . وقد سجلت بعض أحداث التاريخ على سجادة لاتزال باقية ..
(من رسم الفنان ماتانيا)

الاسقف فى عدة امور ، كان بينها استخدام اشياء من ممتلكات الكنيسة فى أغراضه الخاصة .. وثبتت صحة الاتهامات ، فعزل من منصبه !

تسجل احداث التاريخ على سجادة

• **وواصل** « وليم » بناء دير « سان ستيفان » ، وشيد **بداخله قصرا له ولزوجته** ، اشتركت « ماتيلدا » فى تصميم عمارته ، فكشفت عن براعة فائقة ، وذوق جميل .. حتى ان قاعة الاجتماعات — التى صممت بارشاداتها — كانت افخم قاعة من نوعها فى اوربا بأسرها . **والحق انها حذقت الفنون ، حتى انها خلفت سجادة من نسيج يديها ، تعتبر تحفة تاريخية** .. تلك هى سجادة « بايو » ، التى نقشت فيها — بالابرة — بعض الاحداث التاريخية ، وبينها قصة زوجة بطل من ابطال التاريخ ، كانت مثلها ذات جلد ، وعزيمة ، ووفاء .. الا وهى « بنيلوبى » !

ولقد قدر لحياة ((وليم)) ان تكون سلسلة متتابعة من المآزق والمخاطر التى كان يخوضها غير هياب ، ويوفق دائما الى النجاة منها .. ولقد حدث مرة ، ان دبر ابن عمه — دوق بيرجندى — مؤامرة لاغتياله فى قلعة (فالونى) ، حيث كان قد ذهب فى رحلة صيد ، غير مصطحب حاشيته المعتادة ، ولا حراسه . ولكن الاقدار شاءت ان يسمع أحد مهرجى البلاط همسات بين المتآمرين ، فلم يتوان عن الانطلاق على صهوة جواد ، الى مولاه .. وقضى الليل كله منطلقا ، حتى بلغ القلعة ، فظل يدق بابها بمقبض سوطه ، حتى استيقظ الدوق فى النهاية .. فاستمهل الطارق — اذ عرفه — ريثما يرتدى ثيابه ، ولكن هذا لم يشأ ان يمهله .

وهكذا ، امتطى « وليم » جواده — وهو بثياب النوم —

وانطلق من القلعة .. وما كان هذا لينجيه ، لولا ان العناية الالهيــة الهمته ــ عندما خارت قوى جواده ، بعــد رحيل طويل ــ ان يترك الجواد على حافة الطريق ، ويســعى على قدميه .. **ثم آثرته بنعمة اخرى ، فساقت اليه ــ في الوقت المناسب ــ جوادا هائما ، امتطاه** .. وهكــذا نجا بما يشبه المعجزات ، أو مايشــبه ــ على الاقل ــ المصــادفات التى يبتدعها خيال الروائيين !

ملك انجلترا يعده بتوريثه عرشه

• **وفى** سنة ١٠٥١ ، زار «وليم» انجلترا ، ضيفاعلى ابن عمه الملك ادوارد ، الذى يلقبه التاريخ بـ «المعترف» . وقد تآلف ابنــا العمومة ايما تآلف ، حتى ان ((**وليم)) لم يبرح انجلترا ، الا وقــد ظفر بعهــد من ابن عمه ان يورثه عرش انجلترا من بعده** ..

وانقضت ســنوات ، وادوارد وفى لوعــده ، وليس من احداث تقف فى طريق وليم الى عرش انجلترا ــ اذا ماحان الحين ــ اللهم الا مؤامرة كان « هارولد » ــ شــقيق زوجة ادوارد ــ يدبرها فى الخفاء ..

ولم يفطن ((وليم)) الى هذه المؤامرة الا فى سنة ١٠٦٥ ..

وكان « هارولد » قد ابحر الى (نورماندى) ــ قبل ذلك بعــام وبعض عام ــ فى قارب صيد صغــير ، فاذا عاصفــة تصادفه ، فتدفعه الى اراضى ايرل « بونثيو » ، حيث ألقى القبض عليه ، واودع الســجن .. وما ان ســمع « وليم » بالأمر ، حتى طلب اطلاق سراحه . فلما قيل له ان لابد من فدية فادحة ، كرر الامر .. وشــعر ايرل « بونثيو » ان من الخير له ان لايرفض لوليم امرا .

واستقبل وليم وماتيلدا الأسير بترحاب بالغ وحفاوة ..

وذهبا فى توددهما اليه الى أقصى مدى ، حتى لقد وعداه بأن يزوجاه احدى بناتهما .. وكانت بعد فى السابعة من عمرها !

وفى خلال هذه الضيافة ، أفضى «وليم» الى « هارولد » بما عاهده عليه « ادوارد » ، من ان يورثه عرش انجلترا .. **وبلغ من دهاء ((هارولد)) ، انه اقسم اغلظ الايمان على ان يعاون ((وليم)) على تحقيق هذه الغاية ، وتبوؤ العرش الانجليزى** .. حتى اذا عاد الى انجلترا ، وجد «ادوارد» فى حالة تداع جسمى وعقلى ، وقد تداعت معه شؤون الحكم والدولة ، حتى ان القوانين لم تعد تلقى احتراما كافيا ..

وقبل ان ينقضى عام على عودة « هارولد » الى انجلترا ، مات « ادوارد » ..

((وليم)) يستعد لغزو انجلترا

• **ومع** نبأ وفاة « ادوارد » ، سمع « وليم » نبأ مبادرة « هارولد » الى تولى الحكم ، وتسنم العرش .. **ولقد روى الذين كانوا حضورا فى مجلس ((وليم)) ـ حين بلغه ذلك ـ انه اهتاج الى درجة تقرب من الجنون** ، فلم ينفك عن العبث بأربطة وشاحه ، فى حركات انفعالية ، ثم املى رسالة موجهة الى «هارولد» .. رسالة قاسية ، مقذعة ، ذكره فيها بعهده وايمانه ، ورماه بالخيانة والغدر .

ولقد سجل المؤرخون تفصيلات تلك الفترة العاصفة ، والجهود التى بذلت لتهدئة غضب « وليم » ، والمناقشات الطويلة التى راح يعقدها مع اعوانه ومستشاريه ، والتى **انتهت باصراره على الذهاب الى انجلترا ، ليخلع التاج عن راس ((هارولد)) بقوة السلاح .**

وكأنما كانت الطبيعة فى صفه ، فأوحت الى الناس

بظواهر كانوا يعتقدون انها ايذان بتغير الحاكم .. ومن هذه الظواهر ان نجما مذنبا لاح فى سماء انجلترا.. **وقد سجلت « ماتيلدا » هذه الظاهرة وسواها ، فى سجادة « بايو » التى نسجتها بيديها !**

وأبدى « وليم » فى الأشهر السبعة التالية لموت «ادوارد»، نشاطا وبراعة فى اعداد عدة الغزو ، ورسم الخطط ، وتنظيم القوات .. فحشد ثلاثة آلاف مركب ، وستين ألف جندى مسلحين أيما تسلح ، ومدربين أدق تدريب ، وقد نصب عليهم قادة من النبلاء ذوى السمعة والشجاعة .

سفينة من تصميم « ماتيلدا »

• **وعندما** تم أعداد كل شىء ، اقيم حفل عظيم ، اعلن فيه تعيين « ماتيلدا » وصية على امارة (نورماندى) ، وعين ابن وليم الأكبر منها ــ وكان عمره ١٣ سنة ــ رئيسا عسكريا أعلى للامارة . وأدت «ماتيلدا» والآلاف من زوجات المحاربين الصلوات ، وتوجهن الى الله بالدعاء ، حتى يعود اليهن أبطالهن مظفرين .

ولكن ريحا غير مواتية ، اضطرت الحملة الى تأجيل موعد سفرها ، فتشاءم المحاربون .. **وما كان أعجب أن يستهين هؤلاء الرجال بأشد الأخطار ، ثم يتطيرون لأبسط ظاهرة من ظواهر الطبيعة** .. وكان تشبثهم بالمعتقدات الخرافية مصدر متاعب لوليم ، الذى راح يبذل كل حيلة فى وسعه لكى يطمئن خواطرهم ، ويبدد هواجسهم ، ويوجههم وفقا لما أراد ورسم .

وبينما كان « وليم » فى سفينته « سان فاليرى » القابعة بالقرب من الساحل ــ تحيط بها بقية سفن الحملة ــ فى انتظار ريح مواتية ، فوجىء بمرأى سفينة فخمة تدنو من

الاسطول ، وهى مسلحة اتم تسليح ، ومزدانة أبهى زينة .. وعندما أنعم البصر فيها ، رأى فى مقدمتها تمثالا دقيق الصنع — من البرونز اللامع — لابنه الاصغر ، وقد امسك باحدى يديه بوقا من إبواق الحرب ، وباليد الأخرى قوسا .

وازدادت دهشة ((وليم)) حين تبين ((ماتيلدا)) على ظهر السفينة ، وان بدد ظهورها هواجسه وتريبه .. كانت الزوجة الوفية قد جاءت تجدد مواثيق الحب والولاء لزوجها وبطلها ، وتقدم له هذه السفينة التى أمرت بصنعها — فى خفية منه — لتكون مقرا لائقا للقيادة ، وقد وضعت تصميمها بنفسها ، ووفرت فيها كل أسباب الراحة ومظاهر العظمة التى تليق بزوجها !

القدر يتدخل لينتصر ((وليم))

• **وانطلقت** الهتافات من كافة السفن ، كأنها هزيم الرعد القاصف ، تحيى هذا الوفاء .. وكأنما كان لكل هذه المظاهرة فعل السحر ، فاذا الريح تغير اتجاهها فجأة ، وتصبح مواتية للاسطول .. وأيقن القوم أن « ماتيلدا » قد جلبت معها رضاء الله ..

وما لبثت سفينة القيادة الجديدة — التى أطلق عليها اسم « مورا » — أن نشرت قلاعها الجميلة ، وانسابت فى جلال على صفحة الماء ، وفى مقدمتها الدوق وليم ، يقف ملوحا لزوجته الوفية . **وسرعان ما تحركت فى اثرها ثلاثة آلاف سفينة قوية ، متينة ، تكاد الحمية التى ذكت فى نفوس شاغليها أن تبعث فيها حياة طافرة متوثبة .**

وليس هنا مجال تفصيل حملة «وليم» — دوق نورماندى

ـ وهبوطه ارض انجلترا ، وكيف انه تعثر حين وطات قدماه الارض ، فوقع ، واذا التشاؤم يستبد بجنوده ، حتى اضطر الى أن يكون خشننا فى طرد الخرافات عن عقولهم ، وحتى انه وقف يلوح بقبضتيه ، ويؤكد لهم ان انجلترا أصبحت فى هاتين القبضتين .. ثم كانت معركة (هاستنجز) التى اثبت فيها « هارولد » مهارة عسكرية فائقـــة ، حتى أن « وليم » فقد نصف رجاله تماما ، قبل ان يقدر لسهم أن يصيب من « هارولد » مقتلا ، فيهوى فى ساحة الوغى ..

يستوثق من رضاء الشعب اولا !

• **وانهارت** عزائم الانجليز بموت « هارولد » . حتى ان « وليم » لم يجد عناء يذكر فى الوصول الى لندن .. وهناك، لم يجد الامراء والنبلاء ورجال الكنيسة بدا من ان يقدموا اليه تاج البلاد ..

ومن حق «وليم» أن نسجل له أنه ابى ان يتقبل التاج ، **الا بعد أن تلقى تأكيدات وثيقة بان الشعب كان راغبا فى أن ينصبه حاكما عليه** .. وسرعان ما اتخذت العدة لاقامةحفلات التتويج ..

وشهد شهر ديسمبر من عام ١٥٦٦ ، ثلاثة تيارات من النشاط فى لندن : قيام حكومة جـــديدة ، ذات مشروعات ضخمة لاقرار العدالة والامن .. واقامة قلاع جديدة ، مما يسر عملا لعدد كبير من الناس ، وطامن مخاوف « وليم » من شعبه الجديد .. والتاهب للاحتفال بعيد الميلاد ــ فى ذلك العام ــ كما لم يحتفل به من قبل ..

واختيرت كنيسة ((ويستمنستر آبى)) لتــكون مسرح

الاحتفال بالتتويج ، لأول مرة فى تاريخهـا .. ومع اقتراب موعد التتويج ، اخـذت الخـلافات السياسية تتـلاشى ، وارتسمت الابتسامات الودية ــ بدلا من التجهم ــ على وجوه الجنود النورمانديين ، الذين لم يكونوا قد تعلموا بعد لسان القـوم .. وقابل الانجليز ابتساماتهم بمثلهـا ، وان ظلوا عاجزين عن فهم لغتهم .. وكانت الابتسامات ــ كشأنهـا دائما ــ ابلغ من كل لغة !

أسقفان يتوليان تتويجه !

• ويؤكد بعض المؤرخين أن الاحتفال بالتتـويج اقيم فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٠٦٦ .. ويؤكد بعض آخر انه انما أقيم فى ٢٦ ديسمبر . وسواء صدق هؤلاء أو اولئك ، فان الذى يعنينا هو ان الطرق المؤدية الى كنيسـة « ويستمنستر » ازدحمت منذ الصباح المبكر ــ فى يوم التتويج ــ كمـا لم تزدحم فى اى يوم من قبل .. وامتلأت نوافذ الدور القائمة على جوانبها وسطوحها بالناس ، الذين أقبلوا ليشهدوا موكب الملك ..

وكان الموكب غاية في الأبهـة والفخـامة ، ترفرف فوقه الاعـلام الفرنسية والانجليزية .. وبين هالة من نبـلاء الفريقين ، كان « وليم » يعتلى صهوة جواد اصيل . واينما بدا ، كان القـوم يندفعون الى التصفيق والهتـاف ..

وعندما ترجل ــ اخيرا ــ امام الكنيسة ، سرت همسات الاعجاب فى كافة ارجائها .. وسار « وليم » فى وقار مهيب وسط نبلاء انجلترا ونورماندى ، حتى بلغ المذبح ، حيث كان

اسقف يورك فى انتظاره .. وما لبث الاسقف ان سال علية الانجليز ان كانوا يقبلون « وليم » ملكا عليهم ، فكان جوابهم هتافا مدويا .. ثم توجه أسقف (كوتانس) النورماندى الى علية القوم من النورمانديين بالسؤال ذاته ، فكان جوابهم ـ هم الآخرون ـ هتافا مدويا ..

« ماتيلدا » فى قلبه وخاطره !

● ودعى «وليم» ـ بعد ذلك ـ الى أن يردد القسم والعهد التقليديين ، ففعل بصوت ثابت .. ثم أضاف من لدنه وعدا بان يرعى المساواة التامة بين الانجليز والنورمانديين .

ووضع ـ بعد ذلك ـ الطيلسان الملكى حول كتفيه .

وكانت عينا « وليم » ـ فى تلك الاثناء ـ تتأملان التاج الذى استقر على وسادة مخملية ، وقد راح يستعرض فى ذهنه الاحداث التى انقضت حتى ذلك اليوم .. سنوات الانتظار ، والخيانة ، والتأهب للحرب ، والقتال ..

وفى فؤاده، كانت ثمة حسرة تخالط خفقات الفرح . . حسرة مبعثها افتقاده « ماتيلدا » الزوجة التى كان حبه لها ، ثم رغبته فى أن يثبت انه جدير بها ، سببا فى دفعه الى خوض الاخطار .. والتى كان حبها له منبع الطموح الذى انتهى به الى التطلع الى مملكة الانجليز .. والتى كان تشجيعها خير محفز له على الصمود فى قتال «هارولد» حتى يكون الانتصار خير ما يتوج اولى رحلات سفينتها الفخمة « مورا » ..

وعندما مس التاج حافة جبينه ، تمثل بعين الخيال حبيبته ـ التى كانت على الجانب الاخر من « المانش » تصون له امارته (نورماندى) ـ وقد تألق وجهها بالبشر والابتسام

.. وفى لمحة خاطفة ، تراءى له منظرها ، وقد شد شعرها حول عنقها ، وراح يهزها بعنف مهتاج ، فى لقائهما الأول ..

وهتف فى أعماقه : « اعتقد انني قد كفرت عن وحشيتى .. وهذا التاج خير هدية للحبيبة ماتيلدا ! » .. ولم تعد اذناه تصغيان للأسقف ، اذ مضى قلبه يردد : **« ماتيلدا .. ماتيلدا .. ماتيلدا ! »**

وظلت نبضات قلبه تسرى فى التاريخ ، أشبه بموجات اللاسلكى اذ تسرى فى الاثير ، تحكى أروع وفاء من بطل الى المرأة التى كانت سببا فى أن استهان بكل خطر ، ليكسب لها عرشا وتاجا !

وقدر للحب الذى أذكته « ماتيلدا » فى قلب « وليم » ، ان يكون سببا فى غزو انجلترا ، وتغيير تاريخها وتاريخ التاج فيها !







من حياة الشعوب

عزيزى القارىء :

اللون الذى اخترناه لك — فى هذه المرة — يتناول نقاليد الزواج وعاداته بين قبائل لم تنتظم بعد فى ركب المدنية ، تعيش فى جنوب الكرة الارضية . شمالى استراليا .. هى قبائل « البابو » ، التى تقطن (غينيا الجديدة) .. الجزيرة الشبيهة بسلحفاة الماء !

ومؤلف موضوع « **الزواج لدى قبائل البابو** » Mariage Chez Les Papous — الذى نقدمه لك فى الصفحات التالية — واحد من رجال الدين الذين هجروا أوطانهم ليعيشوا فى بقاع نائية كغينيا الجديدة .. ذلك هو « **أندريه ديبرا** » ، الذى ولد فى عام ١٩٠٢ ، وتلقى تعليمه بكلية « سان بول » وارسالية القلب المقدس ، وعقد العزم — منذ طفولته — على أن يكون مبشرا فى غينيا الجديدة .

وكان لأندريه ديبرا ما أراد .. اذ سافر الى هناك فى عام ١٩٢٩ ، واقام فى الجزء الجنوبى الشرقى لغينيا الجديدة ، حيث تقطن قبائل « البابو » ، فى مناطق وعرة تتخللها الجبال والمرتفعات .

ولديبرا عدد من المؤلفات تناول فيها حياة الاهالى فى تلك البقاع النائية ، كما أنه سجل بنفسه عددا من الاشرطة الاذاعية .. الى جوار هوايته للتصوير السينمائى التى ساعدته فى نقل لوحات عن هذا العالم القصى .

زائر تحت جنح الظلام

• **الساعة** الرابعة صباحا .. الجو حار خانق ، بينما أنا اتقلب فى فراشى داخل « ناموسية » لا غنى عنها فى هذه

المناطق .. وفجأة ، نفذت الى اذنى حركة ما لبثت ان اطارت النوم من عينى تماما .. ولمحت هيئة آدمى انفلت من الظلمة المحيطة بى . فصحت فيه قائلا :

ـ من أنت ؟.. انطق اسمك كى اتبينه .

ـ اسمى اوابارو .. لدى شيء أود أن أذكره لك يا أبى .

وعندئذ خامرنى شعور بالارتياح اذ عرفت الزائر المتسلل فى الظلام .. ودعوت الفتى الى الجلوس ، فجلس القرفصاء على الارض .

فاض به الهوى .. وهى مشغولة بسواه !

• **ومع أننى** لم أكن أتبين صورته تماما ، الا أن صوته ما لبث ان شق السكون والظلام المحيطين بنا ، قائلا :

ـ انك تعرفها .. ماريا أبنة باوبوا . ان حبى لها يكاد يقضى على !

كنت أعرف قصة حبهما ، اذ أن الفتى كان على صلة وثيقة بى ـ منذ أن عمدته فى الكنيسة ـ كما أنه كان فى الوقت نفسه أحد افراد جوقة الموسيقيين بالكنيسة .

وكانت « ماريا » ـ هى الأخرى ـ احدى « بناتى » .. بيد أننى كنت اعرف أن فتى آخر سيطر على قلبها ، بحيث لم يدع فيه زاوية لأوابارو الذى كان فقيرا . ومع ذلك فقد تركته يروى ـ فى جمل قصيرة تتخللها فترات من الصمت ـ قصة حبه الضائع ، الذى لا أمل فيه ..

وانبلج الفجر ، فمضى الفتى لحاله ، وقد جاش قلبه بالأمل ، وتوقع أن اتدخل فى موضوع حبه .. لكننى حرصت تماما على عدم التدخل فى هذه المسألة العاطفية ، اذ لا ارغام فى مسائل الحب !

كان « أندريا اوابارو » شابا فى الثلاثين من عمره ، وهى سن تقدرها قبائل البابو ، وتعدها ذريعة لاحترام صاحبها. **ورغم انه كان وفيا لحبه الأول ، الا انه راح — فى الوقت نفسه — يبحث عن امرأة أخرى ! ..** فكان يحرص — فى كل صباح — على تمشيط شعره الغزير المجعد ، بمشط من الخشب ذى أسنان طويلة كأسنان المذراة ، وعلى طلاء وجهه برسوم بديعة مختلفة الألوان .. ثم يشد بطنه بحزام عريض من قشر الجوز ، فيبدو كالزنبار !

كما انه كان يزين شعره بريش أحمر لامع . أما عنقه وصدره ، فكان يتدلى منهما عقود صفت من المحار وأسنان الكلاب ، بينما كان يحيط فخذيه وساقيه بأساور واربطة من الألياف وأوراق الشجر المختلفة الألوان !

الحب بدل من طبيعته !

• **وهكذا** مضى فى اقامة مهرجان حول نفسه، وفى استلفات الانظار اليه.. **فلم يكن يفعل شيئا سوى أن يتنزه، ويرقص، ويغنى ، كما تقضى التقاليد التى تتحكم فيمن يبحث عن امرأة !**

وعندما ايقن « أندريا » من فشل غرامه، تغيرت شخصيته تماما ، فتحول الفتى الطيب القلب ، الذى كان يخدم الكنيسة بصوته وغنائه ، الى شخص آخر يكمن فى أعماقه لص هائج .. وهكذا يفعل الحب بالمحب الفاشل ، حتى فى القبائل البدائية التى لا تزال تعيش على الفطرة !

أما ماريا ، فقد تزوجت بمن اصطفاه قلبها .. وطبيعى انها لم تكن سعيدة تماما ، الا انها انجبت ثلاثة اطفال كفلوا لها نصيبا من الهناء على الأقل .

مفاوضات الزواج تبدأ قبل مولد العريسان !

• **ومنذ** بضع سنوات . كانت حرية اختيار الفتاةلزوجها امرا لا يمكن التفكير فيه ، بل كان على الفتاة أن ترضخ لارادة واختيار والديها . كما لم يكن من حق الفتى ان يحدث نفسه او يمنيها بالاقتران بفتاة غير التى كانت محلا لمفاوضـــات ومناقشات طويلة بين اسرتها واسرة خطيبها المفروض عليها .. وهى مفاوضات ومناقشات قد تبدأ قبل ان يولد الفتى والفتاة ، احيانا !

غير أن هذه الأوضاع قد تغيرت عقب دخول المسيحية الى هذه البقاع . ومع ذلك بقيت تقاليد الزواج المتوارثة كما هى ؛ لم تكد تتغير فى شىء عما كانت عليه قبل اعتنـــاقهم الدين المسيحى .

وسكان غينيا الجديدة يكونون مجتمعا صغيرا غير عادى ، ذا خصائص شـعبية معينـة ، وتقاليـد وملامح خاصة . وهم يشـكلون ــ فى معظمهم ــ قبـائل « البابو » ، غير ان تقاليدهم وعاداتهم تختلف باختلاف اماكن توطنهم . ففى حالة الزواج ــ مثلا ــ نجد بعض العشـــائر تستخدم الوشم بالنسبة للفتاة التى تكون فى سن الزواج .. لـكن درجة هذا الوشم تتفاوت من عشيرة الى اخرى ، فتقل فى هذه وتزيد فى تلك .. وقد تصل الى درجةتغطية الجسم كله بشبكة كاملة من الوشم ..

يشترى عروسا لابنه بتبرعات العشيرة

• **ولنتناول** الآن حالة نموذجية ، وهى حـالة **الزواج بالطلب** لدى هذه القبائل. فهذا تقليد من التقاليد التى لاتزال سـائدة ، وله اجراءات وعادات عجيبة حقا .

ففى ذات يوم ، دعا أحد أفراد عشيرة « تسميريا » ـ واسمه واروبى ـ كبار رجال أسرته للتشاور معهم فى أمر زواج ابنه . وجلس الجميع يصغون لحديث الرجل الذى قال :

ـ لقد بلغ ولدى « أوبارا » سن الزواج . **وها أنتم جميعا ترون كيف أصبح فتى جميلا يبحث عن امرأة . وتعرفون أن لأخينا « ايرى ايرينا » ابنة فى سن الزواج ، هى « نايمى »**. وهى فتاة قوية ، مجدة ، ستلد أطفالا على قدر من الجمال . وسوف يزيد عدد الآكلين لدينا ، وكذلك سيكون لنا خلف فاضل . **وانى لأرغب فى أن أشتريها لأقدمها لولدى !..** وصحيح اننى امتلك ثروة ، الا انها ليست كافية . ومن ثم فعليكم أن تهبونى شيئا من ثروتكم !

وما لبثت القرابة وصلة الدم ان انصاعتا للطلب ، دون نقاش كبير ..

وفى اليوم التالى ، توجه « واروبى » الى « ايرى ايرينا » فى صحبة عدد من افراد اسرته ، محملين بالثروة ، التى قدروها ثمنا للفتاة الصغيرة !

وما أن بلغ الركب دار « العروس » المرتقبة ، حتى جلس الجميع ـ دون ان ينبسوا بكلمة ـ فى شرفة مصنوعة من الغاب ، تمتد فى مواجهة الدار .. وفى مظاهرة من الفرح ، شرعوا يفكون أطراف ثوب فاخر ، صنع على هيئة نصف القمر ، تحليه قواقع وأصداف وريش طيور ، وقد امتلأ بالهدايا والهبات المختلفة .

مساومة بين والدى العروسين

• **وجلسوا** فى وقار على رأس ما أحضروه معهم ، وهم ساكتون ، لا يثرثرون .. ولم يمض وقت طويل ، حتى خرج



فتاتان من قبائل ((البابو)) تحليان جيديهما بقلادتين من الفواقع ، فوقهما عقود من أسنان الكلاب . وعلى رأسيهما حلية من الاصداف

جميع افراد أسرة « نايمي » ـ فيما عدا « نايمى » نفسها ـ لمعاينة الهدايا المعروضة !

واستعرض « ايرى ايرينا » الهدايا ، وقدر قيمتها ـ فى باله ـ وقاسها بالقيمة التى كان يقدرها لابنته ، وهو صامت . .
ثم لم يلبث ان انسحب مع اهله من المكان ، اشارة الى ان الهدايا لا تليق بالفلاذة المنشودة !

على أن « ايرينا » عاد ثانية الى الضيوف ، وحده ـ فى هذه المرة ـ وجلس اليهم . . وما لبث أن صارحهم ـ فى بساطة ، وغير تردد ـ بأن الثمن المقدم ، أقل بكثير مما تستحق ابنته ، فهى لا تقدر بثمن ! . . **وكانت هذه اشارة لواروبى ، كى يضاعف العرض . فاخرج ـ من حقائب مصنوعة من لحاء الشجر ـ مجموعة اخرى من الهدايا ، اضافها الى تلك المعروضة امامه . .**

ومرة أخرى ، انسحب والد « نايمى » ، وعاد الى كوخه صامتا ، فكان هذا دليلا على رفضه . . ومرة اخرى ـ كذلك ـ أخرج « واروبى » من حقائبه مزيدا من الهدايا ، اضافه الى ما كان معروضا . . وكان « ايرينا » يشهد ما يجرى من عند بابه ، فعاد من جديد . . وتأمل الزيادة ، ثم انسحب مرة ثالثة . .

الهدايا للاهل والاقارب البعيدين !

• **عملية** شاقة ، مملة !. . ولكن التقاليد جرت بها . فيظل والد العروس فى انسحاب واقبال ، طالما ظل والد الخطيب راغبا فى اضافة مزيد من الهدايا ، حتى يقتنع والد العروس فى النهاية بالثمن المعروض ، **فيتقدم ويتناول كل هدية على حدة ، يفحصها ، ويتحسسها ، ثم يرتبها جميعا ، ويتأملها بعين الرضى** . . ولا يلبث أن يتناول حبة من جوز

«الفوفيل» ـ الذى يكثر فى تلك البقاع ـ فيعالجها بأسنانه حتى تنشطر الى نصفين . وعندئذ يقدم نصفها الى والد الخطيب .. **اشارة الى أن الارتباط قد تم بين الوالدين ، وانهما قد تعاهدا على زواج ابنيهما !**

وتلى ذلك حالة من الابتهاج والفرح تعم افراد الاسرتين، فيقومون بمضغ اللادن ، والتدخين ، وتحديد تاريخ تقريبى لحفل الزفاف . ثم يحصون عدد المدعوين ، ويرتبون اجراءات مأدبة الزفاف . وفى النهاية يعدون كلمات التقريظ والمدح للخطيبين ، وهى كلمات تعد بعناية ثم تدفن فى أرض كل من قريتى الخطيبين !

واذ يرحل أهل « العريس » ، يبادر والد العروس بجمع الغنيمة ، ويستعد للرحيل ، كى يطوف على اقاربه البعيدين، فيوزع عليهم ما جمعه من هدايا وهبات .. **ذلك لأن العادة جرت على الا يكون له ـ أو لأحد من افراد اسرته وخاصة العروس ـ حق فى هذه الهدايا !**

وتمر شهور طويلة يكون فيها الاتصال مستمرا بين اهل العروسين بشأن اجراءات الزفاف ، كما يتم فى اثنائها تبادل الخضر والخنازير بين الاسرتين .. بينما يتظاهر الخطيبان طوال هذه الفترة بأنهما لا يعرفان شيئا عما يدور حولهما من احاديث وجدل !

الزفاف يبدأ ب .. غزوة وثورة !

• **واخيرا** يحل يوم الزفاف .. ففى الصباح الباكر ، يقوم افراد أسرة الزوج وأصدقائها ومعارفها بحملة «يغزون» فيها دار العروس ، وهم يمضغون حبات « الفوفيل » ، ويتناقشون ويثرثرون بصوت خفيض .. حتى اذا بلغوا

الدار، أحدقوا بها. وسرعان ماتصدر اليهمأوامر «العريس»، فيهاجمون الدارفى حركات خاطفة ،وهم يعوون ويتصايحون!

وعندئذ تفر العروس ، وتهرع الى خارج الدار خائفة مذعورة ،تشق طريقها بمشقة حتى تصل الى اجمة مجاورة، حيث تقبع وحيدة .. وبعد فترة من الزمن ، تعود الى القرية متسللة فى الخفاء ، الى مقربة من الدار .

كل ذلك والصمت والسكون مطبقان على المكان من حولها .. وماهى الا لحظات ، حتى تأخذ الفتاة فى الصياح، وهى تضرب الارض بقدميها ، وتشق طريقها بين الناس ، موزعة عليهم اللكمات ، و « العض » بأسنانها ، والخدش بأظافرها !

وهنا يأتى دور الأم ، اذ تصرخ صراخا يصم الآذان . ثم تستل عصا غليظة تضرب بها جذوع أشجار جوز الهند التى تظلل القرية ، **وتتنقل بها ايضا من فوق جدران الدور** الى الأرض الرملية ، صارخة مولولة ، **ملقية أقذع السباب واللعنات على هؤلاء الذين جاءوا لخطف ابنتها !** .. ولكن ماذا تستطيع امرأة مسكينة أن تفعل أمام كثرة عددهم وقوتهم ؟.. انها تضطر الى التوقف ، فتلقى سلاحها ، ثم تسقط منهارة وسط ميدان القرية الرئيسى ، وتضرب رأسها وصدرها ، ثم لاتلبث أن ترفع وجهها المبلل بالدموع ،وتصرخ قائلة :

« أواه يابنيتى الصغيرة ! .. لقد انتزعك هؤلاء الوحوش .. انتزعوكى من امك ! أواه ، كيف ستصيرين بدونى ؟ .. وانا ، ماذا سأفعل بدونك ؟ .. انك على قسط وافر من الجمال ، كماانك تجيدين عملك ، فمن التى ستقوم باقتلاع حشائش الحديقة ، ومن التى ستتولى تنظيف واجهة

المنزل ، ومن التى ستعنى بأخواتك الاصغر سـنا ؟ .. آه يا فتاتى ، فلتشهدى بكائى ، ولتسمعى نحيبى .. عودى الى امك المسكينة ! »

ومن الضرورى ان يتم اداء هذا المشهد فى اتقان كاف ، سواء من جانب الفتاة أو من جانب أمهـا ، التى تستعين بمجموعة من صويحبات الفتاة ليقمن بدور الكورس وترديد كلماتها التى تقطر حزنا وأسفا على فراق ابنتها :

اقراط من أذناب الخنازير للعروس

• **واذ** يتم هذا المشهد ،تستريح الأم ومن معها من نسوة وفتيات ـ وهن يلتقطن أنفاسهن بمشقة ـ فوق شرفة دار العروس ، التى تكون قد خلت من سكانها ، فيما عدا الفتاة الصغيرة المختبئة بالداخل .

ويزحف الليل وئيـدا ، فـلا يلبث « الحـراس » الذين يطوفون الدار أن يتركوا مراكزهم خلسة ،واحدا وراء آخر .. **واذ ذاك تحل محلهم نساء أسرة العروس ، اللاتى يسرعن بالالتفاف حول الفتاة لاتمـام زينتهـا** . فيجلسن فى دائرة حولها ، ويشرعن فى طلاء جسدها بزيت جوز الهنـد ، الذى يكسب بشرتها لمعانا ساطعا يبرز معه أثر الوشم .

وما ان يفرغن من ذلك، حتى يلبسنها عددا من «الجونلات» الخفيفة ،ثم يتبعنها بأخرى كبيرة ذات خيوط زاهية الالوان . أما شعرها ،فيصففه على شكل حزمة من خضر «السلاطة»، ويتوج بتاج من الزهور والريش ! .

ويأتى دور العنق ، فيحطنـه بأكاليل طويلة من القـواقع الصـغيرة ، وعقود من أسـنان الكلاب ، تنتهى بهـلال من الصدف . ويعلقن فى أذنيهـا أقراطا من أذناب الخنـازير ،

واخرى رقيقة من قشور السلاحف واوراق الاشجار الزاهية الالوان . ويغطين ذراعيها بأساور من القواقع !

والدا العروس ينصحانها بعدم الفرار

• **وعندما** تنتهى هذه العملية ، تحضر أم الفتاة ووالدها لمشاهدتها ، ويتناول كل منهما وجهها فيضغطه بوجهه ، ويتحدثان اليها حديثا موجزا يتمشى مع المناسبة .. مثل :

« هكذا تتركيننا يا ابنتنا ! لا تحزنى ، فقد رتبنا امورنا . ان زوجك صغير السن ، جميل وقوى ، ولدى والديه ثروة . وستصبحين سعيدة الى جواره .. **اياك ان تتشاجرى معه ، او تحاولى الاعتداء عليه .. اعملى فى حديقته ، ورتبى شؤونه ، وانجبى له اطفالا !** .. اما نحن الشيخان الفقيران فلا نبغى منك شيئا سوى أن تهبينا قطعة صغيرة من لحم الخنزير أو الكنغر والبطاطس وحب الفوفيل ، عندما تتهيأ لك فرصة الحصول عليها !

« والآن ، علينا ان نرسلك الى زوجك .. فلا تحاولى الفرار ! »

وما ان تسمع الفتاة هذه الخطبة الموجزة ، حتى تجيب عليها بالنواح والدموع . ثم يقوم مرافقوها بمعاونتها على الوقوف والنزول الى ميدان القرية ، حيث ينظم الاهالى موكب الزفاف .. وليس لأمها ان ترافقها الى الموكب ، بل تبقى بالكوخ ، وهى لاتكف عن الصياح والولولة !

وفى تلك الاثناء ، يكون « العريس » جالسا مع رفاقه فى وقار ، مستظلين بأشجار غابة قريبة . لكنهم ما يكادون يلمحون الموكب قادما ، حتى يخفوا لاستقباله فى صمت ، متقدمين فى خطوات بطيئة مهيبة .

معركة وهمية قبل الزفاف

• وفجأة تنبعث ضجة عجيبة . اذ تنشق الأرض — فى كل انحاء القرية — عن افراد اسرة العروس ، رجالا ونساء . **فيخرجون مسلحين بهراوات ورماح من ورق ، ومشاعل تحدث فرقعة متقطعة** . ويشقون طريقهم متخللين الموكب ، محدثين صراخا مفزعا . ولا يلبثون ان يلتحموا بأفراد اسرة « العريس » ، فتجرى بينهم معركة وهمية يسودها



العروس تجلس مع شقيقة تصغرها، فى انتظار عريسها، ليلة الزفاف .. وقد ثقبت أنفها ، وأنفذت فيه اسطوانة من الصدف !

الهرج والصياح ، ويتشبث كل من الفريقين بما يخصه فى الزواج .. فهذا ينوه بقيمة « العريس » ، وذاك يعلى من شأن العروس !

وكما تنبعث الضجة فجاة ، تموت فجاة كذلك .. اذ سرعان ما تنتهى المظاهرة ، بعد أن يكون كل من الفريقين قد أدى دوره على اكمل وجه . ثم يعودون الى اعمالهم فى هدوء ، كأنما لم يحدث شيء . اما النساء ، فانهن لايبرحن المكان .

وما أن يصل الموكبان ـ موكب العريس وموكب العروس ـ الى أطراف القرية ، حتى تخف النسوة الى الفتاة الصغيرة ، فيحطن بها ، ويعانقنها وهن يبكين .. **وتتقدم اليها العجائز فيسدين لها النصح ، ويقدمن لها خلاصة تجاربهن فى الحياة الزوجية الطويلة التى مارسنها !**

وتعقبهن الشابات المتزوجات ، فيدلين للعروس بارشاداتهن وتليهن صاحباتها وزميلات طفولتها ، فيتقدمن اليها باكيات ، كأنهن يشيعنها الى المقر الاخير ، اذ يرددن : « وا أسفاه! والهفتاه ! .. أيتها الصديقة الصغيرة المسكينة ، اهكذا فقدناك ؟ .. وداعا ! انك لن ترقصى معنا ، ولن تغنى ، ولن تضحكى بعد الآن ، فكل شيء قد انتهى .. وداعا ! »

وتمضى الأسرتان : كل فى طريقها . فتقوم أسرة العروس بنصف دورة حول القرية ، ثم تعود الى دورها .. **بينما تمضى اسرة ((العريس)) الى قريتها بما حمله افرادها من غنائم ـ ممثلة فى العروس ـ وما تلقوه من ضربات فوق رؤوسهم اثناء المعركة .**

ثم يصعدون بالفتاة الصغيرة الى شرفة منزل «العريس» ، حيث تجلس هناك القرفصاء ، لتتلقى التهانيء من القرويات

اللاتى يتزاحمن اسفل الشرفة ،وهن ينظرن اليها ،ويهنئنها بصوت مرتفع ، بينما يتبادلن التعليق عليها ونقدها بصوت خفيض !

عملية تعذيب للعريس

• أما الخطيب فانه يهرع — وقت وصول الموكب — الى « بيت القرية » ، وهو المأوى العام للعزاب ، حيث يلحق به زملاؤه ، فينهالون عليه بصفعاتهم وتشهيرهم . ثم يجرونه الى الشرفة ، فيطلون جسده بزيت الجوز ، ويحلقون شعر راسه ، ويفتنون فى تزيينه ، وهو صامت لايتحرك ، كأنما قد حكم عليه بالموت !

وما ان تتم عملية تزيين الخطيب ، حتى يقوم أصدقاؤه بدفعه نحو بيت أبيه ، حيث يلزمونه بالجلوس بجانب خطيبته . وعندئذ يرتفع الصياح من كل جانب : « لقد تزوج ابن — — ، بابنة — — ! .. هو .. ها .. ها ! »

ولابد للعريس من أن يرد على هذا الهتاف بهتاف مناسب ، وبهذا يعتبر عقد الزواج معترفا به !

ولو اننا نظرنا الى الفتاة وهى تجلس بجوار فتاها ، لوجدناها قد تجمدت فى جلستها التى تشبه جلسة تمثال بوذا .. فهى تتجاهل تماما وجود فتاها ، وهذا بدوره يدير ظهره لها ، متجها الى أصدقائه ، مشتركا معهم فى ضحكهم ولهوهم ، وهو لا يكف عن التهام حبات الفوفيل أو التدخين .

واذ يكتهل الليل ، ويغلب النعاس القوم شيئا فشيئا ، ينهض الزوج تاركا زوجته ، ليمضى — دون أن ينبس بكلمة او ان يلقى بنظرة على زوجته — الى بيت القرية مع رفاقه، **حيث يقضى هناك ليلة زواجه الأولى وحيدا !**

أما الزوجة الصغيرة، فانها تعود الى دارها.دار والدى الزوج !

التقاليد تسمح بالنهب والسرقة !

• **وما** ان يبزغ نهار اليوم التالى ، حتى تفاجأ قرية « **العريس** » بغزو مفاجىء ! .. فمن حق أسرة العروس – طبقا للتقاليد – انتغزو دوراسرة صهرها، **حيث يجوزلها ان تسرق ،وتنهب ، وتدمر ،كيفما شاء لها .. دون ان يتعرض لها احد !**

والواقع ان الغزاة لايعتدون الا على اموال أقارب صهرهم الشاب وحدهم . وطبيعى ان يتطلب ذلك مهارة كبيرة .. **نهم يمرون** على الدور يفتشونها ؛ ويحملون منها ما يروق لهم ، ويحطمون – أو يتظاهرون بأنهم يحطمون – الاوانى الفخارية التى لم يتح لأهل الدور فرصة لاخفائها ، ممايعد انتصارا للغزاة المهاجمين . **وبقدر ما يكون التخريبوالنهب شاملا للدور وما تحتويه ، وما يحيط بها من اشجار فواكه وحقول خضر ، تكون الغزوة ناجحة موفقة !**

اما اصحاب هذه الدور التى خربت ، فانهم لايبدون أدنى مقاومة او امتعاض ، فليس من حقهم ان يفعلوا شيئا من هذا أو ذاك ، وانما لهم الحق – بعد ذلك – فى الثأر ،حين تتزوج فتاة من قريتهم بفتى من الأسرة الغازية !

عهدالعزوبة ينتهى بتمزيق حزام العريس

• **وتبدا** – بعد ذلك – مرحلة أخرى ، حين لا يبقىامام الاسرة الغازية ما يستحق التحطيم والتخريب . اذ يتوجه افرادها الى « منزل القرية » ، حيث يقبضون على الزوج الشاب ، **ويمزقون علانية حزامه الكبير المصنوع منالقشور،**

دلالة على انه قد ودع عهـد « البحث عن امراة » ، الذى تشير اليه كل من يرتدى مثل هذا الحزام !

أما أهل «العريس» ، فانهم ـ بدورهم ـ يتعقبون الزوجة الصغيرة ، التى تكون قد رحلت مع أهلها ، ويرغمونها على العودة الى زوجها ، حيث يجلسان سويا ـ مثلما جلسا فى الليلة السابقة ـ دون أن ينظر أحدهما الى الآخر . ثم ينفصلان فى المساء ، فيذهب كل منهما للنوم بمفرده !

وفى اليوم التالى ـ الثالث بعد الزواج ـ يصفو الجو فجأة . فيجلس الزوجان المتنافران جنبا الى جنب ، فى هذه المرة .. ولا يلبث البشر أن يطفى على وجه الزوجة ، فتنفرج أساريرها ، وتبدو سعيدة . **ثم تستدير ناحية زوجها مبتسمة ، وتقدم له حبات « الفوفيل » ، وسنابل « التانبول » .. وهو نبات ينمو فى تلك الجهات ويستخدم كغذاء .** أما فتاها فانه يصير أكثر منها جراة ورغبة فى مشاركتها السعادة ، اذ يمضغ اللادن ، ويبتسم ، وينظر اليها ، ويسر فى أذنيها بعض كلمات الحب من مثل : « ان الريح تهب فى الاتجاه الطيب .. سيكون الشاطىء عامرا بسرطان البحر (أبو جلنبو) ! .. وستكون البطاطا جميلة ، كما أن الخنازير تنمو وتنضج ! »

وبهذه التقاليد والعادات ، يكون الجو قد تهيأ للحياة الزوجية كى تبدأ ، ولا يعود طرفاها يشغلان بال أحد . ومع ذلك ، فخلال شهر أو شهرين ـ عقب الزواج ـ **لا يجوز للزوجين أن يجتمعا معا الا فى أثناء النهار ، حيث يشغلان وقتهما باللعب واللهو بين الأغصان المتشابكة الكثيفة ..** وعندئذ ينفسح المجال أمامهما ، وتتكشف الاسرار رويدا رويدا . ثم يحل المساء فتعود الزوجة الى التزين ، وتقوم

بالتنزه فى القرية مستعرضة جمالها ودلالهـا ، وقد تزور والديها أو والدى زوجها .. كل ذلك يتم فى شهر العسل !

فترة اختبار بين الزوجين

• **والواقع** انه لا يعتبر « شـهر عسل » بالمعنى المألوف ، وانما الاصح انه فترة اختبار.. فللفتاة ــ اذا لم تجد زوجها صالحا مناسـبا بعد هذه الفترة ــ ان تشـكو حالها الى والديها. وتكون النتيجة ان يطالب الوالدان اسرة «العريس» بمزيد من الهدايا والهبات !.. فاذا لم تسر الأمور كماتشتهى الابنة ، **فانهما يسـتردانها ، ثم يعيدان لأسرة زوجهـا كل ماحصلا عليه منها ، دون غضب أو ضجيج ، كأنما لم يحدث شىء قط !**

اما اذا مر شهر العسـل بسلام ، فيتحتم على الزوج ان يبنى لنفسـه كوخا لعش الزوجية . ثم يحتفل القوم بهذه المناسبة ، فتقيم اسرة «العروس» مأدبة حافلة بشتى الوان الاطعمة . ويتولى الأب جمع الخنازير السـمينة والخضر والهـدايا . حتى اذا فرغ من اعـداد ترتيبات المأدبة ، فانه **يبعث الى والد « العريس » بعنقود من حب « الفوفيل » .** يكون بمثابة بطاقة الدعوة !

وفى اليوم المحددللمأدبة ، ينتقل اهل «العريس» ومعارفه الى دار الـداعى ، مصطحبين من الهـدايا ما يلحقونه بما قدموه من قبل .

وعند تقديم الهدايا الاخيرة ، ينهض والد « العريس » ، فيلقى خطـابا يحمله فضائل صهره ، ويشـيد فيه بعظمة أسرته الباسلة ، وخاصة ابنته التى صارت زوجة لابنه !

ولا يلبث والد العروس ان يرد شاكرا له حسن تقديره ، بكلمات يغلفها بالكثير من التواضع الذى يعد فى مثل هـذه

المناسبات نوعا من البلاغة ! .. ثم ينادى اقاربه الاقربين . فيوزع عليهم ما جاء به أهل « العريس » من هدايا .. وهنا **نذكر ان التوزيع الاول للهدايا التى قدمت قبل الزواج كان من حظ الاقارب البعيدين فقط !**

وهكذا نجد مبادىء نظام تعاونى بديع ، من وحى الفطرة .. فالعشيرة تكتتب فيما بينها بنفقات زواج ابنها .. واهل العروس يتقبلون الهدايا ليوزعوها على الاقربين من أهلهم .

اما مادية الطعام ، فليست فى الحقيقة مادية بمعنى الكلمة . ذلك لأن الخنازير والخضر تقسم نيئة الى أجزاء ــ ويتولى ذلك والد العروس بنفسه ــ ثم يوزعها على الحاضرين وسط موجة طاغية من الحماس والتهليل .

اما الزوج ، فمن حقه ان يحصل على خنزير كامل ، على أن يوزع نحو ثلثيه على الاقارب والاصدقاء ، ممن ساهموا باكتتاباتهم فى الثروة التى اتاحت له شراء زوجته !

وما أن يتم التوزيع على الحاضرين ، حتى تبتعد كلّ اسرة ، وتنتحى بأفرادها جانبا ، حيث تطهو ماغنمت وفق رغبتها ومزاجها .

.. وهكذا تنتهى احتفالات الزواج الصاخبة فى بلاد (الرورو) ، ويستعد الناس مرة أخرى لزواج جديد ، بعد ان فتحوا أبواب المستقبل أمام العروسين الصغيرين .

الجريمة .. والعقاب



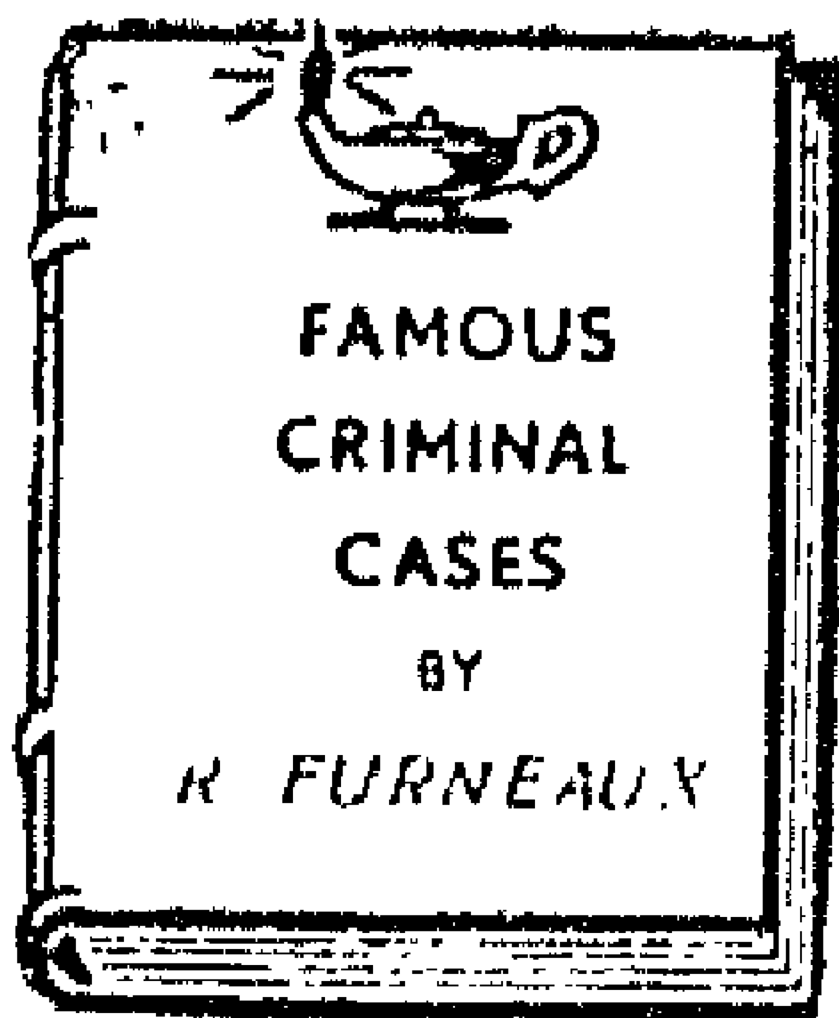
المحاكمات الكبرى

في الماضي والحاضر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك في الاعداد السابقة من كتابي طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هي على التوالي : محاكمة ((جورجيت هودو)) ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين ((بيرك)) و ((هير)) .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم ((سقراط)) .. ومحاكمة ((آن بولين)) ملكة انجلترا في عهد هنري الثامن ، فمحاكمة ((دريفوس)) .. ومحاكمة ((ستافسكي)) .. ثم محاكمة ((مرجريت فهمي)) .. ومحاكمة ملك انجلترا ((شارل الاول)) واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. ثم محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات اثينا القديمة) ثم حلقات من كتاب ((نساء ومآس في ساحة العدالة)) ، و ((القاتل الذى حاز عطف الجماهير)) .

وفي هذا العدد اقدم لك احدى القضايا المعاصرة ، التى اثارت جدلا قانونيا ..



محاكمات أثارت
ضجة في تاريخ
القضاء المعاصر

القاتل الصغير!

للباحث المدقق:
"ر. فورنو"

تلخيص : رمسيس شكرى

عزيزى القارىء :

فى الشهر الماضى ، وقع حادث هو الأول من نوعه فى تاريخ العدالة عندنا .. فقد افلت مدان من الاعدام فى اللحظة الاخيرة ــ والاخيرة بكل معنى الكلمة ــ **بعد أن التف حبل المشنقة حول عنقه ، ولم تبق سوى دفعة بسيطة لاتستغرق من الزمن ثانية ..**

وليس هنا مجال بحث ما اذا كان هذا المدان مجرما حقا، أو ان ثمة ظروفا تكاتبت على حبك شباك الادانة حوله .. وليس هنا ــ ايضا ــ مجال التنبؤ بما اذا كان سيقدر له ان يفلت من الاعدام ، او انه سيساق مرة أخرى الى المشنقة ...

انما اذكر حادثه ، لأن الحلقة التى ستقرأ ملخصها فى الصفحات التالية ــ من هذه السلسلة التى قدمت لك فى العدد الماضى اولى حلقاتها ــ تدور حول **شخص كان من المؤكد ان القضاء سيدفعه للاعدام ، ثم تغلبت الظروف ، فاذا به ينجو من الموت ..** وبطل هذه الحلقة ، ليس كبطل حادث القاهرة .. فهو قاتل فعلا ، وهو قد ارتكب أكثر من جريمة قتل ، وفى ابشع الظروف ــ اذ كان يعتدى جنسيا على ضحاياه قبل قتلهم ــ ثم انه اعترف .. اعترف بكل شىء ..

ولكن محاميه أثار نقطة حساسة ، هى ان موكله مصاب ب « نقص فى قواه العقلية » .. **واثارت هذه النقطة** ــ بدورها ــ جدلا فى الدوائر القانونية : **الى اى مدى يشفع « نقص القوى العقلية » للمجرم ؟ ..** وتشبث بطل هذه القضية بأنه كان « ثملا ، بعد افراطه فى احتساء الخمر » ،



مايكل دوجلاس دودال .. القاتل الصغير .. كانت كل الظـروف تدينـه .. ومع انه افلت من الاعـدام الا ان القـاضى امر بان يظل سـجينا ليأمن المجتمع شره !

بل كل جريمة .. واثارت هذه النقطة ـ ايضا ـ جدلا فى الدوائر القانونية : **الى أى مدى يكون السكر مبررا لفقدان السكران كل شعور بالمسئولية عن اعماله ؟**

ولقد رأى المحلفون ان يبرئوا سـاحة المجـرم بالنسبة للقتل .. ولم يكن امام القاضى سـوى ان يخضع لرأيهم ، ولكنه لم يكن مرتاح الضمير الى اطلاق سراح مجرم كهذا ، وتركه حرا فى المجتمع ، فأصر على ان يصدر « حكما يمكن السلطات من احتجازك بين اسـوار عالية ، الى ان يقتنعوا تماما بانك قد اصبحت فى حالة تسـمح لك بالتجول ـ مرة أخرى ـ فى حرية ، بين اخوانك من بنى البشر » .

الا ترى معى ان هـذا الكلام الذى وجهه القاضى للمتهم أشد قسوة من حبل المشنقة ؟ ..

علامات دائرية صغيرة !

• **لم يكن** ثمة ما يكشف عن القاتل .. كانت ظلمات الغموض مدلهمة حول شخصيته ، يصارعها شعاع واهن من ضوء الحقيقة ، لم تبد على ذبذبته سوى فكرة واحدة ، هى **ان القاتل مصاب بجنون جنسى** ، وانه كان يسطو على المنازل، فكانت له جرائم سرقة ، الى جانب جرائم القتل !

ونشطت سلطات الشرطة ـ فى انجلترا ـ فى ذلك الشهر من سنة ١٩٥٩ ، شهر نوفمبر ، لتبديد هذا الغموض عن المجرم .. فلم تلبث ان عثرت على حذاءين خلفهما وراءه بعد احدى جرائمه ـ ولبس بدلا منهما حذاءين وجدهما فى مسرح الجريمة .. وعلى حذاءيه ، كان الحرفان الأولان من اسمه منقوشين .. وكانت بصمات اصابعه مطبوعة .

ومن هذه الآثار ، على ضآلتها ، استطاع المحققون ان يهتدوا الى ان طريدهم يدعى ((ميك)) . ولكن .. كم من ((ميك)) فى انجلترا ؟!

ثم عثرت الشرطة على ضحية جديدة .. امرأة مخنوقة بجوربها ، فى مسكنها بحى (فولهام) بلندن ، بعد اعتداء وحشى منكر .. وعلى جسدها ، كانت ثمة **علامات دائرية صغيرة .**

وتشبث مفتش الشرطة « بيتر فيبارت » ـ بحى (تشيلسى) ـ بهذه الدوائر ، وقد أيقن من انها الخيط الكفيل بأن يهدى خطواته .. اذ تبادرت الى ذاكرته وقائع جريمة مماثلة ، ارتكبت فى ليلة عيد الميلاد من العام السابق .. فقد وجدت « فيرونيكا موراى » ـ وهى من بائعات الهوى ـ قتيلة فى مسكنها بحى (كيلبورن) .. **وكان جسدها**

يحمل ذات العلامات الدائرية .. على ان المفاجأة الكبرى تمثلت فى ان البصمات التى وجدت فى مسرح الجريمة ، كانت مماثلة لتلك التى وجدت الى جوار قتيلة حى (فولهام) .. وكل منهما تطابق بصمات الشخصية الغامضة .. « ميك » !

((ولاعة)) ترشد الى القاتل !

• **وادرك** رجال شرطة لندن انهم يواجهون مجنونا خطيرا، قد يمضى فى ارتكاب جرائمة دون رادع ..

وبمعاودة البحث فى آخر مسرح لجرائم « ميك » ، عثر المحققون على « ولاعة » غريبة الشكل ، نقش عليها اسم « شركة خليج تكساس لاستخراج الكبريت » . واستعانت السلطات ـ عند هذا الحد ـ بالصحف ، فما ان نشرت صورة « الولاعة » ، حتى تعرف عليها حارس محطة (بيربرايت) .. وظهر انها كانت ملكا لشاب فى التاسعة عشرة من عمره ، من افراد فرقة حرس (ويلز) ، يدعى : **((مايكل دوجلاس دودال))** ..

((مايكل)) ؟!.. ((ميك)) ؟!.. ترى هل قدر للحقيقة ان تنجلى ؟

وتشط رجال الشرطة فى تحرياتهم ، فتبين أن « دودال » كان يكثر من التردد على لندن لقضاء عطلات آخر الاسبوع .. **ثم بدت بارقة من امل جدى ، حين ظهر انه كان متغيبا عن مقر وحدته ، فى الوقت الذى قتلت فيه ((فيرونيكا)) .**

والقى القبض على « دودال » .. وفى يناير سنة ١٩٦٠ ، قدم الى المحاكمة امام القاضى « دونوفان » بمحكمة « اولد بيلى » .. ومثل الاتهام مستر « اليستير مورتون » . اما الدفاع ، فتولاه المحامى « دزموند ترانر » .. وكانت القضية الاولى هى .. مصرع « فيرونيكا » .

وعمد المحامى الى الدفع بأن موكله «غير مذنب» فى الادعاء المقام عليه ، متعللا بضعف قواه العقلية ، الذى كان كفيلا ــ لو اقتنع به المحلفون ــ بأن يخفف من وقع جريمته، فيحولها من جريمة « القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد » الى جريمة « ضرب أفضى الى موت » !

ينسى نفسه عندما يفرط فى الشراب

• **وبدات** المحاكمة بأن خاطب « مستر مورتون » ــ ممثل الاتهام ــ المحلفين قائلا : « عليكم ان توجهوا انظاركم ــ فى هذه الجريمة البالغة الشناعة ــ الى الحقائق المجردة فقط .. لقد عثر على « مس موراى » عارية تماما الا من (بلوفر) يغطى راسها ، **وعلى جسدها خدوش وعلامات دائرية صغيرة، قرر الطبيب الشرعى انها حدثت بعد وفاتها** .. وفوق عينها اليسرى ستة جروح، وبالجمجمة شروخ كانت السبب المباشر فى الوفاة ، أحدثت بآلة ضخمة . كما ظهرت آثار تمزيق فى اعضاء اخرى من جسدها . فلما عثر رجال الشرطة على جثتها ــ بعد وفاتها بأربعة او خمسة ايام ــ عثروا بجوار فراشها على جرس ضخم ، يزن ستة ارطال ، ملوث بالدماء ، كما تمكنوا من كشف بصمات واضحة على كوب ماء .

« فلما اقتيد « دودال » الى مركز الشرطة ، استجوبه كبير المفتشين « اكوت » ، فاعترف بقوله : ((**لقد كان الجميع يناصبوننى العداء .. انني لا اقدم على مثل هذه الافعال الا عندما افقد الوعى من الشراب** .. ومنذ فترة غير قصيرة ادركت خطورة حالتى ، فرغبت فى استشارة أحد الاطباء .. واذا الآن سعيد بالقبض على ! .. وسأدلى اليكم بكل مايخطر على ذهنى من تفاصيل وبيانات :

« ذات ليلة ، منذ عام مضى ــ وقبل عيد ميلاد عام ١٩٥٨

بمليل ـ افرطت فى الشراب ، فى احدى حانات حى (الويست اندا) ، حتى ثملت تماما . وما لبثت ان التقطت احدى البغايا فى ميدان (الطرف الأغر) . واستقللنا سيارة اجرة الى مسكنها فى حى (كيلبورن) . وما أن قضيت منها وطرى حتى استغرقت فى النوم .

« وفى الصباح ، ثار بيننا جدل وشجار ـ لا اذكر سببه ـ وجهت الغانية الى خلاله سبابا بذيئا ، واطلقت على لقب «ابن زنا حقير» . فلم اتمالك نفسى وقذفتها بأصيص زهر . واذ ذاك تقدمت نحوى ولطمتنى بشىء ما على مؤخرة عنقى ، ثم انشبت اظافرها فى انفى وعينى . **فلم اشعر الا وقد اندفعت نحوها ، ثم القيت بها ارضا ، ورحت انهال ضربا ـ دون وعى ـ على وجهها وراسها .** وبعد قليل ، اخذت زجاجة (ويسكى) وتسللت خارج مسكنها ، فى طريقى الى نادى (الجوكى) حيث استغرقت فى سبات عميق !

« ولما استيقظت من النوم ـ صباح اليوم التالى ـ وجدت بقعا من الدم تلوث يدى وملابسى . . فما أن عدت الى المعسكر حتى غسلت ملابسى كى ازيل عنها بقع الدم ، **وقد شملتنى الحيرة بصدد مصدر تلك البقع .** غير اننى ما لبثت ان قرأت ـ بعد يومين ـ فى احدى الصحف ، ان بغيا وجدت قتيلة فى حى (كيلبورن) ، فادركت على الفور اننى قتلتها ! »

يغتصب عجوزا . . فى الخامسة والستين !

• ثم اعترف دودال ايضا بقيامه بالسطو على ثلاثة منازل فى حى (تشيلسى) ، ومنزل من منازل الدعارة فى طريق (فولهام) ، وفندق فى شارع (بوند) . وقد ذكر ـ فى هذا الصدد ـ انه تسلل الى مسكن وسرق منه زوجا من الأحذية ،

تاركا خلفه الحذاءين اللذين كان يرتديهما، واللذين كانا يحملان الحرفين الأولين من اسمه . **كما اعترف باعتدائه على امرأة فى الخامسة والستين من عمرها !..** اذ رفضت الرضوخ لرغبته ، فما لبث أن انقض عليها واغتصبها عنوة ، ثم انهال عليها بمحرك النار حتى قضت نحبها !!

ووصف طريقة قتله « فيرونيكا موراى » بقوله :

« لقد مزقت ملابسها .. وفى أثناء الصراع الذى نشب بيننا ، لففت جوربا حول عنقها . فلما سكن جسدها ــ أخيرا ــ استوليت على النقود التى وجدتها بمسكنها ، وعلى زجاجة من الويسكى .. »

ثم أردف قائلا : « لقد قمت بكثير من « المهمات » غيرها ، ولكننى لا أذكر ــ الآن ــ أين وقعت بالضبط ! »

يعانى من .. مركب النقص

• وبرر « دودال » ارتكابه تلك الجرائم ــ التى كانت تشمل الكثير من حوادث القتل والسطو على المنازل ــ بأن زملاءه فى الجيش **كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى شخص غير مكتمل الرجولة ، ومن ثم حاول ان يثبت لهم خطأ اعتقادهم فيه ..**

ومن قوله فى هذا الشأن : « ان زملائى يفلّون فى الشعور بأننى شخص تافه .. لذلك كنت أفرط فى الشراب ، الذى كان يبث فى نفسى الاحساس بالأهمية !.. غير أننى مالبثت ان أدمنت الشراب بحيث لم أطق له بمادا . وعندما أثمل ، كنت أفعل كل ما يعن لى من نزوات ، ولا أحفل بنوع النساء اللاتى أصاحبهن !

« اننى مسرور الآن للقبض على ، وقد تحسنت حالتى النفسية كثيرا .. لقد شرحت لكم حالى والسبب الذى

ارتكبت من أجله هذه الجرائم . ولقد رغبت ـ منذ شهرين ـ فى ان استشير احد الأطباء ، عله يجد لى علاجا ، غير اننى خشيت ألا يصدقنى ! »

يميل للتخريب .. منذ صغره !

• **وما ان** انتهى ممثل الاتهام من سرد وقائع الدعوى ، حتى استدعى الطبيب الشرعى ليدلى بشهادته ، فقال ان الاصابات التى وجدت بجسد القتيلة ، احدثت بها بعد وفاتها . ثم أجاب على سؤال وجهه اليه ممثل الاتهام ، بقوله أن **العلامات الدائرية الصغيرة التى ظهرت على جسدها ، تشير الى وقوع اعتداء جنسى شاذ عليها !**

وبعد ذلك جاء دور ممثل الدفاع ، الذى كان عليه ان يثبت للمحلفين ان « دودال » كان يعانى نقصا عقليا ، جرده من الشعور بالمسئولية عن أعماله تجاه الآخرين .

ولكى يثبت ذلك ، استدعى شاهدة كانت تعرف القاتل فى طفولته ، هى « مارجريت كومبر » ، احدى عضوات مجلس المنطقة لرعاية الطفولة . وقدمت الشاهدة لهيئة المحكمة الملف الخاص بالمتهم فى المجلس ، والذى أثبت أن **حالته كانت تعد من الحالات المستعصية التى لا يرجى لها شفاء .** وقد وصفته احدى مدرساته بقولها انه كان : « جامحا .. لا سبيل للسيطرة عليه .. ميالا للتخريب ! » . ومما قالته الشاهدة ان شقيق « دودال » روى لها أنه أصيب بنوبة هستيرية ـ فى احدى المرات ـ فحاول ان يشعل النار فى منزله .

ثم جاء دور زملائه فى الجيش ، فاستدعى الشاويش « بيتر نورمان كلوتوارثى » بفرقة حرس (ويلز) ، المعسكرة

فى (بيترايت) لاداء شهادته . فقال انه كان أحد المدعوين في الحفلة التى اقامهـا « دودال » فى أحـد الفنـادق فى (جليفورد) ، بمناسبة عيد ميلاده الثامن عشر ، حيث جرع قدحين كبيرين من «الجين». واذ ذاك سأله القاضى : « ألم تشعر أن واجبك كان يحتم عليك أن توقفه ؟ .. **ألا تعتقد أنه من الضار لفتى فى الثامنة عشرة ان يتناول هذا القدر من الخمر ؟..** ألم تشـعر بأية مسئوليـة نحوه ؟ » ، فأجـاب « كلوتوارثى » بقوله : « كلا .. ما دام خارج المعسكر !»

وتلاه الأومباشى « رونالد هوبكنز » ، الذى عزز شـهادة زميله عن كمية الخمر التى احتساها القاتل . وعندئذ سأله ممثل الاتهام « مستر مورتون » : « وهل خرج سـائرا على قدميه ؟» . فأجاب بقوله : « كلا ، بل حملناه الى الخارج! » .. ثم أردف ان دودال شرب قدحى « الجين » فى ساعتين !

ـ وماذا فعلتم به فى الخارج ؟

ـ وضعناه فى سيارة حتى المعسكر .

ـ وهل خرج فى « الطابور » ، صباح اليوم التالى ؟

ـ كلا .. لقد اصطحبته فى جولة على الأقدام !

واذ ذاك سأله القاضى : « هل ما زلت مصراً على القول أنه شرب كوبين من الجين ، خلال تلك الفترة القصيرة من الزمن ؟ » ، فأجاب : ((**نعم**))

قائد الفصيلة .. كان يعرف !

• **واستدعى** للشهادة قائد الفصيلة الأولى لحرس ويلز ، فقال انه كان يعلم ــ منذ زمن طويل ــ ان «دودال» مصاب بانحراف ، وبما يمكن ان يطلق عليه « جنون العظمة » .. غير أنه يعتقد ان **هذا الجنون كان وليد كونه قصير القامة ،**

ضـئيل الجسم ، واهن البنيـة ، ضعيف الشـخصية . لذلك كان يحـاول دائمـا أن يترك أثرا فى نفوس الآخرين ، لينظروا اليه نظرتهم الى شخص مهم !

واذ ذاك سأله القاضى : « لقد اسـتمعنا الى ما ادلى به بعض الجنود ، وقد قالوا ان المتهم شرب كوبين كبيرين من الجين . . **فهل كنت على علم بذلك ؟ »**

ــ اعتقد ان ذلك حدث فى حفلة عيد ميلاده .

ــ لقد قال شاويش بفرقة حرس (ويلز) انه لم ير من واجبه ان يوقف حدثا فى الثامنة عشرة من عمره عن الاسترسال فى الشراب . **ماذا تعتقد انه كان يتعين عليه ان يفعله فى هـذه الحالة ؟**

ــ لقد كان واجبه يحتم عليه ان يمنعه ، ما دام يعتقد انه قد أفرط فيه .

ــ الا توافقنى على أن شرب ذلك القدر من الخمر ، يعتبر افراطا ، من فتى لا يتجاوز ذلك العمر ؟ . . **هل كنت تعـلم ان الشاويش وقف مكتوف اليدين ولم يفعل شيئا لايقافه ؟**

واذ أكد الضابط انه لم يكن يعرف ، سأله القاضى : **«وهل كنت تقف مكتوف اليـدين ، لو كنت مـكانه ؟ »** .. فكان جوابه : « كلا »

كاد يشنق نفسه لجبنه !

• **وجلس** ــ بعد ذلك ــ كبير اطباء سجن (بريكستون)، على منصة الشهود . فقال ان **« دودال » كان مصـابا بخال فى قواه العقلية ، ناشىء عن عقدة نفسية ، جعلته لا يتلاءم مع المجتمع الذى يعيش فيه** . وكان من مظاهر ذلك انه تعرض للعقاب اربع مرات لتغيبه عن المعسكر دون اذن . وقبل اربع

سنوات ، وجه اليه شاويش فرقته تعنيفا قاسيا .. ولأنه **جبن عن مواجهة الحياة ، حاول ان يشنق نفسه .**

واستطرد الطبيب يقول ان « دودال » أفضى اليه – فى بداية اشرافه على حالته – بأنه اعتاد التردد على لندن فى كل عطلة آخر الاسبوع، ليجرع زجاجتين من المشروبات الروحية. وعندما ألقى القبض عليه ، ابدى ارتياحا بالغا ، اذ رأى فى سجنه انقاذا له من الادمان على الخمر .. وذكر الطبيب ان « دودال » كان يصف جرائمه بكامل دقائقها وتفاصيلها ، الا انه **لم يستطع أن يلقى ضوءا بشأن العلامات الدائرية التى وجدت بجسد « مس موراى » والمرأة التى اعتدى عليها فى حى (فولهام) !**

وختم الطبيب شهادته بقوله : « اعتقد ان اصابته بفقد الذاكرة – بخصوص أحداث معينة – حقيقية وليست ادعاء أو تظاهرا .. لقد كان يعانى من الاعتقاد بأن الجميع ينظرون اليه بازدراء وعدم مراعاة ، مما ينطبق على من يصاب بخلل عقلى ناشىء عن مركب النقص » .

واذ ذاك سأله ممثل الاتهام عما اذا كان فى استطاعة فتى فى الثامنة عشرة من عمره ، ان يحتسى ملء زجاجة من الجين خلال ساعتين ، فرد بالايجاب ، وان استدرك قائلا ان ذلك يحدث أسوأ العواقب، وانه يشك فى ان «دودال» فعل ذلك!.. وأجاب على سؤال وجهه اليه القاضى ، قائلا ان الفتى كان يعانى خللا فى قواه العقلية ، جعله يتصرف – حتى فى حالة تمتعه بكامل وعيه – تصرفات غير طبيعية . وان هذا الشذوذ العقلى هو السبب فى تعطل احساسه بالمسئولية عن اعماله .

كذلك استدعى للشهادة طبيب نفسانى بأحد المستشفيات، كان قد عنى بعلاج « دودال ». فقال انه عند بحثه حالة المتهم،

وجده **مصابا بخلل عقلى وانحراف جنسى** . والمصاب بالخلل العقلى يتصف ـ عادة ـ بالرغبة فى الأعتـــداء ، والاندفاع فى تصرفاته دون تروى ، والكذب ، والانحراف الجنسى، والادمان على الخمر . . لايحدوه ندم أواحساس بالذنب ازاء مايصيب الآخرين من اضرار !

الخمر .. هل تبرر الجريمة

• **وبعد** كل هذه الاقوال ، شرح القاضى وقائع القضـــية للمحلفين بايجاز، وقال انعليهم انيقدروا ما اذا كان «دودال» يعانى خللا فى قواه العقلية ، يجرده من الاحساس بمسئولية ارتكاب جريمـــة القتل . . **فاذا اقتنعوا بذلك ، كان لهم ان يدينوه بتهمـــة ((ضرب أفضى الى موت)) ، بدلا من جريمة ((القتل العمد مع ســبق الاصرار والترصد))** . اما فى حالة اخـــذهم بقول ((دودال)) ذاته ، بأنه ارتكب جرائمـــه تحت تأثير الشراب ، فى الوقت الذىكان ـ أثناء صحوه واحتفاظه بكامل وعيه ـ يتصرف تصرفا طبيعيـــا ، فان **القانون لايرى فى السكر المبرر الكافى ..** فالشخص العادى ، المتمتع بكامل قواه العقلية ، اذا اندفع فى الشراب ، الى أن صـــار فى حالة دفعته الى الاقدام على ارتكاب جريمة قتل ، لايجوز قبول الدفاع عنه بأنه فقد ارادته . أو انه أقدم على فعلته بغير وعى . .إذ ان ماورد فى القانون الجنائى عن التجرد من الاحساس بالمســـئولية ، لم يقصد به تبرير الجرائم التى ترتكب تحت تأثير الشراب .

وكان على المحلفين ان يضعوا فى اعتبـــارهم أن أثنين من الاطبـــاء النفســـانيين عبرا عن رأيهما بأن **مجرد الافراط فى الشراب لم يكن الدافع له على ارتكاب جرائمـــه ، فقـــد كان**

يعاني ــ الى جانب ذلك ــ خللا فى قواه العقليــة ، عطل احساسه بالمسئولية .

وختم القاضي كلمته بقوله : « غيــر انه من حقكم ان لا تتقيدوا باقوال الأطباء . . فاذا ما رايتم ان تتمسكوا بقول المتهم ذاته ــ على اساس ان من الجائز ان يكون أكثر أدراكا لحــالته ــ فان عليكم ان تصدروا حكمكم بادانتــه بارتكاب جريمة : القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد » .

القاضي يحجزه وراء اسوار السجن

• **وقضى** المحلفون ثلاث ســاعات يتداولون فى تفــاصيل القضيــة . وما لبثوا ان عادوا الى قاعة المحكمــة ، فاعلنوا قرارهم ، الذى يقضى بان **«دودال » كان « مذنبا » بالنسبة لجريمة ضرب « فيرونيكا موراى » ضربا أفضى الى موتهــا ، « وغير مذنب» بالنسبة لقتلها عمدا ، على اساس تجرده من الشعور بالمسئولية .**

وما ان فرغ المحلفون من تلاوة قرارهم ، حتى طلب القاضي من « دودال» **ان** يقف ، ثم قال له : « نظرا لوقائع القضية التى عرضت امامى ، أرى انه **ليس مامونا ان اصــدر عليك حكما بالحبس مدة من الزمن ، تخرج بعدهــا حــرا طليقاً ، حتى لو لم تكن بمثل الخطورة التى أنت عليها الآن .**

« لذلك أشعر انه يجب أن أصدر عليك حكمــا ، يمكن السلطات من احتجازك بين اســوار عالية ، الى ان يقتنعوا تمــاما من انك قد اصبحت فى حالة تســمح لك بالتجول ــ مرة أخرى ــ فى حرية ، بين اخوانك من بنى البشر ! »



الزحف الطويل

قصة الصين الحديثة

للأديبة الوجودية الفرنسية :

سيمون دى بوفوار

تلخيص وتعليق : الدكتور أنور لوقا

كاتبة وجودية تشهد تطور الصين

• « **سيمون دى بوفوار** » اسم لامع فى الأدب الفرنسى المعاصر .. انها الكاتبة الوجودية الاولى .. حياتها تطبيق فذ لمبادىء هذه الفلسفة ، منذ زاملت « سارتر » فى دراساته العليا ، فتحررت من قيود بيئة متزمتة ، وانطلقت معه الى ميادين نشاطه المعروف ، تشاطره الفكر والعاطفة والصيت .. وقد انشأت عددا من القصص والابحاث الفلسفية والاجتماعية ـ لا سيما عن وضع المرأة بالنسبة للرجل ـ **وقامت بكثير من الرحلات فى بلاد اوروبا وامريكا وأفريقيا وآسيا** ، وعكفت اخيرا على نشر مذكراتها .. وقد لقيت كتبها الكثير من الرواج ، وترجم بعضها الى عدة لغات .

و «**الزحف الطويل**» ـ الذى ترجمه الاستاذ محمد كمال فايد ـ عنوان بليغ ، اذا رأينا البلاغة فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فقد استعارت المؤلفة لكتابها عن تطور الصين الحديثة ، شطرا من قصيدة شهيرة نظمها رئيس جمهورية الصين نفسها ، الشاعر «ماوتسى تونج» ، ويترجمها البعض ب «المسيرة الكبيرة » . والمعنى واضح فى طول الطريق الذى قطعته القوى الثورية لتحرر الصين ، والنهوض بها من حضيض الفقر والهوان الى مراقى الكرامة الانسانية والهيبة الدولية . و «الزحف الطويل» عنوان بليغ من ناحية اخرى ، اذا نظرنا الى حجم هذا الكتاب ، **وقدرنا أن « سيمون دى بوفوار » تدعو قارئها الى رحلة بعيدة المدى عبر خمسمائة صفحة ..**

على انه كتاب قيم شائق ، رغم ما يشوب بعض فصوله من

الأطناب والجفاف احيانا . واذا كتب قلم « سيمون دى بوفوار » ـ وهى من أكبر عقليات عصرنا ثقافة وذكاء ـ عن التجربة التى تجتازها الصين الجديدة ، وهى من اعظم الأحداث واجلها فى عالمنا الحاضر ، ينبغى ان نحتفل بالكتاب وأن نعيره من وعينا ما يستحق ..

« تعالوا وشاهدوا ! » ..

• وجه الطرافة فى الصين المعاصرة انها ـ على الرغم من قيادة الحزب الشيوعى لثورتها ـ تختلف عن الديمقراطيات الشعبية الأخرى . فلم يتحقق من هذه الثورة سوى النصف ، وما زالت الرأسمالية والملكية الخاصة والكسب الفردى والتوريث أمورا قائمة ، ولكن مصيرها الى الزوال تدريجا فى غير عنف .

ولقد اتيح للمؤلفة ان تنفق فى الصين ستة اسابيع ، بدعوة من الحكومة الصينية ، التى انتهجت سياسة اطلاع مفكرى العالم على تطورها منذ اصدر « شوين لاى » ـ اثناء انعقاد مؤتمر «باندونج» ـ نداءه المأثور : **« تعالوا وشاهدوا ! »** ..

وتبادر الأديبة الوجودية الى ان تنفى عن نفسها شبهة التحيز للصين ومجاملة الحكومة التى استضافتها . انما هى تحاول ان تسجل مشاهداتها تسجيلا موضوعيا ..

واستكمالا لبحثها عن حقيقة الصين ، لم تكتف « سيمون دى بوفوار » بحصيلة ستة اسابيع من الزيارات المنتظمة ، والنزهات الحرة ، والمحاضرات ، والمحادثات ، والمقابلات المتعددة ، والمطالعات ، مما أمدها وهى فى الصين بمعلومات هامة .. بل مضت بعد عودتها الى باريس تسأل الاخصائيين ، وتقرأ ما يرشدونها اليه من المراجع . **ولم تهمل ـ الى جانب ذلك ـ الالمام بالأدب الموجه ضد الصين الشعبية ، ومصدره**

((هونج كونج)) ، التي تتلقى صحف الصين وتتسمع اذاعات راديو بكين وتتسرب اليها الأخبار والشائعات ـ عبر الحدود ـ ثم تصوغ من هذا كله نصوصا هادفة ، تستخدمها (فورموزا) وامريكا .

وبعد توضيح منهجها ذاك ، تعترف المؤلفة بان كتابها « سيصبح غداً قديماً » ، ولكنها تعى ان « التاريخ الذى تجرى الآن فصوله فى الصين تاريخ مشوق ، يثير من الشغف ما يحق معه ان تسجل اللحظات المختلفة التى تؤلفه » .

قصة فندق بكين

• **وقصة** فندق بكين ـ الذى أقامت فيه « سيمون دى بوفوار » ـ صورة مصغرة لتطور الصين . انه يطل على الشارع الرئيسى ، قبالة حى السفارات القديم . وهو يتألف من بناءين ، بكل منهما عشرة طوابق ، ولم يكن الجناح الجديد قد تم اعداده . وفضلا عن الأثاث المعهود من سرر ومناضد ومرايا ، يجد النزيل فى غرفته مذياعا ، وكمية من لفافات التبغ ، وبعض الفاكهة الطازجة ، وزوجا من النعال على السجادة . **وفى غرفة الاستحمام امام الواح الصابون المعطر، شعرت بنت باريس بالخجل لما حرصت على أن تتزود به من الصابون قبل رحيلها** ، لا سيما وفى مدخل الفندق ـ وهو مظلم تنتظم فيه بأسلوب صارم موائد مستديرة ومقاعد من الجلد ـ حانوت يقدم لوازم الزينة وما اليها من اللعب والفواكه والفطائر والحلوى بأثمان زهيدة ، تستخدم البائعة فى حسابها عدادا من كرات الخشب !

اما مكتب الاستعلامات فيصعب عليك أن تستعلم فيه عن شىء ، لأن الحديث لا يجرى فيه الا باللغة الصينية !.. وبالفندق مكتبة تعرض صورا مطبوعة ومجلات انجليزية ،

وترجمات انجليزية لكتب صينية . وبه مكتب بريد وصالون للحلاقة وقاعات للعب الورق والبلياردو ، وقاعة للحفلات تتسع لألف شخص .

وفى قاعة الطعام ، يلتقى مندوبون من جميع شعوب الأرض، فتسرح الأديبة الفرنسية بصرها بين باكستانيات وهنديات ملتفات بالسارى اللامع . وراقصات برمانيات فى ثياب حريرية مطرزة ، ويابانيين يرتدون الكيمونو أو الملابس الغربية، ومهندسين روسيين مع زوجاتهم الممتلئات وأطفالهم الشقر ، ووفود من نساء ايطاليا والمانيا .. بل تلمح وفدا من الصم البكم التشيكيين يتبادلون الاشارات حول احدى الموائد !

وقائمة الطعام مكتوبة بالانجليزية ، والخدمة سريعة جدا ، تقوم بها نساء فى ميعة الصبا يلبسن سترات بيضاء ويربطن شعورهن القصيرة بشريط معقود ، وينجزن تقديم الوجبة فى نحو عشرين دقيقة . وبمثل تلك السرعة ترتب غرف النزلاء ..

اعجب نزوات السادة البيض

• **هذا** الفندق ـ الذى اصبح قلب تلك الحياة الدولية النشيطة ـ كان الى وقت قريب أحد مراكز الحياة الغربية: **بناه فرنسيون ، ثم امتلكه يابانيون ، قبل ان يؤول للصين..**

وفى صالونات الطابق العاشر ، كان ناد انجليزى فرنسى يشتد فيه صخب الرقص والشرب . وكانت أحدى وسائل تسلية تلك الصفوة البيضاء، هى ان تنزل للتبول على الشرطى الواقف فى الساحة ، فهو لم يكن سوى صينى ، رغم زيه الرسمى !.. ولم يكن لهذا الشارع العريض الا نصف اتساعه، بينما كان يمتد حول حى السفارات سور تحميه المدافع الرشاشة .

ويصف الساحة رحالة فرنسي زار بكين سنة ١٩٣٤ ، فيقول : « امام الفندق كانت فضلات قذرة ، ومتسولون قد اختلطوا برهط من الحمالين اصطفت عرباتهم وكأنهم ينتظرون استعراضا ، يبصقون ويستخرجون القمل من ابدانهم ويجأرون بأصوات كالعواء » !

اما اليوم فالساحة مكان لوقوف السيارات . ولا توجد فى بكين سيارات اجرة ولا سيارات خاصة ، اذ جميعها تابعة للخدمات الرسمية . وهى من نوع « بوبيدا » الروسية ، او « سكودا » التشيكية . على أن هناك بعض السيارات الانجليزية ، والأمريكية الفاخرة ، وهى ميراث خلفته حكومة « تشانج كاى شيك » ..

من الفقر الى الثروة

• **وحتى** سنة ١٩٤٩ ، كانت الصين ــ بعد اندونيسيا ــ اشد بلاد العالم فقرا . ففى ١٩٣٩ كان متوسط الدخل السنوى للفرد مقدرا بالدولارات : ٥٥٤ فى الولايات المتحدة ، ٢٨٣ فى فرنسا ، ٣٤ فى الهند ، ٢٩ فى الصين . وكان نصيب الصينى من الغذاء فى عامى ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ يقابل ٢٠ فى المائة من نصيب الفرد فى فرنسا . **وكان متوسط عمر الانسان يرتفع الى ٦٤ سنة فى الولايات المتحدة ، و ٦٢ سنة فى انجلترا ، بينما يهبط الى ٢٥ سنة فى الصين .**

ويردد ولاة أمور الصين : «نحن لا نصنع المعجزات» ، فلم تظهر الكهرباء والقوة المحركة وعربات النقل والآلات الميكانيكية من العدم بطريقة سحرية . واول ما يلفت نظر الزائر هو مقدار الفقر الذى لا تزال عليه الصين الى اليوم . انهم يبنون عند أبواب بكين عمارات ومدارس ومستشفيات ومكاتب ، بدون آلات رافعة أو سيارات للنقل . وانما هناك

بعض العربات « الكارو » ذات عجلات يكسوها المطاط .. ومعظم المواد تنقل على ظهور الرجال فى طرفى قصبة تحمل على الكتف !

ومعذلك فالصين ــ نظريا ــ بلد غنى، ومواردها الطبيعية لم تستغل بعد .. فلا يزال ٨٥ فى المائة من اراضيها غير مزروع ، لا سيما وادى (سيكيانج) الخصيب ، ويبلغ ثلاثة امثال مساحة فرنسا . وفى جوف الأرض الصينية كميات كبيرة من الفحم والبترول والحديد .. ويوم تمتلك الصين المعدات والطاقة اللازمة ، سوف تتفتح امامها امكانيات ضخمة . اما الآن فثرواتها نائمة .

خطوات نحو التقدم ..

• اجل ، بمساعدة روسيا ، وبفضل المنشآت التى زودت بها اليابان منشوريا وقدر للصين ــ بعد ذلك ــ أن تستولى عليها ، وبحكمة التخطيط ومشروعات السنوات الخمس ؛ تقدمت الصين خطوات .. ففى الشمال الشرقى بدات حركة التصنيع ، ولكن ما دامت الآلات لا تصنع محليا ، والمراكز الكهربائية لم تتوفر ، فستظل الصناعة الثقيلة عديمة الانتاج .

على أن الوفرة فى العمال تعوض عن نقص الآلات . وهذا هو سر ارتفاع الأبنية الجديدة فى ضواحى بكين بسرعة مدهشة . ان سكان الصين ليحسبون ضمن مواردها ، فهم قوة ضخمة للعمل .. ومع ذلك فالصين تشكو من ازمة البطالة . ولقد عمدت الدولة ــ لكيلا يظل الناس بلا عمل ــ الى أن تستخدم منهم أكثر مما يلزم. ففى عدد السكان حاليا زيادة ، غير منتجة ، ومع ذلك لابد من اطعامها . **ولن يتم التوازن قبل تنفيذ جميع مراحل النظام الذى بدا تطبيقه ..**

فاذ ذالك ستكفى المحصـولات التى تضـاعفها الجرارات والأسمدة وغيرها، قوتا للعدد المتزايد من الفلاحين والعمال. وسوف يتدفق الانتاج الصناعى فى سرعة .. وبين نهـاية برنامج السنوات الخمس الثالث ونهاية البرنامج العاشر ، يتوقع القائمون على أمر الصين تقدما يجعلها - فى نهـاية القرن العشرين - تضارع أكثر البلاد رقيا .

ولكن المشكلة الآن تتلخص فى اجتياز المرحـلة الأولى . فعلى الصين - لمدة خمسة عشر عاما ، ودون أن تطرأ عليها تحولات فنية هامة - أن تعول أبناءها الذين يتكاثرون من يوم الى يوم .. وتتقى الصين - فى ذلك - كل تأزم، وتحترس من نكسة الفقر ، وتنتهج عـدم الاسراف ، والافادة من مستصغر الاشياء .. انهـا تتجنب الطفرة ، وتستند الى الماضى حتى تستخرج منه الحاضر .. لا تنبذه بل تعد له ، وتستبقيه الى أن يزول من تلقاء نفسه .

هل الصين بلد زراعى ؟

• **تاريخ** الصين هو تاريخ فلاحيهـا . وعلى الـرغم من امتداد المحيط حول الصين من الشرق والجنوب ، لم تنشأ فيهـا - كما نشأت فى حوض البحر الأبيض المتوسـط - حضارة بحرية كبيرة ، وانما ظل اقتصادها « قاريا » .

ودرج الفلاحون على اقتلاع الأشـجار ، فانعدمت ثروة البلاد من الغـابات ، كما تركوا أمر تربية الماشـية للرحل المحصورين فى الروابى . وقد طارت «سيمون دى بوفوار» فوق رقعة الصين ، كما اخترقتها بالقطار ، فراعها الا ترى المراعى والغابات ، والا تسـتعرض سـوى مزارع الحبوب والبساتين الصغيرة !

ذلك أن الأرض الصالحة للزراعة لاتشغل الا ١٧ فى المائة

فقط من مساحة الصين ، ويتكدس فيها الفلاحون متكتظ بالسكان . وتبلغ كثافة السكان اليوم ٢٦٥ نفسا فى كل كيلو متر مربع من الارض الجيدة ، ويرتفع الرقم الى ١٢٠٠ فى الصين الجنوبية . ولهذا لم يعرف الفلاح الصينى — رغم خصوبة الحقول — الا مستوى منخفضا من الحياة .

وثمة علة اخرى للفقر المتواصل . هى الكوارث الطبيعية الدورية ؛ كالفيضانات والجفاف . وهكذا توالت على الصين مجاعات حصدت ملايين الفلاحين . غير أن هذا الاضطراب فى العوامل المؤثرة على الاقتصاد قد ادى الى ظهور فكرة الاصلاح الزراعى فى الصين منذ وقت مبكر .

اصلاح زراعى من أقدم العصور

• كانت الصين فى بداية تاريخها مجتمعا اقطاعيا ، يسخر الاشراف فيه الفلاحين ، ولا يبقون لهم من القوت الا ما يكاد يحفظ الرمق . فبات من المحال تخزين الغلال من عام الى آخر ، ومواجهة الكوارث الطبيعية . وسرعان ما فطن الأمراء الى وجوب تنظيم اقتصادى ، لأن البلاد لاتتمتع من الرخاء بالفسحة التى تخول لهم أن يستغلوها استغلالا فوضويا . ومنذ سنة ٣٥٠ قبل الميلاد ، وزع والى مملكة (تسن) الأراضى على المزارعين ، وفرض عليهم ضرائب تتناسب ومساحة حقولهم . وتعدد بعده من حاولوا أن يستبدلوا بسياسة الاهمال والارتجال نوعا من التخطيط .

ولكن هذا التخطيط كان قصير المدى ، هدف به الأباطرة الى الفائدة العاجلة ، لا الى توفير الأمان والرخاء اللازمين لاستقرار طبقة الفلاحين وزيادة الانتاج .. كان همهم الأول الاستكثار من الضرائب ، وانتزاع فرص الاستغلال والاحتكارمن ملاك الأرض . غيران اتساع رقعة الامبراطورية

حال دون تنفيذ القوانين العليا .. وظلت الأرض ألفى سنة كالكرة يتخاطفها الولاه وكبار موظفيهم ..

وفى العام التاسع بعد الميلاد ، وزع «وانج مانج» الأرض من جديد على الفقراء ، بمعدل ٥ هكتارات لكل أسرة ، واعلن أن **المالك الوحيد هو الدولة** ، وامر بتنظيم السوق وتحديد الأسعار واختزان الفائض من المواد الغذائية ، وتقديم فروض ..ومرة أخرى ، لم يكن الاصلاح خدمة للفلاحين ، وانما كان خدمة للحكومة ضد الاقطاع ، فلما قضت على احتكارات طبقة الأشراف ، وعلى التجاره ، اشتدت وطأتها على الزراع ، الذين وجدوا أنفسهم دون غوث ازاء القحط والفيضانات . وحدثت مجاعة احالتهم الى أكلة للبشر . والى ثوار . **وكانت ثورة هؤلاء الفلاحين ــ الذين اشتهروا بلقب « الحواجب الحمراء » ــ نهاية عهد « وانج مانج »** .

وظلت الارض تتأرجح بين الاقطاعيين وصغار الفلاحين . الى ان قمع « الكومنتانج » حركات الفلاحين ــ فى سنة ١٩٢٧ ــ ولم يترك « تشانج كاى شك » الملكيات الكبيرة تنشأ من جديد على حساب الملكيات الصغيرة فحسب ، بل عهد الى أصحاب العقارات بادارة الأرياف وبمهمة جباية الضرائب . وهكذا ولد اقطاع جديد ، وطغيان منكر .

مجتمع أساسه تقديس الأسرة

• **ووجد** ذلك النظام الاقتصادى الجائر دعامتين قويتين استنداليهما : البناء الاجتماعى للصين ، ونظرة أهلها الدينية للحياة . **فمن المعروف أن المجتمعات الزراعية تقوم على أساس الأسرة** . وفى الصين كانت الأسرة تخضع لسلطة شيوخها . وكانت القرية من رهط واحد ــ اى أن جميع أفرادها ينتمون الى جد واحد ــ والأسرة خلية لاتقبل

الانقسام ، وترتبط بأرض تملكها وتزرعها جماعيا ، وتعيش فى نظام من الاكتفاء الاقتصادى المصغر .

ولكن المقومات التى ادت الى الترابط بين اعضاء هذه الجماعة الصغيرة المنتجة على حدة ، جعلت الفرد عبدا لتلك الجماعة . ولقد قدست كل المجتمعات الزراعية آلهة تختص برعاية الأسرة ، غير أن «الكونفوشية» بالفت فى هذا الاتجاه فوطدت البناء الاقطاعى للأسرة .. وصاحبتها معتقدات تنسب للجماد أرواحا ، وتخضع الفلاحين فى حياتهم اليومية لاوان شتى من التنجيم والسحر ، والتحريم والتحليل ، كانت وبالا عليهم : كالتشاؤم من حفر الآبار فى شرقى القرية ، او فتح باب فى الحائط الجنوبى .. الخ .

ثورة الفلاحين أم العمال ؟

• **هل** الثورات الاشتراكية من صنع العمال وحدهم ؟

لقد اقر « لينين » انه فى بلاد الشرق ــ حيث تتميز الملكية الكبيرة لا بطابع راسمالى بل بطابع اقطاعى ــ ينبغى اعتبار صراع الفلاحين الاجتماعى عملا تقدميا . **وكان من اهم آرائه واطرفها فكرة تحالف طبقة العمال الثائرة مع طبقة الفلاحين الفقراء** .

واستوحى ((**ماوتسى تونج**)) حالة الصين ، فامعن الى ابعد مما ذهب اليه « لينين » ، ونادى بأن تكون طبقة الفلاحين هى العامل الرئيسى للثورة . فكان الاصلاح الزراعى فى الصين أول هدف سعى اليه الشيوعيون ، وكان توزيع الاراضى خير اداة استخدموها لضمان انتصارهم .

وفى سنة ١٩٣٥ اوقف التوزيع بقصد حث كبار الملاك على الانضمام الى جبهة المقاومة ضد اليابان . واقتصر الشيوعيون على تخفيض الدخل وتحرير الزراع من ديونهم .

ولكن المصادرات لم تلبث ان استؤنفت ، وقام « مؤتمر زراعي قومي» بوضع قانون صدر في سنة ١٩٥٠ ، وبمقتضاه احتفظ الفلاحون الأغنياء من الأرض بالجزء الذي كانوا يفلحونه بأنفسهم . اما الأجزاء التي كانوا يزرعونها بايدي الأجراء ، فقد أخذت منهم ، ولم تمس حقول الفلاحين المتوسطين . واعيد توزيع الأراضي المصادرة بين فقراء الفلاحين .

حكمة الاصلاح الجديد

• تم هذا الاصلاح بأقل قدر من العنف ..مع الحرص على تجنب التسوية بين الفلاحين . **فقد اهتم في جوهره بالانتاج ، فترك للفلاحين الأغنياء والمتوسطين مساحات من الأرض اكبر من تلك التي اعطيت للفلاحين الفقراء .**

وانتهى تنفيذ الاصلاح في أغسطس سنة ١٩٥٢ ، فكان مجموع ما وزع ٤٧ ميلونا من الهكتارات ، انتفع بها حوالى ٣٠٠ مليون من الفلاحين ، أى ٧٧ في المائة من المشتغلين بالزراعة . والأقليات الوطنية وحدها هي التي لم تتأثر بالقانون ، تشجيعا لها والتماسا لولائها .

وصاحبت تنفيذ الاصلاح عملية ايقاظ الوعي الطبقي عند الفلاحين . فصدرت التعليمات للموظفين بألا يستبعدوا الملاك مباشرة ، بل أن يوجهوا الفلاحين أنفسهم الى التخلص منهم ، لأشعار هؤلاء المستضعفين بقوتهم ، واستئصال خوفهم من سيطرة النظام القديم . **ولكنهم في الواقع كانوا خائفين ، من فرط ما اعتادوا الخضوع السلبي لسادتهم .** وتحول الخوف في نفوسهم التقية الى شعور بالذنب ، فباتوا يخشون غضب السماء ، وواصل بعضهم دفع جزية سرية للمالك السابق !

وتعلمت الحكومة - من التجربة الطويلة فى المناطق المحررة - انه لايجب ان يثق المسئولون ثقة عمياء فى تلقائية مجموع الفلاحين ، **وهم فى درك من التخلف يمنعهم من الاجتراء على تقدير مصالحهم الخاصة** . ومع ذلك عمد الزعماء دائما الى أن يعتبر الشعب الصينى الثورة ثورته ، يقوم بها عن رغبة ، ويحصل على ثمارها بجهوده : فالحكومة لم تمنح الفلاحين أرضا ، وانما أعانتهم ببراعة فى الاستيلاء عليها . وهذا التعاون بين موظفى الدولة والشعب من أهم مميزات الثورة الصينية .

على أن القادة الشيوعيين لم يعتبروا توزيع الأراضى غاية فى حد ذاتها ، وانما اعتبروه مرحلة أولى من مراحل حركة ينبغى ان تفضى الى النظام الجماعى . وعندما تنمو فى البلاد طبقة عمالية ، وتتمكن الصناعة من وضع المحراث محل الفؤوس ، فسوف تلغى الملكية الخاصة ، وينسد الطريق المؤدى الى تركيزها وعودة الاقطاع .

والمشكلة الوحيدة هنا تنحصر فى اختيار الخطة . وهى مشكلة أساسها الوقت ، ويلخصها هذا السؤال : كيف السبيل الى بلوغ الهدف بأسرع ما يمكن وبأقل التكاليف ؟ وهل ينبغى للنظام الجماعى أن يصاحب استخدام الآلات فى الزراعة أم أن يسبقه ؟

الجمعيات التعاونية هى الخطوة الثانية

• واتضح ان الحل الثانى هو الأفضل : فلن يتم تعميم العمل بالآلات قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما ، يولد خلالها للفلاح الواحد عدة أولاد ، فتزداد أعباؤه ، على حين يظهر التفاوت فى المقدرة على العمل . وقد يضطر بعض فقراء الفلاحين الى بيع أراضيهم فتكبر ممتلكات المتوسطين

والأغنياء ، وهكذا ينشأ فقراء جدد ، ومتوسطون جدد ، وأغنياء جدد ، ويستأجر هؤلاء جهود اولئك ! .. **لابد اذن من الحيلولة دون العودة الى الاستغلال والراسمالية .**

ومن ناحية أخرى ، لابد من زيادة الانتاج . فما زالت الاراضي البكر خارج دائرة النشاط . وتفتيت الأرض ، وقلة الأدوات ، والمشاركة فى قطعان الماشية ، تعوق الفلاحين عن التوسع فى الزراعة . يجب تغيير هذه الاحوال .. على انه لن يتسنى للفلاحين تحسين ادواتهم الا اذا اصبحت مواردهم جميعا مشتركة . **ولن يستغلوا الأرض استغلالا منطقيا الا باتباع تخطيط جماعى ، فمن الضرورى اذن ان يتجاوزوا مرحله العمل الفردى .**

وهكذا تؤدى فكرتان مختلفتان الى خلاصة واحدة ، هى وجوب اتباع النظام الجماعى بأسرع ما يمكن ، لتلافى بعث الراسمالية الريفية ، ولزيادة دخل الفلاحين والدولة .

وبدأ الزعماء بالسعى الى بلوغ الهدف الثانى أولا ، واضعين نصب أعينهم ان يقتنع الفلاح بأن الجمعيات التعاونية وحدها هى التى تستطيع ان تقيله من الفقر .. فهى وحدها التى تسير به تدريجا نحو النظام الجماعى .

مراحل نظام التعاون

• **المرحلة** الاولى هى « فرق المساعدة المتبادلة » . وتلك وحدات كونها الفلاحون بعد الاصلاح الزراعى ، مبدؤها تجميع العمل ـ دون المساس بالملكية الخاصة ـ مما يتيح امر تخطيطه . فمثلا ، كانت هناك قرية مؤلفة من ٢٣ اسرة ، تملك كلها ٣ جاموسات و٣ سواق (وكلها ملكيات خاصة) ، وكانت بعض الأسر تضم عددا من الرجال الأصحاء يزيد عن حاجة زراعة نصيبها من الأرض ، بينما تنقص الأيدى

العاملة فى اسر اخرى . **فادرك الفلاحون انهم اذا اشتركوا فى العمل ، استطاع الخمسة والثلاثون رجلا معا ـ دون خســــارة يتجشمها أحد ـ زراعة حقول القرية كلها .**

وبالفعل نظموا انفســهم اول الأمر لفترة الأعمال الضخمة ، واذا بمحصولهم يزداد ، فقرروا ـ فى العام التالى (١٩٥١) ـ انشــاء فرقتين للمســاعدة المتبادلة الدائمة . وراحوا يوزعون على كل اسرة حصة من الأجور ، مقــابل كل حصة تؤدى من العمـــل .. ويتبع ذلك جزء معين من الارباح كذلك . أما الجاموس والسواقى فكانت تستخدمها الجماعة نظير اجور معينة تؤول لأصحابها .

على أن المنازعات لم تلبث ان كثرت حول الأجور وتقسيم العمل . ونشب الخلاف بين موظفى الدولة والعناصر التقدمية وكتل الفــلاحين .. وبعد مناقشــات عديدة ، تقرر نصاب لمتوسط العمل ، روعى فى تحديده نوع الأرض ومساحتها . وادخل منهج مثله لتقدير الانتاج .

وفى تلك المرحلة الأولى ، يحتفظ كل فــلاح بحق الرقابة التامة على أمواله .

وأما المرحلة الثانية ، فهى الجمعية التعــاونية على نمط سمى « شبه اشتراكى » .. وفيها تحترم الملكية ، ويكون الانتفاع بالريع مشتركا. **وهنا تعتبر الاراضى الخاصة جزءا من مال الجمــاعة ، ولكن الفــلاح يتقــاضى دخلا دوريا عن الماشية والأدوات التى تفرضها الجمعية** . وهو يستطيع ـ متى شاء ـ أن ينسحب ، وأن يسحب ماله .

ويقدر العمل الذى يؤديه كل أمرىء بعدد من الأسهم مع مراعاة الوقت والانتاج . وتوزع الأرباح بين أعضاء الجمعية بنســبة راس المال العقــارى الذى قدمه كل عضو ، وعدد الأسهم التى نالها ، ويخصص جزء من الأرباح لشراء السماد

والآلات ودواب الحمل وما الى ذلك . وعلى الأعضاء الجدد ـ عند التحاقهم بالجمعية ـ ان يدفعوا اشتراكا يشترون به الحق فى الانتفاع براس المال الذى قد تجمع من قبل ، وهو فوق ذلك بمثابة صندوق التأمين .

وقد بدات هذه الجمعيات التعاونية فى الانتشار منذ ١٩٥١ . وتانى المسئولون فى تعميمها ، خشية اثارة عداء الفلاحين ، وهم يحبون المهد الذى جعل منهم ملاكا ..

فى قرية تعاونية

• **وقد** زارت « سيمون دى بوفوار » عدة قرى تعاونية (شبه اشتراكية) فى شمال الصين. فأعجبت فيها بالنظافة، وبان جميع القرويين يرتدون ملابس قطنية زرقاء محترمة .. والبيوت متشابهة ، بنيت من آجر يخالطه القش ، يسبق كل بيت فناء حوله سياج من الطين ، وعلى الأرض ـ التي عنى بكنسها ـ كانت الذرة تجفف .

والفلاحون لا يعرفون الجوع الآن .. انهم يأكلون الذرة البيضاء مسلوقة ، والخضر والشعرية ، وخبزا من أجود أنواع القمح ، وعجائن من فول الصويا. .وفيما ندر ، شيئا من اللحم والبيض. وليس فى بيوتهم كهرباء ،ولكنهم يسمعون اذاعة بكين من أجهزة للراديو ذات بلورات من كبريتات النحاس . وكثير من الفلاحين يملكون الدراجات .

وقد بنوا بيوتا من الحجر لتكون مقرا لجمعيات البيع التعاونية ، واخرى لاسكان من لم تعد بيوتهم مأوى صالحا. واشترت الجمعية التعاونية مضخات لتيسير اعمال الرى . والضرائب معتدلة (١٢ ٪ من الايرادات) . والاسعار مستقرة. وعند الحاجة ، تقدم الدولة قروضا بلا أرباح . وللفلاحين صندوق «اغاثة» لاعانة المرضى والطاعنين فى السن ، وعلاج

طبى مجانى . انهم لا يعرفون الرخاء بعد ، ولكنهم نالوا شيئا ثمينا هو الحياة الآمنة .

فى قرية اشتراكية

• ثم زارت المؤلفة قرية تتبع احدى جمعياتهم التعاونية ذات النظام « العالى » .. أى اشتراكية خالصة ، وهو شىء ما زال نادرا . **والفرق بينها وبين الجمعيات التعاونية شبه الاشتراكية ، أن المالك لايتقاضى تعويضا عن الارض التى يقدمها للجمعية ، وتحتسب الأرباح علىاساس العمل الذى يؤدى فقط** .. وفى هذا مجلبة للخسارة بالنسبة لأصحاب الحقول الواسعة الجيدة التربة . ولكن هذه الخسارة تعوض بالزيادة فى الانتاج . ومعان الأرض تظل ملكا للفلاح ، ويستطيع ان ينسحب وان يسترد ماله ، الا انه يفقد كل علاقة خاصة بأرضه طالما ظلت فى نطاق الملكية الجماعية ، وطالما ظل هو عضوا فى الجمعية التعاونية . ومحظور على الجمعيات التعاونية استغلالجهد الغير او استئجار العمال الزراعيين لأمد طويل ، او عقد صفقات على الأرض او على البذور . .وتدل **الاحصاءات ـ فى هذهالناحية ـ علىتضاعف الانتاج بفضل هذا التنظيم ، كما تدل سعة البيوت واناقة السيدات هنا على ارتفاع مستوى الحياة .**

واستقت « سيمون دى بوفوار » من رئيس الجمعية التعاونية ـ وهو فتى شديد الحيوية والذكاء ـ المعلومات التالية : الانتاج موضوع برنامج اجمالى وبرنامج تفصيلى . فالسماد يوزع بطريقة تكفل تنظيم الخصب تبعا لحاجة كل جزء من الأرض. وبدلا من ان يقوم كل امرىء بجنى محصوله من الشناى ، يتركز الجميع فى المناطق التى يبلغ فيها النبات درجة النضج اللازمة . وتخصص الأراضى لزراعة الأرز أو

الشاى او الحبوب حسبما تصلح له . ولوضع برنامج العمل فى كل فصل ، يعتمد القوم على الخبرة السابقة ، ويقترح الأعضاء ما يرون ثم يتناقشون . ولتوزيع الارباح ، يتبعون تقدير حصص العمل ، اذ تقدر كل مجموعة فى نهاية اليوم عمل كل من افرادها مع مراعاة الكم والكيف .

وتتجلى فائدة التنظيم الجماعى أيضا فى غرفة التجفيف. ومعظم القرى لاتملك بعد مصانع لتجهيز الشاى . فالشاى الأخضر – وهو اعم فى الصين من الأسود – يمتاز بانه لايتخمر . والصينيون يحمصونه تحت درجة حرارة عالية. وفى هذه القرية يضعونه فى دنان توقد تحتها نار دائمة ، ويقلبونه بالأيدى ليلة كاملة . ومثل هذا العمل فى الانتاج الفردى يحتاج الى شخصين على الأقل ، احدهما يغذى النار بالوقود والآخر يحرك الشاى . واما هنا ، فيكفى لثمانية احواض تسعة اشخاص بدلا من ستة عشر ، اذ يتولى الاشراف على الجميع شخص واحد . هذا الى جانب الاقتصاد فى المكان ، لان الاحواض كلها تشغل غرفة واحدة .

وفى القرية جمعية تعاونية للمبيعات ، ومركز صحى تقيم فيه ممرضة تهتم بحالات الوضع والتطعيم والأمراض غير الخطرة . ويقوم طبيب بعيادة القرية دوريا ، وفى الحالات العاجلة يذهب اليه رسول بدراجة ليدعوه .

وتتسلم دور الحضانة الأطفال ريثما تعمل الأمهات فى الحقول. وتنظم دروس للأميين واخرى لغير الأميين، وتقدم فرقة مسرحية حفلات فى الأعياد . . كما حوربت الخرافات الضارة، والعادات غير النافعة . وافلحت حملة الاصلاحات التفصيلية فى رفع مستوى الحياة الريفية .

ربط الزراعة بالصناعة

• وتشجع الدولة الفلاحين – فى نطاق لا يزال ضيقا – على استصلاح الاراضى . وفى برنامج « التنمية الزراعية » بيان المشروعات التى يجب أن تتم بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وهى انتاج المحاريث الآلية الحديثة ، والأسمدة ، والمضخات، ومحاربة امراض الحيوان والنبات . ولكن الحكومة ترى أن التعمير لا يؤتى ثماره الا فى اطار التنظيم الاشتراكى . ولهذا، انطلقت حركة كبيرة قبل تنفيذ البرنامج – سنة ١٩٥٥ بالتحديد – للتعجيل بالنظام الجماعى .

ولا ينفصل التنظيم الاشتراكى الصناعى عن التنظيم الاشتراكى الزراعى . وما أشد تداخل قطاعات الانتاج : فان كلا من الصناعة الثقيلة والخفيفة والزراعة ، من الترابط بحيث لا تستطيع احداها ان تنمو بمعزل عن الآخرين . وفى القطاع الزراعى الآن مفتاح الانتاج بجملته ، فهو الذى ينبغى ان يتطور باحلال الانتاج الآلى العظيم المدى محل الانتاج اليدوى .

وينبغى أن تدر الزراعة جزءا كبيرا من رؤوس الأموال الضخمة اللازمة لاتمام التصنيع والتطوير الفنى للزراعة نفسها . والى جانب الضرائب الزراعية المباشرة ، يجب تنمية انتاج مايحتاج اليه استهلاك الفلاحين للمصنوعات التى تقدمها الصناعة الخفيفة ، ومبادلة هذه المصنوعات بالغلال والمواد الأولية التى يقدمها الفلاحون ، وذلك لسد الحاجات المادية لدى الفلاحين ولدى الدولة على السواء .. غير أن تنمية الصناعة الخفيفة على نطاق واسع لا يمكن أن يتحقق على قاعدة من الاقتصاد الريفى الصغير ، بل يفترض زراعة تعاونية واشتراكية تزيد قوة الفلاحين الشرائية .

والفلاحون الفقراء ــ وهم يمثلون مايتراوح بين ٦٠و٧٠ فى المائة من طبقة الزراع ــ فى حاجة ماسه الى التنظيم الجماعى . ولم يصدر « ماوتسى تونج » ــ فى دعوته الى التعجيل بهذه الحركة ــ عن تفكير نظرى ، بل لقد قام اولا بجولة طويلة فى الريف ، وخالط الفلاحين وناقشهم ، ودرس الوضع عن كثب ، فاقتنع بأن « التعجيل » لم يكن ضروريا فحسب ، ولكنه كان ممكنا أيضا .

واوضح « ماوتسى تونج » أن الهدفين المقصودين ــ وهما أغناء الدولة باغناء الفلاحين ، والصراع ضد الراسمالية ــ مرتبطان ارتباطا وثيقا .

وكان برنامج السنوات الخمس يقدر ان الجمعيات التعاونية ستضم ــ فى سنة ١٩٥٧ ــ ثلث طبقة الفلاحين . فاذا بها تتعدى هذا الرقم بكثير !

ثورة خضراء .. لا ثورة حمراء !

• **من الخطأ** تشبيه الثورة الصينية بالثورة الروسية . صحيح ان الاولى تستمد الالهام من الثانية ، ولكن فى نطاق استخلاص دروس تحول دون تكرار ما وقع فى روسيا من الأخطاء . وقد ميز « ماوتسى تونج » منذ سنة ١٩٤٩ بين المرحلة الديمقراطية والمرحلة الاشتراكية للثورة الصينية ، كما بين أن المرحلة الثانية ستتم دون عنف .

وتختلف ظروف الصين عن ظروف روسيا . فالجمهورية الصينية ليست بنت الهزيمة ، بل هى بنت النصر .. لم تطاردها فى بدايتها الجيوش البيضاء ، بل عضدتها حليفة قوية هى روسيا . وظل الفلاحون مدة سنين فى المناطق المحررة يتعاونون مع الجيش الأحمر ، الذى تتألف صفوفه كذلك من الفلاحين . **والحق ان الفلاحين هم الذين ارادوا**

الثورة وصنعوها ، فحررتهم من السخرة ، واعطتهم الارض دون مقابل سلبي . وكان الزعماء ذوى جذور ضاربه فى طبقة الفلاحين ، فقد ناضلوا فى احضانها ، ولهم بمشاكلها خبرة صادقة ، ومكنتهم تجارب الحرب الاهلية من وضع سياسة تلائم الأوضاع ، وتستجيب لتطوراتها بحدس مرهف . لذلك عندما اشتط فى البدء بعض موظفى الدولة ــ بدافع من غيرتهم ــ حيل بينهم وبين الشطط . وتوخى المسئولون السير بخطوات وئيدة ، حذرة ، لا تحيد عن مكان الشعب . **ولا يجد الزعماء داعيا لتجريد هؤلاء الفلاحين الاغنياء من الملكية ، لكسر شوكتهم .. بل يكفي لالغاء امتيازاتهم أن يغتنى مجموع الفلاحين .** ولسوف تؤدى معونة الدولة للجمعيات التعاونية ، والمزايا الفعلية للعمل المنظم جماعيا ، الى اضعاف هؤلاء الفلاحين الأغنياء ، لا سيما حين تصبح الزراعة ميكانيكية . فلكى ينتفعوا بالجرارات والآلات الزراعية ، سيضطرون الى الالتحاق بالجمعيات التعاونية . وسوف تقبلهم الجمعيات اذ ذاك ، لأنهم سيعدمون وسائل الاضرار بها .

سر النجاح : الحرية لا الاكراه

• وأهم ما ينبغى ادراكه . هو ان نجاح العهد الجديد ــ فى الصين ــ يرجع الى حرص الحكومة على تنفيذ أمر هام **.. هو أن الانضمام للجمعيات التعاونية يجب ان يكون اختياريا .**

ولا تستلهم الحكومة هذه السياسة من مجرد مبدأ نظرى ــ هو احترام الحرية ــ بل انها لتعرف واقعيا ، ومن التجارب ، ان الاكراه لا يأتى بنفع .

ذلك أن الاقتصاد الصينى ــ فى مستواه الحالى ــ لابد ان يحسب أعظم حساب للعامل البشرى . ولقد صيغ النظام صياغة دقيقة ، بحيث يتضخم فيه الكسب الضئيل ، فان

كيسا واحدا من الأرز يعد صاحبه بشراء محراث ، ولكن كل خسارة قد تؤدى الى انتكاس حركة تعميم الآلات .
انه نضال من أجل الرخاء بالأيدى العارية ، تتوقف نتيجته على عمل كل فرد ، وينبغى أن ينبع من قلب كل فرد ..
اذ يستلزم نجاح النظام الجماعى أن ينضم الفلاح الى المنظمة، وان يعمل عن رغبة حرة واقبال شخصى . ولذا عمد مؤتمر الحزب الشيوعى الصينى ـ سنة ١٩٥٦ ـ الى بث هذا النداء : ((**لا اكراه !**)) والسلامة فى التأنى ، والشرح ،**والاقناع**، واكتساب تأييد النفوس .

التصنيع واجب لابد منه

• **والآن** يسيطر على اقتصاد الصين ـ وهى البلد الزراعى ـ أمر واحد .. هو **التصنيع** . وترسم ارقام الميزانيات السنوية المتتالية هذا الاتجاه بوضوح : **فالصين تستخدم الثروة التى تحصل عليها من ارضها لخلق الصناعة الثقيلة الضرورية لاكتفائها الذاتى ورخائها المقبل .**

ولما كان الشعب سريع التكاثر ، لم يكن بد من زيادة الغلة الزراعية .. وهذا التقدم ـ وخاصة استصلاح الأراضى الجديدة ـ يستلزم المحاريث الآلية ، وسيارات النقل ، والآلات الرافعة ، ومد الطرق والسكك الحديدية ، والترع .. وتلك حاجات ضخمة لا تكفلها المعونة السوفييتية التى لا يمكن أن تعتبر سوى تمهيد . على الشعب ـ وهو مئات الملايين من البشر ـ أن يعتمد على نفسه . ولو عدلت الصين عن التصنيع لظلت عالة على الاتحاد السوفييتى ..

ويتميز الاقتصاد الاستعمارى بالجرى وراء الكسب العاجل . ولذلك لا يهتم باعداد عدة البلاد التى ينهشها ، ولا يرمى قط الى تنمية صناعة ثقيلة بها .. وهكذا عمد الأجانب

فى الصين الى انشاء مصانع لانتاج بعض ما يستهلكه اهلها عامة من انواع الغذاء ، والكبريت ، والمنسوجات . وكان توزيع هذه المصانع بطريقة غير معقولة ، فهى لم تقم حيث موارد المواد الأولية والسوق الداخلية ، وانما انتشرت متطرفة فى الموانىء البحرية التى أمر بانشائها الغربيون ، وخاصة فى (شنغهاى) .

وادى هذا التدخل الاقتصادى الى ظهور فئة بغيضة من الوسطاء . فقد كان الغربيون عاجزين عن التعامل مباشرة مع العمال الصينيين ، وهم يجهلون لغتهم .. **ولم يتورع الوسطاء عن اعتصار الصينيين وخداع الغربيين فى آن واحد ، فكدسوا الأموال ، ثم اشتروا آلات لحسابهم ، وتحولوا الى رجال صناعة !**

وكانت الامتيازات الأجنبية تحمى المغامرين الدخلاء ، ممن يشترون بأبخس الأثمان الايدى العاملة المتوفرة . ولم تتخذ الحركة العمالية صورة جلية الا منذ سنة ١٩١٨ ، اذ أيدها الشعب كله ، وقد ضاق بالغربيين واليابانيين . وكان ١٤٠ الف عامل قد اشتغلوا فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى، فاذكى اتصالهم باخوانهم فى الغرب ثورتهم على أوضاعهم ومهانتهم ، وتمردوا فى شنغهاى ، وعضدتهم مظاهرات الطلبة، وطالب « الكومنتانج » ـ الذى رأسه « صن يات صن » زعيم الثورة ـ بتطبيق ثلاثة مبادىء : استقلال الوطن ، والديمقراطية ، ورفاهية الشعب . وتعاون الحزب الشيوعى ـ الذى تأسس سنة ١٩٢١ فى شنغهاى ـ مع «الكومنتانج» .

الاستعمار يحارب العمال

• وسرعان ماسمت النقابات ، وبلغ الكفاح أشده ـ لاسيما فى شنغهاى ـ سنة ١٩٢٥ ، حيث اشتدت الملاحم بين العمال

الساخطين ورجال الشرطة الانجليز . واشترك فى الاضراب عمال المدينة كلها ، بل انضم اليهم أصحاب العمل الصينيون، وعدد من رجال المصارف وكبار الضباط ، ونادوا بالغاء الامتيازات الأجنبية . **على أن رد الغربيين كان سهلا : كانوا يملكون المحطات الكهربائية ، فقطعوا الكهرباء عن المصانع الصينية** . وتخلى اصحاب العمل عن الكفاح شيئا فشيئا.. وهكذا بدأت البورجوازية الصينية تخشى القوة التى تمثلها طبقة العمال ، ورأت فى الراسمالية الأجنبية حليفا أقل خطرا عليها ، ففضلت مهادنته !

وعندما مات « صن يات صن » ، استقر زعماء « الكومنتانج » — وجميعهم من انصار الشيوعية — فى (هان كيو) ، وكلفوا قائدهم العسكرى «تشانج كاى شك» باخضاع الصين كلها . وبينما كان جيش « تشانج » يزحف نحو شنغهاى ، خرج عمالها (٦٠٠ ألف) تحت قيادة « شوين لاى » ؛ فاحتلوا مراكز الشرطة ومخازن الذخيرة وثكنات الحامية ، **واعلنوا حكومة الشعب . واستقبلوا « تشانج » يوم ٢٢ مارس ١٩٢٧ بفرحة الظفر** . غير ان الملاك العقاريين ، وكبار التجار ، ورجال الصناعة ، أخذهم الخوف ، وأذعنت وطنيتهم لمصالحهم الطبقية ، فراحوا يفاوضون « تشانج » ، فانقلب على اصحابه الشيوعيين .. ونشر حكم الارهاب !

وانحدرت حياة العمال الى الحضيض . اهدرت حقوقهم ، وبلغ الاستغلال بهم أبشع مراحله .. واستفحل فساد الصحة وفساد الأخلاق بينهم !

والى جانب عمال المصانع ، كانت توجد طبقة عمالة ترتزق من الشحن أو من جر العربات . هؤلاء كانوا على شفا المجاعة دائما ، يبذلون جهدا عضليا ، ولا يتناولون

الغذاء الكافى . فيفترس السل معظمهم .. وفى كل عام كانت شنغهاى تجمع من شوارعها نحو عشرين الف جثة !

ولم يكن الأطفال موضع عطف .. كان الطفل يعمل ـ منذ الخامسة من عمره ـ لقاء اجر تافه .. ولكنه ضرورى للأسرة ! .. وفضلا عن الابناء الذين كانوا يواصلون العيش مع آبائهم . كان هناك كثير من الأحداث يشتريهم المقاولون والوسطاء من الفلاحين مقابل لقمة العيش ؛ ويفضلون جلبهم من المناطق التى يصيبها القحط . وكان مديرو المصانع يستخدمونهم دون اجر لاربع سنوات ، متذرعين بأن ذلك نظير ما قدموا من نفقات . وكانوا يغذونهم بأطعمة فاسدة ، ويؤونهم فى عنابر ضربت عليها الرقابة ليلا حتى لا يتمكنوا من الهرب .

فترة الانتقال : استعانة الثورة بالراسماليين

وشل حركة العمال هذا العجز الذى فرض عليهم ، فكان دورهم فى الثورة الأخيرة دورا ثانويا .

فلما تمت هزيمة اليابان ـ سنة ١٩٤٥ ـ استقر «الكومنتانج» من جديد فى شنغهاى . ووافق الغربيون على الغاء المعاهدات غير المتكافئة والامتيازات الأجنبية . ولكن الشيوعيين القليلين الذين هتفوا ضد الحكومة أعدموا . لقد سبق للعمال ان اخضعوا المدينة سنة ١٩٢٧ ، وانشاوا جيشا شعبيا للاشراف عليها . **اما فى سنة ١٩٤٩ فقد ظلوا هيئة سلبية ، وكان الفلاحون عماد الجيش الأحمر الذى حرر شنغهاى .**

وفى سنة ١٩٤٩ صرح «ماو تسى تونج» بأن «البورجوازية القومية ـ فى المرحلة الحالية ـ ذات أهمية عظمى .. ولابد للصين من أن تدعوها الى المساهمة فى الكفاح المشترك » .

وكانت سياســة التعاون مع الراســماليين تنطوى على اخطار محققة ، الا أن الحكومة الشعبية وضحت مذهبها : « نريد الغاء الراسمالية لا الراسماليين » .. **وانتهز بعض الأثرياء «فترة الانتقال» ليواصلوا سعيهم الحثيث فى سبيل الاستئثار بالأرباح . ودفعتهم حرب كوريا ــ اذ ذاك ــ والأمل فى انهزام الاشتراكية ، الى أن يخلعوا كل تحفظ ..** نكثرت أعمال التعدى والغش ، واختلسوا من موارد الدولة ــ لاسيما من الضرائب المفروضة عليهم ــ مبالغ طائلة ، لم تلبث الحكومة ان اضطرتهم الى ارجاعها ، كما ضربت بشدة على ايدى الموظفين المرتشين الذين تواطأوا معهم .

ومع ابقاء الحكومة على الراســمالية ، الا انها لا تثق بها ثقة عميــاء ، بل تسيرها وراءها فى مدار أحكمت حلقــاته ، بحيث لايدع لهم مجال الاختيار او الانحراف الى مثل فساد الماضى .. فضــلا عن انــها لم تقعــد عن المضى فى ســبيل الاشتراكية : فهى لم تستبق اباحة المشروعات ولا المنافسة. والقطاع الخاص نفسه مخطط ومراقب .

تنظيم القطاع الخاص .. وتصفيته

• **وما ابلغ** الأرقام الواردة فى هــذا التنظيم الذى مهــد للاشتراكية ! .. اصبح على ١٥ فى المائة من المؤسسات ــ التى تمد نفســها بالمواد الأوليــة وتبيع الأفراد جزءا من منتجاتها ــ أن تلبى الطلبات التى تأتيهــا من الدولة . **وفى ٨٥ فى المائة من الحالات ، تكفلت الدولة بتقديم المواد الأولية ، على ان تكون هى العميل الوحيد ، وان يشترك مندوبوها فى الادارة ، وان توجه خطة الانتاج .**

ولم تحــدد الأرباح بصورة ثابتة ، فاذا ابرمت الوكالات التجارية للدولة عقودا مع الصناعات الخاصة ، نصت على

نسبة ارباح تتراوح بين ١٠ و ٣٠ فى المائة . وتقسم الأرباح اربعة أقسام :

(١) جزء تستغرقه الضريبة التصاعدية ، قد يصل الى ٣٠ فى المائة من صافى الدخل . ولكن الضريبة تنخفض على الفروع التى تؤدى للبلاد خدمات ممتازة .

(٢) جزء يضم الى المال الاحتياطى .

(٣) جزء يخصص لتحسين معيشة العمال ومكافآتهم .

(٤) يحتفظ صاحب راس المال بـ ٢٥ فى المائة من الأرباح. وله ـ كما يشاء ـ أن يستثمر نصيبه هذا من جديد أو أن يقبضه .

وبعض السلع ـ عندما تخرج من المصنع ـ تفرض عليها « ضريبة تحول » ، كالسجاير والنبيذ والكبريت .. كما يخضع غيرها لضريبة اخرى عند البيع . وعلى الأعمال التجارية ـ بالنسبة لبعض المشروعات ـ ضريبة معينة .

وظل انتاج القطاع الخاص ابطأ منه فى الميادين الأخرى . ولذلك قررت الحكومة ـ فى ختام سنة ١٩٥٥ ـ التعجيل بتصفيته ؛ لاسيما والتخطيط فيه كان كثير المشاكل .. وفى يناير ١٩٥٦ احتفلت بكين بدخول «المجتمع الاشتراكى» اى بالغاء القطاع الخاص . وفى شنغهاى أطلقت الصواريخ والمدافع فى ٢١ يناير ابتهاجا بنهاية عهد المؤسسات الخاصة. ثم امتدت الحركة الى سائر ارجاء الصين .

ويمثل اختفاء القطاع الخاص خطوة كبيرة فى طريق الاشتراكية . ولقد اشتدت الرقابة ودعم التخطيط . على ان هناك مشروعات مشتركة يمكنها أن تشمل حتى ٨٥ فى المائة من الاستثمارات الخاصة ، أى أن راس المال لم يختف بعد . ويقدرون انه لابد من انقضاء خمسة عشر عاما أخرى لكى يصبح الاقتصاد بتمامه اشتراكيا .

ومع ذلك ، لم يكتم الزعماء أن الاشتراكية كانت هدفهم الأخير . وأنهم انما أبقوا على رأس المال بقصد الفائه ، فلم يكن فى سياستهم نفاق. واما رجال الصناعة ـ وسيتمتعون ببعض الامتيازات خمسة عشر عاما أخرى ـ فقد أذعنوا لمصيرهم المقبل ، وهو خدمة الدولة بوصفهم موظفين ذوى مرتبات .. ويدعوهم الى الاذعان ، أن الجيل الجديد لا يود استعادة تراث الآباء ، فقد تشبع بالمبادىء الاشتراكية .

ويعجب الاشتراكيون ، فى العالم كله ، بحذر الحكومة الصينية . فقد ضمنت ـ بأقل التكاليف ـ تعاون البورجوازية الذى لا غنى لها عنه ، وسارت سيرة تمكنها من تجريدها تدريجيا من ممتلكاتها ، دون التجاء الى العنف والخسائر .

حياة العمال

• طبق الصينيون فى بلادهم رأى « ستالين » القائل بأن بناء الاشتراكية يقتضى تفاوتا نسبيا فى الأجور. .وقد كتب « ماوتسى تونج » ، فى سنة ١٩٢٩ : « التسوية المطلقة تنبع من نفس الأصل الذى تنبع منه الديمقراطية المتطرفة فى السياسة ، الا وهو خيال الفلاح المالك الصغير . ولا يمكن ايجاد مساواة مطلقة ، لا فى المرحلة التى تسبق تحطيم الراسمالية فحسب ، بل وفيما بعد ! » .

واليوم تحتل ضرورات العمل المكان الأول ، وتتلاشى فكرة المساواة المطلقة أمام اعتبارات الفاعلية . فالعامل ذو المؤهلات ينال اجرا اكبر من أجر العامل اليدوى . ولما كانت الصناعة الثقيلة فى الصدارة ، فقد اصبحت الأجور فيها أعلى منها فى الصناعة الخفيفة .

ولقد تحسنت حال العمال ، فأصبحوا يرتدون ملابس محترمة ، ولا تبدو عليهم سمات سوء التغذية . غير انهم لا

يتمتعون جميعا بالمسكن المريح . فهناك مدن عمالية حديثة ـ زارت المؤلفة إحداها فى (موكدن) ـ تضم ٧٠٠ أسرة ، وينقسم كل مسكن فيها الى غرفتين ومطبخ ودورة مياه .. وبكل من الغرفتين سرير عريض يتسع لاربعة أو خمسة اشخاص . وفى (شنغهاى) شاهدت مدينة العمال المسماة ب (قرية النبع العذب) التى تؤوى ٤ آلاف اسرة ، فى بيوت من طابقين أو ثلاثة ، تتخلل صفوفها الحدائق ، وتشمل مدرستين ابتدائيتين ، ومدرسة ثانوية ، وروضة اطفال ، ومكتب بريد ، وثلاث أسواق ، وجمعيات تعاونية ، وصيدلية ، وخطى « أوتوبيس » عدا سيارات المصانع التى تنقل العمال من بيوتهم وتعيدهم اليها .. وان كان معظمهم يملكون الدراجات . واولية الالتحاق بهذه المدينة لصفوة العمال ، ثم لمن يعانون السكنى فى أكواخ القش أو القوارب . وفضلا عن هذه المدن ـ التى مازالت قليلة ـ تحاول الحكومة اصلاح أحياء العمال القديمة ، بادخال المرافق الصحية اليها وتنظيفها .

واسبوع العامل الصينى ٤٨ ساعة ، قد تزيد ساعات اضافية باسم ((العمل الطارىء)) . ويجرى العمل طبقا لنظام دورى بحيث يستريح كل فرد يوما فى الأسبوع ، ولا يتوقف المصنع قط . وتبلغ عطلات الأعياد ثمانية أيام فى السنة .

ولئن كان العامل قليل الراحة ، فقد ظفر بشىء جديد هو ((الطمانينة)) : التامين ضد الحوادث والمرض والشيخوخة. يجب ان تدفع ادارة المصنع ٣ فى المائة من مجموع المرتبات ـ دون خصمها من الأجور ـ لصندوق التأمينات الموضوع تحت تصرف النقابة . وفى حوادث العمل ، يعالج العامل مجانا ولا ينقطع مرتبه ، فاذا أصيب بعاهة مستديمة

تقاضي معاشا لا يقل من ٦٠ فى المائة من مرتبه . وفى حالة مرضه يتكفل المصنع أيضا بعلاجه ، مع دفع مرتبه له كاملا مدة ستة شهور ، ثم مخفضا الى ٦٠ فى المائة ثم ٤٠ فى المائة . ويتراوح المعاش ــ ابتداء من سن الستين ــ بين ٥٠ و ٧٠ فى المائة من المرتب ، تبعا لطول مدة الخدمة . وتتقاعد النساء عن العمل فى سن الخمسين ... وفى المناجم والمصانع الشاقة العمل ، ينخفض سن التقاعد الى ٥٥ سنة للرجال و ٤٥ للنساء .

وللعاملات عطلة ٥٦ يوما عند الوضع ، الذى يتكفل المصنع بنفقاته كما يمنح الأم علاوة . وقد الحقت بكثير من المصانع حضانة مجانية .

ويحظى العمال فى الصين بامتياز آخر جديد ، **هو تمكنهم من مواصلة الدراسة فى الفصول المسائية ، لرفع مستواهم الفنى وبالتالى المعيشى . فلم يعد بينهم أميون** . ومن حق الناجحين فى الدراسات الأولى أن يمنحوا أجازة ــ لمدة ثلاث سنوات ــ بمرتب كامل للتخصص ، يدخلون بعدها ضمن هيئة الموظفين .

ويعترف المسئولون بان مستوى حياة الشعب الصينى فى جملته غير كاف . ولكنا اذا ذكرنا استحكام الفقر فى البلاد سنة ١٩٤٩ ، ومدى بؤس العمال فى الجيل السابق ، وجدنا الموازنة بين معيشة العامل هنا ومعيشة العامل فى الغرب غير ذات معنى . انه أسعد من عمال آسيا بوجه عام !

الحريات العمالية

• ومشكلة العلاقة الصحيحة بين المصلحة العاجلة للفرد والمصالح الآجلة للمجتمع ، تثور أمام الناظر فى

الحريات العماليه . ان الدور العظيم الذى لابد أن تضطلع به طبقة العمال فى اقامة الاشتراكية ، ومسئولية هؤلاء الملايين الثلاثة نحو الستمائة مليون صينى يقللان الحد من هذه الحريات . **فما هى حقوقهم المعترف بها ؟ وما السبيل التى يضمنون بها أن تحترم هذه الحقوق ؟**

تقول الدولة ان صراع الطبقات لم ينته ، ولا ينبغى ان ينحسم بالعنف .. انها الآن صاحبة اليد العليا على الانتاج — بالتأميم — وتؤكد ان العامل يعمل اذن لمصلحة البلاد بأكملها ، أى لنفسه ، ومن غير المعقول أن تدخل ارادته فى صراع مع حاجات الانتاج .

ومن نتائج هذا المذهب الرسمى أن العمال ليس لهم حق الاضراب . فاذا نشب نزاع بين العمال والمسئولين تولى حله « مكتب العمل » ، فان فشلت مساعيه عرض الأمر على المحكمة الشعبية ، التى تتخذ القرار الأخير . أما النقابات فتهتم بمسائل التأمين والمعاش .

وتختتم «سيمون دى بوفوار» حديثها بهذه الخلاصة :

« اذا كان مما لاشك فيه أن استزادة العمال من رغد العيش والحرية شىء ضرورى ، فمن الحق — مع ذلك — أن نؤكد ان نظام الحكم القائم قد غير فعلا حياة العمال من حال الى حال . لقد أصبحت «الحيوانات الآلية» بشرا .. والمبدأ المتبع رسميا مبدأ حقيقى فى جملته ، الا وهو أن العامل يعمل لنفسه . والأمر لا يحتاج الى غير ايجاد العلاقة العادلة بين مصالحه العاجلة ومصالحه الآجلة .. »

وفى العدد القادم نواصل تلخيص فصول هذا الكتاب .

الخالدون

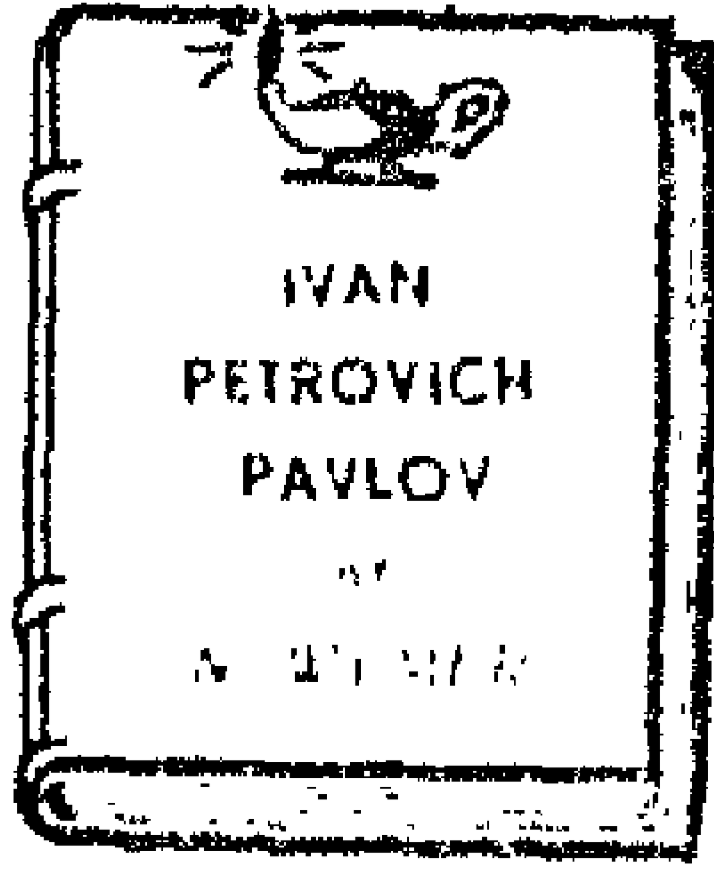


عظماء .. فى عيون السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة : «لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و «ماركونى» .. و «تشايكوفسكى» .. و «مصطفى كمال» .. ثم «شوبان» .. و «جى دى موباسان» .. و «مختار» و «تشارلس ديكنز» و «بيتهوفن» و «موسولينى» و «شيلى» .. و «بلزاك» و «بودلير» و «دستويفسكى» و «جيته» و «موليير» و «كونفوشيوس» و «الكسندر ديماس» و «ميكيل انجلو» ثم «ارسطو» و «اينشتين» و «فولتير» و «بيكاسو» و «البرت شفايتزر» وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى اقدم لك قصة حياة عالم كان له فضل تعاون الطب مع علم النفس فى خدمة الانسانية ..



إيفان بتروفيتش بافلوف

الفلاح الذى كان أول فائز بجائزة "نوبل" للطب

للكاتب الانجليزى المحقق: نورمان وايمر

عزيزى القارىء :

يتجه الطب العلاجى الحديث الى التـــعاون مع « علم النفس» الى أقصى الحدود. **فقد أثبتت البحوث والتجارب العـديدة ، أن كثيرا من الأعراض المرضية ، قـد ترجع فى اصولها الى انفعالات نفسية** ، فان الانفعالات قد تؤثر على بعض الغدد فتؤدى الى اختلالها ، ويترتب على هذا الاختلال أعراض أمراض جسدية فعلا .. بل ان من العلماء اليوم ، من يذهب الى القول بأن أمراض «الروماتيزم» ، و «السكر» ، ونضوب القـــوى والنشاط .. بل وبعض عوارض القلب ، مردها الى الانفعالات النفسية ، فى كثير من الحالات ..

ولكن .. الى من يدين العلم والانسان ، بهـذا الكشف العظيم الأثر ؟

لفريق من الرواد فى ميادين العلم .. رواد أوتوا من بعد النظر ، ومن طول الاناة ، ومن حب العلم والبحوث العلمية . ومن الروح الانسانية الدافعة الى تخليص البشر من الآلام .. رواد اوتوا من كل هذا ، ما حفزهم الى ارتياد المجهول ، والى كشف غوامضه !

ومن هؤلاء الرواد ، العـالم الطبيب الروسى « ايفـــان بيتروفيتش بافلوف » .. الذى وهب نفسه للعلم ـ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ واستطاع ان يكشف عن حقائق هامة عن الجهاز الهضمى وعملية الهضم عند الانسان ، وعن الجهاز العصبى ، وعن علاقة هذين الجهازين بالمخ .. وعن تأثير كل هذا على السلوك لدى الانسان والحيوان !.. **وفتح بذلك أبواب دراسات واسعة أدت الى تحسين أساليب علاج مرضى الأعصاب .**

ولكن .. ولكن قيمـــة « بافلوف » لا تقتصر على كشوفه

العلمية ـ من طبية ونفسية ـ فحسب .. بل لقد كانت حياته هو . حياته الخاصة ، سلسلة من النضال والجهاد الدائبين ، تفذوهما عزيمة جبارة ، لا تنثنى امام الظروف والعقبات .. **كانت حياته مثالا لكل شاب يريد ان يصبح شيئا مذكورا ، بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة لأمته .. وبالنسبة للانسانية جمعاء !**

على أن تحمسي لهذا العالم ، يجب ان لا يفريني على ان اطيل فى الحديث عنه ، لأدع لك فرصة التعرف عليه خلال الصفحات التالية ..

واحد .. من احد عشر ابنا !

• **لو ان** الانسان استشير ـ قبل ان يهبط الى الحياة ـ فيما اذا كان راغبا فى ان يولد ، لفضل « ايفان بيتروفيتش بافلوف » ان يبقى فى باطن الغيب .. فقد كانت الظروف التى فتح عينيه عليها ، حين ولد ـ فى **١٤ سبتمبر سنة ١٨٤٩** ـ ظروفا كئيبة ، بائسة ، تبعث القنوط فى اى نفس !

تفتحت عيناه ـ اول ماتفتحتا ـ فى بيت اقل من متواضع، فى بلدة نائية ـ الى الجنوب الشرقى من (موسكو) ـ هى بلدة (ريازان) ، التى كان ابوه قسا لكنيستها .. وكانت روسيا ـ فى ذلك العهد ـ ترزح تحت اثقال التأخر ، والفقر ، فلم يكن قس الكنيسة ـ لاسيما وهى كنيسة بلدة صغيرة نائية ـ يحظى بشيء من أطايب الحياة .. بل انه كان لايحظى بما يكفل له العيش الضرورى !

ولم تكن هذه كل المتاعب .. بل كان هناك ما هو أشد

وانكي ! . . **كان القس من الصنف الولود ، فلم يكد «ايفان» يهبط الى الوجود ، حتى اتبعه بعشرة اولاد آخرين . .** ولولا ان القدر أشفق عليه ، لكانت طامته اكبر من كل وصف . ولكن القدر ساق اليه الموت ، فاختطف ستة من الاولاد الاحد عشر ، وهم بعد فى باكورة العمر !

وكان من الطبيعى ان ترهق كل هذه المرات — من حمل وولادة — زوجة القس المسكينة ، فاذا بها تذبل وتضعف ، حتى اذا اعوزها العلاج والرعاية ، وسط هذا الفقر المدقع ، رقدت مريضة .. وظلت بقية عمرها راقدة تحت براثن المرض !

قس .. وفلاح .. ومحب للاطلاع !

• **ولعل** النعمة الوحيدة التى جادت بها هذه الظروف على الأب ، انها لم تدع له فرصة كى يتأمل أحواله ، فقد كان مجبرا على ان يجاهد جهاد الابطال ، فى سبيل توفير الكفاف لأسرته .. القوت الذى لايكاد يسد غائلة الجوع .. فما بالك بالكساء لهذه الأجساد النحيلة ، التى كان سوء التغذية يضاعف من عجزها عن احتمال التقلبات الجوية القاسية !

لذلك كان القس — فى غير ساعات العبادة — يلجأ الى رقعة صغيرة من الارض ، تابعة لكنيسته ، فيعمل فى زرعها ، عسى ان يستنبتها ما يستعين به .. **فاذا وجد بعد ذلك دقائق من الوقت ، انصرف الى القراءة .. فقد كان ذكيا ، مفكرا ، مشغوفا بالاطلاع .**

وليس من شك فى ان ابا كهذا ، بطلا ، مناضلا ، مكافحا .. كان مثلا ساقه القدر للصغير « ايفان » .. مثلا يراه فى كل لحظة ، ويعيش فى احضانه ، ويستوعب تصرفاته وجهاده



ايفان بافلوف

فيختزنها فى اعماق نفسه ــ وهو لايدرى ! ــ لتكون له ، فى مستقبل ايامه ذخيرة تدفعه هو الآخر فى طريق النضال !

ولقد كان « ايفان » فى صغره صبيا يميل الى الخجل .. تعود شظف العيش منذ مولده ، واضطرته ظروف الحياة القاسية ــ عندما شب عن الطوق ــ الى ان يساعد اباه فى فلاحة رقعة الارض .. **وادى هذا التعاون الى توثق رابطة قوية بين الأب وابنه ، كان فيها خير عزاء لكل منهما !**

وبفضل هذه الرابطة عنى الأب بأن يعلم ابنه مبادىء القراءة والكتابة ، ثم راح يدربه على الاطلاع على الكتب التى تزيد من معلوماته ، وتوسع آفاق تفكيره .. وكان يحمله على قراءة الكتاب مثنى وثلاث ، اذا هو لم يستسغه ، أو عجز عن فهمه فى المرة الاولى . ومن هنا تعلم « ايفان » أن يقرأ ليستنير ، وان لايدع مايقراه حتى يكون قد فهمه واستوعبه وساعده تفتح ذهنه ــ بهذا الشكل ــ على ان يكتسب

عقلية مدققة ، محبة للاطلاع والمعرفة ، تواقة للدرس من اجل الدرس ذاته ، لاطمعا في كسب أو جزاء .

كل ذلك ، و « ايفان » لم يطو الأعوام الثمانية الاولى من عمره !

ولعله كان مسوقا الى ان يعيش فى بلدته المتواضعة ، فلاحا ، واسع الاطلاع ، محبا للدرس فحسب . . لولا حادث وقع له ، فى العام الثامن من حياته . اذ سقط من فوق جدار ، فهوى على ارض صلبة ، واصيب بأضرار جسيمة ، حتى انه ظل فترة لايستطيع ان يتنفس بسهولة ، وحتى لقد خشى ابواه ان تكون رئتاه قد اوذيتا ايذاء يؤثر عليه مدى الحياة . .

عافية للجسم والعقل . . فى الدير

• **ولكن** الحادث لم يتسبب فى ايذائه . . بل انه — على العكس — كان لصالحه . . فقد كان له «اشبين» كهل طيب ، راهب فى أحد الأديرة ، **لم يكد يسمع بما أصاب « ايفان » الصغير ، حتى اصر على ان يأخذه ليقيم معه فى الدير ، فيرعاه ويعنى بصحته . .**

ومع ان الراهب الزاهد كان يقنع بكسرة من الخبز يبلها بالماء ، الا انه راح يغدق على الصبى طعاما طيبا ، وتوفر على علاجه حتى استرد عافيته ، ودربه على الوان من الرياضة أصبح بفضلها يستخدم رئتيه اتم استخدام ، كما استطاع ان يقوى عضلاته واعصابه .

ولقد عرف « ايفان » للراهب الشيخ فضل رعايته ،

فراح يتطلع اليه فى اكبار . ويصغى فى اهتمام تام لكل ماكان يقوله له . ولما كان الراهب يعكف على العمل دائما ، فلا يسمح لنفسه بالركون الى الخمول : **فان ((ايفان)) حرص على ان يقتدي به . . كما أخذ عنه بساطته وتواضعه وازدراءه للمادة** . . وهكذا لم يلبث ان صار للراهب تأثير روحى على الصبى فاق ماكان لأبيه من تأثير !

وحرص الراهب ــ كما حرص القس بافلوف ، من قبل ــ على تشجيع «ايفان» على القراءة ، والاطلاع ، والاستيعاب **. . فقضى الشطر الاكبر من العامين اللذين عاشهما فى الدير ، غارقا بين الكتب . وتعود ان يقرأ فى بطء ليستوعب كل كلمة** . . وبلغ من شغفه بما كان يقرأ ، انه كان ينطلق فى جنبات الدير ، يروى للرهبان اطرافا من قراءاته . . فلم يكن من اشبينه الا ان أتى له بدفتر ، وقال :

ــ اليك هذا . اسرد فيه كل ما تقرأ ، حتى لانزعج سواك . . وفى كل يوم ، سأقرأ مانكون قد كتبت فى اليوم السابق .

يلحق بأقرانه فى المدرسة

. **وهكذا** اصبح « ايفان » يحرص على الجلوس الى دفتره ، قبل ان يأوى الى فراشه ــ فى كل ليلة ــ فيروى ما يكون قد قرأ ، بأسلوبه الخاص . . وفى صباح كل يوم ، كان الراهب الشيخ يقرأ معه ماقد كتب ، ويصحح له مايكون هناك من اخطاء اسلوبية . **وبذلك علمه كيف يكتب ، وكيف يعبر عما فى نفسه وفى ذهنه . وقد كان لهذه الدروس اثر كبير فى حياته المدرسية ، فيما بعد .**

ولقد كان من جراء الحادث الذى وقع لايفان — وهو فى الثامنة من عمره — أن لم يتســن له الذهاب الى المدرســة قبل ان يناهز الحادية عشرة.. وقد التحق — فى بادىء الامر — بالمدرســة الكنســية الثــانوية فى (ريازان) ، حيث كان اخواه اللذان يصغراه — دميترى ، وبيتر — قــد سبقاه .. **ثم التحق بالمعهد اللاهوتى لاعداد القساوسة والرهبان .. واستطاع بجده وذكائه ان يلحق بزملائه فى السن !**

وفى المعهــد ، تأثر « بافلوف » ايما تأثر بالمؤلفات العلمية للكاتب والناقــد الروسى الكبــير « بياريف » ، وبنظريات « تشارلس داروين » . كما استهواه علم الطبيعة . وقــد اعتاد ان يناقش زملاءه — اثناء سيرهم فى ساحة المعهد ، او فى طريقهم الى بيوتهم — فيما كانوا يدرســون من نظــريات علمية ، فكان يعرب عن آرائه فى قوة تعبير واقناع .. وكان يغيظه ان يقاطعه أحد قبل ان يتم حديثه .

البحاثة الصغيرة فى اكاديمية الطب

• **وفى** سنة ١٨٧٠ ، نزح « بافلوف » الى (بطرسبورج) التى تحمل الآن اسم (لنينجراد) — ليلتحق بجامعتها ، كى يدرس العلوم الطبيعيــة .. **وكان قــد أصبح شــابا نحيل الجسم ، طويل القوام ، تبدو عليه سيماء الجد والرزانة .** وما لبث « دميترى » — الذى كان قــد سبقه الى الدراسة فى المدرســة الكنســية — ان لحق به فى الجامعة بعد عام ، فاقاما معــا فى مســكن رخيص ، متواضع ، فى افقر احياء المدينــة . وراحا يقتصدان فى نفقــاتهما ما اســتطاعا الى

الاقتصاد سبيلا . فكانا يأكلان فى ارخص المطاعم ، ويستهلكان قدرا كبيرا من الخبز، يثقلان به معدتيهما لأن الخبز كان يقدم فى المطاعم دون مقابل !

وكان « ايفان » يذكر ـ كلما اضناهما العيش الضنك ـ زهد الراهب الشيخ وقناعته . فسرعان ما يستهين بما كانا يعانيان ..

واصبح « بافلوف » دقيق الملاحظة ، قديرا فى كلامه .. واتجه الشطر الاكبر من اهتمامه الى «الفسيولوجيا» .. علم وظائف الاعضاء . وفى عامه الثالث فى الجامعة ، قرر ان يصبح طبيبا . ولم يمض عليه طويل وقت ـ فى تخصصه ـ حتى قام بأبحاث فى الاعصاب والغدة البنكرياسية ، فاز من أجلها بميدالية ذهبية . ثم فاز فى سنة ١٨٧٥ باجازة العلوم ، فالتحق بالاكاديمية الطبية العسكرية ـ فى سانت بطرسبورج ـ لينال اجازة الطب .

وفى العامين الأولين ، شرع « بافلوف » فى بعض ابحاث مستقلة ـ فى معامل الاكاديمية ـ على دورة الدم فى الكلاب .. ولم تكن ثمة معلومات كثيرة عن هذا الموضوع ـ اذ ذاك ـ وان قدر لبافلوف ان يثبت ، فيما بعد ، انه ذو أهمية خاصة لعلم الطب فى مجموعه ..

يشغل ببحوثه عن شهادة الطب !

• واستطاع « بافلوف » ان يكشف ـ فى تلك الابحاث ـ عن عدة حقائق جديدة عن تغير ضغط الدم . وأظهر اصالة فى آرائه واساليبه العلمية ، فابتكر أسلوبا فنيا جديدا ؛ أكثر

دقة وفائدة ، فى البحوث الفسيولوجية .. ففى الماضى ، كان الحيوان الذى تجرى عليه التجارب والابحاث يخدر كى لا يتألم . **ولكن الاسترخاء الذى كان يحدثه التخدير فى العضلات والاعصاب لم يكن يمكن من الوصول الى مشاهدات أو استنتاجات دقيقة** . فابتكر « بافلوف » طريقة لاجراء البحوث على الحيوانات ، دون تخديرها ، ودون تعريضها للألم .. وجعل من تأثر الحيوانات ، ورد فعل ما يجرى عليها ، مادة للدراسة تؤدى الى نتائج أكثر دقة وصوابا .

واعجب أساتذة الاكاديمية بالبحاثة الشاب ، فعهدوا اليه بمعمل جديد انشىء ملحقا بالعيادة الطبية . وكان المركز ثقيل العبء بالنسبة لشخص لم يؤت خبرة كافية . ولكن « بافلوف » لم يجفل من المسئولية ..والى جانب الاشراف على الطلبة وجهودهم فى المعمل ، اقبل على دراسات دقيقة واختبارات لعمل القلب ، وقام ببحوث عديدة على الحيوان .. كما قام ببحوث فى عدة أمراض باطنية . وقد شغل بهذه البحوث ــ لعدة سنوات ــ عن أجازة الطب التى كان يسعى اليها ..

يستدين ليتزوج .. عندما عرف الحب !

• **على أن** حياة « بافلوف » لم تمض جافة على طول الخط .. اذ لم تكد تنقضى بضعة أشهر على توليه الاشراف على ذلك المعمل ، حتى التقى بالحب .. التقى به ممثلا فى « سيرافيما كارتشيفسكايا » .. **وكانت فتاة لطيفة ذكية ، خفيفة الظل والحركة ، متدينة .. وكانت تصغره بخمس سنوات** .

ولقد اعجب « ايفان » بالفتاة ، منذ رآها لأول مرة .. بيد انه كان شديد الحياء ، فلم يؤت جـراة يكشف بها عن شعوره ؛ الا بعد ان انقضى حوالى عامين على تعارفهما .. ففي احدى ليالى شهر يونيو — من عام ١٨٨٠ — استجمع جراته ، وعرض على « سارا » — كما كان يحلو له أن يدعوها — أن تقبله زوجا .. وأجابته الفتاة لفورها ملبية . وكانت سعادتهما فى تلك الليلة جامحة ، حتى انها شغلتهما عن كل شيء . **فراحا يسيران فى الشوارع ، ويتحدثان عن مستقبلهما .. وعندما فطنا الى نفسيهما ، وجدا ان الساعة كانت قد بلغت .. الرابعة صباحا !**

واذ كان « ايفان » لم يحصل بعد على اجازة الطب ، فان دخله لم يكن يكفى لنفقات عيشه .. ولكنه لم يشأ أن يجعل الفقر حاجزا بينه وبين الحياة مع حبيبتـه .. وقبـل أن يكتمل عام على تكاشفهما بالحب ، اقترض النفقات اللازمة للزفاف من أحد أصدقائه ..

واحتفـلا بعقد قرانهمـا فى أول مايو سـنة ١٨٨١ .. وبينما كانا راكعين — فى الكنيسة — جنبا الى جنب ، همس اليها : « من أجل ماذا تصلين ؟ » فهمست مجيبة : « من اجل سـعادتك ! » .. فقـال : « وأنا أصـلى من أجل سعادتك ! »

حياة زوجية مليئة بالمتاعب والوفاء

• **وكانت** « سارا » خير عون ورفيق لبافلوف .. كان الانكباب على العمل يرهق أعصابه ، فكانت تحتمله لأنه — فى أوقات أخرى — كان مفرط الرفق والحب والحنان ..

وكان يثور لأتفه الامور ، ثم لاتلبث أن تنجاب عنه نوبة الغضب ، فيقبل على زوجته معتذرا ، سائلا الصفح .. وكان أحيانا يبدى انصرافا عن « سارا » ، اذ كان ينهمك فى بحوثه ، وقد استغرقته الرغبة فى أن يؤدى خدمة جليلة للانسانية ، وان يستغل علم الطب فى تقديم مساعدة صادقة لتخليص البشر من الآلام والمرض .. وكلما تقدمت به السن، كان يزداد استغراقا فى بحوثه ، وجريا وراء بغيته ..

على أن « سارا » كانت تغفر له هذا ، اذ كانت تدرك نبل غايته .. شىء واحد ما كانت لتغتفره له ، لولا حبها الفياض .. ذلك هو أن « بافلوف » كان شديد الغيرة ، حتى أنه حال بينها وبين اداء الواجبات الاجتماعية ما لم يكن هو بصحبتها!

كان كثير التناقض ، لا يسهل فهمه .. فهو — فى اويقات — ضيق الصدر ، سريع الغضب .. وفى أويقات أخرى ، بالغ اللطف والرقة .. وكان اذا أغرى بترك عمله ونسيان تجاربه ينقلب شخصا حلو المعشر ، مرحا ، حفيا بزوجته الى أقصى حدود الحفاوة ..

ولقد كان من حسن حظه ، ان كانت زوجته عاقلة ، حكيمة ، محبة .. ومن ثم فان زواجهما كان سعيدا موفقا. وقد انجبا أربعة أولاد وبنتين ، ولكنهما فقدا الابن الاكبر ، وهو بعد طفلا ..

على أنهما — فى الأعوام الاولى من زواجهما — عانيا كثيرا من الضيق ، لقلة دخل « ايفان » ، حتى أنهما اضطرا الى السكن فى ذات المسكن الرخيص الذى كان « ايفان » يقيم فيه — قبل الزواج — مع اخيه . . وكانت لسارا شقيقة راحت تساعدهما

ـ بين الحين والآخر ـ ببعض المال ، ولكن مساعداتها كانت تقصر عن سد حاجات الزوجين . **حتى أنهما كان يضطران ـ فى بعض الأحيان ـ الى أن يقيما منفصلين ، فينزل كل منهما ضيفا على بعض الاصدقاء ..** وكانت فترات الانفصال هذه ، تثقل على « سارا » ، وتملأها قلقا وهما . ولكنها كانت تسرى عن نفسها بقوة ايمانها وتدينها ، وتمنى نفسها بأن كل شيء لابد أن يتحسن يوما !

محاضر فى الكلية العسكرية

• **وبعد** عامين كاملين من زواجهما ، نال «بافلوف» اجازة الطب . فذهب الى ألمانيا ليوسع خبرته بالعمل تحت اشراف اثنين من كبار علماء الطب . ثم عاد الى الاكاديمية الطبية العسكرية ـ فى سانت بطرسبورج ـ حيث شرع يحصل على راتب صغير ؛ ظل قاصرا عن سد نفقات حياته !.. **ومن غريب المتناقضات فى شخصيته ، أنه ـ برغم شدة حاجته ـ لم يكن يقيم للمال وزنا ،** حتى انه حصل ـ ذات مرة ـ على أجر اضافى ، فأقرضه صديقا .. ولم يعد الى مطالبته به ، كما استمرأ الصديق أن ينساه !

لذلك كان أفضل مسلك انتهجه ، أن عهد الى زوجته بالمسائل المالية ، فدبرت شؤونهما بأقصى اقتصاد ممكن .. حتى انها كانت تعد له الشطائر فى الصباح ، ليتفادى تناول غداءه فى مطعم .. **وظلت ـ طيلة حياتهما الزوجية ـ هى التى تعتنى بثيابه ، وتبتاع له ما يلزمه من كساء !**

وفى سنة ١٨٩٠، بدأ الحظ يبتسم لهما، اذ رقى «بافلوف» رئيسا لقسم كبير فى الاكاديمية ، حيث كان يقضى الشطر

الأكبر من وقته فى القاء المحاضرات على الطلبة .. ولم يزعجه شيء قدر اضطراره الى أن يرتدى الزى العسكرى عند القاء المحاضرات .. فهكذا كانت تقاليد الاكاديمية الطبية العسكرية .. **على أنه كان يجد فى المحاضرات متعة تنسيه كل المضايقات،** فكما كان يقول : « انك حين تحاول ان تلقن غيرك شيئا ، تزيد من معرفتك ، لانه لا سبيل الى ان تعلم سواك ما لاتكون متفقها فيه .. ثم ان الانفعال الذى يصحبه القاء الدروس ، يوحى اليك دائما بأفكار جديدة ! »

مثال للاستاذ الجامعى ..

• **وكانت** كثير من آراء « بافلوف » جديدة ، ومثيرة لتلاميذه ، فسرعان ما أصبح من أحب الاساتذة .. وقد ذكر « بوريس بابكين » ـ الذى ظل يعمل تحت ارشاده خمسا وثلاثين سنة ــ ان « بافلوف » كان بعيدا عن الحركات المسرحية والمظاهر ، بل كان يبسط مادته فى سهولة وبساطه وجلاء .. وكان الطلبة يقبلون على دروسه فى تحمس وشغف، وقد سرت اليهم عدوى ولعه بعلم وظائف الاعضاء .. **ولم يكن يقرأ من مذكرات ، بل كان يعتمد على ذاكرته ، ويسمح للطلبة بأن يقاطعوه بأسئلتهم** .. ولا كان يعتمد على رسوم مطبوعة ، وانما كان يرسم بيده ـ على « السبورة » ــ كل ما يرى الحاجة تدعو الى رسمه أثناء الشرح .

ولم ينقض عام على توليه منصب المحاضر ، حتى عين كذلك مديرا لقسم وظائف الاعضاء ، فى معهد الطب التجريبى، الذى كان قد انشيء مؤخرا فى (سانت بطرسبورج) ، والذى كان أكبر مركز للتجارب فى اوروبا ، بعدمعهد باستور بباريس

.. **وفى معهد الطب التجريبى ، بدأ ((بافلوف)) البحوث التى لم تلبث ان اذاعت شهرته .** فقد عكف ـ فى السنوات العشر التالية ـ على دراسة عمليات الجهاز الهضمى ، مجريا تجارب طويلة ، ودقيقة ، على الكلاب .

وكانت بعض الدراسات تتطلب اجراء جراحات على الكلاب ، فكان يحتمل ذلك ، برغم شفقه بالحيوانات وحدبه عليها .. « من أجل الحقيقة ، ومن أجل خير الانسانية » .. وكان يترفق بكلابه ، فكانت ـ بدورها ـ تنصاع له ، وتطمئن اليه . **وكان بارعا فى الجراحة ، حتى أن الكلاب لم تكن تتعرض لايلام بالغ ، وكانت تبرأ من جراحها سريعا ، بفضل عنايته ورعايته .** وقد وصف احد الاساتذة براعته الجراحية يوما ، بأن قال : « ان بافلوف يجرى الجراحة بسرعة ، حتى انه ينتهى منها فى الوقت الذى يظن مشاهده انه قد بدأ لتوه ! »

بين معاونيه .. ومع أسرته !

• **وكان** « بافلوف » يطلب من مساعديه أن يكونوا مثله فى السرعة وخفة اليد ، أثناء الجراحة .. وكان شديد الدقة ، ونادرا ما كان يطرى مساعديه ، خشية ان يبطرهم المدح فيفسد عليهم اجتهادهم .. ومع انه كان يقسو فى اللوم احيانا ، الا أنه كان ـ فى غير أوقات الجراحة ـ يعطف على مساعديه ؛ **وكان يكره أن يفصل أحدا منهم ، لا سيما اذا كان متزوجا ، حتى لا يدفع بزوجته وأولاده الى ضائقات مالية ، فقد علمته تجاربه فى الحياة قسوة الفقر !**

وكان ـ فى غير نوبات السخط والغضب ـ شديد الود لمعاونيه .. وقد فهموا ـ بدورهم ـ شخصيته ، وحقيقة

نفسه ، فكانوا يحترمونه ؛ ويرون فيه عالما ملهما ، يجدر بالمرء ان يحرص على أن يلازمه .. وقدكان — من ناحيته — يقدر آراءهم ويهتم بها ، ويقول : « ان عقل المبتدىء لايكون متخما بالنظريات كعقل العالم .. كما ان قدميه ويديه لا يثقلهما الماضى العلمى .. ومن ثم ففى وسعه ان يرى ما لا يراه الاستاذ ، وان يعبر عن افكار جديدة ، لا تخطر للعقل المثقل بالمعرفة ! »

وكان اذا استغرق فى بحث ، نسى كل ما عداه ؛ فهو يفكر فى تجاربه ليل نهار ، وكثيرا ما ظل مؤرقا — فى جوف الليل — لهذا السبب ؛ مما ارهق أعصابه ايما ارهاق. **وكانت زوجته تلمس ذلك ، فتحاول أن تنأى بذهنه عن هذا التفكير ، وتدعوه الى ملاعبة أطفالهما ساعة فى كل مساء** . على أنه — برغم حبه لاولاده — كان يضن بساعة من الممكن ان يقضيها مع كتاب علمى !.. ومع ذلك ، فقد كان يقدر حكمة زوجته، ويحاول أن يعمل بنصحها ما استطاع .. ولا يتردد — بعد ذلك — فى أن يشكرها لأنها حررت فكره من المعمل والبحوث، وخلقت فيه اهتماما بأسرته ، كان ينعش فكره وروحه !

يقلب أساليب علاج العلل الهضمية

• **وقبيل** نهاية القرن التاسع عشر ، وضع كتابا ضمنه البيانات الجديدة التى اهتدى اليها فى تجاربه وبحوثه ، واسماه : ((**محاضرات فى عمل الغدد الهضمية**)) . وقد شرح فيه أن الجهاز الهضمى معقد ، يتألف من أعضاء كثيرة ، وان الغذاء — وهو يمر بجوف الانسان — يمر بعمليات عديدة ، اذ تأخذ أعضاء الجهاز الهضمى فى استخلاص العناصر

الغذائية ؛ وتفتيتها الى مواد بسيطة بفضل المفعول الكيماوى لاحماض وقلويات طبيعية قوية، وبفضل الخمائر «الانزيمات»، والعصارات التى تفرزها الغدد ــ اوتوماتيكيا ــ اثناء عملية الهضم . وتمر المواد الغذائية المبسطة ــ المستخلصة من الطعام ــ خلال جدران الامعاء ، الى مجرى الدم فيحملها الدم لتغذية انسجة الجسم كله ؛ أما الفضلات فتفرز خارج الجسم .

ولقد كان شرح « بافلوف » لرحلة الطعام ــ من الفم الى انسجة الجسم ــ أتم شرح من نوعه ، ولم يكن معروفا ــ قبل كتابه ــ سوى حقائق منفصلة، وغير مترابطة ، عن عملية الهضم . ومن ثم ، فان مكتشفاته الهامة قلبت الآراء ــ التى كانت سائدة ــ راسا على عقب ، وتحتم نتيجة لذلك ، ابتكار اساليب طبية جديدة لعلاج العلل الهضمية .

يعطى الأوسمة لاولاده ليلعبوا بها !

• **وسرعان** ما اعترفت المحافل الطبية العالمية بأن « بافلوف » فى مقدمة العلماء .. **وكان أول « فسيولوجى » فى العالم ، يحصل على جائزة نوبل للطب ، اذ ظفر بها فى سنة ١٩٠٤ ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره** .. كما حصل ــ بعد ذلك ــ على عدة تقديرات سامية ، منها وسام نجمة ستانيسلاف الروسى . بيد انه لم يبد احتفالا بالأوسمة ، حتى انه كان يعطيها لأولاده كى يلعبوا بها !

على أنه بدا يخفف من قيود الزهد على نفسه ، فشرع بجمع لوحات الفنانين الروس ، واشترى دارا ريفية فى (سيلومياجى) ــ فى استونيا ــ ليقضى فيه العطلات مع

أسرته .. وهناك ، بدأ يعنى بفلاحة البساتين ، وبزراعة الزهور .. وكان يقبل على الفلاحة فى انهماك ، حتى انه كان يعود الى معمله — بعد العطلات — وهو منحنى الظهر ..

وقد جزع أحد معاونيه مرة ، اذ رآه على هذه الحال ، ولكن « بافلوف » هتف فى مرح : **« هذا رائع !.. من مثل هذا العمل استمد المتعة الفعلية ، التى تسبب لى ارضاء يفوق ما تسببه المتعة الفكرية .. فأنا بطبيعتى فلاح أكثر منى استاذا ! »**

ولعله كان يستعرض — حين قال ذلك — الشوط الطويل، الذى قطعه منذ كان صبيا فى الثامنة من عمره ، يساعد أباه على زراعة رقعة صغيرة من الأرض ، فى (ريازان) .. لا للمتعة ، وانما التماسا لقسط ضئيل من القوت للأسرة !

الحافز والاستجابة التلقائية

• **وكان** « بافلوف » — عندما ظفر بجائزة نوبل — قد بدأ نوعا جديدا من البحوث ، قدر له أن يستغرق اهتمامه بقية حياته . فقد اهتم — عن طريق تجاربه على الحيوانات — بدراسة وظائف المخ والجهاز العصبى ، وتركيبهما ، وطرق عملهما ، مركزا اهتمامه على الاستجابة التلقائية — ورد الفعل التلقائى — الناشىء نتيجة لمحفزات خارجية .. مثل تحلب اللعاب عند مرأى الطعام . **فان هذه الظواهر التلقائية — عند الحيوان والانسان — كانت تؤخذ قضية مسلمة ، فرأى أن يتحرى السر فى حدوثها** .. وهدته دراساته للجهاز العصبى الى أن يبدأ بدراسة مسألة تحلب اللعاب .

لذلك أنشأ غرفة جعلها بمعزل عن الاصــوات تمــاما ، وقسمها الى مقصورتين ، يتخلل الجـدار الفاصل بينهمــا ثقب يمكن استراق النظر خلاله ــ من احدى المقصورتين ــ الى ما يجرى فى المقصورة الأخرى . ثم وضع فى احداهمــا كلبا ؛ على منضدة . وقــد ثبت عليه جـهازا لقيــاس كمية اللعاب .. واحتبس نفسه فى المقصــورة الاخــرى ، بحيث يشهد انفعالات الحيوان وتصرفاته ، دون أن يراه هــذا ، حتى لا يتأثر به . ثم عمد الى بعض حيل بسيطة .. كأن يدلى أمام فم الكلب طعــاما ــ بواسطة خيط ــ ثم يسحبه بسرعة .. واستطاع ان يقــارن بين كميــة اللعــاب الذى يسيل من الكلب فى مثل هذه الحال ، وكميته فى حالة ما اذا كان الكلب مع رفاق له ، ووضع الطعــام أمامهــا دون أن يصدها عنه شىء ..

ثم جرب أن يدق جرسا كلما قدم للكلب غذاء .. وكرر هذا مرارا ؛ فلاحظ فى المرات الاولى ان **الكلب كان يرهف سمعه ، ولكنه لم يكن يبدى تأثرا الا عندما يرى الطعام .. على أن التكرار لم يلبث أن عود الكلب أن يقرب بين رنين الجرس وظهور الطعام ..** فاذا لعــابه يتحلب عند ســماع الرنين ، ولو لم ير الجــرس . ثم جــرب « بافلوف » دق الجرس ، دون تقديم الطعام .. وكرر ذلك مرارا ، فلم يلبث تحلب اللعاب ان أخذ يقل تدريجا ، حتى كف الكلب نهــائيا عن التأثر برنين الجرس كاشارة للطعام !

أبواب للتعاون بين الطب وعلم النفس

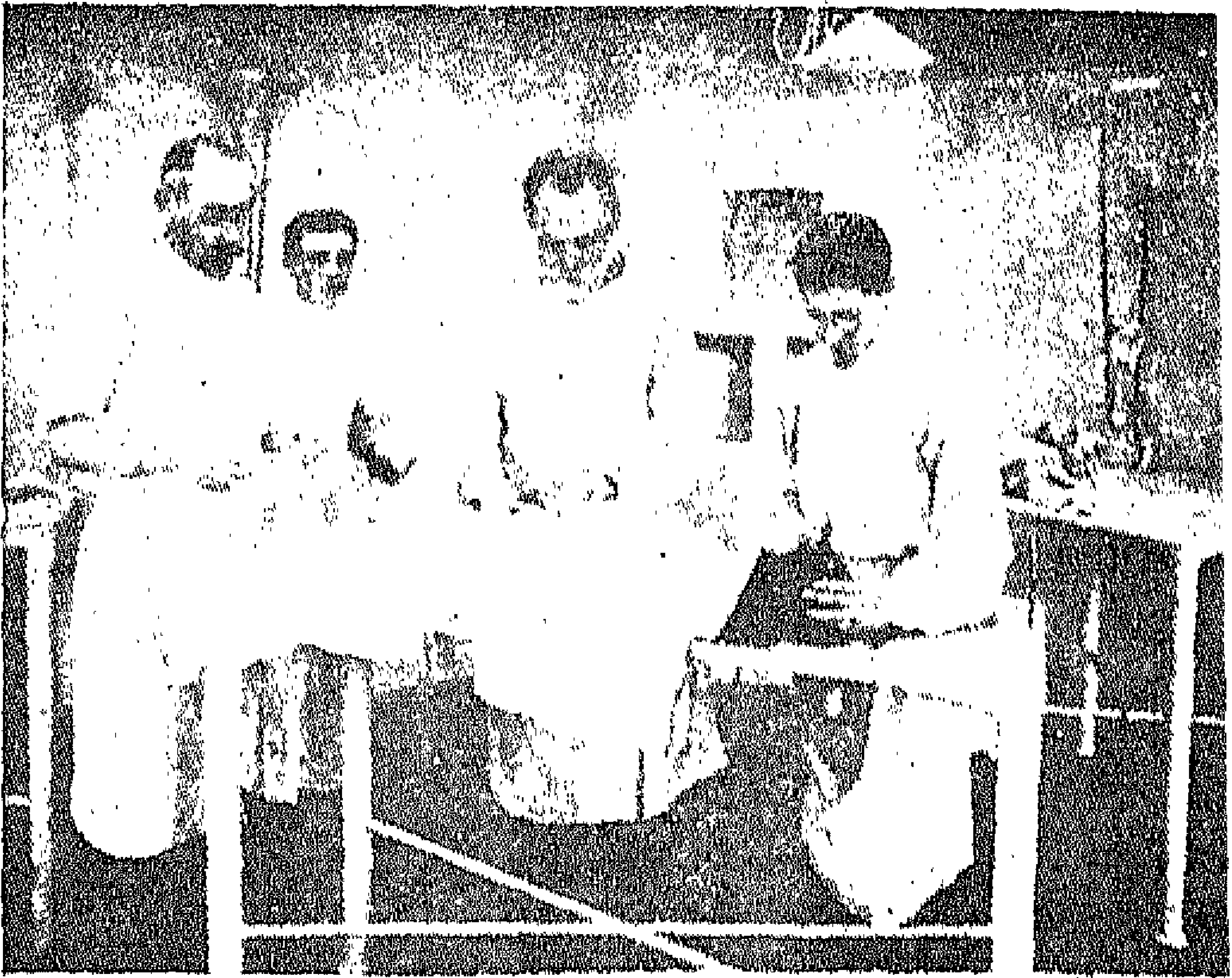
• **وبتكرار** الاشارة وتغيير نوعها ، تأكد « بافلوف » أن الصوت المألوف قد يكون محفزا للعمل . ومن ثم انتقل الى

تجربة ثانية ، لمعرفة ما اذا كان الحيوان يستطيع أن يميز بين اشارتين من نوع واحد .. فجعل دائرة مضيئة ايذانا بتقديم الطعام للحيوان ، وبيضاويا مضيئا اشارة الى عدم تقديم الطعام .. ولم يلبث أن تبين أن الكلب قادر على التمييز بينهما ، وعلى أن يقرن كلا منهما بمدلولها .. وتقدم خطوة أخرى ، فتبين أن لعاب الكلب لا يتحلب الا اذا كان ثمة مايشير الى طعام دسم أو شهى .

وهناك استجابات موروثة لدى الحيوان والانسان . فالخبطة على الركبة - مثلا - تحدث هزة غير اختيارية



قط وقرد .. من المجموعة التى كان بافلوف يجرى عليها تجاربه .



الدكتور بافلوف يقوم بجراحة لكلب وحوله مساعدوه

فى الساق .. وشكة الدبوس ، تحدث اجفالا غير متعمد ، وهكذا ..

ولم يدر « بافلوف » — وهو يجرى هذه التجارب ، ويثبت نتائج مشاهداته ،ثم يحللها ويطوعها للبحث العلمى — **انه انما كان يفتح ابوابا جديدة لعلم النفس ، كى ينقلب من مجرد مادة تحفظ — كالعلوم الاجتماعية ، والجغرافيا ، والتاريخ — الى مادة علمية لها تجارب وتطبيقات عملية ..** ليس هذا فحسب ، بل أنه فتح أبوابا لربط علم النفس بعلم وظائف الاعضاء ، وبالتالى .. بالطب والكيمياء !

وأكثر من هذا .. لم يكن ليخطر ببـال « بافلوف » ان تجاربه هذه كانت فتحا جديداً .. فى العلم والانسانية !

ينتقد الشيوعيين فيبالغون فى اكرامه !

• وفى سنة ١٩١٧ ، اندلعت نيران الثورة الروسـية ، وهو مغرق فى تجاربه .. ولم يكن « بافلوف » مشفقاعلى العهد القيصرى ، فقد نشأ فى أبشع ظروف الفقر والفاقة ، وشهد طوال عمره ذلة الشعب والضنك الذى كانت تعانيه الاغلبية الساحقة من الروس .. ولكنه بهت للتطورات التى اخذت تجرى حوله ، **واشفق على بلاده من الحرب الاهلية، ومن العنف الذى ساد تصرفات البلاشفة ، حتى أنه لميكن يحجم عن انتقادهم علانية** .. وذهب فى الجرأة الى درجة انه كان يسخط على تصرفات الشيوعيين ــ بعد أن توطد سـلطانهم ــ وهـو يدرك انهم بثـوا جواسيسهم فى كل مكان .

ولقد انساق مرة الى الحملة على الشيوعية فى اجتمـاع عام ، فلما انتهى الاجتماع ، دعى الى دائرة الشرطة ، حيث وجهت اليه أسئلة عن آرائه . **فلم يتردد فى أن يعرب عن هذه الآراء بصراحة تامة ، ثم ذيل محضر التحقيق بتوقيعه، فى غير خوف ولا وجل .**

وكان مثـل هـذا « المحضر » خليقـا بأن يودى به الى السجن ، أو الى الموت ، كمـا جرى لكثيرين غيره .. ولـكن شهرته كعـالم من أكبر علمـاء الطب أرغمت البلاشفة على احترام مكانته . وبدلا من أن يعنفـوا معه ، قرروا ــ على العـكس ــ ان يتقوبرا اليه ، وأن يكسـبوه فى صفهم ، بأن يوفروا له أسباب التوفر على عمله ، وان يعـاملوه كمواطن ممتاز .

ومن ثم اصبحوا يرسلون الى بيته – فى كل صباح – احدى مركبات القصر الامبراطورى السابق ، لتنقله الى العمل ! .. والفوا لجنة خاصة لتدرس خير الظروف التى يمكن توفيرها للعلامة « بافلوف » واعوانه ، وانفقوا مبالغ كبيرة لادخال تحسينات على المعمل .. ثم لم يلبثوا ان شيدوا له معملا جديدا رائعا فى قرية (كولتوشى) ، بالقرب من (لنينجراد) .

حياة نشيطة برغم شيخوخته

• **وتقبل** « بافلوف » منهم كل هذا ، **لانه كان مؤمنا** باهمية بحوثه العلمية ، وبوجوب أن يمضى فيها الى اقصى ما كان بوسعه .. ولم يكن ثمة سبيل لان يبدأ من جديد ، فى بلد آخر ، كما فعل كثيرون غيره .. اذ كان قد بلغ الرابعة والسبعين .

ومع انه كان قد اكتهل ، الا انه ظل عاكفا على بحوثه بجد واجتهاد ودأب .. فكان يستيقظ فى السابعة من كل صباح، وبعد فطور خفيف ، يتناوله وهو يصغى الى أنغام الحاكى (الجراموفون) ، كان ينصرف الى عمله تسع ساعات فى اليوم أو عشرا .. ثم يعود الى داره متعبا ، جائعا ، فى الساعة السادسة مساء ، فيتناول الطعام ، ويغفو – بعد ذلك – ساعة ، على سبيل الاستجمام .. يعكف بعدها على القراءة والكتابة حتى الساعة الواحدة او الثانية صباحا !

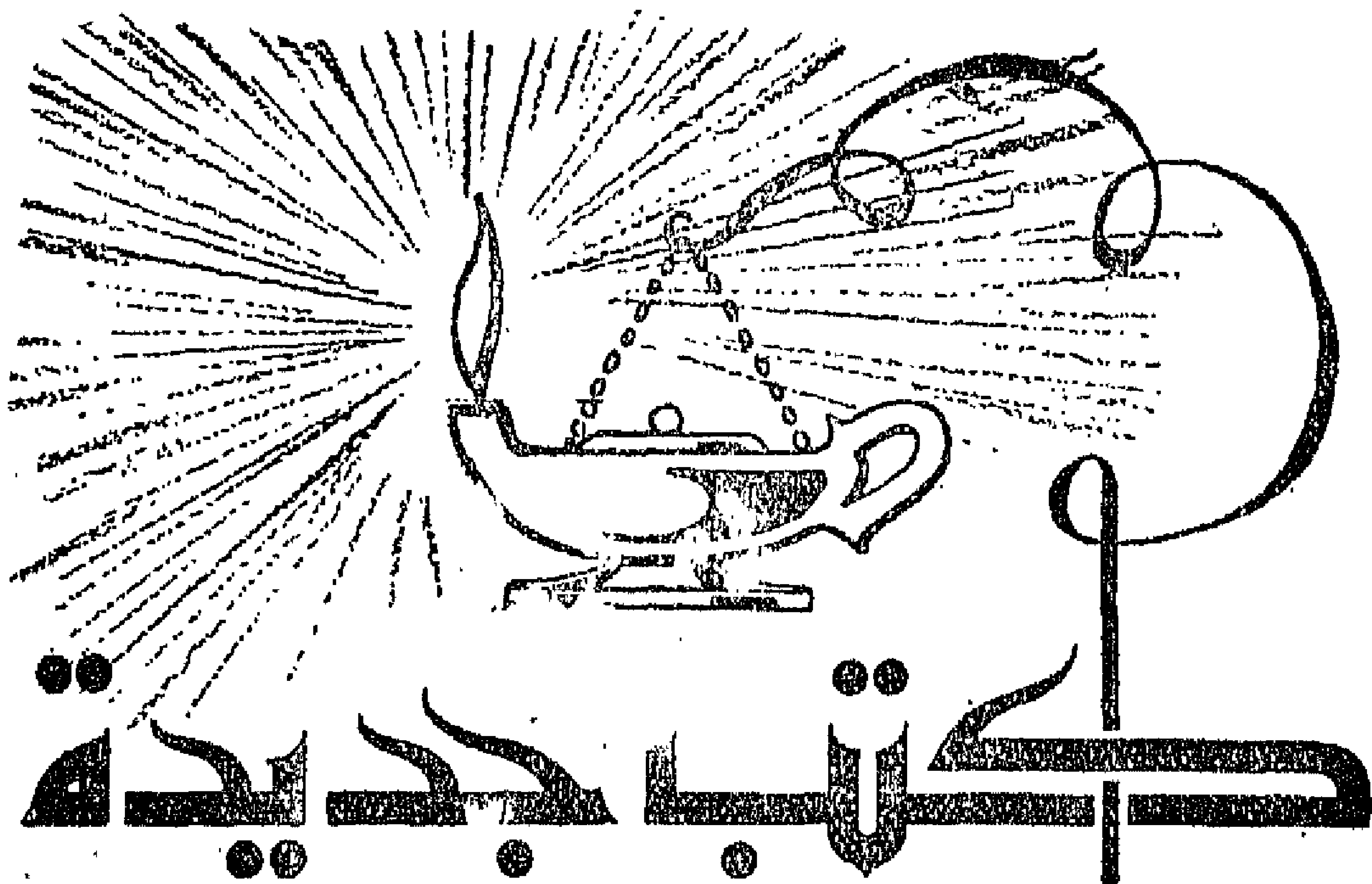
وفى تلك الاعوام ، قام بعدة جولات فى الخارج ، لالقاء محاضرات فى المحافل العلمية . وذهب الى أمريكا – بوجه خاص – ليلقى محاضرات فى علم وظائف الاعضاء ، وارتباطه بعلم النفس .. وكان اينما ذهب يقابل بالتكريم والتبجيل .

دروس للشباب .. من خلاصة تجاربه

• **ولعله** تذكر جهاده فى شبابه ، فكان فى شيخوخته يعنى عناية خاصة بمن يتوسم فيهم وفاء للعلم من الشباب .. فكان يأخذ بأيديهم ، ويتولى ارشادهم .. وكان يقول لهم : ((**ادرسوا أولا مبادىء العلم واصوله ،قبل أن تحاولوا التحليق فى سمائه ..** ولا تنتقلوا قط الى مرحلة ، الا بعد أن تكونوا قد استوعبتم تمام الاستيعاب المرحلة التى أنتم فيها .. ولا تحاولوا قط ان تخفوا مواطن الضعف فى معرفتكم بالتظاهر والافتراء .. روضوا انفسكم على كبح النفس والصبر .. وعندما تتوفرون على الدرس أو التجربة أو المشاهدة ، فحاولوا أن لا تقفوا عند القشور .. **لا تصبحوا مجرد جامعى حقائق ، بل حاولوا أن تغوصوا فى الغوامض حتى تصلوا الى أصولها .. وتذكروا دائما ان العلم يطالب الانسان بأن يهبه حياته كلها)) !**

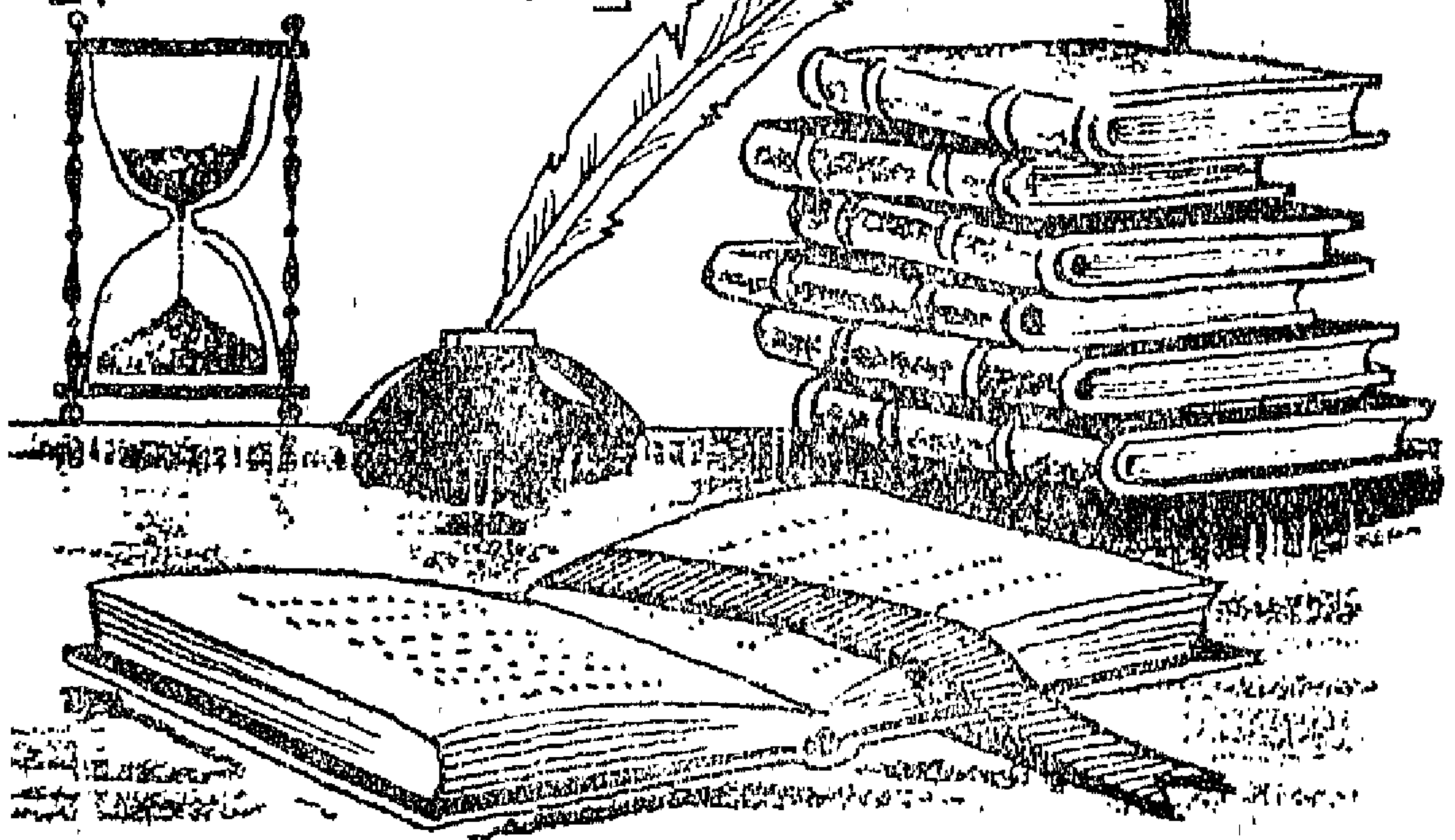
والحق أنه كان — طيلة عمره — يطبق ما كان يدعو اليه سواه ..

وفى سنة ١٩٣٥ ، فقد ابنا من أحب أبنائه عليه ، فحاول ان يصمد للصدمة .. ولكن المرض استبد به ، فلم يلبث أن **مات فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ .. وهو فى السادسة والثمانين من عمره !**



من الغرب والشرق

[عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية فى العالم]



الكتاب الجدد فى الشرق والغرب

عزيزى القارىء :

عنـد اختيار الكتب التى تلخص لأى عـدد من ((**كتابى**)) ، أو التى تترجم لأى عدد من ((**مطبوعات كتابى**)) ، تعترضنا دائما نقطة تثير جدلا أزليا .. فقد تدفع المصادفة الى يدى أحد من أسرة التحرير ، بكتاب رائع ، لكاتب أجنبى حديث ، قد لا يكون أحد من قراء العربية قـد سمع به ، أو قرأ له من قبل .. وهنـا يدور التساؤل : **هل من الحكمة ان نقدم للقـارىء العربى كاتبا لم يعرفه ، ولم يقرأ عنه أو له ؟**

ويقول فريق : « ولم لا ؟ .. وكيف يعرفه القارىء او يقرأ له ، اذا لم نقدمه اليه ؟ » .. ويجيب فريق آخر : « ولكن القارىء يحب الاسماء اللامعة. والنقاد فى المجلات الاسبوعية واليومية يوافونه دائمـا بكل حديث .. وهم أسبق منا الى ذلك ، لتقارب فترات ظهور الصحف التى يكتبون فيها .. لذلك ، يفضـل القارىء أن يقرأ لكاتب يكون النقاد قد رددوا اسمه » .

ولكن المطابع — فى الدول الاخرى — لا تتوقف عن الدوران ، ريثما نفرغ من نقاشنا .. فانتاجها متدفق .. والكتاب الاجانب — من شرقيين وغربيين — الذين عرفهم القارىء العربى والفهم ، يقلون يوما بعد يوم .. **فالموت ((لا يعرف أجازة)) ، والشيخوخة لا تكف عن نخـر عقول الكتـاب ، لتمتص طـاقاتهم الفـكرية**

والابتكارية، كما فعلت بالروائى الانجليزى «سومرست موم» .. ومن ثم فانتاج المطابع الاجنبية يحمل اسماء جديدة باطراد ، وبسرعة تفوق سرعة انتباه ناقدينا الادبيين ..

كاتب جديد .. قديم !

• **ومن** حقك ان تطالبني بمثال .. ولن اخيب رجاءك ! هل سمعت ـ يا عزيزى القارىء ـ عن **«افيلين وو»** ؟ انه رجل وليس امرأة ، كما يوحي اسم « افيلين » ! .. والاطرف من هذا ، انه ليس بالكاتب الجديد ، وانما هو مؤلف ذائع الصيت فى بلاده ، وله عدة كتب تلقى رواجا كبيرا فى انجلترا .. وبلغ من مكانته فى الادب الانجليزى الحديث ، أن صحيفة « الاوبزيرفر » ـ وهى من أوسع الصحف الانجليزية انتشارا ـ خصصت الصفحة الاولى من ملحقها الاسبوعى ، فى أحد اعدادها ، للحديث عنه بمناسبة ظهور آخر قصة له ..

بين الفكاهة والسخرية شعرة واحدة !

• **امتاز** الانتاج الاول لافيلين وو ، بروح الفكاهة .. وبهذه الروح تناول نظام التعليم فى انجلترا ، فى كتابه « التداعى والانهيار » ، فاذا النقاد يأخذون الفكاهة على انها سخرية ، فيثيرون ضجة حول الكتاب والكاتب .. **والفرق بين الفكاهة والسخرية ـ فى عصرنا الحديث ـ فرق ضيق جدا .**

و « افيلين » ـ فى هذا الكتاب ـ لم يحاول أن يسخر من نظام التعليم فى الواقع ، وانما حاول ان يرسم صورة ـ تثير ضحك القراء ـ للطبقة الرفيعة فى مجتمع بلاده ،

وللمدارس الخاصة التى ترسل اليها هذه الطبقة ابناءها .. ومع حملات النقاد، فان كتاب «التداعى والانهيار»، استطاع أن يخلق لنفسه مكانة فى الادب الانجليزى المعاصر ، **كواحد من «« أظرف »» خمسة كتب ظهرت هناك فى القرن الحالى !**

وفى الكتب التالية ، بدأت روح السخرية اللاذعة ، تبدو خلال أسلوب « افيلين وو » ، وامتزجت بالفكاهة التى كانت تسود اسلوبه فى أعماله الاولى ، الى أن تبلورت اتجاهاته ، وتجلى له طابع خاص به ، يجمع بين الاسلوبين ، حتى ان الناقد الانجليزى « فيليب توينبى » يصف الاسلوب الناجم بأنه : «« **مضحك لاذع** »» .. تختلط فيه النكتة بوخزة او ركلة !

وليس معنى هذا ان قصص « وو » تخلو من المأساة ، ومن الحب .. **بل ان المأساة عنصر رئيسى فيها ، مستمد من المأساة الكبرى للحياة الحديثة ، فى رأى «« وو »» ..** فهو يرى ان الرجل الصالح ، الطيب ، يهلك ــ فى عصرنا هذا ــ وسط تيارات عالم تسوده الانانية ، والنزوات الدنيئة ..

«« ثلاثية »» عن الحرب الماضية

• **وكثير** من النقاد يتهمون « وو » بأنه وقح ، رخيص .. ولكن انصاره يردون على ذلك ، بأنه صريح الى اقصى حد ، ولاذع فى سخريته من كل ما لا يعجبه فى حياة بلاده ونظمها .. **وكثير من الناس يحبون ان يغمضوا اعينهم عن عيوب مجتمعهم، باسم الكبرياء الزائفة ، والكرامة المخدوعة .. ومن هنا يتهمون «« وو »» بالوقاحة والترخص !**

وآخر كتاب صدر فى لندن ، بقلم « افيلين وو » ، هو : « تسليم بلا قيد ولا شرط » .. وانا لم اقرأ الكتاب بعد ، ولكنى قرأت عنه لأكثر من ناقد أدبى ، فعرفت أنه جزء من « ثلاثية » عن الحرب العالمية الماضية ، عالج فيها « وو » احداث هـذه الحرب ، لا فى بلاده وحـدها ، وانما فى البلاد الاخرى كذلك .. ولكنه لا يلبث ان يرتد الى بلاده ـ بين حين وآخر ـ ليصور مباذل الجنود الامريكيين فى انجلترا .. ومباذل المجتمع الانجليزى ، وبينها **تهالك المراهقات الانجليزيات على هؤلاء الامريكيين .. بمساعدة امهـاتهن وعمـاتهن وخالاتهن !** .. وتداعى الاخلاق فى انجلترا خلال الحرب .. وتداعى الروح المعنوية ، حتى أن وزارة حكومية استخدمت ساحرا من أفريقيا ، لكى يقوم بالتعويذات والسحر للقادة النازيين !

وقد تلمس فى هذه الظاهرة الاخيرة ـ ظاهرة السحر ـ لونا من فكاهة «افيلين وو» ، ولكن من الجلى انه لم يقصدبها الفكاهة المجردة ، وانما شاء ان يبرز التداعى المعنوى عن طريق المغالاة !

مثل هذا الكاتب ، الا ترى معى انك تحب ان تطلع على انتاجه ، ولو انك لم تعرفه قبل أن تقرأ هذه الصفحات ؟

فلننتظر حتى تصل ثلاثيته ! .. وعلى فكرة ، هذه الثلاثية عناوينها : « البشر والاسلحة » .. و « ضـباط وسـادة مهذبون » .. واخيرا : « تسليم بلا قيد ولا شرط » .

((اطفال سانشيز)) .. والفقر !

• **وكاتب** آخر ، ظهر فى أمريكا ، يدخل فى نطاق موضوعنا هذا ..

انه ((**اوسكار لويس**)) .. لم تسمع عنه ، ولم تقرا اسمه من قبل ؟!.. أعرف هذا !

ان ((اوسكار لويس)) كاتب اجتماعى ، يعرض ــ باسلوب قصصى ممتاز ــ المشكلات الاجتماعية..فى المجتمع الانسانى عامة . ولكنه لا يعالج هذه المشكلات وهو جالس الى مكتبه ، وخلال التقارير والاحصاءات والكتابات التى ينشرها غيره ، ويتخذها هو كمراجع .. وانما هو يبحث ، ويجرى وراء موضوعاته ، ثم يبتكر الطريقة لعرضها ..

ولقد حيرته فكرة عميقة : **لماذا يقنع الفقير بعيشه ، وكيف ؟**

ولكى يجيب عن هذين السؤالين ، راح « اوسكار لويس » يبحث عن اسرة تصلح لأن تكون نموذجا للفقر .. وعثر ــ أخيرا ــ على اسرة « سانكيز » ــ أو « سانشيز » ــ فى المكسيك .. فماذا يفعل ؟

لقد اختلط بهذه الاسرة اختلاطا وثيقا ، حتى الفه أفرادها والفهم بدوره .. وأخذ ينصت الى أحاديثهم .. ولكنه لم يكن ينصت ليدونها على الورق ، **وانما كان يسجلها مباشرة على أشرطة .. من افواههم ، وبلهجاتهم ، وانفعالاتهم !**

ومن واقع هذه الاحاديث ، وضع « اوسكار لويس »

كتابا اطلق عليه اسم : « **أطفال سانشيز** » .. فماذا الكتاب يحدث ضجة فى الاوساط الادبية والاجتماعية فى امريكا ..

حياة الفقراء ليست كئيبة

• **ويقدم** « لويس » لكتابه قائلا : « ان حياة الفقراء ليست كئيبة .. ان القصص التى تضمنها هذا الكتاب ، تكشف عن عالم من العنف والموت .. من العناء والحرمان .. من الخيانة ومن انهيار الاسرات .. من الانحراف والفساد، ووحشية الشرطة ، وقسوة الفقير على الفقير » ! ..ومع كل هذا ، فان « اوسكار لويس » يصر على ان « **حياة الفقراء ليست كئيبة** » !!

ويسوق المؤلف حديثا سجله لأحد أطفال الاسرة :

« فى كل عام ، كان الملوك الثلاثة يفدون الى دارنا ، فى السادس من شهر يناير ، ويتركون لنا اللعب فى حامل اصص الزهور ، الذى تعتز به امى .. **ولكن الملوك الثلاثة لم يأتوا فى السادس من يناير ، من أحد الاعوام ، فكنت أتعس طفل فى الدنيا ..** »

وواضح انه يقصد الخرافة القائلة بأن هناك من يزور بيوت المسيحيين ــ فى عيد الميلاد ــ ويترك هدايا للاطفال. وواضح أيضا ، ان الاسرة كانت تنتمى الى كنيسة شرقية ، فهى تحتفل بعيد الميلاد فى ٦ يناير .. وبدلا من « سانتا كلوز » ، او « بابا نويل » ، يؤمن القوم بأن ثمة «ثلاثة ملوك» ــ اشارة الى المجوس الثلاثة الذين ادركوا امارات مولد المسيح ، فحجوا اليه ــ وان هؤلاء الملوك يزورون البيوت ، بعد نوم الاطفال ــ فى ليلة عيد الميلاد ــ ليتركوا لهم الهدايا واللعب ..

ويمضى الطفل قائلا : « ولقد استيقظنا ــ معشر الاطفال ــ مبكرين ، فى ذلك اليوم ، ككل الاطفال ، لنسعى الى اللعب .. **وذهبنا نتفقدها فى حامل اصص الزهور ، ثم فى رماد المدفاة .. ولكننـــا ــ لسوء الحظ ــ لم نجد شيئا .** ولم يبق لنا سوى ان نخرج الى الساحة ، وان نرقب اصــدقاءنا وهم يحملون لعبهم ! .. وكان ذلك آخر « سادس من يناير » قضته أمى معنا ، قبل ان تموت . وبعد ذلك ، ظللت أعواما .. أبكى » !

وحيثما مضيت فى الكتاب ، هفت بعواطفك الســذاجة البريئة المؤثرة :

« أحسب أن أسوأ ما جرى لى ولأخى ، هو اننا كبرنا .. فقد كنت جد سعيد ، حتى بلغت الثامنة » !

« كان ثمة خبز فى كل مكان ، ولـكنى كنت جائعــا ! .. انك لا تستطيع أن تتصور مدى الشعور الذى يترتب على هذا ! »

الاطفال سواء .. فى الفقر والغنى !

• **واسرة** « سانشيز » اسرة فقيرة ، تعيش فى ضنك ، فى غرفة واحدة بمدينة (مكسيكو) . ومع ان المشكلات المترتبة على الفقر عندهم ، قد تختلف عن مشكلات الذين يعيشون فى مستوى متوســط ، أو فى مســتوى وافر الــرخاء ، **الا أن التأثرات النفســية لدى أطفال الطبقات الثــلاث ، لاتختلف كثــيرا . لأن النفس البشرية واحــدة ، فى كافة الطبقــات والاوساط ..**

مثال ذلك ان « كونسيلو » ــ الابنة الكبرى فى الاسرة ــ تتعذب ، وتنطوى على نفسها ، لمجرد شــعورها بأن اباها لا يحبها .. ونجد ان الاب شقى بهذا الوضع ، اذ يدرك ان

اطفاله يشعرون بأنه لا يحبهم بالقدر الذى يكفيهم ، فى حين انه لم يقصر فى حبهم . فهو حائر لا يدرى .. **كيف يحبهم أكثر مما هو يحبهم فعلا ؟** .. وهو يذكر انه فى صغره لم يحظ بكثير من الحب ، ومن ثم فهو يخال ان قلة نصيب المرء من الحب ، ظاهرة يتوارثها الابناء عن الآباء ، وهى تستفحل من جيل الى جيل !

ومع ذلك ، فان « سانشيز » كان — ككل أب — له من بين ابنائه واحد يسرف فى الحنو عليه وتدليله .. وكانت « مارتا » هى صاحبة الحظوة لديه . وقد سجل لها المؤلف قولها :

« كانت طفولتى أسعد طفولة نعمت بها فتاة .. كان لى ان أفعل ما أشاء ، ولا أتعرض لعقاب .. وكنت اذا بكيت ، ربت أبى على ظهرى ، ونفحنى بنقود » !

الاخلاق والشعور بالمسئولية تتضاءل

• **هكذا** لم يحل الفقر دون أن ترى ان طفولتها كانت **« أسعد طفولة نعمت بها فتاة » !..** وكما يفسد التدليل بنات الاغنياء ، فانه — كذلك — يفسد بنات الفقراء . ومن ثم نشأت « مارتا » مفلوتة الزمام ، متلوفة الاخلاق .. وانتهت الى شقاء كغيرها ممن لم يصبن تدليلا !

والفقر موجود دائما ، ولكن طبيعة الفقر والفقراء هى التى تتغير .. فنجد ان ابناء « سانشيز » متباينون ، وكلهم مختلفون عن ابيهم .. ونجد ان المستوى الخلقى والشعور بالمسئولية ، يتضاءلان من جيل الى جيل .. فقد كانت جدة « سانشيز » الاب ، مفرقة فى التقوى والتعبد . وحرص « سانشيز » على أن يعول كافة النساء اللائى أنجب منهن أطفالا ، **ولم يشفق على نفسه — بعد أن قضى ثلاثين سنة فى**

عمل دائب شاق — فاذا به يتطوع لرعاية احفاده الذين جاءوا ثمرات غير شرعية ! .. اما اولاده — وهم الجيل الذى تلاه — فلم يحرصوا ! « حتى على ايقاد الشموع ، ووضع كوب ماء وكسرة خبز بجانب هذه الشموع ، فى يوم الموتى » .. كما تقضى الطقوس الدينية !

ومن هذه الاحاديث — التى سجلها المؤلف — يقفز سؤال : **ماذا يتبقى للفقير ، اذا تجرد من العقائد والتقاليد ؟**

لا شىء تقريبا .. فكأن العقائد والتقاليد المتوارثة هى التى تعينه على تقبل الفقر وشظف العيش !

وتفرغ من هذه الدراسة الواقعية المسجلة للفقر ، فتظل كلمات « سانشيز » الاب تتردد فى اذنيك :

« ما الذى يجرى لأسرتى ؟ .. اواه ، ياربى ! .. انهم يقضون على انفسهم ، ويفنون ببطء ، كأعمامى واخوالى وأمى وجدتى .. ذهبوا جميعا وتركونى مبكرين .

« أجل ، ان مانويل ابنى سيعيش ، **ولكن على حساب من ؟** .. كم مرة سيتاح له أن يختبر حب أطفاله إذ يحرمهم القوت ؟ .. من الفظيع ان اتخيل انه سيعيش بعد اطفاله » !

مع المؤرخ الرحالة « توينبى » ..

• **من** الناس من يوحى اليك حديثه بروح من الود والصداقة ، تجعلك تركن اليه وتطمئن ، حتى انك لتنسى ان تسأله عن اسمه ، فاذا ما افترقتما ، بقيت معك روحه الودود ، وان غاب عنك اسمه ..

ومن هذا الصنف « ارنولد توينبى » ، المؤرخ الذى عرف بمناصرته للعرب ، وبشغفه بتاريخهم وتاريخ الشرق عامة .. والذى ينتظر أن يزور الجمهورية العربية المتحدة قريبا ..

واحدث كتاب لتوينبى ــ واسمه «بين اوكسوس وجومنا» ــ يعكس الصفة التى ذكرناها عنه .. فأنت تشعر ــ اثناء قراءته ــ بانك تنصت الى رجل طيب ، ذى لهجة ودية آسرة .. آسرة الى درجة أنك لاتملك ســوى ان تقتنع بأن ركوب عربة يجرها ثور ، فى بطاح افغانســتان او باكســتان ، امتع وافضل من ركوب طائرة نفاثة ..

وهذا صحيح بالنســبة لتوينبى ، على الأقل .. اذ يمكنه من ان يرى كل شىء ، وان يشــهد المعالم الدارســة ، وان يدرس المدنياتالتى تصادفه ، لكى يثبتالفكرةالتى سيطرت عليه ، وانعكست على كتاباته ، وهى أن كل الحضارات ــ التى انقرضت منها ، والتى لا تزال على قيد الوجود ــ تكون فيما بينها وحدة ..

وعلى أجنحة حديثه المشوق ، نطوف معه الاماكن التى زارها فى العام المــاضى ، اذ قام بجــولة فى غرب باكستان ، وافغانستان ، وشمال غربى الهند ، حيث التقى بآثار من المدنيات الآرية ، والفارسية ، واليونانية ، والاسلامية .. كما تأمل معالم المدنيات الحديثة فى هذه البقاع .. ومزج كلهذه الملاحظات التى جمعها بأحاديث طريفة عن الاسكندر الاكبر ، وسوفوكليس ، ودارا الفاتح الفارسى .. وابراج الاستطلاع السوفييتية المقامة فى مواجهة ضــفة نهــر (أوكسوس) ، والطفرات الحاضرة فى (كراتشى) .. وتلاميذ المدارس من الجيل الناشىء من الهندوكيين ..

وهكذا نجد ان الكتاب رحلة طريفة فى بقاع لم تألفها .. ورحلة أطرف فى رحاب تاريخ الشرق القديم .. ورحــلة ثالثة ، اكثر طرافة من سابقتيها ، فى حاضر الشرق !

ذكريات زوجة شاعر

• **هل** لحياة الشاعر الخاصة ، اثر على أعماله ؟

سؤال طالما راود اذهان الكتاب والناقدين والمؤرخين • فعالجوه مرارا .. ولكن اسواق الكتب شهدت أخيرا ، كتابا يعتبر دراسة عملية ، من صميم الحياة الخاصة للشاعر الانجليزى ((**توماس هاردى**)) •

فمن المعروف عن « هاردى » انه حرص ــ فى حياته ــ على ان لايعرف الرأى العام عن شؤونه الشخصية الا اقل القليل ، الى جانب ما قد تكشف عنه بعض أشعاره .. **وبلغ من حرصه انه كتب ــ قبيل موته ــ سيرته الخاصة بقلمه ، وان نشرت تحت اسم زوجته الثانية ، لكى يطمئن الى ان الرأى العام لن يطلع الا على ماشاء هو ان يطلع عليه من حياته الشخصية** •• ثم بدا انه أعدم ــ بعد ذلك ــ كل ماتبقى لديه من أوراق تشى بشىء عن هذه الحياة .

.. هكذا ضحكت الاقدار !

• **ولكن** المثل العربى يقول : «وتقدرون فتضحك الاقدار» **.. وقد ضحكت الاقدار من ((هاردى)) اخيرا ، اذ عثرت ابنته ((ايفيلين هاردى)) على بضع اوراق افلتت من ابيها ، وقدر لها البقاء !** •• وكانت الاوراق تضم ذكريات كتبتها «ايما هاردى» ــ زوجة هذا الشاعر ــ أبان حياتها ، فضمت اليها « ايفيلين » ــ بمعونة الكاتب « روبرت جيتينجز » ــ بعضا من اشعاره التى تعكس بعض ومضات من حياته ، ونشراها فى كتاب بعنوان : ((**بعض ذكريات ــ بقلم ايما هاردى**)) •

والذكريات تتنــاول حياة « ايما جيفورد » ــ كما كانت تدعى قبل زواجها ــ منذ صغرها الى ان تزوجت .. ومن هذه الذكريات ، نستطيع ان نلمس اسباب فشـــل زواجها من «هاردى» ، والسر فى ان الحب القوى الذى ربط بينهما ــ فى البداية ــ لم يلبث ان انقاب الى نفور شديد ، أشقى الشاعر ، واشاع الظلمة فى حياته ، وأحال أشعاره ــ فى بعض الاحيان ــ الى تشاؤم ويأس من نصيب الانســان فى الحياة الدنيا ..

كانت جميلة ، ولكن .. ؟ !

● **كان** الحب لدى توماس هــاردى هو أغلى واســمى عاطفة يخفق بها قلب الانســان ، ومن ثم فان مرارة اخفاق هذا الحب ، كانت فى حياته أشد من أى شىء آخر صادفه .. **فقدكان بطبيعتهوادعا ، صبورا ، وفيا .** ومثل هذا الشخص اذا شــعر بالشقاء ، فلا بد أن مصدر هذا الشقاء كان أكبر من وداعتـــه ، ومن صبـــره ، ومن وفائــه .. **فكيف كانت زوجته ، التى تسببت فى شقائه ؟**

كانت جميلة ، لاشك فى ذلك .. شعر كستنائى ، وعينان رماديتان ، وبشرة ناعمة بضة ، وقوام رشيق ملفوف ..

وكان خليقا بزوجة اوتيت هذا الجمال ، أن تنعم مع زوج اوتى مثل تلك الخصال ..

ولكن طباعها كانت سر نكبة هذا الزواج . فعلى الرغم من الحب الذى جمع بينهما قبل الزواج ، شعرت « ايما هاردى » بانها ــ بهذا الزواج ــ قد هبطت عن مكانتها الاجتماعية ..
ولو اننا عرفنا ان اباها كان محاميا ، وانه فشـــل فى حياته لافراطه فى الشرب ، حتى اضطر الى ان يعيش عالة على امه .. لو اننا عرفنا هذا ، لأدركنا ان «هاردى» هو الذى تنزل عن مستواه ، حين اقدم على الزواج منها !

تترحم على اصل الجدود !

• **ولكن** .. كانت « ايما » تغفل حاضر اسرتها ، لتعيش فى الماضى البعيد ، منذ عرفت ان اصول اسرتها تنحدر من أسرة نورماندية عريقة ، كان اسمها « جى دى فورد » .. ومن هنا كان اسم ابيها «جيفورد» تحريفا للقب القديم .. وعلى ذكرى هذا الماضى القديم ، راحت تعتبر ان «هاردى» ادنى منها اصلا ، فأوسعته غرورا وصلفا .. وراحت — فى « بعض الذكريات» — تنعى حظها ، وتترحم على اسرتها !.. ولعل من طريف ما كتبته فى هذا الصدد !

« لكم احرجنى ان انتقل فى مركبة عامة ، وهى وسيلة للتنقل لاتليق بمقامى » !

ثم انها كانت متعنتة فى معتقداتها الدينية ، ولعل هذا كان رد فعل لما رأته من ادمان ابيها للخمر .. فكثيرا ما يكون الاثر النفسى لدى الابن — من فساد ابيه — حافزا له على التزمت والتعصب .. بينما كان « هاردى » متحررا .. لا بمعنى التحرر الذى يتباهى به بعض شعراء اليوم ، والذى ينطوى على نوع من الكفر أو اللادينية .. **وانما بمعنى عدم التزمت فى تفسير تعاليم الدين وتطبيقها !**

ومع الغرور ، كان هذا التحرر من « هاردى » يثير ثائرة « ايما » ، ويؤدى الى الشقاق ..

النقطة السوداء فى قلب الجمال

• **ومن** ناحية اخرى ، كانت « ايما » حقودا .. ومن العجيب أن يسكن الحقد قلب حسناء لها جمالها . ولكن الواقع ان « ايما » — على ما يبدو لنا من ذكرياتها — كانت تعانى من اختلال عاطفى ، يرجع الى مركبات نقص وعقد نفسية ..

من ذلك انها كانت تكـره اختها .. لا لشىء الا لأن هذه الأخت قدر لها ان تتزوج قبلها !

ومن ذلك نفهم ـ ايضـا ـ انـها لم تكن مدنفـة فى حب « هاردى » ، كما خيل اليه قبل الزواج ، وانما هى كانت ـ فى الغالب ـ تتظاهـر بالحب ، لأنها كانت تريد ان تتزوج ، حتى لاتبـدو ـ فى عينى نفسـها ، على الاقـل ـ ادنى من اختها ..

وبعد ان اقتنصت الـزوج ، بدأت تكشـف عن حقيقـة نفسها ! .. وبدأ شعورها بالنقص ـ لأن اباها كان فاشلا ، معدما ـ يوحى اليها بالتعالى على « هاردى » .. بل اننا لانعدو الصواب اذا قلنا انها كرهت «هاردى» ، لعقدة نفسية كامنة .. تلك هى انها كانت تشـعر ـ فى قـرارتها ـ ان « هاردى » كان كريما حين تزوج منها ـ **وقد بلغت الرابعة والثلاثين من عمرها** ـ فى حين أنه كان يسـتطيع ان يتزوج فتاة تصغرها سنا .. وان كان هو أكبر منها !

تتشاءم من عش للنحل !

• **ولقد** اعجب « هاردى » ـ عندما التقى بها لأول مرة ـ بما أبدت من خيال واسع .. ولكنه لم يفطن قط الى ان هـذا الخيال قد ينحرف ، تحت ضغط عوامل من البيئة ، والظروف .. **وهذا ما حدث فعـلا ، فان الخيال الجامح ، جنح بها الى عالم الخـرافات ، فآمنت بها الى درجـة تنم عن انها كانت مصابة بشىء من الخلل العقلى ..** حتى لقـد اكتشفت عشا للنحل فوق نافذة مخدعها ـ بعد الزواج ـ فكادت تجن ، وأعتبرته فألا سيئا !

وقد كشف علم النفس التحليلى الحـديث ، عن ان كثيرا من حالات الخلل العقلى ، **ترجع الى عوامل نفسية !**

بقى ان نصف صورة سريعة للشاعر «هاردي» ونفسيته.. فلقد قدر له ان يطلع فى اوراقها الخاصة ، على قطعة كتبتها عن اول لقاء لهما.. كتبتها قبل وفاتها بأقل من عام ، واطلع عليها بعد ان اودعها قبرها ، فاذا به ينسى ما عانى من شقاء ، واذا به يكتب قصيدة ، يوجه فيها الخطاب اليها :

« ... لا كما كنت ،
« عندما تغيرت عن تلك التى كانت لى كل شيء ..
« وانما .. كما كنت فى الاول ،
« عندما كان يومنا جميلا » !

ناحية اخرى من نواحى « هاردى » ، تمثلت فى اعدامه كل ما كان يشى بمصدر الشقاء فى حياته .. الا ترى فى ذلك انه دليل على الوفاء ، اذ لم يشأ ان يسىء الى ذكرى زوجته ؟

بين العطف والفهم فرق كبير

• **أجمع** النقاد يوما ، على وصف الكاتب الفرنسى **« جورج سيمينون »** بأنه « اميل زولا » العصر الحديث .. وليس فى هذا كثير من المغالاة ، فالواقع ان « سيمينون » أوتى براعة « زولا » فى اختيار شخصياته النسوية — لاسيما من بنات الطبقة الدنيا ، أو ممن زللن فى الحياة — وفى تحليل عواطفهن ، والنواحى الجنسية فى حياتهن ..

ولكن « سيمينون » ميز نفسه عن « زولا » بميل الى التجريمه ، واثارة مشاعر الترقب لدى القراء ، وحبك المفاجآت ، ثم التسلسل المنطقى الذى يكشف به أسرار الجريمة .. بعد ان يكون قد عبث بأعصاب القارىء !

واعتاد «سيمينون» — اذا ما مزج بين النوعين — ان يبلغ

قمة الابداع .. وهذا ما حدث فى روايته الاخيرة : ((الاعزب)) .

الفنان الذى تزوج بغيا

• **وتدور** احداث الرواية ، فى احدى مناطق باريس الشعبية المزدحمة .. حيث التقى فنان بارد المشاعر الجنسية ، ببغى انقذها من ان تشوهها خناجر افراد عصابة كانت تعمل معها .. **ولم يتردد الفنان ــ رغم بروده الجنسى ــ فى ان يتزوج من اتفتاه ، وان يعيش معها حياة منعزله ، مغمورة** ، حتى لا يهتدى اليهما شركاء الفتاة من افراد العصابة القديمة ــ من ناحية ــ وحتى تتوفر للفنان الحياة التى كان يهواها .. حياة العزلة والهدوء . فلم يكن الزوجان يلتقيان بغير حارسة البيت ــ البوابة ــ وغلام صغير ، كانت تزعم انه حفيدها ..

ويفاجأ الرجل يوما بزوجته تختفى ، فيكاد يجن .. اذ كان عطفه عليها ، وعرفانها بفضله ، عاملان اقاما علاقاتهما على اسس اقوى بكثير من العامل الجنسى ..

ولا يلبث ان يعثر عليها ، ولكن .. جثة هامدة . ويتكشف انها قتلت نفسها .. وهنا ، يفجر «سيمينون» المفاجأة التى كان يدخرها .. ثم يمضى فى كشف ما حدث ، بالطريقة البوليسية !

دراسة نفسية طريفة

• **والواقع** ان الرواية ليست مجرد تسلية ، بل انها دراسة طريفة للعلاقة بين شخصين ، يعيش احدهما لكى يغمر الآخر بكرمه وعطفه وحنانه ، دون ان يحاول ان يفهمه .. ويستطرد ((سيمينون)) من هنا الى بيان كيف انه

اســهل على المرء ان يكون كريما عطوفا ، من ان يسعى الى فهم معاشره . ويدرك الفنان ـ بطل القصة ـ هذه الحقيقة لأول مرة ، عندما يتبين ان حفيد « البوابة » لم يكن سوى .. ابن زوجته ، من حيانها السابقة !

ولتنتهى القصة بأن يحتضن الفنان ذلك الغلام ، ويبدأ فى معاملته كما كان يعامل امه من قبله !

عقوبة الاعدام كضابط لصلاح المجتمع

◆ **السير** جون بارى من رجال القانون والتشريع البارزين فى استراليا . وهو يشغل منصب قاضى المحــكمة العليا فى فيكتوريا ، كما أنه رئيس لقسم الجريمة بجامعة ملبورن .

وقد لفت نظر السير جون بارى كتابان جديدان ، صــدرا اخيرا فى سلسلة بنجوين (الطبعة الخاصة) . أولهما بعنوان : ((**المشنوقون**)) من تأليف : ((**آرثر كوســتلر**)) و ((**س.هـ. رولف**)) . وثانيهما بعنوان : ((**شنقوا خطأ**)) من تأليف : ((**لسلى هال**)) .. وهما يعالجان قضية عقوبة الاعدام فى بريطانيـــا وبلدان الكومنولث . ومن ثم كتب السير جون مقالا ممتعا فى صحيفة ((**الأوبزرفر**)) ، ناقش فيه الكتابين ، وما جــاء فيهما حول عقوبة الاعدام . وقد جاء فيه :

تنشأ الآراء حول عقوبة الاعدام لاعتبارات عاطفية ، لا يتدخل فيها العقل بالشىء الكثير :

◆ **ان** الشعور ـ المنبعث من الخــوف والرعب ـ بأن المجتمع على حق حين يلجأ الى التخلص من مخلوقات قاتلة ، هو شعور تلقائى شائع ، وليس عسيرا على الفهم . ومن هنــا ينشأ التأييد المعهود لعقوبة الاعدام ، كرادع فريد لا غنى عنه .

كذلك ينشأ معه الخوف من الغائها ، على أســـاس أن هذا الالغاء سوف يؤدي الى ارتفاع معدل ازهـــاق الارواح من جانب ، والى اقلاق البوليس واضعافه من جانب آخر .

◆ **قضية** الغاء عقوبة الاعدام هي ـ بشكل اســـاسي ـ قضية أخلاقية ، تستند الى القول بأن حيـــاة الانسان شيء مقدس ، حتى لو كانت حياة وحش سفاح ، وأن أحتـــرام الحياة امر لا غنى عنه ، خاصة في مجتمع يسعى لتشـــييد مدنية فاضلة .

◆ **وهذان** الكتابان يمثلان آخر ما صدر من أدب ضـــمن الحملة المعروفة ، التي اثارها على عقوبة الاعـــدام المحامي المشهور السير صامويل روميللي في عـــــام ١٨٠٨ . وهما يستعرضان قضية الغاء الاعدام في انجلترا ، وأشكال هـــذا الالغاء ، كما انهما يضربان أمثلة واقعية لقضايا معروفة ، حكم على مرتكبيها بالاعدام ، مثل اليزابث فننج عام ١٨١٥ ، واديث تومسون عام ١٩٢٣ ، ووالتر رولاند عام ١٩٤٧ ، وتيموثي ايفانز عام ١٩٤٩ .

◆ **ونذكر** ـ على سبيل المثال ـ ان تجربة استراليـــا في هذا الميدان ، تدعم وجهة نظر **((كوستلر))** و **((رولف))** ، القائلة بان الغاء عقوبة الاعدام لا يستتبع ازديادا في معـــدل ازهاق الارواح ، عن طريق القتل أو غيره . ذلك لان العقوبة قـــد الغيت في كوينزلاند منذ عام ١٩٢٢ ، كما الغيت في نيوساوث ويلز في عام ١٩٥٥ (فيما عدا حالتي الخيانـــة العظـــمى والقرصنة) . ومع ذلك فلم يشاهد هناك ازدياد في معـــدل القتل .

◆ **يقول** احد انصار الغاء الاعدام المتحمســـين ، ويدعى كلارنس دارو : « في النهاية نجد أن المشكلة ، ببساطة ، تدخل ضمن الصراع بين المشاعر الخيرة والمشاعر الشريرة »

• وبعد هذه الجولة فى اسـواق الكتب العـالمية ، انتهى بك الى سـوقنا العربية ، فاختار لك كتابا من أحدث الكتب التى ظهرت فيها ، هو :

تاريخ العلم والانسبية الجديدة

ترجمة وعرض : **اسماعيل مظهر**

• **الاستاذ ((جورج سارتون))** رائد من رواد الفكر فى القرن العشرين . وهو من أصل بلجيـكى هاجر الى امريكا وتجنس هناك .

ولد بمـدينة « غنت » فى ٣١ من اغسطس سـنة ١٨٨٤ ، وتوفى بمـدينة « كمبـردج » بولايـة « ماساشوستس » فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٥٦ .. تخصص فى تاريخ العلوم ، وخرج من تخصصه بمذهب جديد .

غادر بلجيكة فى ابان الحرب العالمية الاولى ، عند وقوع الغزو الألمانى ، وهبط انجلترة فأقام بها بعض الوقت ، **ثم رحل الى الولايات المتحـدة حيث اصبح الرائد الاول لحركة تاريخ العلوم فى جـامعة ((جورج واشنطن))** . ثم أصبح استاذا فى جامعة « هرفارد » حيث اقام الى ان تقاعد فى سنة ١٩٥١ .

فى سـنة ١٩١٢ أصـدر مجلـة ((**ايزيس**)) ، وتخصصت فى البحث فى فلسفة العلوم وتاريخهـا ،

الناشر : دار النهضة العربية ، بالاشـتراك مع مؤسـسة « فرانكلين » .

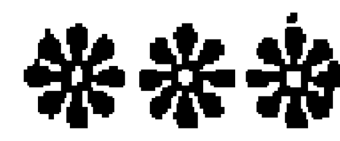
وتولى رياسة تحريرها بعد سنة ١٩١٣ . وفى سنة ١٩٣٦ أصدر مجله ((أوزيريس)) ، وخصصها للبحث فى تاريخ المعرفة والثقافة والفلسفة والعلم .

من دراساته الواسعة فى تاريخ العلوم ، خرج بمذهب جديد مضى يدافع عنه ويبث مبادئه فى كتبه العديده، وفى مجليه اللتين اختارلهما اسمين مصريين.

سمى مذهبه **الانسية الجديدة** New Humanism ولعله من الواجب أن اعرف القارىء بالسبب فى اختيار هذا الاسم لمذهب تاريخي فى فلسفة العلوم ، ففى القرن الخامس عشر ، وتمهيدا للنهضة الاوربية Renaissance ، قامت حركة فكرية ناشطة أخذت تنمو وتذيع . وكان مدارها احياء الآداب القديمة التى خلفتها الحضارات السابقة ، وبخاصة حضارة اليونان وحضارة الرومان .. وكانت اضواؤهما قد خبت فى خلال عصر الظلام الذى استمر الف سنة ، اى منذ ان أغلق الامبراطور يوستنيانوس مدارس اثينا (٤٢٩م)، الى حدود القرن الخامس عشر . أطلق على هذه الظاهرة التاريخية اسم «الحركة الانسية» Humanism والمقصود من هذه التسمية ((**عودة العقل البشرى الى انسيته ، اى الى حريته باعتبار ان الانسان حر فى تفكيره وفى ضميره)) . ومن هنا كانت تسمية ((سارتون)) لمذهبه بالانسية الجديدة ، ان هذا المذهب تعقيب على المذهب القديم** ، يقصد به ان يصبح العلم قريبا من حياة الانسان واصلا من أصول الثقافة العامة ، بعد ان اعتزل العلم فى العصر الحديث ، وانتبذ بنفسه مكانا أبعده عن أن يكون ذا صلة بحياة الناس الفكرية .

أما تسمية هذا المذهب « بالانسية » فى لغتنا

العربية ، فنسبة الى « الانس » ، ومنه اشتق الانسان وتسب اليه فقيل الانسانية . وانما عدل عن استعمال كلمة الانسانية لان هذه تقابلها فى الانجليزية لفظة Humanity ومنها أخذ ما يسمى الآن مباحث الانسانيات Humanities ، وضرورة التفريق بين هذه المفهومات ، هى التى جعلتنا نصوغ لفظ « الانسية » للدلالة على اصطلاح : Humanism



ما هو السبب فى ان يعتزل العلم ، ويصبح مقصورا على طائفة خاصة من العلماء ، وتضعف صلته بالمعرفة العامة ، وأن كان وثيق الصلة بحياتهم الخاصة وبحياتهم الحضارية ؟

ويرجع السبب الى حالات اجتماعية وفكرية ، صبغت الفكر بصبغة جامدة خلال قرون عديدة . فان العقائد الرجعية ظلت تسيطر على حياة الفكر اكثر من عشرة قرون كوامل . وكانت مدينة القسطنطينية هى الموئل الذى آل اليه علماء اليونان وادباء الرومان ، بعد أن أغلق الامبراطور يوستنيانوس مدارس اثينة ، فى أوائل القرن الخامس الميلادى . فلما سقطت هذه المدينة فى يد العثمانيين — فى سنة ١٤٥٣ ميلادية — فرهؤلاء العلماء الى الغرب، وانتشروا فى جنوبى ايطالية ، واستوطنوا بعض مدنها .. ومنهم من هبط صقلية ، ومنهم من استوطن رومية ، وقد نقلوا معهم كل ما وصلت اليه أيديهم من ماثورات الفلسفة والآداب القديمة ، ومن ثمة أخذت اللغة اليونانية تنتشر وتستأثر بالمعرفة ، وبدأ اتصال الذهن الغربى بآداب اليونان والرومان القدماء مرة اخرى . وهنالك بدأت معركة فكرية بين العقائد

الرجعية وتلك الآداب ، واخذت تشتد وتقوى ، فكانت سببا فى تأليف محاكم التفتيش وبدء الاضطهاد الذى وقع فى براثنه كل متأدب أو عالم يحيد عن المأثورات الرجعية . وهذه الحركة الفكرية هى التى سميت بالحركة «الانسية» .

عندما نشطت الحركة العلمية فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، كان القمع الفكرى هو المهمة الأولى للسلطات السائدة ، وكانت الفكرة العلمية قد اتجهت نحو الاثبات التجريبى الاختبارى ، وبدأت فى صورة حركة سرية ، فانطوى العلماء على أنفسهم حذر المطاردة وابتغاء السلامة أن ينزل بهم جور أوعسف أوموت من غير اراقة قطرة دم ، أى بالحرق أحياء .

كان نشوء طريقة الاثبات التجريبى الاختيارى أول عهد للعلم باعتزال الحياة الفكرية للناس ، وانطوائه على تلك الطريقة ، فانفصل عن بقية المعارف الانسانية كالآداب والشعر والفن ، واختص بعالم وحده لا يشاركه فيه ضرب آخر من ضروب المعرفة . ومنذ ذلك العصر ورث العلم تلك الانطوائية ، بل ذلك الاعتزال الذى فصله عن الذهنية العامة فصلا يكاد يكون تاما .

ولما اشتد ساعد العلم وبدأ يتغلغل فى حياة الناس دون عقلياتهم ، حدث فراغ فى الثقافة ، سببه ان العالم أصبح جاهلا بآداب عصره ، والأديب جاهلا بعلوم عصره . **فما الذى يسد ذلك الفراغ ؟**

ذهب « جورج سارتون » ، وكان الرائد الأول فى هذا الباب ، الى أن ذلك الفراغ لايسده الا أن يصبح «تاريخ العلم» مادة أساسية من مواد الدراسات الجامعية . وفصل ذلك تفصيلا فى الفصل الرابع من كتابه « تاريخ العلم والانسية الجديدة » . ومضى ينفذ فكرته فى كتابه « تاريخ العلم » ،

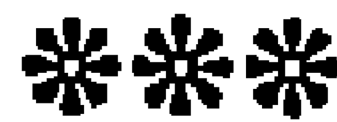
وفى فصول عديدة نشرها فى مجلة « ايزيس » ومجلة « أوزيريس » وفى محاضراته وندواته .

رأى « سارتون » ان انطوائية العلم واعتزال العلماء كان لهما سيئات أخرى ، أهمها تفكك سلسلة التطور فى تاريخ الفكر . فان العالم الذى لايعرف أن للمصريين القدماء وللبابليين والمسلمين جهود سابقة فى العلم ، ولا يدرك انه اذا استطاع ان يرى لأبعد مما رأى أسلافه ، فانما ذلك لانه يرى من فوق اكتافهم . هذا العالم يصبح منقطعا عن آداب عصره . والأديب الذى يجهل تطور الفكر العلمى على تتالى العصور ، أديب انقطع عن علوم عصره . **ومن هنا يحدث ذلك الفراغ الذى يعتبره « سارتون » من أكبر ما ترمى به الحضارة الحديثة من عوامل الانحلال** ، ويصبح الاكباب على دراسة تاريخ العلوم هو الرابطة التى توثق أطراف الحضارة الحديثة ، وتزيل تلك الفوارق التى كانت سببا فى تقاطع الامم ، وفى أن تنظر أمة أخذت بحظ من العلم ، الى أخرى اصابتها نكسة طارئة ، نظرة الاحتقار لماضيها وحاضرها ، مما كان سببا فى كثير من تلك الشرور والآثام التى عانت منها الانسانية ما عانت فى خلال ثلاثة القرون الفارطة من عمر الحضارة .

« من هنا يقول « سارتون » فى كتابه هذا :

من المندوب اليه أن نكون أحياء الضمائر ، مؤيدين للواجب . ولكن مما يبعث على أشد الأسى أن نكون منافقين مفتونين بذواتنا . وأخشى ان يكون بعض العلماء قد انطووا على نزعة نحو الافراط فى الكبر والتفاخر ، كما قامت الشواهد على ايغالهم فى الافتتان بأنفسهم بوصفهم طبقة معينة . لقد نزع بعضهم بحماقة الى مناجزة كل ما هو غير علمى من المناشط الأخرى ، فاوروا بذلك نار الخصومة تلقاءهم وكان يمكن

أن يتفادوا هذا الأمر ، لولا تلك النار التى اشعلوها . وفئة اخرى سلكت مسلك صبيان سكارى ، مضوا يهدمون كل ما خيل اليهم أنه خطأ أو لا عقلانى فى نظرهم ، فبرهنوا على أنهم حمقى مخربون ، وأنهم أشد غفلة وأثقل مسئولية من الاسطوريين عباد الاصنام . **ومثل هذه الحماقات هى من الحطة والخسة فى الدرك الأسفل . غير انه من المتعذر ان تهجر بتة** . فالحقيقة ان رجل العلم لا الزام عليه أن يكون عاقلا . فان ذهنه قد يكون حادا لامعا ، ولكن ضيق الافق . وقد يكون قادرا على أن يخترق حجب الاسرار المستورة عن كل من عداه ، فيبرهن — فى هذه الناحية — على براءة ذكائه وفراهته . ومع هذا فقد يكون بليدا فى جميع النواحى الاخرى . وواجب علينا ان نعترف ان كثيرا من رجال العلم قد يبدو فيهم نقائص فى التربية ، لامحالة تثير أولئك الذين يتخذونهم هزؤا أو هدفا لاحتقارهم ، والقرين قد يتفق أن يكونوا أكثر تحضرا منهم . »



يرى الاستاذ « سارتون » — ورأيه الحق — أن تاريخ المعرفة الانسانية أشبه بتاريخ فرد واحد ، كان مضغة ثم جنينا ثم طفلا شب وتفتى فصار رجلا بلغ أشده واستوى . ويقوم على هذا التشبيه حقيقة ظلت مطوية عن العلماء عصورا ، وما تزال مطوية عنهم فى عصرنا هذا ، **أما الخروج عن هذه الانطوائية فليس لها غير سبيل واحد هو الالمام بتاريخ المعارف والعلوم الانسانية بحيث تصبح جزءا أساسيا من برامج التعليم الثانوى والجامعى** ، وأن يشترك فى تلقيه جميع الذين تضمهم الكليات العليا نظرية وعملية ، حتى يتحقق بذلك تكوين ثقافة موحدة تؤدى رسالة عليا ، هى

رسالة التقريب بين الأمم ، والوقوف على مراتب التدرج في الفكر الانساني . وبذلك تقوم الحضارة على اسس ثابتة تقيها شر الانقسام والتفرقة ، وتكون حائلا منيعا ان يصيبها ما أصاب غيرها من انحلال وفساد .

يقول « سارتون » : « من الحقائق المؤسية ، ان كثيرا من رجال العلم لايستندون الى ميراث من ثقافة الماضي ، فتراهم ينفرون من النظر الى الوراء . وان هذه لدائرة حرجة . فلماذا هم ينظرون تلك النظرة ، اذا لم يكن فيها من شيء ينظرونه ؟ ومعرفتهم بتاريخ العلم لا ترتد لأبعد من القرن السابع عشر . وبعد : **نقول انهم من حيث هذا مفرطون في الخطأ . فان النتائج الكبرى لم يحصل عليها العلم في العصر الحديث ، الا بسبب انها النتائج الاخيرة** . غير ان هذه النتائج لم تصبح مستطاعة الا بجهد وسابقة بذلت . »

ومن ثمة يذهب سارتون الى أن الوقوف على بدايات العلم ومعرفة الأطوار التي مر بها الفكر الانساني ، لاتقل جلالا ولا فائدة من دراسة العلم نفسه ، لان في كل علم من العلوم الحديثة بذور فرخها أسلافنا في الذهن الانساني ، واليها ترجع الثمرة الأخيرة التي نجنيها في القرن العشرين . وهو يمثل لذلك بقائد يرسل احدى كتائبه لمهاجمة العدو في مكان بعيد عن مستقر الجيش . انه يعلم ان هذه الكتيبة سوف تهلك جميعا ، ولكن ذلك يمكنه من ان يفوز بهدفه الرئيسي . وتنفذ الخطة كما رسمها القائد ، ويتجدد الامل الضائع ، ويهزم الجيش العدو ويمزقه شر ممزق . وهنا يتساءل سارتون : **هل انهزم رجال الكتيبة التي ضحى بها أم انتصروا ؟** .. اما اذا قصرنا النظر على الكتيبة بوصفها وحدة مستقلة ، فانها انهزمت شر منهزم . اما اذا اعتبرناها

جزءا من الجيش كله فلا شك فى انها تكون قد شاركت فى الانتصار .

ويذهب « سارتون » الى أن وجهة النظر الثانية هى الصحيحة . ذلك بان رجال الكتيبة لم يقتصر أمرهم على انهم جزء من الجيش المنتصر ، بل ان التضحية بهم هى التى انتزعت الانتصار من براثن الموت . انهم لم ينتصروا وحسب ، لقد كانوا نواميس الانتصار وابطاله .

وكم من كتائب من المفكرين قد أكلهم الزمن وأسدلت عليهم ستور النسيان ، مع انهم أولئك الذين وضعوا أساس النصر الذى نجنى نحن ثماره فى هذا العصر ، وسيجنى ثماره جميع الذين سوف يأتون من بعدنا . **واذن ينبغى لنا أن نتقصى تقاليدنا ومأثوراتنا الانسانية ، غير مستثنين تلك المأثورات العظيمة التى نقلت الينا معرفة القدماء وحكمتهم وتقاليدالعصور الوسطى وكل القرون السابقة على عصرنا .** يجب علينا أن نعرف أولئك العظماء الذين أورثونا ماورثنا . وما من شىء هو أدعى الى فخرنا وشموخنا من تلك الموروثات التى منها يتألف لباب ثقافتنا ، وجوهر قلوبنا وأرواحنا .

يقول « سارتون » : « ان دراسة التاريخ وبخاصة العلم ، يمكن الا يقتصر على انها نبع الحكمة الانسانية ، بل نتخذها هاديا ومرشدا ومقوما لضمائرنا . انها تساعدنا على أن نكون متواضعين غير مغالين ولا نازعين لكبرياء تلقاء انتصاراتنا ، وان نظل شاكرين آملين عاملين بهدوء وهوادة فى سبيل انجاز واجبنا . »

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

« كانت ايطاليا كلها قد رفعت الاعلام البيضاء ، مسلمة لملك فرنسا وجنوده .. كان امراؤها قد باعوها ، فى سبيل أطماعهم !.. ودخل الفرنسيون (روما) ذاتها ، معقل البابا ، وقيل ان البابا ذاته يوشك ان يعزل عن منصبه ..

« وفجأة ، تجاوبت فى ايطاليا انباء اتفاق البابا والملك .. وامام هيأة من الكرادلة والسفراء والامراء ، **تقدم ملك فرنسا ، فوقف أمام العرش البابوى .. ثم سجد فى خضوع ، عند قدمى البابا !**

« وعندما آن لملك فرنسا ان يرحل ، كان فى ركابه ابن البابا ، مندوبا عن ابيه — فى الظاهر — ورهينة فى الواقع .. وعندما استيقظ الملك ، فى صباح ثالث ايام الرحلة ، كان الكردينال الشاب قد اختفى ! »

• • • • • • •

امثلة من اروع المؤامرات والدسائس والمغامرات ، فى ميادين السياسة والحرب والحب .. فى عهد من اظلم العهود التى مرت على ايطاليا .. تطالعها فى :

مطبوعات كتابى

تصدر بعد ايام .. فاحجز نسختك مع الباعة من الآن